GIVE ME LIBERTY!



اعطني حريتي!

ملحمة التاريخ الأمريكى المستمرة

تأليف: اريك فونر

ترجمة: بدران حامد

GIVE ME LIBERTY !

ERIC FONER

اعطنى حريتى!

الحرية مطلب شعبى

منذ قديم الازل فالحرية للانسان مثل الماء والهواء وتشدو أم كلثوم برائعتها الاطلال اعطنى حريتى أطلق
يدىأه قيدك أدمى معصمى و حتى فى الحب مطلوب الحرية وأن كانت القيود من ذهب فهى قيود على العب
وهذا الكتاب يؤرخ تاريخ الحريات التى طالب بها المجتمع الامريكى وهو كتاب أكاديمى يدرس فى المدارس
والجامعات ويقتنية السياسيين ورجال الدولة وننشر هذا الكتاب لاهميتة فى نشر الحرية فى العالم ولا
المطالبة بالحرية لها ثمن تقدمة الشعوب والذى نريد أن نؤكد علية أن للحرية حدود ولا توجد حرية مطلقة و أر
الحفاظ على الحرية يحتاج الى يقظة أبدية.

الناشر

محمد وفائى


ISBN 9789772824342



International House for Cultural Investments Cairo, Egypt

الدار الدولية
للاستثمارات الثقافية ش.م.م

Give Me Liberty
An American History
Eric Foner

أعطني حريتي
ملحمة التاريخ الأمريكي المستمرة
إيرك فونر

This book is published in collaboration with the Arabic Book Program (ABP), U.S. Embassy Cairo. ABP works with Egyptian publishers to translate and publish books that reflect .U.S. culture and values

رقم الإيداع: 2015/8593

ISBN: 978-977-282-434-2

تنويه:
إن مادة هذا الكتاب والأفكار المطروحة به تعبر فقط عن رأي الكاتب أو المؤلف لهذا الكتاب ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ش.م.م
122 عثمان بن عفان - الكلية الحربية - مصر الجديدة - القاهرة - مصر
ص.ب: 5599 هليوبوليس غرب/القاهرة - مصر
تليفون 27749112 - 27749113 (00202) فاكس: 27748123 (00202)
بريد إليكتروني: sales@ihciegypt.com ، info@ihciegypt.com
الموقع الإليكتروني: www.ihciegypt.com

International House for cultural Investment S.A.E
122 Osman Ebn Affan St.Heloipolis, Cairo
P.O.Box:5599 Heliopolis West, Cairo, Egypt
Telephone: (00202) 27749113 - 27749112
E-mail: info@ihciegypt.com
Website: www.ihciegypt.com

دار الكتب المصرية (فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية)

أعطني حريتي! : ملحمة التاريخ الأمريكي المستمرة/فونر - إيرك،
ترجمة: بدران حامد - القاهرة : الدار الدولية للاستثمارات الثقافية - ٢٠١٥ ،
٧٠٦ ص
٢١ × ٣٠ سم
تدمك: ٢-٤٣٤-٢٨٢-٩٧٧-٩٧٨
١- الولايات المتحدة الأمريكية - تاريخ
٢- الحرية
٩٧٣
رقم الإيداع: ٢٠١٥/٨٥٩٣

أعطني حريتي!

ملحمة التاريخ الأمريكي المستمرة

إيرك فونر

من أجل والدتي،

ليزا فونر (1909-2005)،

فنانة بارعة عاشت معظم القرن العشرين

وامتد بها الأجل إلى القرن الحادي والعشرين.

المحتويات

مُقَدِّمَة

يمثل كتاب أعطني حريتي! مسحًا للتاريخ الأمريكي منذ الأيام الأولى لحملات الاستكشاف والغزو الأوروبي للعالم الجديد وحتى السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين؛ حيث يقدم للطلاب سردًا مختصرًا وواضحًا ينصب مبحثه الرئيسي على الحدود المتغيرة للحرية الأمريكية.

إنني في غاية الرضا حول ما وصلني من تعقيبات على الطبعتين الأولتين من كتاب أعطني حريتي!، والتي تم استخدامهما في الدورات الدراسية البحثية في المئات من الكليات بنظام العامين والأربعة أعوام وكذلك الجامعات في شتى أنحاء البلاد؛ وقد شجعتني التعقيبات التي تلقيتها من المعلمين والطلاب على الاعتقاد بأن كتاب أعطني حريتي! قد حقق نتائج ناجحة في فصولهم الدراسية؛ كما أن تعقيباتهم قد تضمنت أيضًا الكثير من الاقتراحات القيِّمة فيما يتعلق بالمراجعات والتنقيح، والتي أكن لها عظيم التقدير؛ وتراوحت هذه التعقيبات بين التصحيحات المتعلقة بالأخطاء المطبعية والوقائع، وحتى الأفكار حول الموضوعات التي كانت تحتاج إلى المزيد من المعالجة الموسعة؛ وخلال القيام بمراجعة وتنقيح هذه الطبعة الثالثة، حاولت أن آخذ هذه الاقتراحات بعين الاعتبار؛ كما أنني أضفت أيضًا النتائج والرؤى الخاصة بالدراسات والأبحاث الحديثة التي ظهرت منذ كتابة الطبعة الأولى.

إن أهم التغييرات التي تتضمنها هذه الطبعة الثالثة تعكس مدى رغبتي في وضع التاريخ الأمريكي بصورة أكثر اكتمالاً في سياق عالمي؛ وبالطبع، فإن الكتاب يظل بمثابة دراسة للتاريخ الأمريكي وليس تاريخ العالم، غير أنه خلال السنوات القليلة الماضية، كان العلماء، الذين يكتبون حول التاريخ الأمريكي في الماضي، يحاولون أن يحددوا طبيعة علاقات وتأثيرات الولايات المتحدة على بقية العالم، بالإضافة إلى التطورات العالمية التي ساعدت على تشكيل مجرى الأحداث هنا على أرض الوطن؛ لقد كرسوا أيضًا قدر أكبر من الاهتمام للأحداث التي وقعت خارج حدود الوطن - ألا وهي توسع الإمبراطوريات، وحالات الهجرة الدولية بحثًا عن العمل، وظهور وسقوط العبودية، وعولمة المشاريع الاقتصادية - والتي لا يمكن أن يتم فهمها بشكل منفرد ضمن نطاق الحدود القومية لأمة واحدة؛ وبدون السعي بأي طريقة ما لإضفاء التجانس على التاريخ المتعلق بالأمم فرادي أو تجاهل القوى الداخلية التي شكَّلت التطور

الأمريكي، حيث تعكس الطبعة الثالثة هذا التأكيد الحديث في الكتابات التاريخية الأمريكية؛ ويمكن ملاحظة هذه التغييرات البسيطة المتعلقة بهذا المبحث في كل محتويات الكتاب؛ وتتمثل الإضافات الرئيسية، التي تسعى لتوضيح السياق العالمي للتاريخ الأمريكي، فيما يلي:

يتضمن الفصل الرابع مناقشة موجزة حول الكيفية التي حدثت بها الصحوة الكبرى في المستعمرات الأمريكية خلال فترة انتشار الأصولية الدينية بشكل متزايد في مناطق كثيرة من العالم. أما بالنسبة للفصل الخامس، فقد أصبح يخصص مزيدًا من الاهتمام حول التأثير الدولي لإعلان الاستقلال الأمريكي، بما في ذلك الكيفية التي تشبث بها شعوب المستعمرات الساعين للاستقلال الوطني، والمجموعات التي شعرت بأنها مجردة من الحقوق المتساوية يتمسكون بنص الإعلان من أجل تحقيق غاياتهم الخاصة. أما الفصل الثامن فيناقش الكيفية التي أثرت بها ثورة العبيد في "سانت دومينج" - والتي أسست جمهورية هايتي السوداء- على تفكير كل من الأمريكيين البيض والسود في أوائل القرن التاسع عشر؛ كما يتضمن الفصل أيضًا قسمًا جديدًا حول الحروب ضد البرابرة، والتي تعد أول مواجهة مسلحة بين الولايات المتحدة والدول الإسلامية.

أما في الفصل العاشر، فقد أضفت قسمًا جديدًا يناقش ردود الفعل في الولايات المتحدة تجاه حروب الاستقلال في أمريكا اللاتينية في أوائل القرن التاسع عشر، وأوجه التشابه والاختلاف بين هذه الصراعات وبين حربنا من أجل الاستقلال. أما بالنسبة للفصل الحادي عشر فيتضمن قسمًا جديدًا يناقش إلغاء العبودية في كافة أرجاء نصف الكرة الغربي، وكيف أثرت عواقب تحرير العبيد في المناطق الأخرى على الجدل الدائر حول العبودية في الولايات المتحدة. أما بالنسبة للفصل الثالث عشر فيقارن التهافت على جمع الذهب في كاليفورنيا مع نتائج اكتشاف الذهب في أستراليا في نفس الوقت، كما يضيف أيضًا مناقشة حول "انفتاح" اليابان على التجارة الأمريكية في الخمسينيات من القرن التاسع عشر؛ وفي الفصل الرابع عشر، أضفت إلى مناقشة موضوع الحرب الأهلية مقارنة لآثارها التدميرية مع آثار الصراعات الأخرى التي جرت خلال تلك الحقبة، بالإضافة إلى دراسة حول الطريقة التي عكس بها توحد السلطة والقوى الوطنية في الولايات المتحدة حراكًا دوليًا كان قد بدأ في نفس الوقت في البلدان الأخرى؛ في ذلك الفصل أيضًا، وبما يعكس النتائج التي توصلت لها الدراسات والأبحاث الحديثة، هناك مناقشات حول تأثير الحرب على العقيدة الدينية الأمريكية وعلى الأمريكيين الأصليين. أما الفصل الخامس عشر، فيتناول حقبة الإعمار، وعقد مقارنة بين عواقب إلغاء العبودية في الولايات المتحدة مع النتائج الخاصة بذلك في الأماكن الأخرى التي تم فيها إلغاء نظام العبودية.

في الفصل السادس عشر، هناك قسم جديد يضع حركة الاتجاه غربًا في الولايات المتحدة في سياق حركة الاستيطان في المناطق الحدودية للبلدان الأخرى، بداية من الأرجنتين إلى أستراليا وجنوب إفريقيا، ويناقش العواقب الخاصة بذلك بالنسبة للسكان الأصليين في هذه المجتمعات. يتناول الفصل السابع عشر امتلاك الولايات المتحدة الأمريكية لإمبراطورية عالمية كنتيجة للحرب الأمريكية الإسبانية، ويشتمل كذلك على قسم جديد حول قضية التمييز العنصري- التطور الدولي للسياسات القومية الرامية إلى ضمان تفوق وسيادة العنصر الأبيض. أما في الفصل التاسع عشر، فقد قمت بتدعيم المناقشة حول آثار الحرب العالمية الأولى عن طريق دراسة التأثير العالمي لبيان الرئيس "وودرو ويلسون" حول حق تقرير المصير الوطني، والشعور بخيبة الأمل عندما لم يتم تطبيق هذا المبدأ على المستعمرات الإفريقية والآسيوية التابعة للإمبراطوريات الأوروبية. أما بالنسبة للفصل الثاني والعشرين، فقد أصبح يتضمن قسمًا حول الطبيعة الأممية للسود- كيف جعلت الحرب العالمية الثانية الكثيرين من الأمريكيين السود يطابقون حملتهم من أجل الحصول على الحقوق المتساوية مع الكفاح والنضال من أجل الحصول على الاستقلال الوطني من جانب الشعوب التي كانت تحت الاستعمار في مناطق أخرى من العالم. أما بالنسبة للفصل الثالث والعشرين، فقد قمت بتوسيع المناقشة حول فكرة حقوق الإنسان لكي نوضح بعض جوانب الغموض التي تكتنف هذا المفهوم، حيث ظهر كمبحث رئيسي لدائرة الخلاف والجدل الدولي بعد الحرب العالمية الثانية؛ وهناك قسم جديد في الفصل الرابع والعشرين يدور حول رد الفعل الدولي إزاء نظام الفصل العنصري الأمريكي، وإزاء التأجج الثوري الذي أحدثته حركة الحقوق المدنية في الخمسينيات من القرن العشرين؛ وقد قمت بتدعيم طريقة تناول فترة الستينيات من خلال إضافة مناقشة للوضع العالمي في عام 1968- كيف وقعت الأحداث في الولايات المتحدة خلال ذلك العام المضطرب في نفس الوقت الذي حدثت فيه انتفاضات شبابية في مناطق أخرى كثيرة من العالم.

أما في الفصل الثامن والعشرين، والذي يمثل الفصل الأخير في الكتاب، فقد قمت بشكل واضح بتوسيع التغطية المتعلقة بالسنوات القليلة الماضية للتاريخ الأمريكي، بما في ذلك انتخاب "باراك أوباما"، أول رئيس للأمة من أصل إفريقي، وكذلك الجدل المستمر حول العلاقة بين الحرية وبين الأمن في سياق الحرب العالمية على الإرهاب، والأزمة الاقتصادية العالمية التي بدأت في عام 2008.

وكما جاء في الطبعة الثانية، يمكن أن نلاحظ أن الأقسام الخاصة بأصوات الحرية والمتضمنة في كل فصل من فصول الكتاب أصبحت تشتمل على وثيقتين؛ وقد قمت بتغيير عدد منهم لكي

أعكس التأكيد الجديد على السياق العالمي للتاريخ الأمريكي؛ وقمت أيضًا بمراجعة قائمة المراجع الموجودة في نهاية الفصل من أجل توضيح الدراسات والأبحاث الحالية؛ كما أضفت المراجع الخاصة بالمواقع الإلكترونية التي تحتوي على الصور والوثائق الرقمية المرتبطة بموضوعات الفصل.

تقدم هذه الطبعة الثالثة أيضًا بعض القسمات الجديدة، منها مبحث "رؤى الحرية"، ويعد مماثلاً لمبحث مقتطفات من وثيقة أصوات الحرية، والذي ثُبتَ أنه مفيد لكل من المعلمين والطلاب، حيث يقوم في كل فصل بالتركيز على صورة تلقى مزيدًا من الضوء على فهم الحرية. إنني أعتقد أن دراسة هذا المبحث من خلال كل من الأدلة المرئية والمكتوبة يساعد الطلاب على تقييم الكيفية التي تغيرت بها مفاهيمنا عن الحرية على مدار التاريخ الأمريكي. تتضمن قسمات "رؤى الحرية" ملخصًا وأسئلة تشجع الطلاب على التفكير بصورة نقدية حول الصور.

قمت أيضًا بمراجعة وتنقيح منهجية عرض المادة الدراسية في هذا الكتاب؛ من أجل تقديم مزيد من الإرشاد والتوجيه للطلاب خلال دراستهم لفصول الكتاب؛ كما قمت كذلك بتزويد الصفحات الخاصة بالمراجعة الموجودة في نهاية الفصول بأسئلة مراجعة إضافية، بالإضافة إلى مجموعة جديدة من الأسئلة حول مبحث الحرية. إن الهدف من منهجية دراسة المادة يتمثل، كما هو دائمًا، في تقديم الإرشادات اللازمة للطلاب خلال دراستهم للمادة بدون الحاجة إلى طريقة العرض.

لقد أضفت أيضًا صور جديدة في كل فصل من أجل توسيع عملية العرض المرئي للأفكار والشخصيات الرئيسية الموجودة في النص؛ وأنني أعتقد أن هذه التغييرات في مجملها تدعم الهدف الخاص بكتاب "أعطني حريتي!": والذي يتمثل في تزويد الطلاب بمقدمة واضحة ومختصرة وغنية بالمباحث المختلفة حول التاريخ الأمريكي.

لطالما كان لدى الأمريكيين دائمًا موقف منقسم تجاه التاريخ؛ فمن ناحية، هم يميلون إلى كونهم يحملون توجهًا نحو المستقبل بشكل ملحوظ، صارفين النظر عن الأحداث التي وقعت في الماضي القريب وكأنها "تاريخ قديم"، وفي بعض الأحيان ينظرون إلى التاريخ على أنه عبء يجب التغلب عليه، كسجن يجب الهروب منه؛ ومن ناحية أخرى، مثل كثير من الشعوب الأخرى، ينظر الأمريكيون دائمًا للتاريخ كمعنى يرتبط بهوية شخص أو مجموعة ما، وكذلك بالترابط والتماسك الوطني؛ وهذا هو السبب الذي يجعل الكثير من الأمريكيين يكرسون وقتًا وطاقة لتتبع أشجار عائلاتهم، وكذلك السبب وراء زيارتهم للمتاحف التاريخية والمواقع التاريخية التابعة للمنتزه الوطني بأعداد متزايدة بشكل متواصل. إنني أتمنى أن يقنع هذا الكتاب القراء بمختلف درجات اهتمامهم بأن التاريخ يمثل أمرًا مهمًا بالنسبة لهم.

لقد ذكر الروائي وكاتب المقالات "جيمس بولدوين" ذات مرة أن التاريخ "لا يشير فقط، أو حتى في الأصل، إلى الماضي؛ بل على النقيض، تنبع القوة العظمى للتاريخ من الحقيقة التي توضح أننا نحمله بداخلنا، ...وأن التاريخ يعد بالمعنى الحرفي موجودًا وحاضرًا في كل ما نقوم به من أفعال"؛ وكما أشار "بولدوين"، فإن قوة التاريخ تعد واضحةً في عالمنا، ولا سيما في الديموقراطية السياسية مثل الولايات المتحدة، والتي تتشكل حكومتها بطريقة تعتمد على موافقة المواطنين المستنيرين، ومعرفة الماضي تعد أساسية وضرورية- ليس فقط بالنسبة لأولئك الذين يعملون بمهنة تدريس وكتابة التاريخ- وإنما بالنسبة للجميع؛ ولا ريب أن التاريخ، لكي نكون على يقين، لا يقدم فقط دروسًا أو إجابات فورية للقضايا الراهنة؛ حيث إن معرفة التاريخ المتعلق بالهجرة إلى الولايات المتحدة، بالإضافة إلى جميع التوترات، والاضطرابات، والتطلعات المصاحبة لها، على سبيل المثال، لا يبين لنا ما الذي يمكن أن تكون عليه سياسة الهجرة الحالية؛ غير أنه بدون تلك المعرفة، لا يكون لدينا طريقة لفهم وإدراك أي المناهج قد أتت بثمارها وأي منها لم يفلح- أي المعلومات الأساسية اللازمة لصياغة السياسة العامة في المستقبل.

إن التاريخ، كما يقال، يمثل ما يختار الحاضر أن يتذكره عن الماضي؛ وبدلاً من أن يمثل مجموعة ثابتة من الحقائق، أو جملة من التفسيرات التي لا يمكن الطعن فيها، فإن فهمنا للتاريخ يتغير بصورة مستمرة؛ وليس هناك شيء غير مألوف في حقيقة أن كل جيل يعيد كتابة التاريخ لكي يتوافق مع احتياجاته الخاصة، أو أن العلماء يختلفون فيما بينهم حول قضايا رئيسية، مثل أسباب الحرب الأهلية أو الأسباب التي أدت إلى الكساد العظيم؛ وهذا يرجع بالتأكيد إلى أن كل جيل يطرح أسئلة مختلفة حول أحداث الماضي، وأن كل جيل يقوم بصياغة إجابات مختلفة لتلك الأسئلة؛ لقد شهدت الثلاثون عامًا الماضية توسعًا ونموًا ملحوظًا في نطاق الدراسة التاريخية، حيث لاقت التجارب المرتبطة بالمجموعات التي تجاهلها العلماء الأوائل- وهي تتضمن النساء، الأمريكيين الأفارقة، والعمال، وغيرهم- اهتمامًا غير مسبوق من جانب المؤرخين؛ وكذلك اتخذت المجالات الفرعية- مثل التاريخ الاجتماعي، والتاريخ الثقافي، وتاريخ العائلات من بينها- مكانتها بين التاريخ الدبلوماسي والسياسي التقليدي.

يستمد كتاب "أعطني حريتي!" أفكاره من هذا الأدب التاريخي الضخم من أجل أن يقدم نسقًا حديثًا وشاملاً لأحداث الماضي الأمريكي، موجهًا المزيد من الاهتمام الضروري لتجربة المجموعات المتنوعة من الأمريكيين، في حين أنه لا يتجاهل على الإطلاق الأحداث والمراحل التي مر بها الأمريكيون بشكل عام؛ إنه يكرس أيضًا اهتمامًا بالغًا للتاريخ الاقتصادي، والثقافي، والاجتماعي، والسياسي، وما يرتبط بها من مجالات. يجمع السرد التاريخي بين الأحداث

الرئيسية الهامة وبين القادة البارزين، بالإضافة إلى الكثير من المجموعات من الأشخاص العاديين الذين يشكلون بنية المجتمع الأمريكي. ويتمتع كتاب 'أعطني حريتي!' بطاقم غني وخصب من الشخصيات، بداية من 'توماس جيفرسون' وحتى مسؤولي حملات حق التصويت للنساء، ومن 'فرانكلين دي. روزفلت' وحتى العبيد الأوائل الذين كانوا يسعون للوصول إلى التحرر من العبودية خلال وبعد الحرب الأهلية.

حيث إن كتاب 'أعطني حريتي!' موجه لجمهور من الطلاب الجامعيين الذين لديهم معرفة ضئيلة أو غير تفصيلية عن التاريخ الأمريكي، فهو يأخذ بيدي القراء عبر تعقيدات الموضوع بسلاسة وبدون أن يرهقهم بالتفاصيل المفرطة؛ كما أن تبني مبحث الحرية كمبحث موحد يتم تناوله خلال النص يضفي طابعًا على السرد التاريخي، ويربط بين الخيوط الكثيرة التي تشكل محتوى التجربة الأمريكية. إن هذا المنهج قائم على المنهج الخاص بكتابي السابق تحت عنوان 'قصة الحرية الأمريكية' (1998)، على الرغم من أن كتاب 'أعطني حريتي!' يحدد الأحداث والشخصيات الموجودة في الطليعة، كما أنه أكثر تلاؤمًا مع بنية مسار الدراسة التمهيدية.

إن مبحث الحرية، والمعارك التي تحدد مغزاها، يمثل عنصرًا رئيسيًا لدراساتي وأبحاثي وتدريسي لطلاب المرحلة الجامعية، والذي يركز على القرن التاسع عشر، ولا سيما فترة الحرب الأهلية وإعادة الإعمار (1850-1877)؛ حيث كانت تمثل هذه الفترة الوقت الذي كانت تمزق فيه العبودية أوصال الأمة وأدت فكرة تحرير العبيد إلى نشوب جدال داخلي حول طبيعة الحقوق التي يجب أن يتمتع بها العبيد السابقين، وجميع الأمريكيين أيضًا، كمواطنين أحرار؛ لقد وجدت أن الاهتمام بالتعريفات المتعارضة للحرية وحركات النضال المرتبطة بمجموعات مختلفة، من أجل تحقيق الحرية كما كان يدركونها، يقدم وسيلة لفهم طبيعة المعارك المريرة والتحولات الضخمة لتلك الحقبة المحورية؛ إنني أعتقد أن نفس الشيء يعد صحيحًا بالنسبة للتاريخ الأمريكي برمته.

ليست هناك فكرة أكثر جوهريةً بالنسبة لإدراك الأمريكيين لأنفسهم كأشخاص وكأمة في الوقت ذاته من فكرة الحرية. إن المصطلح الرئيسي في لغتنا السياسية، الحرية أو حق الاختيار الذي دائمًا ما يستخدم تقريبًا على نحو متبادل معها، مترسخ بعمق في سجلات تاريخنا ولغة الحياة اليومية؛ حيث يذكر إعلان الاستقلال الحرية بين الحقوق الأصيلة للجنس البشري، وينص الدستور على أن الهدف من وجوده يتمثل في تحقيق وصون نعمة الحرية؛ لقد خاضت الولايات المتحدة الحرب الأهلية من أجل تحقيق ميلاد جديد للحرية، والحرب العالمية الثانية من أجل الحريات الأربعة، والحرب الباردة لكي تدافع عن العالم الحر؛ لقد تجسد حب الأمريكيين للحرية

في سارية الحرية، وقلنسوة الحرية، وتماثيل الحرية، وتمثل أيضًا في حرق الطوابع وحرق بطاقات التجنيد، وعن طريق الفرار من العبودية، وعن طريق التظاهر من أجل الحصول على حق التصويت؛ وقد كتب المربي والسياسي "رالف بونشي" في عام 1940، معبرًا عن ذلك بقوله: "كان جميع من في الشارع، الأبيض، والأسود، والأحمر، أو الأصفر، يعلمون أن هذه هي أرض الأحرار،...ومهد الحرية".

بيد أن عمومية فكرة الحرية يمكن أن تكون مضللة، حيث إن الحرية ليست مقولة ثابتة وأبدية ذات تعريف واحد لا يتغير؛ وبالفعل، فإن تاريخ الولايات المتحدة، في جزء منه، يمثل قصة مليئة بالمجادلات، والخلافات، والصراعات من أجل الحرية؛ وأن الأزمات مثل الثورة الأمريكية، والحرب الباردة قد حولت بشكل دائم فكرة الحرية، كما كانت هناك أيضًا مطالب من قبل مجموعات مختلفة من الأمريكيين للحصول على المزيد من الحرية. إن معنى الحرية قد تشكل ليس فقط من خلال المناقشات البرلمانية والدراسات والأبحاث السياسية، وإنما أيضًا في المزارع وبين صفوف المعتصمين، وفي الردهات وحتى في غرف النوم.

لقد كانت الحرية الأمريكية، على مدار تاريخنا، تمثل كل من الواقع والمفهوم المثالي الأسطوري- كحقيقة حية بالنسبة لملايين الأمريكيين، وتهكم قاسي بالنسبة للآخرين؛ وبالنسبة للبعض، كانت الحرية تعني ما يطلق عليه بعض العلماء "عادة القلب"، وكمفهوم مثالي من المفترض أن يتم معايشته ولكنه نادرًا ما يتم تحليله؛ وبالنسبة للبعض الآخر، فإن الحرية لا تمثل حقًا مكتسبًا عند مولد الإنسان وإنما هدفًا بعيدًا يبعث على بذل تضحيات عظيمة.

يلفت كتاب "أعطني حريتي!" الانتباه إلى الأبعاد الثلاثة للحرية والتي كانت هامة وجوهرية في التاريخ الأمريكي: (1) معاني الحرية؛ (2) الظروف الاجتماعية التي جعلت من الحرية أمرًا ممكنا؛ و (3) حدود الحرية التي تحدد هوية من يملك الحق في الاستمتاع بالحرية ومن لا يملك ذلك الحق؛ والتي قد تغيرت جميعًا بمرور الوقت.

فعلى سبيل المثال، خلال فترة الثورة الأمريكية، كانت الحرية تمثل بشكل رئيسي مجموعة من الحقوق التي يمكن ممارستها في الأنشطة العامة- حق المجتمع في أن يتم إدارته من خلال القوانين التي وافق عليها ممثليه، وكذلك حق الأفراد في ممارسة الشعائر الدينية بدون تدخل من النظام الحاكم؛ وفي القرن التاسع عشر، أصبحت الحرية مرتبطة بصورة وثيقة بالفرصة المتاحة لكل شخص في تنمية مواهبه الفطرية إلى أقصى درجة؛ وفي القرن العشرين، أصبحت "القدرة على الاختيار" في كل من نواحي الحياة العامة والخاصة، بمثابة الفهم السائد تقريبًا للحرية؛ وقد لاقى هذا التطور تشجيعًا من خلال النمو الهائل والمُدَوِّي للأسواق الاستهلاكية (ويحظى هذا

التطور باهتمام ملحوظ في كتاب 'أعطني حريتي!)، والتي وفرت للأمريكيين مجموعة غير مسبوقة من السلع تلبي احتياجاتهم ورغباتهم؛ وخلال الستينيات من القرن العشرين، والذي يمثل أحد الفصول الهامة في تاريخ الحرية الأمريكية، اتسعت فكرة الحرية الشخصية حتى وصلت بالفعل لكل مجال من مجالات الحياة، بداية من الملابس ونمط الحياة وحتى العلاقات بين الجنسين؛ وهكذا، وبمرور الوقت، أصبح المزيد والمزيد من مجالات الحياة يدخل إلى بؤرة مناقشات الأمريكيين حول معنى الحرية.

ويركز البعد الثاني الهام للحرية على الظروف الاجتماعية اللازمة من أجل أن تنتعش الحرية وتزدهر. ما هي أنواع المؤسسات الاقتصادية والعلاقات التي تشجع بصورة أمثل على الحرية الفردية؟ وخلال الحقبة الاستعمارية ولمدة ما يزيد عن قرن من الزمان بعد الاستقلال، كانت الإجابة تتمركز حول الاستقلال الاقتصادي، متمثلاً بقدسية في تمجيد صغار المنتجين المستقلين- المزارع، الحِرَفِيِّ الماهر، أو صاحب محل تجاري- والذي لم يكن يتعين عليه أن يعتمد على شخص أخر في كسب قوته؛ وعندما أصبح الاقتصاد الصناعي ناضجًا ومكتملا، ظهرت في المقدمة مفاهيم جديدة للحرية الاقتصادية: 'حرية التعاقد' في عصر تراكم الثروة المكسب للنفوذ بعد الحرب الأهلية، 'الحرية الصناعية' (أحد الأقوال في مجال صنع القرار الخاص بالشركات) خلال حقبة السعي للتقدم، والأمن الاقتصادي خلال فترة النيوديل (بمعنى إعادة التوزيع)، سياسة الانعاش الاقتصادي التي أدخلها عام 1933 الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت)، وفي الوقت الأكثر حداثة، القدرة على الاستمتاع بالاستهلاك الجماعي ضمن نطاق اقتصاد السوق.

لقد أشعلت حدود الحرية، البعد الثالث في هذا المبحث، بعضًا من أشد وأعنف الصراعات في التاريخ الأمريكي؛ وعلى الرغم من قيامها على المقدمة المنطقية التي ترى أن الحرية تمثل حق واستحقاق للبشرية جمعاء، إلا أن الولايات المتحدة على مدار الكثير من تاريخها قد جَرَّدت وحرمت الكثير من شعبها من الحرية؛ حيث إن الكثيرين من غير البيض نادرًا ما حصلوا على نفس القدر من الحرية مثل الأمريكيين البيض. إن الإيمان بالحق في الحصول على فرص متكافئة، كحق مكتسب بالمولد بالنسبة لجميع الأمريكيين، قد تعايش مع الجهود المتواصلة للحد من الحرية حسب الجنس، والنوع، والطبقة الاجتماعية، وبطرق أخرى أيضا.

وربما يكون من الأقل وضوحًا هنا، حقيقة أن حرية شخص واحد تعد مرتبطة بشكل متكرر بعبودية شخص آخر؛ وخلال الحقبة الاستعمارية والقرن التاسع عشر، كان توسيع نطاق الحرية للكثيرين من الأمريكيين يقوم على عدم وجود الحرية- العبودية، الاستعباد بالتعاقد المُلزم، والوضع المتدني للسيدات- بالنسبة للآخرين؛ وبنفس المنطق، من خلال المعارك على

الحدود- الجهود التي بذلتها الأقليات العرقية، والنساء، والآخرين من أجل ضمان تحقيق المزيد من الحرية- أن تعمق معنى وتجربة الحرية وامتد هذا المفهوم إلى ميادين جديدة.

ومرة تلو الأخرى في التاريخ الأمريكي وعلى مر الزمن، تحولت الحرية من خلال المطالب التي قدمتها المجموعات المستبعدة من أجل الحصول على حقها في الاندماج في المجتمع. إن فكرة الحرية باعتبارها حقًا عامًا يُكتسب بالمولد تدين بالكثير لدعاة إلغاء العبودية الذين سعوا لمد وإتاحة نعمة الحرية لتشمل السود، ومجموعات المهاجرين الذين أصروا على حق الاعتراف الكامل بهم كمواطنين أمريكيين؛ لقد نشأ مبدأ الحماية المتساوية للقانون بصرف النظر عن العرق- والذي أصبح عنصرًا رئيسيًا في الحرية الأمريكية- من خلال النضال ضد العبودية والحرب الأهلية وتم إعادة تنشيطه من خلال ثورة الحقوق المدنية في الستينيات من القرن العشرين، والتي أطلقت على نفسها "حركة الحرية"؛ كما ساعدت المعركة من أجل الحصول على الحق في حرية التعبير، والتي خاضها المدافعين عن تحديد النسل والعمال الثائرين في الشطر الأول من القرن العشرين، في جعل الحريات المدنية عنصرًا جوهريًا للحرية بالنسبة لجميع الأمريكيين.

وعلى الرغم من التركيز على الأحداث داخل الولايات المتحدة، إلا أن كتاب "أعطني حريتي!" - كما أوضحنا أعلاه - يضع أيضًا التاريخ الأمريكي في سياق التطورات التي حدثت في مناطق أخرى من العالم؛ وأن الكثير من القوى التي شكلت التاريخ الأمريكي، بما في ذلك حركة الهجرة الدولية للشعوب، وتطور العبودية، وانتشار الديموقراطية وتوسع الرأسمالية كانت أحداث وعمليات تقع في جميع أرجاء العالم ولم تكن مقصورة على الولايات المتحدة الأمريكية؛ واليوم، نلاحظ أن الأفكار والثقافة الأمريكية، والقوة العسكرية والاقتصادية تتمتع بتأثير غير مسبوق في شتى أنحاء العالم، غير أنه بداية من الأيام الأولى للاستيطان والاستعمار، عندما كانت الإمبراطوريات الأوروبية تتنافس على استعمار أمريكا الشمالية وزيادة ثرواتها من خلال تجارتها هناك، إلا أن التاريخ الأمريكي لا يمكن أن يتم فهمه بمعزل عن سياقه العالمي.

إن الحرية تمثل الفكرة الأكثر قدمًا والتطلعات الأكثر حداثةً؛ كما أنها تقوم بدور نداء التجمع والالتفاف بالنسبة للضعفاء، كما أنها تمثل في ذات الوقت تبريرًا للوضع الراهن خلال مراحل زمنية مختلفة في تاريخنا. إن الحرية تساعد على جمع عناصر ثقافتنا معًا في بناء واحد وتفضح التناقضات بين ما تدعيه أمريكا من أشياء وبين ما تكون عليه في بعض الأحيان؛ كما أن التاريخ الأمريكي لا يمثل سردًا للتقدم المتواصل والمستمر نحو حرية أكبر وأكبر؛ وكما ذكر المدافع عن التحرر من العبودية توماس وينتويرث هيجينسون بعد الحرب الأهلية، "يمكن

للثورات أن تتراجع إلى الوراء. ورغم أن الحرية يمكن أن تتحقق، إلا أنها أيضًا يمكن نزعها؛ وقد حدث هذا، على سبيل المثال، عندما تم إلغاء الحقوق المتساوية التي تم منحها للعبيد الأوائل بصورة فعلية بعد الحرب الأهلية مباشرة خلال حقبة الفصل العنصري؛ وكما قيل في القرن الثامن عشر، إن ثمن الحرية يقتضي يقظة أبدية.

وفي أوائل القرن الحادي والعشرين، ما زالت الحرية تلعب دورًا أساسيًا في الحياة والفكر الاجتماعي والسياسي في أمريكا؛ وأنها تستمد روحها وقوتها من خلال الأفراد والجماعات من مختلف المشارب، بداية من نقاد العولمة الاقتصادية وحتى أولئك الذين يسعون إلى ضمان توافر الحرية الأمريكية على أرض الوطن وتصديرها للخارج. إنني آمل أن يقدم كتاب أعطني حريتي! للطلاب المبتدئين نسقًا واضحًا حول مسار التاريخ الأمريكي، وكذلك عن مبحثه الرئيسي- الحرية- والتي ما زالت متفاوتة ومتغيرة ومثيرة للجدل والخلاف حتى اليوم كما هو الحال بالنسبة لأمريكا ذاتها.

إيرك فونر

الباب الأول

المستعمرات الأمريكية حتى عام 1763

شهدت الفترة الاستعمارية من تاريخ الولايات المتحدة تغييرات هائلة، حيث وجدت شعوب أربع قارات فجأة وبشكل غير متوقع في أن تتلاقى مع بعضهم البعض، وهي شعوب أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية وأوروبا وإفريقيا؛ كذلك شهدت الفترة أيضًا بداية حقبة جديدة في تاريخ الحرية؛ ومع ذلك، لم تكن الرغبة في الحرية هي الدافع وراء استكشافات الأوروبيين الأوائل لأمريكا الشمالية والجنوبية، بدأ الاتصال بين أوروبا والأمريكتين كناتج ثانوي للبحث عن طريق بحري للتجارة مع آسيا، ولكن سرعان ما أصبح صراعًا على القوة بين الإمبراطوريات المتنافسة، والتي تحركت لغزو العالم الجديد واستعماره واستغلال موارده.

عندما بدأ الاتصال الأوروبي، كان عدد سكان نصف الكرة الغربي يقدر بعشرات الملايين. كانت المجتمعات الهندية الموجودة داخل الحدود الحالية للولايات المتحدة تعيش على الزراعة أو صيد الحيوانات أو صيد الأسماك، ولهم لغاتهم وممارساتهم الدينية وأشكال الحكم الخاصة بهم، غير أنهم تعرضوا لتغيير كاسح بعد وصول الأوروبيين، بما في ذلك الاندماج في السوق العالمي والأمراض الوبائية التي دمرت العديد من الجماعات المحلية.

نشأت المستعمرات التي شكلت في نهاية المطاف الولايات المتحدة بطرق مختلفة جدًا؛ حيث إن فيرجينيا، أول مستعمرة دائمة تم إنشاؤها، قد تم إقامتها في الأصل من قِبَلِ شركة خاصة تسعى إلى كسب أرباح من خلال التنقيب عن الذهب وتنمية التجارة عبر الأطلسي؛ وقد أسس مجموعة من الملاك الأفراد- وكانوا يمثلون مجموعة من الأشخاص الإنجليز يتمتعون بعلاقات جيدة ومنحهم الملك مساحات واسعة من الأراضي- كل من ميرلاند وبنسلفانيا؛ أما نيويورك، والتي أسسها الهولنديون، فقد وقعت في أيدي البريطانيين كنتيجة لحرب دارت بينهما؛ وأما بالنسبة للمستعمرات في نيو انجلاند، فقد أنشأتها الجماعات الدينية التي كانت تسعى للفرار من الاضطهاد في إنجلترا، وتأمل في إقامة مجتمعات تقوم على فهمهم لمبادئ الكتاب المقدس المتأصلة في عقولهم.

وقد شهدت جميع المستعمرات البريطانية في القرن السابع عشر صراعات اجتماعية موجعة، حيث تصارعت جماعات من بينها من أجل السيطرة؛ وظلت العلاقات مع الهنود متوترة وعنيفة في بعض الأحيان؛ وقد ترددت أصداء الانقسامات الدينية والسياسية في إنجلترا، والتي شهدت حربًا أهليةً في الأربعينيات من القرن السابع عشر والإطاحة بالملك في عام 1688، في المستعمرات، وكذلك الحروب بين القوى الأوروبية، والتي امتدت آثارها إلى أمريكا الشمالية؛ ومع ذلك، شهدت المستعمرات البريطانية في المناطق الرئيسية- بعد بدايات صعبة- سنوات من النمو الملحوظ في عدد السكان وفي النشاط الاقتصادي، حتى أن عدد سكان المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية من غير الهنود قد فاق بكثير عددهم في مستعمرات فرنسا وإسبانيا بحلول القرن الثامن عشر.

هَيْمن ملاك الأراضي والتجار الميسورون على الحياة الاقتصادية والسياسية في كل المستعمرات البريطانية في أمريكا؛ وبالرغم من ذلك، فقد أتاحت الهجرة إلى المستعمرات فرصًا للعديد من المستوطنين والتي لم يكونوا يتمتعون بها في بلادهم الأم، بما في ذلك الحصول على الأراضي وحرية العبادة كيفما يشاءون، والحق في التصويت؛ وكان يوجد في كل مستعمرة بريطانية مجلسًا منتخبًا يتقاسم السلطة مع الحاكم الذي يتم تعيينه عادة من لندن؛ وحتى هذه الدرجة المحدودة من الحكم الذاتي في المستعمرات البريطانية كانت تتناقض بشكل حاد مع غياب المؤسسات النيابية في الإمبراطوريتين الإسبانية والفرنسية. دفعت كل هذه الظروف الآلاف من الإنجليز إلى الهجرة إلى أمريكا الشمالية في القرن السابع عشر، وآلاف آخرين من إيرلندا وأسكتلندا ومن القارة الأوروبية في القرن الثامن عشر.

ومع ذلك، تحققت الظروف التي سمحت للمستعمرين بالتمتع بهذه الحريات على حساب حرية الملايين الآخرين؛ وبالنسبة للسكان الأصليين لنصف الكرة الغربي، فقد جلب الاستعمار الأوروبي لهم انتشارًا للأوبئة المدمرة، وكذلك تسبب إما في تجريدهم من ملكيتهم للأرض أو اجبارهم على العمل بالسخرة لدى المستعمرين؛ لقد تم اقتلاع الملايين من الأفارقة من أوطانهم ونقلهم إلى العالم الجديد للعمل في مزارع البرازيل ومنطقة البحر الكاريبي ومستعمرات إنجلترا في أمريكا الشمالية؛ ولم يقتصر الأمر على الأفارقة، فحتى المهاجرين الأوروبيين قد وصل غالبيتهم إلى هذه المستعمرات ليس كأفراد أحرار تمامًا ولكن كموظفين للخدمة بالسخرة لعدد من السنوات كان يتم الاتفاق عليها مسبقًا لصالح أولئك الذين دفعوا تكاليف رحلتهم.

لم يكن العديد من الأفكار الحديثة عن الحرية موجودة في أمريكا الاستعمارية، أو كانت موجودة في أشكال مختلفة جدًا عما هي عليه اليوم، حيث لم يكن مبدأ المساواة أمام القانون

معروفًا- حيث كانت حقوق النساء وغير البيض، والرجال من غير ذوي الأملاك أقل بكثير من حقوق ملاك الأراضي من المواطنين الذكور البيض. كانت الحرية الاقتصادية، المعروفة اليوم على نطاق واسع بالمشاركة في سوق غير خاضع للتنظيم، تعني الاستقلال -- أي تملك قطعة أرض أو محل وعدم الاعتماد على شخص آخر في كسب العيش. كانت توجد كنائس رسمية في معظم المستعمرات، ورفض العديد من المستعمرين، الذين سعوا إلى الحرية الدينية لأنفسهم، إتاحة هذه الحرية للآخرين. كان من الممكن أن يؤدي نقد السلطات العامة بالحديث أو بالكتابة إلى الزج بالشخص المنتقد في السجن.

ومع ذلك، لعبت الأفكار حول الحرية دورًا رئيسيًا في تبرير الاستعمار الأوروبي، حيث زعم الإسبان والفرنسيون أنهم يحررون السكان الأصليين لأمريكا (الهنود الحمر) من خلال جلبهم للحضارة المتقدمة والكاثوليكية الرومانية إلى هناك. أصرت إنجلترا أن الحرية الحقيقية للهنود الحمر تعني تبنيهم للأساليب الإنجليزية، بما في ذلك البروتستانتية؛ وعلاوة على ذلك، حدث توسع في إمبراطورية إنجلترا في الوقت الذي كان يُنظَر فيه للحرية على أنها السمة المميزة للأمة الإنجليزية؛ في حين كانت العبودية موجودة في كل مستعمرة في العالم الجديد، وأصبحت أساس الحياة الاقتصادية في الكثير من هذه المستعمرات؛ وبالرغم من ذلك، كان معظم البريطانيون، بما في ذلك المستعمرين، يتباهون بالتمتع "بالحرية البريطانية" كمجموعة مشتركة من الحقوق التي تشتمل على الحماية من الممارسة التعسفية للسلطة الحكومية؛ وهكذا، اتسعت الحرية وغياب الحرية معًا في المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية التي شكلت في نهاية المطاف الولايات المتحدة الأمريكية.

الفصل الأول

9000 قبل الميلاد	تطور الزراعة في المكسيك وبيرو.
5000 قبل الميلاد- 1000 بعد الميلاد	ازدهار بناة تل وادي نهر المسيسيبي.
900-1200	إنشاء قبائل هوبي وزوني للمدن.
1000	القراصنة الاسكندنافيون (فايكنج) يبحرون إلى العالم الجديد.
1200	إمبراطورية مدينة كاهوكيا على طول نهر المسيسيبي
1430- 1440	قائد الأسطول البحري الصيني الأميرال تشنج يستكشف الساحل الشرقي لأفريقيا.
العقد الرابع من القرن الخامس عشر	جوتنبرج يخترع آلة الطباعة.
1434	البرتغاليون يستكشفون الساحل الإفريقي أسفل جنوب الصحراء الكبرى
1487	بارثولوميو دياس يصل لطريق رأس الرجاء الصالح.
1492	أول رحلة لكولومبوس للعالم الجديد.
1497	جون كابوت يصل إلى جزيرة نيوفاوندلاند في شرقي كندا.
1498	فاسكو دا جاما يبحر إلى المحيط الهندي.
1500	بيدرو كابرال يطالب بالبرازيل للبرتغال.
1502	نقل العبيد الأفارقة لأول مرة إلى جزر الكاريبي.
	نيكولاس دي أوفاندو ينشئ مستعمرة في هيسبانيولا.
1517	مارتن لوثر يدشن خطة الإصلاح البروتستانتي المتضمنة لخمسة وتسعين أطروحة.
1519	هرنان كورتيه يصل إلى المكسيك.
1528	تاريخ الجزر الهندية.
العقد الرابع من القرن السادس عشر	غزو بيسارو لبيرو.
1542	إسبانيا تعلن رسميًا عن القوانين الجديدة.
1608 - 1609	"شامبلين" يؤسس كويبك؛ هدسون يطالب بملكية هولندا الجديدة (مستعمرة في أمريكا الشمالية والتي أصبحت فيما بعد نيويورك)
1610	تأسيس إقليم "سانتا في" (يمثل مقاطعة نيوميكسكو في الوقت الحاضر)
1680	ثورة البويبلو

عالم جديد

أسئلة تركيز:

- ما هي الأنماط الرئيسية لحياة الأمريكيين الأصليين في أمريكا الشمالية قبل وصول الأوروبيين؟
- كيف اختلفت الأفكار الهندية والأوروبية عن الحرية عشية الاتصال؟
- ما الذي دفع المستكشفون الأوروبيون للنظر غربًا عبر المحيط الأطلنطي؟
- ماذا حدث عندما اتصلت شعوب الأمريكتين بالأوروبيين؟
- ما هي الخصائص الرئيسية للإمبراطورية الإسبانية في أمريكا؟
- ما هي الخصائص الرئيسية للإمبراطوريتين الفرنسية والهولندية في شمال أمريكا؟

أوضح الكاتب البريطاني آدم سميث في كتابه الشهير ثروة الأمم (1776) أن اكتشاف أمريكا كان أحد أكبر وأهم حدثين يزخر بهما تاريخ البشرية. وحيث لم يعد المؤرخون يستخدمون كلمة اكتشاف لوصف الاستكشاف والغزو والاستعمار الأوروبي لنصف الكرة التي أصبحت بالفعل وطن لملايين من الناس، ولكن ما لا يمكن الشك فيه أنه عندما وطأت قدمي كريستوفر كولومبوس اليابسة في الجزر الهندية الغربية في عام 1492، فإنه قد ساعد في حدوث بعض التطورات الأكثر محورية في تاريخ البشرية، حيث سرعان ما تلى ذلك تغييرات هائلة في كل من العالمين القديم والجديد؛ وما زالت عواقب هذه التغييرات فاعلة في حياتنا حتى اليوم.

بعد أن كان شعوب قارتي أمريكا وأوروبا يجهل كل منهما وجود الآخر، وجدوا أنهم أصبحوا في تفاعل مستمر، حيث عبرت المحاصيل الجديدة على كل من نصفي الكرة المحيط الأطلسي، وأعادت تشكيل النظم الغذائية وتحول البيئة الطبيعية؛ ونظرًا للعزلة الطويلة لسكان أمريكا الشمالية والجنوبية، لذلك لم تكن لديهم أي مناعة ضد الجراثيم التي رافقت المستعمرين. مما جعلهم يتعرضون لسلسلة من الأوبئة المدمرة ولأكبر كارثة للسكان في تاريخ الإنسانية؛ وخلال عقد من رحلة كولومبوس وجدت قارة رابعة نفسها- إفريقيا- تنجر إلى نظام التجارة الجديد عبر الأطلسي وحركة السكان، حيث وجد الأوروبيون فيها موردًا للعمالة المقيدة التي مكنتهم من استغلال الأراضي الخصبة في نصف الكرة الغربي. وفي الحقيقة، بلغ عدد العبيد الأفارقة نحو 7.7 مليون نسمة، بما يمثل الغالبية العظمى من مجموع ما يقرب من 10 ملايين من الرجال والنساء والأطفال من الذين عبروا من العالم القديم إلى العالم الجديد في الفترة ما بين عامي 1492 و 1820.

كان من ثمار عام 1776، الذي أعلنت فيه الولايات المتحدة نفسها دولة مستقلة، على ما يبدو بالنسبة لآدم سميث أن اكتشاف أمريكا قد أفرز فوائد كبيرة ومصائب كبيرة. شكلت إقامة المستعمرات الأمريكية بالنسبة لدول أوروبا الغربية عصرًا من العظمة والمجد. لقد ذكر سميث قائلاً : إن ظهور المحيط الأطلسي كطريق عالمي رئيسي لحركة التجارة والسكان، قد أدى إلى تمكين الملايين من الأوروبيين لزيادة متع الحياة؛ واستطرد سميث قائلاً: أن السنوات منذ عام 1492 كانت بالرغم من ذلك، تمثل سنوات المحن المروعة و كل أنواع الظلم بالنسبة للمواطنين السكان الأصليين في الأمريكتين. أما بالنسبة للملايين من الأفارقة، فإن استيطان أمريكا كان يعني الانزلاق إلى هاوية العبودية.

كان الأوروبيون يحلمون بأرض تحقق لهم الوفرة والغنى والراحة تقع وراء الأفق الغربي قبل فترة طويلة من إبحار كولومبوس؛ وبمجرد اكتشاف هذا العالم الجديد، نسجوا أمريكا من

الخيال وأسقطوا عليها آمالهم في حياة أفضل؛ واعتقد كثيرون منهم أنه ستنشأ هنا فرصًا لا مثيل لها للثروات، أو على الأقل التحرر من الفقر. تصور الأوروبيون أمريكا كملاذ ديني، كمجتمع تسوده المساواة، كمصدر للقوة والمجد؛ فقد قاموا بتفتيش العالم الجديد بحثًا عن المدن الذهبية وينابيع الشباب الأبدي. سعى البعض إلى إنشاء مجتمعات مثالية على أساس حياة القديسين المسيحيين الأوائل، أو مخططات أولية أخرى للعدالة الاجتماعية.

وفي الحقيقة، فقد تحقق بعض من هذه الأحلام المتعلقة بالثروات والفرص، حيث قدمت أمريكا للكثير من المستوطنين الأوروبيين فرصة أكبر بكثير لامتلاك الأراضي وحرية العبادة كما يحلو لهم بالمقارنة بحياتهم في أوروبا، حيث النظام الاجتماعي الصارم وغير المتكافئ، وحيث الكنائس الرسمية؛ وبالرغم من ذلك، فإن الظروف التي سمحت لملايين المستوطنين من تقرير مصائرهم كانت ممكنة فقط على حساب إذلال ومهانة الملايين من البشر الآخرين. أصبح العالم الجديد موقعًا للعديد من أشكال العمل القسري، بما في ذلك عقود الاسترقاق والعمل بالسخرة، وأحد أكثر الأنظمة الوحشية والظالمة التي ابتدعها الإنسان ألا وهي مزارع العبودية؛ لقد سجل غزو واستيطان نصف الكرة الأرضية الغربية فصولاً جديدةً وطويلةً في تاريخ الحرية والعبودية.

كان هناك تنوع بشري هائل بين الشعوب التي وجدت نفسها في اتصال مع بعضها البعض في العالم الجديد؛ حيث تم الاستكشاف والاستيطان في حقبة شهدت حروب مستمرة تقريبًا بين الدول الأوروبية، ويعصف بكل منها صراعات دينية وسياسية وإقليمية داخلية. كان الأمريكيون الأصليون والأمريكيون الأفارقة يتألفون من مجموعات عديدة لكل منها لغته وثقافته الخاصة؛ وكان من المرجح أن يحاربوا بعضهم البعض بنفس درجة توحدهم ضد الوافدين الجدد الأوروبيين؛ لقد تغير كل هؤلاء من خلال اندماجهم في الاقتصاد الأطلسي الجديد؛ وقد شكلت التفاعلات المعقدة بين الأوروبيين والأمريكيين الهنود والأفارقة التاريخ الأمريكي خلال الحقبة الاستعمارية.

الأمريكيون الأوائل

استيطان الأمريكتين

لم يكن قاطنو الأمريكتين مجموعة واحدة من الأوروبيين أو الأفارقة، حيث كانوا يتحدثون مئات اللغات المختلفة ويعيشون في أنواع عديدة من المجتمعات؛ وبالرغم من ذلك، كان معظمهم ينحدر من مجموعات صيد الحيوانات وصيادي الأسماك الذين عبروا مضيق بيرنج عبر جسر بري في أوقات مختلفة ترجع إلى 15.000 و 60.000 عاما – غير أن التواريخ الدقيقة تعد مثارًا لنقاش وجدل ساخن من قبل علماء الآثار؛ حيث يمكن أن يكون آخرون قد وصلوا عن طريق

البحر من آسيا أو جزر المحيط الهادئ؛ وعندما بدأت الأنهار الجليدية في الذوبان في نهاية العصر الجليدي الأخير منذ حوالي 14000 سنة، أصبح ذلك الجسر البري مغمورًا تحت الماء، وانفصل مرة أخرى نصف الكرة الأرضية الغربي عن آسيا.

لم يبدأ التاريخ في أمريكا الشمالية والجنوبية مع قدوم الأوروبيين؛ حيث كان العالم الجديد جديدًا فقط بالنسبة للأوروبيين، ولكنه كان وطنًا قديمًا لمن كانوا يعيشون فيه بالفعل؛ لقد شهد نصف الكرة الغربي العديد من التغيرات خلال تاريخه البشري؛ أولاً: انتشر السكان الأوائل وأحفادهم عبر القارتين ووصلوا إلى طرف أمريكا الجنوبية ربما قبل 11.000 سنة، وواجهوا أزمة غذاء مع ارتفاع درجة حرارة المناخ، حيث انقرضت الحيوانات الكبيرة التي كانوا يصطادونها، بما في ذلك الفيلة ذات الفرو الصوفي (الماموث) والثور الأمريكي العملاق (البيسون)؛ وقد تزامن ظهور الزراعة في الشرق الأدنى منذ حوالي 9.000 سنة مع ظهورها أيضا في المكسيك وجبال الأنديز الحديثة، ثم انتشرت بعد ذلك إلى مناطق أخرى من الأمريكتين مما جعل من الممكن قيام حضارات مستقرة، وشكلت زراعة الأذرة والكوسا والفاصوليا في أنحاء نصف الكرة الغربي أساسًا للزراعة، إلا أن غياب الماشية في النصف الغربي من الكرة الأرضية حد من انتشار الزراعة، حيث حال دون حراثة الحقول واستخدام الأسمدة الطبيعية التي تنتج عن مخلفات الماشية.

المجتمعات الهندية في الأمريكتين

كادت أمريكا الشمالية والجنوبية أن تكونا بمثابة بادية خالية عندما وصل إليهما الأوروبيون؛ وكان يشتمل نصف الكرة الغربي على مدن وطرق ونظم ري وشبكات تجارية واسعة وأبنية ضخمة مثل المعابد هرمية الشكل التي لا يزال جمالها يثير العجب. كانت تينوشتيتلان من أكبر المدن في العالم وهي عاصمة إمبراطورية الأزتيك فيما يُعرف الآن بالمكسيك، وكان يسكنها ما يقرب من 250.000 نسمة، وقد جعلها معبدها الكبير وقصرها الملكي الرائع وسوقها المركزي المماثل لأسواق العواصم الأوروبية تبدو وكأنها "طيف مسحور" كما عبر عن ذلك أحد أوائل الأوروبيين الذين رأوها. تركزت مملكة الاينكا في الجنوب من هذه المدينة، وتحديدًا في موقع دولة بيرو حاليًا، وربما كان عدد سكانها يبلغ 12 مليون نسمة، وكان يربط أطرافها نظام معقد من الطرق والجسور التي امتدت لمسافة 2.000 كيلومتر على طول سلسلة جبال الإنديز.

عندما وصل الأوروبيون إلى داخل الحدود الحالية للولايات المتحدة، كان يعيش هناك بالفعل طائفة واسعة من السكان الأصليين. لم تكن الحضارات الهندية في أمريكا الشمالية بنفس حجم أو عظمة أو مركزية التنظيم الذي تمتعت به مجتمعات الأزتيك والاينكا في الجنوب منهم.

كان الهنود في أمريكا الشمالية يفتقرون إلى التقنيات التي قد أتقنها الأوروبيون، مثل الأدوات المعدنية والآلات، والبارود والمعرفة العلمية اللازمة للملاحة لمسافات طويلة. لم ينجح أي من المجتمعات الواقعة شمال المكسيك في نشر التعليم (على الرغم من أن البعض قد رسم الخرائط على لحاء الأشجار وجلود الحيوانات)، وكانوا يفتقرون أيضًا إلى المركبات التي تتحرك بعجلات حيث لم يكن لديهم حيوانات مستأنسة لجرها، مثل الخيول أو الثيران. أصبح "تخلفهم" هذا مبررًا أساسيًا للغزو الأوروبي؛ ومع ذلك، أتقنت المجتمعات الهندية مع مرور الوقت تقنيات الزراعة، وصيد الحيوانات، وصيد الأسماك، وابتكروا أنظمة للسلطة السياسية والمعتقد الديني، وشاركوا في شبكات بعيدة المدى للتجارة والاتصالات.

البناة لتلال وادي نهر المسيسيبي

ما زالت توجد بقايا مادية واضحة لبعض الحضارات القديمة في أمريكا الشمالية؛ لقد أقام الأمريكيون الأصليون منذ حوالي 3.500 سنة، أي قبل تشييد المصريين للأهرامات، مجتمعًا كبيرًا تمركز حول سلسلة من التلال الهلالية العملاقة على جرف يطل على نهر المسيسبي في موقع ولاية لويزيانا حاليا؛ وعلى الرغم من أن هذه البقعة يطلق عليها اليوم اسم "نقطة الفقر" إلا أنها كانت مركزًا تجاريًا وحكوميًا، وقد أنشأ سكانها الطرق في جميع أنحاء ولاية مسيسبي ووديان "نهر أوهايو" ولقد وجد علماء الآثار هناك في الوقت الحاضر نحاسًا في موقع كل من مينيسوتا وكندا، ووجدوا الصوان المستخرج من ولاية انديانا في الوقت الحاضر.

نشأت التجارة في أنحاء النصف الغربي للكرة الأرضية قبل أكثر من ألف سنة من إبحار كولومبوس، وذلك على يد هنود وادي "نهر أوهايو" الذين أطلق عليهم المستوطنون في القرن الثامن عشر اسم "بناة التل" حينما شاهدوا ما بناه هؤلاء من تلال الدفن الترابية الواسعة. بعد تدهور وتراجع الهنود، ازدهرت ثقافة أخرى في وادي نهر المسيسبي وتركزت في مدينة "كاهوكيا" بالقرب من الموقع الحالي لسانت لويس، حيث أنشأوا مجتمعًا محصنًا يضم ما بين 10.000 و 30.000 نسمة في عام 1200 ميلادية، وبنى سكانها أيضًا تلالاً عملاقة بلغ ارتفاع أكبرها 100 قدم وكان يعلوها معبد. هناك القليل من المعلومات المتاحة عن النظام السياسي والاقتصادي لكاهوكيا، ولكنها ظلت أكبر مجتمع مستوطن فيما يعرف الآن بالولايات المتحدة، حتى تفوقت عليها نيويورك وفيلادلفيا في عدد السكان حوالي عام 1800.

الهنود الغربيون

انخرط قبيلتا الهوبي والزوني وأسلافهم في حياة قروية مستقرة لأكثر من 3.000 سنة في المنطقة الشمالية الشرقية القاحلة مما يُعرف في الوقت الحاضر باسم ولاية أريزونا؛ وعندما

وصلت ثقافة المنطقة إلى ذروتها في الفترة ما بين عامي 900 – 1200 شادت وبنت هذه الشعوب مدن عظيمة بها مساكن متعددة الأسر الكبيرة في الوديان الضيقة المحلية، وشيدوا السدود والقنوات لجمع وتوزيع المياه، ومارسوا التجارة مع جماعات بعيدة تصل إلى وسط المكسيك ووادي نهر الميسيسبي. تقع أكبر الأبنية التي شيدوها، بويبلو بونيتا، في أخدود "شاكو" بولاية نيو مكسيكو، ويصل ارتفاعه إلى خمسة طوابق ويضم أكثر من 600 غرفة؛ ولم يتم تشييد بناء سكني مماثل له في الحجم في الولايات المتحدة حتى الثمانينيات من القرن التاسع عشر.

بعد تراجع هذه المجتمعات، ربما بسبب الجفاف، انتقل الناجون منهم إلى الجنوب والشرق، حيث أسسوا قرى وأتقنوا تقنيات زراعة الصحراء واستكملوا هذا بنظم الري لتوفير المياه لمحاصيل الأذرة والفول والقطن. أطلق المستكشفون الإسبان على هؤلاء "الهنود الحمر" (لأنهم عاشوا في قرى صغيرة (أي بويبلوس) عندما قابلهم الإسبان لأول مرة في القرن السادس عشر).

كان يقع على ساحل المحيط الهادئ منطقة أخرى ذات كثافة سكانية عالية تضم مئات من المجموعات المتميزة، الذين استقروا في قرى مستقلة واعتمدوا في حياتهم بشكل أساسي على صيد الأسماك وصيد الثدييات البحرية وجمع النباتات البرية والجوز، حيث كان يسبح ما يصل إلى 25 مليون من أسماك السلمون حتى أعالي نهر كولومبيا في كل عام، مما أتاح الطعام الوفير للهنود هناك. أما في السهول الكبرى حيث قطعان الجاموس ـ أحفاد الثور الأمريكي العملاق (البيسون) الذي ترجع أصوله إلى حقبة ما قبل التاريخ ـ فقد عاش الكثير من الهنود على الصيد (كانوا يتتبعون الحيوانات سيرًا على الأقدام قبل وصول الخيول مع الإسبان)، بينما عاش آخرون في مجتمعات زراعية.

هنود شرق أمريكا الشمالية

سكنت مئات القبائل في البلدان والقرى المبعثرة في شرق أمريكا الشمالية في المنطقة ما بين "خليج ميكسكو" إلى ما يعرف في يومنا هذا بكندا، وكانوا يعيشون على نباتات الأذرة، والكوسا، والفاصوليا، بالإضافة إلى الصيد البحري وصيد الغزلان والديوك الرومية وحيوانات أخرى؛ وكانت تتقاطع طرق التجارة الهندية في الجزء الشرقي من القارة؛ وكثيرا ما كانت هذه القبائل تشن حروبًا مع بعضها البعض للحصول على البضائع أو لسبي الأسرى أو للانتقام لمقتل الأقارب، كما مارسوا الدبلوماسية وصنعوا السلام أيضا. كان يوجد القليل من الأشكال الأولية للسلطة المركزية حتى ظهرت العصبات والاتحادات الكونفدرالية المختلفة في القرن الخامس عشر في محاولة لحفظ النظام في المناطق المحلية. أما في الجنوب الشرقي، كان يعيش الشوكتاو، والشيروكي، وشيكاسو، وقد وحد كل منهم عشرات البلدات في تحالفات فضفاضة غير مقيدة؛ وقد شكّل

خمسة من شعوب الإيروكوا – وهم الموهوك، وأونيدا، وكيجا، وسينيكا، وأونونداغا حيث ما يُعرَف في الوقت الحاضر بنيويورك وبنسلفانيا – العُصبَة العظمى للسلام، مما جعل المنطقة تنعم بفترة من الاستقرار. كان ممثلون عن المجموعات الخمس يعقدون كل عام "مجلس عظيم" لتنسيق السلوك تجاه الغرباء.

كانت السمة الأكثر لفتًا للنظر في مجتمع الأمريكيين الأصليين، في الوقت الذي وصل فيه الأوروبيون إلى هناك، هو تنوعه الكبير؛ حيث كانت كل مجموعة مستقلة بذاتها من حيث نظامها السياسي ومجموعة معتقداتها الدينية، وكانت أمريكا الشمالية موطنًا للمئات من اللغات كل منها مبهم وغامض بالنسبة لباقي المجموعات السكانية. لم يكن الهنود يدركون معنى "أمريكا" كقارة أو كنصف الكرة الأرضية؛ ولم يكونوا ينظرون لأنفسهم كشعب واحد مُوَّحد، حيث أن الأوروبيين هم الذين ابتدعوا هذه الفكرة ولم يتبناها الهنود إلا بعد العديد من السنوات. تمركزت الهوية الهندية حول الجماعة الاجتماعية المباشرة – القبيلة، والقرية، والزعامة، أو الاتحاد الكونفدرالي؛ وعندما وصل الأوروبيون الأوائل كان الكثير من الهنود ينظرون إليهم على أنهم مجرد مجموعة واحدة من بين العديد من المجموعات؛ وكانت فكرتهم الأولى هي كيفية استخدام هؤلاء الوافدين الجدد لتعزيز مكانتهم بالنسبة للشعوب الأصلية الأخرى، وليس التوحد ضدهم. لم يظهر الانقسام الحاد بين الهنود والوافدين "البيض" حتى وقت لاحق في الحقبة الاستعمارية.

العقيدة الدينية عند الأمريكيين الأصليين

ورغم ذلك، كانت المجتمعات الهندية المتنوعة بأمريكا الشمالية تتقاسم خصائص معينة مشتركة تجمع بينها، حيث كانت حياتهم غارقة في الاحتفالات الدينية، التي غالبا ما كانت ترتبط مباشرة بالزراعة والصيد، وكانوا يعتقدون أن القوى الروحية منتشرة ومتغلغلة في كل أنحاء العالم، وأنه يمكن العثور على الأرواح المقدسة داخل كل أنواع الكائنات الحية والجمادات– بما في ذلك الحيوانات والنباتات والأشجار والمياه والرياح؛ كانوا يهدفون من وراء المراسم والاحتفالات الدينية إلى تسخير قوى الطبيعة الخارقة لخدمة الإنسان وتحقيق مصالحة. كان الصيادون في بعض القبائل يؤدون الطقوس الدينية لاسترضاء وتهدئة أرواح الحيوانات التي قتلوها؛ وكانت هناك مراسم دينية أخرى تهدف إلى إشراك القوى الروحية الكامنة في الطبيعة لضمان موسم وفير من المحاصيل الزراعية أو لطرد الأرواح الشريرة. كانت القرى الهندية تقيم أيضًا الطقوس الدينية الطويلة باجتهاد وعناية، حيث تتحدد مدى علاقة الفرد بالمجتمع من خلال مشاركته فيها، وكانت هذه المجتمعات تضفي الاحترام والنفوذ على أولئك الذين كان يبدو أنهم

يمتلكون قدرات خاصة في استحضار القوى الخارقة، مثل السحرة الذين كان يُعتَقَد أنهم بمثابة وسطاء بين العالم المرئي والعالم الخفي (الشامان) ورجال الطب وغيرهم من القادة الدينيين.

لم تضع الديانة الهندية حدودًا واضحةً ومميزةً تفصل بين الأنشطة الطبيعية والأنشطة الخارقة، أو بين ما هو علماني وما هو ديني؛ ورغم ذلك، لم تختلف الديانة الهندية كثيرًا في بعض النواحي عن المعتقدات الروحية الشعبية في أوروبا، حيث كان معظم الهنود يؤمنون بخالق واحد على قمة التسلسل الهرمي الروحي، إلا أن تقريبًا جميع الأوروبيين الذين وصلوا إلى العالم الجديد سرعان ما خلصوا إلى أن الهنود بحاجة ماسة إلى اعتناق العقيدة المسيحية الحقيقية.

الأراضي والملكية

كانت توجهات ومواقف الهنود نحو الملكية تبدو غريبة بنفس القدر في نظر الأوروبيين، حيث كان هناك العديد من نظم الأراضي بين الأمريكيين الأصليين؛ ومع ذلك، كان قادة القرية يمنحون الأسر فرادى قطعًا من الأراضي لاستخدامها لموسم أو أكثر، وكانت القبائل تطالب بمناطق معينة للصيد، وظلت الأراضي التي لم تكن تؤول ملكيتها لشخص معين خالية يستطيع أي شخص استخدامها. كانت الأسر "تملك" حق استخدام الأراضي والانتفاع بها، لكنها لا تملك الأرض نفسها. كان الهنود يرون الأرض التي هي أساس الحياة الاقتصادية لكل من مجتمعات الصيد والزراعة بمثابة مورد مشترك وليس سلعة اقتصادية؛ ولقد أوضح الزعيم الهندي "الصقر الأسود" في القرن التاسع عشر السبب الذي يجعل من غير الممكن في رأيه بيع وشراء الأرض، حيث قال: "لقد منحت الروح العظيمة هذه الأرض لأولادها للعيش عليها وزراعتها للحصول على الكفاف من الرزق وللحفاظ على حياتهم، ولهم الحق في الانتفاع بتربتها طالما يقيمون بها ويزرعونها." كان القليل – إن وجد – من المجتمعات الهندية على دراية بفكرة وجود قطعة أرض محاطة بسياج يمتلكها فرد أو أسرة للأبد؛ ولم يكن هناك سوق للعقارات قبل مجيء الأوروبيين.

كذلك لم يكن هناك من الهنود من يكرس حياته لتكديس الثروة والسلع المادية، ولاسيما في منطقة شرق نهر المسيسبي، حيث كان أهل القرى يتنقلون كل بضع سنوات عندما تنضب التربة وتصبح غير صالحة للزراعة أو لصيد الحيوانات والطيور، ولذلك، لم يكن لحيازة العديد من الممتلكات معنى؛ وبالرغم من ذلك، كان للوضع الاجتماعي أهمية بالتأكيد في المجتمعات الهندية، حيث كان زعماء القبائل الذين كانوا يأتون في الغالب من عدد صغير من الأسر، وكذلك رؤساء القبائل يعيشون في رغد من العيش بشكل أكثر روعة وبهاء بالمقارنة بالعوام من أفراد المجتمع، ولكن غالبا ما كانت تعتمد سمعتهم وشهرتهم على مدى رغبتهم في تقاسم السلع مع الآخرين بدلاً من اكتنازها لأنفسهم فقط.

كان لدى عدد قليل من المجتمعات الهندية فوارق اجتماعية صارمة. احتل الزعيم أو "الشمس العظيمة" بين "الناتشيز" أحفاد ثقافة المسيسبي "بناة التل" مكانة على قمة النظام الاجتماعي، ويأتي النبلاء أو "الشموس الأصغر" تحته، ثم يأتي عامة الناس في الترتيب الأدنى؛ ومع ذلك، كانت تحتل الثروة بشكل عام مكانة في المجتمع الهندي أقل بكثير منها في المجتمع الأوروبي في ذلك الوقت. كان الكرم من بين الصفات الاجتماعية الأكثر تقديرا، وكان تقديم الهدايا والعطايا ضروريًا بالنسبة للمجتمع الهندي، حيث كانت التجارة، على سبيل المثال، تعني لهم أكثر من مجرد صفقة تجارية -- حيث كان يصاحبها احتفالات واسعة لتبادل الهدايا. كان تقديم الهدايا يُشكّل جزءًا أساسيًا وجوهريًا في الاقتصاد الهندي، حيث كان يربط بين مجموعات مختلفة في شبكات من الالتزامات المتبادلة؛ على الرغم من أن الهنود لم يمروا بتجربة الثراء واكتناز الثروات التي كان يتمتع بها النخبة في المجتمع الأوروبي، إلا أنه في ظل الظروف العادية لم يكن يعاني أحد في المجتمعات الهندية من الجوع أو من الحالات المتطرفة من عدم المساواة التي كان يشهدها المجتمع الأوروبي؛ "ولم يكن بينهم متسولون"، كما أوضح ذلك القائد الإنجليزي الاستعماري "روجر ويليامز" الهنود في نيو انجلاند.

العلاقات بين الجنسين

اختلف نظام العلاقات بين الجنسين في معظم المجتمعات الهندية أيضا بشكل ملحوظ عنه في أوروبا؛ حيث كانت حياة المرأة تتحدد أساسًا بصفتها عضوة في الأسرة، لكنها كانت تنخرط بشكل علني في علاقات جنسية قبل الزواج، وكانت تتمتع بحقوق كثيرة- حتى إنه كان من الممكن أن تقرر تطليق زوجها؛ على الرغم من أنه لم يكن كل المجتمعات الهندية أمومية، إلا أن معظمها كان كذلك، وبعبارة أخرى كانت هذه المجتمعات تتمحور حول عشائر أو مجموعات من الأقرباء يكون فيها الأطفال أفرادًا في عائلة الأم، وليس في عائلة الأب. كان القادة القبليون تقريبًا من الرجال بشكل دائم، ولكن لعبت النساء دورًا هامًا في احتفالات دينية معينة، وغالبًا ما ساعدت الإناث من كبار السن في اختيار زعماء القرية من الذكور، وشاركن كذلك في الاجتماعات القبلية؛ وبموجب القانون الإنجليزي، يسيطر الرجل المتزوج على ممتلكات الأسرة وليس للزوجة هوية قانونية مستقلة؛ وفي المقابل، تمتلك النساء الهنديات المساكن والأدوات، وينتقل الزوج عمومًا للعيش مع عائلة زوجته؛ وفي المجتمعات الهندية، يساهم الرجال في رفاهية المجتمع ويثبتون رجولتهم من خلال النجاح في الصيد، أو من خلال صيد السمك بالشباك والحراب في شمال غرب المحيط الهادئ؛ ونظرًا لأن الرجال كانوا في كثير من الأحيان يخرجون في رحلات الصيد، كان على النساء تحمل المسئولية ليس فقط فيما يتعلق بالواجبات المنزلية وإنما

أيضًا عن معظم الأعمال الزراعية؛ ومن ناحية أخرى، كان هنود البويبلو في الجنوب الغربي هم المزارعون الرئيسيون حيث كان هناك فرص صيد أقل عنه في الشرق.

أراء الأوروبيين حول الهنود

مال الأوروبيون لرؤية الهنود على طرفي النقيض، حيث كانوا يعتبرونهم إما شعوب "همجية نبيلة" ولطيفة وودودة وأكثر تفوقًا من الأوربيين في بعض النواحي، أو شعوب همجية متوحشة غير حضارية؛ وقد وصف "جيوفاني دا فيرازانو" ملاح فلورنسا الذي أبحر صعودا وهبوطا على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية، الهنود الذين قابلهم في عام 1524 بأنهم "ذو بنية قوية وملامح جميله." (ومن جانب الكثير من الهنود، الذين كانوا يعيشون على نظام غذائي ربما يكون صحيًا بدرجة أكثر من معظم الأوروبيين، كانوا في البداية يرون القادمين الجدد بأنهم ذو بنية ضعيفة وملامح دميمة.)

ومع ذلك، أخذت الصور السلبية عن الهنود تتلون بظلال إيجابية مع مرور الوقت؛ وكانت أوصاف الأوروبيين الأوائل عن الهنود في أمريكا الشمالية بأنهم همجيون تتمحور حول ثلاثة مجالات- الدين، واستخدام الأراضي، والعلاقات بين الجنسين؛ وبصرف النظر عن البلد الأصلي للأوربيين الوافدين، فقد خلصوا إلى أن الهنود يفتقرون إلى اعتناق الدين الحقيقي، أو أنهم في الحقيقة كان يعبدون الشيطان. كان يُطلَق على السحرة الذين كان يُعتَقَد أنهم بمثابة وسطاء بين العالم المرئي والعالم الخفي (الشامان) والمعالجين بالأعشاب اسم "الأطباء المشعوذون"، وكان يُنظَر للعديد من احتفالاتهم الخاصة وطقوسهم بأنها في أفضل أحوالها شكل من أشكال الخرافة، وأن اعتقادهم في عالم ينبض بالقوة الروحية بأنه عبادة "لآلهة باطلة." لم تقف المسيحية كعقبة أمام الاستخدام التجاري للأرض، بل شجعت على ذلك بالفعل حيث إن العقيدة الصحيحة تعزز من تقدم الحضارة؛ وفي حين كان الهنود يرون الطبيعة كعالم من الأرواح والأنفس، كان ينظر إليها الأوروبيون على أنها مجموعة من السلع المحتملة، أي كمصدر للفرص الاقتصادية.

استدعى الأوروبيون نمط الهنود المميز في استخدام الأراضي وأفكارهم حول الملكية للإجابة على السؤال المحرج الذي أثاره وزير بريطاني في مرحلة مبكرة من الاستعمار الإنجليزي: "بأي حق أو تفويض يمكن أن ندخل أرض هؤلاء الهمجيين ونسلبهم ميراثهم الشرعي ونزرع أنفسنا في أماكنهم؟" على الرغم من ادعاء الإسبان ملكية الأراضي في أمريكا بحق الغزو والسلطة البابوية، إلا أن الإنجليز والفرنسيين والهولنديين جاءوا استنادا إلى فكرة أن الهنود لم "يستغلوا" الأرض في الواقع، وبالتالي ليس لديهم حق المطالبة بملكيتها؛ على الرغم من أن الهنود كانت لديهم زراعة على درجة عالية من التطور ومدنهم مستقرة بشكل جيد، إلا أن كثيرًا ما

وصفهم الأوروبيون بأنهم كانوا يعيشون كالبدو بدون مجتمعات مستقرة؛ وهكذا كانت الأرض تعد بمثابة بريةٍ شاغرةٍ متاحة لمطالب الوافدين الجدد بالحق في ملكيتها؛ لأنهم هم الذين سيزرعونها ويحسنوا من وضعها. اعتقد المستوطنون الأوروبيون أن الربط بين عمل الفرد وبين الأرض- وهو ما يُفتَرَض أن الهنود قد فشلوا في القيام به- يعطى الفرد الحق في ملكيتها.

رأى الأوروبيون أن تقسيم الهنود للعمل والأنظمة الأسرية الأمومية بين الجنسين، ينم عن ضعف الرجال وسوء معاملة النساء. كانت المهن الأولية للرجال الهنود، مثل صيد الحيوانات وصيد الأسماك، بمثابة أنشطة ترفيهية في معظم أنحاء أوروبا وليس عملاً "حقيقياً؛ وكثيرا ما كان يرى الأوروبيون أن عمل المرأة الهندية في الحقول يرجع إلى أنها تفتقر إلى الحرية، وأنها "ليست أفضل بكثير من العبيد" على حد تعبير أحد المحللين الإنجليز. اعتبر الأوروبيون أن الرجال الهنود "عديمي الرجولة" وأضعف من أن يمارسوا السلطة داخل أسرهم وكبح جماح الشهوة الجنسية الواضحة لزوجاتهم، وأنهم يتصفون بالكسل الشديد بحيث يدعون زوجاتهم تقمن بمعظم العمل المنتج؛ ومن هنا، فقد روَّج الأوروبيون في جميع أنحاء أمريكا الشمالية أفكار تنطوي على أنه ينبغي أن يقتصر عمل المرأة على الأعمال المنزلية، وأنه ينبغي على الرجال ممارسة سلطة أكبر داخل أسرهم؛ وأصر الأوروبيون على أنه من خلال إخضاع الهنود فإنهم بالفعل يقدمون لهم الحرية، أي حرية الدين الصحيح وحرية الملكية الخاصة، وتحرير كل من الرجال والنساء من التوزيع الغير مسيحي والغير متحضر لأدوار الجنسين.

الحرية الهندية والحرية الأوروبية

الحرية الهندية

ماذا فهم السكان الأصليون للعالم الجديد عن الحرية؟ رأى العديد من الأوروبيين أن الهنود يجسدون الحرية؛ وقد كتب مسئول استعماري عن قبيلة "أروكيوس" قائلاً "إنهم احتفظوا بمفاهيم مطلقة عن الحرية التي لا تسمح بأي نوع من تفوق أحد على آخر وإبعاد العبودية عن أراضيهم بشكل مطلق"، لكن سرعان ما خلص معظم المستعمرون إلى أن مفهوم "الحرية" الغربية كان غريبًا على المجتمعات الهندية. لم تشتمل القواميس الإنجليزية والفرنسية المبكرة للغات الهندية أي مدخلات لمصطلح "الحرية والاختيار"، وكتب أحد التجار الأوائل أن الهنود "ليس لديهم كلمات للتعبير عن الاستبداد بالسلطة والملوك الطغاة والرعايا المضطهدين أو المقهورين أو المطيعين".

في الحقيقة، اعتبر الأوروبيون أن الهنود همجيون بصورة جزئية؛ لأنه لم يكن يبدو آنذاك أنهم يعيشون في ظل حكومات محددة أو قوانين ثابتة، وليس لديهم احترام للسلطة؛ وقد كتب

أحد المبشرين بالمسيحية قائلاً عن الهنود، "هم يُولَدُون ويعيشون ويموتون في حرية دون قيد"، بمعنى أنهم كانوا أحرارًا بشكلٍ مفرط، حيث كانوا يفتقرون إلى النظام والانضباط اللذان يعتبرهما الأوروبيون بمثابة السمات المميزة للحضارة؛ وقد كتب "ريتشارد ايدن"، كاتب إنجليزي عاش في منتصف القرن السادس عشر، أن العبودية كانت مفضلةً في حالة الهنود حتى قبل الاتصال الأوروبي بهم، وهو ما وصفه بأنه يمثل "بالأحرى حالة من الفجور والإباحية الرهيبة أكثر من كونها حرية"؛ ولذلك، لم يكن "جيوفاني دا فيرازانو" يقصد مدح ومجاملة الهنود بوصفهم أنهم يعيشون في "حرية مطلقة".

ومن ثمَّ، لم يكن للفهم المألوف حديثًا للحرية بأنها تمثل الاستقلال الشخصي، الذي يستند غالبًا على أساس حيازة ممتلكات خاصة، أي معنى في معظم المجتمعات الهندية؛ ومع ذلك، كان للهنود بالتأكيد أفكار خاصة بهم عن الحرية؛ على الرغم من أن شراء وبيع العبيد كان غير معروف بالنسبة لهم، إلا أنه كان هناك قدر صغير من العبودية في بعض المجتمعات الهندية، وكذلك فكرة الحرية الشخصية كمقابل للعبودية؛ وقد شعر الهنود بالاستياء المرير تجاه جهود بعض الأوروبيين للحط من منزلتهم إلى مرتبة العبيد.

على الرغم من أنه كان المتوقع أن يفكر الأفراد لأنفسهم وألا يلتزموا دائمًا بصنع القرارات الجماعية، إلا أن الرجال والنساء الهنود كانوا يحكمون على بعضهم البعض وفقًا لقدرتهم على تقبل والامتثال للأفكار المفهومة على نطاق واسع للسلوك المناسب؛ وحيث كانت علاقات القرابة تعد أكثر أهمية من الحكم الذاتي الفردي، وكذلك القدرة على التزام المرء بالقيم الروحية ورفاهية وأمن مجتمعه؛ وكان الحكم الذاتي للمجموعة وتقريرها لمصيرها بنفسها، والالتزامات المتبادلة وما يترتب عليها من الشعور بالانتماء والترابط، تتميز بأسبقية على الحرية الفردية في الثقافة الهندية؛ ومن المفارقات أن قدوم الأوروبيين متسلحين بلغتهم الخاصة عن الحرية، من شأنه أن يجعل من الحرية الشغل الشاغل للهنود الأمريكيين كجزء لا يتجزأ من نفس العملية التي يتم من خلالها الحط من شأنهم إلى مستوى التبعية للمستعمرين.

الحرية المسيحية

وضع العديد من الأوروبيين عشية الاستعمار أفكارًا للحرية؛ كان بعضها قديم مثل المدن الكبرى التي تتمتع بالسيادة كما في اليونان القديمة، ونشأ بعضها الآخر أثناء الصراعات السياسية في أوائل العصر الحديث، ووضع البعض الأسس للمفاهيم الحديثة للحرية، بينما كان البعض الآخر غير مألوف تمامًا اليوم. لم تكن الحرية فكرة واحدة ولكن مجموعة من الحقوق والامتيازات الاستثنائية التي لا يتمتع بالعديد منها سوى قطاع صغير من السكان.

كان هناك ثمة تصور واحد مشترك في جميع أنحاء أوروبا يفهم الحرية باعتبارها وضعًا سياسيًا أو اجتماعيًا أقل من اعتبارها شرطًا أخلاقيًا أو روحيًا. كانت الحرية تعني التخلي عن حياة الخطيئة لتبني تعاليم المسيح، كما يقر ذلك العهد الجديد بأن "الحرية توجد حيثما توجد روح الله"؛ وقد انطوى هذا التعريف على تعزيز العبودية والحرية لبعضها البعض، ولا ينطوي هذا على حالات متناقضة، حيث إن الذين يقبلون تعاليم المسيحية يصبحون أحرارًا من الخطيئة" في نفس الوقت الذي يكونون فيه "عبيدا لله".

لم يكن "للحرية المسيحية" أي علاقة بالأفكار اللاحقة حول التسامح الديني، وهي الفكرة التي نادراً ما كانت موجودة في أي مكان عشية الاستعمار. كان لكل أمة في أوروبا كنيسة محددة تنظم طبيعة أشكال العبادة الدينية والعقائدية المقبولة؛ وكان يواجه المنشقون عن الكنيسة الاضطهاد من قبل الدولة فضلاً عن إدانة السلطات الكنسية. كان يُعتَقد أن التطابق الديني ضروريًا لحفظ النظام العام، وكان من غير المعروف تقريبًا الفكرة الحديثة التي مفادها أن معتقدات وممارسات الفرد الدينية هي مسألة اختيار شخصي يرتبط به وليست التزامًا قانونيًا. كانت تتركز الحروب الدينية التي عصفت بأوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر حول أي ديانة ينبغي أن تسود في مملكة أو إقليم ما، وليس حول حق الأفراد في اختيار أي كنيسة يجب أن يتعبد فيها.

الحرية والسلطة

توضح معادلة الحرية في شكلها العلماني مع الطاعة لسلطة أعلى أن الحرية لا تعني الفوضى ولكن الطاعة والانصياع للقانون؛ وكان أرسطو قد وصف القانون بأنه يمثل "الخلاص" بالنسبة للحرية، وليس عدوًا لها؛ ومع ذلك، فإن تعريف الحرية بأنها حكم القانون لم يكن يعني أن جميع الرعايا تحت حكم التاج كانوا يتمتعون بنفس الدرجة من الحرية. كانت المجتمعات الأوروبية الحديثة المبكرة هرمية للغاية، بتدرجات ملحوظة وفقًا للوضع الاجتماعي، بداية من الملك في قمة الهرم تليه الطبقة الأرستقراطية المتوارثة، ثم الفقراء في المناطق الحضرية والريفية في أسفل الهرم؛ بحيث تغلغلت عدم المساواة الاجتماعية تقريبًا في كل علاقة بالفعل؛ وادَّعى الملك أنه يمارس الحكم بسلطة الله؛ وطالب الأشخاص ذوي المراتب العليا بانصياع الطبقات الأدنى لهم؛ واحتكر أقل من 5 في المئة من السكان الثروة الاقتصادية والسلطة السياسية في إنجلترا.

وكان الرجال يمارسون سلطة على زوجاتهم وأطفالهم داخل الأسر؛ ووفقًا للمبدأ القانوني السائد المعروف باسم "العصمة للرجل"، تتخلى المرأة المتزوجة عن هويتها القانونية، وهي الهوية التي تصبح "مغطاة" من قبل زوجها، فهي لم يكن بإمكانها أن تتمتع بملكية خاصة، ولا تستطيع التوقيع باسمها على عقود، أو التحكم في أجرها إذا عملت أو قامت بكتابة وصية منفصلة، ولا

تستطيع الذهاب إلى المحكمة للحصول على الطلاق إلا فيما ندر. كان الزوج يتولى إدارة الأعمال والإدلاء بالشهادة في المحكمة بالنيابة عن جميع أفراد الأسرة، ولديه الحق الحصري على "صحبة" زوجته، بما في ذلك العمل في المنزل والعلاقات الجنسية.

كانت تعتمد الحياة الأسرية في كل مكان في أوروبا على هيمنة الذكور وخضوع الإناث؛ وفي الحقيقة، قارن الكتاب السياسيون في القرن السادس عشر سلطة الملك على رعاياه بسلطة الزوج على أسرته، حيث إن كلا السلطتين تستمد شرعيتهما من الله، وأشاروا إلى فقرة في العهد الجديد لتبرير هذه الحجة "كما أن الرجل يأتي على رأس المرأة، كذلك المسيح يأتي على رأس الكنيسة"، ولا يمكن التصدي لأي من سلطة الملك ولا سلطة الزوج دون تهديد نسيج النظام الاجتماعي.

الحرية والحريات

تحققت الحرية في هذا المجتمع الهرمي من خلال معرفة المرء لمكانته الاجتماعية والوفاء بالواجبات المناسبة لمنزلته؛ وقد افتقر معظم الرجال للحرية التي جاءت مع الاستقلال الاقتصادي؛ حيث أدت شروط الملكية وغيرها من القيود إلى جعل القدرة على التصويت تقتصر على جزء ضئيل من السكان الذكور البالغين؛ كما فرض القانون الطاعة الصارمة من قبل الموظفين وفرض عقوبات جنائية على انتهاكات عقود العمل.

كانت الأفكار الأوروبية عن الحرية ما زالت تحمل بصمة العصور الوسطى، عندما كانت تعني "الحريات" الحصول على امتيازات رسمية، معينة مثل الحكم الذاتي أو الإعفاء من الضرائب أو الحق في ممارسة تجارة معينة، والتي كان يتم منحها للأفراد أو الجماعات عن طريق عقد أو مرسوم ملكي أو الشراء؛ وقد قدم القاموس القانوني تعريفًا واحدًا للحرية بأنها تمثل "الامتياز ... الذي قد يجوز للرجال أن يتمتعوا بموجبه ببعض المنافع دون الرعايا العاديين." فعلى سبيل المثال، كان من يتمتعون "بحرية المدينة" وحدهم يستطيعون الاشتغال بأنشطة اقتصادية معينة.

لم تكن العديد من الحريات المدنية الحديثة متاحة؛ وكان القانون يحدد الأشكال المقبولة للعبادة الدينية. كانت الحكومة تقمع بانتظام المنشورات التي لا تروق لها، وكان يمكن أن يؤدي انتقاد السلطة إلى السجن. تمتع أعضاء مجلس العموم في إنجلترا بحرية التعبير خلال جلسات البرلمان، ولكن هذا الحق لم يمتد إلى المواطنين العاديين. كان الاستقلال الشخصي مقتصرًا على قطاع صغير من السكان، وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت السلطات ترى أن ظاهرة "الرجال الذين هم بدون وظائف منتظمة أو خارج سيطرة رؤسائهم الاجتماعيين" تشكل تهديدا؛ ورغم ذلك، كانت تزعم كل دولة أوروبية شاركت في استعمار العالم الجديد أنها تنشر الحرية لسكانه وللأمريكيين الأصليين.

التوسع الأوروبي

من المناسب أن يكون الحدث التاريخي الثاني الذي ربطه آدم سميث برحلة كولومبوس في عام 1492، هو اكتشاف البحارة البرتغاليين للطريق البحري من أوروبا إلى آسيا حول الطرف الجنوبي من إفريقيا. بدأ غزو أوروبا لأمريكا كجزء من السعي لإيجاد طريق بحري إلى الهند، والصين، وجزر الهند الشرقية، كمصدر للحرير، والشاي، والتوابل، والخزف، والسلع الفاخرة الأخرى التي كانت تقوم عليها التجارة الدولية في أوائل العصر الحديث. كانت هذه التجارة تجري لعدة قرون برًا من الصين وجنوب آسيا إلى الشرق الأوسط ومنطقة البحر الأبيض المتوسط. اجتمعت الرغبة في القضاء على الوسطاء الإسلاميين والفوز بالسيطرة على التجارة المربحة لأوروبا الغربية المسيحية، أو ما يعرف بشعار "الربح والتقوى" كوسيلة للتحفيز والسعي لإيجاد طريق مباشر إلى آسيا.

الصينيون والملاحة البرتغالية

ربما يكون قد تنبأ البعض في بداية القرن الخامس عشر بأن الصين ستضع أسس الإمبراطورية العالمية الأولى. قاد أمير البحار الأدميرال "تشنج هي" في الفترة ما بين عامي 1405-1433 ، سبع حملات بحرية كبيرة في المحيط الهندي؛ وتألفت القافلة الأولى من 62 سفينة أكبر من سفن أي دولة أوروبية، بالإضافة إلى 225 سفينة دعم وأكثر من 25.000 من الرجال. استكشف "تشنج" في رحلته السادسة سواحل شرق أفريقيا. كانت الصين بالفعل أهم اقتصاد تجاري في العالم حيث تنتشر طرق تجارتهم في المحيط الهندي. لم يكن غرض تشنج الاكتشاف ولكن لإذهال الشعوب الأخرى بقوة وعظمة الصين؛ وأنه إذا كانت سفنه قد واصلت إبحارها غربًا آنذاك، لكان بإمكانها أن تصل بسهولة إلى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، ولكن نظرًا لثراء الإمبراطورية الصينية المترامية الأطراف، لم تشعر بالحاجة للتوسع في الخارج، وأنهت الحكومة الدعم للحملات البحرية لمسافات طويلة بعد عام 1433. وقعت مسئولية الاستفادة من التقنيات الجديدة في الإبحار والملاحة، لبدء استكشاف المحيط الأطلسي، على البرتغال التي تقع في الزاوية الغربية من شبه جزيرة أيبيريا بعيدة كل البعد عن الطريق البري لآسيا.

كان ابتكار المركب الشراعي، وهي سفينة قادرة على السفر لمسافات طويلة، وكذلك اختراع البوصلة والربعية، وهما جهازان كانا يمكنان البحارة من تحديد موقعهم واتجاههم بدقة أكبر مما كان في الماضي، مما جعل في الإمكان الإبحار جنوب الساحل الإفريقي والعودة إلى البرتغال. كان البحارة البرتغاليون يأملون في البداية تحديد مصدر الذهب الذي كان يتم نقله لقرون في القوافل عبر الصحراء الكبرى لشمال إفريقيا وأوروبا. هذه التجارة التي كانت تمر عبر

مملكة مالي الإفريقية على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، والتي كانت توفر لأوروبا معظم ما تحتاج إليه من الذهب؛ وقد نافست هذه التجارة، في حوالي عام 1400، التجارة مع الشرق من حيث الأهمية الاقتصادية؛ وكما هو الحال بالنسبة للتجارة مع آسيا، كان التجار المسلمون يسيطرون عليها أيضا.

البرتغال وغرب إفريقيا

تعد إفريقيا اليوم بمثابة القارة الأكثر فقرًا في العالم، في حين أنها كانت معروفة في القرن الخامس عشر بثرواتها؛ وقد وضع حاكم مالي، مانسا موسى، مملكته على الخريطة بالمعنى الحرفي في عام 1324، عندما قاد رحلة حج عظيمة إلى مكة وقام بتوزيع الكثير من الذهب على طول الطريق لدرجة أن سعره قد انخفض لعقد من الزمان؛ ومع ذلك، لم ير أي بحار أوروبي حتى عام 1434 ساحل إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. أو ممالك الغابات جنوب مالي، والتي تشتمل على الحقول الفعلية للذهب، ولكن في تلك السنة جلبت سفينة برتغالية غصنًا من شجرة حصى البان من غرب إفريقيا كدليل على أنه يمكن الإبحار إلى ما وراء الصحراء والعودة؛ وشيئا فشيئا، انتقلت السفن البرتغالية إلى نقاط أبعد جنوب الساحل، ووصلت في عام 1485 إلى بنين وهي مدينة مهيبة كان ينتج حرفيوها التماثيل البرونزية التي لا تزال تستأثر بالإعجاب بها لجمالها الفني وتقنيات الصب الرائعة. أسس البرتغاليون مراكز تجارية محصنة على الساحل الغربي من إفريقيا؛ لقد دفعت وحفزت الأرباح التي كانت تحققها هذه "المصانع البرتغالية"- والتي كانت تحمل هذا المسمى لأن التجار كانوا معروفين باسم "العوامل"- القوى الأوروبية الأخرى إلى أن تحذو حذوهم.

بدأت البرتغال أيضًا في استعمار جزر الماديرا، والأزور، والكناري، والرأس الأخضر التي تقع في المحيط الأطلسي قبالة الساحل الأفريقي. ازدهرت مزارع السكر التي عمل فيها الأسرى المسلمين والعبيد من المناطق السلافية في شرق أوروبا في العصور الوسطى في جزر البحر الأبيض المتوسط مثل قبرص، ومالطا، وكريت؛ وحينذاك قام البرتغاليون بإنشاء مزارع آنذاك في الجزر الأطلسية، والتي أحلت في النهاية محل السكان الأصليين بالآلاف من العبيد الذين تم شحنهم من إفريقيا- في سابقة كانت نذير شؤم على العالم الجديد- وسرعان ما انتقل مركز إنتاج السكر مرة أخرى لنصف الكرة الغربي.

الحرية والعبودية في إفريقيا

يرجع تاريخ العبودية في إفريقيا إلى فترة طويلة قبل قدوم الأوروبيين إليها؛ وعادة ما كان يميل العبيد الأفارقة إلى أن يكونوا مجرمين، ومدينين، وأسرى حرب؛ وكانوا يعملون في الخدمة في منازل مالكيهم وكان لهم حقوق محددة، مثل حيازة الممتلكات والزواج من أشخاص أحرار.

لم يكن من غير المألوف أن يحصل العبيد الأفارقة على حريتهم. كانت العبودية تمثل إحدى أشكال العمل المختلفة، ولم تكن تشكل أساسًا للاقتصاد كما أصبحت بعد ذلك في مناطق كبيرة من العالم الجديد. كان لقدوم البرتغاليين، وسرعان ما تبعهم التجار من الدول الأوروبية الأخرى، كبير الأثر في تعجيل عمليات بيع وشراء العبيد داخل إفريقيا. تم نقل ما لا يقل عن 100.000 من العبيد الأفارقة إلى إسبانيا والبرتغال في الفترة ما بين عامي 1450 و 1500. في عام 1502، تم نقل العبيد الأفارقة الأوائل إلى جزر في البحر الكاريبي؛ وسوف نناقش قضية تجارة العبيد عبر المحيط الأطلسي وأثرها على إفريقيا في الفصل الرابع.

بعد أن وصل البحارة البرتغال إلى غرب إفريقيا، واصلوا استكشافاتهم جنوبًا على طول الساحل. وصل "بارثوموميو دياس" إلى رأس الرجاء الصالح في الطرف الجنوبي من القارة في عام 1487. في عام 1498، أبحر "فاسكو داجاما" حوله إلى الهند، مثبتًا إمكانية وجود طريق بحري إلى الشرق. أسست البرتغال إمبراطورية تجارية واسعة بعدد سكان أقل من 1 مليون نسمة مع قواعدها في الهند وجنوب الصين وإندونيسيا، واستبدلت دول المدينة الإيطالية الكبرى ذات السيادة بصفتها الشريك التجاري الأوروبي للشرق، غير أن كريستوفر كولومبوس كان قد اكتشف، قبل ست سنوات من رحلة دا جاما، ما كان يعتقد أنهم بمثابة طريق جديد إلى الصين والهند من خلال الإبحار غربا.

رحلات كولومبوس

كان كولومبوس، وهو بحار متمرس ومستكشف جريء، قد اعتاد أن يُبحر على مدار سنين طويلة من ميناء جنوه- ميناء رئيسي يقع في شمال إيطاليا-عبر البحر الأبيض المتوسط وشمال الأطلسي من أجل دراسة التيارات البحرية وأنماط الرياح هناك؛ ومثل جميع الملاحين تقريبًا في ذلك الوقت، أدرك كولومبوس أن الأرض كروية، لكنه بخس تقدير حجمها بدرجة كبيرة، إذ أنه كان يعتقد أنه من خلال الإبحار غربًا فسيكون في وسعه عبور المحيط الأطلسي بسرعة بشكل نسبي والوصول إلى آسيا. لم يعرف أحد في أوروبا أن قارتين عملاقتين يقعان على بعد 3.000 كيلومتر إلى الغرب؛ وقد أبحر القراصنة الإسكندنافيون (فايكنج) للتأكد من ذلك، بداية من جزيرة جرينلاند إلى جزيرة نيوفاوندلاند حوالي عام 1000 ميلادية، وأنشئوا مستوطنة تدعى "فينلاند"، في الموقع المعروف الآن باسم "لانس أوو ميدوز"، غير أنه تم التخلي عن هذه المستوطنة بعد بضع سنوات وأصبحت منسية، إلا في الأساطير الإسكندنافية.

سعى كولومبوس للحصول على الدعم المالي من جميع أنحاء أوروبا ليتم رحلته المخطط لها، حتى أن شقيقه "بارثولوميو" قد زار ملك إنجلترا "هنري السابع" ليطلب منه المساعدة؛ ومع ذلك،

كان معظم معاصرو كولومبوس يعرفون أن تقديره لحجم الأرض أقل كثيرًا من حجمها الحقيقي، مما يساعد على تفسير لماذا كان يواجه صعوبة في كسب المؤيدين لحملته؛ وأخيرًا، وافق الملك "فيرديناند" والملكة "إيزابيلا" من إسبانيا على مساندته، حيث وحَّد زواجهما في عام 1469 مملكتي أراجون وقشتالة المتحاربتين. في عام 1492، وأكملا "استعادة" إسبانيا من المغاربة، المسلمين الأفارقة الذين احتلوا جزءًا من شبه الجزيرة الأيبيرية لعدة قرون، والاستيلاء على "جرينادا"، آخر معقل للمغاربة، ثم أكملا توحيد أراضي إسبانيا؛ ومن أجل ضمان وحدتها الدينية، أمر فرديناند وإيزابيلا جميع المسلمين واليهود باعتناق الكاثوليكية أو مغادرة البلاد؛ وبالإضافة إلى التاج الإسباني، جاء الكثير من تمويل رحلة كولومبوس من رجال المال والتجار الإسبان ودول المدينة الإيطالية، والذين كانوا يرغبون بشدة في الالتفاف على قبضة المسلمين المهيمنة على التجارة الشرقية. بدأ كولومبوس رحلته وبصحبته رسائل ملكية مقدمة إلى الحكام الآسيويين، والتي كانت تمنحه حق التفاوض بشأن الاتفاقيات التجارية.

الاتصال

كولومبوس في العالم الجديد

في 12 أكتوبر (تشرين الأول) عام 1492، وبعد ثلاثة وثلاثين يومًا فقط من الإبحار من جزر الكناري، حيث كان قد توقف لإعادة تزويد سفنه الثلاث، وصل كولومبوس وحملته إلى جزر البهاما، غير أنه مازال هناك جدال حول مكان نزوله، ولكن ربما كان هذا المكان "سان سلفادور"، وهي بقعة صغيرة من الأراضي المعروفة اليوم باسم جزيرة "واتلينج"، ثم مر بعد ذلك بقليل بجزر هيسبانيولا الأكبر بكثير (والتي تشغل اليوم موقع هايتي وجمهورية الدومينيكان) وكوبا. عندما جَنَّحت إحدى سفنه تخلى عنها وترك ثمانية وثلاثين رجلا في هيسبانيولا، ولكنه وجد فرصة لجلب عشرة من سكان الجزيرة ليعود بهم إلى إسبانيا لتحويلهم إلى المسيحية.

في العام التالي، 1493، بدأ الاستعمار الأوروبي للعالم الجديد، حيث عاد كولومبوس مع سبع عشرة سفينة وأكثر من 1.000 من الرجال لاستكشاف المنطقة وإقامة بؤرة استيطانية إسبانية. فشل استيطان كولومبوس على جزيرة هيسبانيولا، والتي سماها لا إيزابيلا، غير أن مستكشف إسباني آخر يدعى "نيكولاس دي أورفاندو" وصل في عام 1502 في صحبة 2.500 من الرجال وأنشئ قاعدة دائمة هناك، والتي كانت بمثابة أول مركز للإمبراطورية الإسبانية في أمريكا. قبل وفاته في عام 1506، قام كولومبوس برحلتين آخريين إلى العالم الجديد في عامي 1498 و 1502، حيث ذهب إلى قبره معتقدا أنه اكتشف طريقًا نحو غرب آسيا؛ وقام إيطالي آخر، أمريجو فيسبوتشي، برحلات استكشافية على طول ساحل أمريكا الجنوبية في الفترة ما بين 1499 و1502،

وأوضح أنه تم الوصول إلى قارةٍ مجهولةٍ تمامًا بالنسبة للأوروبيين؛ لقد حمل العالم الجديد اسم "أمريجو فيسبوتشي" وليس اسم كولومبوس. أدرك فيسبوتشي كذلك أن السكان الأصليين في العالم القديم يمثلون شعوبًا متميزةً وليسوا سكان جزر الهند الشرقية كما كان يعتقد كولومبوس، على الرغم من أن اسم "الهنود" الذي أطلقه عليهم كولومبوس من قبل قد استمر حتى يومنا هذا.

الاستكشاف والغزو

كانت السرعة التي انطلق بها الاستكشاف الأوروبي في أعقاب رحلة كولومبوس الأولى لافته للنظر؛ وكان لاختراع تقنية الطباعة بحروف قابلة للتحريك، على يد الحرفي الألماني "يوهانس جوتنبرج" في الثلاثينيات من القرن الخامس عشر، عظيم الأثر في التمكن من النشر السريع للمعلومات في أوروبا، على الأقل بين الأقلية المتعلمة، حيث انتقل خبر إنجاز كولومبوس بسرعة، وقد أشاد به أحد الكتاب باعتباره "بطلاً تمامًا مثلما كان ينظر القدماء للآلهة"، واستوحى آخرون نجاحه للسير على خطواته، ومنهم جون كابوت، وهو تاجر من مدينة جنوه كان قد استقر في إنجلترا، حيث وصل إلى جزيرة نيوفاوندلاند في عام 1497، وسرعان ما نشطت حركة عشرات من قوارب الصيد من فرنسا، وإسبانيا، وإنجلترا في المنطقة؛ ثم طالب "بيدرو كابرال" بملكية البرازيل للبرتغال في عام 1500.

ولكن الإسبان أخذوا زمام المبادرة في مجال الاستكشاف والغزو، حيث انطلق الغزاة الإسبان من هيسبانيولا وبرفقتهم في الغالب المبشرين الدينين، مدفوعين بأهداف البحث عن الثروة والمجد الوطني والرغبة في نشر الكاثوليكية، ورفعوا أعلامًا مزينةً بعلامة الصليب. في عام 1513، قام "فاسكو نونيز دي بالبوا" برحلة طويلة مرهقة عبر "برزخ بنما" وأصبح أول أوروبي يقع نظره على المحيط الهادئ. قاد "فريدناند ماجلان" في الفترة ما بين 1519 و 1522 الحملة الأولى للإبحار حول العالم، حيث وصل إلى جزر المحيط الهادئ وسكانها الذين لم يكونوا معروفين بالنسبة لأوروبا من قبل؛ وقد لقى "ماجلان" حتفه في الفلبين، ولكن أسطوله أكمل الرحلة، وصحح بذلك بصورة نهائية تقدير كولومبوس الخاطئ لحجم الأرض.

كان "هرنان كورتيس" هوأول مستكشف يصادف حضارة أمريكية كبيرة، حيث وصل في عام 1519 إلى تينوشتيتلان التي تعتبر المركز العصبي لإمبراطورية الأزتيك، التي ظلت ثروتها وسلطتها ترتكز على هيمنتها على العديد من الشعوب التابعة القريبة. كانت شعوب الأزتيك عنيفة ومحاربين أقوياء، والذين كانوا يشاركون في طقوس التضحية بالأسرى وغيرهم، وكان يبلغ عددهم بالآلاف في وقت واحد في بعض الأحيان. أدت هذه الممارسة العنيفة بشكل كامل إلى نفور جيرانهم منهم، وعززت من نظرة الإسبان لسكان أمريكا الأصليين بأنهم برابرة، وبالرغم

من أنه كان قد تم حرق الآلاف من الرجال والنساء في أوروبا في هذا الوقت بتهم السحر أو الزندقة الدينية، إلا أنه كان يتم إعدام المجرمين أمام العامة مما كان يجذب حشود من المتفرجين.

قام القائد المقدام "كورتيس" بغزو مدينة الأزتيك بالاستعانة ببضع مئات من الرجال الأوروبيين فقط، واعتمد على التكنولوجيا العسكرية المتفوقة مثل الأسلحة الحديدية والبارود، وكذلك الدهاء في تجنيد المساعدات من بعض الشعوب الخاضعة للأزتيك الذين زوده بالآلاف من المحاربين؛ ومع ذلك، كان أقوى حلفائه وباء الجُدري الذي دمر المجتمع الأزتيكي؛ وبعد سنوات قليلة، غزا "فرانسيسكو بيزارو" مملكة الاينكا العظيمة التي كانت تتمركز في المنطقة المسماة بدولة بيرو حاليا. كانت تكتيكات "بيزارو" مماثلة لتلك التي ينتهجها الغزاة الفاتحون؛ حيث قام أولاً بأسر ملك الاينكا وطالب بفدية وحصل عليها، ثم قتل الملك بالرغم من ذلك؛ وسرعان ما قامت الأساطيل بنقل الكنوز من شحنات الذهب والفضة من مناجم المكسيك وبيرو والعبور بها عبر المحيط الأطلسي لإثراء التاج الإسباني.

الكارثة الديموغرافية (السكانية)

لقد أحدث تدفق البضائع والناس عبر الأطلسي، وهو ما يطلق عليه في بعض الأحيان "التبادل الكولومبي"، إلى ملايين من السنين من التطور، حيث التقت معًا النباتات والحيوانات والثقافات التي كانت قد تطورت بشكل مستقل في قارات منفصلة. اشتملت المنتجات التي أُدخِلَت إلى أوروبا من الأمريكتين على الذرة والطماطم والبطاطس والفول السوداني والتبغ والقطن، بينما جلب الناس من العالم القديم إلى العالم الجديد القمح والأرز وقصب السكر والخيول والماشية والخنازير والأغنام؛ ومع ذلك، حمل الأوروبيون أيضًا معهم إلى العالم الجديد الجراثيم التي لم تكن معروفة من قبل في الأمريكتين.

لا أحد يعلم على وجه الدقة كم كان عدد الناس الذين كانوا يعيشون في الأمريكتين في وقت رحلات كولومبوس- وتشير التقديرات الحالية إلى أنهم كانوا يتراوحون ما بين 50- 90 مليون. كان عدد سكان أوروبا في عام 1492 (بما فيها روسيا) حوالي 90 مليون نسمة، وكان عدد سكان إفريقيا حوالي 40 مليون نسمة، بينما كان يعيش حوالي 210 مليون نسمة في الصين والهند في ذلك الوقت. عاش معظم سكان العالم الجديد في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية؛ وكان عدد السكان الهنود داخل حدود ما يعرف الآن بالولايات المتحدة في عام 1492 يتراوح ما بين 2 - 5 ملايين نسمة.

وأيًا كانت أعدادهم، فقد عانى السكان الهنود من انخفاض كارثي في أعدادهم بسبب الاختلاط مع الأوروبيين، والمشاركة في حروبهم، وخضوعهم للاستعباد، والإصابة بالأمراض،

ولاسيما الجدري، والأنفلونزا، والحصبة؛ ونظرًا لأن الهنود لم يكونوا قد تعرضوا لهذه الأمراض من قبل، لذلك لم يكن قد ابتكروا أجسامًا مضادة لمحاربتها، مما كان له نتائج مدمرة، حيث خلت العديد من الجزر الهندية الغربية من السكان تقريبا، فقد اختفى السكان الأصليون في هيسبانيولا بعد خمسين عامًا تقريبًا، بعد أن كان يُقَدَّر عددهم بما يتراوح بين 300.000 و 1 مليون نسمة في عام 1492، وانخفض عدد سكان المكسيك بنسبة أكثر من 90 في المئة في القرن السادس عشر، ربما من 20 مليون إلى أقل من 2 مليون نسمة؛ أما بالنسبة للمنطقة التي تشكل الآن الولايات المتحدة، فقد انخفض عدد السكان الأمريكيين الأصليين بشكل مستمر، ووصل إلى أدنى نقطة حوالي عام 1900 حيث بلغ 250.000 نسمة فقط.

وبشكل عام، كان وفاة قرابة 80 مليون شخص - ربما ما يقرب من خمس الجنس البشري- خلال القرن الأول والنصف من القرن الثاني بعد الاتصال مع الأوروبيين- يمثل أكبر الخسائر في الأرواح في تاريخ البشرية؛ وكان تمكن الأوروبيين من قهر الأمريكتين يرجع إلى تفشي المرض بنفس قدر البراعة العسكرية والتكنولوجيا الأكثر تقدمًا التي كانوا يمتلكونها.

الإمبراطورية الإسبانية

أقامت إسبانيا بحلول منتصف القرن السادس عشر إمبراطورية هائلة وصلت منْ أوروبا إلى الأمريكتين وآسيا؛ وبعد أن كان المحيطان الأطلسي والهادئ اللذان يمثلان قبل ذلك حواجز تفصل مناطق مختلفة من العالم، أصبحا الآن بمثابة طرق سريعة لتبادل السلع وحركة الناس. استخدمت إسبانيا الغليون (سفينة إبحار كبيرة تعود للقرون 15-17 تستخدم للتجارة.) لحمل الذهب والفضة من المكسيك وبيرو شرقًا إلى إسبانيا وغربًا إلى مانيلا في الفلبين وإلى الصين.

شملت الإمبراطورية الإسبانية الأجزاء الأكثر اكتظاظًا بالسكان في العالم الجديد والمناطق الأغنى في الموارد الطبيعية. تمتد جبال أمريكا الجنوبية من جبال الأنديز ومرورًا بما يُعرَف الآن بالمكسيك ومنطقة البحر الكاريبي حتى وصلت في نهاية المطاف إلى ولاية فلوريدا والجنوب الغربي للولايات المتحدة، وقد فاقت الإمبراطورية الرومانية في العالم القديم من حيث الحجم. اتخذت الإمبراطورية الإسبانية مركزًا لها في أمريكا الشمالية في العاصمة الرائعة مكسيكو سيتي، المبنية على أطلال مدينة الأزتيك تينوشتيتلان، التي كانت تذخر بالكنائس، والمستشفيات، والأديرة، والمباني الحكومية وأول جامعات العالم الجديد. على عكس الإمبراطوريات الإنجليزية والفرنسية في العالم الجديد، كانت أمريكا الإسبانية في الأساس حضارة متمدينة، أي إمبراطورية من المدن. وظلت مدنها الكبرى، ولا سيما مكسيكو سيتي، وكيتو، وليما، تفوق بكثير ولقرون في إشعاعها الحضري أي من المراكز الحضرية في أمريكا الشمالية ومعظم تلك المراكز في أوروبا.

حكم أمريكا الإسبانية

نافس النظام الإسباني في حكم مستعمراته النظام في روما القديمة؛ وقام التاج الإسباني باستبدال نظام الغزاة الفاتحين المسلح بقوة تدميرية بنظام أكثر استقرارًا مكون من حكومة يرأسها المحامون والمسؤولون الحكوميون؛ وقد عكس الحكم الإسباني لأمريكا - على الأقل من الناحية النظرية - شكل الحكم المطلق للأمة الموحدة حديثًا في البلد الأم. كانت تقوم السلطة في وجود الملك على القمة ثم تتدرج إلى أسفل من خلال مجلس جزر الهند - الهيئة الرئيسية في إسبانيا للإدارة الاستعمارية - ومن ثَمَّ إلى الخلفاء في المكسيك وبيرو وغيرهم من المسئولين المحليين في أمريكا؛ وقد لعبت الكنيسة الكاثوليكية أيضًا دورًا هامًا في إدارة المستعمرات الإسبانية، وكثيرًا ما تمارس سلطتها على مسائل العقيدة والأخلاق ومعاملة الهنود.

أبقى الملوك المتعاقبون على المجالس المنتخبة خارج نطاق الإمبراطورية الإسبانية في العالم الجديد؛ وبصفة عامة، كان يتم تعيين المسئولين الملكيين من إسبانيا وليس من الكريول، كما كان يطلق على الأشخاص الذين ولدوا في المستعمرات من أصول أوروبية. كانت للدولة الإمبراطورية وجود حقيقي ومستمر في أمريكا الإسبانية، ولكن مع تراجع قوتها في أوروبا في بداية القرن السابع عشر أصبحت النخبة المحلية تتمتع بالمزيد والمزيد من السلطة الفاعلة على شئون المستعمرات؛ ونظرًا لاتساع الإمبراطورية، كانت تتمتع المجالس البلدية المحلية، والجامعات، والمنظمات التجارية، والنقابات الحرفية بدرجة كبيرة من الاستقلالية.

المستعمرون في أمريكا الإسبانية

على الرغم من الانخفاض في عدد السكان الأصليين، ظلت أمريكا الإسبانية مأهولةً بعدد كاف من السكان، فيما عدا جزر الهند الغربية وعدد قليل من المدن، بحيث كان الاستيراد الواسع النطاق للعبيد الأفارقة غير ضروري، ولكن أجبر الإسبان عشرات الآلاف من الهنود للعمل في مناجم الذهب والفضة مما وفر الثروة للإمبراطورية، أو العمل في المزارع واسعة النطاق، أو العمل في الضياع التي يسيطر عليها الملاك الإسبان؛ وعلى عكس غيرها من إمبراطوريات العالم الجديد، كان الهنود في أمريكا الإسبانية يقومون بمعظم العمل، وعلى الرغم من أن الإسبان أدخلوا الثروة الحيوانية والقمح والسكر، إلا أن أهم المحاصيل الزراعية كانت هي نفسها التي كان يتم زراعتها قبل الاستعمار، أي الأذرة والفاصوليا والقرع.

صرح أحد المسئولين الإسبان أنه "يجب أن يكون مبدأ الفاتحين هو الاستيطان"، ومنعت الحكومة غير الإسبان من الهجرة إلى الأراضي الأمريكية، وكذلك منعت غير المسيحيين الإسبان، بما في ذلك اليهود والمسلمين، ولكن الفرصة لتحقيق التقدم الاجتماعي جذبت العديد من

المستعمرين من إسبانيا (225.000 مستوطن في القرن السادس عشر وما مجموعه 750.000 مستوطن في القرون الثلاثة من الحكم الاستعماري الإسباني). كانت الغالبية العظمى في البداية من الشباب الرجال غير المتزوجين وكثير منهم من العمال والحرفيين والجنود، ولكن وصل في نهاية المطاف عدد كبير من الأسر؛ وبالإضافة إلى ذلك، وصل أيضًا كثير من المسئولين الحكوميين والقساوسة والمهنيين، وكذلك الأرستقراطيين الأقل مرتبة؛ وكانوا جميعًا على استعداد لتوجيه العمل اليدوي للهنود، نظرًا لأن العيش بدون الحاجة إلى العمل كان علامة على المكانة الاجتماعية النبيلة، وكان يتمتع الأكثر نجاحًا من هؤلاء المستعمرين بحياة ترف مماثلة لتلك التي تعيشها الطبقات العليا في الوطن الأم إسبانيا.

المستعمرون والهنود

على الرغم من أن الأشخاص المنتمين لأصول أوروبية كانوا يحتلون قمة الهرم الاجتماعي، إلا أنهم لم يشكلوا أبدا أكثر من نسبة ضئيلة من سكان أمريكا الإسبانية؛ وخلافًا لما حدث لاحقًا مع الإمبراطورية البريطانية، كان عدد السكان الهنود يفوق دائمًا عدد المستعمرين الأوروبيين وأحفادهم في أمريكا الإسبانية، وظلت مناطق واسعة تحت إطار السيطرة الهندية على نحو فعال ولسنوات عديدة؛ وعلى غرار الإمبراطورية الفرنسية في وقت لاحق، وعلى عكس الإمبراطورية الإنجليزية، منحت السلطات الإسبانية للهنود حقوقًا معينة داخل المجتمع الاستعماري، وتطلعت إلى اندماجهم واستيعابهم في النهاية. في الحقيقة، اعتمد نجاح الإمبراطورية الإسبانية على طبيعة المجتمعات المحلية التي كان يمكنها البناء عليها. ظل الحكم الإسباني ضعيفًا وواهيًا في فلوريدا، والأمازون، وجزر البحر الكاريبي مثل جامايكا، حيث كانت تفتقر هذه المناطق إلى المدن الهندية الرئيسية وإلى نسبة كبيرة من السكان الأصليين.

أمر النظام الإسباني الحاكم زوجات المستعمرين بالانضمام إلى أزواجهن في أمريكا، وطلب من الرجال الغير متزوجين أن يتزوجوا، ولكن نظرًا لأن نسبة النساء الإسبانيات من السكان ظلت منخفضة، لذلك سرعان ما بدأ الاختلاط بين الشعوب المستعمرة والشعوب الهندية، وبالفعل وافقت الحكومة الإسبانية رسميًا في أوائل عام 1514 على مثل هذه الزيجات، وذلك باعتبار أن الزواج يمثل من ناحية ما وسيلة لإدخال المسيحية إلى السكان الأصليين. بحلول عام 1600، كان الهجناء (الأشخاص من أصل مختلط بين الهنود والإسبان) يمثلون نسبة كبيرة من السكان في المناطق الحضرية من أمريكا الإسبانية. عاود الهجناء الإقامة في وادي المكسيك في القرن الذي يليه، حيث أن تفشي المرض قد حصد أرواح السكان الأصليين. مع مرور الوقت، طورت أمريكا الإسبانية ثقافة هجينة، تجمع بين جزء إسباني وجزء هندي، وفي بعض المناطق

جزء إفريقي، ولكن يجمعهم جميعا عقيدة إيمانية رسمية واحدة ولغة واحدة ونظام حكومي واحد. في عام 1531، ذكر هندي فقير، يدعى "خوان دييجو" أنه شاهد رؤية للسيدة مريم العذراء، حيث كانت تشبه كثيرًا المرأة الهندية ذات البشرة الداكنة بالقرب من قرية مكسيكية، وتوالى الإبلاغ عن معجزات وتم بناء مزارًا هناك تكريمًا لها؛ حدث كذلك أن اكتسبت العذراء "جوادالوب" (نهر الحجارة السوداء، وهي تمثل راعية المكسيك والأمريكتين) تبجيلاً من قبل الملايين باعتبارها رمزًا لاختلاط الثقافات الهندية والإسبانية، وفيما بعد رمزًا لدولة المكسيك الحديثة.

مبررات الغزو

تساءل المفكر القانوني الهولندي في القرن السابع عشر "هوجو جروتيوس": ما الذي يسمح لأمة أن تَدَّعِي ملكية أراضي تنتمي إلى أمة أخرى؟ ونادرًا ما راود هذا السؤال معظم الأوروبيين الذين عبروا المحيط الأطلسي في أعقاب رحلة كولومبوس أو حكام العالم القديم، حيث كان لديهم ثقة كبيرة في تفوق ثقافاتهم على الثقافات التي واجهوها في أمريكا، وتوقعوا أن هذه المجتمعات ستتخلى عن المعتقدات والتقاليد الخاصة بها، ويعتنقون معتقدات وتقاليد القادمين الجدد؛ غير أن فشل السكان الأصليين في القيام بذلك عزز من قناعة المستعمرين بأن هؤلاء الناس كانوا غير متحضرين" و "وثنيين وكفار" (غير مسيحيين).

لم يجلب الأوروبيون معهم فقط تاريخ طويل من استخدام العنف لإخضاع خصومهم في الداخل وفي الخارج، ولكنهم جلبوا معهم أيضًا الحماس التبشيري لنشر ثمار حضارتهم للآخرين، بينما يجنون ثمار كونهم إمبراطورية؛ ولم تكن إسبانيا استثناءً لهذه الحالة، إذ قامت بإنشاء إمبراطوريتها في أمريكا في أعقاب توحيد إسبانيا للإقليم الخاص بها، وصعود حكومة ملكية قوية، وإنفاذ العقيدة الدينية من خلال طرد المسلمين واليهود في عام 1492؛ ولإضفاء مزيد من المشروعية على دعوى إسبانيا لحكم العالم الجديد، قام البابا الكسندر السادس بعد عام على رحلة كولومبوس الأولى بتقسيم العالم غير المسيحي بين إسبانيا والبرتغال، ثم تم تعديل خط الحدود في وقت لاحق؛ لإعطاء البرتغال الهيمنة على البرازيل، بينما يخضع ما تبقى من نصف الكرة الغربي تحت السلطة الإسبانية.

نشر العقيدة الدينية

ليس من المستغرب أن يبرر ويطلب البابا بعد هذه الفتوى من إسبانيا والبرتغال نشر المذهب الكاثوليكي بين السكان الأصليين للأمريكتين؛ وكان العنصر التبشيري للاستعمار مألوفًا بالفعل بسبب الحرب المقدسة الطويلة ضد الإسلام داخل إسبانيا نفسها، وقد وجد دعمًا قويًّا في القرن السادس عشر، عندما أدى الإصلاح البروتستانتي إلى تقسيم الكنيسة الكاثوليكية.

في عام 1517، نشر القس الألماني "مارتن لوثر" خمس وتسعين رسالة علمية اتهم فيها الكنيسة بالانخراط في الأمور الدنيوية والفساد، وأراد تطهيرها من الانتهاكات، مثل بيع صكوك الغفران (ضمانات رسمية لغفران الخطايا)، وأصر على أنه ينبغي على جميع المؤمنين قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم بدلاً من الاعتماد على القساوسة لتفسيره لهم. أدت دعوة لوثر للإصلاح إلى نشأة الكنائس البروتستانتية الجديدة المستقلة عن روما، وسقوط أوروبا في صراع ديني وسياسي امتد لأكثر من قرن.

ضاعفت إسبانيا، التي تعتبر أقوى معقل للكاثوليكية الأرثوذكسية، من جهودها لتحويل الهنود إلى "العقيدة الصحيحة". انطلقت مسيرة تحقيق المجد الوطني جنبًا إلى جنب مع مسيرة التبشير الديني؛ ونتيجة لقناعة إسبانيا بتفوق الكاثوليكية على كل الأديان الأخرى، فقد أصرت على أن الهدف الأساسي للاستعمار كان لإنقاذ الهنود من الوثنية، ومنعهم من الوقوع تحت سطوة البروتستانتية. لم يكن الهدف هو إبادة أو التخلص من الهنود، ولكن لتحويلهم إلى رعايا مسيحيين مطيعين للتاج الملكي؛ وفي الحقيقة، ونظرًا لغياب مفهوم "الجنس أو العرق"، الذي ظهر في وقت لاحق باعتباره يمثل مجموعة فطرية من الصفات والقدرات التي لا تتغير، أصر العديد من الكُتّاب الإسبان على أن الهنود يمكنهم مع الوقت أن "يلحقوا" بمستوى الحضارة الأوروبية؛ ولا يعني هذا بالطبع الاقتصار على تدمير الأنظمة السياسية الهندية، ولكنه يعني أيضًا تحويل حياتهم الاقتصادية والروحية.

الربح والتقوى

لم يكن العدد الكبير للسكان الأصليين في الأمريكتين، بالنسبة للمستعمرين الإسبان، مجرد أنفس يتم إنقاذها من خلال اعتناق المسيحية، ولكنهم كانوا يمثلون أيضاً قوة العمل التي يجب أن يتم تنظيمها لاستخراج الذهب والفضة، الأمر الذي من شأنه أن يثري البلد الأم إسبانيا؛ وكان يمثل التوتر بين هذين التوقعين طابعًا يميز الحكم الإسباني في أمريكا لثلاثة قرون؛ فمن جهة، أعلن الحكام الإسبان هدف جلب "الحرية" الحقيقية إلى الهنود من خلال توجيههم للمسيحية، حتى استعباد المواطنين برروه كوسيلة لتحريرهم من تخلفهم وهمجيتهم و لتمكينهم من أن يصبحوا جزءًا من الحضارة المسيحية. تم إنشاء البعثات التبشيرية بالمسيحية في جميع أنحاء الإمبراطورية، وعلى مر الزمن تحول الملايين من الهنود إلى الكاثوليكية.

ومن ناحية أخرى، شهد الحكم الإسباني، ولاسيما في الفترة الأولي، هبوطًا كارثيًا في عدد السكان الهنود، ليس فقط بسبب الأوبئة ولكن أيضًا بسبب ظروف العمل الوحشية التي تعرضوا لها. لم ير الغزاة والحكام اللاحقون- الذين طالبوا الشعوب التي غزوها بالاعتراف بالكنيسة

الكاثوليكية وتوفير الذهب والفضة - أي تناقض بين خدمة الله وبين جني الثروات لأنفسهم؛ ومع ذلك، كان آخرون يرون غضاضة في ذلك.

شكوى لاس كاساس

جرَّم البابا بولس الثالث، الذي كان يأمل في أن يصبح الهنود من الرعايا المتدينين للملوك الكاثوليك في أوائل عام 1537، استعبادهم (بمرسوم لم يتم تطبيقه أبدًا على الأفارقة)، حيث أعلن أن الهنود "رجال حقيقيون" ولا يجب "معاملتهم كحيوانات غبية." نشر قسيس الدومينيكان "بارتولوميه دي لاس كاساس" بعد خمسة عشر عامًا تقريرًا بعنوان مؤثر "تقرير موجز جدًا عن تدمير السكان الهنود". كان والد "لاس كاساس" قد أبحر في الرحلة الثانية لكولومبوس، وقد شارك كاساس بنفسه في غزو كوبا، ولكنه أطلق سراح عبيده من الهنود في عام 1514، وبدأ الوعظ ضد مظالم الحكم الإسباني.

أدانت كتابات لاس كاساس إسبانيا لأنها تسببت في وفاة الملايين من الأبرياء، وذكر قائلاً "إنها أفعال إسبانيا المعتادة في ارتكاب مجزرة في كل الأراضي التي يكتشفونها" من أجل جعل السكان "يرتعدون من الخوف"، وسرد بتفاصيل مروعة "الأعمال الوحشية الغريبة" التي نفذها "المسيحيون"، بما في ذلك حرق الرجال والنساء والأطفال أحياء وفرض العمل بالسخرة، واستطرد قائلاً "لقد حُرِمَ الهنود تمامًا من حريتهم، وتم إخضاعهم لأقسى وأشرس وأفظع عبودية وأسر." أصر لاس كاساس، قبل أن تشيع الفكرة، على أن الهنود كائنات عاقلة، وليس برابرة، وأن إسبانيا ليس لها أي حق في حرمانهم من أراضيهم ومن الحرية؛ لقد أعلن قائلاً "إن الجنس البشري كله جنس واحد"، وبينما واصل اعتقاده بأن إسبانيا لديها الحق في حكم أمريكا، استنادا إلى حد كبير لأسس دينية، إلا أنه طالب بأن يتمتع الهنود "بجميع ضمانات الحرية والعدالة" منذ اللحظة التي يصبحوا فيها رعايا لدولة إسبانيا، وكتب قائلاً بالتأكيد، "ليس هناك ما هو أغلى ولا أكثر تبجيلاً في الحياة الإنسانية من الحرية." ومع ذلك، أشار "كاساس" إلى أن استيراد العبيد من إفريقيا سوف يساعد على حماية الهنود من الاستغلال.

إصلاح الإمبراطورية

مثل باقي الإسبان، اعتقد "لاس كاساس" أن المبرر الرئيسي لوجود الإمبراطورية الإسبانية في أمريكا يتمثل في تحويل الهنود إلى المسيحية، إلا أنه كان يخشى أن تبدد تلك القسوة الإسبانية هذا الجهد. أصدرت إسبانيا عام 1542 القوانين الجديدة، وذلك بفضل جهود "لاس كاساس" إلى حد كبير، التي كانت تحظر استعباد الهنود من الآن فصاعدا؛ ولم يلق هذا التغيير إجماعًا في الترحيب به. نظم "جونزالو بيزارو"، شقيق فاتح بيرو، تمردًا ضد القانون احتجاجًا عليه ولكنه باء بالفشل.

في عام 1550، ألغت إسبانيا النظام المسمى (Encomienda) الذي كان يُخَوِّل للمستوطنين الأوائل سلطة على الأراضي الهندية التي غزوها، مع الحق في فرض السخرة على السكان الأصليين، وأحلت الحكومة محله بنظام يقضي بأن يظل سكان القرى الهندية يتمتعون بحريتهم بشكل قانوني، ويحق لهم الحصول على أجور مقابل عملهم، ولكنهم لا يزالون ملزمين بأداء قدر معين ثابت من العمل كل عام. لم يكن الهنود عبيدا - حيث كان يمكنهم الحصول على الأراضي ويحصلون على أجر مقابل العمل ولا يمكن شرائهم أو بيعهم، ولكن نظرًا لأن شرط عملهم لحساب الإسبانيين كان يمثل جوهر النظام السائد، فإنه لا يزال يسمح بحدوث كثير من الانتهاكات من قبل الملاك الإسبانيين والقساوسة، الذين طلبوا من الهنود أن يكدحوا في أراضي بعثات التبشير بالمسيحية، كجزء من عملية التحول للمسيحية؛ وفي الحقيقة، أعقب ذلك صراع طويل بين المستوطنين والمبشرين والسلطات الاستعمارية للسيطرة على العمالة الهندية، وزعم كل طرف منهم أنه السيد الأعلى صاحب الأمر والنهي، وأنه يتميز بالإنسانية والرقة ونـدد بالآخرين باعتبارهم يستغلون السكان الأصليين.

بحلول نهاية القرن السادس عشر، كان العمل في الإمبراطورية الإسبانية يتألف إلى حد كبير من العمل القسري من قبل السكان الأصليين في مقابل أجر، والسخرة من قبل الأفارقة في الجزر الهندية الغربية بالإضافة إلى بضعة أجزاء من المناطق البرية؛ ومثل جميع الإمبراطوريات، ظلت إسبانيا استغلالية وانتهازية للغاية على الدوام؛ ومع مرور الوقت، تحسنت المعاملة الوحشية الأولى للهنود بعض الشيء، ولكن كتابات لاس كاساس التي تم ترجمتها على الفور تقريبًا إلى عدة لغات أوروبية، ساهمت في انتشار "الأسطورة السوداء"، أي صورة إسبانيا بوصفها مستعمرًا وحشيًا واستغلاليًا بشكل فريد، مما كان من شأنه أن يوفر مبرر للقوى الأوروبية الأخرى لمواجهة هيمنة إسبانيا في العالم الجديد.

استكشاف أمريكا الشمالية

بينما تركزت الإمبراطورية الإسبانية في المكسيك، بيرو، وجزر الهند الغربية، سرعان ما دفع أمل العثور على مملكة جديدة من الذهب المستكشفين الإسبان إلى الأراضي التي تشكل الآن جزءًا من الولايات المتحدة؛ حيث دخل "خوان بونس دي ليون"، الذي كان قد غزا بورتوريكو، إلى فلوريدا في عام 1513 بحثًا عن العبيد، والثروة، ونافورة الشباب الأسطورية، غير أن الهنود المحليين تصدوا له. في عام 1528، انطلقت حملة أخرى من إسبانيا نحو فلوريدا للنهب والسلب، ولكن بعد سلسلة من العواصف لم يصل إلى ساحل الخليج إلا حفنة من الرجال؛ حيث كانوا يحاولون عبور الجنوب الغربي لمدة سبع سنوات، حتى وصل عدد قليل من الناجين إلى المكسيك

في عام 1536، وكتب أحدهم ويدعى، الفار نونيز كابيزا دي فاكا، تقريرًا عن مغامراته بما في ذلك حكايات رواها السكان الأصليين (ربما لإقناع القادمين الجدد بالمضي قدما) عن مدن سيبولا الذهبية السبع التي تقع في مكان ما وراء الأفق.

استكشف "خوان رودريجيز كابريلو" في أواخر الثلاثينيات والأربعينيات من القرن السادس عشر ساحل المحيط الهادئ، ووصل إلى مسافة بعيدة جهة الشمال حتى الموقع الحالي لولاية أوريجون، كما سارت البعثات بقيادة هيرناندو دي سوتو، وكابيزا دي فاكا، وفرانسيسكو فاسكيز دي كورونادو وغيرهم في منطقة الخليج وفي الجنوب الغربي، وبحثوا دون جدوى عن مكسيك أو بيرو أخرى؛ وقد استكشف "كورونادو" الكثير من المناطق الداخلية من القارة ووصل شمالاً حتى السهول الكبرى، وأصبح أول أوروبي يقع ناظريه على قطعان الجاموس الهائلة التي تجوب الغرب. كانت هذه الحملات-التي كانت بالفعل بمثابة مجتمعات متنقلة مع مئات المغامرين، والقساوسة، والمستوطنين المحتملين، والعبيد، والمواشي- السبب وراء انتشار الأمراض والدمار بين المجتمعات الهندية؛ وكان "دي سوتو" وحشيًا بشكل خاص، وقام رجاله بتعذيب واغتصاب واستعباد عدد لا يحصى من الهنود ونقلوا الأمراض الفتاكة؛ وعند عودة الأوروبيين في القرن السابع عشر لاستعمار المنطقة التي عبرها "دي سوتو" لم يجدوا سوى القليل من المجتمعات التي مر بها في طريقه، حيث لم يجد المستكشفون سوى قطعان الثيران البرية (البيسون) التي ترعى هناك محل المدن الكبيرة التي كانت موجودة خلال حملات دي سوتو.

فلوريدا الإسبانية

كانت هذه الاستكشافات، رغم ذلك، بمثابة الأساس الذي استندت عليه إسبانيا في مطالبتها بجزء كبير مما يمثل الآن جنوب وجنوب غرب أمريكا؛ وكانت فلوريدا هي المنطقة الأولى التي تم استعمارها داخل ما يُعرَف حاليا بالولايات المتحدة. كانت إسبانيا تأمل في إنشاء قاعدة عسكرية هناك؛ لمحاربة القراصنة الذين يهددون أسطول الكنوز الذي كان يبحر في كل عام من منطقة الهافانا لأوروبا محملاً بالذهب والفضة من المكسيك وبيرو، وأرادت كذلك إحباط محاولات التوغل الفرنسي في المنطقة. في عام 1565، منح فيليب الثاني ملك إسبانيا تفويضًا للنبيل "بيدرو مينينديز دي أفيلس" لقيادة الحملة الاستعمارية لمنطقة فلوريدا؛ قام "مينينديز" بتدمير نقطة عسكرية صغيرة في حصن كارولين، الذي أنشأه مجموعة من المسيحيين الفرنسيين (الفرنسيين البروتستانت) في عام 1562 بالقرب من موقع "جاكسونفيل" في الوقت الحاضر؛ ذبح مينينديز ورجاله 500 مستعمرًا، واستمر في إقامة الحصون الإسبانية على جزيرة سانت سيمونز في جورجيا، وفي سانت أوجستين بفلوريدا، وظل هذا الحصن الأخير، باعتباره أقدم موقع في

الولايات المتحدة، ظل مسكونًا باستمرار من قبل المستوطنين الأوروبيين وأحفادهم.

سرعان ما أنشأت البعثات الإسبانية الحصون في الموقع الذي يسمى حاليًا ميامي في ولاية كارولينا الجنوبية، وأنشأ المبشرون الدينيون الإسبان البؤر الاستيطانية في فلوريدا وعلى جزر البحر، على أمل تحويل الهنود المحليين إلى المسيحية. لم يتم استخدام معظم الحصون، وقام الهنود المحليون (من قبيلة جوال) بالقضاء على العديد من البعثات التبشيرية في الانتفاضة التي بدأت في عام 1597؛ وقد شرح الهنود أسباب ثورتهم، بالإشارة إلى أن المبشرين قد سعوا إلى القضاء على "رقصاتنا، ومآدبنا، وأعيادنا، واحتفالاتنا، وحروبنا. . . . إنهم يضطهدون كبار السن منا بوصفهم أنهم سحرة"، لكن سرعان ما أعادت البعثات التبشيرية بناء نفسها مرة أخرى، إلا أنها تعرضت للتدمير مرة أخرى بعد قرن على يد القوات الإنجليزية والقوات الهندية من كارولينا الجنوبية. فشلت فلوريدا بشكل عام في جذب المستوطنين وظلت مستوطنة عسكرية معزولة، حيث كانت تمثل في الواقع حصن كوبا؛ وكان عدد سكان فلوريدا الإسبانية في أواخر عام 1763 قد وصل إلى 4.000 مواطن فقط ينتمون إلى أصول أوروبية.

إسبانيا في الجنوب الغربي

استغرقت إسبانيا فترة أطول لتبدأ استعمار الجنوب الغربي الأمريكي؛ وعلى الرغم من قيام "دي سوتو" وغيره بعمليات توغل في المنطقة في القرن السادس عشر، إلا أن استكشافاتهم كانت تعتبر فاشلة على نطاق واسع، نظرًا لأنهم لم يكتشفوا الذهب، ولم يلتقوا بحضارات متقدمة يمكنهم استغلال سكانها للعمل من أجل صالح الإمبراطورية الإسبانية. أهملت إسبانيا المنطقة لنصف قرن آخر، حتى عام 1598 حين قاد "خوان دي أونات" مجموعة تتألف من 400 جنديًا، ومستعمرين، ومبشرين واتجهوا إلى الشمال من المكسيك لإقامة مستوطنة دائمة؛ وبينما كانوا يبحثون عن رواسب المعادن الثمينة الأسطورية، قُتِلَ ابن شقيق "أونات" وأربعة عشر جنديًا على يد سكان منطقة أكوما، "مدينة السماء" الواقعة على جرف مرتفع في موقع ما يسمى في الوقت الحاضر نيوميكسيكو.

قرر "أونات" أن يُلَقِّن الهنود المحليين درسا، فقامت قواته بفرض حصار عليهم لمدة يومين، ثم تسلقوا المرتفعات التي كانت تبدو منيعة ودمروا "أكوما"، مما أسفر عن مقتل أكثر من 800 من عدد سكانها البالغ عددهم حوالي 1500 نسمة، بما في ذلك 300 امرأة، وأسروا 600 هنديًا، تم استعباد النساء والأطفال منهم ليخدموا العائلات الإسبانية، في حين عوقب الرجال البالغين بقطع أحد أقدامهم. لم يتم إعادة بناء أكوما حتى الأربعينيات من القرن السابع عشر، أكوما التي كانت مأهولة بالسكان منذ القرن الثالث عشر. كانت رسالة أونات صريحة، ومفادها أنه سيتم سحق

أي هندي قاوم السلطة الإسبانية؛ ومع ذلك، أدت طريقته في الحكم، إلى جانب فشله في العثور على الذهب، إلى أن استدعته السلطات في مكسيكو سيتي وتم ترحيله إلى إسبانيا في عام 1606، وتمت معاقبته لسوء معاملته لهنود نيو مكسيكو. في عام 1610، أنشأت إسبانيا العاصمة نيو مكسيكو في سانتا في، وهي تعتبر أول مستوطنة أوروبية دائمة في الجنوب الغربي.

ثورة البويبلو (الهنود الحمر)

بلغ عدد السكان في نيو مكسيكو في عام 1680 أقل من 3.000 من المستعمرين الضعفاء، معظمهم من الهجناء (أشخاص مختلطي الأنساب بين الإسبانية والهندية)، وذلك نظرًا لقلة عدد المستوطنين الأوروبيين الذين أتوا إلى المنطقة. تدهورت العلاقات بين الهنود الحمر والسلطات الاستعمارية طوال القرن السابع عشر، حيث سعى الحكام والمستوطنون والمبشرون بالمسيحية إلى استغلال اليد العاملة من السكان الهنود الذين انخفض عددهم من حوالي 60.000 نسمة في عام 1600 إلى حوالي 17.000 نسمة بعد ثمانين عاما. سعى الرهبان الفرنسيسكان بلا هوادة لتحويل الهنود إلى الكاثوليكية، غالبا من خلال استخدام الترهيب والعنف، وقد أثار تفانيهم الروحي وشجاعتهم الشخصية إعجاب العديد من الهنود، تمامًا كما أثار إعجابهم السلع والتقنيات التي أدخلها الأوروبيون. رحَّبَ بعض المواطنون بهم من قبيل إحداث التوازن بين عمليات النهب من قبل الجنود والمستوطنين وقبلوا اعتناق المسيحية، بالرغم من أنهم استمروا في ممارسة شعائرهم الدينية القديمة، حيث أضافوا عيسى، ومريم، والقديسين الكاثوليك إلى مقدساتهم الروحية الغنية بالفعل؛ غير أنه كما أصبحت محاكم التفتيش أكثر صرامة في اضطهاد غير الكاثوليك في إسبانيا، أصبحت جهود الرهبان أكثر حرصًا وتشددًا في القضاء على الاحتفالات الدينية التقليدية في نيو مكسيكو، حيث قام المبشرون بالمسيحية بحرق الأصنام والأقنعة وغيرها من المقدسات الهندية، مما أدى إلى نفور الهنود من المسيحية أكثر بكثير من اعتناقها؛ وقد زاد من السخط المحلي أيضًا الجفاف الذي أصاب المنطقة لفترات طويلة، بداية من حوالي عام 1660، وعجز السلطات عن حماية القرى والبعثات التبشيرية من الهجمات المغيرة من الهنود من قبيلة نافاجو (السكان الأصليون في أريزونا ونيو مكسيكو وجنوب شرق يوتا) والهنود الأباتشي (السكان الأصليون في جنوب غرب الولايات المتحدة وشمال المكسيك).

لقد انقسم الهنود البويبلو فيما بينهم لمدة طويلة، حتى أن الإسبان تصوروا أن الهنود لن يتوحدوا فيما بينهم أبدًا ضد المستعمرين، لكن الهنود أثبتوا في أغسطس (آب) من عام 1680 أن الأسبان كانوا مخطئين.

لا يُعرَف إلا القليل عن حياة بوبي، الذي أصبح المنظم الرئيسي للانتفاضة التي هدفت إلى

طرد الإسبان من المستعمرة واستعادة الهنود لحكمهم الذاتي التقليدي؛ وهو زعيم ديني وُلِدَ في حوالي عام 1630 في سانخوان بويبلو، فيما يُعرَف في الوقت الحاضر باسم نيو مكسيكو، وظهر "بوبي" لأول مرة في المراجع التاريخية في عام 1675، عندما كان ضمن سبعة وأربعين من الهنود الذين تم اعتقالهم بتهمة "الشعوذة"، أي ممارسة طقوسهم الدينية التقليدية، وتم شنق أربعة من المعتقلين وترحيل الباقين، بما في ذلك بوبي نفسه، إلى منطقة "سانتا في" ليتم جلدهم علانية. عاد "بوبي" بعد هذه المهانة والذل للوطن الأم وبدأ في عقد اجتماعات سرية في المجتمعات الهندية.

اتحد هنود نيو مكسيكو تحت قيادة بوبي في انتفاضة تم الإعداد والتنسيق لها؛ ومن دواعي السخرية، ونظرًا لأن هؤلاء الهنود يتحدثون بست لغات مختلفة، أنهم اتفقوا على التحدث بالإسبانية "كلغة مشتركة" بينهم؛ ثم قام 2.000 محارب بتدمير بعض المزارع والبعثات التبشيرية المعزولة، مما أسفر عن مقتل 400 من المستعمرين، بما في ذلك 21 من المبشرين الفرنسيسكان، ثم حاصروا "سانتا في". قاوم الإسبان بشراسة، لكنهم لم يكن لديهم أي خيار في نهاية المطاف سوى التخلي عن المدينة. شق معظم الناجون الإسبان، برفقه عدة مئات من الهنود المسيحيين، طريقهم جنوبًا خارج نيو مكسيكو؛ وهكذا تم خلال بضعة أسابيع تدمير قرن من الاستعمار؛ ومن ناحية أخرى، كان الهنود يرون أنهم تمكنوا بشكل ناجح من استعادة حريتهم المفقودة بعد أن صادرها الغزو الإسباني.

كانت ثورة الهنود الحمر (البويبلو) بمثابة الانتصار الأكمل للأمريكيين الأصليين على الأوروبيين، والطرد الوحيد بالجملة للمستوطنين في تاريخ أمريكا الشمالية؛ ووفقًا للنائب العام الملكي الذي أجرى مقابلة مع الناجين الإسبان في مكسيكو سيتي، فإن الثورة قد اندلعت نتيجة "للكثير من المظالم" التي عاناها الهنود. تحول الهنود المنتصرون إلى الانتقام من كل رموز الثقافة الأوروبية، واقتلاع الأشجار المثمرة، وتدمير الماشية، وحرق الكنائس، وصور المسيح والسيدة العذراء، والخوض في الأنهار ليغسلوا تعميدهم الكاثوليكي؛ وأعادوا بناء أماكن عبادتهم، التي تسمى "كيفاس"، واستأنفوا الرقصات المقدسة التي حظرها عليهم الرهبان المبشرون، وصاحوا بصرخات مدوية مرددين بأن "رب الإسبان قد مات".

بيد أنه، سرعان ما تلاشى التعاون بين الهنود، حيث نشبت الحرب بين عدة قرى بحلول أواخر الثمانينيات من القرن السابع عشر، حتى مع استمرار غارات نافاجو (السكان الأصليون في أريزونا ونيو مكسيكو وجنوب شرق يوتا) والأباتشي (السكان الأصليون في جنوب غرب الولايات المتحدة وشمال المكسيك)؛ وقد توفي "بوبي" حوالي عام 1690. شن الإسبان غزوًا في عام 1692، ونجحت في استعادة نيو مكسيكو؛ حيث رحبت بعض المجتمعات بعودتهم كمصدر

للحماية العسكرية لهم، ولكن إسبانيا كانت قد تعلمت الدرس، حيث تبنت السلطات الاستعمارية في القرن الثامن عشر موقفًا أكثر تسامحًا تجاه الممارسات الدينية التقليدية وخَفَّضَت طلبها على العمالة الهندية.

الإمبراطوريتان الفرنسية والهولندية

إذا كانت الأسطورة السوداء (عبارة تستخدم لوصف الدعاية التاريخية المضادة لإسبانيا التي ابتدعها مؤلفون من القوى المتنافسة الإسبانية ابتداءً من القرن السادس عشر؛ لمواجهة تزايد النفوذ الإسباني على الساحة العالمية، وهي تصور الإمبراطورية الإسبانية بأنها "قاسية ومتعصبة ومستغلة وترى نفسها صالحة أكثر من حقيقتها) قد أوحت لمنافسي إسبانيا الأوروبيين الشعور بالتفوق، إلى جانب تدفق المعادن الثمينة من العالم الجديد إلى الخزانة الإسبانية، الأمر الذي أثار الرغبة في محاولة محاكاة نجاح إسبانيا؛ لقد أدى إنشاء الإمبراطورية الإسبانية الأمريكية إلى تغير في ميزان القوة في الاقتصاد العالمي، حيث حل المحيط الأطلسي محل الطريق البري لآسيا كمحور رئيسي للتجارة العالمية. أقام الفرنسيون والهولنديون والإنجليز مستعمرات في أمريكا الشمالية خلال القرن السابع عشر؛ وكانت المستعمرات الإنجليزية في البر الرئيسي، والتي سيتم مناقشتها في الفصل التالي، تتألف من المستوطنات الزراعية مع تزايد السكان الذين أدى طمعهم في الأراضي إلى صراع متواصل مع الشعوب الأصلية. كانت فرنسا الجديدة وهولندا الجديدة في الأصل عبارة عن مشاريع تجارية، والتي لم تجذب أبدًا أعدادًا كبيرة من المستعمرين، نظرًا لأن هذه المستوطنات الفرنسية والهولندية أكثر اعتمادًا على الهنود كشركاء تجاريين وحلفاء عسكريين، لذلك سمحوا للأمريكيين الأصليين بحرية أكبر من تلك التي منحها إياهم الإنجليز.

الاستعمار الفرنسي

كانت فرنسا هي أول المنافسين الأوروبيين الكبار لإسبانيا في الشروع في استكشاف العالم الجديد؛ وكان الفرنسيون يهدفون في البداية إلى العثور على الذهب وإقامة ممر في الشمال الغربي، حيث كانت تبحث عن طريق بحري يربط بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ، ولكن سرعان ما باءت آمال المستكشفين الفرنسيين الأوائل بالفشل، وبدا أن أمريكا لا تزيد كثيراً عن مجرد حاجز يتعين عبوره، وأنها ليست واعدة للاستيطان أو الاستغلال؛ وخلال معظم القرن السادس عشر، لم يزر الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية سوى المستكشفون، والصيادون، والقراصنة الذين ينهبون الشحنات الإسبانية إلى مواقع أبعد جنوبًا، ومع مرور الوقت تجار الفراء. فشلت الجهود الفرنسية لإقامة المستوطنات في نيوفاوندلاند ونوفا سكوتيا، بسبب المقاومة المحلية وعدم

كفاية التخطيط والتمويل. لم تستطع فرنسا، فضلاً عن إنجلترا وهولندا، إنشاء مستوطنات دائمة في شمال أمريكا حتى القرن السابع عشر.

أسس المستكشف "صموئيل دي شامبلان" برعاية شركة فرنسية لتجارة الفراء، مستعمرة كويبك في عام 1608، واكتشف الكاهن اليسوعي "جاك ماركيت" وتاجر الفراء "لويس جوليت" نهر المسيسبي في عام 1673، ونزل "رينيه روبرت كافليه" و"سيور دي لا سال" إلى خليج المكسيك في عام 1681، مدعيين ملكية وادي نهر المسيسبي بالكامل لفرنسا. شكّلت فرنسا الجديدة في نهاية المطاف قوسًا عملاقًا على طول أنهار "سانت لورانس، والمسيسبي، وأوهايو".

كانت كندا الفرنسية، حتى عام 1663 عندما كان عدد السكان من أصل أوروبي أقل من 3000 نسمة، يتم حكمها من قبل شركة فرنسا الجديدة من خلال حاكم عام يتم تعيينه من قبل باريس، ولم يكن هناك أي مجلس تمثيلي أو نيابي. أنشأت الحكومة الفرنسية شركة جديدة في هذا العام. منحت هذه الشركة أراضي على طول نهر سانت لورانس في سينيوري إلى النبلاء ذوي العلاقات الجيدة وضباط الجيش الذين كانوا سينقلون المستعمرين ليحتلوا مكانهم في المجتمع الإقطاعي، ولكن معظم من شارك أو ممن كانوا متعاقدين للعمل لمدة معينة عادوا إلى وطنهم بعد انتهاء عقودهم. هاجر إلى كندا الفرنسية في القرن السابع عشر أكثر من 12.000 رجل، في مقابل أقل من 1.800 امرأة، بالإضافة إلى الراهبات، وكان الرجال يمثلون أكثر من 80 في المئة من المهاجرين، وبلغ عدد الأسر الكاملة التي هاجرت خلال الفترة الاستعمارية بأكملها حوالي 250 أسرة فقط.

بحلول عام 1700، كان عدد السكان البيض في فرنسا الجديدة قد ارتفع إلى 19.000 نسمة فقط؛ بالرغم من أن عدد سكان فرنسا يفوق بكثير عدد سكان إنجلترا، إلا أنها أرسلت عددًا أقل من المهاجرين إلى نصف الكرة الغربي، حيث خشيت الحكومة في فرنسا أن تؤدي هجرة أعداد كبيرة من المستوطنين إلى إضعاف دور فرنسا كقوة أوروبية عظمى، وربما يؤثر سلبًا على جهودها لإقامة علاقات تجارية جيدة مع الهنود؛ وقد انتشرت التقارير السلبية عن أمريكا على نطاق واسع في فرنسا؛ حيث كانت هذه التقارير تُصَوِّر، على نطاق واسع، كندا كثلاجة وأرضًا للهنود المتوحشين ووكرًا للمجرمين. كان معظم الفرنسيون، الذين تركوا أوطانهم خلال هذه السنوات، يفضلون الاستقرار في هولندا أو إسبانيا أو جزر الهند الغربية؛ لقد تم إلغاء "مرسوم نانت" في عام 1685 الذي كان قد مد التسامح الديني للبروتستانت الفرنسيين، مما ساهم بشكل كبير في فرار أكثر من 100.000 من المسيحيين الفرنسيين من بلدهم، ولكنهم لم يلقوا الترحيب في فرنسا الجديدة، التي رغب التاج الملكي في أن تبقى مركزًا للكاثوليك.

فرنسا الجديدة والهنود

نظرًا لقلة عدد السكان البيض والتركيز على تجارة الفراء بدلاً من تكوين مستوطنة زراعية، كان بقاء فرنسا الجديدة يعتمد على العلاقات الودية مع الهنود المحليين. كان الفرنسيون يتفاخرون باعتماد سياسة أكثر إنسانية من الإمبراطوريات المنافسة، حيث أعلن كاتب فرنسي قائلاً "أمتنا فقط هي التي تعرف سر الفوز بمودة الهنود". نظرًا لغياب الشهية النهمة للأرض في المستعمرات الإنجليزية، والاعتماد على الهنود لتوريد الفراء للمراكز التجارية، لذلك قام الفرنسيون بعقد سلسلة معقدة من الاتصالات العسكرية والتجارية والدبلوماسية، وتمكنوا من تشكيل أكثر التحالفات دوامًا بين الهنود والمستوطنين في أمريكا الشمالية الاستعمارية. لم يصادر الفرنسيون مساحات كبيرة من أراضي الهنود كما فعل الإنجليز، ولم يغزوا السكان الأصليين عسكريًا ولم يخضعوهم قسرًا لأعمال السخرة مثل الإسبان؛ وفي المقابل، أصر المستكشف المقدام الذي كان يهيمن على التاريخ المبكر لفرنسا الجديدة "صامويل دي شامبلان" على التسامح الديني لجميع المسيحيين، ونفى أن يكون السكان الأمريكيين الأصليين أدنى من الناحية الفكرية أو الثقافية من الأوروبيين. كانت هذه المواقف غير عادية في ذلك الوقت؛ على الرغم من أنه شارك أحيانًا في حروب مع الهنود المحليين، إلا أنه كان يحلم بإنشاء مستعمرة على أساس الاحترام المتبادل بين الشعوب المختلفة. لقد سعى اليسوعيون (جماعة "للتبشير الديني) مع بعض النجاح لتحويل الهنود إلى الديانة الكاثوليكية، ولكنهم على عكس المبشرين المبكرين الإسبان في نيو مكسيكو سمحوا للهنود المسيحيين بالاحتفاظ بدرجة عالية من الاستقلال، وبالكثير من البنية الاجتماعية التقليدية الخاصة بهم، ولم يسعوا إلى قمع جميع الممارسات الدينية التقليدية.

ومع ذلك، أدخل الفرنسيون، مثل المستعمرين الآخرين في جميع أنحاء أمريكا الشمالية، تغييرات ملفتة للنظر في الحياة الهندية؛ كما نتج عن اتصال الأوروبيين بالهنود انتشار المرض بصورة حتمية بين الهنود. جذبت المشاركة في تجارة الفراء السكان الأصليين للانخراط في الاقتصاد الأطلسي المزدهر، مما أدخل سلعًا جديدةً وحول الصيد من مجرد بحث عن الغذاء إلى السعي للحصول على سلع قابلة للتسويق، وسرعان ما انجرف الهنود إلى الدخول في منافسات بين الإمبراطوريات الأوروبية، وانجرف الأوروبيون في صراعات مع الهنود. في بداية عام 1615، دخل ما يقابل في الخريطة الحالية جنوب أونتاريو وأعالي ولاية نيويورك، في تحالف تجاري مع الفرنسيين والعديد ممن تحولوا إلى الكاثوليكية؛ ومع ذلك، بعد أن أنهك وباء الجدري القبيلة بجدة في الأربعينيات من القرن السابع عشر، تعرضت للتدمير تقريبًا في سلسلة من الهجمات التي شنها الإيروكوا (اتحادات كونفدرالية من الأمريكيين الأصليين الذين يقطنون فيما يعرف الآن

باسم ولاية نيويورك ويضم شعوب الموهوك، وأونيدا، وأونونداغا، وكيجا، وسينيكا، المعروفة باسم الأمم الخمسة) المسلحين من قبل الهولنديين.

كما هو الحال في الإمبراطورية الإسبانية، شهدت فرنسا الجديدة تبادلاً ثقافيًا كبيرًا واختلاط بين السكان الأصليين والمستعمرين. تقابل الهنود والبيض مع بعضهم البعض في "المنطقة الوسطى" بالبحيرات العظمى العليا في أمريكا الفرنسية لسنوات عديدة على أساس المساواة النسبية، وأصبح المخلطون (أبناء الزيجات المختلطة بين النساء الهنديات والتجار والمسؤولين الفرنسيين) مرشدين، وتجار، ومترجمين فوريين؛ مثل الإسبان، بدا الفرنسيون على استعداد لقبول الهنود كجزء من المجتمع الاستعماري، وشجعوهم على اعتماد نظام الأوروبيين في تقسيم العمل بين الرجال والنساء والتحدث بالفرنسية. أخذ الفرنسيون على أنفسهم وعد بمنح المواطنة الكاملة للهنود الذين يعتنقون الكاثوليكية؛ ومع ذلك، شهد الواقع أن حالات تبني السكان الأصليين لأساليب الحياة الفرنسية أندر بكثير من حالات انجذاب المستوطنين الفرنسيين لحياة الهنود "الحرة"، حتى أن أحد المسئولين اشتكى قائلاً "أصبح تحول الفرنسي إلى الوحشية أكثر شيوعًا من تحول المتوحشين إلى رجال فرنسيين".

الإمبراطورية الهولندية

في عام 1609، أبحر "هنري هدسون"، وهو رجل إنجليزي عينته هولندا للعمل لدى شركة الهند الشرقية، إلى ميناء نيويورك بحثًا عن ممر في شمال غرب آسيا، وأصبح هو وطاقمه أول الأوروبيين الذين أبحروا حتى النهر الذي يحمل اسمه الآن. لم يجد هدسون طريقًا إلى آسيا، لكنه وجد هناك وفرة من الحيوانات المكسوة بالفراء، والأمريكيين الأصليين الذين كانت لديهم رغبة شديدة في تبادل الفراء بالسلع الأوروبية. ادعى هدسون ملكية هولندا للمنطقة، وغرست رحلته بذور ما أصبح لاحقًا مدينة عالمية كبرى، ألا وهي مدينة نيويورك. بحلول عام 1614، كان التجار الهولنديون قد أنشأوا مركزا في منطقة "فورت أورانج" بالقرب من الموقع الحالي لمدينة ألباني عاصمة نيويورك، وبعد مرور عشر سنوات، قامت شركة الهند الغربية الهولندية، التي كان قد تم منحها احتكار التجارة الهولندية مع أمريكا بتوطين المستوطنين على جزيرة مانهاتن.

شكلت هذه المشاريع جزءًا صغيرًا واحدًا في قيام وظهور الإمبراطورية الهولندية فيما وراء البحار، حيث سيطرت هولندا على التجارة الدولية في أوائل القرن السابع عشر، واحتلت أمستردام المركز الأول في أوروبا في الشحن والمصارف؛ وهكذا دخلت الدولة الصغيرة عصرًا ذهبيًا من التراكم السريع للثروة والإنجازات المذهلة في الرسم والفلسفة والعلوم. ابتدع الهولنديون الشركة المساهمة كوسيلة لتجميع الموارد المالية، وتقاسم مخاطر الرحلات البحرية التي

ثبت أنها عنصر أساسي في تطور الرأسمالية الحديثة. أنشأت هولندا إمبراطورية واسعة الانتشار يبلغ عدد سكانها 2,000,000 مليون نسمة فقط، وتمتد من إندونيسيا إلى جنوب إفريقيا ومنطقة البحر الكاريبي، وانتزعت لفترة مؤقتة السيطرة على البرازيل من البرتغال.

الحرية الهولندية

افتخر الهولنديون بأنفسهم لإخلاصهم لمبدأ الحرية؛ وفي الحقيقة، كانوا يتمتعون في أوائل القرن السابع عشر باثنين من الحريات غير المعترف بهما في أماكن أخرى في أوروبا، وهما حرية الصحافة والتسامح الديني الواسع؛ وأنه رغم وجود كنيسة راسخة، وهي الكنيسة البروتستانتية الإصلاحية، كان الناس يستطيعون اعتناق ما يرغبون من معتقدات دينية. لقد أصبحت أمستردام ملاذًا للبروتستانت المضطهدين في جميع أنحاء أوروبا، بما في ذلك الهوغونوت الفرنسيين والكالفينين الألمان (نسبة إلى مذهب ديني لجون كالفن والذي يؤكد على القدرة الكلية لله والخلاص لمن يختاره الله وحده بنعمته)، وتلك المذاهب مثل الحجاج الذين رغبوا في الانفصال عن كنيسة إنجلترا؛ كما وجد اليهود، وخاصةً أولئك الفارين من إسبانيا، أيضًا ملاذهم هناك؛ كذلك جاء مهاجرون آخرون إلى هولندا على أمل تقاسم الرخاء في البلاد؛ حيث جذبت الأمة نحو نصف مليون مهاجر خلال القرن السابع عشر من أماكن أخرى في أوروبا. ساعد العديد من هؤلاء القادمين الجدد في إعمار الإمبراطورية الهولندية في الخارج بالسكان.

الحرية في هولندا الجديدة

على الرغم من سمعة الهولنديين بحب الحرية والاعتزاز بها، إلا أن هولندا الجديد نادرًا ما كانت تُحكَم بصورة ديمقراطية بشكل واضح؛ حيث كانت نيو أمستردام، التي تمثل المركز الرئيسي للسكان، في الأساس ثكنة عسكرية محصنة يسيطر عليها معينين من شركة الهند الغربية؛ وعلى الرغم من أن حاكم المدينة كان يدعو المواطنين البارزين للتشاور معهم من وقت لآخر، إلا أنه لم يكن هناك مجلس منتخب ولا مجلس للبلدة، كما كان في الوطن الأم حيث تمثل هذه المجالس الوحدة الأساسية للحكومة.

ومع ذلك، تمتع المستعمرون بحرية أكثر في جوانب أخرى، وخاصة في المسائل الدينية بالمقارنة بنظرائهم في أماكن أخرى في أمريكا الشمالية، حتى أن عبيدهم كانوا يتمتعون بحقوق. سيطر الهولنديون على تجارة الرقيق عبر الأطلسي في أوائل القرن السابع عشر، وبالطبع أدخلوا العبيد في هولندا الجديدة. بلغ عدد العبيد بالمستعمرة قرابة 500 عبد بحلول عام 1650، بما يفوق عدد العبيد في منطقة خليج تشيزبيك. تمتع بعض العبيد بنصف حرية حيث كان يُطلَب منهم دفع رسوم سنوية للشركة والعمل لديها عندما تدعوهم لذلك، لكن تم منحهم ملكية الأرض

لإعالة أسرهم. قام المستوطنون باستخدام العبيد في العمل في المزارع العائلية أو في العمل المنزلي أو في الحرف، وليس في مزارع كبيرة كما هو الحال في جزر الهند الغربية.

تمتعت المرأة في المستوطنة الهولندية باستقلالية أكثر بكثير من المستعمرات الأخرى؛ حيث تحتفظ النساء المتزوجات بهوية قانونية مستقلة وفقًا للقانون الهولندي، فتستطيع الذهاب إلى المحكمة واقتراض المال وتملك الممتلكات. كان الرجال معتادين على تقاسم الممتلكات مع زوجاتهم، وعادة ما يتركوا وصية بأن تؤول ممتلكاتهم لزوجاتهن وبناتهم وكذلك أبنائهم؛ وقد توسعت "مارجريت هاردنبروك"، أرملة تاجر من "نيو أمستردام"، توسعت في أعمال زوجها وأصبحت واحدة من أغنى سكان البلدة بعد وفاته في عام 1661.

كان التسامح الديني من أكثر الأشياء لفتا للنظر، مما جذب مجموعة متنوعة بشكل ملحوظ من السكان إلى هولندا الجديدة، حتى أنه كان يقال أن هناك ما لا يقل عن ثماني عشرة لغة متداولة في نيو أمستردام في أوائل الثلاثينيات من القرن السابع عشر، ليس فقط من المستوطنين الهولنديين ولكن أيضًا من الأفارقة، والبلجيكيين، والإنجليز، والفرنسيين، والألمان، والايرلنديين، والدول الإسكندنافية؛ وفي الوقت نفسه، أنشأ المهاجرون البروتستانت من "نيو انجلاند" البلدات في لونج آيلاند. لم يقتصر التسامح الديني على البروتستانت فقط، ولكنه امتد أيضا للكاثوليك، وإلى اليهود على مضض؛ حيث وصل قرابة ثلاثة وعشرين يهوديًا إلى نيو أمستردام في عام 1654 من البرازيل ومنطقة البحر الكاريبي. أمر الحاكم "بيتر ستايفسنت" القادمين الجدد من اليهود بمغادرة البلاد، في إشارة إلى الاتهامات بأنهم "أبناء جنس مخادع"، ولكن الشركة نقضت قراره وأشارت إلى أن اليهود في الوطن الأم قد استثمروا "مبالغ كبيرة من رأس المال" في أسهمها.

الاستيطان في هولندا الجديدة

في محاولة لجذب المستوطنين إلى أمريكا الشمالية، وعدت شركة الهند الغربية الهولندية المستعمرين، ليس فقط بالتسامح الديني، ولكن أيضًا بمنحهم الماشية بأسعار رخيصة، والأراضي المجانية بعد ست سنوات من العمل، حتى أنها في النهاية تنازلت عن احتكارها لتجارة الفراء، وقامت بفتح هذه التجارة المربحة لجميع القادمين. اشتكى الحاكم الهولندي لهولندا الجديدة "ستايفسنت" بأن العديد من المستوطنين قد أغرتهم "الحرية الأسطورية"، ولم يظهروا الكثير من الإحترام لسلطة الشركة.

اعتمدت الشركة خطة "الحريات والإعفاءات" في عام 1629، حيث قدمت ضياعًا واسعة لملاك الأرض في هولندا الجديدة مقابل جلب المستوطنين الجدد للعمل في الزراعة، حيث كان مطلوبًا منهم شراء ملكية الأرض من الهنود، ولكن في مقابل ذلك فإن "حرياته" ستكون مثل

حريات سيد أو لورد من القرون الوسطى، بما في ذلك الحق في الحصول على 10 في المئة من الدخل السنوي للمستأجرين لديه، وسلطة كاملة لإنفاذ القانون داخل حقله. اكتسب أحد ملاك الاراضي ويدعى، كيليان فان رينسيلار، حوالي 700.000 فدان في وادي هدسون؛ ونتيجةً لحكم عائلته الاستبدادية على المستأجرين، وجهودها الرامية إلى توسيع نطاق ملكيته، لتشمل الأراضي المستوطنة من قبل إنجلترا الجديدة الذين ادعوا أنهم يمتلكون مزارعهم، مما أثار انتفاضات متفرقة في منتصف القرن التاسع عشر.

أرسلت هولندا خلال القرن السابع عشر قرابة 1 مليون شخص إلى الخارج (كثير منهم من المهاجرين الجدد الذين لم يكونوا في الواقع هولنديين) لتعمير وحكم مستعمراتها النائية؛ ومع ذلك، اتجه عدد قليل جدًا منهم إلى أمريكا الشمالية. وصل عدد السكان الأوروبيين في هولندا الجديدة إلى 9.000 نسمة فقط بحلول منتصف الستينيات من القرن السابع عشر. ظلت هولندا الجديدة صغيرة ومعزولة عن الإمبراطورية الهولندية، وكذلك كانت بمثابة مركز أصغر حجمًا على مقربة مما يعرف في الوقت الحاضر بمنطقة ويلمنجتون في ديلاوير، والذي أنشأته مجموعة من التجار الهولنديين في عام 1638؛ وللتحايل على احتكار شركة غرب الهند للتجارة، زعم هؤلاء التجار الهولنديون الجدد أنهم يعملون تحت راية السويد، وأطلقوا على مستعمرتهم السويد الجديد؛ وكان يعيش هناك قرابة 300 مستوطنًا فقط عندما استولت هولندا الجديدة على المستعمرة في عام 1655.

هولندا الجديدة والهنود

جاء الهولنديون إلى أمريكا الشمالية للتجارة وليس للغزو، حيث كان اهتمامهم باستيطان الأرض أقل من اهتمامهم بالسعي وراء الأرباح. وضع الهولنديون الأسطورة السوداء عن القسوة الإسبانية نصب أعينهم، ولذلك قرروا معاملة السكان الأصليين بإنسانية أكثر من الإسبان؛ ونظرًا لفوز الهولنديين باستقلالهم عن إسبانيا بعد أطول وأعنف حرب في أوروبا في القرن السادس عشر، فقد نظر العديد من الهولنديين لهنود أمريكا بصفتهم ضحايا مثلهم للقمع الإسباني؛ ولقد برروا طموحاتهم الاستعمارية بصورة جزئية بمحاولة تحرير العالم الجديد من طغيان إسبانيا والكنيسة الكاثوليكية؛ ومع ذلك، كانت رغبتهم في البداية في تحويل السكان الهنود للمسيحية أقل من سعيهم لاستغلالهم في تجارة الفراء المربحة.

اعترفت السلطات الهولندية منذ البداية بالسيادة الهندية على الأراضي، وحظرت الاستيطان في أي منطقة حتى يتم شرائها؛ ومع ذلك، طلبت هذه السلطات من القبائل الهندية دفع مبالغ مالية للسلطات الاستعمارية. لم تكد هولندا تخلو من الصراع مع الهنود بالقرب من الساحل

حيث استقر معظم القادمين الجدد، حيث أدت الطموحات التوسعية للحاكم "وليام كيفت" الذي بدأ في الأربعينيات من القرن السابع عشر في الاستيلاء على الأراضي الزراعية الخصبة من هنود الجونقوين المجاورين، إلى نشوب الحرب التي استمرت ثلاثة أيام وأسفرت عن مقتل 1.000 شخص من الهنود، وأكثر من 200 من المستعمرين؛ ومع ذلك، أقام الهولنديون علاقات تجارية ودبلوماسية ودية مع اتحاد الإيروكوا الأقوياء في أعالي وادى هدسون.

وهكذا، فقد أنشأت الدول الأوروبية أنواعًا مختلفة من المستوطنات في العالم الجديد قبل زرع المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية؛ وعلى الرغم من الخلافات بين الإمبراطوريات الإسبانية والفرنسية والهولندية، إلا أنهم كانوا يتقاسمون خصائص مشتركة معينة، حيث إن جميع هذه الإمبراطوريات قد جلبت المسيحية، وأشكالاً جديدة من التكنولوجيا والتعلم، والأنظمة القانونية الجديدة والعلاقات الأسرية، وأشكالاً جديدة من المؤسسات الاقتصادية وتكوين الثروات؛ ومن ناحية أخرى، فقد جلبت جميعها أيضًا الحروب الوحشية والمرض على نطاق واسع. كانت هذه الإمبراطوريات على بينة بوجود بعضهن البعض، حيث قامت بدراسة بعضها واستعارت من بعضها البعض، وأشادت كل منها بنفسها باعتبارها المتفوقة على الآخرين.

وهكذا كانت أحلام الحرية منذ البداية - للهنود وللمستوطنين وللعالم بأكمله من خلال انتشار المسيحية - هي التي ألهمت وبررت الاستعمار؛ ولم يكن الأمر مختلفًا عندما دخلت إنجلترا الصراع من أجل بناء الإمبراطورية في أمريكا الشمالية في بداية القرن السابع عشر.

أصـوات الحـريـة

"لبارتولومي دي لاس كاساس" – تاريخ جزر الهند (1528)

لاس كاســاس هــو القــسيس الــدومينيكاني الــذي آدان معاملــة الهنــود في الإمبراطوريــة الإسبانية؛ ولقد ساعد مؤلفه "تاريخ جـزر الهنـد" الـذي تم نـشره على نطـاق واسـع علـى خلـق الأسطورة السوداء (عبارة تـستخدم لوصـف الدعايـة التاريخيـة المضادة لإسـبانيا الـتي أنـشأها مؤلفون من القوى المتنافسة الإسبانية، ابتداءً مـن القـرن الـسادس عـشر لمواجهـة تزايـد النفـوذ الإسباني على الـساحة العالميـة، وهـي تُـصَوِّر الإمبراطوريـة الإسـبانية بأنهـا قاسـية ومتعـصبة ومستغلة وترى نفسها صالحة أكثر من حقيقتها).

لقد حُرِمَ هنود هيسبانيولا (جزيرة من جزر الهند الغربية شرق كوبا، اكتشفها كولومبوس في عام 1492) تمامًا من حريتهم، وخضعوا لأقسى وأشـرس وأفظـع صـور العبوديـة والأسـر الـتي لا يستطيع أن يتصورها إلا من شهدها، حتى البهائم تتمتع بمزيد من الحرية عندما يـتم الـسماح لهم بالرعي في الحقول؛ حيث لم يعطى الإسبان مثل هذه الفرصة للهنود، واعتبروهم عبيـدًا لهـم للأبد نظرًا لأن الهنود ليس لديهم الإرادة الحرة في التصرف وتقرير مصيرهم، ولكن بالأحرى تم التصرف فيهم وتقرير مصيرهم وفقًا لجشع وقسوة الإسبان، ليس كرجال في الأسر ولكن كبهائم مكبلين بحبال لمنعهم من حرية الحركة؛ وعندما كان يُسمح لهم بالعودة إلى ديارهم، فإنهم غالبًا ما كانوا يجدوها مهجورةً وقاحلةً، ولا يكون أمامهم أي خيار سوى أن يهيمـوا علـى وجـوههم في الغابة للبحث عن الغذاء والموت؛ وعندما كانوا يمرضون، وهو ما كان يحدث كثيرًا لأنهم شـعب حساس لم يعتادوا على مثل هذا العمل، لا يصدقهم الإسبان ويدعونهم بلا رحمة كلاب كـسولة ويركلونهم ويضربونهم، وعندما يصبح المرض جليًا يرسلونهم إلى المنزل لأنهم أصـبحوا عـديمي الفائدة بالنسبة لهم . . . . فينطلقوا ليقعوا في أول مجرى مائي حيـث يموتـون هنـاك مـن اليـأس، بينما يتماسك البعض الآخر، ولكن كان عدد قليل جدًا منهم يستطيع الوصول إلى منزله. أحيانا ما أرى شخصيا جثثا في الطريق وأرى آخرين يلهثون ويئنون من ألم سـكرات المـوت، يكـررون "جائع، جائع". هذه هي الحرية وحسن المعاملة والمسيحية التي تلقاها الهنود.

لقد مر حوالي ثمانية أعوام تحت [الحكم الإسباني] مما سمح لهذا الاضطراب أن ينشأ ويتنامى، ولم يفكر أحد في احتمال وقوعه، وتم اضطهاد العديد من سكان الجزيرة الأصليين، حتى أن 90 في المائة منهم قد لقوا حتفهم هذه السنوات الثماني. من هنا انطلقت هذه الانتفاضة الجارفة إلى سان خوان وجاميكا وكوبا والقارة، محملة برياح التدمير لنصف الكرة الأرضية بأكملها.

من "إعلان جوزيف"

(19 ديسمبر (كانون الأول) 1681)

كان جوزيف هندي يتحدث باللغة الإسبانية، استجوبه النائب العام الملكي في مكسيكو سيتي، والذي كان يحقق في ثورة الهنود التي نشبت في عام 1680، والتي طردت المستوطنين الإسبان بصورة مؤقتة من الموقع الحالي لنيو مكسيكو.

وقد سُئِلَ عن الأسباب أو الدوافع وراء إنكار المتمردين الهنود لشرع الله وطاعة صاحب الجلالة وارتكاب الكثير من الجرائم. [أجاب] أن الأسباب التي تذرعوا بها هي إساءة المعاملة والإصابات من قبل [السلطات الإسبانية]، حيث كانوا يعتدون عليهم بالضرب ويسلبوهم ما يملكونه ويجعلونهم يعملون بدون أجر؛ هكذا أجاب.

وسئل عما إذا كان قد علم أثناء وجوده هنا، أن السبب وراء حرق المرتدين للصور والكنائس والأشياء المتعلقة بالعبادة الإلهية والسخرية منهم، ونهبهم كغنيمة، وقتل القساوسة والقيام بباقي الأشياء الأخرى التي فعلوها، أجاب قائلاً أنه يعرف، وكان قد سمع بشكل عام عندما كانوا يحاصرون الفيلا، أن المتمردين الخونة حرقوا الكنيسة وصاحوا بصوت عال مات الآن رب الإسبان الذين كان أبوهم، وكذلك سانتا ماريا التي كانت أمهم، والقديسين أيضًا الذين كانوا قطع من الخشب المتعفن وقالوا إن ربهم فقط هو الذي عاش؛ لقد أمروا بحرق جميع المعابد والصور والصلبان والمسابح، وأنهوا ذلك كله بالاستحمام في الأنهار قائلين أنهم بذلك أزالوا وغسلوا أنفسهم من مياه المعمودية. أما بالنسبة لكنائسهم، فقد وضعوا على الجوانب الأربعة وفي وسط الساحة بعض العبوات الدائرية الصغيرة من الحجر، حيث قاموا بتقديم الطحين والريش وبذرة أماريليس (الصبار الأمريكي) والذرة والتبغ، وقاموا ببعض الطقوس الخرافية الأخرى ليعلموا الأطفال أنهم يجب عليهم أن يفعلوا كل هذا في المستقبل. أمر الزعماء والرؤساء أنه لا ينبغي النطق بأسماء يسوع أو مريم في أي مكان . . . . لقد رأى العديد من المنازل الوثنية التي بنوها، وشاهدهم يرقصون رقصة كاشينا [جزء من احتفال ديني هندي تقليدي] وقد رقص من كان يسرد هذه الأحداث أيضا هذه الرقصة. هكذا أجاب على السؤال.

أسئلة:

1- لماذا بعد أن وصف "لاس كاساس" سوء معاملة الهنود، كتب قائلًا "وهذه هي الحرية، وحسن المعاملة والمسيحية التي حصل عليها الهنود"؟

2- ما هو الدور الذي لعبه الدين في ثورة الهنود؟

3- ما هي أفكار الحرية التي ظهرت في الوثيقتين؟

أسئلة المراجعة:

1- صف لماذا كان "اكتشاف" أمريكا واحدًا من "أكثر الأحداث الهامة التي سجلها تاريخ البشرية"، وفقا لآدم سميث.

2- اشرح في ضوء ما قرأته في هذا الفصل عن حركة الشعوب كيف أصبحت أمريكا الشمالية الموقع الذي التقى فيه الشرق والغرب معا.

3- أحد أبرز سمات المجتمع الأمريكي الأصلي في وقت الاكتشاف الأوروبي له هو التنوع الكبير فيه. ادعم هذه العبارة بالأمثلة.

4- قارن ووضح التناقض بين القيم الأوروبية وأسلوب الهنود في الحياة، من حيث الدين ووجهات النظر حول الملكية والعلاقات بين الجنسين ووجهات النظر حول الحرية.

5- ما هي العوامل الرئيسية التي دفعت نحو عصر التوسع الأوروبي؟

6- صف الدوافع السياسية والدينية والاقتصادية للغزو الإسباني.

7- قارن بين الدوافع السياسية والاقتصادية والدينية للإمبراطوريتين الفرنسية والهولندية وبين دوافع إسبانيا الجديدة.

8- صف كيف اختلفت توجهات وتصرفات الفرنسيين والهولنديين عن توجهات وتصرفات الإسبانيين.

9- كيف فسر المستوطنون الأوروبيون تفوقهم على الأمريكيين الأصليين وكيف برروا كل من غزو أراضيهم الأصلية وإنهاء حريتهم؟

أسئلة الحرية:

1- على الرغم من أن بعض المراقبين الأوروبيين كانوا يعتقدون أن الأمريكيين الأصليين كانوا يجسدون الحرية، إلا أن معظمهم توصل إلى الاستنتاج بأن الأمريكيين الأصليين لم يكونوا يعرفون ما هي الحرية لأنهم كانوا "أحرارًا أكثر من اللازم"، على أي أساس بنوا هذا الادعاء؟

2- كانت المفاهيم الأوروبية عن الحرية في عشية الاستعمار تتشابه مع مفاهيمنا الحديثة عن الحريات الشخصية. اشرح كيف أن مُثل "الحرية المسيحية" المتمثلة في طاعة السلطة والتزام المرء بمرتبته الاجتماعية شكّلت فكرة الحرية في القرن الخامس عشر.

3- زعم كل من المستوطنين الإسبان والفرنسيين أنهم يحررون الأمريكيين الأصليين من خلال إدخال حضارة متقدمة وتقديم العقيدة الكاثوليكية لهم. قدِّم تبريرًا لهذا الادعاء مع الاستشهاد بأمثلة محددة مما ذكرته هذه القوى الأوروبية في ذلك الوقت.

4- كيف أدى تمرد "بوبي" عام 1680 إلى استعادة الهنود الحمر لحريتهم على الفور، وماذا حدث بمجرد عودة الإسبان؟

5- تمتع الهولنديون بحريات أكبر من المواطنين الأوروبيين الآخرين سواء في الداخل أو في العالم الجديد، ابحث هذه المقارنة مع ذكر أمثلة محددة.

جدول المراجعة		
المستكشفون الأول للعالم الجديد		
المستكشف	التاريخ	المنطقة المستكشفة
كريستوفر كولومبوس	1492	منطقة الكاريبي وأمريكا الوسطى
جون كابوت	1497	نيو فوند لاند
أميرجو فيسيوتشي	1502-1499	ساحل البرازيل- خليج المكسيك
بيدرو كابرال	1500	أمريكا الجنوبية (البرازيل)
خوان يوتسي دي ليون	1513	فلوريدا
فرديناند ماجلان	1522-1519	أبحر حول العالم
فرديناندو دي سوتو	1541-1539	جنوب غرب أمريكا
فرانسيسكو فاسكيز/ دي كوروناو	1541-1540	جنوب غرب أمريكا
خوان أوناتي	1598	جنوب غرب أمريكا
نيكولاس أوفاندو	1502	هيسبانيولا
فاسكو نونيز دي بالبوا	1513	برزخ بنما
فرانسيسكو بيزارو	ثلاثينيات القرن 16	بيرو
صامويل دي شامبلان	1608	كندا وكويبك
هنري هدسون	1609	نهر هدسون ونيويورك
جاك ماركيت/ لوي جوليه	1673	نهر المسيسبي

الفصل الثاني

1215	الميثاق العظيم (الماجنا كارتا)
1516	مدينة "توماس مور" الفاضلة
1584	خطاب بشأن المزارع الغربية
1585	فشل السير "والتر رالي" في الاستيطان في جزيرة رونك
1607	تأسيس "جيمس تاون"
1614	جون رولف يتزوج من بوكاهونتاس
1619	وصول أول العبيد السود إلى فيرجينيا
1619	إنشاء مجلس المواطنين
1620	إبحار الحجاج في السفينة ماي فلاور لأمريكا
1622	انتفاضة بقيادة "ابشانكانو" ضد فرجينيا
1624	"فيرجينيا" تصبح المستعمرة الملكية الأولى
1629 - 1642	الهجرة الكبرى إلى "نيو انجلاند"
1630	تأسيس "ماساتشوستس"
1632	تأسيس "ميريلاند"
1634	المحكمة العامة في "ماساتشوستس"
1636	نفي روجر ويليامز من ماساتشوستس إلى رود آيلاند
1637	محاكمة "آن هاتشينسون" بشأن حرب "ماساتشوستس بيكوت"
1638	يمين "فريمان"
1639	الأوامر الأساسية "لكونيتيكت"
1642 - 1649	الحرب الأهلية الإنجليزية
1649	ولاية ميريلاند تتبنى قانون بشأن الدين
1662	إعلان البروتستانت اتفاق الحل الوسط في ماساتشوستس
1691	فيرجينيا تُجَرِّم الزواج بين الإنجليز والهنود

بدايات أمريكا الإنجليزية، 1607-1660

إنجلترا والعالم الجديد
- توحيد الأمة الإنجليزية
- إنجلترا وايرلندا
- إنجلترا وأمريكا الشمالية
- نشر البروتستانتية
- دوافع الاستعمار
- الأزمة الاجتماعية
- الرجال المارقون

وصول الإنجليز
- المهاجرون الإنجليز
- موظفو الخدمة بعقود ملزمة
- الأرض والحرية
- الإنجليز والهنود
- تحول الحياة الهندية
- التغييرات في الأرض

الاستيطان في " تشيزبيك"
- مستعمرة جيمس تاون
- من شركة إلى مجتمع
- بووهاتن وبوكاهونتاس
- انتفاضة عام 1622
- مستعمرة التبغ
- المرأة والأسرة
- التجربة في ميريلاند
- الدين في ولاية ميريلاند

أسلوب الحياة في نيو إنجلاند
- ظهور المذهب التطهيري (البروتانية)
- الحرية الأخلاقية
- الحجاج في "بليماوث"
- الهجرة الكبرى
- الأسرة التطهرية
- الحكومة والمجتمع في ماساتشوستس
- الحريات التطهرية

انقسام أهل نيو إنجلاند
- روجر ويليامز
- رود أيلاند وكونيكتيكت
- محاكمات آن هتشينسون
- المتطهرون والهنود
- حرب بيكوت
- اقتصاد نيو إنجلاند
- النخبة من التجار
- اتفاق الحل الوسط

الدين والسياسة والحرية
- حقوق الإنجليز
- الحرب الأهلية الإنجليزية
- الجدل في إنجلترا بشأن الحرية
- الحرية الإنجليزية
- الحرب الأهلية وأمريكا الإنجليزية
- الأزمة في ولاية ميريلاند
- كرومويل والإمبراطورية

أسئلة تركيز:
- ما هي المعالم الرئيسية للاستعمار الإنجليزي في القرن السابع عشر؟
- ما هي العقبات التي تغلب عليها المستوطنون الإنجليز في تشيزبيك؟
- كيف تطورت فرجينيا وميريلاند في السنوات الأولى؟
- ما الذي جعل استيطان الإنجليز في نيو إنجلاند مميزا؟
- ما هي المصادر الرئيسية للخلاف في بدايات نيو إنجلاند ؟
- كيف أثرت الحرب الأهلية الإنجليزية على المستعمرات في أمريكا؟

أبحرت ثلاث سفن صغيرة في صباح 26 أبريل (نيسان) 1607 المفعم بالضباب، تحمل مستعمرين من إنجلترا إلى ما يسمى الآن "كيب هنري" عند مصب خليج "تشيزبيك"، وبعد استكشاف المنطقة لمدة تزيد قليلاً عن أسبوعين، اختاروا موقعًا على بُعد ستين ميلاً من "نهر جيمس" للاستيطان فيه، على أمل حماية أنفسهم من السفن الحربية الإسبانية المُغيرة، وأسسوا هناك مدينة "جيمس تاون" (نسبة إلى اسم ملك إنجلترا) عاصمة للمستعمرة التي أطلقوا عليها اسم "فيرجينيا" (نسبة إلى اسم إليزابيث الأولى "الملكة العذراء" الملكة السابقة على عرش إنجلترا). على الرغم من هذه التنازلات للسلطة الحاكمة في إنجلترا، إلا أن الرحلة لم تكن برعاية الحكومة الإنجليزية؛ لأنها كانت تعاني من ضغوط مالية في عام 1607، ولذلك قامت برعايتها شركة فرجينيا، وهي شركة للقطاع الخاص تعمل في مجال تنظيم الأعمال التجارية وتضم مساهمين من التجار والأرستقراطيين وأعضاء البرلمان، وقد باركتها الملكة قبل وفاتها في عام 1603.

عادت السفن الثلاث إلى إنجلترا بينما بقي 104 من المستوطنين في فرجينيا، كلهم من الرجال، حيث كانت شركة فرجينيا مهتمة بالبحث عن الذهب وبطرق أخرى لاستغلال الموارد الطبيعية بالمنطقة أكثر من اهتمامها بإقامة مجتمع مستقر وفعال؛ ومع ذلك، أصبحت جيمس تاون أول مستوطنة إنجليزية دائمة في المنطقة التي هي الآن الولايات المتحدة. كان المستوطنون من بين أول عشرات الآلاف من الأوروبيين الذين عبروا المحيط الأطلسي خلال القرن السابع عشر للعيش والعمل في أمريكا الشمالية، ولقد مهدوا الطريق للإمبراطوريات الجديدة، التي حشدت العمالة والموارد الاقتصادية وأعادت تشكيل المجتمعات في جميع أنحاء عالم المحيط الأطلسي، وحولوا ميزان القوى في إنجلترا من إسبانيا والبرتغال إلى دول شمال غرب أوروبا.

تم تأسيس "جيمس تاون" في وقت تزايدت فيه المشاركة الأوروبية في أمريكا الشمالية؛ وكان الاهتمام بالاستعمار مدفوعًا ومدعومًا بالمنافسات الوطنية والدينية والنمو في طبقة من التجار الحريصين على الاستثمار في التوسع في الخارج، والاستئثار لنفسها بأكبر حصة من التجارة العالمية؛ كما لوحظ في الفصل الأول، وسرعان ما تبع ذلك تأسيس "كيبيك" من قِبَلِ فرنسا في عام 1608 واستكشاف "هنري هدسون" في عام 1609 للنهر الذي يحمل اسمه حتى اليوم، مما أدى إلى تأسيس المستعمرة الهولندية "هولندا الجديدة"، وأسس الإسبان "سانتا في" في عام 1610 كعاصمة لنيو مكسيكو؛ وأخيرًا وبعد قرن من رحلات كولومبوس بدأ التغلغل الأوروبي لأمريكا الشمالية بشكل جدي، وقد تم من اتجاهات عديدة في آن واحد، من الشرق إلى الغرب على ساحل المحيط الأطلسي، ومن الشمال إلى الجنوب على طول نهري سانت لورانس والميسيسبي، ومن الجنوب إلى الشمال فيما يعرف الآن بالجنوب الغربي الأمريكي.

كانت أمريكا الشمالية الإنجليزية في القرن السابع عشر بمثابة مكان تسعى إليه مختلف الفئات لأغراض مختلفة، على سبيل المثال، يسعى إليه رجال الأعمال لتكوين الثروات، وتسعى إليه الأقليات الدينية أملاً في القيام بالعبادة دون تدخل حكومي، وخلق مجتمعات قائمة على أساس تعاليم الكتاب المقدس، وكان يسعى إليه الأرستقراطيين حلمًا بإعادة إنشاء عالم يخلو من الإقطاع. توقع أولئك الذين وضعوا المخططات الأولية للاستيطان إعادة إنشاء البنية الاجتماعية المألوفة لهم، بكل ما فيها من التسلسل الهرمي وعدم المساواة، بحيث يشغل أولئك في الرتب الأدنى نفس الوضع الأقل من الحرية الكاملة، كما هو الحال في إنجلترا، ويخضعون لقوانين تنظم عملهم، وتحرمهم من تولي أي دور سياسي. على الجانب الآخر، وفرت الهجرة للرجال والنساء العاديين فرصة للهروب من حياة الحرمان وعدم المساواة. كتب "جون سميث"، وهو زعيم شهد بداية تأسيس جيمس تاون قائلاً: "لن يجد رجل يهجر [إنجلترا] إلى أمريكا بأي حال من الأحوال حرية أقل من تلك التي في إنجلترا". وعد الميثاق الممنوح من الملك جيمس الأول لشركة فرجينيا في عام 1606 المستعمرين بأنهم سيتمتعون "بكل الحريات" التي يتمتع بها المقيمون في "مملكتنا في إنجلترا." حصل مستوطنو أمريكا من الإنجليز على حقوق أكبر من تلك التي يتمتع بها المستعمرون من الإمبراطوريات الأخرى، بما في ذلك القدرة على اختيار أعضاء المجالس المنتخبين، والحماية التي يمنحها القانون العام مثل الحق في المحاكمة من قبل هيئة محلفين، والحصول على الأراضي والذي كان يمثل أساس الاستقلال الاقتصادي.

تعايَشت العديد من درجات الحرية معًا في القرن السابع عشر في أمريكا الشمالية، بدءًا بالرقيق وما يعنيه من التجرد التام من الحرية وانتهاءً بمالك الأرض المستقل الذي يتمتع بكامل الحقوق؛ وقد يحتل الفرد الواحد خلال حياته أكثر من مكان على طول هذا الخط من العبودية للحرية الكاملة؛ ومع ذلك، كان يتوقف نجاح المستوطنين على حرمان الأمريكيين الأصليين من أرضهم، ويتوقف في بعض المستعمرات على استيراد أعداد كبيرة من العبيد الأفارقة كعمال. توسع كل من مفهومي الحرية وغياب الحرية معًا في أمريكا القرن السابع عشر.

إنجلترا والعالم الجديد

توحيد الأمة الإنجليزية

على الرغم من أن "جون كابوت"، الذي أبحر من إنجلترا في عام 1497، كان أول الأوروبيين الذين وطئت أقدامهم قارة أمريكا الشمالية منذ القراصنة الإسكندنافيون (فايكنج)، إلا أن الاستكشاف والاستعمار الإنجليزي للقارة انتظر لسنوات عديدة؛ وكما تشير حالة إسبانيا، كان جزء كبير من بناء الإمبراطورية في البداية امتدادًا لتوطيد السلطة الوطنية في أوروبا.

كانت بريطانيا قوة من الدرجة الثانية خلال القرن السادس عشر، حيث أضنتها الانقسامات الداخلية. اضطر "هنري السابع" الذي تولى العرش في عام 1485 إلى توحيد المملكة بعد فترة طويلة من الحرب الأهلية. أطلق ابنه وخليفته "هنري الثامن" حركة الإصلاح في إنجلترا؛ وعندما رفض البابا إلغاء زواجه من "كاثرين أوف أراجون"، فصل "هنري" الأمة عن الكنيسة الكاثوليكية، وأنشأ بدلاً منها كنيسة إنجلترا، أو ما يسمى باسم "الكنيسة الإنجليكية، تحت رئاسته؛ ثم تلى ذلك عقود من الصراع الديني، وقام الأوصياء على عرش ابنه "إدوارد السادس"، الذي أصبح ملكًا في سن العاشرة في عام 1547، باضطهاد الكاثوليك. عندما توفي "إدوارد" في عام 1553، أصبحت أخته غير الشقيقة "ماري" هي الملكة، وقامت باستعادة الكاثوليكية مؤقتًا باعتبارها دين الدولة وإعدام عدد من البروتستانت، ولكن لم يحظ حكمها بشعبية إلى الحد الذي جعل المصالحة مع روما مستحيلة. استعادت خليفتها "إليزابيث الأولى" (التي حكمت خلال الفترة ما بين عامي 1558–1603) صعود الكنيسة الإنجليكية وأعدمت أكثر من مائة من القساوسة الكاثوليك.

إنجلترا وايرلندا

استهلك نضال إنجلترا الطويل لغزو وتهدئة إيرلندا، والذي استمر حتى القرن السابع عشر، المال والطاقة التي كان من الممكن توجيهما نحو العالم الجديد. استخدمت الحكومة الإنجليزية مجموعة متنوعة من الأساليب لإخضاع إيرلندا، التي كان سكانها الكاثوليك يمثلون تهديدًا لاستقرار الحكم في إنجلترا البروتستانتية، بما في ذلك الغزو العسكري، وذبح المدنيين، ومصادرة الأراضي، وإدخال الممارسات الاقتصادية الإنجليزية، وإيفاد أعداد كبيرة من المستوطنين؛ وبدلاً من السعي لاستيعاب الإيرلنديين في المجتمع الإنجليزي، استبعد الإنجليز السكان الأصليين من أراضي مستوطنة معروفة باسم "بالي" حيث أنشأ المستعمرون النظام الاجتماعي الخاص بهم.

وتمامًا مثلما أسست استعادة إسبانيا من المسلمين "المغاربة" لأنماط من شأنها أن تتكرر في استعمار الإسبان للعالم الجديد، كذلك جعلت الأساليب التي استخدمتها إنجلترا في الإمكان توقع السياسات التي ستنتهجها إنجلترا في أمريكا. عقد بعض المؤلفين الإنجليز في القرن السادس عشر مقارنة مباشرة بين همجية "الأيرلنديين البرابرة" وبين الهنود الأمريكيين (الهنود الحمر)، فمن المفترض أن الأيرلنديين قد خلطوا مثل الهنود الحمر بين الحرية وبين ما هو مباح أو مسموح به، حيث رفضوا احترام السلطة الإنجليزية، وقاوموا التحول إلى البروتستانتية الإنجليزية. كانت المستعمرات الإنجليزية المبكرة في أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية معروفة باسم "المزارع" (بمعنى أنها مجتمعات "مزروعة" من الخارج بين سكان أغراب عنهم)، تم استخدام نفس المصطلح في الأصل لوصف المستوطنات البروتستانتية في أيرلندا.

إنجلترا وأمريكا الشمالية

لم يتوجه انتباه الإنجليز إلى أمريكا الشمالية حتى عهد الملكة "إليزابيث الأولى"، على الرغم من أن البحارة والمغامرين كانوا يظهرون اهتمامًا بمداهمة المدن وأساطيل الكنوز الإسبانية في منطقة البحر الكاريبي، وبصورة أكبر من اهتمامهم بإنشاء المستوطنات. منحت الحكومة الإنجليزية الامتيازات (منح بحقوق ومميزات حصرية) إلى السير "همفري جيلبرت" والسير "والتر رالي"، والتي كانت تسمح لهما بإنشاء المستعمرات في أمريكا الشمالية على حسابهما الخاص.

نظرًا لضآلة أو انعدام الدعم من التاج البريطاني، فشل كلا المشروعين، حيث لم ينجح "جيلبرت"، الذي كان مشهورا بوحشيته وقتله للمدنيين وحرق محاصيلهم في الحروب الأيرلندية، إلا في إنشاء مستوطنة قصيرة الأجل في نيوفاوندلاند في عام 1582؛ ومن أجل تدارك ذلك الفشل، أوفد "رالي" بعد ثلاث سنوات أسطولاً من خمس سفن وعلى ظهره حوالي 100 مستعمر (كان كثير منهم من عبيده الشخصيين) لإنشاء قاعدة في جزيرة "روانوك" قبالة ساحل ولاية نورث كارولينا، وذلك لأهداف من بينها تسهيل الغارات المستمرة على الشحن الإسباني، ولكن المستعمرين ومعظمهم من الشباب تحت القيادة العسكرية تخلوا عن المشروع في عام 1586 وعادوا إلى إنجلترا؛ تم في نفس هذه السنة إرسال مجموعة ثانية تضم مائة مستوطن من الأسر التي تأمل في إقامة مستعمرة دائمة، ولكن كان مصيرهم مازال غامضًا، حيث ذهبت سفينة تحمل إمدادات ووصلت هناك في عام 1590، ولم يجد البحارة سوى مستعمرة مهجورة، ووجدوا كلمة "كروتن" التي تعني بالهندية اسم لجزيرة أو قبيلة قريبة منحوتًا على شجرة، مما يرجح أنه من الواضح أن السكان قد انتقلوا للعيش بين الهنود. أفلس "رالي" آنذاك ماليًّا تقريبًا وفقد حماسه لإنشاء مستعمرة هناك. بدا واضحًا أن إنشاء مستعمرة ناجحة يتطلب من التخطيط والموارد الاقتصادية أكثر مما يمكن لأي فرد توفيره.

نشر البروتستانتية

كما في حالة إسبانيا، اندمجت أحلام المجد الوطني وتحقيق الربح والتبشير الديني في الفكر الإنجليزي المبكر عن العالم الجديد. أدى الإصلاح في بريطانيا إلى تكثيف شعور الحكومة الإنجليزية بأن الكاثوليكية الإسبانية هي عدوها الفتاك (وهو الشعور الذي تعزز في عام 1588 عندما حاول أسطول للبحرية الإسبانية دون جدوى غزو الجزر البريطانية)؛ تمامًا كما بررت إسبانيا إمبراطوريتها، جزئيًّا، بزعمها تحويل الهنود إلى الكاثوليكية، كذلك أعربت إنجلترا عن طموحاتها الاستعمارية كالتزام من جانبها لتحرير العالم الجديد من طغيان البابا، وبحلول أواخر القرن السادس عشر أصبحت مناهضة الكاثوليكية متأصلة بعمق في الثقافة الشعبية الإنجليزية،

وتم تداول روايات على نطاق واسع حول فظائع الحكم الإسباني، وظهرت الترجمات الإنجليزية لكتابات "بارتولومي دي لاس كاساس" في عهد الملكة "اليزابيث"، وكان أحد هذه المؤلفات يحمل عنوانًا يستخدم أحد المصطلحات البروتستانتية الشائعة بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية "فضائح بابوية حقيقية".

وعلى الرغم من أنه لا يمكن قصر الفظائع على أمة واحدة - كما أثبت سلوك إنجلترا في إيرلندا - إلا أن فكرة أن إمبراطورية إسبانيا الكاثوليكية قاتلة ومستبدة بشكل متفرد، قد مَكَّنت الإنجليز من وصف طموحاتهم الاستعمارية بأنها تقدم الحرية للسكان الأصليين في مستعمراتها؛ وبناءً على طلب من السير "والتر رالي" ألقى الوزير البروتستانتي والباحث "ريتشارد هاكلويت" خطابًا في عام 1584، وذكر فيه ثلاثة وعشرين سببًا تجعل من الواجب على الملكة "إليزابيث الأولى" دعم إنشاء المستعمرات، من بينها فكرة أن المستوطنات الإنجليزية ستوجه ضربة قاصمة إلى الامبراطورية الإسبانية، وبالتالي يصبح واجبًا مقدسًا أن تتقدم إنجلترا لإنقاذ العالم الجديد وسكانه من تأثير الكاثوليكية والطغيان، وكتب قائلاً أن الهنود الحمر في العالم الجديد "يستصرخوننا لإنقاذهم وهم "مقيدين كالعبيد" تحت الحكم الإسباني، وأنهم سيرحبون بالمستوطنين الإنجليز و"سيقومون بثورة للتخلص من الإسبان، صارخين "بصوت واحد الحرية، الحرية، الحرية. كررت إنجلترا الكثير من الأعمال الوحشية التي ارتكبها الإسبان في العالم الجديد، ولكن الإنجليز يعتقدون دائما أنهم متفردين، فهم يرون أن إمبراطوريتهم في المستعمرات تسير جنبًا إلى جنب ويدًا بيد مع الحرية.

دوافع الاستعمار

مع ذلك، لم يكن جلب الحرية للهنود بمثابة الحجة الوحيدة التي ساقها "هاكلويت" بينما كانت إنجلترا تُعد المسرح العالمي لذلك الحدث، حيث لم تكن السلطة والهيمنة والمجد بعيدةً أبدًا عن أذهان الدعاة للإمبراطورية في تلك الحقبة. كان "هاكلويت" وغيره من الكتاب يرون أن إنجلترا ذات القوة الصغيرة نسبيًا في أوروبا في نهاية القرن السادس عشر، يمكنها من خلال الاستعمار أن تنافس الدول الكبرى مثل إسبانيا وفرنسا في الثروة والمكانة.

كان لاعتبارات أخرى ثقل كبير في الحجج التي دفعت إنجلترا للاستعمار، حيث زعمت إسبانيا ملكيتها للجنوب، وزعمت فرنسا ملكيتها للمناطق التي استكشفتها في المنطقة فيما يعرف الآن بكندا، فلم يتبق لإنجلترا إلا الجزء الأوسط من أمريكا الشمالية، وهي منطقة كانت تعتبر بلا قيمة من قبل القوى الأخرى، لأنها تفتقر إلى المعادن الثمينة وغير مناسبة لزراعة السكر، وهما السلعتان اللذان كانا يمثلان المسارين الرئيسين للثروات في المراحل الأولى من

الإمبراطوريات الأمريكية؛ ومع ذلك، لم يمنع هذا مروجو فكرة الاستعمار من رسم صورة للأرض الخصبة "الوفيرة بشكل كبير، فمن المفترض أنها تتمتع بثروة حيوانية وفيرة جدًا ومناخها وتربتها، مناسبان، بحيث يستطيع المستعمرون إثراء البلد الأم وإثراء أنفسهم عن طريق تزويد المستهلكين الإنجليز بالسلع التي يتم استيرادها حاليًا من الأجانب في نفس الوقت الذي يمكنهم فيه فتح سوق جديدة للمنتجات الإنجليزية. على النقيض من المغامرين الأوائل مثل "رالي" الذين كانوا يفكرون في الثروة من حيث مناجم الذهب، أصر "هاكلويت" على أن التجارة ستكون أساس إمبراطورية إنجلترا.

الأزمة الاجتماعية

وبنفس القدر من الأهمية، كان يمكن لأمريكا أن تصبح ملجأ "لفائض" سكان إنجلترا، وبذلك يستفيد كل من البلد الأم والمهاجرون. شهد أواخر القرن السادس عشر أزمة اجتماعية في إنجلترا، حيث كان النمو الاقتصادي غير قادر على مواكبة احتياجات السكان الذين نما عددهم من 3 ملايين في عام 1550 إلى حوالي 4 ملايين في عام 1600. تمتع الفلاحون الإنجليز لسنوات عديدة بملكية آمنة لأراضيهم، ولكن الملاك سعوا في القرنين السادس عشر والسابع عشر لتحقيق الأرباح عن طريق تربية الأغنام لتوسيع التجارة في الصوف، وإدخال التطبيقات الزراعية الأحدث، مثل تناوب المحاصيل، ولذلك طردوا صغار المزارعين وقاموا بوضع سياج حول الأراضي المشاعة التي كانت "متاحة" من قبل للجميع.

بينما استفاد العديد من ملاك الأراضي والمزارعين وتجار المدن من حركة "وضع السياج حول الأراضي الزراعية، كما كانت هذه العملية تسمى، إلا أنه تم اقتلاع الآلاف من الأشخاص من الأرض، وتدفقوا إلى العديد من المدن في إنجلترا، مما أدى إلى خفض الأجور بشكل كبير، في حين أدانت السلطات آخرين كمحتالين ومتشردين يطوفون الشوارع بحثًا عن عمل، وساءت أوضاعهم مع ارتفاع الأسعار في جميع أنحاء أوروبا مدعومةً بتدفق الذهب والفضة من المناجم في أمريكا اللاتينية إلى إسبانيا؛ وقد قدَّرت دراسة رائدة أُجريَت على المجتمع الإنجليزي في نهاية القرن السابع عشر، أن نصف السكان كانوا يعيشون عند خط الفقر أو تحته، وانخفضت إعانة الفقراء وبخاصة في المجتمعات المحلية. كتب الزعيم البروتستانتي "جون وينثروب" في عام 1629، قبل أن يغادر إنجلترا بقليل إلى ماساتشوستس، قائلاً "تشكو جميع مدننا من عبء الفقراء والسعي بكل الوسائل للتخلص من أكبر عدد منهم فيها"، وأضاف متجهمًا "لقد ضجرت إنجلترا من أهلها".

اجتهدت الحكومة للتعامل مع هذه الأزمة الاجتماعية؛ وفي ظل حكم "هنري الثامن" تعرض هؤلاء العاطلون للجلد، والكي، والانضمام القسري إلى الجيش أو الشنق. أما في عهد "اليزابيث"

فقد صدر قانون يرخص لقضاة الصلح بتنظيم ساعات العمل والأجور وتشغيل العاطلين عن العمل، وكان على "المتشردين" قبول أي وظيفة تُقدَم لهم، ويمكن معاقبتهم إذا سعوا إلى تغيير العمل. ثمة حل آخر بأن يشجعوا الفقراء الجامحين على ترك إنجلترا والرحيل إلى العالم الجديد. كتب "ريتشارد هاكلويت" عن مزايا الاستيطان في أمريكا قائلا "هؤلاء الفقراء في بلدنا الذين يسببون المتاعب الآن في الكومنولث و . . . ويرتكبون جرائم شنيعة، وهم يستطيعون كمستعمرين أن يصبحوا مواطنين منتجين ويساهموا في زيادة ثروات البلاد.

الرجال المارقون

عندما نشر "توماس مور" رواية بعنوان "المدينة الفاضلة" "يوتوبيا" في عام 1516، والتي تقع أحداثها في جزيرة خيالية في نصف الكرة الغربي، كانت الصورة المتداولة في إنجلترا عن أمريكا باعتبارها المكان الذي استطاع فيه المستوطنون الهرب من عدم المساواة الاقتصادية في أوروبا. تزامن هذا الوضع المثالي مع أهداف الرجل الإنجليزي العادي؛ على الرغم من أن السلطات كانت ترى أن "الرجال الذين لا سيد لهم"، المتسكعين والعاطلين عن العمل باعتبارهم خطر على المجتمع وحاولوا إجبارهم على قبول أي وظائف، إلا أن التوجهات الشعبية كانت ترى أن التبعية الاقتصادية في حد ذاتها تمثل شكلاً من أشكال عبودية العمل، حيث ارتبط العمل بأجر على نحو واسع بالذل والهوان وفقدان الحرية، وكانوا يعتبرون أصحاب الأعمال فقط الذين يسيطرون على العمل الخاص هم الأحرار حقا. في الحقيقة، لقد صورت الحكايات والأغاني الشعبية بشكل رومانسي المتشردين وقطاع الطرق وحتى المتسولين الذين يدينهم ملاك الأراضي والأقوياء، وأنه رغم فقرهم إلا أنهم يتمتعون على الأقل بحرية العمل بأجر.

تجذرت بقوة منذ الأيام الأولى للاستيطان صورة العالم الجديد كمكان فريد للفرص، حيث تستطيع الطبقات الكادحة الإنجليزية استعادة الاستقلال الاقتصادي من خلال الحصول على الأرض، وحتى المجرمين يمكنهم أن يحصلوا على فرصة ثانية لحياة جديدة هناك. لم يكد يصل "جون سميث" إلى فرجينيا في عام 1607 حتى كتب "أنه في أمريكا "قد يكون ممكنًا لكل رجل أن يصبح سيدًا وصاحبًا لعمله وأرضه". صدرت رسالة ملكية في عام 1623 أعربت عن الموافقة الملكية على حشد مواطنين للهجرة إلى نيو إنجلاند للاستيطان هناك، ووعدتهم بأن أي مستوطن يمكن أن يصبح بسهولة "مالكًا لمساحة 200 فدان من الأراضي"، وهو المقدار الذي يفوق بكثير ما قد يملكه معظم الإنجليز. لم يكن الإغراء الرئيسي للمهاجرين من إنجلترا إلى العالم الجديد هو القدر الكبير من الثروات من الذهب والفضة، ولكن وعد الاستقلال الذي يعقب امتلاك الأراضي. جذبت الحرية الاقتصادية وإمكانية نقلها إلى الأطفال أكبر عدد من المستعمرين الإنجليز.

توافد الإنجليز

المهاجرون الإنجليز

كانت أمريكا الشمالية في القرن السابع عشر بيئة غير مستقرة وخطرة، حيث حصدت الأمراض أرواح الكثير من السكان الأصليين من الهنود الحمر ومن المستوطنين على حد سواء. عانت المستعمرات من التوترات الدينية والسياسية والاقتصادية وانزلقت في حروب استعمارية، ودخلت في صراع مع الهنود، وظلت تعتمد على البلد الأم للحماية والمساعدة الاقتصادية. كانت معظم المستوطنات ستنهار لولا تدفق الهجرة المستمرة؛ بالرغم من أن عدد سكان إنجلترا كان يتراوح ما بين 4 إلى 5 ملايين نسمة، بما يعادل نحو نصف تعداد إسبانيا وربع تعداد فرنسا، إلا أن أكبر عدد من الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا على استعداد لتحدي مخاطر الهجرة إلى العالم الجديد كان من إنجلترا، بالمقارنة بإسبانيا وفرنسا. يرجع ذلك في الغالب إلى أن الظروف الاقتصادية في إنجلترا كانت سيئة للغاية.

غادر أكثر من نصف مليون شخص إنجلترا خلال الفترة ما بين عامي 1607 و1700. لم تكن أمريكا الشمالية الوجهة المقصودة لغالبية هؤلاء المهاجرين، حيث استقر ما يبلغ حوالي 180.000 شخص منهم في أيرلندا، وهاجر حوالي نفس العدد إلى جزر الهند الغربية، حيث وعد إدخال زراعة السكر إلى هناك أولئك الذين يمكنهم الحصول على الأراضي بالثروات؛ ومع ذلك، سرعان ما فاق عدد المستعمرين الإنجليز في المستعمرات البرية الرئيسية عدد منافسيهم، فقد استقبلت منطقة تشيزبيك نحو 120.000 مستوطن وصل معظمهم قبل عام 1660، حيث خلقت مستعمرات فرجينيا ومريلاند المنتجة للتبغ طلبًا مستمرًا على العمالة الرخيصة، بينما اجتذبت نيو انجلاند نحو 21.000 مهاجر وصولوا قبل عام 1640. جذبت المستعمرات الوسطى (نيويورك، ونيو جيرسي، وبنسلفانيا) حوالي 23.000 مستوطن في الجزء الثاني من القرن السابع عشر؛ على الرغم من أن الوافدين إلى نيو إنجلاند والمستعمرات الوسطى كانوا يضمون الكثير من الأسر، إلا أن غالبية القادمين الجدد كانوا رجالا غير متزوجين من الطبقات السفلي من المجتمع الإنجليزي، الذين لم يكن لديهم الكثير ليخسروه من خلال الهجرة، وقد تنقل العديد منهم بالفعل من مكان إلى آخر في إنجلترا قبل أن يهاجروا إلى العالم الجديد. كان الاستيطان الاستعماري في جوانب كثيرة بمثابة امتداد للهجرة الداخلية لعدد متزايد من السكان الإنجليز المتنقلين.

موظفو الخدمة بعقود ملزمة

وصل المستوطنون الذين كانوا يستطيعون دفع رسوم نقلهم- مثل المسؤولين الحكوميين، ورجال الدين، والتجار، والحرفيين، والمزارعين ملاك الأراضي، والأعضاء الأدنى رتبة من

النبلاء- إلى أمريكا كأشخاص أحرار، واستطاع معظمهم الحصول على أرض بسرعة؛ ومع ذلك، جاء ما يقرب من ثلثي المستوطنين الإنجليز في القرن السابع عشر بموجب تعاقد كموظفين، حيث كانوا يتنازلون عن حرياتهم طوعًا لمدة محددة (تتراوح عادة ما بين 5-7 سنوات) في مقابل المرور إلى أمريكا.

كان يمكن شراء وبيع هؤلاء المتعاقدين للخدمة، مثل العبيد، ولا يمكنهم التزوج بدون إذن أسيادهم، وكانوا عرضة للعقاب البدني، وقضت المحاكم بإلزامهم بالعمل القسري؛ ولضمان عدم انقطاع عمل الخادمات، كان القانون يطيل مدة إلزامهن بالعمل إذا أصبحن حوامل. اشتكت إحدى الخادمات بالسخرة في ميريلاند وتدعى، "اليزابيث سبرنجس" قائلة بأن العديد من الزنوج يجدون ظروف عمل أفضل ووصفت إكراهها على العمل "ليلاً ونهارًا ... ثم بعد ذلك كان يتم تقييدها وجلدها." ولكن، خلافًا للعبيد، كان هؤلاء الخدم يستطيعون التطلع إلى إطلاق سراحهم من العبودية، بافتراض أنهم سيبقون على قيد الحياة حتى انتهاء فترة عقد عملهم، حيث كانوا يحصلون على مبلغ مالي كان يُعْرف باسم "مستحقات الحرية"، ويصبحون أعضاء أحرارًا في المجتمع.

ومع ذلك، لم تكن عقود الخدمة لمدة محددة طريقًا مضمونًا للاستقلال الاقتصادي في معظم القرن السابع عشر، نظرًا لارتفاع معدل الوفيات، فلم يعش الكثير من الموظفين حتى نهاية عقدهم. كانت مستحقات الحرية أحيانًا هزيلة بحيث لا تُمكن المستفيد من الحصول على أراض. وجد العديد من هؤلاء الموظفين الخدم واقع الحياة في العالم الجديد أقل جاذبية مما كان متوقعا، كما اشتكى أصحاب العمل باستمرار من هروب الخادمين أو عدم العمل بجد وإخلاص أو أنهم يصعب السيطرة عليهم، وجميع مظاهر ما أطلق عليه أحد المحللين اسم "الولع بالحرية."

الأرض والحرية

لعب الحصول على الأراضي العديد من الأدوار في أمريكا في القرن السابع عشر. كان المستوطنون الإنجليز يعتقدون أن الأرض هي أساس الحرية، وكان امتلاك الأراضي يعطي الرجال الحق في الهيمنة على العمال الذين يعملون لديهم، ويمنحهم في معظم المستعمرات الحق في التصويت. جذب الوعد بالحصول الفوري على الأرض المستوطنين الأحرار، كما أن "مستحقات الحرية" التي تشتمل على أرض أغرت المهاجرين المحتملين بتوقيع عقود عمل كخدم لمدة محددة؛ وعلاوة على ذلك، أصبحت الأراضي في أمريكا وسيلة في يد الملك لمكافأة الأقارب والحلفاء، حيث تم إطلاق كل مستعمرة بمنحة كبيرة من الأرض من الملك، إما لشركة أو لفرد معروف كمالك للأراضي، وإذا نظرنا لها حرفيا، فقد كانت تمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ.

كانت الأرض تمثل مصدرًا لثروة وسلطة المسئولين الاستعماريين والمقربين لهم، الذين يحصلون على ضياع كثيرة، ولكن الأرض ستكون بلا قيمة تُذكَر بدون العمل؛ ونظرًا لأن المهاجرين لم يأتوا إلى أمريكا بنية العمل في أرض الغير (باستثناء حالة العمل بالسخرة من خلال عقود عمل الموظفين الخدم بشكل مؤقت)، لذلك، ومن دواعي السخرية، أن نفس فكرة وفرة الأرض "المجانية" أدت إلى لجوء العديد من ملاك الأراضي إلى العبيد باعتبارهم قوى عاملة.

الإنجليز والهنود

كانت الأراضي في أمريكا الشمالية، بطبيعة الحال، مشغولة بالفعل، وقد شكَّل وصول المستوطنين الإنجليز أكبر أزمة للسكان الأصليين في شرق أمريكا الشمالية في تاريخهم؛ وعلى عكس الإسبان، لم يطلق المستعمرون الإنجليز على أنفسهم لقب "الغزاة"، وإنما أرادوا الأرض وليس الهيمنة على السكان الحاليين؛ وكانوا مهتمين بتشريد الهنود والاستيطان على أرضهم، وليس التزاوج منهم أو تنظيم عملهم أو إخضاعهم للتاج الإنجليزي. كان الزواج بين "جون رولف" و "بوكاهونتاس" ابنة زعيم فرجينيا، والذي سنناقشه بعد، معروف جيدًا، ولكنه كان فريدًا من نوعه تقريبا، حيث لم يحدث مثل هذا الزواج المختلط في ماساتشوستس خلال القرن السابع عشر، وحدثت حالتا زواج اثنتين فقط في ولاية فرجينيا، قبل أن تحظر السلطة التشريعية هذه الممارسة في عام 1691. تبادل الإنجليز السلع مع السكان الأصليين، وغالبًا ما كان الهنود يتنقلون بين هذه المستوطنات الاستعمارية؛ وفي بعض الأحيان كان تجار الفراء على حدود المستوطنة يتزوجون بنساء هنديات، وكان ذلك يتم بصورة جزئية كوسيلة للوصول إلى المجتمعات المحلية وشبكات القرابة الضرورية للعلاقات الاقتصادية؛ ومع ذلك، ظل معظم المستوطنين الإنجليز منفصلين بعناد عن جيرانهم الهنود.

وعلى الرغم من إصرار معظم السلطات الاستعمارية على أن الهنود ليس لهم أي حق للمطالبة بالأرض، لأنهم لم يزرعوها ولم يحسنوا من وضعها، إلا أن هذه السلطات اعترفت في الممارسة الفعلية بملكية الهنود على أساس إشغالهم للأراضي. حصل المستعمرون الإنجليز على هذه الأرض عن طريق الشراء، غالبًا في شكل معاهدات يتم فرضها على الهنود بعد أن يمنوا بهزيمة عسكرية. سجلت المحاكم الاستعمارية العديد من مبيعات الأراضي الهندية إلى الحكومات أو المستوطنين الأفراد. حاولت بعض الحكومات الاستعمارية منع استيلاء القطاع الخاص على الأراضي، أو شراء الأراضي الهندية، أو أعلنت أن مناطق معينة خارج متناول المستوطنين للحفاظ على السلام، ولكن نادرًا ما كان يتم تنفيذ هذه التدابير، وثبت في نهاية المطاف أنها غير فعالة. سعى المستوطنون الجدد والموظفون الخدم، الذين تحرروا للحصول على الأرض

لأنفسهم، وكذلك أولئك الذين قاموا بتكوين أسر في أمريكا كانوا بحاجة لتلك الأراضي لإطعام أطفالهم.

تميز القرن السابع عشر بنشوب الحروب المتكررة بين المستعمرين والهنود، وولدت هذه الصدمات شعورًا قويًا لدى المستعمرين بالتفوق، وجعلهم عازمين على الحفاظ على الحدود الحقيقية والمتصورة التي تفصل بين الشعبين. شهدت المراحل الأولى من استيطان المستعمرين الإنجليز إنشاء البلدات غالبًا على المواقع التي مهدها الهنود، ثم قام الإنجليز بزراعتها بالمحاصيل الهندية وباستخدام التكنولوجيا الهندية، مثل أحذية التزلج والزوارق التي كانت هامةً ومفيدةً للسفر في المناطق البرية في أمريكا، لكن مع مرور الوقت أزاح الإنجليز السكان الأصليين بشكل أكثر شمولية من أي إمبراطورية أوروبية استعمارية أخرى.

التحول في حياة الهنود

رحب العديد من الهنود الشرقيين في البداية بالقادمين الجدد، أو على الأقل رحبوا بسلعهم التي كانوا يُقدِّرون مزاياها العملية، ولذلك اندمجت سلع مثل القماش المنسوج، وغلايات المعادن، والفؤوس الحديدية، وخطافات صيد الأسماك، والجارف، والبنادق بسرعة في الحياة الهندية. أبدى الهنود أيضًا رغبةً كبيرةً في سلع مثل الخرز الزجاجي الملون، والنحاس، والحلي التي كان يمكن إدراجها في طقوسهم الدينية.

طرأت بعض التغييرات الطفيفة في الحياة الهندية مع اندماج الهنود في الاقتصاد الأطلسي، حيث غَيَّرت الأدوات المعدنية الأوروبية ممارساتهم في الزراعة والصيد والطبخ، وكرس الرجال المزيد من الوقت من أجل صيد القندس للمتاجرة بالفراء. تدهورت مهارات كبار السن مع التوسع في استخدام الأدوات، وأصبح الكحول شائعا ومدمرًا على نحو متزايد. تَعَلَّم الهنود المساومة على نحو فعال لتوفير السلع التي يطلبها الأوروبيون، وسوف يصف المراقبون في وقت لاحق هذه التجارة بأن الهنود كانوا يتبادلون السلع الثمينة مثل فراء وجلود الحيوانات مقابل الحلي الأوروبية التي لا قيمة لها؛ وفي الحقيقة، لقد تخلى كل من الأوروبيين والهنود عن السلع الوفيرة لديهم في مقابل السلع الشحيحة في مجتمعهم، ولكن مع تفوق المستعمرين عسكريًا على الهنود، لذلك كانت الأرباح التجارية في صالح التجار الاستعماريين والأوروبيين. أثارت الاتصالات المتنامية مع الأوروبيين الحرب بين القبائل الهندية، وأدى الإفراط في صيد القندس والغزلان إلى اضطرار بعض الجماعات للانقضاض على الأراضي التي يطالب الآخرون بملكيتها. جلب القادمون الجدد من أوروبا الأوبئة التي أهلكت السكان الهنود.

تغيرات في الأرض

سعى التجار، والمبشرون الدينيون، وجميع السلطات الاستعمارية إلى إعادة تشكيل المجتمع والثقافة الهنديين، ولكن كان انتشار المستوطنين على الأرض يشكل تهديدًا لأساليب الهنود في الحياة أكثر بكثير من تأثير أي سرية من الجنود أو مجموعة من المسؤولين الحكوميين؛ وعلاوة على ذلك، استولى المستوطنون على المزيد والمزيد من الأراضي وأحاطوها بالسياج، وأدخلوا محاصيل جديدة والثروة الحيوانية، مما أدى إلى تغيير البيئة الطبيعية بطريقة قوضت الزراعة والصيد الهنديين التقليديين. كانت الخنازير والماشية تتجول بحرية وتدوس على حقول الذرة والحدائق الهندية. أدى زيادة الطلب على الخشب لبناء وتدفئة المنازل والتصدير إلى إنجلترا إلى نضوب الغابات التي يعتمد عليها الهنود في الصيد، كما أدى التوسع السريع في تجارة الفراء إلى تضاؤل أعداد القندس والحيوانات الأخرى. قالت مجموعة من الهنود في "تشيزبيك" للمستوطنين الأوائل "منذ أن حللتم هنا أيها الغرباء وجئتم إلى بلادنا كان ينبغي عليكم أن تتوافقوا أنتم مع عادات وتقاليد بلادنا بدلاً من فرض عاداتكم وتقاليدكم علينا." مع ذلك، كان التغير الأكبر من نصيب الهنود الذين تبدلت حياتهم بفعل التغييرات التي تم إنفاذها في عام 1607 عندما هبط المستعمرون الإنجليز في جيمس تاون.

الاستيطان في تشيزبيك

مستعمرة "جيمس تاون"

كان التاريخ المبكر لمستعمرة "جيمس تاون" لا يبشر بالخير على أقل تقدير؛ حيث تغيرت قيادة المستعمرة مرارًا وتكرارا، وعانى سكانها من ارتفاع هائل في معدل الوفيات، ونظرًا لانشغال الشركة في الحصول على الربح السريع وعدم قيامها بإنتاج مستلزماتها بنفسها، لذلك كانت الإمدادات من إنجلترا غير كافية، وسرعان ما تبددت آمال العثور على مواقع الثروات، على عكس الإسبان الذين عثروا على الثروات بسرعة في المكسيك." هذا وقد علّق أحد المراقبين الإسبان على وضع المستعمرين الإنجليز في هذه المستعمرة قائلاً "ليس لديهم ذهب أو فضة" وأن مواردها المحلية "ليست ذات أهمية تذكر" ولم يكونوا "يتاجرون مع أي دولة"، كان المستوطنون الأوائل "عصابة مشاكسة من السادة والخدم" وكان من بينهم عدد قليل من المزارعين والعمال والعديد من أبناء طبقة النبلاء الإنجليزية والحرفيين ذوي المكانة العالية (صناع المجوهرات وقاطعو الحجارة، وما شابه ذلك)؛ وقد ذكر أحد أوائل القادة بالمستعمرة ، "جون سميث"، واصفًا المستعمرين بأنهم "يفضلون التنقيب عن الذهب أكثر من الزراعة، إنهم "يفضلون الموت جوعًا على أن يعملوا".

تقع مستعمرة "جيمس تاون" بجوار مستنقع مائي يحتوي على بعوض ناقل لمرض الملاريا، وكانت القمامة التي يلقيها المستوطنون في النهر تغذي الجراثيم التي أصابتهم بالزحار (الدوسنتاريا) وحمى التيفوئيد؛ وهكذا أدت الإصابة بالمرض ونقص الغذاء إلى خسائر فادحة في الأرواح، مما تسبب في انخفاض تعداد السكان الأصليـ الذي كان يبلغ 104 مستوطن بحلول نهاية السنة الأولى بمقدار النصف. بلغ عدد الوافدين الجدد (بما في ذلك أول سيدتين وصلتا في عام 1608) إلى 400 مستوطن في عام 1609، ولكن بحلول عام 1610، وبعد شتاء طويل أطلق عليه اسم "شتاء الموت جوعاً"، لم يتبق سوى 65 من المستوطنين على قيد الحياة؛ وعند مرحلة ما، هجر الناجون "جيمس تاون" وأبحروا عائدين إلى إنجلترا ، إلا أنه تم اعتراضهم وإقناعهم بالعودة إلى فرجينيا من قبل السفن التي تحمل حاكمًا جديدًا، وعدد 250 شخصًا من المستعمرين الجدد والإمدادات؛ وكان نحو 80 في المائة من المهاجرين الذين وصلوا في العقد الأول قد لقوا حتفهم بحلول عام 1616.

لم يحفظ وحدة وسلامة المستعمرة سوى الانضباط العسكري الصارم. كان "جون سميث" رجلاً قويًا، وشملت سيرته المهنية قبل المجيء إلى أمريكا قتال الأتراك في المجر لفترة، حيث تم القبض عليه واستعباده لفترة، وقام في فرجينيا بفرض نظام السخرة على أراضي الشركة، وكان يقول "من لا يعمل لا يأكل". أدى حكم "سميث" الاستبدادي الوحشي إلى نفور العديد من المستعمرين. اضطر "سميث" للعودة إلى إنجلترا بعد تعرضه لحادث انفجار عرضي للبارود في عام 1609، ولكن خلفاءه استمروا على نفس نهجه الاستبدادي في الحكم.

من شركة إلى مجتمع

أدركت شركة فرجينيا ببطء أنه لبقاء المستعمرة على قيد الحياة فإنه كان عليها أن تتخلى عن البحث عن الذهب، وأن تزرع المحاصيل الغذائية بنفسها، وإنتاج سلعة قابلة للتسويق، وجذب المزيد من المستوطنين؛ لذلك أعلنت مجموعة سياسات جديدة في عام 1618 لتشكل بقوة تنمية لفرجينيا كمجتمع عامل بدلاً من موقع استيطاني من المستثمرين المقيمين في لندن؛ وبدلاً من الاحتفاظ بجميع الأراضي لنفسها، قدمت الشركة نظام حق رب الأسرة في قطعة أرض يستقرون عليها، مما منح الأرض للمستعمرين قانونـا، حيث تمنح خمسين فدانًا من الأراضي إلى أي مستعمر يدفع رسوم انتقاله هو أو أي شخص آخر، وبالتالي فإن أي شخص يجلب عددًا لا بأس به من الموظفين الخدم سيستحوذ على ثروة عقارية كبيرة؛ وبدلا من النظام العسكري الحاكم، تم إصدار "ميثاق المنح والحريات" الذي تضمن إنشاء "مجلس المواطنون" وأصبح عند اجتماعه لأول مرة في عام 1619 بمثابة المجلس المنتخب الأول في أمريكا الاستعمارية.

كان "مجلس المواطنين" بالكاد نموذجا للديمقراطية – إذ لا يملك حق التصويت سوى ملاك الأراضي، واحتفظت الشركة وحاكمها المعين بالحق في إلغاء أي إجراء يتبناه هذا المجلس. مع ذلك، كان إنشاؤه في حد ذاته بمثابة سابقة سياسية ستتبناها جميع المستعمرات الإنجليزية لاحقًا. شهد عام 1619 وصول أول عشرين من السود إلى فرجينيا على متن سفينة هولندية. لن يتجلى المغزى الكامل لهذين الحدثين إلا بعد سنوات، ولكنهما وضعا الأساس للمجتمع الذي سوف سيهيمن عليه يومًا ما المزارعون ملاك العبيد اقتصاديًا وسياسيًا.

"بووهاتن" و"بوكاهونتاس"

عندما وصل الإنجليز إلى "جيمس تاون"، نزلوا في منطقة مأهولة بعدد من السكان يتراوح بين 15.000 و 25.000 من الهنود الذين يعيشون في العديد من القرى الزراعية الصغيرة، وكان معظمهم يعترف بحكم "واهونسناكوك"، الزعيم الداهية القوي الذي كان قد عزز من سلطته على المنطقة مؤخرًا وجبى ضرائب من بضع وثلاثين قبيلة تابعة له، وكان يُدعَى "بووهاتن" من قبل المستوطنين نسبة للكلمة الهندية لكل من قبيلته ولقبه ومعناها "الزعيم الأسمى"، وسرعان ما أدرك مزايا التجارة مع القادمين الجدد؛ ونظرًا لإدانة "لاس كاساس" لسلوك الإسبان مع أصحاب الأرض الأصليين، أصدرت شركة فرجينيا من جانبها تعليمات للمستعمرين بحسن معاملة الهنود المحليين ومحاولة تحويلهم إلى المسيحية؛ ونظرًا لإدراك "جون سميث" لحقيقة أن المستعمرين يعتمدون على الهنود في الطعام، لذلك حاول وقف المستوطنين من الاستيلاء على المنتجات من القرى المجاورة مخافة أن يقطع الهنود كل التجارة معهم.

كانت معظم العلاقات مع الهنود سلمية، وعلى أساس من المساواة إلى حد ما في الأخذ والعطاء المتبادلين خلال أول عامين من وجود "جيمس تاون"، إلا أنه تم القبض على سميث من قبل الهنود وهددوا بإعدامه على يد "بووهاتن"، إلا أنه تم إنقاذه من قبل "بوكاهونتاس" ابنته المفضلة بين العديد من أولاده من عشرات الزوجات؛ وقد وردت قصة الحادث في "أسطورة" (فيلم شعبي بالرسوم المتحركة صدر مؤخرا) كمثال على متمردة مراهقة وقعت في الحب وتحدت والدها. في الحقيقة، ربما كان هذا جزءًا من احتفال مدروس صممه "بووهاتن" لإثبات سلطته على المستعمرين ودمجهم في مملكته. أصبحت "بوكاهونتاس" في وقت لاحق وسيطًا بين الشعبين تنقل الغذاء والرسائل إلى جيمس تاون.

وقد أثارت عودة "جون سميث" إلى إنجلترا التوترات بين المجموعتين، وبدأت فترة من الصراع المتقطع في عام 1610 بذبح الإنجليز للقرويين الهنود دون تمييز وتدمير محاصيلهم الزراعية. قبض المستوطنون على "بوكاهونتاس" وحبسوها كرهينة في عام 1613، واعتنقت المسيحية أثناء حبسها

في جيمس تاون، وتزوجت من المستعمر الإنجليزي "جون رولف" في عام 1614 كجزء من استعادة السلام، وذهبت إلى إنجلترا بعد ذلك بعامين برفقة زوجها، حيث أثارت ضجة كبيرة في بلاط الملك "جيمس الأول" باعتبارها رمزًا للوئام الأنجلو- هندي ونجاح التبشير، ولكنها توفت بعد معاناة مع المرض في عام 1617، وتوفي والدها في العام التالي.

انتفاضة عام 1622

بعد أن بات من الواضح أن الإنجليز مهتمين بإقامة مستعمرة دائمة وقادرة على التوسع باستمرار، وليس مجرد مركزًا تجاريا، أصبح الصدام مع الهنود المحليين لا مفر منه. انتهى السلام الذي بدأ في عام 1614 فجأةً في عام 1622، عندما قاد شقيق "بووهاتن" وخليفته، "أبشانكانوف"، هجومًا مفاجئًا تم التخطيط له ببراعة، وحصد في يوم واحد حياة ربع عدد المستوطنين في مستعمرة فرجينيا البالغ عددهم 1200 مستوطن. نظم المستعمرون الناجون البالغ عددهم 900 مستعمر أنفسهم في عصابات عسكرية، ثم قامت عندئذ بذبح عشرات الهنود ودمروا قراهم؛ هذا وقد شرح المتحدث باسم شركة فرجينيا السبب وراء الاعتداء الهندي قائلاً: "خوفهم اليومي من أنه مع مرور الوقت ونتيجة لتزايدنا وتفوقنا المستمر عليهم فإننا سنسلب منهم هذا البلد"، وأعلن حاكم المستعمرة "فرانسيس وايت" أن الهنود خسروا بإعلان هذه الحرب أي حق على الأرض، واستمر قائلاً "إن السياسة في فرجينيا يجب الآن ألا تقل عن "طرد المتوحشين لبسط الحرية على البلاد".

وظل للهنود وجود كبير في فرجينيا واستمرت التجارة طوال القرن، ولكن انتفاضة عام 1622 الفاشلة حولت ميزان القوى في المستعمرة بشكل أساسي، حيث تعزز تفوق المستوطنين في عام 1644 عندما نشب آخر تمرد بائس بقيادة "أبشانكانوف"، الذي يقال إنه كان يبلغ من العمر مائة عام، وتم سحقه بعد أن تسبب في وفاة نحو 500 من المستعمرين، وفرضت فرجينيا معاهدة على هنود الساحل الناجين، وكان يبلغ عددهم آنذاك أقل من 2000 شخص. أقرت هذه المعاهدة تبعيتهم للحكومة في جيمس تاون، وطلبت منهم الانتقال إلى المحميات القبلية إلى الغرب وعدم دخول مناطق الاستيطان الأوروبي بدون إذن. تلت سياسة الفصل هذه سابقتها التي تم تبنيها، وتنفيذها بالفعل في إيرلندا. استمر المستوطنون الذين انتشروا إلى داخل ريف فرجينيا في الاستيلاء على الأراضي الهندية.

كان الدمار الذي حدث بسبب انتفاضة عام 1622 هو الأخير في سلسلة من الضربات التي تعرضت لها شركة فرجينيا، وتنازلت الشركة بعد عامين عن امتيازها، وأصبحت فيرجينيا أول مستعمرة ملكية، وكان يتم تعيين حاكمها آنذاك من قبل التاج الإنجليزي. فشلت فرجينيا في

تحقيق أي من أهدافها، سواء للشركة أو للمستوطنين، ولم ينتفع المستثمرون بأي أرباح. على الرغم من أن الشركة قد أرسلت 6.000 مستوطن إلى ولاية فرجينيا، إلا أن سكانها البيض بلغوا 1.200 مستوطن فقط عندما تولى الملك الهيمنة عليها. لم تنل مستعمرة فرجينيا إلا القليل من اهتمام الحكومة في لندن لسنوات نظرا لانشغال الأخيرة بالشئون الداخلية، ولذلك كانت تسيطر النخبة المحلية، وليس شركة بعيدة، على تطوير المستعمرة، وكانت النخبة تنمو بسرعة في الثروة والسلطة وذلك بفضل زراعة محصول جلبه "جون رولف" من جزر الهند الغربية، ألا وهو محصول التبغ.

مستعمرة التبغ

اعتبر الملك "جيمس الأول" أن التبغ "ضار بالمخ وخطر على الرئتين"، وأصدر تحذيرًا حماسيًا ضد تدخينه، ولكن أعدادًا متزايدةً من الأوروبيين ظلت تتمتع بالتدخين وتعتقد أن نبات التبغ له فوائد طبية؛ ونظرًا لأن التبغ كسلعة لها سوق ضخم متنامي باستمرار في أوروبا، لذلك أصبح التبغ بالنسبة لمستعمرة فرجينيا بديلاً عن الذهب، وأثرى طبقة ناشئة من مزارعي التبغ، فضلاً عن أعضاء من الحكومة الاستعمارية الذين اختصوا أنفسهم بالأرض الجيدة. استفاد التاج من الرسوم الجمركية (الضرائب على التبغ الذي يدخل المملكة أو يخرج منها)، وبحلول عام 1624 تم زراعة ما تفوق قيمته 200.000 جنيهًا إسترلينيًا مما حقق أرباح مذهلة لملاك الأراضي الزراعية. بلغ حجم إنتاج المحصول بعد أربعين عامًا 15 مليون جنيهًا إسترلينيا، وتضاعف مرة أخرى في الثمانينات من القرن السابع عشر. أسفر انتشار زراعة التبغ عن مجتمع متمزق فيه عدد قليل من المدن والقليل من الوحدة الاجتماعية، وأوحى بفلسفة "الثراء السريع" والتدافع المحموم للحصول على الأرض والعمالة. شهد منتصف القرن السابع عشر تدفقًا جديدًا للمهاجرين ذوي المال الوفير من أبناء التجار والسادة الإنجليز، للاستفادة من نظام منح الأرض ومن علاقاتهم واتصالاتهم بالدوائر الحكومية للحصول على الملكيات الكبيرة على طول الأنهار الصالحة للملاحة، ورسخوا أقدامهم باعتبارهم النخبة الاجتماعية والسياسية بالمستعمرة.

أدى التوسع في زراعة التبغ أيضًا إلى زيادة الطلب على عمال الحقول، والذي كان يشبعه الشباب الذكور الخدم بالسخرة خلال معظم القرن السابع عشر من قبل؛ وعلى الرغم من ظروف العمل القاسية في حقول التبغ وارتفاع معدل الوفيات باستمرار، والقوانين التي تفرض عقوبات تبدأ بالجلد وتنتهي بتمديد خدمة أولئك الذين يهربون أو كانوا جامحين، إلا أن وفرة الأراضي استمرت في جذب المهاجرين. بلغ عدد الخدم بعقود الذين هاجروا من إنجلترا إلى منطقة "تشيزبيك" خلال القرن السابع عشر ثلاثة أرباع مجموع المهاجرين خلال هذه الفترة البالغ

عددهم 120.000 مستوطنًا. أخذ مجتمع البيض في مستعمرة فرجينيا يتشبه بالمجتمع في إنجلترا على نحو متزايد، مع طبقة النبلاء الأثرياء يحتلون قمة الهرم الاجتماعي، يليهم في منتصفه مجموعة من صغار المزارعين، ومعظمهم من موظفي الخدمة بعقود والذين سبق لهم الحصول على الأراضي، ثم في قاعدة الهرم جيش من الفقراء من العمال والخدم الحاليين، والخدم بعقود من قبل ولكنهم لا يملكون أرضا. نمى عدد السكان البيض في المنطقة إلى ما يقرب من 90.000 ألف نسمة بحلول عام 1700.

المرأة والأسرة

بالرغم من هذا التشابه بين المستعمرة والمجتمع الإنجليزي الأم، كانت مستعمرة فيرجينيا تفتقر إلى عنصر أساسي في المجتمع الإنجليزي، وهو الحياة الأسرية المستقرة. روجت المستعمرة بقوة لهجرة النساء، بما في ذلك عشرات من "عرائس التبغ" اللاتي وصلن في عامي 1620 و 1621 لزيجات تم الترتيب لها، ولكن نظرًا للطلب على الموظفين الذكور للعمل في حقول التبغ، فاق تعداد الرجال في "تشيزبيك" أعداد النساء في معظم القرن السابع عشر بنسبة أربعة أو خمسة رجال لكل امرأة. جاءت الغالبية العظمى من النساء اللاتي هاجرن إلى المنطقة كخادمات لمدة محددة، ونظرًا لأنه ينبغي عادة على المرأة استكمال مدة خدمتها قبل الزواج، لذلك لم يبدأن في تشكيل الأسرة حتى منتصف العشرينيات من عمرهن؛ وبالإضافة إلى ذلك، أدى ارتفاع معدل الوفيات بنسب غير متكافئة بين الجنسين وتأخر سن الزواج بالنسبة لأولئك الذين وجدوا شركاء للحياة إلى تخلف النمو السكاني، وإفراز مجتمع به أعداد كبيرة من الرجال غير المتزوجين والأرامل والأيتام؛ وعلى الرغم من بقاء المثل الأبوية العليا متماسكة وقوية في مستعمرة فرجينيا، إلا أن السلطة التقليدية للأزواج والآباء ضعفت في الممارسة وعلى أرض الواقع، ونتيجة انخفاض معدل العمر المتوقع لهؤلاء الآباء، فقد وجدوا صعوبة في الإشراف على مستقبل وزواج أولادهم.

كما هو الحال في إنجلترا، تمتلك المرأة المتزوجة في المستعمرات حقوقًا معينة أمام القانون، بما في ذلك المطالبة "بحقوق المهر" بقدر ثلث ملكية زوجها في حال وفاته قبلها؛ ومع ذلك، عندما تتوفى الأرملة تؤول الملكية إلى ورثة الزوج الذكور. (كان القانون الإنجليزي أقل سخاءً مما كان عليه في إسبانيا حيث يمكن للمرأة في إسبانيا أن تحتفظ بشكل مستقل بأي ممتلكات ورثتها من والديها، ويمتلك الزوج وزوجته كل الثروة المتراكمة أثناء الزواج بشكل مشترك بينهما.)

بالرغم من ذلك، فتحت الأوضاع الاجتماعية في المستعمرات الباب أمام النساء للقيام بأدوار نادرًا ما كن يقمن بها في إنجلترا؛ نظرًا لأن الأرملة والمرأة التي لم تتزوج أبدًا تتمتع بوضع قانوني يسمح لها أن تكون لها هوية قانونية مستقلة، وهو الأمر الغير مسموح به للنساء

المتزوجات، لذلك استغل هؤلاء النساء هذه الميزة لإبرام العقود وإجراء الأعمال التجارية، على سبيل المثال، "مارجريت برنت" التي هاجرت إلى "تشيزبيك" في عام 1638، حيث امتلكت الأراضي وأدارت مزارعها الخاصة وعملت كمحامية في المحكمة. تم اختيار بعض الأرامل لإدارة أراضي أزواجهن، أو تم توريثهن بوصية ممتلكات أزواجهن مباشرة قبل وفاتهم، بدلاً من تلقي فقط الثلث في شكل "حقوق المهر، ولكن نظرًا لأن معظم النساء جئن إلى فرجينيا كخادمات تم التعاقد معهن لمدة محددة، ولم يكن أمامهن سوى التطلع إلى الحياة مع الأشغال الشاقة في حقول التبغ والموت المبكر؛ وكثيرًا ما كانت هؤلاء الخادمات يتعرضن للاعتداء الجنسي من قبل أسيادهن، وكثيرًا ما كان يواجه أولئك اللاتي يتزوجن العيش في حالة من الفقر عندما يتوفى عنهن أزواجهن.

تجربة ميريلاند

على الرغم من أن المستعمرة الثانية في "تشيزبيك" في "ميريلاند" بدأت برعاية مختلفة تمامًا، وظلت أصغر بكثير من مستعمرة فرجينيا، إلا أنها تبنت مسارًا مماثلاً من التنمية؛ وكما هو الحال في مستعمرة فرجينيا، هيمن التبغ على الاقتصاد وهيمن مزارعو التبغ على المجتمع؛ ولكن من نواحي أخرى، كان تاريخ مستعمرة ميريلاند مختلفًا بشكل لافت للنظر.

تأسست ولاية ميريلاند في عام 1632 باعتبارها مستعمرة تخضع للملكية الخاصة، بمعنى أنها منحة من الأراضي والسلطة الحكومية لفرد واحد، وهو "سيسيلوس كالفرت" ابن أحد المقربين للملك "تشارلز الأول" والذي كان قد توفي مؤخرًا، فمنحة الملك امتيازًا يتضمن الملكية الحصرية للمستعمرة ومنحه "الحرية الكاملة والسلطة المطلقة"، بما في ذلك السيطرة على التجارة والحق في وضع جميع التشريعات مع مجلس منتخب يقتصر على إقرار أو رفض مقترحاته. تصور "كالفرت" مستعمرة ميريلاند كملكية إقطاعية، حيث يتم تقسيم الأرض إلى ضِيَاع (جمع ضيعة وتعني قرية صغيرة) يتم توزيعها على ملاك يدفعون له "أجرة الحكر". لم يكن يقبل "كالفرت" فكرة المؤسسات النيابية، وكان يعتقد أنه ليس من حق الناس العاديين التدخل في الشئون الحكومية؛ ومن ناحية أخرى، كان الامتياز يضمن للمستعمرين أيضًا "كافة الامتيازات والمزايا والحريات" التي يتمتع بها الإنجليز؛ وفي حين لم يتم النص على ذلك صراحة، إلا أن ذلك كان موجودًا بصورة ضمنية بلا شك في فكرة أن الحكومة ملتزمة بالقانون. كان هذا كفيلاً بتأجيج الصراع، وكان حظ ميريلاند منه وافرًا خلال القرن السابع عشر.

وضع الدين في ميريلاند

تفاقم عدم الاستقرار في مستعمرة ميريلاند بدرجة أكبر نتيجة لحقيقة أن "كالفرت" الذي كان

يدين بالكاثوليكية تصور أنه سيجعل من مستعمرته ملاذًا آمنًا للكاثوليك المضطهدين في إنجلترا، وخصوصا الأبناء الأصغر للنبلاء الكاثوليك الذين كان أمامهم آفاق اقتصادية أو سياسية ضيقة في إنجلترا. كان يأمل أن يعيش البروتستانت والكاثوليك في مستعمرة ميريلاند في وئام لم يكن متاحًا في أوروبا. شملت المجموعة الأولى من المهاجرين إلى ميريلاند 130 مستعمرًا، فيما بينهم عدد من السادة الكاثوليك واثنين من القساوسة المعينين. كان معظم المسئولين المعينين كاثوليك أيضًا، بما في ذلك أقارب المالك، وكذلك أولئك الذين منحهم الأرض المختارة كمنح؛ ومع ذلك، كان البروتستانت يشكلون دائمًا غالبية المستوطنين، وجاء معظمهم كخادمين بعقود عمل مؤقتة، كما هو الحال في مستعمرة فرجينيا، غير أن الآخرين استفادوا من نظام منح الأراضي بسخاء في ميريلاند مقابل نقل العمال إلى المستعمرة للحصول على الأراضي.

كما هو الحال في مستعمرة فرجينيا، ظل معدل الوفيات عاليًا جدا. استمرت نصف الزيجات في مقاطعة واحدة خلال القرن السابع عشر لمدة أقل من ثماني سنوات قبل أن يتوفى أحد شركاء الحياة. توفى ما يقرب من 70 في المائة من المستوطنين الذكور في ميريلاند قبل بلوغ سن الخمسين، ونصف الأطفال الذين ولدوا في المستعمرة لم يعيشوا إلى سن البلوغ؛ ومع ذلك، يبدو أن مستعمرة ميريلاند وفرت للموظفين الخادمين فرصة أكبر من مستعمرة فرجينيا لملكية الأراضي، ولكن في البداية على الأقل؛ وخلافًا لما حدث في المستعمرة الأقدم، شملت مستحقات الحرية في ولاية ميريلاند خمسين فدانًا من الأراضي؛ وبالرغم من أن مزارعي التبغ قد استأثروا بأفضل الأراضي في وقت لاحق في هذا القرن، إلا أن آفاق الأمل أمام الرجال الذين لا يملكون أرضًا قد تضاءلت.

مسار إنجلترا الجديدة

ظهور المذهب التطهيري (البروتانية)

مع تطور فرجينيا وميريلاند نحو مجتمعات تهيمن عليها أرستقراطية صغيرة حاكمة على العديد من العمال المقيدين بعقود عمل مؤقتة، وهو نظام اجتماعي مختلف جدًا نشأ في نيو إنجلاند في القرن السابع عشر. ارتبط التاريخ المبكر للمنطقة ارتباطًا وثيقًا بالحركة الدينية المعروفة باسم "التحفظ والتزمت"، وهي ما اصطُلِحَ على تسميتها "التطهرية" التي ظهرت في إنجلترا في أواخر القرن السادس عشر. صاغ المعارضون هذا المصطلح في البداية للسخرية من أولئك الأشخاص الغير راضين عن التقدم في الإصلاح البروتستانتي في إنجلترا، والذين أطلقوا على أنفسهم اسم "الربانيون المتقون" أو "البروتستانت الحقيقيون، وليس "المتطهرون". جاءت التطهرية لتحديد مجموعة من المبادئ الدينية، وتقديم نظرة حول الكيفية التي ينبغي بها تنظيم المجتمع. اختلف المتشددون

فيما بينهم حول العديد من القضايا، ولكنهم تقاسموا معًا القناعة بأن كنيسة إنجلترا تحتفظ في طقوسها ومذاهبها الدينية بعناصر كثيرة جدًّا من الكاثوليكية. رأى البروتستانت أن احتفالات الكنيسة المسهبة، والقاعدة التي لا تبيح للكهنة الزواج، وزخارف الكنيسة المبهرجة تعد من بقايا "البابوية". رفض الكثيرون الهيكل الكاثوليكي للسلطة الدينية الذي يتألف بصورة تنازلية من البابا أو ملك رؤساء الأساقفة ثم الأساقفة ثم الكهنة، وكانوا يعتقدون أن حق اختيار رجال الدين وتحديد طرق العبادة ينبغي أن يقتصر على الأبرشية فقط. كان يُطلَق على هؤلاء المتطهرون اسم "أعضاء الأبرشيات". تقاسم جميع التطهريون العديد من معتقدات كنيسة إنجلترا والمجتمع ككل، بما في ذلك كراهية الكاثوليكية والفخر بعظمة إنجلترا باعتبارها بطلة الحرية، ولكنهم كانوا يعتقدون أن كل من الكنيسة والدولة لا يلتزمان بالمثل العليا.

اعتبر المتطهرون أن العقيدة الدينية مسألة معقدة وصعبة، وحثوا المؤمنين على البحث عن الحقيقة من خلال قراءة الكتاب المقدس، والاستماع لعظات القساوسة والكهنة المتعلمين، بدلاً من تكريس أنفسهم للأسرار المقدسة التي يجريها الكهنة، وما اعتبروه صلاة فارغة. كانت الطقوس هي العظة الأساسية للممارسة التطهرية؛ ووفقًا لأحد التقديرات، يستمع التطهيري المتوسط خلال رحلة حياته لحوالي 7000 خطبة دينية. تبنى التطهريون في معتقداتهم الدينية أفكار اللاهوتي السويسري الفرنسي المولد "جون كالفين"، الذي عَلَّمَ أتباعه أن العالم مُقَسَّم بين المصطفين والملعونين، وأن جميع الأشخاص يسعون للخلاص، ولكن الله وحده هو الذي يحدد مصير الشخص بين هاتين الفئتين، وأنه لا أحد على ظهر الأرض يعلم إرادة الله، وأنه ليس هناك أي شيء يُغَيِّر إرادة الله، بما في ذلك الصلاة والأعمال الصالحة وتقديم القرابين؛ على الرغم من أنه ليس هناك أي ضمانات للخلاص، إلا أن النجاح في الدنيا والحياة الطيبة والازدهار الاقتصادي قد يكونوا بمثابة مؤشرات على نعمة الله وفضله، بينما الكسل والسلوك الغير أخلاقي تعد بمثابة علامات مؤكدة على اللعنة.

الحرية الأخلاقية

ومع ذلك، لم تكن التطهرية مجرد مجموعة من الأفكار، ولكن حالة ذهنية واندفاع في السعي إلى الإيمان الصحيح، الذي ابتعد عنه الكثيرون من الذين يعتنقون آراء دينية مختلفة؛ وكان هناك أقلية من التطهريين (مثل أولئك الذين استقروا في مستعمرة "بليماوث") الذين انفصلوا عن الكنيسة الإنجليزية وهجروها تمامًا لتشكيل كنائس مستقلة خاصة بهم؛ ومع ذلك، فإن معظمهم كان يأمل من وراء ذلك تطهير الكنيسة من الداخل، ولكن مع ما بدا من تحرك الملك "تشارلز الأول" في العشرينيات والثلاثينيات من القرن السابع عشر نحو استعادة الاحتفالات الكاثوليكية،

وطرد كنيسة إنجلترا للقساوسة والكهنة التطهريين، وفرض الرقابة على كتاباتهم، قرر العديد منهم الهجرة، وبالفعل رحلوا عن إنجلترا ليس بسبب الاضطهاد في الأصل، ولكن لأنهم كانوا يخشون أن تزداد الممارسات "البابوية" حتى تصل إلى "حد غير مقبول"، كما اشتكى أحد الكهنة قائلاً "ضمائر القديسين .. لم تعد تستطيع تحملهم." وعلى نفس المنوال، أرجع التطهريون العديد من المشاكل الاجتماعية في إنجلترا إلى الفقراء المتجولين، لأنهم يعتبرونهم كسالى وفجار. عندما هاجر التطهريون إلى نيو إنجلاند، كانوا يأملون في الفرار مما يعتقدونه فساد المجتمع الإنجليزي دينيًا ودنيويًا، ويسعون إلى تأسيس "مدينة على تل" لتكون بمثابة رابطة الكتاب المقدس التي سيتدفق نفوذها عبر المحيط الأطلسي، لينقذ إنجلترا من الإلحاد والانحلال الاجتماعي.

مثل عدد كبير من المهاجرين الآخرين إلى أمريكا، جاء التطهريون بحثًا عن الحرية، ولا سيما الحق في العبادة، وأن يحكموا أنفسهم وفقًا للسلوك المسيحي الحق. كانت الحرية بالنسبة للتطهيريين قضية روحية في المقام الأول، وهي تعني الفرصة والمسئولية لطاعة الله خلال الحكم على النفس وإنكار الذات. إنها لا تعني بالتأكيد العمل بلا ضابط أو الممارسات الدينية غير اللائقة أو السلوك الآثم، وهي الأمور التي كانوا يعتقدون أنها منتشرة في إنجلترا. ألقى "جون وينثروب"، حاكم مستعمرة ماساتشوستس، خطابًا في عام 1645 أمام السلطة التشريعية بالمستعمرة شرح فيه مفهوم التطهريين للحرية، وميز فيه بشكل حاد بين نوعين من الحرية، "الحرية الطبيعية" أو التصرف دون ضبط النفس، بما في ذلك "الحرية لفعل الشر"، وهذه هي الفكرة الخاطئة عن الحرية التي يفترض أن الأيرلنديين والهنود والمسيحيين السيئين تبنوها بصفة عامة. أما النوع الثاني فهو الحرية الحقيقية، أي "الحرية الأخلاقية"– وهي الحرية المسيحية التي ورد وصفها في الفصل الأول– وهي تعني "الحرية لكل ما هو جيد فقط"، وهي متوافقة تمامًا مع القيود الشديدة على التعبير، والدين، والسلوك الشخصي. أصر "ينثروب" على أن الحرية الحقيقية تعتمد على "الخضوع للسلطة"، سواء الدينية أو العلمانية، وإلا ستسود الفوضى؛ في حين كانت الحرية بالنسبة للتطهيريين تعني أن السلطة المنتخبة لها الحق في إنشاء الكنائس وحكم المجتمع، ولكنها لا تعني أن الآخرين يمكنهم تحدى معتقدات أو سلطة هذه الكنائس وهؤلاء الناس.

حجاج بليماوث

كانت المجموعة الأولى من التطهريين الذين هاجروا إلى أمريكا مجموعة من الانفصاليين المعروفين باسم "الحجاج"، وكانوا قد فروا بالفعل إلى هولندا في عام 1608 معتقدين أن الشيطان قد بدأ في "زرع الخطايا والبدع والفتن" في إنجلترا، وبعد عقد من الزمن قرروا الهجرة إلى فرجينيا خوفًا من أن يكون أولادهم قد أفسدهم الانخراط في الثقافة المحيطة بهم. تم تمويل الحملة من قبل

مجموعة من المستثمرين الإنجليز الذين كانوا يأملون في إقامة قاعدة لتجارة مربحة. انطلقت السفينة "ماي فلاور" في سبتمبر (أيلول) عام 1620 من إنجلترا متجهةً إلى فرجينيا وعلى متنها 150 مستوطنًا وأفراد الطاقم (من بينهم العديد من غير التطهريين)، ولكنها ضلت الطريق بفعل الرياح وانحرفت عن مسارها، وبالتالي لم تهبط في فرجينيا، ولكن هبطت في "كيب كود" على بعد مئات الأميال إلى الشمال، حيث أنشأ الناجون من الرحلة البالغ عددهم 102 مستعمرة "بليماوث"؛ وأبرم زعماء الحجاج قبل رسو السفينة اتفاقًا أطلقوا عليه اسم "اتفاق أو ميثاق ماي فلاور"، الذي وافق فيه الرجال البالغون على الطاعة والانصياع "للقوانين العادلة والتي يخضع لها الجميع على قدم المساواة" التي سيسنها ممثلوهم الذين سيختارونهم بأنفسهم. كان هذا أول إطار حكومي مكتوب فيما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقبل ذلك بقرن من الزمان، رأى "جيوفاني دا فيرازانو"، عندما استكشف ساحل المحيط الأطلسي لأمريكا الشمالية، قرى كثيفة مستقرة، وشاهد دخان النيران الهندية التي لا حصر لها. في الوقت الذي هبط فيه الحجاج، كان المئات من سفن الصيد الأوروبية التي تعمل بعيدًا عن "نيو إنجلاند"، كانت قد هبطت للتجارة مع الهنود، وجلبت معها الأوبئة كما حدث في مستعمرات أوربية أخرى. وصل الحجاج إلى منطقة قد هلك الكثير من سكانها الأصليين بالجدري مؤخرا. أسس الحجاج "بليماوث" في موقع قرية هندية مهجورة، والتي كان أهلها قد أعدوا حقولها للزراعة قبل الإصابة بالوباء، ومع ذلك، وصل المستوطنون قبل حلول فصل الشتاء بستة أسابيع، وليس لديهم طعام أو حيوانات مزارع، فتوفي نصفهم خلال فصل الشتاء الأول، ونجت البقية بمساعدة من الهنود المحليين فقط، ولا سيما "أسكوانتو" الذي خطفه ومعه عشرين من الهنود الآخرين المستكشف الإنجليزي "توماس هانت"، وجلبه إلى إسبانيا عام 1614 لبيعهم كعبيد، ولكن أنقذه كاهن محلي وتمكن بطريقة أو بأخرى من الهرب إلى لندن حيث تعلم اللغة الإنجليزية، وعاد إلى ماساتشوستس في عام 1619 ليجد أن أهل قريته الذين يطلق عليهم اسم "باتوكست"، قد استسلموا للمرض ومات الكثير منهم، فقام بالعمل كمترجم للحجاج وعلمهم كيف يصطادون السمك وزراعة الذرة، وساعدهم في إقامة تحالف مع أحد القادة المحليين "ماساسوات". دعا الحجاج حلفائهم الهنود في خريف عام 1621 إلى وليمة الحصاد للاحتفال ببقائهم على قيد الحياة، وكان هذا أول عيد شكر.

كان الحجاج يأملون في إقامة مجتمع قائم على غرار حياة القديسين المسيحيين الأول. ارتكزت حكومتهم على مبدأ الموافقة والقبول، ولم يقتصر التصويت على أعضاء الكنيسة. ظلت ملكية كل الأرض مشتركة حتى عام 1627 عندما تم تقسيمها بين المستوطنين. عاشت مستعمرة

"بليماوث" مستقلة حتى عام 1691، ولكن سرعان ما طغى عليها خليج ماساشوستس في شمالها.

الهجرة الكبرى

حصلت شركة خليج ماساشوستس على حق الامتياز، والتي كانت قد تأسست في عام 1629 من قِبَل مجموعة من تجار لندن، الذين كانوا يأملون في تعزيز قضية التطهريين وتحقيق أرباح عن طريق التجارة مع الهنود. أبحرت السفن الخمس الأولى من إنجلترا في عام 1629، ووصل عدد التطهريين الذين هاجروا إلى "ماساشوستس" بحلول عام 1642 إلى حوالي 21.000 مهاجر. أُطلِقَ لمدة طويلة على هذه الدفعة من المهاجرين اسم "الهجرة الكبرى"، وكانوا يمثلون أقل من ثلث الهجرة من الإنجليز في الثلاثينيات من القرن السابع عشر. وصلت أعداد أكبر بكثير من المستوطنين الإنجليز إلى "أيرلندا" و"تشيزبيك" و"منطقة البحر الكاريبي". توقفت الهجرة تقريبا إلى "نيو إنجلاند" بعد 1640، وكان عدد المستعمرين الذين هجروا المنطقة بعد بضع سنوات أكثر من عدد الذين وصلوا إلى هناك؛ ومع ذلك، وضعت "الهجرة الكبرى" الأساس لمجتمع مستقر ومزدهر.

كان الاستيطان في نيو إنجلاند فريدًا من نوعه في نواح كثيرة؛ وعلى الرغم من أن الخدم كانوا يمثلون نحو ربع الهجرة الكبرى، إلا أن معظم المستوطنين وصلوا إلى ماساشوستس في شكل أسر وليس أفرادًا، حيث جاءوا لأسباب كثيرة، بما في ذلك الرغبة في الهروب من الاضطهاد الديني، والقلق حول مستقبل إنجلترا، واحتمال تحسين الوضع الاقتصادي. كشفت المقارنة بين هؤلاء المستعمرين وبين المستعمرين في فرجينيا وميريلاند عن أنهم كانوا أكبر سنًا وأكثر ازدهارًا، وكان عدد الرجال والنساء متساوي بشكل أكثر توازنًا؛ ونظرًا إلى تساوي النسبة بين الجنسين في نيو إنجلاند واعتدال المناخ، لذلك نما عدد السكان بسرعة وتضاعف كل سبعة وعشرين عاما. على الرغم من أن هذه المنطقة لم تستقبل سوى جزء صغير من الهجرة خلال القرن، إلا أنه بحلول عام 1700، بلغ عدد السكان البيض في نيو إنجلاند قرابة 91.000 نسمة، وهو ما يفوق عدد الإنجليز البيض في كلا من "تشيزبيك" وجزر الهند الغربية، وكانوا كلهم تقريبًا من أحفاد أولئك الذين عبروا الأطلسي خلال الهجرة الكبرى.

الأسرة التطهرية

بينما أدى اختلال التوازن بين المهاجرين من الذكور والإناث إلى صعوبة ترسيخ أنماط الأسرة الأبوية بالكامل في "تشيزبيك" حتى نهاية القرن السابع عشر، إلا أن هذه الأنماط الأسرية برزت بسرعة كبيرة في نيو إنجلاند. بالرغم من الخلافات بينهم وبين الإنجليز الآخرين على أساس المسائل الدينية، تقاسم التطهريون مع المجتمع الأكبر الإيمان بسلطة الذكور داخل الأسرة، فضلاً عن التمسك بالتقليد العرفي المشترك الذي كان يقيد بشدة الحقوق القانونية والاقتصادية

للمرأة المتزوجة. احتذى البروتستانت في أمريكا بدقة بهيكل الأسرة في إنجلترا، وأصروا على أن طاعة النساء والأطفال والخدم لإرادة الرجل هي الأساس للاستقرار الاجتماعي. كانت سلطة الأب هي الأكثر حيوية لأنه في مجتمع الزراعة الذي لا يتوفر فيه أعداد كبيرة من العبيد أو الخدم، فإن سيطرة المرء على عمل أسرته كانت ضرورية للنجاح الاقتصادي للرجل.

ولا ريب أن التطهريين رأوا أن المرأة متساوية مع الرجل في المسائل الروحية، وكان مسموح للمرأة بالمشاركة في عضوية الكنيسة بالكامل. على الرغم من أن كل الكهنة والقساوسة كانوا رجالاً، إلا أن اعتقاد التطهريين بقدرة المؤمنين على تفسير الكتاب المقدس فتح الباب أمام بعض النساء للمطالبة بمراكز دينية قيادية. استند الزواج التطهيري المثالي على المودة المتبادلة والرفقة، وكان الطلاق مشروعا وقانونيا؛ ومع ذلك، كانت سلطة الزوج داخل الأسرة مطلقة تقريبا؛ وفي الحقيقة، كان يعتقد أن مركز الرجل كرئيس لعائلته يتأسى بسلطة الله في المسائل الروحية، وسلطة الحكومة في مجال الشئون الدنيوية؛ وأحيانا ما كان يتدخل القضاة لحماية الزوجات من الاعتداء الجسدي، ولكنهم فرضوا ونفذوا أيضا سلطة الآباء على أطفالهم، وسلطة الأزواج على زوجاتهم. كان "التأديب المعتدل" للنساء اللواتي كن ينتهكن مفهوم أزواجهن للسلوك السليم يعتبر مناسبا.

كانت مسئولية المرأة كزوجة وأم تُحدد حياة المرأة وتشكل معالمها. ذكر "جون وينثروب" في خطابه الذي ألقاه في عام 1645 عن الحرية المذكور أعلاه، أن المرأة حققت حرية حقيقية من خلال الوفاء بالدور الاجتماعي المحدد لها، والامتثال "بالخضوع لسلطة زوجها." كانت العائلة تمثل الأساس لبناء مجتمعات قوية، وبدا أن البالغين غير المتزوجين يشكلون خطرًا على النسيج الاجتماعي. صدر قانون في وقت مبكر في "بليماوث" ينص على أنه "لا ينبغي أن يُترك أي شخص يعاني العيش بمفردة بدون زواج". كان متوسط سن المرأة عند الزواج في نيو إنجلاند اثنين وعشرين عاما، وهو سن أصغر من نظيرتها الإنجليزية، وكانت تنجب سبعة مرات؛ ونظرًا لأن نيو إنجلاند كانت بيئة أكثر صحة بكثير من "تشيزبيك"، لذلك بقى على قيد الحياة عدد أكبر من الأطفال الرضع، وبالتالي فإن جزءًا كبيرًا من حياة المرأة البالغة كان مكرسًا لإنجاب الأطفال وتنشئتهم.

الحكومة والمجتمع في ماساتشوستس

تحدث "جون وينثروب" في خطبة ألقاها على متن السفينة "آرابيلا"، التي أبحرت إلى ماساتشوستس في عام 1630، عن ترابط المستوطنين معًا "برباط المودة الأخوية"، من أجل تعزيز مجد الله "وصالحهم العام". كان التطهريون يخشون من الإفراط في الفردية وغياب الوحدة الاجتماعية؛ وعلى عكس

المجتمع الذي كان يرتكز على المزارع المتناثرة في "تشيزبيك"، نَظَّمَ القادة في مستعمرة ماساشوستس المدن التي تتمتع بالحكم الذاتي. تلقت مجموعات من المستوطنين منحة من أرض حكومة المستعمرة، ثم قسمتها بحيث يحصل المقيمون على مساحة من الأرض لبناء منزل في منطقة مركزية، بينما تكون الأراضي المنزرعة في الضواحي. ظلت مساحات كبيرة من الأرض على المشاع، إما للاستخدام الجماعي أو لتقسيمها بين المستوطنين الذين سيصلون في وقت لاحق، أو لأبناء مؤسسي المدينة. كان لكل بلدة كنيسة مستقلة خاصة بها، وكان يتعين على كل بلدة تأسيس مدرسة بموجب القانون الصادر في عام 1647، نظرًا لأن القدرة على قراءة الكتاب المقدس تمثل مبدأ أساسيًا في العقيدة التطهرية، كما تم تأسيس كلية هارفارد في عام 1636، لتخريج كهنة وقساوسة متعلمين ومدربين (بعد ما يقرب من قرن من تأسيس الجامعة الملكية بالمكسيك في عام 1551)، وتم بعد عامين تأسيس أول مطبعة في أمريكا الإنجليزية في كامبريدج.

عكست حكومة ماساشوستس الرؤية الدينية والاجتماعية للتطهريين؛ ونظرًا للرغبة في حكم المستعمرة دون تدخل خارجي، ولمنع غير التطهريين من التأثير على صنع القرار، هاجر المساهمون في شركة "خليج ماساشوستس" إلى أمريكا ومعهم الامتياز الذي حولوه من وثيقة تجارية إلى شكل من أشكال الحكومة. اختار المساهمون الثمانية في البداية الرجال الذين يحكمون المستعمرة، ثم بعد ذلك تم إضافة مجموعة من النواب المنتخبين (من أعضاء الكنيسة ملاك الأراضي) من قبل الرجال الأحرار في عام 1634لتشكيل هيئة حاكمة واحدة، ألا وهي المحكمة العامة. انقسم المسئولون عن الشركة والنواب المنتخبين بعد عشرة سنوات إلى مجلسين تشريعيين؛ وعلى عكس ولاية فرجينيا التي كان يتم تعيين حكامها في البداية من قبل شركة بعيدة، ثم التعيين من قبل التاج البريطاني بعد عام 1624، وعلى عكس ميريلاند، حيث ظلت السلطة في أيدي مالك واحد، انتخب الأحرار في ماساشوستس حاكمهم.

كان مبدأ القبول والموافقة أساسيًا في المذهب التطهيري، وعلى هذا تم الأخذ بمبدأ اللامركزية في حكم الكنيسة، وكما عبر عن ذلك أحد الكهنة، فقد كان لكل كنيسة "الحرية الكاملة في أن تستقل بذاتها"، وتم تشكيل الكنائس بالاتفاق التطوعي بين الأعضاء الذين انتخبوا الكاهن، ولا يتم اتخاذ أي قرار هام في الكنيسة بدون موافقة الأعضاء الذكور. كانت المدن تحكم نفسها، وكان يتم انتخاب المسئولين المحليين ومندوبي المحكمة العامة وحاكم المستعمرة؛ ومع ذلك، نادرًا ما كان التطهريون يؤمنون بالمساواة، فعلى الرغم من أنه كان يمكن لأي شخص أن يتعبد في الكنيسة، أو كما يفضل التطهريون أن يسموها "منزل الاجتماع"، إلا أن العضوية بالكنيسة، التي تخول لصاحبها الكثير من السلطة والنفوذ والهيبة، كانت مشروطة بأن يُثبت

الشخص أنه قد شهد النعمة الإلهية، ويمكن اعتباره "قديس ظاهر مرئي"، عادة عن طريق الإدلاء بشهادته حول المرور بالتجربة الروحية وتحول قلبه للإيمان؛ وعلى الرغم من أنه عادة ما يملك الذكور أصحاب الممتلكات حق اختيار المسئولين المحليين، إلا أن حق التصويت في الانتخابات على نطاق المستعمرة كان يقتصر على الرجال الذين يتمتعون بالعضوية الكاملة في الكنيسة. أدى فرض هذا الشرط في البداية إلى اتساع جمهور الناخبين، لا سيما بالمقارنة مع إنجلترا، ولكنه كان يعني مع مرور الوقت أن نسبة أصغر فأصغر من السكان تسيطر على الحكومة. كانت الديمقراطية التطهرية تقتصر على من تشملهم دائرة العضوية بالكنيسة، بينما احتل من هم خارج تلك الدائرة يحتلون مكانةً ثانوية في رابطة الكتاب المقدس.

حريات المتطهرين

كانت "نيو إنجلاند" في القرن السابع عشر مجتمعًا طبقيًا، حيث كان يتم تخصيص أفضل الأراضي وأفضل المناصب المرغوبة بدرجة أكبر في الكنيسة للعائلات المرموقة اجتماعيا، وقد أعلن "جون وينثروب" أنه "يجب أن يكون هناك بعض الأغنياء وبعض الفقراء، البعض من عِليَة القوم ذوي السلطة البارزة والكرامة، والبعض الآخر أدنى مرتبة وخاضعين". إن هذا المبدأ يمثل جزءًا من خطة الله، التي تدعمها القوانين والأعراف التي وضعها الإنسان. منعت المحكمة العامة الرجال والنساء العاديين من ارتداء "زي السادة"، وكان يتم مخاطبة المستوطنين العاديين بلقب "رجل طيب" أو "زوجة طيبة"، بينما يتم مخاطبة النخبة بلقب "السيد" و "السيدة"، وعندما أصدرت المحكمة العامة في عام 1641 "لائحة بمجموعة الحريات" التي تحدد حقوق ومسئوليات المستعمرين في "ماساتشوستس"، تبنت الفهم التقليدي للحريات باعتبارها امتيازات مستمدة من موقع الفرد في السلم الاجتماعي، وكانت تعتبر عدم المساواة تعبيرًا عن إرادة الله؛ وعلى الرغم من تطبيق بعض الحريات على جميع السكان، إلا أنه كانت هناك قوائم منفصلة لحقوق كل من الرجال الأحرار والنساء والأطفال والخدم. سمحت هذه اللائحة بالعبودية أيضا، وظهر أول العبيد الأفارقة في سجلات خليج ماساتشوستس في عام 1640.

منعت السلطة في ماساتشوستس الكهنة والقساوسة من تولي المناصب، حتى لا تتداخل مسئولياتهم الدنيوية مع مسئولياتهم الروحية، ولكن الكنيسة والدولة كانتا مرتبطتين عن كثب. يتطلب القانون من كل بلدة تأسيس كنيسة، وفرض ضريبة لدعم الكهنة والقساوسة بها. لم يكن هناك محاكم منفصلة خاصة بالكنيسة، ولكن الدولة كانت تتولى مسئولية فرض وإنفاذ التدين والتفاني الديني. أكدت لائحة الحريات على حقوق حرية التعبير، وحرية التجمع والمساواة في التمتع بحماية القانون لجميع من هم داخل المستعمرة، ولكن القوانين في

"ماساتشوستس" فرضت عقوبة الموت على جرائم معينة، منها عبادة أي إله سوى الرب الإله" وممارسة السحر أو الكفر والإلحاد.

انقسام أهل نيو إنجلاند

أعلى التطهريون من رأي وحكم الفرد - ومن هنا جاء إصرارهم على قراءة الكتاب المقدس، وكان أول شيء مطبوع في أمريكا الإنجليزية في عام 1638 عبارة عن نشرة مطوية بعنوان "قسم رجل حر"، يشرح حقوق وواجبات المواطنين في "ماساتشوستس"، ويؤكد على أنه يجب على الرجال التصويت وفقًا "لضمائرهم وقناعاتهم. . . وليس وفقًا لمحاباة أي من المرشحين". ومع ذلك، كان من شأن الأفكار الحديثة المتعلقة بالفردية والخصوصية والحرية الشخصية أن تصدم التطهريين في ذلك الوقت باعتبارها غريبة تماما؛ لقد اعتبروا أن التركيز المفرط على "الذات" يشكل خطورة على التناغم الاجتماعي والاستقرار المجتمعي. هذا وقد رصد السكان في مدن "نيو إنجلاند" المتماسكة والوثيقة الصلة ببعضها البعض سلوك بعضهم البعض عن كثب وبعناية، وكانوا يوبخون أو يطردون من ينتهكون المعايير المشتركة. كما عبر أحد المستعمرين، يرى التطهريون أن الحرية الرئيسية التي يمتلكها المعارضون هي "حرية الابتعاد عنا"، حيث كانت المدن تُنفِي الأفراد مرتكبي جرائم مثل انتقاد الكنيسة أو الحكومة أو الشكوى من المستعمرة في خطابات ترسل إلى الوطن في إنجلترا، أو كما في حالة إحدى النساء تسمى "أبيجيل جيفورد" لكونها "امرأة مثيرة للمتاعب للغاية". لم يكن قبول الآخر والتسامح معه على رأس قائمة القيم التطهرية.

روجر وليامز

ومع ذلك، نشأت الاختلافات في الرأي حول كيفية تنظيم "رابطة الكتاب المقدس"، منذ تأسيس "ماساتشوستس" تقريبا؛ فقد احتوت التطهرية في ذاتها على بذور تشرذمها من خلال تركيزها على تفسير الفرد للكتاب المقدس. جاء أول انتقاد مقبول ضد النظام القائم من الكاهن الشاب "روجر وليامز"، الذي وصل إلى "ماساتشوستس" في عام 1631، وسرعان ما بدأ في الإصرار على انسحاب الأبرشيات المستقلة بالمستعمرة من الكنيسة في إنجلترا، وضرورة فصل الكنيسة عن الدولة. كان "وليامز" يعتقد أن "حرية الروح" تتطلب السماح للأفراد باتباع ضمائرهم أينما توجههم. يرى معظم التطهريين أن النسيج الاجتماعي يتماسك معًا عن طريق بعض الحقائق الدينية التي لا يمكن التشكيك فيها، في حين يرى "وليامز" أنه ينبغي السماح لأي مواطن يحترم القانون بممارسة أي شكل من أشكال الدين يختاره، بينما ترى الحكومة أن "إزعاج أي شخص يهودي أو مسيحي وثني قَبَلِي إما لاعتناق العقيدة أو لممارسة العبادة" يُعَد انتهاكًا لمبدأ أن العقيدة الدينية الحقيقية طوعية واختيارية.

كان "وليامز" يهدف من وراء ذلك إلى تعزيز الدين وليس إضعافه، وأصر على أن تَبَنِّي الحكومة للشأن الديني أفسد نقاء العقيدة المسيحية، وجعل المؤمنين ينزلقون في حروب دينية لا نهاية لها مثل تلك التي عصفت بأوروبا. كان هجوم الكاهن "وليامز" الصريح على المؤسسة الدينية والسياسية في "ماساتشوستس" سيئًا بما فيه الكفاية، بالنسبة لزعماء مثل "جون وينثروب"، ولكن "وليامز" لم يكتف بهذا، حيث تفاقمت جريمته من خلال رفضه الاقتناع بأن المتطهرين شعب اختاره الله في مهمة إلهية لنشر الإيمان الصحيح، ونفى أن الله قد خص أي طائفة معينة باعتبارها الفئة المفضلة.

رود أيلاند وكونيتيكت

بعد أن تم نفي "وليامز" وأتباعه من ولاية "ماساتشوستس" في عام 1636، اتجهوا للجنوب حيث أسسوا مستعمرة "رود آيلاند"، التي حصلت في النهاية على امتياز من لندن. بينما كان لا يكاد يوجد عالم يتمتع فيه الأفراد بالحق في المشاركة في الأنشطة الدينية دون تدخل حكومي، أصبحت "رود آيلاند" منارة للحرية الدينية، حيث لم يتم تأسيس أي كنيسة بها، ولم تشترط أي مؤهلات دينية للتصويت حتى القرن الثامن عشر، ولم يكن هناك شرط لانتماء المواطنين إلى كنيسة معينة، وبذلك أصبحت ملاذًا للمنشقين (البروتستانت الذين ينتمون إلى طوائف أخرى غير الكنيسة القائمة) واليهود الذين كانوا مضطهدين في المستعمرات الأخرى. كان إطار الحكومة في "رود آيلاند" أكثر ديمقراطيةً أيضا، حيث كان يتم انتخاب المجلس مرتين في السنة، ويتم انتخاب الحاكم سنويًا وكان يتم عقد اجتماعات البلدية أكثر منه في أي مكان آخر في "نيو إنجلاند".

أدت الخلافات الدينية في "ماساشوستس" إلى إنشاء مستعمرات أخرى أيضا؛ حيث أنشأ الكاهن "توماس هوكر" مستعمرة "هارتفورد" في عام 1636، وتجسد نظام الحكم فيها في "الأوامر الأساسية" لعام 1639، وقد تم صياغتها على غرار "ماساتشوستس"، ولكن مع استثناء هام يتمثل في عدم اشتراط أن يكون الرجال أعضاءً في الكنيسة حتى يحق لهم التصويت. كانت مستعمرة "نيو هافن" مختلفةً تمامًا حيث أسسها في عام 1638 المهاجرون الذين أرادوا إقامة علاقة أوثق بين الكنيسة والدولة. تلقى كل من "هارتفورد" و"نيو هافن" امتيازًا ملكيًا في عام 1662 لتوحيد المستعمرتين معًا تحت اسم مستعمرة "كونيتيكت".

محاكمات آن هتشينسون

كانت " آن هتشينسون " أكثر تهديدًا للمؤسسة التطهرية، وذلك بسبب نوع جنسها، ولأنها جذبت أتباع وجماهير كبيرة ومؤثرة. كانت "هتشينسون" تعمل قابلة (مساعدة توليد)، وهي ابنة رجل دين يدعى "هتشينسون"، وقد كتب "جون وينثروب" يصفها بأنها "امرأة تتمتع بالذكاء الحاضر

والروح الجسورة، وقد وصلت إلى "ماساشوستس" مع زوجها في عام 1634 للانضمام إلى قسيسهم "جون كوتون"، الذي كانت سلطات الكنيسة قد طردته من منبره في إنجلترا. بدأت "هتشينسون" في عقد اجتماعات في منزلها حيث كانت تدير مناقشات تتناول القضايا الدينية بين الرجال والنساء، بما في ذلك عدد من كبار التجار والموظفين العموميين. كانت "هتشينسون" ترى أن الخلاص يعد هبة مباشرة من الله إلى من يصطفيه من البشر، وأنه لا يمكن اكتسابه من خلال الأعمال الصالحة وممارسات العبادة أو جهود بشرية أخرى. يتقاسم معظم التطهريين هذا الاعتقاد، ولكن ما يميز "هتشينسون" عن غيرها هو اتهامها بأن جميع الكهنة والقساوسة في "ماساشوستس" تقريبًا مذنبون بسبب الوعظ الخاطئ بتمييز "القديسين" عن الملعونين على أساس أنشطة مثل الذهاب للكنيسة والسلوك الأخلاقي وليس على أساس حالة النعمة الداخلية.

كان كل من القساوسة والقضاة في ماساشوستس- حيث كانت الكنيسة والدولة يدعم كل منهما الآخر- عاقدين العزم على قمع أي آراء تقف في وجه زعامتهم وقيادتهم؛ لذلك ندد نقادهم بكل من "كوتن" و"هتشينسون"، ووصفوهما بأنهما يضعان رأيهما وعقيدتهما فوق كل من القانون الإنساني وتعاليم الكنيسة؛ وقد خضعت "هتشينسون" لمحاكمة في عام 1637 أمام محكمة مدنية بتهمة إثارة الفتنة (التعبير عن آراء تمثل خطرًا على السلطة)؛ لأن وضعها "كامرأة مشهورة" جعل تحديها يبدو أكثر فحشا. وصف الحاكم "وينثروب" اجتماعاتها بأنها لم تكن "جميلة ولا مناسبة في نظر الله ولا مناسبة لجنسها"؛ وجادلت المرأة المقاتلة الفصيحة "هتشينسون" باقتدار حول تفسير الكتاب المقدس مع الذين اتهموها من خريجي الجامعات، وكانت متماسكة إلى أقصى حد أثناء محاكمتها، ولكن عندما تحدثت عن أنها تتلقى وحيًا إلهيًا، وأن الله يتحدث معها مباشرةً وليس من خلال الكهنة والقساوسة، أو من خلال الكتاب المقدس فإنها بذلك قد انتهكت مبدأ التطهرية وقضت على مستقبلها. رأى قادة المستعمرة أن مثل هذا الادعاء يمثل تهديدًا لوجود الكنائس المنظمة من الأساس، وفي الحقيقة وجود السلطة كلها، فقاموا بنفي "هتشينسون" وعدد من أتباعها، وانتقلت أسرتها إلى "رود آيلاند" ثم إلى "وستشيستر"، التي تقع شمال ما هو الآن مدينة نيويورك، حيث لاقت "هتشينسون" ومعظم أقاربها حتفهم أثناء الحرب الهندية.

عاشت آن هتشينسون" في "نيو إنجلاند" لثماني سنوات فقط، ولكنها تركت بصمتها على الثقافة الدينية في المنطقة؛ وكما كان هو الحال مع "روجر ليامز"، أظهرت خلال مسيرتها كيف أن عقيدة المتطهرين تجعل في مقدور كل فرد تفسير الكتاب المقدس بنفسه، مما يمكن أن يؤدي بسهولة إلى نقد المؤسسة الدينية والسياسية؛ وقد استغرق الأمر سنوات عديدة قبل أن يصل التسامح الديني- الذي انتهك فهم التطهريين "للحرية الأخلاقية" والوئام الاجتماعي- إلى "ماساشوستس".

المتطهرون والهنود

بالإضافة إلى الخلافات الدينية التي كانت تمزق أواصر المجتمع، كان يتعين على "نيو إنجلاند"، مثل غيرها من المستعمرات، التعامل مع المشكلة الصعبة المتمثلة في العلاقات مع الهنود. كان عدد السكان الأصليين في "نيو إنجلاند" قد بلغ حوالي 100.000 نسمة عندما وصل التطهريون هناك، ولكن بسبب الأوبئة الأخيرة، واجه المهاجرون عددًا أقل من الهنود بالقرب من الساحل مما كانوا عليه في أجزاء أخرى من شرق أمريكا الشمالية. سرعان ما تجاوز عدد المستعمرين عدد السكان الأصليين في مناطق الاستيطان الأوروبي. سعى بعض المستوطنين، لا سيما "روجر وليامز" إلى معاملة الهنود بالعدل والحق، وتعلم اللغات الهندية المعقدة، وأصر على أنه ليس من حق الملك منح أرض تابعة بالفعل لشخص آخر، وأنه لا يجب إنشاء أي مدينة قبل شراء الأرض من السكان الأصليين؛ بينما كان يعتقد "جون وينثروب" أن المستعمرين يمكنهم أخذ الأراضي غير المزروعة بشكل قانوني، إلا أنه اعترف بفوائد شراء الأراضي بدلاً من مجرد الاستيلاء عليها، لكنه أصر على أن هذه المشتريات (عادة بعد الانتهاء من استيطان المدن بالفعل) يجب أن يعني أيضًا قبول الهنود الخضوع للسلطة الإنجليزية ودفع جزية للمستعمرين.

كان الهنود يمثلون بالنسبة لقادة "نيو إنجلاند" الوحشية والإغراء، حيث كان المتطهرون يعتبرونهم مشابهين للكاثوليك بآلهتهم الكاذبة وطقوسهم المخادعة، إنهم يتمتعون بالحرية، ولكن النوع الخاطئ من الحرية، وهي الحرية التي أدانها "وينثروب" بأنها "حرية طبيعية غير منضبطة"، وليست "الحرية الأخلاقية" التي يتحلى بها المسيحي المتحضر. نظرًا لقلق التطهريين الدائم من أن الأشخاص الخاطئين قد يفضلون الحياة السهلة على العمل الشاق، لذلك خشوا أن يكون المجتمع الهندي جاذبًا للمستعمرين الذين يفتقرون إلى النسيج الأخلاقي السليم. قررت المحكمة العامة في "كونيتيكت" في عام 1642 فرض عقوبة ثلاث سنوات من الأشغال الشاقة على أي مستعمر يهجر "المجتمع الرباني الورع" للعيش مع الهنود؛ ومن أجل التصدي لجاذبية الحياة الهندية، شجع زعماء "نيو إنجلاند" نشر حكايات أولئك "الذين وقعوا في أسر الهنود"، وكان أكثر هذه الحكايات شعبية "سيادة وطيبة الرب" بقلم "ماري رولاندسون"، التي كانت قد هاجرت مع والديها وهي طفلة في عام 1639، واحتجزها الهنود مع مجموعة من المستوطنين الآخرين، حيث مكثت معهم لمدة ثلاثة أشهر حتى تم فك أسرها بعد دفع فدية أثناء الحرب الهندية في السبعينيات من القرن السابع عشر. وقد اعترفت "رولاندسون" أنها لاقت معاملة طيبة ولم تعان "من أدنى شكل من أشكال سوء المعاملة أو عدم العفة"، ولكن الموضوع الرئيسي لكتابها هو عزمها على العودة إلى المجتمع المسيحي.

أعلن التطهريون أنهم يعتزمون نشر ونقل العقيدة المسيحية بين الهنود، ولكنهم لم يفعلوا شيئًا خلال العقدين الأولين من الاستيطان لإنجاز هذا الهدف، حيث رأوا عمومًا أن الهنود يمثلون عقبة في طريق ينبغي دفعها جانبا، ولم يروهم كمعتنقين محتملين للمسيحية.

حرب بيكوت

افتقر الهنود في "نيو إنجلاند" إلى وجود زعيم بارز مثل "بووهاتن" في فرجينيا. كانت القبائل الهندية الساحلية التي انخفضت أعدادها بحدة بسبب المرض، تسعى في البداية إلى إقامة تحالفات مع الوافدين الجدد لتعزيز موقفهم ضد المنافسين الداخليين، ولكن مع توسع السكان البيض وتكاثر البلدات الجديدة، أصبح الصراع مع الهنود في المنطقة أمرًا لا يمكن تجنبه. جاءت نقطة التحول في عام 1637 عندما قُتِلَ تاجر فراء على يد قبيلة "بيكوت" القوية، التي تسيطر على تجارة الفراء في جنوب "نيو إنجلاند"، وكانت تجبي ضرائب من الهنود الآخرين. قامت قوة من الجنود من "كونيتيكت" و"ماساتشوستس" ومعهم الحلفاء من "ناراجانسيت" (من الشعوب الأصلية في أمريكا الذين كانوا يسكنون في جزيرة "رود آيلاند" في غرب خليج ناراجانسيت، وقد تم إبادتهم جميعًا تقريبًا أثناء حرب الملك فيليب خلال عامي 1675-1676) بحصار القرية الرئيسية المحصنة "لبيكوت" في "ميستك" وأضرموا فيها النيران، مما أسفر عن مقتل أولئك الذين حاولوا الفرار، وفقد أكثر من 500 من الرجال والنساء والأطفال حياتهم في الجزرة، وفي نهاية الحرب بعد بضعة أشهر كان معظم أفراد قبيلة "بيكوت" قد أبيدوا أو بيعوا في سوق العبيد بمنطقة البحر الكاريبي، ونصت المعاهدة التي أعادت السلام على أن يتم محو اسم هذه القبيلة من السجل التاريخي.

لم يقتصر تأثير تدمير واحدة من أقوى المجموعات الهندية في المنطقة على فتح وادي نهر "كونكتيكت" للاستيطان السريع أمام البيض، ولكنه أيضا أقنع الهنود الآخرين أن القادمين الجدد يمتلكون قوة لا يمكن مقاومتها. صدمت شراسة المستعمرين حلفاءهم الهنود الذين اعتبروا أن الممارسات العسكرية الأوروبية وحشية. وافق عدد قليل من التطهريين على أن هذه المعركة كانت مجزرة وحشية، وكتب قائد الحجاج "وليم برادفورد" عن الغارة على "ميستك" قائلاً: "كان مشهدهم وهم يتعرضون للشوي في النار مخيفاً، ولكن بالنسبة لمعظم التطهريين، بما في ذلك "برادفورد"، فإن إلحاق هزيمة "بأمة همجية" "بسيف الرب" قدم دليلاً آخر على أنهم كانوا في مهمة مقدسة، وأن الهنود لا يستحقون تقاسم "نيو إنجلاند" مع قديسي الكنيسة كما يتصورونهم.

اقتصاد "نيو إنجلاند"

كان قادة مستعمرات "نيو إنجلاند" يتفاخرون بفكرة أن الدين كان هو الدافع الأساسي للهجرة، وقد أعلنت وثيقة رسمية صدرت في الأربعينيات من القرن السابع عشر قائلةً "جئنا

جميعًا إلى هذه المناطق من أمريكا لنفس الهدف والغاية، وهو المضي قدمًا في مملكة المسيح، والتمتع بحريات الإنجيل في نقاء وسلام". مع ذلك، كان من الصعب استبعاد محاولة تحقيق الأهداف الاقتصادية، وقد ذكر أحد الكتيبات الترويجية في العشرينيات من القرن السابع عشر عن "نيو إنجلاند" باعتبارها المكان الذي "يتفق فيه كل من الدين والربح معًا".

جاء معظم التطهريين إلى أمريكا من "إيست أنجليا"، وهي منطقة تشتهر دوليًا بإنتاج القماش، وهي أيضا إحدى المناطق الأكثر تقدمًا من الناحية الاقتصادية في إنجلترا، والتي عانت في العشرينيات والثلاثينيات من القرن السابع عشر من سلسلة من ضعف المحاصيل والاضطرابات الناجمة عن انخفاض في تجارة القماش. كان غالبية المهاجرين من هذه المنطقة نساجين، وخياطين أو مزارعين؛ وبالرغم من أنهم كانوا يغادرون منطقة تعاني من الكساد، إلا أنهم كانوا موسرين نسبيا، وجاء معظمهم من بين صفوف الطبقة المتوسطة في المجتمع، ودفعوا رسوم نقل عائلاتهم بدلاً من أن يتعاقدوا للعمل بأنفسهم في عقود عمل طويلة الأجل؛ لم يكونوا يسعون في "نيو إنجلاند" إلى الحرية الدينية فحسب، بل أيضًا إلى التقدم الاقتصادي، وإن لم يكن من أجل الغنى، فمن أجل الدخل الكافي والاستقلال الاقتصادي، الذي جاء مع ملكية آمنة للأرض، أو أي مركز حرفي آمن؛ وعندما أعلن أحد الوعاظ أن "الهدف الرئيسي" للمستوطنة هو إجلال وتمجيد الله، صرخ رجل في جماعة المصلين قائلاً "سيدي، أنت مخطئ. . . هدفنا الرئيسي هو صيد الأسماك"، ولكن بالنسبة للتطهيريين لم يكن يوجد تناقض بين التقوى وتحقيق الربح طالما أن الفرد لا ينسى احتياجات المجتمع الأكبر، فقد يكون نجاح الفرد في مهنته دليل على النعمة الإلهية.

نظرا لافتقار "نيو إنجلاند" إلى سلعة غذائية رئيسية مطلوبة للتسويق مثل السكر أو التبغ، لذلك تحولت إلى صيد الأسماك والأخشاب للتصدير؛ ومع ذلك، تمركز الاقتصاد حول المزارع العائلية لإنتاج الأغذية للاستهلاك وفائض صغير للتسويق. على الرغم من أن "مجموعة الحريات" التي تم صياغتها في عام 1641، كما ذكرنا سابقًا، أشارت إلى أن الكتاب المقدس قد نص على العبودية، إلا أنه كان هناك عدد قليل جدًا من العبيد في "نيو إنجلاند" في القرن السابع عشر، وكذلك لم يكن نظام العمل بعقود محدود المدة جزء أساسي من الاقتصاد، كما كان الحال في "تشيزبيك"، حيث اعتمدت معظم الأسر على توفير العمالة اللازمة من بين أعضائها، بما في ذلك النساء في المنزل والأطفال في الحقول. كان الأبناء الذكور يظلون بدون زواج حتى منتصف العشرينيات، عندما يتوقعون الحصول على الأرض من آبائهم، أو من السلطات المحلية أو عن طريق الانتقال إلى مدينة جديدة؛ وفي الحقيقة، في حين أن الانقسامات الدينية قد أفرزت مستوطنات جديدة، إلا أن الرغبة في الأراضي بين الأسر الأصغر سنًا والوافدين الجدد، كانت

هي الدافع الرئيسي للتوسع في "نيو انجلاند"، فعلى سبيل المثال، اقترح أحد سكان "سدبري بماساتشوستس" في عام 1651 منح كل رجل بالغ مساحة متساوية من الأراضي؛ وعندما رفض مجلس البلدة الفكرة، تلقى مجموعة من الشبان منحة من المحكمة العامة لإنشاء المدينة الخاصة بهم في مكان أبعد غربا.

نخبة التجار

كان نصيب الفرد من الثروة في "نيو إنجلاند" منخفضًا بالمقارنة بمثيله في "تشيزبيك"، ولكن كان يتم توزيعه بقدر أكبر من المساواة في "تشيزبيك". حققت غالبية الأسر في "نيو إنجلاند" هدف امتلاك أرض خاصة بهم، وهو الشرط الأساسي للاستقلال المريح؛ ومع ذلك، وكما هو الحال في "تشيزبيك"، أنتجت التنمية الاقتصادية قدرًا من عدم المساواة الاجتماعية. أما بالنسبة للخدم الذين يعملون بعقود لمدة محددة، نادرًا ما كانوا يحققون شرط العضوية الكاملة بالكنيسة أو الحصول على المنح من الأراضي، ولذلك أصبح معظمهم عاملين بأجر ومحرومين.

تولت "نيو إنجلاند" تدريجيًا دورًا متناميًا داخل الإمبراطورية البريطانية القائمة على أساس التجارة. كان التجار في "نيو إنجلاند" يقومون بشحن وتسويق السلع الرئيسية من المستعمرات الأخرى إلى الأسواق في أوروبا وإفريقيا في أوائل الأربعينات من القرن السابع عشر، وانخرطوا في تجارة مربحة للغاية مع جزر الهند الغربية التي يحصلون منها على الأسماك، والخشب، والإنتاج الزراعي الذي ينتجه العبيد في المزارع المتنامية فيها، ثم يقوم هؤلاء التجار بتصديرها إلى الوطن، ولا سيما في "بوسطن" حيث نشأت طبقة قوية من التجار، الذين تحدوا بعض السياسات التطهرية الأساسية، بما في ذلك إخضاع النشاط الاقتصادي لتحقيق الصالح العام. صَدَّقت المحكمة العامة في أوائل الثلاثينيات من القرن السابع عشر على فرض قيود على الأسعار والأجور، وهو إجراء شائع في إنجلترا، ومنحت مجموعة صغيرة من التجار احتكار على الواردات من أوروبا، مما أدى إلى إثارة احتجاجات البعض الآخر. في الحقيقة، كان التجار من بين أبرز الداعمين لتحدي "آن هتشنسون" للسلطة الاستعمارية. ترك البعض "بوسطن" لتأسيس مدينة جديدة في "بورتماوث" في المنطقة التي منحها الملك كامتياز لتصبح مستعمرة "نيو هامبشاير" الملكية، بينما بقي آخرون للقتال، وحققوا نجاحًا متزايدًا في الحصول على حق مزاولة العمل كما يحلو لهم. ألغت "ماساتشوستس" العديد من الأنظمة الاقتصادية في أوائل الأربعينيات من القرن السابع عشر.

على الرغم من أن التطهريين لم يتخلوا أبدًا عن فكرة أن النشاط الاقتصادي ينبغي أن يخدم المصلحة العامة، إلا أنه سرعان ما انتهى تجار "بوسطن" إلى ممارسة نفوذ حاسم في الشئون العامة. عززت حكومة مستعمرة "خليج ماساشوستس" بنشاط التنمية الاقتصادية من خلال بناء الطرق

والجسور وتقديم منح للمؤسسات الاقتصادية والتخلي عن القوانين التي تحدد الأسعار. تطورت تجربة التطهريين في نهاية المطاف إلى حكومة استعمارية يهيمن عليها التجار.

اتفاقية منتصف الطريق

بدأ بعض قادة التطهريين في منتصف القرن السابع عشر يشعرون بالقلق إزاء تزايد توجه المجتمع للمتع الدنيوية، وسيطرة النزعة التجارية وقلة التقوى، أو بإيجاز "الانحراف"؛ فبحلول عام 1650 كان قد تم قبول أقل من نصف سكان "بوسطن" للعضوية الكاملة بالكنيسة لعدم توفر شروط القبول في بقية السكان، واضطرت الكنائس في "ماساتشوستس" للتعامل مع مشكلة متزايدة تتعلق بالوضع الديني للجيل الثالث، حيث يتم تعميد أطفال المصطفين، ولكن لم يصبح العديد ذو عضوية كاملة بالكنيسة البروتستانتية، لأنهم لم يتمكنوا من إثبات الالتزام الديني اللازم أو يشهدوا أنهم مروا بتجربة التحول الروحي، فماذا كان هو وضع أطفالهم؟ واجه السكان في "نيو إنجلاند" خيارًا صعبا، حيث كان في استطاعتهم: إما أن يظلوا متمسكين بالمعايير الصارمة للقبول في العضوية الكاملة بالكنيسة، الذي من شأنه أن يحد من حجم الأبرشية وتأثيرها الاجتماعي، أو أنه يمكن للكنيسة أن تخفف من شروط القبول، وهو ما من شأنه الحفاظ على اتصال الكنيسة بالجزء الأكبر من السكان، ولكنه يثير في ذات الوقت المخاوف حول فقدان النقاء الديني.

حاول اتفاق "في منتصف الطريق" لعام 1662 معالجة هذه المشكلة عن طريق السماح بالتعميد، ونوع من التبعية أو العضوية في "منتصف الطريق" لأحفاد أولئك الذين هاجروا خلال الهجرة الكبرى، وفي تنازل كبير عن المعتقدات التطهرية الأولى، أصبح من الممكن اكتساب حق الانضمام لصفوف المصطفين عن طريق سلسلة النسب وليس المرور بالتحول الديني؛ ومع ذلك، ظلت العضوية بالكنيسة راكدة.

بحلول الستينيات والسبعينيات من القرن السابع عشر، دأب الكهنة والقساوسة على انتقاد الناس بانتظام، نظرًا للأنانية ومظاهر الفخر والعُجب وانتهاكات يوم السبت بوصفه يوم راحة وعبادة، و"التراجع الكبير" عن الأغراض الأصلية لتكوين المستعمرة. تسمى هذه التحذيرات "الإرميات – أو الانتحاب والنواح" نسبة للنبي العبري "إرميا"، وفسروا فساد المحاصيل والأمراض بأنها علامات غضب الله، وحذروا من مزيد من العقاب في المستقبل إذا لم يُصلح مستوطنو "نيو إنجلاند" من أساليبهم في الحياة؛ ومع ذلك، كان عمل الفرد الجاد والنجاح في حرفته من القيم الأساسية في التطهرية؛ وبناءً على هذا، فإن رواج التجارة والتسويق في "نيو إنجلاند" كان بمثابة إنجاز لمهمة التطهرية في أمريكا بنفس القدر الذي كان يعد بمثابة خيانة لها.

الدين والسياسة والحرية

حقوق الرجل الإنجليزي

حتى مع بدء تأسيس المهاجرين الإنجليز للمستعمرات في أمريكا الشمالية، كانت إنجلترا نفسها قد وقعت في فخ الصراع السياسي والديني، الذي لعبت فيه أفكار الحرية دورًا محوريا؛ حيث أدى الصراع حول الحرية الإنجليزية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر إلى توسيع تعريف الحرية في الوطن الأم، وامتد ذلك إلى أمريكا الشمالية الإنجليزية في مراحلها الأولى.

كان التعريف التقليدي "للحريات" على أنها مجموعة من الامتيازات الممنوحة لفئة أو أخرى من الفئات الاجتماعية لا تزال قائمة حتى حلول عام 1600، ولكن بدأت تظهر إلى جانب ذلك فكرة أن بعض "حقوق الإنجليز" تنطبق على جميع من داخل المملكة؛ وقد استند هذا التقليد على الميثاق العظيم لعام 1215 وسمي "الماجنا كارتا"، وهو عبارة عن اتفاق بين الملك "جون" ومجموعة من اللوردات المحليين (البارونات) الذين كثيرًا ما كانت تتصارع جيوشهم مع بعضها البعض، وكذلك ضد النظام الملكي الحاكم أيضا- وكان يهدف هذا الميثاق العظيم إلى وضع حد لحالة الاضطرابات المدنية المزمنة. أدرج هذا الميثاق سلسلة من "الحريات" التي يمنحها الملك "لجميع الرجال الأحرار من المملكة"، وكانت هذه الفئة من الرجال الأحرار محصورة في ذلك الوقت على مجموعة محدودة، لأن قطاعًا كبيرًا من السكان الإنجليز كانوا لا يزالون عبيدا - وهم الفلاحون الذين يعملون بالسخرة في الأراضي المملوكة من قبل الإقطاعيين، وملزمون قانونيًا بالعمل والخدمات الأخرى. اشتملت الحريات المذكورة في هذا "الميثاق العظيم" على الحماية من السجن التعسفي ومصادرة الممتلكات بدون اخضاع ذلك للعملية القانونية الموجبة لذلك.

كان المستفيدون الرئيسيون من "الميثاق العظيم" هم طبقة البارونات، الذين حصلوا على الحق في الإشراف على سلوك الملك، بل وحتى الثورة عليه إذا اعتدى على الامتيازات الخاصة بهم. أصبح يُنظَر إلى هذه الوثيقة مع مرور الوقت باعتبارها تجسد فكرة "الحرية الإنجليزية" المتمثلة في خضوع الملك لسيادة القانون، وأنه ينبغي أن يتمتع جميع الأشخاص بالأمن والأمان على أرواحهم وممتلكاتهم. تجسدت هذه الحقوق في القانون العام الذي أصبحت أحكامه كلها تطبق على جميع رعايا التاج الإنجليزي، مثل الحماية ضد التعرض للسجن دون تهمة قانونية، والحق في مواجهة المدعي بالتهمة ضده والمحاكمة أمام هيئة محلفين، ومع اختفاء ظاهرة العبيد بالسخرة (القنانة) بشكل بطيء زاد عدد الإنجليز الذين يُعتَبَروا "مولودين أحراراً"، وبالتالي زاد عدد الذين يحق لهم التمتع بهذه الحقوق بشكل كبير.

الحرب الأهلية الإنجليزية

عندما بدأ المهاجرون الإنجليز في التوافد على العالم الجديد في بداية القرن السابع عشر، كانت "الحرية" لا تزال تلعب دورًا ثانويًا فقط في المناقشات السياسية في إنجلترا، ولكن الاضطرابات السياسية التي شهدها هذا القرن قد ارتقت بمفهوم "الحرية الإنجليزية" إلى مكان هام ومحوري؛ وقد أدى الصراع بين البرلمان وبين ملوك عائلة ستيوارت "جيمس الأول" و"تشارلز الأول" من أجل التفوق والهيمنة السياسية إلى نشوب الحرب الأهلية الإنجليزية، التي امتدت خلال الأربعينيات من القرن السابع عشر، التي نشأت عن نزاعات دينية حول المدى الذي يجب أن تنأى به كنيسة إنجلترا بمذاهبها، وأشكال العبادة بها من الكاثوليكية. نشب الصراع أيضًا على سلطات كل من الملك والبرلمان، وهو الخلاف والجدل الذي أنتج العديد من الدعوات لفكرة "الرجل الإنجليزي المولود حرا"، وأدى إلى التوسع الكبير في مفهوم الحرية الإنجليزية.

وقد اتهم قادة مجلس العموم (الهيئة المنتخبة التي تشكل- بالإضافة إلى مجلس اللوردات الذي يضم الأرستقراطيين بالوراثة- البرلمان الإنجليزي) ملوك أسرة ستيوارت بتعريض الحرية للخطر من خلال فرض الضرائب دون موافقة البرلمان، وسجن الخصوم السياسيين وقيادة الأمة نحو العودة إلى الكاثوليكية. اندلعت الحرب الأهلية في عام 1642، وأدت إلى انتصار قوى البرلمان، وشهد عام 1649 قطع رأس "تشارلز الأول"، وإلغاء النظام الملكي، وإعلان إنجلترا "الكومنولث والدولة الحرة" - كأمة تحكمها إرادة الشعب. تولى الحكم رئيس الجيش البرلماني "أوليفر كرومويل" لمدة عشر سنوات تقريبًا بعد إعدام الملك؛ ومع ذلك، تم استعادة النظام الملكي في عام 1660 وتولى "تشارلز الثاني" العرش، ولكن بحلول ذلك الوقت، أدى انهيار السلطة إلى إثارة مناقشات محتدمة حول الحرية والسلطة وما يعنيه أن تكون "بريطانيًا حر المولد".

الجدل في إنجلترا حول الحرية

اكتسبت فكرة الحرية في إنجلترا فجأة معان جديدة وموسعة خلال الفترة ما بين عامي 1640 و1660. وقد أطلق الكاتب "جون ميلتون" في عام 1649 على لندن اسم "بيت الحرية"، ودعا إلى حرية التعبير وحرية الصحافة؛ وقد نشأت طوائف دينية تطالب بإنهاء التمويل العام للكنيسة الإنجليكية، والامتيازات الخاصة التي تتمتع بها، وكذلك كفالة التسامح الديني لجميع البروتستانت؛ واقترح دعاة المساواة، وهم أول حركة سياسية ديمقراطية في التاريخ، كتابة دستور يحظى بموافقة الشعب، يبدأ بإعلان "مدى ارتفاع معدل تقديرنا لحريتنا العادلة"، ونادوا بأن تضم هذه الوثيقة إلغاء النظام الملكي ومجلس اللوردات، والتوسع الكبير في الحق في التصويت في ذات الوقت الذي كان لا يزال يُنظَر "للديمقراطية" على نطاق واسع باعتبارها معادلة للفوضى والاضطراب،

وأعلن أحد أعضاء هذه الحركة، ويدعى "توماس رينبورو" أن "أشد المساكين هو ذلك الذي يعيش في إنجلترا ويعتقد أنه يعيش أعظم حياة" وبالتالي "يجب أن يكون لأي رجل يولد في إنجلترا. . . صوته في الانتخابات" بل ذهبت الحركة إلى أبعد من ذلك، حيث أدانت العبودية الإفريقية.

وقد قدمت هذه الحركة أيضا لمحة عن التعريف الحديث للحرية باعتبارها استحقاق عالمي في مجتمع قائم على المساواة في الحقوق وليس مجرد أداة لطبقة اجتماعية. ظهرت مجموعة أخرى جديدة باسم "الحفارون" وذهبت إلى مدى أبعد من ذلك، حيث كانت تأمل في إعطاء الحرية دعامة اقتصادية من خلال الملكية المشتركة للأرض، وأعلن زعيم هذه المجموعة "جيرار ينستانلي" أن المناقشات السابقة حول الحرية كانت مُضَلِّلَة: "أنتم مثل أشخاص يتخبطون في الضباب، تسعون للحرية ولا تعلمون ما هي الحرية، تنطبق الحرية الحقيقية على قدم المساواة على الجميع، سواء الفقراء أو الأغنياء، الجميع يستحق العيش المريح في أرضهم هذه" تم سحق أو دفن كل من هاتين الحركتين وغيرهما من الحركات الراديكالية التي ظهرت كنتيجة للحرب الأهلية الإنجليزية حتى قبل استعادة النظام الملكي؛ ومع ذلك، ستنتقل بعض أفكار الحرية التي ازدهرت في إنجلترا خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين إلى أمريكا من خلال المهاجرين الإنجليز.

الحرية الإنجليزية

لقد رفع هذا النضال مفهوم "الحرية الإنجليزية" إلى مكانة محورية وأساسية في الثقافة السياسية الأنجلو أمريكية، وأصبح لبنة رئيسية في الروح الفعلية للأمة الإنجليزية التي تم تعزيزها في إنجلترا. لم تختف فجأة فكرة الحريات في القرون الوسطى باعتبارها مجموعة من الاستحقاقات المحدودة التي تتمتع بها مجموعات محددة، ولكنها تهمشت بشكل متزايد، حتى طغى عليها تعريف أعم للحرية على أساس الحقوق المشتركة لجميع الأفراد الموجودين في المملكة الإنجليزية؛ وكما يشير التعريف الذاتي، فقد كانت بريطانيا مجتمعًا من أفراد أحرار، وماضيها عبارة عن "تاريخ من الحرية" وكان يحكم جميع الإنجليز ملك، ولكنه كان "يحكم رجالاً أحراراً" ووفقا للقانون، على عكس الملوك المستبدين في فرنسا، وإسبانيا، وروسيا وبلدان أخرى.

كتب "هنري كير" في كتابه الذي صدر في عام 1680 بعنوان "الحريات الإنجليزية" أو "تراث إنجلترا من الرعايا المولودين أحراراً" واصفًا نظام الحكومة الإنجليزية بأنه "مَلَكِيَّة مؤهلة" واعتبره أفضل نظام سياسي في العالم، لأنه على الرغم من أن طبقة "النبلاء" تتمتع بامتيازات لا تتوفر للآخرين، إلا أن جميع المواطنين "يستظلون بمظلة القانون الذي يحمي أرواحهم وممتلكاتهم والذي يجعلهم أحرارًا وليس عبيداً" ساعد الاعتقاد في الحرية كتراث مشترك لجميع الإنجليز ومفهوم أن الإمبراطورية البريطانية، باعتبارها الحارسة على الحرية في العالم، على إضفاء الشرعية على

الاستعمار الإنجليزي في نصف الكرة الغربي وجعل حروبها الإمبريالية ضد فرنسا وإسبانيا الكاثوليكيتين نضالاً بين الحرية من ناحية والطغيان والاستبداد من ناحية أخرى.

الحرب الأهلية وأمريكا الإنجليزية

لقد تزامن هذا النضال مع مناقشات قوية ونشطة حول حقوق الإنجليز الذين ولدوا أحرارًا، وترددت أصداؤها بصورة حتمية في مستعمرات إنجلترا، مما أدى إلى انقسامها وتفككها وتفتتها عن بعضها البعض، وحتى في داخل نفس المستعمرة ذاتها. وقف معظم مستوطنو "نيو إنجلاند" في صف البرلمان الإنجليزي في الحرب الأهلية خلال الأربعينيات من القرن السابع عشر، حتى أن بعضهم عاد إلى إنجلترا للانضمام إلى الجيش البرلماني، أو للجلوس على منابر الوعظ للمساعدة في إنشاء كومنولث متدين ورع في الوطن الأم، ولكن القادة التطهريين لم يستريحوا على نحو متزايد لفكرة التسامح الديني التي اكتسبت قبولاً في إنجلترا. يرجع إلى البرلمان الثوري الفضل في منح "روجر وليامز" امتياز مستعمرة "رود آيلاند" في عام 1644، التي كان قد أسسها بعد أن تم نفية من ماساشوستس.

انضم في الوقت نفسه عدد من أتباع آن هاتشينسون" إلى "مجتمع الأصدقاء" ويطلق عليهم "الكويكرز"، وهي إحدى الطوائف التي نشأت في إنجلترا خلال الحرب الأهلية. يرى "مجتمع الأصدقاء الكويكرز" أن روح الله تسكن داخل كل فرد وليس فقط المصطفين من البشر، وأن هذا "النور الداخلي" هو الذي يمنح المؤمن التوجيه الأصح والأسلم في المسائل الروحية، وليس الكتاب المقدس ولا تعاليم رجال الدين. عندما ظهر "مجتمع الأصدقاء" في "ماساشوستس"، قام المسئولون في المستعمرة بجلدهم وتغريمهم ونفيهم، وتم شنق الأربعة الذين عادوا من المنفى منهم في عامي 1659 و1660، بما فيهم "ماري داير" وهي تلميذة سابقة "لهتشينسون". كان للمعاملة الوحشية التي لاقاها "مجتمع الأصدقاء الكويكرز" في "ماساتشوستس" صدى في إنجلترا، حيث اكتسبت "ماساتشوستس" سمعة سيئة بأنها بؤرة الاضطهاد الديني. بعد أن استعاد "تشارلز الثاني" النظام الملكي في عام 1660، أكد الامتياز الممنوح "لماساتشوستس" وأمر المستعمرة بالاعتراف "بحرية الضمير" لجميع البروتستانت؛ وبالرغم من توقف الشنق، إلا أن جهود قمع "مجتمع الأصدقاء الكويكرز" تواصلت، كما تواصلت أيضًا الهجمات على المعمدانيين الذين بدا أن ازدراءهم للكهنة المتعلمين يهدد المعتقدات التطهرية.

الأزمة في ميريلاند

خلافا لمستعمرات "نيو إنجلاند"، وقفت فرجينيا بجانب الملك "تشارلز الأول"، حتى أن قادتها أعلنوا "تشارلز الثاني" ملكًا بعد إعدام والده في عام 1649، على الرغم من أن حكومة "أوليفر

كرومويل" في لندن سرعان ما سيطرت على المستعمرة المتمردة. أما في "ميريلاند"، أدى الجمع بين المعارك الدينية والسياسية في إطار الحرب الأهلية والصراع المتنامي بين المستوطنين الكاثوليك والمستوطنين البروتستانت والمشاعر المناهضة للملكية إلى حرب أهلية عنيفة داخل المستعمرة، أُطلِقَ عليها فيما بعد اسم "زمن السلب والنهب". في الحقيقة، كانت "ميريلاند" على شفا فوضى عارمة في الأربعينيات من القرن السابع عشر، مع اعتداء القوة الموالية للبرلمان على الموالين "لتشارلز الأول". تاقت طبقة المزارعين البروتستانت الناشئة إلى الاستيلاء على السلطة من النخبة الكاثوليكية التي أنشأها "سيسليوس كالفرت". رفضت أغلبية المجلس البروتستانتي القوانين المقترحة من قبل الملاك، وطالبوا بنفس سلطة التشريع وفرض الضرائب التي يتمتع بها مجلس العموم في إنجلترا.

وبغية تحقيق الاستقرار في مستعمرة ميريلاند وجذب المزيد من المستوطنين، عَيَّنَ "كالفرت" محافظًا بروتستانتيا، وعرض حق اللجوء على البروتستانت المنشقين الذين يتعرضون للاضطهاد في فرجينيا، حيث كانت العقيدة الإنجليكية هي الديانة الثابتة، بينما قيدت القوانين الحقوق الدينية والسياسية للآخرين. أقرت "ميريلاند" في عام 1649 قانونًا بشأن الدين يهدف إلى إرساء مبدأ التسامح، الذي قد ساد في المستعمرة منذ البداية، ومنح جميع المسيحيين "حرية ممارسة" الدين. لم يؤسس القانون للحرية الدينية بالمعنى الحديث، لأنه كان يعاقب من كانوا ينفون ألوهية المسيح أو عقيدة الثالوث المقدس؛ وفي الحقيقة، سرعان ما تم اعتقال طبيب يهودي بموجب أحكام هذا القانون؛ ومع ذلك، كان هذا القانون بمثابة علامة فارقه في تاريخ الحرية الدينية في أمريكا الاستعمارية.

ورغم ذلك، استمر الاضطراب، وقامت حكومة الكومنولث في لندن بوضع ميريلاند تحت سيطرة المجلس البروتستانتي خلال الخمسينيات من القرن السابع عشر، فقام بإلغاء قانون التسامح الديني، وحظر على الكاثوليك ممارسة دينهم بصورة علنية، إلا أن "كالفرت" تمكن من استعادة السلطة في عام 1657، وبالتالي استعادت ميريلاند أيضًا تجربتها في الحرية الدينية.

كرومويل والإمبراطورية

انتهج "أوليفر كرومويل"، الذي حكم إنجلترا من عام 1649 حتى وفاته في عام 1658، سياسة استعمارية توسعية عدوانية، وسعى إلى تعزيز البروتستانتية والتمكين التجاري في الجزر البريطانية ونصف الكرة الغربي. بسط جيشه سيطرته بالقوة على إيرلندا، وقام بذبح المدنيين وحظر الممارسة العلنية للكاثوليكية، وقام بالاستيلاء على الأراضي المملوكة من قبل الكاثوليك. أما في منطقة البحر الكاريبي، فقد استولت إنجلترا على "جامايكا" من إسبانيا، وهي جزيرة تنتج السكر الذي يتمتع بالقيمة المالية المرتفعة؛ وكما سنسرد في الفصل الثالث، أقر

البرلمان قانون الملاحة الأول في عام 1651، الذي سعى إلى تحدي الهولنديين الذين يتحكمون في التجارة الدولية من خلال حصر تجارة المستعمرات على السفن والموانئ الإنجليزية.

وهكذا، أصبح هناك العديد من المستعمرات الإنجليزية بحلول منتصف القرن السابع عشر على طول ساحل المحيط الأطلسي في أمريكا الشمالية؛ ونظرًا لأن هذه المستعمرات قد أُنشِئَت كجزء من عملية مخصصة بغرض معين، وليست ناشئةً بموجب أي خطة وطنية متماسكة، لذلك اختلفت بشكل كبير في البنية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. تم غرس البذور في تشيزبيك لتطوير مجتمعات المزارع التي تقوم على أساس العمل الغير الحر، وكذلك تأسيس المستوطنات في نيو إنجلاند في البلدات الصغيرة وإنشاء المزارع العائلية. تمتع الكثير من السكان المقيمين في جميع أنحاء المستعمرات بالحريات التي لم يكونوا يتمتعون بها في الوطن الأم، وخاصةً الحصول على الأراضي والحق في العبادة كما يريدون. وجد آخرون أنفسهم مضطرين للعمل الغير الحر لسنوات عديدة أو للعمر كله.

وقد شهد القرن التالي الكثير من الأزمات والتوحيد مع زيادة عدد السكان والتوسع الجغرافي، واحتدام الصراعات الاجتماعية، وممارسة بريطانيا المزيد من الهيمنة على مستعمراتها في أمريكا الشمالية التي كانت تزداد ازدهارا.

أصوات الحرية

من "جون وينثروب"

خطاب إلى محكمة ماساتشوستس العامة (3 يوليو 1645)

يقدم "جون وينثروب"، حاكم مستعمرة "خليج ماساتشوستس"، تعريفين مختلفين جدًا للحرية في هذا الخطاب.

تتمحور القضايا الكبرى التي أدت إلى اضطراب البلاد حول سلطة القضاة وحرية الشعب . . . فيما يتعلق بالحرية، لقد لاحظت خطأً كبيرًا في البلاد حول ذلك، حيث يتم الخلط بين شقين للحرية، الحرية الطبيعية (أعني أن هذه الحرية فاسدة تمامًا كما أن طبيعتنا فاسدة الآن) والحرية المدنية أو الاتحادية. يتقاسم الإنسان الحرية الأولى مع الوحوش والمخلوقات الأخرى، وهي ببساطة الحرية التي يتمتع بها الرجل في علاقته بالرجل الآخر، حيث يستطيع فعل ما يريد، سواء كان خيرًا أو شرا. هذه الحرية لا تتفق ولا تتسق مع السلطة، ولا تقبل أي قيد ولو أقل تقييدًا من أكثر السلطات عدلا. تؤدي ممارسة ومحاولة الحفاظ على هذه الحرية إلى أن يزداد الرجال شرا، وأحيانًا ما تجعلهم أسوأ وأكثر شرًّا من الوحوش الغاشمة العنيفة. . . . وهذه الحرية هي العدو الأكبر للحقيقة والسلام، إنها ذلك الوحش الذي بداخلنا والذي جاءت جميع فرائض الله لكبح جماحه وإخضاعه.

أُطلِق على النوع الآخر من الحرية "الحرية المدنية أو الاتحادية" ويمكن أيضًا تسميتها "الحرية الأخلاقية". . . . هذه الحرية هي الهدف السليم من السلطة ولا يمكن للسلطة أن تستديم بدونها، إنها تلك الحرية لفعل ما هو خير وعادل وأمين ونزيه فقط. . . . يتم الحفاظ على هذه الحرية وممارستها من خلال الخضوع للسلطة، إنها من نفس نوع الحرية التي جعلنا الله بها أحرارا. إنها تشبه حرية المرأة في اختيار زوجها . . . ثم يصبح سيدها حيث إنه هو رجلها الذي اختارته بنفسها وتخضع له، ومع ذلك يتم كل هذا في إطار من الحرية وليس من العبودية. تَعتَبِر الزوجة المخلصة هذا الخضوع لزوجها بمثابة شرف وحرية لها، ولا تجد نفسها آمنة وحرة إلا في ظل خضوعها لسلطة زوجها. هذه هي حرية الكنيسة تحت سلطة الله.

من "روجر وليامز"
خطاب إلى مدينة العناية الإلهية (1655)

غادر رائد فكرة التسامح الديني في المستعمرات، "روجر وليامز" مستعمرة "ماساتشوستس" لتأسيس مستعمرة "رود آيلاند"، حيث قام بفصل الكنيسة عن الدولة على العكس لما حدث في "ماساتشوستس" التطهرية؛ ونظرًا لأنه كان يعتقد أن بعض مستوطني "بروفيدنس" قد أساءوا فهم آرائه، لذلك كتب هذه الرسالة لشرح رؤيته للحرية ومداها وحدودها. ليس هناك ما يجب أن أتحدث أو أكتب عنه أكثر من أن فكرة الحرية المطلقة التي لا حدود لها خطأ كبيرًا ودائما ما أنكرها أو أمقتها؛ ومن أجل منع هذه الأخطاء، سأكتفي في الوقت الحاضر بتقديم الحالة التالية على سبيل المثال: أبحرت الكثير من السفن في البحر، وكانت إحدى هذه السفن تحمل على متنها العديد من مئات البشر الذين يتقاسمون الحلوة والمرة، ويمثلون صورة حقيقية لرابطة الشعوب البريطانية، أو مزيجًا من البشر أو المجتمع بصفة عامة؛ وأحيانًا ما كان يجتمع على ظهر نفس السفينة كاثوليك وبروتستانت ويهود وأتراك (مسلمون). أؤكد أن كل حرية الضمير التي دائمًا ما أدعو إليها تعني أحد أمرين، ألا يُفرَض على أي من الكاثوليك والبروتستانت واليهود والأتراك المسلمون الذين هم على ظهر السفينة أن يأتوا إلى الصلاة أو ينضموا للعبادة المقامة في السفينة، ولا يجبر أي منهم بالصلاة أو العبادة من قبل دينهم، إذا كانوا يمارسون أي دين. أود أن أضيف أنني لم أنكر أنه على الرغم من هذه الحرية، إلا أنه للسيطرة على هذه السفينة ينبغي على قيادة السفينة تحديد مسارها، وحفظ السلام، والاعتدال والحلم والرصانة بين كل من البحارة والركاب، وإذا رفض أي من البحارة أداء خدمته أو رفض أي من الركاب دفع أجرة النقل، أو إذا رفض أي منهم المساعدة بنفسه أو بماله في النفقات المشتركة أو في الدفاع عن السفينة، أو إذا رفض أي منهم الانصياع للقوانين المشتركة والأوامر الخاصة بالسفينة المتعلقة بالسلام والحماية العامة، أو إذا تمرد أو انتفض أي منهم ضد قادتهم ومديريهم، بسبب أن الجميع ليسوا سواسية أمام الله، وبالتالي ليس هناك أسياد ولا ضباط ولا قوانين ولا أوامر ولا تأديب ولا عقوبات؛ أقول أنني لا أنكر مبدأ السواسية، ولكن في مثل هذه الحالات، مهما كان الشكل الذي ظهرت به، فإنه يجوز للنظام والقادة أن يحكموا على هؤلاء المعتدين وأن يقاوموهم ويجبروهم ويعاقبوهم.

أسئلة:

1- لماذا يعتبر "وينثروب" الحرية الطبيعية خطيرة؟
2- كيف يضع "وينثروب" قيودًا على الحرية؟
3- ما هي أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين آراء "وينثروب" و"وليامز"؟

أسئلة المراجعة:

1- قارن واذكر الفروق بين تاريخ استيطان إنجلترا في الأمريكتين واستيطان إسبانيا، مع مراعاة النظر في معاملة الهنود ودور الكنيسة وأهمية المرأة والتنمية الاقتصادية.

2- كانت الأرض بالنسبة للإنجليز أساس الحرية. اشرح الأسباب الكامنة وراء ذلك المفهوم وكيف كان مختلفا بشكل ملحوظ عن مفهوم الهنود للأرض؟

3- ادعى العديد من التطهريين أنهم جاءوا إلى أمريكا الشمالية سعيًا وراء الحرية الدينية، لكنهم كانوا غير متسامحين للغاية مع أصحاب العقائد الأخرى. كان هناك في الحقيقة قدر أكبر من حرية الضمير في وطنهم إنجلترا. كيف تفسر ذلك؟

4- صف الذين اختاروا الهجرة من إنجلترا إلى أمريكا الشمالية في القرن السابع عشر واشرح أسباب هذه الهجرة.

5- في أي الأوجه اختلف اقتصاد "نيو إنجلاند" والحكم فيها عما هو قائم في مستعمرات "تشيزبيك"؟

6- على النقيض من الإسبان، اعتقد الإنجليز أن دوافعهم الاستعمارية نقية، وأن نمو الإمبراطورية ونمو الحرية سيترافقان دائمًا جنبا إلى جنب. كيف أثّر توسع الإمبراطورية البريطانية على حريات الأمريكيين الأصليين والأيرلنديين وحتى الكثير من المواطنين الإنجليز؟

7- بالنظر للسياسة والتوترات الاجتماعية والمناقشات حول معنى الحرية، كيف أثبتت الأحداث وما أعقبها من الحرب الأهلية الإنجليزية أن المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية كانت جزءًا من مجتمع أطلسي أكبر؟

8- كيف جذب اقتصاد التبغ مستعمرات "تشيزبيك" إلى العالم الأطلسي الأكبر؟

أسئلة الحرية:

1- مع تعدد درجات الحرية التي كانت تتعايش معًا في أمريكا الشمالية خلال القرن السابع عشر، كان في مقدور المرء أن ينتقل خلال رحلة حياته من الحرمان التام من حقوقه إلى امتلاك العديد من الحقوق. اذكر أمثلة لإثبات هذه الحقيقة.

2- من أجل توفير الحريات الكاملة للطبقات الاجتماعية العليا في كل من إنجلترا وأمريكا الشمالية الإنجليزية، كان يتعين حرمان الطبقات الاجتماعية الدنيا من هذه الحقوق. اشرح كيف ولماذا كان ذلك.

3- كيف اختلفت مفاهيم وأهداف "الحرية" لدى المستوطنين التاليين: الوافدين الجدد إلى "جيمس تاون"، "جون سميث"؛ عائلة تطهرية في "ماساتشوستس" في الثلاثينيات من القرن السابع عشر؛ أحد ملاك الأراضي الكاثوليك في "ميريلاند" في الأربعينيات من القرن السابع عشر؟

4- اشرح كيف استخدم التطهريون مفهومهم عن الحرية الأخلاقية لتبرير أفعالهم ضد الآخرين في العالم الجديد، ثم ناقش لماذا رأى بعض البروتستانت الآخرون والمستوطنون الإنجليز الآخرون في العالم الجديد وهؤلاء الذين ظلوا في إنجلترا أن هذه المبررات غير حقيقية وإنما تنطوي على نفاق.

5- استعرض المناقشات حول المعنى الحقيقي للحرية و"الحرية الإنجليزية" بعد الحرب الأهلية الإنجليزية. ما المغزى الدائم الذي تستنتجه من هذه المناقشات؟

جدول المراجعة				
المستوطنات البريطانية الاستعمارية المبكرة				
المستعمرة	تاريخ الإنشاء	الراعي	المؤسس/ الحاكم	الديانة الرئيسية
فيرجينيا	1607	شركة فيرجينيا	جون سميث	الإنجليكية
بليموث	1620	مستثمرون إنجليز	وليم برادفورد	حجاج بروتستانت انفصاليون
ماساتشوستس	1630	شركة خليج ماساتشوستس	جون وينثروب	بروتستانت
ميريلاند	1632	ملكية خاصة	سيسليوس كالفرت	بروتستانت وكاثوليك
رود آيلاند	1636	امتياز ملكي	روجر وليامز	ملاذ آمن لكل الديانات
كونيتيكت	1636	امتياز ملكي	توماس هوكر	بروتستانت

الفصل الثالث

1624	شركة الهند الغربية الهولندية تستوطن مانهاتن
1651	القانون الأول للملاحة الصادر عن البرلمان
1664	استيلاء الإنجليز على "هولندا الجديدة" التي أصبحت نيويورك
1669	الدساتير الأساسية لكارولينا
1670	وصول أول مجموعة من المستوطنين الإنجليز إلى كارولينا
1675	لوردات التجارة
1676-1675	حرب الملك فيليب
1676	تمرد بيكون
1681	منح بنسلفانيا إلى "وليام بن"
1682	صياغة بن لمسودة ميثاق الحرية
1683	صياغة مجلس نيويورك لميثاق الحريات والامتيازات
1688-1686	تشكيل سيادة مستقلة لمستعمرة "نيو إنجلاند"
1688	الثورة المجيدة في إنجلترا
1689	البرلمان يسن مشروع قانون للحقوق
	انتفاضة ميريلاند
	تمرد ليسلر
1690	البرلمان يقر قانون التسامح
1691	ماساتشوستس تستوعب مستعمرة بليماوث
1692-1691	محاكمات ساحرات سالم
1715	سحق انتفاضة ياماسي وجريك
1737	معاهدة شراء الممر

إنشاء أمريكا الإنجليزية، 1660-1750

أسئلة تركيز:

- كيف توسعت الإمبراطورية الإنجليزية في أمريكا في منتصف القرن السابع عشر؟
- كيف تأسست العبودية في العالم الغربي الأطلسي؟
- ما هي الأزمات الاجتماعية والسياسية الكبرى التي هزت المستعمرات في أواخر القرن السابع عشر؟
- ما هي اتجاهات التغيير الاجتماعي والاقتصادي في مستعمرات القرن الثامن عشر؟
- كيف تغيرت أنماط الطبقة وأدوار الجنس في أمريكا في القرن الثامن عشر؟

هزت سلسلة من الأزمات أرجاء المستعمرات الأوروبية في أمريكا الشمالية في الربع الأخير من القرن السابع عشر، حيث احتدم التوتر الاجتماعي والسياسي أحيانًا في شكل صراعات عنيفة، بين الأغنياء والفقراء، والأحرار والعبيد، والهنود والمستوطنين، وأعضاء جماعات دينية مختلفة. ترددت في نفس الوقت في المستعمرات أصداء الصراعات داخل وبين الإمبراطوريات الأوروبية. استغلت المجموعات المتضررة لغة الحرية لتحقيق أهدافها؛ وعلى الرغم من أن كل صراع له أسبابه المحلية الخاصة، إلا أن هذه الصراعات مجتمعة فاقمت إلى أزمة عامة يعاني منها المجتمع الاستعماري في المنطقة التي ستصبح الولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد.

وقع الصراع الأكثر دموية ومرارة في جنوب "نيو إنجلاند" في عام 1675، حيث شن تحالف هندي هجمات على المزارع والمستوطنات التي كانت تتعدى على الأراضي الهندية. كانت هذه الحرب هي الأعنف والأكثر إثارة في المنطقة طوال القرن السابع عشر بأكمله.

وصف سكان "نيو إنجلاند" زعيم قبيلة "وامبانواج" ويدعى "ميتاكوم" (المعروف للمستعمرين باسم الملك فيليب)، بأنه العقل المدبر للانتفاضة، على الرغم من أن معظم القبائل قاتلت في الحقيقة تحت قيادة زعمائها. كان عدد السكان البيض في هذا الوقت يفوق عدد الهنود بفارق كبير، ولكن مصير مستعمرات "نيو إنجلاند" ظل يتأرجح وغير محسوم لعدة أشهر، فبحلول عام 1676 كانت القوات الهندية قد هاجمت ما يقرب من نصف مدن "نيو إنجلاند" البالغ عددها تسعين مدينة، وتم تدمير اثني عشر مدينة في ماساتشوستس، ومع فرار اللاجئين شرقًا، تراجع خط الاستيطان حتى وصل تقريبًا إلى ساحل المحيط الأطلسي، ولقي حوالي 1.000 مستوطن من إجمالي 52.000 مستوطن في "نيو إنجلاند"، وحوالي 3.000 من إجمالي 20.000 هندي في "نيو إنجلاند"، حتفهم في هذا القتال.

تحول مسار المعركة في منتصف عام 1676 لصالح المستوطنين، الذين شنوا هجمة مرتدة شرسة حطمت قوة الهنود نهائيًا وإلى الأبد؛ وعلى الرغم من أن الانتفاضة وحدت قبائل هندية عديدة، إلا أن قبائل أخرى ظلت موالية للمستعمرين. قامت قبيلة "أروكيوس" بدور هام في توفير المساعدات العسكرية الأساسية للمستعمرين، مما ساعد في إقامة تحالف قوي بينها وبين حكومة نيويورك، وتمكنت القوة الاستعمارية مع القوة الهندية من إيقاع عقوبة مدمرة بالمتمردين، وتم القبض على "ميتاكوم" وإعدامه، وتدمير القرى الهندية، وقتل الأسرى من الرجال والنساء والأطفال، أو بيعهم كعبيد سوق العبيد في جزر الهند الغربية، وفر معظم الناجين إلى كندا أو نيويورك. امتدت هذه المعاناة لتشمل حتى "الهنود المتعبدين"، الذين كان يبلغ عددهم حوالي 2.000 شخص، والذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية وعاشوا في مجتمعات الحكم الذاتي تحت

إشراف التطهريين، حيث تم ترحيلهم من مدنهم إلى "دير آيلاند" في ميناء بوسطن بحجة توفير حماية خاصة بهم، وقد تعرض الكثير منهم للهلاك بسبب الأمراض ونقص الغذاء. وقد ارتكب كل من جانبي الصراع الوحشي أعمال فظيعة، ولكن ترسخت في أذهان مستعمري "نيو إنجلاند" في أعقاب ذلك صورة الهنود المتوحشين المتعطشين للدماء.

أما فيما يتعلق بنتائج حرب الملك فيليب على المدى الطويل، فإنها أسفرت عن توسيع نطاق الحرية للبيض في "نيو إنجلاند" من خلال توسيع حصولهم على الأرض، غير أن هذه الحرية قد ارتكزت على تجريد الهنود من الملكية في تلك المنطقة نهائيا.

المنافسة العالمية وتوسع إمبراطورية إنجلترا

النظام المركنتالي (التجاري)

عندما أصبح العالم الجديد ساحة لمعارك المنافسة التي لا نهاية لها بين الدول الأوروبية على الثروة والسلطة، انتقلت إنجلترا إلى السيطرة على التجارة الأطلسية، وإحكام قبضتها على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية، وبسط هيمنة أكبر على إمبراطوريتها. كان من الواضح بحلول منتصف القرن السابع عشر أن المستعمرات يمكن أن تكون مصدرًا هامًّا من مصادر الثروة للبلد الأم؛ ووفقًا للنظرية السائدة المعروفة باسم "النزعة المركنتالية البحتة"، كان ينبغي على الحكومة تنظيم النشاط الاقتصادي لتعزيز السلطة الوطنية، وتشجيع التصنيع والتجارة من خلال منح امتيازات واحتكارات خاصة وغيرها من التدابير، وقبل كل ذلك، ينبغي السيطرة والرقابة على التجارة بحيث يكون تدفق الذهب والفضة داخل البلاد أكثر من الكمية الخارجة من البلاد، بمعنى أنه ينبغي أن تتفوق عائدات الصادرات على مدفوعات الواردات؛ ووفقًا لمنظور "النزعة التجارية البحتة"، يتمثل دور المستعمرات في خدمة مصالح البلد الأم من خلال إنتاج المواد الخام القابلة للتسويق، واستيراد السلع المصنعة من البلد الأم؛ وقد أوضح عمل مؤثر كتبه في عام 1664 تاجر بلندن أن "التجارة الخارجية" تشكل الأساس "للخزانة الإنجليزية"، فأساس الإمبراطورية هو التجارة وليس نهب الأراضي.

وكما ذكرنا في الفصل الثاني، أقر البرلمان في 1651 في عهد "أوليفر كرومويل" المرسوم الأول للملاحة، الذي يهدف إلى انتزاع السيطرة على التجارة العالمية من الهولنديين، الذين يستفيد تجارهم من التجارة الحرة مع جميع أنحاء العالم ومع جميع الإمبراطوريات الحالية، وأعقب ذلك اتخاذ تدابير إضافية في عامي 1660 و1663. كانت ترتكز السياسة الاقتصادية الجديدة لإنجلترا، المتمثلة في النزعة التجارية البحتة، على فكرة أنه يجب أن تتمتع إنجلترا بالأرباح الناشئة عن الإمبراطورية الإنجليزية.

ووفقًا لقوانين الملاحة، لابد أن تُنقَل بعض السلع "المعينة" في السفن الإنجليزية، وتباع مبدئيًا في الموانئ الإنجليزية، على الرغم من أنه يمكن إعادة تصديرها إلى الأسواق الخارجية، وتتشكل هذه السلع بشكل رئيسي من المنتجات الاستعمارية الأكثر قيمة، مثل التبغ والسكر؛ وبالمثل، لا بد من شحن معظم السلع الأوروبية المستوردة إلى المستعمرات عن طريق إنجلترا، حيث يتم دفع الرسوم الجمركية. سمحت هذه التدابير بتمكين التجار، والمصنعين، وشركات بناء السفن، والبحارة الإنجليز من جني فوائد التجارة الاستعمارية، وسمحت كذلك للحكومة أن تتمتع بالدخل المضاف من الضرائب؛ وسيعود ذلك بالنفع أيضًا على المستعمرات الأمريكية باعتبارها أعضاء في الإمبراطورية، ونظرًا لأن سفنها أيضًا تعتبر إنجليزية؛ وفي الحقيقة، حفزت قوانين الملاحة على إحداث نهضة في صناعة السفن في "نيو إنجلاند".

غزو هولندا الجديدة

أدى استعادة النظام الملكي الإنجليزي، وتولى "تشارلز الثاني" العرش في عام 1660، إلى تدشين مرحلة جديدة من التوسع الاستعماري. منحت الحكومة امتيازات لمشاريع تجارية جديدة، ولا سيما "الشركة الملكية الإفريقية" التي حظيت باحتكار تجارة الرقيق. تضاعف عدد المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية في غضون جيل واحد، وكان أول من خضع للسيطرة الإنجليزية مستعمرة "هولندا الجديدة"، التي تم الاستيلاء عليها في عام 1664 في أعقاب حرب أنجلو-هولندية، والتي أسفرت أيضًا عن سيطرة إنجلترا على المراكز التجارية الهولندية في إفريقيا. منح الملك "تشارلز الثاني" المستعمرة إلى شقيقه الأصغر دوق يورك "جيمس"، مع "السلطة الكاملة والمطلقة" ليحكمها كيفما يشاء (ومن هنا جاء اسم المستعمرة " نيويورك").

ظلت تمثل "هولندا الجديدة" دائمًا مكانًا هامشيًا بالنسبة للإمبراطورية الهولندية المنتشرة على مدى واسع وبعيد، وقاتل الهولنديون للاحتفاظ بممتلكاتهم في إفريقيا وآسيا وجنوب أمريكا، ولكنهم تنازلوا عن "هولندا الجديدة" في عام 1664 دون قتال. أدى حكم الإنجليز لهذه القاعدة العسكرية الصغيرة إلى تحويلها إلى مركز استيطاني هام، وميناء بحري للتجارة مع منطقة البحر الكاريبي وأوروبا، وقاعدة لانطلاق العمليات العسكرية ضد الفرنسيين. ارتفع تعداد السكان الأوروبيين في نيويورك من حوالي 9.000 نسمة، عندما سيطر عليها الإنجليز، إلى 20.000 نسمة بحلول عام 1685.

نيويورك وحقوق الرجل الإنجليزي والمرأة الإنجليزية

وسَّع الحكم الإنجليزي من نطاق الحريات لبعض سكان نيويورك، في حين ضيقه بالنسبة لآخرين. ضمنت شروط الاستسلام احترام الإنجليز لمبدأ التسامح الديني، واحترام ممتلكات

العديد من المجتمعات العرقية بالمستعمرة؛ ومع ذلك، أنهى القانون الإنجليزي التقليد الهولندي الذي يسمح للمرأة المتزوجة بممارسة الأعمال والتجارة باسمها، وأن ترث بعض الممتلكات المكتسبة خلال فترة الزواج؛ ومع تكيف المستعمرون من أصل هولندي مع الحكم الإنجليزي، وجهوا اهتمامًا أكبر إلى نقل ثرواتهم إلى أبنائهم الذكور أكثر من زوجاتهم وبناتهم من خلال آلية الوصية قبل الممات. كان هناك العديد من التجار الإناث في نيو أمستردام (غالبًا من الأرامل اللاتي كن قد ورثن ممتلكات الزوج المتوفى)، ولكن القليل منهن من ظللن يمارسن التجارة حتى نهاية القرن السابع عشر.

وطبق الإنجليز أيضًا توجهات أكثر تقييدًا نحو السود؛ فكما كان الحال في نيو أمستردام، كان المقيمون في مدينة نيويورك الاستعمارية- الذين حصلوا على لقب رجل حر، سواء عن طريق الولادة في المدينة أو بفعل قانون صادر من السلطات المحلية- يتمتعون بامتيازات خاصة بالمقارنة مع الآخرين، بما في ذلك الحق في العمل في مختلف المهن؛ ورغم ذلك، وعلى العكس من السياسة الهولندية، قام الإنجليز بطرد السود الأحرار من العديد من الوظائف التي تتطلب عمالة ماهرة.

واستفاد آخرون بشكل كبير من الحكم الإنجليزي، حيث استمر دوق يورك والحكام الذين يُعَيِّنهُم في انتهاج السياسة الهولندية التي تمنح مساحات شاسعة من الأراضي إلى المقربين منهم، بما في ذلك منح 160.000 فدان إلى روبرت ليفينجستون و90.000 فدان إلى فريدريك فيليبس، حتى أن الأمر وصل إلى الحد أنه بحلول عام 1700، كان ما يقرب من مليوني فدان من الأراضي مملوكة لخمس عائلات فقط في نيويورك، وكانوا يتزاوجون فيما بينهم دائمًا مما أكسبهم نفوذًا سياسيًّا كبيرًا، وشكلوا أحد نخب أمريكا الاستعمارية أصحاب الأراضي الأكثر تماسكًا.

نيويورك والهنود

في البداية، عزز الحكم الإنجليزي أيضًا موقف كونفدرالية الإيروكواز (اتحاد كونفدرالي من قبائل السكان الأصليين بالمنطقة الشمالية من نيويورك ويتألف في الأصل من خمس قبائل، وهي الموهوك، أونيدا، أونونداغا، كيجا، وسينيكا، والمعروفة باسم الأمم الخمسة). بعد سلسلة من المفاوضات المعقدة في منتصف السبعينيات من القرن السابع عشر، قام السير أدموند اندروس، الذي كان قد تم تعيينه حاكمًا لنيويورك بعد محاربة الفرنسيين في منطقة البحر الكاريبي، بتشكيل تحالف عُرِفَ باسم سلسلة العهد وبموجبه عززت طموحات كل من الإمبراطورية الإنجليزية والهنود بعضهم البعض، حيث ساعدت قبائل الإيروكواز الخمسة (أصبحوا ستة في وقت لاحق) أندروس في تطهير أجزاء من نيويورك من قبائل منافسة، وساعدت البريطانيين في هجماتهم ضد

الفرنسيين وحلفائهم الهنود، في مقابل اعتراف "أندروس" من جانبه بمطالبة "الإيروكواز" بالسلطة على المجتمعات الهندية في المنطقة الواسعة التي تمتد إلى نهر أوهايو، إلا أنه ابتداءً من الثمانينيات من القرن السابع عشر، أعاد الهنود حول البحيرات العظمى ووادي أوهايو تنظيم صفوفهم، وهاجموا بمساعدات فرنسية "الإيروكواز" ودفعوهم إلى الشرق. على أية حال، تبنى "الإيروكوا" سياسة الحياد الحريص بحلول نهاية القرن، وسعوا للتلاعب بالإمبراطوريات الأوروبية ضد بعضها البعض بينما استمروا في التربح من تجارة الفراء.

ميثاق الحريات

وفي الوقت ذاته، بدأ العديد من المستعمرين في نفس الوقت يشتكون أنهم حُرِمُوا من "حريات الإنجليز"، ولا سيما الحق في الموافقة على فرض الضرائب. لم يكن هناك أي مجالس نيابية في ظل حكم الهولنديين، كما أن الحكام المعينين من قبل "دوق يورك" حكموا في البداية بدون أي مجالس نيابية. كان الاستياء قويًا بشكل خاص في "لونج آيلاند" التي استقر فيها إلى حد كبير المستعمرين الإنجليز، وكانت معتادة على الحكم الذاتي.

ووافق الدوق في عام 1683 على الدعوة لمجلس منتخب، وكان أول أعماله صياغة ميثاق الحريات والامتيازات، وطالب الميثاق بإجراء الانتخابات كل ثلاث سنوات بين أصحاب الأملاك الذكور والرجال الأحرار في مدينة نيويورك، كما أكد أيضًا على الحقوق الإنجليزية التقليدية، مثل المحاكمة أمام هيئة محلفين وضمان الممتلكات، فضلا عن التسامح الديني لجميع البروتستانت. كان يعكس الميثاق، في جزء منه، جهودا من جانب المستعمرين الإنجليز الجدد، لفرض الهيمنة على المستوطنين الهولنديين الأقدم من خلال ترسيخ مبدأ أن "الحريات" التي يتمتع بها سكان نيويورك كانت هي تلك التي يتمتع بها الإنجليز في الوطن الأم.

تأسيس كارولينا

بعد إنشاء ميريلاند في عام 1634، لم يتم تأسيس أي مستوطنة إنجليزية جديدة في أمريكا الشمالية لأكثر من ثلاثة عقود، حتى منح "تشارلز الثاني" في عام 1663 ثمانية من أصحاب الأملاك الحق في إقامة مستعمرة إلى الشمال من "فلوريدا"، لتكون بمثابة حائط صد يحول دون التوسع الإسباني، ولكن لم يصل المستوطنون الأوائل إليها حتى عام 1670 لتأسيس "كارولينا". كانت "كارولينا" في سنواتها الأولى "مستعمرة لمستعمرة"، وبدأت كفرع من جزيرة "بربادوس" الصغيرة، التي كانت تمثل أغنى اقتصاد زارعي في منطقة الكاريبي في منتصف القرن السابع عشر، ولكن نقص الأراضي المتاحة دفع المزارعين الأثرياء إلى البحث عن فرص لأبنائهم في كارولينا. قام سكان كارولينا في البداية بتسليح الهنود الموالين لهم، واستخدامهم في شن الغارات على

فلوريدا الإسبانية، واستعبدوا الآخرين ونقلوهم إلى المستعمرات الداخلية الرئيسية الأخرى، وإلى جزر الهند الغربية. في الحقيقة، كان عدد الهنود العبيد، الذين تم تصديرهم من تشارلستون خلال الفترة ما بين عامي 1670 و 1720، أكبر من عدد العبيد الأفارقة المستوردين. تمرد كل من ياماسي وكريك وقد أزعجتهما الديون الهائلة التي تكبداها في عام 1715 في التجارة مع المستوطنين وتجار الرقيق، ونتيجة أيضًا لغارات تجار الرقيق على أراضيهم، لكن تم سحق الانتفاضة، وتم استعباد معظم الهنود المتبقين أو طردهم إلى مستعمرة فلوريدا الإسبانية، حيث قاموا بشن غارات من وقت لآخر ضد المستوطنات الإنجليزية.

اقترحت الدساتير الأساسية لولاية كارولينا، الصادرة عن أصحاب الأملاك في عام 1669، إقامة مجتمع إقطاعي مع طبقة النبلاء التي يتوارثها أبنائهم عبر الأجيال (مع ألقاب غريبة مثل صاحب ولاية على منطقة، وزعيم سياسي) والعبيد والعمال الزراعيين بالسخرة، إلا أنه نظرًا للحاجة إلى جذب المستوطنين بشكل سريع، نص أصحاب الأملاك أيضًا في هذه الدساتير على مجلس منتخب وعلى التسامح الديني- تم الاعتراف الآن بأن هذين النصين كانا ضروريين لإغراء الهجرة إلى أمريكا الشمالية – كما أسسوا أيضًا نظامًا سخيًا لمنح الأراضي للمستوطنين، حيث عرضوا 150 فدانًا لكل فرد من عائلة قادمة (بالطبع تعود الأرض لصاحب العمل في حالة موظفي الخدمة بالسخرة) و100 فدان للموظفين الذكور الذين أنهوا مدة عقد عملهم.

لم يتم التأسيس بالفعل لأي من البارونيات (الإقطاعيات) الواردة في الدساتير الأساسية، فالعبودية، وليس الإقطاع، جعل كارولينا مجتمعا هرميا للغاية. وضع أصحاب الأملاك تشريعًا قانونيًا صارمًا يمنح السادة أصحاب العبيد "السلطة والقوة المطلقة" على أملاكهم من البشر وشملت العبيد المستوردين في ظل نظام منح أراضي للمهاجرين. سمح هذا لأي أشخاص استقروا في كارولينا وجلبوا معهم عبيدا، بما في ذلك المزارعين القادمين من بربادوس، وتم إعادة توطينهم في المستعمرة، أن يحصلوا على الفور على حيازات كبيرة جديدة من الأراضي. بالرغم من ذلك، تركز الاقتصاد في الأيام الأولى لتكوين المستعمرة على تربية الماشية والتجارة مع الهنود المحليين، وليس الزراعة. نمت كارولينا ببطء حتى اكتشف المزارعون محصول الأرز الذي من شأنه أن يجعلهم أغنى نخبة في أمريكا الشمالية الإنجليزية، وجعل مستعمرتهم المركز الرئيسي لجذب العبودية على البر الرئيسي.

التجربة المقدسة

كانت بنسلفانيا آخر المستعمرات الإنجليزية التي تم إنشائها في القرن السابع عشر، وكان مالكها وليم بن يتصورها على أنها المكان الذي يستطيع أن يتمتع فيه بالحرية الروحية أولئك

الذين يواجهون الاضطهاد الديني في أوروبا، وحيث يتعايش المستعمرون والهنود في وئام. كان والد "بن" الراحل من المؤيدين للملك "تشارلز الثاني" ومن مقرضيه، وقام الملك بمنح والد بن في عام 1681 مساحة شاسعة من الأراضي الواقعة جنوب وغرب نيويورك، فضلا عن المستعمرة السويدية الهولندية القديمة التي أصبحت ولاية "ديلاوير" في مقابل إلغاء ديونه إلى أسرة بن، ولدعم الوجود الإنجليزي في أمريكا الشمالية.

كان "بن" عضوًا ورعًا في "مجتمع الأصدقاء" أو ما يطلق عليه "الكويكرز"، وكان معنيًا بصفة خاصة بتأسيس ملاذ آمن لأتباع ديانته، الذين كانوا يواجهون اضطهادًا متزايدًا في إنجلترا، وقد ساعد بالفعل مجموعة من الإنجليز "الكويكرز" في شراء نصف ما أصبح مستعمرة "نيو جيرسي" من اللورد "جون بيركلي"، الذي كان قد حصل على منحة أرض من دوق "يورك". كان "بن" مسئولا إلى حد كبير عن إطار الحكم، الذي تم إعلانه في عام 1677 تحت عنوان "امتيازات ويست جيرسي"، وهو الإطار الذي يمثل واحدًا من أكثر الإطارات ليبرالية في تلك الحقبة. قام "بن" بإنشاء مجلس على أساس المثل الخاصة بمجتمع الأصدقاء، على أن يتم انتخابه بالاقتراع الواسع وأرسى أسس الحرية الدينية. كان "بن" يأمل أن تصبح "ويست جيرسي" مجتمعًا من صغار المزارعين وليس كبار ملاك الأراضي.

حرية "الكويكرز"

مثل التطهريين، كان "بن" يعتبر مستعمرته بمثابة "تجربة مقدسة"، ولكن من نوع مختلف، حيث أرادها أن تكون "مستعمرة حرة للبشرية جمعاء التي يجب أن تأتي إلى هناك"، وأعرب عن أمله في أن تُحكَم "بنسلفانيا" وفقًا لمبادئ "الكويكرز"، ومن بينها المساواة بين جميع الأشخاص (بما في ذلك النساء والسود والهنود) أمام الله وهيمنة الضمير الإنساني على الفرد.كانت الحرية بالنسبة إلى "الكويكرز" حقًا عالميًا وليست حكرًا على فرد واحد - وكان هذا الموقف هو السبب الذي جعلهم في نهاية المطاف أول مجموعة من البيض الذين كانوا ينبذون العبودية. عامل "بن" الهنود أيضًا باحترام فريد من نوعه تقريبًا في التجربة الاستعمارية، وكان يرتب لشراء الأرض من الهنود قبل بيعها للمستعمرين، وتوفير ملاذ للقبائل الهندية المطرودة من المستعمرات الأخرى بسبب الحرب، حتى أنه أحيانًا ما كان يقوم بشراء نفس الأرض مرتين عندما يدعي ملكيتها أكثر من قبيلة هندية؛ ونظرًا لأن "الكويكرز" كانوا مسالمين وقد جاءوا إلى أمريكا عُزَّل بدون سلاح، حتى أنهم لم ينظموا أي ميليشيات حتى الأربعينيات من القرن الثامن عشر، لذلك كان السلام مع السكان الأصليين أساسيًا بالنسبة لهم. لاقت "سلسلة للصداقة" إعجاب الهنود المحليين، حيث أنها كانت تضمن لهم الحماية من القبائل المتناحرة التي ادعت الهيمنة عليهم.

كان مبدأ الحرية الدينية من أهم المبادئ الأساسية لدى "بن"، وقد أدان محاولات فرض "توحيد الديانة" لحرمان الآلاف من "الأرواح الحرة" من الإنجليز من حق العبادة كما يريدون. قدم "بن" "ميثاق الحرية" ووافق عليه المجلس في عام 1682، وعرض فيه "الحرية المسيحية" لجميع الذين أكدوا الإيمان بالله، ولم يستخدموا حريتهم لتعزيز "الفجور". لم يكن هناك كنيسة في "بنسلفانيا" وكان حضور الطقوس الدينية تطوعيًا تماما، على الرغم من أن اليهود كانوا ممنوعين من قيادة الطقوس الدينية قبل أداء اليمين المطلوبة لتأكيد إيمانهم بألوهية المسيح. تمسك "الكويكرز" في نفس الوقت بقواعد صارمة للأخلاق الشخصية، حيث حظر إطار "بن" الحكومي الشتائم وشرب الخمور والزنا، وكذلك وسائل الترفيه التي كانت شائعة في تلك الحقبة مثل "العربدة" و"تنظيم معارك الثيران ومصارعة الديوك". ربما لم تكن الحكومة تقوم بفرض "العقيدة الدينية الخاصة، ولكنها كانت بالتأكيد تنفذ السلوك الأخلاقي العام. لم يكن ذلك توحيدا للديانة ولكن المواطن الفاضل يمثل حجر الزاوية للنظام الاجتماعي الذي وضعه "بن"، لذلك وجب على النظام الحاكم ضمان حسن سلوك المواطنين.

الأرض في "بنسلفانيا"

ونظرًا لأنه كان يملك سلطة تحديد شكل الحكم في المستعمرة، فقد أنشأ "بن" مجلسًا معينًا لإصدار التشريعات، ومجلسًا منتخبًا من قبل دافعي الضرائب من الذكور و"الرجال الأحرار" (المهاجرين الأحرار الذين يملكون 100 فدان من الأراضي، الموظفين للخدمة بالسخرة الذين أكملوا مدة خدمتهم ويمتلكون 50 فدانا)؛ وقد منحت هذه القواعد للغالبية العظمى من السكان الذكور الحق في التصويت. اشترى "بن" كل أراضي المستعمرة، ثم قام ببيعها للمستوطنين بأسعار منخفضة بدلا من منحها بشكل مباشر، وكان يتوقع مثل أصحاب الأراضي الآخرين أن يجني أرباحا، ولكنه مثل معظمهم لم يحقق أي ربح بالفعل، غير أن الفائدة والأرباح قد عادت على "بنسلفانيا". كانت الغالبية العظمى من المستوطنين الأوائل من "الكويكرز" من الجزر البريطانية، إلا أنه نظرًا للتسامح الديني والمناخ الصحي والأراضي منخفضة التكلفة، بالإضافة إلى الجهود الجريئة والقوية لنشر مزايا المستعمرة في "بنسلفانيا"، سرعان ما جذبت إليها المهاجرين من جميع أنحاء أوروبا الغربية.

ومن المفارقات أن الحريات التي كانت متاحة للمهاجرين الأوروبيين في "بنسلفانيا" قد ساهمت في تدهور حرية الآخرين، حيث تناقضت جهود المستعمرة الناجحة لجذب المستوطنين مع سياسة "بن" الخيرية تجاه الهنود، وأدى فتح بنسلفانيا إلى انخفاض فوري في عدد موظفي الخدمة بعقود، الذين فضلوا الإبحار إلى فرجينيا وميريلاند، وهو التطور الذي دفع الكثير من هذه المستعمرات إلى الاعتماد على الرق للحصول على العمالة اللازمة.

أصول الرق الأمريكي

لم تشرع دولة أوروبية، بما في ذلك إنجلترا، في استعمار العالم الجديد بنية الاعتماد على العبيد الأفارقة كأغلبية في قوتها العاملة، ولكن الطلب المستمر على العمال، والناشئ عن انتشار زراعة التبغ قد دفع المزارعين في "تشيزبيك" في النهاية إلى التحول لتجارة العبيد عبر الأطلسي؛ وبالمقارنة مع الخدم بعقود عمل محددة المدة، فقد قدم العبيد للمزارعين العديد من المزايا؛ ونظرًا لأنهم أفارقة، لذلك لا يمكنهم المطالبة بالحماية التي يمنحها القانون العام الإنجليزي، كما أن خدمة العبيد ليست محدودة بمدة معينة ولكنها مفتوحة المدة، ولذلك لم يصبحوا ضمن السكان الجامحين الذين لا يملكون أرضا؛ وعلاوة على ذلك، كان أطفالهم يصبحون أيضًا عبيدًا، كما أن لون بشرتهم جعل هروبهم إلى المجتمع المحيط أكثر صعوبة، كما أنهم على العكس من نظرائهم الأمريكيين الأصليين، كانوا معتادين على العمل الزراعي المكثف، وأخيرًا كانوا أقل عرضة للإصابة بالأوبئة لأنهم قد واجهوا العديد من الأمراض المعروفة في أوروبا، وقد طورت أجسامهم مقاومة لها.

الإنجليز والأفارقة

كان الإنجليز ينظرون منذ زمن طويل للشعوب الأجنبية عنهم بازدراء، بما في ذلك الأيرلنديين، وسكان أمريكا الأصليين، والأفارقة؛ وكانوا يصفونهم بمفردات مثل "برابرة، ومتوحشين، ووثنيين، وغير متحضرين"، وغالبًا ما كانوا يقارنونهم بالحيوانات. لم يتطور مفهوم "العرق" بشكله الحديث بالكامل في القرن السابع عشر - أي فكرة تقسيم البشر إلى مجموعات محددة جيدًا مرتبطة بلون البشرة؛ وبالمثل، لم تترسخ فكرة "العنصرية - وهي الأيديولوجية التي تستند إلى الاعتقاد بأن بعض الأجناس متفوقة بطبيعتها عن الأجناس الأخرى، وبالتالي يحق لها السيطرة عليهم؛ ويُعتَقَد أن الخطوط الرئيسية لتقسيم الإنسانية تتمثل في الحضارة مقابل البربرية أو المسيحية مقابل الوثنية، وليس اللون أو العرق.

مع ذلك، ازدهرت الصور النمطية لمعاداة السود في إنجلترا في القرن السابع عشر. كان يُنظَر إلى الأفارقة بأنهم أشخاص أجانب أغراب عنهم- في اللون والدين والممارسات الاجتماعية- وأنهم "قابلون للاستعباد" بطريقة لا يمكن استعباد الإنجليز الفقراء بها؛ وبالمثل، اعتبر معظم الإنجليز أن الهنود غير متحضرين، ولكن الفرق بين الأفارقة والهنود يتمثل في أن السكان الهنود رفضوا ذلك بسرعة كبيرة، وكان من السهل جدًّا عليهم الهروب نظرًا لدرايتهم بالريف، ولذلك لم تعد عبودية الهنود قابلة للعيش والتطبيق. تم بيع بعض الهنود ضمن التجارة في العبودية في منطقة البحر الكاريبي، ولكن من الصعب استعباد الناس على أرض وطنهم؛ حيث إن العبيد هم

دائمًا تقريبًا الغرباء الذين يتم نقلهم من أماكنهم إلى مواطن أخرى حيث توجد أماكن العمل.

العبودية في التاريخ

لطالما كانت العبودية موجودة عبر تاريخ البشرية برمته، حيث كانت تمثل جزءًا رئيسيًا في المجتمعات القديمة في اليونان وروما. استمر الرق لعدة قرون في شمال أوروبا بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، حيث حافظ الألمان، والقراصنة الإسكندنافيون (فايكنج)، والأنجلو ساكسون على العبودية، بل واستمرت لفترة أطول في عالم البحر الأبيض المتوسط، حيث استمرت تجارة الرقيق في الشعوب السلافية حتى فترة ما في القرن الخامس عشر (الكلمة الإنجليزية للعبودية "مشتقة من "سلاف" وهم مجموعة عرقية لغوية من الهندو- أوروبية وتعيش في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية وجنوب شرق أوروبا وشمال آسيا وآسيا الوسطى، ويتحدثون اللغات السلافية الهندو- أوروبية، ويتقاسمون بدرجات متفاوتة سمات ثقافية وخلفيات تاريخية معينة، وانتشروا منذ أوائل القرن السادس في معظم وسط وشرق أوروبا وجنوب شرق أوروبا). اعتاد القراصنة من الساحل المغربي في شمال إفريقيا بانتظام على خطف المسيحيين من السفن واستعبادهم؛ وكما ورد في الفصل الأول، سبقت العبودية وتجارة العبيد في غرب إفريقيا قدوم الأوروبيين، وكانت العبودية موجودة على نطاق صغير بين الأمريكيين الأصليين، ولكن العبودية في جميع هذه الحالات تقريبًا كانت تختلف كثيرًا عن مؤسسة العبودية التي تم إنشائها في العالم الجديد.

وتركزت العبودية في الأمريكتين في المزارع، وكل منها عبارة عن مؤسسة زراعية تضم أعدادًا كبيرة من العمال تحت سيطرة مالك واحد، وقد أدى عدم التوازن إلى تضخيم إمكانية مقاومة العبودية، وبالتالي أصبح من الضروري مراقبة النظام بشكل صارم، مما شجع بدوره على وضع حدود صارمة بين العبودية والحرية. كان العمل في مزارع العبيد أكثر إرهاقًا بكثير من العبودية في المنازل الشائعة في إفريقيا، وكان معدل الوفيات بين العبيد أعلى بكثير. ارتبطت العبودية في العالم الجديد بالأصل العرقي، وهو المفهوم الذي رسم حدًّا دائمًا بين البيض والسود؛ وخلافًا لما حدث في إفريقيا، كان العبيد يحملون دائمًا معهم في لون بشرتهم علامة العبودية حتى بعد أن يصبحوا أحرارا، وهي العلامة التي تشير إلى عدم اعتبارهم غير جديرين بالعيش في مجتمع حر.

العبودية في جزر الهند الغربية

لقد كان شعور الأفارقة بالغربة والدونية سببًا في جعل استعبادهم من قبل الإنجليز أمرًا ممكنًا، ولكن الظلم في حد ذاته لم يخلق العبودية في أمريكا الشمالية. كان لزامًا لترسيخ نظام هذه

المؤسسة أن يقتنع المزارعون والسلطات الحكومية بأن استيراد العبيد الأفارقة هو أفضل وسيلة لحل مشكلة النقص المستمر في اليد العاملة، وأصبح شحن العبيد خلال القرن السابع عشر من أفريقيا إلى العالم الجديد من الأعمال التجارية الدولية الرئيسية، ولكن تم آنذاك نقل حفنة قليلة نسبيًا فقط إلى البر الرئيسي بمستعمرات إنجلترا. في الوقت الذي أصبحت فيه مزارع العبودية سمة رئيسية من سمات الحياة في أمريكا الشمالية الإنجليزية، كانت العبودية قد تأصلت وترسخت بالفعل بشكل جيد في مكان آخر في نصف الكرة الغربي، فبحلول عام 1600 ظهرت في مستعمرة برتغالية بالبرازيل مزارع قصب السكر الضخمة التي يعمل فيها العبيد القادمون من إفريقيا، وانضمت في القرن السابع عشر إنجلترا، وهولندا، والدنمارك، وفرنسا إلى إسبانيا كمالكين للجزر الهندية الغربية. فاق عدد المهاجرين الإنجليز إلى جزر الهند الغربية عدد المهاجرين الإنجليز إلى أمريكا الشمالية في الجزء الأول من القرن السابع عشر، حيث تجاوز عدد السكان الإنجليز في جزر الهند الغربية في عام 1650 عدد السكان الإنجليز في كل أمريكا الشمالية؛ وبصفة عامة، أنشأ المستوطنون الأوائل اقتصادات مختلطة من خلال المزارع الصغيرة التي يعمل فيها الخدم البيض بالتعاقد لمدة معينة، ولكن مع استيلاء مزارعي السكر على أفضل الأراضي، أجبروا المزارعين البيض على مغادرة الجزر واحدة تلو الأخرى. كان الخدم البيض ساخطين كما هو حالهم في أماكن أخرى، وعندما هاجمت البعثة الإسبانية الجزيرة البريطانية "نيفيس" في عام 1629، انضم إليهم الخدم البيض في الميليشيات المحلية وهم يهتفون "الحرية، الحرية التي تبعث على البهجة!"

مع هلاك السكان الهنود بسبب المرض، ومع عدم رغبة موظفي الخدمة بالسخرة البيض في القيام بالعمل الرتيب الشاق في مزارع السكر، بدأ استيراد أعدادًا هائلة من العبيد من إفريقيا، فعلى سبيل المثال، كانت "بربادوس"، وهي جزيرة صغيرة تملكها إنجلترا، موطنًا لحوالي 11.000 من المزارعين البيض وموظفي الخدمة بعقود و5.000 من العبيد، ومع تكثف زراعة السكر فيها، اتجه المزارعون على نحو متزايد إلى استخدام العبيد كمصدر رئيسي للعمالة، إلى أن قفز عدد سكانها بحلول عام 1660 إلى 40.000 نسمة، نصفهم من الأوروبيين والنصف الآخر من الأفارقة، ثم ارتفع عدد الرقيق إلى 82.000 عبد بعد عشر سنوات يتركزون في حوالي 750 مزرعة للسكر، في الوقت الذي ظل في عدد السكان البيض كما هو. هيمنت مزارع قصب السكر الضخمة بحلول نهاية القرن السابع عشر على اقتصاد جزر الهند الغربية، وكان يعمل بها مئات من العبيد، وكان عدد السكان الأفارقة في معظم الجزر يفوق بكثير عدد السكان من أصل أوروبي.

كان السكر هو المحصول الأول الذي يتم تسويقه على نحو ضخم للمستهلكين في أوروبا، حيث كانت التجارة الدولية قبل ظهوره تضم إلى حد كبير المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة

والسلع الفاخرة التي تستهدف سوق النخبة، مثل التوابل والحرير المستوردين من آسيا. كان السكر أهم منتج إلى حد بعيد بالنسبة للإمبراطوريات البريطانية، والفرنسية، والبرتغالية، وحققت مزارع قصب السكر في العالم الجديد أرباحًا طائلةً للمزارعين، والتجار، والحكومات الإمبريالية، على سبيل المثال، كانت "سان دومينيك"، التي تقع في موقع هايتي حاليًا، تمثل جوهرة الإمبراطورية الفرنسية، وحققت "بربادوس" في عام 1660 معدل تجارة يفوق كل المستعمرات الإنجليزية الأخرى مجتمعة.

وبالمقارنة مع دخول العبودية في البرازيل وجزر الهند الغربية، فقد دخلت وتطورت ببطء في أمريكا الشمالية، ويرجع ذلك إلى أن تكلفة نقل العبيد كانت تفوق تكلفة موظفي الخدمة بعقود، ولارتفاع معدل الوفيات بين عمال التبغ، وبالتالي أصبح من غير الجاذب اقتصاديًا استيراد العبيد ودفع المقابل لمدى الحياة للعمل؛ ونتيجة لذلك، شَكَّلَ الموظفون بالسخرة القادمين من إنجلترا العمود الفقري للقوى العاملة في "تشيزبيك" لعقود من الزمن، وظل عدد العاملين الأفارقة صغيرا، حيث لم يكن هناك سوى 4.500 من السود في "تشيزبيك" في نهاية عام 1680، أي ما يزيد قليلاً عن 5 في المائة من سكان المنطقة. لم يكن التمايز الاجتماعي هو الأكثر أهمية في القرن السابع عشر في "تشيزبيك" بين البيض والسود، ولكن بين أصحاب المزارع البيض الذين هيمنوا على السياسة والمجتمع من ناحية، والجميع من صغار المزارعين وموظفي الخدمة بعقود والعبيد من ناحية أخرى.

العبودية والقانون

كانت إسبانيا قد سنت في "لاس سيات"، قبل رحلات كولومبوس بقرون، سلسلة من القوانين تمنح العبيد بعض الحقوق المتعلقة بالزواج، وحيازة الملكية، والحصول على الحرية، وقد انتقلت هذه القوانين إلى إمبراطورية إسبانيا الأمريكية، حتى وإن تعرضت هذه الحقوق لانتهاكات في كثير من الأحيان، إلا أنها أعطت العبيد فرصًا للمطالبة بالحقوق المنصوص عليها في القانون؛ وعلاوة على ذلك، كانت الكنيسة الكاثوليكية غالبًا تشجع الأسياد على تحرير العبيد الذين يملكونهم؛ وقد أصبح قانون العبودية في أمريكا الشمالية الإنجليزية أكثر قمعًا بكثير مما كان عليه في الإمبراطورية الإسبانية، وبخاصة حول القضية الأكثر أهمية المتعلقة بما إذا كان هناك أي سبل أمام العبيد للحصول على الحرية.

ومع ذلك، ظل الوضع القانوني للسود الباقين في "تشيزبيك" غامضًا طوال جزء كبير من القرن السابع عشر، وأصبح الخط الفاصل بين العبودية والحرية أكثر نفاذية مما أصبح عليه في وقت لاحق؛ ووصلت أول دفعة من الأفارقة، وعددهم عشرين، إلى "فرجينيا" في عام 1619،

حينما استولى عليهم القراصنة البريطانيون الذين أبحروا تحت العلم الهولندي، بينما كانوا في سفينة برتغالية تحمل العبيد من أنجولا على الساحل الجنوبي الغربي لإفريقيا إلى ما هو معروف في العصر الحديث باسم المكسيك؛ ثم تلى ذلك وصول أعداد صغيرة في السنوات اللاحقة؛ على الرغم من أنه تم معاملة الدفعات الأولى من السود بالتأكيد تقريبًا كعبيد، إلا أنه يبدو أن البعض على الأقل قد تمكن من التحرر بعد الخدمة لمدة معينة من السنوات؛ ولا ريب أن التمييز العنصري قد تم إقراره بالقانون منذ البداية، ففي أوائل العشرينيات من القرن السابع عشر منع القانون السود من الخدمة في ميليشيات "فرجينيا"، وعاقبت الحكومة العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج بين الأفارقة والأوروبيين بشدة أكبر من نفس الأفعال بين البيض. تم فرض جزية (ضريبة مفروضة على الأفراد) في عام 1643 على النساء الإفريقيات، ولكن ليس على النساء البيض. بالرغم من ذلك، كان السود الأحرار في كل من "فرجينيا" و"ميريلاند" يستطيعون المقاضاة والشهادة في المحكمة، بل واستطاع البعض منهن الحصول على الأراضي وشراء الخدم البيض أو العبيد الأفارقة. من غير المعروف بالضبط كيف أن "أنطوني جونسون"، الذي يبدو أنه وصل إلى "فرجينيا" كعبد في العشرينيات من القرن السابع عشر قد حصل على حريته، بل أنه أصبح مالكًا لعبيد وعدة مئات من الأفدنة من الأرض على الشاطئ الشرقي في ولاية فرجينيا بحلول الأربعينيات من القرن السابع عشر. عمل السود والبيض جنبًا إلى جنب عملاً شاقًا في حقول التبغ، وهربوا معًا بعيدًا في بعض الأحيان، وأنشأوا علاقات حميمة بين بعضهم البعض.

نشأة العبودية في "تشيزبيك"

تبدو الأدلة على احتجاز السود كعبيد مدى الحياة واضحة في السجل التاريخي للأربعينيات من القرن السابع عشر، ففي سجلات الممتلكات، على سبيل المثال، قائمة بالموظفين البيض بعقود السخرة، وعدد سنوات العمل المفروضة عليهم، في حين تُظْهر قوائم السود معدلات زمنية أعلى، ولكن ليس هناك تحديد لمدة الخدمة أمام أسمائهم. بيد أن قوانين فرجينيا لم تشر صراحةً إلى العبودية حتى الستينيات من القرن السابع عشر. مع انتشار زرع التبغ وزيادة الطلب على العمالة، تباينت الظروف بين العاملين البيض والسود بشكل حاد، فبينما سعت السلطات إلى تحسين وضع الخدم البيض، في محاولة لمواجهة الانطباع واسع النطاق في إنجلترا بأن "فرجينيا" تمثل فخًا للموت، انحسرت فرص حصول السود على الحرية في نفس الوقت.

نص قانون "فرجينيا" لعام 1662 على أنه في حالة الطفل الذي يكون أحد الآباء حرًا والآخر عبدًا، يكون وضع النسل من الحرية والعبودية وفقًا لوضع الأم (لم يقتصر هذا النص على عكس العرف الأوروبي الذي يحدد وضع الطفل وفقًا لوضع الأب، ولكنه جعل الاعتداء

الجنسي لمالك العبيد على النساء الرقيق لديه لصالحه، نظرًا لأن أي أطفال تنتج عن هذه العلاقة سيكونون عبيدًا ملكًا له دون حتى أن يدفع في مقابلهم أي ثمن) . أصدر "بيت المواطنين" في فيرجينيا مرسومًا في عام 1667 يقضي بأن التحول الديني لا يقضي بإطلاق سراح العبد من العبودية، وبالتالي يستطيع المسيحيون تملك مسيحيين آخرين كعبيد؛ وعلاوة على ذلك، سعت السلطات إلى منع نمو السكان السود الأحرار من خلال النص على أن الذرية الناتجة عن العلاقات بين الأعراق غير شرعية، ومعاقبة النساء البيض اللاتي يحملن أطفال من الرجال السود عقابًا شديدا، وحظر تحرير أي من الرقيق إلا بشرط نقلهم بعيدًا عن المستعمرة. بالرغم من أن عدد السكان السود كان لا يزال صغيرا، إلا أن مفاهيم الفروق العنصرية كانت متأصلة في القانون بحلول عام 1680. كتب أحد المعاصرين في إمبراطورية إنجلترا الأمريكية قائلاً، "أصبحت هاتان الكلمتان ["الزنجي" و "الرقيق"] في العرف متجانستين ومترادفتين، وعلى عكس الإمبراطورية الإسبانية فإنه ليس هناك في أمريكا الشمالية البريطانية مُلونين (أبناء لأبوين أحدهما أبيض والآخر أسود) أو لجنس مختلط، ولكن توجد الطبقية حيث يعامل القانون جميع ذرية الأفارقة باعتبارهم سودًا".

تمرد "بيكون": الأرض والعمالة في "فرجينيا"

تسارع تحول "فرجينيا" من موظفي الخدمة بعقود البيض إلى العبيد الأفارقة للعمل في المزارع بعد تمرد "بيكون" في عام 1676، والذي يُعَدُّ أحد أكثر المواجهات إثارة للاهتمام في هذه الحقبة. انتهج الحاكم "وليام بيركلي" نظامًا فاسدًا لمدة ثلاثين عامًا بالتحالف مع دائرة داخلية من أغنى مزارعي التبغ بالمستعمرة، حيث كان يكافئ أتباعه بمنحهم الأراضي والمناصب المربحة؛ ولم يستفد من ازدهار زراعة التبغ في "فرجينيا" في البداية أصحاب المزارع الكبيرة، ولكن استفاد أيضًا صغار المزارعين وبعضهم كان من الموظفين بالسخرة، بعد أن أنهوا مدة عقدهم وحصلوا على مزارع، ولكن مع انتشار زراعة التبغ في الداخل حصل المزارعون المقربون من الحاكم على أفضل الأراضي، وتركوا لعمال السخرة الذين تم تحريرهم مع خيار واحد يتمثل في العمل كمستأجرين أو الانتقال إلى الحدود (وهم يمثلون نسبة متزايدة من السكان، لأن معدل الوفيات في "فرجينيا" لم يبدأ في الانخفاض إلا مؤخرا). في الوقت نفسه، أدت الضرائب الباهظة على التبغ وهبوط أسعاره بسبب زيادة الإنتاج إلى تخفيض توقعات وآمال صغار المزارعين. وصلت معدلات الفقر بين المستعمرين البيض بحلول السبعينيات من القرن السابع عشر إلى مستويات تُذكرهُم بالفقر الذي فروا بسببه من إنجلترا؛ وبالإضافة إلى ذلك، تم قصر الحق في التصويت على ملاك الأراضي في عام 1670، بعد أن كان يتمتع به جميع الرجال البالغين. احتفظ الحاكم "بيركلي"

بعلاقات سلمية مع المتبقين من السكان الأصليين في "فرجينيا"، وقد أثار رفضه للسماح للمستعمرين البيض بامتلاك المناطق المحفوظة للهنود غضب كثير من المستعمرين المتعطشين للأرض.

وقد تم توجيه الاتهام لأحد الخدم بعقود محددة المدة في "فرجينيا"، مع بداية عام 1661، بالتخطيط لانتفاضة بين هؤلاء "الذين يطمعون في الحرية والتحرر من العبودية". اندلعت بعد خمسة عشر عامًا توترات اجتماعية جياشة استمرت زمنًا طويلاً إلى جانب استياء واسع النطاق ضد ظلم حكم "بيركلي" وهو ما سُمِيَ "تمرد بيكون". وقد انطلقت الشرارة بمواجهة طفيفة بين الهنود والمستعمرين على الحدود الغربية "لفرجينيا"، طالب المستوطنون على أثرها من الحاكم بأن يأذن بإبادة أو إزالة الهنود بالمستعمرة، من أجل إتاحة المزيد من الأراضي للبيض، ولكن "بيركلي" رفض ذلك خوفًا من نشوب حرب شاملة، وللحفاظ على فائدة التجارة مع الهنود في جلود الغزلان، ولكن سرعان ما اندلعت انتفاضة وخرجت عن نطاق السيطرة، حيث بدأت بسلسلة من المجازر ضد الهنود، ثم تطورت بسرعة إلى تمرد كامل ضد "بيركلي" ونظام حكمه.

كان تمرد "بيكون" إلى حد ما يمثل صراعًا بين نخب "فرجينيا"، حيث كان الزعيم "ناثانيل بيكون" - صاحب مزارع غني وطموح وكان قد وصل إلى "فرجينيا" في عام 1673 - يزدري زمرة "بيركلي"، ووصفهم بأنهم "رجال ذوي تعليم متدني ووظائف وضيعة". شمل مؤيدو "بيكون" رجال ذوي ثروات وخارج دائرة المقربين للحاكم، ولكن دعوته للتخلص من جميع الهنود من المستعمرة، والحد من الضرائب في فترات الركود الاقتصادي، وإنهاء حكم "النبلاء" سرعان ما أكسبته مؤيدين من صغار المزارعين والرجال الذين لا يملكون أرضًا وموظفي الخدمة بعقود، وحتى بعض الأفارقة. تألف الجزء الأكبر من جيشه من الرجال الساخطين الذين كانوا قد أنهوا مؤخرًا عقود الخدمة بالسخرة.

نهاية التمرد ونتائجه

وعد "بيكون" جميع من ينضم لصفوفه بالحرية (بما في ذلك الحصول على الأراضي الهندية). استدعى أنصاره تقليد "الحريات الإنجليزية"، وتحدثوا عن "سرقة" و"غش" الطبقات العليا في المجتمع للفقراء. حشد "بيكون" قوة مسلحة في عام 1676 لشن حملة غير مشروعة وغير متجانسة ضد من أسماهم "الهنود المفضلين المحميين من قبل الحاكم"، ورفض أمر "بيركلي" بتسريح قواته وسار إلى "جيمس تاون" وحرقها حتى سواها بالأرض، وفر الحاكم وأصبح "بيكون" حاكمًا "لفرجينيا". نهبت قواته عقارات أنصار "بيركلي" ولم يتم استعادة النظام والأمن إلا مع وصول سريَّة عسكرية من السفن الحربية من إنجلترا، حيث قضوا على تمرد "بيكون" وتم شنق ثلاثة وعشرين من أنصاره (أما "بيكون" فقد مَرِضَ وتوفي بعد وقت قصير بعد رحيل "بيركلي").

وقد هدد شبح نشوب حرب أهلية بين البيض بدرجة كبيرة النخبة الحاكمة في فرجينيا، ولذلك اتخذوا خطوات جذرية لتوطيد سلطتهم وتحسين صورهم، حيث استعادوا شروط مؤهلات الملكية التي تُخول للمستعمرين حق التصويت، والتي كان بيكون قد ألغاها. انتهج المزارعون في نفس الوقت نمطًا سياسيًا جديدًا يقضي بترسيخ دعم الجيران الأكثر فقرا، وخفضت السلطات الضرائب واعتمدت سياسة أكثر عدوانية مع الهنود، وفتحوا المناطق الغربية لصغار المزارعين الذين ازدهر بعضهم بعد ارتفاع أسعار التبغ بعد عام 1680؛ ومن أجل تجنب المزيد من السكان المتمردين من موظفي الخدمة بعقود المعدمين، سارعت السلطات في فرجينيا بالتحول إلى استخدام العبيد (الذين لن يصبحوا أحرارًا أبدا) في العمل في مزارع التبغ، ومع خفض فرجينيا لعدد موظفي الخدمة بعقود، قامت السلطات في فرجينيا بتعديل مستحقاتهم من الأرض، بعد حصولهم على الحرية بعد اكتمال مدة عقد عملهم، إلى خمسين فدانًا من الأراضي.

مجتمع من العبيد

بدأت العمالة من العبيد تحل محل العمل بعقود عمل محددة المدة في مزارع مستعمرة تشيزبيك في الفترة ما بين عامي 1680 و1700. لم يكن تمرد بيكون سوى أحد العوامل التي ساهمت في هذا التطور، حيث أصبح شراء العمال لمدى الحياة أكثر توفيرًا من الناحية الاقتصادية، مع بدء معدل الوفيات في الانخفاض أخيرا؛ وثمة عوامل أدت إلى جذب الآخرين الذين كانوا لا يزالون يريدون الهجرة إلى أمريكا، مثل تحسن الأوضاع في إنجلترا، وبالتالي خفض عدد المهاجرين الإنجليز عبر المحيط الأطلسي، وافتتاح بنسلفانيا حيث كان الحصول على الأراضي قد أصبح سهلا؛ وأخيرًا، أدى إنهاء احتكار شركة رويال إفريقيا لتجارة الرقيق الإنجليزية إلى فتح الباب أمام التجار الآخرين وخفض سعر العبيد الأفارقة المستوردين.

شَكَّلَ السود أكثر من 10 في المائة من السكان في فرجينيا بحلول عام 1700، وشكلوا ما يقرب من نصف السكان بعد خمسين سنة؛ واعترافًا بالأهمية المتنامية للعبودية، أقر بيت المواطنين في عام 1705 تشريعًا جديدًا يجمع بين تشريعات متناثرة من القرن الماضي، وإضافة أحكامًا جديدة تدمج بشكل أصيل سيادة البيض أمام القانون. كان العبيد بمثابة ممتلكات خاضعة تمامًا لإرادة أسيادهم، وبشكل أعم خاضعةً تمامًا لمجتمع البيض، حيث يمكن شرائهم وبيعهم وتأجيرهم والتنازع عليهم في المحكمة وتوارثهم عبر الأجيال، وتم من ذلك الوقت فصاعدًا الفصل بين السود والبيض في المحاكم، فلكل منهم محاكم منفصلة، ولا يستطيع السود سواء كانوا عبيدًا أم أحرارًا امتلاك أسلحة، أو ضرب رجل أبيض، أو توظيف رجل أبيض لديهم، ويستطيع أي شخص أبيض القبض على أي أسود لمطالبته بشهادة تثبت حريته، أو إذن من سيده بالابتعاد عن

المزارع. تغيرت "فرجينيا" من "مجتمع به عبيد"، حيث كانت العبودية مجرد أحد نظم العمل من بين نظم أخرى، إلى "مجتمع العبيد" حيث احتلت العبودية مركز العملية الاقتصادية.

أفكار حول الحرية

تقاسم الأوروبيون والأمريكيون الأصليون والأفارقة شعورًا واحدًا وهو الخوف من الاستعباد؛ فقد هرب العبيد على مر التاريخ أو قاوموا العبودية بطرق أخرى؛ ولقد فعلوا الشيء نفسه في مستعمرة "تشيزبيك". حفلت الصحف الاستعمارية بالإعلان عن العبيد الهاربين، ووصفت مظهرهم ومهاراتهم مع تعليقات مثل "هرب دون أي سبب" أو "لديه أفكار كبيرة عن الحرية". كان بعض السود، الذين تم جلبهم إلى المنطقة خلال القرن السابع عشر، عبارة عن النسل الناتج عن الاختلاط بين التجار الأوروبيين والأفارقة على الساحل الغربي من إفريقيا أو في منطقة البحر الكاريبي، حيث كانوا مطلعين على الثقافة الأوروبية ويتقنون اللغة الإنجليزية، وكانت لديهم الرغبة في المجيء إلى المستعمرات ليتمتعوا بالنظام القانوني الاستعماري، الذي يتضمن سبلاً للحصول على الحرية، حيث ظهر السود في المحكمة خلال القرن السابع عشر مطالبين بحريتهم على أساس تحولهم للمسيحية في البداية، أو على أساس أن الأب ينتمي للعنصر الأبيض. كان هذا أحد الأسباب وراء إغلاق "فرجينيا" لهذه المسارات في الحصول على الحرية في الستينيات من القرن السابع عشر، ورغم تراجع السبل القانونية في الحرية، فإن الرغبة في الحصول على الحرية لم تتراجع؛ وبعد قمع مؤامرة أحد العبيد في عام 1709، حذر حاكم "فرجينيا" "الكسندر إسبوتسوود" المزارعين بضرورة توخي الحذر، وذكّرهم بأن الرغبة في الحرية "يمكنها أن تجمع كل أولئك الذين يتوقون للتخلص من أغلال العبودية".

المستعمرات في أزمة

تزامنت حرب الملك "فيليب" في عام 1675 وتمرد "بيكون" في العام التالي مع الاضطرابات في المستعمرات الأخرى، ففي مستعمرة "ميريلاند" قصر مالكها اللورد "بالتيمور"، فجأة في عام 1670، حق التصويت على الأشخاص الذين يملكون خمسين فدانًا من الأراضي، أو من لديه قدر معين من الممتلكات الشخصية، مما دفع البروتستانت إلى الانتفاض للإطاحة بحكومته واستعادة حق الاقتراع لجميع الأحرار ولكن دون جدوى. أما في العديد من المستعمرات الأخرى، فقد أدت زيادة الاستيطان على الحدود إلى إثارة تحفظ مقاومة الهنود، وتم قمع تمرد هنود "ويستو" في "كارولينا" في عام 1680. أثبتت ثورة "بويبلو"، التي اندلعت في نفس العام (سبق مناقشتها في الفصل الأول) أن أزمة السلطة الاستعمارية لم تقتصر على الإمبراطورية البريطانية.

الثورة المجيدة

وجدت الاضطرابات الجارية في إنجلترا أصداءً لها في المستعمرات أيضا؛ ووصل النضال الطويل بين البرلمان والتاج من أجل الهيمنة على الحكومة الإنجليزية إلى ذروته مع الثورة المجيدة في عام 1688، التي منحت البرلمان الهيمنة مرة واحدة وإلى الأبد، وأمنت خلافة البروتستانت على العرش. أكد وعزز البرلمان من سلطته في عهد "تشارلز الثاني" في تشكيل السياسة الوطنية، ووسع من سيطرته على الشئون المالية، وكان له نفوذ في الشئون الخارجية، واستبعد من السياسة والسلطة الدينية كل من الكاثوليك والمنشقين (البروتستانت الذين ينتمون إلى طائفة أخرى غير الكنيسة الإنجيلية الرسمية).

عندما توفي تشارلز في عام 1685، خلفه شقيقه جيمس الثاني (دوق يورك سابقًا)، وهو كاثوليكي متدين ويؤمن بأن الملوك يحكموا بالحق الإلهي. أصدر "جيمس" في عام 1687 مرسومًا بقانون التسامح الديني لكل من المنشقين البروتستانت والكاثوليك. أثارت ولادة ابن "جيمس" في العام التالي احتمال الخلافة الكاثوليكية، مما أثار قلق أولئك الذين كانوا يساوون بين "البابوية" والطغيان. أرسلت مجموعة من الأرستقراطيين الإنجليز إلى النبيل الهولندي "وليام أورانج"، زوج ابنة جيمس البروتستانتية "ماري" لتولي العرش باسم الحريات الإنجليزية. وصل "وليام أورانج" إلى إنجلترا في نوفمبر (تشرين الثاني) 1688 على رأس جيش يضم 21.000 من الرجال، ثلثيهم من الهولنديين؛ ومع احتشاد النخبة أصحاب الأراضي وقادة الكنيسة الإنجيلية في صف "وليام"، فر "جيمس الثاني" هاربًا واكتملت الثورة.

على عكس الاضطرابات الاجتماعية الواسعة التي ميزت الحرب الأهلية الإنجليزية خلال الأربعينيات من القرن السابع عشر، كانت الثورة المجيدة في الحقيقة انقلابًا خططت له مجموعة صغيرة من الأرستقراطيين في تحالف مع أمير هولندي طموح. لم يكن لديهم نية لمواجهة المؤسسة المَلَكِيَّة، لكن الإطاحة "بجيمس الثاني" رسخت أكثر من أي وقت مضى مفهوم الحرية الذي كان حقًّا مكتسبًا لجميع الإنجليز، وكان الملك يخضع لسيادة القانون؛ ومن أجل تبرير الإطاحة "بجيمس الثاني"، أصدر البرلمان في عام 1689 مرسومًا بقانون الحقوق الذي أدرج السلطات البرلمانية، مثل السيطرة على الضرائب وكذلك حقوق الأفراد، بما في ذلك المحاكمة أمام هيئة محلفين. كانت هذه هي الحقوق والحريات "القديمة" و"الأكيدة التي لا شك فيها. . ." لجميع الإنجليز. أجاز قانون التسامح الصادر في العام التالي للمنشقين البروتستانت (ولكن ليس الكاثوليك) حرية العبادة، على الرغم من أن الإنجيليين كانوا فقط هم الذين يمكنهم شغل الوظائف العامة.

كما هو الحال دائمًا، انعكست السياسة البريطانية في البلد الأم على المستعمرات الأمريكية.

شهدت الفترة ما بين الستينيات إلى الثمانينيات من القرن السابع عشر تناميًا في التسامح الديني في كلا المنطقتين، وتلى ذلك فترة من الرقابة والهيمنة الدينية الصارمة بمجرد أن أصبح "وليام أوف أورانج) البروتستانتي ملكا؛ وفي الحقيقة، لقد هيمن الحكم البروتستانتي على معظم المستعمرات بعد الثورة المجيدة، وما صاحبه من إنشاء كنائس إنجلترا (الإنجيلية) وكنائس اسكتلندا (المشيخية البروتستانتية) بمعدل أسرع، بينما عانى المنشقون الكاثوليك من أشكال مختلفة من التمييز؛ وعلى الرغم من لغة نظام الحكم الجديد المفعمة بالحرية، إلا أن الحرية الدينية كانت أكثر تقدمًا في بعض المستعمرات الأمريكية مثل "رود آيلاند" و"بنسلفانيا" و"كارولينا" مما كانت عليه في إنجلترا؛ ومع ذلك، عززت الثورة المجيدة بقوة بين المستعمرين في كل أنحاء أمريكا الإنجليزية الشعور بتقاسم تركة تبعث على الفخر من الحرية والبروتستانتية مع الوطن الأم.

الثورة المجيدة في أمريكا

كشفت الثورة المجيدة معالم الخطأ في المجتمع الاستعماري، ومنحت النخب المحلية الفرصة لاستعادة السلطة التي تعرضت مؤخرًا للتحدي والمواجهة. كانت المستعمرات في أمريكا الشمالية تحكم نفسها بشكل أساسي مع التدخل قليلاً من جانب إنجلترا حتى منتصف السبعينيات من القرن السابع عشر. أدار الحاكم "بيركلي" فرجينيا وفقًا لما كان يراه مناسبا؛ وحكم مُلاك كل من مستعمرات نيويورك، وميريلاند، وكارولينا بأي أسلوب استطاعوا إقناع المستعمرين بقبوله؛ وكانت مستعمرات "نيو إنجلاند" تنتخب المسئولين بها وتستهزأ علنًا بقواعد التجارة. أنشأت إنجلترا "مجلس لوردات التجارة" في عام 1675 للإشراف على الشئون الاستعمارية؛ وقد استجوب هذا المجلس بعد ثلاث سنوات حكومة ماساتشوستس حول امتثالها لقوانين الملاحة، وكان الرد الذي تلقوه مفاجئًا، ومفاده أنه نظرًا لأن المستعمرة غير مُمثَّلَة في البرلمان الإنجليزي، لذلك فإن القوانين لا تنطبق عليها، ما لم تقرها المحكمة العامة في ماساتشوستس.

تحركت إنجلترا في الثمانينيات من القرن السابع عشر للحد من استقلالية المستعمرات، وسرعان ما ألغى "تشارلز الثاني" قبل وفاته امتياز "ماساتشوستس" نظرًا لانتهاكها الكامل لقوانين الملاحة. قام "جيمس الثاني" خلال الفترة ما بين عامي 1686 و1688 بضم "كونيتيكت"، و"بليموث"، و"ماساشوستس"، و"نيو هامبشاير"، و"رود آيلاند"، و"نيويورك"، و"شرق وغرب جيرسي" في مستعمرة واحدة كبيرة تحت اسم اتحاد "نيو إنجلاند" أو "دومينيون نيو إنجلاند"، أملاً في جمع المزيد من المال من أمريكا من أجل تقليل اعتماده على البرلمان، وعَيَّن عليها حاكم نيويورك السابق السير "أدموند اندروس"، الذي لم يكن مضطرًا للرد على أي استجوابات أمام أي مجالس منتخبة. عززت هذه الأحداث الشعور بأن "جيمس الثاني" كان عدوًا للحرية. أدت أعمال "أندروس" في "نيو انجلاند" إلى

نفور تقريبًا كل من لا يعتمد على إدارته للحصول على مزايا، وقام بتعيين مسئولين محليين بـدلاً من المنتخبين، وفرض الضرائب دون موافقة النواب المنتخبين، وألغى منح الأراضـي الـتي سـبق أن تم الموافقة عليها، ما لم يقرها هو شخصيًا، وفرض التسامح الديني لجميع البروتـستانت؛ وقـد هدد حكمه كل من الحريات الإنجليزية والعلاقة بين الكنيسة والدولة، وهمـا العنـصران اللـذان يحتلان موضع القلب في المذهب التطهري.

انتفاضة ميريلاند

أشعل خبر الإطاحـة بـ"جيمس الثـاني" في عـام 1689 حركـات التمـرد في عـدة مـستعمرات أمريكية. اعتقلت ميليشيات بوسطن في إبريل (نيسان) من ذلـك العـام علـى "أدمونـد أنـدروس" ومسئولين آخرين وسجنتهم، بينما أعادت مستعمرات "نيو إنجلانـد" الحكومـات الـتي كانـت قـد أُلغِيَت بعد تشكيل سيادة مستقلة لمستعمرة "نيـو إنجلانـد" باسـم "دومنيـون نيـو إنجلانـد". شَـكَّلت ميليشيات متمردة برئاسة النقيب "جاكوب ليسلر" في مايو (آيـار) "لجنـة الـسلامة" وسـيطرت علـى نيويـورك، وبعـد شـهرين أطاحـت "جمعيـة ميريلانـد البروتـستانتية" بحكومـة مالـك المـستعمرة الكاثوليكي اللورد "بالتيمور".

كانت تَدَّعي كل هذه الأنظمة الجديدة أنها تتصرف باسم الحريات الإنجليزية، وكانت تسعى للحصول على موافقة لندن، ولكن تفاوتت درجات نجاح هذه الانقلابات بشكل ملحوظ. كـان متمردو ميريلاند أكثر المتمردين نجاحا، حيـث توصـلوا إلى أن اللـورد "بـالتيمور" قـد أسـاء إدارة المستعمرة، مما جعل الملك "وليام" يلغي الامتياز (بالرغم من أن صاحب الامتيـاز احـتفظ بأرضـه وبحق الحصول على الإيجار) وأنشأ حكومة جديدة يهيمن عليها البروتستانت. احتفظ الكاثوليك بالحق في ممارسة شعائرهم الدينية، ولكنهم مُنِعُوا حق التصويت وحـق تـولي الوظـائف العامـة. استعادت عائلة "بالتيمور" حقوق الملكية في عـام 1715 بعـد تحولهـا إلى الإنجيليـة، إلا أن أحـداث 1689 قد غَيَّرت المجموعة الحاكمة في ولاية ميريلاند، ووضعت نهاية لتاريخ المستعمرة المتفـرد في التسامح الديني.

تمرد "ليسلر"

كانت النتيجة في نيويورك مختلفة بدرجة كبيرة؛ حيث كان "ليسلر"، الألماني المولـد، هـو أحـد أغنى التجار في المدينة ومن أتباع الكلفينية المتحمسين (نسبة إلى جون كالفن، وهو مذهب يؤكـد على القدرة الكلِّية لله والخلاص للمصطفين بنعمة الله وحده)، يخشى أن تكـون لـدى "جـيمس الثاني" نية تقليص إنجلترا وإمبراطوريتها إلى مجرد "بابوية وعبودية". قَسَّمَ نظام "ليسلر" المـستعمرة إلى

طوائف اقتصادية وعرقية، على الرغم من أنه لم يكن ينوي ذلك. انتهز الأعضاء الهولنديون، الذين كانوا يمثلون أغلبية، الفرصة لاستعادة السلطة المحلية الفعالة للهولنديين بعد أكثر من عقدين من الزمن تحت الحكم الإنجليزي، في حين نهبت عصابات من المتمردين بيوت الأثرياء من سكان نيويورك.احتج المستعمرون الإنجليز البارزون، وانضم لهم بعض التجار الهولنديين الأثرياء وتجار الفرو، أمام السلطات في لندن قائلين إن "ليسلر" طاغية. رفض "وليم" الاعتراف بسلطة "ليسلر"، وأرسل حاكمًا جديدًا مدعومًا بالقوات، وتعرض العديد من أتباع "ليسلر" للسجن، أما هو فقد أُدين وحُكِمَ عليه بالإعدام، حيث تم شنقه ثم قُطِعَت رأسه وقُطِعَ جسمه إلى أربعة أجزاء؛ وقد عكست هذه الطريقة المروعة في قتل "ليسلر" مدى عمق الكراهية التي أظهرها هذا التمرد، وقد أدى التنافس بين الأحزاب الموالية "لليسلر" وتلك المعادية له إلى استقطاب العمل السياسي في نيويورك على مدار أجيال.

التغيرات في "نيو إنجلاند"

ضغطت مستعمرات "نيو إنجلاند" بقوة في لندن من أجل استعادة امتيازاتها الأصلية، بعد عزل "أدموند اندروس" ونجح معظمها في تحقيق ذلك، ولكن "ماساتشوستس" لم تستطع، حيث أصدر النظام الملكي الحاكم في عام 1691 ميثاق جديد ضم من خلاله "بليماوث" إلى "ماساشوستس"، وحولت النظام السياسي لرابطة الكتاب المقدس، حيث بقيت حكومة البلدة متماسكة، إلا أن شرط التصويت في الانتخابات للمحكمة العامة، من الآن فصاعدًا، أصبح الملكية للأراضي، وليس العضوية بالكنيسة، وأصبح يتم تعيين الحاكم آنذاك من لندن بدلاً من انتخابه في المستعمرة، وهكذا أصبحت "ماساتشوستس" مستعمرة ملكية ولم تعد الغالبية العظمى من الناخبين فيها من "القديسين" التطهريين؛ وعلاوة على ذلك، كان مطلوبًا منها أن تلتزم بقانون التسامح الإنجليزي لعام 1690- أي السماح لجميع البروتستانت في العبادة بحرية. استفاد غير البروتستانت من التجار وملاك الأراضي الواسعة إلى حد كبير من زوال أسلوب الحياة الخاص "بنيو إنجلاند" الذين جاءوا للهيمنة على الحكومة الجديدة.

أفرزت هذه الأحداث مناخًا في "ماساشوستس" يسوده التوتر، وزاد من تفاقمه غارات القوات الفرنسية وحلفاؤها الهنود على الحدود الشمالية "لنيو إنجلاند". أدى ظهور التسامح الديني إلى تزايد القلق بين رجال الدين البروتستانتي، الذين يعتبرون الطوائف البروتستانتية الأخرى أشكال من الهرطقة، كما أعلن أحد الكهنة "الكويكرز" قائلاً "لن أشارك في ترسيخ عبادة الشيطان هذه". في الحقيقة، كان عدد غير قليل من البروتستانت يعتقدون أن يد الشيطان كان لها دخل في الأحداث التي وقعت ما بين عامي 1690 و1691.

إعدام السحرة

كان الاعتقاد في السحر، والتنجيم، والعرافة منتشرًا في أوروبا وأمريكا في القرن السابع عشر، إلى جانب العقيدة الدينية لرجال الدين والكنائس. كان العديد من التطهريين يعتقدون في التدخلات الخارقة في شئون العالم، ويفسرون بعض الأحداث على أنها تعبير عن إرادة الله، مثل ضرب البرق لمنزل ما بينما لا يصيب منزل آخر، والأوبئة التي خفضت عدد سكان أعدائهم الهنود؛ كما يمكن لقوى الشر أن تؤثر أيضًا على الحياة اليومية. كان السحرة أفرادًا، عادة من النساء، الذين اتُهموا بأنهم دخلوا في اتفاق مع الشيطان للحصول على قوى خارقة للطبيعة، من أجل استخدامها في الإضرار بالآخرين أو للتدخل في العمليات الطبيعية، على سبيل المثال، عندما يولد طفل ميتًا أو تهلك المحاصيل.

كان السحر في أوروبا والمستعمرات جريمة تستحق الإعدام؛ وتشير التقديرات إلى أنه تم إعدام ما يزيد عن 50.000 شخص في الفترة ما بين عامي 1400 و1800، بعد إدانتهم بالسحر. كان يتم شنق السحرة من وقت لآخر في القرن السابع عشر في نيو إنجلاند، ومعظمهم من النساء اللاتي تجاوزن سن الإنجاب، وكن يتمتعن بالجرأة والاستقلال الاقتصادي، أو المبعدات عن أزواجهن، أو اللاتي انتهكن بطرق أخرى الأعراف التقليدية لنوع جنسهن؛ وكانت قوة الساحرات المزعومة تتحدى كل من مشيئة الله ومكانة الرجال كأرباب للأسر وحكام للمجتمع.

محاكمات ساحرات بلدة سالم

كانت ملاحقة الساحرات تتم على مستوى محلي وبشكل متفرق قبل عام 1692، ولكن هذا العام شهد قلقًا متزايدًا وسلسلة من المحاكمات والإعدامات في بلدة سالم، وأصبح هذا الاسم منذ ذلك اليوم مرادفًا للتعصب والاضطهاد. بدأت الأزمة في أواخر عام 1691، عندما بدأت عدة فتيات صغيرات يعانين من نوبات عصبية وكوابيس، وهو ما أرجعه كبار السن هناك بأنه من تأثير السحر، وسرعان ما تم الكشف عن ثلاث ساحرات، إحداهن تسمى تيتوبا، وهي هندية من منطقة البحر الكاريبي، وكانت عبدة في منزل إحدى الفتيات المصابات؛ ونظرًا لأن السبيل الوحيد أمام السكان لتجنب الإعدام هو الاعتراف بممارسة السحر والإبلاغ عن أسماء السحرة الآخرين، لذلك بدأت دائرة الاتهامات بممارسة السحر تتسع، حتى تقدم المئات من سكان سالم لاتهام جيرانهم بحلول منتصف عام 1692؛ ويبدو أن البعض قد استغل هذه المناسبة لتسوية حسابات قديمة، وللانتقام من بعضهم البعض في هذه المنطقة. قامت السلطات المحلية باتخاذ الإجراءات القانونية ضد ما يقرب من 150 شخصًا، الأغلبية العظمى منهم من النساء. اعترف العديد منهم لإنقاذ حياتهن من الإعدام، ولكن تم شنق أربعة عشر امرأة وخمسة رجال،

لأنهم أصروا على براءتهم حتى النهاية، بينما تم الضغط على رجل حتى الموت (تم سحقه تحت ثقل الحجارة) لرفضه الخضوع للمحاكمة.

وانتشرت اتهامات السحر في سالم، لتتجاوز ما وراء الصورة المعتادة للسحرة من النساء في منتصف العمر، لتشمل أشخاصًا من جميع الأعمار (كان أحدهم طفلاً في الرابعة من عمره)، وأولئك الذين ليس لهم تاريخ سابق من التهجمية أو الخلاف الزوجي. مع تعدد الاتهامات وحالات الإعدام، أصبح واضحًا أن هناك شيئًا خاطئًا على نحو خطير في نظام العدالة بالمستعمرة، وبالقرب من نهاية عام 1692، قام حاكم ماساتشوستس بحل المحكمة في بلدة "سالم"، وأمر بإطلاق سراح باقي السجناء. تزامن هذا مع نشر رجل الدين البارز "انكريز ماذر" أطروحة مؤثرة بعنوان "حالات الضمير فيما يتعلق بالأرواح الشريرة"، محذرًا المحلفين بأنه لا ينبغي أن يأخذوا على محمل الجد أي من شهادات هؤلاء الذين يدّعون أن السحر قد مسهم، أو اعترافات واتهامات لأشخاص يواجهون الإعدام. أدت الأحداث في "سالم" إلى أن فقد تقليد ملاحقة الساحرات مصداقيتها، وإلى الإسراع بالتزام المستعمرين البارزين بإيجاد تفسيرات علمية للأحداث الطبيعية، مثل المذنبات والأمراض بدلاً من إرجاعها للسحر، ولذلك لم تشهد السنوات اللاحقة إلا تقديم سيدتين فقط للمحاكمة في "ماساشوستس" بتهمة ممارسة السحر، وكشفت التحقيقات أنهما غير مذنبتين.

تطور المستعمرات في أمريكا

وقعت محاكمات الساحرات ببلدة سالم بعد قرنين على وجه التحديد من رحلة "كولومبوس" الأولى، وقد اختلف نصف الكرة الغربي بشكل كبير عن العالم الذي شاهده كولومبس حينئذ، حيث تعرضت دول قوية للتدمير وهلك سكان أصليون بسبب المرض، وحُرِمُوا في بعض المناطق من أرضهم؛ لقد نشأت في أمريكا الشمالية ثلاث إمبراطوريات جديدة ومختلفة جدًّا عن بعضها البعض، ولكن يجمع بينهم التنافس على الثروة والسلطة، وهي الإمبراطورية الإسبانية المتمركزة في المناطق الحضرية، وتسيطر عليها نخبة صغيرة من المستوطنين، وتشهد تزايدًا في عدد السكان المولودين (من سلالتين مختلفتين) يوجهون العمال من سكان الهنود الكثيرين، وكانوا يعتمدون على مناجم الذهب والفضة في المكسيك وأمريكا الجنوبية كمصدر أول للثروة؛ وفيما يتعلق بالإمبراطورية الفرنسية، فقد تركزت في "سان دومينجو"، و"مارتينيك"، و"جوادلوب: وجزر المستوطنة بجزر الهند الغربية، بينما يتألف البر الرئيسي من سلسلة رفيعة مستقرة من المزارع والمراكز التجارية في "وادي سان لورانس". كانت تقع المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية إلى الشمال من "ريو غراند"، وقد فاقت بكثير منافسيها في عدد السكان وفي التجارة.

ومع عودة الاستقرار الذي أعقب الأزمات التي وقعت في أواخر القرن السابع عشر، شهدت أمريكا الشمالية الإنجليزية حقبة من النمو الملحوظ، حيث أصبحت المستوطنات التي تقع في المناطق النائية المتخلفة غير المأهولة، عواصم صاخبة لأقاليم مختلفة خلال الفترة ما بين عامي 1700 و 1770، وحتى مع استمرار الأوبئة في المناطق التي يسكنها الهنود تقلص خطر المرض بين المستعمرين، وتوسعت الاستيطان الزراعي نحو الغرب، ووصل مئات الآلاف من القادمين الجدد من العالم القديم؛ وبفضل ارتفاع معدل المواليد والهجرة المستمرة، قفز عدد سكان مستعمرات إنجلترا في البر الرئيسي من 265.000 نسمة في عام 1700 إلى عشرة أضعاف تقريبًا، أي إلى أكثر من 2.3 مليون نسمة بعد سبعين عاما (من الجدير بالذكر، ومع ذلك، أن عدد سكان أمريكا الشمالية كان أقل بكثير في عام 1770 مما كان عليه في عام 1492 بسبب تراجع عدد سكان الهنود).

التنوع السكاني

ربما كان التنوع الهائل هو السمة الأكثر لفتًا للأنظار في المجتمع الاستعماري الأمريكي في القرن الثامن عشر. كانت المستعمرات بؤرًا استيطانية إنجليزية في الأساس في عام 1700؛ وكان هناك القليل نسبيًا من الأفارقة الذين تم جلبهم إلى البر الرئيسي، ولكن كانت الأغلبية الساحقة من السكان البيض هناك – ربما ما يقرب من 90 في المئة – من أصل إنجليزي. شهد القرن الثامن عشر ارتفاع في أعداد الوافدين الأفارقة والأوروبيين من غير الإنجليز، في حين انخفض عدد المهاجرين من إنجلترا (انظر الجدول 3.1).

الجدول 3.1 أصول ووضع المهاجرين إلى المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية خلال الفترة ما بين 1700-1775

البلد	إجمالي العدد	عبيد	خدم بعقود لمدة محددة	مدانين قضائيا	أحرار
إفريقيا	278400	278400	–	0	0
إيرلندا	108600	–	39000	17500	52100
ألمانيا	84500	–	30000	–	54500
اسكتلندا	35300	–	7400	2200	25700
أخرى	5900	–	–	–	5900
إجمالي	585800	278400	103600	52200	151600

مع تحسن الظروف الاقتصادية في إنجلترا، بدأت الحكومة في إعادة النظر في سياسة تشجيع الهجرة؛ حيث إن السلطات لم تعد تشعر بالقلق حيال زيادة عدد السكان من المتشردين والرجال الجامحين، لأنه تم تهجيرهم إلى المستعمرات الأمريكية، ولكنها بدأت تقلق بشأن الهجرة واسعة النطاق التي تستنزف القوى العاملة في البلد الأم. كان حوالي 40 في المائة من المهاجرين الأوروبيين إلى المستعمرات أثناء القرن الثامن عشر من العمال للخدمة بعقود لمدة معينة، والذين ضحوا بحريتهم مؤقتًا للقيام بالرحلة إلى العالم الجديد، ولكن نظرًا لازدهار الاقتصاد الاستعماري، بدأ تدفق المهاجرين على نحو متزايد من المهنيين، والحرفيين المهرة، والمعلمين، والقساوسة، والنساجين، والنجارين الذين لا يتحمل الاقتصاد في إنجلترا أن يخسرهم. أدى كل هذا إلى توقف الجهود الرسمية لتشجيع الهجرة الإنجليزية.

جذب المستوطنين

بالرغم من القلق الذي كان يساور الحكومة في لندن بشأن فقدان الأعضاء المرغوب فيهم من السكان، إلا أنها ظلت مقتنعة بأن التطور الاستعماري قد عزز من قوة البلاد وثرواتها؛ ومن أجل تعزيز القوى العاملة في تشيزبيك، تم إرسال ما يقرب من 50.000 من المدانين قضائيًا (مجموعة غير مرغوب فيها في بريطانيا) للعمل في حقول التبغ هناك. شجع المسئولون أيضًا بنشاط هجرة البروتستانت من غير الإنجليز وسكان المناطق (الأقل ازدهارا) في الجزر البريطانية ومن القارة الأوروبية، ووعدوا المهاجرين الجدد بسهولة الحصول على الأراضي والحق في حرية العبادة، حتى أنه صدر قانون في عام 1740 يمنح المهاجرين الأوروبيين الجنسية البريطانية بعد البقاء لمدة سبع سنوات في أرض المهجر، وهو أمر لا يمكن الحصول عليه في البلد الأم إلا من خلال قانون خاص صادر من البرلمان؛ وكما عبرت قصيدة نُشِرَت في عام 1735، كانت صورة أمريكا التي تم نشرها والترويج لها على نطاق واسع باعتبارها ملاذًا لأولئك الذين يتعرضون لمطاردة المتعصبين في أراضي أجنبية بمثابة نتيجة ثانوية من عدة جوانب لجهود بريطانيا؛ لجذب المستوطنين من غير المناطق الإنجليزية إلى المستعمرات الإنجليزية.

فاق عدد المهاجرين من الجزر البريطانية في القرن الثامن عشر، الذين بلغوا 80.000 مهاجر من الوافدين الجدد الإنجليز (أغلبيتهم من المجرمين المدانين قضائيًا) عدد المهاجرين من أسكتلندا وألستر (الجزء الشمالي من إيرلندا) بفارق 145.000 مهاجر، حيث استقر العديد من الاسكتلنديين كجزء من جهود إنجلترا لإخضاع الجزيرة. كان للمهاجرين الاسكتلنديين والاسكتلنديين-الأيرلنديين تأثيرًا عميقًا على المجتمع الاستعماري، نظرًا لأن معظمهم من المنتمين إلى الكَنِيسَةِ المشيخية (فرع من البروتستانتية الإصلاحية التي تعود أصولها إلى الجزر البريطانية، وتستمد

اسمها من الشكل الكهنوتي لحكومة الكنيسة التي تتمثل في المجالس النيابية للشيوخ، وهي تشير إلى الكنائس التي ترجع جذورها إلى الكنائس الاسكتلندية والإنجليزية التي تحمل هذا الاسم والجماعات السياسية التي تشكلت خلال الحرب الأهلية الإنجليزية، وهي عادة ما تؤكد سيادة الله وسلطة الكتاب المقدس وضرورة نعمة الإيمان بالمسيح، وقد قبلت الحكومة الكنيسة الكهنوتية في اسكتلندا منذ صدور قانون الاتحاد في عام 1707، وهو القانون الذي أنشأ مملكة بريطانيا العظمى، وانتقلت طائفة الكهنوتية أيضًا إلى أمريكا الشمالية في الغالب من قبل الاسكتلنديين والمهاجرين الاسكتلنديين والأيرلنديين)، ولذلك فقد أضافوا كثيرًا إلى التنوع الديني في أمريكا الشمالية. لم تضم أعدادهم المزارعين الفقراء فقط الذين كانوا يسعون للحصول على الأرض، ولكنها ضمت أيضًا العديد من التجار، والمعلمين، والمهنيين (في الحقيقة كانت نسبة كبيرة من أطباء أمريكا في القرن الثامن عشر من أصل إسكتلندي).

الهجرة الألمانية

شَكَّل الألمان البالغ عددهم إجمالاً 110.000 مهاجر، أكبر مجموعة من القادمين الجدد من القارة الأوروبية، وجاء معظمهم من وادي نهر الراين، الذي يمتد فيما يعرف في الوقت الحاضر بين ألمانيا وسويسرا. كانت ألمانيا في القرن الثامن عشر مقسمة إلى دويلات صغيرة عديدة، يحكم كل منها أمير يقرر الدين الرسمي لدويلته، ولاقى الاضطهاد أولئك الذين وجدوا أنفسهم يتبعون الديانة "الخاطئة" مثل اللوثريين (فرع رئيسي من المسيحية الغربية، وهي نسبة إلى الراهب واللاهوتي الألماني مارتن لوثر وهي ثمرة جهوده لإصلاح اللاهوت وممارسات الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، حيث أطلق حركة الإصلاح البروتستانتية في منتصف القرن السادس عشر في ألمانيا) في المناطق الكاثوليكية، والكاثوليك في المناطق اللوثرية، وأتباع الطوائف البروتستانتية الصغيرة الذين تعرضوا للاضطهاد، مثل المينونايت (نسبة إلى "مينو سايمونز" 1496-1561 من فريزلاند، وهي تعتمد على الاعتقاد في كل من بعثة وكهنوتية المسيح، وقد تمسكوا بذلك رغم الاضطهاد من قبل مختلف الدول الكاثوليكية الرومانية والبروتستانتية، وبدلاً من القتال، فرت الغالبية إلى الدول المجاورة حيث كانت الأسر الحاكمة أكثر تسامحًا من الناحية الدينية، وعلى مر السنين أصبحت المينونايت معروفة باعتبارها واحدة من الكنائس التاريخية السلمية)، والمورافيين (تعني "الوحدة في الأخوة" وهو مذهب بروتستانتي ويأتي الاسم المستعار لهذه الكنيسة من المنفيين الأصليين الذين جاءوا إلى سكسونيا في عام 1722 من مورافيا هربًا من الاضطهاد، وبدأ تراثهم الديني في عام 1457 في بوهيميا بجمهورية التشيك اليوم، وكانت مملكة مستقلة داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وتضع هذه الكنيسة أهمية كبيرة على الوحدة

المسيحية والتقوى الشخصية والبعثات والموسيقى، وشعارها حَمَل الله)، والأخوة المعمدين (وهم ينحدرون من حركة الورع في ألمانيا في 1708، عندما أقام ألكسندر ماك زمالة مع سبعة مؤمنين آخرين، وهي واحدة من عدة مجموعات الأخوة التي تتبع الهيئة التأسيسية الأصلية وتتعلق بممارسة المعمودية بالتغطيس، وهم جزء من القائلين بتجديد التعميد في مرحلة ما بعد الإصلاح ويرفضون معمودية الرضع، وقد هاجر كثير من الاخوة لأمريكا بسبب الاضطهاد) وقرر كثير من هؤلاء الهجرة، بينما هاجر آخرون بدافع الأزمة الزراعية المستمرة وصعوبة الحصول على الأراضي. في الحقيقة، لا تمثل الهجرة إلى أمريكا سوى حصة صغيرة من عملية إعادة تنظيم واسعة النطاق للسكان الألمان داخل أوروبا. غادر الملايين من الألمان بلادهم خلال القرن الثامن عشر، وذهب معظمهم شرقا إلى النمسا والإمبراطورية الروسية، الأمر الذي جعل الأراضي متاحة للقادمين الجدد.

كان الألمان يميلون إلى السفر في عائلات بأكملها أينما انتقلوا. أنشأ التجار الإنجليز والهولنديون نظامًا جيد التنظيم، حيث يتلقى "المُفتدون" (كما كان يُطلَق على الأسر التي تعمل بعقود سخرة لمدة محددة) حق المرور إلى أمريكا الشمالية مقابل الوعد بالعمل هناك لسداد ديونهم، واستقر معظمهم في المناطق الحدودية لنيويورك الريفية وغرب بنسلفانيا والضواحي الجنوبية الخلفية، حيث شكلوا مجتمعات زراعية متماسكة بإحكام، وظلت فيها اللغة الألمانية هي السائدة لسنوات عديدة، وقد أثرى وصولهم التنوع العرقي والديني إلى حد كبير في المستعمرات البريطانية.

التنوع الديني

لم تكن أمريكا البريطانية في القرن الثامن عشر "بوتقة انصهار" للثقافات؛ حيث كانت الجماعات العرقية تميل للعيش والعبادة في مجتمعات متجانسةٍ نسبيًّا؛ أما في خارج "نيو إنجلاند" والذي استقبل عددًا قليلاً من جميع المهاجرين واحتفظ بطابعه العرقي الإنجليزي الذي كان يهيمن عليه، كان المجتمع الأمريكي أكثر تنوعًا في السكان بشكل كبير بالمقارنة بأمريكا البريطانية، وقد تجلى هذا في أكبر صوره في التنوع في ممارسة الدين، فبحلول عام 1700، كانت جميع الكنائس تقريبًا في المستعمرات، إما بروتستانتية (في نيو إنجلاند) أو إنجيلية. توسع وجود الكنيسة الإنجيلية كثيرًا في القرن الثامن عشر، حيث تم بناء كنائس جديدة ووصل كهنة وقساوسة جدد من إنجلترا، ولكن تضاعف أيضًا عدد التجمعات المنفصلة عن الكنيسة.

باستثناء كل من نيو جيرسي (التي تشكلت من شرق جيرسي وغرب جيرسي في عام 1702)، ورود آيلاند، وبنسلفانيا، لم تلتزم المستعمرات بالفصل الحديث بين الكنيسة والدولة.

فرضت كل المستعمرات تقريبًا الضرائب لدفع رواتب الكهنة والقساوسة الذين كانوا يعملون بكنيسة معينة، وحظرت معظم المستعمرات على الكاثوليك واليهود التصويت وشغل المناصب العامة، إلا أن التسامح ازدهر بشكل متزايد بين الطوائف البروتستانتية بحكم الأمر الواقع، وقد تعزز هذا التوجه بإنشاء كنائس جديدة من قبل المهاجرين، والمعمدانية الجديدة (أحد طوائف الكنيسة البروتستانتية يؤمنون بالحرية الدينية والحرية الفردية وفصل الدولة عن الدين)، والميثودية (أحد طوائف الكنيسة البروتستانتية تأسست على مبادئ جون وتشارلز ويزلي في إنجلترا في بداية القرن الثامن عشر وكانوا يهتمون بالرفاهية الاجتماعية والأخلاق العامة)، والطوائف الأخرى التي تم إنشائها نتيجة الصحوة الدينية الكبرى التي سنناقشها في الفصل الرابع. اكتسب المنفصلون عن الكنيسة البروتستانتية، في معظم المستعمرات في منتصف القرن الثامن عشر، الحق في العبادة كما يحلو لهم، وأن يمتلكوا كنائسهم الخاصة بهم، على الرغم من أن الكثير من الأماكن كانت لا تزال تحظر عليهم تولي المناصب العامة، وفرضوا عليهم الضريبة لدعم الكنيسة الرسمية. وصف أحد زوار بنسلفانيا في عام 1750 التنوع الديني بالمستعمرة قائلاً "نجد هناك اللوثريين، والكاثوليك، الإصلاحيين، ومجتمع الأصدقاء "الكويكرز"، والمينونايت، والقائلين بتجديد العماد ومنكر وجوب تعميد الأطفال، وهيرنهوتر أو المورافيين، والمتزمتين المتظاهرين بالتقوى، ومعمدانيين اليوم السابع (هم المعمدانيين المسيحيين الذين يلتزمون بتعاليم الكتاب المقدس الخاصة بيوم السبت أو اليوم السابع من الأسبوع وفقا للتقاليد اليهودية المسيحية بسفر التكوين 2:2-3، الخروج 20:08) والأخوة المعمدين (وهم ينحدرون من حركة الورع في ألمانيا في 1708، عندما أسس ألكسندر ماك زمالة مع سبعة مؤمنين آخرين، وهي واحدة من عدة مجموعات الأخوة التي تتبع الهيئة التأسيسية الأصلية، وتتعلق بممارسة المعمودية بالتغطيس، وهم جزء من القائلين بتجديد التعميد في مرحلة ما بعد الإصلاح ويرفضون معمودية الرضع، وقد هاجر كثير من الأخوة لأمريكا بسبب الاضطهاد) والمنتمين إلى الكَنِيسَةِ المشيخية، واليهود، والمسلمين، والوثنيين".

كتب أحد الوافدين الألمان الجدد في عام 1739 قائلاً إن "حرية الضمير" هي "الفضيلة الرئيسية" في أمريكا الشمالية البريطانية، وعلى هذا الأساس لا أندم لقراري بالهجرة". كان هناك مع ذلك عناصر أخرى للحرية بنفس الأهمية للمهاجرين في القرن الثامن عشر، وأهمها توفر الأراضي وعدم وجود نظام التجنيد الإجباري في الخدمة العسكرية، وعدم وجود قيود على الفرص الاقتصادية الشائعة في أوروبا، ووجود طلب كبير على العمال المهرة، وقد كتب أحد المهاجرين لأخيه في سويسرا في عام 1733 قائلاً "إنهم يكسبون حسبما يريدون". تحدثت رسائل المهاجرين إلى الوطن عن الضرائب المنخفضة، والحق في دخول الحرف والمهن دون دفع رسوم باهظة وحرية التنقل، وقد كتب أحدهم قائلاً "هناك وفرة في الحريات في هذا البلد في كل المسائل تقريباً".

الحياة الهندية عبر مراحل التطور

هدد تدفق الوافدين الجدد، الذين كانوا يساوون الحرية بالحيازة الآمنة للأراضي، بابتلاع السكان الهنود الباقين على قيد الحياة. كانت المجتمعات الهندية بحلول القرن الثامن عشر قد اندمجت بشكل جيد مع نظام الإمبراطورية البريطانية، حتى أن المحاربين الهنود شاركوا بقدر كبير في حروب الإمبراطورية أثناء تلك الفترة، وقد أصبحت ثقافاتهم حينذاك مختلفة تمامًا عما كانت عليه عند بداية الاتصال بينهم وبين الإنجليز. اختفت المجتمعات الهندية التي تواجدت في تلك المنطقة لعدة قرون بسبب المرض والحروب، وتم إنشاء قبائل جديدة من بقاياهم، مثل "كاتاوبا" في "ساوث كارولينا" و"كونفدرالية كريك" التي وحدت العشرات من المدن الهندية في "ساوث كارولينا" و"جورجيا". اختار القليل من الهنود العيش بين البيض بدلاً من العيش في مجتمعاتهم المحلية، واعتادوا بصورة جيدة على استخدام المنتجات الأوروبية مثل السكاكين، والبلطات، والإبر، والغلايات، والأسلحة النارية. أدخل التجار الكحول وتسبب في حالة من الفوضى الاجتماعية لدى العديد من المجتمعات الهندية؛ وقد علّق أحد أعضاء هنود الشيروكي في عام 1753 لحاكم "ساوث كارولينا" على أوضاعهم الجديدة قائلاً "لا يمكننا صنع الملابس التي نرتديها بأنفسنا، فهي تُصنَع لنا، ونستخدم ذخيرتهم في صيد الغزلان. . . . كل شيء يلزمنا لابد أن نأخذه من الشعب الأبيض".

وبينما رأى التجار في القرى الهندية فرصة لأرباح محتملة، رأى المسئولون البريطانيون أن الهنود يمكن أن يكونوا حلفاء لهم ضد فرنسا وإسبانيا، في حين رأى المزارعون وأصحاب المزارع في الهنود أنهم ليسوا أكثر من مجرد عائق أمام رغبتهم في الأرض؛ وتوقعوا أن يفسح الهنود المجال للمستوطنين البيض. كان قد تم ترحيل السكان الأصليين إلى حدود "فرجينيا" و"ساوث كارولينا" عندما وصل أعداد كبيرة من المستوطنين؛ ومع ذلك، فإن تدفقات المستوطنين الألمان والاسكتلنديين والأيرلنديين في الضواحي الخلفية والريفية في "بنسلفانيا" قد أخل بعلاقات الهنود والبيض السلمية نسبيًا التي قد أسسها "وليام بن". أكد المؤتمر الذي عُقِدَ في عام 1721 بين مجموعة من قادة الاستعمار والزعماء الهنديين على (سلسلة "بن" للصداقة)، إلا أنه سرعان ما نشبت وتعددت الصراعات حول الأرض؛ وصاحَب ذلك انتقال التعاملات الاحتيالية التي كانت شائعة جدًا في مستعمرات أخرى إلى "بنسلفانيا"، على سبيل المثال، صفقة "شراء الممر" سيئة السمعة التي وقعت في عام 1737، حيث وافق هنود "ليني لاناب" على اتفاقية تقضي بالتنازل عن قطعة أرض تحدها مسافة يستطيع رجل مشيها في ستة وثلاثين ساعة، ففاجئهم الحاكم "جيمس لوجان" باستئجار فريق من متسابقي الجري، وبذلك استولى على مساحة أكبر بكثير مما كان يقصد الهنود من الاتفاق.

تحولت العلاقات بين المستعمرين والهنود في "بنسلفانيا" من كونها الأكثر تناغمًا في أمريكا الشمالية البريطانية في البداية إلى علاقات يشوبها الشك والعداء بحلول عام 1760، مع زيادة عدد سكان المستعمرة من مجرد 20.000 نسمة في عام 1700 إلى 220.000 نسمة. أعلنت مجموعة من هنود "سسكويهانا" قائلةً "نظرًا لأن البيض قد اعتدوا على أراضينا واغتصبوها، فليس لدينا سبب الآن للاعتقاد بأنهم يهتمون بسعادتنا" وقد تاقوا إلى أيام "وليام بن" الذي كان يعاملهم بإنصاف واحترام.

التنوع الإقليمي

وضعت مناطق مختلفة من المستعمرات البريطانية نظمًا اقتصادية واجتماعية متباينة بحلول منتصف القرن الثامن عشر. سادت المزارع الصغيرة في "نيو إنجلاند" والمستوطنات الجديدة في الضواحي الخلفية والريفية (المنطقة الممتدة من وسط بنسلفانيا جنوبًا عبر وادي شيناندواه في فيرجينيا وإلى المرتفعات الشمالية وساوث كارولينا)، حيث تقوم الأسرة بالحرث والزراعة، وكانت هذه المزارع موجهةً في الأساس للإنتاج الزراعي لأغراض الاستهلاك المحلي؛ لقد كانت هذه المنطقة هي الأكثر نموًا بشكل سريع في أمريكا الشمالية؛ وكان لا يوجد، فيما كان يسمى حينئذ "دولة الهنود"، أي سكان بيض في عام 1730 سوى الصيادين والتجار الذين كانوا يأتون من وقت لآخر، بينما ضمت المنطقة ربع سكان "فرجينيا" ونصف سكان "ساوث كارولينا" بحلول عشية الثورة الأمريكية؛ وفي حين كانت معظم المزارع أسرية وتنتج الحبوب وتربي الماشية، دخل المنطقة أيضًا مزارعون يملكون عبيدًا بحثًا عن التربة الخصبة لزراعة التبغ.

كان المزارعون في الأجزاء القديمة من المستعمرات الوسطى في "نيويورك"، و"نيو جيرسي"، و"بنسلفانيا" أكثر توجهًا للتجارة أكثر من المزارعين على الحدود، حيث كانوا يزرعون الحبوب لكل من استخدامهم الخاص وللبيع في الخارج، ويستكملون جهود أفراد الأسرة في العمل في الزراعة من خلال الاستعانة بالعمال بأجر ومستأجري الأرض، وفي بعض الحالات بالعبيد؛ ونظرًا لأن كبار ملاك الأراضي قد استولوا على الكثير من الأراضي الخصبة، لذلك تخلف النمو في نيويورك عن المستعمرات الأخرى المجاورة، حتى أن "ريتشارد كوت" حاكم نيويورك في بداية القرن الثامن عشر تساءل متعجبًا بقوله "ما أحمق ذلك الرجل الذي يُقْدِم على استئجار الأرض إذا كان هذا الرجل يستطيع شراء أرض رخيصة جدًا ذات تربة خصبة ومناخ مواتي بمجرد عبور نهر "هدسون؟" ". أصبحت "بنسلفانيا" معروفة باسم "أفضل بلد للرجل الفقير" نظرًا للعلاقات الهندية السلمية في البداية، وسخاء السياسة الحكومية في توزيع الأراضي، وتوافر الأنهار التي سهلت التجارة لمسافات طويلة، وتمتع المستعمرين العاديين هناك بمستوى من المعيشة لا يمكن تصوره في أوروبا.

الثورة الاستهلاكية

تفوقت بريطانيا العظمى على هولندا خلال القرن الثامن عشر، حيث احتلت موقع الريادة في إنتاج وتجارة السلع الاستهلاكية الرخيصة، بما في ذلك المنتجات الاستعمارية مثل القهوة والشاي، والسلع المصنعة مثل الكتان، والمعدات المعدنية، والدبابيس، والأشرطة، والأواني الزجاجية، والسيراميك، والملابس؛ وقد ساعدت التجارة على تكامل الإمبراطورية البريطانية. مع انجذاب المستعمرات الأمريكية أكثر فأكثر إلى نظام التجارة عبر الأطلسي، فقد ساهمت في حقبة الثورة الاستهلاكية. انتشرت المحلات التجارية في المدن الساحلية والمدن الداخلية الصغيرة، وحفلت الصحف الأمريكية بالإعلانات عن البضائع البريطانية. زود التجار البريطانيون التجار الأمريكيين بالقروض لتمكينهم من استيراد هذه المنتجات، وحملها الباعة المتجولون المسافرون إلى المناطق البعيدة على الحدود.

لم تكن النزعة الاستهلاكية بالمعنى الحديث - أي الإنتاج الضخم، والإعلان، وبيع السلع الاستهلاكية - موجودة في المستعمرات الأمريكية؛ ومع ذلك، كشف حصر العقارات في القرن الثامن عشر، الذي يسجل ممتلكات الناس عند الوفاة، عن الانتشار الواسع للمنتجات الإنجليزية، بل والآسيوية، في المنازل الأمريكية. عاش معظم المستعمرون في القرن السابع عشر في عالم رائد في الملابس والسلع المصنوعة في المنازل، وأصبح آنذاك حتى المزارعين والحرفيين المتواضعين يمتلكون الكتب، والأطباق المصنوعة من السيراميك، والسكاكين المعدنية، وسلع مصنوعة من الحرير والقطن المستوردين؛ وأصبح الشاي عمليًا ضرورة من ضروريات الحياة، بعد أن كان ضربًا من الترف الذي يقتصر على الأثرياء، كما علّق أحد سكان نيويورك قائلاً أن الأشخاص الأقل قدرة على تحمل التكلفة يتناولون الشاي، على الرغم من أن أسرهم تحتاج إلى الخبز.

المدن الاستعمارية

كانت مستعمرات بريطانيا في البر الرئيسي زراعية بأغلبية ساحقة، وكان تسعة أعشار السكان يقيمون في المناطق الريفية، ويكسبون أرزاقهم من الزراعة. كانت المدن الاستعمارية مثل بوسطن، ونيويورك، وفيلادلفيا، وتشارلستون صغيرة جدًا وفقًا لمعايير أوروبا أو أمريكا الإسبانية، فعلى سبيل المثال، كان عدد السكان في مكسيكو سيتي يبلغ 100.000 نسمة في عام 1700، في نفس الوقت الذي كان تعداد سكان مدينة بوسطن يبلغ 6.000 نسمة وكان تعداد نيويورك يبلغ 4.500 نسمة، وفي عام 1750، تجاوزت ثماني مدن في أمريكا الإسبانية في الحجم أي مدينة في أمريكا الشمالية الإنجليزية.

كانت المدن الأمريكية الإنجليزية تعمل في الأساس كأماكن لتجميع السلع الزراعية والبضائع المستوردة لتوزيعها على الريف؛ ومع ذلك، شجع التوسع في التجارة على نشأة المدن الساحلية باعتبارها موطنًا لعدد متزايد من السكان المستعمرين من التجار والحرفيين المهرة وكذلك بالنسبة لعدد متزايد من الفقراء. كانت فيلادلفيا "عاصمة العالم الجديد" في عام 1770 - على الأقل بالنسبة للجزء البريطاني منها - بتعداد سكاني بلغ 30.000 نسمة، وكانت الميناء الثالث الأكثر ازدحامًا في الإمبراطورية بعد كل من "لندن" و"ليفربول"؛ ونظرًا لأنها كانت تمثل أيضًا المركز المالي والتجاري والثقافي البريطاني، فقد اعتمد نموها على التكامل الاقتصادي مع المنطقة الزراعية الغنية المجاورة. نظَّم تجار "فيلادلفيا" عملية جمع السلع الزراعية وتزويد أصحاب المحلات الريفية بها، وتقديم الائتمان للمستهلكين، وقاموا بتصدير الدقيق والخبز واللحوم إلى جزر الهند الغربية وأوروبا.

المستعمرون الحرفيون

كانت المدينة موطنًا أيضًا لعدد كبير من صناع الأثاث، والمجوهرات، والمشغولات الفضية المخصصة للمواطنين الأكثر ثراءً، ومئات من الحرفيين الأدنى درجة مثل النساجين، والحدادين، وصناع المنتجات النحاسية، وعمال البناء. كان من المعتاد أن يمتلك الحرفي أدواته الخاصة به ويعمل في ورشة صغيرة، غالبًا ما تكون في منزله، ويساعده أفراد الأسرة والعمال المهرة باليومية، والمتدربين الذين يتعلمون المهنة. كانت المهارة بالنسبة للحرفي بمثابة مفتاح وجوده، وهي التي تميزه عن العمال الأقل منه في السلم الاجتماعي، وتمنحه درجة أكبر بكثير من الحرية الاقتصادية من أولئك الذين يعتمدون على الآخرين في كسب رزقهم؛ وقد كتب "بنجامين فرانكلين" الذي كان يعمل على مطبعة قبل أن يحقق الشهرة كعالم ورجل دولة قائلاً "من ليس له حرفة ليس له ملكية".

على الرغم من تدفق البضائع البريطانية، استفاد الحرفيون الأمريكيون من توسع السوق الاستهلاكية، حيث تمتع معظم المهرة بفرصة معقولة في الترقي إلى مرتبة السيد وإنشاء ورش عمل خاصة بهم، وحقق بعضهم نجاحًا ملحوظًا، ومنهم الصائغ اليهودي من أصول هولندية "ماير مايرز" المولود في مدينة "نيويورك" في عام 1723، وأصبح واحدًا من أبرز الحرفيين في المدينة، وأنتج المجوهرات والشمعدانات وأباريق القهوة، وأدوات المائدة وغيرها من الأشياء الذهبية والفضية للنخبة في المستعمرة ، فضلاً عن الحلي الدينية لكل من المعابد اليهودية والكنائس البروتستانتية في "نيويورك" والمستوطنات القريبة، واستخدم بعض أرباحه للحصول على الأراضي في "نيو هامبشير" و "كونيكتيكت"؛ لقد عكست مسيرة "مايرز" الفرص التي وفرتها المدن الاستعمارية للرجال المهرة من مختلف الخلفيات العرقية والدينية.

عَالَمٌ أطلسي

ساهم تدفق الناس والأفكار والسلع ذهابًا وإيابًا عبر المحيط الأطلسي في ربط الإمبراطورية بمختلف فئات السكان من التجار والمستهلكين البريطانيين، والمستعمرين الأمريكيين، والعبيد الأفارقة، والباقين على قيد الحياة من الهنود، ونشأت شبكات من العلاقات المتبادلة بين الإمبراطوريات الأوروبية؛ حيث كان يتم تسويق السكر والتبغ وغيرهما من منتجات نصف الكرة الغربي للأرض إلى أماكن بعيده تصل إلى أوروبا الشرقية. مَوَّلَ المصرفيون في لندن تجارة الرقيق بين إفريقيا والبرازيل البرتغالية؛ وأنفقت إسبانيا الذهب والفضة لاستيراد البضائع من بلدان أخرى. أصبحت مستعمرات أمريكا الشمالية والهند الغربية مع توسع التجارة بمثابة أسواق خارجية رئيسية للسلع البريطانية المصنعة؛ وعلى الرغم من أنه كان يتم تسويق معظم إنتاج المستعمرات في الداخل، إلا أنه كان يتم شحن المنتجات الزراعية من أمريكا الشمالية إلى بريطانيا وجزر الهند الغربية، وباستثناء السلع "المعدودة" المنصوص عليها في قوانين الملاحة، كان يتم تصدير السلع الأخرى مثل التبغ إلى خارج الإمبراطورية. كان يتم تسويق كل إنتاج "تشيزبيك" من التبغ تقريبًا إلى بريطانيا، ثم يعاد تصدير معظمه إلى أوروبا عن طريق التجار البريطانيين، بينما كان يتم توجيه معظم صادرات المستعمرات من الخبز والدقيق إلى جزر الهند الغربية. كان العبيد الأفارقة هناك يزرعون السكر الذي كان يتم تقطيره لصنع شراب "الرم"، الذي اكتسب شعبية متزايدة بين كل من المستعمرين والهنود في أمريكا الشمالية، الذين كانوا يحصلون عليه في مقابل الفراء وجلود الغزلان التي يقومون بدورهم بشحنهما إلى أوروبا. استمرت مستعمرات البر الرئيسي في التجارة المزدهرة في الأسماك والحبوب مع جنوب أوروبا؛ وقد شكلت السفن التي كان يتم بناؤها في "نيو إنجلاند" ثلث أسطول التجارة في الإمبراطورية البريطانية.

كان للعضوية في الإمبراطورية العديد من المزايا بالنسبة للمستعمرين؛ ولم يشكو معظم الأمريكيين من التنظيم البريطاني لتجارتهم، لأن التجارة حققت الثراء للمستعمرات فضلاً عن البلد الأم، وأدى التراخي في تطبيق قوانين الملاحة إلى السماح بازدهار التهريب؛ وعلاوة على ذلك، كانت البحرية الملكية توفر الحماية للشحنات الأمريكية في عالم يعج بالمخاطر؛ وعلى الرغم من العديد من الاختلافات بين الحياة في إنجلترا والحياة في مستعمراتها، إلا أن أمريكا الإنجليزية أصبحت أوثق وأقرب في القرن الثامن عشر في علاقاتها بالوطن الأم، وبطريقة أو بأخرى، أصبحت أكثر تماثلاً معها.

الطبقات الاجتماعية في المستعمرات

النخب الاستعمارية

استفاد معظم الأمريكيين الأحرار من النمو الاقتصادي، ولكن مع نضج المجتمع الاستعماري برزت طبقة من النخبة، ليست في قوة ولا في ثراء الطبقة الأرستقراطية الغنية في إنجلترا، ولكنها هيمنت على السياسة والمجتمع بصورة متزايدة؛ وفي الحقيقة، ربما شهد القرن الثامن عشر اتساع في الفجوة بين الأغنياء والفقراء بسرعة أكبر مما كانت عليه في أي فترة أخرى من التاريخ الأمريكي. أدى التوسع في التجارة في "نيو إنجلاند" والمستعمرات الوسطى إلى أنه أصبح من الممكن ظهور طبقة عليا قوية من التجار، والتي كانت ما ترتبط في الغالب مع شركات تجارية كبيرة في لندن بروابط أسرية أو تجارية. لم يكن هناك أي بنوك في أمريكا الاستعمارية، مما تسبب في نقص من المعروض في الائتمان والمال، واعتمد نجاح التجارة على العلاقات الشخصية بقدر اعتماده على المواهب في إدارة الأعمال. هيمنت مزارع العبيد التي تنتج المحاصيل الأساسية للسوق العالمية، ولاسيما التبغ والأرز، في مستعمرات "تشيزبيك" وأدنى الجنوب، وحقق كبار المزارعين هناك ثروة هائلة متراكمة. ضمت النخبة الاستعمارية أيضا حكامًا أصحاب امتياز ملكية المستعمرات مثل "بنسلفانيا" و"ميريلاند".

لم يكن في أمريكا طبقة أرستقراطية من ذوي الألقاب كما هو الحال في بريطانيا، فلم يكن لديها نظام يستند إلى القانون لمنح رُتَبٌ اجتماعية، ولا سجلات بأنساب العائلات تعود إلى القرون الوسطى؛ باستثناء عائلات "دي لانسيس"، و"ليفنجستونس"، و"رتسيلارس" في "نيويورك"، وعائلة "بن" في "بنسلفانيا"، وعدد قليل من مزارعي الجنوب، لم تكن حيازات الأراضي لأي من المستعمرين تنافس من حيث القيمة النقدية حيازات الطبقة الأرستقراطية البريطانية؛ ومع ذلك، برز عدد من الرجال في أمريكا البريطانية، والذين هيمنوا على الحكومة الاستعمارية. كانت الطبقة العليا في "فرجينيا" مترابطة وعلى علاقات وثيقة ببعضها البعض، وغالبًا ما كانوا يتزاوجون فيما بينهم، حتى أنه كثيرًا ما كان يقال إن هذه الأسرة الكبيرة هي التي تحكم المستعمرة. هيمن أعضاء طبقة النبلاء في مجالس الكنائس الإنجيلية أو هيئات الحكم المحلي للكنيسة الإنجيلية القائمة، والتي تهيمن على المؤسسات السياسية والقضائية التي فرضت الضرائب وأصدرت المراسيم المحلية، وكانت بارزة في المجلس التشريعي في "فرجينيا"، وفي الخمسينيات من القرن الثامن عشر شغل سبعة أعضاء من نفس الجيل من عائلة "لي" المقاعد في مجلس المواطنين.

كانت "فرجينيا" في القرن الثامن عشر مناخًا صحيًا أكثر بكثير مما كانت عليه في بداية الاستيطان؛ حيث كان المزارعون يستطيعون توقع انتقال ثرواتهم إلى الجيل القادم، وتوفير

عقارات لأولادهم وتأسيس السلالات العائلية. حقق جميع مواطنو فرجينيا المرموقين ظهورًا وشهرة من خلال الروابط الأسرية. كانت الأيام التي يستطيع فيها الرجل العصامي أن يرتقي إلى طبقة النبلاء في فرجينيا قد ولَّت منذ زمن طويل إلى غير رجعة، فبحلول عام 1770، كانت ثروات جميع أعضاء الطبقة العليا تقريبًا في فرجينيا موروثة، على سبيل المثال، كان جد توماس جيفرسون قاضي صلح (مسئولاً محليًا هاما) وقائد الميليشيات العسكرية وعمدة البلدة، بينما كان والده عضوًا في مجلس المواطنين، وكان والد، وجد، والجد الأكبر جورج واشنطن يعملون كقضاة صلح. استخدمت طبقة النبلاء هيمنتها على الحكومة المحلية في فرجينيا للحصول على مساحات واسعة من الأراضي، حيث تم فتح المناطق الغربية للاستيطان. لم يكن من غير الشائع الحصول على منح بأراضي تتراوح مساحاتها بين 20.000 إلى 40.000 فدان، على سبيل المثال، قُدِرَت الممتلكات التي حصل عليها المتحدث باسم مجلس المواطنين روبرت كنج كارتر بحلول وقت وفاته في عام 1732، بأرض بمساحة 300.000 فدان و1.000 من العبيد.

إضفاء الطابع الإنجليزي (الأنجلزة)

كانت المستعمرات الأمريكية تحتفظ بعلاقات تجارية واتصالات أكثر انتظامًا مع بريطانيا، مما كان قائمًا بين هذه المستعمرات وبعضها البعض خلال فترة كبيرة من القرن الثامن عشر. طورت النخب ببطء نمط حياة مشترك وإدراك لطبيعة المصالح المشتركة في مناطق مختلفة، ولكن بدلاً من التفكير في أنفسهم باعتبارهم أمريكيين متميزين، أصبحوا إنجليزيين أكثر فأكثر، ويطلق المؤرخون على هذه العملية اسم إضفاء الطابع الإنجليزي، أو إكساب الصفة الإنجليزية (الأنجلزة).

حاول الأمريكيون الأثرياء تشكيل حياتهم على غرار الآداب والسلوكيات البريطانية، وكانوا يستاؤون إلى حد ما من العيش في عزلة إقليمية في أحد أطراف هذا العالم، على حد وصف أحد أرستقراطي فرجينيا، ولذلك سعوا إلى إثبات وضعهم وشرعيتهم عن طريق استيراد أحدث الأزياء والمطبوعات الأدبية من لندن، وإرسال أولادهم للدراسة في بريطانيا، وبناء المنازل المجهزة بأثاث عصري على غرار البيوت الفخمة في الريف والمنازل الموجودة في المدن الصغيرة الخاصة بطبقة النبلاء الإنجليز، وكانت تشتمل مساكنهم على غرف كبيرة للترفيه، ولعرض السلع الفاخرة المستوردة، والحدائق الرسمية المزخرفة، حتى أن بعض أعضاء النخبة الاستعمارية، مثل جورج واشنطن، كان يقتنى أغلفة للأسلحة صُمِمَت خصيصا لأسرهم في تقليد لممارسات الطبقة العليا الإنجليزية.

لقد أدى السعي المحموم لإتباع أسلوب حياة الأرستقراطيين إلى وقوع العديد من المزارعين في الديون، فعلى سبيل المثال، عاش وليام بيرد الثالث حياة فاخرة بإسراف حتى تراكمت عليه

ديون تبلغ 100.000 جنيه استرليني، وهو مبلغ لا يكاد يُسْمَع عنه في إنجلترا أو في أمريكا، غير أنه عندما ازدهرت السوق العالمية للتبغ، ازدهرت معها طبقة النبلاء في "فرجينيا".

الطبقة الأرستقراطية في "ساوث كارولينا"

كانت أغنى مجموعة من المستعمرين في البر الرئيسي بعيدًا عن الساحل هم مزارعو "ساوث كارولينا" (على الرغم من أن المزارعين في جامايكا تفوقوا عليهم بكثير من حيث الثروة)؛ وغالبًا ما كانت تسافر النخبة في "ساوث كارولينا" إلى الشمال للتمتع بالعطلة الصيفية في المناخ الألطف في "نيوبورت" في "رود آيلاند"، ويقضون معظم ما يتبقى من وقتهم في "تشارلستون"، التي تمثل المركز الحضري الحقيقي الوحيد جنوب "فيلادلفيا"، وأغنى مدينة في أمريكا الشمالية البريطانية حيث ازدهرت الحياة الاجتماعية الأرستقراطية، والتي تركزت على المسارح والجمعيات الأدبية والأحداث الاجتماعية. على غرار نظرائهم في "فرجينيا"، عاش النبلاء في "ساوث كارولينا" نمطًا من الحياة الفخمة وسط الأثاث المستورد، والنبيذ الفاخر، والملابس الحريرية، والسلع الأخرى من إنجلترا، وأحاطوا أنفسهم بالعبيد في المنزل الذين يرتدون زيًا تم تصميمه خصيصًا لهم. بلغ متوسط دخل الفرد من الثروة في منطقة "تشارلستون" 2.300 جنيه استرليني في عام 1774، بما يعادل أكثر من أربعة أضعاف متوسط دخل الفرد في مناطق التبغ في "فرجينيا" وثمانية أضعاف المتوسط في "فيلادلفيا" أو "بوسطن"، لكن الثروة كانت تتركز في "ساوث كارولينا" بشكل كبير، حيث كان يمتلك أغنى 10% من سكان المستعمرة نصف ثروة المستعمرة في عام 1770، بينما يمتلك الربع الأكثر فقرًا أقل من 2% من ثرواتها.

كانت النخب في جميع أنحاء المستعمرات تحتذي بما رأوه نظامًا اجتماعيًا متوازنًا ومستقرًا في إنجلترا. كانت الحرية في نظرهم تعني جزئيًا سلطة الحكم- حق هؤلاء المباركين بالثروة والوجاهة والأهمية في السيطرة على الآخرين؛ لقد كانوا يعتبرون المجتمع هيكلاً هرميًا حيث يوجد بعض الرجال الذين يملكون مواهب أكبر من غيرهم ومُقَدَّر لهم تولي مقاليد الحكم، ويؤمنون أن النظام الاجتماعي يتماسك معًا عن طريق شبكات النفوذ التي تربط الرعاة بأولئك الذين يعتمدون عليهم؛ ويحمل كل مركز في التسلسل الهرمي في طياته مسئوليات مختلفة، وينعكس وضع الشخص في اللباس، والسلوكيات والآداب، ومدى روعة منزله. كان "التفوق" و"الاعتماد على الآخرين" بمثابة عنصرين طبيعيين لأي مجتمع، على حد تعبير أحد الصحف الاستعمارية. ساهمت هذه الصورة المزخرفة المصقولة في إضفاء المشروعية على الثروة والسلطة السياسية. تفاخرت النخب الاستعمارية بتطوير آداب وسلوكيات الأرستقراطية، وغرس الفنون، والاستفادة من أوقات الفراغ بشكل منتج؛ وفي الحقيقة، كانت النخب على جانبي المحيط

الأطلسي ترى العمل كشيء يقتصر على العوام والعبيد، وكان التحرر من العمل علامة على أن الرجل سيد وشريف.

الفقر في المستعمرات

برز الفقر في الطرف الآخر من السلم الاجتماعي كسمة غالبة للحياة الاستعمارية في القرن الثامن عشر؛ وعلى الرغم من عدم اعتبار العبيد من قبل معظم المستعمرين كجزء من مجتمعهم، إلا أن عددًا متزايدًا منهم كان يعيش في ظروف معيشية فقيرة. لم يكن الفقر منتشرًا على نطاق واسع بين الأمريكيين الأحرار كما كان في بريطانيا في الشطر الأول من القرن، حيث كان ما بين ربع إلى نصف السكان يحتاجون إلى مساعدة عامة بانتظام؛ ومع ذلك، تضاءلت بسرعة فرص الحصول على الأراضي، وخاصة في المناطق المستوطنة منذ فترة طويلة نتيجة للتوسع في السكان الاستعماريين. أدى ارتفاع معدل المواليد في "نيو إنجلاند"، التي استقبلت عددًا قليلاً من المهاجرين، إلى النمو السكاني بها مما اضطر الأبناء الذين لا يأملون في توارث المزارع إلى الانتقال إلى مستعمرات أخرى، أو محاولة العمل في التجارة في مدن المنطقة؛ ونتيجة لذلك، تزايد عدد مستأجري الأرض الزراعية وعمال الزراعة بالأجرة في المستعمرات الوسطى بحلول منتصف القرن في المستعمرات.

زاد عدد العاملين بأجر من غير مالكي الأراضي الذين يعيشون تحت خط الفقر بشكل مطرد. شكلت الفئة التي لا تملك ممتلكات على الإطلاق ثلث السكان في بوسطن في عام 1771. أما في مقاطعة "أوجوستا" الريفية، التي اُقتطِعَت من وادي نهر "شيناندواه" في "فرجينيا" في عام 1738، فقد استولى المزارعون والمضاربون على الأرض بسرعة، وبحلول الستينيات من القرن الثامن عشر كان ثلثا الرجال البيض في المقاطعة لا يملكون أي أرض ولديهم احتمال ضئيل في الحصول على أرض، ما لم يهاجروا إلى الغرب. إذا ما نظرنا للمستعمرات ككل، نجد أن نصف الثروة في منتصف القرن قد تركز في أيدي أغنى 10% من السكان.

لقد عكست المواقف والسياسات تجاه الفقر في أمريكا الاستعمارية سابقتها البريطانية، حيث نظر المستعمرون الموسرون عمومًا للفقراء بأنهم كسالى وبلداء ومسئولون عن محنتهم؛ وعلى الرغم من تحمل كل من المجتمعات الريفية والحضرية مسئولية تقديم المساعدة لهم، إلا أنه للحد من عبء هذه المساعدات على كاهل دافعي الضرائب، كان كثيرًا ما يتم وضع الفقراء للعمل في ملاجئ الفقراء وإصلاحيات الأحداث، حيث ينتجون السلع التي تسدد للسلطات جزءًا مقابل مؤازرتهم، ويتم إرسال أطفالهم للعمل كمتدربين في المنازل أو ورش العمل المحلية، واعتمدت معظم المجتمعات إجراءات صارمة للحد من القادمين الجدد العاطلين عن العمل،

والمعدمين الذين قد يعتمدون على الإغاثة المحلية للفقراء، بما في ذلك قيام السلطات المعنية في المدن، إما بطرد الفقراء الغير مرغوب فيهم من منطقة ما، أو الإعلان رسميًا عن أشخاص معينين غير مؤهلين للحصول على المساعدة، وارتفع عددهم في مقاطعة إسيكس بماساتشوستس من 200 شخص سنويا طوال الثلاثينيات من القرن الثامن عشر إلى 1.700 شخص سنويًا طوال الستينيات من القرن الثامن عشر، وكان العديد منهم من أعضاء الأسر التي تتولى أمرها أرامل أو نساء هجرهن أزواجهن.

الطبقة الوسطى

عاشت الغالبية العظمى من الأمريكيين الأحرار بين طرفي نقيض بين الثروة والفقر. تميزت المستعمرات الداخلية البعيدة عن الساحل عن أوروبا بالتوزيع واسع النطاق للأراضي والاستقلال الاقتصادي لمعظم الأسر الحرة العادية، إضافة إلى التنوع العرقي والاثني. أورد المؤلف المجهول لكتاب "الزراعة وتربية الحيوانات" الذي نُشِرَ في عام 1775 أن "القليل من ملاك الأراضي الذين يعيشون على ممتلكاتهم الخاصة" يشكلون "الجزء الأكبر" من الناس، خصوصًا في المستعمرات الشمالية والأجزاء الخالية من الزراعة في الجنوب؛ وبصفة عامة، ربما كان ثلثا السكان من الذكور الأحرار عبارة عن مزارعين يملكون أرضهم. ولا شك في أنه لم توجد في إنجلترا أي فئة من العمال تتعرض للاستغلال بقدر تعرض العبيد الأمريكيين له، غير أن ثلاثة أخماس شعبها كانوا لا يملكون أي ممتلكات على الإطلاق.

كانت الأسر الاستعمارية الزراعية بحلول القرن الثامن عشر ترى ملكية الأراضي تقريبًا كحق من الحقوق والشروط الاجتماعية المسبقة للحرية، واستاءوا بشدة من الجهود التي كان يبذلها كل من الأمريكيين الأصليين، أو كبار ملاك الأراضي، أو الحكومات الاستعمارية للحد من حصولهم على الأرض. كانت المعتقدات الخاصة بكراهية الاعتماد الشخصي على الآخرين، وفهم الحرية بأنها تعني عدم الاعتماد على الآخرين في كسب العيش، تمتد جذورها العميقة في أمريكا الشمالية البريطانية. على أية حال، أدت هذه المعتقدات، بالإضافة إلى الواقع الاجتماعي، إلى توزيع واسع للممتلكات، مما جعل الاستقلال الاقتصادي يمثل جزءًا من تجربة تعيشها أعدادًا كبيرة من المستعمرين البيض.

النساء والاقتصاد المنزلي

كانت الأسرة تمثل مركز الحياة الاقتصادية في الاقتصاد المنزلي لأمريكا في القرن الثامن عشر، حيث كان معظم العمل يدور حول المنزل، ويساهم جميع أعضاء الأسرة من رجال ونساء وأطفال في توفير أسباب رزق الأسرة. كان استقلال صغار المزارعين يعتمد إلى حد كبير على

عمل نساء وأطفال أصحاب هذه المزارع، حتى أن أحد المستعمرين أعلن قائلاً "من له أسرة كادحة سيصبح غنيًا بشكل سريع"، وعكس ارتفاع معدل المواليد بصورة جزئية الحاجة إلى أكبر عدد ممكن من الأيدي العاملة للمزارع الاستعمارية. ركز معظم المزارعون أولاً على زراعة الغذاء للاستهلاك الخاص بهم، والحصول على ما يكفي من الأراضي لتوريثها للأبناء؛ ومع ذلك، أدت الثورة الاستهلاكية وتوسيع شبكات التجارة عبر الأطلسي إلى زيادة أعداد المزارعين الذين يقومون بالإنتاج، ليس فقط للاستهلاك الخاص بهم ولكن أيضًا للسوق.

ومع زيادة عدد السكان وتراجع معدل الوفيات، استقرت الحياة الأسرية وأصبحت أعداد أكبر من الزيجات تمثل التزامًا متواصلاً على مدى الحياة. كان من المتوقع أن تكرس المرأة الحرة حياتها لكونها زوجة وأم صالحة؛ ووفقًا للنصوص القانونية وعلاقات الملكية، ازدادت هيمنة الذكور على الواقع الاجتماعي أكثر فأكثر. قضت التشريعات القانونية في العديد من المستعمرات بأن تؤول ملكية العقارات كاملة إلى الابن الأكبر عند وفاة الأب. عندما أصبح المجتمع الاستعماري أكثر تنظيمًا، تراجعت الفرص التي كانت متاحة للنساء في الفترة الاستعمارية المبكرة، على سبيل المثال، كانت المحاكم في "كونيتيكت" غير رسمية وغير منظمة في القرن السابع عشر، وغالبًا ما كانت النساء يمثلن أنفسهن، بينما في القرن الثامن عشر، أصبح من الضروري توكيل المرأة لمحام للتحدث باسمها في المحاكم، ومُنِعَت المرأة من ممارسة المحاماة، واختفت أيضًا من الإجراءات القضائية؛ ونظرًا للحاجة الماسة إلى العمالة، قام كل من الرجال والنساء في القرن السابع عشر بأنواع مختلفة من العمل، أما في القرن الثامن عشر فقد تعزز تقسيم العمل على أساس نوع الجنس، وتم تحديد عمل المرأة بشكل واضح على أساس أنه يشتمل على الطبخ، والتنظيف، والخياطة، وصنع الزبدة، والمساعدة في الزراعة؛ وغالبًا ما يترجم عمل زوجات وبنات المزارعين طبيعة الفرق بين الاكتفاء الذاتي للأسرة والفقر.

لقد كان القول الشعبي المأثور القائل بأن "عمل المرأة متزايد ومستمر ولا ينتهي أبدًا" يبدو صحيحًا بالمعنى الحرفي، حتى مع خفض الثورة الاستهلاكية للطلب على عمل المرأة في المنزل، حيث أصبحت السلع متوفرة مباشرة في المتاجر، بعد أن كانت تنتجها المرأة في المنزل. أدى انخفاض معدل وفيات الأطفال الرضع إلى الحاجة إلى المزيد من الوقت الذي تقضيه المرأة في رعاية الأطفال والقيام بمزيد من الأعمال المنزلية؛ ومن ناحية أخرى، أدى زيادة الطلب على السلع الجديدة إلى ضرورة قيام جميع أعضاء الأسرة بالمساهمة في دخل الأسرة؛ وبالنسبة لمعظم النساء، كان العمل متواصلاً ومرهقًا، حتى أن امرأة من "لونج آيلاند"، تسمى "ماري كوبر"، كتبت في مذكراتها في عام 1769 قائلةً "أنا متسخة وأشعر بالأسى والإنهاك حتى الموت تقريبًا"، ثم

استأنفت قائلةً "اليوم وبعد أربعين عامًا منذ أن غادرت منزل والدي وأتيت إلى هنا، لم أر شيئا آخر مختلفًا سوى الأشغال الشاقة والأسى".

أمريكا الشمالية في منتصف القرن الثامن عشر

كانت المنطقة التي أصبحت فيما بعد الولايات المتحدة، في منتصف القرن الثامن عشر، موطنًا لتنوع ملحوظ من الشعوب وأنواع مختلفة من التنظيم الاجتماعي، بداية من قرى الهنود البويبلو في الجنوب الغربي، وحتى مزارع التبغ في "تشيزبيك"، ومن المدن والمزارع الصغيرة في "نيو إنجلاند"، ومن حيازات من الأرض في "وادي هدسون" تشبه الإقطاعيات، ومن البؤر الاستيطانية، ومراكز تجارة الفراء على الحدود الشمالية والغربية. سيطرت النخب المرتبطة بمراكز السلطة الإمبريالية على الحياة السياسية والاقتصادية لكل المستعمرات تقريبًا؛ ومع ذلك، تمتعت أعداد كبيرة من المستعمرين فرص أكبر بكثير للحرية، والحصول على حق التصويت، وآفاق الحصول على الأرض والحق في العبادة كما يحلو لهم، والفرار من الحكومة الظالمة بالمقارنة بالحريات المتاحة في أوروبا؛ وبالإضافة إلى ذلك، فقد تمتع المستعمرون الأحرار بأعلى دخل للفرد في العالم. وقد ساهم النمو الاقتصادي في المستعمرات في ارتفاع معدل المواليد، وطول العمر المتوقع، وزيادة الطلب على السلع الاستهلاكية.

كتب أحد المؤرخين أنه عاش في المستعمرات البريطانية الآلاف وهم ينعمون بأكبر قدر من الحرية عرفه العالم الغربي". ورغم ذلك، وجد كثيرون آخرون أنفسهم محصورين في نطاق الحرية الجزئية المسموح بها للخدمة بعقد، أو يعانون من الغياب الكامل للحرية، ويرزحون تحت نير العبودية، وكان كلا النوعان يتوقان منذ أمد طويل للحرية. كانت الأشكال الجديدة وغير المسبوقة من سلب الحرية ضرورية لإحداث التطور الملحوظ في مستعمرات أمريكا الشمالية".

أصوات الحرية

من رسالة من خادمة تعمل بعقد محدد المدة

(22 سبتمبر (أيلول) 1756)

كان المهاجرون الأوربيون إلى أمريكا الشمالية الذين يتمتعون بالحرية الكاملة يمثلون أقلية.

تنازل الخدم من الرجال والنساء بعقود عمل محدودة المدة عن حريتهم لفترة محددة من الوقت في مقابل الانتقال إلى أمريكا. يعبر هذا الخطاب الذي أرسلته "اليزابيث سبرنجس" من ميريلاند إلى أبيها في إنجلترا عن شكاوى كان يشعر بها العديد من موظفي الخدمة بالسخرة.

أبي العزيز

آمل أن يكون بعدي عن ناظريك إلى الأبد شفيعًا لي لتغفر لي جرأتي في إزعاجك بهذه المسائل التي سأتحدث عنها؛ لقد كان صمتي الطويل يرجع أساسًا لعدم وفائي لك، ولعلمي اليقيني بأنني ضايقتك إلى أقصى حد بعدم الكتابة لك خوفًا من أن أكتشف أنني قد حُرِمت من حبك ومن الحظوة لديك، وخوفًا من إضافة المزيد من المتاعب لك. . . .

أبي العزيز، أرجو أن تصدق بأن ما سأقوله الآن هو عين الحقيقة والصدق، وأن ما أمر به من معاناة هنا قد يكون نتيجة لسوء سلوكي معك من قبل؛ إنني على يقين أنك ستشفق على ابنتك التي تشعر بالأسى. إن مانعاني منه نحن الإنجليز هنا، للأسف ربما يكون أبعد من أن تحتملونه في إنجلترا؛ ويكفي أن أقول أنني واحدة من الاشقياء، إنني أكدح ليلاً ونهارًا تقريبا، وفي كثير من الأحيان كدح الحصان، مع القليل من الراحة التي لا تساوي نصف الراحة التي تشعر بها الكلبة، وبعد ذلك يتم تقييدي وجلدي كما يُفعَل بالحيوان تماما. ليس لنا من الطعام سوى الذرة الهندية والملح، حتى أننا كثيرًا ما نحسد الزنوج الذين يخضعون لظروف عمل وعيش أفضل منا، إنني عارية تقريبا، ليس لدي حذاء ولا جوارب، وقسط الراحة بعد العبودية يكون خلال فترة متعة الأسياد، لا يبقى لنا إلا أن نلف أنفسنا في بطانية ونرقد على الأرض. هذا هو الحال الذي يدعو للرثاء والأسف الذي تعيشه ابنتك المسكينة "بيتي". أتوسل إليك الآن إذا كان لديك أي بقايا من الرحمة لي أن ترسل لي ما يخفف عني ما أنا فيه؛ وأكثر ما أحتاجه هو الملابس، وأرجو أن تتعطف عليَّ بإرسالها لي بسهولة من خلال أي من السفن المتجهة إلى مدينة بالتيمور، نهر بتابسكو-ميريلاند. أود أن أختتم بإبداء الولاء لك وللعمات والأعمام والاحترام لجميع الأصدقاء. . . .

إليزابيث سبريجز

خطاب من مهاجر سويسري-ألماني إلى "بنسلفانيا"

"23 أغسطس (آب) 1769"

كان الألمان من بين أكثر المهاجرين عددًا إلى المستعمرات في القرن الثامن عشر؛ وقد كتب العديد منهم الرسائل إلى أفراد الأسرة في الوطن الأم يحكون فيها تجاربهم وانطباعاتهم في المهجر.

أعزائي أبي وأخي وأختي وزوج أختي

لقد قلت لكم كل شيء تقريبًا حول الرحلة، وسأقول لكم الآن ما لن يفاجئكم- إن لدينا بلد حر، حيث يستطيع المرء ممارسة أي من الحرف التي يرغب فيها، ولا يستلزم للحصول على الأرض دفع العشور (الضرائب التي يتم دفعها لدعم المالك المحلي وهي معروفة في أوروبا) . . . . الأرض واسعة جدًا تمتد حتى كندا إلى الشرق منا في كارولينا وجنوبًا إلى الحدود الإسبانية في الغرب. . . . يستطيع المرء أن يستقر أينما يريد دون أن يطلب إذنًا من أي أحد عندما يشتري أو يستأجر أي شيء . . . .

لدي دائمًا ما فيه الكفاية للقيام به ولا نعاني من نقص في الغذاء، فالخبز وفير، فإذا عملت لمدة يومين أستطيع كسب قدرًا من الخبز أكثر مما أحصل عليه من العمل لمدة ثمانية أيام في الوطن الأم. . . . أستطيع أيضًا شراء الكثير من الأشياء بسعر معقول، على سبيل المثال، يمكنني شراء زوج من الأحذية بحوالي سبعة شلن في بنسلفانيا. . . . أعتقد أنني بعون الله سأحصل على أرض. أنا لست متعجلاً لهذا الأمر حتى أكون في وضع أفضل.

أود أن يأتي أخي. . . وحينئذ سأكون أكثر سعادة في هذه البلاد. . . . أعتقد أن العديد من الناس قد وصفوا لكم البلاد بما فيه الكفاية، وليس من المستغرب أن وكلاء المهاجرين يطلبون بعض المال، نظرًا لأن الرحلة طويلة وأن البقاء بعيدا عن الوطن لمدة عام يكلف الكثير. . . .

يوهانس هانر

أسئلة:

1- لماذا كانت "إليزابيث سبريجز" ترى أن وضعها أسوأ من وضع السود؟

2- فيما كان "يوهانس هانر" يفكر عندما أطلق على أمريكا "بلد حر"؟

3- ماهي العوامل التي قد تفسر التجارب المختلفة لهذين المهاجرين إلى أمريكا الشمالية البريطانية؟

أسئلة المراجعة:

1- كان كلا من التطهريون و"وليم بن" على حد سواء يرون أن مستعمراتهم عبارة عن "تجارب مقدسة." فكيف اختلفت رؤيتهما في النهاية؟

2- تَذْكُر الكتب المدرسية أن "التحيز في حد ذاته لم يخلق العبودية الأمريكية." قم بفحص ودراسة القوى والأحداث التي أدت إلى العبودية في أمريكا الشمالية والدور الذي لعبه التحيز العنصري.

3- كيف كان يُنظَر إلى تصرفات الملك "جيمس الثاني" نحو "نيو إنجلاند" على أنها تهديدات لحرية المستعمرات؟

4- كيف توضح حرب "الملك فيليب"، وثورة "بيكون"، ومحاكمات الساحرات ببلدة سالم أنه كانت هناك أزمة على نطاق واسع في أمريكا الشمالية البريطانية في أواخر القرن السابع عشر؟

5- كانت البنية الاجتماعية للمستعمرات في القرن الثامن عشر تزداد انفتاحًا بدرجة أكبر من غيرها. أي المستعمرات كان لديها المزيد من الفرص، وأيها كانت تفتقر هذه الفرص؟

6- كانت التجارة أساس الإمبراطوريات والسبب الرئيسي للمنافسة بينها بحلول نهاية القرن السابع عشر. اشرح كيف ارتبطت مستعمرات أمريكا الشمالية مباشرة بالتجارة عبر الأطلسي من خلال القوانين والتجارة.

7- إذا كنت سافرت خارج "نيو إنجلاند القرن الثامن عشر، قد تتفق مع مسافر آخر على أن المستعمرات كانت تُظهِر تنوعًا أكبر في نواح كثيرة. كيف يمكنك أن تدعم هذا الادعاء؟

8- على الرغم من افتقارهم للحقوق، غالبًا ما كان النساء والأطفال الذين يعملون بجدية يمثلون مفتاح نجاح مزارعي الأسر المستقلة. اثبت حقيقة هذا العبارة.

أسئلة الحرية:

1- أصر المستوطنون الإنجليز على أن الحرية الحقيقية للأمريكيين الأصليين تعني أنه يجب عليهم التخلي عن تقاليدهم وقبول أسلوب الحياة الإنجليزية. اذكر التغييرات التي طرأت على حياة الأمريكيين الأصليين بحلول منتصف القرن الثامن عشر، وناقش ما إذا كانت حرية الأمريكيين الأصليين قد زادت وفقًا لأي معايير.

2- تواجدت الحرية وانعدام الحرية جنبًا إلى جنب في المستعمرات الإنجليزية. اشرح ذلك مستعينًا بأمثلة من "بنسلفانيا" وغيرها، كيف أن زيادة الحرية لبعض المستعمرين في منطقة واحدة كانت تعني حرية أقل بالنسبة لآخرين.

3- ربط المواطنون البريطانيون بين الحرية من ناحية وملكية الأرض وعدم الاضطرار للعمل من أجل الأجر من ناحية أخرى. لماذا قاموا بهذا الربط وما هي عواقب ذلك على البنية الاجتماعية؟

4- لقد أعرب بعض المؤرخين عن رأيهم بأن الحريات وازدهار الإمبراطورية البريطانية كانت ترتكز على العبودية. ناقش هذه العبارة باستخدام أمثلة محددة.

5- كان كثيرون من المستوطنين البريطانيين في أمريكا الشمالية يعتقدون أنها "أفضل بلد بالنسبة للرجل الفقير"، وأنهم كانوا الأكثر حرية في العالم. ما هي العوامل التي من شأنها أن تؤدي إلى مثل هذا الادعاء؟

جدول مراجعة				
الأزمات الاستعمارية في أواخر القرن السابع عشر				
الأزمة	التواريخ	جذور الصراع	العمل	القرار
حرب الملك فيليب	1675-1676	اعتداء المستعمرين البيض على ارض الهنود	قوات "فيليب" تهجم على خمسة واربعين بلدة في "نيو إنجلاند"	المستوطنون يردون على الهجوم ويحطمون قوة الهنود
تمرد "بيكون"	1676	فساد حكومة "فرجينيا"	"بيكون" يحرق "جيمس تاون" ويستولى على السلطة	قيام النخبة الحاكمة في "فرجينيا" بإصلاحات
الثورة المجيدة	1688	الملك "جيمس الثاني" يهدد بإعادة الكاثوليكية لإنجلترا	انقلاب غير دموي للإطاحة "بجيمس الثاني"، المستعمرون يطيحون باتحاد أو "دومنيون نيو إنجلاند"	تتويج "وليم وماري اوف اورانج" البروتستانتيين على العرش
محاكمة ساحرات بلدة سالم	1691-1692	بدء تجربة الفتيات الصغار للسحر وسط اضرابات وتوترات سياسية واجتماعية	اتهام المئات بممارسة السحر وشنق تسعة عشر شخصا	الحاكم يحل محكمة سالم

الفصل الرابع

1680	اثنان من الأطروحات الحكومية
1707	قانون الاتحاد لإنشاء بريطانيا العظمى
1712	انتفاضة الرقيق في مدينة نيويورك
1713	معاهدة أوترخت
1720 – 1723	رسائل كاتو
1727	نادي الزمرة الذي أسسه بنيامين فرانكلين
1728	تأسيس جريدة "بنسلفانيا جازيت"
الثلاثينيات من القرن الثامن عشر	الصحوة الكبرى
1733	تأسيس مستعمرة جورجيا
1735	محاكمة جون بيتر زنجر بتهمة التشهير والتشجيع على التمرد
1739	تمرد "ستونو"
1749	منح "شركة أوهايو" أراضي من "فرجينيا"
1754 - 1763	حرب السنوات السبع
1754	خطة ألباني للاتحاد التي صاغها بنيامين فرانكلين
1757	تولي "وليام بيت" منصب رئيس وزراء بريطانيا
1763	تمرد "بونتياك" وأصدار الحكومة البريطانية إعلان 1763
1769	الأب "سيرا" يؤسس أولى البعثات التبشيرية في "كاليفورنيا"

العبودية والحرية والكفاح من أجل الإمبراطورية إلى عام 1763

العبودية والإمبراطورية
- التجارة عبر الأطلسي
- إفريقيا وتجارة العبيد
- الممر الأوسط
- الرق في "تشيزبيك"
- الحرية والعبودية في "تشيزبيك"
- عبودية الهنود في المراحل الأولى من تأسيس "كارولينا"
- مملكة الأرز
- تجربة "جورجيا"
- العبودية في الشمال

ثقافات العبودية ومقاومة العبودية
- أن تصبح أمريكيًا من أصل إفريقي
- ثقافات الأمريكيين من أصل إفريقي
- مقاومة العبودية
- الأزمة ما بين عامي 1739-1741

إمبراطورية الحرية
- الوطنية البريطانية
- الدستور البريطاني
- لغة الحرية
- الحرية الجمهورية
- الحرية الليبرالية

الشأن العام
- الحق في التصويت
- الثقافات السياسية
- الحكومة الاستعمارية
- نشأة المجالس النيابية
- السياسة في الإطار العام
- الصحافة الاستعمارية
- حرية التعبير وحدودها
- محاكمة "زنجر"
- التنوير الأمريكي

الصحوة الكبرى
- الصحوة الدينية
- وعظ "وايتفيلد"
- تأثير الصحوة

المنافسات الإمبريالية
- أمريكا الشمالية الاسبانية
- الإسبان في "كاليفورنيا"
- الإمبراطورية الفرنسية

معركة من أجل القارة
- الموقف الوسط
- حرب السنوات السبع
- تحول العالم
- تمرد "بونتياك"
- حدود الإعلان
- "بنسلفانيا" والهنود
- الهويات الاستعمارية

أسئلة تركيز:

- كيف اختلفت العبودية الإفريقية إقليميًا في أمريكا الشمالية في القرن الثامن عشر؟
- ما هي العوامل التي أدت إلى تميز ثقافات الأمريكيين من أصل إفريقي في القرن الثامن عشر؟
- ما هي معاني الحرية البريطانية في القرن الثامن عشر؟
- ما هي المفاهيم والمؤسسات التي هيمنت على السياسة الاستعمارية في القرن الثامن عشر؟
- كيف تحدت الصحوة الكبرى النظام الديني والاجتماعي في أمريكا الشمالية البريطانية؟
- كيف تطورت الإمبراطوريات الإسبانية والفرنسية في أمريكا في القرن الثامن عشر؟
- ما هو تأثير حرب السنوات السبع على العلاقات بين الإمبريالية وبين الهنود والبيض؟

في وقت ما في منتصف الخمسينيات من القرن الثامن عشر، تم اختطاف "أولوداه إكيوانو" الذي كان يبلغ من العمر أحد عشر عاما، وهو ابن زعيم قرية في غرب إفريقيا من قبل تجار الرقيق ، وسرعان ما وجد نفسه على متن سفينة متجهة الى جزيرة "بربادوس"؛ وبعد إقامة قصيرة في تلك الجزيرة الكاريبية تم بيعه إلى مالك مزرعة في "فرجينيا"، ثم إلى قبطان بحري بريطاني، والذي منحه اسم "جوستافوس فازا" وصحبه معه في العديد من الرحلات على السفن التجارية عبر الأطلسي؛ وبينما كان لا يزال عبدًا التحق بمدرسة في إنجلترا حيث تعلم القراءة والكتابة، ثم انضم إلى البحرية الملكية، وحارب في كندا تحت قيادة الجنرال "جيمس وولف" في عام 1758 خلال حرب السبعة أعوام؛ ومع ذلك، تم بيعه مرة أخرى في عام 1763 وعاد إلى منطقة البحر الكاريبي، واستطاع بعد ثلاث سنوات شراء حريته، ونجا عدة مرات من تحطم السفن، وشارك في مشروع استعماري إنجليزي في أمريكا الوسطى، بل وشارك في رحلة استكشافية إلى الدائرة القطبية الشمالية.

استقر "إكيوانو" في نهاية المطاف في لندن، ونشر في عام 1789 كتاب "السرد المثير لحياة أولوداه إكيوانو، أو جوستافوس فازا الإفريقي"، والذي وصفه بأنه "تاريخ ليس لقديس، ولا بطل، ولا لطاغية"، ولكن حياة ضحية للرق الذي أنتهي عن طريق الحظ أو القدر بحظ أوفر من معظم شعبه. أدان "إكيوانو" في هذا السرد فكرة أن الأفارقة كانوا أدنى من الأوروبيين، ولذلك كانوا يستحقون أن يكونوا عبيدًا، كما حث القارئ الأوروبي أن يتذكر أن "أسلاف الأوربيين كانوا من قبل غير متحضرين مثل الأفارقة"، وتساءل "هل خلقهم الله في درجة أدنى. . . وهل يجب استعباد الأوربيين أيضا؟ واستأنف حديثه قائلاً "الأشخاص من جميع الأجناس قادرون على الارتقاء الفكري". أصبح هذا الكتاب هو التقرير الأكثر قراءة في عصره بقلم عبد عن تجربته الخاصة؛ وتوفى "إكيوانو" في عام 1797.

لقد أعرب علماء العصر الحديث عن أنه ربما كان محتملاً أن يُولد "إكيوانو" في الواقع في العالم الجديد وليس في إفريقيا؛ وفي كلتا الحالتين، في حين أن خبراته وتجاربه الغنية المتنوعة كانت بدون شك غير عادية، كما تسلط حياته أيضًا الضوء على أنماط واسعة من التاريخ الأمريكي في القرن الثامن عشر؛ كما لوحظ في الفصل السابق، كانت هذه فترة من التنمية المستدامة لشمال أمريكا البريطانية؛ وإذا ما عقدنا مقارنة بين إنجلترا واسكتلندا - اللتان توحدتا لخلق بريطانيا العظمى بموجب قانون الاتحاد لعام 1707 - من ناحية والمستعمرات من ناحية أخرى، سنجد أن الأخيرة تنمو بسرعة أكبر بكثير؛ وقد وصف بعض معاصري تلك الحقبة أمريكا البريطانية قائلين "الإمبراطورية الصاعدة" التي من شأنها أن تطغى ذات يوم على البلد الأم في عدد السكان وفي الثروة.

بيد أنه سيكون من الخطأ النظر لأول ثلاثة أرباع القرن الثامن عشر ببساطة كتمهيد للاستقلال الأمريكي؛ وكما توضح حياة "إكيوانو" كان المحيط الأطلسي بمثابة جسر أكثر منه حاجزًا بين العالم القديم والعالم الجديد، حيث كانت الأفكار والأشخاص والبضائع تتدفق ذهابًا وإيابًا عبر المحيط، حتى مع تنوع سكان المستعمرات بدرجة أكبر، فقد زاد اندماجهم على نحو متزايد في الإمبراطورية البريطانية، وكانت قوانينهم ومؤسساتهم السياسية تمثل امتدادًا لتلك التي في بريطانيا، وعكست أفكارهم حول المجتمع والثقافة القيم البريطانية، وكانت اقتصادياتها موجهة لخدمة احتياجات الإمبراطورية. مع تنافس القوى الأوروبية للاستفادة من أمريكا الشمالية، انخرط المستعمرون في سلسلة متواصلة تقريبًا من الحروب مع فرنسا وحلفائها الهنود، مما عزز شعورهم بارتباطهم ببريطانيا العظمى واعتمادهم عليها.

تؤكد حياة "إكيوانو" أيضًا على أعظم مفارقة أو تناقض في تاريخ القرن الثامن عشر، ألا وهو التوسع المتزامن للحرية والعبودية، حيث شهد هذا العصر الترسيخ القوي لفكرة "الإنجليزي المولود حرًا" في عقل كل من المستعمرين والبريطانيين، وكان ينظر للحرية أكثر من أي مبدأ آخر باعتبارها العلامة المميزة للإمبراطورية البريطانية، وكان القرار (أي العبارة التي تتكرر في القصيدة أو الأغنية) لأحد الأغنيات الأكثر شعبية في تلك الفترة تقول "البريطانيون أبدًا، أبدًا ، أبدًا لن يكونوا عبيداً". غير أن القرن الثامن عشر شهد أيضًا زيادة في تجارة الرقيق عبر الأطلسي، وتزايدت هيمنة التجار البريطانيين عليها، وتم نقل أكثر من نصف الأفارقة الذين تم شحنهم إلى العالم الجديد كعبيد بالسفن البريطانية، وكان معظمهم متجه إلى مزارع جزر الهند الغربية والبرازيل، ولكن بلغ أيضًا عدد العبيد حوالي 280.000 شخص من إجمالي 585.000 شخص، والذين وصلوا إلى مستعمرات البر الرئيسي البريطاني خلال الفترة ما بين عامي 1700 و 1775؛ وعلى الرغم من تمركزهم في "تشيزبيك" والمناطق في أقصى الجنوب، إلا أن العبودية وُجِدَت في كل مستعمرة من أمريكا الشمالية البريطانية؛ وعلى عكس من "إكيوانو" كان عدد قليل جدًا من العبيد محظوظ بما فيه الكفاية للحصول على حريته.

الرق والإمبراطورية

كان أكثر من نصف الأفارقة الذين تم نقلهم إلى العالم الجديد خلال الفترة ما بين عامي 1492 و 1820، والذين يُقَدر عددهم بحوالي 7.7 مليون، كانوا قد وصلوا ما بين عامي 1700 و 1800؛ وقد تم بعد ذلك إدانة تجارة الرقيق عبر الأطلسي من قبل رجال الدولة والرأي العام بأنه جريمة ضد الإنسانية، ولكنها في القرن الثامن عشر كانت من ضمن الأعمال المقننة، وقد شارك التجار الأوروبيون والتجار الأفارقة والمزارعون الأمريكيون في مفاوضات معقدة حول

حياة الإنسان بغرض تأمين تحقيق أرباح. كانت تجارة الرقيق تمثل جزءًا حيويًا من حجم التجارة العالمية، واستخدمت كل إمبراطورية أوروبية في العالم الجديد عمل العبيد، وتقاتلت للسيطرة على هذه التجارة المربحة. كان اتفاق "أسيانتو" "asiento" بمثابة جائزة دبلوماسية هامة، وبموجبه تعاقدت إسبانيا من الباطن مع قوة أجنبية، ومنحتها الحق في توفير العبيد لأمريكا الإسبانية، ثم كان استحواذ بريطانيا على هذا الاتفاق asiento من الهولنديين في معاهدة "أوترخت" في عام 1713، بمثابة خطوة كبيرة في طريق صعود بريطانيا إلى مرتبة التفوق التجاري.

صار الرق هو القاعدة والعمالة الحرة التي تعمل بأجر هي الاستثناء في الإمبراطورية البريطانية في القرن الثامن عشر. ساهمت مزارع العبيد بقوة في التنمية الاقتصادية الإنجليزية، حيث كان يتم إنتاج السلع الاستهلاكية الجماهيرية للمرة الأولى في التجارة الدولية عن طريق العبيد، مثل السكر، والأرز، والقهوة، والتبغ، وقد أدى الطلب المتزايد على هذه المنتجات إلى تغذية النمو السريع في تجارة الرقيق عبر الأطلسي.

التجارة عبر الأطلسي

ظلت منطقة البحر الكاريبي في القرن الثامن عشر بصفتها بؤرة تجارية للإمبراطورية البريطانية والمُنتج الرئيسي للدخل بالنسبة للتاج البريطاني، ولكن المنتجات الزراعية التي كان يزرعها العبيد في البر الرئيسي احتلت جزءا أكبر وأكبر من التجارة عبر الأطلسي. تقاطعت سلسلة من الطرق التجارية الثلاثية عند الأطلسي، الأولى تنقل السلع البريطانية المصنعة إلى إفريقيا وإلى المستعمرات، والثانية تنقل منتجات المستعمرات، بما في ذلك التبغ، ونبات النيلة، والسكر، والأرز إلى أوروبا، والثالثة تنقل العبيد من إفريقيا إلى العالم الجديد؛ ومع ذلك، تحركت معظم السفن ذهابًا وإيابًا بين مدن مثل "نيويورك"، و"تشارلستون"، و"سافانا" وإلى موانئ في منطقة البحر الكاريبي. استفادت المناطق التي كان فيها الرق مجرد مؤسسة صغيرة أيضًا من عمل العبيد. شارك التجار في "نيويورك"، و"ماساتشوستس"، و"رود آيلاند" بنشاط في تجارة الرقيق حيث كانوا يقومون بشحن العبيد من إفريقيا إلى المستعمرات في منطقة البحر الكاريبي، أو إلى المستعمرات الجنوبية. كانت اقتصاديات الرقيق في جزر الهند الغربية أكبر سوق للأسماك، والحبوب، والثروة الحيوانية، والخشب المصدر من "نيو إنجلاند" والمستعمرات الوسطى. شاركت نصف السفن التي تدخل أو تغادر ميناء "نيويورك" في عام 1720 في التجارة مع منطقة البحر الكاريبي؛ وفي الحقيقة، كتب أحد المؤرخين قائلاً "لقد تحقق النمو والازدهار في المجتمع الناشئ في أمريكا البريطانية الاستعمارية الحرة بفضل عمل العبيد." أما في بريطانيا نفسها، فقد حفزت أرباح العبودية وتجارة الرقيق على إقامة الموانئ مثل "ليفربول" و"بريستول"، ونمو الخدمات المصرفية وبناء السفن والتأمين،

كما ساعدت في تمويل الثورة الصناعية في مراحلها المبكرة.

وبصفة عامة، اشتملت التجارة عبر الأطلسي في القرن الثامن عشر في الأساس على التجارة في العبيد، والمحاصيل التي ينتجها العبيد والسلع الموجهة لمجتمعات الرقيق؛ ينبغي أن لا يثير الدهشة أن الحرية بالنسبة لأعداد كبيرة من المستعمرين والأوروبيين الأحرار كانت تعني بشكل جزئي السلطة والحق في استعباد الآخرين. مع ترسخ العبودية أكثر فأكثر، ترسخت أيضًا فكرة أن العبودية ترتبط باللون الأسود، بينما ترتبط فكرة الحرية باللون الأبيض، كما عَبَّرَ الكويكر المؤيد لمبدأ إلغاء العبودية جون ولمان في عام 1762.

إفريقيا وتجارة العبيد

آثر عدد قليل من المجتمعات الإفريقية، مثل بنين لبعض الوقت، عدم ممارسة تجارة الرقيق عبر الأطلسي، على أمل تجنب الاضطرابات التي لابد وأن تسببها هذه التجارة، ولكن معظم الحكام الأفارقة شاركوا وأثبتوا أنهم بارعون جدًا في المساومة مع الأوروبيين، وجمع الضرائب من التجار الأجانب، ومواصلة الإمساك بالعبيد وبيعهم تحت سيطرتهم. خاطر عدد قليل من الأوروبيين في الانتقال إلى المناطق الداخلية بعيدًا عن الساحل، وظل التجار في مصانعهم وتم جلب العبيد الذين اشتروهم من خلال الحكام الأفارقة والتجار.

جعلت تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي من إفريقيا سوقًا رئيسيًا للسلع الأوروبية، وخاصة المنسوجات والبنادق، وقد أثرت كلتا السلعتان سلبًا على العلاقات داخل وبين المجتمعات الإفريقية، حيث أدى تدفق المنسوجات المستوردة الرخيصة إلى تقويض الإنتاج الحرفي التقليدي، في حين شجعت البنادق على نمو العبودية، لأن توريد العبيد كان هو السبيل الوحيد للحصول على الأسلحة الأوروبية، وبحلول القرن الثامن عشر، نشأت الدول المعسكرة مثل أشانتي وداهومي في غرب إفريقيا، حيث كان بها جيوش كبيرة تستخدم الأسلحة النارية الأوروبية للهجوم على البلاد المجاورة من أجل القبض على العبيد؛ ومن أصل مؤسسة صغيرة في البداية، نمت العبودية لتصبح أكثر فأكثر أهمية للمجتمع في غرب إفريقيا، ومصدرًا للثروة للتجار الإفريقيين، ومصدرًا للسلطة بالنسبة للممالك الإفريقية الصاعدة حديثا. أدى فقد عشرات الآلاف من الرجال والنساء في مقتبل العمر كل عام من خلال تجارة الرقيق إلى ضعف وتشويه المجتمع والاقتصاد في غرب إفريقيا.

الممر الأوسط

بالنسبة للعبيد، كانت الرحلة عبر الأطلسي بمثابة تجربة مروعة، وكان يُطلَق عليها اسم الممر الأوسط، لأنها كانت تمثل الضلع الثاني أو الأوسط في مثلث الطرق التجارية التي تربط بين

أوروبا وإفريقيا وأمريكا؛ ونظرًا لأنه كان من الممكن بيع العبد في أمريكا في مقابل ثمن يتراوح بين عشرين إلى ثلاثين ضعف الثمن في إفريقيا، لذلك كان يتم تكديس الرجال والنساء والأطفال على متن السفن بأكبر عدد ممكن لتحقيق أقصى قدر من الأرباح؛ وقد كتب أحد تجار الرقيق قائلاً "أحيانا ما كان الارتفاع بين طوابق السفينة هو ثمانية عشر بوصة فقط بحيث لا يستطيع البشر المساكين الاستدارة أو حتى التقلب على جنوبهم. . . وهنا يتم عادة تقييدهم بالسلاسل من أعناقهم وأرجلهم. كان من بينهم "إكيوانو" الذي نجا ثم وصف هذا الممر لاحقًا، حيث قال " صرخات النساء وأنين الذين يموتون"، بينما لم ينج العديد من الأفارقة ولاقوا حتفهم. انتشرت الأمراض بسرعة، مثل الحصبة والجدري، ولاقى حوالي واحد من بين كل خمسة من العبيد حتفه قبل الوصول إلى العالم الجديد. كان معروفًا أن ربانو السفن كانوا يرمون المرضى في البحر من أجل منع انتشار الأوبئة، ولكن المرض والموت امتد أيضًا لينال نسبة مرتفعة من طواقم السفن.

اتجه إلى البر الرئيسي بأمريكا الشمالية نسبة صغيرة (أقل من 5 في المائة) من العبيد الذين تم حملهم إلى العالم الجديد، بينما هبطت الغالبية العظمى في البرازيل أو جزر الهند الغربية، لأن ارتفاع معدل الوفيات في مزارع السكر أدى إلى استمرار الطلب على الواردات الجديدة من الرقيق. لم يهبط إلى المستعمرات البريطانية في شمال أمريكا أعداد كبيرة من العبيد إلا في عام 1700، حيث وصل هناك حوالي 20.000 من الأفارقة العبيد، ومع ذلك تزايد هذا العدد في القرن الثامن عشر باطراد؛ وبصفة عامة، استوردت المنطقة التي كانت لتصبح الولايات المتحدة ما بين 400.000 و 600.000 من العبيد، وبحلول عام 1770، كان عدد الأفارقة وأحفادهم الذين يعيشون في المستعمرات الإنجليزية من أمريكا الشمالية قد وصل إلى حوالي خمس ما يقدر بـ 2.3 مليونًا من إجمالي السكان (ليس من بينهم الهنود)، ويرجع ذلك إلى ارتفاع نسبة التكاثر الطبيعي بين السكان العبيد.

العبودية في "تشيزبيك"

ترسخت ثلاثة أنظمة متميزة جيدًا من العبيد في مستعمرات البر الرئيسي البريطانية بحلول منتصف القرن الثامن عشر: عبودية مزارع التبغ في "تشيزبيك"، وعبودية مزارع الأرز في "ساوث كارولينا" و"جورجيا"، وعبودية خارج المزارع الموجودة في "نيو إنجلاند" والمستعمرات الوسطى. كان نظام مزارع التبغ في "تشيزبيك" هو الأكبر والأقدم، حيث كان يقيم أكثر من 270.000 من العبيد في عام 1770، أي ما يقرب من نصف سكان المنطقة. كانت "فرجينيا" و"ميريلاند" مرتبطتين ارتباطًا وثيقًا ببريطانيا في عشية الثورة، كما كانت أي من المستعمرات الأخرى، وكانت اقتصاداتها تمثل نماذج للسياسة التجارية (تم وصفها في الفصل الثالث)، فهي تزود الوطن الأم بمنتج زراعي قيِّم،

وتستورد كميات كبيرة من البضائع البريطانية، وكانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالقيم الثقافية والسياسية السائدة في لندن؛ وكما رأينا، فقد شهدت فترة ما بعد عام 1680 تحولاً سريعًا من العمل بعقد لمدة محددة في مزارع التبغ في المنطقة، حيث أدى زيادة الطلب العالمي على التبغ في القرن الثامن عشر إلى تشجيع استمرار الواردات من الرقيق، ولكن عندما انخفضت أسعار التبغ في الجزء الأول من القرن، تحول بعض المزارعين إلى إنتاج الحبوب، وإن ظل التبغ يمثل مصدرهم الرئيسي للثروة.

توسعت العبودية أيضًا مع توسع "فرجينيا" غربًا، وانتقل مركز ثقل العبودية في المستعمرة من "تايدواتر" (منطقة على طول الساحل) إلى "بيدمونت" في الداخل بعيدًا عن الساحل. عمل معظم العبيد من الذكور والإناث في "تشيزبيك" في الحقول، ولكن عمل الآلاف كسائقي شاحنات وبحارة، وفي الحرف اليدوية الماهرة. أصبح العديد من العبيد النساء طاهيات، وخياطات، وعاملات لصناعة منتجات الألبان، وموظفات للخدمة الشخصية. سَجَّل نجل "جورج ميسون"، أحد المزارعين الرواد في "فرجينيا" وأحد رجال الدولة، أن عبيد والده قد ضموا فيما بينهم "صناع البراميل، ونشاري الخشب، وحدادين، ودباغين، وصناع أحذية، وعمال غزل، ونساجين، وعاملي الحياكة (التريكو) وحتى عمال التقطير." كان الرق شائعًا في المزارع الصغيرة، وكذلك المزارع الكبيرة؛ ما يقرب من نصف الأسر البيض في "فرجينيا" يملكون عبدًا واحدًا على الأقل في عام 1770؛ نظرًا لأن هناك القليل من "اقتصاد الحجم" في زراعة التبغ- بمعنى أن التوسع في حجم الإنتاج لا يقلل من حجم التكاليف ويُعظِّم من الإنتاجية – لذلك تميل مزارع "تشيزبيك" إلى أن تكون أصغر من المزارع في منطقة البحر الكاريبي، وكان التفاعل اليومي بين السادة والعبيد أكثر اتساعا.

أرست العبودية حجر الأساس لتوطيد وتعزيز مكانة النخبة الذين هيمنوا على المجتمع والسياسة في "تشيزبيك"، وهم طبقة النبلاء أصحاب الأملاك، بالإضافة إلى التجار القائمين على تجارة التبغ، والمحامين الذين كانوا يدافعون عن مصالح مالكي العبيد؛ وبالرغم من أن الثورة الاستهلاكية قد حَسَّنت من مستوى معيشة البيض الأقل مركزًا في الوقت نفسه، إلا أن آفاقهم الاقتصادية على المدى الطويل قد تضاءلت. مع التوسع في العبودية، استولى المزارعون على أفضل الأراضي، وأصبحت الثروة مركزة بدرجة أكبر بين السكان البيض أكثر وأكثر. حولت العبودية المجتمع في "تشيزبيك" إلى تسلسل هرمي واضح المعالم من درجات الحرية، حيث كان كبار المزارعون يحتلون القمة، ويليهم إلى أسفل العديد من المزارعين الأقل أملاكًا وثروة، ثم الفلاحون ملاك الأراضي، ثم في القاع عدد كبير من المدانين والخدم بالسخرة والمزارعين مستأجري الأرض وليس ملاكها (الذين يشكلون نصف الأسر البيضاء في عام 1770)، وبالطبع العبيد.

الحرية والعبودية في "تشيزبيك"

مع تعزيز مجتمع الرقيق في "تشيزبيك"، ملأ المزارعون كتب القانون بتدابير خاصة بتعزيز سلطة السيد على ملكيته من البشر، وتقييد فرص حصول السود على الحرية، وتم غرس العنف في صلب نظام الرقيق، حتى أن أحد المزارعين، ويدعى "لاندون كارتر"، الذي كان يزهو بنفسه على أنه يهتم برفاهية العبيد لديه قد عَلَّق عرضيا في مذكراته قائلاً، "كان يتم جلدهم بشدة يومًا بعد يوم."

اكتسب "الجنس العرقي" المزيد والمزيد من الأهمية كخط للتقسيم الاجتماعي. كان البيض الأحرار يعتبرون على نحو متزايد أن السود يمثلون خطرًا وأنهم غير مرغوب فيهم؛ وقد فقد السود الأحرار الحق في تشغيل الموظفين البيض وحمل السلاح، وتم إخضاعهم لضرائب خاصة، ويمكن معاقبتهم في حال القيام بضرب شخص أبيض، بغض النظر عن السبب، وألغت "فرجينيا" في عام 1723 حق السود الأحرار من أصحاب الأملاك في التصويت. عندما طلب لوردات التجارة في لندن من حاكم "فرجينيا" تبرير التمييز بين "الأحرار على أساس لون البشر فقط" أجاب قائلاً "يجب أن يكون هناك تمييز بين نسلهم ونسل الإنجليز ولا يمكن المساواة بينهم". نظرًا لأن قانون ولاية "فرجينيا" كان يستلزم إبعاد العبيد المحررين عن المستعمرة، لذلك ظل السود الأحرار يشكلون نسبة ضئيلة من السكان تقل عن 4% في عام 1750؛ وهكذا أصبحت كلمتا "حر" و"أبيض" متطابقتين تقريبا.

العبودية الهندية في المراحل الأولى من تأسيس "كارولينا"

برز في أقصى الجنوب نظام مختلف للعبودية يقوم على إنتاج الأرز في "ساوث كارولينا" و"جورجيا". كان سكان جزيرة "بربادوس"، الذين استقروا مبدئيًا في "ساوث كارولينا" في السبعينيات من القرن الثامن عشر على دراية تامة بالعبودية الإفريقية، ولكن كان أول ضحاياهم هم السكان الأصليين بالمنطقة. ركز اقتصاد "كارولينا" في البداية على تصدير العبيد الهنود إلى منطقة البحر الكاريبي، وتصدير الفراء وجلود الغزلان اللذين يحصلون عليهما من الهنود إلى إنجلترا. رحَّب الهنود الحليون مبدئيًا بالمستوطنين وبدأوا يبيعون لهم العبيد، وهم من أسرى الحرب وعائلاتهم في الغالب، وكان قد تم بيع معظمهم إلى جزر الهند الغربية، حتى أنهم شنوا الحروب ضد القبائل المجاورة، ولاسيما بهدف جمع وبيع العبيد؛ ومع ذلك، أدى التوسع في نظام المزارع إلى إثارة مخاوف الهنود، حيث تجاوز الأمر التعدي على أرضهم إلى الخوف من أن يتم استعبادهم هم أيضا، وكانوا على علم أن حفنة فقط من العبيد يعملون في مكان قريب من "فلوريدا الإسبانية"، وقد عَلَّق أحد زعماءهم في عام 1738 قائلاً أنه يفضل التعامل مع الإسبان لأنهم "لا يستعبدون أحدًا مثلما يفعل الإنجليز".

مملكة الأرز

كما هو الحال مع بداية تأسيس مستعمرة "فرجينيا" ونظرًا للظروف على حدود "ساوث كارولينا"، فقد سُمِحَ للعدد الصغير من السكان من العبيد الذين وُلِدُوا في إفريقيا وقاموا بالزراعة وتربية الثروة الحيوانية، وكان مسموحًا لهم مبدئيًا بالخدمة في الميليشيات من أجل محاربة الإسبان والهنود؛ وبالمثل مع "فرجينيا" أيضًا، أدى إدخال محصول أساسي قابل للتسويق، في هذه الحالة الأرز، مباشرةً إلى التنمية الاقتصادية واستيراد واسع النطاق للعبيد والفجوة المتزايدة بين البيض والسود. كانت كارولينا الجنوبية أول مستعمرة في البر الرئيسي تضم أغلبية سكانية من السود، فبحلول الثلاثينيات من القرن الثامن عشر (الذي تزامن مع الوقت الذي أصبحت فيه كارولينا الشمالية مستعمرة منفصلة) كان ثلثا السكان من السود. بدأت المستعمرة بحلول الأربعينيات من القرن الثامن عشر في زراعة محصول النيلة، الذي يستخدم في إنتاج الصبغة الزرقاء ويتطلب مثل الأرز الزراعة على نطاق واسع وكان يقوم بذلك العبيد.

ومن المثير للسخرية، أن الأفارقة هم الذين عَلَّموا المستوطنين الإنجليز كيفية زراعة الأرز، لأنهم كانوا على خبرة بزراعته في بلادهم في إفريقيا قبل المجيء للعالم الجديد، إلا أن هذا المحصول أصبح بعد ذلك أساس العبودية في "كارولينا الجنوبية"، وأساس ثراء فئة مالكي العبيد في البر الرئيسي لأمريكا الشمالية؛ ونظرًا لأن إنتاج الأرز يتطلب استثمارات رأسمالية كبيرة لتجفيف المستنقعات وإنشاء شبكات الري، لذلك من المفيد من الناحية الاقتصادية أن تكون مزارع الأرز واسعة بأكبر قدر ممكن، وبناءً على ذلك، فقد امتلك مزارعو "كارولينا الجنوبية" أراضي وعبيدًا أكثر بكثير من نظرائهم في "فرجينيا"؛ وبالإضافة إلى ذلك، ونظرًا لأن البعوض يحمل الملاريا (مرض قد طورت أجساد الأفارقة مناعة جزئية ضده)، فقد انتشر هذا المرض في حقول الأرز كثيرة المياه، مما جعل المزارعين يميلون إلى ترك المزارع تحت سيطرة المشرفين والعبيد أنفسهم.

عمل العبيد في حقول "تشيزبيك" في مجموعات تحت إشراف مستمر؛ وفي ظل نظام "المهمة" الذي نشأ في القرن الثامن عشر في كارولينا الجنوبية، كان يتم إسناد مهام يومية للعبيد الأفراد، والتي إذا ما نجحوا في الانتهاء منها يُسْمَح لهم ببعض وقت الفراغ أو زراعة المحاصيل الخاصة بهم. بلغ عدد سكان أحد مراكز الأرز 76 فقط من الرجال البيض في مقابل 1.000 شخص من العبيد في عام 1762؛ ونظرًا للخوف من غالبية السكان السود المتزايدين باستمرار، اتخذت السلطات التشريعية في كارولينا الجنوبية تدابير لتشجيع هجرة "الفقراء البروتستانت"، وعرضت على كل وافد جديد مكافأة نقدية وأحيانًا ما فرضت الضرائب على الواردات من العبيد، إلا أن لندن أوقفت هذه الإجراءات. وصل عدد العبيد في "كارولينا الجنوبية" إلى 100.000 عبد بحلول عام 1770، بما يعادل أكثر من نصف سكان المستعمرة.

تجربة جورجيا

انتشرت زراعة الأرز أيضًا في "جورجيا" في منتصف القرن الثامن عشر. لقد تأسست المستعمرة في عام 1733 من قبل مجموعة من المحسنين الخَيِّرين بقيادة "جيمس أوجليثورب"، وهو مصلح ثري كان يناصر قضايا منها تحسين ظروف المدينين المسجونين وإلغاء الرق، وكان يأمل في إنشاء ملاذ حيث يستطيع "الفقراء الشرفاء الأكفاء" من إنجلترا التمتع بالفرص الاقتصادية. دعمت الحكومة في لندن إنشاء "جورجيا" لحماية "كارولينا الجنوبية" من الإسبان وحلفائهم الهنود في فلوريدا.

منع أصحاب المستعمرة في البداية إدخال كل من الخمور والعبيد، مما أدى إلى نشوب معارك مستمرة مع المستوطنين الذين كانوا يرغبون في كل منهما، حتى شهدت المستعمرة – بحلول الأربعينيات من القرن الثامن عشر– مظاهرة من المستعمرين يطالبون باسم "الحرية الإنجليزية" بالحكم الذاتي حتى يتمكنوا من سن القوانين التي تسمح لهم باستقدام العبيد، مما اضطر أصحاب المستعمرة للتنازل عنها إلى التاج الإنجليزي، وسرعان ما حصل المستعمرون في عام 1751 على الحق في تشكيل مجلس منتخب، والذي عقد اجتماعاته في المستوطنة الرئيسية في المستعمرة "سافانا". أقر هذا المجلس إلغاء الحظر المفروض على الرق والخمور، واتخذ إجراء مبكرا يضع حدًا أقصى لامتلاك الأراضي قدره 500 فدان. أصبحت "جورجيا" نسخة مصغرة من كارولينا الجنوبية، وكان يعمل ما يصل إلى قرابة 15.000 من العبيد في مزارع الأرز الساحلية بها بحلول عام 1770.

العبودية في الشمال

مقارنة بمناطق المزارع، كانت العبودية أقل أهمية بالنسبة لاقتصادات "نيو إنجلاند"، والمستعمرات الوسطى حيث سادت المزارع الصغيرة، وحيث شَكَّلَ العبيد نسبة صغيرة من سكان هذه المستعمرات الأخيرة، وكان من غير المعتاد بالنسبة للأسر الغنية أن تمتلك أكثر من عبد واحد. لم تنشئ مناطق من "رود آيلاند" و"كونيتيكت" مزارع واسعة للتبغ والماشية عن طريق توظيف السخرة، ولكن العبيد في الشمال كانوا أكثر تشتتًا عنه في الجنوب؛ ومع ذلك، لم تكن العبودية هامشية تمامًا في الحياة الاستعمارية في الشمال، حيث عمل العبيد كأيدي عاملة في المزارع وفي المحلات الحرفية، وكذلك كعمال شحن وتحميل وتفريغ السفن وفي الخدمة الشخصية، وبحلول أوائل القرن الثامن عشر، كان نحو ثلاثة أرباع النخبة الحضرية يملكون عبدًا واحدًا على الأقل؛ ونظرًا لأن عدد السكان من العبيد كان مازال أصغر من أن يشكل أي تهديد على الأغلبية البيضاء، لذلك كانت القوانين أقل قسوة منها في الجنوب، فعلى سبيل المثال، في "نيو إنجلاند"، حيث كان العبيد البالغ عددهم 17.000 عبد في عام 1770، يمثلون أقل من 3% من سكان المنطقة؛ وقد أقر القانون بزيجات العبيد وحظر العقاب البدني الشديد للعبيد، وكان يمكن

للعبيد رفع دعاوى في المحاكم والشهادة في المحاكم ضد البيض والتمتع بالملكية وتوريثها لأولادهم- وهذه الحقوق لم تكن معروفة بالنسبة للعبيد في الجنوب.

كانت العبودية موجودة في نيويورك منذ الأيام الأولى من استيطان الهولنديين لها؛ ونظرًا لتأخر هجرة البيض إليها عن هجرتهم إلى بنسلفانيا، استمر ملاك الأراضي وصغار المزارعين والحرفيين في وادي هدسون بالمستعمرة، في القرن الثامن عشر، في الاستعانة بأعداد كبيرة من العبيد للعمل لتعويض النقص في اليد العاملة، ونظرًا لتوسع دور المدينة في تجارة الرقيق، فقد زاد الرق أيضًا هناك، حتى أن عددهم بلغ 2.440 في عام 1746، أي بما يعادل خمس إجمالي سكانها. كان حوالي 30٪ في المائة من عمال المدينة من العبيد، وبذلك احتلت المرتبة الثانية بين المدن الأمريكية بعد تشارلستون، كان معظمهم من عمال المنطقة المحلية، إلا أن العبيد عملوا في جميع قطاعات الاقتصاد. وصل عدد العبيد الذين كانوا يعيشون في نيويورك ونيو جيرسي في عام 1770 حوالي 27.000 عبد، بما يعادل 10% من إجمالي سكانها. كان للعبودية وجود كبير في فيلادلفيا أيضًا، على الرغم من أن مؤسسة العبودية كانت راكدة في عام 1750، حيث اعتمد الحرفيون والتجار بشكل متزايد على العمال بأجر، والذين قد زاد عددهم مع النمو السكاني واكتمال مدة عقود الخدمة؛ ويرجع ذلك لحقيقة أنه في أي اقتصاد حضري يتوسع وينكمش وفقًا للصعود والهبوط في التجارة الدولية، ويدرك العديد من أرباب العمل أن الاعتماد على العمال بأجر، الذين يمكن توظيفهم أو طردهم حسب الرغبة، سيكون أكثر منطقية من الناحية الاقتصادية من الاستثمار طويل الأجل في العبيد.

الجدول 4.1: السكان من العبيد كنسبة من إجمالي السكان في المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية في عام 1770

نيو هامبشاير	654	1٪
ماساتشوستس	4754	2
كونيتيكت	5698	3
رود آيلاند	3761	6
نيويورك	19062	12
نيو جيرسي	8220	7
بنسلفانيا	5561	2
ديلاوير	1836	5

ميريلاند	63818	32
فيرجينيا	187600	42
نورث كارولينا	69600	35
ساوث كارولينا	75168	61
جورجيا	15000	45

ثقافات العبيد ومقاومة العبيد

أن تصبح أمريكيًا من أصل أفريقي

لم يكن الأفارقة الذين كان يقارب عددهم 300.000 عبد، والذين تم جلبهم إلى المستعمرات التي تقع في البر الرئيسي أثناء القرن الثامن عشر، من شعب واحد، حيث جاءوا من ثقافات مختلفة وكانوا يتحدثون لغات مختلفة ويمارسون العديد من الديانات. توفي نهاية المطاف، َشكَل الشعب الأمريكي من أصل إفريقي من شعوب متنوعة، تم نقلها إلى المستعمرات البريطانية في الممر الأوسط. أدت العبودية إلى التقاء أفراد لم يكن ليتلقوا لولا ذلك أبدًا، ولم يكونوا يعتبرون أبدًا أن لونهم أو إقامتهم في قارة واحدة سيكون مصدرًا لهويتهم أو لوحدتهم معا، حيث أن الرابطة بينهم لم تكن القرابة أو اللغة أو حتى 'عرق'، ولكن ما جمع بينهم هو العبودية ذاتها. استغرقت عملية خلق ثقافة ومجتمع متماسكين سنوات عديدة، وسارت بمعدلات مختلفة في مختلف المناطق؛ ومع ذلك، لم يعد العبيد بحلول القرن التاسع عشر يُعَرِّفُون انفسهم بأنهم 'إيبو' أو 'أشانتي' أو 'يوروبا' ...إلخ، وإنما يُعَرِّفُون أنفسهم بأنهم أمريكيين من أصل إفريقي. برزت تعبيراتهم الثقافية في الموسيقى، والفن، والفن الشعبي، واللغة، والدين كتوليفة من التقاليد الإفريقية والعناصر الأوروبية والظروف الجديدة في أمريكا.

كانت الغالبية العظمى من العبيد الأمريكيين في معظم القرن الثامن عشر من الأفارقة من حيث المولد، وظلوا لسنوات عديدة يتحدثون اللغات الإفريقية ويمارسون الديانات الإفريقية، وغالبًا ما كانت الإعلانات التي تسعى للحصول على معلومات عن الهاربين منهم تصفهم 'بأصل إفريقي' (الشاب الزنجي جامبيا'، 'الصاحب الزنجي الجديد بانبارا)، ويتحدثون عن طاقة أجسامهم على التحمل و'علامات الوطن إفريقيا' المرئية التي تنم عن الهوية العرقية في إفريقيا. في الحقيقة، تم 'إعادة أفرقة' حياة السود خلال القرن الثامن عشر، مع تزايد عدد الكريول (العبيد المخلطين من أجناس مختلفة الذين ولدوا في العالم الجديد) بشكل يفوق بفارق كبير عدد المستوردين من إفريقيا. تكشف مقارنة هؤلاء مع الجيل السابق من العبيد عن أن الوافدين الجدد كانوا يعملون

بجهد أكبر ويموتون في عمر أقصر، ولديهم فرص أقل للحصول على الحرية؛ وقد ذكر حداد أبيض في فرجينيا يسمى تشارلز هانزفورد في عام 1753 أنه كثيرًا ما سمع قصيدة يتحدث فيها العبيد عن رغبتهم في العودة مرة أخرى للتمتع بالحياة في إفريقيا وقد عبر عن هذا في القصيدة التالية:

كثيرا ما لاحظت بسرور كيف
يعبرون بلغة غير سليمة عن أن بلدهم
قائظ الحرارة جدير بالسعي للتعبير عنه
وكيف يمدحون قضيتهم
وكيف كانت سعادتهم عندما كانوا في بلدهم الأصلي
وكيف أنهم على استعداد لتحمل المخاطر والآلام
لو حصلوا على ضمان بالعودة إلى بلدهم آمنين!

ثقافة الأمريكيين الأفارقة

بحلول منتصف القرن الثامن عشر، كانت العبودية ذات النظم الثلاث في أمريكا الشمالية البريطانية قد أنتجت الثقافات الإفريقية الأمريكية المتميزة ، ونتيجة لأن المناخ كان صحيًا بدرجة أكثر في تشيزبيك، لذلك بدأ السكان العبيد في مضاعفة عددهم بحلول عام 1740، وقد حقق هذا نسبة أكثر توازنًا بين الجنسين مما كان عليه الحال في القرن السابع عشر، وأصبح من الممكن إنشاء مجتمعات من العبيد تتمحور حول الأسرة؛ ونظرًا لصغر حجم معظم المزارع والعدد الكبير لصغار المزارعين البيض، لذلك كان العبيد هناك معرضين باستمرار لثقافة البيض، وسرعان ما تعلموا اللغة الإنجليزية، وانخرط العديد منهم في الإحياء الديني المعروف باسم الصحوة الكبرى الذي سنناقشه لاحقا في هذا الفصل.

ظهر في كل من كارولينا الجنوبية وجورجيا مجتمعان من السود يختلف كليهما عن الآخر بدرجة كبيرة، حيث عاش العبيد في مزارع الأرز طوال القرن الثامن عشر في ظروف قاسية للغاية، وكان معدل المواليد منخفضًا، مما جعل إنتاج الأرز يعتمد على استمرار استيراد الرقيق من إفريقيا؛ ونادرًا ما كان العبيد يتصلون بالبيض، وكانوا يتمتعون بقدر من الحكم الذاتي أكثر بكثير من أي مكان آخر في المستعمرات. تأسست نظم حياتهم الكبرى على أساس العبودية، ولكنهم كانوا قادرين على خلق ثقافة تقوم على أساس إفريقي، حيث شيدوا المنازل على الطراز الإفريقي وأطلقوا الأسماء الإفريقية على أطفالهم وتحدثوا باللغة الجولا (لغة تخلط بين جذور إفريقية مختلفة وغير مفهومة لمعظم البيض)؛ وعلى الرغم من استمرار تجارة الرقيق التي ساد فيها الشباب الذكور غير المتزوجين، إلا أن العبيد بدأوا في تكوين الأسر والمجتمعات ببطء،

والتي ربطت الأجيال وجعلتها تستمر؛ ومن ناحية أخرى، كانت تجربة العمال بالسخرة في "تشارلستون" و"سافانا" كخدم وعمال مهرة مختلفة تمامًا، حيث اندمجوا بسرعة أكبر في الثقافة الأوروبية- الأمريكية، وانتجت العلاقات الجنسية بين الرجال البيض والنساء العاملات بالسخرة بداية فئة من المولودين الأحرار (من أبوين من جنسين عرقيين مختلفين).

أما في المستعمرات الشمالية، حيث كانت تمثل العبودية حصة أصغر من السكان، وحيث كانوا مشتتين في الحيازات الصغيرة بين السكان البيض، فقد تطورت على نحو أكثر بطئًا ثقافة أمريكية- إفريقية متميزة ، حيث ساعدهم العيش على مقربة من البيض على التمتع بحرية أكبر في التنقل، والإطلاع على والاحتكاك بالتيارات الرئيسية للحياة بالمقارنة بنظرائهم من أقصى الجنوب. تجمع العبيد في المدن مثل "فيلادلفيا" و"نيويورك" في أيام العطلات لأداء الرقصات الإفريقية، ولكن فرصهم لتكوين أسر مستقرة أو مجتمع متماسك كانت أقل.

مقاومة العبودية

كانت تجربة العبودية والرغبة في الحرية بمثابة الخيوط المشتركة التي ربطت هذه الثقافات الإفريقية الأمريكية الإقليمية؛ لقد خاطر السود بحياتهم في جهودهم المبذولة لمقاومة الاستعباد طوال القرن الثامن عشر؛ وحفلت الصحف الاستعمارية، وبخاصة في المستعمرات الجنوبية، بإعلانات عن العبيد الهاربين، وكان معظمهم من الشباب الأفارقة الذكور الذين وصلوا مؤخرا، حيث فر عبيد "كارولينا الجنوبية" و"جورجيا" إلى "فلوريدا"، حيث المستنقعات الساحلية والنهرية غير المأهولة، أو إلى "تشارلستون" و"سافانا" حيث يمكنهم المرور مجانا؛ أما في "تشيزبيك" والمستعمرات الوسطى، كان العبيد الهاربون على دراية بثقافة البيض، وبالتالي يتظاهر الواحد منهم بأنه قد حصل على الحرية إذا ما نزل الإعلان في الصحف عن هروبه.

انتشرت، ما أسماه الحاكم الاستعماري في جامايكا "إدوارد تريلاوني"، "روح الحرية الخطيرة" على نطاق واسع بين العبيد؛ حيث اندلعت أول انتفاضة للعبيد في القرن الثامن عشر في مدينة "نيويورك" في عام 1712، عندما أشعلت مجموعة من العبيد النار في المنازل على ضواحي المدينة، وقتلوا أول تسعة أشخاص بيض، ظهروا في مسرح الأحداث؛ وقد تم إعدام ثمانية عشر من المتآمرين ؛ في وقت لاحق، حيث تعرض بعضهم للتعذيب، وتم حرقهم أحياءً في مشهد عام بقصد تخويف السكان العبيد؛ لقد فتحت الحروب المستمرة بين الإمبراطوريات الأوروبية والهنود، خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الثامن عشر، الباب أمام العبيد للمقاومة. أدى تمرد العبيد في عام 1731 في "لويزيانا"، حيث كان الهنود الناتشيز في حالة حرب مع الفرنسيين، إلى وقف جهود إدخال نظام المزارع في المنطقة بصفة مؤقتة. كانت هناك انتفاضات في جميع أنحاء

جزر الهند الغربية، بما في ذلك في "الجزر العذراء" التي كانت تملكها الدنمارك، وفي "جزيرة جوادلوب" الفرنسية. شنت مجتمعات العبيد الهاربين المعروفة باسم "المارون" حربًا صريحةً ضد السلطات البريطانية في "جامايكا"، حيث كان يوجد مركزًا رئيسيًا بريطانيًا لإنتاج السكر حتى توقيع معاهدة عام 1739، التي اعترفت بحريتهم في مقابل موافقتهم على عودة جميع الهاربين في المستقبل.

الأزمة ما بين عامي 1739 ـ 1741

أتاحت حرب "أُذُن جينكينز" التي أشعلت الحرب بين إنجلترا وإسبانيا، الفرصة أمام العبيد في البر الرئيسي للتمرد، وبالفعل قامت مجموعة من العبيد في سبتمبر (أيلول) في عام 1739 في "كارولينا الجنوبية"، ومعظمهم ممن وصل مؤخرًا، حيث كان بعضهم على ما يبدو من الجنود، بالاستيلاء على محتويات متجر في بلدة "ستونو" الذي يضم العديد من الأسلحة، وسارت العصابة المسلحة وهي تقرع الطبول لجذب الأتباع جنوبًا نحو فلوريدا، حيث حرقوا المنازل والحظائر وقتلوا السكان البيض الذين قابلوهم، وأخذوا يهتفون "الحرية" (منح الحكام في "فلوريدا" الإسبانية "الحرية والحماية" للعبيد الهاربين من المستعمرات البريطانية.)، تضخمت المجموعة في نهاية المطاف إلى أن بلغت نحو 100 شخص من العبيد، وبعد معركة ضارية مع ميليشيات المستعمرة، تفرق المتمردون بعد أن لاقى أكثر من عشرين من البيض، وما يصل إلى 200 من العبيد حتفهم. تمكّن بعض العبيد من الوصول إلى "فلوريدا"، حيث تم تسليحهم في عام 1740، من قبل الإسبان للمساعدة في صد هجوم قوة من "جورجيا" على القديس "أوجستين". أدى تمرد "ستونو" إلى تشديد قانون العبودية على العبيد في "كارولينا الجنوبية"، وفرض مؤقت لضريبة باهظة على العبيد المستوردين.

اجتاح مدينة "نيويورك" حالة من الذعر في عام 1741 (قارنه بعض المراقبين بالذعر من ساحرات بلدة "سالم" في التسعينيات من القرن السابع عشر). انتشرت الشائعات بعد سلسلة من الحرائق أن العبيد مع بعض الحلفاء البيض قد خططوا لحرق جزء من المدينة والاستيلاء على الأسلحة، وإما تسليم "نيويورك" إلى إسبانيا أو قتل السكان البيض. تم القبض على أكثر من 150 من السود و20 من البيض، وتم إعدام المتآمرين المزعومين البالغ عددهم 34، منهم 4 أشخاص من البيض؛ وما زال المؤرخون يختلفون حول مدى حجم المؤامرة، وما إذا كان أو لم يكن هناك مؤامرة من الأساس، لكن الأحداث المأساوية مثل الثورات، بالإضافة إلى استمرار هروب العبيد، تدحض هذه الفكرة من أساسها، وقد أعرب حاكم "كارولينا الجنوبية" عن ذلك قائلاً "ليس لدى العبيد أي فكرة عن الحرية." لم تعرف أحلام الحرية في أمريكا أي حدود عنصرية في القرن الثامن عشر.عندما انتفض المستعمرون البيض في تمرد ضد الحكم البريطاني، اغتنم عشرات الآلاف من العبيد الفرصة للإضراب من أجل حريتهم.

إمبراطورية الحرية

الوطنية البريطانية

على الرغم من أن العبودية كانت تمثل أهمية محورية بالنسبة لإمبراطورية بريطانيا العظمى، إلا أن هذه الإمبراطورية تباهت في القرن الثامن عشر بكونها الأمة الأكثر تقدمًا والأكثر حرية في العالم، حيث لم تقتصر هذه الحقبة على كونها أكبر قوة بحرية وتجارية فقط، ولكنها تمتعت بكونها موطنًا لنظام حكومي معقد، مع برلمان قوي يمثل مصالح الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأرضي والعقارات الواثقين في أنفسهم والتجار، وكانت لندن تمثل أكبر مدينة في أوروبا، وكان يبلغ عدد سكانها ما يقرب من مليون نسمة بحلول نهاية القرن الثامن عشر، وكانت تمثل بالنسبة لبريطانيا عاصمة سياسية، واقتصادية، وثقافية في ذات الوقت؛ وبالإضافة إلى ذلك، تمتعت الإمبراطورية بقانون مشترك، ولغة مشتركة، وديانة بروتستانتية مشتركة، باستثناء عدد قليل من اليهود والكاثوليك والأفارقة. وجدت بريطانيا نفسها في حالة حرب في فترات كثيرة من القرن الثامن عشر مع فرنسا، والتي حلت محل إسبانيا في كونها المنافس القاري الأكبر لها، مما أدى إلى إنشاء وتطوير مؤسسة عسكرية واسعة، وارتفاع الضرائب وإنشاء بنك إنجلترا للمساعدة في تمويل الصراعات الأوروبية والإمبراطورية؛ وساعدت الحرب كل من البريطانيين والمستعمرين على شحذ الشعور بالهوية الوطنية ضد الأعداء الأجانب.

اكتسب الشعور الوطني البريطاني تأكيدًا أكثر فأكثر مع تقدم القرن الثامن عشر، وتكاثرت رموز الهوية البريطانية من أغاني مثل "حفظ الله الملك" و"احكم بريطانيا"، وحتى القواعد الحديثة للرياضة الوطنية لعبة الكريكيت. توسع الاقتصاد البريطاني بسرعة وشَكَّلَ مصدرًا آخر للفخر، حيث وَحَّدَ بين البريطانيين والمستوطنين، حتى أنه وفقًا لمقولة شعبية "الشعوب القارية ترتدي الأحذية الخشبية" بمعنى أن مستوى المعيشة لدى الشعوب الأخرى أقل بكثير من تلك في بريطانيا. أشاد المؤلفون والكتاب بالتجارة باعتبارها قوة تقدمية وحضارية، ووسيلة للشعوب المختلفة للتفاعل معًا من أجل المنفعة المتبادلة، دون هيمنة أو صراعات عسكرية. كانت بريطانيا ترى نفسها، على النقيض من فرنسا، عالمًا من الرخاء المنتشر على نطاق واسع، والحرية الفردية، وسيادة القانون، والديانة البروتستانتية، والدين، والثروة، والحرية، بحيث يسير كل هذا معًا في ذات الوقت. كتب اللاهوتي "كوتون ماذر" في عام 1710 في "ماساتشوستس" قائلاً "ليس هناك أمة باباوية، ولكنهم باعتناقهم البروتستانتية فإنهم لم يقتصروا على تأكيد ذاتهم في الحرية الجيدة، ولكنهم أيضًا ضاعفوا ثرواتهم على الفور."

الدستور البريطاني

كان مفهوم الحرية يمثل مكونًا جوهريًا لهذا الشعور بالهوية البريطانية؛ وقد أورثت الصراعات السياسية الشرسة، التي صاحبت الحرب الأهلية الإنجليزية والثورة المجيدة في القرن الثامن عشر، البريطانيين قناعةً راسخةً بأن الحرية هي ملكيتهم الفريدة، وكانوا يعتقدون أن السلطة والحرية خصمان طبيعيان لبعضهما البعض، وللتوسط بينهما احتفل دعاة الحرية البريطانية بسيادة القانون، وبالحق في العيش في ظل القوانين التي أقرها النواب الذين يمثلونهم، وبالقيود على الممارسة التعسفية للسلطة السياسية، وبالحقوق مثل المحاكمة أمام هيئة محلفين كما هو منصوص عليه في القانون العام؛ ويبدو أن كل قضية سياسية على كل من جانبي الأطلسي كانت تُغَلّف نفسها بلغة الحرية وتدّعى أنها تدافع عن "حقوق الإنجليز". كان المؤلفون القاريون، غير الراضين عن غياب الحرية في بلدانهم، ينظرون إلى بريطانيا كنموذج، حيث يكبح كل من مجلس العموم ومجلس اللوردات والملك سلطات الآخر، حتى أن الفيلسوف السياسي الفرنسي "مونتسكيو" كتب قائلاً "لقد جعل هذا النظام من بريطانيا الأمة الوحيدة في العالم التي لديها دستور يهدف للحرية السياسية، ولها دستور متوازن، وتتمتع بمبدأ أنه لا يوجد رجل فوق القانون، بما في ذلك الملك نفسه. يدَّعى البريطانيون أنهم ابتدعوا أفضل وسيلة للحيلولة دون الاستبداد السياسي. كان معظم المستعمرين يعتقدون حتى السبعينيات من القرن الثامن عشر أنهم يمثلون جزءًا من أكثر النظم السياسية حرية عرفتها البشرية.

وكما أثبت التعايش بين العبودية والحرية ضمن الإمبراطورية، فلم تكن الحرية البريطانية شاملة، إذ تم تعريفها تعريفًا وثيق الصلة بالطائفة البروتستانتية، وتم استدعائها لمقارنة الرعايا البريطانيين مع "المستعبدين" في الدول الكاثوليكية، وبخاصة فرنسا التي تمثل المنافس الرئيسي لبريطانيا في أوروبا في القرن الثامن عشر. إنها تعتبر تقريبًا كل أمة أخرى على وجه الأرض "تستعبد شعوبها" للبابوية أو للاستبداد أو للهمجية، حتى أن أحد ضباط الجيش الألماني علّق في 1743 على "ازدراء" البريطانيين للأجانب قائلاً: "إنهم يتباهون بأنفسهم ليس فقط لأنهم أحرار، ولكن لكونهم الحصن الحصين للحرية في جميع أنحاء أوروبا، بل أنهم يحطون من قدر معظم الدول في القارة. . . لكونهم عبيد، كما يطلقون علينا". كانت الحرية البريطانية متوافقة بالكامل مع تدرجات واسعة في الحقوق الشخصية؛ ومع ذلك، كانت الحرية في أذهان السكان الأحرار في بريطانيا العظمى ومستعمراتها في أمريكا الشمالية تمثل الرباط أو القيد اللذين يقيدهم بالإمبراطورية.

لغة الحرية

لم تترسخ جذور هذه الأفكار بعمق ليس فقط في إطار "الأمة السياسية" - أي في أوساط

هؤلاء الذين قاموا بالتصويت، والذين تقلدوا المناصب، والذين شاركوا في النقاش السياسي المنظم - ولكن أيضًا على نطاق أوسع بكثير في المجتمع البريطاني وفي المستعمرات، حيث تحدث العمال والبحارة والحرفيون بلغة الحرية البريطانية، بنفس إصرار مؤلفي المنشورات والبرلمانيين. فقدت فكرة الحرية على نحو متزايد ارتباطها التقليدي بالامتيازات المستمدة من الانتماء لطبقة اجتماعية متميزة، وأصبحت تتسم أكثر فأكثر بأنها حق عام لمقاومة الحكومة التعسفية.

برزت الحرية على جانبي المحيط الأطلسي مع تصاعد نداء المتمردين للمعركة؛ وقد دعم تكرار الاحتشاد الاحتجاجي ضد انتهاكات الحقوق التقليدية الإيمان الشعبي بالحق في معارضة الطغيان. كان عوام الناس لا يعتقدون أن التظاهر في الشوارع قد يفيد في دحض جهود التجار لرفع تكلفة الخبز فوق "السعر العادل" التقليدي، أو ضد ممارسات البحرية الملكية في إكراه الرجال على الخدمة في البحرية بخطف الرجال الفقراء في الشوارع.

الحرية الجمهورية

كانت الحرية مكونًا أساسيًا وجوهريًا لمجموعتين من الأفكار السياسية التي ازدهرت في العالم الأنجلو- أمريكي.أطلق العلماء على المجموعة الأولى "مبدأ الحكم الجمهوري" (بالرغم من أن القليل فقط هم الذين استخدموا هذه الكلمة في إنجلترا في القرن الثامن عشر، وهي تعني حرفيًا الحكومة بدون ملك، وقد أثار ذلك ذكريات قطع رأس الملك تشارلز الأول). يرى "مبدأ الحكم الجمهوري" أن جوهر الحرية يكمن في مشاركة المواطنين المستقلين اقتصاديًا بفعالية في الحياة العامة. يفترض الجمهوريون أن المواطنين الذين يمتلكون الأراضي والعقارات هم فقط الذين يتمتعون "بالفضيلة"، والتي تم تحديدها في القرن الثامن عشر بأنها ليست مجرد التمتع بالأخلاق الشخصية الجيدة، ولكن أيضًا الرغبة في إخضاع المصلحة الذاتية لتحقيق الصالح العام. وقد كتب "بنجامين فرانكلين" قائلاً "الناس الذين يتمتعون بالفضيلة هم فقط القادرون على الحرية".

كانت هذه المجموعة من الأفكار حول الحرية في القرن الثامن عشر في بريطانيا ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمجموعة من منتقدي النظام السياسي القائم المعروف باسم "حزب الريف"، لأن الكثيرين ممن دعموا هذا النظام قد نشأوا من طبقة الأعيان مالكي الأراضي، وأدانوا ما اعتبروه فساد السياسة البريطانية الذي تجلى في العدد المتزايد من أعضاء الحكومة المعينين في مجلس العموم، ودعوا إلى انتخاب الرجال "المستقلين" الذين لا يمكن أن تسيطر عليهم الوزارة، وانتقدوا الزيادة في الديون المحلية، وتنامي ثروة المضاربين الماليين في الاقتصاد القائم على الاستغلال التجاري؛ وقد زعموا كذلك أن بريطانيا كانت تخضع للترف والتلاعب في السياسية؛ وبإيجاز، فإن فقدان الفضيلة يهدد بالتالي التوازن الدقيق لنظام الحكم، ويهدد في الحقيقة الحرية ذاتها.

لم يكن هناك تأثير كبير لناشري ومسئولي الدعاية لحزب الريف في بريطانيا، مثل "جون ترنشارد" و"توماس جوردون"، مؤلفي كتاب "رسائل كاتو"، الذي نُشِرَ في العشرينيات من القرن الثامن عشر، ولكن كتاباتهم لاقت ترحيبًا حارًّا في المستعمرات الأمريكية، التي انجذبت نخبها للتأكيد الذي قام به هذين المؤلفين على الدور السياسي لمالكي الأراضي المستقلين، وتحذيراتهما ضد الميل المستمر للسلطة السياسية للتعدي على الحرية.

الحرية الليبرالية

كانت المجموعة الثانية من الأفكار السياسية التي احتفت في القرن الثامن عشر بالحرية، تُعرف باسم "مبدأ الحكم الليبرالي" (بالرغم من أن معنى الكلمة مختلف تمامًا عما توحي به اليوم). وبينما كانت الحرية الجمهورية تتسم بأنها عامة واجتماعية، كانت الليبرالية على الجانب الآخر تتسم بأنها فردية وخاصة في جوهرها. كان تأثير الفيلسوف "جون لوك" الذي يعد رائدًا للحرية، والذي ألَّف كتاب "أطروحتان للحكومة" في حوالي عام 1680، وكان تأثيره محدودًا أثناء حياته ولكنه أصبح مشهورًا للغاية في القرن التالي. قارن العديد من المؤلفين السابقين الحكومة بالأسرة على افتراض أن التفاوت طبيعي في كليهما، وأن السلطة تنبثق دائمًا من أعلى في كليهما. كان "لوك" يرى أن المبادئ التي تحكم الأسرة غير مناسبة لتنظيم الحياة العامة، وكتب قائلاً إن الحكومة تتشكل على أساس الاتفاق المشترك بين طرفين متساويين (الأطراف وهي في حالة الأسرة تمثل الذكور على رأس الأسر وليس جميع الأشخاص)، وفي هذا "العقد الاجتماعي" يتنازل الرجال عن جزء من حقوقهم في حكم أنفسهم من أجل التمتع بمزايا سيادة القانون، ولكنهم مع ذلك يحتفظون بحقوقهم الطبيعية التي ترجع إلى ما قبل إنشاء السلطة السياسية. تتطلب حماية أمن الحياة والحرية والملكية حماية عالم الحياة الخاصة والاهتمامات الشخصية، بما في ذلك العلاقات الأسرية والأفضليات الدينية والنشاط الاقتصادي من تدخل الدولة؛ وقد أصبحت أفكار "لوك" مألوفة خلال القرن الثامن عشر على جانبي الأطلسي، خاصة تلك الخاصة بالحقوق الفردية وموافقة المحكومين، والحق في التمرد ضد الحكومة الظالمة أو القمعية.

ومثل البريطانيين الآخرين، تحدث لوك عن الحرية كحق عالمي، إلا أنه يبدو أنها تستبعد الكثيرين من التمتع بكامل مزاياها؛ ونظرًا لأن حماية الملكية كانت إحدى الأغراض الرئيسية من وراء وجود الحكومات، لذلك فإن الليبرالية تعد متسقة مع التفاوت الكبير في الثروة وفي السعادة والرفاهية؛ وعلاوة على ذلك، ففي حين كان لوك أحد أصحاب النظريات الأولى للدفاع عن حقوق المرأة في الملكية، بل وحقها في الحصول على الطلاق، وأدان العبودية باعتبارها "حالة حقيرة وبائسة للإنسان"، إلا أن الفرد الحر في الفكر الليبرالي كان يمثل الرجل

الأبيض المالك للعقارات والأراضي، حتى أن "لوك" نفسه ساعد في صياغة الدساتير الأساسية في "كارولينا"، سنناقشها في الفصل الثالث، والتي نصت على العبودية، وكان هو أحد المستثمرين في شركة رويال الإفريقية صاحبة احتكار تجارة الرقيق، وقد كتب قائلاً "لا يمكن اعتبار العبيد جزءًا من المجتمع المدني المتحضر." ومع ذلك، فتحت ليبرالية "لوك" الباب أمام الفقراء، والنساء، وحتى العبيد لتحدي القيود المفروضة على حريتهم، وذلك من خلال إعلانها عن أن جميع الأفراد يمتلكون الحقوق الطبيعية التي لا يجوز لأي حكومة انتهاكها.

وانتهى الأمر بالنظر لمبدأي الحكم الجمهوري والليبرالي باعتبارهما بديلين لفهم الحرية؛ ومع ذلك، تداخلت هذه الأطروحات الفكرية في القرن الثامن عشر، وغالبًا ما كان يعزز بعضها البعض. يمكن أن يكون كلا المنظورين السياسيين مصدرًا للإلهام بالالتزام بالحكومة الدستورية والقيود المفروضة على السلطة الاستبدادية؛ وقد شدد كلاهما كذلك على تأمين المِلْكِيَة كأساس للحرية، كماانتقل كلا التقليدان إلى أمريكا القرن الثامن عشر؛ كما ساعدت الأفكار الخاصة بالحرية، المستوردة من بريطانيا إلى المستعمرات، على تقسيم الإمبراطورية في نهاية المطاف.

الشأن العام

كانت العمل السياسي في معظم القرن الثامن عشر أقل عصفًا بشكل كبير مما كان عليه في القرن السابع عشر، حيث الصراعات المريرة على السلطة وانتفاضاتها المسلحة المتكررة. وقد أدى الاستقرار السياسي في بريطانيا إلى جانب نضوج النخب المحلية في أمريكا إلى قيام حكومة أكثر هدوءًا؛ وكانت "نيويورك" بعيدة عن هذا التطور، حيث ظلت تعاني من الصراع السياسي الحاد بين مصالحها الاقتصادية العديدة والجماعات العرقية، نظرًا لتنوع السكان والذكريات المريرة المتعلقة "بتمرد ليسلر" (انظر الفصل الثالث)، وبحلول الخمسينات من القرن الثامن عشر، تنافست الأحزاب السياسية شبه الدائمة بقوة على الدعم الشعبي في الانتخابات في "نيويورك". لكن هذه الخلافات في معظم المستعمرات الأخرى، وبالرغم من عدم اختفاء الاختلافات تقريبًا حول أنواع السياسات، نادرًا ما أفرزت اضطرابات مدنية أو سياسية قوية العواطف، كما كان الحال في القرن الماضي.

الحق في التصويت

كانت للعمل السياسي في أمريكا في القرن الثامن عشر طابع ديمقراطي أكبر في كثير من النواحي بالمقارنة مع العمل السياسي في بريطانيا العظمى. وتباينت شروط الاقتراع من مستعمرة إلى أخرى، ولكن كما هو الحال في بريطانيا، كانت تتمحور القوانين حول شرط الملكية للتأهل

للتصويت؛ وكان الغرض من ذلك يتمثل في ضمان أن الرجال الذين يمتلكون أصولاً اقتصادية في المجتمع، وبالتالي يتمتعون باستقلالية في الرأي، هم الذين يحددون سياسات الحكومة. أعلن الزعيم البرلماني هنري ايرتون، أثناء الحرب الأهلية الإنجليزية في الأربعينيات من القرن السابع عشر، أن أساس الحرية يتمثل في أنه يجب أن يكون الذين سيختارون المشرعين هم أولئك الرجال المتحررين من الاعتماد على الآخرين، وهو ما يفتقده العبيد، والخدم، ومستأجرو الأراضي، والأبناء البالغون الذين يعيشون في بيوت آبائهم، والفقراء، والنساء، وبالتالي يفتقدون أن تكون لهم إرادة خاصة بهم، ولذلك فهم غير مؤهلين للتصويت؛ ومع ذلك، كان التوزيع الواسع للممتلكات في المستعمرات يعني أنه من المفترض أن تتمتع نسبة أعلى من السكان بحقوق التصويت بالمقارنة بالعالم القديم، حيث كان يُقَدَّر أن ما بين 50 و 80% من الذكور البالغين البيض يستطيعون التصويت في أمريكا الاستعمارية في القرن الثامن عشر، في مقابل أقل من 5% في بريطانيا في ذلك الوقت.

ومع ذلك، نادرًا ما كان العمل السياسي في المستعمرات ديمقراطيًا بالمعنى الحديث؛ وفي عدد قليل من الحالات– في بعض مدن ماساشوستس ولونج آيلاند– كان مسموحًا للمرأة صاحبة الملكية، وكن عمومًا من الأرامل، بالتمتع بحق الإدلاء بأصواتهن، ولكن التصويت كان يعتبر في كل مكان تقريبًا امتيازًا حصريًا للذكور. كان اليهود والكاثوليك والمنشقين البروتستانت مثل المعمدانيين والكويكرز لا يستطيعون التصويت في بعض المستعمرات. أما بالنسبة للسود الأحرار أصحاب الأملاك، الذين كانوا يتمتعون بحق التصويت في فرجينيا، ونورث كارولينا، وساوث كارولينا، وجورجيا في الأيام الأولى من الاستيطان، فقد فقدوا هذا الحق أثناء القرن الثامن عشر (على الرغم من أن نورث كارولينا استعادت هذا الحق في الثلاثينيات من القرن الثامن عشر)؛ بينما لم يحظر القانون على السود حق التصويت في المستعمرات الشمالية، إلا أن العرف المحلي كان يحظر عليهم ذلك؛ وبصفة عامة، كان حق التصويت محظورًا على الأمريكيين الأصليين.

الثقافات السياسية

على الرغم من اتساع دائرة الناخبين بين الرجال البيض في المستعمرات، إلا أن الناس لم يكونوا يتجمعون إلا في يوم الانتخابات، ويظل أعضاء المجالس بعد انتخابهم وحتى الانتخابات التالية بعيدًا عن التواصل مع ناخبيهم. كانت الانتخابات في العادة تنافسية بقوة في المستعمرات الوسطى فقط، أما في الأماكن الأخرى فقد كان يتم إجراء العديد من الانتخابات بلا تنافس في الأساس، إما لأن مرشحًا واحدًا فقط هو الذي تقدم للترشح، أو لأن الثقافة المحلية تؤكد على الوئام في المجتمع، كما هو الحال في العديد من مدن نيو إنجلاند. كانت تتركز سلطة كبيرة في

العمل السياسي الاستعماري في أيدي أولئك الذين يشغلون مناصب بالتعيين وليس بالانتخاب. كان يتم تعيين حكام المستعمرات والمجالس من قبل التاج البريطاني في المستعمرات الملكية التسع، بينما كان يتم تعيينهم في "بنسلفانيا" و"ميريلاند" من بين كبار ملاك الأراضي. كانت هذه المناصب بالانتخاب في "رود آيلاند" و "كونيتيكت" فقط؛ وعلاوة على ذلك، كان يمكن الاعتراض على القوانين التي تقرها المجالس النيابية بالمستعمرات من قبل الحكام في لندن. كان معظم المسئولين في "نيو إنجلاند" منتخبين، ولكن المسئولين المحليين في المستعمرات الأخرى كانوا معينين من قبل الحاكم، أو من جانب كبار الموظفين أصحاب النفوذ في لندن. كان دوق "نيوكاسل" يستأثر بمفرده بحق تعيين ثلاثة وثمانين من المسئولين في المستعمرات.

كانت شروط الملكية لشغل المناصب العامة أشد بكثير من شروط الملكية للتصويت. ففي "ساوث كارولينا"، على سبيل المثال، يمكن لجميع الذكور البالغين تقريبًا الوفاء بمتطلبات التأهيل للتصويت، المتمثلة في امتلاك خمسين فدانًا من الأراضي، أو دفع عشرين شلنًا في الضرائب، أما للترشح في البرلمان، فكان يتعين على الفرد امتلاك 500 فدانًا من الأراضي أو عشرة من العبيد أو ملكية ذات قيمة لا تقل عن 1.000 جنيه استرليني؛ ونتيجة لذلك، كان كل المشرعين في "ساوث كارولينا" طوال القرن الثامن عشر تقريبًا من المزارعين أو التجار الأثرياء؛ ورغم السياسة العاصفة والتنافسية للمجلس النيابي المُصَغَّر في "نيويورك"، الذي يضم أقل من ثلاثين عضوا، إلا أنه هيمن عليه أقرباء وحلفاء الأسر الكبيرة ملاك الأراضي الشاسعة، وخصوصًا عائلات "ليفنجستن" وعائلات "ديلانسيس". كان اثنان وخمسون من مجموع اثنين وسبعين رجلاً أعضاء مجلس "نيويورك"، خلال الفترة ما بين عامي 1750 و 1776، أقارب للأسر الكبيرة مالكة العقارات والأراضي حول نهر "هدسون".

أتاحت بعض المستعمرات للغالبية الحرة من الرجال الحق في التصويت، ولكن كان هناك تقليد متأصل من "الاحترام" للافتراض السائد بين العوام من الناس بأن الثروة، والتعليم، والوضع الاجتماعي البارز هي التي تجلب الحق في شغل المناصب العامة، مما يحد من الاختيارات الفعلية بشكل حاد في الانتخابات، على سبيل المثال، جمعت السياسة في فرجينيا بين الديمقراطية السياسية للرجال البيض مع تقليد أنه ينبغي على الناخبين الاختيار بين المرشحين من طبقة الأعيان. كان الطامحون للمناصب العامة يسعون بنشاط، لتملق الناخبين العاديين ببراعة، ورشوتهم، بتوزيع المواد الغذائية والخمور مجانًا في دوائر الاقتراع. تضمنت نفقات "توماس جيفرسون" في حملته الانتخابية الأولى لبيت المواطنين في عام 1768، توظيف رجلين "لإحضار شراب الروم" إلى موقع الاقتراع، حتى في "نيو إنجلاند"، حيث كان هناك عدد أكبر من المناصب الانتخابية، كان زعماء

المدينة عمومًا من أكبر أصحاب الممتلكات والأراضي، وكان غالبًا ما يتم توارث المناصب الكبيرة من جيل إلى جيل من نفس العائلة؛ وقد سعت قلة من الأمريكيين بقوة لشغل المناصب الانتخابية، ولعب دور نشطا في الشئون العامة؛ و حتى حلول منتصف القرن الثامن عشر، عادة ما كان شاغلو هذه المناصب أكثر ثراءً من شاغلي هذه المناصب في بداية القرن.

حكومات المستعمرات

نظرًا لانشغال الحكومات البريطانية المتعاقبة بالأحداث في أوروبا، والمنافسات الإمبراطورية خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، لذلك فقد اتخذت سياسة "الإهمال المفيد" نحو المستعمرات، وتركتهم يحكمون أنفسهم إلى حد كبير. أدى هذا الضعف الشديد لسلطة الإمبراطورية في المستعمرات إلى زيادة هيمنة ملاك الأراضي الواسعة، والتجار، والمحامين على المجالس الاستعمارية، وبالتالي كان يطالبون بشكل متزايد بالحق في السيطرة على السياسة المحلية.

ونظرًا لقناعة المجالس النيابية المنتخبة في المستعمرات بأنها تمثل إرادة الشعب، لذلك استخدمت سيطرتها على التمويل لبسط نفوذها على الحكام والمجالس التي تخضع للتعيين؛ وبالرغم من أن الحكام كانوا يرغبون في ضمان الحصول على دخل آمن لأنفسهم، وإيراد دائم لإداراتهم (طالب بعضهم، مثل روبرت هنتر في نيويورك، بالحصول على راتب طوال الحياة)، إلا أن المجالس غالبًا ما كانت تسمح بمنح رواتب لمدة عام واحد فقط تدفع مرة واحدة، وكانت ترفض فرض الضرائب باستثناء في مقابل تنازلات بشأن التعيينات، وسياسة الأراضي، وغيرها من القضايا. تعلم الحكام أنه لكي يحكموا بفعالية، فإن عليهم التعاون مع النخبة في المستعمرات التي يحكموها؛ وعادةً ما كانت تضم هذه النخب طبقة النبلاء البريطانيين الذين قد عانوا من انتكاسات مالية، وكانوا يأملون في أن يعوضوا تلك الثروات في المستعمرات في أمريكا.

نشأة المجالس النيابية

كان الحاكم في القرن السابع عشر هو محور السلطة السياسية، بينما كانت المجالس النيابية في المستعمرات هيئات ضعيفة وتجتمع بشكل غير منتظم. أما في القرن الثامن عشر، فقد عززت التنمية الاقتصادية من قوة النخب الأمريكية، وبالتالي أصبحت المجالس التي تهيمن عليها هذه النخب أكثر حزمًا وفاعلية. أصر قادة هذه المجالس النيابية على أن تمتلك هذه المجالس نفس الحقوق والسلطات في الشئون المحلية، على غرار مجلس العموم في بريطانيا. كان أنجح الحكام هم أولئك الذين تكيفوا مع تصاعد قوة المجالس النيابية، واستخدموا قوتهم في التعيين، وسيطروا على منح الأراضي لكسب حلفاء من بين أعضاء المجلس.

كان أقوى مجلس نواب هو ذلك المجلس الموجود في "بنسلفانيا"، حيث تبنى ميثاق جديد في عام 1701، وألغى مجلس الحاكم، وأقام هيئة للتشريع من مجلس واحد وتقوم بمفردها في المستعمرات، وهيمنت عليه نخبة من التجار الكويكر حتى منتصف القرن، وانتزع من سلسلة من الحكام المثلون لعائلة "بن" السيطرة على التمويل والتعيينات والميليشيات. كانت المجالس في "نيويورك"، و"فرجينيا"، و"ساوث كارولينا" مغلقة ومتخلفة من حيث القوة والاستقلال التشريعي، وبصفة خاصة في "ماساشوستس"، حيث قاوم بنجاح جميع مطالب الحكام فيما يتعلق برواتب الموظفين الدائمين المعينين. نشأت العديد من الصراعات بين الحكام والمجالس المنتخبة بسبب النمو الاقتصادي للمستعمرات؛ ومن أجل معالجة ندرة العملات الذهبية والفضية، والتي تمثل الشكل القانوني الوحيد للعملة، طبعت بعض المستعمرات النقود الورقية، على الرغم من أن الحكام والسلطات في لندن والتجار البريطانيين، الذين كانوا لا يرغبون في أن يأخذوا مستحقاتهم بما اعتبروه ورق لا قيمة له، كانوا قد عارضوا ذلك بشدة. نشبت بعض المعارك أيضًا حول سياسة الأرض (التي تنطوي أحيانًا على مواقف متباينة نحو باقي السكان الهنود) ومستوى الإيجارات التي فرضها ملاك الأراضي والتاج البريطاني على المزارعين مستأجري الأراضي منهم.

استند قادة المجالس في مفاوضاتهم وصراعاتهم مع الحكام الملكيين على كتابات "حزب الريف الإنجليزي"، حيث كانوا يجدون منطقًا وصدى لتجربتهم في تأكيد هذا الحزب على التوتر المستمر بين الحرية والسلطة السياسية، ومخاطر نفوذ وتأثير السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية. كانت المستعمرات البريطانية هي الوحيدة، من بين المستعمرات الأوروبية في أمريكا الشمالية، التي تمتلك درجة كبيرة من المشاركة الشعبية في الحكومة. وعززت هذه الحقيقة من مطالبة المجالس بتجسيد حقوق الإنجليز ومبدأ الموافقة الشعبية على الحكومة، وكانت هذه المجالس مدافعة عن "حرية الشعب"، على حد تعبير أحد مشرعي "نيويورك".

العمل السياسي العام

لقد ترددت أصداء هذه اللغة خارج نطاق العالم الضيق نسبيًا للعمل السياسي الإنتخابي والتشريعي، حيث هيمن النبلاء الأمريكيون على "الأمة السياسية"، والذين كانوا يخاطبون بعضهم البعض برسائل، وخطب، ومقالات في الصحف والنشرات المملوءة بالعبارات اللاتينية وإشارات إلى التعليم الكلاسيكي، إلا أن القرن الثامن عشر شهد توسعًا كبيرًا، خصوصًا في البلدات والمدن الاستعمارية، في "الشأن العام"، أي في عالم التنظيم السياسي والنقاش المستقل عن الحكومة، حيث كان يناقش المواطن المطلع المثقف بحرية قضايا كانت تعتبر في السابق حكرًا على المسئولين.

انتشرت النوادي في "بوسطن"، و"نيويورك"، و"فيلادلفيا" حيث كان يتم مناقشة القضايا الأدبية، والفلسفية، والعلمية، والسياسية، وكان من بين أشهر هذه النوادي "نادي التحسين المتبادل" الذي أسسه "بنيامين فرانكلين" في "فيلادلفيا" في عام 1727 لإجراء مناقشات أسبوعية حول القضايا السياسية والاقتصادية، وكان يضم في البداية عشرة أعضاء فقط، ثم تطور في النهاية إلى أكبر من ذلك بكثير فيما يسمى "الجمعية الفلسفية الأمريكية". كانت مثل هذه الجماعات تتألف عمومًا من أصحاب الممتلكات والتجار، غير أن بعضها كان يجذب بعض المواطنين العاديين للدخول في مناقشات حول الشئون العامة؛ كذلك أصبحت الحانات والمقاهي في المستعمرات مناطق الجذب الرئيسية، ليس فقط لإجراء لقاءات اجتماعية، ولكن للمناقشات السياسية أيضا. كان يوجد في "فيلادلفيا" عدد أكبر من منشآت تناول المشروبات للفرد الواحد، بالمقارنة مع ما كان موجودًا في باريس آنذاك؛ وقد علّق أحد رجال الدين قائلاً "يعتقد أفقر عامل في فيلادلفيا أن له الحق في التعبير عن رأيه ومشاعره في مسائل الدين أو السياسة، بنفس القدر من الحرية الذي يتمتع به النبلاء أو العلماء".

الصحافة في المستعمرات

لم تتضمن الممتلكات الإسبانية في " فلوريدا" و"نيو مكسيكو" وكذلك لم تتضمن ممتلكات "فرنسا الجديدة" أي مطابع، على الرغم من أن المبشرين كانوا قد أنشأوا مطبعة في "مكسيكو سيتي" في الثلاثينيات من القرن السادس عشر. بيد أنه في أمريكا الشمالية البريطانية، فقد توسعت الصحافة بسرعة خلال القرن الثامن عشر، وكذلك زاد عدد الانتقادات الحادة والنشرات السياسية المنشورة، خاصةً في فترات الانتخابات. ساهم الانتشار الواسع للتعليم في توسيع سوق المواد المطبوعة؛ وبحلول عشية الثورة الأمريكية، كان حوالي ثلاثة أرباع السكان الذكور البالغين الأحرار في المستعمرات (وأكثر من ثلث النساء) يمكنهم القراءة والكتابة، ويمتلك غالبية العائلات الأمريكية كتاب واحد على الأقل؛ وكانت تتفاخر "فيلادلفيا" بأنها تضم ما لا يقل عن سبعة وسبعين مكتبة لبيع الكتب في السبعينيات من القرن الثامن عشر.

ظهرت المكتبات المتجولة في العديد من المدن والبلدات الاستعمارية، مما جعل من الممكن نشر المعرفة على نطاق أوسع، في الوقت الذي كانت لا تزال الكتب فيه مكلفة. كانت أولى هذه المكتبات هي مكتبة شركة "فيلادلفيا" التي أنشأها "بنجامين فرانكلين" في عام 1731، وقد ذكر في سيرته الذاتية (1791) قوله: "كان عدد القراء في ذلك الوقت قليل جدًا وكان أغلبيتنا فقراء جداً لدرجة أنه لم يجد سوى خمسين شخصًا فقط، معظمهم من "التجار الشباب" الحريصون على تحسين أنفسهم ذاتيًا، وكانوا على استعداد لدفع رسوم الحصول على امتياز استعارة الكتب، وأضاف

"لكن سرعان ما أصبحت القراءة عادة مألوفة"، وتأسست المكتبات في المدن الأخرى، وأصبح الأمريكيون العاديون "أفضل تعليمًا وأكثر ذكاءً من نظرائهم من نفس المرتبة" في الخارج.

ظهرت أول صحيفة استعمارية تصدر بشكل مستمر، وكانت تسمى "رسائل بوسطن الإخبارية"، في عام 1704، (حيث ألغت السلطات الصحيفة التي سبقتها وكانت تسمى "الحوادث العامة المحلية والخارجية"، التي تأسست في بوسطن في عام 1690 بعد عدد واحد لانتقاد للتعاون العسكري مع الإيروكوا). وصل عدد الصحف الاستعمارية إلى ثلاث عشرة صحيفة بحلول عام 1740، ثم أصبحت خمس وعشرين صحيفة بحلول عام 1765، وكان أغلبها صحف أسبوعية صغيرة مع توزيع ضيق وبمتوسط مبيعات يبلغ 600 نسخة لكل عدد؛ وربما كانت أفضل صحيفة من حيث جودة التحرير هي "جريدة بنسلفانيا" التي أنشئت عام 1728 في "فيلادلفيا"، واشتراها "بنجامين فرانكلين" بعد عام واحد، وقد كان يعمل سابقًا كمتدرب على الطباعة في مجلة دورية كان يملكها أخيه في "بوسطن"، والتي كانت تسمى "الأحداث الجارية في نيو إنجلاند". لقد جذبت الجريدة في أوجها قرابة 2.000 مشترك؛ وكانت الصحف في البداية تكرس معظم المساحة للإعلانات، والشئون الدينية، والتقارير عن المجتمع البريطاني والحكومة البريطانية، ولكن التعليق السياسي انتشر على نطاق واسع في الصحافة الأمريكية بحلول الثلاثينيات من القرن الثامن عشر.

حرية التعبير وحدودها

ازدهر المجال العام نتيجة للتبادل الحر للأفكار؛ ومع ذلك، لم تكن حرية التعبير تمثل بصفة عامة أحد الحقوق الإنجليزية القديمة. ترجع جذور نشأة عبارة "حرية التعبير" في بريطانيا إلى القرن السادس عشر في صراع البرلمان للحصول على امتياز "عدم تقييد النقاش"، وهو حق كان يملكه المشرعون وليس المواطنون العاديين، ويشير إلى قدرة أعضاء البرلمان في التعبير عن آرائهم دون خوف من الانتقام منهم، على أساس أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكنهم من تمثيل الشعب بشكل فعال. أما خارج البرلمان، لم تكن حرية التعبير مكفولة ولا محمية من الناحية القانونية. كان يمكن أن يتعرض كل مواطن لقطع رأسه إذا ما اتهم الملك بالتقاعس عن الحفاظ على المعتقدات الدينية "الصحيحة"، وكان استخدام اللغة بدءًا بالسب والشتائم إلى انتقاد للحكومة يُعَرِّض الشخص لعقوبات جنائية.

أما بالنسبة لحرية الصحافة، كانت الحكومات على جانبي الأطلسي ترى أنها خطيرة للغاية؛ ويرجع ذلك من ناحية إلى أن هذه الحكومات كانت تعتبر أن عوام المواطنين عرضة للتضليل من جانب المواد المطبوعة المؤججة لانفعالاتهم؛ هذا وقد نادى دعاة المساواة خلال الحرب الأهلية

الإنجليزية في الأربعينيات من القرن السابع عشر إلى اعتماد دستور مكتوب بموافقة الشعب يحتوي على ضمانات الحرية الدينية وحرية الصحافة، ولكن حتى عام 1695، والذي شهد توقف العمل بقانون بريطاني كان يتطلب الحصول على ترخيص للمصنفات المطبوعة قبل نشرها، لم يمكن من الناحية القانونية طبع أي صحيفة، أو كتاب، أو منشور بدون ترخيص من الحكومة. وتضمنت تعليمات الحكام الاستعماريين تحذيرات من "المتاعب الكبيرة التي قد تنشأ عن حرية الطباعة". أما بعد عام 1695، لم تستطع الحكومة فرض رقابة على الصحف، والكتب، والمنشورات قبل طباعتهم، على الرغم من استمرار محاولتها إدارة الصحافة بدفع الأموال المباشر للناشرين والصحفيين الأفراد؛ غير أنه كان لا يزال في الإمكان محاكمة المؤلفين والناشرين "بتهمة التحريض على الفتنة"، وهي جريمة تضمنت التشنيع على المسئولين الحكوميين أو المعاقبة على الازدراء.

كان كثيرًا ما تقوم المجالس المنتخبة، وليس الحكام، بتثبيط وإعاقة حرية الصحافة في أمريكا الاستعمارية. كان يتم جر العشرات من الناشرين أمام المجالس وإجبارهم على الاعتذار عن تعليقات نشروها حول أحد أعضاء هذه المجالس، وكانوا يتعرضون للسجن إذا رفضوا الاعتذار، على سبيل المثال، قضى "جيمس فرانكلين" شقيق "بنيامين فرانكلين" الأكبر، شهرًا في السجن في عام 1722 لنشره مقطوعة هجاء ضد السلطات العامة في "ماساشوستس". دافعت الصحف الاستعمارية بقوة عن حرية الصحافة باعتبارها عنصرًا محوريًا للحرية، وأصرت على أن المواطنين لديهم الحق في مراقبة أعمال الحكومة وإخضاع المسئولين لانتقادات الرأي العام؛ هذا وقد طبعت العديد من الصحف مقاطع من خطابات "كاتو" التي عارض فيها " ترنشارد" و"جوردون" بشدة المحاكمة بتهمة التشهير، وأعلنوا أنه "بدون حرية الفكر لن يكون هناك حكمة، وبدون حرية التعبير لن يكون هناك حرية عامة." غير أنه نظرًا لأن عقود الحكومة للطباعة كانت تمثل أمرًا ضروريًا للنجاح الاقتصادي للصحف والمطابع ودور النشر، فقد هاجم عدد قليل منهم هذه الحكومات الاستعمارية ما لم يكونوا مدعومين ماليًا من فصيل المعارضة.

محاكمة زنجر

أثبتت القضية الأكثر شهرة أمام المحاكم الاستعمارية، والتي كانت ترتبط بحرية الصحافة، ذلك الشعور الشعبي المعارض للاضطهاد بسبب نقد الصحافة للمسؤولين العموميين؛ وقد تبلور هذا الشعور في محاكمة "جون بيتر زنجر" في عام 1735، وهو صاحب مطبعة ألماني المولد كان قد هاجر إلى نيويورك في شبابه؛ حيث انتقدت صحيفة "زنجر" - والمسماة "المجلة الأسبوعية" - حاكم "نيويورك" "وليام كوسبي" بتهم الفساد، واستغلال النفوذ، و"الطغيان"، والتي يمولها معارضوا الحاكم

من الأثرياء. أمر مجلس "نيويورك" بمصادرة أربع طبعات من الجريدة وحرقها والقبض على "زنجر"، وخضع للمحاكمة بتهمة التشهير بغرض إحداث فتنة، وأوعز القاضي لهيئة المحلفين النظر فيما إذا كان "زنجر" في الواقع قد قام أو لم يقم بنشر الكلمات المسيئة، وليس بحث مدى صحتها ودقتها؛ وعلى الجانب الآخر، قام "أندرو هاملتون"، محامي "زنجر" بحثّ المحلفين بضرورة محاكمة حاكم نيويورك وليس الناشر، وإذا كانت اتهامات "زنجر" للحاكم صحيحةً ودقيقة، فإنه يجب تبرئته، وصاح "هاملتون" قائلاً "كل رجل يفضل الحرية على حياة العبودية سيبارك حكمكم".

وقضت المحكمة ببراءة "زنجر" من التهم الموجهة له؛ وأرسلت هذه القضية تحذيرًا إلى النيابة العامة، مفاده بأنه قد يكون من الصعب للغاية كسب قضايا السب، والقذف، والتشهير، وبخاصة في المناخ السياسي الحزبي الملتهب في "نيويورك". ولا ريب أنه إذا كان زنجر قد انتقد مجلس "نيويورك" بدلاً من الحاكم، فإن جميع الاحتمالات تشير إلى أنه كان سيودع في السجن دون الاستفادة من المحاكمة، حتى في ظل نفس قانون التشهير؛ لقد أرسل هذا الحكم رسالة أخرى، حيث ساعد في الترويج لفكرة أنه يجب دائما السماح بنشر الحقيقة؛ وتمثلت الرسالة الثالثة للحكم في أنه أثبت أن فكرة حرية التعبير قد أصبحت متأصلة في المخيلة الشعبية للأمة.

التنوير في أمريكا

بدأ العديد من الأمريكيين المتعلمين يتأثرون بالنظرة التنويرية الأوروبية خلال القرن الثامن عشر؛ وترجع جذور هذه الحركة الفلسفية إلى المفكرين الفرنسيين، وسرعان ما انتشرت في بريطانيا، وكانت تسعى إلى تطبيق المنهج العلمي القائم على البحث الدقيق والتجربة على الحياة السياسية والاجتماعية. انتقلت أفكار التنوير عبر المحيط الأطلسي مع السلع والبشر؛ وقد أصر مفكرو التنوير على الحكم على كل مؤسسة وسلطة وتقاليد بشرية بالثوابت العقلية. تعكس المجموعة الواسعة من الأنشطة التي مارسها "بنيامين فرانكلين" روح التنوير، وربما جعلته الأمريكي الأكثر شهرة في عالم القرن الثامن عشر- حيث تعلم ذاتيًا وأنشأ صحيفة ونادي للتناظر الفكري، ومكتبة، وقام بنشر وتوزيع "تقويم ريتشارد المسكين" على نطاق واسع، وإجراء التجارب العلمية لإثبات أن البرق هو شكل من أشكال الكهرباء.

كان رد الفعل الرافض للحروب الدينية الدامية، التي عصفت بأوروبا في القرن السابع عشر، بمثابة أحد الأفكار الملهمة في عصر التنوير. كان مفكرو التنوير يأملون في أن يحكم "العقل"، وليس الحماس الديني، والحياة البشرية، وأنه يمكن انتقاد الكنائس الموجودة أيضًا بنفس الانتقاد الذي يوجه إلى المؤسسات الاجتماعية والسياسية، القائمة على أساس التقليد والامتياز الوراثي، وليس على ما يمليه العقل. نشر "جون لوك" نفسه كتابًا في عام 1695 بعنوان "معقولية المسيحية"،

وأصر فيه على أن العقيدة الدينية ينبغي أن تستند على الأدلة العلمية. تحول العديد من الأمريكيين البارزين خلال القرن الثامن عشر نحو مذهب يسمى "الأرمينية"، وهو مذهب يقوم على فكرة أن العقل وحده قادرًا على وضع أساسيات الدين، في حين تبنى آخرون المذهب الرباني، والذي يتمثل في "الاعتقاد بأن الله قد انسحب أساسًا منذ خلق العالم، وتركه يعمل وفقًا لقوانين علمية دون تدخل إلهي أو وحي. كان الأرمينيون والربانيون وآخرون يرون أن الاعتقاد في المعجزات والحقيقة التي تتكشف من الكتاب المقدس، وفي الخطيئة الفطرية للبشرية تمثل أفكار قد عفا عليها الزمن، وأصبحت خرافات يجب التخلي عنها في العصر الحديث.

كشف العالم الإنجليزي "إسحاق نيوتن" في القرن السابع عشر عن القوانين الطبيعية التي تحكم الكون المادي، مما جعل الربانيين يعتقدون أن الله قد خلق الخلق ثم انسحب وترك الخلق يعمل وفقا للقوانين العلمية دون تدخل بالوحي، وكانوا يرون أيضًا أن هذه القوانين الطبيعية هي أنقى الأدلة على صنع الله بيده؛ وقد تقبل جميع طوائف البروتستانت نتائج اكتشافات نيوتن، بينما يظلوا مؤمنين بالكنيسة ويداومون على الذهاب إليها، ويتمتعون بالورع الديني (مثل نيوتن نفسه)، غير أن الربانيين قد توصلوا إلى أن أفضل شكل من أشكال التدين والعبادة هو دراسة قوانين وعمل الطبيعة، وليس التعبد تحت إطار الكنائس المنظمة، أو التوسل إلى الله للحصول على النعمة الإلهية المتمثلة في الخلاص؛ هذا وقد ظهرت مجموعة صغيرة من الرواد الأمريكيين، ولكنها مؤثرة، بحلول نهاية الحقبة الاستعمارية، تؤمن بهذا ويمكن تصنيفها تحت مظلة الربانيين، ومن أبرزهم بنجامين فرانكلين وتوماس جيفرسون.

الصحوة الكبرى

كان الدين، مثل حرية الصحافة، يمثل مجالاً آخر تفوقت فيه تجربة الحرية الفعلية على الاعتراف القانوني بالدين. ظل الدين مكونًا أساسيًّا في الحياة الأمريكية في القرن الثامن عشر، حيث كانت الخطب الدينية والأطروحات اللاهوتية ونسخ الكتاب المقدس أكثر فئات المطبوعات الاستعمارية إلى حد بعيد؛ وغالبًا ما كانت النزاعات الدينية تثير اهتمامًا عامًا أكبر من القضايا السياسية؛ ومع ذلك، انزعج العديد من قادة الكنيسة بسبب التراخي في ممارسة الشعائر الدينية، نظرًا لأن النمو الاقتصادي الاستعماري أدى إلى انشغال الناس بدرجة أكثر فأكثر بالشئون الدنيوية.

حركات الإحياء الديني

انزعج العديد من القساوسة والكهنة من النتائج المتعلقة بالتوسع غربًا، والتطور التجاري، ونمو التنوير العقلاني، من حيث عدم مشاركة الأفراد في خدمات الكنيسة، وتقليص وإضعاف الورع والتفاني الديني. ساعدت هذه المخاوف على إلهام حركات الإحياء والتجديد التي بدأت

في اجتياح المستعمرات في الثلاثينيات من القرن الثامن عشر. كانت حركة الإحياء، المعروفة باسم الصحوة الكبرى، أقل تنسيقًا من أن تكون بمثابة سلسلة من الأحداث المحلية، التي جمعها معًا الالتزام "بالدين القلبي"، والمسيحية الأكثر ارتباطًا بالعاطفة والشخصية من المسيحية التي تقدمها الكنائس القائمة. أعاد هذا الإحياء والتجديد رسم المشهد الديني في المستعمرات.

وقد شهد القرن الثامن عشر إحياء الأصولية الدينية في أجزاء كثيرة من العالم، ويرجع ذلك من ناحية إلى كونه ردًا على مذهب تحكيم العقل في حركة التنوير والرغبة في المزيد من الطهارة الدينية. بينما شهد الشرق الأوسط وآسيا الوسطى انتشار الإسلام على "نطاق واسع، حيث ظهرت دعوة أتباع الوهابية، إلى العودة إلى ممارسات الأيام الأولى من ظهور الدين. أما في أوروبا الشرقية، فقد شدد اليهود الحسيديين (دعاة "التقوى" أو "المحبة" أو "الطيبة"، وهي فرع من اليهودية الأرثوذكسية التي تعزز القيم الروحية من خلال تعميم التصوف اليهودي كجانب أساسي للعقيدة، وقد تأسست في القرن الثامن عشر في أوروبا الشرقية على يد الحاخام "إسرائيل بعل شيم طوف"، كرد فعل ضد القوانين الكثيرة في اليهودية) على تأكيد أهمية الإيمان بالعقيدة الدينية والفرح على، العكس مما اعتبروه دراسة أكاديمية مفرطة للتاريخ اليهودي والتعاليم التقليدية اليهودية. ازدهرت الميثودية وغيرها من أشكال الديانات المتحمسة في أوروبا، مثل التيارات الفكرية الأخرى السائدة في ذلك الوقت، ومنها حركة الصحوة الكبرى عبر الأطلسي.

خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن الثامن عشر، بدأ رجل الدين الإصلاحي الهولندي المقيم في "نيو جيرسي" "تيودور فريلينجهويسين"، وجيرانه من الطائفة المشيخية "ويليام جيلبرت تينينت"، والقسيس الذي يقيم في "ماساتشوستس" من الطائفة الكنسية من البروتستانت، "زير جوناثان إدواردز" أسلوبًا عاطفيًا بشكل مكثف من الوعظ. كانت خطبة "إدواردز" المشهورة "المذنبون بين يدي رب غاضب"، التي يصور فيها الرجل المذنب بأنه "حشرة مقرفة" تعلقت في حفرة من النار الأبدية بلا قاع بخيط رقيق قد ينقطع في أي لحظة، وقد أعلن أحد أعضاء جماعته، "القس جوشوا تافتس" أنه يجعل المصلين يصرخون بصوت عال "ماذا أفعل لأنال الخلاص، ويلي أنا ذاهب إلى الجحيم"، وهذا يشكل "ولادة جديدة" – حيث يعترف المرء على الفور بذنوبه ويسأل الله المغفرة، وبذلك يحصل على الخلاص من اللعنة الأبدية، "إنها الولادة الجديدة التي تجعل (الفاسقين) أحرارا".

وعظ "وايتفيلد"

لم تقتصر الانفعالية الدينية على المستعمرات الأمريكية، ولكنها انتشرت أيضًا في الكثير من أوروبا في منتصف القرن الثامن عشر. فقد أشعل القس الإنجليزي "جورج وايتفيلد" الصحوة الكبرى أكثر من أي فرد آخر، وقد أعلن أن "العالم كله رعيته". جلب "وايتفيلد"، بعد عامين من

وصوله إلى أمريكا في عام 1739، وعظه العاطفي المتميز إلى المستعمرات من "جورجيا" إلى "نيو إنجلاند"، وأعلن أن الله رحيم، وأن اللعنة ليست قدرًا محتومًا على الرجال والنساء، ولكن يمكنهم الخلاص من خلال التوبة من خطاياهم، واستطاع جذب مشاعر المستمعين له من خلال قوة رسمه للفرحة غير المحدودة للخلاص وأهوال اللعنة، وكان يطالب مستمعيه في كل خطبة أن ينظروا جيدًا في قلوبهم والإجابة على السؤال، "هل نلت الخلاص؟" وإذا لم يكن كذلك، يجب أن يغيروا الطريق الذي يقودهم للخطايا وتسليم حياتهم لله.

تدفق عشرات الآلاف من المستوطنين على خطب "وايتفيلد"، التي ذاعت شهرتها على نطاق واسع في الصحافة الأمريكية مما جعله مشهورا، وساعد على ترسيخ الإحياء والتجديد كأول حدث كبير بين المستعمرتين في تاريخ أمريكا الشمالية؛ وعلى الرغم من أن "بنجامين فرانكلين" كان مؤمن بالله وحده دون الوحي، إلا أنه ساعد في الترويج لجولة وايتفيلد (وحقق أرباحًا كبيرة) من خلال نشر مواعظه وكتاباته. عقد مجموعة من الوعاظ والدعاة الرحالين أو ما يطلق عليهم "الإنجيليون" (وهي تعني حرفيًا المُبشِرين) الكثير من الندوات ومجالس العلم لنشر الإحياء والصحوة على غرار "وايتفيلد"، نتيجة تحذير القساوسة والكهنة الموجودين.

أنتج نقاد الصحوة الكبرى الخطب، والكتيبات، والمقالات في الصحف تندد بدعاة الإحياء والتجديد لافتقارهم للتدريب اللاهوتي، ولتشجيعهم على عدم احترام "الكنيسة الراسخة وقساوستها" وملء الكنائس "بالاضطراب العام والفوضى". سعت "كونيتيكت" إلى وقف مد الصحوة من خلال سن القوانين التي تعاقب الدعاة الرحالة المخربين. في الوقت الذي هدأت فيه الصحوة بحلول الستينيات من القرن الثامن عشر، كان دعاتها قد نجحوا بالفعل في تغيير التكوين الديني للمستعمرات ووسعوا من حدود الحرية، وكان "وايتفيلد" قد ألهم ظهور العديد من الكنائس المنشقة على الكنائس القائمة؛ وانقسمت جماعات المصلين إلى فصائل برئاسة مصابيح الدعوة القدامى (التقليديين)، ومصابيح الصحوة الجديدة (المجددين الإحيائيين)، وانتشرت كنائس جديدة مثل المعمدانية والميثودية والمشيخية وغيرها، وبدأ العديد من هذه الكنائس الجديدة في انتقاد الممارسات الاستعمارية في فرض الضرائب لدعم الكنيسة القديمة القائمة؛ ودافعوا عن الحرية الدينية باعتبارها أحد الحقوق الطبيعية التي لا يجب أن تقيدها الحكومة.

تأثير الصحوة

على الرغم من أن الإحياء والتجديد كانا في المقام الأول بمثابة مسألة روحية، إلا أن الصحوة الكبرى عكست التوترات الاجتماعية القائمة، وأثارت الشك والانتقاد حول كثير من أشكال السلطة، وأوحت بنقد جوانب المجتمع الاستعماري.كما اشتكى أحد الكهنة الإنجيلين

قائلاً "إن الصحوة جذبت في المقام الأول الرجال والنساء ذوي القدرات المتواضعة- الوقحين والجاهلين والذين لم يحصلوا على القدر الكاف من الأخلاق أو التعليم أو التربية الجيدة"؛ وكثيرًا ما انتقد وعاظ وخطباء الصحوة المجتمع التجاري، وأصروا على أنه ينبغي على المؤمنين السعي للخلاص، باعتباره "المهمة الوحيدة للمرء في حياته" وليس الربح. أدان الوعاظ والخطباء التجار في "نيو إنجلاند" الذين يحتالون على الغافلين، ويتورطون في الديون بسبب الجشع الذي يتنافى تمامًا مع تعاليم المسيحية. قام المجددون المعمدانيون والميثوديون (أعضاء الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية، التي تأسست على مبادئ جون وتشارلز ويسلي في إنجلترا في أوائل القرن الثامن عشر، وتتميز بمراعاة الرعاية الاجتماعية والآداب العامة) بوعظ صغار المزارعين في الضواحي الخلفية في الجنوب، وانتقدوا المزارعين الدنيويين الأثرياء، وهاجموا أنشطة مثل القمار، وسباق الخيل، ووسائل الترفيه الفخمة في يوم السبت باعتبارها من الخطايا.

أدان عدد قليل من الدعاة العبودية بشكل صريح، وكان هناك عدد قليل من المتحولين إلى المسيحية، بتحرير العبيد الذين يملكونهم، بعد التوصل إلى الاستنتاج بأن كلا من البيض والسود أخوة في الله، ومنهم "روبرت كارتر الثالث" حفيد صاحب المزارع الثري"روبرت كنج كارتر" بين تمكن معظم السادة الآخرين من التوفيق بين المسيحية وامتلاك العبيد. قام الإحيائيون والمجددون بإدخال العديد من العبيد في "تشيزبيك" بصفة خاصة إلى حظيرة المسيحية، وهي خطوة هامة في التطبع الثقافي للأمريكيين من أصل أفريقي، وتأثر عدد قليل من السود بكلمة الله وقاموا بالوعظ فيما بينهم. سمح الإحيائيون والمجددون لمجموعة من الإناث بالقيام بالوعظ، وبذلك كسروا لفترة من الوقت احتكار الذكور للوعظ.

لقد وَسَّعَت حركات الإحياء والتجديد من نطاق البدائل الدينية المتاحة للأمريكيين، مما أدى إلى انقسامهم أكثر من ذي قبل، وفي الوقت ذاته ساهم في تكاملهم على نحو أكثر اكتمالاً في تطورات دينية عبر الأطلسي. لم يقتصر أثر الصحوة الكبرى على الأمور الروحية البحتة، ولكن تجاوزها إلى أبعد من ذلك، حيث توسعت إلى حد كبير حروب الصحف والنشرات التي أشعلتها هذه الصحوة، وكذلك تزايدت حركة نشر وتوزيع المواد المطبوعة في المستعمرات، وكثيرًا ما شجعت الصحوة المستعمرين على أن يثقوا في آرائهم الخاصة بدلاً من آراء النخب الموجودة آنذاك، كما أكد المستعمرون العوام على حقهم في أن يكون لهم حكمهم المستقل على الأمور، وذلك من خلال الاستماع إلى خطب الخطباء الذين تعلموا بصورة ذاتية، وتشكيل مجموعات لدراسة الكتاب المقدس، والانخراط في مناقشات دينية مكثفة، حتى أن القس المعمداني "أسحق باكوس" أعلن قائلاً أن "عوام الناس يَدَّعون انهم مؤهلين للتمتع بحق الحكم على الأمور،

والتصرف من تلقاء أنفسهم في مسائل الدين مثل حكام المدنية أو رجال الدين المتعلمين. كان هدف المجددين تحقيق الخلاص الروحي وليس القيام بثورة اجتماعية أو سياسية، غير أن بناء تلك العقلية المستقلة المتفتحة التي شجعوها كانت له عواقب سياسية هامة.

المنافسات بين الإمبراطوريات

أمريكا الشمالية الإسبانية

لقد حدث النمو السريع لمستعمرات أمريكا الشمالية البريطانية في وقت زاد فيه التنافس بين الإمبراطوريات الأوروبية على السلطة، الذي شمل الكثير من المناطق التي تدخل ضمن الولايات المتحدة اليوم، إلا أن مستعمرات منافسي إنجلترا ظلت أقل سكانًا وأضعف اقتصاديًا بكثير، على الرغم من أنها كانت تغطي مساحات شاسعة من الأراضي. كانت الإمبراطورية الإسبانية تضم مساحة امتدت من ساحل المحيط الهادئ و"نيو مكسيكو" إلى "السهول العظمى"، وامتدت شرقًا في "تكساس" و"فلوريدا"، وشملت بعد عام 1763 "لويزيانا" التي حصلت عليها من فرنسا؛ وعلى الرغم من أمريكا الشمالية الإسبانية كانت تشغل على الورق إمبراطورية إقليمية عظمى، إلا أنها كانت تتألف في الواقع من بضع مجموعات حضرية صغيرة ومعزولة، كان أهمها "سان أوجستين" في "فلوريدا"، و"سان انطونيو" في "تكساس"، و"سانتا في" و"البوكيرك" في "نيو مكسيكو".

وقد بذلت الحكومة الإسبانية في النصف الثاني من القرن جهودًا متضافرة لتنشيط إمبراطوريتها شمال منطقة "ريو غراند"، وأقامت علاقات مع الهنود، وبخاصة شعوب "الكومانش" و"الأباتشي" الذين كانوا قد عاثوا فسادًا في "نيو مكسيكو"، ولكن بالرغم من التوسع في تربية المواشي في "نيو مكسيكو" و"تكساس" إلا أن اقتصاد المستعمرات الإسبانية كان يعتمد في الأساس على استخلاص العمل من السكان من الهنود، الذين كانوا مازالوا على قيد الحياة والتجارة معهم. وبلغ عدد السكان في "نيو مكسيكو" يبلغ 20.000 نسمة فقط في عام 1765، كانوا مقسمين بالتساوي بين المستوطنين الإسبان والهنود البويبلو. بدأت إسبانيا في استعمار "تكساس"، ثم انتشرت في "وادي المسيسيبي" في بداية القرن الثامن عشر، بشكل جزئي كمنطقة عازلة لمنع وصول النفوذ التجاري الفرنسي إلى "نيو مكسيكو". أنشأ الإسبان مجمعات تتألف من البعثة الدينية وحاميات عسكرية في "لوس ادياس"، و"لا باهيا"، و"سان انطونيو"، إلا أن المنطقة لم تجذب إلا القليل من المستوطنين، حيث بلغ عدد سكان "تكساس" 1.200 نسمة فقط من المستعمرين الإسبان في عام 1760. عانت "فلوريدا" كذلك من الركود وظلت موقعًا عسكريًا فقيرًا، ووصل عدد سكانها

في حوالي عام 1770 قرابة 2.000 نسمة من المستعمرين الإسبان، و1.000 نسمة من العبيد السود، وبضع مئات من الهنود الناجين من العديد من عقود من الحرب والمرض.

الإسبان في كاليفورنيا

أنشأ تجار الفراء الروسيون في القرن الثامن عشر سلسلة من الحصون والمراكز التجارية في ألاسكا على ساحل المحيط الهادئ؛ وعلى الرغم من أنه كان يعيش في تلك المنطقة حفنة فقط من المستعمرين الروس، إلا أن ذلك أزعج إسبانيا واعتبرته خطرًا على إمبراطوريتها الأمريكية، وأمرت باستعمار "كاليفورنيا"؛ ونتيجة لذلك، سرعان ما انتشرت سلسلة من البعثات التبشيرية الإسبانية والحاميات العسكرية على ساحل "كاليفورنيا" من "سان دييجو" إلى "لوس أنجلوس"، "سانتا باربرا"، و"مونتيري"، و"سان فرانسيسكو"، و"سونوما". وُلِدَ الأب "جونيبيرو سيرا" في جزيرة "مالوروكا" الإسبانية على ساحل البحر المتوسط، وأصبح واحدًا من الشخصيات الأكثر إثارة للجدل في بداية تاريخ "كاليفورنيا"، حيث أسس أول بعثة تبشيرية في "سان دييجو" في "كاليفورنيا" في عام 1769 وأدار شبكتها حتى وفاته في عام 1784، ونال المديح على نطاق واسع في إسبانيا نظرًا لأنه ساهم في اعتناق الآلاف من الهنود للديانة المسيحية، وعلّمهم اللغة الإسبانية، وعمل على تحويل اقتصادهم القائم على صيد الحيوانات والأسماك وجمع الخضروات والفواكه البرية، إلى إدخال الزراعة المستقرة والحرف اليدوية الماهرة، ولكن العمل بالسخرة والمرض تسببا في الكثير من الخسائر الفادحة في الأرواح بين الهنود الذين عاشوا في بعثة الأب "سيرا". هذا وتنظر الكنيسة الكاثوليكية حاليًا في رفعه إلى مقام القديسين.

كانت كاليفورنيا الحالية منطقة مكتظة بالسكان عندما بدأ إنشاء المستعمرات الإسبانية هناك، حيث بلغ عدد سكانها الأصليين حوالي 250.000 نسمة، ولكن كما هو الحال في غيرها من المناطق، ثبت أن قدوم المبشرين والجنود كان يمثل كارثة للهنود في هذه المنطقة أيضا. كانت كاليفورنيا بعثة حدودية أكثر من أي مستعمرة إسبانية أخرى، وكانت هذه المخافر الأمامية تقوم مقام مؤسسات دينية، ومراكز للحكومة والعمال في ذات الوقت، وكانت تهدف إلى تحويل ثقافة السكان المحليين ودمجهم في نهاية المطاف في الحضارة الإسبانية. كان الأب "سيرا" وغيره من المبشرين يأملون في تحويل المواطنين الهنود إلى المسيحية وإلى الزراعة المستقرة. اعتمدت البعثة التبشيرية أيضًا على العمالة الهندية للعمل بالسخرة في زراعة الحبوب والبساتين وكروم العنب وتربية المواشي، إلا أن مجموعة الأمراض الجديدة وإعادة توطين الآلاف من الهنود في القرى المحيطة بالبعثة الإسبانية أدى إلى تدمير المجتمع الهندي، بحيث انخفض عدد السكان الأصليين في "كاليفورنيا" بأكثر من الثلث بحلول عام 1821، عندما حصلت المكسيك على استقلالها من إسبانيا؛ ومع ذلك، لم تجذب تلك

المنطقة المستوطنين الإسبان، بحيث بلغ عدد سكان لوس أنجلوس قرابة 300 نسمة فقط في عام 1800، بالرغم من أنها كانت تُعَدُّ أكبر بلدة آنذاك، وعندما انتهى حكم الإسبان في كاليفورنيا في عام 1821، كان عدد السكان المنحدرين من أصل إسباني هناك يبلغ 3.200 نسمة فقط.

الإمبراطورية الفرنسية

ظلت مستعمرات إسبانيا في أمريكا الشمالية تمثل أجزاءً هامشية لإمبراطوريتها، بالمقارنة مع ممتلكاتهم في أمريكا الوسطى والجنوبية ومنطقة البحر الكاريبي. كانت فرنسا تمثل منافسًا أكبر للسلطة البريطانية في أمريكا الشمالية، وكذلك في أوروبا وفي منطقة البحر الكاريبي.هذا وقد زاد عدد السكان وتوسع الاقتصاد في كندا خلال القرن الثامن عشر. توغل التجار الفرنسيون في نفس الوقت في وادي نهر المسيسبي جنوبًا من البحيرات العظمى وشمالاً من موبايل، التي تأسست في عام 1702 وفي نيو أورليانز التي أنشئت في عام 1718. نشأت وتطورت مجتمعات زراعية مزدهرة في وادي نهر سانت لورانس بكندا الفرنسية، وبلغ عدد سكان هذه المنطقة بحلول عام 1750 حوالي 55.000 مستعمر، بينما أقام حوالي 10.000 نسمة أخرى في لويزيانا (كان قرابة نصفهم من الأوروبيين والنصف الآخر من العبيد الأمريكيين الأفارقة)، وتركز معظمهم في منخفض نهر المسيسبي وعلى طول ساحل الخليج. انتشرت مزارع السكر في المنطقة الواقعة بين نيو أورليانز وباتون روج بحلول منتصف القرن. تمتع السكان في نيو أورليانز بالفعل بحياة اجتماعية نابضة، وكذلك بمجتمع مستقر يضم الكنائس، والمدارس، والمباني الحكومية.

على الرغم من ذلك، استمر عدد سكان أمريكا الشمالية الفرنسية في الانخفاض الشديد على يد المستعمرات البريطانية، وظل تحيز فرنسا ضد الهجرة إلى أمريكا الشمالية على نطاق واسع. سردت رواية فرنسية كُتِبَت في عام 1731، والتي تُعْرَفُ اليوم بأنها أساس أوبرا مانون في القرن التاسع عشر قصة عاهرة تم معاقبتها بنقلها إلى لويزيانا وعشيقها النبيل الذي لحق بها هناك؛ لقد عَبَّرَت هذه الرواية عن وجهة النظر الشعبية للمستعمرة كمكان لنفي المجرمين والمنبوذين الاجتماعيين؛ ومع ذلك، شكلت الإمبراطورية الفرنسية تحديًا حقيقيًا للبريطانيين بفرض السيطرة على مساحات شاسعة من الأراضي، وإنشاء علاقات تجارية وعسكرية وثيقة مع العديد من القبائل الهندية، خاصة وأن الحصون والمراكز التجارية الفرنسية كانت تحيط بالمستعمرات البريطانية. تنافس التجار الفرنسيون والبريطانيون في المناطق المعروفة في الوقت الحاضر بولاية المسيسبي وولاية الاباما والمناطق الغربية من جورجيا، وكارولينا الشمالية والجنوبية، لتشكيل تحالفات مع الهنود المحليين، والسيطرة على التجارة في جلود الغزلان. كان للفرنسيين وجود على حدود نيو إنجلاند ونيويورك وغرب بنسلفانيا.

معركة من أجل القارة

الأرض الوسطى

كانت الحدود الغربية لأمريكا الشمالية البريطانية بمثابة بؤرة للتنافس بين الإمبراطوريات خلال فترة كبيرة من القرن الثامن عشر؛ وقد وقع "وادي أوهايو" فريسة لصراع معقد على السلطة بين الفرنسيين، والبريطانيين، والمجتمعات الهندية المنافسة، والمستوطنين وشركات الأراضي التي تسعى لمصالحها الخاصة. كان يعيش هنا كثيرون من الهنود منذ منتصف القرن، بما في ذلك "شونيس" و"دلورس" الذين تم طردهم من "بنسلفانيا" عند توسع مستوطنات البيض هناك، وكان يعيش هناك أيضًا "الشيروكي" و"شيكاساوس" من المستعمرات الجنوبية الذين كانوا يرون المنطقة كأرض جديدة للصيد، وكان هناك أيضًا "الإيروكوا" الذين كانوا يسعون إلى فرض السيطرة على تجارة الفراء في المنطقة. نشأت القرى في هذه الأرض "الوسطى" بين الإمبراطوريات الأوروبية والسيادة الهندية حيث عاش العديد من أفراد القبائل جنبًا إلى جنب مع الأوروبيين من التجار والمبشرين الذين يمرون هناك في بعض الأحيان.

بحلول منتصف القرن الثامن عشر، أدرك الهنود أن المواجهة العسكرية المباشرة مع الأوروبيين تعني الانتحار، وأن التحالف مع قوة أوروبية واحدة تعرضهم لمخاطر من جانب الآخرين. اعترف الهنود في "وادي أوهايو" أن التنافس الإمبراطوري بين بريطانيا وفرنسا يمثل بالنسبة للهنود تهديدًا وفرصًا في ذات الوقت، كما علَّق أحد متحدثي "ديلاوير" قائلاً، لقد كان من المستحيل معرفة أين تقع أراضي الهنود، فالفرنسيون يدَّعون ملكية كل الأراضي على أحد جانبي نهر "أوهايو"، بينما يدَّعي الإنجليز ملكية الأراضي الواقعة على الجانب الآخر من النهر." ومن ناحية أخرى، سعى الهنود (مع بعض النجاح) للوقيعة بين الإمبراطوريات الأوروبية والهيمنة على التجارة المربحة مع البيض. كان "الإيروكوا" متفوقين في دبلوماسية توازن القوة، وقَبِلَ البريطانيون سيادتهم على "وادي أوهايو"، ولكن الفرنسيين وحلفائهم الهنود لم يرضوا عن ذلك وتحدوه.

سكن عدد قليل من المستوطنين البيض في وادي أوهايو في عام 1750، ولكن كان المهاجرون الإسكتلنديون - الأيرلنديون والألمان، ومزارعو "فرجينيا"، ومضاربو الأراضي يتطلعون بالفعل للاستفادة من التربة الخصبة في المنطقة، وفي عام 1749، منحت حكومة "فرجينيا" لشركة أوهايو أراضي شاسعة تبلغ مساحتها نصف مليون فدان، وهذا يعد مجرد مثال على الأراضي الضخمة التي كان يجري توزيعها على أولئك الذين كانت لديهم علاقات مع الساسة. كان من بين أعضاء الشركة الحاكم الملكي للمستعمرة "روبرت دنويدي" في "فرجينيا"، وتضم النخبة عائلات مثل "لي"، و"كارتر" والشاب "جورج واشنطن". هدد منح الأراضي الهنود بالمنطقة وكذلك مضاربي

الأراضي في "بنسلفانيا"، الذين ادعوا بملكيات في المنطقة، كما أثارت الفرنسيين لتعزيز وجودهم في المنطقة. طالبت شركة "أوهايو" باعتراف الفرنسيين بملكيتها لأراضيها، مما فتح الباب لحرب السنوات السبعة (المعروفة في المستعمرات باسم الحرب الفرنسية الهندية)، وهي أولى الحروب الإمبراطورية التي نشبت في القرن في المستعمرات، والأولى التي حققت انتصارًا حاسمًا لمقاتل واحد، وغيرت ميزان القوى العالمية بشكل دائم.

حرب السنوات السبع

كانت إنجلترا فيما قبل عام 1688 بمثابة قوة هامشية، بينما كانت إمبراطورية إسبانيا مترامية الأطراف أكثر منها بكثير، وكان لفرنسا نفوذ كبير في أوروبا، وكانت تهيمن هولندا على التجارة الخارجية والمالية. لم تبرز بريطانيا بصفتها الإمبراطورية الرائدة في العالم ومركزه التجاري والمصرفي إلا في القرن الثامن عشر، وبعد أن خاضت العديد من الحروب ضد منافستيها الرئيسيتين فرنسا وإسبانيا. استمرت حرب الخلافة الإسبانية (المعروفة في المستعمرات باسم حرب الملكة آن) خلال الفترة ما بين عامي 1702-1713، بينما استمرت حرب "أُذُن جنكينز" (نسبة إلى بحار بريطاني لاقى معاملة سيئة من قبل الإسبان) خلال الفترة ما بين عامي 1739-1742، في حين استمرت حرب الملك "جورج" خلال الفترة ما بين عامي 1740-1748؛ ومن أجل تمويل هذه الحروب، ارتفعت النفقات العامة، والضرائب، والدَّيْن الوطني بشكل كبير في بريطانيا، وقد أثار ارتفاع معدل الضرائب الاستياء في الداخل، وقد ساعد بعد ذلك على إشعال الثورة الأمريكية.

وصلت الممتلكات والتجارة البريطانية جميع أنحاء العالم بحلول الخمسينيات من القرن الثامن عشر، حتى أن دوق "نيوكاسل" علق قائلاً "إن كل جزء في العالم يؤثر علينا بطريقة أو بأخرى". لقد كان وجود الإمبراطوريات العالمية يعني ضمنًا أن الحرب بينهم ستكون عالمية أيضا. وبدأ ما أصبح صراعًا في جميع أنحاء العالم للهيمنة الاستعمارية - التي انتشرت في النهاية إلى أوروبا، وغرب إفريقيا، وآسيا- بدأ بجهود بذلها البريطانيون لطرد الفرنسيين من الحصون التي كانوا قد شيدوها في "غرب بنسلفانيا"، وكان حاكم المستعمرة قد أرسل في العام السابق "جورج واشنطن"، الذي كان عمره آنذاك واحد وعشرون عامًا فقط، في مهمة فاشلة لإقناع الجنود الفرنسيين بالتخلي عن حصن شيدوه على الأراضي التي كانت تطالب بها شركة أوهايو، وعاد واشنطن في عام 1754 إلى المنطقة مع سريتين من الجنود، وشيَّد على عجل حصن "نيسسيتي"، لكنه اضطر لتسليمه بعد محاولة غير مدروسة للدفاع عنها ضد قوة فرنسية وهندية تفوقه عددًا وحجمًا، حيث فقد فيها ثلث رجاله، ولكن سرعان ما قاد الجنرال "إدوارد برادوك" حملة ضد "حصن دوكين"

(تقع مكان ما يُعْرَفْ ببيتسبرج اليوم)، ولكنها تعرضت لكمين من قبل القوات الفرنسية والهندية أسفر عن قتل "برادوك" وخَلَّف ثلثي جنوده البالغ عددهم 3.000 جندي بين قتيل وجريح.

واستمرت الحرب ضد البريطانيين لمدة عامين، حيث استولت القوات الفرنسية والهندية على الحصون البريطانية في شمال "نيويورك"؛ كما اشتعلت القتال في الجنوب في الضواحي الخلفية، وفي الريف بين القوات البريطانية والمستعمرين والهنود، وتصاعدت الوحشية من جميع الأطراف، وقتل الهنود مئات المستعمرين في "غرب بنسلفانيا"، ودفعت بحدود الاستيطان للخلف إلى منطقة "كارلايل"، على بُعْد 100 ميل إلى الغرب من فيلادلفيا. وطرد البريطانيون حوالي 5.000 شخص من المقيمين الفرنسيين المحليين في "نوفا سكوتيا" يُطْلَقْ عليهم اسم "الأكاديون"، وصادروا أرضهم، وأبعدوهم من المنطقة، وباعوا مزارعهم لمستوطنين من "نيو إنجلاند"، وعاد بعض هؤلاء المطرودين في نهاية المطاف إلى فرنسا، بينما اتجه الآخرون إلى مناطق بعيدة مثل "لويزيانا"، حيث عُرِفَتْ ذريتهم وأحفادهم باسم "كاجونس".

تغير مسار الحرب مع قيام الحكومة البريطانية برئاسة "وليم بيت" الذي تولى رئاسة الوزارة في عام 1757، بجمع مبالغ ضخمة من المال وإنفاقها على الرجال والقوات البحرية في الحرب، وكانت استراتيجيته تقوم على أساس توفير الأموال اللازمة لبروسيا والنمسا، لتمكينهما من الاستمرار في الحفاظ على خط القتال ضد فرنسا وحليفتها إسبانيا في أوروبا، في حين وجه البريطانيون ضربات للمستعمرات الفرنسية التي تمثل نقطة الضعف لفرنسا، وبالفعل تمكنت بريطانيا بحلول عام 1759، وبمساعدة الجنود من المستعمرين ومع الهنود الذين لعبوا دورًا رئيسيًّا بالاستيلاء على البؤر الاستيطانية الفرنسية الحيوية في حصون "دوكين"، و"تيكونديروجا" (شمال مدينة ألباني) و"لويسبورج" على جزيرة "كيب بريتون" التي تحرس مصب نهر سانت لورانس، ولحقت بالجيش الفرنسي هزيمة في شهر سبتمبر (أيلول) من نفس العام في "سهول إبراهام" بالقرب من "كيبيك"، واستسلم آخر حصون فرنسا الجديدة، الذي يقع في مونتريال في عام 1760. استولت القوات البريطانية أيضًا على ما يقرب من جميع الجزر في منطقة البحر الكاريبي الفرنسية، وتمكنت من السيطرة على الهند. تمكنت كل من بروسيا والنمسا في أوروبا في الوقت نفسه من درء ائتلاف فرنسا، وروسيا، وإسبانيا.

العالم يتحول

أعلن المبعوث البريطاني للهنود في "ديلاوير" قائلاً "طالما أن العالم قد وقف هناك، فلن تكون هناك حرب". أعاد انتصار بريطانيا تشكيل توازن القوى في العالم بشكل أساسي. تنازلت فرنسا بموجب "معاهدة باريس" في عام 1763 عن كندا إلى بريطانيا، في مقابل تلقي استعادتها مرة أخرى

جزيرتي السكر "جوادلوب" و"مارتنيك" (وهي مستعمرات أكثر ربحًا بكثير بالنسبة للسلطات الفرنسية)؛ وفي إطار إعادة توزيع ممتلكات الإمبراطوريات، تنازلت إسبانيا عن "فلوريدا" لبريطانيا في مقابل عودة الفلبين وكوبا (اللتان استولى عليهما البريطانيون أثناء الحرب)، كما حصلت إسبانيا أيضًا على مستعمرة لويزيانا الواسعة من فرنسا، وانتهى وجود الإمبراطورية الفرنسية في أمريكا الشمالية، والتي كانت تعود إلى 200 عام، وحينذاك أصبحت القارة بالكامل شرق نهر المسيسبي في أيدي البريطانيين الآن، باستثناء اثنين من الجزر الصغيرة قبالة ساحل "نيوفاوند لاند"، واللتان قد احتفظت بهما فرنسا.

وقد أشار رئيس الوزراء "بيت" قائلاً "إن صعوبة تحقيق السلام لا تقل عن صعوبة الحرب." كانت حروب القرن الثامن عشر التي دارت في البر والبحر وعبر جميع أنحاء العالم باهظة الثمن بشكل كبير. فرضت حرب السنوات السبع قيودًا على جميع الأطراف، وتسببت تكلفة الحرب في إحداث أزمة مالية في فرنسا، ساعدت بدورها في إشعال الثورة الفرنسية بعد ما يقرب من ثلاثة عقود. هذا وقد حاول البريطانيون تعويض جزء من تكلفة الحرب من خلال زيادة الضرائب في المستعمرات الأمريكية، وقد علّق الكاتب البريطاني الدكتور "صموئيل جونسون" قائلاً " لا نكاد نتخلى عن الحرب مع جيراننا الفرنسيين، إلا ويتعين علينا أن نقع في الاقتتال فيما بيننا. " وفي الحقيقة، سرعان ما تلت "معاهدة باريس" للسلام حربًا مفتوحة في أمريكا الشمالية بين البريطانيين والأمريكيين الأصليين.

تمرد "بونتياك"

أدى الرحيل المفاجئ للفرنسيين في أعقاب حرب السنوات السبع إلى القضاء على دبلوماسية توازن القوى في جميع أنحاء شرق أمريكا الشمالية، والتي قد مكّنت جماعات مثل "الإيروكوا" من الحفاظ على درجة كبيرة من الحكم الذاتي، حتى مع احتفال إنجلترا ومستعمراتها بالفوز باعتباره انتصارا للحرية، بينما رأى الهنود أنه تهديد لحريتهم. لقد قاتل الهنود على كلا الجانبين في الحرب، وإن كان بصفة حلفاء للفرنسيين، إلا أن هدفهم الأساسي كان يتمثل في الحفاظ على استقلالهم من كلا الإمبراطوريتين. كان الهنود يخشون من سيطرة أي قوة خارجية، لأن ذلك كان يعني بالنسبة لهم فقدان الحرية. تنازلت فرنسا بدون استشارة الهنود عن الأراضي التي يَدعى الهنود ملكيتهم لها إلى السيطرة البريطانية، بموجب ما يسمى "معاهدة باريس"، التي جعلت الهنود أكثر اعتمادًا على البريطانيين أكثر من أي وقت مضى، وبشّرت بفترة من الالتباس حول ملكية الأراضي، والسيطرة على تجارة الفراء والعلاقات القبلية بصفة عامة. كان واضحًا للهنود أن التوسع المستمر في المستعمرات البريطانية يمثل تهديدًا خطيرًا بالنسبة لهم. هذا وقد

ذكر أحد ضباط الجيش البريطاني أن الامريكيين الأصليين "يقولون إننا نقصد من وراء أخذ أرضهم استعبادهم".

شن هنود وادي أوهايو والبحيرات الكبرى في عام 1763، في أعقاب الهزيمة الفرنسية ثورة ضد الحكم البريطاني؛ وبالرغم من أنه أُطْلِقَ على هذه الثورة "تمرد بونتياك"، نسبة إلى زعيم حربي في أوتاوا، إلا أن التمرد يعود بنفس القدر من الفضل إلى تعاليم "نيولين"، وهو رجل دين في ديلاوير أدعى النبوة، وأن سيد الحياة أوحى له في رؤيا دينية أن يوعز إلى شعبه بأنه يجب رفض التكنولوجيا الأوروبية، وأن يحرروا أنفسهم من الروابط التجارية مع البيض وإدمان الكحول، وأن يحتذوا بالأجداد في الملبس، وأن يطردوا البريطانيين من أراضيهم (بالرغم من أن الفرنسيين الودودين يمكنهم البقاء). ربط "نيولين" هذه الرسالة بالفكرة الجديدة نسبيًا الخاصة بالهوية القومية الهندية، ووصًى الهنود بأنهم جميعًا ينتمون إلى شعب واحد، وأنهم لن يستطيعوا استعادة استقلالهم إلا من خلال التعاون. ساهم أيضًا في إذكاء هذا الشعور لدى الهنود بالهوية كأمة، وليس كمجرد أعضاء في قبائل فردية، التجربة المشتركة في نزع الملكية والمجتمعات التي نشأت بين القبائل في أوهايو، واختلاط المحاربين الهنود في الجيوش الفرنسية.

حدود الإعلان

حاصرت قبائل "أتوس" و"هورونس" وهنود آخرون منطقة "ديترويت" في ربيع وصيف عام 1763، ثم حاصروا ثكنة عسكرية بريطانية كبرى، واستولوا على تسعة حصون أخرى، وقتلوا مئات من المستوطنين البيض الذين كانوا قد توغلوا في الأراضي الهندية. شنت القوات البريطانية هجمة مرتدة بسرعة، وتم التصالح على مدى السنوات القليلة التالية مع القبائل واحدة تلو الأخرى؛ ومع ذلك، ألهمت هذه الانتفاضة الحكومة في لندن بإصدار إعلان عام 1763، لحظر المزيد من الاستيطان الاستعماري غرب جبال الأبلاش، وتم الاحتفاظ بهذه الأراضي لصالح الهنود بصورة حصرية؛ وعلاوة على ذلك، حظر الإعلان بيع الأراضي الهندية للأفراد، بحيث لم يعد يحق من الآن فصاعدًا عقد صفقات الشراء إلا للحكومات الاستعمارية فقط.

كان الهدف البريطاني يتمثل في تحقيق استقرار في الأوضاع على الحدود الاستعمارية، وتجنب الانجرار إلى سلسلة من النزاعات الحدودية التي لا نهاية لها، أكثر من استهداف حماية الهنود، لكن الإعلان أثار غضب كل من المستوطنين والمضاربين الذين كانوا يأملون في الاستفادة من طرد الفرنسيين لتعزيز مطالباتهم بالأراضي الغربية، ولذلك تجاهلوا جميعًا السياسة الجديدة. أمر جورج واشنطن بنفسه وكلاءه بشراء أكبر قدر ممكن من أراضي الهنود، مع الحفاظ على هذه الصفقات بمثابة "سر عميق" بسبب عدم مشروعيتها. فشل إعلان عام 1763 في تقديم حلول

عملية لمسألة التوسع غربًا وانتهى بتفاقم العلاقات بين المستوطنين والهنود.

بنسلفانيا والهنود

لم يقتصر أثر حرب السنوات السبع على إعادة رسم خريطة العالم، ولكنها أحدثت أيضًا تغيرات جذرية داخل المستعمرات الأمريكية؛ وقد تجلى ذلك في "بنسلفانيا" أكثر منه في أي من المستعمرات الأخرى، حيث حطم الصراع حكم نخبة "الكويكر" الذي امتد لعقود، ووجه الضربة القاضية إلى سياسة المستعمرة في استيعاب الهنود. طالب سكان "بنسلفانيا" الغربيون من السلطات الاستعمارية اعتماد موقف أكثر عدوانية وجرأة خلال الحرب على الحدود المشتعلة بمعارك بين المستوطنين والقوات الفرنسية والمحاربين الهنود. عندما أعلن الحاكم الحرب على أهل "ديلاوير" المعاديين، قام بتكوين الميليشيات، ومنح غنائم للجنود حسب عدد رؤوس القتلى من الهنود، استقال الكثير من "الكويكر" من أعضاء المجلس السلميين، وأنهوا بذلك على نحو فعال سيطرتهم على السياسة في "بنسلفانيا". عمَّقت الحرب العداء بين المزارعين الغربيين نحو الهنود، وشهدت العديد من الاعتداءات العشوائية على المجتمعات الهندية، الحلفاء والأعداء على حد سواء.

وبينما كان لا يزال تمرد "بونتياك" مستعرًا في ديسمبر (كانون الأول) عام 1763، قامت مجموعة من خمسين رجل مسلح، معظمهم من المزارعين الأسكتلنديين والأيرلنديين من مدينة "باكستون" على مشارف "بنسلفانيا"، بتدمير قرية هندية تسمى"كونستوجه"، وذبحوا بضع من الرجال، والنساء، والأطفال، الذين كانوا يعيشون هناك تحت حماية حاكم "بنسلفانيا"، ثم بعد ذلك ساروا إلى "لانكستر"، حيث قتلوا أربعة عشر هنديًا آخر؛ ومثلما فعل المشاركون في تمرد "بيكون" منذ ما يقرب من قرن مضى، اتهم متمردو "بونتياك" السلطات الاستعمارية بأنها تتساهل مع الهنود أكثر من اللازم، وتقدموا بالتماس للمجلس التشريعي بطرد جميع الهنود من المستعمرة، وأصروا على أن "مطالبة الهنود بالحرية والاستقلال" يهدد استقرار "بنسلفانيا". عندما تحرك"شباب باكستون" إلى "فيلادلفيا" في فبراير (شباط) عام 1764 لمهاجمة هنود "مورافيا"، الذين يقيمون بالقرب من المدينة، أمر الحاكم بطرد الكثير من السكان الهنود، وبحلول الستينيات من القرن الثامن عشر انتهت تجربة "بنسلفانيا" المقدسة، وكذلك وعد "وليام بن" "بالصداقة الحقيقية والوئام" بين المستعمرين والسكان الأصليين، حيث لم تكن هناك مستعمرة كبرى أخرى يوجد بها عدد أصغر من السكان الهنود، أو كانت هناك نية أشد قسوة من جانب المستوطنين للتخلص من الهنود الباقين.

الهويات الاستعمارية

خرج المستعمرون من حرب السنوات السبع بشعور متزايد بالهوية الجماعية، تمامًا مثل الهنود. كانت المستعمرات قبل الحرب معزولة عن بعضها البعض إلى حد كبير، فربما كان عدد

الأمريكيين من خارج "نيو إنجلاند"، والذين سافروا إلى إنجلترا أكثر من عدد الأمريكيين الذين سافروا من مستعمرة إلى أخرى. دعا حاكم "نيويورك" "جورج كلينتون" في عام 1751 إلى مؤتمر عام حول العلاقات الهندية، ولكن لم يهتم سوى ثلاث مستعمرات بإرسال وفودها للمؤتمر. كانت خطة "ألباني للاتحاد" لعام 1754، التي صاغها "بنيامين فرانكلين" عند اندلاع حرب "السنوات السبع"، تهدف إلى إنشاء مجلس أعلى يتألف من مندوبين من كل مستعمرة، مع منح هذا المجلس سلطة فرض الضرائب والتعامل مع العلاقات الهندية والدفاع المشترك؛ غير أن هذه الخطة لاقت رفضًا من جانب المجالس النيابية في المستعمرات، والتي رأت أن اقتراح فرانكلين سيحد من سلطاتها، ولم يتم إرسالها أبدًا إلى لندن حتى يتم إقرارها.

أدت المشاركة في حرب السنوات السبع إلى خلق روابط أكبر بين المستعمرات، في نفس الوقت الذي عززت فيه أيضًا من تفاخر المستعمرين بأنهم أعضاء في الإمبراطورية البريطانية، حتى أنه قيل إن الأمريكيين لم يكونوا بريطانيين في أي وقت مضى أكثر مما كانوا في عام 1763. حارب رجال الميليشيات الاستعمارية والجيش النظامي البريطاني إلى جانب بعضهم البعض ضد الفرنسيين. ثارت التوترات بين العسكريين البريطانيين المحترفين وبين الجنود من المواطنين الأمريكيين غير النظاميين في الغالب، ولكن التجربة المشتركة في المعركة والنصر كانت قد شكلت روابط بينهم. دعا سكان "نيو إنجلاند"، على مدار فترة كبيرة من هذا القرن، إلى غزو كندا من قبيل توجيه ضربة "للحرية البروتستانتية" ضد "العبودية البابوية"، لكنهم الآن وبعد تحقيق الانتصار البريطاني في حرب السنوات السبع وما يعنيه من انتصار الحرية على الطغيان، حيث كانوا يرون أن هزيمة الكاثوليكية الفرنسية قد عززت معادلة القومية، والبروتستانتية، والحرية البريطانية.

في الحقيقة، لم تكن إمبراطورية بريطانيا العالمية مع ذلك ذات أغلبية بروتستانتية أو بريطانية أو حرة بعد عام 1763، حيث إنها أصبحت آنذاك تضم الآن عشرات الآلاف من الفرنسيين الكاثوليك والملايين من الأشخاص في الهند، والذين يخضعون لحكم بريطانيا كرعايا وليس كمواطنين، مما دعا رجل الدولة الإنجليزي "إدموند بيرك" للتساؤل عما إذا كانت الحرية البريطانية يمكن أن تتوافق مع الحكم على هذه الكتلة "الواسعة" والمعقدة وغير المتجانسة من المصالح"، ويبدو أن "بيرك" كان هو الوحيد تقريبًا الذي يرى هذه الإمبراطورية التي توسعت مؤخرًا باعتبارها تحديًا لمبادئ الحرية البريطانية، ولكن سرعان ما أدرك المستوطنون الأمريكيون أن العضوية في الإمبراطورية تعرض حريتهم للخطر، وبالفعل عندما أدركوا ذلك، شقوا طريقًا أدى بهم إلى الحصول على الاستقلال.

أصوات الحرية

من السرد المثير لحياة "أولوداه إكيوانو" أو "جوستافوس فازا" الإفريقي (1789)

كانت السيرة الذاتية لـ"أولوداه إكيوانو" التي نُشرت في لندن من أبرز الحكايات عن تجربة الرقيق التي كُتِبَت في القرن الثامن عشر. ويدعو في هذا المقطع من الكتاب الذي يأتي بعد وصف "إكيوانو" لمزاد العبيد في منطقة البحر الكاريبي، ويدعو فيه البيض أن يرتقوا إلى مستوى إيمانهم المعلن بالحرية.

لم نمكث في قبضة التاجر سوى عدة أيام حتى باعنا بطريقتهم المعتادة والتي تتلخص فيما يلي: بناء على علامة متفق عليها (مثلاً وقع طبلة) يندفع المشترون في الحال إلى الساحة حيث يُحبَس العبيد ويختارون ما يحلو لهم وما يرونه الأفضل لهم. . . . وبهذه الطريقة وبدون تورع أو تردد يتم فصل العلاقات والأصدقاء، ومعظمهم لن أراهم أبدًا بعد ذلك. أتذكر أنني رأيت في السفينة التي جلبونا فيها. . . العديد من الإخوة الذين تم بيعهم في حزم بَيْعِيَه مختلفة، وبالتالي تم تفريقهم وكان من المؤثر للغاية رؤيتهم وسماع صرخاتهم عند الفراق.

أيها المسيحيون بالاسم فقط! ربما لا يستطيع إفريقي أن يسألكم "هل تعلمتم هذا من ربكم الذي يأمركم أن تعاملوا الناس بالطريقة التي تودون أن يعاملونكم به؟ ألا يكفي أننا انفصلنا عن الأوطان والأهل والأصدقاء لنكدح في سبيل تحقيق الرفاهية لكم وإشباع شهواتكم في إحراز الربح؟ هل دفعكم طمعكم إلى التضحية بكل مشاعر الطيبة والرقة؟ هل أعز الأصدقاء والعلاقات التي أصبحت الآن أعز وأقوى بسبب الشوق والبُعد عن ذويهم في أوطانهم يتحملون الآن المزيد من الانفصال والمعاناة والحرمان بتفريقنا عن بعضنا البعض، بعد أن كنا نجد بعض الراحة والسلوان في تقاسم حزن العبودية والمشاركة والاختلاط فيما بيننا، وتودون مضاعفة معاناتنا وأحزاننا؟ لماذا يجب على الوالدين أن يفقدوا أطفالهم، وعلى الإخوان أن يفقدوا أخوانهم، وعلى الأزواج أن يفقدوا زوجاتهم؟ إن هذا يمثل بالتأكيد نوعًا جديدًا من الارتقاء ولكن في القسوة وليس في النبل والخلق.

من خطب "بونتياك"

(1762 و 1763)

كان "بونتياك" قائدًا لمقاومة عموم الهنود للحكم الإنجليزي فيما يُعْرَف باسم "تمرد بونتياك" الذي أعقب نهاية حرب "السنوات السبع". كان "نيولين" بمثابة نبيًا دينيًا لقوم "ديلاوير" (مجموعة من الشعوب الأمريكية الأصلية المترابطة جيدًا كانت تقطن وديان نهريَّ ديلاوير وهدسون والمنطقة الواقعة بينهما فيما يُعْرَفُ الآن بأوكلاهوما، وكنساس، وويسكونسن، وأونتاريو، وقد شكلوا مجموعة متنوعة من التحالفات السياسية في هجرتهم نحو الغرب بعد أن فقدوا أراضيهم للمستعمرين البيض في القرن السابع عشر والثامن عشر) وهو الذي ساعد في الإلهام بالتمرد.

أيها الإنجليز، على الرغم من أنكم غزوتم الفرنسيين إلا أنكم لم تغلبونا بعد! نحن لسنا عبيدًا لكم. لقد ورثنا هذه البحيرات وهذه الغابات وهذه الجبال من أجدادنا. إنه ميراثنا ولن نتنازل عنه لأحد. تفترض بلادكم أننا مثل البيض لا يمكننا العيش بدون خبز ولحم الخنزير ولحم البقر! ولكن يجب أن تعلموا أن الروح العظيمة وسيد الحياة قد رزقنا غذاءنا في هذه البحيرات الواسعة وهذه الجبال المملوءة بالغابات.

لقد قال الروح العظيم وسيد الحياة إلى نيولين أنه هو صانع السماء والأرض، والأشجار، والبحيرات، والأنهار، وكل شيء آخر، وأنه خلق هذه الأرض لكي نعيش فيها وليس للآخرين. لماذا تتحملون أن يعيش البيض معكم؟ لماذا نسيتم عادات وتقاليد آبائكم؟ لماذا لا تلبسوا الجلود كما كانوا يلبسون، وتستخدمون الأقواس والسهام والرماح المسنونة بالحجر التي استخدموها؟ لقد اشتريتم البنادق والسكاكين والغلايات والبطانيات من الرجل الأبيض حتى أصبحتم لا تستطيعون الاستغناء عن هذه الأشياء، والأسوأ من ذلك تجرعتم المشروب الكحولي حتى أصبحتم في حالة ثمالة وأصبحتم حمقى. اقذفوا كل هذه الأشياء بعيدًا وعيشوا كما كان أجدادنا الحكماء يعيشون. أما فيما يتعلق بهؤلاء الإنجليز، هؤلاء الكلاب الذين يرتدون اللون الأحمر، الذين جاءوا إلى هنا ليسرقوا أراضي الصيد الخاصة بكم ويبعدوكم عن اللعبة، فعليكم أن تشعلوا الأحقاد ضدهم وأن تمحوهم من على وجه الأرض، وبعدها فقط ستنالون رضائي وتعودون مرة أخرى تعيشون في سعادة ورخاء.

أسئلة:

1- ما هو جانب العبودية الذي أكد عليه "إكيوانو" في سرده، ولماذا تعتقد أنه فعل ذلك؟

2- ما هي عناصر الحياة الهندية التي انتقدها "نيولين" بشدة؟

3- ما هي أوجه الخلاف بين "إكيوانو" و"بونتياك" فيما يتعلق بطريقة مخاطبتها للجماهير البيض؟

أسئلة المراجعة:

1- لماذا كان الأب "جونيبيرو سيرا" شخصية مثيرة للجدل وهامة على هذا النحو؟
2- كيف اختلفت أفكار الحكم الجمهوري والليبرالي في أمريكا الشمالية البريطانية القرن الثامن عشر؟
3- كان هناك ثلاثة نظم متميزة للرقيق قائمة في مستعمرات البر الرئيسي البريطانية. أوصف الخصائص الرئيسية لكل نظام.
4- ما هي أسس شعور المستعمرين بالهوية الجماعية البريطانية في القرن الثامن عشر؟
5- ما هي الأفكار التي وَلَّدَتها حركتي التنوير الأمريكي والصحوة الكبرى والتي أدت إلى تحدي السلطات الدينية والاجتماعية والسياسية في المستعمرات البريطانية؟
6- كيف شارك تجار المستعمرات في النظام التجاري عبر الأطلسي، وما هو دور تجارة الرقيق في أعمالهم؟
7- غالبًا ما ننظر في الآثار المترتبة على تجارة الرقيق على الولايات المتحدة فقط، غير أن تأثيرها قد امتد إلى أبعد من ذلك بكثير. كيف أثرت هذه التجارة على الدول الإفريقية والمجتمع ومناطق أخرى من العالم الجديد ودول أوروبا أيضا؟
8- مستعينًا بمفاهيم القرن الثامن عشر، وضِّح من كان له حق التصويت من الأشخاص في المستعمرات البريطانية ولماذا كانت القيود مبررة.

أسئلة الحرية:

1- على الرغم من أن العديد من المستعمرين البريطانيين يَدَّعون أن إمبراطوريتهم هي "إمبراطورية الحرية"، إلا أن معظم الأمريكيين من أصل إفريقي لا يوافقون على ذلك. لماذا رأى الأمريكيون الأفارقة أن إسبانيا هي منارة الحرية، وما هي الأحداث التي وقعت في القرن الثامن عشر التي تبرهن على هذا؟
2- شهد القرن الثامن عشر التوسع المتزامن للحرية والعبودية في مستعمرات أمريكا الشمالية. اشرح الصلة بين هاتين القوتين المتناقضتين.
3- اشرح كيف أصبحت المُثُل العليا للحرية والحريات الجمهورية الليبرالية بمثابة صرخات استنفار حشدت الجماهير على نطاق واسع من جميع الطبقات الاجتماعية في الإمبراطورية البريطانية.
4- نعتز اليوم بحرية التعبير في جميع أشكالها، وتم إقرار هذه الحقوق في التعديل الأول للدستور. لماذا كانت هذه الحريات تعتبر خطيرة في القرن الثامن عشر وبالتالي غير مضمونة للجميع في الإمبراطورية البريطانية؟

جدول مراجعة		
نظم العمل الرئيسية في أمريكا الشمالية القرن الثامن عشر		
المنطقة	الاقتصاد الرئيسي	القوى العاملة السائدة
تشيزبيك وكارولينا الجنوبية	التبغ	مزارع أصغر بعقود عمل أساسية بين السيد والعبد.
كارولينا الجنوبية وجورجيا	الأرز والنيلة	مزارع واسعة بعمالة مكثفة من العبيد.
المستعمرات الوسطى	مزارع واسعة النطاق مزارع الأسرة التجارة الحضرية	خدم بعقد محدد المدة في المزارع الواسعة عمال وحرفيون حضريون.
نيو إنجلاند	مزارع الأسرة تجارة حضرية	أعضاء الأسرة في المزارع. عمال وحرفيون حضريون.
إسبانيا الجديدة	الزراعة على نطاق واسع وتربية الماشية	الأمريكيون الأصليون المرتبطون بالأرض.

الباب الثاني

أمة جديدة 1763 ـ 1840

نشب نزاع خلال فترة الستينيات والسبعينيات من القرن الثامن عشر حول فرض الضرائب داخل الإمبراطورية البريطانية، تصاعد إلى صدام أدى إلى ميلاد أمة جديدة، وهي الولايات المتحدة الأمريكية. لقد افتتحت الثورة الأمريكية حقبة من الاضطرابات السياسية في جميع أنحاء العالم الغربي، وهو ما اصطلح المؤرخون على تسميته، منذ ذلك الحين، "عصر الثورة". لقد ساعدت هذه الثورة على إلهام الانتفاضات الشعبية في أوروبا، ومنطقة البحر الكاريبي، وأمريكا اللاتينية وغيَّرت مسار التنمية والتطور الأمريكي إلى الأبد. بزغت الحرية باعتبارها صرخة الاستنفار في تلك الحقبة؛ وأصر جيل الثورة على أن جوهر نضالهم لا يكمن فقط في الاستقلال السياسي، ولكنه يكمن أيضًا في إنشاء ما أطلق عليه الكاتب توماس باين "ملاذ لحرية البشرية جمعاء". لم تكتف الثورة الأمريكية بتحطيم الرباط السياسي مع بريطانيا العظمى، ولكنها ألهمت أيضًا مجموعات داخل المجتمع الأمريكي للمطالبة بمزيد من الحقوق لأنفسهم، حيث طالب من لا يملكون الأراضي بحقهم في التصويت، وبدأت النساء في مواجهة تبعيتهن للرجال، وفر الخدم المرتبطون بعقود طويلة الأجل بعيدًا عن أسيادهم، واستغل العبيد الفرصة للحصول على حريتهم من خلال الانضمام للقتال في صفوف الجيش القاري أو عن طريق الهروب إلى الجانب البريطاني.

لقد واصلت الثورة مسيرتها ووسعت آفاق الحرية الأمريكية إلى حد كبير، حيث قطعت الرباط الذي يربط بين الكنيسة والدولة، وروجت لظهور دائرة من الحراك الحيوي العام شارك فيه الرجال العاديون، وأحيانًا النساء، ودخلوا في نقاش سياسي، وتحدوا احتكار السلطة السياسية من قبل النخب الاستعمارية؛ لقد أشعل هذا الحراك المطالبات بإلغاء الرق في الولايات الشمالية؛ ومن ناحية أخرى، كان الاستقلال يعني بالنسبة لبعض الأمريكيين فقدان الحرية. تعرض العديد من أولئك الذين ظلوا موالين لإنجلترا للاضطهاد وأُجبروا على مغادرة البلاد، وأزاح إنهاء الوجود البريطاني الحاجز الأخير الذي كان يحول دون توسع سكان أمريكا إلى

الغرب، مما جعل من الحتمي نزع ملكية ما تبقى من الهنود سكان شرق نهر المسيسبي، وكان لتشكيل حكومة وطنية، احتل فيها ملاك العبيد منصب الرئاسة لأكثر من نصف قرن بعد الاستقلال، أثر كبير في ترسيخ وتعضيد مؤسسة الرق في الجنوب.

ثمة ثلاث عمليات أطلقتها الثورة واكتسبت قوة في العقود الأولى من القرن التاسع عشر، وأثرت تأثيرًا عميقًا على أفكار الأمريكيين عن الحرية. كان أول هذه العمليات هو إرساء الديموقراطية السياسية. كان معظم الأعضاء المشاركين في المؤتمر، الذي صاغ دستور البلاد في عام 1787، يفترضون أن أصحاب الأملاك والمتعلمين يجب أن يهيمنوا على الحكومة الأمريكية الجديدة، ولكن تصاعد الديمقراطية المستوحاة من الثورة، إلى جانب الظهور السريع للأحزاب السياسية التي تقدم برامج مختلفة بصورة جذرية للتنمية الوطنية، قد شجع المشاركة الشعبية الواسعة في السياسة، وأدى ذلك إلى رسوخ نظام ديمقراطي مزدهر بحلول الثلاثينيات من القرن التاسع عشر؛ لقد تم إلغاء شرط الملكية في كل الولايات تقريبًا للتأهل للتصويت، وتنافس حزبان في جميع أنحاء البلاد، وبلغ إقبال الناخبين على التصويت مستويات قياسية؛ وهكذا أصبحت الديمقراطية السياسية عنصرًا مميزًا للحرية الأمريكية.

ثانيًا، أدى تطوير السفن البخارية، والقنوات، والسكك الحديدية إلى إدخال تحسينات سريعة في مجال النقل والاتصالات وخلق سوقًا واسعة للمنتجات الزراعية والسلع المصنعة. لقد فتحت "ثورة السوق" مساحات شاسعة من الأراضي الداخلية الأمريكية للزراعة التجارية، وحفزت على التطوير المبكر لإنتاج المصانع، وأتاحت فرصًا جديدةً لتقدم وتطور العديد من الأمريكيين على المستوى الشخصي، في حين أنزلت آخرين إلى وضع "غير الأحرار"- يعملون بالأجر تحت إشراف مستمر من صاحب العمل؛ وبالإضافة إلى ذلك، فإن ثورة السوق جعلت إحداث التطور الرئيسي الثالث في هذا العصر ممكنا، وهو انتقال السكان غربًا وظهور ونشأة الغرب الأمريكي ككيان اجتماعي وكإقليم سياسي. لقد ساعدت ثورة السوق وتحرك السكان نحو الغرب كذلك على إعادة تشكيل فكرة الحرية، وربطها أكثر فأكثر بالفرصة الاقتصادية، والحراك المكاني، ومعرفة الفرد لذاته وتحقيق الذات.

كان العديد من الآباء المؤسسين يخشون من أن يؤدي النمو الاقتصادي، والتوسع الإقليمي السريع، وإنشاء الأحزاب السياسية إلى جعل وحدة الجمهورية الجديدة عرضة للخطر، وقد واجهت الدولة الجديدة سلسلة من الأزمات، خلال الفترة ما بين الحصول على الاستقلال وعام 1840، حيث انقسم الأمريكيون حسب طبيعة الولاء السياسي والإقليمي وقاتلوا من أجل الاستفادة من توسيع الاقتصاد؛ وغالبًا ما كان الصراع السياسي يتمحور حول العلاقة بين

الحكومة والاقتصاد؛ وهل ينبغي على الحكومة الوطنية السعي لتعزيز التنمية الاقتصادية وتوجيه مسارها من خلال سن نظام للرسوم والتعريفات، والتحسينات الداخلية، وإنشاء بنك وطني؟ أم ينبغي أن تتنحى جانبًا وتسمح للأمريكيين بمواصلة سعيهم لتحقيق المصلحة الذاتية الاقتصادية دون تدخل حكومي؟ شهد عقد التسعينيات من القرن الثامن عشر وجهة النظر الأولى التي تمثلت في الحزب الفيدرالي، ووجهة النظر الأخرى التي تمثلت في حزب جيفرسون الجمهوري. هذا وقد برز انقسام مماثل بين حزب الأحرار والديمقراطيين، حيث كان دعاة كل حزب يصرون على أن رؤيتهم لدور الحكومة الوطنية تمثل أفضل برنامج لتعزيز الحرية للأمريكيين.

واستمرت العبودية تشارك أيضًا في تشكيل الحرية الأمريكية، فبدلاً من أن تختفي تمامًا ظاهرة العبودية، كما كان يأمل بعض المؤسسين، توسعت هذه الظاهرة بسرعة على المستوى الإقليمي ومن حيث الأهمية الاقتصادية. ساعدت العبودية في وضع حدود الحرية الأمريكية؛ حيث كان يتم قصر امتيازات التصويت وشغل الوظائف الرسمية والوصول إلى الفرص الاقتصادية على البيض بشكل متزايد. تم حرمان النساء أيضًا من التمتع بعناصر الحرية هذه، واقتصر دورهن، وفقًا للقيم الاجتماعية السائدة، على البقاء ضمن "الدائرة الخاصة" بالمنزل.

ظل التناقض المتأصل في الحياة الأمريكية منذ الأيام الأولى للاستيطان- والذي تمثل في التوسع في حرية البعض ممن يتعايشون معًا، في الحقيقة، على أساس سلب حرية الآخرين- يفتن ويضلل الأمة الجديدة.

الفصل الخامس

1760	جورج الثالث يتولى عرش بريطانيا
1764	قانون السكر
1765	قانون الدمغة
	أبناء الحرية نظموا مؤتمر لقانون الدمغة
1767	قوانين تاونشند
1768	أحداث شغب الحرية
	القوات البريطانية تتمركز في بوسطن
1770	مذبحة بوسطن
1773	قانون الشاي
	حزب شاي بوسطن
1774	الأعمال التي لا يمكن التسامح فيها
	انعقاد الكونجرس القاري
	عرض توماس جيفرسون الموجز حول حقوق أمريكا البريطانية
1775	إعلان اللورد دونمور المعارك في لكسينجتون وكونكورد
1776	حصافة توماس باين
	إعلان الاستقلال
	معركة ترينتون
1777	معركة ساراتوجا
1778	المعاهدة الفرنسية للصداقة والتجارة
1781	استسلام كورنواليس
1783	معاهدة باريس

الثورة الأمريكية 1763-1783

أسئلة تركيز:

- ما هي جذور وأهمية الجدل حول قانون الدمغة؟
- ما هي الأحداث الرئيسية التي شحذت الانقسامات بين بريطانيا والمستعمرين في أواخر الستينيات من القرن الثامن عشر وأوائل السبعينيات من القرن الثامن عشر؟
- ما هي الأحداث الرئيسية التي ميَّزت بداية التحرك نحو استقلال أمريكا؟
- كيف كانت القوات الأمريكية قادرة على أن يكون لها الغلبة في الحرب الثورية؟

في ليلة السادس والعشرين من أغسطس (آب) 1765، اعتدى حشد عنيف من مدينة بوسطن على المنزل الأنيق الذي يملكه "توماس هتشينسون"، قاضي ونائب حاكم ولاية ماساشوستس، حيث كان يتناول مع عائلته العشاء عندما وصل مثيرو الشغب إلى هناك، واستطاعوا بصعوبة بالغة الهروب قبل أن يقتحم ذلك الحشد الباب الأمامي ويشرعون في تدمير أو حمل معظم محتويات المنزل، بما في ذلك لوحات، وأثاث، وفضيات، ومذكرات تاريخ الولاية التي كان يكتبها هتشينسون؛ حيث لم يبق سوى الجدران الخارجية للمنزل في الوقت الذي غادروا فيه المكان.

كان السبب المباشر لأعمال الشغب هو قانون الدمغة، وهو عبارة عن ضريبة بريطانية كان قد تم فرضها مؤخرًا وكان العديد من المستعمرين يشعرون بأنها تنتهك حريتهم؛ وكان منتقدو هذا الإجراء قد نشروا شائعة بأن هتشينسون قد أرسل رسالة إلى لندن يشجعها على إقرار هذا القانون (كان في الحقيقة يعارض هذا القانون سرا). كان هتشينسون قد ساعد منذ بضعة أيام فقط في تفريق حشد شرع في مهاجمة مبنى يملكه أحد أقاربه، ويسمى "أندرو أوليفر"، وهو تاجر كان قد تم تعيينه للمساعدة على إدارة القانون الجديد. كان الحشدان بقيادة كل من "ابنزر ماكنتوش"، وهو صانع أحذية كان قد حارب ضد الفرنسيين خلال حرب السنوات السبع وكان يتمتع بأتباع كثيرين من بين الطبقة العاملة في بوسطن. بعد أن تم اعتقال ماكينتوش بعد تدمير منزل هتشينسون، تم إطلاق سراحه عقب تدخل المخلصين التسعة، وهم مجموعة من التجار والحرفيين الذين اتخذوا زمام المبادرة بمعارضة قانون الدمغة. ذهبت أعمال العنف إلى ما هو أبعد مما كان ينوى عليه المخلصون التسعة، والذين كانوا قد وعدوا السلطات بأن المقاومة لقانون الدمغة ستكون منذئذ فصاعدًا بصورة سلمية، ولكن أعمال الشغب أقنعت هتشينسون بأنه لكي يتسنى لبريطانيا أن تحكم أمريكا على نحو فعال، "يجب أن يكون هناك تقليص لما يسمى بالحريات الإنجليزية"؛ ومع ذلك، كان هناك شك كبير فيما إذا كان المستعمرون سيقبلون مثل هذا التقليص أم لا.

كان الشغب الذي وقع في 26 أغسطس (آب) مجرد حلقة صغيرة في سلسلة من الأحداث التي فَجَّرت نصف قرن من الاحتجاج الشعبي والاضطرابات السياسية في جميع أنحاء العالم الغربي. بدأت الحقبة التي شهدت أحداث خطيرة، والتي أطلق عليها عصر الثورة، في أمريكا الشمالية البريطانية، وامتدت إلى أوروبا ومنطقة البحر الكاريبي وبلغت ذروتها في حروب أمريكا اللاتينية من أجل الاستقلال. ظهرت الحرية ضمن كل هذه الصراعات باعتبارها صرخة الاستنفار للحشود الشعبية الساخطة؛ رغم أنه نادرًا ما كانت تلعب فكرة الحرية دورًا مركزيًا بدرجة كبيرة في النقاش السياسي والاضطرابات الاجتماعية قبل ذلك.

وإذا كان الهجوم على منزل "هتشينسون" قد أظهر عمق الشعور الذي أثارته جهود بريطانيا لفرض مزيد من السيطرة على إمبراطوريتها، فإنه كشف أيضًا عن أن الثورة هي عملية ديناميكية لا يمكن لأحد أن يتوقع عواقبها؛ لقد كان غضب الجماهير الذي عبروا من خلاله عن الاستياء من الأغنياء وأصحاب القوة مختلفًا تمامًا عن اعتراضات قادة المستعمرين على محاولة البرلمان لفرض ضريبة على المستعمرات. هذا ولم تدشن أزمة قانون الدمغة النضال من أجل حرية المستعمرين من سلطة بريطانيا العظمى فحسب، ولكنها أيضًا دشنت لمعركة متعددة الجوانب لتحديد وتوسيع نطاق الحرية في أمريكا.

الأزمة تبدأ

عندما تولى جورج الثالث عرش بريطانيا العظمى في عام 1760، لم يكن يتصور أحد من على أي من جانبي المحيط الأطلسي أنه في غضون عقدين من الزمن ستنفصل المستعمرات البريطانية الأمريكية عن الإمبراطورية، ولكن حرب السنوات السبع تركت بريطانيا مثقلة بالديون الهائلة، مما أشعل رغبه الحكومات المتعاقبة في لندن في الدفاع عن الممتلكات الواسعة في الخارج والبحث عن سبل لجعل هذه المستعمرات تتقاسم تكاليف الإمبراطورية. درس القادة المستعمرون كتابات المفكرين البريطانيين المعارضين الذين أصروا على أنه لابد وأن تقوم السلطة البريطانية بالسعي للاعتداء على الحرية واغتصابها، ورأى القادة المستعمرين هؤلاء أن هذه التدابير بمثابة جزء من تصميم بريطانيا لتقويض حريتهم؛ ونظرًا لتذوقهم طعم "الحرية البريطانية" مؤخرا، والذي أضفى عليهم شعورًا بالمجد، قد توصلوا لاستنتاج مفاده أن العضوية بالإمبراطورية البريطانية يشكل تهديدًا للحرية وليس تأسيسًا لها، ووضعت هذه القناعة المستعمرات على طريق الاستقلال.

توحيد الإمبراطورية

لقد أكدت حرب السنوات السبع، التي ساهم فيها المستعمرون بالجنود والموارد الاقتصادية، للحكام في لندن مدى أهمية الإمبراطورية بالنسبة لرفاهية بريطانيا ولمكانتها كقوة عظمى، وأصبحوا حينذاك يرون أن هناك حاجة للوائح جديدة للمساعدة في ضمان استمرار قوة وازدهار الإمبراطورية؛ وأحيانًا ما كان البرلمان قبل عام 1763 يتحرك لمنع إصدار النقود الورقية في أمريكا ولتقييد الأنشطة الاقتصادية الاستعمارية التي كانت تنافس الشركات في الداخل، وأصدروا بالفعل عدة قوانين لهذا الغرض، منها قانون الصوف لعام 1699، وقانون القبعة لعام 1732، وقانون الحديد لعام 1750 التي حظرت على المنتجين المستعمرين تصنيع هذه الأشياء. سعى قانون العسل الأسود لعام 1733 للحد من التجارة بين إنجلترا الجديدة والمنطقة الفرنسية بالبحر الكاريبي

من خلال فرض ضريبة باهظة على العسل الأسود المنتج في فرنسا، والذي كان يستخدم في صناعة عرق القصب (نوع من الخمور يعرف باسم الروم) في معامل التقطير الأمريكية، وسعى أيضًا قانون الملاحة، الذي سبق مناقشته في الفصل الثالث، إلى توجيه الصادرات الأمريكية مثل التبغ من خلال الموانئ البريطانية؛ غير أنه غالبًا ما تجاهل المستعمرون كل هذه الإجراءات.

فيما يتعلق بالشئون الداخلية داخل المستعمرات، بدت الحكومة البريطانية في كثير من الأحيان غير مهتمة؛ هذا وقد صرَّح أحد المسئولين قائلاً إنه لم يكن هناك أي داع للقلق حول سلوك المستعمرين الذين "زرعوا التبغ والتزمت مثل الحمقى". وبداية من أواخر الأربعينيات من القرن الثامن عشر، حاول مجلس التجارة، الذي كان مسئولاً عن الإشراف على شئون المستعمرة، تعزيز السلطة الإمبراطورية، وطالب بأن تتطابق القوانين الاستعمارية مع التعليمات الملكية وشجع المجالس النيابية على منح رواتب دائمة للحكام الملكيين، لكن اندلاع حرب السنوات السبع أدى إلى تعليق هذه المبادرة.

بعد معاملة المستعمرين كحلفاء أثناء تلك الحرب، عادت بريطانيا في منتصف الستينيات من القرن الثامن عشر إلى اعتبارهم تابعين لبريطانيا وأن دورهم الرئيسي يتمثل في إثراء البلد الأم. اهتمت الحكومة في لندن خلال هذه الفترة بالمستعمرات بطرق لم يسبق لها مثيل، وذلك على أمل أن تجعل الحكم البريطاني أكثر كفاءة ومنهجية ولجمع الأموال للمساعدة في تمويل الحرب والإمبراطورية؛ لقد أيَّد جميع الزعماء السياسيين البريطانيين تقريبًا القوانين الجديدة التي أغضبت المستعمرين؛ حيث كان البريطانيون يشعرون بأنه ينبغي على الأمريكيين أن يكونوا ممتنين للإمبراطورية؛ هذا وقد اضطرت بريطانيا للاقتراض من البنوك ومن المستثمرين الأفراد أكثر من 150 مليون جنيه إسترليني لتمويل حرب السنوات السبع (أي ما يعادل عشرات التريليونات من الدولارات من أموال اليوم).

التهمت فوائد الديون نصف إيرادات الحكومة السنوية، ووصل عبء الضريبة في بريطانيا إلى مستوى مرتفع غير مسبوق؛ وكان يبدو معقولاً أن تساهم المستعمرات في دفع هذا الدين الوطني كفاتورة مقابل استمرار الحماية البريطانية، وأن تتوقف عن غش وزارة الخزانة من خلال خرق قوانين الملاحة.

وعلاوة على ذلك، كان جميع البريطانيين تقريبًا يعتقدون أن البرلمان يمثل الإمبراطورية بأكملها وله كامل الحق في التشريع لها. لم يكن للملايين من البريطانيين، بما فيهم المقيمين في مدن كبرى مثل مانشستر وبرمنجهام أي نواب يمثلونهم في البرلمان، ولكن وفقًا لنظرية "التمثيل الافتراضي" المقبولة على نطاق واسع- والتي كانت تعتبر أن كل عضو بالبرلمان يمثل الإمبراطورية بأكملها

وليس فقط منطقته - وأنه من المفترض أخذ مصالح جميع من يعيشون تحت التاج البريطاني بعين الاعتبار. بدأ الأمريكيون في الإصرار على أنه ليس من حق الحكومة البريطانية فرض ضرائب على المستعمرات لأنها غير ممثلة في البرلمان، ونالوا القليل من دعم البلد الأم؛ ومع ذلك، كان من المدهش بالنسبة لهم أن الحكومات البريطانية كانت ترى أن العمل الفعال للإمبراطورية يتطلب تعاون السكان المحليين؛ ومع تكرار ذلك عدة مرات، تراجع المسئولون البريطانيون في مواجهة مقاومة المستعمرين، ولكنها عادت مرة أخرى لوضع إجراءات جديدة تمركز سيطرة الإمبراطورية على المستعمرين مما شدد من إصرار المستعمرين على الاستمرار في المقاومة.

لقد أدى إصدار الحكومة البريطانية لأوامر المساعدة في مكافحة التهريب إلى إثارة قلق العديد من المستعمرين بالفعل، وهي عبارة عن أوامر عامة تسمح لمسئولي الجمارك للتفتيش والبحث في أي مكان عن البضائع المهربة؛ وفي قضية مشهورة كانت تنظرها أحد محاكم بوسطن في عام 1761، أصر المحامي "جيمس أوتيس" على أن هذه الأوامر تمثل "أداة للسلطة التعسفية، ومدمرة للحرية الإنجليزية، وللمبادئ الأساسية للدستور" وبالتالي ليس للبرلمان الحق في تخويلهم هذه السلطة؛ وقد علَّق "جون آدامز" على هذه الواقعة في مبالغة كبيرة قائلاً: (وهنا وفي هذه اللحظة ولد الاستقلال الأمريكي".) كان العديد من المستعمرين غاضبين من إعلان عام 1763 (ورد ذكره في الفصل السابق) الذي حظر القيام بمزيد من الاستيطان على الأراضي الواقعة غرب جبال الأبالاش.

فرض ضرائب على المستعمرات

أصدر رئيس الوزراء "جورج جرينفيل" قانون السكر في عام 1764، والذي قام بتخفيض الضريبة القائمة على العسل الأسود الذي تستورده أمريكا الشمالية من جزر الهند في الغرب الفرنسي من ستة بنسات إلى ثلاثة بنسات للجالون الواحد. لم يقتصر الأمر على ذلك، إنما أسس هذا القانون لآلية جديدة لإنهاء التهريب على نطاق واسع من قبل تجار المستعمرات؛ ومن أجل التصدي لميل هيئات المحلفين للمستعمرين إلى تبرئة التجار المستعمرين من تهم انتهاك النظم واللوائح التجارية، عزز هذا القانون المحاكم المختصة بالشؤون البحرية حيث يتم الحكم على المهربين دون استفادتهم من المحاكمة أمام هيئة محلفين؛ وبناءً على هذا، رأى المستعمرون أن هذا الإجراء ليس المقصود منه خفض الضرائب المرغوب فيه ولكن رأوه بمثابة محاولة لفرض ضريبة عليهم كان من الممكن التهرب منها في ظل ظروف خلاف ذلك.

في نفس الوقت، صدر قانون الإيرادات الذي وضع السلع مثل الصوف والجلود الخام التي كان يتم تداولها بحرية مع هولندا، وفرنسا، وجنوب أوربا ضمن قائمة السلع التي يجب أن يتم

شحنها عن طريق إنجلترا. هددت هذه الإجراءات مجتمعةً أرباح التجار المستعمرين وبدا من المؤكد أنها أدت إلى تفاقم الوضع الاقتصادي الذي يعاني بالفعل من الركود الناجم عن نهاية حرب السنوات السبع. تزامن صدور هذه القوانين مع إصدار قانون العملة الذي أكد من جديد الحظر السابق على جمعيات المستعمرين التشريعية إصدار أوراق باعتبارها تعهدًا قانونيا- أي المال الذي يلزم أن يقبله الأفراد في سداد الديون.

أزمة قانون الدمغة

كان قانون السكر بمثابة محاولة لتعزيز قوانين الملاحة القائمة منذ فترة طويلة (التي تم التهرب منها لمدة طويلة أيضا). يمثل قانون الدمغة الذي صدر عام 1765 انطلاقة جديدة في السياسة الإمبراطورية، حيث حاول البرلمان لأول مرة جمع المال من خلال فرض ضرائب مباشرة في المستعمرات وليس من خلال تنظيم التجارة؛ حيث كان يجب بموجب هذا القانون أن تحمل كل أنواع المواد المطبوعة التي تنتج في المستعمرات طابع دمغة يتم شراؤه من السلطات، مثل الصحف، والكتب، ووثائق المحاكم، والأوراق التجارية، وعقود الأراضي، ومطبوعات التقويم، وما إلى ذلك؛ كان يهدف هذا القانون إلى المساعدة في تمويل عمليات الإمبراطورية، بما في ذلك تكلفة تمركز القوات البريطانية في أمريكا الشمالية دون الحصول على عائدات من الجمعيات الاستعمارية.

وفي حين أثر قانون السكر بشكل رئيسي على سكان الموانئ الاستعمارية، استطاع قانون الدمغة إثارة استياء كل مستعمر حر تقريبا - سواء كان غنيًا أو فقيرًا ومزارعين وحرفيين وتجار، ولقد تسبب في استياء المنخرطين في المجال العام بصفة خاصة الذين كانوا يكتبون، وينشرون، ويقرأون الكتب والصحف ويتابعون الشئون السياسية. أثار احتمال تمركز الجيش البريطاني بشكل دائم على الأراضي الأمريكية ذعر العديد من المستعمرين، وكان فرض ضريبة الدمغة دون موافقة المستعمرين بمثابة تحدي مباشر من البرلمان لسلطة النخب المحلية الذين تمكنوا من ترسيخ سلطتهم على جمع وإنفاق الأموال، وذلك من خلال الجمعيات الاستعمارية التي يسيطرون عليها، وكانوا مستعدين للدفاع عن هذه السلطة باسم الحرية.

كانت معارضة قانون الدمغة بمثابة أول حدث درامي كبير في العهد الثوري وأول انقسام كبير بين المستعمرين وبريطانيا العظمى حول معنى الحرية؛ لقد عارض هذا القانون جميع القادة السياسيين المستعمرين تقريبا، وعبروا عن تظلماتهم بالإشارة إلى حقوق الرجل الانجليزي الذي يولد حرا، وهي الحقوق التي أصروا على أنه ينبغي السماح للمستعمرين أيضًا التمتع بها؛ وكان معارضو القانون يشيرون أحيانًا إلى الحقوق الطبيعية للبشرية جمعاء، ومع ذلك، كثيرًا ما كانوا

يستندون إلى المبادئ البريطانية العريقة التي صمدت عبر الزمن، مثل حق المجتمع في عدم إخضاعه لضريبة إلا من خلال ممثليه المنتخبين، وأصروا على أنه "لا يمكن ضمان الحرية مع الاستيلاء على الممتلكات بدون الموافقة على ذلك".

فرض الضرائب والتمثيل البرلماني

كانت الأفكار المتضاربة حول الإمبراطورية البريطانية نفسها على المحك، حيث كان القادة الأمريكيون ينظرون إلى الإمبراطورية كرابطة بين أطراف متكافئة يتمتع فيها جميع المستوطنين الأحرار في الخارج بنفس الحقوق التي يتمتع بها البريطانيون داخل إنجلترا؛ ووجدت هذه النظرة صدى مؤيدًا لها في المخافر الأمامية الأخرى للإمبراطورية مثل الهند، وجزر الهند الغربية، وكندا، فقد نادى الجميع، باسم الحرية، بالحق في الحكم الذاتي لشئونهم، وطالب السكان البريطانيون في كلكتا بالهند "بالحقوق المتأصلة للإنجليز"، وقال التجار البريطانيون في كيبيك إن السماح باستمرار سريان القانون الفرنسي من شأنه أن يضعف من شأنهم وينزلهم منزلة "العبودية". على النقيض من ذلك، كانت الحكومة البريطانية وممثلوها في أمريكا يرون الإمبراطورية كنظام لحصص غير متساوية ومبادئ مختلفة تحكم مختلف المناطق، بينما تخضع كلها لسلطة البرلمان، وأن التنازل عن حق فرض الضرائب على المستعمرات سيشكل خطرًا غير مسبوق على الإمبراطورية ككل، وكما أعلن الحاكم "فرانسيس برنارد" بمنطقة ماساشوستس في عام 1765 عن ذلك بقوله "في إمبراطورية ممتدة ومتنوعة كبريطانيا العظمى، يجب أن يكون هناك هيئة تشريعية عليا ترأس كل السلطات الأخرى"، وواصل القول بأن "البرلمان كان ملاذًا للحرية"، وهو الوصف الذي بدأ العديد من الأمريكيين في الاختلاف عليه.

ميَّز بعض المعارضين لقانون الدمغة بين الضرائب "الداخلية" مثل ضريبة الدمغة، الذين كانوا يرون أن البرلمان لم يكن لديه الحق في إصداره، وبين الإيراد الذي يتم جمعه بشكل قانوني وشرعي من خلال تنظيم التجارة؛ ومع ذلك، أصر المزيد والمزيد من المستعمرين على أن بريطانيا ليس لها الحق في فرض أي ضريبة عليهم على الإطلاق، ونظرًا لأن الأمريكيين كانوا غير ممثلين في مجلس العموم، وأصبحت صرخة الاستنفار للاحتشاد "لا ضرائب بدون تمثيل". اعتمد مجلس فرجينيا التشريعي الأول في أمريكا الشمالية أربعة قرارات قدمها الخطيب المتوهج باتريك هنري، وأصروا على أن المستعمرين يتمتعون بنفس "الحريات والمزايا والامتيازات والحصانات" التي يتمتع بها المقيمون في البلد الأم، وأن الحق في الموافقة على فرض الضرائب كان حجر الزاوية في "الحرية البريطانية." (رفض هذا المجلس التشريعي ثلاثة قرارات أخرى باعتبارها متطرفة بدرجة كبيرة، بما في ذلك دعوة هنري للمقاومة الصريحة العلنية للضرائب غير المشروعة،

إلا أنه تمت إعادة نشر هذه القوانين في الصحف الاستعمارية.)

وقد التقى "مؤتمر قانون الدمغة" في نيويورك في أكتوبر (تشرين الأول) 1765 وكان يضم سبعة وعشرين مندوبًا من تسع مستعمرات، بما في ذلك بعض الرجال البارزين في أمريكا، وأيدوا موقف ولاية فرجينيا، وبدأت قراراته بتأكيد "ولاء" جميع المستعمرين "للتاج في بريطانيا العظمى" "وخضوعهم كما يجب" للبرلمان، لكنهم استمروا في إصراراهم على أن حقهم في الموافقة على فرض الضرائب "ضروري لحرية الشعب". سرعان ما أتفق التجار في جميع أنحاء المستعمرات على مقاطعة البضائع حتى يلغي البرلمان البريطاني قانون الدمغة. كان هذا التجمع هو أول عمل تعاوني كبير بين المستعمرات البريطانية في البر الرئيسي، بمعنى أنه بالسعي لفرض نوع من توحيد واتساق الجهود على المستعمرات في التعامل بدلاً من التعامل معها فرادي كما كان يحدث في الماضي، يكون البرلمان البريطاني قد قام بتوحيد أمريكا عن غير قصد.

الحرية والمقاومة

لم يتكرر أي لفظ على لسان منتقدي قانون الدمغة مثلما تكرر لفظ "الحرية"، حيث قام خصوم الضريبة الجديدة في جميع أنحاء المستعمرات بعمل جنازات وهمية تحمل نعوش الحرية للمقابر فقط ليحيا المتوفى مرة أخرى بأعجوبة في آخر لحظة، فتقوم الجموع المحتشدة عندئذ بالذهاب إلى حانة للاحتفال؛ مع استمرار الأزمة، انتشرت رموز الحرية، وشجرة الدردار الكبيرة في بوسطن التي شنق المحتجون عليها دمية تمثل موزع ختم الدمغات "أندرو أوليفر" لإقناعه بالاستقالة من منصبه وأصبحت معروفة باسم شجرة الحرية، وسرعان ما بدأت صورتها تظهر في المطبوعات والنشرات في جميع أنحاء المستعمرات، وبدأ عقد الاجتماعات في الهواء الطلق تحت الأشجار، ونتيجة لذلك أطلق على هذا المكان لاحقا اسم "ساحة الحرية". تم أيضًا إقامة صاري من الصنوبر في مدينة نيويورك في عام 1766 ليكون مكانًا لاجتماع معارضي قانون الدمغة وأطلق عليه اسم "قطب الحرية".

عزم قادة المستعمرات منع تنفيذ القانون الجديد ونجحوا في ذلك إلى حد كبير. تواصلت لجنة مراسلات في بوسطن مع مستعمرات أخرى حتى قبل صدور قانون الدمغة لتشجيع معارضة قانونا السكر والعملات. سرعان ما نشأت هذه اللجان في المستعمرات الأخرى وقاموا بتبادل الأفكار والمعلومات حول المقاومة؛ وانتشرت حركة مقاومة قانون الدمغة بسرعة بمبادرة من النخب الاستعمارية لتشمل قطاعات أكبر كثيرًا من الأمريكيين، وقام محام ببوسطن يُدعَى "جون آدمز" بصياغة مجموعة من القرارات ضد هذا الإجراء وتم طبعها على نطاق واسع، وقد كتب قائلاً "أصبح الشعب من أكبرهم مرتبة حتى أدناهم مرتبة أكثر وعيًا وانتباهًا لحرياتهم، وأكثر بحثًا

عنهم وأكثر تصميمًا للدفاع عنهم من أي وقت مضى" وساد النقاش السياسي في المستعمرات، أضاف آدمز قائلاً "لقد تأوهت المطابع لدينا من كثرة المطبوعات، وأرعدت المنابر، وعقدت مجالسنا التشريعية العزم عليها، و صوتت مدننا."

العمل السياسي في الشوارع

ومع ذلك، لم يعتمد معارضو قانون الدمغة على النقاش فقط، فحتى قبل أن يدخل القانون حيز التنفيذ، أجبرت الحشود أولئك الذين وقع عليهم الاختيار لتنفيذه على الاستقالة ودمرت شحنات الطوابع. سارت المواكب في شوارع مدينة نيويورك كل ليلة تقريبًا في نهاية عام 1765 وقد شارك فيها المئات من السكان وهم يهتفون "الحرية"، وقد نظمها هيئة "أبناء الحرية" التي كانت قد نشأت حديثًا برئاسة صغار التجار الموهوبين والطموحين مثل الكسندر ماكدوجال، وإسحاق سيرز، وجون لامب، وأصبح لامب الذي يجيد الهولندية والفرنسية والألمانية منسق الهيئة للاتصال بالعديد من المجموعات العرقية. كان هؤلاء الرجال العصاميين قد كونوا ثروات حينما كان القراصنة ينهبون سفن الشحن الفرنسية خلال حرب السنوات السبع، وقدموا شكوى ضد نائب حاكم نيويورك وعارضوا "أي قيود على التجارة وأي رسوم عليها". بالرغم من أنهم لم يتمتعوا بأي مكانة بين النخبة الثرية بالمستعمرة وكان لهم شأن قليل في الشئون البلدية، إلا أنهم تمتعوا بالكثير من الأتباع بين الحرفيين، والعمال، والبحارة في المدينة. هذا وقد ألصقت الحركة شعارات مكتوبًا عليها "نعم للحرية والملكية، ولا لقانون الدمغة"، وأخذت زمام المبادرة في فرض مقاطعة على الواردات البريطانية. أثارت أعمالهم وإجراءاتهم مخاوف متزايدة لدى الأسر الأرستقراطية مثل ليفينجستون ودي لانسي، الذين كانوا يهيمنون على السياسة في نيويورك؛ وكما أثبت الهجوم على منزل "توماس هتشينسون" في بوسطن، كان من الممكن أن تخرج الحشود بسهولة عن نطاق السيطرة. في نوفمبر (تشرين الثاني) 1765، قامت حشود بنيويورك تضم بحارة، وسود، وعمال، وشباب بإلقاء الحجارة على حصن جورج في الطرف الجنوبي من جزيرة مانهاتن، ثم أخذوا يدمرون منزل الرائد توماس جيمس، وهو ضابط بريطاني قيل إنه تفاخر بأنه سينفذ قانون الدمغة على رقاب سكان نيويورك.

تراجعت الحكومة البريطانية بعد أن أذهلتها ضراوة المقاومة الأمريكية وضغوط التجار وأصحاب المصانع في لندن الذين كانوا لا يرغبون في فقد الأسواق الأمريكية، واضطر البرلمان إلى إلغاء قانون الدمغة في عام 1766؛ ومع ذلك، صاحب هذا التنازل "القانون الإيضاحي" الذي رفض مطالبات الأمريكيين بأن تقتصر سلطة فرض ضرائب عليهم على ممثليهم المنتخبين فقط، حيث قام البرلمان بإعلان أن السلطة لديها القدرة على إصدار قوانين "للمستعمرات الأمريكية ولشعب أمريكا . . .

في جميع الحالات أيًا كانت". ونظرًا لاستمرار حاجة الحكومة البريطانية المثقلة بالديون إلى الأموال التي يتم جمعها في المستعمرات، كان إقرار القانون الإيضاحي إيذانًا بمزيد من الصراع.

المنظمون

لم تكن أزمة قانون الدمغة المثال الوحيد على الاضطرابات الاجتماعية العنيفة خلال الستينيات من القرن الثامن عشر، حيث شهدت العديد من المستعمرات انقسامات داخلية عنيفة، فمع انتقال السكان تجاه الغرب، اشعلت المطالبات المتعارضة والنزاعات الشرسة بين المستوطنين، والمضاربين، والحكومات الاستعمارية، والهنود على الأرض. كانت المناطق الريفية ذات تاريخ طويل من مقاومة المستعمرين وصغار المزارعين ضد مطالبات المضاربين وكبار ملاك الأراضي فيما يتعلق بالأراضي؛ وكما كان الحال في أزمة قانون الدمغة، كان شعار "الحرية" وراء حشدهم، ولكن الحرية في هذه الحالة كانت تتعلق بضمان حيازة الأرض أكثر من تعلقها بالسياسة الإمبراطورية.

مع بداية منتصف الستينيات من القرن الثامن عشر، قام مجموعة من الأثرياء المقيمين في منطقة ريفية غير مزدحمة بالسكان تقع في كارولينا الجنوبية ويطلقون على أنفسهم "المنظمين"، بالاحتجاج على ضعف تمثيل المستوطنات الغربية في مجلس المستعمرة وفشل المشرعون في تشكيل حكومات محلية تستطيع تنظيم ملكية الأرض وقمع عصابات الخارجين على القانون، وادعوا أن عدم وجود محاكم في المنطقة، قد أدى إلى انهيار القانون والنظام، مما سمح "لعصابة جهنمية من الأشرار" ارتكاب "أعمال مُروِّعة" ضد الأشخاص والممتلكات، وأضافوا: "نحن رجال أحرار- رعايا بريطانيين - ولم نولد عبيدا."

حشدت حركة موازية في ولاية كارولينا الشمالية صغار المزارعين الذين رفضوا دفع الضرائب، وخطفوا مسئولين محليين، واعتدوا على منازل المضاربين في الأراضي، والتجار، والمحامين، وعرقلوا إجراءات المحاكم. لم تكن الشكوى هنا من غياب الحكومة، ولكن فساد السلطات بالمقاطعة، حيث ادعى "المنظمون" أن هؤلاء المسئولين المحليين هددوا حصول المستوطنين العاديين على الأراضي بأسعار مناسبة وازدهارهم من خلال رفع الضرائب والرسوم القضائية؛ ولذلك، طالب "المنظمون" بإخضاع الحكومة المحلية لمبادئ الديمقراطية، وأدانوا (النخبة المستعمرة) من "الأغنياء والأقوياء" الذين استخدموا سلطتهم السياسية للتقدم والازدهار على حساب" المزارعين الفقراء الكادحين". وصل "المنظمون" ذروة قوتهم عندما بلغ عددهم حوالي 8.000 مزارع مسلح. ظلت المنطقة في حالة اضطراب حتى عام 1771، عندما قامت ميليشيات المستعمرة "بقمع المزارعين" في معركة ألمنس.

انتفاضة مستأجري الأرض

شهد منتصف الستينيات من القرن الثامن عشر أيضًا توقف مستأجرو الضِيَاع في ليفينجستون، وفيليبس، وكورتلاند على طول شمال نهر هدسون في مدينة نيويورك عن دفع الإيجار وبدأوا في الاستيلاء على الأراضي؛ وكما كان الأمر بالنسبة لمعارضي قانون الدمغة، أطلقوا على أنفسهم لقب "أبناء الحرية"؛ ومع ذلك، فقد عارض "أبناء الحرية" الأصليين انتفاضتهم وسرعان ما تم قمعها من قبل القوات البريطانية وقوات المستعمرات؛ وفي الوقت نفسه حمل صغار المزارعين في "جرين ماونتن" السلاح لحماية ممتلكاتهم ضد اقتحام ملاك الأراضي بنيويورك، نظرًا لأن الوضع القانوني هناك كان معقدا، حيث إن المنطقة تشكل جزءًا من نيويورك، ولكن حاكم ولاية "نيو هامبشير" كان قد أصدر خلال الخمسينيات من القرن الثامن عشر منحًا من الأراضي إلى أسر إنجلترا الجديدة؛ واكتسب ثروة كبيرة لنفسه من رسوم إتمام هذه المنح. عندما حاول سكان نيويورك فرض ملكيتهم الخاصة على المنطقة، أصر زعيم المستوطنين، إيثان ألين، على أن تلك الأرض يجب أن تنتمي إلى الشخص الذي عمل فيها، وادعى أن الغرباء كانوا يحاولون "استعباد شعب حر"، واستطاع بالتعاون مع "أولاد الجبل الأخضر" فرض سيطرته على المنطقة في منتصف السبعينيات من القرن الثامن عشر، وهي المنطقة التي أصبحت في وقت لاحق ولاية فيرمونت.

وفي نهاية المطاف، فرض الصدع الناشئ بين بريطانيا وأمريكا نفسه على الصراعات داخل المستعمرات، ولكن الانقسامات الاجتماعية التي كشفت عنها أعمال الشغب المناوئة لقانون الدمغة وانتفاضات المنطقة الريفية ذات الكثافة السكانية المنخفضة، جعلت بعض أعضاء النخبة الاستعمارية يخشون من أن معارضة الإجراءات البريطانية قد تطلق العنان لاضطراب في الداخل، ولذلك كانوا أكثر ترددًا في تحدي السلطة البريطانية عندما نشأت الأزمة الإمبراطورية التالية.

الطريق إلى الثورة

أزمة تاونشيند

قررت الحكومة في لندن في عام 1767 فرض مجموعة جديدة من الضرائب على الأمريكيين، وكانت الفكرة ترجع للمستشار وزير الخزانة (وزير المالية بمجلس الوزراء)، تشارلز تاونشيند؛ وقد بدا خلال معارضة قانون الدمغة أن بعض المستعمرين، بما في ذلك بنيامين فرانكلين (الذي كان حينئذ ممثل تجمع بنسلفانيا في لندن)، قد أشاروا إلى أنهم لن يعترضوا إذا جمعت بريطانيا أموالًا من خلال تنظيم التجارة، وبناءً على كلمتهم هذه أقنع تاونشيند البرلمان بفرض ضرائب جديدة على السلع المستوردة إلى المستعمرات وإنشاء مجلس جديد من مفوضي الجمارك لجمع

الأموال ومكافحة التهريب، وكان ينوي استخدام هذه الإيرادات الجديدة لدفع رواتب حكام الولايات الأمريكية والقضاة الأمريكيين، وبالتالي يحررهم من الاعتماد على الجمعيات التشريعية الاستعمارية. رغم اعتراض العديد من التجار على إجراءات الإنفاذ الجديدة، إلا أن المعارضة على الرسوم التي فرضها تاونشيند تطورت ببطء أكثر من تطورها في حالة قانون الدمغة؛ ومع ذلك قرر القادة في العديد من المستعمرات في 1768 إعادة فرض الحظر المفروض على استيراد البضائع البريطانية.

فضيلة صناعة القماش البسيط في المنازل

بدأت المقاطعة في بوسطن وسرعان ما امتدت إلى المستعمرات الجنوبية، وأصبح الاعتماد على السلع الأمريكية بدلاً من السلع البريطانية، وعلى الملابس المصنوعة من النسيج الصوفي في أمريكا بدلاً من الملابس الممتازة المستوردة، يمثل رمزًا للمقاومة الأمريكية؛ وعلاوة على ذلك، كان المستعمرون يرون ذلك انعكاسًا لروح فاضلة تنطوي على التضحية بالنفس بالمقارنة بالانغماس في الملذات والرفاهية التي جعلت الكثيرين من الأمريكيين يرتبطون ببريطانيا، ولذلك أشادوا بالنساء اللاتي كن ينسجن الملابس في المنازل حتى لا يشترين السلع البريطانية باعتبارهن "بنات الحرية".

لقد أعجبت فكرة استخدام السلع المصنوعة محليًا، بدلاً من البضائع المستوردة، بشكل خاص المزارعين في تشيزبيك، الذين وجدوا أنفسهم مدينين بمبالغ متزايدة للتجار البريطانيين؛ وقد عكس "جورج واشنطن" قلق مزارعي فرجينيا حول عبء الديون المتنامي قائلاً "إن عدم الاستيراد يمنح الرجل المسرف" فرصة "لتخفيض نفقاته "عن طريق الحد من شراء الكماليات البريطانية، دون الحاجة للقيام بإعلام جيرانه أنه يمر بضائقة مالية؛ واصل واشنطن حديثه بهذه الطريقة بأن فرجينيا "تستطيع المحافظة على الحرية التي اكتسبناها من أجدادنا"، مع القيام بتخفيض ديونهم "الكبيرة". أعلن قادة فرجينيا أيضًا حظرًا مؤقتًا على استيراد العبيد، غير أن المزارعين الأصغر في منطقة "بيدمونت"، التي تقع بعيدًا عن الساحل، حيث تم توسيع المؤسسة، قد تجاهلوا هذا التقييد.

لقد دعم الحرفيون في المناطق الحضرية، والذين رحبوا بإنهاء منافسة السلع المستوردة المصنعة في بريطانيا، حركة المقاطعة بقوة. كان تجار فيلادلفيا ونيويورك مترددين في البداية في المشاركة في المقاطعة، ولكنهم وافقوا في نهاية المطاف على الانضمام للمقاطعة. هدد حظر الاستيراد مصادر رزقهم وأثار احتمال اندلاع المزيد من اضطرابات الطبقات الاجتماعية والاقتصادية الأدنى؛ وكما حدث أثناء أزمة قانون الدمغة، فقد امتلأت شوارع المدن الأمريكية بالاحتجاجات الشعبية ضد الرسوم الجديدة. حاولت اللجان المحلية الغير شرعية فرض مقاطعة البضائع البريطانية.

مذبحة بوسطن

أصبحت بوسطن مرة أخرى تمثل النقطة المحورية في الصراع، حيث تمركزت القوات الملكية في المدينة في عام 1768 بعد أعمال الشغب التي أعقبت استيلاء بريطانيا على السفينة "ليبرتي" لمخالفتها الأنظمة التجارية؛ وكانت هذه السفينة الشراعية مملوكة لجون هانكوك، وهو أحد أبرز التجار في المدينة. أصبح الجنود الذين نافسوا العمال في بوسطن على الوظائف في الواجهة البحرية للمدينة، غير مرحب بهم على نحو متزايد، ونشبت معركة في 5 مارس (آذار) 1770 بين حشد من سكان المدينة كانوا يرمون كرات الثلج من جانب والقوات البريطانية، وتطور النزاع إلى مواجهة مسلحة خلَّفت وراءها خمسة قتلى من بوسطن، وأطلق على هذه المعركة اسم "مذبحة بوسطن". كان أحد هؤلاء القتلى هو "كريسبوس اتوكس"، وهو بحار أبيض من أصل هندي إفريقي، وقد أطلق عليه لاحقا اسم "الشهيد الأول للثورة الأمريكية." تم محاكمة قائد الجنود وثمانية جنود معه في ماساشوستس. دافع المحامي "جون أدامز" عنهم ببراعة، لأنه كان يرى أن الأعمال التي قامت بها حشود من الطبقة الدنيا تمثل طريقة خطرة في معارضة السياسات البريطانية، وتم الحكم على سبعة منهم بالبراءة وأدين اثنان بالقتل الخطأ؛ ومع ذلك، نجح "بول ريفيري"، وهو عضو في جماعة "أبناء الحرية" في بوسطن ويعمل في النقش على الفضة، في إثارة السخط ضد الجيش البريطاني من خلال إنتاج مطبوعة تم توزيعها على نطاق واسع يصف فيها مذبحة بوسطن (ولكن وصفه لم يكن دقيقًا تماما) في شكل صف من الجنود البريطانيين يطلقون النار على حشد أعزل من سكان المدينة.

انهارت حركة "حظر الاستيراد من بريطانيا" بحلول عام 1770 نتيجة لتضاؤل أرباح التجار وإدراك العديد من أعضاء النخبة الاستعمارية أنهم لا يستطيعون الاستغناء عن البضائع البريطانية. انخفضت قيمة الواردات البريطانية إلى المستعمرات بنحو الثلث خلال عام 1769، ولكنها قفزت بعد ذلك إلى مستواها السابق. وضغط التجار البريطانيون الذين كانوا يرغبون في إزاحة مصدر محتمل لعرقلة التجارة في المستقبل لإلغاء رسوم تاونشيند، وعندما وافقت الوزارة البريطانية على ذلك، مع الإبقاء على ضريبة وحيدة على الشاي، ووافقت على سحب قواتها من بوسطن، تخلى التجار الأمريكيون بسرعة عن المقاطعة.

رؤى حول الحرية

أسئلة

1- كيف صور ريفيري البريطانيين والمستعمرين في هذه المواجهة، وعلى أي من الطرفين ألقى اللوم في مقتل خمسة من المستعمرين؟

2- ما هو التوجه الذي يحاول ريفيري أن يعززه تجاه السلطات البريطانية من خلال هذا النقش الفني؟

ويلكس والحرية

لقد تم مرة أخرى حل تلك الأزمة الوشيكة؛ ومع ذلك، خلص العديد من الأمريكيين أن بريطانيا كانت ترضخ لنفس النمط من الفساد السياسي وتراجع الحرية اللذان أصابا بلدان أخرى، وعززوا هذا الرأي بالتداخل بين أزمة تاونشيند مع الجدل في بريطانيا حول معاملة "جون ويلكس"، وهو صحفي راديكالي معروف بكتاباته التشهيرية عن الملك والوزارة، وقد تم انتخابه ليمثل لندن في البرلمان، لكنه طُرِدَ من مقعده في البرلمان؛ ومنذ ذلك الحين، أصبح شعار "ويلكس والحرية" صرخة الاستنفار على جانبي المحيط الأطلسي؛ وبالإضافة إلى ذلك، انتشرت الشائعات في المستعمرات أن الكنيسة الإنجليكية في إنجلترا تعتزم إرسال أساقفة إلى أمريكا. نفى أعضاء الطوائف البروتستانتية الأخرى هذه الإشاعات بقوة في لندن وثارت المخاوف من أن الأساقفة سينشئون محاكم دينية مثل تلك التي أعدمت المنشقين قبل ذلك. ارتكزت مقاومة المستعمرات عندما نشأت الأزمة اللاحقة حول الاعتقاد بأن الحكومة البريطانية قد وضعت نفسها على مسار يشكل خطرًا على الحرية.

قانون الشاي

لقد أكدت الأزمة اللاحقة مدى تأثير الأحداث في مناطق أخرى من إمبراطورية بريطانيا العالمية بقوة على المستعمرات الأمريكية؛ حيث أن شركة الهند الشرقية التجارية العملاقة المحتكرة المحكومة بشكل فعال قد حصلت مؤخرًا على الممتلكات البريطانية في الهند، وقد استثمر العديد من التجار، والمصرفيين، وغيرهم من الأفراد البريطانيين في أسهمها بكثافة. أعقب هذا إحدى الفقاعات الكلاسيكية في المضاربة أدت إلى ارتفاع سعر أسهم الشركة ارتفاعًا حادًا ثم انهيارها؛ ومن أجل إنقاذ الشركة والمستثمرين بها، قررت الحكومة البريطانية مساعدتها في تسويق أصولها الهائلة من الشاي الصيني في أمريكا الشمالية.

بعد أن كان شرب الشاي حكرًا على الأثرياء، أصبح حينذاك مشروبًا تتناوله جميع الطبقات الاجتماعية في إنجلترا والمستعمرات؛ وحتى يتم ترويج المزيد من مبيعاته وإنقاذ شركة الهند الشرقية، عرضت الحكومة البريطانية، التي كان يرأسها آنذاك اللورد "فريدريك نورث"، على الشركة سلسلة من الخصومات والإعفاءات الضريبية، مما أمكنها من إغراق السوق الأمريكي بالشاي منخفض السعر، وقد أضر هذا بكل من التجار والمهربين؛ وقد تم استخدام الأموال التي تم جمعها من خلال فرض الضرائب على الشاي المستورد في المساعدة في تحمل تكاليف الحكومة الاستعمارية، مما كان يهدد، مرة أخرى بسيطرة المجالس التشريعية على التمويل.

لم تكن الضريبة على الشاي جديدة، ولكن أصر العديد من المستعمرين على أن دفعها

بالنسبة لهذا الحجم الكبير من الواردات يعني الاعتراف بحق بريطانيا في فرض ضريبة على المستعمرات. نمت المقاومة في الموانئ الرئيسية مع وصول شحنات الشاي. في 16 ديسمبر (كانون الأول) 1773، قامت مجموعة من المستعمرين المتنكرين في شكل هنود بركوب ثلاث سفن كانت راسية في ميناء بوسطن وألقوا أكثر من 300 صندوق شاي في الماء، وأصبح هذا الحدث يُعرَف باسم حزب شاي بوسطن؛ وقُدِرَت خسارة شركة الهند الشرقية بحوالي 10.000 جنيه إسترليني (أي ما يعادل أكثر من 4 ملايين دولار اليوم).

مراسيم لا يمكن التسامح فيها

أعلن "لورد نورث" أنه يجب على الحكومة البريطانية أن تثبت الآن "ما إذا كان لدينا، أم ليس لدينا، أي سلطة في هذا البلد". كان رد البرلمان على حزب شاي بوسطن سريعًا وحاسما، حيث تم إغلاق ميناء بوسطن أمام التجارة بكافة أنواعها حتى تم دفع ثمن الشاي، وغيرت ميثاق ماساشوستس لعام 1691 جذريًا بالحد من اجتماعات مجالس وبلديات المدينة وفوضت المحافظ في القيام بتعيين أعضاء المجلس، وهي المناصب التي كان يتم شغلها سابقًا عن طريق الانتخاب، كما خوَّل البرلمان أيضًا القادة العسكريين بإسكان الجنود في منازل خاصة. أدت هذه الإجراءات التي أطلق عليها الأمريكيون اسم "الأعمال القسرية أو التي لا يمكن التسامح فيها" إلى توحد المستعمرات في معارضة ما كانوا يرون على نطاق واسع أنه يمثل تهديدًا مباشرًا لحريتهم السياسية.

أصدر البرلمان في نفس الوقت تقريبًا مرسوم كيبيك، وهو القانون الذي مدد الحدود الجنوبية لذلك الإقليم الكندي لنهر أوهايو ومنح التسامح القانوني للكنيسة الرومانية الكاثوليكية في كندا؛ ونظرًا للتوترات المتنامية في اتجاه المستعمرات الجنوبية، سعى هذا القانون إلى ضمان ولاء سكان كيبيك الكاثوليك من خلال منحهم حقوق ممنوعة على ممن يعتنقون نفس دينهم في بريطانيا، بما في ذلك ممارسة ديانتهم بحرية وشغل مناصب في الإدارة المدنية. ولم يثر القانون الشك حول المطالبات بملكية الأراضي في أوهايو، ولكنه أقنع أيضًا العديد من المستعمرين بأن الحكومة في لندن تتآمر لتعزيز الكاثوليكية- التي تفزع معظم البروتستانت- في إمبراطوريتها الأمريكية. اختلطت المخاوف من الطغيان الديني والسياسي في أذهان كثير من المستعمرين، وخاصة في نيو إنجلاند، حيث أصبحت قضية الحرية قضية دينية وجهاد في سبيل الله. اجتمع قرابة 1.000 شخص من سكان فارمنجتون بكونيتيكت في مايو (آيار) من عام 1774 وتبنوا قرارات تعلن عن أنهم بصفتهم "أبناء الحرية" سيقاومون أي محاولة "لسلب حرياتنا وخصائصنا واستعبادنا إلى الأبد"، واتهموا الوزارة البريطانية بأنها "الشيطان يحرضها".

الحصول على الاستقلال

الكونجرس القاري

لقد دمرت الإجراءات البريطانية شرعية الحكومة الإمبراطورية في نظر العديد من المستعمرين، وامتدت معارضة "الأعمال التي لا يمكن التسامح فيها" الآن إلى المدن الصغيرة والمناطق الريفية التي لم تشارك من قبل في نشاط المقاومة. في سبتمبر (أيلول) 1774، اصطف في مدينة "ورسيستر" بماساتشوستس 4.600 مقاتل من الميليشيات من ثلاث وسبعين مدينة (ما يعادل نصف السكان البالغين من الذكور في الإقليم بأكمله) على جانبي "شارع مين" وقاموا بضرب المسئولين البريطانيين المعينين الذين مروا بين الصفين. تم في نفس الشهر عقد اجتماع بين مندوبين من بلدات ومدن ماساتشوستس، واعتمدوا سلسلة من القرارات (أطلق عليها قرارات سوفولك، نسبة للمقاطعة التي تقع فيها بوسطن) حثت الأمريكيين على عدم الانصياع للقوانين الجديدة، وحجب الضرائب، والاستعداد للحرب.

تم عقد كونجرس قاري في فيلادلفيا لتنسيق مقاومة "المراسيم التي لا يمكن التسامح فيها" في ذلك الشهر، وكان يضم أبرز الزعماء السياسيين من اثنا عشر مستعمرة في البر الرئيسي (لم تشارك جورجيا فيه). حضر من ماساتشوستس "ثنائي آدمز" الذي يضم جون وابن عمه الأكثر راديكالية صموئيل؛ وضم مندوبي ولاية فرجينيا السبعة جورج واشنطن، وريتشارد هنري لي، والخطيب الشهير باتريك هنري، وكانت قوة هنري كمتحدث تكمن في أسلوبه الفريد في الجمع بين المناشدة الأخلاقية مع المباشرة الحادة، وقد علّق أحد معاصريه قائلاً "إن أسلوبه كان ناعمًا كالقطيفة دون أن ينقله إلى أبعد من قيادة الذات. . . . ويتألف بريقه من ومضات سريعة متتالية." أعلن هنري أن "الفروق بين سكان فرجينيا، وبنسلفانيا، ونيويورك، ونيو إنجلاند ليس أكثر من مجرد أنا لست من ولاية فرجينيا ولكني أمريكي". واختتم هنري كلمة ألقاها في مارس (آذار) 1775، والتي حض فيها اجتماع فرجينيا على البدء في الاستعدادات العسكرية بذكر عقيدة أسطورية مفادها: "أعطني الحرية أو أعطني الموت!".

رابطة المستعمرات

قبل اختتام الكونجرس في نهاية أكتوبر (تشرين الأول) 1774 بالاتفاق على الاجتماع مجددًا في مايو (آيار) القادم إذا لم تتحقق المطالب الاستعمارية، أيّد الكونجرس قرارات سوفولك واعتمد إنشاء رابطة المستعمرات التي دعت إلى وقف شبه كامل للتجارة مع بريطانيا العظمى وجزر الهند الغربية (مع إصرار ولاية كارولينا الجنوبية إعفاء صادرات الأرز إلى أوروبا من هذه المقاطعة). شجعت الرابطة أيضًا التصنيع المحلي واستنكرت كل أنواع الإسراف والبذخ". أذن

الكونجرس "للجان السلامة" المحلية بالإشراف على ولاياتها واتخاذ إجراءات ضد "أعداء الحرية الأمريكية"، بما في ذلك رجال الأعمال الذين حاولوا الاستفادة من الندرة المفاجئة للسلع.

بدأت لجان السلامة عملية نقل السلطة السياسية الفعلية من الحكومات القائمة التي تستمد سلطتها من بريطانيا العظمى إلى الهيئات الشعبية الغير قانونية التي تعكس إرادة الشعب، وبحلول أوائل عام 1775 كان حوالي 7.000 من الرجال يخدمون في اللجان المحلية في جميع أنحاء المستعمرات مما يشكل توسعًا كبيرًا "للأمة السياسية." أصبحت اللجان ساحات للتدريب، حيث صغار المزارعين، وحرفيي المدينة، والعمال المجردين من الملكية، وغيرهم ممن كان له دور صغير حتى الآن في الحكومة يناقشون القضايا السياسية والسلطة السياسية القائمة. أما في فيلادلفيا، كانت اللجان الخارجة على القانون التي أشرفت على مقاطعة البضائع البريطانية خلال عقد الستينيات من القرن الثامن عشر تتألف بالكامل تقريبًا من المحامين وكبار التجار، أما صغار التجار، وأصحاب المحال التجارية، والحرفيين فقد سيطروا على اللجنة التي تم انتخابها في نوفمبر (تشرين الثاني) من عام 1774 لإنفاذ رابطة المستعمرات، وكانوا مصرين على عدم إسقاط مقاومة الإجراءات البريطانية كما حدث في عام 1770. عندما رفض مجلس نيويورك تأييد الرابطة، واصلت اللجان المحلية في فرضها على أي حال.

أطايب الحرية

ساد الحديث عن الحرية في المستعمرات بحلول عام 1775، وشهدت السنوات القليلة الماضية موكبًا لا نهاية له من المنشورات التي تحمل عناوين مثل عربة الحرية وخطبة حول أطايب الحرية (وألقى هذه الخطبة الأخيرة "جوزيف آلان" في بوسطن في عام 1772، وأصبحت الخطبة الأكثر شعبية بين الجماهير طوال السنوات التي سبقت الاستقلال). تحدث الرجال الحكماء بشوق عن "أطايب الحرية"، وكان الأمريكيون يحلمون بالحرية في منامهم، وقد ذكر كاتب مقالات مجهول "رؤيا في المنام" لكلمة "الحرية" مكتوبة في شعاع الشمس، وعلّق مهاجر بريطاني وصل إلى ولاية ميريلاند في أوائل عام 1775 قائلاً: "إنهم جميعًا مهوسون بالحرية بجنون."

واستجار المستعمرون من جميع الخلفيات بالحق في مقاومة السلطة القمعية وربط الحرية بالجهاد في سبيل الله، واللذان كانا قد ترسخا بعمق عبر الصراعات الاستعمارية التي شهدها القرن الثامن عشر، ضد بريطانيا نفسها. تم اللقاء الجماهيري الأول في تاريخ مقاطعة نورث أمبتون ببنسلفانيا، التي كانت الأغلبية الساحقة من سكانها من أصل ألماني في عام 1774، وبحلول العام التالي كانت الغالبية العظمى من السكان البالغين بها قد انضموا لجمعيات الميليشيات. كان كثيرون من المستعمرين الألمان، الذين كانت مجتمعاتهم المتماسكة جيدًا تنظر

من قبل ببعض الشكوك لعبارة "الحرية الإنجليزية المشهورة" باعتبارها مرادفًا للأنانية الفردية، ويطالبون آنذاك بأن يتم منحهم كل "الحقوق والامتيازات الممنوحة للرعايا من الأبناء الطبيعيين لجلاله الملك".

ومع تعمق الأزمة، لم يستند الأمريكيون على نحو متزايد في مطالباتهم فحسب على الحقوق التاريخية للإنجليز ولكن أيضًا على اللغة الأكثر تجريدًا للحقوق الطبيعية والحرية العالمية للجميع. دافع المؤتمر القاري الأول عن أعماله بمناشدة "مبادئ الدستور الإنجليزي" التي تقر "الحريات للرعايا الأحرار المولودين الطبيعيين داخل مملكة إنجلترا" و"قانون الطبيعة الغير قابل للتغيير". قدمت نظرية "جون لوك" للحقوق الطبيعية التي كانت موجودة قبل تأسيس الحكومة تبريرًا قويًا لمقاومة المستعمرات؛ وفي مؤلف باسم "عرض موجز لحقوق أمريكا البريطانية" (والذي تم كتابته في عام 1774 لإرشاد وفود فرجينيا إلى الكونجرس القاري)، أعلن توماس جيفرسون أن "الأمريكيين شعب حر يطالب بحقوقه على النحو المستمد من قوانين الطبيعة وليس باعتبارها هدية من كبير القضاة". وأصر جيفرسون على أن الأمريكيين لايزالون يبجِّلون ويوقرون الملك، ولكنه طالب بأن يُنظَر للإمبراطورية من الآن فصاعدًا باعتبارها مجموعة مناطق متساوية ترتبط معًا عن طريق الولاء للملك الدستوري، وليس كنظام يحكم فيه جزء واحد الأجزاء الأخرى.

اندلاع الحرب

بحلول الوقت الذي عقد فيه الكونجرس القاري الثاني في مايو (آيار) 1775، كانت الحرب قد اندلعت بين الجنود البريطانيين والمواطنين المسلحين من ماساشوستس. في 19 إبريل (نيسان) من نفس العام، تحركت قوة من الجنود البريطانيين من بوسطن نحو بلدة "كونكورد" المجاورة بهدف الاستيلاء على الأسلحة التي كان يتم تكديسها هناك. حذَّر راكبو الدراجات من بوسطن، من بينهم "بول ريفيري"، القادة المحليين باقتراب القوات البريطانية. حمل أفراد الميليشيات السلاح وحاولوا مقاومة تقدم القوة البريطانية، ونشبت مناوشات بين الأمريكيين والجنود البريطانيين في لكسينجتون ومرة أخرى في كونكورد؛ وفي الوقت الذي تقهقر فيه البريطانيون إلى بوسطن كمكان آمن، كان قد قُتِل بالفعل حوالي تسعة وأربعين أمريكيًا وثلاثة وسبعين من أفراد الجيش الملكي.

كان هذا هو ما أطلق عليه الفيلسوف "رالف والدو ايمرسون" في وقت لاحق "طلقة النار التي سمعها شتى أرجاء العالم"، وكانت بمثابة بداية لحرب الاستقلال الأمريكية، وتردد أصداؤه في جميع أنحاء المستعمرات. عندما وصلت أنباء عن المناوشات إلى المُزارع الفقير بنيويورك "ليمويل روبرتس"، شعر أن "صدره قد توهج" مع "نداء الحرية" وتوجه إلى ماساشوستس للانضمام لصفوف الجيش. في مايو (آيار) 1775، قام "إيثان الين" و"أولاد الجبل الأخضر"، بالإضافة إلى رجال

ميليشيات من كونيكتيكت بقيادة "بنديكت أرنولد" بمحاصرة حصن "تيكونديروجا" في نيويورك وأجبروا من بداخل الحصن على الاستسلام. في فصل الشتاء التالي، قام "هنري نوكس"، قائد مدفعية جورج واشنطن، بالإعداد لجر بعض مدافع تيكونديروجا لمسافة تمتد لمئات الأميال نحو الشرق لتعزيز حصار بوسطن، حيث تتخفى القوات البريطانية. بعد شهرين من ليكسينجتون وكونكورد، وتحديدًا في 17 يونيو (حزيران) 1775، طرد البريطانيون ميليشيات المستعمرين من منطقة "بريد هيل"، على الرغم من أن هذا لم يتم إلا بعد أن تكبدوا خسائر باهظة تمثلت في وقوع إصابات بين الصفوف البريطانية. (يرجع اسم المعركة إلى اسم "بنكر هيل" القريب)، ولكن وصول المدافع الأمريكية في مارس (آذار) 1776 وتمترسها فوق المدينة جعل مركز بريطانيا في بوسطن غير منيع، وتم إجبار الجيش البريطاني تحت قيادة السير "وليام هاو" على الرحيل عن المدينة، وقام الجيش بقطع شجرة الحرية الأصلية قبل أن يغادروا.

وفي غضون ذلك، أقر الكونجرس الثاني للمستعمرات إنشاء جيش، وتم طبع النقود لتمويل هذا الجيش وتم تعيين "جورج واشنطن" قائدًا عليه، وكان واشنطن قد اكتسب خبرة قتالية كبيرة خلال حرب السنوات السبع، ولم يكن فقط أفضل ضابط جيش معروف في المستعمرات ولكنه كان أيضًا فرجيني (من سكان فرجينيا) بارز. أقر جون آدمز، الذي اقترح اسمه، بأن وجود قائد جنوبي على رأس القوات الأمريكية من شأنه أن يعزز الوحدة بين المستعمرات؛ وردًا على ذلك، أعلنت بريطانيا أن المستعمرات في حالة تمرد وأرسلت الآلاف من الجنود، وأمرت بإغلاق جميع موانئ المستعمرات.

الاستقلال؟

بحلول نهاية عام 1775، بدا أنه لا يمكن إصلاح الصدع الذي حدث مع بريطانيا، ولكن العديد من المستعمرين أحجموا بعيدًا عن فكرة الاستقلال، حيث كان الفخر بالانتماء للإمبراطورية البريطانية لا يزال قويا، وخشي العديد من القادة السياسيين، ولاسيما في المستعمرات التي شهدت اضطرابات داخلية، أن الانفصال التام عن البلد الأم قد يطلق العنان لمزيد من الصراع، حيث كانوا يرون أن الفوضى في الطبقات الدنيا من المجتمع تشكل خطرًا لا يقل عن خطر الاستبداد الذي قد يحدث من جانب الطبقات العليا؛ وقد حذّر أحد خصوم الاستقلال بأن الكثير من دعاة الاستقلال سيجدون أنه من "المقبول جدًّا" تقسيم ممتلكات الأغنياء بين الفقراء.

أثرت هذه المخاوف على كيفية استجابة قادة المستعمرات لفكرة الاستقلال، فالنخب من ماساتشوستس وفيرجينيا، الذين شعروا بثقة عارمة في قدرتهم على الاحتفاظ بالسلطة في الداخل كانوا يميلون إلى دعم الانفصال عن بريطانيا؛ وقد تحملت ماساتشوستس العبء الأكبر

من المراسيم التي لا يمكن التسامح معها. لم يكن زعماء الجنوب متحفظين للغاية على حريتهم السياسية وحريصين على الدفاع عنها ولكنهم كانوا أيضًا غاضبين جدًا من إعلان صدر في نوفمبر 1775 من قبل إيرل 'دونمور' الذي يمثل الحاكم البريطاني والقائد العسكري في فرجينيا، حيث عرض فيه منح الحرية لأي عبد يهرب وينضم إلى خطوط القتال في صفوف الملك.

ومع ذلك، أدى تنوع السكان في نيويورك وبنسلفانيا إلى صعوبة التوصل إلى توافق في الآراء بشأن المدى الذي يمكن الاستمرار في مقاومة الإجراءات البريطانية؛ كما أن معارضة القوانين البريطانية السابقة هناك قد أطلقت العنان لمطالب صغار المزارعين والحرفيين في المناطق الحضرية للمطالبة بمشاركة أكبر في شئون الحياة السياسية؛ ونتيجة لذلك، تراجع العديد من القادة ذوي الشأن عن قرار الدخول في مزيد من المقاومة. هذا وقد حذر 'جوزيف جالاوي' زعيم ولاية بنسلفانيا ومندوبها لمؤتمر الكونجرس الثاني الذي عمل على التوصل إلى حل وسط بين المواقف البريطانية وموقف المستعمرين، من أن الاستقلال سيكون مصحوبًا بنزاعات مستمرة داخل أمريكا، حتى إنه توقع نشوب حرب بين المستعمرات الشمالية والجنوبية، وأعلن قائلاً إن الأمريكيين يمكنهم فقط التمتع 'بالحرية الحقيقية' أي الحكم الذاتي والأمن للأشخاص والممتلكات، من خلال البقاء تحت مظلة الإمبراطورية.

الفطرة السليمة

قدمت أمريكا مع بداية عام 1776 مشهدًا غير عادي، حيث كان المستعمرون في حالة حرب ضد الإمبراطورية البريطانية، في نفس الوقت الذي كانوا لا يزالون يطالبون بحقوقهم تحت مظلة الإمبراطورية، حتى مع احتدام القتال، وجه الكونجرس في يوليو (تموز) 1775 'التماس غصن الزيتون' لجورج الثالث، مؤكدًا ولاء الأمريكيين إلى التاج البريطاني ويأمل في الحصول على 'مصالحة دائمة'. ومن المفارقات، أن مهاجر حديث من إنجلترا، وليس مستعمرًا من عائلة عريقة على الأراضي الأمريكية هو الذي استوعب المنطق الداخلي للموقف وعرض رؤية ذات مدلول واسع للاستقلال الأمريكي، وهو يدعى 'توماس باين'، وكان يعمل حرفيًا ومسئولاً إنجليزيًا صغيرًا في الحكومة، قد هاجر إلى فيلادلفيا في أواخر عام 1774، وسرعان ما ارتبط بمجموعة من دعاة القضية الأمريكية والمدافعين عنها، بما في ذلك جون آدمز والدكتور بنيامين راش. كان هذا الأخير 'راش' طبيبًا متميزًا في فيلادلفيا وقد اقترح كتابة منشور يدعم الاستقلال الأمريكي.

هذا وقد ورد اسم المؤلف لهذا المنشور فقط تحت مسمى 'رجل إنجليزي'، وقد ظهر منشور 'التفكير السليم' في يناير (كانون الثاني) 1776. لم يبدأ المنشور بسرد مظالم المستعمرين ولكنه بدأ بهجوم على 'الدستور الذي تتفاخر به إنجلترا كثيرًا' ومبادئ الحكم الوراثي والحكومة الملكية،

وكتب باين أنه بدلاً من أن يكون نظام الحكم الأمثل في العالم نجد أنها تترأس "القسوة الملكية لإنجلترا"، وكان الدستور الإنجليزي يتألف في معظمه من "تبقى القاعدة من اثنين من الأنظمة الاستبدادية القديمة. . . الاستبداد الملكي في شخص الملك [و] الطغيان الأرستقراطي المتمثل في أقرانه، واستمر قائلاً "الأجدر بالثقة هو الشخص الصادق مع المجتمع ومن يراقب الله"، وتابع "مثل هذا الشخص هو الأحق بالحياة من بين هؤلاء الأوباش المتوجين على الإطلاق". إن النظام الديمقراطي القائم على أساس انتخابات متكررة يحمي حقوق المواطنين بدستور مكتوب يكون أفضل بكثير من النظام الملكي.

في إشارة للاستقلال، اعتمد "باين" على خبرات المستعمرين في عرض قضيته، وكتب قائلاً "من العبث والسخف افتراض أن قارة يجب أن تخضع على الدوام لحكم جزيرة". كان مستقبل أمريكا ضمن الإمبراطورية البريطانية محدود، حيث إنها تحررت من قوانين الملاحة وتقوم بالتجارة بحرية مع العالم كله، وتأكدت أهميتها في توفير المواد". ربط "باين" الآمال الاقتصادية للدولة الجديدة بفكرة الحرية التجارية؛ وعلاوة على ذلك، مع الاستقلال تستطيع المستعمرات لأول مرة عزل نفسها عن المشاركة في حروب أوروبا الإمبريالية التي لا نهاية لها. كانت بريطانيا قد "جرَّت" مستعمراتها الأمريكية إلى صراعات مع دول مثل إسبانيا وفرنسا اللذان لم يكونا أبدًا . . . أعداء لنا نحن الأمريكيين، ولكن لوجودنا ضمن رعايا بريطانيا العظمى لذلك فإن العضوية في الإمبراطورية البريطانية كانت عبئًا على المستعمرات وليس ميزة.

مع القرب من نهاية المنشور، تجاوز "باين" الاعتبارات العملية لتوضيح رؤية خلابة للأهمية التاريخية، لقد أعلن بلغة مؤثرة أن الثورة الأمريكية هي قضية أمريكا، وهي إلى حد كبير قضية البشرية جمعاء". ستصبح الأمة الجديدة بيت الحرية، "ملاذًا للبشرية".

تأثير باين

لم تكن معظم أفكار "باين" أصلية، ولكن ما جعل كتاب "الفطرة السليمة" فريدًا ومتميزًا هو طريقته في التعبير عن هذه الأفكار والجمهور الذي وجهه له، حيث إن الكتابات السياسية السابقة كانت موجهة عمومًا نحو النخبة المتعلمة. أعلن "جون راندولف" من ولاية فرجينيا في 1774، "عندما أذكر الجمهور فإنني أعني الجزء العقلاني من الجمهور، حيث إن العامة السوقة المبتذلين الجاهلين غير صالحين...لإدارة مقاليد الحكم." كما حطَّم الوزراء الإنجيليين احتكار رجال الدين المدربين على الوعظ الديني، ابتدع باين نمط جديد في الكتابة السياسية يهدف إلى التوسع الهائل في المجال العام حيث يدور النقاش السياسي؛ لقد كتب بوضوح وبصورة مباشرة، وتجنب اللغة المعقدة والجمل اللاتينية الشائعة في الكتيبات التي تستهدف القراء المتعلمين؛ وسرعان ما أصبح

كتيب "الفطرة السليمة" أحد أنجح الكتيبات وأكثرها تأثيرًا في تاريخ الكتابة السياسية، وأكثرها مبيعًا، والتي وصلت حسب تقديرات باين إلى حوالي 150.000 نسخة؛ لقد أمر باين بأن يتم تخصيص حصته من الأرباح لشراء لوازم الجيش القاري.

في فبراير (شباط) من عام 1776، قرأ الزعيم السياسي بماساشوستس "جوزيف هاولي" "الفطرة السليمة" وعلّق عليه قائلاً "لقد مس الكتيب كل شغاف قلبي المستعد جيداً". كانت قلوب هاولي والآلاف من الأمريكيين الآخرين على أتم استعداد لحجج باين، نظرًا للنزاع الممتد حول حق بريطانيا في فرض الضرائب على المستعمرات، واندلاع الحرب في 1775، والقناعة المتنامية بأن بريطانيا مجتمع فاسد تتضاءل فيه الحرية؛ وبالإضافة إلى ذلك، أدى احتدام القتال في شتاء عام 1775-1776، عندما غزا الأمريكيون كندا بدون جدوى بينما أحرق البريطانيون فالموث (بورتلاند الآن) في منطقة "ماين" وقصفت "نورفوك" في فيرجينيا إلى تعزيز هذه القناعة وإضافة ثقل للحركة من أجل الاستقلال. بحلول ربيع عام 1776، كان العشرات من المجتمعات الأمريكية قد تبنوا قرارات تدعو إلى الانفصال عن بريطانيا، ولم يمض سوى ستة أشهر فقط على ظهور كتيب "الفطرة السليمة" حتى اتخذ الكونجرس الاتحادي الثاني قرارًا بقطع علاقات المستعمرات مع بريطانيا العظمى.

إعلان الاستقلال

أعلن الكونجرس رسميًا الولايات المتحدة أمة مستقلة إلا في 2 يوليو (تموز) من عام 1776، واعتمد إعلان الاستقلال بعد ذلك بيومين، الذي كتبه توماس جيفرسون ونقحه الكونجرس قبل الموافقة عليه. (انظر الملحق للإطلاع على النص الكامل.) يتألف معظم الإعلان من قائمة طويلة من المظالم ضد الملك جورج الثالث، وتتراوح بين إيواء القوات الاستعمارية في منازل المستعمرات وفرض الضرائب دون موافقة المستعمرين. أضاف الإعلان أن هدف بريطانيا كان تأسيس "طغيان مطلق" على المستعمرات. حذف الكونجرس أحد بنود مسودة جيفرسون للإعلان بناءً على إصرار جورجيا وكارولينا الجنوبية، وهو ذلك البند الذي أدان وحشية تجارة الرقيق وانتقد الملك لقلبه قوانين المستعمرات التي سعت إلى تقييد استيراد العبيد.

لم يكمن التأثير الدائم للإعلان في الشكاوى ضد جورج الثالث ولكنه يكمن في ديباجة جيفرسون، وخاصة الفقرة الثانية التي تبدأ كما يلي "من الحقائق التي نعتقد أنها بديهية أن جميع الناس خُلِقُوا على قدم المساواة وأن خالقهم قد وهبهم حقوق أساسية معينة غير قابلة للتصرف فيها، منها حق الحياة والحرية والسعي لتحقيق السعادة". كان جيفرسون يعني بعبارة "الحقوق الأساسية" تلك الحقوق الأصيلة والمتجذرة جدا في الطبيعة الإنسانية ذاتها (أو ما أطلق عليه جون لوك "حالة الطبيعة") والتي لا تستطيع الحكومة سلبها.

واصل جيفرسون مبررًا الانفصال عن بريطانيا، فكتب قائلا أن الحكومة تستمد سلطاتها من "موافقة المحكومين"، وعندما تهدد الحكومة الحقوق الطبيعية لرعاياها فإن للشعب السلطة "أن يغيرها أو يلغيها." إن إعلان الاستقلال هو في النهاية تأكيد على حق الثورة.

إعلان الاستقلال والحرية الأمريكية

لقد غَيَّر إعلان الاستقلال معنى الحرية الأمريكية إلى الأبد، حيث أكملت التحول من حقوق الإنجليز إلى الحقوق البشرية كغاية ومبتغى للاستقلال الأمريكي، حيث قال جيفرسون على وجه التحديد "إنها قوانين الطبيعة والفطرة التي خلقها الله هما اللذان يبرران الاستقلال، وليس الدستور أو الميراث الذي يمتلكه الرجل الإنجليزي المولود حراً". لم تعد الحرية مجموعة من الحقوق المحددة أو امتيازًا يتمتع به مجموعة من الناس في ظروف اجتماعية معينة، ولكنها أصبحت استحقاق إنساني عالمي.

استندت حجج جيفرسون حول الحقوق الطبيعية والحق في مقاومة السلطة التعسفية وما إلى ذلك إلى كتابات "جون لوك"، الذي كما شرحنا في الفصل السابق، يرى أن الحكومة تستند إلى "العقد الاجتماعي" وأن خرق هذا العقد يؤدي إلى تدمير شرعية السلطة؛ ومع ذلك، عندما استبدل كلمة الملكية في ثلاثية جون لوك الشهيرة التي تفتتح الإعلان بعبارة "السعي وراء السعادة"، فإنه بذلك ربط حظ البلاد الجديدة بعملية ديمقراطية مفتوحة حيث يطور الأفراد قدراتهم الذاتية ويسعون لتحقيق أهدافهم الخاصة في الحياة، ويصبح تحقيق الفرد لذاته دون عوائق من قبل الحكومة بمثابة عنصرًا مركزيًا في الحرية الأمريكية، حيث لم يعد للتقاليد أن تحكم الحاضر، ويستطيع الأمريكيون تشكيل المجتمع وفق ما يرونه مناسبا.

ملاذ للإنسانية

شهدت الثورة ميلادًا لتعريف مميز للجنسية يرتكز على الحرية الأمريكية؛ لقد احتلت منذ البداية فكرة "الحالة الاستثنائية الأمريكية" موقعًا محوريًا في القومية الأمريكية، ومفادها الاعتقاد بأن الولايات المتحدة لديها مهمة خاصة لتكون بمثابة ملاذ من الاستبداد والطغيان، ورمزًا للحرية، ونموذجًا لبقية العالم. هذا وقد أعلنت الدولة الجديدة عن نفسها، على حد تعبير زعيم فرجينيا "جيمس ماديسون"، بأنها "ورشة عمل للحرية للعالم المتحضر". كان هناك إحساس بأن الثورة تمثل حدثًا ذا أهمية تاريخية عالمية؛ لقد تجلى هذا في ملحوظة "باين" في "الفطرة السليمة"، عندما قال " في وسعنا أن نبدأ العالم مرة أخرى"، ووصفه للدولة الجديدة "كملاذ للبشرية". لقد وجدت هذه الفكرة أصداء لها لا تعد ولا تحصى في الخطب، والنشرات السياسية، والمقالات الصحفية في ذلك الوقت. كانت أمريكا، أمريكا وحدها، المكان الذي يمكن فيه غرس وترسيخ

مبدأ الحرية للجميع، وذلك بعد أن تحررت من عبء المؤسسات والنظم التي قمعت شعوب العالم القديم- مثل الملكية والأرستقراطية وامتياز توارث الملكية. كان هذا هو السبب الذي جعل جيفرسون يوجه إعلان الاستقلال ليس فقط للمستعمرين أنفسهم أو لبريطانيا العظمى، وإنما وجهه إلى "الرأي العام" للبشرية".

وكان أول من أضاف اسمه في إعلان الاستقلال تاجر ماساتشوستس "جون هانكوك"، رئيس الكونجرس القاري الثاني، وذلك بتوقيع كبير جدا وعلل ذلك وفقًا للأسطورة، بانه فعل هذا حتى يستطيع الملك جورج الثالث قراءتها دون الحاجة لارتداء نظارته.

الإعلان العالمي للاستقلال

كان حرص المستوطنين الأمريكيين على تأمين حقوق الإنسان للبشرية جمعاء أقل من حرصهم على الحصول على الاعتراف الدولي بنضالهم من أجل الاستقلال عن بريطانيا؛ ومع ذلك، كان جيفرسون يأمل أن يصبح هذا التمرد بمثابة "إشارة لدفع الرجال لكسر القيود . . . وأن يأخذوا على عاتقهم تحقيق ثمار الحكم الذاتي وتأمينها". لقد ظل هذا الإعلان مصدرًا للإلهام لأكثر من قرنين من الزمان ليس فقط لأجيال من الأمريكيين الذين كانوا قد حُرِمُوا من حق التمتع بحقوقهم الطبيعية، ولكن كانت أيضًا بالنسبة للشعوب المستعمرة في جميع أنحاء العالم الساعية للاستقلال. سرعان ما ظهر إعلان الاستقلال في ترجمات باللغتين الفرنسية والألمانية، وإن لم يظهر في البداية باللغة الإسبانية، حيث خشيت الحكومة من أن يتسبب في نشر أفكار خطرة بين الشعوب الأمريكية في الإمبراطورية الإسبانية.

إلا أنه في السنوات التي تلت عام 1776، صاغ العديد من الحركات المناهضة للاستعمار إعلانات الاستقلال الخاصة بهم على غرار نموذج إعلان الاستقلال الأمريكي. كان أول هذه الإعلانات في فلاندرز (جزء من بلجيكا اليوم، ثم أصبح جزء من الإمبراطورية النمساوية)، حيث ردد المتمردون في عام 1790 كلمات جيفرسون بإعلان أن مقاطعتهم "حرة ودولة مستقلة وبموجب الحقوق يجب أن تكون هكذا." بحلول عام 1826 الذي شهد وفاة جيفرسون، كان بضع وعشرون إعلانًا أخرى للاستقلال قد صدرت في أوربا ومنطقة البحر الكاريبي وأمريكا الإسبانية. شهد العالم حتى اليوم صدور إعلانات للاستقلال في أكثر من نصف بلدانه حتى في أقاصي الأرض مثل الصين (صدر بعد ثورة 1911) وفيتنام (1945). أدرج العديد من هذه الوثائق قوائم بمظالم ضد السلطة الإمبراطورية لتبرير الثورة؛ بالرغم من ذلك، أكد عدد قليل من تلك الوثائق على الحقوق الطبيعية التي أثارها جيفرسون – وهي الحق في الحياة والحرية والسعي لتحقيق السعادة. مع مرور الوقت، أصبح الإعلان في سياقه العالمي تأكيدًا على حق المجموعات

المختلفة لتشكيل دول مستقلة، وليس مجرد قائمة بحقوق المواطنين التي لا تستطيع حكوماتهم حرمانهم منها.

تبنت الشعوب في جميع أنحاء العالم مبدأ أن السلطة السياسية الشرعية تستند إلى إرادة "الشعب" أكثر من تبنيها لصياغة معينة من الإعلان. هذا وقد ألهم الإعلان في عام 1776 منتقدي الحكم البريطاني للمطالبة بالإصلاح السياسي. في عام 1780، وحتى بعد اندلاع حرب الاستقلال الأمريكية، قام هندي من بيرو، تلقى تعليمًا يسوعيًا يسمى باسم آخر حاكم في الإينكا، توباك أمارو، وقاد انتفاضة ضد الحكم الإسباني، وبحلول الوقت الذي تم فيه قمع هذه الانتفاضة في عام 1783 كان حوالي 10.000 إسباني و100.000 هندي قد لاقوا حتفهم. طالبت النخب المحلية في الإمبراطوريات الهولندية والفرنسية والإسبانية قدر أكبر من الحكم الذاتي، حيث كانت الحكومات الأوروبية تحاول إحكام قبضتها بدرجة كبيرة كما فعل البريطانيون في أمريكا الشمالية، وغالبًا ما استندت هذه النخب على الحجج الدستورية للوطنيين الأمريكيين. وسرعان ما تم تدويل فكرة أن "للشعب حقوقًا" على مستوى العالم، وأستطاع العبيد في منطقة البحر الكاريبي، والرعايا المستعمرين في الهند، والسكان الأصليين في أمريكا اللاتينية أن يتحدثوا هذه اللغة رغم أنف أولئك الذين كانوا يمارسون السلطة هناك.

تأمين الاستقلال

ميزان القوى

كان إعلان استقلال الأمريكيين شيئًا، والفوز بالاستقلال شيئًا آخر. فقد واجه الجيش الأمريكي الذي كان قد تم إنشائه حديثًا أكبر قوة عسكرية على وجه الأرض؛ حيث أصرت بريطانيا على سحق التمرد لأنها كانت ترى أن الأمريكيين خونة. كان يبدو على السطح أن ميزان القوى يميل بشدة لصالح بريطانيا، فلديها جيش مدرب جيدًا (تم استكماله بجنود مرتزقة من الولايات الألمانية مثل هيس)، ولديها البحرية الأقوى في العالم والقادة العسكريين ذوي الخبرة. اضطر الأمريكيون إلى الاعتماد على الميليشيات المحلية وعلى جيش قاري مجهز بشكل غير كاف؛ لقد شعر "واشنطن" نفسه أن الميليشيات كانت "معتادة على الحرية المطلقة" لدرجة لا تسمح لهم "بقبول درجة مناسبة من الانقياد" اللازم توفره في الجنود كجزء من مبادئ العسكرية الناجحة؛ وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن العديد من الأمريكيين متحمسين للاستقلال وكان بعضهم يدعم البريطانيين بنشاط.

من ناحية أخرى، لم يكن العديد من الجنود الأمريكيين يفتقرون إلى الخبرة العسكرية نظرًا لأنهم قاتلوا في حرب السنوات السبع، ولأنهم تلقوا تدريبًا كميليشيات بصورة مكثفة في أوائل

السبعينيات من القرن الثامن عشر، حيث كانوا يقاتلون على أرضهم من أجل قضية تلهب الإخلاص والتفاني والتضحية. حمل ما يقرب من 200.000 رجل في الجيش الأمريكي السلاح (كان جنود هذا الجيش من المتطوعين) والميليشيات (حيث كان ذلك مطلوبًا من كل رجل قادر جسديًا إلا إذا قدم بديلاً عنه) خلال ثماني سنوات من الحرب خلال الفترة ما بين عامي 1775-1783، ومع تقدم الحرب، تراجع التجنيد بين الأمريكيين أصحاب الأملاك وزاد اعتماد الجيش القاري بشكل متزايد على الشبان ذوي الآمال الاقتصادية المحدودة- أبناء المزارعين المعدمين، والخدم بالسخرة، والعمال والأمريكيين من أصل إفريقي. عانى الوطنيون كثيرًا من أجل القضية، حيث قُتِلَ في حرب الاستقلال واحد من بين كل عشرين من الذكور البيض الأحرار (غير العبيد) من سكان المستعمرات، الذين تتراوح أعمارهم بين 16-45 عاما، أي ما يعادل نحو 3 ملايين وفيات في عدد السكان اليوم، ولكن كلما احتفظ الأمريكيون بوجود جيش في الميدان، كلما ظلت فكرة الاستقلال حية بصرف النظر عن مساحة الأراضي التي احتلتها بريطانيا.

على الرغم من قوة بريطانيا، إلا أن غزو المستعمرات الثلاثة عشر سيكون بمثابة مهمة ضخمة ومكلفة، ولم تكن واثقة على الإطلاق من أن العامة داخل بريطانيا مستعدون لدفع ضرائب إضافية تستلزمها حرب مطولة؛ وعلاوة على ذلك، وقعت بريطانيا في سلسلة من الأخطاء الفادحة، حيث أساءوا منذ البداية تقدير درجة دعم السكان الأمريكيين للاستقلال وكذلك قدرة الجنود المواطنين الأمريكيين؛ لقد اعترف الجنرال البريطاني توماس جيج بهذا قائلا: يُظهِر هؤلاء الناس روحًا وسلوكًا معاديًا لنا، لم يظهروه أبدا ضد الفرنسيين [في حرب السنوات السبع]، وقد حكم عليهم الجميع بموجب مظهرهم وسلوكهم السابق، مما أوقعهم في العديد من الأخطاء الكبيرة؛ وعلاوة على ذلك، رحب المنافسون الأوروبيون، ولا سيما فرنسا، باحتمال هزيمة بريطانيا. إذا استطاع الأمريكيون عقد تحالف مع فرنسا التي تمثل القوة الثانية في العالم بعد بريطانيا، فإنها بذلك ستقطع شوطًا طويلاً نحو الوصول لتعادل ميزان القوى.

الأمريكيون من أصل إفريقي في الثورة

رفض جورج واشنطن في مستهل الحرب قبول المجندين الأمريكيين من أصل إفريقي، لكن رأيه تغير بعد إعلان اللورد دونمور في عام 1775، المذكور سابقًا، والذي قدم فيه عرضًا بالحرية للعبيد الذين وافقوا على الالتحاق بالجيش البريطاني. التحق حوالي 5.000 من الأمريكيين من أصل إفريقي في ميليشيات الدولة، وفي الجيش القاري، والبحرية. نظرًا لأنه تم السماح للمجندين في الميليشيات بالإعفاء من الخدمة العسكرية، إذا قدموا بديلاً عنهم، اكتسب العبيد فجأة القدرة على المساومة بشكل كبير. اكتسب عدد غير قليل من العبيد حريتهم من خلال

الموافقة على الانضمام في الخدمة العسكرية بدلاً عن مالكه أو إبنه. في عام 1778، شكلت رود آيلاند، التي كانت تضم بين سكانها نسبة من السكان العبيد أعلى من أي ولاية أخرى في نيو إنجلاند، كتيبة من الأمريكيين من أصول إفريقية ووعدت العبيد الذين ينضمون للجيش بالحصول على الحرية، مع دفع تعويض لمالكيهم مقابل خسارتهم في ممتلكاتهم من هؤلاء العبيد. تكتل الأمريكيون من أصل إفريقي، والذين قاتلوا تحت قيادة جورج واشنطن ومع الميليشيات الأخرى بالولاية، في سرايا عسكرية عنصرية متكاملة مقتصرة عليهم فقط (على الرغم من خضوعهم بشكل ثابت ودائم لضباط بيض)، وكانوا آخر الجنود الأمريكيين من أصل إفريقي الذين قاموا بذلك رسميًا حتى الحرب الكورية (باستثناء عدد قليل من الجنود من أصل إفريقي والبيض الذين قاتلوا إلى جانب بعضهم البعض في وحدات غير نظامية في نهاية الحرب العالمية الثانية).

وقد جندت المستعمرات الجنوبية باستثناء كارولينا الجنوبية وجورجيا الأحرار والعبيد من الأمريكيين من أصل إفريقي بالقتال في المستعمرات الجنوبية أيضا. لم يتم وعدهم صراحة بالحرية ولكن حصل العديد منهم على حريتهم بشكل فردي بعد انتهاء الحرب، وحررت الهيئة التشريعية في فرجينيا في عام 1783 العبيد "الذين ساهموا في تأسيس الحرية الأمريكية والاستقلال" من خلال الخدمة في الجيش.

بالمثل، قدم القتال ضمن الجانب البريطاني فرصًا للحرية، حيث فر قرابة 800 أو أكثر من العبيد من مالكيهم للانضمام للفوج الأثيوبي تحت قيادة اللورد دونمور، قبل أن يتم طرده من فيرجينيا، وكانوا يرتدون زيًا عسكريًا مكتوب عليه شعار "الحرية للعبيد". حارب الأمريكيون من أصل إفريقي أثناء الحرب مع السرايا البريطانية في نيويورك ونيو جيرسي وكارولينا الجنوبية. خدم العبيد الهاربون الآخرون في الجيش الملكي كجواسيس يرشدون قواتهم عبر المستنقعات ويعملون كطهاة، وغسالين، وعمال بناء عسكريين. رأى جورج واشنطن بنفسه سبعة عشر من عبيده يفرون إلى الخدمة في الجيش البريطاني لمحاربة المستعمرين، وقد علق ابن عمه "لوند واشنطن" قائلا "ليس هناك رجل منهم إلا وسيتركنا إذا اعتقد أنه يستطيع الهرب، فالحرية لها طعم حلو".

السنوات الأولى في الحرب

لو كان القائد البريطاني، السير وليام هاو، قد أدار الحرب بقوة أكثر في البداية، ربما كان قد استطاع وأد التمرد في مهده من خلال تدمير جيش جورج واشنطن، ولكنه تعرض لهزائم عديدة في السنوات الأولى من الحرب، حيث كان واشنطن حريصًا بصفة عامة على تجنب المواجهات المباشرة مع البريطانيين، وتمكن من الحفاظ على جيشه متماسكا. بعد أن تخلى هاو عن بوسطن قام بمهاجمة مدينة نيويورك في صيف عام 1776. بالمثل، انتقل جيش واشنطن من ماساشوستس

إلى بروكلين للدفاع عن المدينة. دفع هاو القوات الأمريكية للتقهقر وقطع تقريبًا خط الرجعة لواشنطن عبر النهر الشرقي. تمكن واشنطن من الفرار إلى مانهاتن ثم شمالاً إلى بيكسكيل، حيث عبر نهر هدسون إلى نيوجيرسي، ولكن هاو أسر 3.000 من رجال واشنطن الذين كان قد تركهم في جزيرة مانهاتن.

قام هاو بملاحقة الجيش الأمريكي ولكن لم يتمكن قط من إلحاق أي هزيمة حاسمة به؛ ومع ذلك، عاد العديد من الجنود الأمريكيين إلى بيوتهم ببساطة بسبب انهيار الروح المعنوية كنتيجة للإخفاقات المتتالية، مما أدى إلى تضاءل جيش واشنطن من 28.000 مقاتل إلى أقل من 3.000 جندي، وخشي واشنطن في الواقع أن يتلاشى جيشه كليًا إذا لم يحقق نصرًا حاسما؛ ومن أجل استعادة الروح المعنوية وزمام المبادرة، أطلق هجمات مفاجئة ناجحة على جنود هسيان في ترينتون في نيو جيرسي في 26 ديسمبر (كانون الأول) عام 1776، وهجومًا على القوات البريطانية في برينستون في 3 يناير (كانون الثاني) عام 1777. قبل وقت قصير من عبور نهر ديلا وير لمهاجمة جنود هسيان، أمر واشنطن بقراءة مقال توماس باين الملهم "الأزمة الأمريكية" على قواته، حيث كتب باين قائلا "هذه هي الأوقات التي تُمتَحَن فيها نفوس الرجال، وإن الجنود الغلمان والوطنيين الفرحين بأنفسهم سيتقاعسون عن خدمة بلدهم في هذه الأزمة مقابل التمتع بدفء الصيف والشمس المشرقة، ولكن الجندي الذي ينجح في هذا الاختبار فإنه جدير بحب وعرفان وشكر كل رجل وامرأة".

معركة ساراتوجا

في صيف عام 1777، تقدم جيش بريطاني آخر، بقيادة الجنرال "جون برجوين" جنوبًا من اتجاه كندا على أمل الانضمام لقوات "هاو" وعزل نيو إنجلاند، إلا أن هاو حرك بدلاً من ذلك، في يوليو (تموز)، قواته من مدينة نيويورك لمهاجمة فيلادلفيا. فر المؤتمر القاري في سبتمبر(أيلول) إلى لانكستر في وسط بنسلفانيا، واحتل هاو مدينة "برازرلي لاف". نظرًا لأن برجوين لم يطلع "هاو" على خططه، هجره هاو عن غير قصد. قطعت القوات الأمريكية طريق برجوين وحاصرت جيشه وأجبروه في 17 أكتوبر (تشرين الأول) عام 1777 على الاستسلام في ساراتوجا. وقد أعطى هذا الانتصار دفعة كبيرة لمعنويات الأمريكيين.

تم إيواء الجيش البريطاني تحت قيادة السير هنري كلينتون آنذاك في فيلادلفيا خلال شتاء 1777-1778، (حيث كان يتم إيقاف القتال في فصل الشتاء أثناء الثورة وفي معظم الحروب في القرن الثامن عشر). انخرط الضباط البريطانيون في حياة اجتماعية أنيقة كاملة مفعمة بالحفلات الراقصة، ومن أشهرها ميشيانزا الكبرى، وهي عرض مبهج ملئ بالغرائب يتضمن سباقًا

للقوارب، وموكب من فرسان العصور الوسطى، وبطولة في التبارز؛ وفي الوقت نفسه، ظل جيش واشنطن معسكرا في فالي فورج وقد عانوا هناك بشدة من الطقس القارس.

ساعدت معركة سارا توجا في إقناع الفرنسيين بأن انتصار الأمريكيين ممكنا، وكان من ثمرة ذلك إبرام الدبلوماسيين الأمريكيين بقيادة بنيامين فرانكلين معاهدة الصداقة والتجارة مع فرنسا في عام 1778، اعترفت فرنسا بموجبها بالولايات المتحدة ووافقت على تقديم المساعدات العسكرية. نظرًا لأن فرنسا لا تزال تعاني من تبعات هزيمتها في حرب السنوات السبع، لذلك كانت تأمل من وراء هذا الاتفاق إضعاف منافستها الأوروبية الرئيسية، أي بريطانيا، ولعلها تستطيع استرداد بعض نفوذها وأراضيها في نصف الكرة الغربي. سرعان ما انضمت إسبانيا أيضًا إلى الحرب مع الجانب الأمريكي. هذا وقد لعبت المساعدات الفرنسية دورًا حاسمًا في نهاية الحرب؛ ومع ذلك، أظهر الأسطول الفرنسي في البداية- اهتماما بمهاجمة البؤر الاستيطانية البريطانية في جزر الهند الغربية أكبر من الاهتمام بمساعدة الأمريكيين بشكل مباشر، وحصر الإسبان أنفسهم في استعادة السيطرة على فلوريدا، التي كانت قد سقطت في أيدي البريطانيين في حرب السنوات السبع؛ ومع ذلك، أدى دخول فرنسا وإسبانيا إلى تحويل حرب الاستقلال إلى صراع عالمي، وزاد من تعقد الاحتمالات العسكرية أمام بريطانيا إلى حد كبير وضعها في موقف دفاعي في أماكن تمتد من جبل طارق إلى جزر الهند الغربية.

الحرب في الجنوب

تحول محور تركيز الحرب في عام 1778 إلى الجنوب، حيث كان البريطانيون يأملون في استغلال التوترات الاجتماعية بين المزارعين في المناطق الريفية الفقيرة والمزارعين الأثرياء الذين ظهروا في حركات المنظم لحشد دعم العديد من المستعمرين في المنطقة الذين ظلوا موالين للتاج البريطاني، ولتعطيل الاقتصاد من خلال تشجيع العبيد على الفرار. احتلت القوات البريطانية في ديسمبر (كانون الأول) من عام 1778 سافانا في جورجيا، واستولى كلينتون في مايو (أيار) 1780 على منطقة شارلستون في كارولينا الجنوبية ومعه جيش أمريكي قوامه 5.000 رجل.

يمكن القول إن عام 1780 شهد تدني النضال من أجل الاستقلال، حيث أفلس المؤتمر بشكل أساسي ولم يقبض الجيش رواتبه لأشهر؛ ويبدو أن البريطانيين قد نجحوا في اللعب على وتر الصراعات الاجتماعية داخل المستعمرات حيث انضم الآلاف من الموالين الجنوبيين إلى صفوف القوات البريطانية (أربعة عشر فوجًا من سافانا وحدها) وسعى عشرات الآلاف من العبيد إلى الحرية من خلال الفرار إلى الصفوف البريطانية. في أغسطس (آب) ألحق اللورد تشارلز كورنواليس هزيمة بجيش أمريكي في كامدين بكارولينا الجنوبية، وبعد شهر انشق أحد

أقوى قادة واشنطن، بنديكت أرنولد، ونجح تقريبًا في تسليم الحصن الهام في ويست بوينت على نهر هدسون للجيش البريطاني، وفي 1 يناير(كانون الثاني) من عام 1781 تجمَّع 1.500 من الجنود الساخطين من بنسلفانيا المتمركزين قرب موريس تاون بنيو جيرسي وقتلوا ثلاثة ضباط، وساروا نحو فيلادلفيا حيث كان يجتمع المؤتمر، ولم ينته تمردهم إلا عندما حصلوا على وعد إما بالتسريح من الجيش أو بالحصول على مزايا مقابل إعادة تجنيدهم، بينما كان ينتظر مجموعة أخرى من الجنود المتمردين في نيو جيرسي معاملة أكثر قسوة، حيث تم إعدام اثنين من قادتهم بناء على أوامر واشنطن.

مع ذلك، فشلت بريطانيا في تحويل هذه المزايا إلى نصر، حيث كان القادة البريطانيون غير قادرين على إحكام قبضتهم على الجنوب، حيث كانت الميليشيات الأمريكية تطاردهم أينما تتوجه قواتهم. انتهجت الميليشيات تحت قيادة فرانسيس ماريون هجمات الكر والفر، التي كانت تسمى "ثعلب المستنقعات"، لأن رجاله كان يخرجون من أماكن الاختباء في المستنقعات للضرب بسرعة ثم الاختفاء مما أدى إلى تآكل وضع القوات البريطانية في كارولينا الجنوبية. اجتاحت كل من كارولينا الشمالية والجنوبية وجورجيا حرب أهلية دامية، حيث كانت الميليشيات الوطنية والميليشيات الموالية للبريطانيين ينتقمون من بعضهم البعض وينهبون مزارع أنصار خصومهم؛ كما أن المعاملة الوحشية للمدنيين على أيدي القوات البريطانية بقيادة العقيد باناستر تارلتون قد أغرت العديد من الأمريكيين للانضمام للحرب في سبيل القضية الوطنية.

النصر أخيرًا

في يناير (كانون الثاني) من عام 1781، أوقعت القوات الأمريكية تحت قيادة "دانيال مورجان" هزيمة ساحقة [بترلتون] في كوبنز في كارولينا الجنوبية، وبعد شهرين ألحق الجنرال "ناثانائيل جرين" خسائر فادحة بقائد القوات البريطانية في الجنوب اللورد "تشارلز كورنواليس" في جيلفورد كورت هاوس في كارولينا الشمالية، بينما كان جرين يقوم بحملة من التقهقر الاستراتيجي. انتقل كورنواليس إلى فرجينيا ونزل في يورك تاون الواقعة على شبه جزيرة ناتئة في خليج تشيزبيك، وأدرك واشنطن بذكاء أن هناك فرصة لمحاصرة كورنواليس، فهرع بقواته، بالإضافة إلى تعزيزات من القوات الفرنسية تحت قيادة الماركيز "دي لفايت"، لمنع هروب القوات البريطانية عن طريق البر، وفي الوقت نفسه سيطر الأسطول الفرنسي على مصب خليج تشيزبيك لمنع وصول الإمدادات والتعزيزات لجيش كورنواليس.

لقد ساعدت المنافسات الإمبراطورية من قبل في إنشاء المستعمرات الأمريكية، وساعد تنافس الإمبراطوريات الأوروبية على تأمين الاستقلال الأمريكي، حيث شارك فرنسيين أكثر من

الأمريكيين بقوات برية وبحرية في حملة يورك تاون الحاسمة. في 19 أكتوبر (تشرين الأول) من عام 1781، استسلم كورنواليس وجيشه الذي يضم 8.000 رجل؛ وعندما وصلت الأخبار لندن، تبخر دعم الجمهور للحرب وبدأت مفاوضات السلام بعد ذلك بقليل؛ وبالرغم من براعتها العسكرية الضخمة، تخلت بريطانيا عن النضال بسرعة كبيرة، ويرجع ذلك إلى شعور العديد في بريطانيا بأن جزر الهند الغربية تعد أكثر أهمية من حيث القيمة الاقتصادية من المستعمرات في البر الرئيسي؛ وعلى أية حال، كان التجار البريطانيون يتوقعون أن يستمروا في الهيمنة على التجارة مع الولايات المتحدة، وقد قاموا بذلك بالفعل لسنوات عديدة.

توصل المفاوضون الأمريكيون والبريطانيون بعد عامين، في سبتمبر (أيلول) من عام 1783، لإبرام معاهدة باريس، حيث حقق الوفد الأمريكي، الذي يضم جون آدمز، وبنيامين فرانكلين، وجون جاي أحد أعظم الانتصارات الدبلوماسية في تاريخ البلاد، حيث لم يقتصر الأمر على الحصول على الاعتراف بالاستقلال الأمريكي، ولكنهم اكتسبوا أيضًا السيطرة على المنطقة بأسرها ما بين كندا وفلوريدا شرق نهر المسيسيبي، وحق الأمريكيين في الصيد في مياه المحيط الأطلسي قبالة كندا (وهذه المسألة كانت ذات أهمية كبيرة بالنسبة لسكان نيو إنجلاند)؛ وأمام إصرار بريطانيا، وافق الأمريكيون على عدم تعريض المستعمرين الذين لا يزالون موالين للوطن الأم للاضطهاد ورد ممتلكاتهم إليهم التي كان قد استولت عليها حكومات الولايات والحكومات المحلية.

كانت المستعمرات الثلاثة عشر تشكل حتى الاستقلال جزءًا من الإمبراطورية البريطانية الأمريكية، بالإضافة إلى كندا وجزر الهند الغربية، لكن كندا رفضت النداءات المتكررة للانضمام لحرب الاستقلال، وظل قادة جزر الهند الغربية موالين أيضا للتاج البريطاني وذلك خوفا من انتفاضات الرقيق. ومع إبرام معاهدة باريس، أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية أول دولة مستقلة في نصف الكرة الغربي، ولم تعكس حدودها كثيرًا الوحدة الجغرافية طويلة الأمد للمنطقة بقدر ما عكست الظروف التي صاحبت ولادتها.

أصوات الحرية

من توماس باين
الفطرة السليمة (1776)

كان توماس باين، قد هاجر من إنجلترا مؤخرا، نشر في يناير (كانون الثاني) 1776 منشور بعنوان التفكير السليم وهو عبارة عن كتيب مؤثر للغاية مكتوب،عرض بلغة مؤثرة قضية استقلال أمريكا.

ما أقدم في الصفحات التالية ليس أكثر من حقائق بسيطة وحجج بيّنة وحس سليم. . . .

تقسمنا الطبيعة إلى ذكور وإناث، بينما تميزنا السماء إلى طيب وشرير، ولكن هناك أمر جدير بالبحث والدراسة، ألا هو كيف جاء جنس من الرجال إلى العالم ليتعالى فوق الجميع ويتميز وكأنه نوع جديد من المخلوقات، وعما إذا كان هذا الجنس مصدر لسعادة أو لشقاء البشرية . . . أحد أقوى البراهين الطبيعية على حماقة الحق الوراثي لدى الملوك هو أن الطبيعة لا تقر هذا الحق، وإلا ما كانت لتحوله في كثير من الأحيان إلى وضع مثير للسخرية من خلال إعطاء البشرية حمار مكان أسد . . . .

لم تشرق الشمس أبدًا على قضية أهم وأجل من هذه، حيث لا يتعلق الأمر بمدينة أو بلد أو إقليم أو مملكة، ولكنه يتعلق بقارة كاملة تحتل على الأقل ثمن مساحة العالم المسكون. إنه لا يتعلق بيوم أو سنة أو عصر، إنما يتعلق بالأجيال القادمة المشاركة في السياق والتي سوف تتأثر كثيرًا أو قليلاً حتى نهاية الحياة على وجه الأرض. إن ما نفعله الآن سيؤثر على كل هؤلاء؛ إننا نزرع الآن بذرة الاتحاد القاري والإيمان والشرف . . ..

إنني أتحدى أشد المنادين والمدافعين عن المصالحة مع الإمبراطورية البريطانية ليذكر ميزة واحدة ستحصل عليها هذه القارة من وراء بقائها تحت مظلة بريطانيا العظمى . . . . أما إذا ما حاولنا أن نحصر الأضرار والعيوب التي نعاني منها بسبب هذا الارتباط بالإمبراطورية، فلن نستطيع الحصر. يميل أي خضوع أو اعتماد على بريطانيا العظمى مباشرة إلى إشراك هذه القارة في الحروب والنزاعات الأوروبية، وتضعنا في عداوة أو عزلة بعيدًا عن الدول التي كانت ستسعى لصداقتنا في خلاف تلك الظروف، والتي لا نشعر ضدها بأي غضب أو شكوى.

إنه الحب أيها البشر! نعم إنه الحب هو الذي يجرؤ على معارضة ليس فقط الطغيان ولكن الطاغية، اثبت مكانك! تقبع كل بقعة من العالم القديم تحت وطأة القمع؛ لقد تم افتراس الحرية حول العالم، وطردت آسيا وإفريقيا الحرية منذ فترة طويلة، بينما تبدو الحرية لأوروبا وكأنها غريبة، أما إنجلترا فقد أعطتها إنذار بالرحيل. يا أمريكا، استقبلي الحرية الهاربة واستعدي لتكوني ملاذًا للبشرية الباحثة عنها.

من جيمس تشالمرز

الحقيقة الجلية موجهة إلى سكان أمريكا (1776)

أثار منشور الفطرة السليمة نقاشًا واسع النطاق حول ما إذا كانت الحرية الأمريكية ستكون أكثر أمنًا داخل الإمبراطورية البريطانية أو خارجها. جيمس تشالمرز، صاحب مزرعة في ميرلاند يعرض القضية من وجهة نظر الموالين كما يُطلَق على الذين يعارضون الاستقلال الأمريكي.

نظرًا لأني كنت ساخطا على المبدأ الوارد في الكتيب بعنوان الفطرة السليمة، لذلك عبرت عن نفسي في الملاحظات التالية ببعض الحماس . . . [فذلك لأنني] أعشق بلدي. نظرًا لأني مخلص بحرارة للحرية الحقيقية، لذلك أتوهج بأنقى شعلة للوطنية [ولدي] اشمئزاز من الاستقلالية التي إذا نُفِّذَت فستغرق بلادنا لا محالة في خراب ورعب ودمار والفقر، بعد أن كانت محط أنظار وحسد الآخرين . . . .

هل يمكن لكائن عاقل أن يعتقد للحظة أن بريطانيا العظمى التي يعتمد وجودها السياسي على الطاعة الدستورية، والتي كانت تبذل حتى الأمس هذه الجهود المذهلة لتنقذنا من فرنسا، لن تمارس بنفسها جهود قوية للحفاظ علينا من مخططاتنا المحمومة للاستقلال؟ . . .ينبغي علينا أن نتذكر مع الامتنان الصادق العديد من الفوائد والمزايا التي نتمتع بها نتيجة لاتصالاتنا ببريطانيا العظمى، التي تحررنا على يديها بالأمس من العبودية والموت. . . نحن نقدس الدستور الذي بالرغم من كل عيوبه (التي غالبًا ما يُبالَغ فيها جدا) ونرى أنه أقرب إلى الكمال بأكبر درجة يستطيع إنسان التوصل إليه. . . .

سيفسح مخطط الاستقلالية قريبًا - بل قريبًا جدًا - الطريق لتشكيل حكومة مفروضة علينا من قبل أشباه كرومويل في جيوشنا . . . . سيؤدي الفشل في التجارة إلى أن الكثيرين من كبار وصغار المزارعين وغيرهم لن يسددوا ديونهم. . . . وسوف يترتب على ذلك اندلاع الحرب بين الدائنين والمدينين، الأمر الذي سينتهي في نهاية المطاف بإلغاء عام للديون.

لا تكفي المجلدات لوصف الرعب والبؤس والخراب الذي ينتظر الشعب ككل في شكل الاستقلال الأمريكي؛ وباختصار، أؤكد أنه سيكون من الحكمة والسياسة المتميزة لأولئك الذين يرغبون في الحرية الحقيقية أن يخضعوا لسلطة بريطانيا العظمى من خلال التصالح المفيد. . . . حيث إن الاستقلال والرق مترادفان.

أسئلة:

1- ما هو المغزى والمعنى والأهمية التي يراها "باين" في النضال الأمريكي من أجل الاستقلال؟

2- لماذا يساوي تشالمرز بين الاستقلال والعبودية؟

3- كيف تختلف اللغة المستخدمة من قبل الكاتبين، وعلام ينم هذا بالنسبة لآرائهم السياسية؟

أسئلة المراجعة:

1- اشرح المقصود من "فضيلة ارتداء القماش البسيط المنسوج في البيت" وكيف أنها فصلت المستعمرين عن بريطانيا؟

2- أعلن باترك هنري أنه ليس من فرجينيا، ولكنه أمريكي. ما الذي وَحّدَ المستعمرات وما الذي قسمها في زمن الثورة؟

3- ناقش عواقب استخدام العبيد في جيوش بريطانيا والجيوش القارية. لماذا سمحت بريطانيا باستخدام العبيد في جيوشها؟ لماذا استخدم الأمريكيون العبيد في جيوشهم؟ كيف استفاد العبيد من ذلك؟

4- لماذا توصل المستعمرون للاستنتاج بأن العضوية في الإمبراطورية تهدد حرياتهم ولا تضمنها؟

5- صف كيف عكس كتاب "الفطرة السليم" وإعلان الاستقلال الأفكار التي طرحها الفلاسفة مثل جون لوك بأن الحرية حق طبيعي. لماذا انجذب المستعمرون من كل الطبقات الاجتماعية لهذه الأفكار؟

6- كيف تُبرر الرؤية البريطانية بأن المستعمرين يدينون بالولاء للحكومة الحالية ويدينون بالعرفان للأعمال السابقة؟

7- لَخِّص الفرق في الآراء بين المسئولين البريطانيين وقادة المستعمرين حول قضايا فرض الضرائب والتمثيل البرلماني.

8- تتبع نمو التعاون بين المستعمرات لمواجهة الحكومة البريطانية وتطور الهوية "الأمريكية".

أسئلة الحرية:

1- تنتقل الأفكار العظيمة للحرية بالعدوى وغالبًا ما تنتشر بسرعة. لماذا شعر كثيرون من نخب المستعمرين الذين كانوا على قناعة بتعريف واحد للحرية بالخوف من أفعال ومطالبات عموم المواطنين في العقد الذي سبق الاستقلال؟

2- لاقى قانون الدمغة معارضة من كل مستعمر تقريبًا، حتى من هؤلاء أمثال توماس هتشسنون الذي أصبح لاحقًا مواليًا للتاج البريطاني. اذكر الطرق العديدة التي أدرك بها المستعمرين أن قانون الدمغة تهديد لحرياتهم.

3- اشرح كيف أنه يمكن رؤية كل مما يلي كتهديد للحرية من قبل مختلف مجموعات المستوطنين: ديون كبار مزارعي فرجينيا المتزايدة، غياب المحاكم في المناطق الريفية قليلة الكثافة السكانية في كارولينا، واردات بريطانيا من السلع المصنعة، الواردات من الشاي منخفض السعر.

4- لماذا يرى بعض الأمريكيين أن الحرية تتوقف على بقائهم موالين للحكومة البريطانية وبقائهم جزءًا من الإمبراطورية البريطانية؟

5- يقول العديد من المؤرخين أن إعلان الاستقلال هو أهم مستند في التاريخ الأمريكي. كيف أسهم هذا المستند في تغيير معنى الحرية الأمريكية بشكل دائم؟ ما هي المفاهيم التي جعلته جذابًا بدرجة كبيرة للشعوب من جميع الطبقات الاجتماعية وعبر الزمن وعبر العالم؟

جدول المراجعة		
القوانين البريطانية التي فُرضت على المستعمرات		
القانون	التاريخ	الوظيفة
إعلان 1763	1763	لوقف الاستيطان الاستعماري غرب جبال أبلاش وتجريم الحرب مع الهنود.
قانون السكر	1764	لجمع إيرادات بتخفيض الضرائب على المولاس واحباط التهريب.
قانون الدمغة	1765	لفرض ضرائب مباشرة على كل المواد المطبوعة.
القانون الإيضاحي	1766	لإيضاح أن البرلمان البريطاني لديه سلطة إصدار القوانين لمستعمراته.
قانون تاونشند	1767	لفرض ضرائب على السلع المستوردة مثل الورق والزجاج والطلاء والرصاص والشاي.
قانون الشاي	1773	لفرض ضرائب على لشاي كجزء من جهود مساعدة شركة الهند الشرقية المتعثرة.
قانون عدم التسامح	1774	لإغلاق ميناء بوسطن والحد من الاستقلال الذاتي السياسي للمستعمرة.
قانون كويبك		لمنح التسامح الديني للكاثوليك في كندا.

الفصل السادس

1700	"بيع جوزيف" لصموئيل سيول، أول المنشورات المعادية للعبودية في أمريكا
العقد الثامن من القرن الثامن عشر	التماسات الحصول على الحرية
1776	"ثروة الأمم" لآدم سميث
	"أفكار حول الحكومة" لجون آدامز
1777	دستور ولاية فيرمونت يحظر الرق
1779	توماس جيفرسون يكتب مشروع تأسيس الحرية الدينية
	إعلان فيلبسبورج
1780	روبرت موريس يصبح مدير السياسة المالية للكونجرس
1782	ديبورا سامبسون تتجند في الجيش القاري
1790	أول تعداد وطني
1792	ليبرتي تعرض الفنون والعلوم

الثورة من الداخل

أسئلة تركيز:

- كيف أصبحت المساواة مكون أقوى للحرية الأمريكية بعد الثورة؟
- كيف عكس التوسع في الحرية الدينية بعد الثورة المثالية الأمريكية في الحرية؟
- كيف تغير تعريف الحرية الاقتصادية بعد الثورة؟ ومن الذي استفاد من التغيرات؟
- كيف قلصت الثورة من حريات الموالين للبريطانيين والسكان الأصليين لأمريكا؟
- ما هو تأثير الثورة على العبودية؟
- كيف أثرت الثورة على وضع المرأة؟

أصبحت أبيجيل آدامز التي ولدت في ماساشوستس عام 1744، من أقوى النساء بيانًا وتأثيرًا في عصر الثورة. لقد علّمت نفسها في الوقت الذي كانت فيه فرص الفتيات في التعلم محدودة للغاية، عن طريق قراءة الكتب في مكتبة والدها الذي كان يعمل قسيسًا مستقلا. تزوجت في عام 1764 من جون آدامز، وهو محامي شاب كان على وشك الظهور كواحد من أبرز المدافعين في مجال مقاومة الضرائب البريطانية، وفي نهاية المطاف مدافعًا عن الاستقلال الأمريكي. اصطحبت زوجها خلال حرب الاستقلال بعيدًا في فيلادلفيا وأوروبا لخدمة القضية الأمريكية، ثم تركته لتقيم في منزلهما في ماساشوستس لتربية أطفالهما الأربعة وإدارة مزرعة العائلة. تشكل الرسائل المتبادلة بينهما مجموعة من أبرز المراسلات في التاريخ الأمريكي. خاطبت جون باسم "صديقي العزيز"، ووقعت رسائلها باسم "بورشيا" المستمد من اسم زوجة بروتوس المخلصة في مسرحية شكسبير "يوليوس قيصر". على الرغم من نفيها لأي دور رسمي لها في السياسة، إلا أنها كانت مراقبة ذكية ويقظة للشؤون العامة. لقد كانت حريصة على أن تخبر زوجها بالأحداث التي تقع في ماساشوستس، وقدمت له آراء حول المسائل السياسية، وعندما أصبح أدامز رئيسًا في وقت لاحق، اعتمد على نصيحتها أكثر من اعتماده على أعضاء الوزارة.

وفي مارس (آذار) من عام 1776، وقبل أن يعلن المؤتمر القاري الثاني الاستقلال الأمريكي ببضعة أشهر، كتبت أبيجيل آدامز أفضل الرسائل المعروفة التي أرسلتها لزوجها، والتي بدأتها بالتعليق بشكل غير مباشر على شرور العبودية؛ لقد تساءلت عن من مدى قوة "العاطفة للحرية" التي يمكن أن تكون بين أولئك الذين "اعتادوا على حرمان مواطنيهم منها"، واستمرت في حث المؤتمر عندما وضع "مدونة القوانين" للجمهورية الجديدة إلى "تذكر السيدات"، وحذرت قائلة "سيكون جميع الرجال طغاة إذا استطاعوا"، وأشارت ضاحكة "لن نلزم أنفسنا بأي قوانين إذا لم يكن لنا حق التصويت أو التمثيل".

كان قادة المجتمع في المستعمرات هم الذين بادروا بمقاومة فرض بريطانيا للضرائب، ولكن كما أوضحت رسالة أبيجيل آدامز، فإن النضال من أجل الحرية لأمريكا جرًّا مستعمرين آخرين للمطالبة بمزيد من الحرية لأنفسهم، حيث إن كل الثورات توسع المجال العام وتلهم الجماعات التي كانت مهمشة من قبل للتعبير عن أحلامهم في الحرية؛ وفي الوقت الذي كان فيه معظم الأمريكيين: العبيد، والمرتبطون بالعمل بعقد لمدة، والخدم، والنساء، والهنود، والمتدربين، والرجال من غير الملاك محرومين من الحرية الكاملة، أثار النضال ضد بريطانيا الشك حول الكثير من أشكال السلطة وعدم المساواة.

لم تؤمن أبيجيل آدامز بمساواة المرأة بالرجل بالمعنى الحديث، فقد قبلت الاعتقاد السائد بأن

المسئولية الأساسية للمرأة هي عائلتها، ولكنها استاءت من "السلطة المطلقة" التي يمارسها الأزواج على زوجاتهن، حيث كتبت قائلة "أطالب بإسقاط سلطة الأزواج في استخدامنا كيفما يشاءون" في إشارة خفية للتحكم القانوني للرجال في أجساد زوجاتهم وحقهم في إلحاق العقاب البدني بهن. يحظى خطابها بالتذكر والاستشهاد به على نطاق واسع اليوم، حيث فاقت شهرة رسائلها رد جون آدامز عليها، مما يلقي الضوء على مدى إطلاق الثورة العنان لتحدي جميع أنواع الأفكار الموروثة المتعلقة بالاحترام والسلطة: "لقد قيل لنا إن نضالنا قد خفف من قبضة الحكومة في كل مكان، وأن الأطفال والمتدربين أصبحوا عصاة؛ وأن الاضطرابات قد عصفت بالمدارس والكليات؛ وازدرى الهنود الأوصياء، وزادت وقاحة الزنوج مع أسيادهم." بالنسبة لجون آدامز، كانت هذه الحالة من الاضطراب والثورة والاختلال، بما في ذلك مطالبة زوجته بمزيد من الحرية، بمثابة إهانة للنظام الطبيعي للأشياء؛ وعلى الجانب الآخر، شكل هذا بالنسبة للآخرين جوهر الثورة الأمريكية.

دمقرطة الحرية

حلم المساواة

جرت الثورة الأمريكية على ثلاثة مستويات في وقت واحد، إذ كانت نضالاً من أجل الاستقلال الوطني، مرحلة في معركة عالمية بين الإمبراطوريات الأوروبية لمدة قرن، وصراع حول أي نوع من الأمم ينبغي أن تكون عليه أمريكا المستقلة.

نظرًا لأن هذه الثورة تميزت بتوزيعها للممتلكات على نطاق واسع، وعدم وجود أرستقراطية وراثية تستند إلى أساس قانوني، والكنائس التي أنشئت أقل قوة بكثير مما كانت عليه في بريطانيا، لذلك فإن المستعمرات الأمريكية كانت بمثابة مجتمع ذا إمكانات ديمقراطية عميقة؛ ومع ذلك، كانت بحاجة للنضال حتى يتسنى للاستقلال تحويلها إلى أمة تحتفي بالمساواة والفرص. أطلقت الثورة العنان للمناقشات العامة والنضال السياسي والاجتماعي، مما وسع من نطاق الحرية وحث على تحدي هياكل السلطة الموروثة داخل أمريكا؛ ومع رفض التاج ومبدأ الأرستقراطية الوراثية، رفض العديد من الأمريكيون وجود المجتمع صاحب الامتياز والمحسوبية والأوضاع الثابتة التي تجسدها هذه المؤسسات؛ وللتأكد من ذلك، كان الرجال الذين قادوا الثورة منذ البداية إلى النهاية إلى حد كبير أعضاء من النخبة الأمريكية. لم تصعد الطبقات الدنيا إلى السلطة نتيجة للاستقلال؛ ومع ذلك، فإن فكرة الحرية أصبحت صرخت استنفار للحشد الثوري ومعيارًا يمكن من خلاله الحكم على ومواجهة المؤسسات النابعة من داخل البلاد فضلاً عن المؤسسات الإمبراطورية.

لقد كان تأكيد جيفرسون الذي يبدو للناظر صريحًا في إعلان الاستقلال "كل الناس خلقوا متساوين" بمثابة إعلان لمبدأ راديكالي لم يكن لأحد أن يتوقع تداعياته الكاملة. كان الاعتقاد السائد، سواء في بريطانيا أو في مستعمراتها، أن المجتمع المنظم بشكل جيد يعتمد على طاعة السلطة – المتمثلة في سلطة الحكام على المحكومين، وسلطة الأزواج على زوجاتهن، وسلطة الآباء والأمهات على الأبناء، وسلطة أصحاب الأعمال على الموظفين والمتدربين، وسلطة ملاك العبيد على عبيدهم. كان مبدأ عدم المساواة أساسيًا بالنسبة للنظام الاجتماعي في المستعمرات، ولقد تحدت الثورة هذا المبدأ بالعديد من الطرق؛ ومن ثم أصبحت الحرية الأمريكية مرتبطة منذ ذاك الحين وإلى الأبد بفكرة المساواة – المساواة أمام القانون، والمساواة في الحقوق السياسية، والمساواة في الفرص الاقتصادية، وبالنسبة للبعض المساواة في المرتبة، حتى أن توماس باين كتب قائلاً "عندما أستخدم كلمتي الحرية أو الحقوق، فإني أرغب في أن يفهمني المتلقي على أنني أعني بهما المساواة الكاملة. . . . أرضية الحرية مستوية تمامًا مثل سطح المياه".

التوسع في الأمة السياسية

تقدمت المجموعات التي كانت مهمشة سابقًا بمطالبها من خلال رفع شعارات الحرية والمساواة باعتبارها صرخة استنفار؛ وأصبحت علاقات التبعية والقيود المفروضة على الحرية، التي كانت مقبولة لفترات طويلة، فجأة غير مشروعة – ولا يحاول معظم الرواد الوطنيين فرض مثل هذه الممارسات. تحدى الأمريكيون هيمنة القلة المحظوظة السابقة في مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والدينية. في نهاية المطاف، لم تلغ الثورة الطاعة المستحقة لرؤساء الأسر الذكور من الزوجات والأطفال، ومن عبيدهم في الولايات الجنوبية على الأقل؛ ومع ذلك، كان إضفاء طابع ديمقراطي على الحرية مثيرًا للاهتمام بالنسبة للرجال الأحرار. كان ذلك أكثر تجليًا في مواجهة تقليد حصر المشاركة السياسية على أصحاب الأملاك.

كان لمفهوم "الديمقراطية" عدة معاني في الفكر السياسي في القرن الثامن عشر، أحدها مستمد من كتابات أرسطو الذي عَرَّفَ الديمقراطية بأنها نظام يُحكَم فيه الشعب بأكمله مباشرة؛ وبالرغم من ذلك، كان يُعتَقد أن هذا يعني حكم الغوغاء؛ وثمة تعريف آخر ينظر للديمقراطية باعتبارها صفة للمجتمعات البدائية التي لم تكن مناسبة للعالم الحديث المعقد؛ وأحيانًا ما استخدم المفكرون البريطانيون هذه الكلمة عند الإشارة إلى مجلس العموم ، أي الفرع "الديمقراطي" من الحكومة المختلطة؛ ومع ذلك، كان هناك فهم آخر يتمحور حول بنية الحكومة بشكل أقل من حقيقة أن الحكومة تخدم مصالح الشعب وليس مصالح النخبة. في أعقاب الثورة الأمريكية، توسع نطاق استخدام المفهوم للتعبير عن التطلعات الشعبية لمزيد من المساواة التي ألهم بها النضال من أجل الاستقلال.

"إننا أصبحنا جميعا ساسة، من الإسكافي وحتى عضو مجلس الشيوخ" هكذا أعلن كاتب عمومي في بوسطن في عام 1774. أصبحت الحملات الانتخابية في جميع أنحاء المستعمرات محل مناظرات منفلتة حول أساسيات الحكومة، ولم يعد نقاش الأمور العامة مقصورًا على النخبة المثقفة ولكن كان الحرفيون، وصغار المزارعين، والعمال- الذين صعدوا الآن كعنصر يشعر بذاته في السياسة- يشاركون أيضًا في مناقشات حول الاقتراع العام للذكور والتسامح الديني وحتى إلغاء العبودية. أصبحت المليشيات، في كثير من المستعمرات التي تحولت إلى ولايات، التي تتألف إلى حد كبير من أعضاء "من طبقات دنيا" "مدرسة للديمقراطية السياسية"، وطالبت أعضائها بالحق في انتخاب ضباطهم وأيضًا التصويت في انتخابات الموظفين العموميين، سواء توفرت أو لم تتوفر فيهم شروط العمر والملكية؛ وبذلك خلقت تقليدًا جديدًا مفاده أن الخدمة في الجيش تتيح للفئات المستبعدة المطالبة بالمواطنة الكاملة.

الثورة في بنسلفانيا

تجلت الإمكانات الجذرية للثورة بوضوح في ولاية بنسلفانيا أكثر من أي ولاية أخرى، حيث قامت القيادة القائمة في الولايات الأخرى إما باعتناق الاستقلال بحلول ربيع عام 1776 أو بالانقسام ما بين موالين لبريطانيا وموالين للفصائل المؤيدة للاستقلال (في نيويورك، على سبيل المثال، قررت عائلة ليفنجستون (قائد ثوري ودبلوماسي أمريكي ساعد في صياغة إعلان الاستقلال) ومؤيديهم كوطنيين موالين للاستقلال، في حين قررت عائلة (دي لانسي كموالين لبريطانيا). على الجانب الآخر، عارضت نخبة ما قبل الحرب في بنسلفانيا بالكامل تقريبًا الاستقلال خوفًا من أن يؤدي قطع الروابط مع بريطانيا إلى الحكم من قبل "الرعاع" والاعتداء على الممتلكات.

فتح الفراغ في القيادة السياسية الباب لصعود تجمع جديد مؤيد للاستقلال من الحرفيين والمجتمعات من الطبقة الدنيا في فيلادلفيا، الذين نظموا أنفسهم في لجان خارج نطاق القانون ومن الميليشيات المحلية. اشتملت قائمة قادتهم على توماس باين (مؤلف كتيب "الفطرة السليمة")، وبنيامين راش (الطبيب المحلي)، وتيموثي ماتلاك (نجل صانع البيرة المحلي)، وتوماس يونج (الذي سبق أن اشترك في "أبناء الحرية" في منطقة ألباني وبوسطن). كان هؤلاء الرجال كمجموعة ذوي ثروة متواضعة أخرجتهم من النخبة التجارية، وكانوا ذو نفوذ سياسي قليل قبل عام 1776، وكانوا يؤمنون بقوة في الإصلاح الديمقراطي؛ لقد وصل باين ويانج توًا إلى فيلادلفيا، وقاموا بتشكيل تحالف مؤقت مع مؤيدي الاستقلال في المؤتمر القاري الثاني (ثم اجتمعوا في فيلادلفيا)، والذين عارضوا ايمانهم القوي في المساواة، ولكنهم كانوا يأملون في نقل بنسلفانيا نحو القطيعة مع بريطانيا.

مع توسع المجال العام إلى ما هو أبعد من حدوده السابقة، أصبحت المساواة هي صرخة الاستنفار لاحتشاد الراديكاليين في بنسلفانيا، وهاجموا بشكل خاص شرط الملكية للتأهل للتصويت. استند في ذلك مؤلف مجهول، مؤلف كتيب "الشعب هو أفضل حاكم"، إلى حقيقة أن "الله أعطى الحرية للبشرية كحق طبيعي، وأعلن أن كل رجل يساوي جيرانه، وبالتالي فإن الشعب هو أفضل حارس لحرياتهم"، وأنه يجب أن يكون حق التصويت وتولي الوظائف العامة متاح لكل إنسان حر. في يونيو (حزيران) من عام 1776، حذرت ملصقات موزعة في الأماكن العامة المواطنين من سحب الثقة من "الرجال العظام الأغنياء الناضجين" الذين كانوا يميلون إلى "غرس التمييز في المجتمع". بعد ثلاثة أشهر من الاستقلال، اعتمدت بنسلفانيا دستور جديد للدولة، سعى إلى إضفاء الطابع المؤسسي على الديمقراطية من خلال تركيز السلطة التشريعية في مجلس واحد يُنتَخَب سنويًا من قبل جميع الرجال فوق سن واحد وعشرين عامًا الذين يدفعون الضرائب. وألغى الدستور الجديد منصب المحافظ وشرط الملكية للتأهل لتولي الوظائف العامة، ونص على إنشاء مدارس برسوم منخفضة في كل مقاطعة وتضمن أحكامًا لضمان "حرية التعبير والكتابة" والحرية الدينية.

الدساتير الجديدة

مثل بنسلفانيا، اعتمدت كل ولاية دستورًا جديدًا في أعقاب الاستقلال. وحينذاك كان جميع الأمريكيون تقريبًا يوافقون على أن حكوماتهم يجب أن تكون جمهوريات، وهذا يعني أن سلطاتهم ترتكز على موافقة المحكومين، وأنه لن يكون هناك أي ملك أو أرستقراطية وراثية. كتب باين أن جوهر الجمهورية ليس في "شكل معين" للحكومة ولكن في غرضها: "الصالح العام"، لكن كانت هناك خلافات واسعة بين الولايات فيما يتعلق بكيفية هيكلة الحكومة الجمهورية لتعزيز الصالح العام.

وقد عكس الدستور الجديد لبنسلفانيا الاعتقاد بأنه طالما أن لدى الناس مجموعة واحدة من المصالح، فإنه يكفي لتمثيلهم مجلس تشريعي واحد؛ ومن أجل المواجهة جزئيًا لما اعتبره تطرف مفرط في ولاية بنسلفانيا، نشر جون آدامز في عام 1776 "خواطر حول الحكومة" التي أصر فيها على أن الدساتير الجديدة يجب أن تخلق "حكومات متوازنة"، يعكس هيكلها تقسيم المجتمع بين الأغنياء (الممثلين في مجلس الشيوخ) والرجال العاديين (الذين يسيطرون على المجلس الأدنى)، وأن من شأن الحاكم والقضاء القوي ضمان عدم تعدي أي طبقة اجتماعية على حرية الطبقات الأخرى. وجدت دعوة آدامز لمجلسين تشريعيين صدى في كل الولايات، ما عدا بنسلفانيا، وجورجيا، وفيرمونت، ولكن ولايته فقط "ماساتشوستس"، هي التي أعطت للمحافظ حق الفيتو

(الاعتراض) الفعال ضد القوانين التي يقرها المجلس التشريعي. توصل الأمريكيون إلى قناعة بأن السلطة الملكية المفرطة قد قوضت الحرية البريطانية. لقد استاءوا طويلاً من جهود الحكام المعينين (الذين يمثلون السلطة التنفيذية) لتحدي سلطة الجمعيات التشريعية وفضلوا أن تبقى السلطة مع السلطة التشريعية.

حق التصويت

أثبتت قضية شروط التصويت وتولي الوظائف العامة أنها مثيرة للجدل إلى حد بعيد، فمن ناحية كافح الوطنيون المحافظون ببسالة لإعادة التأكيد على الأساس المنطقي للقيود القديمة لحق التصويت، حيث كان من المثير للسخرية كما كتب أحد مؤلفي الكتيبات الاعتقاد بأن كل مهرج سخيف والميكانيكي الجاهل [الحرفي] استحق أن يكون له رأي في الحكومة، وكذلك جون آدامز، أحد المحافظين في الشئون الداخلية لأمريكا، وراديكالي بالنسبة للاستقلال ويرى أن الحرية والمساواة متعارضتان، وأن الرجال المعدمين لا يستطيعون الحكم بأنفسهم وأن إلغاء شروط الملكية سوف يؤدي بالتالي إلى إرباك وتدمير كافة الفروق وإخضاع جميع الطبقات لمستوى واحد مشترك. بيد أن القضاء على الطبقات الاجتماعية التقليدية، على وجه التحديد، كان هدفًا لعصر الديمقراطيين الراديكاليين، بما في ذلك توماس باين أكثر المروجين المؤثرين للاستقلال.

عكست أحكام الدساتير الجديدة للولايات ميزان القوى بين دعاة التغيير الداخلي وأولئك الذين يخشون من الديمقراطية المفرطة. وظهرت أقل عملية تحول ديمقراطي في ولايات الجنوب التي سمحت تقاليدهم السياسية المحترمة كثيرًا لطبقة الأعيان من الملاك العقاريين بالاحتفاظ بالسيطرة على الشئون السياسية. احتفظت الدساتير الجديدة في فرجينيا وكارولينا الجنوبية بشروط الملكية للتأهيل للتصويت، ورخصت للسلطة التشريعية التي يهيمن عليها طبقة الأعيان اختيار الحاكم. أما بالنسبة لميريلاند، فقد جمعت بين شرط ملكية منخفضة للتأهيل للتصويت مع رفع متطلبات تولي الوظائف العامة، بما في ذلك امتلاك 5.000 جنيه استرليني لتولي وظيفة محافظ، وهو ما يعتبر ثروة حقيقية.

قطعت معظم الدساتير الجديدة شوطًا طويلاً نحو فكرة الديمقراطية كحق من الحقوق وليس كامتياز، ولكنها فشلت عمومًا في جعل حق الاقتراع حق عام، حتى بالنسبة للرجال الأحرار. كان دستور ولاية فيرمونت، الصادر في عام 1777، هو الوحيد الذي يحرر حق التصويت تمامًا من أي اعتبارات مالية، حيث لم يقتصر على إلغاء شرط المليكة، ولكنه ألغى أيضًا شرط أن يدفع الناخبون ضرائب. لم يعد دستور بنسلفانيا يتطلب شرط الملكية، لكنه احتفظ بشرط دفع

الناخبين ضرائب؛ ونتيجة لذلك، فإنه يعطي حق الاقتراع لجميع سكان الولاية من الذكور الأحرار تقريبًا لكنه ترك عدد قليل، معظمهم من الفقراء المعدمين وخدم المنازل، بدون أن يمنحهم حق التصويت؛ وبالرغم من ذلك، حتى مع اشتراط دفع الضرائب، فإنه يمثل انحرافًا كبيرًا عن الممارسة السائدة في المستعمرات من تقييد حق الاقتراع لمن يستطيع أن يدعي أنه مستقل اقتصاديا؛ كذلك ارتفعت "الحرية الشخصية" على حد تعبير أحد كتَّاب المقالات إلى مركز أكثر أهمية من الملكية في تحديد حدود الأمة السياسية.

دمقرطة الحكومة

وبشكل عام، فقد أدت الثورة إلى التوسع الكبير في حق التصويت، فبحلول الثمانينيات من القرن الثامن عشر، كانت تستطيع الغالبية العظمى من السكان الذكور البالغين البيض الوفاء بشروط التصويت- مع استثناء فرجينيا، وميريلاند، ونيويورك. منح الدستور الجديد لولاية نيو جيرسي لعام 1776 حق الاقتراع لجميع "السكان" الذين تتوافر فيهم شرط الملكية، وحتى قيام الولاية بإضافة كلمة "ذكر" (بجوار كلمة "أبيض) في عام 1807، لم تكن النساء اللاتي تتوافر فيهن شرط الملكية، ومعظمهن من الأرامل يدلين بأصواتهن. توسعت الدساتير الجديدة أيضًا في عدد المقاعد التشريعية، مما يعني تولي العديد من الرجال من ذوي الملكية الأقل وظائف سياسية. بالطبع، استمر الجدل حول حق الاقتراع لعدة عقود؛ وبالنسبة للرجال البيض، لم تتخذ عملية التحول الديمقراطي مجراها حتى عصر جاكسون؛ وكان الأمر يستغرق وقتًا أطول بالنسبة للنساء وغير البيض.

ومع ذلك، أصبحت الحرية وحق الفرد في التصويت مترادفان لغويان حتى أثناء الثورة في اللغة الشعبية للسياسة، وإن لم يكن في القانون. أعلن التماس مواطني كارولينا الجنوبية المجردين من حق الاقتراع الصادر في عام 1776 أن "حق الاقتراع" "حق أساسي لا يتجزأ عن الحرية"، ولا يمكن للأمريكيين أن يتمتعوا "بحرية متساوية" بدون هذا الحق. رفضت أغلبية المدن دستور جديد مقترح للولاية في عام 1778، ويرجع ذلك لأنه يحتوي جزئيًا على شرط الملكية للتصويت ويحرم غير المالكين من التصويت، وأعلنت بلدة لينوكس أن "جميع البشر ولدوا أحرارًا ومستقلين على قدم المساواة". كيف يمكن أن يدافعوا عن "حياتهم وحريتهم وملكيتهم" بدون صوت في انتخاب الموظفين العموميين؟ تمت الموافقة في عام 1780 على مشروع لدستور جديد يحتفظ أيضًا بشروط أساسية للتصويت في انتخابات الولاية، ولكنه يسمح فعليًا لجميع الرجال بالتصويت في اختيار كبار المسئولين بالمدينة. اشترطت كل ولاية، باستثناء كارولينا الجنوبية، إجراء انتخابات تشريعية سنوية لضمان أن يظل الممثلون تحت مراقبة ومساءلة الناس عن كثب؛ وهكذا أصبحت الحرية

السياسية لا تعني فقط حق الشعب في اختيار حكامه، كما في الماضي، ولكن أيضًا حق الفرد في المشاركة السياسية.

نحو التسامح الديني

بقدر ما كان التوسع في الحرية السياسية رائعًا، كان كذلك أثر الثورة على الدين في أمريكا. كما أعلن أحد مواطني فرجينيا، كان التسامح الديني جزءًا من "القضية المشتركة للحرية". أما في بريطانيا، فقد استعان المنشقون – أي البروتستانت الذين ينتمون إلى طوائف أخرى غير الكنيسة الإنجيلية – بلغة الحرية في السعي لإلغاء القوانين التي فرضت مختلف المعوقات على غير الإنجيليين. (بيد أن قلة فقط بما فيهم الكاثوليك هم الذين طالبوا بالحرية الدينية.) لقد رأينا بالفعل أن بعض المستعمرات، مثل رود آيلاند وبنسلفانيا، قد مارست التسامح منذ فترة طويلة، ولكن حرية العبادة قبل الثورة نشأت من واقع التعددية الدينية أكثر منها من نظرية متطورة بشكل جيد للحرية الدينية؛ وبالإضافة إلى رود آيلاند، كان لدى نيو إنجلاند تجربة محلية صغيرة من التعددية الدينية؛ وفي الحقيقة، أحيانًا ما ضغطت السلطات في إنجلترا على حكام المنطقة ليصبحوا أكثر تسامحا؛ وفي فترة ما قبل الثورة، دعمت معظم المستعمرات المؤسسات الدينية بالأموال العامة ومارست التمييز في حق التصويت والتعين في الوظائف العامة ضد الكاثوليك واليهود وحتى البروتستانت المنشقين. كان المعمدانيون الذين رفضوا دفع الضرائب لدعم القساوسة المحليين لا يزالون مسجونين في ماساشوستس حتى عشية الاستقلال؛ لقد علق ضحايا عدم التسامح الديني قائلين "بينما تسعى بلادنا بقوة من أجل الحرية وتدافع عنها، إلا أنهم ينكرون هذا الحق على جيرانهم."

الأمريكيون الكاثوليك

أضعفت حرب الاستقلال التقليد الأمريكي العميق المعادي للكاثوليكية، فقد ندد المؤتمر القاري الأول بقانون كيبيك لعام 1774 الذي كما لوحظ في الفصل السابق سمح للكنديين الكاثوليك بحرية العبادة كجزء من مؤامرة لإنشاء "بابوية" في شمال أمريكا، ولكن بعد عام واحد عندما اتخذ المؤتمر القاري الثاني قراره بشأن الغزو المنحوس لكندا، فإنه دعا سكان كيبيك للمشاركة في النضال ضد بريطانيا، بافتراض أن البروتستانت والكاثوليك يمكن أن يتعاونوا بسهولة؛ ومع ذلك، فضلت كيبيك ذات الأغلبية الكاثوليكية السائدة أن تحكمها لندن من بعيد بدلاً من بوسطن أو فيلادلفيا. في عام 1778، شكلت الولايات المتحدة تحالفًا مع فرنسا الدولة الكاثوليكية. هذا وقد برر بنديكت أرنولد خيانته جزئيًا بقوله إن التحالف مع "عدو العقيدة البروتستانتية" أكثر من أن يستطيع تحمله" ولكن المساعدة التي لا غنى عنها التي تقدمها فرنسا

للفوز الأمريكي عززت فكرة أن للكاثوليك دورًا ليلعبوه في الدولة المستقلة حديثا. في الحقيقة، يمثل هذا خروجًا بارزًا عن المفهوم التقليدي بأن حقوق الإنجليزي الكاملة يتم تطبيقها فقط على البروتستانت. عندما قام أول أسقف أمريكي روماني كاثوليكي "جيمس كارول" من ميريلاند بزيارة بوسطن في عام 1791، لاقى ترحيبًا وديا.

مؤسسو الدولة الجديدة والدين

أثارت نهاية الحكم البريطاني على الفور الشكوك حول الوضع المتميز الذي تتمتع به الكنيسة الإنجيلية في العديد من المستعمرات، على سبيل المثال، طالب المزارعون الاسكتلنديون – الأيرلنديون أتباع الكنيسة المشيخية (جماعات سياسية إنجليزية التي تشكلت خلال الحرب الأهلية، وهي عادة تؤكد سيادة الله وسلطة الكتب المقدسة وضرورة التسامح من خلال الإيمان بالمسيح) بالمناطق الريفية النائية بولاية فرجينيا بالإعفاء من الضرائب التي تدعم الكنيسة الإنجيلية الرسمية، وقرر أحد اجتماعاتهم الوطنية "إن حرية ممارسة حقوقنا الدينية" تشكل جزءًا أساسيًّا من "حرياتنا".

اعتبر العديد من قادة الثورة أنه من الضروري بالنسبة للأمة الجديدة أن تحمي نفسها من العواطف الجامحة والصراعات العنيفة التي أثارتها الاختلافات الدينية على مدى القرون الثلاثة الماضية. كان رجال مثل توماس جيفرسون، وجون آدامز، وجيمس ماديسون، والكسندر هاملتون يعتقدون أن الدين ضروري كأساس للأخلاق العامة، ولكنهم كانوا يرون المذاهب الدينية من منظور التنوير القائم على تحكيم العقل ومذهب التشكك؛ وكانوا يؤمنون بخالق خَيِّر، ولكنهم لا يؤمنون بالتدخلات الخارقة في شؤون البشر. كتب جيفرسون نسخة من الكتاب المقدس وحياة عيسى (يسوع) حيث أصر على أنه في حين أن يسوع قد عاش حياة أخلاقية بعمق، إلا أنه لم يكن إله ولم يقم بعمل أي معجزات. في مناقشة للتاريخ الطبيعي لجبال ريدج الزرقاء (مجموعة من جبال الأبلاش تمتد من جنوب ولاية بنسلفانيا إلى شمال جورجيا بارتفاع يصل إلى 2038.6 متر) في كتابه "مذكراته عن ولاية فرجينيا"، ورفض فيه التفسير الذي أوردته التوراة عن الخلق متحيزًا للتفسير العملي الذي يرى أن الخلق مر بعملية طويلة من التغيير الجيولوجي.

الفصل بين الكنيسة والدولة

جمعت الحملة لفصل الكنيسة عن الدولة بين الربانيين (الذين يؤمنون بالله الواحد دون الإيمان بالوحي) مثل جيفرسون، الذي كان يأمل في إقامة "جدار الفصل" الذي من شأنه أن يحرر العمل السياسي وممارسة الفكر من السيطرة الدينية، وبين أعضاء الطوائف الإنجيلية الذين سعوا إلى حماية الدين من اعتناق الحكومة الفاسد. واصل الزعماء الدينيين التمسك بالتعريف التقليدي

للحرية المسيحية - الاستسلام لمشيئة الله والعيش في حياة أخلاقية - ولكنهم شعروا على نحو متزايد أنه يمكن تحقيق هذا بدون دعم من الحكومة، كما وصف ذلك الزعيم المعمداني إسحق باكوس "ملكوت المسيح ليس في هذا العالم".

تلقى التحرك نحو الحرية الدينية زخمًا كبيرًا خلال الحقبة الثورية، حيث فككت الولايات في جميع أنحاء الدولة الجديدة الكنائس التي كانت موجودة بها، بمعنى أنها حرمتهم من التمويل العام والامتيازات القانونية الخاصة - على الرغم من تخصيص المال في بعض الحالات للدعم العام للطوائف البروتستانتية؛ لقد أعلنت جميع دساتير الولايات السبعة، والتي بدأت بالإعلان الخاص بالحقوق، عن الالتزام "بحرية ممارسة الأديان".

ولا ريب أن كل الولايات قد احتفظت بأحكام استعمارية تحظر على اليهود التصويت وشغل المناصب العامة - وذلك باستثناء نيويورك التي أسس دستورها لعام 1777 مبدأ الحرية الدينية الكاملة. قصرت سبع ولايات حق تولي الوظائف العامة على البروتستانت فقط. احتفظت ماساتشوستس حتى القرن التاسع عشر بمؤسستها الكنسية، وكانت كل كنيسة تتمتع بالحكم الذاتي، وأعلن دستورها الجديد الحضور الإجباري للكنيسة مع ضمان الحرية الفردية في العبادة، وأنها لن توقف الدعم المالي العام للمؤسسات الدينية حتى عام 1833؛ ومع ذلك، اكتسب الكاثوليك في جميع أنحاء البلاد حق العبادة بدون اضطهاد. استعاد دستور ولاية ميريلاند في عام 1776 للسكان الكاثوليك، الذين يمثلون نسبة كبيرة فيها، الحقوق المدنية والسياسية التي حُرِمُوا منها لمدة قرن تقريبا.

جيفرسون والحرية الدينية

أعد "توماس جيفرسون" مشروع قانون لتأسيس الحرية الدينية وتم عرضه على "مجلس المواطنين" في عام 1779، والذي أقره في عام 1786 بعد جدل كبير، ثم كتب "جيفرسون" في وقت لاحق قائلاً "لقد أقسمت في الهيكل بالكنيسة على العداء الأبدي لكل شكل من أشكال الاستبداد والطغيان على عقل الإنسان"، فكان يرى أن الكنائس القائمة تعد مثالاً كبيرًا للاستبداد، وكما يكشف بيانه هذا، كان يعتقد أن الحرية الدينية من مشيئة الله؛ وألغى مشروع هذا القانون، الذي تضمن في ديباجته أن الله "قد خلق العقل حرًا"، الشروط الدينية المؤهلة للتصويت ولشغل الوظائف العامة، وكذلك إلغاء الدعم المالي الحكومي للكنائس وحظر على الدولة "إرغام" الأفراد على تبني أحد الرؤى الدينية، وقد أدرج في نهاية حياته هذا الإجراء، بالإضافة إلى إعلان الاستقلال وتأسيس جامعة "فرجينيا" باعتبارهم إنجازاته الثلاثة التي كان يرغب أن يتذكره الناس من خلالهم (مستبعدًا رئاسته للولايات المتحدة الأمريكية لمدتين).

أصبحت الحرية الدينية نموذجًا لتعريف الجيل الثوري "للحقوق" بأنها الشئون الخاصة التي يجب حمايتها من التدخل الحكومي؛ وفي دولة ذات أغلبية مسيحية ساحقة (وإن لم تكن تذهب بالضرورة للكنيسة)، رسم الفصل بين الكنيسة والدولة خطًا حادًا بين السلطة العامة وعالم يُعْرَف بأنه "خاص"، مُدعِّمًا لفكرة أن وجود الحقوق توجد كقيود على سلطة الحكومة، وقدم أيضًا مبررًا جديدًا لفكرة أن الولايات المتحدة منارة للحرية. نجح "جيمس ماديسون" في معارضة ضريبة "فرجينيا" المخصصة للدعم العام للكنائس المسيحية، وأصر على أن أحد أسباب الفصل التام بين الكنيسة والدولة هو تعزيز مبدأ أن الأمة الجديدة تقدم "ملاذًا للمضطهدين والمظلومين من أي دولة ومن أي ديانة".

الثورة والكنيسة

وهكذا عززت الثورة تنوع المسيحية الأمريكية ووسعت فكرة الحرية الدينية، ولكن حتى مع توفير الفصل بين الكنيسة والدولة لحيز اجتماعي وسياسي يسمح لجميع أنواع المؤسسات الدينية أن تزدهر، إلا أن ثقافة الحقوق الفردية التي كان هذا الفصل جزءًا منها هددت بتقويض سلطة الكنيسة.

تعد تلك التجربة التي مر بها "الإخوة مورافيا"، الذين كانوا قد هاجروا من ألمانيا إلى ولاية "كارولينا الشمالية" عشية الاستقلال، بمثابة أحد الأمثلة على ذلك، حيث أصر الأعضاء الشباب في المجتمع، مثل الكثير من الأمريكيين الآخرين من الجيل الثوري، على تأكيد "حريتهم المزعومة وحقوق الإنسان"، مما أثار استياء شيوخ "مورافيا" لأن بعض هؤلاء الشباب أصبحوا جامحين ومشاغبين ورفضوا الانصياع لأوامر قادة المدينة، ورفض العديد منهم تقاليد المجتمع في زيجات الصالونات التي ترتبها العائلات، وأصروا على اختيار أزواجهن وزوجاتهم بأنفسهن. كانت فكرة الحرية الفردية بالنسبة لكبار السن الذين يسمونها استخفافًا "الحرية الأمريكية" أكثر قليلاً من "فرصة للإغراء"، وتهديدًا لروح التضحية بالنفس والولاء المجتمعي الضروريين للحرية المسيحية.

بالرغم من هذه المخاوف، لم تنه الثورة تأثير الدين على المجتمع الأمريكي، بل العكس هو الصحيح إلى حد بعيد، حيث تعلمت الكنائس الأمريكية، على حد تعبير أحد زعماء الحركة المشيخية، التكيف من أجل التعايش في الوقت الذي "سادت فيه روح الحرية." شهدت الجمهورية الوليدة بفضل الحرية الدينية انتشارًا مذهلاً للطوائف الدينية. وجدت الكنائس الإنجيلية الأكثر رسوخا - الإنجيلية والمشيخية والمستقلة (أحد طوائف الكنيسة البروتستانتية التي تلزم أتباعها بحكم النفس) - نفسها تتعرض باستمرار لمواجهة حديثي النعمة مثل المعمدانيين المنادون بحرية الإرادة وأتباع مذهب الخلاص، وبالرغم من استمرار الجدل حتى اليوم حول العلاقة الصحيحة بين

السلطة الروحية والسلطة السياسية، تُمارس أكثر من 1.300 ديانة في الولايات المتحدة.

جماعة المواطنين الفضلاء

على الرغم من الفصل بين الكنيسة والدولة، لم يكن قادة المستعمرات معادين للدين، حيث كان معظمهم مسيحيين ملتزمين، وحتى الربانيين منهم الذين يؤمنون بالله وحده دون الوحي ولا يحضرون أي مناسك في الكنيسة المنظمة، وكانوا يؤمنون بأن القيم الدينية عززت الصفات الأخلاقية الضرورية لازدهار الجمهورية. واصلت السلطة العامة دعم القيم الدينية من خلال القوانين التي تحظر شغل المناصب العامة على غير المسيحيين، ومواصلة محاكمة الكافرين والملحدين ومنتهكي قدسية يوم السبت، حتى أن الدستور الديمقراطي الجديد لولاية "بنسلفانيا" تطلّب من المواطنين الاعتراف بوجود الله، وأصدرت أوامرها للسلطة التشريعية لسن "قوانين لمنع الرذيلة والفجور، وبالفعل أخذ المشرعون في ولاية "بنسلفانيا" هذا التفويض على محمل الجد في القرن التاسع عشر تماما، حتى أن الولاية اشتهرت بقوانينها لمحاربة التجديف وعدم تقديس يوم السبت، واشتهرت في الحقبة الاستعمارية بالحرية الدينية.

وقد شعر الزعماء الوطنيون بالقلق بشأن طبيعة وشخصية مواطني المستقبل، ولا سيما كيفية تشجيع صفة "الفضيلة" والقدرة على التضحية بالمصلحة الخاصة من أجل الصالح العام، ولذلك طرح بعضهم، مثل "جيفرسون" و"جون آدامز" و"بنيامين روش"، خططا لإنشاء مدارس عامة حرة مدعمة من قبل الدولة، لـ"تُعلِم مواطني المستقبل ما أسماه "آدامز" "بمبادئ الحرية" وإعدادهم للمشاركة في المجال العام المتسع على نحو متزايد وللانتخاب الحكيم لممثليهم. كان النشر الواسع للمعارف ضروري لتشكيل حكومة على أساس إرادة الشعب من أجل بقاء أمريكا ولتفاديها للبنية الطبقية الأوروبية الثابتة، وقد كتب "جيفرسون" قائلاً "لا توجد أي دولة تتوقع أن تكون جاهلة وحرة".

تعريف الحرية الاقتصادية

نحو عمالة حرة

أعادت الثورة تعريف الحرية في الشئون الاقتصادية وكذلك السياسية والدينية. كانت العبودية في أمريكا الاستعمارية جزءًا من مجموعة واسعة من أنواع العمالة غير الحرة، ولكن جيل ما بعد الاستقلال شهد اختفاء مواقع منتصف الطريق بين العبودية والحرية، على الأقل بالنسبة للرجال البيض، وكان لهذا الانخفاض السريع في أشكال العمل هذه أسباب كثيرة مثل توفر التدريب المهني وتحول الخدمة المنزلية بأجر إلى مهنة للسود والبيض من الإناث، وأصبح

العمل بأجر أكثر توافرًا مع انتهاء العمل بعقود محددة المدة وانتهاز أعداد كبيرة من الموظفين والمتدربين الاضطرابات التي صاحبت الثورة للهروب من أسيادهم.

ساهمت ديمقراطية الحرية في إحداث التغييرات، حيث تنامت على نحو متزايد فكرة أن غياب الحرية الحقيقية في التلمذة في التدريب المهني وفي العبودية، يجعل من الممكن النظر لهذه الأشكال من العمل باعتبارها تتنافى مع المواطنة الجمهورية، حتى أن أحد الشباب الملتحقين بالتدريب المهني في مزرعة في "ماساتشوستس"، ويُدْعَى "أبنزر فوكس"، سرد في وقت لاحق كيف أنه وغيره من الشباب "قد قاموا بالتطبيق المباشر للمذاهب التي نسمع عنها يوميًا فيما يتعلق بقمع البلد الأم (إنجلترا) على ظروفنا . . . . ووجدنا أننا ظلمنا أنفسنا ظلمًا كبيرا بالبقاء في العبودية، بينما كان يجب أن نكون أحرارا"، وهكذا أصبح "فوكس" أحد العديد من المتدربين الذين قرروا الهرب خلال الثورة أو على حد تعبيره "أحرر نفسي" وبالفعل فر مع أحد أصدقائه في عشية معارك "ليكسينجتون" و"كونكورد" في عام 1775 متجهين إلى "رود آيلاند" وبعد العمل لفترة وجيزة كبحار، انضم إلى الجيش القاري وكان لا يزال مراهقًا آنذاك.

أطلقت مجموعة "محترمة" من سكان نيويورك سراح حمولة باخرة من موظفي الخدمة بعقود لمدة محددة كانت قد وصلت حديثًا في عام 1784، على أساس أن وضعهم كان "على العكس من. . . فكرة الحرية التي أسسها هذا البلد من حسن حظه، وبحلول عام 1800، كانت الخدمة بعقود لمدة محددة قد اختفت من كل الولايات المتحدة، مما شحذ التمييز بين الحرية والعبودية وبين اقتصاد ولايات الشمال التي تعتمد على ما سيطلق عليه اسم "العمل الحر" (بمعنى العمل بأجر أو امتلاك مزرعة أو متجر) وبين اقتصاد ولايات الجنوب التي كانت تعتمد أكثر من أي وقت مضى على العمالة من العبيد.

روح الجمهورية

انشغل الأمريكيون من الجيل الثوري بالظروف الاجتماعية للحرية، وتساءلوا عما إذا كان يمكن بقاء جمهورية ما على قيد الحياة بطبقة كبيرة من المواطنين تابعة. تباينت الإجابات، ففي حين أعلن رجل التربية والتعليم والمحرر الصحفي "نوح وبستر" أن "التوزيع العام والمتكافئ بشكل يمكن تقبله للملكة العقارية يمثل الأساس الكلي للحرية الوطنية"، وأضاف أن "المساواة هي روح الجمهورية، فهي تفوق في الأهمية حرية الصحافة والمحاكمة أمام هيئة محلفين وغيرهما من "رموز الحرية"، وحتى أن شخصية محافظة مثل "جون آدامز"، الذي لم يكن يثق في تصاعد الديمقراطية في تلك الحقبة، كان يأمل في أن يتمكن كل فرد من أفراد المجتمع من الحصول على الأراضي، "بحيث تصبح الأغلبية مالكة لعقارات صغيرة" وتستطيع الدولة الجديدة تجنب ظهور الطبقات

الاجتماعية الثابتة وغير المتكافئة، بينما رأى بعض الوطنيون على حافة الجانب الراديكالي للثورة أنه يقع على الحكومة مسئولية الحد من تراكم الملكية باسم المساواة، في حين يرى معظم الأمريكيين الأحرار أن "المساواة" تعني تكافؤ الفرص وليس المساواة في الأوضاع والظروف، وأخيرًا يفترض العديد من قادة الثورة، مع ذلك، أنه في الظروف الاستثنائية للعالم الجديد بمناطقه الشاسعة والأراضي المتاحة والعدد الكبير من المزارعين والحرفيين المستقلين، فإن آليات المجتمع الطبيعية ستنتج العدالة، والحرية، والمساواة بدون الحاجة إلى تدخل حكومي.

كان يعتقد "توماس جيفرسون"، مثل العديد من الأمريكيين الآخرين من أبناء جيله، أن غياب الموارد الاقتصادية يعني غياب الحرية. كان "جيفرسون" يحبذ فكرة الدولة المحدودة، لكنه يعتقد أيضًا أن الحكومة يمكن أن تساعد في خلق الإطار المؤسسي للحرية. اشتملت إنجازاته الأكثر مدعاة لفخره على استصدار قوانين أقرتها "فرجينيا" تلغي وقف الميراث إلى ورثة معينين للحفاظ على العقارات داخل الأسرة والبكورية، أي تمرير أراضي العائلة بالكامل إلى الابن البكر، لأنه كان يعتقد أن هذه القوانين من شأنها أن تساعد على منع ظهور "الطبقة الأرستقراطية في المستقبل"، وقد اقترح وسيلة أخرى تستطيع الحكومة من خلالها تحقيق نفس هذه الغاية، وبالتالي تعزيز حرية رعاياها بأن تمنح خمسين فدانًا من الأراضي "لكل شخص بالغ سن الرشد" لا يمتلك بالفعل مثل هذه المساحة؛ ومن دواعي السخرية، أن الأرض التي كان يرى "جيفرسون" أنها ستضمن الحرية الأمريكية كان لابد أن تأتي من الهنود.

سياسات التضخم

دفعت الثورة إلى الصدارة المناقشات السياسية حول ما إذا كان ينبغي للسلطات المحلية أو الوطنية اتخاذ خطوات لتعزيز الاستقلال المنزلي وحماية معايش الأمريكيين عن طريق الحد من ارتفاع الأسعار، وقد شحذ هذا الجدل ما شهدته البلاد خلال فترة الحرب من زيادة هائلة في الأسعار نتيجة اضطرابات اقتصادية وإصدار الكونجرس لمئات الملايين من الدولارات في شكل نقود ورقية لتمويل الحرب بالتزامن مع اضطراب الزراعة والتجارة وكذلك اكتناز البضائع من قبل بعض الأمريكيين الذين يأملون في الاستفادة من نقص العرض خلال هذه الفترة. لقد اتهمت رسالة إلى صحيفة "فيلادلفيا" في عام 1778 بأن "البلاد على حافة الخراب والدمار بسبب الممارسات الشائنة من قبل المحتكرين، وحذر الكاتب من أن "الجوع سيخترق الجدران الحجرية".

وشهدت الفترة ما بين عامي 1776 و 1779 أكثر من ثلاثين حادث مواجهة بين الجماهير والتجار لاتهام الجماهير للتجار بحجب البضائع الشحيحة عن السوق وكثيرًا ما استولت الجماهير على الأرصدة المخزونة من المواد الغذائية وباعتها "بالسعر العادل" التقليدي، وهو شكل

من أشكال الاحتجاج الشائعة في إنجلترا في القرن الثامن عشر، وفي أحد هذه الحوادث، اتهم حشد من 100 امرأة في ماساتشوستس تاجرًا "بارزًا ثريًا بخيلاً" باكتناز البن وفتحوا مستودعه واستولوا على السلعة، وقد كتبت "أبيجيل أدامز" وهي تحكي هذه الحادثة قائلة "وقف حشد كبير من الرجال مندهشين وصامتين أمام هذا المشهد."

النقاش حول التجارة الحرة

نظرًا لارتفاع معدلات التضخم التي خرجت عن نطاق السيطرة تماما (على سبيل المثال قفزت الأسعار في فيلادلفيا بنسبة 45 في المائة خلال شهر واحد)، لذلك حث الكونجرس الولايات في عام 1779 على تبني تدابير لإصلاح الأجور والأسعار، وقد جسدت تلك السياسة الاعتقاد بأن مهمة الحكومة الجمهورية هي تعزيز الصالح العام وليس المصالح الذاتية للأفراد، وقد ظهرت تعليقات مريرة في الصحافة في فيلادلفيا حول إنفاق النخبة في المدينة لمبالغ ضخمة على "عشاء عام وغيره من مظاهر البذخ والإسراف في حين أن العديد من سكان المدينة كانوا معدمين ومحرومين من ضروريات الحياة"، ولكن عندما حاولت لجنة السلامة فرض الرقابة على الأسعار واجهت معارضة حادة من التجار وغيرهم من دعاة السوق الحرة.

جادل أنصار حرية التجارة في سياق معارضتهم لوجهة النظر التقليدية التي تقضي بأنه يجب على الأشخاص التضحية بالمصالح الذاتية من أجل الصالح العام، وأن التنمية الاقتصادية نشأت مدفوعة بالمصالح الاقتصادية الذاتية، فكما كشف نيوتن عن أن الكون الطبيعي يخضع لآليات داخلية لا تتغير يسير وفقا لها، كذلك فإن العالم الاجتماعي يخضع لقوانين طبيعية لا تتغير يسير وفقا لها، من بينها أن قوى العرض والطلب هي التي تنظم أسعار السلع. شهدت تلك الفترة أيضًا ظهور أطروحة "آدم سميث" العظيمة في علم الاقتصاد بعنوان "ثروة الأمم" التي نُشِرَت في إنجلترا في عام 1776 وبدء انتشارها في الولايات المتحدة، وذكر فيها أن "اليد الخفية" للسوق الحرة توجه الحياة الاقتصادية على نحو أكثر فاعلية وعدلاً من التدخل الحكومي، وقد عززت هذه الرؤية بالحجج الفكرية أولئك الذين يعتقدون أنه ينبغي ترك الاقتصاد ينظم نفسه.

كان دعاة الاستقلال يرون أن الاستقلال سيحرر أمريكا من قوانين الملاحة البريطانية، ويسمح لها بالتجارة بحرية مع كل العالم، في حين كان معارضو الرقابة على الأسعار ينادون بالتجارة الحرة مع الوطن الأم في إنجلترا أيضا، وقد كتب أحد التجار قائلا "دعوا التجارة حرة كالهواء، ودعوا الحرية الطبيعية" تنظم الأسعار؛ إننا هنا أمام اثنين من المفاهيم المتنافسة حول الحرية الاقتصادية؛ يرتكز أحدهما على أساس النظرة التقليدية بأنه ينبغي إعطاء أولوية للصالح العام ومصالح المجتمع على حقوق الملكية للأفراد والمصالح الذاتية الخاصة، بينما يرى المفهوم

الآخر أن الحرية الاقتصادية غير المنظمة ستولد الوئام الاجتماعي والصالح العام. اكتسب المفهوم الأخير صعودًا بعد عام 1779، حيث أصبح تاجر ومصرفي "فيلادلفيا" "روبرت موريس" مديرًا للسياسة المالية في الكونجرس في عام 1780 مما أدى إلى توقف الجهود على مستوى الحكومة الاتحادية والولايات لتنظيم الأسعار، ولكن هذا لم يمنع من استمرار الصدام بين هذين المفهومين للحرية الاقتصادية لفترة طويلة بعد تحقق الاستقلال.

وقد ناشد عضوًا في المجلس التشريعي في "كارولينا الجنوبية" زملائه في عام 1777 قائلا "استسلموا لتيار الحرية الأمريكية الجارف"، فهذا التيار لم يقتصر فقط على إزاحة السلطة البريطانية ولكنه اكتسح أيضًا مبدأ توريث الحكم، وامتيازات الكنائس القائمة، والعادات المتأصلة لزمن طويل من إذعان الاحترام والتسلسل الهرمي والحدود القديمة على الأمة السياسية؛ وبالرغم من ذلك، واجه تيار الحرية بعض العقبات في مناطق أخرى لم تستسلم بسهولة لاندفاعه القوي.

حدود الحرية

المستعمرون الموالون

لم يتقاسم جميع الأمريكيون دمقرطة الحرية التي جلبتها الثورة الأمريكية، حيث كان الموالون- الذين احتفظوا بولائهم للتاج البريطاني- يرون أن الصراع وتداعياته يمثل خسارة للحرية، وكان العديد من رواد الموالين قد دعموا المقاومة الأمريكية في الستينيات من القرن الثامن عشر، ولكنهم تراجعوا أمام احتمال الاستقلال والحرب، وضم الموالون بعض من أبرز الأمريكيين وكذلك بعض من أكثرهم تواضعا؛ فقد ظل نحو ما يتراوح بين 20 إلى 25 في المائة من الأمريكيين الأحرار مواليين للبريطانيين، وقاتل حوالي 20.000 ألف منهم في صفوفهم، حتى أن عدد الموالين الذين كانوا يخدمون البريطانيين قد فاق في مراحل معينة من الحرب عدد جيش "جورج واشنطن".

كان هناك موالون في كل مستعمرة، ولكنهم كانوا الأكثر عددًا في "نيويورك"، وولاية "بنسلفانيا"، والضواحي الخلفية والريفية من "كارولينا الشمالية والجنوبية" و"جورجيا"، وكان بعضهم من الرجال الأثرياء الذين يعتمدون في سبل العيش على علاقات العمل الوثيقة مع بريطانيا، مثل المحامين، والتجار، ورجال الدين الإنجيليين، وموظفي الإمبراطورية في أمريكا، وكان العديد من هؤلاء يخشى الوقوع في براثن الفوضى في حال الانتصار على بريطانيا، وقد كتب أحدهم قائلا "لن يكون هناك وجود للحرية دون طاعة للقوانين."

وفاق الكفاح من أجل الاستقلال من التوترات القائمة بالفعل بين الجماعات العرقية والطبقات الاجتماعية داخل المستعمرات، حيث كان بعض الموالين من الأقليات العرقية مثل الأسكتلنديين في مرتفعات ولاية "كارولينا الشمالية" يخشون تعدي الأغلبية المحلية على حريتهم في التمتع بالاستقلال الثقافي، في حين وقف في صفوف البريطانيين أيضًا العديد من مزارعي الأحياء الخلفية في الجنوب الذي كانوا قد استاءوا طويلاً من هيمنة المزارعين الأثرياء على الشئون العامة، وفعل ذلك أيضًا مستأجرو عقارات نيويورك المملوكة لكبار الملاك الوطنيين مثل عائلة "ليفينجستون"، وكان "روبرت ليفينجستون" قد وقَّع على إعلان الاستقلال، ولذلك عندما اقترب الجيش البريطاني بقيادة الجنرال "بيرجوين" من عزبة "ليفينجستون" في عام 1777، تمرد المستأجرون ضد "ليفينجستون" على أمل أن يقوم البريطانيون بمصادرة أرضه وتوزيعها عليهم، ولكن تبددت آمالهم بعد هزيمة "بيرجوين" في "ساراتوجا"، وأخيرًا انحاز العديد من العبيد في الجنوب للبريطانيين على أمل أن هزيمة أمريكا ستجلب لهم الحرية.

مأزق الموالين للإنجليز

كانت حرب الاستقلال في بعض جوانبها حربًا أهلية "بين الأمريكيين، وقد كتب العقيد الألماني الذي كان يقاتل مع البريطانيين "هذا البلد هو مسرح الأحداث الأشد قسوة فالجيران يقفون على طرفي النقيض والأطفال يقفون ضد آبائهم"، وغالبًا ما تقع حرية التعبير ضحية للحرب وكان العديد من الأمريكيين محرومين من الحقوق الأساسية باسم الحرية، فبعد أن تحدث الدكتور "أبنير بيب" بشرق "هدام" بولاية "كونيتيكت" لصالح البريطانيين "بحرية كبيرة"، هاجم أحد الغوغاء منزله ودمر طاحونة القمح واعتدى على "بيب" شخصيًا وجرده من ملابسه وصب عليه القطران الساخن"، وقامت حكومات الولايات الجديدة، أو في حالات أخرى حشود من الوطنين، بقمع الصحف التي يعتقدون أنها موالية لبريطانيا.

اعتقلت "بنسلفانيا" أعضاء الكويكرز، والمينونايت (أحد طوائف البروتستانتية الرافضة للعنف والقائلة بوجوب تجديد العماد والمنكرة لوجوب تعميد الأطفال) والمورافية (أحد طوائف البروتستانتية نشأت في ساكسوني في عام 1722) وصادرت ممتلكاتهم لأنهم رفضوا حمل السلاح لمعتقداتهم الدينية التي تنادي بالسلام والوئام والمضادة للعنف، واستوجب العديد من الولايات، بعد موافقة الكونجرس، أن يقوم السكان بأداء يمين الولاء للأمة الجديدة، وحرموا أولئك الذين رفضوا من حق التصويت وفي كثير من الحالات اضطروا الى الرحيل إلى منفى ما، حتى أن مراقب بريطاني كتب قائلا "لقد نبتت نيران الفتنة من بذور الحرية"، حتى أن بعض الموالين الأثرياء رأوا أراضيهم تُصادر وتباع في مزاد علني، منها ثمانية وعشرين عقارًا ينتمون إلى حاكم

"نيو هامبشاير" "جون ونتويرث" وتم القبض على عائلته، وكذلك ممتلكات عائلة أحد كبار مالكي الأراضي الموالي "دي لانسي" وعائلة "فيليبس" في "نيويورك"، وكان معظم مشترو هذه الأراضي من التجار، والمحامين، ومالكي الأراضي المعروفين، الأمر الذي جعل المستأجرين، الذين لا يملكون ثمن الأراضي، يستمرون في العمل لحساب الملاك الجدد كخيار وحيد أمامهم.

وعندما انتهت الحرب، كان قد تم نفي ما يصل إلى 100.000 من الموالين (بما في ذلك 20.000 من العبيد) من الولايات المتحدة أو أنهم هاجروا طواعية-- معظمهم إلى بريطانيا أو كندا أو جزر الهند الغربية بدلاً من العيش في الولايات المتحدة الأمريكية المستقلة، لكن ثبت أن العداء للموالين الذين بقوا لم يدم طويلا، فكما ذكرنا في الفصل الخامس تعهد الأمريكيون في معاهدة باريس لعام 1783 بإنهاء اضطهاد الموالين من قبل حكومات الولايات والحكومات المحلية ورد ممتلكاتهم إليهم التي قد تم الاستيلاء عليها خلال الحرب. اعتقد القادة الأمريكيون أن الأمة الجديدة بحاجة إلى تأسيس سمعة دولية بالعدالة والتحضر والمدنية، وبالفعل سرعان ما تم إلغاء متطلبات قسم الولاء للأمة الجديدة كشرط للحصول على حق التصويت ولشغل المناصب العامة، وتم بسرعة إعادة دمج الموالين الذين لم يغادروا البلاد في المجتمع الأمريكي، ولكن بالرغم من الوعد الذي كانت تتضمنه معاهدة باريس، إلا أنه لم يتم رد الملكية المصادرة إلى الموالين.

الثورة الهندية

ثمة مجموعة أخرى فقدت حريتها نتيجة لإعلان الاستقلال الأمريكي، وهم الهنود الذين كانوا أقل حظا، فعلى الرغم من إعلان عام 1763، الذي ناقشناه في الفصل الرابع، واصل المستعمرون التحرك غربًا خلال الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الثامن عشر، مما دفع القبائل الهندية إلى الشكوى من التعديات على أراضيهم، حتى أن حاكم فرجينيا الملكي اللورد "دونمور" وجد في عام 1772 أنه من المستحيل كبح جماح الأمريكيين. . . . حيث لا يمكنهم تصور أن الحكومة لديها أي حق في منعهم من الاستيلاء على المساحات الشاسعة من البلاد أو إجبارهم على احترام المعاهدات الموقعة مع الهنود".

بعدما كانت "كنتاكي" أرض الصيد الرئيسية لقبائل "الشيروكي الهندية" في الجنوب وللعديد من هنود وادي أوهايو، أصبحت نقطة انطلاق شرارة الصراع بين المستوطنين والمضاربين على الأرض، والأمريكيين الأصليين (الهنود) مع سعي الحكومة البريطانية البعيدة عبثًا إلى فرض النظام. كان من بين أولئك المضاربين في الأراضي الغربية العديد من الزعماء الوطنيين، بما في ذلك "جورج واشنطن"، و"باتريك هنري"، و"توماس جيفرسون"، حيث حصل "واشنطن" نفسه على أكثر من 60.000 فدان من الأراضي في غرب "بنسلفانيا" بعد حرب السنوات السبع من خلال

شراء قسائم الأرض (شكل من أشكال أجور الجنود) من رجاله بأسعار مخفضة؛ وفي الحقيقة، كانت الجهود البريطانية لكبح المضاربة على الأراضي غرب الخط المحدد من قبل إعلان من 1763 بمثابة أحد الشكاوى العديدة للجيل الثوري في "فرجينيا".

كان يعيش حوالي 200.000 من الأمريكيين الأصليين في شرق المسيسيبي في 1790، وكان الهنود مثلهم مثل الأمريكيين قد انقسموا فيما بينهم في ولاءهم وتحالفاتهم خلال حرب الاستقلال، حيث تكبد بعضهم خسائر فادحة في محاربة البريطانيين، مثل قبيلة "ستوك بريدج" في "ماساشوستس"، بينما حاول العديد من القبائل البقاء على الحياد ولكن سرعان ما انقسموا فيما بينهم إلى فصيل موالي للولايات المتحدة وفصيل موالي لبريطانيا، حيث وقفت معظم شعوب "الإيروكوا" مع البريطانيين بينما وقفت قبائل "أونيدا" مع الأمريكيين، فعلى الرغم من جهود "الإيروكوا" المضنية لتجنب الصراع، إلا أن أعضاء اتحادهم واجهوا بعضهم البعض في المعركة للمرة الأولى، (قدمت قبائل "أونيدا" بعد الحرب دعاوى إلى الكونجرس بتعويضات عن الخسائر التي تكبدتها خلال الحرب، بما في ذلك الأغنام، والخنازير، والغلايات، وصواني القلي، والمحاريث، والأواني من سبائك القصدير والرصاص - وهذا يدل على اندماجهم بالكامل في اقتصاد السوق.)، أما في الجنوب فقد شهد نفس الانقسام، حيث انضم زعماء قبائل "شيروكي" الأصغر سنًا في الجنوب إلى الصفوف البريطانية، في حين انضم الزعماء الأكبر سنًا لصالح الأمريكيين بينما ظلت قبائل مثل "الشوكتو" و "كرييك" موالية للتاج البريطاني.

من بين المظالم التي أدرجها "جيفرسون" في إعلان الاستقلال هو تجنيد بريطانيا "لبلطجية متوحشين" ليقاتلوا في صفوفها، ولكن الوحشية لم تقتصر على جانب واحد في الحرب التي اندلعت على طول الحدود الغربية، حيث شجع البريطانيون في مقاطعة "أوهايو" حلفاءهم الهنود على حرق المزارع والمستوطنات الحدودية، وردًا على ذلك تجاهل الزعماء الوطنيين الذين يتصفون بالشفقة القواعد التقليدية للإحسان في الحرب عندما كان يتعلق الأمر بالهنود، حيث قدم "وليام هنري درايتون"، أحد زعماء قضية الوطنيين في "كارولينا الجنوبية" ورئيس المحكمة العليا في الولاية في عام 1776، نصيحة للضباط بأن يسيروا ضد اتجاه قبائل "الشيروكي" "لتدمير كل حقول الذرة الخاصة بالهنود، وحرق كل بلداتهم"، واستعباد جميع الأسرى الهنود، وأرسل "واشنطن" بعد ثلاث سنوات حملة بقيادة الجنرال "جون سوليفان" ضد "الإيروكوا" المعادين بهدف "التدمير والتخريب التام لمستوطناتهم، وأسر أكبر عدد ممكن من الأسرى من كل الأعمار ومن الجنسين"، وذكر "سوليفان" بعد انتهاء حملته الانتخابية أنه أحرق أربعين مدينة هندية، ودمر آلاف من مكاييل الذرة، واجتثوا عددًا كبيرًا من أشجار الفاكهة وبساتين الخضار، مما أدى إلى حدوث

مجاعة في العديد من مجتمعات الإيروكوا، ولم ينته القتال في وادي أوهايو حتى التسعينيات من القرن الثامن عشر كما سنرى في الفصل السابع.

حرية البيض وحرية الهنود

أفرز الاستقلال حكومات مسئولة ديمقراطيًا أمام الناخبين الذين طمعوا في الأراضي الهندية، وفي الحقيقة كان وصول العديد من الوطنيين إلى الأراضي الهندية أحد ثمار الانتصار الأمريكي، حيث كتب "جيفرسون" قائلاً أن إزاحة الهنود من وادي "أوهايو" سيضيف إلى إمبراطورية الحرية بلدًا خصبة ومترامية الأطراف"، ولكنه تجاهل أن الحرية بالنسبة للبيض تعني فقدان الهنود لحريتهم، حيث كتب "وليام أبيس"، أحد البيكوتات (الأمريكيون الأصليون الذين يسكنون شرق كونيتيكت) في وقت لاحق قائلاً إنه ما كاد يحصل البيض على حريتهم حتى التفتوا إلى "الهنود البؤساء" ليسلبوهم حريتهم، فقد قدم الاستقلال فرصة لاستكمال عملية انتزاع ممتلكات الهنود من الأراضي الغنية في الجزء الشمالي في "نيويورك" وفي "وادي أوهايو" والأحياء الخلفية والريفية الجنوبية، ولم يبق إلا أمل وحيد للهنود، كما كتب "جيفرسون" أن يرحلوا إلى ما وراء المسيسيبي" وحتى عند اندلاع الحرب أجبر الأمريكيون القبائل المهزومة مثل شيروكي على التنازل عن معظم أراضيهم.

أخبرت مجموعة من الهنود الزائرين الحاكم الإسباني في "سانت لويس" أن الاستقلال الأمريكي كان "أكبر ضربة يمكن أن تحدث لهم"، وكانت معاهدة باريس تتويجًا لقرن من الزمن تحول فيه ميزان القوى في شرق أمريكا الشمالية بعيدًا عن الهنود متجهًا نحو الأمريكيين البيض، حيث أدى نقل السلطة البريطانية إلى كندا بعد عشرين عامًا من رحيل الفرنسيين إلى تضاؤل دعم البيض للهنود بشكل خطير، مما دفع بعض القادة الهنود مثل "جوزيف برانت"، وهو أحد الموهوك (أحد فئات السكان الأصليين في شمال نيويورك) الشباب في شمال "نيويورك" للرغبة في خلق اتحاد للهنود في المنطقة الواقعة بين كندا والولايات المتحدة الجديدة، وانحاز للبريطانيين في محاولة لتحقيق هذا الهدف، ولكن البريطانيين تخلوا في معاهدة باريس عن حلفائهم الهنود بموافقتهم على الاعتراف بالسيادة الأمريكية على المنطقة برمتها شرق نهر المسيسيبي في تجاهل تام للوجود الهندي.

لقد كانت الحرية تعني بالنسبة للهنود حرية الدفاع عن استقلالهم والإبقاء على ملكيتهم لأراضيهم، ومثل الأمريكيين الآخرين خصص الهنود لغة الثورة وفسروها وفقًا لخبراتهم ولأغراضهم الخاصة بهم، حيث أعلن أحد المتحدثين باسم "الإيروكوا" قائلاً "كنا شعب حر لا نخضع لأي قوة على وجه الأرض"، وقد نفت قبائل "كريك" وقبائل "تشوكتاوس" القيام بأي شيء

للتنازل عن "استقلالهم وحقوقهم الطبيعية"، وعندما أنشأت "ماساشوستس" نظام "وصاية الولاية" على القبائل التي كانت تتمتع سابقًا بالحكم الذاتي قدمت مجموعة من السكان الأصليين في مدينة "ماشبيس" التماسًا إلى السلطة التشريعية مطالبين لأنفسهم "بحقوق الانسان" ويشكون هذا "التعدي على حريتهم."

لم تلعب "الحرية" دورًا رئيسيًّا في المفردات اللغوية للهنود قبل الثورة، ولكن بحلول أوائل القرن التاسع عشر بدأت قواميس اللغات الهندية لأول مرة تشتمل على هذه الكلمة، حتى أن تعريف الهنود لحقوقهم اصطبغ بصبغة أمريكية إلى حَدٍّ ما، ولكن يبدو أنه ليس هناك مكان دائم لأحفاد سكان القارة الأصليين في الدولة الجديدة العازمة على خلق إمبراطورية في الغرب.

العبودية والثورة

في حين شعر الهنود أن الاستقلال الأمريكي بمثابة تهديد حقيقي لحريتهم، رأى الأمريكيون من أصل إفريقي في المبادئ والمُثُلْ العليا للثورة وحقيقة الحرب فرصة للمطالبة بالحرية، وكان عدد السكان العبيد قد بلغ قرابة 500.000 عندما أعلنت الولايات المتحدة استقلالها في عام 1776، بما يعادل حوالي خمس سكان الدولة الجديدة، وكان امتلاك العبيد والتجارة فيهم يمثل روتينًا مقبولاً في الحياة الاستعمارية، وحفلت الصحف الاستعمارية بالإعلانات عن بيع العبيد والبحث عن الهاربين منهم، وكانت نفس أعداد الصحف الوطنية التي تنشر تقارير عن أنشطة أبناء الحرية أو الحجج المناوئة لقانون الدمغة أحيانًا ما كانت تحتوي أيضًا على إشعارات بيع العبيد.

لغة العبودية والحرية

لعبت العبودية دورًا أساسيًّا في لغة الثورة، حيث أصبحت هي الكلمة الأكثر ظهورًا بعد كلمة "الحرية" في الكتابات القانونية والسياسية في تلك الحقبة، وكثيرًا ما كان يضع مؤلفو القرن الثامن عشر كلمتي "الحرية" و"العبودية" جنبًا إلى جنب باعتبارهما "طرفا السعادة والبؤس في المجتمع"، ولكن العبودية كانت تستخدم في المناقشات على مدار حقبة الحكم البريطاني للإشارة إلى فئة سياسية في المقام الأول، واختصارًا لإنكار الحقوق الشخصية والسياسية للفرد من قبل حكومة تعسفية، وقد تم تقديم التماس في عام 1769 للمطالبة بتوسيع الحق في التصويت في بريطانيا وجاء فيه أن أولئك الذين يفتقرون إلى حق المشاركة بالرأي في الشئون العامة هم أشخاص "مستعبدين". كان التناقض، بحلول عشية الاستقلال، بين بريطانيا بصفتها "مملكة العبيد"، وأمريكا بصفتها "بلد الرجال الأحرار" قد أصبح جزءًا أساسيًّا ونمطيًّا من لغة المقاومة، وكانت هذه اللغة تستخدم بدون سخرية حتى في المناطق التي يشكل العبيد فيها ما يقرب من نصف السكان، وقد

أعلن أحد المؤلفين في عام 1774 "أن "كارولينا الجنوبية" كانت "أرضًا مقدسة" للحرية، حيث يستحيل أن نصدق أنه "سَيُسمح للعبودية بإقامة عرشها هناك قريبا".

كان المؤلفون الاستعماريون- في بعض الأحيان- يربطون في الستينيات من القرن الثامن عشر بصورة مباشرة بين العبودية كأمر واقع والعبودية باعتبارها مجازًا ورمزا، بينما كان القليل منهم صرحاء مثل "جيمس أوتيس" من ماساتشوستس، والذي كان لمنشوراته أثر كبير في الترويج لفكرة أن البرلمان يفتقر إلى السلطة لفرض الضرائب على المستعمرات وتنظيم التجارة بها، حيث أصر على أن الحرية يجب أن تكون عالمية: "ما معنى أن الإنسان حر أو كان في أي وقت مضى قد وُلِدَ حرًا إذا لم يكن ذلك متاح لكل إنسان؟" كتب أوتيس عن السود، لا كأمثلة على ضياع الحقوق الذي ينتظر الأمريكيين الأحرار، ولكنه تحدث عنهم كرعايا بريطانيين بشر من لحم ودم "لهم حق التمتع بجميع الحقوق المدنية التي يتمتع بها باقي الرعايا البريطانيين".

بالكاد كان أوتيس زعيمًا وطنيًا نمطيا، ولكن وجود مئات الآلاف من العبيد أثّر بقوة في معنى الحرية لدى قادة الثورة الأمريكية، وانعكس هذا في الخطاب الشهير لرجل الدولة البريطاني "إدموند بيرك" أمام البرلمان محذرًا من محاولات ترهيب المستعمرات، وأشار إلى أن الألفة مع العبودية جعلت قادة الاستعمار يتصفون بحساسية غير معتادة لأي تهديدات على حرياتهم الخاصة، وذكر أنه حيثما تعتبر الحرية امتيازًا وليست حقًا عاما، "فإن أولئك الأحرار يكونون هم الأكثر فخرًا وغَيْرَة على حريتهم". من ناحية أخرى، لم يستطع العديد من المراقبين البريطانيين مقاومة الإشارة إلى النفاق الظاهر من جانب المستعمرين، وعندما سألهم الدكتور "صموئيل جونسون" "كيف هذا؟ أجابوا "أن نسمع أعلى الصرخات من أجل الحرية ممن يسوقون الزنوج؟" (في إشارة إلى أن المستعمرين يسعون لحرياتهم وللحفاظ عليها دون النظر إلى السود، وإنهم لذلك منافقين ولن تنتفي هذه الصفة عنهم حتى يتحرر السود، وتأتي صرخات الحرية من قائدي سيارات الزنوج بعد أن يحصل الزنوج على كل حقوقهم).

عقبات أمام بطلان العبودية

يبدو التناقض بين الحرية والعبودية جليًا وبديهيًا إلى ذلك الحد الذي يجعل من الصعب اليوم تفهم أو تبرير العقبات التي تحول دون إلغاء العبودية، حيث كانت العبودية في زمن الثورة مؤسسة قديمة بالفعل في أمريكا، فهي موجودة في كل المستعمرات وشكلت أساسًا للاقتصاد والبنية الاجتماعية في الجنوب بدءًا من ولاية "ميريلاند" جنوبًا حيث لا يقل عدد السكان العبيد عن 40 في المائة من إجمالي السكان في ولاية "فرجينيا"، ونسبة أعلى في ولاية "جورجيا" وولاية "كارولينا الجنوبية".

كان كل الأباء المؤسسين تقريبًا عبيدًا في مرحلة ما من حياتهم، بما في ذلك ليس فقط المزارعون الجنوبيين ولكن أيضًا التجار، والمحامين، والمزارعين الشماليين (كان "جون آدامز" و"توم باين" بمثابة استثناءين بارزين من هذه القاعدة)، حيث كان "توماس جيفرسون" يمتلك أكثر من 100 من العبيد عندما كتب عن حق البشرية الأصيل الذي لا يمكن المساس به في الحرية، وكان كل ما يعتز به في حياته الخاصة من عمل السخرة، مثل وسائل الترفيه الفخمة لوقت الفراغ الذي أتاح له فرصة متابعة الفنون والعلوم.

وفي الحقيقة، كان بعض الوطنيين يرون أن العبودية للسود جعلت الحرية ممكنة للبيض، حيث إن القضاء على الجزء الأكبر من الفقراء العالة على الدولة من الأمة السياسية، قد تركت الساحة العامة لرجال يتمتعون بالاستقلال والملكية، وأن امتلاك العبيد يفتح الطريق أمام الاستقلال الاقتصادي الذي يعتبر ضروريًا وهامًا لتحقيق الحرية الحقيقية على نطاق واسع، وهي مسألة أكد عليها قانون "فيرجينيا" لعام 1780 الذي كافئ قدامى المحاربين في حرب الاستقلال بمنحهم 300 فدان من الأراضي وعبدا، وكذلك وعدت كل من "كارولينا الجنوبية" و"جورجيا" كل عسكري أبيض يقوم بالتطوع بمنحه عبدًا في نهاية الحرب كمكافأة له.

ولذلك أيضًا يمكن بسهولة عند الدفاع عن العبودية استدعاء رؤية "جون لوك" للمجتمع السياسي كمجموعة من الأفراد يتعاقدون معًا لضمان حقوقهم الطبيعية، وأنه وفقًا لهذه الرؤية، فإنه ليس هناك شيء أكثر أهمية للحرية من حق الحكم الذاتي وحماية الملكية ضد التدخل الخارجي، حيث تشير هذه المبادئ إلى أن مصادرة الحكومة للملكية، بما في ذلك ملكية العبيد، ستكون تعديًا على حرية المالكين، وإذا كان يمثل تشكيل الحكومة بموافقة المحكومين جوهر الحرية السياسية، فإن مطالبة المالكين بالتخلي عن ملكيتهم للرقيق من شأنه الهبوط بهم إلى مرتبة العبودية.

قضية الحرية العامة

وقد أثارت الثورة، رغم ذلك، تساؤلات حتمية حول وضع العبودية في الدولة الجديدة من خلال إضفاء هذه القيمة المطلقة على الحرية، وتعريفها للحرية باعتبارها استحقاقًا عالميًا وليس مجرد مجموعة من الحقوق خاصة بمكان معين أو أناس معينين. كان النقاش العام حول مؤسسة العبودية قبل الاستقلال قليلاً على الرغم من أن الرأي المستنير في العالم الأطلسي توصل إلى النظر للعبودية باعتبارها خطًا أخلاقيًا وغير فعالةٍ من الناحية الاقتصادية، ومن مخلفات ماض بربري.

وقد أصدرت مجموعة من الكويكرز الألمان في عام 1688 "احتجاجًا" بشأن حقوق السود معلنةً أنه من الظلم "استعبادهم، كما هو الحال في استعباد البيض وغيرهم"، وقد نشر تاجر من "بوسطن" يدعى "صموئيل سول" في عام 1700 أول منشور سياسي مطبوع في أمريكا مناوئ

للعبودية بعنوان "بيع يوسف"، وذكر فيه أنه "يحق لكل أبناء آدم أن يتمتعوا بحق الحرية على قدم المساواة"، وكان قد تم حظر العبودية في "جورجيا" في البداية، كما ذكرنا في الفصل الرابع (على الرغم من أنها هي التي دعمت في وقت لاحق الاقتصاد القائم على زراعة الأرز في تلك المستعمرة). انتشرت مشاعر معاداة العبودية بين الكويكرز في "بنسلفانيا" خلال القرن الثامن عشر، حيث كان لاعتقادهم بأن جميع الناس يمتلكون "الضوء الإلهي الداخلي" جليل الأثر لجعلهم منفتحي الذهن.

لم تصبح العبودية مع ذلك محورًا للنقاش العام لأول مرة، إلا في عهد الثورة، حيث دعا الوطني "بنيامين راش"، في ولاية بنسلفانيا في عام 1773، "دعاة الحرية الأمريكية" بأن "يتبنوا قضية . . . الحرية العامة" وحذر من أن العبودية تمثل أحد "الجرائم الوطنية" التي ستستوجب يومًا ما "عقاب وطني"، وكما ورد في الفصل السابق، فقد حاول "جيفرسون" دون جدوى إدراج انتقاد العبودية في إعلان الاستقلال، وعلى الرغم من أنه كان يمتلك شخصيًا عبيد، إلا أنه أدان العبودية، ولكن ليس بشكل عام علني، كنظام يفرض كل يوم على ضحاياه "مزيد من البؤس أكثر من العصور التي انتفض فيها المستعمرين كمتمردين لمعارضتها".

التماسات للحرية

أذكت الثورة الآمال على نطاق واسع بأنه يمكن إلغاء العبودية من الحياة الأمريكية، ولكن الأكثر مدعاة للاستغراب هو أن العبيد أنفسهم أعربوا عن تقديرهم لتعريف الحرية بأنها حق للجميع مع إدراكهم أن قادة الثورة ابتكروا سلاحًا يمكن استخدامه ضد عبوديتهم، ومع ذلك وجدت لغة الحرية صدى واسع في مجتمعات العبيد في الشمال والجنوب، ووجد العبيد الأمريكيون من أصل إفريقي أنفسهم يعيشون في وسط مجتمع حر، ولكنهم محرومين من ثمار هذه الحرية ولهذا اختصوا بالأيديولوجية الوطنية لأنفسهم، فكانوا أكثر المؤيدين إصرارًا على الحرية باعتبارها استحقاق عالمي، والذين طالبوا بأن يرتفع قادة الكفاح من أجل الاستقلال إلى مستوى أفكارهم ومبادئهم التي ينسبوها لأنفسهم بأن لا يطالبوا بالحرية بينما هم أنفسهم يستعبدون البشر، وقد صُدِمَ سكان تشارلستون البيض عندما شاهدوا في عام 1766 مجموعة من السود يطوفون بالمدينة يهتفون باسم "الحرية" بعد أن ألهبتهم معارضة البيض لقانون الدمغة، وشعر الكونجرس الإقليمي "لكارولينا الجنوبية" بعد تسع سنوات أنه مضطر لبحث "المفاهيم السامية للحرية" التي استلهمها العبيد من النضال ضد بريطانيا.

كانت "التماسات الحرية" هي أولى الخطوات الملموسة نحو التحرر في أمريكا الثورية، وهي عبارة عن طلبات تتضمن الحجج المبررة للحرية التي كان يقدمها المستعبدون الأمريكيون

الأفارقة إلى محاكم "نيو إنجلاند" والمجالس التشريعية في أوائل السبعينيات من القرن الثامن عشر، وتساءلت أحد هذه الالتماسات حول الكيفية التي يمكن من خلالها لأمريكا أن "تسعى للحصول على الحرية والتخلص من الطغيان الإنجليزي ولا تسعى لحرية الأفارقة المحرومين في وسطها؟" تقدم بعض العبيد بدعاوى إلى المحكمة لكونهم "معتقلون بصورة غير قانونية في العبودية." وفرت الإضرابات والفوضى التي صاحبت فترة الحرب سبلاً أخرى لحرية العبيد، حيث هرب العديد بعيدًا عن أسيادهم وحاولوا المرور كأحرار، وقد ارتفع عدد الإعلانات عن العبيد الهاربين في الصحف الاستعمارية بشكل كبير في السبعينيات والثمانينيات من القرن الثامن عشر، وقد علّق مالك أحد العبيد مفسرًا هربه قائلا "أعتقد أنه لم يكن هناك أي شيء نصب عينيه سوى السعي للحرية."

في عام 1776، والذي شهد الاستقلال الأمريكي، حث "ليمويل هاينز"، العضو الأسود في ميليشيات "ماساتشوستس"، والذي أصبح لاحقًا وزيرًا مشهورا، الأمريكيين على "توسيع نطاق تصورهم للحرية، وأصر على أنه إذا كانت الحرية "مبدأ فطري" حقًا للبشرية جمعاء، فإنه ينبغي أن يكون للأفارقة نفس الحق في الحرية تمامًا مثل الرجل الإنجليزي"، وقد أعربت التماسات، ومنشورات، وخطب السود طوال الفترة الثورية عن "الدهشة" من فشل الوطنيين البيض في إدراك أن "كل مبدأ تصرفت أمريكا على أساسه" يدعو إلى التحرر، ولذلك سعى السود لجعل الأمريكيين البيض يفهمون العبودية باعتبارها واقعًا ملموسا، وأنها تنطوي على إنكار جميع العناصر الأساسية للحرية وليس مجرد كناية عن فقدان تقرير المصير السياسي، ومن هنا هتفت مجموعة من العبيد في "نيو إنجلاند" ملتمسين حريتهم في عام 1773 بالصياح قائلين "ليس لدينا أي ممتلكات! ليس لدينا زوجات! ليس لدينا أطفال! ليس لدينا أي مدينة! ليس لدينا وطن!"

كان معظم العبيد في الحقبة الثورية من جيل واحد أو جيلين فقط تم نقلهم من إفريقيا، ولذلك لم يكونوا بحاجة لأيديولوجية الثورة لإقناعهم بأن الحرية حق فطري مكتسب بالولادة لأن تجربة آبائهم وأجدادهم تشير إلى ذلك، وقد كتبت الشاعرة السوداء "فيليس ويتلي" في عام 1783 قائلة "نبع حبي للحرية من المصير القاسي الذي قضي بانتزاعي من الشاطئ الإفريقي." وكذلك الشاعرة السوداء "ويتلي" تم جلبها من إفريقيا كعبدة إلى بوسطن في عام 1761، وتعلمت القراءة ونشرت أول قصيدة لها في صحيفة "نيو إنجلاند" في عام 1765 عندما كانت في حوالي الثانية عشرة من عمرها؛ وتوضح حقيقة انطباعه ديوان قصائدها كان يجب أن يتضمن شهادة من مواطنين بارزين تؤكد أنها في الواقع مؤلفة الديوان، منها شهادة الزعيم الوطني "جون هانكوك"، تؤكد أن العديد من البيض كانوا يجدون صعوبة في قبول فكرة أن لدى السود قدرات فكرية، إلا أن استحضار السود لأيديولوجية الثورة للحرية في مطالبتهم لحقوقهم وتعريفهم

للحرية باعتبارها استحقاق عالمي، فإنهم في الحقيقة يبينون إلى أي مدى أصبحوا أمريكيين حتى أنهم يسعون إلى إعادة تعريف ماذا تمثل الحرية الأمريكية في الحقيقة.

المُحَرَّرون البريطانيون

كما ذكرنا في الفصل السابق، خاض حوالي 5.000 من العبيد الحرب من أجل الاستقلال الأمريكي وبالتالي نال العديد منهم حريتهم، إلا أن العبيد الذين حصلوا على حريتهم من البريطانيين كانوا أكثر بكثير، حيث عرض بيان اللورد "دونمور" لعام 1775 وعرض بيان "فيلبسبورف" الذي أصدره الجنرال "هنري كلينتون" بعد أربعة سنوات ملاذًا للعبيد الذين هربوا لينضموا إلى خطوط القتال البريطانية، وهكذا فقد العديد من الموقّعين على إعلان الاستقلال الكثير من العبيد، فعلى سبيل المثال فقد "توماس جيفرسون" ثلاثين من العبيد الذين هربوا إلى بريطانيا، كما فعل العبيد الذين كان يملكهم "باتريك هنري" و"جيمس ماديسون"، وقيل إن ما يقرب من 100.000 من العبيد، بما في ذلك ربع جميع العبيد في ولاية "كارولينا الجنوبية" وثلث العبيد في "جورجيا"، قد هربوا من ملاكهم وفروا لينضموا إلى خطوط القتال البريطانية، وكان هذا إلى حد بعيد بمثابة أكبر هجرة جماعية من المزارع حتى اندلاع الحرب الأهلية.

تم أسر بعض هؤلاء العبيد الهاربين مع تحول تيار المعركة لصالح الوطنيين، ولكن كان حوالي 20.000 منهم يعيشون مع نهاية الحرب في ثلاثة جيوب تحت السيطرة البريطانية وهم "نيويورك"، و"تشارلستون"، و"سافانا"، وأصر "جورج واشنطن" على أنه يجب إعادتهم إلى أمريكا، إلا أن القائد البريطاني في نيويورك السير "جاي كارلتون" أجاب بأن هذا من شأنه أن يكون "انتهاكًا مخلاً بالشرف لثقة الجمهور" لأنهم أخذوا وعدًا بالحرية، وتوصلوا لاتفاق في النهاية بمرافقة أكثر من 15.000 من الرجال، والنساء، والأطفال السود للبريطانيين عند خروجهم من البلاد، وانتهى بهم المطاف في "نوفا سكوتيا"، و"إنجلترا"، و"سيراليون" وهي مستوطنة للعبيد السابقين من الولايات المتحدة أسسها البريطانيون على ساحل غرب إفريقيا، حيث أعيد استعباد بعضهم في جزر الهند الغربية وكانت قصص عدد منهم رائعة في الحقيقة، مثل "هاري واشنطن"، أحد أبناء عبيد جورج واشنطن الأفارقة الذي فر من "ماونت فيرنون" في عام 1771 ولكن تم استعادته، ثم هرب في عام 1775 لينضم إلى اللورد "دونمور" وأصبح في نهاية المطاف جنديًا في كتيبة بريطانية من السود تسمى "الرواد السود" ثم انتهى به المطاف في "سيراليون"، حيث شارك في عام 1800 في انتفاضة فاشلة من قبل المستوطنين السود ضد الحكومة المعينة من قبل بريطانيا.

أدت مسألة تعويض أمريكا عن العبيد الذين غادروا مع البريطانيين إلى تسميم العلاقات بين بريطانيا والولايات المتحدة الجديدة لعقود جديدة قادمة، إلى أن وافقت بريطانيا أخيرًا في عام

1827 على دفع تعويضات مالية إلى 1.100 أمريكي زعموا أنهم فقدوا بشكل غير صحيح ممتلكاتهم من العبيد.

التحرير الطوعي للعبيد

بدا لفترة وجيزة أن الانتفاضة الثورية تهدد استمرار وجود الرق، حيث حظرت أو ثبطت كل الولايات تقريبًا استيراد المزيد من العبيد من إفريقيا خلال حرب الاستقلال، وتركت الحرب الكثير من المزارع الجنوبية في حالة خراب، وقام عدد كبير من مالكي العبيد، ولا سيما في ولايتي "فرجينيا" و"ميريلاند" بتحرير عبيدهم طوعًا خلال الثمانينيات من القرن الثامن عشر، فعلى سبيل المثال، شهد عام 1796 قيام "روبرت كارتر الثالث"، وهو عضو بأحد أغنى العائلات في ولاية "فرجينيا" بالتحرير التدريجي لأكثر من 400 من العبيد الذين يملكهم، وكتابة "ريتشارد راندولف" عضو بعائلة بارزة أخرى في ولاية "فرجينيا" لوصية تدين العبودية بأنها "ممارسة شائنة"، وتنص على تحرير حوالي 90 من العبيد وتخصيص جزء من أرضه ليمتلكوها.

بيد أنه في العمق الجنوبي، لم تبدأ أبدا عملية الإلغاء مطلقا، فعندما غزت القوات البريطانية "كارولينا الجنوبية" خلال الحرب، قدم "جون لورنس" ابن "هنري لورنس"، التاجر الرائد في "تشارلستون" ورجل الدولة أثناء عصر الثورة، اقتراحًا "بقيادة فيلق من السود المحررين للمشاركة في الدفاع عن الحرية، ولكن قادة "كارولينا الجنوبية" رفضوا الفكرة، حيث كانوا على استعداد لخسارة المعركة ولكنهم لم يكونوا مستعدين لخسارة عبيدهم (ومع ذلك قاتل مع الجانب الأمريكي جنود سود من مستعمرة "سانت دومينيك"، بعضهم أحرار وبعضهم عبيد كجزء من الوحدة الفرنسية في الدفاع الفاشل عن "سافانا" بولاية جورجيا في 1778.)

إلغاء العبودية في الشمال

شهدت الفترة ما بين عام 1777 (عندما وضعت "فيرمونت" دستورًا يحظر العبودية) وعام 1804 (عندما نفذت "نيو جيرسي" الحظر بالفعل) تبنت كل الولايات في الشمال من "ميريلاند" خطوات نحو التحرر، وهي المرة الأولى في التاريخ المكتوب التي يتم فيها استدعاء السلطة التشريعية من أجل القضاء على العبودية، ولكن حتى هنا حيث كانت العبودية ذات أهمية هامشية للاقتصاد، إلا أن طريقة الإلغاء كانت تعكس كيف أن حقوق الملكية تعوق التحرر، فبصفة عامة، لم تحرر قوانين الإلغاء العبيد ممن هم على قيد الحياة ولكنها كانت تنص على حرية أي طفل يولد في المستقبل لأم من الرقيق، ولكن بشرط أن يخدم الطفل سيد أمه حتى يبلغ سن البلوغ كتعويض عن الخسائر الاقتصادية التي يتكبدها المالك في المستقبل. بعد اعتماد قانون التحرير في ولاية "بنسلفانيا" لعام 1780، كان يجب على الأطفال الذين يولدون لأمهات من الرقيق خدمة المالك

لمدة ثمانية وعشرين عامًا حتى يحصلوا على الحرية، وهي المدة الأطول بكثير مما كان ساريًا بحكم العرف على الخدم البيض بعقود لمدة. أعطت هذه القوانين للعاملين بعقود عبودية ملزمة - والتي تراجعت بشكل سريع بين البيض - فرصة لعيش حياة لائقة كما في حالة السود في الشمال.

كان إبطال العبودية في الشمال عملية بطيئة ومطولة، حيث لم يبق أمام العبيد الموجودين على قيد الحياة عندما صدرت القوانين الشمالية أي أمل في الحرية إلا من خلال قدرتهم الخاصة على الهروب أو التحرير الطوعي من مالكيهم، وقد ثبت أن العديد من أصحاب العبيد في الشمال كانوا محجمين في الواقع عن تحرير عبيدهم، وليس أدل على ذلك من أن مدينة "نيويورك" في عام 1790، حيث كانت خُمُس العائلات البيض تملك على الأقل أحد العبيد، سجلت ستة وسبعين حالة تحرير فقط للعبيد خلال الفترة ما بين عامي 1783 و1800، وكان عدد العبيد الذين أحصاهم التعداد الوطني الأول في عام 1790 يبلغ 21.000 نسمة لا يزالون يعيشون في "نيويورك" و11.000 في ولاية "نيو جيرسي"؛ وللتأكيد على هذه الحقيقة، فقد ثبت أن رئيس المحكمة العليا للولايات المتحدة "نيويوركر جونجاي" كان يملك خمسة عبيد في عام 1800، وكشف تعداد عام 1830 أنه لا يزال هناك 3.500 عبد في الشمال، ولم يتم تحرير آخر عبيد في ولاية "كونيتيكت" إلا في عام 1848، وفي عام 1860، وكان لا يزال يقيم في "نيو جيرسي" ثمانية عشر من العبيد المسنين.

مجتمعات السود الحرة

بشكل عام، كان للثورة تأثير متناقض على العبودية الأمريكية وبالتالي على الحرية الأمريكية، فعلى الرغم من أن إلغاء الرق في الشمال كان تدريجيًا، إلا أنه رسم خطًا عبر الدولة الجديدة يهدد بانقسام خطير بين الولايات الحرة والولايات التي بها عبيد، حيث أدى إلغاء الرق في الشمال وتحرير العبيد الطوعي في أعالي الجنوب وهروب الآلاف من العبودية إلى خلق- للمرة الأولى في التاريخ الأمريكي- حجم لا بأس به من السكان السود الأحرار (العديد منهم اتخذ أسماء جديدة لعائلاتهم مثل فريمان "بمعنى الرجل الحر" أو فريلاند "بمعنى الأرض الحرة).

في عشية الاستقلال، كان كل شخص أسود في أمريكا تقريبًا من العبيد، أما الآن فقد أصبح لهم مجتمعاتهم الحرة بكنائسهم ومدارسهم وقادتهم، وكانت هذه المجتمعات تشكل تحديًا لمنطق العبودية وملاذًا للهاربين ونقطة انطلاق لبذل المزيد من الجهود عند نشوب قضية الإلغاء، كان عدد السود الأحرار المقيمون في الولايات المتحدة في عام 1776 أقل من 10.000، وتزايد هذا العدد حتى بلغ ما يقرب من 200.000 بحلول عام 1810 يعيش معظمهم في ولاية "ميريلاند" وولاية "فرجينيا". تمتع الرجال السود الأحرار الذين يتوفر فيهم إما شرط دفع الضرائب أو تملك عقارات بالحق في التصويت بموجب الدساتير الجديدة للبلاد في جميع الولايات، باستثناء ولاية "فرجينيا"،

وكارولينا الجنوبية وجورجيا، وكما يشير استخدام مصطلح المواطنون الملونون على نطاق واسع، فقد شَكَّلَ الجيل الأول من السود الأحرار، على الأقل في الشمال، جزءًا من الأمة السياسية.

كان وجود العبودية يعني للعديد من الأمريكيين سواء البيض أو السود من الآن فصاعدًا إهانة دائمة بقيم ومُثُلْ ومبادئ الحرية الأمريكية، وعار على أي حكومة حرة على حد تعبير مجموعة من سكان نيويورك. رسم صموئيل جننجز، من ولاية فيلادلفيا، لوحة الحرية تعرض الفنون والعلوم في عام 1792، وأدرج ضمن رموز الحرية سلاسل تقييد العبيد مكسورة، مما يدل بوضوح كيف كان يتم ربط الحرية ليس فقط بالاستقلال السياسي ولكن ربطها أيضًا بتحرير العبيد؛ ومع ذلك، فإن الحقيقة الصارخة هي أن العبودية استمرت بعد حرب الاستقلال وواصلت النمو بفضل الزيادة الطبيعية بين العبيد، حتى أن التعداد الوطني لعام 1790 كشف أنه على الرغم من كل أولئك الذين أصبحوا أحرارًا من خلال قوانين الدولة ومن خلال التحرر الطوعي والهروب، إلا أن عدد العبيد في الولايات المتحدة قد نما إلى 700.000 ، بزيادة قدرها 200.000 عن عددهم في تعداد عام 1776.

بنات الحرية

النساء الثوريات

ضم الجيل الثوري كثيرات من النساء اللاتي ساهمن في النضال من أجل الاستقلال، وقد تخفت ديبورا سامبسون، وهي ابنة أحد المزارعين الفقراء في ماساتشوستس، في شكل رجل في عام 1782 وكانت في الواحد والعشرين من العمر، والتحقت بالجيش القاري وأبدت شجاعة ملحوظة حيث شاركت في العديد من المعارك، واستخرجت رصاصة من ساقها بنفسها حتى لا يكشف الطبيب عن هويتها كفتاة، وعلى الرغم من أن قائدها العسكري كشف سرها، إلا أنه احتفظ بالسر لنفسه وتم تسريحها في نهاية الحرب بعد أن أبلت بلاءً حسنا، ومنحها الكونجرس بعد سنوات معاش الجندي. شاركت نساء وطنيًات أخريات في أعمال الحشد ضد التجار المتهمين بالسعي للأرباح، من خلال سحب البضائع من السوق حتى ترتفع أسعارها، وساهمن بنسج الملابس في المنزل، وصنع السلع البسيطة للجيش، وقمن بنقل المعلومات حول تحركات الجيش البريطاني.

أما في فيلادلفيا، فقد نظمت استير ريد زوجة الزعيم الوطني جوزيف ريد وسارة فرانكلين باش ابنة بنجامين فرانكلين جمعية من السيدات لجمع الأموال لمساعدة الجنود الأمريكيين، ونشرن هجومًا حادًا ذو طابع سياسي في الصحافة ودعين نساء أمريكا للمشاركة؛ على سبيل

المثال، تعيين "أمينات للخزينة" في كل مقاطعة في الولايات المتحدة لجمع الأموال وإحالتها إلى زوجة الحاكم، وإذا كان الحاكم غير متزوج يقدمن الأموال إلى "عشيقات واشنطن"، وكن يشرن إلى أنفسهن بأنهن "الأمريكيات الشجاعات" اللاتي "وُلِدْن للحرية"، وأوضحت جمعيتهن كيف دفعت الثورة النساء إلى أشكال جديدة من الجهاد السياسي.

أما داخل الأسر الأمريكية، فقد شاركت المرأة في المناقشات السياسية التي أثارها الاستقلال، وقد تذكر "جون آدامز" في وقت لاحق متسائلا "ألم يكن كل ركن للمدفأة مسرحًا للسياسة؟" قيل أيضًا إن زوجة آدامز" نفسه "أبيجيل آدامز" كانت محللة داهية للشئون العامة، وكذلك كانت مؤسسة لجنة بوسطن للمراسلات "أوتيس ميرسي وارن"، شقيقة "جيمس أوتيس" وزوجة "جيمس وارن" مُعَلِّقَة أخرى على السياسة وروجت للقضية الثورية في قصائد ومسرحيات، ونشرت في وقت لاحق تاريخ النضال من أجل الاستقلال.

نوع الجنس والسياسة

بالرغم من ذلك، شَكَّلَ نوع الجنس حدودًا تضيِّق من دائرة من يتمتعون بكامل نعم الحرية الأمريكية، وقد كتبت "لوسي نوكس" خطابًا إلى زوجها "الجنرال هنري نوكس" خلال الحرب قائلةً له "لا ينبغي أن تعتبر نفسك عند العودة إلى الوطن القائد العام في منزلك، ولكن كن على قناعة بأن هناك شيء اسمه القيادة المشتركة"، ولكن الفوز بالاستقلال لم يغير قانون الأسرة الموروث من بريطانيا حيث ظل مبدأ "وضع المرأة المتزوجة تحت حماية ونفوذ زوجها" (سبق شرحه في الفصل الأول) ساريًا في الدولة الجديدة حيث يحتفظ الزوج بسلطة قانونية على زوجته كشخص وعلى ملكيتها وعلى اختياراتها، حتى أن عبارة "يملك ويعقد" ظهرت في عقود نقل ملكية الأراضي من مالك إلى آخر وفي تعهدات الزواج الشائعة، يمكن القول بإيجاز أنه على الرغم من التوسع في الديمقراطية، إلا أن العمل السياسي ظل عالمًا ذكوريًا بشكل كاسح.

كانت الحرية السياسية تعني بالنسبة للرجال الحق في الحكم الذاتي، وسلطة الموافقة على الأفراد والنظم السياسية الذين يحكمونهم، أما بالنسبة للنساء فإن عقد الزواج كان يبطل ويحل محل العقد الاجتماعي، فعلاقة المرأة مع زوجها تتوسط علاقتها بالمجتمع الأكبر، فهي لا تتعامل مباشرة مع المجتمع العام ولكن من خلال زوجها، ولاسيما في كل من مجال القانون وفي الواقع الاجتماعي، حيث تفتقر النساء للمؤهلات الأساسية للمشاركة السياسية والفرصة للحكم الذاتي على أساس ملكية العقارات أو سيطرة الفرد على نفسه، وحيث إن القانون العام أدرج النساء ضمن الوضع القانوني لأزواجهن، لذلك لا يمكن القول إن النساء يستطعن التملك بالأصالة عن أنفسهن كما هو الحال مع الرجل.

افتخر الرجال بالصفات التي تميزهم عن النساء مثل الاستقلالية والذكورة، وكانوا ما زالوا يعتبرون أن السيطرة على أسرهم تمثل أحد عناصر الحرية، حتى أن من بين ممارسات حرمان العبيد التي استشهدت بها مجموعة من الذكور السود في التماساتهم التي قدموها في عام 1774، هي منع زوجاتهم من "الخضوع لهم في كل شيء" على خلاف ما يقتضي النظام الطبيعي للكون، وقد شعر العديد من النساء اللاتي دخلن في النقاش العام بالحاجة إلى الاعتذار عن العلانية والصرامة التي تحدثن بها، كما أن مجموعة النساء من "الكويكر" اللاتي تقدمن بالتماسات إلى الكونجرس خلال حرب الاستقلال احتجاجًا على إساءة معاملة الرجال الذين لم يؤدوا قَسَمَ الولاء، أعربن عن أملهن "بألا يجد المشرعين غضاضة في حرية المرأة".

اعتبر معظم الرجال أن المرأة بطبيعتها خاضعة ومنقادة وانفعالية، وبالتالي فهي غير صالحة للحصول على المواطنة، ولذلك بينما ركز النقاش العام في العصر الثوري على حقوق الرجال باعتبارها استحقاقات طبيعية، أكدت النقاشات الخاصة بدور النساء على الواجب والالتزامات وليس الحرية الفردية، فحقوقهن كانت غير سياسية ومستمدة من أدوارهن كزوجات وأمهات.

وبصفة عامة، كان المواطن الجمهوري بحكم التعريف هو "الذَّكَر"؛ ففي قضية بارزة، حيث أعادت محكمة في ماساتشوستس ممتلكات مصادرة إلى "جيمس مارتن" كانت مملوكة من قبل لوالدته التي فرت من الولاية خلال الثورة مع زوجها الموالي لإنجلترا، حيث إن ماساتشوستس مثل الولايات الأخرى تصادر الأرض المملوكة لأولئك الموالين الذين دعموا البريطانيين، ولكن لأن المحكمة قضت بأنه من غير المعقول توقع أن تمارس الزوجة حكمًا سياسيًا مستقلا، وبالتالي فهي تابعة لزوجها ولا يكاد أحد يستطيع توجيه طلب إلى الزوجة بالتمرد ضد زوجها وعدم الفرار معه - وإن كان من الممكن التمرد ضد الملك- لذلك رأت المحكمة أنه لا ينبغي معاقبتها لأنها انحازت للجانب البريطاني.

الأمومة الجمهورية

بالرغم من ذلك، أسفرت الثورة عن تحسن في وضع العديد من النساء، فوفقًا لأيديولوجية "الأمومة الجمهورية" التي ظهرت نتيجة للاستقلال، لعبت النساء دورًا لا غنى عنه من خلال إعداد مواطني المستقبل، وقد كتب "جون آدامز" قائلاً إنه "ينبغي غرس أساس الأخلاق الوطنية داخل الأسر الخاصة." على الرغم من أن الأمومة الجمهورية قضت على مشاركة الإناث المباشرة في السياسة، إلا أنها شجعت على توسيع الفرص التعليمية للمرأة حتى يستطيع نقل الحكمة السياسية لأولادها، وقد كتب "بنجامين راش" قائلاً إن المرأة بحاجة إلى الحصول على "التعليم المناسب" لتمكينها من "إرشاد أبنائها لمبادئ الحرية والحكومة".

وقد عززت فكرة الأمومة الجمهورية هذا الاتجاه الذي كان قد تجلى بالفعل في القرن الثامن عشر نحو فكرة "زواج الرفقاء الأصدقاء"، وهو عبارة عن اتحاد طوعي قائم على أساس المودة والاعتماد المتبادل وليس على أساس سلطة الذكر، وقد أوصت "أبيجيل آدامز" في رسالتها إلى جون آدامز، التي نقلناها سابقًا، بأنه ينبغي على الرجال التخلي عن طيب خاطر عن "لقب "السيد" بما ينطوي عليه من قسوة إلى لقب الصديق بما ينطوي عليه من العطاء والتحمل".

وقد غيرت الثورة هيكل الحياة الأسرية ذاته، فبينما كانت الأسرة في أمريكا الاستعمارية تضم غالبًا الموظفين بعقود، والمتدربين، والعبيد؛ ظل العبيد في الجنوب بعد الاستقلال أعضاء من أسرة مالكهم من الناحية البلاغية على الأقل، أما في الشمال فقد انخفضت بسرعة مختلف أشكال العبودية بعقود لمدة والتلمذة الصناعية، وترسخ تعريف أكثر حداثةً للأسرة التي تتألف من الوالدين وأطفالهم في حين لا يعتبر العمال المأجورون سواء خدم المنازل أو عمال المزارع جزءًا من الأسرة.

مثل العبيد، كيفت بعض النساء الحرائر خطاب الثورة ليتناسب مع أوضاعهن، وقد أشارت آن كارسون بيكر" في وقت لاحق كيف" أنها أصبحت مُبْعَدة عن الزوج المستبد الذي تزوجته وهي في سن السادسة عشرة، كنت أميركية وقد منحتني أرض الحرية مولدًا جديدًا بأن سمحت لي بالتخلص من هذا الزواج بدلاً من الاستمرار معه كأنني عبدة، وشعرت أنني على قدم المساواة معه؛ ومع ذلك، وخلافًا لحالة العبيد الفعلية، فإن خضوع المرأة لم يصبح مصدرًا رئيسيًا للنقاش العام إلا بعد فترة طويلة من الاستقلال الأمريكي.

الجهاد الشاق في سبيل الحرية

لقد غيَّرت الثورة حياة كل الأمريكيين تقريبا، فنتيجة للنضال الطويل ضد الحكم البريطاني توسعت دائرة المشاركة في الشأن العام والحق في التصويت بشكل ملحوظ، وانخفض العمل الملزم بين البيض بشكل كبير وتمتعت الجماعات الدينية بقدر أكبر من الحرية؛ وتحدى السود الرق وبالفعل، فاز العديد منهم بحريتهم وتمتعت النساء بمكانة أعلى في بعض النواحي؛ أما على الجانب الآخر، فقد كان الاستقلال الأمريكي يعني الحرمان من الحرية بالنسبة للهنود، وكثير من الموالين، والغالبية العظمى من العبيد.

عبر أحد المعجبين البريطانيين قائلاً" إن الحرية الحقيقية التي قامت أمريكا على أساسها هي نظام جديد تمامًا وكليًا للأشياء وللرجال، فالأمة الجديدة التي عرَّفت نفسها على أنها تجسيدًا للحرية، قد اتخذت موقعها على مسرح العالم، حتى أن "إيزرا ستايلز" رئيس مستقبلي لكلية "ييل" كتب في 1775 قائلاً" لم تشهد بريطانيا فقط الصراع والنضال الشاق من أجل الحرية، ولكن

شهدته كل أوروبا أيضا، نرى أننا وضعنا حجر الأساس لإمبراطورية مجيدة في المستقبل، وقمنا بدور سيكون محلاً للتأمل والتقدير على مدى العصور".

كان لدى العديد من الأمريكيين الآخرين نفس قناعة "ستايلز" بأن نضالهم من أجل الاستقلال له أهمية بالنسبة لجميع أنحاء العالم، فهو يشكل في الحقيقة جزءًا من مجموعة أكبر من الحركات التي نهضت وحولت عالم الأطلسي، ولم يشهد عام 1776، مؤلف "باين" بعنوان "الفطرة السليمة" وإعلان "جيفرسون" فحسب، ولكنه شهد أيضًا نشر آدم سميث" لكتابه "ثروة الأمم" في إنجلترا، والذي هاجم فيه السياسة البريطانية لتنظيمها الصارم للتجارة، وشهد أيضًا نشر "جيرمي بنثام" لكتاب بعنوان "شذرات عن الحكومة"، الذي انتقد فيه طبيعة الحكومة البريطانية.

اجتاحت رياح التغيير عالم المحيط الأطلسي، وقد ساعدت "مُثُل" ومبادئ الثورة الأمريكية على إلهام عدد لا يحصى من حركات النضال اللاحقة من أجل المساواة الاجتماعية والاستقلال الوطني، من الثورة الفرنسية التي انفجرت في عام 1789، إلى الانتفاضة التي أطاحت بنظام الرقيق في هاييتي في التسعينيات من القرن الثامن عشر، إلى حروب أمريكا اللاتينية في أوائل القرن التاسع عشر من أجل الاستقلال، إلى حركات النضال العديدة من جانب الشعوب المستعمرة من أجل القومية في القرن العشرين؛ ومع ذلك، استمر النقاش والجدال طويلاً في الجمهورية الجديدة حول من ينبغي أن يتمتع بمزايا ونعم الحرية بعد أن تحقق الاستقلال.

أصوات الحرية

من أبيجيل آدامز إلى جون آدامز

برينفري، ماساتشوستس (31 مارس (آذار) 1776)

حافظت "أبيجيل آدامز" على التراسل الناشط من وطنها في "ماساتشوستس" مع زوجها بينما كان في "فيلادلفيا" يخدم في الكونجرس القاري، وتقترح عليه في هذا الخطاب بعض حدود التزام الوطنيين بالحرية.

أتمنى أن تكتب لي نصف عدد الخطابات التي أرسلها لك وتقول لي إذا استطعت أين ذهب بك الأسطول؟ وأي نوع من الدفاع تملكه "فرجينيا" ضد عدونا المشترك؟ وما إذا كانت في وضع يسمح لها بالدفاع؟ . . . أحيانًا ما أجد نفسي مستعدة للتفكير في أنه لا توجد عاطفة أقوى من العاطفة من أجل الحرية. أنا على يقين من أن هذا لا يقوم على أساس مبدأ الكرم ومبادئ والمسيحية بأن نعامل الآخرين كما نحب أن يعاملوننا ولكن لحب الحرية في حد ذاتها. . . .

أتوق لسماع أنك قد أعلنت الاستقلال وفي السبيل لوضع نظام قانوني جديد، الذي أعتقد أنه سيكون من الضروري أن تقوم به. أود أن تتذكر السيدات عند وضع هذا النظام القانوني وأن تكون أكثر سخاءً وفهمًا لهم ولمصالحهن أكثر مما فعل أجدادك الذين ظلموا المرأة. لا تترك هذه السلطة الغير المحدودة في أيدي أزواجهن، وتذكر أن كل الرجال سيكونون طغاة إذا ما استطاعوا ذلك. إذا لم تول عناية خاصة بالسيدات فأنت تغرس بذرة التمرد لأننا نحن النساء لن نحمل أنفسنا على الالتزام بأي من تلك القوانين التي لم يكن لنا فيها صوت أو تمثيل.

من التماسات العبيد إلى السلطات التشريعية
في ماساتشوستس (1773 و 1777)

رأى بعض العبيد أن النضال من أجل الاستقلال فرصة لتأكيد مطالبهم بالحرية، وكانت الالتماسات التي يرسلها العبيد في ماساتشوستس إلى السلطات التشريعية من بين الجهود الأولى نحو إلغاء العبودية.

إن الجهود التي بذلتها السلطات التشريعية في دوراتها الأخيرة لتحرير هذا الإقليم من العبودية أعطتنا نحن من يعيش في حالة يرثى لها درجة عالية من الرضا، فقد توقعنا أشياء عظيمة من الرجال الذين اتخذوا هذا الموقف النبيل ضد خطط اتباعهم لاستعبادنا، ولا نملك هنا سوى أن نتمنى ونأمل يا سيدي أن يكون لديكم نفس الشيء، نعني بذلك الحرية المدنية والدينية نصب أعينكم عند انعقاد الدورة المقبلة.

يدرك الملتمسون بأنهم يتقاسمون مع جميع الرجال الآخرين حق طبيعي وغير قابل للتصرف في الحرية التي وهبها الله للبشرية جمعاء على قدم المساواة، والتي لم يصادرها الله من البشر أبدًا بعهد أو باتفاق مهما كان، ولكن جردتهم ظلمًا سلطة قاسية حيث ابعدوهم من أعز أصدقائهم ومن بلد بها وفرة من السكان والخيرات ولطيفة في انتهاك قوانين الطبيعة والأمم، وفي تحد لجميع مشاعر العطاء الإنساني ليجلبوهم هنا ليتعرضوا للبيع مثل الحيوانات التي تحمل الأثقال وبين شعب يقر بأنهم يعتنقون دين المسيحية المعتدل.

لقد انتظرنا طويلاً وتقدمنا بالالتماسات بعد الالتماسات، وانتظرنا بصبر بعدما تقدمنا بها إلى الهيئة التشريعية، ثم أصابتنا الدهشة أن هذه القضية لم يحن وقت بحثها في الجلسات الماضية، إننا نسألكم بكل مبدأ تصرفت به أمريكا أمام الصعوبات التي واجهتها خلال نضالها ضد بريطانيا العظمى ونتوسل إليكم بقوة بأن تستردوا لنا هذا الحق الطبيعي كما استرددتم حقكم من بريطانيا.

أسئلة:

1- ماذا كان في ذهن "أبيجيل آدامز" عندما أشارت إلى "السلطة غير المحدودة" التي يمارسها الأزواج على زوجاتهن؟

2- كيف استخدم العبيد مبادئ الثورة لأهدافهم الخاصة؟

3- إلى ماذا تشير هذه المستندات عن حدود الحرية في عصر الثورة الأمريكية؟

أسئلة المراجعة:

1- استند المجتمع الاستعماري إلى عدم المساواة وطاعة السلطة. كيف واجهت الثورة الأمريكية النظام القائم في المجتمع؟

2- لماذا أحدثت الثورة تغيرات جذرية في ولاية "بنسلفانيا" أكثر من أي مكان آخر، وكيف تجلت هذه الراديكالية في دستور الدولة الجديدة؟

3- أنكر المحافظون أن الحرية والمساواة مترادفين وعارضوا نمو الديمقراطية حتى بعد الثورة الأمريكية. كيف قاوم المحافظون دمقرطة الجنوب؟

4- ما الدور الذي تنبأ به المؤسسون بالنسبة للدين في الحكومة الأمريكية والمجتمع؟

5- ما هو تأثير الثورة الأمريكية على الأمريكيين الأصليين؟

6- ما هي أهم ملامح دساتير الدولة الجديدة؟

7- كيف منعت الآراء الشعبية حول حقوق الملكية وعقد الزواج النساء والعبيد من التمتع بجميع حريات العقد الاجتماعي؟

8- ما هي "الأمومة الجمهورية"؟ ولماذا كانت هامة؟

أسئلة الحرية:

1- تحدث الثورات تغيرًا وتتحدي السلطة، وتشجع المجموعات المهمشة على تطبيق المُثُل الثورية على أوضاعهم. كيف استخدم العبيد، والموظفون بعقود لمدة، والنساء، والأمريكيون الأصليين (الهنود) المُثُل العليا للحرية لإبراز قضاياهم؟

2- أصر الوطنيون في وقت الحرب على أن حرية الضمير كانت تمثل جزءًا أساسيًا من الحرية. ما هي الخطوات التي تم اتخاذها لحماية الحرية الدينية، وهل تمتع الجميع بالحرية؟

3- كان الأمريكيون قبل الثورة الأمريكية يعتقدون عادة أن دور الحكومة هو تعزيز الصالح العام، أما بعد الحرب فقد دافع التجار وغيرهم من القادة عن التجارة الحرة والأسواق الحرة التي تخضع للمصالح الخاصة كتعبير عن الحرية. كيف حَرَمَ هذا المفهوم الجديد للحرية بعض الأمريكيين الآخرين من حرياتهم؟

4- ادعى الوطنيون أنهم يخوضون حربًا من أجل حماية الحرية في أمريكا، إلا أن هذه الأفكار لم تنطبق على الجميع. كيف عانى الموالون والهنود، ولماذا لم يتم حماية "حقوقهم الطبيعية"؟

5- كان "الرق" و"الحرية" المصطلحين الأكثر استخدامًا في النقاش حول الحرية. كيف تم تطبيق هذه الحقوق السياسية على مالكي العقارات البيض ثم يكون لهما معنى مختلفًا تمامًا عند الإشارة إلى الأمريكيين من أصل أفريقي الذين تم الإبقاء عليهم باعتبارهم ممتلكات؟

جدول المراجعة	
الحرية ودساتير الولايات	
الأحكام	الولايات
إلغاء شروط الملكية للتأهيل للتصويت.	كل الولايات باستثناء "فيرجينيا" و"ميريلاند" و"ساوث كارولينا".
إلغاء شروط الملكية ودفع الضرائب للتأهيل للتصويت.	ولاية "فيرمون".
منح حق التصويت للسود الذين تتوفر فيهم الشروط.	كل الولايات ماعدا "فيرجينيا" و"ساوث كارولينا" و"جورجيا".
حكومة ذات مجلس تشريعي واحد.	ولاية "بنسلفانيا"، و"جورجيا" و"فيرمون".
حكومة ذات مجلسين تشريعيين.	كل الولايات ماعدا "بنسلفانيا"، و"جورجيا" و"فيرمون".
ضمان حرية العقيدة بالكامل.	نيويورك.
حرمان الحاكم من حق الفيتو.	كل الولايات ماعدا "ماساتشوستس".
ارساء مبدأ الانتخابات السنوية لزيادة الخضوع إلى المحاسبة.	كل الولايات ماعدا "نورث كارولينا".

الفصل السابع

1772	قضية سومرست
1777	وضع أحكام الاتحاد الكونفيدرالي
1781	إقرار أحكام الاتحاد الكونفيدرالي
1782	خطاب من مزارع أمريكي
1784-1785	اعتماد قوانين الأراضي
1785	مذكرات جيفرسون عن ولاية فيرجينيا
1787	تمرد شايز / قانون الشمال الغربي لعام 1787
1787	عقد المؤتمر الدستوري
1788	التصديق على الدستور الفيدرالي
1790	قانون التطبيع
1791	التصديق على قانون الحقوق / لتيل تيرتل يهزم قوات أرثر سانت كلير
1794	هزيمة لتيل تيرتل في معركة فولن تيمبرز
1795	معاهدة جرينفيل
1808	الكونجرس يحظر تجارة العبيد

نشأة أمة: 1783-1789

أمريكا تحت الاتحاد الكونفدرالي

مواد الاتحاد الكونفدرالي

الكونجرس والغرب

المستوطنون والغرب

مراسيم الأرض

نقاط الضعف في الاتحاد الكونفدرالي

تمرد "شايز"

قوميو الثمانينيات من القرن الثامن عشر

دستور جديد

هيكل الحكومة

حدود الديمقراطية

التقسيم والفصل بين السلطات

الجدل حول العبودية

العبودية في الدستور

الوثيقة الختامية

الجدل حول التصديق على الدستور وأصل مشروع قانون الحقوق

الفدراليون

"توسيع الدائرة"

مناهضو الفدرالية

مشروع قانون الحقوق

"نحن الشعب"

الهوية الوطنية

الهنود في الأمة الجديدة

السود والجمهورية

جيفرسون والعبودية والأصل العرقي

مبادئ الحرية

أسئلة تركيز:

- ما هي إنجازات الحكومة الكونفدرالية وما هي المشاكل التي واجهتها؟
- ما هي أوجه الاختلاف الرئيسية حول المحتوى النهائي للدستور وما هي الحلول الوسط والتنازلات التي تم على أساسها التوصل للصيغة النهائية؟
- كيف أدت مخاوف مناهضي الفدرالية أثناء التصديق على الدستور إلى خلق مشروع قانون الحقوق؟
- كيف استبعد تعريف المواطنة في الجمهورية الجديدة الأمريكيين الأصليين والأمريكيين من أصل إفريقي؟

نظَّم القادة المدنيون خلال شهري يونيو (حزيران) ويوليو (تموز) من عام 1788 المواكب الملونة في المدن أعلى ساحل المحيط الأطلسي وأدناه للاحتفال بالتصديق على دستور الولايات المتحدة، وقد علَّق "بنيامين روش" على يوم واحد من موكب "فيلادلفيا" قائلاً "لقد اختفت الفوارق بين الطبقات الاجتماعية" مع تدفق الآلاف من المتظاهرين من الأغنياء، والفقراء، ورجال الأعمال والمتدربين على حد سواء في الاحتفال المشترك العام، وكان على رأس موكب نيويورك الفدرالي الكبير المزارعون ثم يليهم أعضاء كل حرفة في المدينة من الجزارين، وصناع البراميل الخشبية، إلى البنائين، والحدادين، والطابعين، بينما جاء المحامون، والتجار، ورجال الدين في ذيل الموكب، وقد شهدت هذه المسيرات بالدعم الشعبي الجارف للدستور عبر البلاد، وكذلك عكست الدور البارز للحرفيين المهرة كيف ضمنت الثورة لهم مكانًا في الشأن العام الأمريكي، وقد أحيا الهيكل الجديد للحكومة الآمال التي انعكست في اللافتات التي تحملها فئات الشعب وفي هتافاتهم، وقد أعلن البحارة وشركات بناء السفن في فيلادلفيا عن ذلك بقولهم "نأمل أن تزدهر التجارة وأن تكون الصناعة مجزية".

تحدث الأمريكيون طوال عهد الثورة عن بلادهم بأنها "الإمبراطورية الصاعدة" المقدر لها أن تُعمِّر الأرض بالسكان وأن تسيطر على قارة أمريكا الشمالية بأكملها، وبينما كانت إمبراطوريات أوروبا محكومة بالقوة، ستكون أمريكا مختلفة تمامًا كما انعكس في عبارة "جيفرسون" "بأنها ستكون إمبراطورية من الحرية" ترتبط معًا بالتفاني المشترك لمبادئ إعلان الاستقلال، وبالفعل تجاوزت الولايات المتحدة في حجمها كل من بريطانيا العظمى، وإسبانيا، وفرنسا مجتمعين، بالإضافة إلى أنها تتمتع كأمة جديدة بالعديد من المزايا، بما في ذلك العزلة المادية عن العالم القديم (وهي الميزة التي أثبتت أهميتها في الفترة ما بين عامي 1789 و 1815 عندما كانت القوى الأوروبية في حالة حرب باستمرار تقريبا)، وهي أمة شابة حيث ينمو عدد سكانها الشباب بشكل أكبر بكثير، وأخيرًا هناك توزيع واسع للملكية والمعرفة بالقراءة والكتابة بين المواطنين البيض.

وفي حين كان يحلم الأمريكيون بالازدهار الاقتصادي والإمبراطورية القارية، لم تكن الآفاق من ناحية أخرى في فترة ما بعد الاستقلال واعدة تماما، حيث لم يكن هناك تأمين كامل للسيطرة على الأراضي الشاسعة بأي حال من الأحوال، فتقريبًا كان كل الشعب الأمريكي البالغ 3.9 مليون نسمة، في أول تعداد وطني تم في عام 1790، يعيشون تقريبًا بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي، وكان مازالت هناك مناطق واسعة في الغرب من جبال الأبلاش في أيدي الهنود، بينما احتفظ البريطانيون بمواقع عسكرية على الأراضي الأمريكية بالقرب من منطقة البحيرات العظمى، وكذلك كانت هناك مخاوف من أن إسبانيا قد تغلق ميناء "نيو أورلينز" أمام التجارة الأمريكية على نهر المسيسيبي.

وبعيدًا عن الممرات المائية الصالحة للملاحة، كانت الاتصالات والنقل بدائيين، حيث كانت البلاد ريفية بأغلبية ساحقة، حيث كان أقل من أمريكي، من بين كل ثلاثين شخص، يعيش في مكان يضم 8.000 نسمة أو أكثر، ويتألف السكان من العديد من الجماعات العرقية والدينية وحوالي 700.000 من العبيد، مما يجعل من الصعب تحقيق وحدة وطنية، وبالفعل لم يتم إنشاء أي حكومة جمهورية قبل هذا على إقليم بهذا الاتساع أو بذلك التنوع السكاني، ولذلك كانت الولاءات المحلية تفوق الولاءات الوطنية القومية، وقد علق "جون آدامز" قائلاً "ليس لدينا أمريكيين في أمريكا"، ولذلك فإن غرس جذور عميقة للوعي بجنسية مشتركة سيستغرق بعض الوقت.

نظرًا لأن الولايات المتحدة أقوى دولة على وجه الأرض اليوم، فمن الصعب أن نتذكر أن المستقبل كان يبدو من منظور عام 1783 غير مستقر بالفعل لأمة هشة تسعى لشق طريقها في عالم من قوى معادية كبيرة، وتزاحمت الأسئلة العميقة التي تحتاج إلى الرد عليها، على سبيل المثال، ما مسار التنمية الذي ينبغي على الولايات المتحدة انتهاجه؟ كيف يمكن حفظ التوازن بين المطالب المتنافسة للحكم الذاتي المحلي والمصالح الفئوية والسلطة الوطنية؟ من في الشعب الأمريكي الذي ينبغي اعتباره عضوًا كامل العضوية يحق له التمتع بمزايا ونعم الحرية؟ أصبحت هذه القضايا محورًا لمناقشات ساخنة بينما كان يسعى الجيل الأول من الأمريكيين إلى تعضيد وتعزيز الجمهورية الجديدة.

أمريكا في ظل الاتحاد الكونفدرالي

مواد الاتحاد الكونفدرالي

كانت مواد الاتحاد الكونفدرالي بمثابة أول دستور مكتوب للولايات المتحدة، وقد صاغه الكونجرس في عام 1777 وصادقت عليه الولايات بعد أربع سنوات، وقد سعت بنوده إلى تحقيق التوازن بين الحاجة إلى التنسيق الوطني بين حرب الاستقلال وبين الخوف المنتشر على نطاق واسع بأن السلطة السياسية المركزية من شأنها أن تشكل خطرًا على الحرية، وأعلن صراحة أن الحكومة الوطنية الجديدة ستكون "متحدة للأبد"، ولكنه كان بمثابة معاهدة للدفاع المشترك- على حد تعبيره "الرابطة الراسخة للصداقة" بين الولايات"- أكثر منه مخطط لحكومة مشتركة، وبموجب تلك البنود احتفظت الثلاث عشر ولاية "بالسيادة والحرية والاستقلال" كل على حدة بشكل فردي. تألفت الحكومة الوطنية من مجلس واحد، وهو الكونجرس ولكل ولاية صوت واحد فيه، مهما كانت كبيرة أو كثيفة السكان، ولم يكن هناك رئيس لإنفاذ القوانين ولا قضاء لتفسيرها، وكانت القرارات تتطلب موافقة تسع ولايات وليس أغلبية بسيطة.

كانت السلطات الوحيدة الممنوحة تحديدًا للحكومة الوطنية بموجب بنود الاتحاد الكونفدرالي هي تلك الضرورية للنضال من أجل الاستقلال - وهي إعلان الحرب وإدارة الشئون الخارجية وعقد المعاهدات مع حكومات أخرى، ولم يكن للكونجرس أية موارد مالية حقيقية، وكان يمكنه صك العملات المالية ولكنه كان يفتقر إلى القدرة على فرض الضرائب أو تنظيم التجارة، وعلى ذلك كان المصدر الرئيسي لإيراداته مساهمات الولايات فرادي. كان يستلزم تعديل المواد موافقة الولايات بالإجماع وهي عقبة هائلة للتغيير، فعلى سبيل المثال، كان هناك ثمة اقتراحات بتعديلات مختلفة لتعزيز الحكومة الوطنية خلال السنوات السبع (1781-1788) عندما كانت بنود الاتحاد الكونفدرالي سارية ولكن لم يحظ أي منها بموافقة جميع الولايات.

جعلت مواد الدستور من المستحيل قيام حكومة وطنية همامة، ولكن الكونجرس لم يفتقر للإنجازات في الثمانينيات من القرن الثامن عشر، ومن أهمها إنشاء رقابة وطنية على الأرض الواقعة إلى الغرب من ثلاث عشرة ولاية ووضع قواعد تحكم عملية استيطانية، وقد كادت الخلافات حول الحصول على الأراضي في الغرب تحول دون التصديق على بنود الدستور من الأساس. زعمت ولايات مثل "فرجينيا" و"كارولينا الشمالية والجنوبية" و"كونيكتيكت" ملكيتها لمساحات هائلة من الأراضي الغربية مستشهدين في ذلك بعقود الامتياز المَلكيّة الأصلية الصادرة عن الملك التي منحت أراضي تمتد حتى "بحر الجنوب" (المحيط الهادئ)، وأصر مضاربو الأرض، والسياسيون، والمستوطنون المحتملون من الولايات ذات الحدود المرسومة بشكل واضح على أن هذه الأرض يجب أن تنتمي إلى الأمة ككل، وبالفعل لم تحظ المواد بالتصديق إلا بعد أن تنازلت الولايات الغنية بالأرض عن مطالباتهم بالأراضي الغربية إلى الحكومة المركزية وذلك لإعلاء المصلحة والوحدة الوطنية.

الكونجرس والغرب

لم يكن من السهل بأي حال من الأحوال وضع قواعد استيطان الفضاء الوطني الممتد من الحدود الغربية للولايات القائمة حتى نهر المسيسبي، الذي كان يخضع لسيطرة الحكومة الاتحادية؛ فعلى الرغم من أن بعض الأمريكيين كانوا يتحدثون عن تلك المنطقة كما لو كانت فارغة، إلا أنها كانت في الحقيقة مأهولة بحوالي 100.000 من الهنود. اتخذ الكونجرس في أعقاب الاستقلال مباشرة موقفًا مفاده أن الهنود قد فقدوا الحق في أراضيهم من خلال مساعدتهم للبريطانيين وأنه لذلك يجب مصادرتها منهم، إلا أنه كان هناك ثمة تمييز كبير بين القبائل التي وقفت في صف العدو وتلك التي قد ساعدت الوطنيين وتلك الموجودة في المناطق الداخلية التي لم تلعب أي دور في الحرب على الإطلاق، وفي مؤتمرات السلام التي عُقِدَتْ في عام 1784 في

فورت ستانويكس بنيويورك وكذلك فورت ماكينتوش بالقرب من بيتسبرج في العام التالي، طالب وتلقى نواب أمريكيون التنازل عن الكثير من الأراضي الهندية في الشمال من نهر أوهايو، وسرعان ما تبع ذلك عقد معاهدات مماثلة مع قبائل شيروكي، والشوكتو، وشيكاسو في الجنوب، على الرغم من أن الكونجرس كان قد ضمن هنا ديمومة الأملاك المتبقية التي كانت قد انخفضت كثيرًا للهنود، وهكذا تم تأمين السيطرة الوطنية على جزء كبير من أراضي غرب البلاد من خلال هذه المعاهدات.

وقد واجهت الحكومة الكونفدرالية ضغوطًا متضاربة عند التصرف في الأراضي الغربية وتنظيم الاستيطان فيها، حيث اعتقد العديد من القادة أن الصحة الاقتصادية للجمهورية الجديدة تتطلب أن يتمكن المزارعون من الحصول على الأراضي في نفس الوقت الذي رأوا أن مبيعات الأراضي يمكن أن تكون مصدرًا محتملاً للإيرادات ويشعرون بالقلق من أنه سينتج عن الاستيطان الغير المنظم صراعات لا نهاية لها مع الهنود، وتزامن ذلك مع ضغط شركات الأرض على الكونجرس بقوة أملاً في تحقيق الربح من خلال شراء العقارات وإعادة بيعها إلى المستوطنين، وأصرت على أنه ينبغي على الحكومة أن تتنحى جانبًا للسماح لمجموعات خاصة بالسيطرة على التنمية الاقتصادية في الغرب.

المستوطنون والغرب

أطلق حلول السلام في الوقت نفسه عنان تحرك عدد كبير من السكان من الأجزاء المستوطنة بالولايات الأصلية إلى داخل المناطق الحدودية، مثل شمال نيويورك وعبر جبال الأبلاش في كنتاكي وتنيسي؛ وكان المستوطنون يرون أن الاستيلاء على الأراضي الغربية واستخدامها كما يرونه مناسبًا يمثل عنصرًا أساسيًا من الحرية الأمريكية بالنسبة لهم، وعندما قدمت مجموعة من سكان أوهايو شكوى إلى الكونجرس في عام 1785 باعتداء الملاك والمضاربين على المساحات المتاحة من الأفدنة واحتكارها، وطالبوا بإعطاء الأفضلية في ملكية الأرض للمستوطنات الفعلية، وكان شعارهم امنحونا الحرية، وفي الحقيقة لم يبال المستوطنون بمستندات ملكية الأراضي الهندية وحثوا الحكومة على تحديد سعر منخفض للأراضي العامة أو توزيعها مجانا، وكثيرًا ما احتلوا أراضي بدون أن يكون لديهم سند قانوني، وبحلول التسعينيات من القرن الثامن عشر، كانت المحاكم في كنتاكي حافلة بالدعاوى القضائية حول مطالبات الأراضي، وخسر العديد من المستوطنين الأرض التي ظنوا أنهم امتلكوها، وأخيرًا أجبرت تلك النزاعات على الأراضي العديد من أوائل المستوطنين (بما في ذلك والدي أبراهام لينكولن) على مغادرة كنتاكي بحثًا عن فرص في ولايات أخرى.

وفي الوقت نفسه فإنه وكما فعل المسئولون الاستعماريون البريطانيون من قبلهم تماما، كان العديد من قادة الدولة الجديدة يخشون من أن يؤدي التدفق غير المنظم للسكان عبر جبال الأبلاش إلى إثارة حرب مستمرة مع الهنود؛ وعلاوة على ذلك، فقد كانوا يرون أن مستوطني الحدود غير منضبطين ويفتقرون إلى الاحترام الواجب للسلطة، حتى أن "بنيامين فرانكلين" وصفهم ذات مرة بقوله "المدينون الأمريكيون، والماجنون الإنجليز، والخدم الألمان والعبيد"، وبدا أن فرض القانون والنظام في الغرب والقواعد الصارمة لاحتلال الأرض هناك يعد ضروري لجذب فئة أفضل من المستوطنين إلى الغرب وتجنب الشقاق بين الأجزاء المستوطنة والأجزاء الحدودية من الأمة الجديدة.

مرسوم الأرض

حددت سلسلة من التدابير التي أقرها الكونجرس خلال الثمانينيات من القرن الثامن عشر الشروط التي سيتم على أساسها تسويق وتوطين الأراضي الغربية، حيث حدد مرسوم عام 1784، الذي صاغه "توماس جيفرسون"، مراحل الحكم الذاتي للغرب، حيث سيتم تقسيم المنطقة إلى مناطق تخضع مبدئيًا للكونجرس ثم يتم ضمها في نهاية المطاف إلى الاتحاد كولايات أعضاء، وتضمن هذا المرسوم بندًا يحظر العبودية في جميع أنحاء الغرب، ولكن الكونجرس رفضه بفارق صوت واحد. نظَّم المرسوم الثاني لعام 1785 بيع الأراضي في المنطقة الواقعة شمال نهر أوهايو، والتي أصبحت معروفة باسم الشمال الغربي القديم، وكان ينص على مسح الأراضي من قبل الحكومة ثم يتم بيعها في شكل "قطع" تبلغ مساحة كل منها ميل مربع (640 فدان) في مقابل دولار واحد لكل فدان، على أن يتم حجز قطعة في كل بلدة لتوفير الأموال اللازمة لنفقات التعليم العام؛ وقد وعد هذا النظام بالتحكم في الاستيطان وتركيزه وجمع أموال للكونجرس، ولكن المستوطنين انتهكوا القواعد عن طريق التحرك باتجاه الغرب قبل الانتهاء من المسح.

وجد المسئولون الأمريكيون، مثل البريطانيين من قبلهم، صعوبة في تنظيم التعطش للأرض الجديدة، وبالرغم من أن الحد الأدنى لسعر الشراء البالغ 640 دولار قد وضع الأراضي العامة بعيدًا عن متناول معظم المستوطنين، إلا أنهم لجأوا لشراء مساحات أصغر من المضاربين وشركات الأراضي، وقرر الكونجرس في عام 1787 بيع مساحات كبيرة إلى مجموعات القطاع الخاص، بما في ذلك 1.5 مليون فدان لشركة "أوهايو"، وقام بتنظيم ذلك مضاربو الأراضي وضباط الجيش في "نيو إنجلاند" (وهي شركة مختلفة عن شركة أوهايو التي كانت تعمل خلال الخمسينيات من القرن الثامن عشر التي سبق ذكرها في الفصل الرابع) وقد أفادت السياسة الوطنية للأراضي لسنوات عديدة شركات الأراضي الخاصة وكبار المشترين أكثر مما أفادت المستوطنين الأفراد، وضغط المستوطنون الفعليون والمحتملون على مدى عقود عديدة من أجل خفض سعر الأراضي

المملوكة للحكومة، وهو تحرك لم ينته حتى صدور قانون منزل العائلة الكبيرة (الهومستاد) لعام 1862 الذي عرض أراضي مجانية في الأملاك العامة للمواطنين.

في إجراء أخير، دعا المرسوم الشمالي الغربي لعام 1787 إلى إنشاء ما بين ثلاث إلى خمس ولايات شمال نهر أوهايو وشرق نهر المسيسيبي، وهكذا تم سن المبدأ الأساسي لما أسماه "جيفرسون" "إمبراطورية الحرية"، فبدلاً من فرض السيطرة على الغرب كقوة استعمارية، اعترفت الولايات المتحدة بسكان المنطقة كأعضاء في النظام السياسي على قدم المساواة، وبذلك نما كل من التوسع الإقليمي والحكم الذاتي معا.

تعهد مرسوم الشمال الغربي بمراعاة "الحد الأقصى لحسن النية" نحو الهنود المحليين وأن أراضيهم لن تؤخذ دون موافقتهم، وكان هذا أول اعتراف رسمي بأن الهنود سيحتفظون بامتلاك أراضيهم، حيث أدرك الكونجرس أن السماح للمستوطنين وحكومة الولاية بالاستيلاء ببساطة على الأراضي الهندية سيسفر عن نزاعات عسكرية مكلفة على الحدود بلا نهاية، حتى أن عضو بالكونجرس أشار قائلاً "سيكلف الاتفاق مع الهنود أقل بكثير من دفع المال للرجال لتدميرهم"، ولكن السياسة الوطنية للأراضي افترضت أن الوجود الهندي من شأنه أن يختفي قريبًا سواء من خلال الشراء أو المعاهدات أو الإزالة الطوعية، وحظر المرسوم أيضًا العبودية في الشمال الغربي القديم، وهو الحكم الذي سيكون له عواقب بعيدة المدى عندما ينشب الصراع الإقليمي بين الشمال والجنوب، ولكن مالكي العبيد جلبوا العبيد إلى المنطقة لسنوات مدعين أنهم وقعوا طواعية عقود عمل طويلة الأمد.

نقاط الضعف في الاتحاد الكونفدرالي

كان العديد من الأمريكيين ذوي النفوذ يرون أنه مهما كانت إنجازات الحكومة الكونفدرالية، إلا أن إخفاقاتها تفوق ذلك، فقد واجهت كل من الحكومة الوطنية والبلاد بشكل عام تفاقمًا في المشاكل الاقتصادية، حيث اضطر الكونجرس إلى اقتراض مبالغ كبيرة من المال لتمويل حرب الاستقلال عن طريق بيع السندات بفائدة ودفع مستحقات الجنود والموردين بالأموال الورقية لاستبدالها في المستقبل، وافتقر إلى مصدر آمن للدخل ووجد نفسه غير قادر على دفع سواء الفوائد أو الديون نفسها، ونظرًا لأن الولايات المتحدة قد أصبحت الآن خارج الإمبراطورية البريطانية، وبالتالي كان محظورًا على السفن الأمريكية التجارة مع جزر الهند الغربية، إلا أن السلع المستوردة أغرقت السوق رغم ذلك، مما شَكَّلَ تحديًا لأعمال العديد من الحرفيين وأدى إلى خفض الأجور واستنزاف المال للخروج من البلاد نتيجة لشراء السلع المستوردة بدلاً من السلع المحلية.

ونظرًا لعجز الكونجرس عن التصرف، اعتمدت الولايات السياسات الاقتصادية الخاصة بها، حيث فرض العديد منها رسوم جمركية على البضائع المستوردة من الخارج، وضغط المزارعون المدينون الذين يتهددهم خطر فقدان أراضيهم بسبب عدم سداد الضريبة أو الرهن العقاري، ولذلك ضغطوا على حكومات الولايات لإغاثتهم تمامًا كما فعل الحرفيون في المناطق الحضرية المدينون للتجار المحليين، مما اضطر عدة ولايات إلى طبع مبالغ كبيرة من النقود الورقية من أجل زيادة كمية العملة المتاحة للتداول والتسهيل على الأفراد لدفع ديونهم، بينما اضطرت ولايات أخرى إلى سن القوانين التي تؤجل تحصيل الديون، وهو ما اعتبره الدائنون إجراءات عدائية على حقوق الملكية الخاصة بهم، في حين أثارت الانتخابات التشريعية في عدد من الولايات حملات عاصفة اتهم فيها المرشحون لمنصب الرئاسة الدائنين بقمع الفقراء واتهموا مستوردي السلع الفاخرة بتقويض الفضيلة الجمهورية.

تمرد "شايز"

أغلقت حشود المزارعين الغارقين في الديون المحاكم في غرب "ماساتشوستس" في أواخر عام 1786 وأوائل عام 1787 لمنع الاستيلاء على أراضيهم بسبب عدم دفعهم للضرائب، وأطلقوا على أنفسهم اسم "المنظمون" - وهو المصطلح الذي استخدمه بالفعل المتظاهرون في الأحياء الخلفية والريفية في "كارولينا" في الستينيات من القرن الثامن عشر، وقد عُرِفَت الانتفاضة باسم تمرد "شايز" وهو الاسم الذي ألصقه بها خصومها نسبة إلى "دانييل شايز" أحد قادة ومخضرمي حرب الاستقلال، واندلع التمرد لأن "ماساتشوستس" قاومت بشدة الضغوط لإصدار النقود الورقية أو بعبارة أخرى مساعدة المدينين المحتاجين، واعتقد المشاركون في تمرد "شايز" أنهم كانوا يتصرفون بروح الثورة ووضعوا تكتيكاتهم على غرار أنشطة الحشد في فترة الستينيات والسبعينيات من القرن الثامن عشر، واستخدموا أشجار وأعمدة الحرية كرموز لقضيتهم، ولكنهم لم يلقوا أي تعاطف من الحاكم "جيمس بودوين" الذي أرسل جيشا برئاسة جنرال الحرب الثورية السابق "بنيامين لنكولن" وتم تفريق المتمردين في يناير (كانون الثاني) من عام 1787، وأُلقِيَ القبض على أكثر من 1.000 شخص منهم، وقد أعلن "بودوين" أن قمع التمرد ضرورة لأنه بدون الالتزام بسيادة القانون، سيسقط الأمريكيون في براثن "حالة من الفوضى، والارتباك، والعبودية".

عندما علم "توماس جيفرسون" عن تمرد "شايز" من باريس حيث كان يشغل منصب سفير، لم يعتبره إنذارًا وكتب إلى صديق له "إن وجود حركة تمرد صغيرة بين الحين والآخر لهو شيء جيد"، بل وكتب إلى صديق قائلا "يجب تجديد شجرة الحرية من وقت لآخر بدماء الوطنيين والطغاة"، ولكن الانتفاضة كانت تتويجًا لسلسلة من الأحداث وقعت في الثمانينيات من القرن الثامن عشر

والتي أقنعت مجموعة مؤثرة من الأمريكيين أنه يجب تقوية الحكومة الوطنية بحيث يمكنها وضع سياسات اقتصادية موحدة وحماية أصحاب الممتلكات من تعدي الأغلبيات المحلية على حقوقهم بأغلبية محلية. أسفرت أعمال المجالس التشريعية بالدولة (كان معظمهم يتم انتخابهم سنويًا من قِبَلَ عدد موسع من الناخبين) وما تلاها من تمرد "شايز" عن مخاوف من أن الدافع الديمقراطي للثورة قد خرج عن نطاق السيطرة."

كتب "صموئيل أدامز" في عام 1785 قائلا "لدى حكومتنا في الوقت الحاضر الحرية لتحقيق مبتغاها"، ولكن دعاة السلطة الوطنية الأقوى يرون أن الحرية قد فقدت بعضًا من بريقها، حيث خلصوا للاعتقاد بأن الخطر على الحقوق الفردية قد نشأ الآن ليس من الحكومة المركزية المستبدة، ولكن من الناس أنفسهم، كما أعلن "جيمس ماديسون" "قد تكون الحرية معرضة للخطر من إساءة استخدام الحرية وكذلك إساءة استخدام السلطة"، وبعبارة أخرى، فإن الحرية الخاصة، ولا سيما، التمتع الآمن بحقوق الملكية قد للخطر من قبل الحرية العامة - أي السلطة بدون رادع في يد الشعب.

قوميو الثمانينيات من القرن الثامن عشر

كان "ماديسون"، وهو شخص ضئيل الحجم من ولاية فرجينيا وحليف وتلميذ "توماس جيفرسون" على مدى حياته، يعتقد بعمق وبشكل خلاق في طبيعة الحرية السياسية، وكان من بين مجموعة الرجال الموهوبين والمنظمين تنظيمًا جيدًا الذين قادوا الحركة لتشكيل حكومة وطنية أقوى؛ وكان الشخص الآخر هو "الكسندر هاملتون" الذي أتى من جزر الهند الغربية إلى أمريكا الشمالية وهو شاب، وخدم في أوائل العشرينيات من عمره كضابط في الجيش أثناء حرب الاستقلال وتزوج من فتاه تنتمي لأسرة بارزة في "نيويورك"، وربما كان هاملتون هو المؤيد الأكثر نشاطًا للحكومة "الهمامة" التي مكنت الدولة الجديدة من أن يكون لها وجود تجاري ودبلوماسي قوي في الشئون العالمية، وقال مصرًا على أن الحرية الحقيقية تتطلب "درجة مناسبة من السلطة لإصدار القوانين وممارستها". كان الرجال من أمثال "ماديسون" و"هاملتون" هم بناة الأمة، وقد توصلوا خلال الثمانينيات من القرن الثامن عشر للاعتقاد بأن الأمريكيين كانوا يبددون ثمار الاستقلال، وأن عظمة البلاد في المستقبل تتوقف على تعزيز السلطة الوطنية.

وجدت المخاوف التي عَبَّرَ عنها منتقدو بنود اتفاقية الدستور آذانًا صاغيةً بين الرجال الذين صنعوا الوعي الوطني خلال الثورة، فنشأت حركة القوميين التي ضمت فئات متنوعة قد تختلف فيما بينها حول العديد من القضايا ولكن يجمعهم شيء واحد، وهو الاعتقاد بالحاجة إلى حكومة وطنية أقوى، على سبيل المثال، ضباط بالجيش وأعضاء في الكونجرس اعتادوا العمل مع الأفراد من ولايات مختلفة ودبلوماسيين مثلوا البلاد في الخارج، وفي الجيش طور "جون مارشال"

(الذي أصبح في وقت لاحق رئيس المحكمة العليا)، شعار "عادة اعتبار أمريكا بلدي والكونجرس حكومتي"، كما كان أصحاب المصالح الاقتصادية ذوي النفوذ الذين يرغبون أيضًا في حكومة وطنية أقوى، وكان من بين هؤلاء حملة السندات الذين يئسوا من أن يستردوا أموالهم طالما افتقر الكونجرس لمصادر الدخل، والحرفيين في المناطق الحضرية الذين يلتمسون الحماية الجمركية من الواردات الأجنبية، والتجار الراغبين في الوصول إلى الأسواق البريطانية، وجميع أولئك الذين خشوا أن تتدخل الولايات بجدية في حقوق الملكية.

اجتمعت وفود من ست ولايات في سبتمبر (أيلول) من عام 1786 في "أنابوليس" بولاية "ميريلاند"، للنظر في سبل لتحسين تنظيم التجارة بين الولايات والتجارة الدولية، واقترحوا عقد اجتماع آخر في "فيلادلفيا" لتعديل البنود الخاصة بالكونفدرالية، وقد عزز تمرد "شايز" قضية القوميين إلى حد كبير، وقد كتب "ماديسون" قائلا أن "المشاهد المضطربة الأخيرة في ماساتشوستس" أبرزت الحاجة إلى دستور جديد، واشتكى قائلا "ليس هناك احترام للسلطة الاتحادية، وأنه بدون تغيير في هيكل الحكومة إما ستعم الفوضى أو ستكون النتيجة المحتملة نظامًا ملكيًا ليضع حدًّا لتجربة الحكم الجمهوري، وقد قررت كل الولايات إرسال وفود لحضور اجتماع فيلادلفيا، باستثناء ولاية "رود آيلاند" التي كانت قد قطعت الشوط الأبعد في تطوير سياسات خاصة بها لإغاثة المدينين والسياسات التجارية، وعندما اجتمعوا في مايو (أيار) من عام 1787، قرروا إلغاء المواد الخاصة بالاتحاد الكونفدرالي تمامًا وصياغة دستور جديد للولايات المتحدة.

دستور جديد

اشتملت اللجنة التي اجتمعت لصياغة الاتفاقية الدستورية على خمس وخمسين رجلاً من بعض أبرز الأمريكيين، إلا أن كل من "توماس جيفرسون" و"جون آدامز" الدبلوماسيين في أوروبا لم يشاركا في ذلك، ولكن كان من بين الوفود "جورج واشنطن" (الذي أضاف حضوره ورئاسته للجلسات هيبة على الاجتماع)، و"جورج ماسون" (الذي صاغ إعلان فرجينيا للحقوق لعام 1776) و"بنيامين فرانكلين" (الذي كان قد عاد إلى فيلادلفيا بعد المساعدة في التفاوض حول معاهدة باريس لعام 1783، وأصبح حينذاك في الحادية والثمانين من عمره)؛ وقد وصف "جون آدامز" الاجتماع بأنه كان بمثابة تجمع لرجال من "ذوي القدرة، والثقل، والخبرة"؛ وربما قد أضاف "وذوي الثروة"، وحضر عدد قليل من الرجال العاديين وغير الأثرياء والذين ينحدرون من أصول متواضعة، إلا أن معظمهم قد ولدوا لأسر غنية، مثل "ألكسندر هاملتون" وكانوا يكسبون قوتهم من العمل كمحامين، وتجار، وأصحاب مزارع، وكبار المزارعين وكانوا يعيشون جميعًا تقريبًا في حالة رخاء واضح بمقاييس اليوم.

في الوقت الذي كان أقل من واحد على عشرة من 1 في المائة من الأمريكيين قد تلقوا تعليما، كان أكثر من نصف الوفود حاصلين على تعليم جامعي، وقد شارك أغلبيتهم في الاجتماعات بين الولايات خلال الفترة ما بين الستينيات والسبعينيات من القرن الثامن عشر، وقد خدم اثنان وعشرون منهم في الجيش خلال الثورة، وقد أسهم هذا التجانس بينهم في الحالة الاجتماعية والتجارب السياسية في تقوية عقيدتهم المشتركة في ضرورة تعزيز السلطة الوطنية وكبح جماح ما يسمى "التجاوزات الديمقراطية"، ولضمان النقاش الحر والصريح، تمت المداولات في سرية، وقام "ماديسون" بتسجيل الملاحظات بعناية لأنه كان يعتقد أن نتائج النقاش سيكون لها عواقب عظيمة بالنسبة "لقضية الحرية في جميع أنحاء العالم"، بيد أنه لم يتم نشر هذه الملاحظات حتى عام 1840، وبعد أربع سنوات من ذلك أصبح هو آخر المندوبين الذين وافتهم المنية.

هيكل الحكومة

سرعان ما أصبح واضحًا أن المندوبين اتفقوا على عدة نقاط، منها أن الدستور الجديد سيخلق سلطة تشريعية، وسلطة تنفيذية، وسلطة قضائية وطنية، ومنح الكونجرس سلطة لجمع المال دون الاعتماد على الولايات، وسيُحظَر على الولايات التعدي على حقوق الملكية، وأن الحكومة ستمثل الشعب، وتقدم "هاملتون" الثري ابن العائلة الكبيرة باقتراح أن تكون ولاية الرئيس ومجلس الشيوخ لمدى الحياة، كما هو الحال مع الملك ومجلس اللوردات في إنجلترا، حيث كان يرى أنه يجب أن يحكم الشعب "قاضيًا نادرًا أو شخصًا معروفًا بالحق بحيث يُعَرَّفُ الحق به"، ولكن اقتراحه لم يلق أي دعم فعلي، حيث أعربت معظم الوفود عن أملهم في أن يجدوا حلاً وسطًا بين الاستبداد الملكي والأرستقراطية وما اعتبروه تجاوزات الحكم الشعبي الذاتي، ورد "جورج ماسون" قائلا " كنا ديمقراطيين جدا"، ولكنه حذَّر من خطر الانتقال إلى "أقصى الطرف المقابل"، حيث يكمن مفتاح العثور على الحكومة الجمهورية المستقرة والفعالة في إيجاد وسيلة لتحقيق التوازن بين المطالب المتنافسة بين الحرية والسلطة.

سرعان ما برزت الخلافات حول التوازن السليم بين الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات وبين مصالح الولايات الكبيرة ومصالح الولايات الصغيرة، حيث قدم "ماديسون" في بداية النقاش اقتراحا، أُطلِقَ عليه لاحقًا خطة ولاية "فرجينيا"، يتمثل في إنشاء هيئة تشريعية من مجلسين على أن يقرر سكان الولاية من يمثلهم في كليهما، ونظرًا لخوف الولايات الصغيرة من أن تهيمن الولايات كثيفة السكان، مثل "فرجينيا"، و"ماساشوستس"، و"بنسلفانيا" على الحكومة الجديدة، لذلك احتشدت وراء خطة ولاية "نيو جيرسي" التي تدعو إلى مجلس واحد للكونجرس يكون لكل ولاية صوت واحد كما هو منصوص عليه في بنود الاتحاد الكونفدرالي، وأخيرًا تم

الاتفاق على حل وسط يتمثل في مجلسين أحدهما مجلس الشيوخ وتمثل كل ولاية فيه عضوان والمجلس الثاني للنواب يتم تعيينه وفقًا لعدد السكان، على أن تقوم المجالس التشريعية في الولايات باختيار أعضاء مجلس الشيوخ لمدة ست سنوات، وبالتالي يتم عزلهم عن التحولات المفاجئة في الرأي العام، بينما يتم انتخاب النواب كل سنتين مباشرة من قبل الشعب.

حدود الديمقراطية

بموجب المواد الخاصة بالاتحاد الكونفدرالي، لم يكن اختيار أي مسئول وطني يتم عن طريق التصويت الشعبي لأن طريقة اختيار أعضاء مجلس النواب الذي يتم شعبيًا يمثل توسعًا في الديمقراطية، كما أعلن "ماديسون" أن انتخابات شعبية واحدة على الأقل ضمن النظام السياسي كان "ضروريًا لإقامة حكومة حرة"، كما أن الدستور لم يفرض شروطًا للتصويت مثل الملكية أو مؤهلات دينية، تاركًا ذلك للولايات لتضع قواعد التصويت.

وبصفة عامة، كان الهيكل الجديد للحكومة، رغم ذلك، أقل من أن يكون ديمقراطيا، حيث سعت مندوبو الولايات إلى حماية الحكومة الوطنية من الحماسة الشعبية التي أثارت قلقهم خلال الثمانينيات من القرن الثامن عشر ولضمان أن من يشغل تلك المراكز هم الأشخاص المناسبون؛ وستظل السيادة للشعب، ولكنه سوف يختار من بين النخبة أعضاء الحكومة الجديدة، وقد افترض المندوبون أن مجلس الشيوخ سيتألف من أبرز المواطنين في كل ولاية، وجعلوا مجلس النواب صغيرًا جدا (كان يتألف في البداية من 65 عضوًا في الوقت الذي كان مجلس ماساتشوستس يضم 200 عضوا) على افتراض أن الأفراد البارزين وحدهم هم الذين سيتمكنون من الفوز بالانتخابات في مناطق واسعة.

ولم يشترط المندوبون كذلك الانتخاب المباشر للقضاة الفدراليين أو الرئيس، وكان يمكن تعيين أعضاء المحكمة العليا من قبل الرئيس ويكون تعيينهم لمدى الحياة، وسيتم اختيار الرئيس إما عن طريق أعضاء من هيئة انتخابية أو من قبل مجلس النواب، وتم تحديد عدد الناخبين لكل ولاية بإضافة نصابها من أعضاء مجلس الشيوخ إلى أعضاء مجلس النواب، وسيتم اختيار ناخبي أي ولاية إما عن طريق المجلس التشريعي بها أو عن طريق التصويت الشعبي، وافترض المندوبون أن الناخبين في كلتا الحالتين سيكونون من الشخصيات البارزة في الولاية ويتمتعون بمستوى مرتفع من التعليم ومؤهلين على نحو أفضل من الناخبين العاديين الذين يختارون رئيس الدولة.

بدا أن النظام الفعلي للانتخابات مربكًا للغاية، فعلى كل ناخب الإدلاء بصوته لمرشحين اثنين للرئاسة، على أن يصبح الشخص الذي يأتي في الترتيب الثاني نائبًا للرئيس، وإذا لم يحصل أي مرشح على أغلبية انتخابية في الأصوات - كما يبدو أن الوفود المندوبين افترضوا أن هذا ما

سيحدث عادة – يتم اختيار الرئيس من بين أصحاب المراكز الثلاثة الأولى من قبل مجلس النواب بحيث يكون لكل ولاية صوت واحد ثم يقوم مجلس الشيوخ بانتخاب نائب الرئيس. وقد ابتكر المندوبون هذا النظام من الانتخابات غير المباشرة المرهق للغاية، لأنهم لم يكونوا يثقون في قدرة الناخبين العاديين على اختيار الرئيس ونائب الرئيس مباشرة.

تقسيم وفصل السلطات

بعد فترة أربعة أشهر من الخوض في النقاش ومحاولات الوصول لحلول وسط، خرج الدستور في شكل وثيقة صغيرة الحجم لا تتجاوز 4.000 كلمة تضع فقط أكثر الخطوط العريضة الموجزة للهيكل الجديد للحكومة (انظر الملحق للإطلاع على النص الكامل)، وهو يجسد مبدأين سياسيين أساسيين، وهما الفيدرالية – وهي ما يطلق عليها أحيانًا "تقسيم السلطات"، ونظام "الضوابط والموازنات" بين مختلف فروع الحكومة الوطنية وهو ما يُعْرَفُ باسم "الفصل بين السلطات".

تشير الفيدرالية إلى العلاقة بين الحكومة الوطنية والولايات؛ وتكشف مقارنة الدستور بالمواد الخاصة بالاتحاد الكونفدرالي عن أن الدستور كان يعزز السلطة الوطنية بشكل كبير، حيث أسند للرئيس مسئولية تطبيق القانون وقيادة الجيش، في حين خوَّل للكونجرس سلطة فرض الضرائب، واقتراض الأموال، وتنظيم التجارة، وإعلان الحرب، والتعامل مع الدول الأجنبية والهنود، وتعزيز "المصلحة العامة"، وقد اقترح "ماديسون" السماح للكونجرس باستخدام حق النقض ضد قوانين الولاية، ولكن معظم المندوبين رأوا أن هذا تطرفًا في هيمنة الكونجرس، ومع ذلك، أعلن الدستور بالفعل أن التشريعات الوطنية هي "القانون الأعلى للبلاد"، وأنها اشتملت على أحكام قوية لمنع الولايات من التعدي على حقوق الملكية، وحظر عليها إصدار النقود الورقية، وعرقلة العقود، والتدخل في التجارة بين الولايات، وفرض رسوم الاستيراد أو التصدير الخاصة بهم. من ناحية أخرى، ظلت معظم الشئون اليومية للحكومة، من التعليم إلى تطبيق القانون، في أيدي الولايات. كان مبدأ السيادة المنقسمة مثارًا للنقاش والجدال، وما زال حتى يومنا هذا، حول توازن القوى بين الحكومة الوطنية والولايات.

يشير "الفصل بين السلطات" أو نظام "الضوابط والموازنات"، إلى الطريقة التي يسعى الدستور من خلالها إلى منع أي فرع من فروع الحكومة الوطنية من الهيمنة على الفرعين الآخرين، ولذلك جاء توزيع السلطة داخل الحكومة وتضمينها ضوابط الرقابة ضد نفسها لمنع تراكم السلطة، لأن تراكمها يشكل خطرًا على الحرية، على سبيل المثال، يسن الكونجرس القوانين،

ولكن الرئيس يمكنه الاعتراض عليها، ولكن يمكن تمرير التشريع رغم اعتراض الرئيس إذا توفرت أغلبية مؤيدة للتشريع من ثلثي أعضاء الكونجرس، وكذلك يتم تعيين القضاة الفدراليين

من قبل الرئيس ويوافق عليهم الكونجرس، ولكن لضمان استقلالهم يعمل القضاة مدى الحياة حتى لا يرتبط تعيينهم بأي سلطة أخرى يمكن أن تؤثر عليهم، وأيضًا يمكن إدانة ومحاكمة الرئيس من قبل مجلس النواب، بينما يمكن عزله عن منصبه من قبل مجلس الشيوخ في حال ارتكابه "للجرائم والجنح الجسيمة".

النقاش حول العبودية

لم يكن هيكل الحكومة المصدر الوحيد للنقاش حول الاتفاقية الدستورية، فكما سجل "ماديسون" "قسَّمت مؤسسة العبودية وآثارها المندوبين المشاركين في العديد من الدورات، حيث إن أولئك الذين تجمعوا في "فيلادلفيا" كانوا يمثلون العديد من مالكي العبيد إلى جانب بعض المخلصين للدعوة لإبطال العبودية، وكان "ماديسون" مثل "جيفرسون" مالك للعبيد في "فرجينيا" وكان يكره العبودية، وصرَّح للمجتمعين أن "التميز على أساس اللون" قد أصبح أساسًا "للهيمنة الأكثر قمعًا ضمن ممارسات الإنسان ضد أخيه الإنسان"، إلا أنه أكد في وقت لاحق للمجتمعين للتصديق على اتفاقية "فرجينيا" أن الدستور وفَّر للعبودية "أفضل حالة من الأمن حتى الآن".

لم تظهر عبارة "العبيد" و"العبودية" في الدستور - وهو ما يعتبر تنازلاً لمراعاة مشاعر الوفود الذين كانوا يخشون من أنهم "سيلوثون النسيج الجيد للحرية الأمريكية"، كما كتب "لوثر مارتن" من ميريلاند لزملائه من المندوبين قائلاً "لقد سعيت بشدة لتجنب قبول التعبيرات التي قد تكون بغيضة إلى أسماع الأمريكيين"، ولكنه واصل الحديث قائلاً إنهم "كانوا على استعداد للاعتراف في نظامهم بتلك الأشياء التي تعنيها تلك التعابير"، حيث حظرت الوثيقة على الكونجرس إلغاء تجارة العبيد الأفارقة لمدة عشرين عاما، وطلبت من الولايات إعادة العبيد الفارين إلى أصحابهم ونصت على احتساب ثلاثة أخماس تعداد السكان العبيد عند تحديد تمثيل كل ولاية في مجلس النواب وعند التصويت الانتخابي للرئيس.

جاء مندوبو "كارولينا الجنوبية" إلى فيلادلفيا عاقدين العزم على الدفاع عن العبودية، وكان لهم بالفعل تأثير قوي في صياغة الوثيقة النهائية، حيث كانوا وراء البنود الخاصة بالعبيد الهاربين وشرط الثلاثة أخماس والمجمع الانتخابي، وأصروا على وضع حدود صارمة على سلطة الكونجرس في فرض الضرائب داخل الولايات خوفًا من الجهود التي قد تُبذَل في المستقبل لزيادة الإيرادات عن طريق فرض ضرائب على الممتلكات من العبيد، وهددوا بالانشقاق الفوري عن الاتحاد الفيدرالي إذا تم حظر تجارة الرقيق عبر الأطلسي، كاستجابة لطلبات ولايات "نيو إنجلاند" و"فرجينيا" نظرًا لما لديهما من وفرة في العبيد المولودين لأبناء البلاد، وبالفعل أثرت تهديداتهم على العديد من المندوبين، حيث أعلن أحد المندوبين، حاكم ولاية "بنسلفانيا" "موريس"، أنه كان

مرغمًا على الاختيار بين الإساءة لولايات الجنوب أو عدم الإنصاف "للطبيعة البشرية"، ولكنه اختار هذا الأمر الأخير حرصًا على الوحدة الوطنية.

العبودية في الدستور

كانت أحكام الدستور الخاصة بالعبودية عبارة عن حلول وسط، تم التوصل إليها بفضل تنازلات وجهود منتقدي مؤسسة العبودية والمدافعين عنها، بيد أننا إذا أخذناها معًا فإنها ستكشف عن إنها رسَّخت وعمَّقت العبودية أكثر من أي وقت مضى في الحياة السياسة الأمريكية، بحيث أصبحت جزءًا لا يتجزأ منها، وقد سمح بند تجارة الرقيق بالتجارة التي يدينها المجتمع المتحضر، وهي التجارة التي كان قد تم تعليقها خلال حرب الاستقلال، ثم يأتي هذا الدستور ليجعلها تستمر حتى الأول من يناير (كانون الثاني) 1808، وهو اليوم الأول الذي سُمِحَ فيه للكونجرس بموجب الدستور بحظر استيراد المزيد من العبيد، ولكن تم في غضون ذلك جلب حوالي 170.000 من الأفارقة إلى الأمة الجديدة كعبيد، وكان الغرض من ذلك أن يحلوا محل العبيد الذين كانوا قد هربوا إلى بريطانيا من ناحية، ولتوفير العمالة اللازمة نتيجة لتوسيع العبودية في الأراضي الخصبة البعيدة عن الساحل من ناحية أخرى؛ وقد استوردت ولاية "كارولينا الجنوبية" وولاية "جورجيا" قرابة 100.000 عبد، وهو العدد الذي يمثل أكثر من ربع جميع العبيد الذين جُلِبُوا إلى البر الرئيسي بأمريكا الشمالية بعد عام 1700.

منح حكم "العبد الهارب" بالدستور لقوانين العبيد خاصية الامتداد لخارج الحدود، بمعنى أن حالة العبودية تظل ملاصقة للشخص حتى لو هرب إلى ولاية أخرى تم إلغاء العبودية بها، وقد كتب "جون جاي"، حينما كان يخدم في مهمة دبلوماسية في إسبانيا، يصف كيف يفتقد "الهواء الأمريكي الحر"، وربما لم يكن يدرك "جاي" التداعيات الكاملة التي ستحدثها هذه العبارة، حيث تمكن محامي أحد عبيد غرب الهند في قضية "سومرست" الشهيرة لعام 1772 من الحصول على حرية موكله الذي جُلِبَ إلى بريطانيا بأن تذرع بتلك العبارة التي لا تُنسَى "هواء إنجلترا أنقى من أن يتنفسه عبد" (وهذا معناه أنه بمجرد أن يطأ أي شخص الأراضي البريطانية فإنه يصبح حرا)، ولكن الدستور الاتحادي الجديد تطلب من جميع الولايات الشمالية والجنوبية الاعتراف بمؤسسة العبودية والمساعدة في تنظيمها، وبذلك لم يكن هناك "هواء حر" للعبيد في أمريكا.

لم يمنح الدستور للحكومة الوطنية السلطة للتدخل في مؤسسة العبودية في الولايات، وسمح بند الثلاثة أخماس للبيض في الجنوب بممارسة السلطة في الشئون الوطنية أكبر بكثير مما يسمح به حجم السكان الأحرار، وعزَّز بشكل كبير عدد الأصوات الجنوبية في انتخابات مجلس النواب، وبالتالي في المجمع الانتخابي (فكما ذكرنا سابقًا كان يتم تحديد عدد الناخبين لكل ولاية

من خلال إضافة كل من عدد أعضاء مجلس الشيوخ وعدد أعضاء مجلس النواب بها معا)، وليس أدل على ذلك من أن أول ستة عشر انتخابات رئاسية جرت خلال الفترة ما بين عامي 1788 وعام 1848 - باستثناء أربعة انتخابات - قد جلبت رؤساء من مالكي العبيد بالولايات الجنوبية إلى البيت الأبيض.

ويرجع الفشل المبدئي في إدراج مشروع لقانون الحقوق من ناحية إلى وجود العبودية، حيث أوضح مندوب "كارولينا الجنوبية" "تشارلز جيم بينكني" قائلا "تبدأ مشاريع القوانين تلك بشكل عام بإعلان أن كل البشر ولدوا أحرارًا بالفطرة" وهو الإعلان الذي من شأنه أن يأتي "بنعمة سيئة للغاية عندما يكون جزءًا كبيرًا من ممتلكاتنا يتألف من الرجال الذين يولدون في الواقع عبيدا."

غير أن بعض مالكي العبيد قد كشفوا عن تهديد محتمل في ثنايا الدستور؛ كما حذَّر "باتريك هنري" الذي أدان العبودية ولكنه كان يخشى من إلغائها، من أن الحكومة الجديدة قد تتخذ خطوات لتسليح وتحرير العبيد، وتساءل "هل يستطيع الكونجرس أن يرفض فرض المشاركة في الحرب على جميع الرجال السود؟ ألم نر القليل من ذلك في الحرب الأخيرة؟" غير أن ما لم يستطع "هنري" توقعه هو أن الحرب التي قضت في النهاية على العبودية ستنطلق من الجنوب نفسه لحماية المؤسسة.

الوثيقة النهائية

وضع الحاكم "موريس" اللمسات الأخيرة على المسودة النهائية للدستور الجديد في محاولة- كما قال- لجعله "واضحًا بأكبر قدر تسمح به لغتنا" واستبدل عبارة "نحن شعب ولايات نيوهامبشاير وماساتشوستس...إلخ" في الديباجة بالعبارة الأقوى إلى حد بعيد "نحن شعب الولايات المتحدة" وأضاف أيضًا بيانًا بأغراض الدستور، بما في ذلك "تحقيق العدالة" و"تعزيز الصالح والرفاهية العامة" و"تأمين مكتسبات الحرية"- وهي الأمور التي كان معظم المندوبين يرون أن مواد الكونفدرالية فشلت في إنجازها.

وقد عُقِدَت الجلسة الأخيرة من المؤتمر الدستوري في17 سبتمبر (أيلول) لعام 1787، وحث فيها "بنيامين فرانكلين" المندوبين على أن ينحوا جانبًا الاعتراضات الفردية ويوافقوا على الوثيقة مهما كانت عيوبها، وعلّق قائلاً "كلما كبرت في السن كلما أصبحت أكثر قبولاً لإيلاء المزيد من الاهتمام والاحترام لحكم الآخرين" وبالفعل وقَّع على الدستور تسعة وثلاثون من المندوبين من بين الخمسة والأربعين الذين بقوا في "فيلادلفيا" ثم إرساله بعد ذلك إلى الولايات للتصديق عليه.

لقد أنشأ الدستور إطارًا جديدًا للتنمية الأمريكية عن طريق منح الكونجرس سلطةً على التعريفات الجمركية، والتجارة بين الولايات، وسك النقود، وبراءات الاختراع، وقواعد الإفلاس، والأوزان والمقاييس، وجعل من الممكن خلق سوق اقتصادية وطنية من خلال حظر الولايات من التدخل في حقوق الملكية، وبناء المؤسسات السياسية الوطنية، وخفّض سلطات الولايات، وسعى لوضع حد للديمقراطية الشعبية، وقد علّق "بنجامين راش" قائلاً "يسود الآن في جميع طبقات المجتمع لصالح الحكومة نفس الحماس الذي دفعنا للحرية في عامي 1774 و 1775"، ولكن من المشكوك فيه أن تكون جميع طبقات المجتمع قد وافقت حقا، وقد أطلقت عملية التصديق العنان لنقاش وطني حول أفضل السبل للحفاظ على الحرية الأمريكية.

النقاش حول التصديق على مشروع قانون الحقوق وأصله

الموالون للاتحاد الكونفدرالي

حتى على الرغم من أن الدستور نَصَّ على أنه سيدخل حيز التنفيذ عندما تُصَدِق عليه تسع ولايات، وليس كل الولايات الثلاث عشر كما تنص على ذلك مواد الاتحاد الكونفدرالي، إلا أن التصديق ليس مؤكدًا بأي حال من الأحوال، وقامت كل ولاية بعقد انتخابات لاختيار المندوبين الذين سيمثلونها في مؤتمر التصديق على الدستور، وتلى ذلك معركة "عامة" شرسة "قامت بطباعة مئات المنشورات والمقالات الصحفية والحملات الحماسية لانتخاب المندوبين، ومن أجل تحقيق الدعم، كتب "هاملتون"، و"ماديسون"، و"جاي" سلسلة من خمسة وثمانين مقالاً ظهروا في الصحف تحت اسم مستعار "بوبليوس"، ثم تم جمعهم في كتاب تحت عنوان "الفيدراليون"، الذي صدر في عام 1788، وكان نصيب "هاملتون" منهم خمسين مقالاً، ونصيب "ماديسون" ثلاثين مقالاً بينما كان الباقي من نصيب "جاي"، وتعتبر هذه المقالات اليوم من بين أهم المساهمات الأمريكية في الفكر السياسي، إلا أنها كانت تمثل في ذلك الوقت جزءًا واحدًا فقط من حوار وطني أكبر حول التصديق انعكس في عدد لا يحصى من الكتيبات، والمقالات الصحفية، والاجتماعات العامة.

كرر "هاملتون" و "ماديسون" مرارًا وتكرارًا أن الدستور في الواقع حمى حريات الأمريكيين ولم يشكل خطرًا عليها، وسعت مقالات "هاملتون" إلى تحرير الأمريكيين من خوفهم من السلطة السياسية، وأصر على أن الحكومة كانت تعبيرًا عن الحرية وليست عدوًّا لها، وأن أي حكومة يمكن أن تصبح قمعيةً ولكن الدستور جعل الاستبداد السياسي يكاد يكون من المستحيل من خلال الضوابط وتقسيم السلطة، وأصر "هاملتون" على أنه كان مناديًا ومدافعًا متحمسًا للحرية مثل أي رجل أيًا كان"، ولكن "الرغبة في السلطة" كانت الخطأ الفادح في المقالات، وأكد "هاملتون" للمندوبين في مؤتمر التصديق على الدستور في نيويورك أن الدستور قد خلق "التوازن المثالي بين الحرية والسلطة".

توسيع الدائرة

أكد "ماديسون" أيضًا كيف جرت هيكلة الدستور لمنع إساءة استعمال السلطة، ولكنه تجاوز في العديد من المقالات، ولاسيما المقالين 10، 51 من كتاب "الفيدراليون" إلى ما وراء هذه التأكيدات لوضع رؤية جديدة لافتة للنظر للعلاقة بين الحكومة والمجتمع في الولايات المتحدة، وحدد ماديسون المعضلة الأساسية التي تواجه من منظوره الجمهورية الجديدة، والتي تتمثل في أنه يجب أن تستند الحكومة على إرادة الشعب ولكن الشعب أثبت أنه عرضة للحماسة الخطيرة، بل والأدهى من ذلك والأكثر إثارة للقلق، أن الشعب هدد حقوق الملكية ذاتها التي كانت حمايتها تمثل أول أهداف الحكومة"، وحذر من أن مشكلة تحقيق التوازن بين الديمقراطية واحترام الملكية هذه ستتنامى في السنوات المقبلة لأن التنمية الاقتصادية ستزيد بلا محالة من أعداد الفقراء، وتساءل قائلا "ماذا إذن الذي يمنعهم من إساءة استعمال سلطتهم السياسية لضمان توزيع أكثر عدلاً للثروة؟

وقد أوضح "ماديسون" أن الجواب لا يكمن ببساطة في الطريقة التي تحقق بها السلطة توازن السلطة في هيكل الحكومة ولكن في حجم الأمة وتنوعها، فالجمهوريات السابقة كانت موجودة في مناطق صغيرة فقط، على سبيل المثال، الجمهورية الهولندية أو دول المدينة الإيطالية في عصر النهضة، ولكن نفس حجم الولايات المتحدة في حد ذاته بمثابة مصدر للاستقرار، وليس كما يخشى العديد من الناس مصدرًا للضعف"، وكتب "وسعوا الدائرة"، فعلى سبيل المثال، يوفر تعدد الطوائف الدينية أفضل ضمان للحرية الدينية، وبالمثل في دولة كبيرة مثل الولايات المتحدة تنشأ الكثير من المصالح المتمايزة الاقتصادية، والإقليمية، والسياسية إلى الحد الذي لا يستطيع شخص واحد أن يكون قادرًا على تولي الحكومة وقمع الآخرين، فكل أغلبية ستكون بمثابة ائتلاف من الأقليات، وبالتالي ستكون "حقوق الأفراد" آمنة.

وقد أسهمت كتابات "ماديسون" كثيرًا في تشكيل فهم الأمة المبكرة لمؤسساتها السياسية الجديدة، وفي تأكيده لفكرة أن حجم الجمهورية الكبير ساعد على ضمان حقوق الأمريكيين، كما أنها عززت الرؤية التقليدية التي كانت ترى أن التوسع المستمر غربًا يمثل أمرًا أساسيًا للحرية، وتأسيس الحفاظ على الحرية على أساس هيكل الحكومة وحجم الجمهورية وليس على أساس شخصية الشعب، ومثلت مقالاته تحولاً كبيرًا بعيدًا عن التأكيد "الجمهوري" على المواطنة الفاضلة المخلصة للصالح العام كأساس للحكم السليم، وساعد "ماديسون" كذلك في الترويج للفكرة "الليبرالية" بأن الناس تحركهم عمومًا المصلحة الذاتية، وأن خير المجتمع ينشأ عن التعارض بين هذه المصالح الخاصة.

مناهضو الفيدرالية

أصر معارضو التصديق على وثيقة الدستور، الذين أطلق عليهم اسم "مناهضو الفيدرالية"، على أن الدستور قد حَوَّلَ كفة الميزان بين الحرية والسلطة بعيدًا بدرجة كبيرة في اتجاه السلطة؛ وكانوا يفتقرون إلى القيادة المتماسكة المتوفرة لدى المدافعين عن الدستور، وكان من بينهم ساسة الولايات الذين كانوا يخشون رؤية نفوذهم يتضاءل، والأبطال الثوريون مثل "صمويل آدمز" و"جون هانكوك" و"باتريك هنري"، وكذلك صغار المزارعين الذين كانوا يرون أيضًا أنه ليس هناك حاجة لحكومة مركزية أقوى، وقد أيَّد الكثير منهم الإجراءات التي اتخذتها الولايات لتخفيف الديون على المدينين في الثمانينيات من القرن الثامن عشر، والتي استنكرها أنصار الدستور، وندد بعض معارضي الدستور بحماية الوثيقة للعبودية، وحذَّر آخرون من أن سلطات الكونجرس كانت واسعة بحيث أنه قد يسن قانون لإبطال العبودية.

وقد تنبأ مناهضو الفيدرالية مرارًا وتكرارًا بأن الحكومة الجديدة ستقع تحت هيمنة التجار والدائنين وغيرهم من المعادين لمصالح الأمريكيين العاديين، ولذلك تنصلوا من الحجج التي ساقها "ماديسون" في المقالين 10، 51 من كتاب "الفيدراليون" في إصرار منهم على أنه لا يمكن حكم الأراضي الواسعة جدًّا بمبادئ الحرية"، حيث يزدهر الحكم الشعبي الذاتي بشكل أفضل في المجتمعات الصغيرة التي يتفاعل فيها الحكام والمحكومين معًا بشكل يومي، إن الرجال ذوي الثروة هم وحدهم الذين يملكون الموارد اللازمة لكسب الانتخابات في الحكومة الوطنية، بالرغم من أنهم "يجهلون مشاعر الطبقة الدنيا والمتوسطة من المواطنين"، وحذَّر "ميلانكتون سميث" من "نيويورك" من أنه نتيجة للدستور يستطيع عضو الكونجرس بموجب المواد الكونفدرالية الهيمنة على "عامة الناس" بسبب "الأصل العريق" وتوقع أن هذه "ستكون حكومة قمعية".

كانت "الحرية" هي كلمة السر والشعار بالنسبة لمناهضي الفيدرالية، حيث أصروا على أن سعادة أمريكا تنبع من حرية المؤسسات والطبيعة المحدودة للحكومة وسلطاتها"، وأن الدستور الجديد يهدد كل من هاتين السمتين وبالتالي يهدد سعادة أمريكا، وقاموا في "ميريلاند" بصنع قلنسوات تحمل كلمة "الحرية" لإلباسها صناديق الاقتراع عند انتخاب ممثلي الولاية لحضور المؤتمر الخاص بالتصديق على الدستور، وقاوموا الرؤية القائلة بأن الولايات المتحدة قوة حيوية عظمى من خلال أسلوب للحياة يرتكز على المؤسسات الديمقراطية المحلية وليس الفيدرالية، وتساءل أحدهم، وهو "جيمس لينكولن" من ولاية "ساوث كارولينا"، "ما هي الحرية؟" وأضاف إذا كانت الحرية هي "سلطة حكم أنفسكم، فهل سيكون لديكم هذه السلطة إذا تبنيتم هذا الدستور؟ وكانت الإجابة لا.

أشار مناهضو الفيدرالية أيضًا إلى افتقاد الدستور لمشروع قانون الحقوق مما لا يوفر حماية لبعض الحقوق، مثل حق المحاكمة أمام هيئة محلفين، وحرية التعبير، وحرية الصحافة، وهو ما وصفه "باتريك هنري" بأنه "الشيء الأكثر عبثية للبشرية الذي شهده العالم حتى الآن"، وادعى هنري أن دساتير الولايات كانت تتضمن قوانين الحقوق إلا أنه يُطلَبْ من الولايات الآن تسليم معظم سلطاتها إلى الحكومة الاتحادية مع عدم وجود شرط بأن تحترم الحكومة الاتحادية الحريات الأساسية للأمريكيين.

نمت العاطفة المؤيدة للدستور بشكل عام في أنحاء البلاد في المدن وفي المناطق الريفية التي كانت ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالسوق التجارية، وكان أكثر أنصاره نشاطًا هم الرجال أصحاب الأملاك الكبيرة، إلا أن ما أسماه أحد مؤيدو التصديق من ولاية بنسلفانيا، "جورج بريان"، "الوهم الذهبي بالازدهار" اجتذب أيضًا في المناطق الحضرية الحرفيين، والعمال، والبحارة للانضمام للحركة المطالبة بحكومة من شأنها أن تستخدم "طاقتها وسلطاتها" لإنعاش الاقتصاد الكاسد؛ وعلى الجانب الآخر اجتذبت حركة مناهضة الفيدرالية صغار المزارعين في المناطق الريفية الأكثر عزلة مثل "وادي هدسون" "بنيويورك"، وغرب "ماساتشوستس"، والضواحي الخلفية والريفية الجنوبية.

كسب أنصار الدستور المعركة في نهاية المطاف نظرًا لتدفق طاقتهم وتنظيمهم إلى جانب هيمنتهم على الصحافة الاستعمارية حيث كان هناك اثنين وتسعين صحيفة ومجلة في الولايات المتحدة في عام 1787، منها اثني عشر فقط تنشر عددًا كبيرًا من مقالات مناهضي الفيدرالية، وكسب "ماديسون" أيضًا دعمًا للدستور الجديد من خلال الوعد بأن يقوم أول كونجرس بسن مشروع قانون الحقوق، وبحلول منتصف عام 1788 كانت التسع ولايات المطلوبة قد صدقت على الدستور، وبالرغم من وجود معارضة قوية من جانب "ماساشوستس"، و"نيويورك"، و"فرجينيا"، إلا أنه لم يصوت ضد التصديق إلا "رود آيلاند" و"كارولينا الشمالية" واضطرتا في وقت لاحق إلى الانضمام إلى الحكومة الجديدة، وبذلك تم القضاء على مناهضي الفيدرالية، ولكن كما هو الحال مع الحركات الأخرى في التاريخ الأمريكي التي لم تحقق أهدافها بشكل فوري- على سبيل المثال، حركة الشعبويين في أواخر القرن التاسع عشر - تسربت أخيرًا بعض أفكار مناهضي الفيدرالية في مجرى الفكر العام السياسي، و اعتقادهم بأن وجود حكومة مركزية قوية للغاية يشكل خطرًا على الحرية، الأمر الذي مازال يؤثر حتى يومنا هذا على الثقافة السياسية الأمريكية.

مشروع قانون الحقوق

من المفارقات العجيبة أن أجزاء الدستور الأكثر قيمة بالنسبة للأمريكيين اليوم لم تكن مدرجة في الوثيقة الأصلية، وهي تلك الخاصة بحرية التعبير، وحرية الصحافة، وحرية الدين؛

والحماية ضد الإجراءات الجنائية الظالمة؛ والمساواة أمام القانون، حيث إن كل هذه المواد باستثناء المادة الأخير (التي وردت في التعديل الرابع عشر للدستور بعد الحرب الأهلية) وردت في التعديلات العشرة الأولى للدستور فيما يُعْرَفْ بمشروع قانون الحقوق. كان ْماديسونْ مقتنعًا بأن توازنات الدستور من شأنها أن تحمي الحرية حتى أنه اعتقد أن مشروع قانون الحقوق يعد بمثابة تعديلات ْزائدة عن الحاجة أو عبثيةْ، فهو يرى أن التعديلات المقيدة للسلطة الاتحادية لن يكون لها أي تأثير على الخطر على الحرية الذي تفرضه الأغلبية الماجنة بدون رادع في الولايات المتحدة، ولن تستطيع أي قائمة بالحقوق أن تتوقع أبدًا الطرق العديدة التي قد يعمل الكونجرس وفقًا لها في المستقبل، وذكر أن ْالضمانات الورقيةْ للحقوق في الدستور أو في قانون للحقوق لن تفلح في منع إساءة استعمال السلطة ولن تثبت فاعليتها عند الحاجة إليها، وقد تحققت تنبؤات ْماديسونْ بالكامل في المستقبل وأثبتت صحتها في شكل شعبي هستيري أحيانا، على سبيل المثال، أثناء فترة الخوف الأحمر بعد الحرب العالمية الأولى (خوف وقلق جماهيري مفاجئ بشأن أحداث متوقعه مثل الخوف من حرب أو من البورصة أو من قنبلة تدفعهم جميعًا لمغادرة المبنى) والحقبة المكارثية في الخمسينيات من القرن العشرين (اتهام الساسة بخيانة الوطن والتخريب بدون أدلة واستخدام أساليب غير عادلة في توجيه الاتهام والتحقيق بغرض قمع المعارضة) عندما تكاتفت كل فروع الحكومة معًا لدهس حرية التعبير، وخلال الحرب العالمية الثانية عندما أدت الكراهية لعدو أجنبي إلى اعتقال أكثر من 100.000 من الأمريكيين اليابانيين ومعظمهم من مواطني الولايات المتحدة.

ومع ذلك، فقد اشتملت كل الدساتير الجديدة للولايات على نوع ما من إعلانات حقوق المواطنين، واعتقدت أعداد كبيرة من الأمريكيين، من مناصري ومناهضي الاتحادية على حد سواء، بأنه ينبغي أن يشتمل الدستور الوطني الجديد أيضًا على مثل هذا الإعلان، ولذلك قدم ْماديسونْ إلى الكونجرس سلسلة من التعديلات التي أصبحت أساسًا لمشروع قانون الحقوق الذي تم التصديق عليه من قبل الولايات في عام 1791 وذلك بهدف ْالتوفيق بين آراء الناسْ على حد تعبيره، وقد حظر التعديل الأول على الكونجرس التشريع فيما يتعلق بالدين أو التعدي على حرية التعبير أو حرية الصحافة أو الحق في التجمع، ويؤيد التعديل الثاني حق الشعب في ْالاحتفاظ بالسلاح وحملهْ بالتزامن مع ْالتنظيم الجيد للميليشياتْ، في حين حظرت باقي التعديلات إساءة استعمال السلطة وانتهاكات أخرى مثل الاعتقال دون أوامر من النيابة وإرغام متهم بارتكاب جريمة بأن يشهد ضد نفسه وأكد من جديد على الحق في المحاكمة أمام هيئة محلفين.

قدمت وثيقة الحقوق نوعًا ما من تعريف "الحقوق الأساسية" التي أوردها "جيفرسون" في إعلان الاستقلال، وهي حقوق متأصلة للإنسان بصفته إنسانا، أي أنها لا تمنحها الحكومات في المقام الأول وبالتالي لا تستطيع الحكومات إلغائها، وحتى في حالة تعرض أي منها للحذف بطريق الخطأ فإن التعديل التاسع للدستور أعلن أن الحقوق التي لم تذكر على وجه التحديد في الدستور "يحتفظ بها الناس"، لأنه ليس من المقصود أن يكون الدستور مفتوح بالكامل للاعتراف القانوني المستقبلي للحقوق التي لا تستند إلى النص الفعلي (مثل حق الخصوصية)، أما التعديل العاشر فهو يهدف إلى الرد على المخاوف من أن تتطاول الحكومة الاتحادية على الولايات مؤكدًا على أن السلطات الغير مفوضة إلى الحكومة الوطنية أو المحظورة على الولايات ظلت في يد الولايات.

تعود الجذور وحتى اللغة الخاصة التي كُتِبت بها بعض أجزاء قانون الحقوق إلى فترات ماضية من التاريخ الإنجليزي، فقد تضمن التعديل الثامن الذي يحظر المبالغة في الكفالة والعقوبات القاسية وغير العادية وذلك بلغة ترجع إلى إعلان مجلس اللوردات في عام 1316 وتكررت بعد قرون من ذلك في المشروع الإنجليزي للحقوق ودساتير عدد من الولايات الأمريكية.

وعكست أحكام أخرى التغيرات التي أحدثتها الثورة في الحياة الأمريكية، ومن أبرزها الاعتراف الدستوري بالحرية الدينية، فباستثناء إعلان الاستقلال الذي يستحضر نعم العناية الإلهية، نجد الدستور عبارة عن وثيقة علمانية بحتة، حيث لا يحتوي على أي إشارة إلى الله ويحظر إجراء الاختبارات الدينية للتأهل لشغل المناصب العامة في الحكومة الاتحادية، وكذلك يحظر التعديل الأول على الحكومة الاتحادية التشريع حول موضوع الدين على العكس تمامًا من البريطانيين والاستعمار السابق، وكما اشتكى أحد النقاد قائلاً إنه كان ولا يزال من الممكن بموجب الدستور "أن يكون رئيس أمريكا أحد أتباع الكنيسة الكاثوليكية أو مسلمًا أو ربانيا" (الشخص الرباني هو الذي يؤمن بأن الله موجود ولكنه خلق العالم وتركه بعد ذلك يعمل بذاته)، وكان "ماديسون" حريصًا جدًّا على فصل الكنيسة عن الدولة حتى أنه عارض تعيين رجال الدين للخدمة في الكونجرس والجيش.

عندما يُطلَب من الأمريكيين اليوم تعريف الحرية فإنهم يتحولون بصورة غريزية إلى مشروع قانون الحقوق، ولا سيما التعديل الأول للدستور نظرًا لما فيه من ضمانات لحرية التعبير، وحرية الصحافة، وحرية العقيدة، ومع ذلك أثار مشروع قانون الحقوق القليل من الحماس عند التصديق عليه، ولكن تم تجاهله بعد ذلك على مدى عقود حتى القرن العشرين، حينما تم تبجيله كتعبير لا غنى عنه عن الحرية الأمريكية، كما أثّر مشروع قانون الحقوق بمهارة على لغة الحرية نظرًا لأنه ينطبق على الحكومة الفيدرالية فقط وليس على الولايات، لذلك فإنه قد عزز من

فكرة أن تركز السلطة الوطنية يشكل أكبر تهديد للحرية؛ كما ساهم في العملية الطويلة التي جرت بها مناقشة حول الحرية من منظور المفردات اللغوية للحقوق.

كانت حرية التعبير وحرية الصحافة من بين أهم الحقوق واللبنات الأساسية للإطار الديمقراطي العام، حيث يأتي حق التعبير في المرتبة الثانية مباشرة بعد حق الاستحقاق في الترشح لعضوية البرلمان والمجالس الاستعمارية كحق أساسي للمواطنة، على الرغم من استمرار تنفيذ هذه الحقوق قانونيًا وعلى الرغم من أن هناك انتهاكات خطيرة قد تقع في كثير من المراحل على طول التاريخ الأمريكي، إلا أن قانون الحقوق ساهم بالكثير في تأسيس حرية التعبير باعتبارها حجر الزاوية في الفهم الشعبي للحرية الأمريكية.

"نحن الشعب"

الهوية الوطنية

تم تقسيم السكان الاستعماريين على أساس الأصل العرقي، والدين، والطبقة، والمركز ويرتبطون معًا إلى حد كبير بموجب ولائهم لبريطانيا، لم تقتصر الثورة فقط على خلق أمة جديدة ولكن خلقت أيضًا هيئة جماعية جديدة تحت اسم الشعب الأمريكي الذي يتمتع أعضاؤه بالحرية كمواطنين في مجتمع سياسي جديد، ونظرًا لأن الحكومة في الولايات المتحدة تستند على إرادة الشعب، لذلك فإن الشيء الأهم هو تحديد هوية الناس.

يُفْتَتَح الدستور بعبارة "نحن الشعب" لوصف أولئك الذين سيمتلكون، ضمن أشياء أخرى، "نفحات الحرية" كحق مكتسب وتمريرها إلى "الأجيال القادمة"، وقد استشهد "إبراهام لينكولن" في وقت لاحق بهذه الكلمات للقول بأنه نظرًا لأن الأمة أنشئت بواسطة الشعب لذلك فإن الولايات لا يمكنها حلها.) على الرغم من أن المرء قد يفترض أن "شعب" الولايات المتحدة يضم جميع أولئك الذين يعيشون داخل حدود البلاد، إلا أن الدستور ينص بوضوح على أن هذا ليس صحيحا، فهو يحدد ثلاثة أصناف من السكان يقطنون في الولايات المتحدة: الهنود الذين يُعتَبَرُون أفراد قبائل مستقلة وليس جزءًا من الجسم السياسي الأمريكي؛ و"أشخاص آخرون" ويُقْصَد بهم العبيد؛ و"الشعب"، بما يعني أن ثلث السكان فقط هم الذين يحق لهم التمتع بالحرية الأمريكية.

تواجه كل أمة مهمة تحديد هويتها، وقد ميَّزَ المؤرخون تقليديًّا بين "القومية المدنية" التي تصور الأمة كمجتمع مفتوح لجميع أولئك المخلصين لمؤسساته السياسية وقيمه الاجتماعية، وبين "القومية العرقية" التي تُعَرِّفُ الأمة كمجتمع قائم على أساس تقاسم الأصل العرقي واللغة والثقافة. يبدو للوهلة الأولى أن الولايات المتحدة تتفق مع نموذج القومية المدنية لأنها تفتقر إلى

هوية عرقية واضحة أو لحدود وطنية راسخة، حيث لم يجمع الأمريكيين سوى المبادئ السياسية للثورة الأمريكية، فلكي يكون المرء أمريكيا، فإن كل ما يجب عليه القيام به هو التزام أيدلوجية الحرية والمساواة والديمقراطية. جمعت الجنسية الأمريكية منذ البداية، ومع ذلك، كلاً من التعريفين المدني والعرقي على حد سواء، وقد جرى تعريف المواطنة الأمريكية، على مدار معظم تاريخنا، عن طريق علاقة الدم وكذلك من خلال الولاء السياسي.

الهنود في الدولة الجديدة

توضح سياسات الجمهورية المبكرة تجاه الهنود والأمريكيين من أصل أفريقي المبادئ المتعارضة التي شكّلت القومية الأمريكية، حيث وافق القادة الأمريكيون على أنه لا ينبغي ترك الغرب في أيدي الهنود، لكنهم اختلفوا حول المصير النهائي للهنود، حيث كانت الحكومة تأمل في تشجيع توسع الاستيطان الأبيض غربا، وهو ما يعني ضمنيًا أحد ثلاثة أشياء: ترحيل السكان الهنود إلى أراضي أبعد في الغرب، أو زوالهم تماما أو إدماجهم في حضارة البيض مع توقع أنهم قد يصبحوا في يوم من الأيام جزءًا من المجتمع الأمريكي.

يَعتبر كثيرون من الأمريكيين البيض، وربما معظمهم، أن الهنود متوحشين غير صالحين للمواطنة، وبالتالي لم يكن للقبائل الهندية تمثيل في الحكومة الجديدة واستبعد الدستور الهنود غير الخاضعين للضرائب من احتسابهم عند تحديد عدد أعضاء الكونجرس عن كل ولاية، ومنحهم نظام المعاهدة وضعًا فريدًا في النظام السياسي الأمريكي، ولكن على الرغم من هذا الاعتراف بسيادتهم إلا أن المعاهدات كانت أساسًا مجرد سبلٍ لنقل الأراضي من الهنود إلى الحكومة الاتحادية أو إلى الولايات، وتم الاتفاق في كثير من الأحيان على المعاهدات من قبل جزء صغير من قبيلة ولكن تضطر القبيلة بكاملها لقبول شرعيتها.

كان وزير الحرب هنري نوكست في ظل إدارة واشنطن، يأمل في التعامل مع الهنود بحد أدنى من الحرب وبدون تقويض شرف الأمة الجديدة، واعترف قائلاً في 1794 بأن معاملة أمريكا لسكان القارة الأصليين كانت أكثر تدميرا للهنود من سلوك الإسبان في المكسيك وبيرو، وكانت لسياسته التصالحية نتائج مختلطة، حيث نهى الكونجرس عن نقل الأراضي الهندية دون موافقة الحكومة الاتحادية، بينما تجاهلت العديد من الولايات هذا التوجيه واستمروا في التفاوض على اتفاقات خاصة بهم.

استمرت رحى الحرب الدائرة في وادي أوهايو، وفي عام 1791، ألحق زعيم كونفدرالية ميامي ليتل تيرتر هزيمة مهينة بالقوات الأمريكية بقيادة آرثر سانت كلير، الحاكم الأمريكي في الإقليم الشمالي الغربي، أسفرت عن مقتل 630 جندي، وهو ما يشكل أعلى خسارة في جيش

الولايات المتحدة على يد الهنود حتى ذلك الوقت، وجاء رد الولايات المتحدة في عام 1794، حيث ألحقت وحدة من الجيش الأمريكي قوامها 3.000 جندي أمريكي، تحت قيادة "أنتوني واين" بقوات "ليتل تيرتر" هزيمة في معركة الأخشاب المتساقطة، مما أدى مباشرة إلى عقد معاهدة "جرينفيل" لعام 1795 التي تنازلت فيها اثنتا عشرة من قبائل الهنود عن معظم "أوهايو" و"إنديانا" للحكومة الاتحادية، ووضعت المعاهدة أيضًا نظام "الراتب مدى العمر من الأموال الاتحادية إلى القبائل الهندية التي أضفت الطابع المؤسسي على نفوذ الحكومة المستمر في الشئون القبلية، وأعطت لغرباء سيطرة كبيرة على الحياة الهندية.

وقد رفض العديد من الشخصيات البارزة مع ذلك فكرة أن الهنود كانوا أدنى بالفطرة من الأمريكيين البيض، فعلى سبيل المثال، يعتقد "توماس جيفرسون" أن الهنود ليسوا أدنى من الأمريكيين البيض، ولكنهم فقط عاشوا مرحلة أقل تقدمًا من حيث الحضارة، وأنهم يستطيعون أن يصبحوا أعضاء كاملي العضوية في الجمهورية من خلال التخلي عن حيازة الأراضي والصيد على المشاع لصالح الزراعة على نطاق صغير، وقد قال "جيفرسون" لأحد المجموعات الهندية إنهم بمجرد تملكهم للأراضي فإنهم يستطيعون الانضمام لنا في الحكومة"، بل في الحقيقة يستطيعون "مزج دمهم بدمائنا".

خَوَّلَ الكونجرس في التسعينيات من القرن الثامن عشر الرئيس "واشنطن" في توزيع الأدوات الزراعية والثروة الحيوانية على الرجال الهنود وعجلات الغزل وأنوال النسج إلى النساء الهنديات من أجل تحقيق هدف دمج واستيعاب الهنود في المجتمع الأمريكي، وكان اعتماد الهنود للمعايير الأمريكية بين الجنسين التي تنص على أن يقوم الرجال بالعمل في الأراضي وأن تعتني النساء بالمنازل، سيكون بمثابة علامة حاسمة بالنسبة للبيض على أنهم أصبحوا "متحضرين"، ولكن الفكرة الأمريكية للحضارة كانت تتطلب تحولاً كبيرًا جدًا للحياة الهندية وهو ما رفضته معظم القبائل، وقد قيل لأحد المبشرين "إذا كنا نريد أن نعمل، فإننا نعرف كيف نفعل ذلك وفقًا لطريقتنا الخاصة وكما نشاء"، فالحرية بالنسبة للهنود تعني الإبقاء على استقلالية القبلية والهوية، بما في ذلك القدرة على الترحال على نطاق واسع بحثًا عن الصيد، وأعلن أحد متحدثو "الموهوك" في مجلس معاهدة عام 1796 قائلا "منذ التعارف بيننا وبين إخواننا البيض، فإن ما يسمى بالحرية والتحرر يبدو شيئًا غريبًا جدًا علينا"، فلم يكن هناك مكان في إمبراطورية الحرية الأمريكية للهنود الذين يرغبون في الاحتفاظ بنمطهم التقليدي في الحياة.

السود والجمهورية

تجاوز عدد الأمريكيين من أصل أفريقي عدد السكان الهنود داخل الولايات المتحدة بحلول عام 1790، وكان وضع السود الأحرار غير محدد إلى حد ما، حيث لم ينص الدستور الأصلي في

أي مكان فيه على من هم في الحقيقة مواطني الولايات المتحدة، ولكنه ترك للولايات الفردية الحرية في ترسيم حدود الحرية، ففي الشمال افترضت قوانين التحرير التدريجي أن العبيد السابقين سيبقون في البلاد وألا يتم توطينهم في أي مكان آخر بالخارج، وسعى رجال الدولة في الولايات الشمالية مثل "هاملتون"، و"جاي"، و"فرانكلين" إلى إلغاء العبودية وساعد البعض على إنشاء بعض المدارس للأطفال السود. وقد تمتع السود الأحرار خلال عصر الثورة على الأقل ببعض الحقوق القانونية الممنوحة للبيض، بما في ذلك، الحق في التصويت في معظم الولايات، وقد أدلى بعضهم بأصواته بالفعل في انتخاب المندوبين الذين حضروا مؤتمر التصديق على الدستور. كانت الغالبية العظمى من السود بطبيعة الحال عبيد وجعلتهم العبودية كلهم جميعًا غير مرئيين بالنسبة لمن يضعون تصورًا عن المجتمع الأمريكي، فالعبيد كما صاغ ذلك أول مدعي عام في البلاد "إدموند راندولف" "لا يشكلون . . . أعضاء مقومين في مجتمعنا" ولا تنطبق عليهم لغة الحرية.

وأوضح "هكتور سانت جون دي كريفكير" في كتابه "رسائل من مزارع أمريكي"، الذي نُشِر في فرنسا عام 1782، والذي يعتبر أحد أكثر الكتب قراءة على نطاق واسع في تلك الحقبة، بشكل صارخ هذه العملية من الاستبعاد، وقد وُلِدَ "كريفكير" في فرنسا وشارك في الدفاع الفاشل عن "كيبيك" خلال حرب السنوات السبع، وبدلاً من العودة إلى وطنه فرنسا، أتى إلى مدينة "نيويورك" في عام 1759، وعمل تاجرًا ومستكشفًا وقام بزيارة معظم المستعمرات البريطانية على البر الرئيسي و"أوهايو" ووديان "المسيسيبي"، وتزوج في نهاية المطاف بابنة أحد أبرز مالكي الأرض في "نيويورك" وعاش مع عائلتها في مزرعة في مقاطعة "أورانج"، ولأنه سعى إلى البقاء على الحياد خلال حرب الاستقلال عانى من الاضطهاد من قبل كلا من الوطنيين والبريطانيين مما اضطره إلى العودة إلى فرنسا في نهاية المطاف.

أشاع "كريفكير"، في كتابه "رسائل من مزارع أمريكي"، فكرة أن الولايات المتحدة هي بوتقة انصهار، وهي الفكرة التي ستصبح شائعةً جدًا في القرن العشرين، حيث كتب قائلا "انصهر الأفراد هنا من جميع الدول في دولة جديدة"، حيث ترك الأمريكي وراءه "كل تحيزاته وطباعه القديمة [واكتسب] تحيزات وطباع جديدة من نمط الحياة الجديد الذي تبناه"، وكان "كريفكير" يدرك جيدًا ما أسماه "فظائع العبودية"، ولكنه عندما طرح السؤال الشهير "من هو إذًا الأمريكي، هذا الرجل الجديد؟" أجاب قائلا "هو خليط من الإنجليز والأسكتلنديين والأيرلنديين والفرنسيين والهولنديين والألمان والسويديين...إلخ، فهو إما أوروبي أو سليل أوروبيين، حيث كان قرابة خمس إجمالي السكان (أعلى نسبة في تاريخ الولايات المتحدة) يتألف من الأفارقة ونسلهم في ذاك الوقت.

استبعد العديد من الأمريكيين البيض، مثلما فعل "كريفكير"، السود من تصورهم للشعب الأمريكي، وعندما خوَّل الدستور للكونجرس سلطة إنشاء نظام موحد يصبح المهاجرون بموجبه مواطنين وعرض قانون "التجنيس" لعام 1790 أول تعريف تشريعي للجنسية الأمريكية، وقصر الكونجرس بدون نقاش عملية التجنس بالجنسية الأمريكية لأي فرد قادم من الخارج على "الأشخاص البيض الأحرار".

وشَرَّعَ القانون سياسة ما أسماه بعض المؤرخين بدقة جزئية فقط "الهجرة المفتوحة"، حيث كانت عملية الهجرة في الواقع مفتوحة بالنسبة للأوروبيين، ولم يبدأ حظر الدخول للبلاد إلا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وذلك لمجموعات من البيض تبدأ مع البغايا، والمجرمين المدانين، والمجانين، والأشخاص الذين من المرجح أن يصبحوا "عالة على المجتمع"، وطوال القرن الأول للجمهورية، يكاد يكون الأشخاص البيض الوحيدين غير المؤهلين بالمطالبة بالجنسية الأمريكية هم أولئك غير الراغبين في التخلي عن ألقاب النبالة الوراثية، كما هو مطلوب بموجب قانون عام 1795، ومع ذلك، استبعدت كلمة "أبيض" في قانون الجنسية الغالبية العظمى من سكان العالم من الهجرة إلى "ملاذ البشرية" وتقاسم مكاسب الحرية الأمريكية، ولم يستطع المهاجرون غير البيض أن يتجنسوا بالجنسية الأمريكية لمدة ثمانين عاما، حيث سُمِحَ للأفارقة التجنس في عام 1870 ولكن الأشخاص من أصل آسيوي لم يصبحوا مؤهلين للتجنس حتى السبعينيات من القرن العشرين (تم منح الأمريكيين الأصليين الجنسية الأمريكية في عام 1924.)

"جيفرسون" والعبودية والأصل العرقي

كتب "جون لوك" قائلا "يستمد الرجل حريته من توفر العقل والمنطق والرشد لديه"، ولا يبدو أن هناك أي تناقض في حرمان من لا يعتبروا عاقلين ولا رشد لهم، وكان الأمريكيون البيض ينظرون للسود بشكل متزايد باعتبارهم لا يتمتعون بقدر كاف من الصفات التي تجعل الحرية ممكنة مثل القدرة على ضبط النفس، والعقل والمنطق، والإخلاص والتفاني في سبيل المجتمع الأكبر، وهي الخصائص التي ادعى "جيفرسون" أن السود يفتقرون إليها، وذلك في المقارنة الشهيرة بين الأجناس والأعراق التي أوردها في كتابه "ملاحظات حول ولاية فرجينيا" الذي نُشِرَ في عام 1785، وأرجع ذلك من ناحية إلى عجز فطري طبيعي وإلى تجربة العبودية المريرة (وهو أمر اعتبره غير مفهوم تماما) التي جعلتهم غير مخلصين للأمة من ناحية أخرى، وكان "جيفرسون" مترددًا في "بخس حق جنس كامل من الرجال من رتبة في سلم الكائنات التي قد يكون خالقهم أعطاهم إياها"، ولذلك أعرب عن أن هناك مجرد شك في فكرة أن "السود أقل شأنًا من البيض في المواهب

والقدرات في كلا من الجسم والعقل، كمجرد "اشتباه فقط" وواصل قائلا "ومع ذلك فإن هذه الظروف المؤسفة تشكل عقبة قوية أمام تحرير هؤلاء الناس".

كان لدى "جيفرسون" هاجس حول العلاقة بين الوراثة والبيئة، والأصل العرقي والذكاء، واعتقاده بأن قدرات الأفراد وإنجازاتهم تتشكل وفقًا للظروف الاجتماعية جعله يميل إلى أن يأمل بألا يتم وصم مجموعة بشكل دائم بحالة من الدونية، وطبَّق هذا المبدأ كما ذكرنا آنفًا على الهنود الذين يُعتقد أنهم على قدم المساواة مع البيض في الذكاء الطبيعي، إلا أنه لم يستطع تجنب "الشك" بأن الطبيعة حرمت السود بشكل دائم من الصفات التي تجعل من الممكن اعتبارهم مواطنين جمهوريين، وقد حدث أن قام أمريكي حر من أصل أفريقي من "ميرلاند" عَلَّمَ نفسه مبادئ الرياضيات "بنيامين بانكر" بإرسال نسخة من تقويم فلكي منشور له مع التماس بإلغاء الرق إلى "جيفرسون" الذي رد عليه قائلا "لا أحد أكثر مني رغبة في رؤية مثل هذه البراهين على أن الطبيعة قد منحت إخواننا السود مواهب مساوية للرجال من ألوان أخرى"، إلا أن "جيفرسون" أخبر صديقه "جويل بارلو" أنه يعتقد أنه لابد وأن شخصًا أبيضًا قد ساعد "بانكر" في حساباته.

كتب "جيفرسون" ذات مرة قائلا "ليس هناك شيء مؤكد في كتاب القدر أكثر من أن يكون هؤلاء أحرار"، ومع ذلك، يرى أن مواطني أمريكا يجب أن يكونوا متجانسين يتقاسمون التجارب والخبرات، والقيم، والقدرات الفطرية، وأن هذا التشابه بين الأمريكيين سيكون بمثابة الدعامة التي تستند عليها مُثُل ومبادئ المساواة في الحقوق بين الجميع، مما يجعل من الممكن تحقيق فكرة الصالح العام، وأكد على أنه ينبغي أن يتمتع الأمريكيون السود في نهاية المطاف بالحقوق الطبيعية الواردة في إعلان الاستقلال ولكن في إفريقيا أو في منطقة البحر الكاريبي وليس في الولايات المتحدة، وتنبأ باندماج الهنود مع البيض في شعب واحد ولكنه كان مرعوبًا من فكرة التمازج بين جنسي السود والبيض، وقال إنه يعتقد أن السود على العكس من الهنود غير صالحين للاستقلال الاقتصادي والحكم الذاتي السياسي، وأن تحرير العبيد دون إبعادهم خارج البلاد من شأنه أن يعرض حرية البلاد للخطر، وقد قام الأرستقراطي البولندي "تاديوش كوسيوسكو"، الذي حارب من أجل الاستقلال الأمريكي، بترك أموال ووصية "لجيفرسون" لكي يقوم بشراء العبيد بهذه الأموال ومنحهم الحرية باسمه"، ولكن عندما توفي صديقه في عام 1817 قام "جيفرسون" بتحويل الأموال إلى مسئول في جمعية الاستعمار الأمريكية وهي منظمة تقوم بإرسال العبيد المحررين إلى إفريقيا وفي نهاية المطاف تم تقسيم الأموال بين ورثة "كوسيوسكو" في أوروبا.

عكس "جيفرسون" حالة انقسام العقل التي سادت في جيله، فقد كان بعض الشخصيات البارزة في "فرجينيا" يعتقدون أنه يمكن أن يصبح السود جزءًا من الأمة الأمريكية، ومنهم "إدوارد

كولز" الحاكم السابق لولاية "إيلينوي" الذي جلب عبيده من "فيرجينيا" ومنحهم الحرية وأسكنهم في المزارع، ومنهم أيضًا "واشنطن" الذي توفي في عام 1799 ونص في وصيته بتحرير عبيده البالغ عددهم 277 بعد وفاة زوجته "مارثا". (ولكن نظرًا لعدم ارتياحها لفكرة العيش بين رجال ونساء يتطلعون إلى وفاتها لذلك قامت بتحريرهم في العام التالي.) كان "جيفرسون" يرى نفسه مالك للعبيد خيِّر ومحسن، لأنه يعاملهم بمعاملة إنسانية حسنه، حتى أن أحد زواره، ويسمى "مونتايسلو"، علَّق قائلا "حجرات العبيد في مزارعه أفضل بكثير مما رأيت في أي مزرعة أخرى" ولكن لم يستطع منع نفسه من أن يضيف قائلا إن "حجراتهم تشكل تناقضًا كبيرًا مع القصر المشيد بالقرب منهم المخصص لإقامة السيد. نظرًا "لإيمان جيفرسون بأن تجارة العبيد نشاط غير أخلاقي، لذلك حاول تجنب بيع عبيده لتسديد ديونه المتزايدة، ولكن وصيته نصت على حرية خمسة فقط جميعهم أقارب لخادمته "سالي همينجز" التي يبدو أنه قد أنجب منها طفلاً أو أكثر، وكان مدينًا عند وفاته في عام 1826 بمبالغ كبيرة لذلك تم بيع أملاكه بما في ذلك معظم عبيده البالغ عددهم أكثر من 200، في مزاد علني، وبالتالي تدمير مجتمع العبيد الذي حاول أن يحافظ عليه متماسكا.

مبادئ الحرية

بالرغم من أن تراجع التدرب المهني والعمل بالخدمة بعقد لمدة قد قلل الفوارق بين درجات الحرية بين السكان البيض، إلا أن الثورة وسَّعت الفجوة بين الأمريكيين الأحرار من جهة وأولئك الذين بقوا في العبودية من جهة أخرى، حيث برز الأصل العرقي آنذاك من بين أنواع كثيرة من عدم المساواة القانونية والاجتماعية في أمريكا الاستعمارية كمبرر ملائم لوجود العبودية في البلاد التي زعمت أنها ملتزمة بالحرية، وقد أشار "ألكسندر هاملتون" في عام 1779 إلى أنه ربما كانت "قدرات وملكات وصلاحيات السود الطبيعية لا تقل عن قدراتنا وملكاتنا وصلاحياتنا، ولكن وجود العبودية يجعلنا نتخيل العديد من الأشياء التي لا تجد سندًا لها في المنطق أو الخبرة".

أعلن مؤلف مجهول في خطاب أُلقِيَ في "هارتفورد" بولاية "كونيتيكت" في الرابع من يوليو (تموز) لعام 1800 قائلا أصبحت عبارة "نحن الشعب" تعني على نحو متزايد الأمريكيين البيض فقط، وأصبحت مبادئ الحرية التي تشمل نصف البشرية أنظمة نصفية فقط"، وتساءل "أين أنت يا إعلان الاستقلال الآن؟ وجاء الجواب من صحيفة "ريتشموند": "لا تحدثنا عن المبادئ، فقد أبيدت هذه المبادئ من خلال الوجود الفعلي للعبودية بيننا".

أصوات الحرية

من ديفيد رامزاي

تاريخ الثورة الأمريكية (1789)

نشر "ديفيد رامزي" عضو الكونجرس القاري عن "ساوث كارولينا" تأريخه للثورة العام بعد عام من إقرار الدستور، وفي هذا المقتطف يشيد بمبادئ الحكم النيابي وحق التعديل في المستقبل المتجسدة في دساتير الولايات والمعتمدة في دستور وطني واحد بصفتها مبادئ سياسية أمريكية فريدة من نوعها وأفضل السبل لتأمين الحرية.

لم يقدم العالم حتى الآن مثل هذه الفرصة العادلة لتعزيز السعادة الاجتماعية؛ ومن المأمول لشرف الطبيعة البشرية أن تثبت النتيجة سفسطة وخطأ تلك النظريات القائلة بأن البشرية عاجزة عن الحكم الذاتي. كان القدماء الذين لا يعرفون مبادئ التمثيل النيابي عرضة للارتباك في اجتماعاتهم العامة، ولكن في أمريكا كانت هذه الطريقة في تمثيل الناس تعد مفهومًا جيدًا وتم تبسيطه إلى حد كبير إلى نظام، حتى أن الولايات الأكثر اكتظاظًا بالسكان كانت تجتمع في كثير من الأحيان بسلام في مؤتمر يضم النواب، ولم يكن كبيرًا جدًّا ليقوموا بالتداول المنظم في نفس الوقت الذي يمثل الجميع بنسبة متساوية. إن هذه الفروع الشعبية للسلطة التشريعية هي صور مصغرة من المجتمع، ومن المرجح أن تتأثر من طريقة انتخاباتهم بنفس مصالح ومشاعر الناس الذين تمثلهم. . . .

لم يحدث في أي زمن آخر ولا في أي بلد آخر أن امتلك الناس حق انتخاب نوع الحكومة التي سيعيشون في ظلها. لقد تم تجميع أجزاء الحكومات الحرة القديمة معًا عن طريق الصدفة. هذا وقد تم الحصول على الجزء الأكبر من حرية الحكومات الأوروبية الحديثة من خلال تنازلات أو تسامح الملوك أو القادة العسكريين، أما في أمريكا وحدها فقد اتفق العقل والمنطق والحرية على تشكيل الدساتير. . . وكانت كل هذه الدساتير رائعة، وتركوا للشعب سلطة تغييرها وتعديلها كلما يحلو لهم، ومن خلال هذه الخاصية وضعوا علم السياسة على قدم المساواة مع العلوم الأخرى من خلال فتح هذه الدساتير لإدخال تحسينات نتيجة الخبرة والتجربة ونتيجة للاكتشافات التي ستحدث في العصور المستقبلية. كان أصدقاء البشر يأملون بكل الحب من وراء هذه السلطة في تعديل الدساتير الأمريكية وقف القمع للأبد.

من جيمس وينثروب

مقال مناهض للفيدرالية موقع باسم "أجريبا" (1787)

نشر "جيمس وينثروب" وهو مسؤول في "ميدلسكس بماساتشوستس" ست عشرة رسالة عامه خلال الفترة ما بين نوفمبر (تشرين الثاني) عام 1787 وفبراير (شباط) عام 1788 تعارض التصديق على الدستور.

من رأي أقدر المؤلفين في هذا الموضوع أنه لا يمكن حكم إمبراطورية واسعة النطاق على أساس المبادئ الجمهورية، وأن هذا الحكم سوف يتحول إلى الاستبداد إلا إذا تم تشكيلها من كونفدرالية من الولايات الأصغر، لكل منها السلطات الكاملة في التنظيم الداخلي، وهذا هو بالضبط المبدأ الذي حفظ حريتنا حتى الآن. لا يمكن العثور على مثال لحكومة حرة إلى حد كبير تكون قد تبنت أي خطة أخرى. قد تبهر الإمبراطوريات الموحدة في الواقع عيون المتفرج من بعيد بروعتها، ولكن إذا تم فحصها عن كثب يتكشف أنها منطوية على البؤس برمتها. . . . وفي ظل هذا الطغيان تعاني الأقاليم الإسبانية، وسيكون هذا هو حالنا ومصيبتنا وبؤسنا إذا استسلمنا لخطط تشكيل إمبراطورية يديرها إمبراطور واحد. لتعزيز سعادة الشعب، ينبغي أن يكون هناك قوانين محلية، ومن الضروري أن يسن تلك القوانين ممثلي ذلك الشعب الذي سيخضع لها . . .

من المستحيل أن تناسب نفس القوانين كلاً من "جورجيا" و "ماساتشوستس"، لذلك يجب على كل ولاية التشريع لنفسها، ومع ذلك ففي اعتقادي أنه ليس هناك في التشريع نقاط لم يتم التخلي عنها في الخطة المقترحة، وأن قضايا من كل نوع فيما يتعلق بالملكية يتم تحديدها في المحكمة القارية، وكذلك جميع أنواع القضايا الجنائية، ولذلك يكون للسلطة التشريعية القارية الحق في وضع القواعد في جميع الحالات. . . . ليس هناك حقوق مقصورة على المواطنين. . . . ولذلك هذا النظام الجديد يعد توحيدًا لجميع الولايات في كتلة واحدة كبيرة، مهما تنوعت الأجزاء التي تتألف منها . . . .

يعمل قانون الحقوق على تأمين الأقلية ضد اغتصاب وطغيان الأغلبية. . . . لقد أثبتت تجربة البشرية جمعاء انتشار إساءة استخدام السلطة، ولذلك فمن الضروري الدفاع عن الفرد ضد الأغلبية في الجمهورية كما هو ضروري الدفاع عن الفرد ضد الملك في النظام الملكي.

أسئلة:

1- لماذا يشعر "رامزي" بأن سلطة تعديل الدستور هي ابتكار سياسي مهم جدا؟
2- لماذا يعتقد "وينثروب" أن مشروع قانون الحقوق ضروري للدستور؟
3- ما أوجه الاختلاف بين "رامزي" و"وينثروب" فيما يتعلق بكيفية عمل مبدأ تمثيل الشعب في الولايات المتحدة؟

أسئلة المراجعة:

1- كيف عكست الحكومة المركزية المحدودة التي أنشأتها مواد الاتحاد الكونفدرالي القضايا الكامنة وراء الثورة والمخاوف على الحريات الفردية؟

2- اشرح أهمية مرسومي الأرض لعامي 1784 و 1785 وكذلك مرسوم الشمال الغربي لعام 1787، سواء بالنسبة للجمهورية في مراحلها المبكرة أو أجيال المستقبل.

3- من هم القوميون في أواخر الثمانينيات من القرن الثامن عشر، ولماذا كانوا يعتقدون أن هناك ضرورة لوضع دستور وطني جديد؟

4- وُصِفَ الدستور بأنه "حزمة من التنازلات والحلول الوسط." ما هي أهم التنازلات والحلول الوسط في تشكيل اتجاه الأمة الجديدة ولماذا؟

5- ما هي الحجج الرئيسية ضد الدستور التي طرحها مناهضو الفيدراليين؟

6- ما مدى دقة وصف "هيكتور سانت يوحنا دي كريفكير" لأمريكا باعتبارها بوتقة انصهار؟

أسئلة الحرية:

1- لماذا يعتقد المستوطنون أن الحق في الاستيلاء على الأراضي الغربية واستخدامها كما يتراءى لهم يمثل جزءًا أساسيًا من الحرية الأمريكية؟ لماذا لا تنطبق نفس هذه الحرية على الأمريكيين الأصليين (الهنود) الموجودين بالفعل على الأرض؟

2- كان "جيمس ماديسون" يرى أن "الحرية قد تتعرض للخطر بفعل إساءة استخدام الحرية تمامًا مثل إساءة استخدام السلطة." اشرح ماذا كان يقصد "ماديسون" من ذلك، وكيف أثر هذا البيان على أفكار الحرية للمشاركين في المؤتمر الدستوري.

3- لماذا وكيف صمم واضعو الدستور حكومة تحمي العبودية وأنصارها؟

4- ما مدى أهمية مشروع قانون الحقوق في الوقت الذي تم سنُّه فيه، وما مدى أهميته الآن؟

5- لماذا لم يستخدم الدستور كلمة "العبودية" مطلقا؟

جدول المراجعة		
المناقشات المحيطة بالميثاق الدستوري		
المصالح أو التعرض للخطر	القضية	القرار
الولايات الكبيرة في مقابل الولايات الصغيرة	التمثيل في الكونجرس • خطة "فيرجينيا" • خطة "نيو جيرسي"	• التمثيل النسبي في مجلس النواب • التمثيل المتساوي في مجلس الشيوخ
الولايات التي تسمح بالعبودية في مقابل الولايات التي لا تسمح بالعبودية	• حجم السكان هو أساس تقرير التمثيل النسبي • متى يجب وقف تجارة العبيد	• بند الثلاثة أخماس • يستطيع الكونجرس حظر تجارة العبيد بعد عشرين عامًا من التصديق على الدستور
دعاة الحكومة المركزية القوية في مقابل الحكومة المركزية الضعيفة	• منع فرع من الحكومة من الهيمنة على الفروع الأخرى • منع الحكومة الفيدرالية من الهيمنة على حكومات الولايات	• فصل السلطات • تقسيم السلطات
عامة الشعب في مقابل النخبة الثرية	دور المواطنين في الحكومة الجديدة	تم استبعاد الناخبين من الانتخاب المباشر لأعضاء مجلس الشيوخ والرئيس

الفصل الثامن

1789	تنصيب جورج واشنطن
	بداية الثورة الفرنسية
1791	بنك الولايات المتحدة الأمريكية
	تقرير حول المنتجين الصناعيين
1791-1804	ثورة هايتي
1772	كتاب "الزعيم الأفريقي" "لسارة موريون"
	"دفاع عن حقوق المرأة" "لماريولستونكراف"
	"حقوق الرجل" لتوماس باين
1793	إعلان الحياد "لجورج واشنطن"
	القانون الفيدرالي الأول للعبد الهارب
1794	معاهدة "جاي"
	تمرد الويسكي
1779	تنصيب "جون آدمز"
1798	موضوع XYZ
	قوانين الغرباء والفتنة
1799	تمرد "جون فرايز"
1800	تمرد جابرييل
1801	تنصيب "توماس جيفرسون"
1803	شراء "لويزيانا"
	قضية "ماربوري" ضد "ماديسون"
1804-1806	حملة "لويس وكلارك"
1807	قانون الحظر
1809	تنصيب "جيمس ماديسون"
1811	معركة "تيبيكانوي"
1812-1814	حرب عام 1812
1814	اتفاقية "هارتفورد"
	معاهدة "جنت"
1815	معركة "نيو أورلينز"

تأمين الجمهورية ، 1790-1815

السياسة في عصر العاطفة

برنامج "هاملتون"

ظهور المعارضة

صفقة "جيفرسون" و"هاملتون"

تأثير الثورة الفرنسية

الأطراف السياسية

تمرد الويسكي

الحزب الجمهوري

المجال العام المتسع

الجمعيات الديمقراطية – الجمهورية

حقوق المرأة

النساء والجمهورية

رئاسة آدمز

انتخابات الرئاسة لعام 1796

"عهد الساحرات"

قرارات فرجينيا وكنتاكي

"ثورة عام 1800"

العبودية والسياسة

ثورة هاييتي

تمرد جبرائيل

جيفرسون في السلطة

المراجعة القضائية

شراء ولاية لويزيانا

لويس وكلارك

ضم لويزيانا

الحروب البربرية

الحظر

ماديسون والضغط من أجل الحرب

الحرب "الثانية للاستقلال "

الرد الهندي

رؤية تيكومسيه

حرب عام 1812

أعقاب الحرب

نهاية الحزب الفدرالي

أسئلة تركيز:

- ما هي القضايا التي جعلت السياسة في التسعينيات من القرن الثامن عشر باعثة على الانقسام لهذا الحد؟
- كيف عززت الآراء المتنافسة حول الحرية والأحداث العالمية الانقسامات السياسية في التسعينيات من القرن الثامن عشر؟
- ما هي قصص النجاح وقصص الفشل في رئاسة "جيفرسون"؟
- ما هي الأسباب والنتائج الهامة لحرب عام 1812؟

وفي مدينة نيويورك، العاصمة المؤقتة للبلاد، أصبح "جورج واشنطن" أول رئيس بموجب الدستور الجديد في 30 أبريل (نيسان) عام 1789، وقد منحته الدوائر الانتخابية التسعة والستين جميعها أصواتها؛ وظهر مرتديًا حلة سادة من "القماش الأمريكي الفاخر بدلاً من الحلة الأوروبية المُزَخرفَة، أقسم "واشنطن" اليمين الدستورية على شرفة القاعة الاتحادية أمام حشد كبير تفاعل معه "بصيحات متكررة بصوت عالٍ" معلنين موافقتهم، ثم تراجع إلى الداخل لإلقاء الخطاب الافتتاحي أمام أعضاء الكونجرس وغيرهم من الوجهاء.

أعرب خطاب "واشنطن" عن قناعة الجيل الثوري بأنهم مروا بتجربة ذات أهمية تاريخية هائلة، والتي لم تكن نتائجها مؤكدة بأي حال من الأحوال، وأعلن أن "المحافظة على شعلة الحرية متأججة والحفاظ على مصير النموذج الجمهوري من الحكم" يتوقف على نجاح التجربة الأمريكية في الحكم الذاتي. يبدو أن معظم الأمريكيين يتفقون على أن الحرية كانت هي العبقرية الخاصة للمؤسسات الأمريكية، فقد ذكر مجلس النواب في قرار تهنئته "لواشنطن" على تنصيبه رئيسًا أنه تم اختياره من قبل "الشعب الأكثر حرية على وجه الأرض"، وعندما حان الوقت لإصدار العملات النقدية الأولى للأمة أصدر الكونجرس توجيهاته، بألا تحمل هذه العملات صورة رئيس الدولة (كما هو الحال في النظام الملكي) ولكن "شعارًا رمزيًا للحرية" مع كلمة "الحرية" نفسها بشكل بارز.

وقد اعتقد القادة الأمريكيون أن نجاح الحكومة الجديدة يعتمد قبل كل شيء على الحفاظ على الوئام السياسي، وكانوا حريصين بشكل خاص على تجنب ظهور الأحزاب السياسية المنظمة التي كانت قد ظهرت بالفعل في عدة ولايات وبدأ النظر للأحزاب التي تدعو للاستقطاب والانقسام على أنها غير مخلصة، وأعلن واشنطن لاحقًا "أنها تعمل على تنظيم الانقسام" ولتحل أهداف "الأقلية الصغيرة ولكنها البارعة" بالنسبة "لإرادة الأمة"، ولم يورد الدستور أي ذكر للأحزاب السياسية، وافترض أن الطريقة الأصلية لانتخاب الرئيس تكمن في تقدم المرشحين للترشح كأفراد وليس على أساس حزبي (وإلا ما كان ليصبح ثاني مرشح في السباق نائبًا للرئيس)، ولكن سرعان ما نشأت الأحزاب السياسية الوطنية، أولاً في الكونجرس ثم سرعان ما امتدت إلى عامة الناس، وبدلاً من الوئام أصبحت التسعينيات من القرن الثامن عشر "عصر الهوى"، على حد تعبير أحد المؤرخين، وتشكيك كل طرف في ولاء الأطراف الأخرى ووصم الخصوم بالعبارات الأكثر تطرفا، وأصبح الخطاب السياسي ملتهبًا نظرًا لأن المصالح كانت كبيرة، وتنطوي على إرث الثورة ومستقبل الأمة الجديدة وبقاء الحرية الأمريكية.

السياسة في عصر العاطفة

قدَّم الرئيس "واشنطن" رمزًا للوحدة الوطنية تشتد إليه الحاجة، فبعد أن تقاعد لحياته الخاصة في أعقاب حرب الاستقلال (على الرغم من إشارات بعض ضباط الجيش أنه صنع من نفسه ديكتاتورا)، كان نموذجًا للفضيلة الجمهورية في التضحية بالنفس، وكان نائبه "جون آدامز" يحظى بالاحترام على نطاق واسع بوصفه أحد القادة الرئيسيين في الحراك من أجل الاستقلال، وعَيَّنَ "واشنطن" في حكومته بعض من أبرز القادة السياسيين في الأمة الجديدة، بما فيهم "توماس جيفرسون" باعتباره وزيرًا للخارجية و"ألكسندر هاملتون" وزيرا للخزانة، وستة أعضاء للمحكمة العليا برئاسة "جون جاي" من "نيويورك"، إلا أن الحكومة المتناغمة أثبتت أنها قصيرة الأجل.

برنامج "هاملتون"

ظهرت الانقسامات السياسية على السطح لأول مرة عند وضع وزير الخزانة "هاملتون" خطة مالية في عامي 1790 و 1791، حيث كانت أهداف "هاملتون" الفورية تحقيق الاستقرار المالي في البلاد وجلب المصالح المالية الأكثر نفوذًا في البلاد إلى دعم الحكومة وتشجيع التنمية الاقتصادية، بينما كان هدفه طويل الأجل جعل الولايات المتحدة الأمريكية قوة تجارية وعسكرية كبيرة على غرار بريطانيا العظمى، لأنه كان يعتقد أنه لا يمكن أبدًا تحقيق هدف العظمة الوطنية إذا كانت الحكومة تعاني من نفس نقاط الضعف التي كانت تعاني منها بموجب بنود الاتحاد الكونفدرالي.

كان برنامج "هاملتون" يتألف من خمسة أجزاء؛ كانت الخطوة الأولى تتمثل في تحقيق الجدارة الائتمانية للأمة الجديدة، بمعنى خلق الظروف التي يقوم الأشخاص في ظلها بإقراض المال للحكومة من خلال شراء سنداتها وهم على ثقة أنها ستسددها لهم، فقد اقترح "هاملتون" أن تتحمل الحكومة الاتحادية مسئولية سداد القيمة الإسمية للدين الوطني الذي ورثته من حرب الاستقلال فضلاً عن ديون الولايات المستحقة؛ دعا ثانيا لخلق دين وطني جديد على أساس استبدال الديون القديمة بسندات جديدة بفائدة تصدر لصالح دائني الحكومة، وهذا من شأنه أن يجعل للرجال ذوي الثروة الاقتصادية مصلحة في تعزيز الاستقرار في الدولة الجديدة، لأنه كلما زادت قوة وتأمين الحكومة الاتحادية من الناحية الاقتصادية كلما كان من الأرجح أن تتمكن من سداد ديونها.

دعا الجزء الثالث من برنامج "هاملتون" إلى إنشاء بنك الولايات المتحدة على غرار بنك إنجلترا ليكون بمثابة الوكيل المالي الرئيسي للأمة، وهو شركة خاصة وليس فرعًا من الحكومة ويحتفظ بالأموال العامة ويصدر الأوراق النقدية التي من شأنها أن تكون بمثابة العملة، ويقدم

القروض للحكومة عند الضرورة مع إدرار الربح لمساهميه على كل هذه الخدمات. يهدف الجزء الرابع من البرنامج إلى زيادة الإيرادات وذلك من خلال فرض ضريبة على منتجي الويسكي. خامسا، قدم "هاملتون" في ديسمبر (كانون الأول) عام 1791 إلى الكونجرس تقريرًا عن المصنوعات دعا فيه إلى فرض تعريفة جمركية (ضريبة على السلع الأجنبية المستوردة)، وتقديم إعانات حكومية لتشجيع تطوير المصانع التي يمكنها تصنيع المنتجات التي كان يتم شراءها حينذاك من الخارج. أما فيما يتعلق بالقطاع الخاص، عزز "هاملتون" محاولة فاشلة لبناء مدينة صناعية في المكان الذي يُعْرَفْ حاليا باسم "باترسون" في "نيو جيرسي". اقترح "هاملتون" أيضًا إنشاء جيش وطني للتعامل مع الانتفاضات مثل تمرد "شايز".

ظهور المعارضة

نالت رؤية هاملتون لجمهورية تجارية قوية دعمًا قويًا من رجال المال والصناعة والتجار الأمريكيين، ولكنها أثارت قلق الذين آمنوا بأن مصير الأمة الجديدة يكمن في رسم مسار مختلف للتنمية، وارتكنت خططه على العلاقات الوثيقة مع بريطانيا بصفتها الشريك التجاري الرئيسي للولايات المتحدة، بينما كان "جيمس ماديسون" و"توماس جيفرسون" يريان أن المستقبل يكمن في التوسع غربا وليس في الاتصالات مع أوروبا، وكان لديهما رغبة قليلة لتعزيز التصنيع أو النمو الحضري أو لرؤية سياسة اقتصادية تتشكل لصالح المصرفيين وكبار رجال الأعمال، حيث كان هدفهما هو إقامة جمهورية من المزارعين المستقلين الذين يسوِّقون الحبوب والتبغ وغيرهما من المنتجات بحرية إلى العالم بأسره، حيث كانوا يعتقدون أن التجارة الحرة، وليس نظام المحسوبية الحكومية من خلال التعريفات الجمركية والإعانات، الذي من شأنها أن تعزز الرخاء الأمريكي في نفس الوقت مع تحقيق قدر أكبر من المساواة الاجتماعية، وسرعان ما أدرك "جيفرسون" و"ماديسون" أن أكبر تهديد للحرية الأمريكية يكمن في تحالف حكومة مركزية قوية مع طبقة ناشئة من الرأسماليين التجاريين، كما يبدو تصور "هاملتون".

كان نظام "هاملتون" بالنسبة "لجيفرسون" "ينبع من المبادئ المعاكسة للحرية، وأنه تم تصميم هذا النظام لتقويض وهدم الجمهورية، بينما بدت خطط "هاملتون" لتشكيل جيش دائم في أعين منتقديه بمثابة تهديد جريء للحرية، حيث كانوا يخشون من أن البنك الوطني وتوليه لديون الدولة من شأنه أن يُدخِل في السياسة الأمريكية نفس الفساد الذي قوَّض الحرية البريطانية، ويزيد من ثراء الأغنياء بالفعل على حساب الأمريكيين العاديين. كان المضاربون قد اشتروا خلال الثمانينيات من القرن الثامن عشر بخصومات كبيرة (غالبًا بضعة سنتات فقط على الدولار) السندات الحكومية والنقود الورقية التي كانت تستخدم للدفع لأولئك الذين قاتلوا إبان الثورة

أو موردي المؤن للجيش، وبمقتضى خطة هاملتون سيجني المضاربون كسبًا غير متوقع نظرًا لأنهم سيستردون قيمة السندات بالقيمة الاسمية لها، بينما لن يحصل حاملو الأسهم الأصليون على أي شيء، وعلاوة على ذلك، فإنه نظرًا لأن نظام النقل كان ضعيفًا جدًا لذلك كان الكثيرون من المزارعين بالضواحي الخلفية والريفية معتادين على تقطير محاصيلهم من الحبوب لتصنيع الويسكي الذي يمكن حمله بسهولة أكبر إلى السوق، ولذلك بدا أن الضرائب على الويسكي التي فرضها "هاملتون" انتقتهم بشكل غير عادل من أجل إثراء حملة السندات.

صفقة جيفرسون ـ هاملتون

نشأت المعارضة لبرنامج هاملتون كلها تقريبًا في البداية في الجنوب، وهي المنطقة الأقل اهتمامًا بتطوير الصناعات التحويلية وذات الاقتصاد الأقل تنوعًا والعدد الأقل من أصحاب السندات الاتحادية، بالمقارنة بالولايات الوسطى ونيو إنجلاند (قد سددت ولاية فرجينيا ديونها من الحرب إلى حد كبير، ولذلك لم تجد سببًا يجعلها تخضع للضريبة التي ستفيد ولايات مثل "ماساتشوستس" التي فشلت في سداد ديونها) وقد أصر "هاملتون" على أن جميع خططه أجازها الحكم الغامض بالدستور الذي يخوّل الكونجرس سلطة سن قوانين "للرفاهية العامة"، ونتيجة لذلك أصبح العديد من الجنوبيين الذين دعموا الدستور الجديد الآن من "مؤولي الدستور" الذين يصرون على أن الحكومة الاتحادية لا يمكنها أن تمارس إلا السلطات المدرجة على وجه التحديد في الوثيقة، فعلى سبيل المثال، اعتقد "جيفرسون" أن البنك الوطني الجديد غير دستوري لأن حق الكونجرس في إنشاء بنك غير وارد في الدستور.

وهددت المعارضة في الكونجرس سن خطط "هاملتون"، وأتبع ذلك مفاوضات وراء الكواليس التي بلغت ذروتها في حفل العشاء الشهير في عام 1790، الذي توسط فيه "جيفرسون" اتفاقًا وافق الجنوبيون بموجبه على برنامج "هاملتون" المالي (باستثناء إعانات المصنعين) في مقابل إقامة العاصمة الوطنية الدائمة على نهر "بوتوماك" بين "ميريلاند" و"فرجينيا"، وكان الجنوبيون يأملون في أن موقع العاصمة من شأنه أن يعزز قوتهم في الحكومة، في حين يبعدها عن نفوذ المموِّلين والتجار الشماليين الذين بدا أن "هاملتون" متحالف معهم. قام الرائد "تشارلز لينفن"، وهو فرنسي المولد من قدامى المحاربين في حرب الاستقلال، بتصميم خطة عظيمة وفخمة "للمدينة الفيدرالية" على غرار المراكز الحضرية الكبيرة في أوروبا ذات الشوارع الواسعة، والحدائق، والنوافير، وقد قام بجزء من المسح العالِم الأمريكي الأفريقي الحر "بنيامين بانكر"، الذي سبق ذكره في الفصل السابق، وقام العبيد بمعظم أعمال بناء المباني العامة في العاصمة الجديدة للبلاد.

تأثير الثورة الفرنسية

بدأت الانقسامات السياسية حول برنامج "هاملتون" المالي، ولكنها تعمقت واشتدت كاستجابة للأحداث التي وقعت في أوروبا، فعندما بدأ الثورة الفرنسية في عام 1789، رحب بها جميع الأمريكيون تقريبًا ورأوا أنها استلهمت بصورة جزئية نموذج تمردهم، وقد ذكر "جون مارشال" من فرجينيا والذي سيصبح رئيس قضاة المحكمة العليا لاحقًا قوله "اعتقدت بصدق أن الحرية الإنسانية تعتمد في قدر كبير على نجاح ثورة الفرنسيين" ولكن في عام 1793 اتخذت الثورة منحًى أكثر راديكالية مع إعدام الملك "لويس السادس عشر"، بالإضافة إلى العديد من الأرستقراطيين وغيرهم من خصوم الحكومة الجديدة، واندلعت الحرب بين فرنسا وبريطانيا العظمى.

أصبحت الأحداث الجارية في فرنسا مصدرًا لصراع مرير داخل أمريكا، حيث كان يعتقد "جيفرسون" وأتباعه أنه على الرغم من تجاوزات الثورة الفرنسية إلا أنها سجلت انتصارًا تاريخيًّا لفكرة الحكم الشعبي الذاتي الذي يجب الدفاع عنه بأي ثمن، وقد ألهم الحماس لفرنسا بولادة جديدة لرموز الحرية، حيث عادت سواري وقلنسوات الحرية إلى الظهور في شوارع البلدات والمدن الأمريكية. أما بالنسبة إلى "واشنطن" و"هاملتون" وأنصارهما، فقد أثارت الثورة الفرنسية مع ذلك شبح الفوضى ولذلك كانوا يعتقدون أنه ليس هناك أي خيار أمام أمريكا سوى التقرب إلى بريطانيا.

وخشي القادة الأمريكيون أن يجري تقسيم أمريكا إلى أحزاب "تنجرف تحت تأثير القوى الأوروبية المتنافسة"، على حد تعبير "جون كوينسي آدامز"، ولكن التنافس بين بريطانيا وفرنسا ساهم كثيرًا في تشكيل السياسة الأمريكية في وقت مبكر، فالتحالف "الدائم" بين فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية الذي يرجع تاريخه إلى عام 1778 تسبب في تعقد الوضع، فلا أحد ينادي بأنه ينبغي للولايات المتحدة أن تتورط في حرب أوروبية وأصدر "واشنطن" في إبريل (نيسان) عام 1793 إعلان الحياد الأمريكي، ولكن المعجبين بالثورة الفرنسية في أمريكا نظموا في هذا الربيع حفلات ترحيب صاخبة "لادمون جينيه" المبعوث الفرنسي الذي يسعى لحشد التأييد لحكومته المحاصرة، وعندما بدأ "جينيه" تكليف السفن الأمريكية بمهاجمة السفن البريطانية تحت العلم الفرنسي طالبت إدارة "واشنطن" بعودته إلى وطنه (ولكن نظرًا لخطورة الوضع في فرنسا جدا، قرر البقاء في أمريكا وتزوج ابنة "جورج كلينتون" حاكم ولاية نيويورك).

استولى البريطانيون في الوقت نفسه على مئات من السفن الأمريكية التي تتاجر مع جزر الهند الغربية الفرنسية، واستأنفوا الممارسة المكروهة من اختطاف البحارة، بما في ذلك المواطنين الأمريكيين من أصل بريطاني وإكراههم على الخدمة في سلاح البحرية لديهم فتم إرسال "جون جاي" إلى لندن لتقديم الاعتراضات، في حين كان لا يزال يعمل رئيسًا للمحكمة العليا، وقام

بالتفاوض على معاهدة عام 1794 التي أفرزت أكبر جدل عام خلال رئاسة "واشنطن"، حيث لم تتضمن معاهدة "جاي" أي تنازلات بريطانية عن إكراه البحارة الأمريكيين في الخدمة في سلاح البحرية البريطانية أو أي تنازل لصالح الحقوق الأمريكية في الشحن ولم توافق بريطانيا على التخلي عن المخافر الأمامية على الحدود الغربية والذي كان من المفترض أن تقوم به في 1783، وفي المقابل ضمنت الولايات المتحدة معاملة تفضيلية للسلع البريطانية المستوردة؛ لقد ألغت المعاهدة في الحقيقة التحالف الأمريكي الفرنسي واعترفت بالتفوق الاقتصادي والبحري البريطاني على أنه حقائق حتمية في الحياة لا يمكن تغييرها أو تجنبها. وجه منتقدو الإدارة الأمريكية الاتهامات لها بأنها تنحاز لبريطانيا الملكية في صراعها مع فرنسا الجمهورية؛ وفي النهاية شحذت معاهدة "جاي" الانقسامات السياسية في الولايات المتحدة وأدت مباشرة إلى تشكيل حزب معارض منظم.

الأحزاب السياسية

ظهر حزبان متماسكان على نحو متزايد بحلول منتصف التسعينيات من القرن الثامن عشر في الكونجرس، يطلقان على أنفسهما الفيدراليون والجمهوريون (ليس لهذا الأخير أي علاقة بالحزب الجمهوري في عصرنا الحالي الذي تأسس في الخمسينيات من القرن التاسع عشر)، وزعم كل منهما أنه يعبر عن الحرية ويتهم خصمه بالانخراط في مؤامرة لتدميرها.

انحاز الفيدراليون المؤيدون لإدارة "واشنطن" نحو برنامج "هاملتون" الاقتصادي والعلاقات الوثيقة مع بريطانيا، ومال التجار والمزارعون والمحامون المزدهرون والقادة السياسيون المعروفون (خصوصًا خارج الجنوب) نحو دعم الفيدراليين، وكانت نظرتهم نخبوية بشكل عام وتعكس وجهة النظر التقليدية لمجتمع القرن الثامن عشر باعتباره تسلسلاً هرميًا ثابتا، والنظر للمناصب العامة على أنها مخصصة للرجال ذوي الوضع الاقتصادي المرتفع، كما وصفهم "هاملتون" "الأغنياء" و "القادرين" و"أبناء العائلات الشهيرة"، وأصر الفيدراليون على أن الحرية ترتكز على احترام السلطة، فهي لا تعني الحق في الوقوف في صفوف المعارضة للحكومة، كان الفيدراليون يخشون أن تتحول روح الحرية" التي أطلقتها الثورة الأمريكية إلى حالة من الفوضى و"الفجور"، وعندما كتب الزعيم الفيدرالي من نيويورك "روفوس كنج" مقالاً عن "الكلمات. . . ذات المعنى الخاطئ" التي "أضرت كثيراً" بالمجتمع الأمريكي، كانت أول الأمثال التي قدمها على ذلك هي كلمة "الحرية".

تمرد الويسكي

ربما كان حزب "الفيدراليين" هو الحزب الرئيسي الوحيد في التاريخ الأمريكي الذي أعلن بصراحة أن الديمقراطية والحرية هي بمثابة أدوات خطرة في أيدي المواطنين العاديين، وتعززت

هذه القناعة باندلاع تمرد الويسكي لعام 1794، عندما سعى المزارعون في المناطق الخلفية والريفية في "بنسلفانيا" إلى منع جمع الضريبة الجديدة على المشروبات الروحية المقطرة، حيث استدعى "المتمردون" رموز عام 1776 ورفعوا صور سواري الحرية ولافتات تقول "الحرية أو الموت"، وكتبت أحد المجموعات إلى الرئيس قائلة "المواطنون في الغرب يرون أن الضرائب منفرة للحرية واستحواذ على تلك الامتيازات التي منحتها لهم الحرية"، ولكن واشنطن أرسل ميليشيات تضم 13.000 جندي إلى غرب بنسلفانيا (قوة أكبر من القوة التي أمر بها في وقت الثورة) ورافقهم في جزء من الطريق حتى مكان الاضطرابات، وهي المرة الوحيدة في التاريخ الأمريكي التي يقود فيها الرئيس بالفعل جيش في الميدان، ولم يبد "المتمردون" أي مقاومة، وكتب "واشنطن" قائلاً إن رده القوي حفزه بشكل جزئي إزاء القلق من "الانطباع" الذي سيتركه استعادة النظام العام "على الآخرين"، ويقصد "بالآخرين" هنا الأوروبيين الذين لم يكونوا يعتقدون أن التجربة الأمريكية في الحكم الذاتي ستصمد أمام التحديات وستظل على قيد الحياة.

الحزب الجمهوري

كان الجمهوريون بقيادة "ماديسون" و"جيفرسون" أكثر تعاطفًا مع فرنسا مما كان عليه الفيدراليون وأكثر ثقة في الحكم الذاتي الديمقراطي، واستمدوا دعمهم من تحالف غير عادي من المزارعين الجنوبيين الأثرياء والمزارعين العاديين في جميع أنحاء البلاد، وكذلك أدى الحماس للثورة الفرنسية إلى جذب الحرفيين في المناطق الحضرية إلى صفوف الجمهوريين بشكل متزايد، ويفضِّل الجمهوريون ما يسميه محرر جريدة "نيو هامبشاير" "بحر الحرية العاصف" أكثر من "هدوء الاستبداد"، وكانوا أكثر انتقادًا لعدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية بالمقارنة بالفيدراليين وأكثر قبولاً للمشاركة الديمقراطية الواسعة باعتبارها ضرورية للحرية.

اعتبر كل حزب ناشئ نفسه ممثلاً للأمة، واعتبر الحزب الآخر "فصيلاً" غير شرعي، وقد كتب "ماديسون" في عام 1792 حوارًا وهميًا بين المتحدثين باسم المجموعتين، ووصف الفيدراليون الناس العاديين بأنهم "أغبياء ومشبوهين وفجار"، واتهموا الجمهوريين بأنهم "متواطئون مع الإلحاد والفوضى"، في حين أطلق الجمهوريون على الفيدراليين بأنهم أعداء للحرية و"عبيد للطغيان".

وقد أصبحت اللغة السياسية أكثر وأكثر سخونة في الحياة الحقيقية أيضا، حيث ندد الفيدراليون بالجمهوريين واصفين إياهم بأنهم عملاء للفرنسيين وفوضويين وخونة، وفي المقابل اتهم الجمهوريون خصومهم الملكيين بأنهم عازمون على تحويل الحكومة الوطنية الجديدة إلى أرستقراطية فاسدة على غرار النمط البريطاني، واتهم كل حزب الحزب الآخر بخيانة مبادئ حرب الاستقلال والحرية الأمريكية، حتى أن "واشنطن" نفسه تعرض لاتهامات متصاعدة بإساءة

السلطة، وعندما غادر منصبه أعلنت صحيفة جمهورية بأن اسمه أصبح مرادفًا "للظلم السياسي" و"الفساد المقنن"، واشتكى أحد المعاصرين أن الصحافة الأمريكية "التي هي أحد الضمانات الرئيسية للحكومة الحرة" قد أصبحت "الأكثر فحشًا في العالم المتحضر".

المجال العام المتسع

لم تفرز المناقشات التي دارت في التسعينيات من القرن الثامن عشر إحدى أكثر الفترات حدةً من الحرب الحزبية في التاريخ الأمريكي فحسب، ولكن أفرزت أيضًا توسعًا دائمًا في المجال العام مصحوبًا بالتوسع في المحتوى الديمقراطي للحرية الأمريكية، حيث حضر المزيد والمزيد من المواطنين في الاجتماعات السياسية، وأصبحوا قراء متعطشين للمنشورات والصحف، وأتاح إنشاء ما يقرب من 1.000 مكتب بريد ترويج الرسائل الشخصية والمواد المطبوعة على نطاق أوسع، وشهدت الفترة النمو السريع للصحافة الأمريكية حيث ارتفع عدد الصحف من 100 إلى 260 صحيفة خلال فترة التسعينيات من القرن الثامن عشر، ثم وصل العدد إلى ما يقرب من 400 صحيفة بحلول عام 1810.

كتب المئات من "الرجال المجهولين" منشورات ومقالات صحفية وشكلوا منظمات سياسية، وتجلى الجيشان الديمقراطي طوال عقد من الزمن في كتابات مثل "مفتاح الحرية" بقلم "ويليام مانينج"، وهو مزارع من "ماساتشوستس" قد عَلَّمَ وثقف نفسه وقاتل في معركة "كونكورد" التي بدأت بها حرب الاستقلال، وعلى الرغم من أنها لم تُنشَر إلا بعد العديد من السنوات، إلا أن عمل "مانينج" الموجه إلى "أصدقاء الحرية والحكومة الحرة" عكس الفكر السياسي الشعبي في تلك الحقبة، حيث أعلن "مانينج" أن أهم الانقسامات في المجتمع كانت بين "القلة" و"الأكثرية"، ودعا هذه الأخيرة لتشكيل جمعية سياسية وطنية لمنع "القلة" من تدمير "الحكومة الحرة" و"ممارسة الطغيان ضد الشعب".

المجتمعات الديمقراطية – الجمهورية

ألهمت نوادي "اليعاقبة" البارسية (أشهر الجمعيات السياسية التي نشأت في فرنسا بعد الثورة الفرنسية خلال الفترة ما بين عامي (1792–1794) لأصدقاء الدستور والحرية والمساواة) أنصار الثورة الفرنسية في الولايات المتحدة ومنتقدي إدارة واشنطن في عامي 1793 و 1794 بتشكيل ما يقرب من خمسين جمعية للديمقراطيين – الجمهوريين، وأعلنت الصحافة الجمهورية عن اجتماعاتها وكانت تحفل بالاحتفاء بالحرية الفرنسية والأمريكية. كان الإعلان عن الجمعية الديمقراطية في مقاطعة "أديسون" في "فيرمونت" نموذجيا: "كل البشر أحرار بصورة فطرية وطبيعية ويمتلكون حقوقًا متساوية ولا تستمد الحكومة شرعيتها إلا من خلال العقد الاجتماعي الاختياري من الشعب".

ورأى الفيدراليون أن الجمعيات بمثابة مثال آخر على كيفية خروج الحرية عن السيطرة، حيث أعلنت الحكومة، وليس "الجمعيات التي تنشأ ذاتياً، أن الرئيس هو الصوت الحقيقي للشعب الأمريكي، واضطرت الجمعيات إلى تبرير وجودها، فقد استحدثت خطوط دفاع عن حق الشعب في مناقشة القضايا السياسية والتنظيم للتأثير على السياسة العامة، وكان "التحقيق الحر" و "حرية الاتصال" هما أول هذه الخطوط الدفاعية للجمعيات عن "الحقوق الفطرية الطبيعية الغير قابلة للتنازل بالنسبة للرجال الأحرار"، وأعلنت الجمعية الديمقراطية في مقاطعة "أديسون" في "فيرمونت" عن ذلك بقولها "لم تعد الحرية السياسية تعني فقط الحق في التصويت في الانتخابات، ولكنها تعني المشاركة المستمرة في الشئون العامة ولن نقدم أي اعتذار عن التعهد بالقيام بذلك"، فالحرية السياسية تشتمل على الحق في "ممارسة الرقابة والفحص لسلوك الموظفين العموميين"، ولكن نظرًا لتوجيه الفيدراليين اللوم للجمعيات بتهمة المساعدة في الإيعاز بتمرد الويسكي، اختفت تلك الجمعيات بحلول نهاية عام 1795، إلا أن الحزب الجمهوري الناشئ استوعب الكثير من تنظيمهم ومنظورهم، فقد ساعدت على شرعنة حق أي جزء من الشعب" بغض النظر عن مركزهم في الحياة في التعبير عن آرائهم السياسية والقيام بدور نشط في الحياة العامة.

وقد اكتسب الجمهوريون أيضًا دعم من المهاجرين من الجزر البريطانية حيث ألهبت الحرب مع فرنسا حملة شديدة لملاحقة المعارضة، على سبيل المثال، "توماس باين" الذي قد عاد إلى بريطانيا في عام 1787 وبعد خمس سنوات قام بنشر كتاب "حقوق الإنسان"، الذي دافع فيه عن الثورة الفرنسية وأثار دعوة للتغيير الديمقراطي في داخل بلاده بريطانيا، ثم اضطر إلى الفرار إلى فرنسا قبل صدور القانون بخطوة واحدة، ولكن كتاباته ساهمت في ظهور حركة جماهيرية من أجل التغيير السياسي والاجتماعي، ولكنها تعرضت لقمع وحشي من قبل السلطات، واضطر عدد من البريطانيين والأيرلنديين إلى الهجرة إلى أمريكا بسبب تهديدهم بالاعتقال بتهمة الخيانة، وكان من بينهم صحفيون مثل "جوزيف جالز" و"جون دي بيرك"، الذين سرعان ما وجدوا أنفسهم يحررون الصحف الجمهورية التي تدين الامتيازات الاجتماعية على جانبي المحيط الأطلسي واتهموا الفيدراليين بمحاولة إدخال الطغيان الأوروبي في أمريكا.

حقوق المرأة

أشعل الجيشان الديمقراطي نقاشًا متجددًا حول حقوق المرأة خلال فترة التسعينيات من القرن الثامن عشر؛ ففي عام 1792، نشرت "ماري ولستونكرافت" في إنجلترا كتيبها الغير عادي بعنوان "دفاع عن حقوق المرأة"، الذي استوحته من كتاب "باين" "حقوق الرجل"، وأكدت فيه أن "حقوق الإنسانية" ينبغي أن لا "تقتصر على الذكور"، ولم تطعن أو تتحدى مباشرة الأدوار التقليدية

للجنسين واستندت في دعوتها لزيادة فرص حصول المرأة على التعليم والعمل المدفوع الأجر على أساس فكرة أن هذا من شأنه تمكين النساء غير المتزوجات على إعالة أنفسهن ومساعدة النساء المتزوجات على الأداء باقتدار أكثر كزوجات وأمهات، ولكنها "ألحت" بالفعل "بأنه ينبغي أن يكون للمرأة تمثيل" في الحكومة، وظهرت الطبعات الأمريكية لعملها في غضون عامين، بالإضافة إلى منشورات للدفاع والهجوم على حججها، كما تم نشر مجلة لحقوق المرأة في عام 1795 في مدينة نيويورك ولكنها لم تدم طويلا.

سمح توسيع المجال العام بوجود فرص جديدة للنساء، حيث بدأت أعداد متزايدة من النساء في التعبير عن أفكارهن في مطبوعات، وأصبحت "هانا آدمز"، من ولاية "ماساتشوستس" أول امرأة أمريكية تعول نفسها كمؤلفة وناشرة للأعمال الخاصة بالتاريخ الديني وتاريخ "نيو إنجلاند"، وشارك غيرها من النساء في المناقشات السياسية، وقراءة الصحف، والاستماع إلى الخطب؛ على الرغم من أن حق التصويت كان محظورًا على النساء خارج "نيو جيرسي"، ونشرت "سارة مورتون" من بوسطن قصيدة مطولة بعنوان "الرئيس الأفريقي" في عام 1792 تسرد فيه قصة استعباد إفريقي.

كانت "جوديث سارجنت موراي" هي إحدى أكثر النساء الأمريكيات إنجازًا في تلك الحقبة، وقد كتبت مقالات لمجلة "ماساتشوستس" تحت الاسم المستعار "اللقاطة" وكان والدها تاجر ميسور في "ماساتشوستس" وكان له وجهة نظر مستنيره فيما يتعلق بتعليم ابنته، وبالرغم من أنها لم تتمكن من مواصلة الدراسة بالكلية بسبب جنسها، إلا أنها درست بجانب أخيها مع معلم متخصص في إعداد الشباب للقبول في جامعة هارفارد، وفي مقالها "حول المساواة بين الجنسين" الذي كتبته في عام 1779 ونُشر في عام 1790 ، أصرت على أن "للنساء نفس الحق مثل الرجال في ممارسة جميع مواهبهن وينبغي السماح لهن بفرص تعليمية متكافئة لتمكينهن من القيام بذلك، وأن الدونية العقلية الواضحة لدى المرأة بالمقارنة بالرجل تعكس ببساطة حقيقة أنها كانت محرومة من "فرصة اكتساب المعرفة" وأن "فكرة عجز النساء" غير مقبولة مطلقًا في هذا العصر المستنير".

المرأة والجمهورية

هل كانت النساء جزءًا من الهيكل السياسي الجديد؟ لم تظهر كلمة "ذكر" في الدستور إلا بعد الحرب الأهلية، وكان يتم إحصاء النساء بشكل كامل عند تحديد التمثيل في الكونجرس ولم يكن هناك شيء يحصر صراحة الحقوق المقتصرة في الدستور على الرجال فقط، وقد اعترف عدد قليل من المساهمين في المنشورات والمطبوعات التي تناقش حقوق المرأة بأنه وفقًا لمنطق الديمقراطية ينبغي للمرأة أن يكون لها صوت في الحكومة، ومع ذلك عكس استخدام الدستور

لكلمة "هو" لوصف شاغلي المناصب الافتراض المنتشر على نطاق واسع، بحيث إنه نادرًا ما يحتاج الدفاع الصريح بأن: عالم السياسة خاص بالرجال فقط، ولم يكن الوقت قد حان لشن هجوم واسع النطاق على عدم المساواة بين الجنسين، ولكن مثل أنشطة جمعيات الديمقراطيين والجمهوريين، ساعد مناقشة وضع المرأة في الترويج للغة الحقوق في الجمهورية الجديدة.

لم يتصور الرجال الذين كتبوا الدستور المشاركة النشطة والمستمرة من المواطنين العاديين في شئون الدولة، ولكن توسعت وتعمقت ديمقراطية الحياة العامة التي بدأتها الثورة الأمريكية نتيجة لصعود الأحزاب السياسية التي تسعى إلى حشد الناخبين في الانتخابات التي تشهد تنافسًا شديدا، وظهور الجمعيات التي تنشأ ذاتيا وتنشيط الوعي السياسي للمرأة، وحتى الانتفاضات المسلحة مثل تمرد الويسكي.

رئاسة "آدمز"

فاز "واشنطن" في إعادة الانتخابات بالإجماع في عام 1792، ولكنه قرر اعتزال الحياة العامة بعد أربع سنوات، ويرجع ذلك بصورة جزئية إلى تأسيس سابقة مفاداها بأن الرئاسة ليست وظيفة لمدى الحياة، وفي خطاب الوداع (صاغ هاملتون أغلبه وتم نشره في الصحف بدلاً من إلقاءه شفهيا؛ انظر الملحق لمقتطفات من الخطاب) دافع عن إدارته في مواجهة النقد وحذر من روح الحزبية، ونصح مواطنيه بأن يتجنبوا سياسات القوى الدولية من خلال تحاشي "التحالفات الدائمة مع أي جزء من العالم الخارجي".

انتخابات عام 1796

أطلق رحيل "جورج واشنطن" العنان لمنافسة حزبية شرسة لاختيار خليفته، وتقدم لهذه الانتخابات الرئاسية الأولى شخصان: "جون آدمز" لمنصب الرئيس مع "توماس بينكني" من "ساوث كارولينا" لمنصب نائب الرئيس وهما يمثلان الفيدراليين، بينما تقدم "توماس جيفرسون" في منصب الرئيس مع آرون بور" في نيويورك وهما يمثلان الجمهوريين، حيث كانت السلطة التشريعية لا تزال هي التي تختار الناخبين للرئاسة في معظم الولايات الست عشرة (قد أضيفت فيرمونت، كنتاكي، تنيسي إلى الثلاث عشرة ولاية الأصليين أثناء رئاسة "واشنطن")، وقد احتدمت الحملات الانتخابية المكثفة في الولايات الست التي يصوت فيهم الشعب للناخبين مباشرة، وحصل آدمز" واحد وسبعين من أصوات الهيئة الانتخابية في مقابل ثمانية وستين "لجيفرسون" في حين حصل "بينكني" تسعة وخمسين صوتا فقط بسبب الشقاق بين الفيدراليين، لذلك أصبح "جيفرسون" زعيم حزب المعارضة نائبا للرئيس، وقد وقع التصويت فريسةً تمامًا للانقسامات الإقليمية، حيث كسب "آدامز" أصوات "نيو إنجلاند"، و"نيويورك"، و"نيو جيرسي" في حين اكتسح "جيفرسون" في الجنوب بالإضافة إلى ولاية "بنسلفانيا".

تولى "جون آدامز" قيادة أمة منقسمة في عام 1797، وكان ذكيًا ولكن متزمتًا وعنيدًا ومعتدًا بنفسه، وكان مكروهًا حتى من قبل أولئك الذين احترموا مسيرته الطويلة في خدمة قضية الاستقلال، وقد أحاطت الأزمات برئاسته.

وعلى الصعيد الدولي، فقد انجرت البلاد إلى الحرب الأوروبية الجارية، ونظرًا لأنها اتخذت موقفًا محايدًا من تلك الحروب، فلذلك كانت ترى أنه من حقها التجارة في السلع الغير عسكرية مع كل من بريطانيا وفرنسا، ولكن كلا البلدين استولتا على السفن الأمريكية مع الإفلات من العقاب، وسافر دبلوماسيون أمريكيون إلى باريس في عام 1797 للتفاوض على معاهدة لتحل محل التحالف القديم لعام 1778، فقدم المسئولون الفرنسيون لهم طلبًا برشاوى كشرط للمضي قدمًا في المفاوضات، وعندما أعلن آدمز" عن الأمر، أشار إلى المسئولين الفرنسيين بالأحرف الثلاثة الأخيرة من الحروف الأبجدية قائلاً أن (قضية XYZ) "سَمَّمَت علاقات أمريكا مع حليفتها السابقة فرنسا؛ وبحلول عام 1798 دخلت الولايات المتحدة وفرنسا في "شبه حرب" في عرض البحر، واستولت السفن الفرنسية على السفن الأمريكية في البحر الكاريبي وطاردت البحرية الأمريكية التي تم توسيعها حديثا الفرنسيين، وأصبحت الولايات المتحدة في الواقع حليفًا عسكريًا لبريطانيا العظمى ودخل آدمز" في مفاوضات سلام مع فرنسا في عام 1800، على الرغم من ضغوط "هاملتون" الذي كان يريد إعلان الحرب على فرنسا.

كان آدمز أقل حذرًا في الشئون الداخلية منه في الشئون الخارجية، فاستمرت الاضطرابات في العديد من المناطق الريفية، ففي عام 1799 عرقل المزارعون في جنوب شرق ولاية "بنسلفانيا" تقدير الضريبة التي فرضها الكونجرس على الأراضي والمنازل للمساعدة في تمويل الجيش والبحرية الموسعين؛ وتجمع حشد بقيادة "جون فرايز"، وهو زعيم ميليشيا محلية وبائع بالمزاد، وأطلقوا سراح المعتقلين من السجن، ولم يتم إطلاق أي طلقات نارية فيما أُطلق عليه لاحقا تمرد "فرايز"، ولكن آدمز" أرسل وحدات من الجيش الاتحادي إلى المنطقة حيث تم اعتقال "فرايز" بتهمة الخيانة، وشُرِع في ترويع مؤيديه وهدم سواري الحرية وضرب محرري صحيفة "الجمهوري"، ثم تم العفو عن "فرايز" في عام 1800 ولكن المنطقة التي دعمت انتخابه في عام 1796 لم تصوت أبدًا مرة أخرى للفيدراليين.

"عصر السحرة"

ثارت أعظم أزمة أمام إدارة آدمز" حول قوانين الأجانب والفتنة لعام 1798، فقد تحرك الفيدراليون لإسكات منتقديهم من المعارضة المتصاعدة التي عَبَّرَ عن بعضها مهاجرون من مُعدِّي المنشورات والمحررين، وتم تعديل قانون الجنسية الجديد بتمديد شرط الإقامة للمهاجرين

من خمسة إلى أربعة عشر عامًا للحصول على الجنسية الأمريكية، وسمح قانون الأجانب بترحيل أي أجنبي تعتبره السلطات الفيدرالية بمثابة "عنصر خطير"، وسمح قانون التحريض على الفتنة (الذي كان من المقرر أن ينتهي العمل به في عام 1801، وهو الوقت الذي كان يأمل فيه آدمز أن يكون قد أعيد انتخابه) بمقاضاة تقريبًا أي تجمع عام أو نشر ينتقد الحكومة، وبالرغم من أن هذا القانون الجديد كان أكثر تساهلاً من العديد من مثل هذه التدابير في أوروبا (حيث لم يأذن باتخاذ أي إجراءات قانونية قبل النشر وسمح بالمحاكمات أمام هيئة محلفين)، إلا أنه يعني أنه يمكن مقاضاة محرري المعارضة لأي تعليق سياسي يطبعونه تقريبا، وذلك لاستهداف صحافة الجمهوريين الذين يراهم الفيدراليون كمجموعة من العمال محدثي النعمة (كان معظم المحررين قد بدأوا حياتهم العملية كعمال طباعة) تثير انتقاداتهم الملحة للإدارة التمرد الشعبي وتهدد "الحرية الحقيقية".

أطلق اعتماد هذه التدابير ما أسماه "جيفرسون" "عهد السحرة" في استدعاء لأحداث "سحرة سالم" التي وقعت بولاية "ماساتشوستس" منذ قرن، وتم بالفعل توجيه الاتهام لثمانية عشر شخصًا من بينهم العديد من رؤساء تحرير صحف الحزب الجمهوري بموجب قانون التحريض على الفتنة، وبالفعل صدر الحكم القضائي بإدانة عشرة منهم بنشر معلومات "كاذبة وفاضحة وخبيثة" عن الحكومة، وصدر حكم ضد "ماثيو ليون"، وهو عضو في الكونجرس عن ولاية "فيرمونت" ورئيس تحرير أحد صحف الحزب الجمهوري المسماة "ويلات الأرستقراطية" بالسجن لمدة أربعة أشهر وغرامة قدرها1.000 دولار (كان ليون أول عامل طباعة سابق وعلى الأرجح أول عامل خدمة بعقد لمدة سابق يتم انتخابه للكونجرس)، وكذلك صدر حكم بسجن "توماس كوبر" وهو محام وطبيب في ولاية بنسلفانيا وكان قد هاجر من إنجلترا في عام 1794 وله كتابات تتهم إدارة "آدامز" بالتحيز للموالين لبريطانيا، واتهمت السلطات في ولاية "ماساشوستس" عدة رجال لإقامة سارية للحرية منقوش عليه "لا لقانون الدمغة، لا لقانون الفتنه، لا لقانون الأجانب، لا لضريبة الأراضي؛ يسقط طغاة أمريكا".

قرارات "فيرجينيا" و"كنتاكي"

فشلت قوانين الأجانب والتحريض على الفتنة في إسكات صحافة الجمهوريين، فعلى الرغم من توقف بعض الصحف عن النشر، إلا أن صحفًا جديدة دخلت المجال، مثل "شمس الحرية" و"شجرة الحرية"، وقد دفعت قوانين التحريض على الفتنة حرية التعبير إلى مركز مناقشات الحرية الأمريكية، وحشد "ماديسون" و"جيفرسون" المعارضة وصاغا قرارين اعتمدهما المشرعون في "فرجينيا" و"كنتاكي" لمهاجمة قانون التحريض على الفتنة باعتباره انتهاكًا غير دستوري للتعديل

الأول للدستور، وقد كتب قرار "فيرجينيا" "ماديسون" ودعا المحاكم الاتحادية لحماية حرية التعبير، في حين تجاوزت النسخة الأصلية لقرار "كنتاكي"، الذي صاغه "جيفرسون" لمدى أبعد مؤكدة على أن الولايات يمكنها أن تلغي قوانين الكونجرس التي تنتهك الدستور، بمعنى أن الولايات يمكنها من جانب واحد منع إنفاذ تلك القوانين داخل حدودها، ولكن الهيئة التشريعية حذفت هذا المقطع بحكمة، وكان القراران موجهين ضد الاعتداءات على حرية التعبير من قبل الحكومة الاتحادية، وليس الولايات، حيث حرص "جيفرسون" على أن يؤكد أن الولايات "تمتلك كامل" السلطة لمعاقبة أصحاب التعبير "المثير للفتنة"، حتى لو كانت الحكومة الوطنية تفتقر لهذا الحق، وصدَّق الواقع ذلك حيث لم تتوقف الملاحقات القضائية على مستوى الولايات ضد الصحف بتهمة التحريض على الفتنة عند انتهاء قانون التحريض على الفتنة في عام 1801.

لم تؤيد أي ولاية أخرى قراري ولايتي "فرجينيا" و"كنتاكي"، حيث كان الكثير من الأمريكيين، بما في ذلك العديد من الجمهوريين، مرعوبين من فكرة أن يُعرِّض عمل أو إجراء تقوم به أي ولاية الاتحاد للخطر، ولكن "أزمة الحرية" في أواخر التسعينيات من القرن العشرين عززت بقوة فكرة أن "حرية المناقشة" سمة لا غنى عنها للحرية الأمريكية وللحكومة الديمقراطية، فهي كما أشار "هاريسون رماديو أوتيس" الفيدرالي من ماساتشوستس أصبحت "الامتياز الأثير"، وساهمت الكراهية الواسعة لقوانين الأجانب والتحريض على الفتنة إلى حد كبير في انتخاب "جيفرسون" رئيسًا في عام 1800.

ثورة عام 1800

أصبحت عبارة "جيفرسون والحرية" كلمة السر لحملة الجمهوريين للانتخابات الرئاسية، وبحلول هذا الوقت كان الجمهوريون قد طوروا تقنيات فعالة لتعبئة وحشد الناخبين، مثل المنشورات المطبوعة والنشرات التي توزع باليد والصحف وعقد لقاءات جماهيرية لتعزيز قضيتهم، أما الفيدراليون الذين كانوا يرون السياسة كنشاط لمجموعة صغيرة من الرجال النخبة، فقد وجدوا أنه من الصعب أن يحققوا نفس الحشد والتعبئة التي حققها معارضوهم، ومع ذلك، كانوا لا يزالوا مهيمنين على "نيو إنجلاند" ويتمتعون بدعم كبير في ولايات الأطلسي الوسطى، وانتهى السباق بانتصار "جيفرسون" بثلاثة وسبعين صوتًا في المجمع الانتخابي في مقابل خمسة وستين صوتًا "لآدمز".

اضطر "جيفرسون" إلى مواجهة أزمة دستورية غير عادية قبل توليه منصبه، كان كل حزب قد رتب لأن يكون له ناخب واحد من الصوتين الممنوحين له لانتخاب الرئيس، بحيث يسبق مرشحه الرئاسي منصب نائب الرئيس بصوت ولكن الناخب الجمهوري المعين لم يقم بذلك؛

ولذلك، حصل كلا من "جيفرسون" ونائبه آرون بير" ثلاثة وسبعين صوتًا انتخابيا، ونظرًا لعدم حصول مرشح على الأغلبية تم إحالة الانتخابات إلى مجلس النواب الذي كان قد تم انتخابه في عام 1798، حيث يتمتع الفيدراليون بأغلبية ضئيلة؛ ولم يحصل أي من الرجلين على أغلبية في الأصوات حتى بعد الاقتراع لخمس وثلاثين مرة، وأخيرًا تدخل "هاملتون"، وبالرغم من أنه يكره "جيفرسون"، إلا أنه كان يعتقد أنه رجل دولة بما يكفي للاعتراف بأن النظام المالي الفيدرالي لا يمكن تفكيكه، وحذر من أن "بير" مهووس بالسلطة، فهو "جنين قيصر".

رجَّح دعم "هاملتون" "لجيفرسون" كفة الميزان لصالح "جيفرسون"، ولتجنب تكرار هذه الأزمة سرعان ما اعتمد الكونجرس والولايات التعديل الثاني عشر للدستور، الذي يتطلب من الناخبين الإدلاء بأصواتهم للرئاسة ثم لنائب الرئيس كل على حدة، ولكن الأزمات استمرت حيث أطلقت انتخابات عام 1800 أيضًا سلسلةً من الأحداث التي بلغت ذروتها بعد أربع سنوات عندما قام "بير" بقتل "هاميلتون" في مبارزة، ثم بدا أن "بير" قد تورط لاحقًا في مؤامرة لتشكيل دولة جديدة في الغرب في الأراضي البعيدة عن الولايات المتحدة والإمبراطورية الإسبانية، وبعد تبرئته من الخيانة في عام 1807 ذهب إلى المنفى في أوروبا ثم عاد في نهاية المطاف إلى نيويورك حيث مارس مهنة القانون حتى وفاته في عام 1836.

وقد أثبتت أحداث التسعينيات من القرن الثامن عشر أن غالبية الأمريكيين كانوا يعتقدون أن عامة الناس لهم الحق في القيام بدور نشط في الحياة السياسية والتعبير عن آرائهم بحرية والطعن في سياسات حكومتهم، وكتب "صموئيل جوودريتش"، أحد أبرز الفيدراليين في "كونيتيكت"، أنه تم الإطاحة بحزبه لأن الديمقراطية قد أصبحت "كلمة السر لحرية الشعب"، ويُحْسَبْ للفيدراليين أنهم لم يفكروا في مقاومة نتيجة الانتخابات، وقد أَسَّسَ قبول "آدامز" للهزيمة نموذجًا وسابقةً حية للانتقال السلمي للسلطة من الحزب المهزوم إلى خليفته.

العبودية والسياسة

ظلت قضية العبودية الباعثة على الإنقسام كامنة متوارية وراء المعارك السياسية في التسعينيات من القرن الثامن عشر، فعلى كل حال فقد حصد "جيفرسون" كل أصوات الهيئة الانتخابية بالجنوب البالغ عددها واحد وأربعين صوتا، ودائمًا ما كان يشير إلى أن فوزه بمثابة "ثورة عام 1800" ولم ير ذلك الفوز مجرد نجاح حزب ولكن بوصفه دفاعًا عن الحرية الأمريكية وتأمين ثمار الاستقلال للأجيال القادمة، ومع ذلك لم يكن انتصار "جيفرسون والحرية" ممكنًا بدون العبودية، وأعيد انتخاب "جون آدامز" في عام 1800 نظرًا لعدم احتساب ثلاثة أخماس العبيد عند التخصيص.

لم تختف قضية العبودية، حيث استقبل أول كونجرس في ظل الدستور الجديد التماسات تدعو إلى التحرر، وحمل أحد هذه الالتماسات توقيع مؤثر وقوي من قبل "بنيامين فرانكلين"، الذي كان قد وافق في عام 1787 على رئاسة "جمعية بنسلفانيا لإلغاء العبودية"، وأصر فيه قائلا "ينبغي أن ينعم الجميع بمكاسب الحرية بدون أي تمييز بسبب اللون أو أي أوصاف للناس".

تبع ذلك نقاش طويل دافع فيه متحدثون عن "جورجيا" و"ساوث كارولينا" بقوة عن مؤسسة العبودية، وحذروا من أنهم يسمعون "طبول الحرب الأهلية" تدق وراء انتقادات الشماليين للعبودية، ووجد "ماديسون" أن دفاعهم الصريح عن العبودية تسبب له الإحراج، ولكنه خلص إلى أن مسألة العبودية مثيرة للانقسام ولذلك ينبغي أن تبقى بعيدًا عن السياسة الوطنية، حتى أنه عارض تلقي الكونغرس لالتماسات العبيد من ولاية "نورث كارولينا" على أساس أنهم ليسوا جزءًا من الشعب الأمريكي وليس لديهم الحق في أي "مطالب" على "أجندة" عمل المشرعين؛ ومع ذلك، تدخل الكونجرس في عام 1793 بسن قانون ينص على أنه على القضاة الفيدراليين والمسئولين المحليين بالولايات تسهيل عودة العبيد الهاربين، وذلك تنفيذا لبند الدستور الخاص بالعبيد الهاربين.

ثورة هايتي

أكدت الأحداث التي وقعت خلال التسعينيات من القرن الثامن عشر مدى القوة التي حددت بها العبودية وشوهت الحرية الأمريكية، فقد شعر نفس "أنصار جفرسون" الذين أشادوا بالثورة الفرنسية كخطوة في طريق التقدم العالمي للحرية بالرعب من ثورة العبيد التي بدأت في عام 1791 في "سانت دومينيك" جوهرة الإمبراطورية الفرنسية في الخارج التي تقع غير بعيد عن جنوب ساحل الولايات المتحدة، فقد جند عبد متعلم، يسمى "توسان لوفرتير" كان يعمل بمزارع السكر، العبيد المتمردين في جيش قادر على هزيمة القوات البريطانية التي تسعى إلى الاستيلاء على الجزيرة، ثم هزم حملة أُرسلت على أمل استرداد السلطة الفرنسية، وأدت انتفاضة العبيد إلى إنشاء هايتي كدولة مستقلة في عام 1804.

على الرغم من أن سنوات الحرب دمرت كثيرًا من أنحاء البلاد، إلا أن الثورة الهايتية أكدت عالمية عقيدة الحرية في العصر الثوري، وأوحت بالآمال في الحرية بين العبيد في الولايات المتحدة؛ وظل الأمريكيون السود ينظرون طوال القرن التاسع عشر إلى "توسان" كبطل ويحتفلون بفوز هايتي بالاستقلال، وهاجر عدة آلاف من الأمريكيين الأحرار من أصل أفريقي إلى هايتي خلال العشرينيات من القرن التاسع عشر، والتي وعدت حكومتها القادمين الجدد بالحقوق السياسية والفرص الاقتصادية التي لم يتمتعوا بها في الولايات المتحدة.

تباين رد فعل الأمريكيين البيض على ثورة هايتي، ونظرًا لتدفق الآلاف من اللاجئين من هايتي إلى الولايات المتحدة هربًا من الاضطرابات ونشر العديد منهم حكايات عن إقامة العبيد مجازر لمالكي العبيد وحرق مزارعهم، مما عزز مخاوف الأمريكيين البيض من تمرد العبيد في الولايات المتحدة، فالعبيد المتمردون لا يبدون بالنسبة لمعظم البيض رجال ونساء يسعون للحرية على غرار ما فعله البيض أنفسهم في 1776، ولكن خطر على المؤسسات الأمريكية، وكان لجوء العبيد إلى العنف يؤخذ على نطاق واسع على أنه توضيحًا وإثباتًا لعدم لياقة السود للحرية الجمهورية، ومن المفارقات أن إدارة "آدامز" التي كانت تأمل في إحلال التجار الأمريكيين محل نظرائهم الفرنسيين في تجارة السكر المربحة في الجزيرة، قد شجعت على استقلال هايتي السوداء، وعندما أصبح "جيفرسون" رئيسًا تحرك في الاتجاه المعاكس حيث سعى إلى فرض الحجر الصحي وتدمير الجمهورية المستقلة الثانية بهذا النصف من الكرة الأرضية.

تمرد جابرييل

لم يشهد عام 1800 التاريخي "ثورة" انتخاب "جيفرسون" فحسب، ولكن شهد محاولة لإثارة ثورة حقيقية ومؤامرة قام بها العبيد في ولاية "فرجينيا" للحصول على حريتهم، قام بتنظيمها حداد من "ريتشموند" يسمى "جابرييل" وإخوته سليمان الذي كان يعمل حدادًا أيضًا ومارتن وهو واعظ من العبيد؛ حيث خطط المتآمرون للزحف من المزارع المحيطة إلى المدينة التي أصبحت مؤخرًا عاصمة الولاية، وقتل بعض السكان البيض ومواصلة السير واعتقال المتبقيين، بما في ذلك حاكم الولاية "جيمس مونرو" كرهائن حتى يتم الاستجابة لمطلبهم بإلغاء العبودية، وكان "جابرييل" يأمل في أن ينضم "البيض المساكين" الى التمرد وخطط لإطلاق سراح "الكويكرز" و "الميثوديين" (وكثير منهم من منتقدي العبودية)، و"الفرنسيين" (الذين كانت بلدهم منخرطة في "شبه حالة حرب" مع الولايات المتحدة والتي ذكرناها آنفا)، وعندما حل الليل حيث كان من المقرر أن يجتمع العبيد، هبت عاصفة أغلقت الطرق لريتشموند وسرعان ما اكتشفت المؤامرة وتم اعتقال قادتها وتم شنق ستة وعشرين من العبيد، بما في ذلك "جابرييل"، وترحيل العشرات خارج الولاية.

كان السود يمثلون في عام 1800 نصف سكان "ريتشموند" وكان خمسهم أحرارًا، وقد ظهر مجتمع السود في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الثامن عشر وكانت المؤامرة متجذرة في مؤسسة العبودية، حيث قام "جابرييل" بحشد المجندين في كنائس السود المعمدانية، وفي الجنازات، وفي حفلات الشواء وغيرها من التجمعات، وفي المدن مثل "ريتشموند"، كان العديد من الحرفيين المهرة من العبيد، بما في ذلك جابرييل نفسه، يعرفون القراءة والكتابة ويحظون بميزة توظيف أنفسهم لدى أرباب العمل، بمعنى التفاوض على ترتيبات العمل الخاصة

بهم على أساس أن يتلقى مالكوهم "الأجور"، وتفسر استقلاليتهم النسبية الدور البارز الذي قام به الحرفيون العبيد في المؤامرة .

كان تمرد "جابرييل" نتاج عصره، فقد وُلِدَ في عام 1776، ومثل غيره من سكان "فرجينيا" الآخرين تحدث المشاركون في المؤامرة بلغة الحرية التي تشكلت في الثورة الأمريكية وتم إعادة تنشيطها خلال التسعينيات من القرن الثامن عشر، وقد تأصلت هذه اللغة لدى السكان حتى أن المتمردين خططوا لحمل راية مكتوب عليها شعار "باتريك هنري" الحافل بالذكريات "الموت أو الحرية"، كما أعلن أحد المتآمرين عن ذلك بقوله "لدينا نفس الحق للقتال من أجل حريتنا مثل أي رجل"، وقام متآمر آخر بتشبيه نفسه "بجورج واشنطن" الذي كان قد تمرد ضد السلطة القائمة "للحصول على حرية أبناء وطنه" (حمل هذا التشبيه مضمون مزعج مفاده أن مسئولي "فرجينيا" أُسْتُبْدِلوا الآن بالبريطانيين باعتبارهم أعداء الحرية.)

فقد علق "جورج تاكر"، الشخصية البارزة بولاية "فرجينيا"، على ذلك بقوله إنه إذا كان هناك أي شيء أثبتته مؤامرة "جابرييل" فهو أن العبيد يمتلكون "حب الحرية" على أكمل وجه كالرجال الآخرين، وأضاف أن "كلمات جابرييل تعكس التقدم في المعرفة" بين العبيد في ولاية "فرجينيا"، بما في ذلك معرفة لغة الحرية الأمريكية، وعندما هرب العبيد للانضمام إلى اللورد "دونمور" خلال حرب الاستقلال كتب قائلا "إنهم كانوا يسعون للحرية كمجرد شيء جيد ولكنهم الآن يسعون إليها كحق أيضاً"، ويعتقد "تاكر" أنه ينبغي تحرير العبيد في "فرجينيا" وتوطينهم خارج الولاية، ولكن السلطة التشريعية تحركت مع ذلك في الاتجاه المعاكس، حيث شددت الرقابة على السكان السود وجعلت تجمعهم يوم الأحد غير قانوني بدون إشراف البيض، وقيدت بشدة إمكانية قيام مالكيهم بتحريرهم طوعًا وأصبح مطلوبًا من أي عبد يحصل على الحرية بعد عام 1806 مغادرة ولاية "فرجينيا"، أو أن يباع مرة أخرى ليُرد إلى العبودية، وبذلك تم إغلاق باب التحرير الذي كان مفتوحا أثناء الثورة الأمريكية.

جيفرسون في السلطة

كان أول رئيس يبدأ فترة ولايته في واشنطن العاصمة هو "جيفرسون" الذي تولى منصبه في مارس (آذار) عام 1801، وكانت المدينة بشوارعها الغير معبدة وسكانها الفقراء ومبانيها العامة التي لم تكتمل لا تكاد تشبه خطة "لونفو الكبرى" (خطة المهندس الفرنسي المكلف بوضع تصميم شوارع العاصمة)، وقد انهار جزء من سقف مبنى الكابيتول عند نقطة فيه وكاد يودي بحياة نائب الرئيس الذي نجا بأعجوبة، وبدا أن حالة العاصمة ترمز إلى نية "جيفرسون" في الحد من أهمية الحكومة الوطنية في الحياة الأمريكية.

كان خطاب "جيفرسون" في حفل تنصيبه تصالحيًا تجاه خصومه، حيث أعلن قائلا "ليس كل اختلاف في الرأي يمثل اختلافًا في المبدأ. . . ونحن جميعًا جمهوريون وفيدراليون"، ومضى يشرح السياسات التي ستتبناها إدارته في الاقتصاد، في الحكومة، والتجارة الغير مقيدة، وحرية الدين، والصحافة، والصداقة مع جميع الدول ولكن بدون أن تكون هناك "تحالفات متشابكة معقدة مربكة" مع أي منهم، لأن أمريكا "أفضل أمل في العالم"، ستزدهر إذا سمحت الحكومة المحدودة لمواطنيها أن يكونوا "أحرارا في تنظيم مصالحهم وأهدافهم".

كان "جيفرسون" يأمل في تفكيك أكبر قدر ممكن من النظام الفيدرالي، وكان من بين أول أعماله كرئيس العفو عن جميع المسجونين بموجب قانون التحريض على الفتنة، وقام خلال السنوات الثماني التي قضاها رئيسًا للبلاد بخفض عدد موظفي الحكومة، والجيش، والبحرية وأبطل جميع الضرائب باستثناء التعريفة الجمركية، بما في ذلك الضرائب البغيضة على الويسكي وسدد جزءًا من الديون الوطنية، وكان يهدف إلى تقليص السلطة الاتحادية لأدنى حد وإلغاء إشراف الحكومة على الاقتصاد، وضمنت سياساته أن الولايات المتحدة لن تصبح دولة مركزية على غرار النموذج الأوروبي كما كان يتصور "هاملتون".

المراجعة القضائية

بيد أنه كما توقع "هاملتون"، ثُبتَ مع ذلك أنه من المستحيل اقتلاع السلطة الوطنية تماما، وكان "جيفرسون" لا يثق في الهيئة القضائية غير المنتخبة ويؤمن دائمًا بسيادة الحكم الذاتي المحلي، ولكن خلال فترة رئاسته ولعدة سنوات بعد ذلك، ترأس الفيدرالي "جون مارشال" المحكمة العليا وذلك بعد أن خدم تحت رئاسة "جون آدامز" في منصب وزير الخارجية، ثم عيَّنه "آدامز" في المحكمة قبل تولى "جيفرسون" الرئاسة بوقت قليل، ونظرًا لأنه كان يؤمن بقوة بالتفوق الوطني، رَسَّخَ "مارشال" سلطة المحكمة في مراجعة قوانين الكونجرس والولايات.

وجاء القرار التاريخي الأول لمحكمة "مارشال" في عام 1803 في قضية "ماربوري ضد ماديسون"، ففي عشية مغادرة "آدامز" لمنصبه عيَّن عددًا من قضاة الصلح بمقاطعة "كولومبيا"، ولكن ماديسون وزير خارجية جيفرسون رفض إصدار أوامر تكليف "لقضاة منتصف الليل" فقام أربعة منهم، من بينهم "وليم ماربوري" برفع دعوى قضائية مطالبين بوظائفهم، فصدر قرار المحكمة بعدم دستورية ذلك القسم من قانون السلطة القضائية لسنة 1789 الذي يسمح للمحاكم بأن تأمر المسئولين التنفيذيين بتكليف القضاة، لأن في ذلك تجاوز لسلطة الكونجرس على النحو المبين في الدستور ولذلك فهو باطل، وبعبارة أخرى قد يكون من حق "ماربوري" الحصول على الوظيفة ولكن ليس للمحكمة سلطة بموجب الدستور بأن تأمر "ماديسون" بتحقيق ذلك، ولذلك فإن لإدارة البلاد

سلطة إصدار القرار في هذه القضية، ولكن التكلفة كما رأى "جيفرسون" كانت مرتفعة، حيث خولت المحكمة العليا لنفسها سلطة تحديد ما إذا كان القانون الصادر عن الكونجرس ينتهك سلطة الدستور - وهذه السلطة للمحكمة معروفة باسم "المراجعة القضائية" - أي سلطة المحكمة في مراجعة والحكم على مدى دستورية كل قرارات الكونجرس.

وسعت المحكمة سلطة المراجعة القضائية ليشمل قوانين الدولة بعد سبع سنوات وذلك في قضية "فليتشر ضد بيك" في 1794، كانت أربع شركات للأراضي قد دفعت لكل عضو تقريبًا في المجلس التشريعي للولاية، وعضوي مجلس الشيوخ الأمريكي لولاية "جورجيا" وعدد من قضاة الاتحادية لضمان حقهم في شراء الأراضي، في الموقع المعروف في الوقت الحاضر باسم "الاباما وميسيسبي"، والتي طالبت "جورجيا" بملكيتها، ثم قاموا بعد ذلك ببيع الأرض لمشترين فرديين بربح كبير، ولكن بعد ذلك بعامين، هُزِمَ العديد من هؤلاء المشرعين الفاسدين في إعادة انتخابهم وألغت السلطة التشريعية الجديدة منح الأراضي وصفقات البيع اللاحقة، فأعلن المارشال بالمحكمة العليا أنه بصرف النظر عن ظروف الإجراء الأول للهيئة التشريعية، إلا أن الدستور نهى "جورجيا" عن اتخاذ أي إجراء يؤثر على العقد، وبالتالي، يمكن للمشترين الأفراد الإبقاء على أراضيهم والسلطة التشريعية لا يمكنها إلغاء المنحة الأصلية.

شراء لويزيانا

اشتملت أعظم المفارقات في فترة رئاسة جيفرسون على أعظم إنجاز له، وهو شراء لويزيانا، الذي لم ينشأ نتيجة لدهاء الدبلوماسية الأمريكية، ولكن لأن العبيد المتمردين في "سانت دومينيك" هزموا القوات التي أرسلها حاكم فرنسا، نابليون بونابرت، لاستعادة الجزيرة، وللاستفادة من هذه الفرصة التي ظهرت فجأة مع شراء "لويزيانا"؛ اضطر "جيفرسون" إلى التخلي عن قناعته بأن سلطات الحكومة الاتحادية ينبغي أن تقتصر على تلك المذكورة تحديدًا في الدستور نظرًا لأن الوثيقة لم تورد شيئا عن شراء الأراضي من قوة أجنبية، وبذلك جاءت أعظم إنجازاته رغمًا عن قناعاته.

كانت فرنسا قد تنازلت إلى إسبانيا في عام 1762 عن أرض "لويزيانا" الشاسعة الممتدة من خليج مكسيكو إلى كندا ومن نهر المسيسبي إلى جبال "روكي"، كجزء من إعادة توزيع الممتلكات الاستعمارية في نهاية حرب السنوات السبعة، ثم أعادت فرنسا شرائها سرًا في عام 1800، وعلم "جيفرسون" بما حدث بعد فترة وجيزة من توليه منصبه، وكان يتلهف منذ فترة طويلة لوصول أمريكا إلى ميناء "نيو أورلينز" الذي يقع ضمن "لويزيانا" عند مصب نهر المسيسبي، وقد تم الاعتراف بحق المزارعين الغربيين في التجارة عبر "نيو أورلينز" الضروري لهم في معاهدة "سان لورينزو" (المعروفة أيضا باسم "معاهدة لبينكني") لعام 1795 بين الولايات المتحدة وإسبانيا، ولكن

"جيفرسون" خشى أن تحاول فرنسا الأقوى بكثير التدخل في التجارة الأمريكية، ولذلك أوفد مبعوثين إلى فرنسا يعرضوا شراء المدينة، ونظرًا لأن نابليون كان يحتاج إلى المال لتمويل الحملات العسكرية في أوروبا ومع أحلامه بتدمير الإمبراطورية الأمريكية بسبب عدم قدرته على إعادة فرض السيطرة على "سانت دومينيك"، لذلك عرضت بيع كامل أراضي "لويزيانا" بتكلفة 15 مليون دولار أمريكي (ربما ما يعادل 250 مليون دولار بأموال اليوم) مما جعل شراء "لويزيانا" أحد أعظم الصفقات العقارية في التاريخ.

وهكذا استطاع "جيفرسون" في دفعة واحدة مضاعفة حجم الولايات المتحدة وإنهاء الوجود الفرنسي في أمريكا الشمالية، وقد أفزعت الصفقة الفيدراليين حيث علق أحدهم عليها قائلا "نقدم الكثير من المال الشحيح لدينا جدًّا مقابل الأرض التي لدينا منها بالفعل أكثر من اللازم"، واعترف "جيفرسون" بأنه "قام بعمل خارج السلطات الممنوحة لديه بموجب الدستور"، لكنه يرى أن الفوائد تبرر المخالفة وكتب قائلا "المزارعون هم شعب الله المختار"، وأن البلاد ستظل "فاضلة" طالما أنها "زراعية في المقام الأول"، وشرح "ماديسون" في العدد 10 من جريدة "الفيدراليون" أن الحجم الكبير للجمهورية يجعل الحكم الذاتي ممكنًا وأعلن "توسيع الدائرة"، وكان يعتقد "جيفرسون" آنذاك أنه قد ضمن بذلك الطابع الزراعي للولايات المتحدة والاستقرار السياسي لعدة قرون قادمة."

"لويز وكلارك"

أرسل "جيفرسون" في غضون سنة من شراء "لويزيانا" حملة بقيادة "ميريويذر لويز" و"وليام كلارك"، وهما من مواليد ولاية "فرجينيا" ومن قدامى المحاربين في الحروب الهندية، إلى "وادي أوهايو" لاستكشاف الأراضي الجديدة، وكانت أهدافهما علمية وتجارية لدراسة النباتات في المنطقة، وحياة الحيوان، والجغرافيا، واستكشاف كيف يمكن استغلال المنطقة اقتصاديا؛ وكان "جيفرسون" يأمل في أن يتمكن المستكشفان من إقامة علاقات تجارية مع الهنود الغربيين وتحديد مسار المياه إلى المحيط الهادئ في تحديث للحلم القديم بالتوصل لممر شمالي غربي يمكنه تسهيل التجارة مع آسيا.

انطلق أعضاء "فيلق الاكتشاف" الخمسين بقيادة "لويز" و"كلارك" في ربيع عام 1804 من "سانت لويس" في أشهر فريق استكشافي في التاريخ الأميركي، وقضوا فصل الشتاء في المنطقة الواقعة في الوقت الحاضر في "نورث داكوتا" ثم استأنفوا رحلتهم في إبريل (نيسان) عام 1805 حيث التحقت بهم "ساكاجاويا" من هنود "شوشون" وهي امرأة هندية تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا زوجة تاجر الفراء الفرنسي الذي عمل معهم مرشدًا ومترجما، ووصلت البعثة في نوفمبر (تشرين الثاني) 1805 إلى المحيط الهادئ في المنطقة الواقعة فيما يُعرَف في الوقت الحاضر بولاية "أوريجون" (التي تقع

خارج الحدود الجديدة للبلاد) بعد عبور جبال "روكي"، وعادت في 1806 حاملة معها كمية هائلة من المعلومات حول المنطقة وكذلك العديد من العينات النباتية والحيوانية، وحفلت مجلاتهم اليومية بتقارير حول الجغرافيا، والنبات، والحياة الحيوانية، والثقافات الهندية، وبالرغم من أن لويس وكلارك فشلا في العثور على الطريق التجاري إلى آسيا، إلا أنهما أثبتا إمكانية السفر برًا إلى ساحل المحيط الهادئ ووجدا الهنود في الغرب عبر "المسيسيبي" معتادين على التعامل مع التجار الأوروبيين وعلى اتصال بالفعل بالأسواق العالمية، وساعد نجاح رحلتهما في تعزيز فكرة أنه من قدر الأراضي الأمريكية أن تمتد حتى المحيط الهادئ.

ضم لويزيانا

كان الجزء الوحيد في صفقة شراء "لويزيانا"، والذي به عدد كبير من السكان غير الهنود في عام 1803، هو المنطقة القريبة من "نيو أورلينز"، وعندما فرضت الولايات المتحدة سيطرتها على المنطقة، كان بالمدينة حوالي 8.000 نسمة، بما في ذلك ما يقرب من 3.000 من العبيد و1.300 من الأشخاص الملونين الأحرار، ولذلك لم يكن من السهل بأي حال من الأحوال دمج هذه الفئات المتنوعة من السكان في الولايات المتحدة، حيث منحت القوانين الفرنسية والإسبانية للسود الأحرار ما يقرب من جميع حقوق المواطنين البيض، وكثير منهم نسل زيجات مختلطة بين ضباط الجيش البيض ونساء من العبيد، وكما هو الحال في ولايتي "فلوريدا" و"تكساس" تحت الحكم الإسباني تمتع العبيد في ولاية "لويزيانا" بالحماية القانونية الغير معروفة في الولايات المتحدة، وقد جعلت إسبانيا من السهل على العبيد الحصول على حريتهم من خلال شراء حريتهم من مالكيهم أو تحريرهم الطوعي من قبل هؤلاء المُلاَّك، وكان من حق الجواري الذهاب إلى المحكمة للحماية ضد القسوة أو الاغتصاب من هؤلاء المُلاَّك.

وعدت المعاهدة التي نقلت "لويزيانا" إلى الولايات المتحدة بأن يتمتع جميع السكان الأحرار "بالحقوق والمزايا والحصانات التي يتمتع بها المواطنين"، وعلى عكس القانون البريطاني والأمريكي كانت القوانين المدنية الإسبانية والفرنسية قد اعترفت بالمرأة كشريكة في ملكية ممتلكات الأسرة، واحتفظت "لويزيانا" بمبدأ "الملكية المشتركة" هذا في إطار الزواج تحت الحكم الأمريكي، ولكن عانى السود الأحرار من التدهور المطرد في أوضاعهم، وسرعان ما اعتمدت السلطة التشريعية المحلية أحد أكثر نظم القوانين الكاسحة في الجنوب التي تمنع السود من "اعتبار أنفسهم بأنهم على قدم المساواة مع البيض في أي وقت"، والحد من ممارسة عتق العبيد أو الوصول إلى المحاكم سعيًا للحرية، أما في "لويزيانا" فقد تمتع العبيد بها بحرية أكثر بكثير في ظل حكم الإسباني الاستبدادي منه تحت حكم الولايات المتحدة التي تدَّعي عشق الحرية.

حرب الغرب

كان شراء "لويزيانا" من بين أمور أخرى أظهرت أنه على الرغم من عزلة الولايات المتحدة التي تتباهى بها عن العالم القديم، إلا أنها واصلت التأثر بشدة في جميع أنحائها بالأحداث الجارية، ففي الوقت الذي كان فيه الأمريكيون لا يزالون يعتمدون على الأسواق البريطانية لشراء منتجاتهم الزراعية وعلى الموردين البريطانيين للسلع المستوردة المصنعة، فقد أثرت الحروب الأوروبية بشكل مباشر على معيشة المزارعين والتجار والحرفيين الأمريكيين، وكان "جيفرسون" يأمل في تجنب الوقوع في الشراك الخارجية، ولكنه وجد أنه المستحيل كرئيس أن يتجنب الانجرار إلى الحروب الأوروبية المستمرة، حتى وهو يسعى للحد من سلطة الحكومة الوطنية، إلا أن العلاقات الخارجية اضطرته لتوسيع سلطاتها، فالحرب الأولى التي خاضتها الولايات المتحدة الأمريكية كانت لحماية التجارة الأمريكية في عالم تحيط به المخاطر.

قام "جيفرسون" بعد بضعة أشهر فقط من توليه منصبه بتعيين نفس البحرية التي سبق أن انتقد بشدة قرار "جون آدامز" في توسعيها، فدول البرابرة على الساحل الشمالي لإفريقيا هاجمت لوقت طويل الشحنات في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي وفرضت إتاوات على العديد من البلدان، بما في ذلك الولايات المتحدة لحماية سفنها، وقد قبض القراصنة على ثلاث عشرة سفينة أمريكية وأسروا أكثر من 100 بحار أمريكي "كعبيد" وشلوا حركة التجارة الأمريكية مع دول البحر المتوسط خلال الفترة ما بين عامي 1785 و 1796، مما اضطر الحكومة الفيدرالية إلى دفع مئات الآلاف من الدولارات كفدية ووافقت على دفع مبالغ سنوية لشراء السلام، إلا أن "جيفرسون" رفض المطالب بزيادة المدفوعات في عام 1801، وأعلن والي طرابلس الحرب على الولايات المتحدة واستمر الصراع البحري حتى عام 1804، عندما حقق أسطول أمريكي انتصارًا في ميناء طرابلس (وقد جرى الاحتفاء بهذا الانتصار في النشيد الرسمي لسلاح البحرية الذي يذكر القتال على "شواطئ طرابلس")، وضمنت معاهدة إنهاء الحرب حرية التجارة الأمريكية، ولكن سرعان ما استأنفت طرابلس التحرش بالسفن الأمريكية، ولم تتوقف إلا بعد حرب عام 1812 والاستعراض النهائي للقوة الأمريكية.

كانت حروب المغرب هي المواجهة الأولى للأمة الجديدة مع العالم الإسلامي، وأعلنت الحكومة الاتحادية في التسعينيات من القرن الثامن عشر أن الولايات المتحدة لم تتأسس على الدين المسيحي "كجزء من محاولة لإقامة علاقات سلمية"، ولكن الصراعات ساعدت على خلق صورة ذهنية نمطية طويلة الأمد لدى الأمريكيين عن المسلمين باعتبارهم ناس غريبة لا تلتزم طريقتهم في الحياة بالمعايير الغربية، فالإسلام في عيون العديد من الأمريكيين انضم للملكية والأرستقراطية كشكل من أشكال استبداد العالم القديم الذي يعادي الحرية.

الحظر

كانت الحرب بين بريطانيا وفرنسا، التي استؤنفت في عام 1803 بعد فترة هدوء قصيرة، أكثر خطورة في تأثيرها على الولايات المتحدة، فالدول المحايدة لها الحق وفقًا للقانون الدولي في تجارة السلع الغير عسكرية مع الدول المتحاربة، إلا أنه بحلول عام 1806، أعلن كل من الدولتين المتحاربتين أن الدولة الأخرى تعد تحت الحصار سعيًا لحرمان الدولة الخصم من التجارة مع أمريكا، واستأنفت البحرية الملكية البريطانية ممارسة إكراه البحارة الأمريكيين على الخدمة لديها وكانت قد أكرهت أكثر من 6.000 بحارًا أمريكيًا بحلول نهاية عام 1807 (مدعية أنهم كانوا مواطنين بريطانيين وفارين)، بما في ذلك رجال من السفينة الحربية الأمريكية "تشيسابيك" التي قصفتها السفينة الحربية البريطانية "ليوبارد" ودفعتها عبر المياه الأمريكية قبالة ساحل ميرلاند.

كان "جيفرسون" يرى أن الصحة الاقتصادية للولايات المتحدة تتطلب حرية التجارة التي ليس لأي حكومة أجنبية الحق في التدخل فيها، فالمزارعون الأمريكيون بحاجة إلى الوصول إلى الأسواق في أوروبا ومنطقة البحر الكاريبي، فقرر أن يفعل ما فعله الاستعماريون الوطنيون في فترة الستينيات والسبعينيات من القرن الثامن عشر، ولذلك قرر استخدام التجارة كسلاح بأن أقنع الكونجرس في ديسمبر (كانون أول) عام 1807 بأن يسن قانون يفرض حظرًا على جميع السفن الأمريكية أن تبحر في الموانئ الأجنبية، وكان هذا الإجراء بالنسبة للمؤمنين بفكرة الحكومة محدودة السلطات بمثابة ممارسة مذهلة للسلطة الفيدرالية.

أعاد إنفاذ الحظر ذكريات الأعمال غير المقبولة لعام 1774 مع إغلاق البحرية للموانئ والاستيلاء على البضائع دون إذن قضائي واعتقال الجيش للمهربين المتهمين، وكان "جيفرسون" يأمل أن يكون وراء إنفاذ الحظر دفع الأوروبيين لوقف تدخلهم في الشحن البحري الأمريكي، وأيضًا تقليل فرص إكراه البحارة على الخدمة في صفوف الأوربيين، ولكن الحظر أدى إلى خفض الصادرات الأمريكية بنسبة 80 في المائة في عام 1808، وللأسف، لم تهتم بريطانيا ولا فرنسا بالنتائج السلبية للحظر لأنهما كانتا منخرطتان في صراع مميت، ولكن الحظر دمر اقتصاديات المدن الساحلية الأمريكية، فقام "جيفرسون" قبل انتهاء فترة ولايته مباشرة في مارس (آذار) عام 1809 بالتوقيع على قانون "عدم التعامل" الذي يحظر التجارة مع بريطانيا وفرنسا فقط، ولكن شريطة أن يقوم أي جانب منهما بإلغاء مراسيمه ضد السفن الأمريكية، ويتم بهذا استئناف التجارة مع هذا البلد.

ماديسون والضغط للحرب

ترك "جيفرسون" منصبه عند أدنى مركز له في تاريخه السياسي، فبعد أن حقق فوزًا كاسحًا في انتخابات الإعادة في عام 1804 بعدد 162 صوتًا انتخابيا، مقابل 14 صوتًا فقط للمرشح

الفيدرالي "تشارلز ج. بنكني"، حتى أنه قد اكتسب معقل الفيدرالية في "نيو إنجلاند"، باستثناء "كونيتيكت"، وبعد أربع سنوات حقق خليفته المختار بعناية "جيمس ماديسون" فوزًا سهلاً أيضا، ولكن الحظر فشل في تحقيق أهدافه الدبلوماسية، وتعرض للانتهاك على نحو متزايد من قبل شركات الشحن الأمريكية؛ كما أنه أثار استياء الأشخاص الذين يعتمدون على التجارة لكسب العيش، لذلك اعتمد "ماديسون" سياسة جديدة في عام 1810، حيث أصدر الكونجرس إجراء عُرِفَ باسم "مشروع قانون ماكون الثاني"، الذي سمح باستئناف التجارة ولكنه اشترط أنه إذا لم تتوقف فرنسا وبريطانيا عن التدخل في الحقوق الأمريكية، فإنه يجوز للرئيس إعادة فرض الحظر، ونظرًا لأن فرنسا كان لديها القليل فقط لتخسره بسبب سيطرة بريطانيا على البحار، لذلك أعلن الإمبراطور الفرنسي نابليون إلغاء قراراته المضادة للشحن المحايد، ولكن البريطانيين استمروا في مهاجمة السفن الأمريكية وتصاعدت حالات اختطاف البحارة الأمريكيين، نظرًا لضغط الحاجة للقوى العاملة ولذلك أعاد "ماديسون" فرض الحظر على التجارة مع بريطانيا في ربيع عام 1812.

كانت هناك في الوقت نفسه مجموعة من أعضاء الكونجرس الأصغر سنا، ومعظمهم من الغرب، تدعو للحرب مع بريطانيا، وكان هذا الجيل الجديد من القادة السياسيين الذين بلغوا سن الرشد بعد الفوز بالاستقلال يُعرَفون باسم "صقور الحرب" وكانوا قوميين متقدين حماسا، ومن قادتهم "هنري كلاي" الرئيس المُنتَخَبَ لمجلس النواب عن كنتاكي في عام 1810، و"جون سي كالهون" من ساوث كارولينا، وكانوا يتحدثون بحماس عن الدفاع عن الشرف الوطني ضد الإهانات البريطانية، ولكن كان لديهم أيضًا أهدافًا عملية أخرى، ولا سيما ضم كندا إلى الولايات المتحدة، وقد أعلن عضو الكونجرس عن فيرجينيا "جون راندولف" أن "الطمع الزراعي وليس الحقوق البحرية هو السبب وراء الحرب، فلم نسمع سوى كلمة واحدة. . . كندا! كندا! كندا!"، لقد بالَغَ "راندولف" لأن العديد من صقور الحرب الجنوبية أيضًا ضغطوا من أجل الاستيلاء على ولاية فلوريدا التي تعتبر ملاذًا للعبيد الفارين وهي تخضع لحكم إسبانيا حليفة بريطانيا، كما تحدث أعضاء الكونجرس أيضًا عن ضرورة التمسك بمبدأ التجارة الحرة وتحرير الولايات المتحدة مرة واحدة من التعديات الأوروبية على استقلالها حيث كان الوصول إلى الأسواق الخارجية دون عوائق ضروريًا لازدهار الجمهورية الزراعية.

"الحرب الثانية للاستقلال"

وقعت الأزمة المتفاقمة بين الولايات المتحدة وبريطانيا تلقاء خلفية العلاقات المتدهورة الهندية في الغرب الأمريكي، وهو ما ساعد أيضًا على دفع الولايات المتحدة إلى طريق الحرب؛ لقد كان "جيفرسون" ميالاً منذ فترة طويلة لإزاحة قبائل الهنود الذين رفضوا التعاون في الاندماج

في "الحضارة والتمدين" إلى ما وراء نهر المسيسيبي، وشراء "لويزيانا" جعل هذه السياسة ذات جدوى أكبر، وكتب قائلا "من المأمول أن يمنحنا امتلاك لويزيانا وسائل لإقناع جميع الهنود في هذا الجانب [نهر المسيسبي] بأن ينتقلوا إلى الجانب الآخر"، وواصل "جيفرسون" السعي بحماس في جهود شراء أراضي الهنود غرب جبال الأبلاش، وشجَّع التجار على إقراض المال للهنود على أمل أن يؤدي تراكم الديون عليهم إلى إجبارهم على بيع بعض من ممتلكاتهم، وبالتالي، تحرير المزيد من الأراضي "لأعداد الأمريكيين المتزايد." من ناحية أخرى، واصلت الحكومة سياسة الرئيس "واشنطن" في تشجيع الزراعة المستقرة بين الهنود، وكذلك شجَّع "بنيامين هوكينز" صديق "جيفرسون" الذي شغل منصب الوكيل الأمريكي للشؤون الهندية جنوبي نهر أوهايو على توسيع عبودية الأمريكيين الأفارقة بين القبائل باعتبارها إحدى عناصر تقدم الحضارة.

رد الهنود

كان ما يقرب من 400.000 مستوطن أمريكي يعيشون غرب جبال الأبلاش بحلول عام 1800، وهو ما يفوق بكثير أعداد الهنود المتبقين الذين أدى تدهور قوتهم بصورة جلية - بشكل لا رجعة فيه - إلى إعادة النظر في معارضتهم لفكرة أن يتم استيعابهم واندماجهم مع الأمريكيين المستعمرين، التي أيدتها مجموعة من بين قبائل الهنود "الكريك" و"الشيروكي" يقودها رجال مختلطي النسب من الهنود والأمريكيين مثل الرائد "ريدج وجون روس" الذي أيَّد بحماس السياسة الاتحادية لتعزيز "الحضارة"، وأسَّسَ العديد منهم الشركات وازدهروا بمساعدة آبائهم البيض كتجار ومزارعين يمتلكون العبيد، وقد أثارت آرائهم هذه غضب "مناصري الأمريكيين الأصليين" الذين كانوا يرغبون في القضاء على التأثيرات الأوروبية ومقاومة المزيد من زحف البيض على الأراضي الهندية.

كانت الفترة ما بين عامي 1800- 1812 بمثابة "عصر النبوءة" بين الهنود، حيث نشأت حركات لإعادة تنشيط الحياة الهندية بين الهنود من "الكريك"، و"الشيروكي"، و"شونيس"، و"الإيروكوا" وغيرهم من القبائل، وقد وعظ "هاندسوم ليك"، الذي كان قد تغلب من قبل على إدمان الكحول، بأنه ينبغي على الهنود الامتناع عن القتال، والقمار، وشرب الخمور، والفوضى الجنسية؛ وكان يعتقد أن الهنود يستطيعون استعادة استقلاليتهم دون تحدي البيض مباشرة أو التنصل من كل أساليب حياة البيض، وحث أتباعه على الاهتمام بالزراعة والذهاب إلى المدارس للتعليم.

رؤية "تيكومسيه"

بث الأخوان "شوني" رسالة معارضة أكثر قوة، وهما تيكومسيه، الزعيم القبلي الذي كان قد رفض التوقيع على معاهدة "جرينفيل لعام 1795، وأخية "تنسكواتاوا"، النبي الديني الذي كان قد

دعا إلى الانفصال التام عن البيض، وإحياء الثقافة الهندية التقليدية، ومقاومة السياسات الاتحادية، وكان "تنسكواتاوا" يعظ الناس بأن البيض هم مصدر كل الشرور في العالم، ولذلك ينبغي على الهنود التخلي عن الكحول، والملابس، والغذاء، والسلع المصنعة الأمريكية، وتجمع أتباعه في "بروفتستاون" التي تقع على نهر "واباش" في "إنديانا".

وفي الوقت نفسه اجتاز "تيكومسيه" وادي المسيسيبي سعيًا وراء إحياء تحالف عموم الهنود الذي كان قد نشأ في الستينيات من القرن الثامن عشر (الذي سبق عرضه في الفصل الرابع)، لأن بديل المقاومة معناه التعرض للإبادة، وتساءل "أين هم البيكوت، وأين الناراجانست، والموهيكان، والبوكانت وغيرهم من قبائل الأمريكيين الأصليين القوية؟ وأجاب على تساؤله بأنهم اختفوا أمام طمع وجشع وظلم الرجل الأبيض، وأضاف أنه ينبغي على الهنود أن يعترفوا أنهم شعب واحد، وأن يتوحدوا في المطالبة "بالحق المشترك والمتساوي في الأرض"، والتنصل من زعماء القبائل الذين باعوا الأرض للحكومة الاتحادية: "يبيعوا الوطن! لماذا يبيعون إذًا الهواء، والبحر الكبير وكذلك الأرض؟ ألم يمنح الله كل هذه النعم لأولادهم وأحفادهم؟ ودعا في عام 1810 إلى شن هجمات على المستوطنات الأمريكية الحدودية، ولكن القوات الأمريكية تحت قيادة "وليام هنري هاريسون"، دمرت "بروفتستاون/ بلدة النبي" في نوفمبر (تشرين الثاني) عام 1811 في معركة "تيبيكانوي"، بينما كان هو غائبا.

حرب عام 1812

كتب "جيمس ماديسون" في عام 1795 أن الحرب هي أكبر عدو "للحرية الحقيقية"، وأوضح أن "الحرب هي أساس الجيوش، وبالتالي الاستدانة وفرض الضرائب لتمويل هذه الجيوش؛ والديون والضرائب هي الأدوات المعروفة لجعل الكثرة تحت هيمنة القلة"؛ ومع ذلك، أصبح "ماديسون" رئيس حرب، حيث ساهمت التقارير الواردة حول جهود البريطانيين لتشجيع "تيكومسيه" في إثارة حرب عام 1812؛ وعندما وقعت الاعتداءات المتواصلة على الشحنات الأمريكية البحرية في يونيو (حزيران) عام 1812، طلب "ماديسون" من الكونجرس إعلان الحرب لأنه كان يرى أن الجنسية الأمريكية على المحك، الأمر الذي من شأنه أن يقرر ما إذا كان الأمريكيون سيظلون "شعبا مستقلا" أم سيصبحون "مستعمرين وخاضعين" لبريطانيا العظمى؛ وكشف التصويت عن الانقسام الحاد في البلاد حيث صَوَّتَ ضد الحرب كلا من الفيدراليين والجمهوريين الذين يمثلون الولايات في اتجاه الشمال من "نيوجيرسي"، حيث تتركز معظم الموارد التجارية والمالية للبلاد؛ بينما صَوَّتت لصالح الحرب بشدة الولايات الجنوبية والغربية، وتم تمرير قرار بالموافقة على مشروع القانون في مجلس النواب بأغلبية 79 صوت مقابل 49، وفي مجلس الشيوخ من قبل

19 مقابل 13، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أعلنت فيها الولايات المتحدة الحرب على دولة أخرى، وتمت الموافقة بأصغر هامش لأي إعلان للحرب في التاريخ الأمريكي.

إذا ما تأملنا الماضي سيبدو أنه من التهور الجامح أن تتجه أمة مفككة وغير مستعدة عسكريًا إلى الذهاب إلى الحرب مع واحدة من أكبر قوتين في العالم؛ ومع انتهاء امتياز بنك الولايات المتحدة في عام 1811 ورفض التجار والمصرفيين في الشمال إقراض المال للحكومة الاتحادية، وجدت هذه الأخيرة صعوبة متزايدة في تمويل الحرب وأفلست بشكل أساسي قبل انتهاء الصراع؛ إلا أنه لحسن حظ الولايات المتحدة، انشغلت بريطانيا في البداية بالصراع في أوروبا، ولكنها صدت بسهولة اثنتين من الغزوات الأمريكية الضعيفة لكندا وفرضت حصارًا دمر التجارة الأمريكية، وفي عام 1814، بعد أن هزمت بريطانيا نابليون في نهاية المطاف، غزت الولايات المتحدة الأمريكية واستولت قواتها على واشنطن العاصمة وحرقت البيت الأبيض، بينما فرت الحكومة طلبًا للسلامة.

مع ذلك فقد حظي الأمريكيون بعدد قليل من النجاحات العسكرية، ففي أغسطس (آب) عام 1812، هزمت السفينة الحربية الأمريكية "كونستيوشن" السفينة الحربية البريطانية "جويرير"، وهزم العميد "أوليفر هـ. بيري" قوة بحرية بريطانية في سبتمبر (أيلول) عام 1813 على بحيرة إيري (نتيجة مذهلة بالنظر إلى أن بريطانيا تفخر بأن لديها أقوى بحرية في العالم، على الرغم من أن الأمريكيين تفوقوا عليهم في البحيرات العظمى)؛ وكذلك نجحت الولايات المتحدة في صد الاعتداء البريطاني في السنة التالية على "بالتيمور"، عندما صمد حصن "فورت مكهنري" عند مدخل الميناء أمام القصف البريطاني، وكانت هذه هي المناسبة التي دفعت "فرانسيس سكوت كي" إلى تأليف "اللافتة اللامعة كالنجم"، وهي قصيدة "لأرض الأحرار ووطن الشجعان"، والتي أصبحت النشيد الوطني خلال فترة الثلاثينيات من القرن العشرين.

كانت حرب عام 1812 مثل حرب الاستقلال صراعًا يمتد على جبهتين ضد البريطانيين وضد الهنود، وأسفرت عن انتصارات كبيرة على الهنود الغربيين الذين وقفوا في صفوف البريطانيين، حيث ألحقت قوة أمريكية بقيادة "وليام هنري هاريسون" في عام 1813 هزيمة بقوات عموم الهنود بقيادة تيكومسيه (الذي كان قد تم تكليفه جنرالاً في الجيش البريطاني) ولاقى "تيكومسيه" مصرعه في "معركة تيمز" بالقرب من ديترويت على يد قوة أمريكية بقيادة ويليام هنري هاريسون؛ في شهر مارس (آذار) عام 1814، ألحقت وحدة جيش من الأمريكيين والمؤيدين للاندماج من قبائل "الشيروكي" و"الكريك" الهندية تحت قيادة "أندرو جاكسون" هزيمة بالمعادين من قبائل "الشيروكي" للاندماج المعروفة باسم "العصي الحمراء" في معركة "ثنية حدوة الحصان" في

"الاباما"، مما أسفر عن مقتل أكثر من 800 منهم، حتى كتب "جاكسون" قائلا "إن قوة الكريك انكسرت إلى الأبد"، وأملى شروط الاستسلام التي تتطلب من القبائل الهندية المعادية والصديقة على حد سواء التنازل عن أكثر من نصف أرضهم التي تزيد مساحتها الإجمالية على 23 مليون فدان إلى الحكومة الاتحادية.

ثم انطلق "جاكسون" إلى "نيو أورلينز" حيث أدار أعظم انتصار أمريكي في الحرب حيث تصدى للغزو البريطاني في يناير (كانون الثاني) عام 1815؛ وعلى الرغم من أنه كان يمتلك عبيدا، إلا أنه قام بتجنيد الرجال الأحرار من الملونين في المدينة في صفوف قواته مناديًا إياهم "بأبناء الحرية"، وواعدًا إياهم بنفس الأجور وخيرات الأرض التي يحصل عليها الجندون البيض، واستهلت تلك الانتصارات الأمريكية مستقبلاً سياسيًّا هامًا لعدد من الشخصيات البارزة مثل "جاكسون" و"هاريسون" الذين شقوا طريقهم إلى البيت الأبيض على ظهر سمعتهم كأبطال عسكريين، وكذلك العقيد "ريتشارد جونسون" الذي ادعى قتل "تيكومسيه"، والذي تم انتخابه نائبًا للرئيس في وقت لاحق.

نظرًا لأنه لم يرغب أي من الطرفين في مواصلة الصراع، فقد وقَّعت الولايات المتحدة وبريطانيا معاهدة "جنت" وأنهيا حالة الحرب، وبالرغم من أن المعاهدة تم توقيعها في ديسمبر (كانون الأول) عام 1814، إلا أن السفن التي تحمل خبر التوصل لاتفاق لم تصل إلى أمريكا حتى بعد وقوع معركة "نيو أورلينز"، ولم تأت المعاهدة بجديد بل اقتصرت على استعادة الوضع الراهن السابق، ولم يتم تبادل أي أراضي ولم تنص على أي أحكام تتعلق بحقوق إكراه البحارة على الخدمة العسكرية أو حقوق الشحن البحري المحايدة؛ وبينما لا ينظر لتلك الحرب على أنها نجاح عسكري للولايات المتحدة، فقد كانت "معاهدة جنت" أفضل نتيجة جيدة يمكن توقعها.

تداعيات الحرب

أطلق عدد من المعاصرين على حرب عام 1812 اسم "الحرب الثانية للاستقلال"، فعلى الرغم من المعارضة واسعة النطاق للصراع، إلا أنها أكدت قدرة الحكومة الجمهورية على إدارة الحرب دون استسلام مؤسساتها. لم يجعل نصر "جاكسون" في "نيو أورلينز" منه بطلاً قوميًّا فقط، ولكنه أصبح أيضًا نموذجًا مشهورًا لقدرة مواطني الجمهورية الفضلاء على هزيمة قوى أوروبا الاستبدادية.

وعلاوة على ذلك، ثمة إنجازات أخرى حققتها تلك الحرب، فقد أكملت الحرب خطة الاستيلاء على المنطقة شرقي نهر المسيسبي، والتي كانت قد بدأت أثناء الثورة، ولم يعد البريطانيون أو الهنود يشكلون خطرًا على الهيمنة الأمريكية على تلك المنطقة الشاسعة من

الأرض، كما كسرت السلطة المتبقية لدى الهنود في الشمال الغربي القديم وخفضت ممتلكاتهم في الجنوب بشكل ملحوظ، مما فتح أراض جديدة غنية أمام المستوطنين الأمريكيين؛ وتدفق المستوطنون البيض في أعقابها على "إنديانا"، و"متشيجن"، و"الاباما"، و"مسيسيبي" حاملين معهم أشكالهم المميزة من التنظيم الاجتماعي، وقد كتب "جاكسون" إلى زوجته قائلا "ليس لدي أي شك في أن ضفاف ألاباما ستمتلئ في غضون سنوات قليلة بمناظر جميلة من القصور الأنيقة والمزارع الواسعة الغنية والمنتجة"، ولكنه لم يذكر أن العبيد هم من سيبنون تلك القصور ويعملون في تلك المزارع.

وفتحت هزيمة بريطانيا لنابليون فترة طويلة من السلام في أوربا، مما أدى إلى نمو شعور الأمريكيين بالانفصال عن العالم القديم أقوى من أي وقت مضى، ولاسيما أن دور الدوائر الدبلوماسية قد تضاءل شيئًا فشيئًا في الحياة العامة الأمريكية، كما عززت الحرب الشعور المتزايد بالقومية في كندا، وهو ما يرجع أيضًا بصورة جزئية إلى انفصالها عن الولايات المتحدة، نتيجة لأن الكنديين لم ينهضوا ليصدوا الجيش الغازي من الجنوب في عام 1775، مما أدهش الأمريكيين الذين لم يستطيعوا فهم السبب وراء عزوفهم عن أن يصبحوا جزءًا من إمبراطورية الحرية.

نهاية الحزب الفيدرالي

نجح "جيفرسون" و"ماديسون" في تحقيق هدف سياسي رئيسي واحد، ألا وهو القضاء على الحزب الفيدرالي، حيث أدت الحرب في البداية إلى إحياء نجاحات الفيدراليين، وفي ذروة المشاعر المناهضة للحرب في عام 1812، أعيد انتخاب "ماديسون" بهامش ضيق نسبيًا حيث فاز بعدد 128 صوتًا انتخابيًا في مقابل 89 لخصمه الفيدرالي "دويت كلينتون" من نيويورك، ولكنه أنزل بنفسه بعد ذلك ضربة فقد تجمّعت مجموعة من الفيدراليين في ديسمبر (كانون الأول) لعام 1814 في "نيو إنجلاند" في "هارتفورد" بولاية "كونيتيكت"، ليعبروا عن المظالم التي تعرض لها حزبهم والتي طال أمدها، وخصوصًا هيمنة الحكومة الاتحادية من قبل رؤساء "فرجينيا" ونفوذ منطقتهم المتراجع كولايات غربية جديدة دخلت الاتحاد، ودعوا إلى تعديل الدستور للقضاء على شرط الثلاثة أخماس الذي عزز السلطة السياسية الجنوبية، وطالبوا بالتصويت بثلثي الأصوات في الكونجرس لقبول ولايات جديدة، ولإعلان الحرب، ولتمرير القوانين التي تقيد التجارة؛ وخلافًا للأسطورة التي شاعت في وقت لاحق، لم يدعو "هارتفورد" إلى الانفصال أو فك الاتحاد، ولكنه أكد على حق أي ولاية في أن "تعترض" سلطتها، إذا انتهكت الحكومة الاتحادية الدستور.

لم يكد مؤتمر "هارتفورد" ينتهي حتى صدم "جاكسون" الأمة بفوزه في "نيو أورلينز"، وهللت إحدى الصحف بعنوان "صعود مجد الجمهورية الأمريكية"؛ وأعلن القادة السياسيون والدينيون

على حد سواء في الخطب والمواعظ أن انتصار "جاكسون" كشف مرة أخرى أن العناية الإلهية تشرف على مصير أمريكا، بينما لم يستطع الفيدراليون أن يبرئوا أنفسهم من تهمة افتقار الحس الوطني واختفى حزبهم في غضون بضع سنوات؛ وكان موقفهم من الحرب مجرد أحد أسباب زوال الحزب، فبالإضافة إلى ذلك، كانت المصالح الحضرية التجارية والمالية التي دافعوا عنها تمثل أقلية صغيرة في أمة زراعية تتوسع أراضيها، وأن نخبوية الفيدراليين وانعدام ثقتهم في الحكم الذاتي الشعبي قد وضعتهم على خلاف أكثر وأكثر مع روح الدولة الديمقراطية الجديدة؛ وعلى الرغم من أسباب السقوط هذه إلا أنهم أثاروا في لحظات موتهم قضية هيمنة الجنوب على الحكومة الوطنية، التي ستعيش طويلاً بعد زوال حزبهم السياسي؛ ووقفت البلاد على حافة التحول الاقتصادي والاجتماعي العميق الذي عزَّز نفس قوى التنمية التجارية التي كان قد رحب بها الفيدراليون؛ بينما خشاها الكثيرون من الجمهوريين.

أصـوات الحـريـة

من خطاب جمعية بنسلفانيا الديمقراطية ـ الجمهورية
(18 ديسمبر (كانون الأول) 1794)

عكس إنشاء حوالي خمسين جمعية ديمقراطية – جمهورية في عـامي 1793 و 1794 التوسـع في دائرة المجال العام، وقد أصدرت جمعية "بنسلفانيا" خطابًا تدافع فيه عن نفسها ضد المنتقدين الـذين شككوا في حقها في انتقاد إدارة "جورج واشنطن".

تعرضت مبادئ وفعاليات جمعيتنا للتشويه مؤخرا [التي تعرضت لتلطيخ سمعتها بالأكاذيب الخبيثة]، وقالوا إن علينا أن نعتبر أنفسنا غير جديرين بمرتبة الأحرار، فإذا ما كنا نضمر الامتنـان العام للخدمات الماضية التي قام بها شخص ما، لكن حرية التعبير حق مقدس ومبدأ مهم جـدا، ولذلك فإن انتهاك حريـة الـرأي مـن خـلال الهجـوم علـى الجمعيـات الـتي تـستند إلى المبـادئ الدستورية يجعلنا نعاني في صمت.

إن حرية الفكر وحرية نقل الآراء عن طريق الحديث والتعبير عبر الصحافة هـي ضـمانات لحرياتنا. . . وحرية الرأي لا تقتصر فقط على حق التفكير، حيث لا يـستطيع أعظـم طاغيـة أن يحرم أدنى عبد من هذا الحق، ولكن حرية الرأي تعني الحريـة في نقـل وتوصـيل المـشاعر [عـبر] الحديث أو من خلال الصحافة. إن هذه الحرية هي حق لا يسقط بالتقادم وليس قـابلاً للتقييـد، وبغض النظر عن أي دستور أو عقد اجتماعي، فإن هذا الحـق كامـل تمامًـا كمـا هـو حـق لأي إنسان التمتع بحياته؛ وهذه المبادئ أبدية وقـد أقرهـا دسـتورنا، وأن الأمـة المـستعبدة بالفعـل لا تعترف بحقيقتها. . . .

إذا كانت حرية الرأي بالمعنى الذي نفهمه هي حق لكل مواطن، فبـأي منطـق يمكـن إنكـار هذا الحق في تجميع المواطنين؟ . . . والمجتمع حر في أن يعلن أنه لم يكن معجبًا بقوة أكبر من ذلك في أي وقت مضى بأهمية الجمعيات. . . مما هي عليه الآن؛ لقد تم غرس جرثومه الأرسـتقراطية البغيضة بيننا، ولقد رسخت جذورها. . .. دعونا نظل ثابتين في تعلقنا بالمبادئ. . . . دعونا نظل يقظين على وجه الخصوص للحفاظ على حرمة حرية الـرأي والتأكيـد علـى أنهـا هـي الـسلاح الأكثر فعالية لحماية حريتنا.

من جوديث سارجنت موراي "حول المساواة بين الجنسين" (1790)

"جوديث سارجنت موراي" هي كاتبة بارزة للمسرحيات، والروايات، والشعر وهي واحدة من أوائل النساء اللاتي طالبن بالمساواة بين الجنسين في الفرص التعليمية المتاحة للمرأة.

هل تبنينا فكرة أن الطبيعة منحازة في توزيعاتها على أساس تفكير ناضج وحكم سليم؟ وهل هي في الواقع قد أعطت نصف الجنس البشري هذا التفوق العقلي الذي لا يرقى إليه الشك؟ أعلم أن لكلا الجنسين فهم مرتفع والعكس صحيح، أي أن كلا الجنسين يمكن أن يهبطا إلى مراتب متدنية جدًا وهذا شائع؛ ولكن اسمح لي أن أسأل، ما هو الشيء الناقص أو غير المتساوي في عقول الإناث بهذا الشكل الفاضح؟

هل نعاني من النقص في العقل، والتفكير، والمنطق؟ نستطيع التفكير فيما نعرف فقط، وإذا كانت لدينا فرصة لاكتساب المعرفة التي حُرِمْنَا منها فلن تأت دونية جنسنا من العقل. . . فهل يمكن القول إن حكم الذكر ذا الستين من العمر هو أكثر حكمة من حكم الأنثى من نفس العمر؟ أعتقد أنه من الملحوظ أن العكس هو الصحيح بشكل عام، ولكن من أين يأتي التحيز من تلك الفترة! كيف يتم الارتفاع بشأن أحد الجنسين بينما يتم البخس بالجنس الآخر من خلال وسائط متضادة في مناهج التعليم التي يتم تبنيها لكل منهما! يتم تعليم الذكور أن يتطلعوا للأمام ويأملون ويستشرفون الآفاق العالية، بينما من جهة أخرى يتم الكبح والتقييد المبكر لعقل الأنثى، ومع مرور السنوات يجب أن تكون الشقيقة ملازمة للمنزل في حين يؤخذ بيد شقيقها على جميع مسارات العلم؛ لقد منحهما الله عقول متساوية ولكن من سيتساءل عن السبب وراء التفوق الواضح للذكور. . . . ثم تصل المرأة بعد وقت طويل إلى الأنوثة، حيث تشعر أنها غير مثقفة بشكل مناسب، وبالتالي تشعر بالفراغ، ماهي الوظائف التي تنتظرها؟ إنها تشعر بالتعاسة، إنها بحاجة لعقل مثقف واع، هل يجب أن يصرخ عقلها محتجًا على تذمرها بأن "الوظائف داخل المنزل كافية"– سأسأل بهدوء، هل من المعقول أن النفس والروح المرشحة للخلود ولأفراح الجنة والسماء، الكائن الذكي الذي سيعيش للأبد يفكر في مخلوقات الله، هل ينبغي أن تكون هذه الروح وهذه النفس في الوقت الحاضر متدهورة ومنحطة جدا، ولا يسمح لها بأي أفكار أخرى سوى تلك التي تعرض طريقة صنع الحلوى أو الخياطة؟ . . .

نعم، أيها السيد، أيها الجنس المتعالي المتعجرف، إن أرواحنا متساوية مع أرواحكم بحكم الفطرة والطبيعة.

أسئلة:

1- لماذا تصر الجمعية الديمقراطية الجمهورية على مركزية "حرية نقل وتبادل الآراء" في الحفاظ على الحرية الأمريكية؟

2- كيف ردت "موراي" على الحجة القائلة بأن توفير التعليم للنساء سيؤدي بهن إلى إهمال "وظائفهن المنزلية"؟

3- كيف تعكس هذه الوثائق الأفكار الآخذة في التوسع حول من ينبغي أن يتمتع بحرية التعبير عن أفكار الفرد في المراحل الأولى من الجمهورية؟

أسئلة المراجعة:

1- اذكر الأجزاء الرئيسية لخطة "هاملتون" المالية، واذكر من أيد هذه المقترحات، ولماذا أثاروا هذه المعارضة العاطفية.

2- كيف شكلت الثورة الفرنسية وما تلاها من صراع عالمي بين بريطانيا العظمى وفرنسا المراحل الأولى للسياسة الأمريكية؟

3- كيف أثبت كل مما يلي تزايد انخراط الولايات المتحدة في العالم: خطاب واشنطن للوداع، رد "جيفرسون" على ثورة هايتي والحروب البربرية؟

4- كيف وفر توسيع المجال العام فرصًا جديدة للنساء؟

5- كيف هددت قرارات "فرجينيا" و"كنتاكي" لعام 1798 استقرار الحكومة ومستقبل الجمهورية؟

6- تحدث "توماس جيفرسون" عن خلق "إمبراطورية الحرية". ما هي الإجراءات التي اتخذها لتحقيق هذا الهدف؟ وهل كانت النتيجة توسعًا عالميًا في الحرية؟

7- لماذا يشير المعاصرون إلى حرب عام 1812 باعتبارها الحرب الثانية للاستقلال؟ وهل كان هذا الاسم دقيقا؟

8- أي من الدول التالية شهد أكبر تغير في وضعه من خلال حرب عام 1812: بريطانيا العظمى، الولايات المتحدة، أو الأمريكيين الأصليين؟

أسئلة الحرية:

1- لماذا كان يعتقد "جيفرسون" أن خطة "هاملتون" المالية تدمر كلا من الحرية والجمهورية؟

2- اذكر المكونات الأساسية للحرية التي أقرتها الجمعيات الديمقراطية – الجمهورية. لماذا يرى الفيدراليون أن هذه المجتمعات والأفكار دليل على أن الحرية "خرجت عن السيطرة"؟

3- لماذا كان أنصار جيفرسون يعتبرون قوانين الغرباء والفتنة لعام 1798 على أنها اعتداءعلى الحرية بينما بررها مناصرو الفيدرالية كدفاع عن استقرار الجمهورية؟

4- نمت الفجوة بين المثل العليا للحرية الأمريكية ومؤسسة العبودية خلال الربع الأول من القرن الأول للجمهورية الأمريكية. اشرح كيف ولماذا، موضحًا بالأمثلة.

جدول المراجعة			
الانخراط العالمي المتنامي			
الحدث	التاريخ	القضية الوطنية	الرد
الثورة الفرنسية والحرب في أوربا	1815-1789	تأييد التحالف والذهاب للحرب أو الاستفادة اقتصاديا من خلال الحياد	إعلان الحياد
ثورة هاييتي	1804-1791	مخاوف متزايدة من تمرد العبيد	حجر تجارة العبيد مع هايتي
مصادرة بريطانية للسفن وإكراه الجنود على الخدمة العسكرية	1796-1793	الحرب أو السلام	معاهدة "جاي" والحفاظ على السلام حتى عام 1812
الحرب الغرب	1804-1801	استيلاء القراصنة على السفن واستعباد الأمريكيين وفرض دفع فدية مقابل تحريرهم	قضية الحرب البحرية ضد طرابلس

الفصل التاسع

1793	"ايلي ويتني" يخترع محلج القطن
1806	الكونجرس يوافق على تخصيص أرصدة مالية لإنشاء الطريق الوطني
1807	باخرة "روبرت فولتون" تبحر عبر نهر "هدسون"
1808	الكونجرس يلغي التجارة الدولية للعبيد
1819	معاهدة "آدمز – أونيس" مع إسبانيا
	قضية "كولدج دارتموث" ضد "ودوارد"
1824	قضية "جيبونز" ضد "اوجدن"
1825	افتتاح قناة "إيري"
1829	"ربة البيت المقتصدة" تأليف " ليديا ماريا تشايلد"
1831	"سيروس ماكورميك" يبتكر آلة الحصد
1837	"جون ديري" يبتكر المحراث الصلب
	بداية الكساد
	"العَالِم الأمريكي" تأليف "رالف والدو إيمرسون"
من العشرينيات إلى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر	الصحوة الكبرى الثانية
1844	وضع التلغراف للتشغيل التجاري
1845	"جون أوسوليفان" يصيغ عبارة "القدر الواضح"
1845 -1851	مجاعة البطاطس في إيرلندا
	مصنع الحياة كما هو
1854	كتاب "الحياة في الغابة" تأليف "هنري ديفيد ثورو"

ثورة السوق، 1800-1840

اقتصاد جديد

الطرق والبواخر

قناة إيري

السكك الحديدية والتلغراف

صعود الغرب

مملكة القطن

حركة غير الأحرار غربا

مجتمع السوق

المزارعون التجاريون

نمو المدن

نظام المصنع

العامل الصناعي

"الفتيات العاملات في المصانع"

نمو الهجرة

القادمون الجدد الأيرلنديون والألمان

صعود سياسة حماية مصالح المواطنين وتفضيلها على مصالح المهاجرين

تحول القانون

الفرد الحر

الغرب والحرية

أصحاب مذهب التسامي (الساميون)

المذهب الفردي

الصحوة الكبرى الثانية

تأثير الصحوة

حدود الازدهار

الحرية والرخاء

الأصل العرقي والفرصة

الولع بالحياة المنزلية العائلية

المرأة والعمل

حركة العمل المبكرة

"حرية الحياة"

أسئلة تركيز:

- ما هي العناصر الرئيسية لثورة السوق؟
- كيف أثارت ثورة السوق التغيير الاجتماعي؟
- كيف تغيرت معاني الحرية الأمريكية في هذه الفترة؟
- كيف أثرت ثورة السوق على حياة العمال والنساء والأمريكيين من أصل إفريقي؟

زار النبيل الفرنسي الماركيز "دي لافاييت" الولايات المتحدة في عام 1824 بعد خمسين عامًا تقريبا، منذ أن حارب في شبابه عندما كان في العشرين من عمره في صفوف "جورج واشنطن" في حرب الاستقلال. هذا وقد أصبحت آنذاك جولته، التي امتدت لثلاثة عشر شهرا، بمثابة يوبيل لنصر الحرية. كان لدى الأمريكيين سبب وجيه للاحتفال بزيارة "لافاييت" وحريتهم، حيث تضاعف عدد سكان الأمة بمقدار ثلاثة أضعاف إلى ما يقرب من 12 مليون نسمة، وتضاعفت مساحة الأرض أكثر من الضعف وازدهرت مؤسساتها السياسية منذ زيارته الأخيرة للولايات المتحدة في عام 1784. أظهرت جولة "لافاييت" كيف تغيرت الأمة بعمق، حيث نمت الثلاث عشرة ولاية التي كانت موجودة في عام 1784 إلى أربع وعشرين ولاية، وقد زار "لافاييت" كل من هذه الولايات- وهي الرحلة التي كانت شبه مستحيلة قبل أربعين عاما، حيث سافر لافاييت لأعلى حتى نهر المسيسبي وأوهايو بواسطة سفينة بخارية عبر الأنهار، وكانت السفينة البخارية اختراع حديث آنذاك أسهم في جلب التنمية الاقتصادية إلى غرب الأبلاش، وعبر شمال "نيويورك" عن طريق قناة إيري التي تمثل أطول ممر مائي من صنع الإنسان في العالم، والتي تربط المنطقة حول البحيرات العظمى مع ساحل المحيط الأطلسي عبر نهر هدسون.

كان الأمريكيون في النصف الأول من القرن التاسع عشر مغرمين بوصف الحرية باعتبارها السمة المميزة لدولتهم الجديدة والعبقرية المتفردة لمؤسساتهم. وقد وصف الشاعر "والت ويتمان" أبناء وطنه بأنهم "متعلقون تعلقًا أبديًا بالحرية." وأصبحت صورة بإله الحرية، وهي صورة مألوفة في المخيلة البصرية البريطانية في القرن الثامن عشر، أكثر شيوعًا في الولايات المتحدة وظهرت في اللوحات الفنية، والنحت، والفن الشعبي في مواضع عديده ابتداءً من ريشة المروحة إلى اللحاف واللافتات على الحانات. أعلن الرئيس "أندرو جاكسون" في خطاب وداعه في 1837، أنه لم "تستمتع أية مجموعة من السكان أبدًا بالحرية والسعادة بقدر ما فعل شعب الولايات المتحدة". حفلت الخطب وافتتاحيات الصحف والتصريحات السياسية في كل أنحاء البلاد بالاحتفال بالحرية. كتب المؤرخ والسياسي الفرنسي "الكسيس دي توكفيل" في كتابه " في الديمقراطية في أمريكا" عن "العبادة المقدسة للحرية"، التي وجدها في زيارته الخاصة إلى الولايات المتحدة في أوائل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وقال "ظل سكان الولايات المتحدة يرددون مرارًا وباستمرار لمدة خمسين عامًا أنهم الشعب الوحيد المتدين والمستنير والحر...، وأفكارهم عن أنفسهم سامية جدا، وليست بعيدة عن الاعتقاد بأنهم يشكلون جنس يختلف كثيرًا عن بقية الأجناس البشرية".

حتى مع الزيارات التي قامت بها شخصيات معروفة من خارج الولايات المتحدة مثل "لافاييت" و"توكفيل" والعديد غيرهم، إلا أن فهم الأمريكيين للحرية كان يتغير باستمرار. تسارعت

ثلاث من العمليات التاريخية التي أطلقتها الثورة بدرجة أكبر بعد حرب 1812، وهي انتشار علاقات السوق، وحركة السكان نحو الغرب، وصعود ديمقراطية سياسية قوية (سنناقش العمليتين الأوليتين في هذا الفصل بينما سنناقش العملية الثالثة في الفصل العاشر.)، وقد أثرت جميعها بقوة في تطور المجتمع الأمريكي، وساعدت أيضًا في إعادة تشكيل فكرة الحرية بحيث ربطتها أكثر من أي وقت مضى وبشكل وثيق بالفرص الاقتصادية، والحراك المادي، والمشاركة في نظام سياسي ديمقراطي حيوي.

ورغم ذلك، استمروجود العبودية يشكل الحرية الأمريكية، حتى أن "لافاييت" الذي كان قد اشترى مزرعة في جزر الهند الغربية وحرر العبيد بها كتب ذات مرة يقول: "ما كنت لأرفع سيفي في سبيل أمريكا، لو تصورت أنني بذلك أساهم في تأسيس أرض العبودية". بالرغم من ذلك، كانت العبودية تتحرك غربًا مع الجمهورية الفتيَّة، وكانت نفس السفن البخارية والقنوات التي مكنت الملايين من العائلات الزراعية في إرسال بضائعهم إلى السوق تساهم أيضًا في تسهيل نمو مزارع القطن القائمة على أساس العبودية في الجنوب، وقد رسمت العبودية حدودًا عنصرية حول الديمقراطية الأمريكية تجعل حقوق التصويت، وتولي المناصب العامة، والمشاركة في الحياة العامة امتيازات مقصورة على البيض فقط، حتى أنه ظهر في العديد من المدن الجنوبية إشعارات تحذر "الأشخاص الملونين" بالبقاء بعيدًا عن احتفالات تكريم "لافاييت". ظل التعايش بين الحرية والعبودية والتوسع في كليهما في نفس الوقت بمثابة التناقض الأساسي في الحياة الأمريكية بعد مرور نصف قرن من نيل الاستقلال.

اقتصاد جديد

شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر تحولاً اقتصاديًا معروفًا لدى المؤرخين باجتياح ثورة السوق لجميع أنحاء الولايات المتحدة مدفوعًا بسلسلة من الابتكارات في مجالات النقل والاتصالات. لم يطرأ تقريبًا على التكنولوجيا الأمريكية أي تغير يُذكَر خلال الحقبة الاستعمارية، حيث لم تحدث أي تعديلات هامة في السفن الشراعية ولم يتم إنشاء القنوات والترع الرئيسية؛ واستمر التصنيع اليدوي مع نقل هذه المهارات اليدوية من الحرفيين إلى عمال اليومية المهرة والمتدربين المبتدئين. كانت معظم الطرق في مطلع القرن التاسع عشر لا تزيد كثيرًا عن مجرد مسارات وعرة خلال الغابات؛ وبصرف النظر عن السفن الشراعية التي كانت تبحر باستمرار على ساحل المحيط الأطلسي والسفن التي تسير في اتجاه واحد في اتجاه مجارى الأنهار الرئيسية، واجهت التجارة داخل الدولة الجديدة حواجز لا يمكن تجاوزها، حيث كان نقل البضائع لمسافة ثلاثين ميلاً داخل الأراضي الأمريكية يكلف نفس تكلفة شحن نفس البضائع من إنجلترا إلى

أمريكا، وكان نقل البضائع من "سينسيناتي" إلى مدينة "نيويورك" بسفينة تسير في اتجاه مجرى نهر المسيسبي إلى "نيو أورلينز"، ثم برحلة أخرى بواسطة سفينة شراعية على طول سواحل الخليج والمحيط الأطلسي في عام 1800 يستغرق خمسين يوما.

تمثل ثورة السوق تسارعًا في التطورات التي كانت جارية بالفعل في الحقبة الاستعمارية؛ وكما ذكرنا في الفصول السابقة، كان المزارعون في الجنوب يسوِّقون منتجات عمال السخرة في السوق الدولية منذ القرن السابع عشر، ولكن مع حلول القرن الثامن عشر، تحول العديد من المستعمرين إلى الإمبراطورية التجارية البريطانية. كانت السلع الاستهلاكية مثل السكر والشاي، والتكتيكات الموجهة نحو السوق مثل مقاطعة البضائع البريطانية محورية في المعارك السياسية التي سبقت الاستقلال.

ورغم ذلك، وجد الأمريكيون أنفسهم مع انتقالهم عبر جبال الأبلاش وإلى المناطق الداخلية في الولايات على طول الساحل الأطلسي أنهم معزولون أكثر وأكثر عن الأسواق. أنتجت عائلات المزارعين الأمريكيين في عام 1800 في المنزل معظم ما يحتاجونه بدءًا من الملابس وحتى الأدوات الزراعية، وكانوا يحصلون على ما لا يمكنهم صنعه بأنفسهم من خلال المقايضة مع جيرانهم أو الشراء من المتاجر المحلية ومن الحرفيين الريفيين مثل الحدادين وصانعي الأحذية؛ وكان من المستحيل تقريبًا على المزارعين الذين لا يقيمون بالقرب من المدن أو من الممرات المائية الصالحة للملاحة تسويق منتجاتهم.

كانت السنوات الأولى من حياة "إبراهام لنكولن" مثالاً نمطيًا لأولئك الذين نشأوا في عالم ما قبل الأسواق. وُلِدَ "لينكولن" في كنتاكي في عام 1809 وانتقل مع عائلته بعد سبع سنوات إلى إنديانا حيث عاش هناك حتى عام 1831. كان والده يقوم أحيانًا بنقل لحم الخنزير إلى الجنوب عبر نهري "أوهايو" و"المسيسبي" لتسويقه في "نيو أورلينز"، وقد سافر "لينكولن" نفسه في سن التاسعة عشرة إلى تلك المدينة عبر سفينة ذات اتجاه واحد لبيع بضاعة أحد التجار المحليين؛ ومع ذلك، كانت عائلة "لينكولن" مكتفية ذاتيًا بشكل أساسي، حيث كانت تقوم بالصيد الذي كان يوفر معظم احتياجاتها من الطعام، وكانوا يخيطون معظم ملابسهم في المنزل، وكانوا يعتمدون قليلاً على المال النقدي؛ حيث كان والده يرسله في بعض الأحيان للعمل لدى الجيران كوسيلة لسداد الديون للجيران؛ ومع ذلك، تبنى "لينكولن" ثورة السوق عندما أصبح شابا، ورَوَّجَ بحماس في المجلس التشريعي في "إيلينوي" في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لإدخال تحسينات على الأنهار بغرض تسهيل الوصول إلى الأسواق، ثم مَثَّلَ كمحام شركة "إيلينوي للسكك الحديدية المركزية" التي افتتحت مجالات واسعة في "ايلينوي" للزراعة التجارية.

وقد كرس العديد من الأمريكيين طاقاتهم لحل المشاكل التكنولوجية التي كانت تعوق التجارة داخل البلاد. قضى "توماس باين" على سبيل المثال، الثمانينيات والتسعينيات من القرن الثامن عشر ليس فقط لتعزيز الديمقراطية في أمريكا وأوروبا، ولكن أيضًا لتطوير تصميم جسر حديدي حتى يمكن عبور الأنهار في جميع فصول السنة دون إعاقة حركة الملاحة النهرية.

الطرق والسفن البخارية

انتزعت السفن البخارية، والقنوات، والسكك الحديدية، والتلغراف أمريكا من اقتصادها القديم في تعاقب سريع في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث فتحت هذه الابتكارات الجديدة الأراضي للاستيطان وخفضت تكاليف النقل وجعلت من الأسهل بكثير على الشركات الاقتصادية بيع منتجاتها وربطت المزارعين بالأسواق الوطنية والعالمية وجعلتهم مستهلكين رئيسيين للسلع المصنعة، حتى أن "توكفيل" كتب قائلا "لقد أزال الأمريكيون حواجز المكان والزمان."

حدث أول تقدم في وسائل النقل البري من خلال بناء الطرق التي تقوم بتحصيل رسوم مقابل المرور بها أو ما يسمى "الطرق الرئيسية" من قبل المحليات والولايات والشركات الخاصة. منحت "نيو إنجلاند" والولايات الأطلسية الوسطى وحدها امتيازات لأكثر من 900 شركة خلال الفترة ما بين عامي 1800 و 1830 لبناء طرق جديدة، وسمح الكونجرس في عام 1806 بإنشاء الطريق الوطني المرصوف من "كمبرلاند" و"ميريلاند" إلى الشمال الغربي القديم، ووصل هذا الطريق إلى "هويلنج" على نهر "أوهايو" في عام 1818 وامتد ذلك الخط حيث انتهى إلى الينوي في عام 1838.

ونظرًا لأن تكاليف الصيانة كانت أعلى من المتوقع، وأن بلدات كثيرة قد بنت "طرقًا رئيسية- جانبية" لتجنب دفع الرسوم، مما جعل معظم الطرق الخاصة لا تحقق أي أرباح، وحتى على الطرق الجديدة، ظلت العربات التي تجرها الخيول وسيلة غير فعالة في نقل السلع إلى السوق، إلا لمسافات قصيرة؛ ولذلك يرجع الفضل في تحسين الملاحة عبر المياه في معظم الزيادة الكبيرة في السرعة وخفض نفقات التجارة.

"كان روبرت فولتون" ، وهو فنان ومهندس وُلِدَ في بنسلفانيا، قد جرَّب عدة تصميمات للسفن البخارية بينما كان يعيش في فرنسا خلال التسعينيات من القرن الثامن عشر، بل وأطلق بالفعل سفينة بخارية في نهر "السين" في "باريس" في عام 1803، ولكن سفينته "كليرمون" لم تبحر عبر نهر "هدسون" من مدينة "نيويورك" إلى "ألباني" حتى 1807 وأثبتت الجدوى التكنولوجية والتجارية للسفن البخارية. أدى الاختراع إلى أنه أصبح من الممكن التجارة نحو المنبع (أي السفر ضد

التيار) عبر الأنهار الرئيسية في البلاد، وكذلك النقل السريع عبر البحيرات العظمى وفي نهاية المطاف المحيط الأطلسي؛ وهكذا، تم إدخال أول باخرة بحلول عام 1811 عبر نهر "المسيسيبي" وجابت مياهه نحو 200 باخرة بعد عشرين عاما.

قناة "إيري"

كان الانتهاء من قناة "إيري" في عام 1825 عملاً هندسيًا فذا، لأنها امتدت بطول 363 ميلاً عبر ولاية نيويورك في حين كانت ثاني أكبر قناة أمريكية تبلغ ثمانية وعشرين ميلاً فقط. سمحت هذه القناة بتدفق السلع بين البحيرات العظمى ومدينة "نيويورك"، وجذبت على الفور تقريبًا تدفقًا من المزارعين المهاجرين من "نيو إنجلاند" وولدت مدن مثل "بافالو"، و"روتشستر"، و"سيراكيوز" على طول مسارها. كتب الروائي "ناثانيال هوثورن"، بعد قيامه برحلة عبر القناة، قائلا "تقوم مياهها "بالتسميد" المعجز "الذي يصنع منه الطوب والحجر، مما ساهم في تطور بناء المدن والكنائس والمسارح ومشروعات الأعمال. . .".

وقد تنبأ حاكم "نيويورك" "دويت كلينتون" الذي أشرف على بناء القناة التي تمولها الولاية، بأنها ستجعل مدينة "نيويورك" "صومعة العالم، ومركزًا للتجارة، ومقرًا الصناعات، ومحورًا للعمليات الجالبة للثراء"، وقد منحت القناة في الواقع مدينة "نيويورك" تفوقًا على الموانئ المنافسة في الوصول للتجارة مع الشمال الغربي القديم. كانت قناة إيري بمثابة نموذجًا لتطوير البنية التحتية للنقل في الولايات الأخرى، وذلك من خلال تمويلها من قبل حكومة الولاية، حيث إن القادة السياسيين الذين يهيمنون على الحكومة الاتحادية عادة ما يكونون معاديين لتمويل التحسينات الداخلية للولايات، ولذلك يقع العبء على الولايات ذاتها، فبينما أنفقت الحكومة الفيدرالية نحو 60 مليون دولار خلال الفترة ما بين عامي 1787 و 1860 في بناء الطرق والقنوات وتحسين الموانئ، أنفقت الولايات ما يقرب من عشرة أضعاف هذا المبلغ لنفس الفترة.

سجَّل الانتهاء من قناة "إيري" بداية التنافس بين الولايات الأخرى لمسايرة نجاح "نيويورك". اقترضت عدة ولايات الكثير من المال لتمويل برامج مفصلة لبناء وشق قناة، لدرجة أنهم أفلسوا أثناء الكساد الاقتصادي الذي بدأ في عام 1837، ولكن بعد أن كان قد تم بناء أكثر من 3.000 كيلومتر من القنوات بحلول ذلك الوقت، مما خلق شبكة تربط الولايات التي تقع على الأطلسي مع وديان "أوهايو" و"المسيسيبي" والحد من تكلفة النقل بصورة جذرية.

السكك الحديدية والتلغراف

ربطت القنوات بين المجاري المائية الموجودة؛ وفتحت خطوط السكك الحديدية مناطق واسعة جديدة للاستيطان في الأراضيَ الداخلية الأمريكية، مما حفَّز عمليات تعدين الفحم

للحصول على الوقود وصناعة الحديد لاستخدامه في تصنيع القاطرات والسكك الحديدية. بدأ عمل أول سكك حديدية تجارية في البلاد في عام 1828 في "بالتيمور" و"أوهايو"، وبعد خمس سنوات أصبحت "قناة وسكة حديد ساوث كارولينا بمثابة أول خط يسير لمسافات طويلة، حيث امتدت من "تشارلستون" إلى هامبورج مارا عبر الولاية. نمت شبكة السكك الحديدية إلى 30.000 كيلومتر بحلول عام 1860، أي أطول من مجموع خطوط السكك الحديدية في بقية دول العالم مجتمعة.

سمح التلغراف في الوقت نفسه بأن يكون الاتصال الفوري عبر جميع أنحاء البلاد ممكنا. اخترع "صموئيل ف. ب. مورس" الجهاز خلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وهو فنان وعالم هاو يعيش في مدينة "نيويورك"، ووضعه موضع التشغيل التجاري في عام 1844. اتاح هذا الجهاز عملية إرسال الرسائل من خلال استخدام إشارات "مورس" عبر الأسلاك الكهربائية مع تمثيل كل حرف ورقم بنمط معين من النبضات الكهربائية. تم مد حوالي 50.000 كيلومتر من أسلاك التلغراف في غضون ستة عشر عاما. كان التلغراف في البداية خدمة للأعمال والشركات، وخاصة الصحف، وليس خدمة للأفراد، وقد ساهم في تسريع تدفق المعلومات وفي توحيد الأسعار في جميع أنحاء البلاد.

صعود الغرب

أدى إدخال تحسينات في مجال النقل والاتصالات إلى أنه أصبح من الممكن ظهور الغرب كمنطقة قوية للأمة الجديدة ذات وعي ذاتي. عبر نحو 4.5 مليون شخص جبال الأبلاش خلال الفترة ما بين عامي 1790 و 1840 – بما يعادل أكثر من سكان الولايات المتحدة بأكملها عند افتتاح "واشنطن" لأول مرة. تمت معظم هذه الهجرة بعد نهاية حرب عام 1812 التي أطلقت العنان لطوفان كاسح من المستوطنين المتعطشين للأرض لينتقلوا من الولايات الشرقية. دخلت ستة ولايات في الاتحاد خلال الست سنوات التالية لانتهاء الحرب في عام 1815، وهي (إنديانا، ايلينوي وميسوري وألاباما، ميسيسبي ومين – تمثل الأخيرة الحدود الشرقية لنيو إنجلاند).

انتقل عدد قليل من الأمريكيين إلى الغرب في هجرات فردية رائدة. كان سفر الناس في مجموعات أكثر تواترًا من سفرهم فرادى، وبمجرد وصولهم إلى الغرب يتعاونون معًا لمسح الأراضي، وبناء المنازل، والحظائر، وإنشاء المجتمعات. تدفق تيار ثان من الهجرة يضم صغار المزارعين وأصحاب المزارع مع عبيدهم من الجنوب لإنشاء مملكة جديدة للقطن في "ألاباما"، و"مسيسبي"، و"لويزيانا"، و"أركنساس". عبر كثير من الأسر الزراعية من أعالي الجنوب إلى جنوب "أوهايو"، و"إنديانا"، و"إيلينوي". انتقل التيار الثالث من الهجرة من "نيو إنجلاند" عبر "نيويورك" إلى أعالي الشمال الغربي (أي شمال "أوهايو"، و"إنديانا"، و" وإيلينوي "، و"ميتشيجن" و"ويسكونسن".

أصبح بعض المهاجرين الغربيين "واضعي يد"، وأقاموا المزارع على الأراضي الغير مأهولة دون سند ملكية قانوني واضح، بينما اشترى البعض الآخر الأراضي إما من الحكومة الاتحادية بعد عام 1820 بسعر 125 دولارًا أمريكيًا للفدان تُدْفَع نقدا، أو من المضاربين في الأراضي بالائتمان طويل الأجل. بحلول عام 1840 وصل الاستيطان إلى نهر "المسيسيبي" وانضمت منطقتان واسعتان جديدتان، وانضم الشمال الغربي القديم والجنوب الغربي القديم للاتحاد. أصبح الغرب مقرًا للثقافات الإقليمية التي تشبه كثيرًا تلك الثقافات التي تركها المهاجرون وراءهم. أصبح شمال "نيويورك" وأعالي الشمال الغربي يشبها "نيو إنجلاند" بمدنها الصغيرة، وكنائسها، ومدارسها، في حين أن الجنوب الأدنى نسخ المجتمع القائم على المزارع في الولايات الواقعة جنوب الأطلسي.

وقد توسعت حدود البلاد مع تحرك السكان إلى الغرب. لم تؤثر الحدود الوطنية كثيرًا على التوسع الإقليمي في "فلوريدا"، وفيما بعد في "تكساس" و"أوريجون"، وهرع المستوطنون الأمريكيون للمطالبة بملكية الأرض التي تقع تحت سلطة الدول الأجنبية (إسبانيا، والمكسيك، وبريطانيا) أو تحت سلطة القبائل الهندية، حيث كان هؤلاء المستوطنون الأمريكيون على ثقة بأن السيادة الأمريكية سرعان ما ستلحق بهم. على الرغم من رغبة السكان المحليين في البقاء خارج الجمهورية الأمريكية، إلا أن هذا لم يردع التوسع الأمريكي في البلاد، فعلى سبيل المثال، سقطت "فلوريدا" في أيدي أمريكا على الرغم من المقاومة المحلية من جانب الهنود ورفض إسبانيا العروض الأمريكية لشراء المنطقة. تمرد السكان الأمريكيون في غرب "فلوريدا" في عام 1810 واستولوا على "باتون روج"، وسرعان ما ضمت الولايات المتحدة المنطقة إلى سيادتها. كان المحرك وراء الحصول على شرق "فلوريدا" هو رغبة مزارعي "جورجيا" و"الاباما" في القضاء على الملجأ الذي يفر إليه العبيد الهاربون وهنود "سيمينول" المعادين. قاد "أندرو جاكسون" القوات في المنطقة في عام 1818، وتسبب في أزمة دولية على أرض أجنبية بإعدامه تاجرين بريطانيين وعدد من زعماء القبائل الهندية؛ وعلى الرغم من أن "جاكسون" انسحب، إلا أن إسبانيا باعت المنطقة إلى الولايات المتحدة بموجب معاهدة "آدامز-أونيس" لعام 1819، وذلك لأنها كانت تدرك أنه لا يمكنها الدفاع عن هذه الأراضي.

وتروي إحصاءات السكان الرسمية المتعاقبة قصة رائعة من نمو الغرب الأمريكي، ففي عام 1840 الذي باعت فيه الحكومة للمستوطنين ولشركات الأراضي ما يقرب من 43 مليون فدان من الأراضي، كان قرابة 7 ملايين أمريكي يعيشون فيما وراء جبال الأبلاش (بما يعادل خمسي عدد السكان الإجمالي). نما عدد سكان "أوهايو" من 231.000 نسمة إلى أكثر من 900.000 نسمة خلال الفترة ما بين عامي 1810 و 1830، ووصل إلى ما يقرب من مليوني نسمة في عام 1850 واحتلت بذلك المرتبة الثالثة بين جميع الولايات. عكست مسيرة أبرز الشخصيات العامة في تلك الحقبة الحركة غربا، فعلى سبيل المثال، وُلِدَ كل من "أندرو جاكسون" و"هنري كلاي" والعديد من

رجال الدولة الآخرين في ولايات تمتد على طول الساحل الأطلسي ولكنهم حققوا نجاحاتهم وتركوا بصماتهم في عالم السياسة بعد انتقالهم غربا.

مملكة القطن

بالرغم من تزامن ثورة السوق والتوسع غربًا في الشمال والجنوب في وقت واحد، إلا أن آثارهما مجتمعين معًا، قد زادت من حدة الانقسامات القطاعية في البلاد. كان ظهور مملكة القطن هو الميزة الأكثر ديناميكية في الاقتصاد الأمريكي في السنوات الثلاثين الأولى من القرن التاسع عشر. تركزت الثورة الصناعية المبكرة التي بدأت في إنجلترا، وسرعان ما انتشرت إلى أجزاء في الشمال في مصانع غزل ونسج القطن التي تعمل بالآلات التي تسير بالطاقة المائية. ولَّدَت هذه المصانع طلب هائل على القطن الذي كان يجد بيئة مناسبة لنموه في أقصى الجنوب بصفة خاصة نظرًا لظروف المناخ وخصوبة التربة. اتسم تسويق القطن بالبطء حتى عام 1793، نتيجة لصعوبة مهمة حلج القطن (أي إزالة البذور من الثمرة) حتى شهد هذا العام قيام 'أيلي ويتني' خريج جامعة 'ييل' والذي كان يعمل في 'جورجيا' كمعلم خاص، باختراع محلج للقطن، وهو آلة بسيطة إلى حد ما تتكون من كرات وفُرَش وتقوم بفصل البذور من القطن بسرعة، مما جعل من الممكن زراعة وبيع القطن على نطاق واسع.

أدى اختراع 'ويتني' لمحلج القطن، وبالتالي زيادة الطلب على القطن وفتح أراض جديدة للاستيطان في الغرب، إلى عودة العبودية وازدهارها في أمريكا مرة أخرى على نحو غير مسبوق من التوسع لتوظيفها في زراعة القطن؛ بعد أن كان العديد من الأمريكيين يتوقع اندثارها لأن محصولها الرئيسي، التبغ، يستنفد التربة. انتشرت مزارع القطن في العقد الأول من القرن التاسع عشر في داخل ساوث كارولينا (المنطقة الداخلية من ساحل الأطلنطي الذي كان تهيمن عليه المزارع الصغيرة)، ولهذا السبب فتحت الولاية الباب مرة ثانية أمام تجارة الرقيق الإفريقي خلال الفترة ما بين عامي 1803 و 1808. تحركت الحكومة الاتحادية بعد حرب عام 1812 لتعزيز السيطرة الأمريكية على أقصى الجنوب وأجبرت الهنود المنهزمين على التنازل عن الأرض وشجعت استيطان البيض وحصلت على 'فلوريدا'. صاحب التوسع في السيادة الأمريكية التوسع في العبودية. تدفق المستوطنون من الولايات الجنوبية القديمة إلى هذه المنطقة واحتكر المزارعون أخصب الأراضي، في حين انحصر المزارعون الأكثر فقرًا عمومًا في المناطق الأقل إنتاجية والأكثر وعورة، حيث التلال المرتفعة والغابات الصنوبرية. بعد حظر الكونجرس لتجارة العبيد عبر الأطلسي في عام 1808، سمح الدستور باستئنافها ونشطت هذه التجارة على نطاق واسع في أنحاء الولايات المتحدة لتوفير القوى العاملة المطلوبة لمملكة القطن الجديدة.

الحركة غير الحرة نحو الغرب

يُقدِّر المؤرخون أنه تم نقل حوالي مليون من العبيد من الولايات الأقدم التي يكثر بها العبيد إلى أقصى الجنوب خلال الفترة ما بين عامي 1800 و 1860. سافر البعض مع مالكيهم إلى المزارع المنشأة حديثا، ولكن تم نقل الأغلبية بواسطة تجار الرقيق ليتم بيعهم في مزادات للعمل في حقول القطن. أصبحت تجارة الرقيق عملاً منظمًا بصورة جيدة من خلال شركات متخصصة في جمع العبيد في "ميريلاند"، و"فيرجينيا"، و"ساوث كارولينا" وشحنهم إلى الأسواق في "موبيل"، و"ناتشيز"، و"نيو أورليانز"، وأصبح من المألوف رؤية مجموعات العبيد المقيدين معًا بالسلاسل في مسيرات استعراضية إجبارية في الأسواق في أقصى الجنوب. قابل زائر بريطاني إلى الولايات المتحدة في الأربعينيات من القرن التاسع عشر ما وصفه بقوله إنه "عرض بشع ومثير للاشمئزاز لصف من حوالي مئتين من العبيد مقيدين بالسلاسل معًا وهم " يسيرون من "فرجينيا" إلى "لويزيانا"؛ وبالرغم من أن حرية الحركة غربًا كانت مصدرًا لمزيد من الحرية للعديد من البيض، إلا أنها كانت من ناحية أخرى تعني بالنسبة للأمريكيين الأفارقة تدميرًا للروابط الأسرية وتفكك المجتمعات المستقرة منذ فترة طويلة وانحسار فرص الحرية.

عندما صمم "ويتني" اختراعه في عام 1793، كانت الولايات المتحدة تنتج قرابة 5 ملايين رطل من القطن، ونمى المحصول بحلول عام 1820 إلى ما يقرب من 170 مليون رطل. كان "توماس جيفرسون" يرى أن الطلب الأوروبي على الحبوب الأمريكية من شأنها أن يدعم النمو الاقتصادي للأمة واستقلالية المزارع الصغيرة، ولكن مع توسع الاقتصاد الجنوبي نحو الغرب، تم إنتاج القطن – وليست الحبوب في مزارع العبيد- بينما كان صغار المزارعين الأقوياء يزرعون الحبوب، وبالتالي أصبح القطن محور التنمية في الجنوب وأهم صادرات إمبراطورية الحرية.

مجتمع السوق

نظرًا لأنه كان يتم إنتاج القطن لأغراض البيع فقط في الأسواق الوطنية والدولية، لذلك كان الجنوب أكثر منطقة في الولايات المتحدة تتخذ اتجاهًا تجاريا، ولكن بدلاً من أن يؤدي توسع الجنوب نحو الغرب إلى تحفيز التغيير الاقتصادي، استنسخ نفس النظام الاجتماعي الزراعي القائم على العبودية والذي كان سائدًا في الولايات الأقدم؛ وظلت المنطقة ذات أغلبية ريفية ساحقة، بحيث كان يعمل ما يقرب من 80 في المائة من الجنوبيين في الأرض في عام 1860، وهي نفس النسبة في عام 1800. ظلت نظم النقل والنظم المصرفية في الجنوب ملحقة باقتصاد المزارع، الذي يهدف إلى حد كبير إلى نقل القطن والمحاصيل الأساسية الأخرى للأسواق ولتمويل شراء الأراضي والعبيد.

المزارعون التجاريون

أدت ثورة السوق والتوسع غربًا بالرغم من ذلك إلى إحداث تغيرات في الشمال، مما حوَّل المنطقة إلى اقتصاد متكامل من المزارعين التجاريين والمدن الصناعية. كما في حالة أسرة "لينكولن"، عززت المرحلة الرائدة الأولية من الاستيطان مزارع الاكتفاء الذاتي، حيث كانت كل أسرة تكتفي ذاتيًا في مهام قطع الأشجار، وبناء الأكواخ، وتمشيط التربة والزراعة بغرض تغذية الأسرة مما ترك القليل من الوقت للزراعة الموجهة إلى السوق، ولكن عندما أصبح الشمال الغربي القديم مجتمعًا أكثر استقرارًا يرتبط بالمراكز الشرقية للتجارة والأعمال المصرفية بشبكة من النقل والائتمان، وجد المزارعون أنفسهم منجذبين نحو اقتصاد السوق الجديد مما جعلهم يركزون بشكل متزايد على زراعة المحاصيل وتربية المواشي لأغراض البيع في حين يشترون البضائع من المتاجر بعد أن كانوا ينتجونها في المنزل.

وجد المزارعون الغربيون في المدن المتنامية في الشرق سوقًا كبيرًا لمنتجاتهم ومصدرًا للائتمان. ساعدت القروض من البنوك وشركات التأمين الشرقية على تمويل شراء الأراضي، والتجهيزات، واللوازم، كما ساعدت في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين على تمويل شراء السماد والآلات الزراعية الجديدة لزيادة الإنتاج. أصبح من الممكن إخضاع البراري الغربية للزراعة بعد اختراع "جون دير" للمحراث الصلب في عام1837 وتصنيعه على نطاق ضخم في الخمسينيات من القرن التاسع عشر. اخترع "سيروس ماكورميك" آلة الحصد التي تجرها الخيول في عام 1831 وقام بتصنيعها على نطاق واسع بعد ذلك بقليل، وقد ساهمت هذه الآلة في زيادة كمية القمح التي يستطيع المزارع حصدها بشكل كبير، وقد تم استخدام عشرات الآلاف منها عشية الحرب الأهلية، وقد تضاعف إنتاج أمريكا من القمح ثلاثة أضعاف حجمه تقريبًا خلال الفترة ما بين عامي بين 1840 و 1860؛ وعلى عكس القطن، كان الجزء الأكبر من المحصول يتم استهلاكه داخل الدولة رغم ذلك؛ ونظرًا لأن المزارعين الشرقيين كانوا غير قادرين على زراعة القمح والذرة بنفس ثمن نظرائهم الغربيين، لذلك ركزوا بشكل متزايد على إنتاج منتجات الألبان، والفواكه، والخضار للمراكز الحضرية القريبة.

نمو المدن

شكلت المدن من البداية جزءًا من الحدود الغربية. شهدت المدن الغربية التي تقع عند ملتقى طرق التجارة بين الأقاليم نموًا استثنائيا، مثل "سينسيناتي" و"سانت لويس". كانت "سينسيناتي" تُعرَف باسم "مدينة الخنزير"، نسبة إلى مجازر الخنازير بها، حيث كان يتم ذبح آلاف الخنازير كل عام وتجهيزها للشحن إلى مستهلكي اللحوم في شرق الولايات المتحدة. كانت "شيكاغو" هي أعظم جميع المدن

الغربية، وكانت في أوائل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر مستوطنة صغيرة على شاطئ بحيرة "ميتشجن"، ولكنها أصبحت رابع أكبر مدينة أمريكية بحلول عام 1860، وذلك بفضل السكك الحديدية، حيث كان يتم جمع المنتجات الزراعية من كل أنحاء الشمال الغربي لإرسالها شرقا.

مثل المناطق الريفية، شهدت المراكز الحضرية أيضًا تغيرات مثيرة نتيجة لثورة السوق، حيث ارتفع عدد المدن التي يتجاوز عدد سكانها 5.000 نسمة من 12 مدينة في عام 1820 إلى حوالي 150 مدينة بعد ثلاثة عقود زمنية، ووصل عدد السكان في المناطق الحضرية بعد هذه المدة الزمنية إلى أكثر من 6 ملايين نسمة. استفاد التجار والمصرفيون والحرفيون في المناطق الحضرية من الفرص الاقتصادية التي خلقها توسع السوق بين المزارعين التجاريين. حفَّزت رغبة رجال الأعمال هؤلاء في زيادة الإنتاج وتقليل تكلفة العمالة بشكل أساسي إلى تغيير طبيعة العمل. كان الحرفيون المهرة يقومون بتصنيع السلع في المنزل في ظل الإنتاج التقليدي، حيث يسيطرون على وتيرة وكثافة العمل الخاصة بهم، أما الآن فيقوم رجال الأعمال بجمع الحرفيين في ورش عمل واسعة من أجل الإشراف على عملهم وتقسيم مهامهم. ورأى الحرفيون الذين كانوا ينتجون في ظل الإنتاج التقليدي أزواجًا كاملة من الأحذية أو قطع من الأثاث أنه طريقة العمل قد تم تقسيمها إلى العديد من الخطوات التي تتطلب مهارات وتدريب أقل بكثير في ظل التخصص، ووجدوا أنفسهم خاضعين للإشراف الدائم من قبل أصحاب العمل والضغط بلا رحمة لزيادة الإنتاج وخفض الأجور.

نظام المصنع

حل المصنع تمامًا محل الإنتاج الحرفي التقليدي في بعض الصناعات، وخاصة المنسوجات. كانت المصانع تضم مجموعات كبيرة من العمال تحت إشراف مركزي وحلت الآلات التي تحركها الطاقة الكهربائية محل الأدوات اليدوية. أنشأ "صموئيل سلاتر" المهاجر الإنجليزي أول مصنع أمريكي في عام 1790 في "بوتكيت" في "رود آيلاند"؛ ونظرًا لأن القانون البريطاني كان يحظر تصدير تصميمات الآلات الصناعية، بنى "سلاتر" الميكانيكي الماهر من صميم الذاكرة محلج الغزل الذي يعمل بطاقة الكهرباء، وهو يعتبر أحد الاختراعات الرئيسية في بداية الثورة الصناعية.

كانت مصانع الغزل، مثل مصنع "سلاتر"، تنتج الخيط المغزول الذي كان يتم إرساله آنذاك إلى النساجين اليدويين التقليديين والأسر الزراعية لكي يتم نسجه إلى قماش. ميَّز هذا النظام القائم على "العمل في المنزل" بدايات عصر التصنيع، وفيه يحصل الرجال والنساء الريفيين على المال عن طريق العمل في المصانع؛ على سبيل المثال، كان قبل تحويل صناعة الأحذية إلى الإنتاج الآلي بشكل كامل يتم إنتاج الأجزاء المختلفة للأحذية في المصانع، ثم يتم تجميعها معًا في المنازل

المجاورة ثم تُعاد إلى المصانع مرة أخرى من أجل تشطيبها؛ ومع ذلك، كان يتم في نهاية المطاف إتمام عملية التصنيع كلها للمنسوجات والأحذية والعديد غيرهما من المنتجات تحت سقف مصنع واحد.

وقد حفَّز حظر الواردات البريطانية لعام 1807 وحرب عام 1812 إلى إقامة أول مصنع ضخم في الولايات المتحدة باستخدام الكهرباء لنسج الأقمشة القطنية؛ وبالفعل، تم تشييد هذا المصنع في عام 1814 في "والثام بماساتشوستس" من قبل مجموعة من التجار الذين أطلق عليهم لاحقًا شركاء "بوسطن"، ثم قاموا بتوسيع شركتهم في العشرينيات من القرن التاسع عشر بإنشاء مدينة صناعية كاملة (عرفت باسم مدينة "لويل" في عام 1836) على نهر "ميريماك"، على بعد سبعة وعشرين ميلاً من "بوسطن"، حيث بنوا مجموعة من مصانع النسيج الحديثة التي جمعت كل مراحل الإنتاج من غزل الخيوط إلى نسجها ثم تشطيب القماش، ووصلت القوى العاملة بمصانع "لويل" الاثنين والخمسين إلى أكثر من 10.000 عامل بحلول عام 1850. ظهرت مدن صناعية صغيرة عبر "نيو إنجلاند" على غرار "لويل"، وسرعان ما أصبحت ماساتشوستس ثاني أكبر منطقة صناعية في العالم بعد بريطانيا العظمى.

كانت المصانع الأولى، بما في ذلك تلك التي توجد في "بوتكيت"، و"الثايم"، و"لويل"، تقع على طول "خط الانحدار المائي"، حيث يمكن تسخير الشلالات والمنحدرات النهرية لتوفير الطاقة لآلات الغزل والنسج. أدى ظهور قوة البخار بحلول الأربعينيات من القرن التاسع عشر إلى أنه أصبح من الممكن إنشاء مصانع في مدن مثل "نيو بدفورد" الأقرب إلى الساحل، وفي مدن كبيرة مثل "فيلادلفيا"، و"شيكاغو" نظرًا لتوافر أسواقهم المحلية الضخمة. تنوَّع إنتاج الشركات الصناعية في عام 1850 حيث لم تعد تقتصر على الغزل والنسيج ولكن مجموعة واسعة من السلع الأخرى، بما في ذلك الأدوات، والأسلحة النارية، والأحذية، والساعات، والمشغولات الحديدية، والآلات الزراعية. اعتمد ما أصبح يسمى "النظام الأمريكي للصناعات" على تصنيع كميات كبيرة من الأجزاء القابلة للتبديل التي يمكن تجميعها بسرعة إلى منتجات موحدة تامة الصنع؛ وكان أول من أتقن هذه التقنية هما "إيلي تيري" في صناعة الساعات، وهو حرفي في "كونيتيكت"، و"ايلي ويتني" في تصنيع الأسلحة الصغيرة، وهو الذي كان قد اخترع محلج القطن سابقا؛ غير أن الأمر الأكثر إثارة للإعجاب من إنتاج المصنع كان يتمثل في الانتشار الواسع في المهارات الميكانيكية في أنحاء المجتمع الشمالي، حيث بدا أن كل بلدة كان بها مصانع للمناشير، والورق، وأعمال الحديد، والأحذية، والقبعات، والملابس الجاهزة، ومجموعة أخرى من هذه المشروعات الصغيرة.

اقتصرت الثورة الصناعية إلى حد كبير في بدايتها على "نيو إنجلاند" وعدد قليل من المدن

خارجها؛ ويرجع تخلف الجنوب في الإنتاج الصناعي إلى افتقاره لسوق داخلية قوية ولمعارضة طبقة مالكي العبيد عمومًا للتنمية الصناعية. كان التصنيع في الشمال خارج "نيو إنجلاند" يتم في الغالب في مؤسسات صغيرة الحجم، وليس في مصانع، ولا تتجاوز العمالة فيها حفنة من العمال. كان أكثر العمال في "سينسيناتي"، على سبيل المثال، في عام 1850 يعملون في ورش يدوية صغيرة غير مميكنة.

العامل الصناعي

ساعدت ثورة السوق على تغيير فكرة الأمريكيين عن مفهوم الوقت نفسه. استمر تنظيم حياة المزرعة على أساس إيقاع المواسم الزراعية؛ وعلى العكس من ذلك، أصبحت الساعات جزءًا من الحياة اليومية في المدن وبدأ الفصل بوضوح بين وقت العمل ووقت الفراغ. تناوبت ورش الحرفيين في الحقبة الاستعمارية والمراحل الأولى من التاريخ الوطني من العمل المكثف مع فترات لقضاء أوقات الفراغ، حيث يترك الحرفيون معداتهم وأدواتهم للتمتع بمشروب في حانة أو لحضور ندوة للتناظر السياسي؛ ومع تسارع ثورة السوق حدد أصحاب الأعمال في المصانع والورش وحتى في المنازل ساعات محددة لعمل العمال في اليوم الواحد في المصانع والموظفين بالخدمة في منازل الأمريكيين. كان يطلق على أجور الحرفيين في أمريكا الاستعمارية اسم "الثمن"، نظرًا لأنه كان مرتبطًا بالسلع التي ينتجها، أما في القرن التاسع عشر، فقد أصبح يطلق عليه على نحو متزايد اسم "الأجور"، وكان يُدفع على أساس معدل يومي أو لكل ساعة. أدى زيادة الاعتماد على السكك الحديدية، التي تعمل وفقًا لجداول زمنية ثابتة، إلى أن أصبح الأمريكيون أكثر وعيًا بتنظيم حياتهم "على مدار الساعة."

بدا أن العمل على آلة لفترة طويلة تحت المراقبة الوثيقة بمثابة انتهاك للاستقلالية التي يعتبرها الأمريكيون عنصرًا أساسيًا للحرية، وبالتالي لم يجذب العمل في المصانع الأولى إلا عدد قليل من الرجال المولودين في الولايات المتحدة، مما جعل أصحاب العمل يتجهون إلى العمالة من هؤلاء الذين يفتقرون إلى وسائل أخرى لكسب لقمة العيش.

الفتيات العاملات في المصانع

في حين أن بعض المصانع كانت تقوم بتوظيف عائلات بأكملها، اعتمدت مصانع النسيج الأولى في "نيو إنجلاند" إلى حد كبير على القوى العاملة من النساء وعلى الأطفال، حيث شكّلت النساء الشابات الغير متزوجات من الأسر الزراعية الأمريكية غالبية القوى العاملة على آلات الغزل بمصانع النسيج في "لويل"، التي تمثل الأكثر شهرة بين مراكز صناعة النسيج الأولى؛ ولإقناع الآباء بالسماح لبناتهم بترك المنزل للعمل في المصانع، أقام أصحاب المصانع منازل للمبيت ذات

قواعد صارمة في تنظيم السلوك الشخصي، وأنشأوا أيضًا قاعات لتلقي المحاضرات والندوات، والكنائس، ومجلة دورية يحررها عمال المصانع تحت اسم "عروض لويل" لشغل وقت الفراغ لدى النساء العاملات.

بدا الإشراف المستمر على الحياة الخاصة للعمال تقييدًا لا يمكن تحمله من منظور حديث، ولكن كانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي تترك فيها أعدادًا كبيرةً من النساء منازلهن للمشاركة في العالم الخارجي؛ وقد لاقى ذلك إعجاب الكثير من النساء باعتبارها فرصة لكسب المال بشكل مستقل في الوقت الذي كانت هناك القليل من الوظائف الأخرى المتاحة أمام النساء. ذكرت "لوسي لاركوم" بعد فترة من العمل خارج المنزل قائلة "الحياة المنزلية عالم ضيق ومنحصر، في حين أن العيش والعمل في المصانع في "لويل" يعطى المرأة فكرة أكبر وأكثر تأكيدًا لأنوثتها، ويعلمها الخروج من إطار ذواتها والدخول في حياة الآخرين. . . . إنه يشبه فرحة الشاب بإنشاء مشروع خاص به"؛ ومع ذلك، لم تصبح النساء مثل "لاركوم" فئة دائمة من عمال المصانع، حيث عادة ما كن يبقين في المصانع لعدد قليل فقط من السنوات، ثم يتركنها بعدها للعودة إلى المنزل للزواج أو للانتقال نحو الغرب، وقد هاجرت "لاركوم" بالفعل إلى ولاية إيلينوي حيث أصبحت معلمة وكاتبة. استمر النقص في العمالة الصناعية، ولم تخف حدة هذه الأزمة إلا عندما بدأت موجات الهجرة الكبيرة في الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر.

نمو الهجرة

خلق التوسع الاقتصادي مزيدًا من الطلب على العمالة الذي كان يتم الوفاء به بصورة جزئية من خلال الهجرة المتزايدة من الخارج. ولم يساهم المهاجرون إلا بشكل هامشي فقط في النمو السكاني الأمريكي في الفترة ما بين عامي 1790 و 1830، ولكن هاجر أكثر من 4 ملايين شخص إلى الولايات المتحدة في الفترة ما بين 1840 و 1860 (بما يعادل أكثر من إجمالي عدد السكان بالولايات المتحدة في عام 1790)، وكان أغلبهم من أيرلندا وألمانيا. اتجه نحو 90 في المائة منهم إلى الولايات الشمالية، حيث كانت فرص العمل أكثر وفرة وحيث لا يتنافس القادمون الجدد مع العاملين بنظام عقود الخدمة بمدة. كان المهاجرون قليلين جدًا أو غير معروفين تقريبًا في ولايات الرقيق، باستثناء المدن الواقعة على الحدود الجنوبية مثل "نيو أورليانز" و"سانت لويس" و"بالتيمور"؛ وعلى العكس من ذلك، أصبح وجودهم واضحًا في كل من المناطق الحضرية والمناطق الريفية في الشمال. بلغ عدد سكان مدينة نيويورك، التي تعتبر الميناء الرئيسي لدخول المهاجرين 814.000 نسمة في عام 1860، وشملوا أكثر من 384.000 من المهاجرين، وكان ثلث سكان ويسكونسن ممن ولدوا في الخارج.

وقد سببت عوامل كثيرة هذا التدفق الهائل من الناس عبر الأطلسي؛ كما أدى تحديث الزراعة والثورة الصناعية في أوروبا إلى تعطيل أنماط الحياة التي امتدت لقرون، مما أدى إلى طرد الفلاحين بعيدًا عن أراضيهم وقضى على وظائف عمال الحرف التقليدية. أصبح السفر لمسافات طويلة عمليًا أكثر نتيجة لإدخال البواخر التي ترتاد المحيط والسكك الحديدية، وبدأ خط "كونارد" في الإبحار بانتظام وبأسعار غير مكلفة من بريطانيا إلى "بوسطن" ومدينة "نيويورك" في الأربعينيات من القرن التاسع عشر. ولم تتسارع الهجرة من أوروبا ليس فقط إلى الولايات المتحدة، ولكن أيضًا إلى كندا وأستراليا بداية من عام 1840؛ وكثيرًا ما كان أحد أفراد الأسرة الذكور يهاجر أولاً ثم يرسل في وقت لاحق المال لبقية أفراد الأسرة ليلحقوا به في بلاد المهجر.

المهاجرون الجدد الأيرلنديون والألمان

كتبت صحيفة "نيويورك تايمز" تعليقًا جاء فيه "ترد على أذهان جميع المستائين في أوروبا أفكار العالم الجديد الحر، حيث جذبت الحريات السياسية والدينية في أمريكا أحلام الأوروبيين الذين يرزحون تحت نير الحكومات القمعية والتسلسلات الهرمية الاجتماعية الصارمة بالقارة، بما في ذلك اللاجئون السياسيون بعد الثورات التي فشلت في عام 1848، مما جعل أحد الوافدين الألمان الجدد يعلق قائلا "ليس هناك في أمريكا أي سادة وعبيد، بل الكل هنا أحرار".

وكان أكبر عدد من المهاجرين، مع ذلك، من الرجال والنساء الأيرلنديون الفارون من المجاعة الكبرى خلال الفترة ما بين عامي 1845–1851، عندما دمرت آفة زراعية محصول البطاطس الذي تعتمد عليه الجزيرة في غذائها. أسفرت هذه المجاعة عن موت حوالي مليون شخص جوعًا وهجرة مليون آخر خلال تلك الفترة، معظمهم إلى الولايات المتحدة؛ ونظرًا لأن هؤلاء المهاجرين يفتقرون إلى المهارات ورأس المال الصناعي، لذلك اضطر هؤلاء العمال الزراعيين وصغار المزارعين الفقراء إلى العمل في الوظائف ذات الأجور المنخفضة التي لا تتطلب مهارات كبيرة والتي يسعى الأمريكيون المولودون في الولايات المتحدة إلى تجنبها، حيث بنى المهاجرون الأيرلنديون الرجال السكك الحديدية وحفروا القنوات، وعملوا كعمال عاديين وخدم وعمال شحن وتفريغ وعمال تشغيل في المصانع، في حين عملت المرأة الأيرلندية في كثير من الأحيان كخادمة في منازل الأمريكيين المولودين في الولايات المتحدة، على الرغم من أن بعضهن كن يفضلن العمل في المصانع على العمل في الخدمة بالمنازل؛ وقد علقت إحدى النساء الأيرلنديات قائلة "ما نبحث عنه بعد يوم عمل شاق هو الحرية"، وكانت ساعات عمل الخادمات طويلة كما ذكرت إحداهن قائلة "يمتد يوم عملنا إلى عشر ساعات طويلة ولكن عندما تنتهي لا نستطيع عمل أي شيء آخر حيث نكون مرهقات جداً"؛ وعلى الرغم من ذلك كان يتعين على

الخادمات أن يبقين تحت الطلب في أي وقت، وبحلول نهاية الخمسينيات من القرن التاسع عشر، قامت مصانع النسيج "لويل" بإحلال الكثير من العاملات الأمريكيات في المزارع بالأسر الأيرلندية المهاجرة. ظل أربعة أخماس المهاجرين الأيرلنديين في الشمال الشرقي، حيث تجمعوا في معازل حضرية اليهودية المكتظة بالسكان سيئة السمعة، وتعاني من الفقر والجريمة والمرض في المناطق الحضرية في "بوسطن" و"نيويورك" والمدن الصناعية الأصغر.

كانت أكبر ثاني مجموعات المهاجرين من الألمان، وشملت عددًا أكبر إلى حد كبير من الحرفيين المهرة الايرلنديين أيضا. استقر الألمان أيضًا في أحياء متماسكة بإحكام في المدن الشرقية، ولكن كان العديد منهم قادرًا على الانتقال إلى الغرب حيث رَسَّخوا وضعهم كحرفيين وأصحاب محال تجارية ومزارعين؛ وأحيانًا ما كان يطلق على مدن "سينسيناتي" و"سانت لويس" و"ميلووكي" اسم "المثلث الألماني"، حيث جذبت جميعها أعدادًا كبيرة من السكان الألمان، وحيثما تستقر أعداد واسعة من الألمان، سرعان ما يشرعون في تطوير ثقافة ألمانية حولهم تقوم على أساس اللغة الألمانية الحية، ومدارسهم، وصحفهم، وجمعياتهم، وكنائسهم الخاصة بهم، حتى أن أحد الأشخاص علّق قائلا "كل شيء هنا تقريبًا ألماني" عندما سار في حي يطلق عليه اسم "بوري" التي تعني بالألمانية مزرعة في منطقة بنيويورك معروفة باسم "كلايند يتشسكلاند" وهي تعني (ألمانيا الصغيرة).

هاجر حوالي 40.000 من مواطني الدول الاسكندنافية إلى الولايات المتحدة خلال هذه السنوات، واستقر معظمهم في المزارع في المنطقة القديمة بالشمال الغربي. أدى التوسع المستمر في الصناعة وفشل حركة "شرتيست"، التي سعت إلى دمقرطة نظام الحكم في بريطانيا في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، إلى تشجيع العديد من العمال الإنجليز على الهجرة إلى الولايات المتحدة.

ظهور سياسة حماية مصالح المواطنين ضد مصالح المهاجرين

تم استيعاب المهاجرين من إنجلترا (الذين ضموا بين صفوفهم الممثل جونيوس بروتوس بوث والد جون ويلكس بوث) بسهولة، ولكن المهاجرين من إيرلندا واجهوا عداءً شديدًا نظرًا لاعتناقهم الكاثوليكية الرومانية بينما المجتمع الأمريكي ذا أكثرية بروتستانتية، ومازال يسوده تقليد "العداء للبابوية. أدى تدفق الأيرلنديين إلى تعزيز رؤية وسلطة الكنيسة الكاثوليكية إلى حد كبير في معظم أنحاء البلاد عن ذي قبل. نجح رئيس الأساقفة بمدينة نيويورك "جون هيوز" خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر في جعل الكنيسة تؤكد ذاتها أكثر كمؤسسة، وضغط على الآباء الكاثوليك لإرسال أبنائهم إلى شبكة من مدارس الأبرشيات التي كانت تتوسع بشكل متزايد، وسعى للحصول على التمويل الحكومي لهم، وحاول بقوة لتحويل البروتستانت إلى كاثوليك.

تعايشت فكرة الولايات المتحدة كملاذ آمن لأولئك الذين يبحثون عن الفرصة الاقتصادية أو كملجأ من القمع مع فكرة الشك والعداء نحو القادمين الأجانب الجدد. شهد التاريخ الأمريكي فترات من القلق الشديد حول الهجرة. عكس "قانون الأجانب" لعام 1798 الخوف من المهاجرين ذوي التوجهات السياسية المتطرفة؛ وكما سنناقش بعد، كان هناك عداء على نطاق واسع في أوائل القرن العشرين "للهجرة الجديدة" من جنوب وشرق أوروبا، ومازالت قضية كم عدد الأشخاص الذين يجب السماح بدخولهم الولايات المتحدة وتحت أي ظرف من الظروف موضوعًا سياسيًا متغيرًا حتى أوائل القرن الحادي والعشرين.

وقد أثار التدفق الأيرلندي في الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر قلق العديد من الأمريكيين المولودين في أمريكا؛ ويُطْلَقْ على أولئك الذين يخشون من تأثير الهجرة على الحياة السياسية والاجتماعية الأمريكية اسم "حماة المواطنين ضد المهاجرين"، وكانوا يلقون باللوم على المهاجرين في جرائم المناطق الحضرية، والفساد السياسي، والولع بالخمور؛ واتهموهم بالإضرار بمصالح العمال المواطنين المهرة، لأنهم يقبلون أجور الكفاف. وقد شارك الأيرلنديون بسرعة في الجهاز السياسي الحضري للحزب الديمقراطي الذي كان رئيسه المحلي يقدم وظائف ومعونات الفقر للقادمين المكافحين الجدد. كان "حماة المواطنين ضد المهاجرين" يرون أن الأيرلنديين يشكلون تهديدًا للمؤسسات الديمقراطية، والإصلاح الاجتماعي، والتعليم العام لأنهم ليسوا على دراية بالمفاهيم الأمريكية للحرية، ولأنهم أتباع الكنيسة الكاثوليكية. وانتشرت ضد الأيرلنديين صور نمطية مشابهة لتلك التي استهدفت السود، حيث كانت تصفهم على سبيل المثال بأنهم مثل الأطفال، وكسولون، وعبيد لأهوائهم وعواطفهم، وكان يقال إنهم غير مؤهلين للحرية الجمهورية.

وكما سنرى في الفصل الثالث عشر، لم تصبح "حماية المواطنين ضد المهاجرين" حركة سياسية وطنية حتى الخمسينيات من القرن التاسع عشر. شهدت مدينة "نيويورك" و"فيلادلفيا" في الأربعينيات من القرن التاسع عشر أحداث شغب عنيفة معادية للمهاجرين؛ ونظرًا لأن هذه الحركة جذبت في الأساس العمال المهرة المولودين في أمريكا، والذين كانوا يخشون أن يستولى المهاجرون على وظائفهم ويخفضوا الأجور، لذلك فاز مرشح الحركة رئيسًا لبلدية مدينة نيويورك في عام 1844.

تحول القانون

دعم القانون الأمريكي على نحو متزايد جهود رجال الأعمال للمشاركة في ثورة السوق بينما يحميهم من تدخل الحكومات المحلية، ومن المسئولية عن بعض نتائج النمو الاقتصادي الغير مرغوب فيها بدرجة كبيرة. أصبح شكل الشركات الكبرى أساسيًا في تنظيم الأعمال التجارية في

اقتصاد السوق الجديد. كانت تتمتع الشركات الكبرى بامتيازات وصلاحيات خاصة ممنوحة بموجب امتياز من الحكومة، من بينها أن المستثمرين والمديرين ليسوا مسئولين شخصيًا عن ديون الشركة، وذلك على خلاف الشركات التي يملكها فرد واحد أو أسرة أو شراكة محدودة، وبعبارة أخرى، يمكن للشركة أن تفشل دون تدمير مديرها والمساهمين فيها؛ لذلك كانت الشركات قادرة على رفع رأس المال أكثر بكثير من الأشكال التقليدية للشركات. استبدلت العديد من الولايات بحلول الثلاثينيات من القرن التاسع عشر منح الامتيازات بموجب قوانين تشريعية معينة "بقوانين عامة لتأسيس الشركات"، وتسمح لأي شركه الحصول على امتياز بشركة في مقابل رسوم محددة.

لم يكن كثيرون من الأمريكيين يثقون في براءات الشركات باعتبارها شكلاً من أشكال الامتيازات الخاصة التي تمنحها الحكومة، ولكن المحاكم أيدت صحتها في حين عارضت الجهود التي تبذلها الشركات القائمة للحد من منافسة الوافدين الجدد. هذا وقد عَرَّفَ القاضي جون مارشال بالمحكمة العليا في قضية (كوليدج دارتموث ضد وودوارد لعام 1819) براءات الشركات الصادرة عن المجالس التشريعية بالدولة بأنها عقود لا يستطيع جميع المشرعين في المستقبل تغييرها أو إلغاءها. ألغت المحكمة العليا بعد خمس سنوات في قضية "جيبونز ضد أوجدن" الاحتكار الذي كانت السلطة التشريعية في "نيويورك" قد منحته لملاحة السفن البخارية، وحكم "روجر ب. تاني" رئيس المحكمة العليا في عام 1837 بأن المشرع في "ماساتشوستس" لم ينتهك امتياز إحدى الشركات القائمة التي شيدت جسرًا على نهر "تشارلز" بتمكين شركة ثانية من بناء جسر منافس، وبرر "تاني" حكمه بأن للمجتمع مصلحة مشروعة في تعزيز النقل والرخاء.

وحكم القضاة المحليون في نفس الوقت ببراءة رجال الأعمال من الأضرار التي لحقت بالمتلكات بسبب بناء مصانعهم (مثل الفيضانات في الأراضي الزراعية الواقعة نحو أعلى النهر وتعطل الصيد عند بناء السدود للاستفادة من الطاقة المائية). أكدت العديد من قرارات المحاكم كذلك على السلطة الكاملة لأصحاب العمل على مكان العمل، واستدعت قانون "المؤامرة" لمعاقبة العمال الذين يضربون عن العمل للمطالبة بزيادة الأجور. لم يتم إصدار تشريع يبيح للعمال الإضراب عن العمل حتى عام 1842، حين قرر رئيس المحكمة العليا في ماساتشوستس "ليمويل شاو" في قضية "كومونويلث ضد هانت"، أنه ليس هناك شيء غير شرعي متأصل في تنظيم العمال لنقابة أو لإضراب؛ كما أثار التغيير في العمل والوقت تعليق رجال الدين، أثارت التغيرات في القانون أيضًا تعليقهم، على سبيل المثال، ذكر أحد قساوسة "كونيتيكت"، ويسمى "هوراس بوشنل"، بأن اقتصاد السوق أفرز "ثورة كاملة" في "حياة وأخلاق الأمريكيين".

الفـرد الحـر

أفرزت ثورة السوق والتوسع غربًا بحلول الثلاثينيات من القرن التاسع عشر مجتمعًا يتدفق بالطاقة، ويتسم بالمادية وفي حركة مستمرة أذهل الزوار الأوروبيين. وقد وجد الكاتب البريطاني "هارييت مارتينو" لدى وصوله إلى شيكاغو في عام 1835 أن الشوارع "مزدحمة بالمضاربين في الأراضي ويلهثون من صفقة بيع لصفقة أخرى. . . . ومع مرور السادة المصاحبين لنا في الشوارع حيًانا أصحاب المتاجر، وتعج الشوارع بأصحاب المزارع يعرضون على المارة بيع مزارعهم وجميع أنواع الأراضي، وينصحونهم بالمضاربة قبل أن ترتفع أسعار الأرض عن ذلك. اندهش "الكسيس دو توكفيل" بطاقة الأمريكيين التي لا تهدأ والنقص الواضح في التمسك والتعلق بالمكان، حيث كتب قائلا "بمجرد أن تطأ قدماك الأرض الأمريكية تجد نفسك في نوع من الجلبة، حيث إن جميع ما حولك ومن حولك يتحرك". أسفرت الهجرة غربًا والتنمية الحضرية عن حجم كبير متحرك من السكان لم يعد مرتبطا بالمجتمعات المحلية، ويسعى لاستغلال الفرص التي يتيحها التغير الاقتصادي. كتب "توكفيل" معلقًا على هذا قائلا "يبني الرجل في الولايات المتحدة منزلاً ليقضي فيه شيخوخته، إلا أنه يبيعه قبل أن يكتمل السقف، ويزرع حديقة ثم يؤجرها مع بداية إثمار الأشجار، ويحرث أرض الحقل ويزرعها ثم يترك غيره من الرجال يجمعون المحاصيل".

الغرب والحرية

أثر التوسع غربًا وثورة السوق بعمق في حياة الأمريكيين جميعا، حيث عزّزا بعض الأفكار القديمة عن الحرية وساعدا في خلق أفكار جديدة؛ على سبيل المثال، ارتبطت الحرية الأمريكية لفترة طويلة بتوافر الأراضي في الغرب. وقد كان "جون ل. أوسوليفان"، الذي كان يعمل صحفيًا في "نيويورك" هو أول من استخدم عبارة "المصير الواضح"، ومعناه أن للولايات المتحدة مهمة قدرية إلهيه وواضحة لا يرقى إليها أي شك أو خلاف، وتتمثل هذه الرسالة في احتلال كل أمريكا الشمالية، وأعلن أن حق الأمريكيين في ملكية الأراضي الغربية حق إلهي، وبالتالي، فهو أفضل بكثير من أي حق يمكن أن تمنحه أي معاهدة دولية وهو حق الاستكشاف أو الاستيطان طويل الأجل لهذه الأراضي، وأن حقهم في القارة يأتي بموجب مهمة الأمة في توسيع مجال الحرية. كتب "أوسوليفان" أيضًا أن مطالب الشعوب الأخرى يجب أن تفسح المجال "لمصيرنا الواضح للانتشار عبر القارة وتملكها بالكامل، وهي الرسالة التي كلفتنا بها العناية الإلهية لتطوير التجربة العظيمة في الحرية"؛ وأن القوى الأخرى التي وقفت في طريق التوسع مثل الأوربيين من بريطانيا العظمى، وإسبانيا، والأمريكيين الأصليين، والمكسيكيين إنما هم بموجب التعريف بمثابة عقبات تحول دون تقدم الحرية.

كتب "أوسوليفان" هذه الكلمات في عام 1845، ولكن الفكرة الأساسية كانت مألوفة من قبل ذلك بكثير. انتقل الربط بين التوسع غربًا والحرية مع انتقال السكان عبر جبال الأبلاش، حيث أعلن السيناتور "جون بريكنريدج"، نائب الكونجرس عن "كنتاكي" أن "إلهة الحرية لا تحكمها الحدود الجغرافية." أصبح الشعور بالانفتاح المكاني وأن هناك فرصة ليحمل المرء عصاه ويرحل للسعي وراء تحقيق السعادة بمثابة عنصر أساسي ومحوري أكثر وأكثر في الحرية الأمريكية. اعتقد هذا الجيل من الأمريكيين مثل أسلافه بأن الولايات المتحدة قد اختارها الله للتجربة الأكبر في تاريخ البشرية، ألا وهي تحقيق الحرية؛ وأن التوسع غربًا يمثل جزءًا لا يتجزأ من هذا القدر. كتب أحد زوار هذا البلد من الأوروبيين العديدين في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وهو المؤرخ الفرنسي "ميشال شوفالييه"، قائلا إن الحرية في الولايات المتحدة تمثل "فكرة عملية كما هي بنفس القدر تجربة روحية وصوفية"، أنها تعني "حرية العمل والحركة التي استخدمها الأمريكيون لتوسيع الأراضي الشاسعة التي منحتها لهم الرعاية الإلهية ليسخروها لاستخداماتهم".

تقول الأسطورة الوطنية والإيديولوجية أن الغرب سيظل لفترة طويلة، كما أورد "والاس ستجنر" لاحقا، هو "الموطن الأخير للأمريكيين الأحرار". وقد وعد الاستيطان والاستغلال الاقتصادي للغرب بعدم انجراف الولايات المتحدة في طريق أوروبا بطبقاتها الاجتماعية الثابتة وأعدادها الكبيرة من الفقراء الذين يعملون بالأجر. كانت الأرض في الغرب أكثر توافرًا والعمالة القمعية بالمصانع أقل انتشارًا بكثير؛ ونظرًا لتزايد عدد السكان، وارتفاع أسعار الأراضي بشكل كبير في الولايات القديمة، وتضاؤل فرص الشباب للحصول على مزرعة أو إنشاء متجر حرفي مستقل، ولا يزال الغرب يتيح الفرصة لتحقيق استقلال اقتصادي ووضع اجتماعي حر.

أصحاب مذهب التسامي (الساميون)

شجع عالم ثورة السوق التنافسي الذي لا يهدأ بقوة على جعل الحرية الأمريكية مرادفًا لعدم وجود القيود على الأفراد الموجهين ذاتيا، الذين يسعون للتقدم الاقتصادي والتنمية الشخصية. كتب الفيلسوف "رالف والدو إيمرسون" في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر كتابا بعنوان "الثورة المهيمنة اليوم"، قائلا "هذه الثورة هي القيمة الجديدة للفرد". وفرت "فرصة النمو الشخصي تعريفًا جديدًا لسعي جيفرسون للسعادة، وهو التعريف الذي يتناسب تمامًا مع العالم الذي تحطمت فيه الحدود المكانية والاجتماعية التقليدية، وأصبح الانتقال من مكان إلى مكان ومن وضع لوضع بمثابة السمات المشتركة للحياة الأمريكية، نتيجة للتوسع في الأراضي وثورة السوق.

وقد ألقى "إيمرسون" خطابًا تمت إعادة طبعه على نطاق واسع في عام 1837 بعنوان "العالِم

الأمريكي"، دعا فيه المشخص المنخرط في الكتابة والتفكير إلى أن "يشعر بالثقة الكاملة في نفسه، . . . وألا يذعن أبدًا للنداءات الشعبية"، وأن يعثر على "تعريفه الخاص به للحرية" وأن يثق في ذلك التعريف الذي يتوصل إليه. وقد قدم "إيمرسون" تعريفًا للحرية باعتبارها عملية مفتوحة ومتغيرة لتحقيق الذات يستطيع الأفراد من خلالها إعادة تشكيل أنفسهم وحياتهم، وذلك خلافًا للتعريف الذي كان سائدًا آنذاك المتمثل في توفر مجموعة من الحقوق أو الامتيازات. أعلن "إيمرسون" أن الفكرة الأساسية في هذه الحقبة تتمثل في "الأهمية الجديدة الممنوحة للإنسان الواحد" و"تحرر" الفرد، وهما ما يلخصان "الفكرة الأمريكية."

ربما كان "إيمرسون" هو العضو الأبرز من بين مجموعة من المفكرين والمثقفين في "نيو إنجلاند" المعروفة باسم "المتسامين" أو "أصحاب مذهب التسامي"، الذين أصروا على هيمنة الحكمالذي يصدره الفرد على التقاليد والمؤسسات الاجتماعية الموجودة؛ وقد ردد الكاتب "هنري ديفيد ثورو" جار "إيمرسون" في "كونكورد بماساتشوستس" هذه الدعوة لاعتماد الفرد على نفسه، وكتب قائلا "إن أي إنسان يكون على حق أكثر من جيرانه يكون بمثابة أغلبية تتألف من فرد واحد".

الفردانية

كثرت المفارقات في عصر "الفردانية" (وهو المصطلح الذين دخل لأول مرة في اللغة في العشرينيات من القرن التاسع عشر)؛ وحتى مع تعزيز ثورة السوق للعلاقات التجارية بين الناس الذين تفصلهم مسافات بعيدة، إلا أن فكرة "الفرد صاحب السيادة والسيطرة على نفسه" كانت تؤكد أنه ينبغي للأمريكيين ألا يعتمدوا على أحد إلا أنفسهم. ارتبط الاستقلال الشخصي بطبيعة الحال ولفترة طويلة بالحرية الأمريكية، ولكن لم ير مفكرو القرن الثامن عشر بشكل عام أي تناقض بين السعادة الخاصة والفضيلة العامة الخاصة بالتضحية بالنفس، فيما يُعْرَف بالتفاني في سبيل الصالح العام. لاحظ "توكفيل" آنذاك أن النزعة الفردية دفعت "كل عضو في المجتمع لفصل نفسه عن جمهرة رفاقه، وأن يبتعد مع عائلته وأصدقائه بعيدًا عن الآخرين. . . [ويهجر] المجتمع ككل". فهم الأمريكيون بشكل متزايد عالم "الذات"، الذي أصبح يُطْلَقْ عليه "الخصوصية" التي لا يحق بموجبها لأي شخص آخر أو للحكومة التدخل فيها؛ وكما سنناقش في الفصل القادم، ساعدت الفردانية أيضًا في الإلهام بتوسيع الديمقراطية، حيث أصبحت ملكية الشخص لذاته، وليس ملكيته للممتلكات المادية، هي ما يجعله الآن قادرًا على ممارسة الحق في التصويت.

وقد وصف "إيمرسون" عهد ما قبل الحرب الأهلية من منظور الثمانينيات من القرن التاسع عشر بأنها الفترة الزمنية التي أفسح فيها "الوجود الاجتماعي" الطريق "لتوسيع واستقلالية الفرد. . . مدفوعًا بالهدف لإيجاد جميع موارده، وآماله، ومكافآته، ومجتمعه، والإله بداخل نفسه." أوضح

ثورو في حياته الخاصة وجهة نظر إيمرسون حول سيادة الضمير الفردي في المسائل السياسية، والاجتماعية، والشخصية، والحاجة إلى إيجاد الفرد لطريقه بدلاً من تقليد الآخرين واتباع القطيع؛ ومثل الآخرين من دعاة ومناصري مذهب التسامي، لم يوافق ثورو على الطريقة التي يلهث بها الأفراد وراء السعادة في ظل اقتصاد السوق. اقتنع ثورو أن المجتمع الحديث قد قمع الحكم الفردي بجعل الرجال أدوات لأدواتهم، وقد وقعوا في فخ تسفيه الوظائف بهوسهم بالحصول على الثروة، وكتب قائلا إن أكثر الأشخاص حتى في هذا البلد الحر نسبيًا مشغولون بالأشياء المادية لدرجة أنه ليس لديهم الوقت للتفكير في مواطن الجمال في الطبيعة.

وبغية الهروب من هذا المصير، اعتزل ثورو لمدة عامين في كوخ في والدن بوند بالقرب من كونكورد، حيث يستطيع التمتع بالحرية بمعزل عن الاستبداد الاقتصادي والأخلاقي الذي يحكم المجتمع الأمريكي من وجهة نظره؛ ونشر في وقت لاحق كتابًا بعنوان والدن 1854، قدم فيه تقريرًا عن تجاربه وخبراته وتعليقًا حول كيف أن ثورة السوق قد أهانت في رأيه كلاً من قيم الأمريكيين والبيئة الطبيعية، وذكر أن البيئة كانت في شبابه مساحة مغطاة بالغابات الكثيفة، وكيف تحولت على أيدي الحطابين قاطعي الأشجار والمزارعين حتى أنها أصبحت خالية تمامًا تقريبًا من الأشجار والحيوانات البرية. أشار ثورو أيضًا في مقطع شهير كيف أن هذا التمتع بالطبيعة قد تأثر سلبيًا بصوت صافرة القاطرة من بعيد – في إشارة إلى كيف بدا من غير الممكن الهروب من ثورة السوق لأنها تحيط بنا من كل اتجاه وبكل صورة. ناشد ثورو الأمريكيين القيام بتبسيط حياتهم بدلاً من أن يصبحوا مهووسين باكتناز الثروة، وأصر على أن الحرية الحقيقية توجد في ذاتنا وبداخلنا.

الصحوة الكبرى الثانية

كانت موجات الإحياء الديني الشعبية التي اجتاحت البلاد أثناء الصحوة الكبرى الثانية قد أضافت دعامة دينية للاحتفال بتقويم النفس الشخصي، والاعتماد على الذات، وتقرير المصير؛ وقد أنشأ موجات الإحياء التجديدية هذه التي بدأت مع مطلع هذا القرن الزعماء الدينيون الذين كانوا موجودين آنذاك، والذين أزعجهم تدني مستويات الحضور للكنيسة في الجمهورية الفتيّة (ربما كان عدد لا يتجاوز 10 في المائة من السكان الأمريكيين البيض الذين كانوا يحضرون بانتظام الشعائر الدينية في الكنيسة في السبعينيات من القرن الثامن عشر). سرعان ما توسع دعاة الإحياء هؤلاء إلى ما هو أبعد من الكنائس القائمة، ووصلوا لأوجهم في العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، عندما عقد القس تشارلز فيني جراندسون أشهر اجتماعاته الإحيائية التي كانت تستمر في المنطقة الشمالية من نيويورك ومدينة نيويورك.

وقد استلهم ابن مزارعي "كونيتيكت" "فيني" القيام بالتبشير بعد حضوره ندوات الصحوة الدينية في عام 1821؛ ومثل الإنجيليين (الدعاة الرحَّالة) في الصحوة الكبرى الأولى في منتصف القرن الثامن عشر كما ناقشنا في الفصل الرابع، فقد حذَّر "فيني" من الجحيم في لغة حيَّة في نفس الوقت الذي طرح فيه الوعد بالخلاص للذين يتحولون إلى المسيحية والذين يهجرون الذنوب والخطايا. أصبح "فيني" شخصية قومية شهيرة بعد نجاحه في مقاطعة "أونيدا" في شمال "نيويورك"؛ ووفقًا لأحد التقارير، اجتاحت روح القدس جميع أنحاء المقاطعة بعد وعظ "فيني لدرجة أن "أصبح المسرح مهجورًا وتطهرت الحانة. . . وشعر الناس بمتعة أكبر وأنقى بكثير عند ممارسة الشعائر الدينية والتفاني في العبادة".

قامت الصحوة الكبرى الثانية بدمقرطة المسيحية الأمريكية، مما جعلها مؤسسة جماهيرية شاملة حقا. فقد قل عدد الوعاظ والدعاة للمسيحية في الولايات المتحدة في فترة ما بعد الاستقلال عن 2.000، بينما وصلوا إلى 40.000 في عام 1845. وقد شهدت الطوائف الإنجيلية، مثل الميثوديين والمعمدانيين، نموًا هائلاً في العضوية وانتشرت الطوائف الأصغر، وبلغ عدد أتباع الميثودية أكثر من مليون عضو بحلول الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وأصبحت أكبر طائفة في البلاد. هذا وقد تراجع الربانيون آنذاك، والذين يمثلون شكل من أشكال الاعتقاد الديني المناهض للكنائس المنظمة، بعد أن كانوا بارزين بين جيل الآباء المؤسسين؛ ونتيجة لذلك أصبحت المسيحية ذات أهمية محورية أكبر في الثقافة الأمريكية، حتى أن "توكفيل" كتب قائلا "جمع الأمريكيين بين مفاهيم المسيحية والحرية بشكل وثيق جدًّا في عقولهم لدرجة أنه من المستحيل جعلهم يتصورون أي من هذين المفهومين بدون الآخر".

بدا أن المعلمين الدينيين الجدد يظهرون بانتظام في أمريكا في أوائل القرن التاسع عشر وهم مصممون على عبارة الروائي "هيرمان ملفيل" صبغ العالم بصبغة انجيلية من جديد." دعا المنادون بالإحياء والمجددون المتحمسون في اجتماعات واسعة النطاق، تُعقَد في مخيمات بارزة بصفة خاصة على الحدود، إلى رفض فكرة أن الإنسان مخلوق شرير ومذنب بطبيعته وأن مصيره مقدر ومحتوم، وقاموا بدلاً من ذلك بتعزيز مبدأ الإرادة البشرية الحرة. كان المجتمعون في هذه المخيمات يتعبدون إلى الله إلى جانب بعضهم البعض، الأغنياء والفقراء والذكور والإناث، وفي بعض الحالات البيض والسود؛ وتعهدوا بالتخلي عن الذنوب الدنيوية للانضمام لحياة الأتقياء والصالحين.

تأثير الصحوة

شددت الصحوة الكبرى الثانية، أكثر من سابقتها التي كان قد مضى عليها عدة عقود، على حق الفرد في اصدار الحكم الخاص به في المسائل الروحية وإمكانية الخلاص الشامل من خلال

الإيمان والأعمال الصالحة. أصر "فيني" على أن كل شخص هو بمثابة "فاعل أخلاقي حر" بمعنى أن الفرد حر في الاختيار بين الحياة المسيحية وبين الخطيئة؛ ويستطيع المذنبون أن يمروا "بتغيير حقيقي للقلب" واحتضان الحرية الروحية، وهو ما عَرَّفَهُ القس الإنجيلي "جوناثان بلانشارد" بأنه "أن يحكم المسيح على المخلوقات العاقلة التي تطيعه بحرية وبمحض اختيارها".

وقد استغل القساوسة دعاة الإحياء الفرص التي أتاحتها ثورة السوق لنشر رسالتهم، حيث قاموا بجمع التبرعات وقاموا بجولات طويلة للوعظ عبر القنوات المائية، والسفن البخارية، والسكك الحديدية؛ وأغرقوا البلاد بالكتيبات، والمنشورات الدينية، والمنتجات الصغيرة ذات الإنتاج الضخم وغير مكلفة لأغراض الدعاية الدينية. فتح دعاة الإحياء مجال الدين أمام المشاركة الجماهيرية ورسالتهم بأن الأمريكيين العاديين يمكنهم تشكيل مصيرهم الروحي، والتي كانت تقابلها أصداء انتشار قيم السوق.

ولا ريب أنه لم يكن من الإنصاف وصف الدعاة الإنجيليين بأنهم كانوا من كبار المشجعين والداعمين لمجتمع السوق، حيث كانوا يحتجون بانتظام ضد الجشع وعدم المبالاة بمصالح وسعادة ورفاهية الآخرين باعتبار أن هذا من قبيل الخطايا. وصف "فيني" الأنانية بأنها "قانون إمبراطورية الشيطان وليس إمبراطورية الله"، وكان يقصد بذلك أنها تمثل شكلاً متطرفًا من الفردانية التي يشجعها التدافع وراء الثروة التي تنتجها ثورة السوق؛ ومع ذلك، ازدهر دعاة الإحياء في مناطق ابتلعها التوسع السريع في اقتصاد السوق، مثل منطقة شمال "نيويورك" على طول مسار قناة "إيري". كان معظم الذين تحولوا إلى دعوة "فيني" الدينية هنا من طبقة التجار والمهنيين. رَوَّجَ رجال الدين من الطائفة الإنجيلية لما يمكن تسميته "الفردانية المقيدة" باعتبارها جوهر الحرية، ورَوَّجَوا كذلك لنفس الصفات الضرورية للنجاح في ثقافة السوق، من خلال التشديد على أهمية الاجتهاد، والرصانة، والانضباط الذاتي كأمثلة للسلوك الأخلاقي الذي يختاره الإنسان بحرية.

حدود الازدهار

الحرية والازدهار

مع تقدم ثورة السوق أصبح حق التنافس على التقدم الاقتصادي بمثابة محك اختبار للحرية الأمريكية، وقد حاج "هنري جيم كاري"، الذي قد يعتبر أبرز اقتصادي خلال تلك الحقبة، بأن "مسألة حرية الإنسان وعبوديته برمتها كانت مرتبطة بالانجاز الاقتصادي". ربطت المخيلة الرسمية آلهة الحرية بشعارات الثروة المادية على نحو أوثق من أي وقت مضى. كان ختم ولاية "نيو جيرسي" الرسمي، على سبيل المثال، الذي تم اعتماده في عام 1776 قد جمع بين الحرية وآلهة الزراعة الرومانية "سيريس"، وفي عام 1821، تم إضافة شعار "الحرية والازدهار"؛ واعترف ختم

ولاية "أركنساس" بالاتحاد في عـام 1836، ورسـم صـورة الحرية فـوق صـورة لبـاخرة، والاثنـان يفيضان قرون من الوفرة والغنى.

وقد استغل العديد من الأمـريكيين المغـامرين الفـرص الـتي أتاحتهـا ثـورة الـسوق لإثـراء أنفسهم، على سبيل المثال، كان "جون جاكوب أسـتور"، ابـن جـزار ألمـاني فقـير وقـد هـاجر إلى الولايات المتحدة في نهاية حرب الاستقلال، وحقق الابن أرباحًا ضخمةً في أوائل القرن التاسـع عشر من خلال شحن الفـراء إلى الـصين واسـتيراد الـشاي والحريـر. اسـتثمر "أسـتور" ثروتـه في العقارات في "مانهاتن" التي كانت تنمو في القيمة بسرعة، وبنـى "منزل أسـتور"، الـذي سـرعان مـا أصبح الفندق الأكثر شهرة في البلاد؛ وتوفي في عام 1848 وهو أغنى رجل في الولايـات المتحـدة تاركًا ثروة ربما تصل إلى عشرة ملايين دولار، بما يعادل اليوم مئات الملايين من الدولارات.

بدا أن قصة "أستور" تجسد الفرص المفتوحة" للرجل العصامي"، وهو المصطلح الذي دخل حيز الاستخدام خلال حياته؛ ووفقًا لهذه الفكرة، فإن أولئك الذين حققوا نجاحًا في أمريكا لم يفعلـوا ذلك نتيجة ميزة وراثية أو محاباة الحكومة كما هو الحال في أوروبـا، ولكـن مـن خـلال ذكـائهم وعملهم الجاد. لم يكن "أستور" طبيعيًا في مدى اتساع ثروته بالطبع، ولكن ثـورة الـسوق وتـسارع الحياة التجارية كانا وراء ثراء العديد من المـصرفيين، والتجـار، ورجـال الـصناعة، والمـزارعين؛ وأفرزا طبقة متوسطة جديدة تضم جيشًا مـن الكتبـة، والمحاسـبين، ومـوظفي المكاتـب الآخـرين الذين عملوا في مجال الأعمال في "بوسطن"، و"نيويورك" وفي أماكن أخـرى؛ وأتاحـا فرصًـا جديـدةً للمزارعين الذين استفادوا مـن الطلـب المتزايـد في الـداخل والخـارج علـى المنتجـات الزراعيـة الأمريكية وللحرفيين المهرة، مثل "توماس روجرز" صانع الآلة الذي أنشأ مصنعًا ناجحًـا لـصناعة القاطرات في "باترسون" و"نيو جيرسي". فتحت الفرص الجديدة للرجال الموهوبين مهنًا مثل المحاماة، والطب، والتدريس؛ وبحلول العشرينيات من القرن التاسع عـشر، كـان هنـاك مـا يقـدر بعـشرة آلاف من الأطباء في الولايات المتحدة.

العرق والفرصة

أثرت ثورة السوق على حياة جميع الأمريكيين، ولكن لم يكن الجميع في وضـع يمكّنهم مـن الاستفادة من فوائدها. كان معظم السود بطبيعة الحال من العبيد، ولكن حتـى الـسود الأحـرار وجدوا أنفسهم مستبعدين من الفرص الاقتصادية الجديدة. عانى السود البالغ عددهم 220.000، والذين كانوا يعيشون في الولايات الحرة في عشية الحرب الأهلية (أقل من 2 في المائة من سـكان الشمال) من التمييز السلبي في كل مرحلة من مراحل حياتهم؛ وعلى الرغم من أن كـل مقاطعـة في شمال شرق نهر المسيسيبي كان يوجد بها عمليًا بعض الـسكان الـسود، إلا أن غالبيـة الـسود

كانوا يعيشون في أفقر الأحياء في المدن وأسوأها صحةً مثل "نيويورك"، و"فيلادلفيا"، و"سينسيناتي"؛ وحتى في هذه الأحياء تعرضوا لاعتداءات عنيفة في بعض الأحيان من عصابات البيض، مثل العصابات المسلحة التي هاجمت السود ودمرت بيوتهم وأعمالهم في "سينسيناتي" في عام 1829.

ونظرًا لحرمان السود الأحرار من المدارس وغيرها من المرافق العامة، فقد أقاموا بمشقة حياتهم المؤسسية، حيث اعتمدوا على المساعدات المتبادلة والجمعيات التعليمية وكذلك الكنائس المستقلة، وأبرزها الكنيسة الأسقفية الميثودية الإفريقية. تحفَّز الواعظ الميثودي في "فيلادلفيا" "ريتشارد ألين" لتأسيس كنيسة بعد أن تم إزاحته قسرًا من كنيسته السابقة، لأنه تجرأ وصلى عند سور المذبح، وهو المكان المخصص للبيض.

في حين أن العديد من الأمريكيين البيض كانوا يستطيعون التطلع إلى حياة التراكم الاقتصادي والتقدم الفردي، عانت أعداد كبيرة من السود الأحرار من تدهور الأوضاع؛ وكما ذكرنا في الفصل السادس، كان السود الأحرار في الشمال آخر مجموعة كبيرة تعاني من تجربة العبودية بعقود ملزمة طويلة الأجل، نظرًا لأن شروط التحرر تتطلب عمومًا أن يعمل أطفال الأمهات العبيد عند أصحابهم قبل أن يطلق سراحهم؛ وعندما حان وقت إلغاء العبودية، كان عدد كبير من السود الشماليين يمتلكون المهارات الحرفية نظرًا لانتشار ملكية العبيد بين حرفي القرن الثامن عشر، غيره أنه أصبح من الأصعب فالأصعب بالنسبة للسود الاستفادة من هذه المهارات بمجرد أن يصبحوا أحرار؛ وعلى الرغم من أن العديد من الحرفيين البيض انتقدوا العبودية، إلا أن معظمهم كانوا يرون العبيد الأحرار كمنافسين لهم بأجور منخفضة، وسعوا إلى منعهم من العمل في الوظائف التي تتطلب عمالة مهرة؛ وقد علَّق محرر أسود على الحرفيين السود في مدينة نيويورك في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر قائلا "إنهم قادة في سبيل قضية الحقوق المتساوية".

لم يكن العداء من جانب الحرفيين البيض سوى واحدة من العقبات الأخرى التي قصرت أدنى الرتب في سوق العمل على السود؛ حيث رفض أصحاب العمل البيض توظيفهم إلا في الوظائف الوضيعة، وكان الزبائن البيض لا يرغبون في أن يخدموهم. هذا وقد أسفر ذلك كله عن انخفاض سريع في الوضع الاقتصادي حتى حلول منتصف القرن، حيث عملت الغالبية العظمى من السود الشماليين بأجر في الوظائف غير الماهرة وخدموا في المنازل. كشف تعداد الولاية لعام 1855 عن وجود 122 حلاقًا أسود، و808 خادم أسود في مدينة "نيويورك" في مقابل محامي واحد فقط و6 أطباء. لم يستطع السود الأحرار الاستفادة أيضًا من فتح الغرب لتحسين وضعهم الاقتصادي، وهو مكون رئيسي في الحرية الأمريكية، حيث حرمهم القانون الاتحادي

من الحصول على الأراضي العامة؛ وبحلول عام 1860، حظرت أربع ولايات دخول السود إلى أراضيهم من الأساس، وهي "إنديانا"، و"إلينوي"، و"أيوا"، و"أوريجون".

الولع بالحياة المنزلية والعائلية

وجدت النساء أيضًا أن كثيرًا من الفرص التي أتاحتها ثورة السوق أمام الرجال مغلقة أمامهن، ومع تدهور الأسرة كمركز للإنتاج الاقتصادي، رأى كثيرات من النساء أن أدوارهن التقليدية قد تقوضت نتيجة لتوافر السلع ذات الإنتاج الضخم التي كانت تصنع من قبل في المنزل؛ وكما ذكرنا سابقًا، سعت بعض النساء وراء العمل بعد انتقاله من الأسرة إلى المصنع وعملن في المصانع. هذا وقد تبنت نساء أخريات تعريفًا جديدًا للأنوثة لا يمجِّد مساهمة المرأة في الرفاهية الاقتصادية للأسرة، ولكنه يثني على قدرتها على خلق بيئة خاصة محمية من التوترات التنافسية السائدة في اقتصاد السوق، وكان "مكان" المرأة في المنزل بعد أن تم إفراغه على نحو متزايد من الوظائف المنتجة اقتصاديًّا مع انتقال العمل من المنزل إلى ورش العمل والمصانع. كان دور المرأة يتمثل في الحفاظ على القيم الغير سوقية مثل الحب، والصداقة، والالتزام المتبادل، وتوفير مأوى للرجال من السوق التنافسية.

تطورت الأيديولوجية السابقة عن "أمومة الجمهورية"، والتي تسمح للنساء بنوع من الدور العام كأمهات للمواطنين في المستقبل، بصورة سلسة في منتصف القرن التاسع عشر لتتحول إلى "الولع بالحياة العائلية"؛ حيث تم إعادة صياغة تعريف "الفضيلة" لتكون بمثابة صفة شخصية أخلاقية مرتبطة بشكل وثيق أكثر فأكثر بالنساء، بعد أن كانت في القرن الثامن عشر سمة سياسية للرجال وضرورية لنجاح الحكم الجمهوري. لم تكن "الفضيلة" تعني بالنسبة للمرأة العفة فحسب، ولكنها تعني أيضًا الجمال، وسهولة الانقياد، والاعتماد على الرجال، حتى أن أحد أبرز المجلات الشعبية الشهيرة الموجهة إلى جمهور النساء خلال الفترة ما بين العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر باسم "كتاب السيدة الشابة"، أعلنت أنه من المطلوب أن "تتحلى المرأة بروح الطاعة، والخضوع، وليونة المزاج، والتواضع، والعقل في كل مواقف الحياة من المهد وحتى اللحد". كانت تحفل هذه المجلات بمقالات مثل "المرأة مصدر الراحة"، "المرأة، الكائن الذي تذهب للمنزل من أجله"، و"المرأة أفضل صديق للرجل."

مع خروج المزيد والمزيد من الرجال من المنزل للعمل، بدأت النساء في ممارسة سلطة كبيرة على الشئون الشخصية داخل الأسرة. لا يمكن تفسير الانخفاض المتسارع في معدل المواليد بين الأمريكيين خلال القرن التاسع عشر (من متوسط سبعة أطفال لكل امرأة في عام 1800 إلى أربعة في عام 1900)، إلا بأنه كان قرارًا واعيًا من الملايين من النساء للحد من عدد الأطفال

الذين يحملن بهم خلال حياتهن، ولكن فكرة الولع بالحياة المنزلية والعائلية قللت لأدنى حد من مشاركة المرأة - حتى غير المباشرة- في العالم الخارجي. كانت الحرية تعني بالنسبة لكلا الجنسين الوفاء بالصفات الفطرية الخاصة بكل منها. كان الرجال يتميزون بالعقلانية، والجرأة، والعدوانية، والاستبداد، والتحكم، في حين تتميز النساء بتقديم الرعاية، ونكران الذات، وتحكمها في العواطف والانفعالات، وبالتالي فهي أقل استعدادًا لمواجهة الحياة العامة؛ وإذا كان الخضوع لإرادة أخرى يبدو غير مقبول على نحو متزايد بالنسبة للرجال الأحرار، فقد ظل خضوع المرأة للرجل شرطًا طبيعيًا ومتوقعًا منها. كان الرجل يتحرك بحرية بين مجالات الحياة العامة والخاصة؛ بينما كان من المفترض أن تبقى النساء منعزلات في العالم الخاص بالأسرة.

المرأة والعمل

كانت الأفكار السائدة الخاصة بنوع الجنس تتعلق قليلاً بتجربة النساء اللاتي عملن بأجر على الأقل لبعض الوقت في حياتهن، وقد فعلن ذلك على الرغم من عيوبه الشديدة. لم يستطع النساء أن يتنافسن بحرية في العمل، نظرًا لأنه لم تكن هناك وظائف متاحة لهن سوى الوظائف منخفضة الأجور؛ وكانت النساء المتزوجات ما زلن لا يستطعن توقيع عقود مستقلة أو المقاضاة باسمهن، وظل الوضع هكذا حتى بعد الحرب الأهلية؛ وحينئذ استطعن التحكم بأنفسهن، وليس أزواجهن، على الأجور التي كن يحصلن عليها؛ ومع ذلك، كان العمل بالنسبة لكل أعضاء الأسرة ضروريًا للبقاء اقتصاديًا بالنسبة لسكان المدن الفقراء والأسر الزراعية. وجدت الآلاف من النساء الفقيرات وظائف كخادمات في المنازل، وعاملات في المصانع، وخياطات. عزز التصنيع المبكر توافر العمل بأجر للنساء في الشمال، وانتشار نظام القيام بمراحل الإنتاج الصناعي من المنازل لصناعات مثل صناعة الأحذية، والقبعات، والملابس؛ مما سمح للنساء اللاتي يعملن في المنزل بالمساهمة في دخل الأسرة حتى مع احتفاظهن بمسئولية الأعمال المنزلية والأسرة.

بيد أنه نظرًا لتوسع حجم الطبقة الوسطى، أصبحت شارة احترام الزوجات هي بقائهن في المنزل بعيدًا عن اقتصاد السوق الجديد غير المنضبط، في حين يُجْرِي الأزواج أعمالهم في مكاتبهم، والمحلات التجارية، والمصانع. تغيرت الأوضاع في المدن الكبرى، حيث كانت الأسر من مختلف الطبقات الاجتماعية تعيش في الماضي إلى جانب بعضهم البعض، أما الآن فقد بدأت تتطور أحياء راقية للطبقة المتوسطة ذوي القدرة المالية المرتفعة من التجار، وأصحاب المصانع، والمهنيين مثل المحامين والأطباء. كان يقوم بالأعمال المنزلية في تلك الأحياء الراقية الخاصة بالطبقة المتوسطة خادمات المنازل اللاتي كن يمثلن أكبر فئة من العمالة النسائية في القرن التاسع

عشر في أمريكا. ارتبط تعريف الحرية لنساء الطبقة المتوسطة جزئيًا بالتحرر من العمل- والاعتماد على تشغيل غيرهن من النساء للعمل داخل بيوتهن.

ونظرًا لأن معظم النساء كن عاطلات، ونظرًا لأنه في ظل اقتصاد السوق حيث تعني اليد العاملة على نحو متزايد العمل الجاد والشاق الذي يخلق قيمة نقدية؛ لذلك، أصبح من الأصعب فأصعب تصور أن العمل يمكن أن يضم سوى الرجال. كتبت "ليديا ماريا تشايلد" كتابًا شهيرًا بعنوان "ربة المنزل المقتصدة" والذي نُشِرَ في عام 1829، والذي سعت فيه إلى إعداد النساء للتقلبات في ثورة السوق صعودًا وهبوطا (وكان عنوان الفصل الأول "كيف تتحملي الفقر"). دعمت "تشايلد" عائلتها من خلال كتاباتها، وأصبحت معارضة بارزة للعبودية ومناصرة كبيرة للمطالبة بحقوق أكبر للمرأة. كشفت "تشايلد" في مذكراتها أنها استطاعت في عام واحد حياكة ستة وثلاثين قطعة من الملابس، وأيضًا إعداد أكثر من 700 وجبة طعام وقضاء الكثير من الوقت في الإشراف على المساعدة المنزلية.

يمكن القول، وفقًا لأي تعريف معقول للعمل، أن "تشايلد" عملت في المنزل ككاتبة؛ ومع ذلك، نادرًا ما تذكر المناقشات حول العمل ربات البيوت، وخادمات المنازل، والإناث العاملات خارج المنازل، باستثناء الحديث عنهن فقط كمؤشر على الكيفية التي جعلت من انتشار الرأسمالية أمرًا مهينًا للرجال. كانت فكرة أن رب الأسرة الرجل يجب عليه توفير "نفقات الأسرة" التي تمكنه من أن يعول زوجته وأطفاله، قد أصبحت بمثابة تعريف شعبي وشهير للعدالة الاجتماعية؛ وتعود جذور ذلك إلى أعماق بعيدة ليس فقط بين الأمريكيين من الطبقة المتوسطة، ولكن أيضًا بين الرجال من الطبقة العاملة. أوردت صحيفة بعنوان "مناصر الرجل العامل" أن الرأسمالية مزقت دور المرأة "كعشيقة سعيدة ومستقلة" للعمل في المجال المنزلي، وألقت بها في سوق العمل، وبالتالي تقويض النظام الطبيعي للأسرة وسلطة رئيسها الذكر.

الحركة المبكرة للعمال

كما تشير هذه الشكوى، فإنه على الرغم من ترحيب كثيرين من الأمريكيين بثورة السوق، إلا أن البعض الآخر شعر أن نتائج هذه الثورة تهدد وجوده، حيث كان الأعضاء الباقون على قيد الحياة من الجيل الثوري يخشون من أن الهوس بتحقيق مكاسب اقتصادية شخصية طفق يقوِّض مبدأ التفاني في سبيل المصلحة العامة، مما دعا "جون آدامز" يصدر هذا التحذير قائلا "لقد دمرت التجارة، والترف، والبخل كل حكومة جمهورية." أدان "جيفرسون" مع اقتراب نهاية حياته في العشرينيات من القرن التاسع عشر "سماسرة البورصة، والخبراء الماليين، والمضاربين، وغيرهم لقيادتهم الأمة بعيدًا عن الصورة المثالية الفاضلة للجمهورية الزراعية".

وقد نظر العديد من الأمريكيين إلى ثورة السوق، ليس باعتبارها تعزيزًا للقدرة على تشكيل حياتهم، ولكن باعتبارها ضياعًا للحرية. شهدت الفترة ما بين حرب عام 1812 وبين عام 1840 انكماش اقتصادي حاد، ولاسيما في عام 1819، وكساد كامل الأوصاف بدءًا من عام 1837، وتخلل هذه المحطات الكبرى صعودًا وهبوطًا كانت العمالة خلالها غير منتظمة وفشلت العديد من الشركات. كان كل طامح أمريكي يمتطي مد التقدم الاقتصادي يقابله أمريكي آخر يغرق تحت الأمواج. أفرز التحول الاقتصادي نموًا هائلاً في إنتاج البلاد، وتجارتها، وارتفاع في المستوى العام للمعيشة؛ وبصفة خاصة، في مدن شمال شرق البلاد المتنامية، مما أدى إلى اتساع الفجوة بشكل ملحوظ بين الأثرياء من التجار والصناعيين من جهة والفقراء من عمال المصانع، وعمال الموانئ غير المهرة، والخياطات العاملات في المنازل من جهة أخرى. كانت "ماساتشوستس" هي الولاية الأكثر تصنيعًا في البلاد، وكان أغنى 5 في المائة من السكان بها يملكون أكثر من نصف الثروة بالولاية. كانت عدم المساواة أكثر وضوحًا في "فيلادلفيا" حيث يمتلك 1 في المائة من السكان على قمة الهرم الاقتصادي والاجتماعي ثروة تفوق ما يملكه باقي كل السكان مجتمعين. كان الإفلاس حقيقة مشتركة كجزء من الحياة، وملأ الرجال الغير قادرين على دفع ديونهم السجون من المدن الكبرى.

شعر الحرفيون المهرة في أواخر العشرينيات من القرن التاسع عشر بتهديد ينذر بتآكل المهارات التقليدية، وخطر أن تتدنى مكانتهم إلى مجرد عمال يعملون لدى الغير بالأجر، لذلك، بادروا بإنشاء أول أحزاب عمالية في العالم، وهي منظمات سياسية لم تدم طويلا، والتي كانت تسعى إلى حشد الدعم من الطبقات الدنيا للمرشحين الذين سيضغطون من أجل مجانية التعليم العام، ووضع حد للسجن بسبب الديون، وإصدار التشريعات التي تحد ساعات العمل إلى عشر ساعات في اليوم الواحد. شهدت الثلاثينيات من القرن التاسع عشر تزايدًا سريعًا في الأسعار، وانتشار التنظيم النقابي، وأصبحت الإضرابات شائعة. دعت الحركة العمالية المبكرة إلى توفير المساكن مجانًا للمستوطنين على الأراضي العامة، ووضع حد لسجن زعماء النقابات بتهمة التآمر، إلى جانب المطالبة بأجور أعلى وساعات عمل أقصر.

حرية العيش

لم يكن هذا كل شيء، ففوق كل هذه القضايا المحددة، وقبلها استندت لغة الاحتجاج إلى الأفكار القديمة عن الحرية المرتبطة بالاستقلال الاقتصادي والفضيلة التي تزكيها الروح العامة والمساواة الاجتماعية. وألهمت إدانة عشرين خياطًا في نيويورك في عام 1835 بموجب القانون العام للتآمر بتهمة الحشد من أجل الحصول على أجور أعلى مسيرة عامة ضمت موكبًا يعلن

"دفن الحرية." ولم تقتصر مثل هذه الإجراءات واللغة على العمال الذكور فقط، حيث تركت الفتيات العاملات في مصانع "لويل" وظائفهن في عام 1834، احتجاجًا على تخفيض الأجور واحتججن مرة أخرى بعد عامين عندما رفع أصحاب الأعمال الإيجارات في الفنادق اللاتي يقمن بها، وحملن لافتات تؤكد حقوقهن بصفتهن "بنات الرجال الأحرار"، وخاطبن أصحاب المصانع واتهموهن بأوصاف مثل "اليد القمعية [للجشع] ستستعبدنا." أعلن قاموس نواه وبستر الأمريكي في عام 1828 أن "الحرية هي حالة من الإعفاء من سلطة أو سيطرة الآخر"؛ وتساءلت الحركة العمالية كم من العاملين بالأجر يستمتعون بمثل هذا "الإعفاء".

وذهب بعض المتحدثين باسم العمال، مثل "لانجدون بليسبي" من فيلادلفيا، إلى أبعد من ذلك، حيث وصفوا العمل بالأجر في حد ذاته بأنه "جوهر العبودية"، نظرًا لاعتماد شخص على شخص آخر في كسب قوته وهو ما يتعارض مع الحرية. لم تقتصر فكرة الشبه بين العمل الدائم بالأجر والعبودية على العمال الراديكاليون؛ وقد وصف "هيرمان ميلفيل" في قصته القصيرة بعنوان "جحيم الخادمات"، كيف وقف العمال في مصنع للورق في "نيو إنجلاند" إلى جانب الآلات والمعدات التي يعملون عليها "صامتين وبخنوع وذل تمامًا مثلما يقف العبد أمام سيده".

وقد تحدى نقد العامل المتجذر في تقاليد المنتج الصغير لاقتصاد السوق وتطابق الحرية مع الاستقلال الاقتصادي مباشرةً فكرة أن التحسين الفردي لإيمرسون يوفر ردًا كافيًا على عدم المساواة الاجتماعية– تنطوي هذه الفكرة على "الثقة بالنفس، والاعتماد على الذات، وضبط النفس، والتثقيف الذاتي". كتب "أوريستيس براونسون" في مقالته المؤثرة بعنوان "الطبقات الكادحة" في عام 1840 يقول فيها "الثروة والعمل في حالة حرب ضد بعضهما البعض"، واستأنف قائلا أنه يجب فهم مشاكل العمال على أنها مشاكل مؤسسية وليست فردية، فهذه المشاكل تجد جذورها في "الدستور والمجتمع"، ولا يتطلب حلها فردانية أكثر اكتمالاً ولكن "تغييرًا جذريًا [في] الترتيبات الاجتماعية القائمة" وذلك لاحداث "المساواة بين إنسان وإنسان".

وقد كتب "بيتر روديل" الإسكافي الألماني المهاجر قائلا "نحن أحرار، ولكن ليس أحرارًا بما فيه الكفاية. . . نريد حرية العيش". تكمن هنا أصول الفكرة التي من شأنها أن تصبح أكثر ظهورًا بكثير في أواخر القرنين التاسع عشر والعشرين، ومفادها أن الأمن الاقتصادي يمثل مستوى المعيشة الذي لا يجب أن ينزل أي إنسان أدناه باعتباره جزءًا أساسيًا لا يتجزأ من الحرية الأمريكية.

وهكذا، حولت ثورة السوق المجتمع الأمريكي وقسَّمته وغيَّرت مفاهيمه عن الحرية، وشجعت على التأكيد من جديد على الفردانية وحرية الحركة والحراك المادي بين الرجال

البيض، في حين حدت بشدة من الخيارات المتاحة للمرأة وللأمريكيين من أصل إفريقي؛ لقد فتحت فرصًا جديدة من أجل الحرية الاقتصادية للعديد من الأمريكيين، بينما دفعت آخرين إلى الخوف من تآكل استقلالهم الاقتصادي التقليدي؛ وكان لابد للجدل الدائر في مجتمع ديمقراطي حول ثورة السوق وآثارها على الحرية أن ينعكس على الشؤون السياسية الأمريكية.

أصـوات الحـريـة

من رالف والدو ايمرسون

"العَالِم والباحث الأمريكي" (1837)

ربما كان "رالف والدو إيمرسون" المفكر الأكثر ظهورًا في منتصف القرن التاسع عشر في أمريكا، وقد أصر في هذا الخطاب الشهير الذي ألقاه في كلية هارفارد على أن سيادة الحكم الذي يصدره الفرد على التقاليد الاجتماعية القائمة هي جوهر الحرية.

ربما حان الوقت بالفعل لننهي الفكر الكسول في هذه القارة حتى يخرج من الحُجُب الحديدية التي تحجبه، وحتى يستطيع الوفاء بالآمال المؤجلة التي يعقدها عليه العالم بشيء أفضل من مجرد بذل جهد مهاري ميكانيكي بطريقة روتينية خالية من الإبداع، لا بد أن الوقت قد حان لإنهاء تبعيتنا وتلمذتنا الطويلة وتَعَلُّمِنا من أراضي أخرى. . . .

يمكن استيعاب جميع الفضائل إذا توفرت الثقة بالنفس. ينبغي أن يكون الباحث والعالم شجاعًا وحرًا حتى من تعريف الحرية. . . . ليس لأنه عظيم ويستطيع تغيير الأمور، ولكن لأنه هو الذي يستطيع تغيير حالتي العقلية. العلماء والباحثين هم ملوك العالم الذين يلونون كل الطبيعة وكل الفنون بلون فكرهم الحاضر. . .

ومن العلامات المميزة لهذا العصر. . . إيلاء أهمية كبيرة للفرد المستقل، إن كل شيء يميل إلى عزل الفرد وإحاطته بحواجز الاحترام الطبيعي حتى يشعر كل رجل بأن العالم ملكه ولا يحتاج لأحد آخر، ويجب أن يعامل الرجل أخاه كصاحب سيادة يعامل صاحب سيادة آخر، يميل إلى الاتحاد وإلى العظمة. قال المعلم السويسري "بستالوزي" "لقد تعلمت أنه لا يوجد إنسان في أرض الله الواسعة لديه الرغبة أو القدرة على مساعدة أي إنسان آخر" ولذلك يجب على كل إنسان مساعدة نفسه بنفسه ولا ينتظر من أحد أن يساعده . . .

لقد استمعنا طويلاً جدًا لتأملات أوروبا ونحن تملؤنا روح المجاملة. هناك اتهامات بالفعل بأن روح الرجل الأمريكي الحر خجولة، ومقلدة، ومروضة. . . .الباحث شخص مهذب، وكسول، ولطيف؛ ويمكنك أن تشاهد بالفعل النتائج المأساوية؛ لقد تعلم عقل هذه البلاد أن يستهدف أشياء متدنية. لا يعرف الشباب حتى الآن ما إذا كان يجب على الرجل الفرد أن يبني نفسه بشكل حصين على أساس فطرته وغرائزه، وأن يبقى هناك ملتزمًا مكانه حتى يأتي العالم الكبير ليحيط به . . . سنسير على أقدامنا وسنعمل بأيدينا وسنفكر وسنتحدث بعقولنا.

من "مصنع الحياة كما هو"

بقلم عامل (1845)

تظاهرت شابات يعملن في مصانع المنسوجات القطنية في "لويل" "بماساتشوستس" مع بداية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر للمطالبة بساعات عمل أقل وظروف عمل أفضل. تسرد إحدى العاملات في المصنع في هذا الكتيب الذي يعود إلى عام 1845 تفاصيل المظالم التي تتعرض لها، وكذلك شكاوى الفتيات اللاتي يعملن كخادمات في المنازل وهن يمثلن أكبر مجموعة من النساء العاملات.

يا أهل الخير في القرن التاسع عشر، هل سيُسمح للعمال في بلدنا بالحديث عن أنفسهم؟ هل سيُجْبَر هؤلاء العمال على الاستماع في صمت [لأولئك] الذين يتكلمون عن المكاسب والذين هم مجرد صدى لإرادة الشركات؟ هل سترهب الثروة والسلطة العمال ذوي الجدارة ليبقوا صامتين خوفًا من حرمانهم من العمل وكسب القوت اليومي؟ هل سيُسْمَح للاستبداد والقمع الوحشي بتثبيت القيود المادية والعبودية العقلية بإحكام على الملايين في بلادنا الذين هم المنتجون الحقيقيون لجميع التحسينات والثروة، ويخشون من التحدث دفاعًا عن النفس النبيلة؟ هل يخافون مناشدة تعاطف الشعب أو العدالة في هذه الأمة الجمهورية الشهيرة إلى حد بعيد؟ لا سمح الله أن يحدث هذا!

كان هناك الكثير من الكتابات والحديث بالنيابة عن المرأة، وخاصة في أمريكا، ولكن مازال هناك فئة كبيرة من الإناث في الماضي وحتى الآن يرزحن تحت قيود العبودية المهينة والكدح المتواصل. أتحدث عن العناصر النسائية في "نيو إنجلاند" التي تعتبر ولايات حرة في اتحاد دولتنا ـ الولايات حيث لا يستطيع العبيد الملونون فيها أن يتنفسوا الهواء المنعش الصحي ـ ولكن مازال هناك حتى الآن مجموعة منهم أيضًا الذين هم في الحقيقة ليسوا أكثر ولا أقل من العبيد بكل معنى الكلمة! عبيدًا لنظام العمل الذي يتطلب منهم أن يكدحوا من الساعة الخامسة صباحًا حتى السابعة مساء مع ساعة واحدة فقط لإشباع الاحتياجات الطبيعة. مازال هناك من يُخضع العبيد لإرادة ومتطلبات "القوى" التي قد تتعدى على الحقوق أو للصراع مع مشاعر العبيد العاملين، عبيدًا للجهل- كيف يمكن أن يكون الحال غير هذا؟ ما هو الوقت الممنوح للعامل ليضفي على نفسه مسحة لثقافة أخلاقية أو دينية أو فكرية؟ ماذا يترك كل هذا لبلدنا لتبحث عن أي شيء سوى الجهل والرذيلة في ظل الوضع القائم؟ عندما يتم استنفاد كل نظام بالعمل المتواصل خلال اثني عشر وثلاث عشرة ساعة في اليوم الواحد، هل يمكن لأي كائن عاقل أن يتوقع أن العقل سيحتفظ بحيويته وبطاقته؟ مستحيل! ستدلنا الفطرة السليمة والمنطق أنه من قبيل

المستحيل إطلاقًا أن يتحسن العقل في ظل هذه الظروف مهما كانت الرغبة كبيرة في المعرفة.

ومرة أخرى، نسمع الكثير مما يقال حول موضوع الخير والإحسان بين الأثرياء وما يسمى الجزء المسيحي من المجتمع. أليس هناك سبب يدعونا للتشكيك في صدق أولئك الذين بينما هم يتحدثون عن الخير في الصالونات يرمون مبلغًا زهيدًا للعمال الذين يعملون لديهم ليأكلوا فتات وبقايا طعامهم في المطبخ؟ على الرغم من أنهم يعبرون عن اهتمامهم الكبير بالأرواح الكافرة والوثنية في البلاد البعيدة، إلا أنهم يبخلون بتقديم ولو القليل من الرعاية لأجساد وعقول هؤلاء الذين يعيشون في كنفهم؟

سوف يرى لوردات القطن هؤلاء الأرستقراطيون المتطفلون في "نيو إنجلاند" مدى نفوذنا وقوتنا عندما نتوحد، وسنجعلهم ينسون غرورهم ويتضرعون إلى الرب أن ينتهي الأمر. لا يمكن أن نسمح لهم بأن يدوسوا على حقوقنا وأن يفلتوا من العقاب؛ لن نخضع من الآن فصاعدا لتلك السلطة التعسفية التي كانت قد استعرضت كل قواها وعضلاتها علينا على مدى السنوات العشر الماضية.

أسئلة:

1- كيف عَرَّفَ "إيمرسون" حرية ما يسميه "الفرد المستقل"؟

2- لماذا قارنت عاملة المصنع نفسها بظروف وأحوال العبيد؟

3- إلى ماذا يشير التناقض بين هاتين الوثيقتين فيما يتعلق بتأثير ثورة السوق على الفكر الأمريكي؟

أسئلة المراجعة:

1- حدد التحسينات الرئيسية في النقل في هذه الفترة واشرح كيف أنها أثرت على اقتصاد السوق.

2- كيف عززت حكومات الولايات والحكومات المحلية الاقتصاد الوطني في هذه الفترة؟

3- كيف زاد اقتصاد السوق من الخلافات بين قطاعات الأمة؟

4- اشرح كيف أدى اقتصاد السوق لتشجيع نمو المدن في الشرق وعلى طول الحدود.

5- ما هو الدور الذي لعبه المهاجرون في مجتمع السوق الجديد؟

6- ما هي التغييرات الرئيسية في القانون الأمريكي خلال هذه الفترة؟

7- مع قيام الصحوة الكبرى الثانية بدمقرطة المسيحية الأمريكية استفادت من ثورة السوق في نفس الوقت الذي انتقدت فيه تجاوزاتها. اشرح ذلك.

8- ما هو "الولع بالحياة العائلية والمنزلية"؟ وكيف كان هذا الولع نتيجة لثورة السوق؟

أسئلة الحرية:

1- اشرح كيف أفاد نمو مملكة القطن المزارعين وغيرهم من مالكي العبيد، ولكنه قلل في نفس الوقت حريات المزارعين الأكثر فقرًا في الجنوب والأمريكيين الأفارقة.

2- كيف حد نمو نظام المصنع من الحريات التقليدية للحرفيين الأمريكيين؟ كيف كان رد فعلهم على ذلك؟

3- أضافت ثورة السوق مصطلحات جديدة إلى المعجم الأمريكي. اشرح كيف ارتبط كل من المفاهيم التالية بتغيير في الحرية الفردية: الأجور، والوقت على مدار الساعة، رجل عصامي، الخصوصية، الطبقة المتوسطة.

4- قدمت طبعة عام 1828 من قاموس نواه وبستر الأمريكي تعريفًا للحرية بأنها "حالة الإعفاء من سلطة وسيطرة الآخر." قيِّم باستخدام هذا التعريف أثر ثورة السوق على حريات النساء البيض والأمريكيين من أصل أفريقي والمهاجرين والعمال بأجر.

5- اشرح كيف غيَّرت ثورة السوق معاني الحرية الأمريكية، سواء من خلال تعزيز الأفكار القديمة أو إنشاء أخرى جديدة.

جدول المراجعة		
أهم أحداث ثورة السوق		
الحدث	التاريخ	الإنجاز
الكونجرس يقر تخصيص أرصدة لطريق وطني	1806	طريق "كمبرلاند" يصل إلى نهر "أوهايو" في عام 1818 و"إلينوي" في عام 1838
الباخرة "كليرمون" التي اخترعها "روبرت فولتون" تبحر في نهر هدسون	1807	جعلت التجارة إلى أعلى الأنهار الرئيسية ممكنه في البلاد
افتتاح مصنع "والثام" للنسيج	1814	مصانع المنطقة البالغ عددها 52 توظف 10000 عامل بحلول عام 1850
قضية "دارماوث كوليدج"	1819	المحكمة تُعَرِّف امتيازات الشركات الصادرة عن الولايات كعقود
إكمال قناة "إيري"	1825	تربط مدينة نيويورك بمنطقة البحيرات العظمى
العمل يبدأ في أول طريق للسكك الحديدية التجارية في البلاد (B & O)	1828	شبكة السكك الحديدية الوطنية تزيد إلى 30.000 كيلومتر بحلول عام 1860
اختراع "ماكورميك" لآلة الحصد واختراع "دير" للمحراث الصلب	الثلاثينيات من القرن التاسع عشر	جعلت الإنتاج الضخم لحبوب المحاصيل ممكنا
قضية كومنولث ضد هانت	1842	أكد مشروعية نقابات العمال والاضرابات
وضع التلغراف للتشغيل التجاري	1844	مد خط التلغراف لمسافة 50.000 ميل بحلول عام 1860

الفصل العاشر

1811	انتهاء امتياز بنك الولايات المتحدة
1816	إنشاء البنك الثاني للولايات المتحدة
1817	تنصيب "جيمس مونرو"
1819	ذعر عام 1819
	قضية "مكلوتش ضد ميريلاند"
1820	تسوية ولاية ""ميزوري""
1823	مذهب "مونرو"
1825	تنصيب "جون كوينسي آدامز"
1828	"تعريفة البغض الشديد" المعرض والاحتجاج
1829	تنصيب"اندرو جاكسون"
1830 – 1833	أزمة الإبطال
1830	قانون إزاحة الهنود
1831	قضية أمة "شيروكي" ضد "جورجيا"
1832	قضية "ووستر ضد جورجيا"
1833	الديمقراطية "لتوكفيل" في أمريكا
1835 – 1842	حربا سيمينول الثانية
1837	تنصيب "مارتن فان بورين"
1837 - 1843	ذعر عام 1837
1838 – 1839	طريق الدموع
1841	تنصيب "ويليام هنري هاريسون"
	حرب در

الديمقراطية في أمريكا ، 1815-1840

انتصار الديمقراطية
- المِلكيَّة والديمقراطية
- حرب "در"
- "توكفيل" حول الديمقراطية
- ثورة المعلومات
- حدود الديمقراطية
- الديمقراطية العنصرية
- الأصل العرقي والطبقة الاجتماعية

القومية والساخطين عليها
- النظام الأمريكي
- البنوك والمال
- ذعر عام 1819
- سياسة الذعر
- الجدل حول "ميزوري"
- قضية العبودية

الأمة والقسم والحزب
- حرب الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية للاستقلال
- مذهب "مونرو"
- انتخابات عام 1824
- قومية "جون كوينسي آدامز"
- "الحرية هي القوة"
- "مارتن فان بورين" والحزب الديمقراطي
- انتخابات عام 1828

عصر جاكسون
- نظام الحزب
- الديمقراطيون والمعادون لهم
- الحرية العامة والحرية الخاصة
- السياسة والأخلاق
- "ساوث كارولينا" والإلغاء
- نظرية "كالهون" السياسية
- أزمة البطلان
- إزاحة الهنود
- المحكمة العليا والهنود

حرب البنوك وما بعدها
- "بنك بيدل"
- البنوك المدللة والاقتصاد
- ذعر عام 1837
- "فان بيورين" يتولى منصب الرئيس
- انتخابات عام 1840
- الرئيس النائب وليس المنتخب

أسئلة تركيز:

- ما هي القواعد الاجتماعية الأساسية للديمقراطية المزدهرة في أوائل منتصف القرن التاسع عشر؟
- ما هي الجهود التي بُذِلَت في هذه الفترة لتعزيز التكامل الاقتصادي للأمة، وما هي الأزمات الكبرى التي أعاقت هذه الجهود؟
- ما هي مناطق النزاع الكبرى بين القومية والإقليمية؟
- كيف جَسَّدَ "أندرو جاكسون" التناقضات بين الديمقراطية والقومية؟
- كيف أثَّرت حرب البنك على الاقتصاد والمنافسة الحزبية؟

أوضح تنصيب "أندرو جاكسون" في 4 مارس (آذار) 1829 أن شيئًا ما قد تغير في العمل السياسي في أمريكا. كان حفل أداء الرئيس لليمين الدستورية في السابق حدثًا مبجلاً يجري على نطاق صغير. وقد اجتذب حفل تنصيب "جاكسون" حشد من حوالي 20.000 شخص، تدفقوا على البيت الأبيض بعد الحفل؛ ونتيجة لتدافعهم الشديد تعرض الأثاث للتلف وانكسرت الأواني الصينية والزجاجية؛ وقد أعرب قاضي المحكمة العليا "جوزيف ستوري" عن أسفه عما حدث، واصفًا إياه بأنه "كان يشبه عهد ملك الجماهير الغوغاء الرعاع".

أثار "جاكسون" مشاعر قوية مؤيدة ومعارضة. كان أنصاره يرون أن انتخابه يعني مجيء الديمقراطية الحقيقية ووصول "الرجل العادي" إلى السلطة. وسَجَّلَ الزعيم السياسي في "نيويورك" "فيليب هون"، في مذكراته المفصَّلة التي كتبها لأكثر من ثلاثين عاما، أن جاكسون كان "هو الرجل الأكثر شعبية ممن عرفنا حتى الآن." وقد صَوَّتَ هون لصالح الرئيس "جون كوينسي آدامز" في انتخابات عام 1828، لكنه اعترف بأن سلوك، ومواقف، ومعتقدات "جاكسون" الديمقراطية "تناسب [الشعب] تماما." على الجانب الآخر، اعتبر النقاد أن "جاكسون" طاغية، وكان يطلقون عليه اسم الملك "أندرو الأول"، وعندما نَظَّمَوا حزب سياسي، أطلقوا على حزبهم اسم حزب الهويج نسبة إلى معارضي السلطة الحاكمة في إنجلترا في القرن الثامن عشر.

وقد جَسَّدَت مسيرة "أندرو جاكسون" معظم التطورات الرئيسية التي حدثت في عهده، ومنها ثورة السوق والحركة باتجاه الغرب، والتوسع في الرق، ونمو الديمقراطية؛ لقد كان رمزًا لرجل عصامي. على عكس الرؤساء السابقين، ارتفع "جاكسون" إلى الصدارة بالرغم من خلفيته المتواضعة مما يعكس فرص الديمقراطية في عصره. وُلِدَ "جاكسون" في عام 1767على حدود ولاية "ساوث كارولينا"، وقد قُتِلَ أباه خلال الثورة الأمريكية. بدت على "جاكسون" منذ صغره صفات الشجاعة والاندفاع وهو ما اشتهر به لاحقا؛ وبينما كان لا يزال شابا عمل مراسلاً للقوى الوطنية خلال حرب الاستقلال، وقد تعرض للاعتقال والسجن وكان على وشك القتل عندما ضربه ضابط بريطاني بالسيف، بعد أن رفض أمرًا بتلميع حذاءه.

انتقل "جاكسون" إلى "تنيسي" عندما كان شابا، حيث درس القانون وانخرط في السياسة المحلية، وفاز في انتخابات مجلس النواب ومجلس الشيوخ في السبعينيات من القرن الثامن عشر، وأصبح قاضيًا في المحكمة العليا بالولاية. ساعدت حملاته العسكرية ضد البريطانيين والهنود على تعزيز السيطرة الأمريكية في العمق الجنوبي مما جعل صعود مملكة القطن ممكنا، وحصل هو شخصيًا على مزرعة كبيرة في ولاية "تنيسي"؛ ومع ذلك، كان أهم من ذلك كله بالنسبة لهذا الجيل من الأمريكيين هو أن "أندرو جاكسون" كان يرمز لأحد أهم ملامح الحياة الوطنية، ألا وهو انتصار الديمقراطية السياسية.

يفخر الأمريكيون بأنهم أقدم ديمقراطية في العالم؛ وقد يكون لنيوزيلندا الحق في هذه الدعوى، حيث إنها منحت في دستورها لعام 1893 للمرأة والسكان الأصليين "الماوري" الحق في التصويت. حتى في القرن التاسع عشر، عندما كانت الديمقراطية تعني حق الذكور في الاقتراع، مدت بعض دول أمريكا اللاتينية حق التصويت للسود الأحرار والمنحدرين من السكان الأصليين قبل الولايات المتحدة بكثير. تخلفت أوروبا عن الركب، حيث لم تحقق بريطانيا حق الاقتراع العام للذكور حتى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، بينما تبنت فرنسا هذا النظام في عام 1793 وتخلت عنه في عام 1799، وأعادته مرة أخرى في عام 1848 ثم تخلت عنه مرة أخرى بعد بضع سنوات. ربما كان سبق أمريكا ليس في انتهاج الديمقراطية، ولكن في أنها أصبحت جزءًا من تعريف الجنسية الأمريكية وفكرة الأمريكيين عن الحرية.

انتصار الديمقراطية

الديمقراطية والمِلْكِيَة

كانت ثورة السوق والتوسع الإقليمي مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بعنصر ثالث أساسي للحرية الأمريكية، وهو الديمقراطية السياسية. بدأ الطعن على شرط المِلْكِيَّة العقارية للتأهل للتصويت خلال الثورة الأمريكية، وبلغت ذروته في أوائل القرن التاسع عشر. لم تتطلب أي من الولايات التي دخلت الاتحاد بعد الثلاث عشرة ولاية الأصلية شرط مِلْكِيَّة عقارية للتصويت. وقد أعادت المواثيق الدستورية في الولايات القديمة خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر النظر في الأساس الاقتصادي للديمقراطية؛ وعلى الرغم أن التوسع في الصناعة والزراعة التجارية أدى إلى زيادة عدد العاملين بأجر في المدن والمناطق الريفية القديمة، إلا أن الرجال الذين لم يتمكنوا من الوفاء بمتطلبات المِلْكِيَّة أصروا على أنهم يتمتعون بالأهلية بنفس القدر مثل الآخرين لممارسة حقوق المواطنة، وبالفعل نجح ضغطهم وإصرارهم في تحقيق الكثير لدمقرطة الشؤون السياسية الأمريكية.

وقدم "الأحرار المجردون من المِلْكِيَّة" [الرجال المعدمين] في "ريتشموند" التماسًا إلى المؤتمر الدستوري لولاية فرجينيا لعام 1829، أعلنوا فيه أن المِلْكِيَّة العقارية لا تعني بالضرورة امتلاك أصحابها "لمواهب أخلاقية أو فكرية" متفوقة على الفقراء، وأضافوا قائلين "من يستحق أن يطلق عليهم اسم أحرار هم فقط أولئك الذين يشاركون في تشكيل مؤسساتهم السياسية"، وبحلول ذلك الوقت كانت "نورث كارولينا" و"رود آيلاند" و"فيرجينيا" فقط لا تزال تحتفظ بشرط متطلبات المِلْكِيَّة للتأهل للتصويت. قاوم كبار مالكي العبيد الذين كانوا يهيمنون على السياسة في فرجينيا بنجاح مطالب لإجراء تغييرات في مؤهلات التصويت في عام 1829، إلا أن ميثاقًا دستوريًا

لاحقًا عُقِدَ في عام 1850 نجح في إلغاء شرط المِلْكِيَّة؛ وعلى الرغم من تباين سرعة العملية من ولاية لأخرى، أنهت جميع الولايات، باستثناء ولاية واحدة، متطلبات المِلْكِيَّة للتأهل للتصويت بحلول عام 1860 (على الرغم من استمرار العديد من الولايات في منع الأشخاص الذين يحصلون على إعانة الفقر من التصويت على أساس أنهم يفتقرون إلى الاستقلال الحقيقي)؛ ولم يعد يستند الاستقلال الشخصي الضروري للمواطن آنذاك على المِلْكِيَة العقارية ولكن على ملكية المرء لنفسه- وهو ما يشكل انعكاس لتلك الحقبة الفردانية.

حرب "در"

كانت "رود آيلاند" الاستثناء الوحيد للتوجه نحو الديمقراطية، حيث كانت تتطلب أن يمتلك الناخبون عقارات لا تقل قيمتها عن 134 دولارًا أمريكيًا أو يؤجر مِلْكِيَّة بقيمة ايجارية لا تقل عن 7 دولارات في السنة؛ ونظرًا لأن "رود آيلاند" كانت مركزًا للإنتاج الصناعي، لذلك كان عدد السكان بها يتزايد بشكل مطرد من العاملين بأجر غير المالكين لعقارات، وبالتالي كانوا غير قادرين على التصويت. اشتكى قادة الحركة العمالية بالولاية مرارًا من غياب الانتخابات الحرة. نظَّم أنصار الإصلاح الديمقراطي في أكتوبر (تشرين أول) عام 1841 مؤتمرًا شعبيا، صاغوا من خلاله مسودة لدستور جديد للولاية منح حق الاقتراع لجميع الرجال البالغين البيض، وحظر هذا الحق تمامًا عن السود الذين كان يمكنهم التصويت سابقًا إذا كانوا يملكون المبلغ المطلوب من المِلْكِيَّة (مثال آخر على كيف أن التوسع في حرية البيض يتزامن أحيانًا مع فرض القيود على حرية غير البيض). عندما صادق الإصلاحيون على دستورهم في استفتاء غير قانوني، وشرعوا بعد ذلك في تنصيب "توماس در" المحامي البارز في "رود آيلاند" كحاكم، قرر الرئيس "جون تايلر" إرسال القوات الاتحادية للولاية، فانهارت الحركة وصدر حكم على "در" بالسجن ما يقرب من عامين مع الشغل بتهمة الخيانة. أظهرت حرب "در" المشاعر التي أثارها استمرار استبعاد أي مجموعة من الرجال البيض عن التصويت، وبالفعل سرعان ما ألغت السلطة التشريعية شرط المِلْكِيَة للمولودين الذكور من سكان الولاية الأصليين، سواء كانوا من البيض أو من السود ولكنها احتفظت بهذا الشرط للمهاجرين حتى عام 1888.

توكفيل والديمقراطية

بحلول عام 1840، كان أكثر من 90 في المائة من الرجال البالغين البيض يحق لهم التصويت، وقد تم توحيد نظام ديمقراطي مزدهر. كانت السياسة الأمريكية عاصفة وحزبية للغاية، وأحيانًا عنيفة وأستنفرت طاقات أعداد هائلة من المواطنين؛ غير أنه في بلد يفتقر إلى أكثر الأسس التقليدية للحصول على الجنسية، ولديها جارة قوية وتشكل تهديد لها وذات وحدة تاريخية،

وعرقية، ودينية، وثقافية، يجب أن تطلع فيها مؤسسات سياسية ديمقراطية برسم معالم الشعور القومي لهويتها.

وقد عاد الكاتب الفرنسي "ألكسيس دي توكفيل" إلى وطنه بعد زيارة إلى الولايات المتحدة في أوائل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وألف كتابًا بعنوان "الديمقراطية في أمريكا"، حيث قدم فيه تقريرًا عن مجتمع في خضم التحول السياسي، وكان قد جاء إلى الولايات المتحدة لدراسة السجون، ولكن سرعان ما أدرك أنه لابد له من فهم الديمقراطية حتى يستطيع فهم أمريكا (والذي كان عليه كشخص ذو خلفية أرستقراطية، أن يكرهها). كانت رؤيته الثاقبة الرئيسية تتمثل في أن الديمقراطية في هذا الوقت تعني أكثر بكثير من مجرد الحق في التصويت أو مجموعة معينة من المؤسسات السياسية، إنها ما يسميه العلماء "عادة القلب"، إنها الثقافة التي تشجع المبادرة الفردية وتؤمن بالمساواة، وهي مجال عام نشط يحفل بالعديد من المنظمات الخيرية التي تسعى إلى تحسين المجتمع؛ وباختصار كان "توكفيل" يرى أن الديمقراطية أصبحت سمة أساسية للحرية الأمريكية.

وكما اعترف "توكفيل"، فإن ظهور الديمقراطية يمثل تحولاً سياسيًا عميقا، حيث كانت فكرة أن السيادة ملك للجماهير العادية من الشعب بمثابة انطلاقة جديدة في الفكر الغربي. حذر الفلاسفة منذ أرسطو من أنه لابد أن تتحول الديمقراطية السياسية إلى حالة من الفوضى والطغيان، وبالفعل هيمنت عقيدة الحق الإلهي والسلطة الهرمية على الفكر السياسي لقرون. كان مؤسسو الجمهورية يعتقدون أن الحكومة يجب أن ترتكز على قبول المحكومين، وسعوا أيضًا إلى حماية السلطة السياسية من التأثير المفرط من قبل الناس العاديين (بما في ذلك أيضًا الهيئة الانتخابية والمحكمة العليا والملامح الأخرى غير الديمقراطية في الدستور)؛ ومع ذلك وبفضل الضغط المستمر من المستبعدين أصلاً من المشاركة السياسية، انتصرت الديمقراطية للذكور البيض بحلول عهد "جاكسون".

عززت الديمقراطية الشعور بالمساواة بين أولئك الذين ينتمون إلى العشيرة السياسية، وعمقت الفجوة التي تفصلهم عن أولئك الذين لا ينتمون إلى تلك العشيرة. ساعدت المشاركة في الانتخابات والمواكب والمهرجانات المحيطة بها - المتمثلة في الاستعراضات، والألعاب النارية، والاجتماعات الجماهيرية، والاجتماعات الحزبية - على تعريف "شعب الولايات المتحدة"، وأصبح الحق في التصويت شعارًا للمواطنة الأمريكية على نحو متزايد، رغم أنه كان لا يزال من الناحية القانونية امتيازًا وليس حقًا وكان يخضع للتنظيم من قبل كل ولاية. ذكر قاموس "نواه ويبستر" الأمريكي، رغم ذلك، أنه وفقًا للاستخدام العام والفهم السائد في أمريكا (ولكن ليس

في أوروبا)، أصبح مصطلح "المواطن" مرادفًا للحق في التصويت، وقد عبر أحد دعاة الإصلاح الديمقراطي قائلاً أن حق الاقتراع "هو أول علامات الحرية والشارة الوحيدة الحقيقية للإنسان الحر".

ثورة المعلومات

أفرزت ثورة السوق والديمقراطية السياسية توسعًا كبيرًا في المجال العام وزيادة هائلة في الطباعة فيما يسمى أحيانًا "ثورة المعلومات". أدى استخدام طاقة البخار في طباعة الصحف إلى زيادة كبيرة في الإنتاج والانتشار الواسع "للصحافة رخيصة السعر"، حيث لا يتجاوز سعر النسخة سنتًا واحدا، بدلاً من السعر التقليدي المقدر بستة سنتات. كانت تقدم صحف، مثل "نيويورك صن" و"نيويورك" هيرالد، نمطًا جديدًا من الصحافة يثير إعجاب جمهور كبير من خلال التركيز على الإثارة، وقصص الجريمة، والكشف عن سوء سلوك المسئولين الرسميين، حتى أنه بحلول عام 1840، تجاوز مجموع النسخ المتداولة أسبوعيًا من الصحف وفقًا لأحد التقديرات في الولايات المتحدة، التي يبلغ سكانها 17 مليون نسمة، عدد النسخ المتداولة في أوروبا التي يبلغ سكانها 233 مليون نسمة.

لم يقتصر توزيع الصحف على داخل الولايات المتحدة، وإنما تجاوزها إلى خارج حدود طبعها ونشرها بفضل انخفاض معدلات الرسوم البريدية؛ حتى أنها فاقت الخطابات الخاصة في معدل الحركة البريدية بحلول الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. ساهم ظهور الأحزاب السياسية المنظمة أيضًا في التحفيز على نشر الصحف، وكان لدى كل حزب كبير حاجة لأن تدعم الصحف وجهات نظره في كل أنحاء البلاد، وكانت عقود الطباعة الحكومية ضمن الأعمال الأساسية لمعظم الصحف للبقاء على قيد الحياة، وارتفع بشكل كبير نشر جميع أنواع المجلات، ودليل السفر، ودليل المشورة، والألقاب الدينية، ومواد القراءة الأخرى.

كان من ضمن مزايا خفض تكلفة الطباعة أيضًا أنه جعل من الممكن ظهور الصحف "البديلة" في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، بما في ذلك مجلة الحرية (أول صحيفة للسود)، ومجلات العمل المتخصصة مثل "حماة ميكانيكي فيلادلفيا" وغيرها من منشورات العمل الأخرى، والمجلات الأسبوعية المتحدثة باسم المطالبين بإلغاء العبودية مثل "المُحَرِر"، و"شيروكي"، و"شيروكي فينيكس" التي تعتبر أول صحيفة مختصة بالأمريكيين الأصليين.

ثمة وجه آخر لديمقراطية الحياة الأمريكية يتمثل في نمو جمهور القراء مما فتح الباب أمام ظهور جيل جديد من الكاتبات، مثل "ليديا ماريا تشايلد"، و"كاترين ماريا سيدجويك"، و"كاترين بيتشر" وغيرهن ممن نشرن الشعر، والمقالات، وكتيبات إرشادية للحياة المنزلية؛ وعلاوة على

ذلك، استطاعت الآلاف من النساء بحلول الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، ومن خلال المشاركة في الحركات الدينية والحركات الإصلاحية إثبات وجودهن الجماهيري كما سنشرح في الفصل الثاني عشر؛ ومع ذلك، بمجرد أن أضافت "نيو جيرسي" كلمة "الذكور" في متطلبات التصويت بها في عام 1807، تم حرمان النساء من حق التصويت في كل مكان، سواء كن متزوجات أو غير متزوجات، صاحبات ملكية عقارية أو مجردات من الملكية.

حدود الديمقراطية

أصبح مبدأ "حكم الشعب" جزءًا مقبولاً على نطاق عالمي من السياسة الأمريكية بحلول الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وتحديدًا في عهد رئاسة "أندرو جاكسون"؛ وقد كتب "توكفيل" قائلا إن هؤلاء الذين يعارضون هذا المبدأ إنما "يخفون رؤوسهم حتى لا يروا الحقيقة الجلية"، ولكن أهمية الديمقراطية في تعريف كل من الحرية والجنسية جعلت من الأهم تعريف حدود الأمة السياسية؛ وبينما سقطت بعض الاستثناءات الاقتصادية القديمة ظل البعض الآخر مستمرا، وظهرت استثناءات أخرى جديدة، وبذلك أصبحت الحياة العامة القوية لأمريكا ما قبل الحرب توسعية وحصرية في وقت واحد، وكانت حدودها جوهرية بالنسبة لطبيعتها تمامًا مثل نطاقها الواسع. تستطيع الديمقراطية في أمريكا استيعاب الرجال البيض الفقراء المولودين فيها وكذلك موجات المهاجرين، إلا أنها شيدت الحواجز التي تمنع النساء والرجال غير البيض من المشاركة الكاملة في ثورة السوق كما ذكرنا في الفصل السابق.

أعلنت "مجلة الولايات المتحدة ومجلة الديمقراطية" في عام 1851، أن "مبدأ الاقتراع العام" يعني أن "الذكور البالغين البيض يشكلون الأمة السياسية. "كيف يمكن التوفيق بين كلمة "شاملة" مع منع السود والنساء من المشاركة السياسية؟ جاءت الإجابة بأن الأسس الفكرية للاستبعاد من المشاركة السياسية تحولت من التبعية الاقتصادية إلى العجز الطبيعي، وذلك نتيجة لانتصار الديمقراطية، حيث كان من المفهوم على نطاق واسع أن الفروق بين نوعي الجنس والاختلافات العرقية بمثابة جزء من تسلسل هرمي طبيعي واحد للمواهب الطبيعية الفطرية، وأن الحدود التي ترسمها الطبيعة بنفسها لا تعتبر حقًا استبعادًا على الإطلاق؛ وتساءلت صحيفة "نيويورك هيرالد" في عام 1852 "كيف خضعت المرأة في بداية الخليقة للرجل كما هي حتى الآن في جميع أنحاء العالم؟ إنها طبيعتها، أي جنسها، تمامًا كما هو الحال مع الزنجي والذي سيظل إلى الأبد عرقًا أدنى من عرق البيض، وبالتالي يظل محكومًا على المرأة وعلى السود بالخضوع." لذلك، من المفارقات أنه بينما تنطوي الحرية بالنسبة للرجال البيض على عملية مفتوحة للتحول والتطوير الشخصي الذي يعزز على أكمل وجه الإمكانات والطاقات المتأصلة داخل كل إنسان، إلا أن

نفس هذه الحرية تستند في حدود الديمقراطية الأمريكية على الاعتقاد بأن شخصية وقدرات غير البيض والنساء ثابتة إلى الأبد بحكم الفطرة والطبيعة، ولن تتطور أو تتغير؛ وبالتالي تظل خاضعة وغير كاملة الحرية وغير مؤهلة لممارسة الديمقراطية والتمتع بها.

وقد استمر النقاش حول الأشخاص المؤهلين والغير مؤهلين للمشاركة في الديمقراطية الأمريكية لفترة طويلة حتى أثناء القرن العشرين، ولم يتم تعديل الدستور حتى عام 1920 لمطالبة الولايات السماح للنساء بالتصويت. وقد ألغى قانون حقوق التصويت لعام 1965 القيود على تصويت السود، والتي كانت مفروضة في العديد من الولايات الجنوبية، ولا يزال الجدل قائمًا حتى اليوم حول حقوق المهاجرين والأشخاص الذين أمضوا عقوبات بالسجن والفقراء في التصويت.

تم تعريف العالم السياسي في القرن التاسع عشر، والذي كان بمثابة ساحة لممارسة الحرية الأمريكية بصورة جزئية بأنه على النقيض من عالم المرأة في المنزل. لم تكن الحرية في المجال العام تعني ضمنيًا بأي حال من الأحوال الحرية في الحياة الخاصة. أشار "رالف والدو إيمرسون" الملقب بلقب "الراديكالي الأكثر تطرفا" في يومياته لعام 1841، ومن المرجح أن يكون محافظًا "فيما يتعلق بنظرية الزواج، وقد أعلنت النيويورك هيرالد أنه ليس للمرأة أي حق فيما وراء حقها في المعاملة الكريمة" من الزوج وأي ملكية يسمح القانون لها بتملكها. . . وأي حقوق يراود العامة" أي مخاوف بشأنها.

ديمقراطية عرقية

إذا كان استبعاد المرأة من الحرية السياسية قد استمر كممارسة لفترة طويلة، فقد ميَّز ربط الديمقراطية بلون البشرة البيضاء على نحو متزايد انطلاقة جديدة؛ حيث أشار "توكفيل" أن "المساواة" أصبحت هاجسًا أمريكيًا بحلول الثلاثينيات من القرن التاسع عشر؛ وعلى النقيض من المجتمعات الطبقية بشكل سافر في أوروبا، لم تكن هناك فروق بين الأمريكيين البيض من مختلف الطبقات الاجتماعية، حيث كان الجميع من مختلف الطبقات يرتدون نفس الملابس ويسافرون في نفس مركبات السفر التي تجرها الجياد وفي نفس عربات السكك الحديدية، ويقيمون في نفس الفنادق؛ ومع ذلك، كان السود يعتبرون بشكل متزايد مجموعة منفصلة.

أصبحت المخيلة العنصرية بمثابة مخزون جاهز للعروض المسرحية الشعبية، مثل العروض الموسيقية القصيرة التي يظهر فيها الممثلون البيض وقد دهنوا وجوههم بالسواد لتسلية الجمهور من خلال تصوير الأمريكيين من أصل إفريقي بأنهم أغبياء، وغير شرفاء، ومثيرين للسخرية تماما؛ وباستثناء "هيرمان ميلفيل" الذي يصور شخصيات سوداء في أدوار معقدة، وأحيانًا بطولية

في أعمال مثل "موبي ديك وبينيتو سيرينو" (سيرينو هو اسم لشخصية خيالية لأحد العبيد المتمردين على متن السفينة)، أخذ المؤلفون الأمريكيون موقفًا من السود، إما بتجاهلهم كليًا أو بتقديمهم في قوالب نمطية في صورة عبد سعيد عرضة للخرافة أو المعاناة الطويلة، ولكنه مسيحي ورع. تطور في نفس الوقت التفكير المترد إلى حد ما في عصر الثورة عن وضع غير البيض إلى أيديولوجية محكمة للتفوق العنصري والدونية الكاملة على أسس "علمية"؛ وقد أثرت هذه التطورات على حدود العشيرة السياسية.

انحصر قصر التصويت صراحة على البيض في عصر الثورة على "فرجينيا"، و"ساوث كارولينا"، و"جورجيا"؛ على الرغم من أن العُرْفْ والتقاليد في أماكن أخرى جعلا من الصعب على السود الأحرار ممارسة حق الانتخاب في أي مكان آخر، ولم تحظر أي ولاية شمالية على السود حق التصويت حتى عام 1800، غير أن كل ولاية انضمت للاتحاد الفيدرالي بعد ذلك العام، مع استثناء واحد في ولاية "مين"، قصرت حق التصويت على الذكور البيض، حتى تلك الولايات التي كانت قد منحت السود امتياز بالحق في التصويت، قامت بإلغاء هذا الامتياز بدءًا بولاية "كنتاكي" في عام 1799 ثم ولاية "ميريلاند" بعد ذلك بعامين.

العرق والطبقة

رفع نفس المؤتمر الدستوري لنيويورك، الذي ألغى شرط المِلْكِيَة العقارية لتأهيل الذكور البيض للتصويت في الانتخابات، بفرض زيادة في قيمة هذا الشرط في عام 1821 للناخبين السود بحيث لا تقل عن 250 دولارًا أمريكيًا، وهو مبلغ لم يكن في متناول كل السكان السود في الولاية تقريبًا آنذاك؛ وحظرت ولاية "نورث كارولينا" على السود الأحرار حق التصويت في عام 1835، وفعلت "بنسلفانيا" و"فيلادلفيا" نفس الشيء بعد ثلاث سنوات، على الرغم من أنهما كانا موطنًا لمجتمع ناجح اقتصاديًا من السود. رفض "ثاديوس ستيفنز"، أحد أعضاء وفد المؤتمر الدستوري "لبنسلفانيا" التوقيع على الوثيقة الكاملة لاشتراطها قصر حق الاقتراع على البيض، وقد أصبح فيما بعد قائدًا في حركات المطالبة بحقوق المساواة للأمريكيين من أصل إفريقي بعد الحرب الأهلية، وقد حصل السود بحلول عام 1860 على حق التصويت على قدم المساواة مع البيض في خمس ولايات فقط، وكانت نيو إنجلاند تضم مجتمعة 4 في المائة فقط من سكان البلاد السود الأحرار؛ وقد وصف وفد مؤتمر "بنسلفانيا" في عام 1837 الولايات المتحدة بأنها "المجتمع السياسي للأشخاص البيض".

وعلى الرغم من أوجه عدم المساواة العنصرية، اعتقد كثيرون من البيض من الجيل الثوري أن الأمريكيين من أصل إفريقي "مواطنون ملونون" وأعضاء محتملون في الأمة، ولكن تعريف

الأمة السياسية أصبح في القرن التاسع عشر مرتبطًا أكثر وأكثر بالعرق؛ وحظرت الحكومة الاتحادية على السود الأحرار الخدمة في ميليشيات وجيش الولاية (على الرغم من أن البحرية ضمت بها بعض البحارة السود). لم تمنح أي ولاية للسود الأحرار ما يعتبر اليوم مساواة كاملة أمام القانون، ففي "إلينوي" على سبيل المثال، لم يكن السود يستطيعون التصويت أو الإدلاء بالشهادة أو رفع دعوى في المحكمة أو الخدمة في الميليشيات أو الالتحاق بالمدارس العامة؛ وباختصار، كان السود مثل الأجانب ولم يُعاملوا كأمريكيين، كما أعلن زعيم سياسي في ولاية "مينيسوتا" قائلا "إنهم دخلاء بيننا".

وفي الحقيقة، حَلَّ الأصل العرقي محل الطبقة الاجتماعية في رسم الحدود بين أولئك الرجال الأمريكيين الذين كان يحق لهم التمتع بالحرية السياسية، وأولئك الذين حُرِمُوا من هذا الحق؛ بالرغم من أن هذا التركيز على الأصل العرقي قد حدَّ من المجتمع السياسي في أمريكا ككل، إلا أنه ساعد على ترسيخ الشعور بالهوية الوطنية بين مجموعات متنوعة من أصل أوروبي، حيث إنه من الصعب أن نبالغ في أهمية حقيقة أن المهاجرين الذكور البيض كانوا يستطيعون التصويت في بعض الولايات بمجرد وصولهم لأمريكا تقريبا، في حين أن ما يقرب من جميع السود الأحرار (وبطبيعة الحال العبيد) الذين عاش أجدادهم في البلاد لعدة قرون لا يمكنهم التصويت على الإطلاق في بلد أصبح فيه حق التصويت محوريًا لمعنى الحرية.

القومية والسخط عليها

النظام الأمريكي

انتهت حرب عام 1812 التي خاضتها الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى اللتان كانتا تمثلان القوتين العسكريتين العظمتين في العالم لرسم الحدود، بإثارة موجة من الفخر بالقومية؛ ومع ذلك، كشفت الحرب أيضًا كيف أن الولايات المتحدة لا تزال بعيدة عن أن تكون أمة متكاملة. مع غياب بنك الولايات المتحدة بعد انتهاء امتيازه في عام 1811، كانت البلاد تفتقر لوجود عملة موحدة ووجدت أنه يكاد يكون من المستحيل جمع الأموال لتغطية تكاليف وأعباء الحرب؛ ونظرًا لحالة وسائل النقل البدائية، تبين أنه من الصعب جدًا نقل الرجال والبضائع إلى جميع أنحاء البلاد، حتى أن شحنة واحدة من الإمدادات من "نيو إنجلاند" استغرقت خمسة وسبعين يومًا للوصول إلى "نيو أورليانز". مع تحقق السلام، وجدت المؤسسات الصناعية، التي نشأت عندما كانت التجارة معلقة مع بريطانيا، منافسة شديدة من السلع المستوردة منخفضة التكلفة. كان الجيل الأصغر سنًا من الجمهوريين، بقيادة "هنري كلاي" و"جون سي كالهون"، يعتقدون أن هذه "الصناعات الوليدة" تستحق الحماية الوطنية، وبالرغم من الاحتفاظ برؤية "جيفرسون" للجمهورية

الزراعية، إلا أنهم أصروا على أن الزراعة يجب أن تُستَكمَل بقطاع الصناعة حتى تصبح البلاد مستقلة اقتصاديًا عن بريطانيا.

وكما ذكرنا في الفصل السابق، كان الكونجرس قد وافق في عام 1806 على استخدام الأموال العامة لبناء الطريق الوطني المُعَبَّد من "كمبرلاند" في ميريلاند" إلى وادي "أوهايو". وضع وزير "جيفرسون" للخزينة "ألبرت جالاتين" بعد ذلك بعامين الخطوط العريضة لخطة الحكومة الاتحادية لربط الأمة العظمى معًا عن طريق بناء الطرق والقنوات صعودًا وهبوطًا على طول الساحل الشرقي، وربط ساحل المحيط الأطلسي بالبحيرات العظمى، و"أوهايو"، وأنهار "المسيسيبي"، ولكن هذا الاقتراح سقط ضحية المنافسات الإقليمية ومخاوف السلطة الوطنية المفرطة، ولكن عادت الفكرة لحيز الوجود بعد حرب عام 1812.

قدم الرئيس "جيمس ماديسون" في رسالته السنوية (التي تُعْرَفُ الآن باسم خطاب الدولة الاتحادية) التي ألقاها أمام الكونجرس في ديسمبر (كانون الأول) عام 1815، وطرح مخططًا للتنمية الاقتصادية الذي تروج له الحكومة، والذي أصبح يُعْرَفُ باسم "النظام الأمريكي" وهي التسمية التي صاغها "هنري كلاي". (ولا ينبغي الخلط بينه وبين "النظام الأمريكي للشركات الصناعية" المذكور في الفصل السابق والذي أشار إلى وسيلة للإنتاج الضخم للسلع ذات الأجزاء القابلة للتبديل، وليس برنامجًا سياسيًا للنمو الاقتصادي). ترتكز الخطة على ثلاث ركائز: بنك وطني جديد، وفرض رسوم جمركية على السلع المصنعة المستوردة لحماية الصناعة الأمريكية، والتمويل الاتحادي لتحسين الطرق والقنوات. كانت النقطة الأخيرة الخاصة بالتمويل الاتحادي لتحسين الطرق والقنوات ذات أهمية خاصة لأولئك الذين يساورهم القلق بشأن مخاطر انقسام الأمة وعدم توحدها. ناشد "جون سي كالهون" الكونجرس في عام 1815 قائلا "دعونا نربط الأمة معًا بنظام مثالي من الطرق والقنوات" وأضاف "دعونا نقهر الفضاء"، ورد على الذين يعتقدون بضرورة الالتزام الصارم بالدستور في البناء والتمويل معترضًا وقال "إذا كنا نقيد أنفسنا في استخدام المال للسلطات المنصوص عليها فقط في الدستور، فعلى أي مبدأ كان يمكننا تبرير شراء ولاية لويزيانا؟"

وقد أثبتت "التحسينات الداخلية" التي ترعاها الحكومة، مثل بناء الطرق والقنوات، أنها الجزء الأكثر إثارة للجدل من الخطة، حيث سَنَّ الكونجرس برنامج التحسينات الداخلية الذي صاغه "كالهون"، واندهش عندما استخدم الرئيس حق الاعتراض على مشروع القانون عشية اعتزاله من منصبه في مارس (آذار) عام 1817. كان "ماديسون" مقتنعًا منذ الدعوة لسَنّه بأن السماح للحكومة الوطنية بممارسة أي سلطات غير منصوص عليها في الدستور، سيعرِّض الحرية الفردية والمصالح الجنوبية للخطر، ولذلك أعلن أمام الحكومة الاتحادية ضرورة إدخال تعديل دستوري يسمح

للحكومة الوطنية ببناء الطرق والقنوات؛ ومع ذلك، أصبح الجزءان الآخران من خطته قانونا، ووفرت التعريفة الجمركية الصادرة في عام 1816 حماية للسلع التي يمكن إنتاجها في الولايات المتحدة، ولا سيما المنسوجات القطنية؛ في نفس الوقت الذي يتم به الاعتراف بإعفاء السلع التي لا يمكن تصنيعها داخل البلاد من الضرائب. وافق الكثير من الجنوبيين على هذه التعريفة معتبرين أن ذلك من شأنه أن يطور في منطقتهم قاعدة تصنيعية لمنافسة القاعدة التصنيعية في نيو إنجلاند، وتم إنشاء البنك الجديد للولايات المتحدة في عام 1816 بامتياز من الكونجرس يمتد لعشرين عاما.

البنوك والمال

سرعان ما أصبح البنك الثاني للولايات المتحدة محور الاستياء العام، حيث كان، مثل سابقه، شركة خاصة تهدف إلى الربح ويقوم مقام الوكيل المالي للحكومة في إصدار النقود الورقية، وجمع الضرائب، ودفع ديون الحكومة، والتأكد من أن النقود الورقية التي تصدرها البنوك المحلية لها قيمة حقيقية. ارتفع عدد البنوك المحلية إلى أكثر من 200 بنك، مما يشير إلى تسارع ثورة السوق، وقد عززت هذه البنوك النمو الاقتصادي من خلال طبع النقود الورقية، والمساعدة على تمويل التصنيع والتجارة، وتقديم قروض للمزارعين لشراء الأرض والآلات والسلع الاستهلاكية وفي الجنوب لشراء العبيد.

يقتصر إصدار النقود الورقية اليوم على الحكومة الاتحادية فقط ويتم تحديد الكمية من قبل البنك الاحتياطي الفيدرالي، ولكنه لا يحدد كمية الذهب المُودع في فورت نوكس. كانت الممارسة في القرن التاسع عشر مختلفة عن اليوم، حيث كانت النقود الورقية تتألف من أوراق واعدة بالدفع لحاملها عند الطلب لمبلغ محدد (من العملة الذهبية أو الفضية). تتوقف قيمة العملة الصادرة عن البنوك الفردية على سمعتها في تحقيق الاستقرار؛ ونظرًا لأنه كثيرًا ما تطبع البنوك أكثر بكثير من التغطية المتاحة لها من العملات المودعة في خزائنها، لذلك تتقلب قيمة العملة الورقية على نحو عنيف. كان من المفترض أن يمنع بنك الولايات المتحدة المغالاة في إصدار النقود، وكان هذا البنك يحتفظ بكل أموال الحكومة الاتحادية، ولذلك تراكمت فيه كمية كبيرة من النقود الورقية التي تصدرها البنوك المحلية والتي كانت تستخدم لشراء الأراضي العامة، كان لهذا البنك الحق في أن يطلب من أحد البنوك المحلية الدفع بالذهب والفضة في مقابل حصوله على نقود ورقية من البنك. كان من المفترض أن يمنع هذا الإجراء البنوك المحلية من التصرف بشكل غير صحيح، لأنه إذا لم يكن يستطيع توفير العملة الذهبية أو الفضية عند طلبها فإنه سيتعين تعليق العمليات.

ذعر عام 1819

بدلاً من قيام بنك الولايات المتحدة بالتنظيم الفعال للعملة والقروض التي تصدرها البنوك المحلية، شارك البنك بنفسه في مضاربة حادة اجتاحت البلاد بعد نهاية حرب عام 1812. أدى استئناف التجارة مع أوروبا إلى خلق سوق ضخمة للقطن والحبوب الأمريكيين في الخارج، مما أدى بدوره، إلى جانب التوسع السريع في الاستيطان في الغرب، إلى تحفيز الطلب على القروض لشراء الأراضي، وهو الأمر الذي لم تكن البنوك المحلية وفروع بنك الولايات المتحدة سعيدة بدرجة كافية لمنحها عن طريق طباعة المزيد من المال. ازداد ازدهار الأرض بشكل حاد في الجنوب على نحو خاص حيث كانت مملكة القطن تتوسع.

ومع عودة الطلب الأوروبي على المنتجات الزراعية الأمريكية إلى المستويات العادية في بداية عام 1819، انفجرت الفقاعة الاقتصادية، حيث تهاوى الطلب على الأراضي وما أعقبه من انخفاض في سعر الأراضي الغربية، مما أدى إلى تكبد المضاربين لخسائر بالملايين من الدولارات، وأصبحت القروض في ذلك الوقت تميل إلى أن تكون قصيرة الأجل وتستطيع البنوك مطالبة المقترضين بسدادها في أي وقت. بدأ بنك الولايات المتحدة، وتلته البنوك الحكومية، في مطالبة المقترضين بسداد قروضهم مما اضطر معه المزارعين ورجال الأعمال الذين لم يتمكنوا من السداد إلى أن يعلنوا إفلاسهم وارتفع معدل البطالة في المدن الشرقية.

سياسات فترة الذعر

استمر ذعر عام 1819 لمدة تزيد قليلاً عن عام، لكنه كسر حالة الانسجام السياسي الذي كان سائدًا في السنوات السابقة، حيث ضغط أولئك الذين كانوا يعانون من التراجع الاقتصادي على حكومات الولايات والحكومات الوطنية للحصول على إعانات. كان رد فعل الكثير من الولايات على ذعر الدائنين، وخاصة في الغرب، بتعليق تحصيل الديون. ذهب بنك "كنتاكي" إلى أبعد من ذلك بأن أنشأ بنك للولاية أغرق الولاية بالنقود الورقية التي كان مطلوبًا من الدائنين قبولها كسداد للقروض، مما خفف العبء على المزارعين المثقلين بالالتزامات ولكنه أضر بالدائنين؛ وبصفة عامة، عمَّق الذعر شعور العديد من الأمريكيين التقليدي بانعدام الثقة في البنوك، وقوَّض سمعة البنك الثاني للولايات المتحدة، والذي أُلقيَ عليه باللوم في التسبب في حالة الذعر. انتقمت عدة ولايات من البنك الوطني من خلال فرض ضرائب على فروعه المحلية بها.

وأنتجت هذه القوانين الضريبية أحكامًا تاريخية أخرى "لجون مارشال" من المحكمة العليا، وذلك في قضية "ماكولوش" ضد "ميريلاند" لعام 1819، حيث أعلن مارشال في إعادة تأكيده لتفسيره الواسع للسلطات الحكومية بأن البنك بمثابة ممارسة مشروعة لسلطة الكونجرس في إطار

بند الدستور الذي يسمح للكونجرس بإقرار القوانين "الضرورية والمناسبة". يتناقض تفسير مارشال للدستور مباشرة مع رأي "البناء الصارم" القائل بقصر صلاحيات الكونجرس على تلك الممنوحة تحديدًا في الدستور. اعترف المارشال بأن الدستور لم ينص في أي مكان على حق المشرعين في إصدار امتيازات الشركات، ولكنه ذكر "حيث إن الهدف من التشريع، في مثل هذه الحالة لتعزيز ودعم "الرفاهية العامة"، كان مشروعًا وقانونيا؛ وحينئذ تصبح جميع الوسائل التي هي . . . غير محظورة . . . دستورية." واصل رئيس المحكمة العليا قائلا "لا تستطيع ميريلاند فرض ضريبة على البنك"، وعلق المارشال قائلا "إن سلطة فرض الضريبة تنطوي على القدرة على التدمير"، وتفتقر الولايات لسلطة تدمير وكالة أنشأتها الحكومة الوطنية.

الجدل حول "ميزوري"

ألحق "جيمس "مونرو" بسهولة الهزيمة بالمرشح الفيدرالي "روفوس كنج" في عام 1816، وجعله آخر الرؤساء من فرجينيا، وبحلول عام 1820 أوفد الفيدراليون بطاقات ترشيح للانتخابات إلى ولايتين فقط، بينما ترشح "مونرو" في البلد بأكمله. (ومع ذلك، أدلى ناخب واحد يدعى "وليام بلومر" من "نيوهامشر"، بصوته "لجون كوينسي آدامز" الذي كان يعتبره أكثر تأهلاً من "مونرو" ليكون رئيسا. نشأت أسطورة في وقت لاحق أن "بلومر"، صَوَّتَ كذلك لأنه كان يأمل أن يبقى "جورج واشنطن" الرئيس الوحيد المنتخب بالإجماع.) كانت رئاسة "مونرو" لولايتين لحكومة من حزب واحد وهو ما يسمى أحيانًا "عهد المشاعر الطيبة". ظهرت، رغم ذلك، الكثير من المشاعر السيئة خلال فترة رئاسته، وفي ظل هذا الغياب من المنافسة بين حزبين، تم تنظيم السياسة على أسس من المصالح القطاعية المتنافسة.

حتى مع تلاشي الانقسامات الحزبية السياسية، وقيام "جون مارشال" بضمان انحياز المحكمة العليا في صف المناصرين للقومية العدوانية التي ينادي بها "كلاي" و"كالهون" وغيرهما، إلا أن مسألة الرق المزعجة هددت مرة أخرى بالمساس بوحدة الأمة. نظر الكونجرس في عام 1819 في طلب من "ميزوري"، وهي منطقة مقتطعة من عقد شراء "لويزيانا"، لتشكيل دستور استعدادًا لقبولها في الاتحاد الفيدرالي كولاية. تجاوز عدد السكان العبيد في "ميزوري" بالفعل 10.000 نسمة. رأى "جيمس تلمدج"، عضو الكونجرس الجمهوري عن "نيويورك"، حظر إدخال المزيد من العبيد، وأن يتم تحرير الأطفال الموجودين بالفعل في "ميزوري" عندما يبلغون سن الخامسة والعشرين كشرط لأن تكتب "ميزوري" دستورها وتنضم للاتحاد الفيدرالي.

أثار اقتراح "تلمدج" بحظر إدخال المزيد من العبيد جدلاً دام لعامين، تحطمت خلالهما الوحدة الجمهورية على أسس قطاعية، ولكن الكونجرس أقره بعد أن أيده معظم أعضاء الكونجرس عن

الولايات الشمالية في مقابل اعتراضات ممثلي الولايات الجنوبية؛ ومع ذلك، توقف هذا الاقتراح عند مجلس الشيوخ، ولكن عندما عاود الكونجرس الانعقاد في عام 1820 تقدم السيناتور "جيسي توماس" النائب عن "الينوي" باقتراح يتضمن حلاً وسطًا من ثلاثة أجزاء، يُسمح أولا "لميزوري" بصياغة دستورها دون التقيد بشرط "تلمدج" الذي يحظر الاسترقاق ثم يتم ثانيا قبول "مين" في الاتحاد للحفاظ على التوازن بين القطاعات الحرة والولايات التي بها عبيد، وأخيرًا يتم ثالثًا حظر العبودية في جميع الأراضي المتبقية ضمن عقد شراء "لويزيانا"، شمال خط العرض 36 ° 309 (الحدود الجنوبية "لميزوري). أقر الكونجرس خطة "توماس" باعتبارها تسوية بالنسبة إلى "ميزوري".

وبعد ذلك بعام، قدمت "ميزوري" إلى الكونجرس دستورها الجديد، الذي لم يحرم العبودية فحسب بل حظر على السود الأحرار دخول الولاية؛ ونظرًا لأن بعض الولايات الشمالية لا تزال تعتبر السود مواطنين، وهو ما يبدو انتهاكًا لشرط "الكياسة، والمجاملة، وآداب التعامل الدبلوماسي" الذي ينص عليه الدستور الاتحادي، والذي يتطلب من كل ولاية الاعتراف بحقوق مواطني الولايات الأخرى. وضع "هنري كلاي" تسوية أخرى "لميزوري" تنص على أن يقبل "الكونجرس" دستور الولاية كما هو مكتوب، ولكن مع إصدار تعليمات "لميزوري" بأنه لا يمكن حرمان مواطني أي ولاية من حقوقهم المنصوص عليها في دستور الولايات المتحدة، غير أن "ميزوري" تجاهلت هذه التعليمات إلى حد كبير.

قضية العبودية

عارض "توماس جيفرسون"، الذي صاغ مسودة بند مرسوم الشمال الغربي لعام 1787 الذي يحظر الرق في شمال نهر "أوهايو"، بشدة الجهود المبذولة للإبقاء على مؤسسة العبودية خارج ولاية "ميزوري"؛ حيث كان يرى أن الجدل برمته هو في الحقيقة محاولة من قبل الفيدراليين لإحياء حزبهم من خلال إثارة الجمهوريين الشماليين والجنوبيين ضد بعضهم البعض. كان "جيفرسون" محقًا في أن السلطة السياسية، وليس الوازع الأخلاقي، هي الدافع وراء معظم أعضاء الكونجرس الشماليين، ولكن الجمهوريين، وليس القلة القليلة المتبقية من الفيدراليينهم الذين قدموا الجزء الأكبر من الأصوات ضد العبودية في ولاية "ميزوري". فاق عدد سكان نيويورك عدد سكان "فيرجينيا" بحلول عام 1820، وكان الجمهوريون في نيويورك من بين رواد دعاة التحرير في "ميزوري"؛ ونظرًا لأنه لمدة ثمانية وعشرين عامًا متواصلة كان الرؤساء من ولاية فرجينيا على التوالي، باستثناء رئيس واحد من خارجها، وهو "الرئيس جون آدامز" الذي جاء من "ماساتشوستس"، لذلك اقتنع العديد من الشماليين أن الجنوب يمارس تأثيرًا لا مسوغ له في "واشنطن"، وأن المزيد من الولايات التي تضم عبيدًا يعني المزيد من أعضاء الكونجرس عن الجنوب

والمزيد من الأصوات الانتخابية للجنوبيين.

أثار الجدل في "ميزوري" لأول مرة ما ثبت أنه قضية خطيرة - ألا وهي التوسع في العبودية غربا - وكشف عن الانقسام الإقليمي بين الولايات مما أثار مشاعر الفزع والخوف على نطاق واسع من حل الاتحاد. وقد كتب "جيفرسون" أن هذا السؤال البالغ الأهمية يشبه انطلاق جرس إنذار الحريق ليلاً يبعث فيَّ الخوف ويملؤني بالرعب، لقد اعتبرته نعيًا للاتحاد". وقد كتب "جون كوينسي آدمز" عن النقاش في مذكراته قائلا:

[إنه] كشف سرا: كشف أساس تنظيم جديد للأحزاب . . . . كان هنا حزب جديد قد تشكل حقا. . . هذا خطر على الاتحاد بأكمله، ولكنه خطر بشكل ينذر بالسوء بالنسبة للجنوب بشكل خاص - حيث يهدد التقدم فيه تحرر جميع عبيدهم ويهدد على الفور بهيمنة الجنوب، وقد كان بالفعل هو سر هيمنة الجنوب على الاتحاد طوال السنوات العشرين الماضية.

تأمل آدمز" في خطر "تفكك أو حل الاتحاد" بسبب قضية العبودية، وقال "إنه خطر كارثي بالفعل لأن من شأنه أن يؤدي إلى حرب أهلية واستئصال العبودية من القارة بأكملها." وقد استغرق تحقق مخاوف آدامز" أكثر من أربعين عاما، حيث اضمحلت آنذاك قضية العبودية مرة أخرى من الحوار الوطني.

الأمة والقسم والحزب

حرب الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية للاستقلال

اندلع التمرد في مستعمرات إسبانيا في أمريكا اللاتينية خلال الفترة ما بين عامي 1810 و 1822، وأسست سلسلة من الدول المستقلة، بما في ذلك "المكسيك"، و"فنزويلا"، و"الإكوادور"، و "بيرو" وبالفعل تضاءلت بحلول عام 1825 إمبراطورية إسبانيا في أمريكا بعد أن كانت ممتدة الأطراف حتى اقتصرت على جزر "كوبا" و"بورتوريكو". وقد أوحت هذه الانتفاضات بموجة من التعاطف في الولايات المتحدة، وأصبحت إدارة حكومة "مونرو" في عام 1822 الأولى بين حكومات العالم في الاعتراف الدبلوماسي بجمهوريات أمريكا اللاتينية الجديدة.

كان هناك تشابه بين الثورات في المستعمرات الإسبانية الأمريكية والثورة التي أنجبت الولايات المتحدة؛ ففي كلتا الحالتين تسارعت أزمة الإمبراطورية ببرامج أطلقتها البلاد الإمبراطورية تهدف إلى حد كبير إلى جعل المستعمرات تساهم بدرجة أكبر في مواردها المالية. كانت الحكومة في إسبانيا تحاول تعزيز قبضتها على الإمبراطورية منذ أواخر القرن الثامن عشر،

وقد احتل الجيش الفرنسي بقيادة "نابليون" إسبانيا في عام 1808 وأطاح بالنظام الملكي، مما أوحى بتأكيدات على الهيمنة المحلية على جميع أنحاء أمريكا الإسبانية. اعتمدت إسبانيا دستورًا جديدًا في عام 1812 يمنح المزيد من الحقوق المحلية في إسبانيا وفي المستعمرات، إلا أنه عندما استعاد الملك ملكه في عام 1814، تنصل من الدستور وسعى لاستعادة السيطرة على المستعمرات، ولكن المستعمرين كانوا قد اعتادوا الحكم الذاتي، ولذلك طالبت النخب المحلية على غرار ما حدث في أمريكا الشمالية البريطانية بوضع ومعاملة متساوية مع تلك التي يحظى بها سكان السلطة الإمبراطورية. كانت إعلانات الاستقلال الإسبانية الأمريكية مستعارة مباشرة من إعلان استقلال الولايات المتحدة، حيث نص الإعلان الأول الذي صدر في عام 1811، حتى قبل استعادة النظام الملكي في إسبانيا، على أن "الأقاليم المتحدة" في فنزويلا تتمتع الآن "بين دول الارض ذات السيادة بالمرتبة التي منحنا الله والطبيعة لنا" - وكانت اللغة مماثلة للغة "جيفرسون" بشكل مذهل ولافت للنظر.

وخلافًا للإمبراطورية البريطانية، تفككت إسبانيا إلى سبع عشرة أمة مختلفة، وهو ما يرجع إلى أن الإمبراطورية الإسبانية كانت واسعة جدًا ومترامية الأطراف ومنفصلة بشكل لا يكون من المعقول معه ظهور أمة واحدة تضمهم جميعا، بالإضافة إلى القيود الصارمة التي فرضتها الحكومة الإسبانية على الطباعة، مما جعل التواصل بين الأجزاء المختلفة من الإمبراطورية أكثر صعوبة مما كانت عليه المستعمرات البريطانية، إلا أن ذلك لم يمنع من تداول الكتب المستوردة على نطاق واسع ونشر الأفكار الثورية في تلك الحقبة حتى دخلت أول مطبعة في المدينة الرئيسية في أمريكا الجنوبية "بوجوتا" في السبعينيات من القرن الثامن عشر.

كانت الدساتير الجديدة لأمريكا اللاتينية أكثر ديمقراطية من دستور الولايات المتحدة في بعض النواحي، فهي أكثر الدساتير سعيًا لتنفيذ المبادئ والمُثُل الخاصة بالحقوق والحريات الموجودة عبر الأطلسي عن طريق إنشاء "شعب" وطني واحد من السكان المتنوعين الذين تتكون الإمبراطورية الإسبانية منهم، حيث أقدموا على منح حق التصويت للهنود والسود الأحرار لتحقيق هدف الأمة الواحدة؛ وعلاوة على ذلك، كانت حروب الاستقلال الأمريكية التي شارك فيها الجنود السود على كلا الجانبين بمثابة إشارة البدء لانطلاق حركة الإلغاء التدريجي للرق، إلا أن حروب الاستقلال الأمريكية اللاتينية استمرت لمدة أطول، في بعض الأحيان لأكثر من عقد من الزمان، وكانت أكثر تدميرًا بالمقارنة بتلك في الولايات المتحدة؛ كما أعقب الاستقلال حروب أهلية في بعض البلدان، مما يثبت أنه كان أصعب بكثير على جمهوريات أمريكا اللاتينية الجديدة أن تحقق التنمية الاقتصادية بالمقارنة مع الولايات المتحدة.

مذهب مونرو

كان "جون كوينسي آدامز" يشغل منصب وزير الخارجية في حكومة "جيمس مونرو"، وكان متفانيًا لتعزيز سلطة الحكومة الوطنية في الداخل والخارج. خشى "آدامز" أن إسبانيا ستحاول استعادة مستعمراتها في أمريكا اللاتينية، وصاغ في عام 1823 جزء من رسالة الرئيس السنوية إلى الكونجرس، والذي أصبحت تعرف فيما بعد باسم "مذهب مونرو"، وأعرب فيها عن ثلاثة مبادئ؛ أولا ستعارض الولايات المتحدة أي جهود لاحقة من قبل القوى الأوروبية ترمي إلى استعمار الأمريكتين (لا يخاطب هذا البيان إسبانيا فقط ولكنه أيضًا استهدف فرنسا التي كانت تخطط لاحتلال كوبا، واستهدف أيضًا روسيا التي كانت تسعى إلى توسيع ممتلكاتها على ساحل المحيط الهادي)، وثانيا ستمتنع الولايات المتحدة عن الانخراط في أي حروب أوروبية، وأخيرًا، حذر مونرو القوى الأوروبية بعدم التدخل في شئون الدول المستقلة حديثا في أمريكا اللاتينية.

وأحيانًا ما يطلق على مذهب "مونرو" اسم "إعلان الدبلوماسية الأمريكية للاستقلال"، وقد ظل يمثل لعدة عقود حجر الزاوية في السياسة الخارجية الأمريكية؛ واستنادًا إلى الافتراض بأن العالمين القديم والجديد قد شكلا نظمًا سياسيةً ودبلوماسيةً منفصلة، لذلك فإنه طالب أن تضطلع الولايات المتحدة بدور القوة المهيمنة في نصف الكرة الغربي. وقد كانت التداعيات التجارية هامة بالنسبة إلى "آدامز" تمامًا مثل الآثار السياسية. كانت أمريكا اللاتينية في عام 1823 بمثابة سوق رئيسية للبضائع البريطانية، وكان المواطنون البريطانيون يشاركون بقوة في مجال التعدين، والخدمات المصرفية، والشركات التجارية هناك، ولذلك كان "آدامز" يأمل أن تضطلع الولايات المتحدة في نهاية المطاف بهذا الدور الاقتصادي الذي تقوم به بريطانيا حاليا.

انتخابات عام 1824

عكس "مذهب مونرو" ازدياد الشعور القومي الأمريكي، ولكن بدا أن النزعة الإقليمية تحكم السياسة الداخلية، فمع اقتراب انتخابات عام 1824، كان "أندرو جاكسون" الوحيد الذي يمكنه الادعاء عن حق تقديم الدعم على مستوى الوطن كله. لم تستند شعبية "جاكسون" على أي سياسة عامة محددة - أي أن عدد قليل من الناخبين يعرف آراءه - ولكنها استندت على الانتصارات العسكرية على البريطانيين في معركة "نيو أورليانز" وعلى الهنود الخور والسيمينول. شملت قائمة المرشحين الآخرين "جون كوينسي آدامز"، ووزير الخزانة، "ويليام هـ. كروفورد" من "جورجيا"، و"هنري كلاي" من كنتاكي. تركز الدعم "لآدامز" في "نيو إنجلاند" وبشكل أعم في الشمال حيث أصر قادة الحزب الجمهوري على أنه قد حان الوقت للجنوب لكي يتخلى عن رئاسة الجمهورية. كان "كروفورد" يمثل الجمهوريين القدماء في الجنوب الذين أرادوا أن يؤكد الحزب

على مبادئ حقوق الولايات والحكومة المحدودة. كان "كلاي" أحد أكثر السياسيين شعبية في تلك الحقبة، ولكن الدعم المقدم له في عام 1824 كان مركزًا بصورة أساسية في الغرب.كان عادة ما يختار مؤتمر أعضاء الحزب الجمهوري مرشح الحزب للرئاسة، وقد وقع اختيارهم على "كروفورد"، ولكنهم لم يمنعوا المرشحين الآخرين في إشارة إلى أنه لا تستطيع في زمن توسيع الديمقراطية مجموعة صغيرة من المسؤولين تحديد من يترشح للرئاسة.

حصل "جاكسون" على 153.544 صوت واستحوذ على الولايات في جميع المناطق خارج "نيو إنجلاند"، ولكن مع وجود أربعة مرشحين معا، لم يحقق أحد أغلبية الأصوات الانتخابية نظرًا لتفتيت الأصوات عليهم جميعا. تم استبعاد "كلاي" صاحب المركز الرابع كما ينص الدستور، ووقعت مسئولية الاختيار من بين المرشحين الثلاثة الآخرين على مجلس النواب. منح "كلاى" دعمه إلى "آدامز" اعتقادًا منه بصدق بأنه المرشح الأكثر تأهيلاً والأكثر احتمالاً لتعزيز النظام الأمريكي، وربما احتسب أن انتخاب "جاكسون"، الذي ينتمي للولايات الغربية من شأنه أن يعرقل طموحاته الرئاسية في المستقبل، وقد ساعد دعم "كلاى" بالفعل في انتخاب "آدامز"، وسرعان ما أصبح "كلاى" وزيرًا للخارجية في مجلس وزراء حكومة "آدامز". ظل الاتهام موجهًا ضد "كلاى" طول مسيرته بأنه قد عقد "صفقة فاسدة"- بمقايضة الأصوات الحاسمة في سباق الانتخابات الرئاسية مقابل منصب عام، مما جعل وصوله إلى البيت الأبيض مستحيلا. وقد أرست انتخابات عام 1824 الأسس لنظام جديد للأحزاب السياسية؛ وسرعان ما اتحد أنصار "جاكسون" و "كراوفورد" في منظمة جديدة تحت اسم "الحزب الديمقراطي"، وقرروا وضع "جاكسون" في البيت الأبيض في عام 1828، بينما أصبح تحالف "كلاي" و "آدامز" بمثابة حجر الأساس للحزب الهويج في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر.

قومية "جون كوينسي آدامز"

حظي "جون كوينسي آدامز" بحياة عملية قبل الرئاسة هي الأكثر تميزًا بالمقارنة بأي رئيس أمريكي آخر، حيث شهد "جون آدامز" الابن معركة "بنكروكان هيل" في سن الثامنة، وفي سن الرابعة عشر عمل سكرتيرًا خاصًا ومترجمًا للغة الفرنسية للمبعوث الأمريكي في أوروبا، ثم عمل سفيرًا لدى بروسيا، وهولندا، وبريطانيا، وروسيا؛ ونائبًا في الكونجرس عن ولاية "ماساتشوستس"؛ وعلى الرغم من انتخابه كفيدرالي، ألقى "آدامز" بأحد الأصوات القليلة في "نيو إنجلاند" لصالح سياسة الحصار التي نادى بها "جيفرسون"، بحجة أن منطقته يجب أن ترتفع فوق المصلحة الذاتية الإقليمية للدفاع عن الصالح الوطني؛ ونظرًا للأهواء السياسية المكثفة في ذلك الوقت، أُجبرَ على الاستقالة من مقعده في الكونجرس نتيجة لتصويته هذا لصالح سياسة الحصار، وسرعان ما تخلي عن الحزب الفيدرالي.

لم يكن آدامز شخصًا ساحرًا جذابا، وقد وصف نفسه بأنه رجل السلوك البارد المتقشف والمنذر بشر، ولكن كان لديه رؤية واضحة للعظمة الوطنية. استندت سياسته الداخلية على دعم نظام التنمية الاقتصادية التي ترعاها الحكومة، بينما استندت سياسته الخارجية على تشجيع التجارة الأمريكية في جميع أنحاء العالم، كما يتضح من تأليفه "مذهب مونرو" وريادة النفوذ الأمريكي في نصف الكرة الغربي. عندما كان وزير خارجية "مونرو"، كان هو عضو مجلس الوزراء الوحيد الذي عارض تأنيب "أندرو جاكسون" لتوغله العنيف في "فلوريدا". كما ذكرنا في الفصل السابق، وقد تفاوض آدامز في عام 1819 على المعاهدة التي حصلت الولايات المتحدة بموجبها على "فلوريدا" من إسبانيا، وتوصل أيضًا إلى اتفاق مع بريطانيا العظمى لتثبيت الحدود الكندية الأمريكية في الحدود الشمالية لعقد شراء "لويزيانا". كان آدامز داعيةً متحمسًا حتى أنه كان على يقين من أن الولايات المتحدة ستمتص في النهاية وبشكل سلمي "كندا" و"كوبا"، وعلى الأقل جزءًا من "المكسيك"، وبالفعل صَرَّحَ ذات مرة قائلا "المجال المناسب للولايات المتحدة هو قارة أمريكا الشمالية بأكملها".

الحرية قوة

كان آدامز يرى أن السلطة الاتحادية أكثر رحابة مما يعتقده معظم المعاصرين له، حيث أعلن في أول رسالة له إلى الكونجرس في ديسمبر (كانون الأول) من عام 1825 عن برنامج شامل لدولة وطنية نشطة، وأعلن قائلا "إن روح التحسين والتنمية تكمن في الخارج في الأرض"، وأضاف أن الحكومة الفيدرالية يجب أن تكون هي الراعية لهذا التطور؛ كما دعا إلى استصدار تشريعات تعزز الزراعة، والتجارة، والصناعة التحويلية، و"الفنون الميكانيكية، والفنون الجميلة"؛ واشتملت خططه على إنشاء جامعة وطنية، ومرصد فلكي، وأكاديمية بحرية. بينما كان العديد من الأمريكيين يرون أن السلطة الحكومية تشكل أكبر تهديد على الحرية، وقد أدهش آدامز الكثير من مستمعيه ببيان جريء قال فيه "إن الحرية قوة"، وتنبأ بأن الولايات المتحدة الأمريكية ستكون هي الدولة الأقوى نظرًا لأنها الأمة الأكثر حرية على وجه الأرض.

أثارت مقترحات آدامز قلق جميع المؤمنين بالبناء الصارم للدستور. أنفقت إدارته على التحسينات الداخلية أكثر مما أنفق الرؤساء الخمسة الذين سبقوه مجتمعين، وفرضت زيادة مطردة في التعريفة الجمركية في عام 1828، غير أن بقية أفكار آدامز الطموحة لم تلق إلا القليل من دعم الكونجرس، ولم يتحقق هذا النوع من التخطيط الوطني الاقتصادي والتعليمي الذي طمح فيه آدامز حتى القرن العشرين، بل أن بعض مقترحاته لم تُنفَّذ بعد حتى اليوم مثل اعتماد الولايات المتحدة النظام المتري في الأوزان والمقاييس التي يستخدمها تقريبًا كل الأمم الأخرى في العالم وبناء جامعة وطنية.

"مارتن فان بورين" والحزب الديمقراطي

استخدم خصوم "آدامز" السياسيون برنامجه كسلاح قوي ضده، حيث حشدوا حلفائهم ضد شعاراته للحرية الفردية، وحقوق الولايات والحكومة المحدودة، وبالفعل بدأ أنصار "جاكسون" في التنظيم استعدادًا لانتخابات عام 1828 تقريبًا بمجرد تولي "آدمز" مهام منصبه، وأشرف على هذه المهمة سيناتور نيويورك "مارتن فان بورين". أظهر الصدام بين "آدامز" و"فان بورين" كيف تغير الديمقراطية طبيعة السياسة الأمريكية؛ حيث يمثل "آدامز" النموذج النمطي للسياسة القديمة - فهو نجل رئيس، وهو مثل "جيفرسون" و"ماديسون" رجل من مدينة "استرلينج" يعشق الإنجازات الفكرية. يمثل "فان بورين" على الجانب الآخر حقبة سياسية جديدة، فهو نجل حارس الحانة، وكان مدير حزب موهوب وليس شخصًا عظيم الرؤية أو الفكر.

كان لدى "فان بورين"، مع ذلك، فكرة مقنعة، فعلى العكس من جيل المؤسسين لأمريكا الذين كانوا يعتقدون أن الأحزاب السياسية خطيرة وتدعو للانقسام، أصر هو على أن الأحزاب عنصرًا ضروريًا ومرغوبًا فيه في الحياة السياسية. قدمت المنافسة الحزبية مراجعات حول من هم في السلطة، وعرضت على الناخبين خيار حقيقي في الانتخابات، كما تستطيع الأحزاب الوطنية خوض المواجهة الإقليمية التي أطلت بوجهها خلال العشرينيات من القرن التاسع عشر من خلال جمع القادة السياسيين من مختلف الأقاليم لدعم المرشحين المشتركين والمبادئ المشتركة. شعر "بورين" مثل كثير من معاصريه بالذعر عندما انقسمت السياسة على أساس إقليمي في مناقشات ولاية "ميزوري"، ومرة أخرى في انتخابات عام 1924، وأرجع ذلك جزئيًا إلى فقدان الانضباط داخل الحزب الجمهوري الحاكم. كتب "فان بورين" إلى "توماس ريتشي" محرر جريدة "فرجينيا" قائلا "لقد وفَّر الانتماء الحزبي في الماضي ترياقًا وخط دفاع كامل ضد التحيزات الإقليمية من خلال إنتاج مشاعر مضادة، ولم تصبح الضجة المناوئة لتأثير الجنوب والعبودية الإفريقية فعالة في الشمال حتى انكسر خط الدفاع هذا". أدرك "فان بورين" أن الأحزاب السياسية الوطنية شَكَّلَت رابطة من الوحدة في أمة منقسمة، وبدأ في إعادة بناء تحالف "جيفرسون" السياسي بين "مزارعي" الجنوب والجمهوريين العاديين من المزارعين والعمال في المناطق الحضرية في الشمال.

انتخابات عام 1828

بحلول عام 1828، كان "فان بورين" قد انتهى بالفعل من تأسيس الجهاز السياسي للحزب الديمقراطي، مع استكمال الوحدات الحزبية المحلية وعلى مستوى الولايات التي أشرفت عليها لجنة وطنية وشبكة من الصحف المحلية الداعمة للحزب. وكان "آدامز" من جانبه يزدري التنظيم السياسي، وعلى الرغم من حث "كلاي" على استبعاد أصحاب المناصب الاتحادية الذي شنوا

حملة لصالح "جاكسون" وقاموا بالقليل لتعزيز إعادة انتخابه، إلا أن "كلاي" رفض.

وبصرف النظر عن الالتزام العام بالحكومة المحدودة، قدم أنصار جاكسون عددًا قليلاً من الوعود الانتخابية معتمدين في ذلك على شعبية مرشحهم وطريقة عمل جهاز الحزب في الحصول على الأصوات. كانت الحملة الانتخابية لعام 1828 حافلة بالبذاءات والإساءات المتبادلة بين المرشحين، حيث شن أنصار "جاكسون" حملة شعواء على آدامز" واتهموه بأنه كان على علاقة بمجموعة من العشيقات أثناء عمله كدبلوماسي في أوروبا، وفي المقابل أشادوا برجولة مرشحهم على الحدود، وسخروا بالتحصيل الفكري "لآدامز"، حيث أعلنت إحدى شعارات الحملة "صوتوا لأندرو جاكسون الذي يستطيع القتال على الحدود، ولا تصوتوا "لجون كوينسي آدامز" الذي يستطيع فقط أن يكتب". على الجانب الآخر، أدان معارضو "جاكسون" باعتباره قاتلاً لأنه أعدم الفارين من الجيش وقتل الرجال في المبارزات، وشككوا في أخلاق زوجته "راشيل"، لأنها قد تزوجت "جاكسون" قبل أن يصبح طلاقها من زوجها الأول نهائيا. اعتقد جاكسون دائمًا أن الافتراءات التي شنها خصومه ساهمت في وفاة زوجته بعد وقت قصير من الانتخابات.

كان الناخبون، وليس المجلس التشريعي، بحلول عام 1828 هم من يختارون ناخبي الرئاسة في كل الولايات باستثناء ولاية "ساوث كارولينا"، الأمر الذي ساعد على تشجيع الحملات الانتخابية القوية وحقق إقبالاً واسعا؛ حيث أدلى ما يقرب من 57 في المائة من الناخبين المؤهلين بأصواتهم، أي أكثر من ضعف النسبة المئوية قبل أربع سنوات. حقق "جاكسون" نصرًا مدويًا حيث حصد حوالي 650.000 صوت مقابل 500.000 صوت "لآدامز"، حيث حصد أصوات الجنوب والغرب بأكملهما، بالإضافة إلى ولاية "بنسلفانيا". كان انتخاب "جاكسون" بمثابة العنصر الأول الذي أظهر كيف أن مجئ التصويت الشامل لجميع الذكور البيض، الذي نظمته الأحزاب السياسية الوطنية، استطاع أن يحوِّل السياسة الأمريكية، وهكذا دخلت الولايات المتحدة في "عصر جاكسون" بخيره وشره.

عصر جاكسون

كان "أندرو جاكسون" رجل العديد من التناقضات؛ فعلى الرغم من أنه كان حاصلاً على القليل من التعليم الرسمي (حتى أن آدامز" كان يطلق عليه "الهمجي الذي لا يستطيع كتابة جملة سليمة من غير أخطاء نحوية)، إلا أنه كان قادرًا على إظهار بلاغة حقيقية في بياناته العلنية؛ وبالرغم من أنه كان يُقدم نفسه بطلاً للرجل العادي، إلا أن رؤيته للديمقراطية استبعدت أي دور للهنود الذين كان يعتقد أنه يجب طردهم إلى غرب نهر "المسيسيبي"، ويرى أن الأمريكيين من أصل إفريقي ينبغي أن يظلوا عبيدًا أو يطلق سراحهم ويتم ترحيلهم إلى الخارج؛ وعلى الرغم

من أنه نشأ في أسرة متواضعة على حدود "ساوث كارولينا"، إلا أنه أصبح أحد أغنى الرجال في ولاية "تنيسي" وكانت تلازمه الشكوك في البنوك والنقود الورقية؛ وقد تقاسم مخاوف العديد من الأمريكيين من أن ثورة السوق كانت مصدرًا للانحطاط الأخلاقي وليس للتقدم؛ وبالرغم من أن نزعته القومية كانت قوية إلا أنه كان يعتقد أنه ينبغي أن تكون الولايات، وليس واشنطن العاصمة هي النقطة المحورية للنشاط الحكومي، وعارض الجهود الاتحادية لتشكيل الاقتصاد أو للتدخل في الحياة الخاصة للأفراد.

النظام الحزبي

بحلول رئاسة "جاكسون، أصبحت السياسة" أكثر من مجرد سلسلة من المنافسات السياسية– فقد كانت بمثابة استعراض وشكل من أشكال الترفيه الجماهيري، وجزء من حياة الأمريكيين اليومية، فقد شهد كل عام انتخابات لبعض المناصب والمراكز على مستوى المحليات أو الولاية أو الوطن حيث يشارك الملايين في المسيرات والتجمعات التي تنظمها الأحزاب. كان الساسة أبطالاً شعبيين ومشهورين وتتبعهم الجماهير ويطلقون عليهم الألقاب الشعبية، على سبيل المثال، كان يُطلَق على "جاكسون" لقب قديم هو "شجرة الجوز العجوزة"، ويُطلَق على "كلاي" لقب "هاري الغرب" ويُطلَق على "فان بورين" لقب "الساحر الصغير" (بينما يطلق عليه منتقديه لقب "الثعلب الماكر)، كان الآلاف من الأمريكيين يحضرون عن طيب خاطر الخطب السياسية الطويلة والمناقشات، حتى أنه قيل إن جمهور من 100.000 شخص قد تجمع على تلال ماساتشوستس ليستمعوا لخطاب ألقاه الخطيب اليميني الكبير "دانيال وبستر".

وقد أشار محرر إحدى الصحف إلى أنه "يبدو أن السياسة تدخل في كل شيء، وفي الحقيقة قد وصلت الماكينة الحزبية برئاسة السياسيين المحترفين إلى كل حي، ولا سيما في المدن حيث يقدمون مزايا مثل وظائف في الأجهزة والهيئات المكونة لأحزابهم، ويتأكدون من أن الناخبين ذهبوا إلى صناديق الاقتراع يوم الانتخابات، بينما كان يتم مكافأة موظفي الحزب بمناصب سياسية؛ وقد أعلن "جاكسون" أن المناصب الحكومية ينبغي أن تكون مفتوحة للشعب وليست مقصورة دائمًا على فئة مميزة من البيروقراطيين، وأدخل مبدأ تناوب المناصب في الحكومة الوطنية (الذي أطلق عليه المعارضون اسم "نظام الغنائم)، مما جعل الولاء للحزب هو المؤهل الرئيسي لوظائف مثل مدير مكتب البريد ومسئول الجمارك.

كانت المؤتمرات الوطنية الكبيرة التي يجتمع فيها زعماء الولايات لصياغة تفاصيل برنامج سياسي أو انتخابي هي التي تتولى حينذاك واختيار المرشحين الوطنيين. لعبت الصحف دورًا أكبر فأكبر في السياسة، حيث وصل عدد الصحف التي تنشر إلى ما يقرب من 400 صحيفة في

عام 1830، بالمقارنة مع 90 صحيفة في عام 1790؛ حتى أنه بدا أن لكل مدينة كبيرة صحفها التابعة للحزب الديمقراطي وللهويج، ولم تكن وظيفتها الأكبر هي تغطية الأخبار بقدر ما كانت عرض موقف الحزب من قضايا اليوم، وقد شَكَّلَ محررو الصحف معظم أعضاء مجموعة المستشارين غير الرسميين المقربين من الرئيس "جاكسون"، الذين كانوا يساعدونه في كتابة خطبه والإشراف على الاتصالات بين البيت الأبيض والمسئولين المحليين للحزب.

الديمقراطيون واليمينيون (الهويج)

كان هناك عمل سياسي حزبي أكبر من مجرد العروض والتنظيم؛ وقد تمحورت سياسات "جاكسون" حول قضايا ولدتّها ثورة السوق والتوتر المستمر بين الولاءات الوطنية والإقليمية. اشتملت العناصر الأساسية للنقاش السياسي على موقف الحكومة تجاه البنوك، والتعريفات الجمركية، والعملة، والتحسينات الداخلية، وتوازن القوى بين السلطة الوطنية والمحلية؛ على الرغم من أن كلا الحزبين كانا عبارة عن تحالفات من مجموعات تتبع مناهجَ متنوعة، وفي بعض الأحيان متناقضة في التعامل مع قضايا العصر، إلا أن ثورة السوق كان لها الدور الأكبر في تحديد وجهات نظرهما وهياكلهما. كان اتساع الفجوة بين الطبقات الاجتماعية يصيب الديمقراطيين بالذعر، وحذَّروا من أن "المنتجين المحتكرين"- المصرفيون، والتجار، والمضاربون يسعون لإساءة استخدام علاقاتهم بالحكومة لتعزيز ثرواتهم في غير صالح "الطبقات المنتجة" من المزارعين، والحرفيين، والعمال، فهم يعتقدون أن الحكومة يجب أن تتخذ موقف بعدم التدخل في الاقتصاد ولا تمنح مزايا خاصة للمصالح الاقتصادية الراسخة."

وقد أعلنت صحيفة ديمقراطية أن "امتيازات جميع البنوك وعقود تأسيس جميع الشركات ممنوحة من أجل تعزيز قوة الثروة، وخلق عدم المساواة بين الناس، وتقويض الحرية"؛ وأنه إذا أقصت الحكومة الوطنية نفسها بعيدًا عن الاقتصاد، سيستطيع الأمريكيون العاديون اختبار قدراتهم على المنافسة العادلة في السوق الذي ينظم نفسه ذاتيا. اجتذب الحزب الديمقراطي أصحاب الأعمال الرواد الطموحين الذين استاءوا من المساعدات الحكومية الممنوحة لرجال الأعمال الراسخين في السوق، فضلاً عن جذبه لأعداد كبيرة من المزارعين والرجال العاملين في المدينة المتشككين في الشركات الكبيرة الجديدة؛ كذلك كانت المناطق الزراعية الفقيرة المعزولة عن الأسواق تميل إلى التصويت للحزب الديمقراطي، مثل الشمال الغربي الأدنى والضواحي الريفية الخلفية الجنوبية.

اتحد الحزب اليميني خلف النظام الأمريكي معتقدين أن الحكومة الاتحادية يمكنها توجيه التنمية الاقتصادية من خلال التعريفات الجمركية الوقائية، والبنك الوطني، وتقديم المساعدات

من أجل إجراء التحسينات الداخلية في الولايات. كان اليمينيون أقوى في الشمال الشرقي الذي يشهد أسرع معدلات التطوير في البلاد، وقد أيد رجال الأعمال الأكثر رسوخًا في السوق والمصرفيون برنامجهم للنمو الاقتصادي المدعوم من الحكومة، وكذلك فعل المزارعون في المناطق القريبة من الأنهار والقنوات والبحيرات العظمى الذين استفادوا من التغيرات الاقتصادية أو أملوا في الاستفادة منها، على سبيل المثال، أصبحت المقاطعات الشمالية الريفية في ولاية "نيويورك" على طول قناة "إيري" معقلاً لليمينيين، في حين أن معظم المجتمعات الريفية الأكثر عزلة كانت تميل إلى التصويت للديمقراطيين، كما دعم العديد من العبيد الديمقراطيين أيضًا مؤمنين أن حقوق الولايات في أن يكون بها عبيد هو خط الدفاع الأول؛ ومن الناحية الأخرى، أيد الميسورون من التجار والصناعيون في الشمال وأكبر مزارعي الجنوب الحزب اليميني عموما.

الحرية العامة والحرية الخاصة

عكست المعارك الحزبية في عهد جاكسون الصدام بين التعريفات "العامة" و"الخاصة" للحرية الأمريكية وعلاقتهما بالسلطة الحكومية، وهو الصدام الذي تسبب في توتر مستمر عبر تاريخ البلاد. كانت الحرية بالنسبة للديمقراطيين استحقاق خاص، وأفضل من يضمنه هي الحكومات المحلية، بينما يتعرض للخطر من قبل السلطة الوطنية الفيدرالية القوية، وقد كتبت صحيفة ديمقراطية في عام 1842 قائلة إن "الحد من السلطة في كل فرع من فروع حكومتنا هو الضمانة الوحيدة للحرية، وأن الحكومة " الرائعة كانت دائمًا هي التي تقوم على أنقاض الحقوق الشعبية."

بالرغم من توسع الديمقراطية في عهد جاكسون، إلا أن سلطة الحكومة الوطنية ضعفت. كانت السلطة الوطنية الضعيفة في نظر الديمقراطيين ضرورية لكل من الحرية الخاصة وحقوق "الولايات" – حرية الفرد في الاتحاد الاجتماعي، [و] حرية الولاية في الاتحاد الفيدرالي. "وصف "رالف والدو إيمرسون" الأمريكيين ما قبل الحرب بأنهم "متعصبون لعقيدة الحرية"، وأن هوسهم بها قد عبَّر عن نفسه في كراهية "المكوس، والضرائب، والرسوم على الطرق الرئيسية والبنوك والتسلسلات الهرمية والحكام، نعم كل القوانين تقريبا؛ وقد أدان الديمقراطيون بانتظام الحكومة الاتحادية البعيدة ووصفوها بأنها أعظم "خطر على الحرية" في أمريكا، وكانوا يرون أن المزايا الممنوحة من قبل الحكومة هي السبب الجذري وراء عدم المساواة الاجتماعية. خفض الديمقراطيون خلال رئاسة جاكسون النفقات والتعريفة الجمركية، وقضوا على البنك الوطني ورفضوا الدعوات المطالبة بالحصول على مساعدات اتحادية للتحسينات الداخلية، ونتيجة لذلك استطاع جاكسون تسديد الدين الوطني بحلول عام 1835، وهكذا حلت الولايات محل الحكومة

الاتحادية بصفتها القوة الاقتصادية الفاعلة الرئيسية في البلاد، وتقوم بتخطيط شبكات القنوات والطرق ومنح الامتيازات الخاصة بتأسيس البنوك والشركات الأخرى.

السياسة والأخلاق

وعلاوة على ذلك، اعتبر الديمقراطيون أن الأخلاق الفردية مسألة خاصة وليست شأنا عاما، ولذلك عارضوا محاولات فرض رؤية أخلاقية موحدة على المجتمع، مثل تشريع "الاعتدال" الذي قيَّد أو حظر إنتاج وبيع الخمور، والقوانين التي كانت تحظر أنواع مختلفة من الترفيه في أيام الأحد، وكان هذا هو أحد أسباب توافد الأيرلنديين الكاثوليك والمهاجرين الألمان الذين دخلوا البلاد بأعداد كبيرة في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، كما ورد في الفصل التاسع، حيث إنهم لم يكونوا يرغبون في الخضوع للمعايير الأخلاقية البروتستانتية التي تفرضها الحكومة، كما أعلنت "مجلة نيويورك للتجارة" في عام 1848، أن "هذا البلد يفهم الحرية بأنها غياب الحكومة عن الشئون الخاصة"، وارتبط نجاح السياسات العامة، ليس بتعزيز الصالح العام ولكنه ارتبط بالمدى الذي تسمح به هذه السياسات "بالوكالة الحرة" - أي مدى حرية الأفراد في اتخاذ القرارات، ومتابعة مصالحهم، واستثمار مواهبهم المتفردة دون تدخل خارجي.

أصر الهويج من جانبهم على أن الحرية والقوة يدعمان بعضهما البعض، حيث كتب "فرانسيس ليبر" الأب المؤسس للعلوم السياسية الأمريكية قائلا إن "الحكومة الضعيفة هي بمثابة نفي للحرية"، حيث إن الحكومة الوطنية النشطة، من ناحية أخرى، تستطيع تعزيز مجال الحرية؛ ويعتقد اليمينيون أن الحرية تتطلب أن تكون أمريكا مزدهرةً وأخلاقية، وبناءً عليه يتعين على الحكومة تهيئة الظروف للتنمية الاقتصادية المتوازنة والمنظمة، وبالتالي تعزيز الازدهار الذي يمكن أن تتمتع به جميع الطبقات والأقاليم. يميل اليمينيون الأغنياء- مثل الفيدراليين من قبلهم - إلى النظر للمجتمع على أنه تسلسل هرمي من الطبقات الاجتماعية، على النقيض من العالم الغير المنضبط، الذي ينادي به الديمقراطيين، والذي تهمين عليه المنافسة الفردية الغير مقيدة؛ ومع ذلك، يختلف اليمنيون مع معظم الفيدراليين في أنهم يصرون على أنه لم يتم سن النظام الطبقي في الولايات المتحدة نظرًا لأن أي فرد يستطيع أن يصعد السلم الاجتماعي التصاعدي.

كما أن اليمينيين، علاوة على ذلك، يرفضون منطق أن الحكومة يجب ألا تتدخل في الحياة الخاصة، حيث يرون أن العمل بحرية يعني أن تتوافر في الوكلاء الأخلاقيين- أي الأفراد - الذين يتمتعون بالتوجيه والتنظيم الذاتي- صفات شخصية معينة تستطيع الحكومة المساعدة في غرسها، وقد أعلن أحد أعضاء الحزب اليميني في "نيويورك" أن دور الحكومة لا يقتصر على مجرد الوقوف جانبًا بدون حراك، ولكن أن تكون نشطة "لتعزيز رفاهية الشعب". حصل اليمينيون على تأييد

العديد من البروتستانت الإنجيليين اقتناعا منهم بأن الحكومات الديمقراطية يمكنها "غرس مبادئ الأخلاق" من خلال التعليم العام، وبناء المدارس، والمصحات، وسن التشريعات المعتدلة وغير ذلك، وسنت السلطات المحلية المنتخبة شعبيًّا خلال عهد "جاكسون" العديد من القوانين، والمراسيم، والأنظمة التي حاولت تشكيل الآداب العامة من خلال حظر الدعارة، واستهلاك الكحول، وتنظيم أنواع أخرى من السلوك الشخصي؛ وقد اشتهرت بنسلفانيا في القرن التاسع عشر بالقوانين الصارمة ضد التجديف و تدنيس يوم السبت كما كانت معروفة خلال الحقبة الاستعمارية بالتزامها بالحرية الدينية.

ولاية "ساوث كارولينا" والبطلان

قيل إن "أندرو جاكسون" ترك منصب الرئاسة ولديه عدد من المبادئ أكبر من عدد المبادئ التي دخل بها، فبمجرد دخوله القصر منتخبًا كبطل عسكري مدعومًا من قبل جهاز حزبي كفء، اضطر لتحديد موقفه من القضايا العامة؛ وعلى الرغم من التزامه بحقوق الولايات، إلا أن معركة الحفاظ على سيادة الدولة الاتحادية على دولة القانون هيمنت على مدة رئاسته الأولى، حيث أدى فرض التعريفة في عام 1828 إلى زيادة الضرائب على السلع المستوردة المصنوعة من الصوف وعلى المواد الخام مثل الحديد، مما أثار معارضة كبيرة في الجنوب، ولا سيما في ولاية "ساوث كارولينا" حيث كان يطلق عليها "تعريفة البغضاء"، وحيث لم يعد قادة الولاية يصدقون أنه من الممكن أو من المرغوب فيه التنافس مع الشمال في مجال التنمية الصناعية، ولذلك هددت السلطة التشريعية في الولاية بالقيام "بإبطال" التعريفة بإعلان أنها لاغية وباطلة داخل ولايتهم، لأنهم يرون أن هذه الرسوم الجمركية على السلع المصنعة المستوردة رفعت الأسعار التي يدفعها المستهلكون الجنوبيون لصالح الشمال.

ونظرًا لأن ولاية "ساوث كارولينا" بها أكبر نسبة من العبيد بين سكانها (55 في المائة في عام 1830)، لذلك كان يسيطر عليها بإحكام مجموعة متماسكة من كبار المزارعين، الذين أحكموا قبضتهم على السلطة من خلال دستور للولاية يمنح لمقاطعات المزارع تمثيلاً في المجلس التشريعي أكبر بكثير مما هو مسموح لعدد سكان هذه المقاطعات، وكذلك من خلال اشتراط مؤهلات من الملكية العقارية عالية القيمة للتأهل لشغل المناصب العليا، ولذلك شعروا بقلق كبير وتهديد بفقد هذه الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها بسبب أزمة ولاية "ميزوري"، وبسبب التعزيز المستمر للسلطة الوطنية الاتحادية من قبل رئيس المحكمة العليا "جون مارشال". كانت شكواهم الاقتصادية من فرض التعريفة ترجع إلى قناعتهم بضرورة إضعاف الحكومة الاتحادية خشية أن تتخذ في يوم ما إجراءات ضد العبودية.

نظرية كالهون السياسية

سرعان ما برز "جون سي كالهون" كرائد لنظرية "البطلان"؛ ومع بداية تخلف الجنوب عن بقية البلاد في عدد السكان، تحول "كالهون" من انتمائه لحركة القوميين لعام 1812 إلى مدافع قوي عن الإقليمية الجنوبية، وبعد أن تم انتخابه نائبًا للرئيس في عام 1828 ظل في البداية وراء الكواليس يصيغ سرًا "الشرح والاحتجاج" الذي برر فيه المجلس التشريعي في "ساوث كارولينا" البطلان، وقد بنى هذا المستند على أساس الحجج التي ساقتها قرارات ولايتي "فرجينيا" و"كنتاكي" لعام 1798 (التي نوقشت في الفصل الثامن). أصر "كالهون" على أنه قد تم إنشاء الحكومة الوطنية من خلال اتفاق بين ولايات ذات سيادة، وكل منهم احتفظ بالحق في منع نفاذ قوانين الكونجرس التي تتجاوز السلطات المنصوص عليها بوضوح في الدستور إلى داخل حدودها.

ضَعُفَ تأثير "كالهون" في الإدارة منذ بداية الولاية الأولى للرئيس "جاكسون" تقريبا، في حين برز وزير الخارجية "مارتن فان بورين" كأقرب مستشار للرئيس؛ وثمة حادث واحد ساعد على الإيقاع بين جاكسون" وكالهون بعد بضعة أسابيع من تنصيب الرئيس، حيث قامت "جمعية نساء واشنطن" بقيادة "فلورايد" زوجة "كالهون" بفصل "بيجي إيتون"، زوجة وزير "جاكسون" للحرب، لأنها كانت ابنة حارس حانة واشنطن، وزعمن أنها امرأة "غير متمسكة بالفضيلة"، وقد وقف بجانبها أرملة "فان بورين" والرئيس "جاكسون" الذي ربط بين انتقاد "بيجي إيتون" ومعاناة زوجته خلال حملته الانتخابية لعام 1828.

وسرعان ما وقعت مسائل أخرى ذات ثقل أكبر عَمَّقَت الفرقة بين "جاكسون" و "كالهون"، حيث ثار الجدل في واشنطن حول البطلان، وفي تبادل للحديث في مجلس الشيوخ في يناير (كانون الثاني) لعام 1830، أجاب "دانيال ويبستر" على تلميذ "كالهون" السيناتور "روبرت واي هاين" من "ساوث كارولينا" قائلا إن الشعب هو الذي أنشأ الدستور، وليس الولايات، مما يمنح الحكومة الاتحادية السيادة، وأعلن أن البطلان غير قانوني، وغير دستوري، وخيانة؛ واختتم بتصريح لاقى إشادة على نطاق واسع في جميع أنحاء البلاد بقوله إن "الحرية والاتحاد وحدة واحدة لا تتجزأ منذ الآن وإلى الأبد." بينما كان "جاكسون" يشرب نخب بعد ذلك ببضعة أسابيع أثناء عشاء في البيت الأبيض، حدَّق في "كالهون" وقال "ينبغي الحفاظ على اتحادنا"، فرد "كالهون" عليه على الفور قائلا "يأتي الاتحاد بعد حريتنا يا عزيزي." وقد ظهر "كالهون" بحلول عام 1831 علنًا بصفته صاحب النظرية الرائدة في مجال حقوق الولايات.

أزمة البطلان

لم يكن البطلان قضية إقليمية بحتة، حيث وقفت "ساوث كارولينا" وحدها خلال الأزمة

وأصدرت عدة ولايات جنوبية قرارات تدين هذا العمل؛ ومع ذلك، منحت نظرية العهد (تنص هذه النظرية على أن الأمة تشكلت خلال عهد اتفقت عليه الولايات، وأن الحكومة الفيدرالية الاتحادية هي مجموع الولايات، وبالتالي ينبغي أن تكون الولاية هي الحكم الأخير حول ما إذا كانت الحكومة الاتحادية قد تجاوزت حدود سلطتها على النحو المبين في الاتفاق) في الدستور فلسفة سياسية متطورة للجنوب يمكنه الرجوع إليها عندما يصبح الصراع الإقليمي أكثر حدة. أنكر "كالهون" أن البطلان كان خطوة نحو الانشقاق، بل على العكس من ذلك كان يرى أن السبيل الوحيد لضمان استقرار أمة متنوعة كبيرة هو أن تتأكد لكل ولاية من أن الإجراءات الوطنية لن تدوس على حقوقها أو مصالحها الحيوية؛ ووفقًا لنظرية "كالهون"، المسماة "الأغلبية المتزامنة"، ينبغي أن يكون لكل صاحب مصلحة رئيسية، بما في ذلك العبيد، الحق في استخدام حق النقض ضد كل التدابير التي تؤثر عليه.

ومع ذلك، لم يكن البطلان بالنسبة إلى "جاكسون" يعني سوى الانشقاق وليس أقل من ذلك، ولذلك رفض الحجج الدستورية التي ساقها "كالهون" على الفور قائلا: "هل يمكن لأي شخص عاقل ذو حس سليم أن يصدق هذا العبث، بأن يكون لفصيل من أي ولاية أو لأي ولاية الحق في الانفصال وتدمير هذا الاتحاد ويطيح معه بالحرية التي جاء بها هذا البلد معه؟ بلغت المسألة ذروتها في عام 1832، عندما تم فرض تعريفة جمركية جديدة على السلع المستوردة، وعلى الرغم من أن ذلك أسفر عن خفض في معدلات الرسوم الجمركية، إلا أن ولاية "ساوث كارولينا" أعلنت أن التعريفة على السلع المستوردة لاغية وباطلة في الولاية بعد فبراير (شباط) القادم، مما دفع "جاكسون" بالرد على ذلك بإقناع الكونجرس بسن قانون بتحصيل رسوم وضرائب إضافية وتوسيع سلطات الرئيس، بتخويله سلطة استخدام الجيش والبحرية لجمع الرسوم الجمركية بالقوة.

ولتجنب المواجهة، دبَّر "هنري كلاي" بمساعدة "كالهون" لاصدار تعريفة جمركية جديدة في عام 1833 بإدخال مزيد من الخفض على الرسوم، فقامت ولاية "ساوث كارولينا" بإلغاء مرسوم البطلان، على الرغم من أنها كانت قد شرعت في "إلغاء" قانون تحصيل رسوم وضرائب إضافية وتوسيع سلطات الرئيس. تخلى "كالهون" عن الحزب الديمقراطي وانضم للحزب اليميني حيث أصبح مع "كلاي" و"وبستر"، أحد تشكيل ثلاثي هائل من القادة السياسيين (على الرغم من أن الثلاثة لم يتفقوا على أي شيء تقريبًا سوى العداء لجاكسون). ربما يكون من المفارقات أن "أندرو جاكسون" الذي يؤمن بقوة بحقوق الولايات وبالحكومة المحدودة قام بجهد أكبر من أي فرد آخر لإضفاء هالة عاطفية حول فكرة الاتحاد ولتقديم مثال على الاستعداد للذهاب إلى الحرب، إذا لزم الأمر، للحفاظ على ما تعتبره الحكومة الوطنية سلطات مشروعة.

طرد الهنود

أكدت أزمة البطلان على التزام "جاكسون" بسيادة الأمة، وقد أدى استبعاده للهنود من عصر القومية الديمقراطية المؤكدة إلى الفصل الأخير في النزاع الذي امتد لقرون طويلة بين الأمريكيين البيض والهنود إلى الشرق من نهر "المسيسبي"، الذي شهد المقاومة الهندية الأخيرة لتقدم مستعمرات البيض في المنطقة القديمة بالشمال الغربي في عام 1832 بقيادة الزعيم "سوك بلاك هوك" الذي حاول مع حوالي 1.000 من أتباعه استعادة أرض الأجداد في ولاية "إيلينوي"، ولكنهم لاقوا هزيمة أمام القوات الفيدرالية والميليشيات المحلية؛ وكان أحد رجال ميليشيات "إلينوي"، الشاب "إبراهام لنكولن" الذي علّق لاحقًا بأنه لم ير أي مقاومة وعمل من جانب الهنود إلا من البعوض هناك.

وقد شكلت مسيرة زراعة القطن الصاعدة في الولايات التي تضم العبيد ضغوطًا هائلةً على ما تبقى من ممتلكات الهنود، حيث أعلن "توماس هارت بنتون" الذي مَثَّلَ ولاية "ميزوري" في مجلس الشيوخ لمدة ثلاثين عامًا عن "توسيع منطقة العبودية"، وطالب "بتحويل الأراضي الهندية إلى أراضي للعبيد"، وبالفعل أجبرت "ميزوري" خلال العشرينيات من القرن التاسع عشر السكان الهنود على مغادرة الولاية، وسرعان ما تبنت الولايات الأقدم التي بها عبيد سياسة الطرد، وقد صدر قانون إزاحة الهنود لعام 1830 ضمن القوانين المبكرة لإدارة "جاكسون"، والذي نص على توفير الأموال اللازمة لاقتلاع ما يسمى بالقبائل الخمسة الحضارية، وهم "شيروكي"، و"شيكاسو"، و"شوكتو"، و"كريك"، و"سيمينول" التي كانت تضم حوالي 60.000 نسمة يعيشون في ولايات "نورث كارولينا"، و"جورجيا"، و"فلوريدا"، و"ألاباما"، و"مسيسيبي".

سجل القانون تنصلاً لفكرة جيفرسون أنه يمكن استيعاب الهنود "المتحضرين" ضمن السكان الأمريكيين، حيث بذلت هذه القبائل جهودًا كبيرة لتتمتع بكل ما يتمتع به مواطني الجمهورية، واتخذت قبيلة "شيروكي" زمام المبادرة وأنشأت المدارس، وتبنت القوانين المكتوبة، واعتمدت دستورًا على غرار نظيره في الولايات المتحدة، وأصبحوا مزارعين ناجحين وكان الكثيرون منهم يمتلكون عبيدا، ولكن "جاكسون" أشار إليهم مرارًا وتكرارًا في خطبه للكونجرس بوصفهم "المتوحشين غير المتحضرين"، وأيد جهود "جورجيا" للاستيلاء على أراضي قبيلة "شيروكي" وإلغاء قوانين القبيلة.

والتمس مواطنو الأمة الشيروكية من الكونجرس المساعدة على أن يبقوا في سلام وهدوء على أراضيهم القديمة." وعلى غرار الأسلوب الأمريكي الجيد، ذهب قادة "شيروكي" أيضًا إلى المحكمة لحماية حقوقهم المكفولة في المعاهدات مع الحكومة الاتحادية، وأجبرت طعونهم المحكمة العليا لتوضيح الحالة المتفردة للهنود الأمريكيين.

المحكمة العليا والهنود

في قضية حاسمة تضمنت الهنود في عام 1823 تسمى "جونسون ضد مونتش"، وأعلنت المحكمة أن الهنود ليسوا في الحقيقة أصحاب الأرض ولكنهم يتمتعون فقط "بحق الإشغال." ادعى رئيس المحكمة العليا "جون مارشال" الذي يضارب بنفسه في الأراضي الغربية، أن الهنود قد عاشوا منذ بداية الحقبة الاستعمارية كما عاش البدو والصيادون يرتحلون من مكان لآخر، وليس كمزارعين مستقرين في الأرض. كان هذا القرار الغير دقيق تاريخيًا تمامًا بمثابة ضربة قوية ضد جهود الهنود للاحتفاظ بأراضيهم. وصف "مارشال" الهنود في قضية "قبيلة شيروكي ضد جورجيا" لعام 1831 بأنهم "أجنحة" للحكومة الاتحادية ويستحقون الاحترام والحماية الأبوية لكنهم يفتقرون إلى المكانة كمواطنين، مما يجعل المحكمة العليا غير جهة اختصاص لإنفاذ حقوقهم لأنها مخصصة للمواطنين كاملي الوطنية، وبالتالي، لا يستطيع القضاة منع جهود جورجيا لتمديد ولايتها القضائية على القبيلة.

وبالرغم من أن "مارشال" كان يؤمن بقوة بسيادة الحكومة الاتحادية على جميع الولايات، إلا أنه يبدو أن المحكمة قد غيرت رأيها في قضية "ورشستر ضد جورجيا" لعام 1832، حيث أصرت على أن الشعوب الهندية هي شعوب متميزة لها الحق في الحفاظ على هوية سياسية منفصلة، ويجب التعامل معهم من قبل الحكومة الاتحادية وليس الولايات؛ وقد انتهكت إجراءات جورجيا معاهدات "شيروكي" مع واشنطن؛ ومع ذلك، وبالرغم من تأكيد "جاكسون" القوي على السيادة الوطنية في أزمة البطلان، إلا أنه رفض الاعتراف بصحة حكم "ورشستر"، وورد أنه قال إن "جون مارشال اتخذ قراره" ، إذاً "دعوه الآن ينفذه".

مع استنفاد الطعون القانونية، اضطرت أحد فصائل القبيلة الهندية قبول التنازل عن أراضيهم، ولكن الأغلبية بقيادة "جون روس" الذي كان قد تم انتخابه "الزعيم الرئيسي" للقبيلة بموجب دستور "شيروكي" اعتمدت سياسة المقاومة السلبية، إلا أن جنود الحكومة الاتحادية طردوهم قسرًا من أرضهم خلال فترة رئاسة "مارتن فان بورين" خليفة جاكسون، حيث ساق الجيش 18.000 من الرجال والنساء والأطفال إلى حظائر، ثم أجبروهم على التحرك غربا، فهلك ما لا يقل عن الربع خلال فصل شتاء عام 1838–1839 عبر الطريق من جورجيا إلى المنطقة المعروفة في الوقت الحاضر "بأوكلاهوما"، وهو الطريق الذي أطلق عليه لاحقًا اسم "درب الدموع" وفقًا للغة هذه القبيلة.

وقد رضخت معظم القبائل الجنوبية الأخرى للمصير المحتوم وغادرت الأراضي بسلام خلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، باستثناء مقاومة "السيمينول" المتناثرين في فلوريدا؛

حيث قام أحد قادة المقاومة في "سيمينول" الذين قاوموا الطرد من الأرض، ويدعى "أوسيولا"، وكان من قبيلة العصا الحمراء (فصيل تقليدي من قبيلة كريك الموسكوجية الهندية في جنوب شرق أمريكا في أوائل القرن التاسع عشر، وقد قادوا حركة المقاومة ضد الاعتداء الأوروبي الأمريكي على أراضيهم) وهو أحد الناجين من هجوم "أندرو جاكسون" على قبيلته في حرب عام 1812، واستعان بالعبيد الفارين. كانت "فلوريدا" ملاذًا للعبيد الهاربين من "ساوث كارولينا" وجورجيا منذ بداية الحقبة الاستعمارية بعد أن قدم لهم مسئولون إسبان الحرية. حاولت إدارة "جورج واشنطن" إقناع "السيمينول" بطرد العبيد الهاربين لكنهم رفضوا. أرسلت "جورجيا" ميليشيات إلى "فلوريدا" للقبض عليهم، ولكن "السيمينول" والمقاتلين الأمريكيين الأفارقة طردوهم. في حرب "السيمينول" الثانية التي استمرت خلال الفترة ما بين عامي 1835-1842 (وقعت الحرب الأولى بعد استيلاء القوات الأمريكية على "فلوريدا" في عام 1819)، وأسفرت عن مقتل حوالي 1.500 جنديًا أمريكيًا وعددًا مماثلاً من "السيمينول"، واضطر حوالي 3.000 من الهنود و500 من السود للانتقال إلى الغرب، فيما عدا عدد قليل من "السيمينول" الذين تمكنوا من البقاء في فلوريدا، وهم يمثلون البقية القليلة من السكان الهنود الذين كانوا يشكلون قدرًا كبيرًا من السكان في شرق نهر المسيسبي.

وقد نشر "وليام أبيس" أول سيرة ذاتية مسهبة لأمريكي من السكان الأصليين في عام 1831 تحت عنوان "ابن الغابات"، وهو سليل "ميتاكوم" أو الملك "فيليب" وكان قد قاتل مستعمري "نيو إنجلاند" في السبعينيات من القرن السابع عشر، وهو ابن رجل أبيض وامرأة هندية، وقد خدم مع القوات الأمريكية في الهجوم الفاشل على كندا خلال حرب عام 1812، وتحول لاحقًا إلى الميثودية وأصبح واعظ الصحوة. ناشد "أبيس" في كتابه تحقيق الوئام بين الأمريكيين البيض والهنود، حيث كتب قائلا "كم سيكون من الأفضل بكثير إذا كان البيض يتصرفون مثل الشعوب المتحضرة، [و] أعطوا كل فرد حقه". كما كتب في موضع آخر "ماذا يريد الهنود؟ فقط انظر إلى القوانين الجائرة التي تحكمهم وقل: إنهم يريدون ما أريد".

كان بديل التعايش السلمي الذي نادى به "أبيس" هو طرد الهنود من أرضهم. عزز كتاب "أبيس" بقوة التعريف العنصري للأمة الأمريكية والحرية. كان وجود الهنود مألوفًا في أجزاء كثيرة من الولايات المتحدة. أشار "جون آدامز" ذات مرة عندما كان شابا و"كان الزوار الهنود يترددون كثيرًا على بيت أبيه"، وكيف كان يزور الأسرة الهندية المجاورة "حيث كانوا يمنحونني ثمار العليق أو الفراولة أو التفاح أو الخوخ أو الدراق ... إلخ"؛ أما بحلول عام 1840 أصبح الهنود في نظر معظم البيض شرق نهر المسيسبي مجرد مخلفات فترة سابقة من التاريخ الأمريكي المثير للفضول؛

وعلى الرغم من أن الهنود لا يزالون يهيمنون على غرب المسيسيبي حيث طردهم المستوطنون الأمريكيون بلا هوادة غربا، إلا أنه كان من الواضح أن أيام الحرية التي كانوا يتمتعون بها في الغرب باتت معدودة أيضا.

حرب البنوك وما بعدها

"بنك بيدل"

كان النضال السياسي الأساسي في عصر "جاكسون" هو حرب الرئيس على بنك الولايات المتحدة. رمز البنك للآمال والمخاوف المستوحاة من ثورة السوق؛ وقد ساعد التوسع في الخدمات المصرفية في تمويل التنمية الاقتصادية في البلاد، ولكن العديد من الأمريكيين، بما في ذلك "جاكسون" لم يكونوا يثقون في المصرفيين، حيث كانوا يعتبرونهم "غير منتجين" ولا يساهمون في ثروة البلاد، ولكنهم يستفيدوا من عمل الآخرين. أدى ميل البنوك للإفراط في إصدار النقود الورقية إلى تعزيز هذه القناعة حيث إن تدهور قيمة هذه العملات الورقية يؤدي إلى خفض الدخل الحقيقي للعاملين بالأجرة. كان جاكسون نفسه يعتقد منذ فترة طويلة أن "الأموال المعدنية" من الذهب والفضة هي فقط العملات الحقيقية، ومع ذلك، كان هناك سبب وجيه عندما تولى منصبه لنعتقد أن الحرب على البنك ستصبح الحدث الرئيسي في رئاسته.

كان على رأس البنك "نيكولاس بيدل" من ولاية بنسلفانيا، وهو الذي استخدم سلطة المؤسسة بفعالية خلال العشرينيات من القرن التاسع عشر، كما ناقشنا سابقًا في هذا الفصل، للحد من الإفراط في إصدار المال عن طريق البنوك المحلية ولخلق عملة مستقرة في جميع أنحاء البلاد؛ ونظرًا لأن "بيدل" كان أرستقراطيًا مغرورًا وعنيدًا من فيلادلفيا، مثلما كان جاكسون، لذلك كان غير راغب في التراجع في معركته ضد "جاكسون"، وقد أبلغ إحدى لجان الكونجرس في عام 1832 أن البنك لديه القدرة على "تدمير" أي بنك في أي ولاية، ولكنه سرعان ما تدارك تصريحه بإضافة أنه لم يسبق له أن "أصاب" أي منها، ولكن الديمقراطيين تساءلوا عما إذا كان يجب أن تمتلك أي مؤسسة عامة أو خاصة مثل هذه السلطة، وأطلق العديد من الأشخاص على ذلك البنك "البنك الوحش"، وأنه اتحاد غير شرعي للسلطة السياسية، وأنه رسَّخَ فكرة الامتيازات الاقتصادية المنافية للمساواة، والعدالة، وتكافؤ الفرص. بلغت قضية مستقبل البنك ذروتها في عام 1832 حين أقنع حلفاء "بيدل" الكونجرس بالموافقة على مشروع قانون لتمديد مدة امتياز هذه المؤسسة المالية لعشرين سنة أخرى، على الرغم من أن هذا الامتياز كان ممتدًا حتى عام 1836. رأى "جاكسون" أن هذا التكتيك يمثل شكلاً من أشكال الابتزاز، حيث إنه إذا لم يوقع على

مشروع القانون، فإن البنك سيستخدم موارده الكبيرة في تمويل معارضة إعادة انتخابه؛ وصرَّح أمام "فان بورين" قائلا بأن "البنك يحاول تدميري ولكنني سأقضي عليه".

ربما كان استخدام "جاكسون" لحق الفيتو ضد قرار الكونجرس بتمديد امتياز البنك هو الوثيقة الأهم خلال فترة رئاسته، ولاقت حججه صدى في القيم الشعبية، حيث أصر "جاكسون" على أنه من غير المقبول أن يقوم الكونجرس في أي حكومة ديمقراطية بإنشاء مصدر للاستيلاء على سلطة مركزة وامتياز اقتصادي غير خاضع للمساءلة أمام الشعب؛ وأعلن مضيفًا "إنه من المؤسف أنه كثيرًا ما يلوي الأغنياء والأقوياء قوانين الحكومة لصالح أغراضهم الأنانية". ساهمت الامتيازات الحصرية، مثل امتياز البنك، في توسيع الفجوة بين الأثرياء وبين "الأعضاء المتواضعين في المجتمع مثل المزارعين، والميكانيكيين، والعمال"؛ وهكذا، قدم جاكسون نفسه كمدافع عن هؤلاء الأمريكيين "المتواضعين".

وقد عكست حرب البنك كيف عزز "جاكسون" سلطة الرئاسة خلال السنوات الثماني التي قضاها في منصبه معلنًا نفسه كممثل رمزي عن كل الشعب، وكان أول رئيس يستخدم حق النقض كسلاح رئيسي ويلتمس من الجمهور مباشرة دعمه السياسي ضد رئيس الكونجرس. ندد اليمينيون باغتصابه لسلطة المجلس التشريعي - أي الكونجرس، وأصروا على أن الكونجرس وليس الرئيس هو الذي يمثل إرادة الشعب، وأن حق النقض على الرغم من أنه مستمد من قبل الدستور إلا أنه لا يجب أن يستخدم إلا في ظروف استثنائية، إلا أن نداء "جاكسون" الفعال للمشاعر الشعبية الديمقراطية ساعدته على الفوز بفترة رئاسة ثانية بعد تحقيق انتصار كاسح في عام 1832 على المرشح اليميني "هنري كلاي". أكد فوزه هذا على وفاة ونهاية بنك الولايات المتحدة. (من المفارقات أن صورة جاكسون التي تزين اليوم ورقة العشرين الدولار صادرة عن البنك الاحتياطي الفيدرالي الذي كان خلفًا بشكل أو بآخر لبنك الولايات المتحدة.)

البنوك المدللة والاقتصاد

بيد أنه ثار سؤال عما سيحل محل البنك؟ وقد رحبت مجموعتان مختلفتان جدًا باستخدام "جاكسون" لحق النقض. تضم المجموعة الأولى مصرفي الدولة الذين يرغبون في تحرير أنفسهم من لوائح "بيدل"، وليصدروا المزيد من العملات الورقية (التي تسمى "العملة سهلة التداول)، بينما تضم المجموعة الثانية "دعاة العملة الصعبة- أي من الذهب والفضة"، والذين عارضوا جميع المصارف سواء المرخص لها سواء من قبل الولايات أو من قبل الحكومة الاتحادية، وكانوا يعتقدون أن الذهب والفضة يشكلان العملة الوحيدة التي يمكن التعويل عليها.

وقد شهد مصرفيو الدولة صعود نجمهم خلال الفترة الثانية لرئاسة "جاكسون". صرَّح "جاكسون" بسحب أموال الحكومة الاتحادية من خزائن بنك الولايات المتحدة دون الانتظار لانتهاء امتيازه في عام 1836، وكذلك سحب الودائع الحكومية من البنوك المحلية. لم يكن من الغريب أن اختيار هذه "البنوك المدللة" التي تحظى بودائع وفائض أموال الحكومة الاتحادية يتم غالبا من خلال العلاقات السياسية والشخصية، فعلى سبيل المثال، كان مدير بنك "مين بورتلاند" شقيق زوجة "ليفي ويدبري" عضو مجلس الوزراء في حكومة "جاكسون"، وقد أوصى حكم للمحكمة العليا بالتعامل مع بنك مزارعي سافانا. رفض وزيران للخزانة تحويل أموال الحكومة الاتحادية من البنوك المدللة نظرًا لأن القانون الذي نشأ البنك بموجبه كان ينصُّ على أنه لا يمكن نقل أموال الحكومة إلا لسبب وجيه وبأمر من الكونجرس. عَيَّنَ "جاكسون" أخيرًا النائب العام "روجر ب. تاني"، وهو ديمقراطي موالي له من ميريلاند، في منصب وزير الخزانة وقام بتنفيذ أمر سحب الأموال، وعندما توفي "جون مارشال" في عام 1835، قام جاكسون بمكافأة "تاني" بتعيينه رئيسًا للمحكمة العليا.

وبدون الودائع الحكومية، خسر بنك الولايات المتحدة قدرته على تنظيم أنشطة بنوك الدولة، حيث أصدرت هذه البنوك المزيد والمزيد من النقود الورقية، وذلك جزئيًا للمساعدة في تمويل التوسع السريع في التنمية الصناعية في "نيو إنجلاند" والزراعة في الجنوب والغرب وإنشاء القنوات وأنظمة السكك الحديدية التي خططت لها الولايات؛ وارتفعت قيمة الأوراق النقدية المتداولة من 10 ملايين دولارًا في عام 1833 إلى 149 مليون دولار في عام 1837.

وقد ارتفعت الأسعار بشكل كبير، وحتى على الرغم من زيادة الأجور إلا أنها فشلت في مواكبة زيادة الأسعار، مما أسفر عنه تدهور "الأجور الحقيقية" للعمال، أي القيمة الفعلية لأجورهم. ظهرت العديد من النقابات العمالية نتيجة لذلك في محاولة لحماية مكاسب العمال في المناطق الحضرية. وسارع المضاربون للاستفادة من ارتفاع أسعار الأراضي واشتروا مساحات واسعة من أراضي الدولة باستخدام النقود الورقية، ليعيدوا بيعها مجزأة للمزارعين أو للمشترين الشرقيين في المدن الغربية. رصدت حكومات الولايات عشرات الملايين من الدولارات للقيام بالتحسينات الداخلية.

ذعر عام 1837

كان انهيار الطفرة في المضاربة حتميا، حيث باعت الحكومة 20 مليون فدان من الأراضي الاتحادية في عام 1836، بما يعادل عشرة أضعاف المقدار المباع في عام 1830، وتم دفع ثمنها كله تقريبًا بالعملة الورقية ذات القيمة المشكوك فيها في كثير من الأحيان. أصدرت إدارة جاكسون

في يوليو (تموز) 1836 "قانون العُمْلَة" المعدنية، معلنًا أن الحكومة لن تقبل ثمن الأراضي العامة من الآن فصاعدًا إلا من العملات الذهبية والفضية؛ ونظرًا لتشكك بنك إنجلترا في الوقت نفسه في قيمة الأوراق النقدية الأمريكية على نحو متزايد، فقد طالب التجار الأمريكيون بتسديد ديونهم للدائنين في لندن بالعملة الذهبية أو الفضية فقط. أدى الانكماش الاقتصادي في بريطانيا بعد ذلك إلى تقليل الطلب على القطن الأمريكي الذي كان يمثل السلعة التصديرية الرئيسية في البلاد.

أدت هذه الأحداث مجتمعة إلى انهيار اقتصادي في الولايات المتحدة الأمريكية الذي اُصْطلِحَ على تسميته "ذعر عام 1837"، والذي تلاه كساد استمر حتى عام 1843، حيث انخفضت الأسعار بنسبة 25 في المائة في السنة الأولى من الانكماش، وفشلت شركات الأعمال في جميع أنحاء البلاد، وفقد الكثير من المزارعين أراضيهم نظرًا لعدم قدرتهم على فك الرهن العقاري بسبب انخفاض دخولهم، وفقد عشرات الآلاف من العمال في المناطق الحضرية وظائفهم، وانهارت الحركة العمالية الوليدة لأنه أصبح من المستحيل الإضراب عن العمل في ظل الفائض الهائل من العاطلين عن العمل. بحلول عام 1842، تخلفت تسع ولايات عن سداد ديونها التي كانت قد تكبدت معظمها لتمويل مشاريع طموحة لإجراء تحسينات داخلية في البلاد. عدلت الولايات دساتيرها خلال الأربعينيات من القرن التاسع عشر لمنع المجالس التشريعية من اقتراض المال أو إصدار امتيازات للشركات أو شراء الأسهم في الشركات الخاصة؛ ونجح "أنصار جاكسون" مؤقتًا في فصل كل من الحكومة الفيدرالية وحكومات الولايات عن الاقتصاد.

"فان بورين" رئيسا

كان الرئيس الذي اضطر للتعامل مع حالة الكساد هو "مارتن فان بورين"، والذي كان قد تم انتخابه في عام 1836 أمام أكثر من ثلاثة مرشحين إقليميين طرحهم اليمينيون في محاولة لجمع أقصى قدر من الأصوات الانتخابية للحزب، على أن يقوم مجلس النواب بالاختيار بينهم للانتخابات الرئاسية. وفي ظل حكم "فان بورين" وصل جناح الحزب الديمقراطي إلى السلطة وهو مؤيد للعملة الصعبة ومعارض للمصارف. أعلنت الإدارة الأمريكية في عام 1837 عن عزمها على سحب الأموال الاتحادية من البنوك المُدللة التي كانت تستقبل فائض الخزانة الاتحادية والاحتفاظ بها بدلاً من ذلك في وزارة الخزانة في واشنطن تحت سيطرة المسئولين الحكوميين، وعُرفت هذه السياسة الجديدة باسم "وزارة الخزانة المستقلة"، والتي فصلت تمامًا الحكومة الاتحادية عن النظام المصرفي في البلاد. لم تحظ هذه السياسة بإقرار الكونجرس حتى عام 1840؛ وقد ألغيت هذه السياسة في عام 1841، عندما عاد اليمينيون إلى السلطة، ولكن أعيد العمل بها في عهد الرئيس "جيمس بولك" في عام 1846. كان من شأن حرمان البنوك من الأموال الاتحادية

لاستخدامها في الاستثمار أن يُعَوِّق النمو الاقتصادي في المستقبل، لولا اكتشاف الذهب في كاليفورنيا في عام 1848، والذي ساهم في تدفق أموال جديدة في الاقتصاد.

وقد قسمت سياسات وزارة الخزانة المستقلة الحزب الديمقراطي إلى فريقين: ضم الفريق الأول أولئك المتوجهين نحو الأعمال والذين كانوا مرتبطين في الغالب ببنوك الدولة، وقد عارض هذا الفريق بشدة سياسة "فان بورين" وتحولوا بالجملة إلى الهويج؛ وعارض "الجناح الزراعي" في الحزب الديمقراطيين من صغار المزارعين والعمال في المناطق الحضرية الذين عارضوا جميع الخدمات المصرفية والعملات المالية الورقية، ولم يكونوا يشعرون بارتياح تجاه ثورة السوق بشكل عام واحتشدوا كمؤيدين "لفان بورين"؛ ومن ناحية أخرى، كان الكثيرون من دعاة سيادة الدولة الذين كانوا قد انضموا إلى اليمينيين بعد أزمة البطلان، قد عادوا الآن إلى حظيرة الديمقراطيين، بما في ذلك خصم "فان بورين" القديم "جون سي كالهون".

انتخابات عام 1840

على الرغم من شهرته كساحر سياسي، وجد "فان بورين" أنه لا يمكن الحفاظ على تماسك التحالف الديمقراطي معًا بدون شعبية جاكسون الشخصية، واكتشف أيضًا في عام 1840 أن خصومه اليمينيين قد أجادوا التقنيات السياسية، التي ساعد هو شخصيًا على استكشافها وظهورها؛ ونظرًا لظهور فرصة غير مسبوقة أمام اليمينيين للفوز في انتخابات الرئاسة بسبب الكساد الاقتصادي المستمر، تخلى اليمينيون عن زعيمهم الأبرز "هنري كلاي" ورشحوا "هنري هاريسون". مثل جاكسون عندما سعى لأول مرة للرئاسة، كان إنجاز "هاريسون" الرئيسي الذي يؤهله للشهرة يستند أساسًا على النجاح العسكري ضد البريطانيين والهنود خلال حرب عام 1812.

رشح الحزب "هاريسون" دون برنامج، حيث روجوا له باسم مرشح "الكوخ الخشبي" وبطل الرجل العادي، في وسط طوفان من المنشورات، واللافتات، والمسيرات، والاجتماعات الجماهيرية. أثبت هذا التكتيك فعاليته بشكل كبير، على الرغم من أنه كان لا يعكس كثيرًا حياة "هاريسون" الثرية المترفة في الواقع. استنكر اليمينيون أيضًا "فان بيورين" باعتباره الأرستقراطي الذي قد أهدر أموال الناس التي اكتسبوها بشق الأنفس على "الأثاث الباهظ الثمن، والأواني الصينية والزجاجية والملاعق الذهبية للبيت الأبيض. كان "جون تايلر" زميل "هاريسون" في سباق الأخير للرئاسة، وهو من الحزب الديمقراطي الذي كان يقوم برنامجه على أساس المطالبة بحقوق الولايات، وهو من ولاية فرجينيا وكان قد انضم إلى اليمينيين بعد أزمة الإلغاء ولم يتبع "كالهون" في العودة إلى الديمقراطيين. كانت آراء "تايلر" في كل القضايا التي لها أهمية سياسية تتعارض تمامًا مع آراء اليمينيين الآخرين، ولكن كان قادة الحزب يأملون أن يتمكن من توسيع قاعدتهم في الجنوب.

وقد استوعبت السياسات الديمقراطية الجماهيرية في عصر "جاكسون" منطق السوق بحلول عام 1840، حيث كان الترويج للمرشحين وصورهم بنفس أهمية المواقف التي يتبنونها ويتخذونها، وارتفعت نسبة مشاركة الناخبين إلى 80 في المائة من الأشخاص المؤهلين للتصويت، مع وجود حزبين متنافسين يتمتعان بدرجة عالية من التنظيم في جميع أنحاء البلاد، وهو مستوى المشاركة في الانتخابات الذي ظل مستمرًا لبقية القرن التاسع عشر. فاز "هاريسون" فوزًا ساحقا، وقد أعلنت صحيفة ديمقراطية عن أسفها قائلة "لقد علمّناهم كيف يقهروننا".

-الرئيس النائب وليس المنتخب-

لم يدم نجاح اليمينيين طويلا، ففور تولي "هاريسون" لمهام منصبه رئيسًا للجمهورية أُصيب بالالتهاب الرئوي وتوفي بعد شهر، وخلفه "جون تايلر". عندما حاولت الأغلبية اليمينية في الكونجرس سن النظام الأمريكي في القانون، اعترض تايلر ضد كل إجراء تقريبا، بما في ذلك محاولة إنشاء بنك وطني جديد ورفع الرسوم الجمركية، مما دعا معظم الوزراء للاستقالة وتنصل منه حزبه، وسرعان ما أطلقت عليه الصحف اليمينية اسم "الرئيس الذي آلت إليه الرئاسة بدون انتخابات"، وأطلقوا عليه أيضًا اسم "الحمار التنفيذي".

كانت مدة "تايلر" في منصبه لأربع سنوات خالية تقريبًا من الإنجازات؛ وإذا كانت الحملة التي أسفرت عن انتخاب "هاريسون" و"تايلر" قد أظهرت كيف أتى نظام مزدهر للسياسة الديمقراطية إلى حيز الوجود، فإن عدم نجاح "تايلر" أظهر أن الأحزاب السياسية أصبحت أساسية بالنسبة للحكومة الأمريكية، حيث لم يستطع الرئيس الحكم بدون حزب سياسي وراءه، ولكن ثمة عاصفة تتجمع الآن، الأمر الذي من شأنه اختبار مدى استقرار الديمقراطية الأمريكية ومدى حنكة قادتها السياسيين.

أصـوات الحريـة

من الرئيس "جيمس مونرو"
الرسالة السنوية للكونجرس (1823)

أدرج الرئيس "جيمس مونرو" ضمن رسالته السنوية فقرة أصبحت معروفة لاحقًا باسم "مذهب مونرو" لخص فيها المبادئ التي من شأنها أن تساعد على الحكم على علاقات البلاد مع بقية العالم لما يقرب من قرن من الزمان - وأن النصف الغربي من الكرة الأرضية لم يعد مفتوحًا أمام الاستعمار الأوروبي وأن الولايات المتحدة ستظل بعيدة عن أي حروب أوروبية.

وقد تم الحكم على هذه المناسبة بأنها ملائمة وصحيحة للتأكيد من حيث المبدأ . . . على أن القارتين الأمريكتين بحالتهما الحرة والمستقلة التي هما عليها والتي حافظا عليها لن يكونا من الآن فصاعدا محلاً للاستعمار في المستقبل من قبل أي من القوى الأوروبية . . . .

وقد ذُكِرَ في بداية الجلسة الأخيرة أن جهودًا كبيرةً تُبذَل في إسبانيا والبرتغال لتحسين حالة شعوب تلك البلدان، وأنه على ما يبدو قد أجريت بقدر كبير من الاعتدال. نحن تقريبًا في غنى عن القول إن النتائج حتى الآن مختلفة جدًا عما كان متوقعًا في ذلك الحين. كنا دائمًا نراقب بقلق واهتمام الأحداث التي وقعت في هذا الربع من العالم الذي نرتبط به والذي نستمد منه جذورنا. يعتز مواطنو الولايات المتحدة بمشاعر الود ويرحبون بأي شيء يأتي في صالح حرية وسعادة أقرانهم على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي. لم نشارك أبدًا في حروب القوى الأوروبية بشأن القضايا المتعلقة بجيراننا على الجانب الآخر من المحيط وليس من سياستنا أن نفعل ذلك. إننا لا نُقْدِم على القتال إلا مضطرين عندما يتم الاعتداء على حقوقنا أو عندما نشعر بأننا مهددون بشكل جدي أو تضررنا. إننا بالتأكيد أكثر ارتباطًا وعلى اتصال بشكل مباشر وفوري بالحركات التي تقع في هذا الجزء من القارة، وذلك للأسباب التي يجب أن تكون واضحة لجميع المراقبين المستنيرين والنزيهين. النظام السياسي للقوى المتحالفة [الأوروبية] يختلف جوهريًا عن النظام الأمريكي في هذا الشأن. . . .

لذلك نرى أنه من الواجب علينا أن نعلن أننا يجب أن ننظر في أي محاولة من جانبهم لمد نظامهم إلى أي جزء من هذه القارة على أنه يشكل خطرًا على سلامنا وسلامتنا نظرًا للعلاقات الصريحة والودية القائمة بين الولايات المتحدة وتلك القوى. إننا لم نتدخل ويجب ألا نتدخل في

المستعمرات أو البلدان التابعة لأي قوة أوروبية؛ ولكن بالنسبة للحكومات التي أعلنت استقلالها وحافظت على ذلك والتي اعترفنا باستقلالها وفقًا لمبادئنا فقط لا يمكننا النظر لأي تدخل من جانب أي قوة أوروبية لغرض قمع هذه الدول وقهرها أو السيطرة بأي شكل آخر في مصائرها إلا على أنه تصرف غير ودي تجاه الولايات المتحدة ذاتها.

من "جون سي كالهون"
"خطبة عن الحكومة"

سعى "جون سي كالهون" الفيلسوف السياسي الأبرز في الجنوب في فترة ما قبل الحرب الأهلية، لابتكار طرق حتى يستطيع الجنوب الاحتفاظ بالقدرة على حماية مصالحه داخل الاتحاد (وخاصة مؤسسة العبودية) نظرًا لتخلف الجنوب في عدد السكان والسلطة السياسية بالمقارنة بالشمال.

هناك نوعان من الطرق التي يمكن من خلالها قياس نبض المجتمع؛ أولاً ببساطة وبدون مساعدة من خلال حق الاقتراع العام، والطريق الآخر من خلال النظر للمجتمع على أنه كائن حي. إن كلا الأسلوبين يجمعان نبض الأغلبية، ولكن أحدهما يأخذ الأرقام فقط في الاعتبار ويعتبر المجتمع كله كوحدة واحدة لها اهتمام مشترك واحد في جميع أنحاء المجتمع، ويقيس نبض أكبر عدد من الكل، بينما يأتي الأسلوب الثاني على العكس من الأسلوب الأول حيث يأخذ في الاعتبار كلا من المصالح والاهتمامات فضلاً عن الأعداد؛ - إنه ينظر إلى المجتمع كأنه مكون من مصالح واهتمامات مختلفة ومتضاربة بقدر اهتمام الحكومة ويأخذ نبض كل منهم من خلال أغلبيته أو العضو المناسب، والنبض الموحد للجميع باعتباره النبض الكامل للمجتمع. إنني أطلق على الأسلوب الأول الأسلوب العددي أو الأغلبية المطلقة، بينما أُطلق على الآخر الأغلبية المتزامنة أو الدستورية، وأفضل أن أسميها الأغلبية الدستورية، لأن هذه الأغلبية عنصر ضروري في كل حكومة دستورية بصرف النظر عن الشكل الذي تتخذه. إن الفرق بين الاغلبيتين كبير جدًا من الناحية السياسية لدرجة أنه لا يمكن الخلط أو التشويش بينهما دون أن يؤدي ذلك إلى أخطاء كبيرة وجسيمة، ولكن يتم تجاهل التمييز بينهما تمامًا لدرجة أنه عندما يتم استخدام المصطلح "غالبية" في مناقشات سياسية، فإنها تستخدم حصريًا للإشارة إلى الأغلبية العددية، كما لو لم يكن هناك نوع آخر من الأغلبية . . . .

إن الخطأ الأول والأساسي الذي ينشأ بشكل طبيعي من إغفال وتجاهل التمييز المشار إليه هو الخلط بين الأغلبية العددية للناس بالكامل، أي بالنظر لهم على أنهم جميعا متطابقين تطابقًا تامًا وليس بين هؤلاء الناس أي فرق تميز كل منهم عن الآخر، وهذه نتيجة تحدث بالضرورة من النظر

للأغلبية العددية باعتبارها الأغلبية الوحيدة. يعترف الجميع بأن الحكومة الشعبية أو الديمقراطية هي حكومة الشعب . . . .أولئك الذين يعتبرون أن الأغلبية العددية هي الأغلبية الوحيدة. . . [يكونوا] مجبرون على اعتبار الأغلبية العددية كما هي في الواقع الشعب بأكمله. . . .

إن النتيجة اللازمة للنظر للمجتمع من خلال الأغلبية المتزامنة . . . هو اعتبار كل مصلحة أو جزء من المجتمع سلبي على الآخرين. إنها تلك السلبية المتبادلة بين مختلف المصالح المتضاربة التي تستثمر كل منها مع السلطة التي تحمي نفسها؛ . .وبدون ذلك لا يمكن أن يكون هناك دستور.

أسئلة:

1- لماذا يعتقد "مونرو" أن "النظم" في أوروبا ونصف الكرة الأرضي الغربي مختلفان اختلافًا جوهريا؟
2- أي الأمريكيون سيعارض على الأرجح نظام "كالهون" السياسي؟
3- كيف تختلف الوثيقتان في تصورهما لمدى القوة التي يجب أن تكون عليها الحكومة الوطنية؟

أسئلة المراجعة:

1- كان "جون كوينسي آدامز" من المؤيدين والمتحمسين للتوسع. ما الإجراءات التي دعمها لمساعدة الولايات المتحدة لكي تصبح "الدولة الأولى والأقوى في العالم"؟

2- كيف يمَثِّلَ "أندرو جاكسون" كل التطورات الهامة لعصره: رجل عصامي، والحركة باتجاه الغرب، وثورة السوق، ونمو الديمقراطية؟

3- كيف تعارض التوسع في ديمقراطية الذكور البيض مع المُثُلْ العليا للمؤسسين الذين كانوا يعتقدون أنه ينبغي حماية الحكومة من التأثير المفرط من قِبَل الناس العاديين؟

4- ما هي مكونات النظام الأمريكي، وكيف تم تصميمها لتعزيز الاقتصاد الوطني تحت توجيه الحكومة الاتحادية؟

5- كيف أثبتت تسوية "ميزوري" وأزمة البطلان زيادة المنافسة الإقليمية والخلافات حول العبودية؟

6- وفقا "لمارتن فان بورين"، لماذا كانت الأحزاب السياسية عنصرًا مرغوبًا فيه من الحياة العامة؟

7- ما هي الحجج الاقتصادية، والإنسانية، والسياسية، والاجتماعية الكبرى المؤيدة والمعارضة لإبعاد الهنود؟

8- ما هي الإجراءات التي قام بها "أندرو جاكسون" والتي أدت إلى اتهامه بالاستبداد وإلى نمو حزب الهويج؟

9- اشرح أسباب وآثار الذعر الذي وقع في عام 1837.

أسئلة الحرية:

1- كيف أصبحت الحرية أكثر ديمقراطية في تلك الفترة، وما هي حدود هذا التطور؟

2- كيف دخل شرط الثلاثة أخماس في الدستور في مناقشات حول توسع العبودية في ولاية "ميزوري"؟

3- أخذًا في الاعتبار السياسات الاقتصادية وميزان القوى بين السلطة الوطنية والمحلية، كيف اختلف اليمينيون والديمقراطيون في تعريفاتهم للحرية الأمريكية وعلاقتها بسلطة الحكومة؟

4- ندد اليمينيون "بأندرو جاكسون" باعتباره طاغية. ماهي الإجراءات التي كانوا يرون أنها تمثل تهديدًا للحرية الأمريكية، ولماذا؟

جدول المراجعة			
الأحداث الرئيسية لإدارة "جاكسون" خلال الفترة ما بين 1829 حتى 1836			
الحدث	التاريخ		الإنجاز
أزمة البطلان	1830-1833	أثارت معارضة "ساوث كارولينا" للتعريفة الجمركية معركة للحفاظ على سيادة الحكومة الفيدرالية على قانون الولاية	رخص قانون القوة "لجاكسون" استخدام القوة العسكرية لجمع رسوم جمركية بعد إبطال "ساوث كاليفورنيا" للتعريفة
حرب البنك	1833-1836	عارض "جاكسون" محاولة الكونجرس لمد امتياز بنك الولايات المتحدة لعشرين عاما أخرى	اعترض "جاكسون" على قرار الكونجرس بمد امتياز البنك مما أدى بالفعل إلى القضاء على البنك
التخلص من الهنود بطردهم	1830-1838	أراد سكان جورجيا الاستيلاء على أراضي قبيلة "شيروكي" الهندية للتوسع في زراعة القطن	دعا قانون التخلص من الهنود لعام 1830 إلى نقل 46.000 من الهنود الجنوبيين إلى غرب المسيسبي

الباب الثالث

العبودية والحرية وأزمة الاتحاد في الفترة من عام 1840 وحتى 1877

واجهت الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف القرن التاسع عشر أزمتها الكبرى حيث مزق الانقسام بين الأحرار والعبيد أوصال البلاد، وانبعثت أمة جديدة على إثر الحرب الأهلية التي دارت هناك؛ حيث ألغيت العبودية وتغيرت معاني الحرية بالنسبة لكل الأمريكيين.

وعلى الرغم من آمال بعض مؤسسي الولايات المتحدة الأمريكية في أن تزول العبودية إلى غير رجعة، إلا أن مؤسسة العبودية هذه قد نمت من حيث الحجم ومن حيث أهميتها الاقتصادية مع مرور سنوات القرن التاسع عشر؛ وتمددت العبودية غربًا مع الجمهورية الوليدة؛ وزاد عدد العبيد حتى وصل إلى ما يقرب من أربعة ملايين شخص بحلول عام 1860؛ وبعد قيام الولايات الشمالية بإلغاء العبودية، أصبحت العبودية هي المؤسسة المميزة للجنوب، ومن هنا اختلفت قواعد نمو المجتمع في الجنوب عن باقي أنحاء البلاد سواء في البناء الاقتصادي أو في القيم الاجتماعية. هذا وقد كان للمزارعين الذين هيمنوا على الحياة في الولايات الجنوبية تأثيرًا بالغًا في الشأن الوطني، إذ دافعوا عن وجود العبودية بوصفها المؤسسة التي تشكل أساسًا للحرية الحقيقية للمواطنين البيض؛ وهو الأمر الذي وضعها ضمن العادات الاجتماعية الراسخة، إلى جانب أنهم عملوا على إرساء قواعد الحرية الحقيقية بالنسبة للمواطنين البيض، في الوقت ذاته عمل العبيد على تشكيل ما يشبه الثقافة شبه المستقلة، والتي ساعدتهم في نقل أملهم في التحرر من نير العبودية من جيل إلى جيل؛ ومع ذلك، كانت العبودية تمثل في بعض الجوانب مؤسسة وطنية، فالعبيد الذين كانوا يشتغلون بزراعة القطن كانوا بمثابة مصدر ثروة ليس فقط لمالكيهم، ولكنهم أيضًا يوفرون المادة الخام اللازمة لصناعة النسيج المنتشرة في الشمال والتي باتت تمثل الصادرات الأكثر أهمية بالنسبة للبلاد.

وقد شهدت الفترة ما بين عامي 1820 و1830 نشأة العديد من الحركات الاجتماعية التي هدفت إلى إصلاح المجتمع الأمريكي، وقد استمدت استلهامها من الصحوة الكبرى الثانية

وحركات الإحياء الديني التي اجتاحت الجنوب والشمال على حد سواء لتقدم سبلاً للخلاص من الخطايا والذنوب وإدخال إصلاحات على المجتمع في عمومه؛ وعلى الرغم من أن بعض الحركات الإصلاحية كانت منتشرة في كافة أرجاء البلاد، إلا أنه كانت هناك حركات أخرى اقتصر وجودها على الشمال فقط، وأهم تلك الحركات التي نشأت في الشمال حركة مناضلة جديدة طالبت بالإلغاء الفوري للعبودية ودمج السود كمواطنين متساويين في الجمهورية. ساعد المطالبون بإلغاء العبودية على تركيز مناقشات الحرية على توضيح التناقض الصارخ بين الحرية والعبودية؛ كما روَّجوا لفهم الحرية بوصفها قدرة المرء على التحكم في ذاته إلى جانب قدرته على المشاركة على قدم المساواة في الحياة الاجتماعية والسياسية؛ ولم يقتصر جهدهم على المساعدة في أن تأخذ قضية العبودية مكانتها في الأجندة الدولية، بل عملوا أيضًا على إثارة الاحتجاجات بين عدد من نساء الشمال، واللاتي دفعهن عملهن في الحركة المناهضة للعبودية إلى الامتعاض مما يعانين منه من نقص في حقوقهن القانونية والتعليمية وفي الفرص الاقتصادية.

انتقل الصراع بين مجتمع الأحرار ومجتمع العبيد في فترة الأربعينيات من القرن التاسع عشر إلى صدارة المشهد في السياسة الأمريكية، وذلك نتيجة للتوسع الإقليمي للبلاد، وقد أثار اكتساب مساحة جديدة شاسعة من الأرض، نتيجة للحرب المكسيكية، تساؤلات حول ما إذا كانت العبودية قادرة على التمدد أكثر نحو الغرب، وقد أجهزت هذه القضية على الحزب اليميني بحلول الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وأضعفت الديمقراطيين وأدت إلى تأسيس حزب جديد تماما، وهو الحزب الجمهوري الذي كرس نفسه لحصر العبودية داخل الولايات التي تتركز بها بالفعل. عمل الجمهوريون على تمجيد تفوق المجتمع الشمالي القائم على العمالة الحرة على نظيره الجنوبي القائم على العبودية، ولذلك انتخبوا أبراهام لينكولن رئيسًا في عام 1860، رغم أنه لم يحصل على صوت واحد في معظم الولايات الجنوبية، مما أسفر عن انفصال سبع من الولايات التي يقطنها العبيد عن الاتحاد، مكونة ما عُرِفَ بالولايات الكونفدرالية الأمريكية، وعندما قامت القوات التابعة للولايات الجنوبية بالإغارة على "فورت سيومتر" (وهي مقاطعة تقع على ميناء "تشارلستون" وتخضع لسيطرة الاتحاد)، كان هذا بمثابة الشرارة الأولى التي اندلعت على إثرها الحرب الأهلية، والتي كانت تمثل إلى حد كبير الصراع الأكثر دموية في التاريخ الأمريكي.

بدأت الحرب الأهلية باعتبارها نضالاً لحماية الاتحاد إلى أن أضحت في النهاية حملة ضارية من أجل الحرية، مما أوصل الأمة إلى ما أسماه الرئيس لينكولن "ميلاد جديد للحرية"، إذ دفع إخفاق الشماليين في تحقيق نصر عسكري طوال السنتين الأوليين للحرب، مقترنًا بأعمال العبيد

الذين هجروا المزارع بالآلاف للفرار إلى حدود الاتحاد، إدارة لينكولن للمضي بقوة في طريق التحرير فأصدر بيانه في الأول من (يناير/ كانون الثاني) لعام 1863، وعلى الرغم من أن هذا البيان لم يحرر سوى عدد قليل من العبيد إلا أنه كان بمثابة نقطة تحول في مسار الحرب الأهلية، إذ أعلن أن جيش الاتحاد سيعمل من الآن فصاعدا كمناصر للحرية، وبسماح البيان بمنح السود للمرة الأولى الحق في الالتحاق بجيش الاتحاد أثار قضية مواطنة السود في عالم ما بعد اندلاع الحرب العالمية.

كان عصر إعادة البناء الذي أعقب انتهاء الحرب الأهلية بمثابة زمن لصراع سياسي واجتماعي حاد، إذ لعب فيه مفهوم الحرية وقضية من له الحق في التمتع بها دورًا محوريا، حيث وأكد العبيد السابقون أن تعريف الحرية بالنسبة لهم هو الاندماج التام في المجتمع الأمريكي والتمتع بنفس الحقوق والفرص التي يتمتع بها البيض، وطالبوا الحكومة أيضًا بضمان تيسير حصولهم على الأراضي لتوفير أساس اقتصادي لحريتهم؛ بينما رأى غالبية البيض الذين كانوا يستوطنون الجنوب أنه يجب العمل من أجل إعادة السود للعمل بالمزارع مع منحهم قدرًا ضئيلاً جدًا من الحقوق السياسية والمدنية؛ وكان أندرو جونسون الذي خلف لينكولن رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية يقاسمهم هذا الرأي، إلا أن غالبية الجمهوريين في الشمال كانوا يؤمنون بأنه ينبغي أن يتمتع العبيد الذين نالوا حريتهم بكافة الحقوق القانونية، مثلهم مثل البيض تماما؛ وتم منح السود في الجنوب حق التصويت في عام 1867، وقام الجمهوريون في الشمال بإعادة كتابة القوانين والدستور في فترة إعادة البناء بما يسمح بمنح المواطنة المتساوية لكل الأمريكيين بغض النظر عن الأصل العرقي، الأمر الذي كان بمثابة تحول مثير في تعريف الحرية.

لم تستمر مرحلة إعادة البناء لفترة طويلة في الجنوب، حيث مُنح العبيد المحررين الحق في التصويت، وتقاسم المناصب مع البيض وكانت بمثابة تجربة رائعة للديمقراطية ما بين الأعراق المختلفة، إلا أن العبيد المحررين أخفقوا من ناحية أخرى في تحقيق التحرر الاقتصادي الذي تمنوه، نظرًا لأن الشماليين أظهروا عدم رغبتهم في توزيع الأرض؛ ونتيجة لذلك فإن معظم العبيد المحررين وأعداد متزايدة من البيض- الذين كانوا قد انخرطوا في الحرب التي دمرت الجنوب- وجدوا أنفسهم مجبرين على العمل في أراضي يمتلكها غيرهم مقابل بعض المحاصيل بنظام المزارعة، إلا أن التقدم الحقيقي الذي تحقق خلال فترة إعادة البناء، مثل تيسير سبل التعليم، وممارسة الحقوق السياسية، وإنشاء مؤسسات جديدة خاصة بالسود كالكنائس المستقلة؛ أدى إلى إحداث ردة فعل عنيفة من قبل مناصري تفوق وتمييز البيض، وخلال السبعينيات من القرن التاسع عشر، تراجع الشمال في عن التزاماته بالمساواة، ووصلت مرحلة إعادة البناء إلى نهايتها

في عام 1877، وشهدت السنوات اللاحقة انتهاكًا للعديد من الحقوق التي كانت قد مُنحت للعبيد المحررين.

على الرغم من أن مرحلة إعادة البناء لم تستمر سوى للفترة ما بين عامي 1865 و 1877، إلا أن القضايا التي أُثيرت خلالها كانت تنذر بالكثير من الخلاف الذي غلَّف المجتمع الأمريكي على مدار العقود التالية، بما في ذلك معنى المواطنة الأمريكية، ونفوذ الحكومة الفيدرالية، وعلاقتها بالولايات، ومستقبل الديمقراطية السياسية في مجتمع يتسم بازدياد عدم المساواة الاقتصادية؛ وقد ظلت أصداء قضايا إعادة البناء هذه تدوي خلال العصر الذهبي وعصر التقدم فيما بعد.

لقد نجحت فترة الحرب الأهلية في حل التناقض الناجم عن وجود العبودية على أرض تحتفي بالحرية، ولكن كما تركت الثورة الأمريكية للقرن التاسع عشر مشكلة العبودية، كذلك تركت الحرب الأهلية وإعادة البناء لأجيال المستقبل تحديًا واضحًا يتمثل في بناء حرية حقيقية لذرية العبيد.

الفصل الحادي عشر

1800	ثورة جابريل
1822	مؤامرة العبيد بقيادة دنهارك فيسي
الثلاثينيات من القرن التاسع عشر	الولايات تسن تشريعات لمنع تعليم السود القراءة أو الكتابة
1831	تمرد نات تيرنر
	الظهور الأول لجريدة "ذا لابيراتور" لوليام ليود جاريسون
1832	قوانين فرجينيا تثبت أقدام نظام العبودية
1833	بريطانيا العظمى تلغى الرق داخل حدود إمبراطوريتها
1838	فريدريك دوجلاس يهرب من العبودية
1839	سيطرة العبيد على "اميستاد"
1841	انتفاضة العبيد على متن السفينة "كريول"
1849	هاريت تبهان يهرب من العبودية
1855	محاكمة سيليا

المؤسسة الخاصة

الجنوب القديم
- القطن هو الملك
- الممر الأوسط الثاني
- العبودية والأمة
- اقتصاد الجنوب
- سكان الجنوب القديم (مكونات الجنوب القديم)
- طبقة المزارعين
- الروح الأبوية
- قانون الشرف
- الحجج المؤيدة للعبودية
- إلغاء العبودية في الأمريكتين
- العبودية والحرية
- العبودية والحضارة

الحياة في ظل العبودية
- العبيد والقانون
- الأحوال المعيشية للعبيد
- السود الأحرار في الجنوب القديم
- الجنوب الأعلى والأدنى
- العمال العبيد
- العمل الجماعي والعمل الفردي
- العبودية في داخل المدن
- حفظ النظام

ثقافة العبيد
- أسرة العبد
- التهديد بالبيع
- أدوار الجنسين بين العبيد
- حقيقة الحرية
- الرغبة في الحرية

مقاومة العبودية
- أشكال المقاومة
- العبيد الهاربون
- "الإيميستاد"
- تمرد العبيد
- تمرد نات ترنر

أسئلة تركيز:

- كيف شكلت العبودية العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في الجنوب القديم؟
- ما هي القيود القانونية والمادية المفروضة على حياة العبيد وعملهم؟
- كيف اتحد كل من الأسرة ونوع الجنس والدين والقيم معا لتشكيل ثقافة متميزة خاصة بالعبيد في الجنوب القديم؟
- ما هي الأشكال الرئيسية لمقاومة العبودية؟

لم يبرز في عصر "الرجال العصاميين" أي أمريكي من أصول متواضعة ليصل إلى مكانة متميزة على المستويين الإقليمي والدولي على نحو أكثر إثارة أكثر من فريدريك دوجلاس، حيث ولد في ظل العبودية في عام 1818 ليصبح بعد ذلك شخصية بارزة في النضال من أجل إلغاء العبودية ودراما تحرير العبيد؛ كما كان له جهدا بارزا أثناء فترة إعادة البناء لإضفاء معنى على حرية السود.

ولد دوجلاس لأم سوداء من العبيد وأب أبيض غير معروف هويته، وقد يكون مالكه، وبينما كان شابًا في "ميريلاند" إذ أخذ يحملق في السفن التي كانت تبحر في خليج "تشيزبيك" حيث رأى فيهم "ملائكة الحرية ذات الأجنحة"، وفى انتهاك لقانون "ميريلاند"، استطاع دوجلاس أن يتعلم القراءة والكتابة في البداية بمساعدة من زوجة سيده، ولكن بعد أن منعها زوجها من الاستمرار قام بمساعدته بعض الأطفال من البيض المحيطين به، وقد كتب فيما بعد قائلا "منذ تلك اللحظة" أدرك أن المعرفة هي الطريق الوحيد للانتقال من العبودية إلى الحرية. ذاق دوجلاس كل أنواع العبودية بداية من العمل كخادم في المنزل ثم كعامل ماهر في ترسانة بحرية لصناعة السفن في "بالتيمور"، ثم الانتقال للعمل بالزراعة، وفى الخامسة عشر من عمره أرسله سيده إلى "كاسر العبيد" (هو شخص متخصص في تحطيم إرادة العبد العنيد) من أجل كبح رغبة الاستقلال بداخله، وبعد عدد كبير من الجلد بالسوط أبى دوجلاس في تحد أن يُعرض نفسه للتأديب مرة ثانية، وقد تذكر دوجلاس هذه المواجهة قائلا "إنها كانت بمثابة نقطة التحول في مستقبلي كعبد"، حيث أعادت التوهج لرغبته في نيل الحرية، وبالفعل استعار في عام 1838 مستندات الحرية من بحار أسود ليفر بعدها هاربًا نحو الشمال.

مضى فريدريك دوجلاس في طريقه إلى أن أصبح الأمريكي - الإفريقي الأكثر تأثيرًا والمدافع الأبرز في البلاد عن المساواة بين الأجناس خلال القرن التاسع عشر، وكتب قائلا: "من ذاق آلام العبودية القاسية هو الشخص الذي يستطيع الدفاع عن الحرية"، ولذلك قام بإلقاء المحاضرات المناهضة للعبودية في أنحاء الشمال والجزر الصغيرة في بريطانيا، وتحرير سلسلة من الكتابات المضادة للرق، ونشر سيرته الذاتية التي لاقت ترحيبًا واسع النطاق، وقدم من خلالها إدانة بالغة للعبودية والعنصرية، وفي الحقيقة شهدت إنجازاته، بما لا يدع مجالاً للشك، على خطأ الأفكار السائدة المتعلقة بدونية الجنس الأسود؛ كما كان لدوجلاس نشاطًا في الحركات الإصلاحية الأخرى ومن بينها حملة الدفاع عن حقوق النساء، وقدم النصح لإبراهام لينكولن في فترة الحرب الأهلية بتجنيد الجنود السود، وكان من أوائل من دافعوا عن منح حق التصويت للعبيد الذين نالوا حريتهم. توفى دوجلاس في عام 1895 مع إحكام النظام الجديد لتفوق وتمييز البيض، على أساس التفرقة العنصرية والتجريد من الحقوق المدنية وحق الاقتراع، قبضته على الجنوب.

أصر دوجلاس على مدار حياته على أن السبيل الوحيد للخلاص من العبودية هو المقاومة المستمرة، وفى هذا يقول "أولئك الذين يزعمون تأييدهم للحرية، ومع ذلك يقللون من قيمة المقاومة هم كمن يريد جمع الحصاد دون حرث الأرض، أو كمن يريد مطرًا دون رعد أو برق، أو كمن يريد المحيط بدون أصواته المرعبة الصادرة عن ارتطام مياهه الكثيرة"؛ وأعرب دوجلاس في الحقيقة على أن العبيد هم الأكثر إخلاصا للمبادئ التي تقوم البلاد على أساسها من خلال رغبتهم في الحرية، بالمقارنة بأولئك الأمريكيين البيض الذين يحتفلون بالرابع من (يوليو/ تموز) من كل عام، وفى الوقت ذاته يسمحون باستمرار وجود العبودية.

الجنوب القديم

عندما وُلد فريدريك دوجلاس، كانت العبودية بالفعل عبارة عن مؤسسة قديمة في أمريكا، كان قد مر قرنان من الزمان قبل أن يهبط أول عشرين إفريقي على أرض فرجينيا من على متن سفينة ألمانية. بعد إلغاء العبودية في الشمال، أضحت العبودية "المؤسسة المميزة" للجنوب ومقصورة عليه، وأن الحد المعروف باسم ماسون - داكسون الذى كان قد قام بتحديده اثنان من المساحين في القرن الثامن عشر لتسوية صراع على الحدود بين ولايتي ميريلاند وبنسلفانيا أصبح فيما بعد حدًّا فاصلاً بين العبودية والحرية.

على الرغم من أن بعض المؤسسين كان لديهم أمل في القضاء على العبودية، إلا أن مؤسسة العبودية تجاوزت في الحقيقة الأزمة الناجمة عن الثورة الأمريكية وسرعان ما توسعت نحو الغرب؛ وخلال الثلاثين عامًا الأولى من عمر دوجلاس، أخذت أعداد العبيد في الازدياد إلى جانب تنامي الأهمية السياسية والاقتصادية لهم، حيث بلغ عددهم عشية الحرب الأهلية ما يقرب من أربعة ملايين، واستطاع المعدل العالي في الزيادة الطبيعية لهم سد العجز الناجم عن حظر استيراد المزيد من العبيد من إفريقيا في عام 1808، وشكَّل العبيد في الجنوب بصفة عامة نسبة الثلث من إجمالي عدد السكان، بينما وصلوا إلى ما يقرب النصف في الولايات المنتجة للقطن في أقصى الجنوب، وبحلول الخمسينيات من القرن التاسع عشر، عبرت العبودية نهر الميسيسبي وسرعان ما انتشرت في أركنساس، ولويزيانا، وشرقي تكساس؛ وفى عام 1860، تم زراعة ما يصل إلى ثلث إنتاج البلاد من القطن غرب نهر المسيسبي.

القطن هو الملك

حل القطن محل السكر في القرن التاسع عشر بصفته المحصول العالمي الرئيسي المنتج بأيدي العبيد، وعلى الرغم من بقاء العبودية في كل من البرازيل، وإسبانيا، وفرنسا في منطقة الكاريبي،

إلا أن إلغاءها في الإمبراطورية البريطانية في عام 1833 جعل من الولايات المتحدة بشكل لا يقبل الجدل مركزًا للعبودية العالمية الجديدة.

وعند قياس المدى الجغرافي للعبودية والأهمية الاقتصادية لمؤسسة العبودية إقليميًا ودوليًا، نجد أن الجنوب القديم كان يمثل مجتمع العبيد الأكبر حجمًا والأكثر قوة في تاريخ العالم الحديث، وقد استمد الجنوب القديم قوته من الاحتكار الفعلي للقطن الذي كان يطلق عليه "الذهب الأبيض للجنوب"، وقد استمر القطن كمحصول أساسي لآلاف السنين في أجزاء عديدة من العالم، وقد انبهر الفاتح "هرنان كورتيه" بالجودة العالية للملابس القطنية التي كان يرتديها الهنود المكسيكيون، ولكن في القرن التاسع عشر لعب القطن دورًا غير مسبوق في الاقتصاد العالمي.

ونظرًا لأن الثورة الصناعية المبكرة ارتكزت على المصانع التي تستخدم القطن كمادة خام لتصنيع الملابس، لذلك أصبح القطن السلعة الأكثر أهمية إلى حد كبير في التجارة الدولية وكان ثلاثة أرباع إمدادات العالم من القطن تأتي من جنوب الولايات المتحدة، وعمل مئات الآلاف حول العالم في شحن وتفريغ وغزل القطن وصناعة المنسوجات القطنية؛ واستطاع آلاف المصنعين والتجار تكوين ثروات كبيرة من تجارة القطن، وقد اعتمد صناع المنسوجات في أماكن كثيرة متباعدة مثل "ماساتشوستس" و "لانكشاير" في بريطانيا العظمى و"نورماندي" بفرنسا" وضواحي موسكو على الإمداد المنتظم من القطن الأمريكي.

وأضحى القطن منذ مطلع العام 1803 أكثر الصادرات الأمريكية أهمية، ونجحت مبيعات القطن في جلب المال من الخارج الأمر الذي سمح بتوفير سيولة لاستيراد البضائع المصنعة، وشكّل القطن ما يربو على نصف إجمالي الصادرات الأمريكية عشية الحرب الأهلية، وفاق الاستثمار الاقتصادي الذي يمثله العبيد في عام 1860 قيمة المصانع والسكك الحديدية والبنوك مجتمعة.

الممر الأوسط الثاني

كما أشرنا في الفصل التاسع، تم استبدال تجارة العبيد الآتين من إفريقيا التي حظرها الكونجرس في عام 1808 بتجارة رائجة للعبيد في داخل الولايات المتحدة، حيث تم بيع أكثر من مليونين من العبيد في الفترة ما بين عامي 1820 و 1860، معظمهم إلى مشترين محليين، ولكن مئات الآلاف أيضًا من الولايات القديمة إلى الولايات المستوردة في أقصى الجنوب؛ وهكذا، أصبحت تجارة العبيد تجارة راسخة وشائعة، وضمت أماكن التجارة الرئيسية في مدن الجنوب مكاتب لتجار العبيد تحمل لافتات كتب عليها "زنوج للبيع" أو "هنا يباع الزنوج"، وأقيمت مزادات علنية لبيع العبيد في الأسواق العامة، كما كان في "نيو أورليانز" أو في دور المحاكم، وحملت الصحف التي تصدر في الجنوب إعلانات للترويج لبيع العبيد؛ ومولت مصارف الجنوب تجارة

العبيد ونقلت سفن الجنوب وسككه الحديدية العبيد بين البائعين والمشترين، وجمعت ولايات وبلديات الجنوب إيرادات عن طريق فرض الضرائب على بيع العبيد، حيث كان يقوم كل مالك للعبيد بالفعل ببيع وشراء العبيد من وقت لآخر، ولم يكن من الممكن لمملكة القطن أن تزدهر دون التجارة الداخلية في العبيد، كما أن اقتصاديات الولايات القديمة، مثل "فرجينيا"، اعتمدت بشكل كبير على بيع العبيد.

العبودية والأمة

زعم "هنرى كلاى" في عام 1816، أن العبودية "تشكل الاستثناء وليست القاعدة للحريات العامة التي تسود الولايات المتحدة، ولكنه مثله مثل العديد ممن عاصروه، قللوا من تقدير تأثير العبودية على البلاد بشكل عام، لقد أنهت الولايات الحرة العبودية، ولكنها لم تنجو من التأثر بالعبودية رغم ذلك؛ فقد عزز الدستور - كما رأينا - من نفوذ الجنوب في الكونجرس والمؤسسات المنتخبة، وطالب جميع الولايات بإرجاع كل العبيد الهاربين من العبودية؛ لقد شكلت العبودية حياة كل الأمريكيين سواء البيض أو السود، حيث ساعدت في تحديد أين يعيشون وكيف يعملون وتحت أي ظروف يستطيعون ممارسة حرية التعبير، والتجمع، والصحافة.

وساهم تجار وأصحاب المصانع الشماليون في اقتصاد العبيد وتقاسموا في أرباحه، وساعدت الأموال المكتسبة من تجارة القطن في تمويل تطوير الصناعة والإصلاحات الداخلية في الشمال، حيث حملت سفن الشمال القطن إلى نيويورك وإلى أوروبا، وموَّل أصحاب البنوك في الشمال مزارع القطن، وقامت الشركات في الشمال بتأمين ممتلكات العبيد، وقامت مصانع الشمال بتحويل القطن إلى منسوجات؛ واعتمد ظهور مدينة نيويورك كقوة تجارية بدرجة كبيرة على إنشاء خطوط الشحن التي تقوم بجمع القطن من الجنوب ونقله إلى أوروبا عبر قناة "إيرى"، واعتمد "ملوك النسيج" (أصحاب المصانع في نيو إنجلاند) على القطن الذي يمدهم به "ملوك السوط- (إشارة إلى ملاك العبيد في الجنوب)، وقام المصنِّعون الشماليون، مثل "بروكس برازرز"، بتصنيع ملابس ذات جودة رديئة (أطلق عليها "ملابس الزنوج) مخصصه للعبيد في الجنوب.

اقتصاد الجنوب

لم يكن للجنوب وجود موحد قبل اندلاع الحرب الأهلية، حيث شكَّل العبيد ومالكوهم في الولايات الثماني التي يقطنها العبيد في أعالي الجنوب نسبة من إجمالي عدد السكان، أقل من نسبتهم في الولايات السبع في أدنى الجنوب والذي امتد من ساوث كارولينا إلى غرب تكساس. كانت توجد بأعالي الجنوب مراكز رئيسية للصناعة في كل من "بالتيمور"، و"ريتشموند"، و"سانت لويس"، وكان اقتصاده أكثر تنوعًا عن اقتصاد أدنى الجنوب الذي كان تعتمد بشكل كبير على

القطن، ولذلك لم يكن من المثير للدهشة أن تكون ولايات أعالي الجنوب هي أول من انفصل عن الاتحاد أثناء أزمة الانفصال، التي حدثت خلال الفترة ما بين عامي 1860 و 1861، وحتى بعد اندلاع الحرب رفضت أربع ولايات جنوبية الانضمام إلى الكونفدرالية، وهى (ديلاوير، وميريلاند، وكنتاكي، وميزوري).

ومع ذلك، دفعت العبودية الولايات الجنوبية إلى مسار جد مختلف من التنمية الاقتصادية بالمقارنة بالولايات الشمالية، مما حد من النمو الاقتصادي وعدم تشجيع المهاجرين على الدخول للمنطقة ومنع التقدم التكنولوجي؛ وبالتالي، لم يسهم الجنوب في النمو الحضري الذي انخرط فيه باقي أنحاء البلاد، وكانت معظم المدن الجنوبية تقع على المناطق الحدودية وتعمل بشكل أساسي كمراكز لتجميع وشحن القطن؛ وكان الغرض الأساسي من إنشاء المصارف في الجنوب هو المساعدة على تمويل المزارع من خلال إقراض الأموال من أجل شراء الأراضي والعبيد، وليس من أجل تطوير التصنيع؛ وكانت معظم السكك الحديدية في الجنوب هي عبارة عن خطوط قصيرة تحمل القطن من الداخل إلى الموانئ الساحلية.

أما في مملكة القطن، فقد كانت ولاية نيو أورليانز هي المدينة الوحيدة ذات الحجم الكبير، وبلغ عدد سكانها 168.000 نسمة في عام 1860، واحتلت المرتبة السادسة في قائمة أكبر المدن في البلاد، وكانت المصدر الأول في العالم للمحاصيل التي يتم زراعتها بأيدي العبيد، وذلك باعتبارها نقطة تجميع القطن الذي كان يُزرع بطول نهر الميسيسبي، والسكر من المزارع بجنوبي شرق ولاية لويزيانا، وعلى خلاف مدن العبيد الأخرى، فقد جذبت أعدادًا ضخمة من المهاجرين الأوروبيين (فيما عدا سانت لويس وبالتيمور الواقعتين على أطراف الجنوب)، إلى الحد الذي شكَّل فيه الأجانب 40 في المائة من إجمالي عدد سكانها في عام 1860. هذا وقد أسهم تراث نيو أورليانز الفرنسي الثرى إلى جانب العلاقات الوثيقة بالمحيط الكاريبي في تشكيل ثقافة محلية مختلفة إلى حد ما عن باقي الولايات المتحدة، الأمر الذي انعكس على الموسيقى، والرقص، والدين وحتى الطعام المميز لها عن غيرها.

بلغت مساهمة الجنوب في عام 1860 أقل من 10 في المائة من إجمالي الإنتاج الصناعي بالبلاد، هذا وقد رأى العديد من الشماليين أن العبودية تقف عائقًا أمام التقدم الاقتصادي لأمريكا، ولكن كما بدا في النموذج الذي قدمته نيو أورليانز فإنه من الممكن أن تسير العبودية والنمو الاقتصادي جنبًا إلى جنب؛ وبصفة عامة، كان اقتصاد الجنوب لا يعانى من الركود إلا نادرًا وأثبتت العبودية أنها مربحة جدًا بالنسبة لمعظم مالكي العبيد، وقد شكلت المكاسب الناجمة عن العبودية، سواء للجنوب أو البلاد ككل، حائلاً أمام إلغاء العبودية؛ وقد أعلن عضو

الكونجرس عن ساوث كارولينا "جيمس هنرى هاموند" متحدثًا عن القطن قائلا (لا توجد قوة على وجه الأرض تملك الجرأة لإعلان الحرب على القطن، فهو الملك).

سكان الجنوب القديم

شكلت العبودية، باعتبارها أساس اقتصاد الجنوب القديم، دورًا بارزًا في تشكيل العلاقات بين الأجناس المختلفة، والسياسات، والدين، وحتى القانون، وكان تأثيرها منتشرًا ومتوغلاً في كل مناحي الحياة: وقد كتب أحد المؤرخين قائلا "لا شيء ولا أحد ينجو من تأثير العبودية"؛ وكان هذا صحيحًا على الرغم من حقيقة أن غالبية سكان الجنوب من البيض - ثلاثة من بين كل أربع عائلات من البيض- لا يمتلكون أي عبيد؛ ونظرًا لأن المزارعين احتكروا أفضل الأراضي، لذلك عاش معظم صغار المزارعين من البيض خارج حزام الزراعة في المناطق الجبلية شديدة الوعورة وغير الملائمة لإنتاج القطن، وكانوا يعملون في الأرض معتمدين على العمالة العائلية أكثر من اعتمادهم على العبيد أو على العمالة المستأجرة.

وعاش العديد من مزارعي الجنوب حياة الاكتفاء الاقتصادي الذاتي بعيدًا عن ثورة السوق، حيث كانوا يقومون بتربية المواشي وزراعة ما يحتاجون إليه من طعام، ولا يشترون إلا اليسير من البضائع من المتاجر المحلية. أما أولئك الذين يسكنون على الأطراف في مناطق جبلية معزولة وعلى جبال الأبلاش كانوا عادة ما يعانون من فقر مدقع، ونظرًا لأن جميع ولايات الجنوب تقريبًا كانت تفتقر لنظام التعليم العام المجاني، لذلك انتشرت الأمية بينهم أكثر من نظرائهم في الشمال، ولم يتم دمج مثل هذه المناطق في اقتصاد السوق إلا بعد وصول السكك الحديدية وتعدين الفحم فيما بعد في القرن التاسع عشر. تمتع معظم صغار المزارعين بمستوى معيشي مريح وامتلك العديد منهم عبدًا أو اثنين، ولكن حتى صغار المزارعين الناجحين اعتمدوا على الإنتاج المنزلي بشكل كبير لإشباع حاجاتهم الأساسية، ولذلك لم يزودوا السوق ببضائع مصنعة على عكس مزارعي الشمال، وكان هذا أحد الأسباب الرئيسية وراء عدم تطوير الجنوب لقاعدة صناعية.

وقد استاء بعض فقراء البيض من سطوة وهيمنة كبار المزارعين والمزايا الممنوحة لهم، ووصل سياسيون مثل "أندرو جونسون" من "تنيسي" و"جوزيف براون" من "جورجيا" إلى السلطة، ونصَّبوا أنفسهم كمتحدثين باسم عامة الناس ووقفوا ضد الاستعباد والهيمنة، ولكن معظم فقراء البيض آثروا السلامة مع المزارعين الذين تتمركز في أيديهم القوة الاقتصادية والاجتماعية؛ وقد ساعدت عدة عوامل على تقوية الروابط بين المزارعين وسكان الجنوب، مثل العنصرية، وعلاقات القرابة، والمشاركة العامة في ثقافة سياسية ديمقراطية والولاء الإقليمي في مواجهة النقد

الخارجي؛ وعلاوة على ذلك قام صغار المزارعين بعمل دوريات حراسة لمراقبة العبيد الهاربين أو أولئك الذين يسيرون في الطرقات دون تصريح، وكثيرًا ما كان يقوم أولئك الذين لا يملكون العبيد باستئجار بعض العبيد من المزارعين، ويرشحون بانتظام مالكي العبيد لتولي المناصب العامة في الجنوب، وكان معظم صغار الفلاحين، مثلهم في ذلك مثل الجنوبيين البيض الآخرين، يؤمنون بأن حريتهم الشخصية والاقتصادية قائمة على بقاء العبودية؛ وهكذا، لم تتعرض هيمنة المزارعين للتهديد إلا بعد الحرب الأهلية التي أثارت التوتر الطبقي بين السكان البيض.

طبقة المزارعين

لم يكن المزارع هو النموذج المعتاد حتى بين مالكي العبيد، ففي عام 1850، كانت غالبية العائلات المالكة للعبيد تمتلك خمسة عبيد أو اقل، وكان عدد الأسر التي تمتلك عشرين عبدًا أو أكثر يبلغ أقل من أربعين ألف أسرة، وعدد الأسر التي تمتلك مائة عبد أو أكثر يبلغ أقل من 2.000 أسرة؛ ومع ذلك، لم يكن المزارع هو النمط الشائع للمالك أو الشخص الأبيض الجنوبي، وكانت قيمه وتطلعاته تهيمن على الحياة الجنوبية، وقد كتب "فريدريك دوجلاس" قائلا "كانت المزارع أمة صغيرةً قائمةً بذاتها تتمتع بلغتها، وقواعدها، وعاداتها، وتقاليدها الخاصة بها"؛ وقد ضبطت هذه القواعد وتلك العادات إيقاع المجتمع الجنوبي.

كان امتلاك العبيد هو الطريق المؤدى للثراء، والمركز، والنفوذ؛ ولم يقتصر المزارعون على امتلاك غالبية العبيد ولكنهم سيطروا أيضًا على الأراضي الأكثر خصوبة وتمتعوا بأعلى الدخول، وهيمنوا على المناصب العامة بالولاية وبالمحليات وقيادة كلا الحزبين السياسيين. تطلع صغار مالكي العبيد إلى الصعود إلى طبقة المزارعين، وكان أولئك الذين يمتلكون ثروة دائمًا ما يتوجهون نحو استثمارها في تملك الأرض والعبيد ولكن مع ارتفاع سعر العبيد للعمل في الأراضي من 1.000 دولار في عام 1840 إلى 1.800 دولار في عام 1860 (ويعادل هذا السعر الأخير ما يقرب من 40.000 ألف دولار اليوم)، لذلك أصبح من الصعب بالنسبة للجنوبيين البيض الأكثر فقرًا أن يمتلكوا عبيد.

وبالطبع، كانت العبودية نظامًا لتحقيق الأرباح، وكان مالكو العبيد دائمًا يقظين في متابعة الأسعار العالمية لمنتجاتهم، واستثمروا في مشروعات مثل السكك الحديدية والقنوات وتابعوا زراعتهم بعناية كبيرة؛ أما زوجاتهم "سيدات المزرعة"، اللاتي كن يجسدن التراث المتوارث في الجنوب للأنوثة، والجمال، والتبعية للرجال، فقد تغيرن الآن وأصبحن يعملن، ونادرًا ما يمكثن بدون عمل حيث كن يعتنين بالمرضى من العبيد، ويوجهن الخدم في المنازل، ويشرفن على كل أمور المزارع في حال عدم تواجد أزواجهن. كان الأمريكيون الأكثر ثراءً قبل الحرب الأهلية هم

المزارعون في المنطقة المنخفضة في "ساوث كارولينا" ومنطقة زراعة القطن حول "ناتشيه" في ولاية "ميسيسبي"؛ على سبيل المثال، "فريدريك سانتون" سمسار قطن، والذي أصبح مزارعًا في منطقة "ناتشيه" وكان يمتلك 444 عبدًا وأكثر من 1.500 فدانًا من الأرض في ولايتي "ميسيسبي" و"لويزيانا".

ومع ذلك، لاحظ "ألكسيس توكوفيل" أن "الشماليين يحبون تكوين الثروات بينما يحب الجنوبيون إنفاقها"، حيث بدد العديد من المزارعين الأكثر ثراءً ثرواتهم في كماليات حياتية، بالإضافة إلى وسائل الترفيه الباذخة وإجازات الصيف في "نيويورك" و"ساراتوجا". كانت "تشارلستون" تعج بالعبيد الذين يعملون في الخدمة بالمنازل، حتى أن أحد زائري المدينة كتب قائلا "يضطر أهل تشارلستون إلى أن يتفننوا في إيجاد أعمال للعبيد". عاش العديد من المزارعين في أكواخ بدائية غير متقنة البناء مصنوعة من ألواح الخشب على تخوم القطن، ولكن في ولايات العبيد الأقدم، حيث تطور المجتمع المستقر في أقصى الجنوب، قاموا بتشييد منازل أنيقة مزينة بأعمدة بيضاء على طراز العمارة اليونانية، ولم يشجع المزارعون أبناءهم على الدخول في المهن "الوضيعة" مثل التجارة والتصنيع، مما كان له كبير الأثر في بقاء المجتمع الجنوبي مجتمعًا زراعيا.

الروح الأبوية

ترسخت مزارع العبيد بشكل كبير في السوق العالمية وسعى المزارعون إلى تكديس الأرض والعبيد والأرباح، واستثمر العديد منهم في السكك الحديدية والبنوك وكذلك في شراء العبيد، ولكن قيم المزارعين لم تكن تُعظِّم السوق الرأسمالي التنافسي، وإنما كانوا يعَظِّمون المجتمع الزراعي الهرمي حيث يتحمل مالكو العبيد المسئولية الشخصية عن السعادة الجسدية، والمادية، والأخلاقية لمن يعولونهم من نساء، وأطفال، وعبيد، وقد كتب أحد المزارعين قائلا "يقع السيد على قمة النظام مما يمنحه حق الطاعة والعمل من جانب العبيد، ولكن للعبد أيضًا حقوقه المتبادلة لدى سيده؛ حيث له حق الحماية وحق تلقي النصح والإرشاد، وحق توفير أسباب الرزق والمعيشة، وحق الرعاية والاهتمام في مرضه وفي شيخوخته.

كان هذا المنظور الذي عُرِّفَ باسم "الأبوية" (مأخوذ عن الكلمة اليونانية "الأب") قد أضحى سمة للعبودية الأمريكية حتى في القرن الثامن عشر، ولكنه أصبح أكثر رسوخًا وتأصلاً بعد إغلاق باب تجارة العبيد الأفارقة في عام 1808، مما أدى إلى تضييق الفجوة الثقافية بين السيد والعبد؛ وأثار الاهتمام لدى الملاك بالحفاظ على بقاء أملاكهم من البشر على قيد الحياة. على عكس المزارعين المتغيبين في جزر الهند الغربية الذين استوطن العديد منهم بريطانيا العظمى بعيدًا عن مزارعهم، عاش مالكو العبيد من الجنوبيين في مزارعهم، وبالتالي كانوا على اتصال بعبيدهم على مدار العام.

لقد أخفى "المنظور الأبوي" الحقيقة القاسية للعبودية وبررها، ومكّن مالكي العبيد من أن يعتبروا أنفسهم سادة طيبين وعطوفين وعلى قدر المسئولية، حتى ولو كانوا يبيعون ويشترون في ممتلكاتهم من البشر- في تباين واضح مع الزعم بأن العبيد يشكلون جزءًا من عائلة السيد، وقد حاول بعض مالكي العبيد إصلاح النظام لإزالة المظاهر الأكثر جورا، فعلى سبيل المثال، قام "تشارلز سي جونز"، المزارع الثرى المبجل من مقاطعة "ليبرتي" في "جورجيا"، بجمع جيرانه لتشجيع التعليم الديني للعبيد وتحسين مساكنهم ونظامهم الغذائي والرعاية الطبية المقدمة لهم ومنع العقوبات القاسية، ولكن حتى "جونز" نفسه كان يؤمن بأن عبيده "منحطين" وفى حاجة إلى تهذيب أخلاقي لدرجة أنه لم يستطع أن يتصور أن تكون هناك نهاية للعبودية.

قانون الشرف

بمرور الوقت اختلف المفهوم السائد في الجنوب عن المجتمع الجيد بشكل أكبر وأكبر عن نظيره الشمالي القائم على المساواة بين البشر، والتنافسية، والفردية؛ ففي الجنوب على سبيل المثال، تمسكت الطبقتان العليا والدنيا من البيض على حد سواء بقانون للشرف الشخصي، يدافع الرجال بموجبه عن سمعتهم الشخصية وسمعة عائلاتهم إلى حد استخدام العنف في حال الضرورة، وعلى الرغم من أن المبارزة لم تكن مشروعة قانونيا، إلا أن العديد من الشخصيات البارزة في الجنوب شاركت في بعض المبارزات على سبيل الاقتصاص لأنفسهم من إهانات مفترضة، ودخل اثنان من أكثر القادة السياسيين أهمية في الجنوب، "هنرى كلاى" و"جون راندولف"، في مبارزة بالأسلحة النارية في عام 1826 بسبب استياء "كلاى" من انتقاد "راندولف" له في ساحة الكونجرس، ولحسن الحظ لم يتمكن أي منهما من إصابة الآخر؛ ومع ذلك، لقى "جون اتش بليسانس"، رئيس تحرير جريدة "ريتشموند ويج" مصرعه في مبارزة مع ابن صاحب جريدة منافسة بعد هذه الحادثة بنحو عشرين عاما.

كما شعر رجال الجنوب بمكانتهم، وشرفهم الشخصي، ورجولتهم؛ اقتصر نشاط النساء البيض الجنوبيات على الدائرة المنزلية، حتى بدرجة أكثر من نساء الشمال، وقد كتب "جورج فيتزف"، وهو محامي من فرجينيا ومؤلف لعدد كبير من الكتب والمقالات عن قضايا اجتماعية قائلا "الرجل يحب أبناءه لكونهم ضعفاء ولا حول لهم ولا قوة وعالة عليه، ويحب زوجته لأسباب مماثلة"؛ وكما سنناقش في الفصل القادم، أصبح العديد من نساء الشمال قبل الحرب الأهلية جزءًا من ثقافة نسائية مزدهرة تمركزت حول المنظمات التطوعية الدينية والإصلاحية، بينما ظهر القليل من مثل هذه المنظمات في الجنوب وكثيرًا ما اشتكت سيدات المزارع من الوحدة والعزلة.

الحجج المؤيدة للعبودية

أبدى بعض الجنوبيين قلقهم إزاء صورتهم في عيون العالم، خاصة فيما يتعلق بنظرة الآخرين للحياة الفكرية لمنطقتهم، وقد كتب أحدهم قائلا "يجب علينا نحن الجنوبيون أن نستمر في الظهور أمام أوروبا بمظهر الأدنى من الشماليين من حيث الحصاد الفكري"، هذا وقد تفوقت الولايات الحرة على الولايات التي تسمح بالعبودية من حيث التعليم العام، وعدد الكليات، وعدد الصحف، والمجلات الأدبية، ومنشورات أخرى؛ ومع ذلك، ازدهرت الحياة الفكرية في الجنوب القديم ولم تفتقر المنطقة إلى أدباء أو سياسيين أو فلاسفة أو علماء وما إلى ذلك.

على الرغم من ذلك، شهدت الثلاثون عامًا التي سبقت اندلاع الحرب الأهلية هيمنة الفكر المناصر للعبودية على الحياة العامة في الجنوب، حتى مع اتخاذ انتقاد الشماليين للعبودية شكلاً أكثر عمقا، ورويدًا رويدا اعتنق البيض الجنوبيون الفكرة التي كانت سائدة بين آبائهم المؤسسين للبلاد، والتي مفادها أن العبودية على أية حال "شر لا بد منه"، وقد كتب "جون سي كالهون" في عام 1937 قائلا: "أعتقد العديد من الجنوبيين في وقت ما أن العبودية كارثة أخلاقية وسياسية... ولكن هذا الحمق والخداع اختفى الآن، فنحن نرى العبودية على صورتها الحقيقية باعتبارها القاعدة الأكثر أمانًا واستقرارًا للمؤسسات الحرة في العالم".

وقد شارك، حتى من لم تكن لهم مصلحة مباشرة في العبودية، المزارعين في الالتزام العميق تجاه تمييز وتفوق البيض، وقد شكلت العنصرية – أي الاعتقاد بأن السود مخلوقات دونية ووضيعة بالفطرة وغير ملائمين للحياة إلا تحت ظروف العبودية – دعامة للأيديولوجية المناصرة للعبودية؛ ووجد معظم مالكي العبيد مشروعية للعبودية في نصوص الإنجيل مثل أمر الخدم بطاعة سادتهم، وذهب آخرون إلى أن العبودية ضرورية من أجل التقدم الإنساني وتساءلوا قائلين: ألم تكن الجمهوريات القديمة اليونانية، والرومانية، والإمبراطوريات الأوروبية العظيمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر قائمة على عمالة العبيد؟ وهكذا، أقنعوا أنفسهم بأنه بدون العبودية لن يستطيع المزارعون الإبداع في إنتاج الآداب، والعلوم، والفنون، والمساعي الحضارية الأخرى.

ومع ذلك أصر مدافعون آخرون عن العبودية على أن مؤسسة العبودية كفلت المساواة للبيض عن طريق منع نمو طبقة مقدر لها أن تكون من العمال غير المهرة، وزعموا مثل الشماليين أنهم ملتزمون بمثل الحرية معلنين أن عبودية السود هي الضمان الأكبر "للمساواة التامة" بين البيض، إذ أنها تحررهم من الوظائف الحقيرة والوضيعة مثل العمل في المصانع والخدمة المنزلية التي يقوم بها عمال في الشمال مقابل أجر. سمحت العبودية بدرجة كبيرة من الاستقلال الاقتصادي الذي يمثل الشرط الاجتماعي للحرية، والذي لم يتمتع به المزارعون فقط بل تمتع به

أيضًا البيض من غير مالكي العبيد، وقد صرَّح أحد رجال الكونجرس قائلا: "إنه بفضل العبودية، فإن الجنوبيين من البيض مستقلون مثلهم مثل الطائر الذي يقلع في الهواء"، ونظرًا لأن الاستقلال ضروري للمواطنة، لذلك، فإن العبودية هي "حجر الزاوية في صَرْح جمهوريتنا الضخم".

إلغاء العبودية في الأمريكتين

كان مالكو العبيد على وعى كبير بالتطورات التي تحدث في أنظمة العبيد في كل مكان آخر في نصف الكرة الغربي من الأرض، فكما أشرنا في الفصل الثامن، أرسلت ثورة العبيد في "هايتي" موجات صادمة من الذعر لكافة أنحاء الجنوب الأمريكي، وقد شعر الجنوبيون البيض أيضًا بالخطر من انتفاضات العبيد في مطلع القرن التاسع عشر في "باربادوس"، و"جويانا البريطانية"، و"جاميكا"؛ وكانوا لذلك يراقبون بعناية النتائج الناجمة عن موجات التحرر التي اجتاحت نصف الكرة الأرضية الغربي خلال العقود الأربعة الأولى من القرن، والتي شهدت إلغاء العبودية في معظم المناطق الأمريكية الخاضعة للإمبراطورية الإسبانية وفي الإمبراطورية البريطانية.

انتهج القضاء على العبودية في معظم دول أمريكا اللاتينية نفس خطى النمط الذي نشأ مبكرًا في شمال الولايات المتحدة – وهو العتق التدريجي المصحوب بنوع ما من الاعتراف بالحق القانوني للملاك بملكية العبيد، وقد سمحت قوانين "الرحم الحر" لمالكي العبيد بالإبقاء على ملكيتهم للعبيد الحاليين، بينما يحررون أطفال العبيد بعد أن يعمل هؤلاء الأطفال لدى مالك الأم لعدد محدد من السنوات، وقد كتب أحد المسئولين أن تلك القوانين "احترمت الماضي وعملت على تصحيح المستقبل". كان إلغاء العبودية في الإمبراطورية البريطانية أسرع بكثير حيث قام البرلمان في عام 1833 بإصدار مرسوم ينص على التحرير الفوري تقريبا، ولكن مع إعطاء فترة انتقالية مدتها سبع سنوات للتدريب على تطبيق ذلك، وقد نجم عن هذا النظام صراع كبير بين السادة السابقين والعبيد السابقين مما دفع بريطانيا إلى إصدار مرسوم بالحرية الكاملة في عام 1838 وخصص القانون 20 مليون جنيه إسترليني تُدفع للملاك على سبيل التعويض.

وقد أثرت تجارب التحرير في أجزاء أخرى من نصف الكرة الأرضية بقوة على النقاشات الدائرة حول العبودية في الولايات المتحدة، حيث حكم ملاك العبيد في الجنوب على مدى حيوية الاقتصاد الكاريبي بناءً على كميات السكر والمحاصيل الأخرى التي ينتجها هذا الاقتصاد للسوق العالمية؛ ونظرًا لأن العديد من العبيد السابقين كانوا يفضلون زراعة المحاصيل الغذائية لعائلاتهم، لذلك، فإن المدافعين عن العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية اتهموا تجربة التحرير في بريطانيا بالفشل، ولكن المطالبين بإلغاء العبودية لم يوافقوا على ذلك مشيرين إلى ارتفاع مستوى المعيشة للعبيد المحررين وانتشار التعليم بينهم وإدخال تحسينات أخرى في

حياتهم، ولكن الحقيقة الواضحة بشكل صارخ ظلت باقية، فمن منظور نصف الكرة الغربي كانت مؤسسة العبودية تتهاوى، وبالفعل أصبحت العبودية غير قانونية بحلول عام 1848 في كل من "المكسيك"، و"أمريكا الوسطى"، و"تشيلي"، ولم يبق سوى عدد قليل فقط من العبيد الطاعنين في السن في "فنزويلا"، و"كولومبيا"، و"بيرو"، وقامت كل من "فرنسا" و"الدنمارك" بتحرير العبيد في مستعمراتهما خلال فترة اندلاع الثورات الأوروبية في عام 1848، وانحسرت نظم العبودية في العالم الجديد في منتصف القرن بشكل بارز في "كوبا"، و"بورتوريكو"، و"البرازيل"، و"الولايات المتحدة" فقط.

العبودية والحرية

ادعى العديد من البيض الجنوبيين أنهم هم الورثة الحقيقيون للثورة الأمريكية، وزعموا أنهم مُلْهَمون "بنفس روح الحرية والاستقلال" التي كانت قد حركت الجيل المؤسس، ومثلما كان أسلافهم في فترة الستينيات والسبعينيات من القرن الثامن عشر؛ كانت لغتهم السياسية مفعمة بالتناقضات بين الحرية والعبودية وشكاوى من أن الدخلاء يريدون إنزالهم إلى مرتبة "العبيد" وذلك بالتدخل في مؤسساتهم المحلية، وقد اعتزت دساتير الولايات الجنوبية بفكرة الحقوق المتساوية للرجال الأحرار، وشارك الجنوب بشكل كامل في التحركات نحو تحقيق الديمقراطية السياسية للبيض.

ومع ذلك، بدأ المؤلفون المناصرون للعبودية منذ بداية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر في التشكيك في مثاليات الحرية، والمساواة، والديمقراطية التي يتقاسمها الجميع على نطاق واسع في كافة أرجاء البلاد؛ وأصبحت "ساوث كارولينا" وهي الولاية الجنوبية الوحيدة التي تمتلك غالبية الأسر البيض فيها عبيدا، موطنًا للدفاع المستميت عن العبودية، إذ تبرأت من فكرة أن الحرية والمساواة تعد بمثابة استحقاقات أصيلة لكل إنسان في كافة أنحاء العالم، وأصر "جون كالهون" على أن "اللغة التي صدر بها بيان الاستقلال الذي أعلن أن كل البشر متساوون ويتمتعون بالحرية" هي "أكثر الأخطاء خطورة من بين كل الأخطاء السياسية"؛ وعاد المتحدثون باسم مناصري العبودية إلى التعريف القديم للحرية بصفتها امتيازًا وليست حقًّا لكل إنسان في جميع أنحاء العالم، وأنها تعد "جائزة ينبغي العمل للحصول عليها، وليست هبة تُوزع مجانًا للجميع على السواء."

ومع احتدام الجدل الإقليمي بعد عام 1830، قام عدد من المؤلفين والسياسيين الجنوبيين بالدفاع عن العبودية باعتبارها أساسًا لمجتمع مترابط وهرمي أكثر من اعتبارها قاعدة للمساواة بالنسبة للبيض، وجادل العديد من رجال الدين الجنوبيين في إطار الدفاع الديني عن العبودية قائلين إن عدم المساواة، ومن ثَمَّ خضوع الوضيع للشريف، والأسود للأبيض، والأنثى للذكر،

والطبقات الدنيا للطبقات العليا، تعد "قانونًا أساسيًا للوجود الإنساني"، وتشبث "جون بى ألجير" القسيس بالكنيسة المشيخيه في "ساوث كارولينا" بأن "النظام الهرمي القائم على المراتب، والدرجات، والمقامات في المجتمع الإنساني بمثابة جزء من الترتيب والإرادة الإلهية للعالم".

العبودية والحضارة

وقد تبنى المؤلف "جورج فيتزوف" من ولاية فرجينيا هذه المقولة لنهايتها الأكثر راديكالية، متنصلاً ليس فقط من المثاليات التي نادى بها "جيفرسون" ولكن تنصل أيضًامن فكرة قَدَر ومهمة أمريكا الخاصة في العالم، حيث نحى جانبًا فكرة أن الحرية هي القاعدة الطبيعية للبشرية واستحقاق طبيعي لكل البشر، قائلاً إن "الحرية لكل البشر هي الاستثناء، أو بالأحرى تجربة استمرت لبرهة من الوقت في أحد "جوانب أوروبا" وشمال الولايات المتحدة"، وأننا لو نظرنا للعالم وتاريخه ككل فسنجد أن العبودية، بغض النظر عن الجنس أو اللون، هي الأساس العام والطبيعي "للمجتمع المتحضر"، وأضاف أن "كلاً من مالكي العبيد والعبيد تجمعهم بالفعل مصالح مشتركة" غير معروفة في "المجتمع الحر"، وتبارى في مرافعته دفاعًا عن العبودية قائلا "نظرًا لأن العبيد الزنوج الجنوبيين لا يعانون من الهموم الاقتصادية، لذلك هم الأكثر سعادة وإلى حد ما هم أكثر المخلوقات حرية في العالم نظرًا لخلوهم من الاهتمامات، والمسئوليات، والطموحات الاقتصادية التي تكبل الرجل الأبيض"، ووفقًا لفكر "فيتزوف"، فإن العمال من البيض في الشمال والجنوب على حد سواء سيفضلون أن يكونوا خاضعين لملاك أفراد بدلاً من العيش "كعبيد" للسوق الاقتصادي.

ويبدو أنه من المسلم افتراض أن عدد قليل من البيض الجنوبيين غير ملاك العبيد قد يوافقوا على أن الاستعباد قد يمنحهم حرية أكبر من تلك التي يتمتعون بها بالفعل، وأن فيتزوف لم يكن متسقًا مع نفسه بالكامل، ففي بعض الأحيان كان يقول إنه من الأفضل لكل العمال الأحرار أن يكونوا عبيدا، بينما تحدث في أحيان أخرى عن العبودية للسود فقط باعتبارهم "الأطفال" الأبديين الذين ستمثل الحرية بالنسبة لهم "لعنة".

وقد لاحظ إبراهام لينكولن فيما بعد أن الوظيفة الجوهرية للمقولات المناصرة للعبودية هي خدمة مصالح أولئك الذين استفادوا من النظام المتطرف من عدم المساواة، وتخيل أن رجلاً مثل دكتور "فريدريك إيه روس"، أحد قادة رجال الدين المناصرين للعبودية، ما إذا كان من الواجب عليه إعتاق عبده "سامبو"، وكتب "لينكولن" قائلا "إن رأى الرب لم يكن واضحًا بالقدر الكافي في مثل هذا الموضوع، كما أنه لم يفكر أحدًا في سؤال "سامبو" نفسه عن رأيه"، ومن هنا كان على دكتور فريدريك أن يتخذ قرار حول هذا السؤال "إذا قرر أن الرب يريد أن يبقى سامبو عبدا"، فإنه سيظل محتفظًا بمكانته المريحة دون الحاجة للعمل حيث يقوم العبيد بالعمل بدلاً منه؛ ولكن

إذا ما قرر أن الله يريد أن يتحرر "سامبو"، فإنه يتعين عليه أن يترك مكانه الظليل ويخلع عنه قفازه ويعمل بيديه حتى يحصل على الخبز الذي يريده"، وفي مثل هذه الظروف كان من المفاجئ أن نجد دكتور روس يرى أن الرأي الذي يقول بأنه ينبغي على "سامبو" أن يبقى عبدًا هو الرأي الأكثر إقناعا.

وبعد عام 1830، كرَّس مؤلفو ومحررو الصحف ورجال الدين في الجنوب أنفسهم بشكل متزايد من أجل نشر الدفاع عن العبودية، وتوصل غالبية الجنوبيين من البيض للاعتقاد بأن الحرية للبيض قائمة على القدرة على توجيه وقيادة العمال السود، وعلى حد تعبير صحيفة "ريتشموند إنكوايرر" فإن "الحرية مستحيلة بدون وجود العبودية."

الحياة في ظل العبودية

العبيد والقانون

كانت مؤسسة "العبودية المميزة" بالنسبة للعبيد تعني حياة من الكدح الأبدي والعقاب القاسي والخوف المستمر الذي يتهدد أسرهم بالتدمير عن طريق البيع، حيث كان العبيد قبل سن القوانين عبارة عن ممتلكات، وعلى الرغم من حصولهم على القليل من الحقوق القانونية (حيث أقرت كل الولايات أنه من غير القانوني أن تقتل عبدًا إلا في حالة الدفاع عن النفس؛ ومن حق العبيد المتهمين بارتكاب جرائم خطيرة الدفاع عن أنفسهم أمام قضاة وهيئة محلفين من البيض في المحكمة)، إلا أن هذه القوانين كانت تُطبق عشوائيا، ويمكن لمالك العبد أن يبيعه أو أن يؤجره كيفما يريد ولم يكن لهم أي رأي في الحكومة التي تحكمهم، وكانوا لا يستطيعون الإدلاء بشهادتهم أمام المحكمة ضد شخص أبيض أو توقيع العقود أو اقتناء الممتلكات أو امتلاك سلاح ناري أو عقد اجتماع إلا في حالة حضور شخص أبيض؛ ولم يكونوا يستطيعون ترك المزرعة أو ترك العمل بالزراعة إلا بإذن من المالك، وبحلول الثلاثينيات من القرن العشرين كان تعليم العبد القراءة أو الكتابة غير قانوني.

لم تكن كل تلك القوانين تُطبق بالدقة الكافية، حيث قام بعض أفراد الأسر المالكة للعبيد بتعليم أطفال العبيد القراءة (وبالرغم من أن هذا كان في حدود ضيقة جدا، إذ أن ما يزيد على 90 بالمائة من عدد السكان العبيد كانوا أميين في عام 1860)، وسمح الملاك لبعض العبيد في حقول الأرز في "ساوث كارولينا" بحمل البنادق في انتهاك للقانون من أجل تخويف الطيور التي تأكل بذور الأرز، وكان شائعًا جدًّا في أنحاء الجنوب أن يجتمع العبيد دون رقابة من البيض في طرقات القرى وفى محال المدينة في يوم الأحد - يوم الراحة بالنسبة لهم، ولكن مدى قيام السلطات بتطبيق القانون أو بالانحراف عنه كان يتوقف على القرارات الفردية لملاك العبيد.

وكما أقرت أحد القوانين في "لويزيانا" فإن "العبد مدين لسيده ... بالاحترام بلا حدود والطاعة المطلقة"، ولم يقتصر الحق القانوني للمالك على ما أطلق عليه النظام القانوني في "الاباما" "وقت وعمل وخدمات" عبيده، ولكن لم يكن هناك أي جانب من جوانب حياة العبيد، بدءًا من اختيار شريك الحياة وانتهاء بكيفية قضاء أوقات الفراغ بمنأى عن تدخلات أسيادهم، وكان نظام العدالة الجنوبي ككل، بداية من جيش الولاية والمحاكم وانتهاء بالحراسة المسلحة في كل حي، مُعيَّن لإنفاذ وإحكام سيطرة السادة على شخص وعمل العبد.

وفي أحد القضايا الشهيرة، نظرت محكمة "ميزوري" جريمة "سيليا"، وهي عبدة قامت بقتل سيدها في عام 1855 بينما كانت تحاول صد اعتدائه عليها جنسيا، وكان قانون الولاية ينص على أن أي "امرأة" في مثل هذه الظروف تكون في حالة دفاع عن النفس، ولكن المحكمة قضت بأن "سيليا" ليست امرأة في نظر القانون، بل هي مجرد عبدة ولسيدها كامل السيطرة عليها، وبالفعل حكمت المحكمة على "سيليا" بالإعدام؛ ولكن نظرًا لأن "سيليا" كانت حاملا، تم تأجيل تنفيذ العقوبة حتى تلد طفلها وذلك لئلا يُحرم ورثة سيدها من حقوقهم في ممتلكاتهم.

ظروف حياة العبودية

على مر الأيام في القرن التاسع عشر، سَنَّت بعض الولايات الجنوبية قوانين لمنع إساءة معاملة العبيد وتحسنت ظروف حياتهم المادية. كانت إمدادات الطعام وصيد الطيور البرية متوفرة بكثرة في الجنوب، وكان العديد من العبيد يقومون باستكمال الطعام الممنوح لهم من قبل أسيادهم (الذي يضم أساسًا وجبة من الذرة مع لحم الخنزير المملح أو غير المملح) وبالدجاج الذي يربونه والخضروات التي يزرعونها بأنفسهم وبالحيوانات التي يصطادونها من الغابات بأنفسهم، وباللحوم والأسماك التي يسرقونها في مرات ليست بالقليلة من مباني الحفظ بعد تدخينها؛ وبمقارنة عبيد "أمريكا" بنظرائهم في "جزر الهند الغربية" و"البرازيل"، فإن عبيد أمريكا كانوا يتمتعون بطعام أفضل ومعدلات أقل في وفيات الأطفال وتوقعات بأعمار أطول، ويرجع ذلك لعدة عوامل أسهمت في تحسين الظروف المادية، ومنها نظرة المزارعين الأبوية المتزايد، وقد ذكر دوجلاس نفسه قائلا "ألا تعطى عبدك ما يكفى لإطعامه فهذا أسوأ صور البخل والدناءة حتى بين مالكي العبيد"؛ وعلاوة على ذلك، تقع معظم أراضي الجنوب خارج المنطقة الجغرافية حيث تنمو وتنتشر الأمراض الاستوائية كالملاريا، والحمى الصفراء، وحمى التيفويد؛ ولذلك، فإن الحالة الصحية لسكان الجنوب كانت أفضل من أولئك الذين يعيشون في الكاريبي؛ وبالإضافة إلى ذلك، أدى ارتفاع أسعار العبيد بشكل كبير بعد وقف تجارة العبيد من إفريقيا إلى أن أصبح لدى الملاك اهتمامًا أكبر بالصحة والظروف المعيشية لأملاكهم من البشر.

كان المقصود من إدخال التحسينات في الظروف الحياتية للعبيد هو ترسيخ أقدام العبودية وليس تقويضها، فحتى مع تحسن الظروف المادية لغالبية العبيد إلا أن الجنوب أخذ يشد من وثاق العبودية أكثر فأكثر؛ حتى إذا تمتع العبيد في الولايات المتحدة بصحة أفضل وطعام أحسن عن أي مكان في نصف الكرة الغربي، إلا أن حصولهم على الحرية بدا أبعد بكثير، ففي البرازيل لم يكن غريبًا أن يطلق المالك سراح عبيده كنوع من الاحتفال بمناسبة زواج في أسرة المالك على سبيل المثال، أو السماح للعبيد بأن يشتروا حريتهم، وعلى الرغم من أن العبودية في البرازيل استمرت حتى عام 1888، إلا أن أكثر من نصف عدد السكان ذوى الأصول الإفريقية كانوا بالفعل أحرارًا في عام 1850 (في مقابل رقم يقل بنسبة 10% في الجنوب الأمريكي، ووضع المزيد والمزيد من ولايات الجنوب في القرن التاسع عشر قيودًا على الإعتاق التطوعي مشترطين موافقة المجلس التشريعي على مثل هذه الأعمال، وقد أعلن أبراهام لينكولن قائلا "يبدو أن كل القوى على وجه الأرض قد أجمعت بشكل سريع" لإحكام قبضة العبودية بصورة أكثر صرامة على العبيد في أمريكا، وقد أغلق عدد قليل من مجتمعات العبيد في التاريخ كل سبل التحرير في الجنوب القديم بشكل منهجي.

الأحرار السود في الجنوب القديم

ساعد وجود العبودية في تحديد وضع أولئك السود الذين يتمتعون بالفعل بالحرية، حيث كان ما يقرب من نصف مليون من الأحرار السود يعيشون في الولايات المتحدة عشية اندلاع الحرب الأهلية غالبيتهم في الجنوب؛ وكان معظمهم من أبناء العبيد الذين تم تحريرهم من قبل ملاكهم الجنوبين في أعقاب الثورة أو عن طريق قوانين الإعتاق التدريجي بالولايات الشمالية، وزاد عددهم بالعبيد الذين تم تحريرهم بطريقة تطوعية من قبل سادتهم أو الذين سُمحَ لهم بشراء حريتهم أو الذين نجحوا في الهروب.

اكتسبت كلمة "حر" معنًى جديدًا تمامًا عندما تلي كلمة "أسود" أو "زنجي"، وقد عَرَّفَ البيض حريتهم جزئيًّا بالتميز عن العبودية، ولكن فيما يتعلق بالفرق بين السود بعضهم البعض، فقد كتب "دوجلاس قائلا "إن الفرق بين الأسود العبد والأسود الحر لم يكن كبيرا"، فكما أشرنا في الفصل العاشر، فإن الأحرار السود الشماليين لم يكن يستطيعون التصويت، بالإضافة إلى أنهم كانوا يتمتعون بفرص اقتصادية أقل بالمقارنة مع الأحرار السود في الجنوب الذين يستطيعون قانونيًّا امتلاك ممتلكات خاصة والزواج؛ وبالطبع، لا يمكن بيعهم أو شراءهم، إلا أنهم يخضعون للعديد من القواعد التي كانت تقيد حياة العبيد وكانت تُطبَّق عليهم أيضا، فلم يكن للأحرار السود أي مشاركة في اختيار المسئولين في الوظائف العامة، وكان يُحظر عليهم مثل العبيد

امتلاك الكلاب أو الأسلحة النارية أو الخمور ولا يستطيعون ضرب أي شخص أبيض، حتى ولو على سبيل الدفاع عن النفس؛ ولم يكن مسموحًا لهم الإدلاء بشهادتهم أمام المحكمة أو الخدمة ضمن هيئة محلفين؛ وعليهم أن يحملوا طوال الوقت شهادة التحرر، وقد يتم إلزام فقراء العبيد المحررين الذين هم في حاجة إلى مساعدة الحكومة بالعمل إلى جوار العبيد، وقد أعلن قاضي في "ساوث كارولينا" في عام 1848 قائلاً أن "الزنوج الأحرار ينتمون إلى طبقة اجتماعية متدنية من المجتمع وعليهم أن يتعلموا كيف يديروا شئونهم على أساس أنهم أدنى مرتبة".

كما أشرنا من قبل، كان هناك عدد كبير من السكان السود المحررين في البرازيل في القرن التاسع عشر، وحصل العديد من الأطفال لآباء بيض وأمهات من نساء العبيد مملوكين من قبل هؤلاء الآباء البيض في جزر الهند الغربية على حريتهم ليصبحوا جزءًا من تعداد الملونين المحررين الذين كانوا يتميزون بشكل كبير عن كل من البيض الذين هم في مرتبة أعلى منهم وعن العبيد الذين هم في مرتبة أدنى، وفي ظل غياب الطبقة المتوسطة الفقيرة من البيض، تمكن العبيد المحررون في جاميكا وجزر الكاريبي الأخرى من تشغيل وإدارة المحلات وعملوا كموظفين في مكاتب الحكومة.

أما في الولايات المتحدة حيث ساوى المجتمع بين "السود المحررين" وبين "العبيد" ولم يترك إلا مساحة صغيرة جدًّا للمولودين (الأطفال من أبوين أحدهما أبيض والآخر أسود) بينهما، حيث أُعتبر السود المحررون بشكل متزايد كمجموعة غير مرغوب فيهم ويشكلون خطرًا محتملاً يهدد نظام العبودية، وبحلول الخمسينيات من القرن التاسع عشر منعت معظم ولايات الجنوب المحررين السود من دخول أراضيها، بل وصل الأمر في عدد قليل من الولايات إلى طردهم جملة واحدة واضعين إياهم أمام الاختيار بين إما الاستعباد أو المغادرة؛ ومع ذلك، نجح عدد قليل من السود المحررين في تحقيق النجاح وإثبات الذات داخل مجتمع العبيد، على سبيل المثال، اكتسب "وليام جونسون" الحلاق القادم من إحدى مدن المسيسبي مالاً كافيًا لشراء مزرعة وخمسة عشر عبدا، وكان يصطاد مع الطبقة العليا من البيض ويقرضهم المال، ولكنه كان يعانى من العيوب القانونية الشائعة بين بنى جنسه فهو لا يستطيع على سبيل المثال أن يشهد ضد المدينين له في المحكمة عندما يخفقون في سداد ما عليهم من ديون مستحقة له عليهم. أما في فرجينيا فقد تم تحرير العبيد مع منحهم أراضي بناء على وصية "ريتشارد راندولف" (كما أشرنا إلى ذلك في الفصل السادس)، الأمر الذي نجم عنه تأسيس مجتمع نابض بالحياة أطلق عليه اسم "تل إسرائيل"، وعلى الرغم من وجود القيود القانونية التي كانت مفروضة على المحررين السود في الولاية، إلا أنهم نجحوا كفلاحين وعمال مهرة وتعلموا كيفية الدفاع عن حقوقهم أمام المحاكم حتى وصل الأمر إلى أنهم كسبوا قضايا ضد البيض الذين كانوا مدينين لهم بالمال.

الجنوب الأعلى والأدنى

كان عدد قليل جدًا من السود المحررين (ما يقرب من 37.000 شخص أو ما يعادل أقل من 2 بالمائة من عدد السكان السود بالمنطقة) يعيشون في أدنى الجنوب في عام 1860، ومثل "وليام جونسون" استوطن غالبيتهم المدن، ففي ولاية "المسيسبي" التي هي ولاية ريفية بشكل كاسح ولم يكن يوجد بها مراكز حضرية حقيقية، كان عدد السود المحررين بها قبيل الحرب الأهلية أقل من800 شخص، أما في "نيو أورليانز" و"تشارلستون" من ناحية أخرى فقد تطورت مجتمعات مزدهرة نسبيًا من السود المحررين تتكون في مجملها من نسل مختلط الأجناس (ناتجم عن زواج عن آباء بيض وأمهات سود عبيد)، وقد نجح بعضهم في أن يصبح ثريًا بالفعل - مثل "أنطوان دوبيكلت" من ولاية "لويزيانا" الذي كان يمتلك مائة من العبيد - وقد حصل العديد من السود المحررين في هذه المدن على التعليم وعملوا كحرفيين مهرة مثل الخياطين، والنجارين، والميكانيكيين؛ وقاموا بتأسيس كنائس خاصة بمجتمعهم ، وأنشأوا مدارس لأطفالهم، ووصل الأمر إلى أن قام بعض العبيد المحررين بولاية "نيو أورليانز" بإرسال أبنائهم إلى فرنسا للتعليم، وبذلت هذه الصفوة من السود المحررين كل ما في وسعها للإبقاء على فصلهم عن مجتمع العبيد، فعلى سبيل المثال، لم تكن "جمعية رفاق براون" في "تشارلستون" تسمح حتى للمحررين من أصحاب البشرة السمراء بالانضمام إليها؛ ومع ذلك، كان معظم السود المحررين من العمالة غير الماهرة الفقيرة حتى في مثل هذه المدن.

أما في الجنوب الأعلى حيث كانت تعيش الغالبية العظمى من السود المحررين، فقد عملوا في عمومهم كعمال زارعين مقابل أجر، فهنا حيث أنهكت زراعة التبغ التربة مما دفع العديد من المزارعين للتحول إلى زراعة محاصيل تحتاج إلى عدد أقل من العمالة على مدار العام، وقاموا ببيع العديد من العبيد إلى ولايات أدنى الجنوب كما قاموا بتحرير عدد آخر، وبحلول عام 1860 كان نصف عدد سكان ولاية "ميريلاند" من الأمريكيين الأفارقة من الأحرار، وكان المزارعون يستأجرون السود المحررين المحليين للعمل إلى جانب عبيدهم في موسم الحصاد، أما في "فرجينيا" و"ميريلاند" فكان السود المحررون على صلة وطيدة بمجتمع العبيد، وعادة ما يكون لهم أقارب مازالوا يعيشون تحت وطأة العبودية، وامتلك البعض عبيدًا ولكن عادة ما يكون هؤلاء من الأحرار الذين اشتروا زوجاتهم وأطفالهم الذين كانوا مازالوا عبيدًا حيث لم يستطيعوا تحريرهم إذ أن القانون يطالب أي عبد محرر بأن يغادر الولاية. على كل حال، وعلى حد تعبير "ويليس إيه هودجس" أحد أفراد أسرة محررة من "فرجينيا"، ساعدت على هروب الكثير إلى الشمال حيث قال بأن "السود المحررين والعبيد كانوا يعانون نفس المعاناة على حد سواء."

عمالة العبيد

كانت العبودية في المقام الأول وقبل كل شيء عبارة عن نظام عمل "من مطلع الشمس إلى حلول الظلام" مع استراحات قليلة فقط لتناول الطعام، فالعمل يشغل معظم أوقات العبيد، فالمزارع الشاسعة كانت عبارة عن مجتمعات متنوعة حيث يقوم فيها العبيد بأداء كافة أنواع العمل، فعلى سبيل المثال، المزرعة التي يعمل فيها عدد 125 عبدا، يكون من بينهم رئيس الخدم، واثنين من النادلات، وممرضة، وصانعات الجبن، وبستاني، وعشرة نجارين، واثنين من صانعي الأحذية؛ وضمت مزارع أخرى من بين العبيد العاملين بها مهندسين، وحدادين، ونساجين؛ بالإضافة إلى العمال الذين يقومون بأداء الأعمال المنزلية مثل الطباخين وسائقي العربة التي تجرها الخيول.

كان العبيد يعملون في تقطيع الأخشاب لتزويد المراكب البخارية بالوقود ويعملون في مناجم الحديد والفحم، وعملوا في أحواض الموانئ البحرية في الجنوب، وقاموا بمد خطوط السكك الحديدية، وكانوا يعملون لدى السلطات المحلية لتشييد وإصلاح الكباري والطرق والمرافق الأخرى، ويعملون لدى الحكومة الفيدرالية لبناء القلاع والحصون والمباني العامة الأخرى في الجنوب. كان رجال الأعمال والتجار والمحامون والموظفون المدنيون يمتلكون عبيدا؛ وبحلول عام 1860 كان ما يقرب من2.000 من العبيد يعملون في مجال الصناعة وبخاصة في مصانع الحديد والصلب ومصانع التبغ في أعلى الجنوب، وعمل الآلاف في المدن الجنوبية كعمال غير ماهرين وكأصحاب حرف ماهرين، بالإضافة إلى امتداد الاعتماد على العمالة غير الحرة بشكل كبير ليتجاوز طبقات ملاك العبيد؛ حيث استأجر العديد من صغار الفلاحين ورجال الصناعة العبيد من أصحاب المزارع كما أشرنا من قبل، وأوكل عدد قليل من الملاك لعبيدهم مسئوليات واسعة، فعلى سبيل المثال، قام مالك العبد "سيمون جراي" بتعيينه رئيسًا لطاقم سفينة نهرية في المسيسبي حيث كان "جراي" يشرف على كل من العمال البيض والسود على السواء، وكان يقوم ببيع الأخشاب المملوكة لسيده ويتسلم بالنيابة عنه مبالغ كبيرة من المال.

العمل الجماعي والعمل الفردي

لم تكن تجربة "جراي" تعكس خبرات نموذجية بالنسبة إلى العبيد بالطبع، إذ كشفت إحدى الدراسات أن الغالبية العظمى من العبيد - حوالي 75 بالمائة من النساء و90 بالمائة من الرجال العبيد يعملون بالحقول وتنوع التنظيم الدقيق لأعمالهم بتنوع المحصول وحجم المساحة المزروعة، ففي المزارع الصغيرة عادة ما يكدح صاحب المزرعة جنبًا إلى جنب مع عبيده، أما في المزارع الأكبر فإن العبيد يعيشون ويعملون في تلك المزارع التي تقع في حزام زراعة القطن حيث يعمل الرجال والنساء والأطفال في مجموعات، غالبًا تحت توجيه مشرف وربما مراقب عمال لا يرحم

يساعد المشرف في دفع العمال على العمل المضنى بدون راحة، وقد اشتهر المشرفون بين أوساط العبيد بالمعاملة الخشنة والقاسية، وقد كتب "سولومن نورث آب"، وهو أحد السود المحررين بعد أن قضى اثنا عشر عامًا من عمره في العبودية بعد اختطافه من الشمال، أن "المؤهلات الضرورية لمن يشغل مشرفًا على العمال العبيد هي "ألا يكون له قلب على الإطلاق إلى جانب القسوة والغلظة"، إذ أن عمله المكلف به هو إنتاج أكبر كمية من المحاصيل بغض النظر عن التكلفة البشرية والنفسية على العبيد."

كان العبيد في حقول السكر جنوبي "لويزيانا" والبالغ عددهم 150.000 يعملون في مجموعات كبيرة وفي ظروف هي الأكثر قسوة في الجنوب، إذ كان موسم الحصاد في آخر الخريف يتطلب العمل على مدار الساعة لتقطيع ومعالجة قصب السكر قبل تلفه، أما في مزارع الأرز في "ساوث كارولينا" و"جورجيا"، فقد ساد نظام العمل بالمهمة الذي يرجع إلى عهد المستعمرات، حيث يرغب عدد قليل من البيض في المخاطرة بالدخول للعمل في المستنقعات المملوءة بالملاريا، ويتم تكليف العبيد بمهام يومية مع السماح لهم بتحديد وتيرة وسرعة إنجاز المهمة الموكلة لهم، وبمجرد أن ينتهي العبد من أداء مهمته فإن بإمكانه أو بإمكانها قضاء باقي اليوم في صيد الحيوانات أو الأسماك أو زراعة المحاصيل البستانية.

العبودية في المدن

من وجهة نظر العبيد، كان يمكن للعبودية في مناطق الجنوب المختلفة أن تكون "أسوأ" في بعض الجوانب، وذات مدلول "أفضل" في جوانب أخرى؛ فعلى سبيل المثال، تحمل العبيد في حقول الأرز ظروف عمل شاقة إلا أنهم تمتعوا باستقلالية أكبر من العبيد في المناطق الريفية، وذلك بسبب نظام العمل بالقطعة إلى جانب غياب عدد كبير من السكان البيض، وتمتع أصحاب الحرف المهرة أيضًا في المناطق الحضرية بقدر كبير من الاستقلال الذاتي. عمل معظم عبيد المدينة كخدم وطباخين وعمال يقومون بأداء الأعمال المنزلية الأخرى، وفي بعض الأوقات كان الملاك يسمحون للحرفيين المهرة بتأجير وقتهم الخاص، بمعنى أنه بإمكانهم القيام بترتيبات العمل بشكل فردى مع أصحاب الأعمال غير أسيادهم، إلا أن الجزء الأكبر من الأجر يذهب لمالكي العبيد، حتى أن العديد من العبيد في المناطق الحضرية كانوا يعيشون على نفقتهم الخاصة، كما كتب أحد الأشخاص قائلا "لكن أصبح مالكو العبيد مقتنعين على نحو متزايد بأن الاستقلال المتنامي للعبيد المهرة في المناطق الحضرية له أسوأ تأثير على العلاقة بين السادة والعبيد"، ولهذا السبب قام العديد من مالكي العبيد في الخمسينيات من القرن التاسع عشر ببيع عبيد المدينة إلى المناطق الريفية وسعوا إلى استبدالهم بعمال مهرة من البيض.

كتب "فريدريك دوجلاس" قائلا "سعيت خلال الفترة التي قضيتها في بالتيمور للعمل الخاص لحساب نفسي وأن أبرم العقود الخاصة بي وأن أجمع حصيلة أرباحي"، واختتم بمقارنة ظروفه بظروف العمل في المزرعة قائلا: "لقد كنت بالفعل أفضل حالاً"، وبادر دوجلاس قائلا على عجل "بالرغم من المعاملة الحسنة التي كان يلقاها إلا أن هذا لم يقلل بحال من الأحوال من رغبته في الحرية - ما أكرهه هو العبودية، وليس مجرد وقائعها."

المحافظة على النظام

استخدم أصحاب العبيد وسائل متنوعة في محاولاتهم للمحافظة على النظام والانضباط بين ملكيتهم للعبيد وعملوا على إقناع العبيد على العمل بشكل أكثر إنتاجية، حيث اعتمد النظام في الأساس على القوة، وكان للسادة السلطة التامة تقريبًا في إيقاع العقوبات بالعبيد ونادرًا ما تجد عبدا، رجلاً كان أم امرأة، قد قضى حياته دون أن يتذوق لسع السياط، حتى أن "جوزيه هنسون" الذي هرب إلى الشمال ونشر سيرته الذاتية كتب قائلا أنه لن يستطيع أن يمحو من ذاكرته التجربة الصادمة عندما رأى والده يُجْلَد أمام عينيه بوحشية على إثر قيامه بضرب أحد البيض، فأي إخلال بقواعد المزرعة، مهما كانت ضآلته، من الممكن أن تكون عقوبته الجلد، وقد كتب أحد مزارعي "جورجيا" في جريدته أنه قام بجلد عبد له "لأنه لم يحضر اللبن لقهوتي، الأمر الذي اضطررت معه لأن أتناولها بدون لبن."

وكان يتم استكمال العنف مع العبيد بوسائل أخرى أكثر دهاءً وبراعة، حيث عمل ملاك العبيد على استغلال وتشجيع الانقسامات بين العبيد، وخاصة بين أولئك الذين يعملون بالحقول وبين من يعملون بالخدمة المنزلية، كما عملوا على خلق نظم من الحوافز تكافئ من يقوم بعمل جيد بإعطائه وقتًا للراحة أو حتى إعطائه نقودا، وقد منح أحد ملاك العبيد في "فرجينيا" عبدا له عشرة سنتات كل يوم نظير حسن أدائه في العمل وذكر بأن مثل هذا العمل جعل العبيد يعملون بمزيد من الاستقرار والابتهاج تماما مثل البيض"، وبهذه الطريقة "أوفر كل النفقات التي أدفعها للمشرفين على العبيد. ربما كان السلاح الأقوى الذي تم استخدامه ببراعة من قبل مالكي العبيد هو التهديد بالبيع الذي من شأنه أن يفصل العبيد عن أسرهم المباشرة وعن مجتمعاتهم، وعلى الرغم من غرابة ذلك، إلا أن الأمريكيين الأفارقة أنشأوا المزارع في كافة أنحاء الجنوب.

ثقافة العبيد

لم يتخل العبيد أبدا عن رغبتهم في نيل الحرية أو عن عزمهم على مقاومة كل أشكال هيمنة البيض على حياتهم، وفى مواجهة كل ما أحاط بهم من حقائق كئيبة تمكن العبيد من تكوين ثقافة شبه مستقلة خاصة بهم تمركزت حول الأسرة والكنيسة، الأمر الذي أمكنهم من اجتياز تجربة العبودية دون أن يفقدوا احترام الذات وأن ينقلوا مجموعة من الأفكار والقيم من جيل إلى جيل بصورة مختلفة تمامًا عن أفكار قيم أسيادهم من جيل إلى جيل.

وقد استمد العبيد ثقافتهم من التراث الإفريقي فكان التأثير الإفريقي واضحًا في موسيقاهم ورقصهم وفى أسلوب عبادتهم الدينية وفى استخدامهم للأعشاب الطبية لمقاومة الأمراض (نظرًا للطبيعة البدائية للمعالجة الطبية المحترفة، كان بعض البيض يسعون للعلاج على يد معالجين من العبيد بدلاً من الذهاب إلى الأطباء المتمرسين.) وعلى عكس الحال في مناطق المزارع بالكاريبي والبرازيل، حيث استمرت تجارة العبيد حتى القرن التاسع عشر وفاقت أعداد السكان من العبيد أعداد البيض، كان معظم عبيد الولايات المتحدة مولودين في أمريكا وعاشوا وسط غالبية من السكان البيض، وكانت ثقافة العبيد ابداعًا جديدًا تشكّل من خلال المزج بين العادات الإفريقية والقيم والخبرات الأمريكية.

أسرة العبيد

احتلت الأسرة مكان الصدارة في مجتمع العبيد، وفي مزارع السكر في جزر الهند الغربية فاقت أعداد الذكور أعداد الإناث، وكان العمال يعيشون في أبنية تشبه الثكنات وكانت حياة الأسرة المستقرة تكاد تكون أمرًا مستحيلا. أما في الولايات المتحدة حيث نما عدد السكان من العبيد نتيجة للزيادة الطبيعية وليس عن طريق الاستيراد من إفريقيا، مما جعل هناك تناسبًا بين أعداد الذكور والإناث ومما جعل تكوين الأسرة أمرًا أكثر سهولة بكثير، وللتأكيد فإن القانون كان لا يعترف بشرعية زواج العبيد، فمن الشروط التي يجب توافرها قبل أن يُشرَع للرجل أو المرأة في بدء مراسم الزواج هو موافقة السيد، وظلت الأسرة في خطر دائم يهدد تمزيقها بالبيع.

ومع كل هذا، تزوج معظم العبيد البالغين وعادة ما كان الارتباط بين الزوجين من العبيد يبقى مدى الحياة ما لم يتمزق بالبيع، ولتقوية الشعور باستمرارية الأسرة حرص العبيد بشكل كبير على تسمية أبنائهم بأسماء أبناء العم والأعمام والأجداد والجدات والأقارب الآخرين. لم تكن أسرة العبيد تعكس ببساطة أنماط القرابة بين البيض، فعلى سبيل المثال لم يكن العبيد يتزوجون من أبناء أعمامهم المباشرين على الرغم من كون ذلك شائعًا بين البيض الجنوبيين،

وعاش معظم العبيد داخل أسر تتكون من أب وأم ولكن بسبب البيع الدائم فقد ظهر في مجتمع العبيد أن عددًا أكبر من النساء بشكل واضح يتولين شئون الأسرة أكثر من البيض، هذا بالإضافة إلى ظهور الأسر التي يقوم فيها الأجداد أو أقارب آخرون أو حتى من غير الأقارب بتولي مسئولية تربية الأطفال.

التهديد بالبيع

كما أشرنا آنفا، ربما كان التهديد بالبيع الذي يمزق روابط الأسرة هو السلاح التأديبي الأكثر قوة وصرامة في أيدي مالكي العبيد، وفى ظل توسع التجارة في العبيد المحليين مع ظهور مملكة القطن كان يتم تدمير حوالي زيجة واحدة بالبيع من بين كل ثلاث حالات زواج بين العبيد في الولايات التي تسمح ببيع العبيد مثل "فرجينيا"، وانفصل العديد من الأطفال عن آبائهم بسبب ذلك؛ فوفقًا لإحدى التقديرات قد تم بيع عشرة بالمائة على الأقل من المراهقين العبيد في الجنوب الأعلى عن طريق التجارة في العبيد فيما بين الولايات، وقد تغلغل الخوف من البيع في حياة العبيد وبخاصة في الجنوب الأعلى، حتى أصبح التساؤل التالي مقطعًا في أغنية شعبية للعبيد "أمي هل سيبيعنا السيد غدا؟"، في انعكاس لمسئوليات السيد من المنظور الأبوي، شجع بعض الملاك عبيدهم على الزواج، إلا أن آخرين بقوا غير مكترثين بالروابط الأسرية لعبيدهم وانحصر اهتمامهم بأطفال عبيدهم في مدى قدرة الأطفال على العمل في الحقول. قسَّم التعداد الفيدرالي للسكان السكان البيض إلى خمس فئات عمرية، بينما لم يقسم العبيد سوى إلى فئة واحدة وهي عند بلوغ الطفل سن العاشرة وهى السن التي عندها يصبح قادرًا بما يكفى للانضمام إلى قوة العمل في المزرعة.

لم يعر تجار العبيد اهتمامًا كبيرًا للحفاظ على الروابط الأسرية للعبيد، حيث كان هناك مزاد علني في عام 1852 وتم تعليق اللافتات والإعلانات "بيع العبيد والأشياء القديمة" شعارًا لبيع ممتلكات مزارع من جورجيا كان قد توفى حديثا، وكان من ضمن الأشياء التي تباع في المزاد قائمة ضمت ستة وثلاثين فردا، تبدأ بطفل حتى تصل إلى امرأة تبلغ من العمر تسعة وستين عاما، وانتهى المزاد بشرط "يتم بيع العبيد منفصلين أو بالجملة وذلك بناءً على رغبة المشترى"، ولا شك أن البيع بمثل هذه الطريقة يعد مأساة إنسانية، حيث كتب أحد عبيد جورجيا في عام 1858 خطابًا الى زوجته قال فيه: "زوجتي العزيزة، كم أنا سعيد أن أكتب لكم هذه السطور القليلة، ولكني يؤسفني أن أخبركم بكثير من الأسى أنه قد تم بيعي، مع خالص حبي لأبى وأمي وأبلغيهم منى وداعى، وإذا لم نتقابل مرة ثانية في هذا العالم فانا على أمل أن نلتقي في السماء، لا يستطيع قلمي أن يعبر عما أشعر به من أسى لفراقي عنك زوجتي العزيزة وعن أبنائي".

أدوار الجنسين بين العبيد

اختلفت أدوار الجنسين بشكل كبير في بعض الجوانب في ظل العبودية عن تلك التي كانت في المجتمعات الأكبر، حيث تساوى العبيد من الرجال والنساء في تجربة العجز، حيث إن فلسفة "تقديس الحياة المنزلية"، التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر والتي كانت تُعرِّف المنزل على أنه المكان الملائم للمرأة، لم تنطبق على نساء العبيد اللاتي كن يعملن بانتظام في الحقول، وكذلك كان الرجال العبيد لا يستطيعون أن يضمنوا الكفاف الاقتصادي لأسرهم ولا حماية أزواجهم من الانتهاك الجسدي أو الجنسي عليهم من قبل الملاك أو المشرفين عليهم في العمل (وهو الأمر الذي كان يحدث بشكل متكرر في العديد من المزارع)، ولا تحديد متى وفي ظل أي ظروف يعمل أبنائهم.

ومع ذلك، عندما كان العبيد يعملون "في أوقاتهم الخاصة بهم" كانت الأدوار الأكثر تقليدية لنوع الجنس تسود بدرجة أكثر، حيث كان الرجال من العبيد يقومون بأعمال تقطيع الخشب وصيد الحيوانات والأسماك، بينما تعمل نساؤهم في الغسيل والحياكة إلى جانب القيام بالمسئولية الأساسية لهن في رعاية الأطفال، وقد منح بعض المزارعين لعبيدهم قطعة صغيرة من الأرض يزرعوا فيها الأطعمة ليكملوا حصة الغذاء التي يمنحها إياهم الملاك، وعادة ما كانت النساء يتولين العناية بمثل هذه القطع من الأراضي، لكن مهما كانت الترتيبات الداخلية للأسرة، إلا أن الأسرة ككيان كانت تمثل محورًا مركزيًا في مجتمع العبيد، الأمر الذي سمح بتناقل القيم والعادات واستراتيجيات البقاء - فيما عُرِفَ بثقافة العبيد - من جيل إلى الجيل الذي يليه.

ديانة العبيد

قدمت نسخة متميزة من المسيحية العزاء والسلوى للعبيد في مواجهة الحياة الشاقة والقاسية، ومنحت لهم الأمل في التحرر من العبودية، وقد شارك بعض السود من الأحرار والعبيد في الصحوة الكبرى التي وقعت في عهد المستعمرات وقد انخرطوا في الكنائس المعمدانية التابعة للمذهب البروتستانتي والكنائس الميثودية في الجنوب خلال الإحياء الديني في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وطبقًا لما قاله أحد الوعاظ في اجتماع المخيم العظيم الذي اجتذب آلاف من العباد إلى "كان ريدج" في كنتاكي في عام 1801 لم يكن هناك اي تفرقة على أساس العمر أو الجنس أو اللون أو أي شيء ذا طبيعة مؤقتة؛ فالجميع سواء كانوا كبارًا أم صغارًا، ذكورًا أو إناث، سودًا و بيض، ويتمتعون بامتيازات متساوية للتعامل مع النور الذي يتلقونه بأي طريقة توجههم إليها الروح القدس.

وعلى الرغم من أن القانون منع العبيد من التجمع بدون حضور شخص أبيض، إلا أنه

يبدو أنه كان بكل مزرعة واعظ أسود، وكان الواعظ عادةً يسمي نفسه عبدا؛ وقد يكون قد تلقى بعضًا من التعليم الرسمي أو لم يتلق أي تعليم من الأساس، إلا أن قدراته في الخطابة وعلمه بالكتاب المقدس جعلته واحدًا من أكثر الأعضاء احترامًا في مجتمع العبيد؛ وعلاوة على ذلك، كان العبيد أيضا يؤدون عبادات جماعية بالاشتراك مع عباد بيض وقساوسة بيض، وخاصة في مدن الجنوب، حيث كان يُطلَب منهم بصفة عامة الجلوس في المقصورة الخلفية أو في الشرفة، كما أسس العبيد المحررون في المناطق الحضارية كنائسهم الخاصة وأحيانًا ما كان يحضر بها العبيد.

أما بالنسبة للسادة، فقد قدمت الديانة المسيحية لهم وسائل أخرى للسيطرة الاجتماعية، فقد كان كثيرون منهم يطلبون من عبيدهم حضور جلسات الوعظ التي يقدمها قساوسة بيض، والذين كانوا يعظون بأن السرقة عمل غير أخلاقي وأن الكتاب المقدس يطلب من الخدم الطاعة لسادتهم، وقد تذكر أحد العبيد أن القسيس الأبيض ذكر في أحد المواعظ "المدى الذي كان به الله رحيمًا وكريمًا بالعبيد السود لأنه أحضرهم إلى هذه الأرض من غياهب إفريقيا الحالكة السواد وسمح لهم بسماع صوت الإنجيل"، وقد ترك العديد من العبيد القداس أثناء موعظة ألقاها على مسامعهم "تشارلز سي جونز" حيث أكد على أن الله يأمر العبيد بطاعة سادتهم وأنه لا ينبغي عليهم محاولة الهروب، وفى ختام الموعظة ذهب أحد الرجال إلى "جونز" قائلا له "هذه العقيدة أحادية الجانب ولا تعرض الجانب الآخر الذي يوصي السادة بحسن معاملة العبيد.

إنجيل الحرية

حَوَّلَ العبيد المسيحية التي اعتنقوها حيث سخروها لخدمة أغراضهم الخاصة، كانوا يمارسون مزيجًا من التقاليد الإفريقية والمعتقدات المسيحية، وكان العبيد يمارسون طقوسهم الدينية في الاجتماعات السرية في أوقات الليل وفي "اجتماعات الحمد" الحافلة بالصيحات والرقص والتبادلات العاطفية المتكررة بين الواعظ وجموع المصلين؛ وقد ذكر أحد العبيد السابقين تلك التجمعات الدينية السرية قائلا "لقد اعتدنا التسلل إلى الغابات في أيام العبودية القديمة في أمسيات أيام الأحد لكي نغنى ونصلى على بالطريقة التي تروق لنا وكنا نصلي داعين الله أن يمنحنا الحرية.

وقد لعبت قصة الخروج التوراتية، (خروج اليهود من مصر بقيادة سيدنا موسى) التي اختار الله فيها النبي موسى لقيادة اليهود في مصر إلى أرض الميعاد حيث الحرية، دورًا مركزيًا في الديانة المسيحية الخاصة بالسود، حيث كان العبيد يُعَرِّفون أنفسهم بأنهم شعب الله المختار وأن الله سيحررهم في الوقت المناسب من العبودية، في نفس الوقت الذي مثَّلت فيه صورة النبي "عيسى" للعبيد المنقذ والمخلص الذي يكترث حقيقة بالمضطهدين والمقهورين، ووجدوا في الكتاب المقدس رموزًا وأبطالاً آخرين النبي "يونس" الذي استطاع التغلب على الحظ السيئ وهرب من

بطن الحوت، والنبي "داوود" الذي قهر "جالوت" القوى، و"دانيال" الذي تمكن من الهروب من عرين الأسد، كما كانت رسالة المسيحية التي تنادى بالأخوة ومساواة الأرواح جميعًا أمام الله إدانة لا تُدحض لمؤسسة العبودية.

الرغبة في الحرية

إذا كان سادتهم قد طوروا أيديولوجية مسهبة للدفاع عن "المؤسسة المميزة للجنوب"، أي العبودية، إلا إن ثقافة العبيد ارتكزت على اقتناع تام بجور العبودية وعلى الرغبة في نيل الحرية، وقد كتب الفيلسوف السياسي البريطاني (أدموند بيرك) في أثناء الثورة الأمريكية قائلا "لن يجادل أحد عن العبودية"، وأطلق "فريدرك دوجلاس" على المناقشات المؤيدة للعبودية بأنها "هراء محض"، والتي سيشعر الرجال بالعار عند تذكرها بمجرد أن يتم إلغائها، وعلى الرغم من كل محاولات المؤلفين ومواعظ القساوسة المدافعين عن العبودية إلا أن السود كانوا يرون أنفسهم كأناس عاملين وتم حرمانهم من ثمرة عملهم بطريقة غير عادلة على أيدي مزارعين عاطلين يعيشون في ترف ورغد، كما عبر بيت من الشعر بأحد أغاني العبيد "بينما نخبز لهم الخبز يعطوننا الفتات".

كان معظم العبيد يدركون تمامًا استحالة مجابهة النظام بشكل مباشر، حيث لم تكن قصصهم الشعبية تضم شخصيات مثل "بول بونيان"، الرجل البدائي القوي ساكن الغابات الأكبر من الحياة والذي يتمتع بشعبية كبيرة في التراث الشعبي للبيض، بينما التراث الشعبي للعبيد مثل قصص(الأرنب برر) يمجد الأرنب الضعيف ويثني عليه لأنه تفوق بالدهاء على خصومه الأقوى منه مثل الدب والثعلب بدلاً من الدخول معهم في مواجهة مباشرة، وكانت أغانيهم الدينية أو الروحية تحكى حياة المعاناة والألم (لقد تعرضت بالفعل للامتهان والاحتقار)، إلا أنها في الوقت ذاته كانت تحمل أملاً في الحرية البعيدة (ألم ينقذ الله عبده دانيال)، وعندما كانوا ينشدون قائلين "أنا متجه إلى أرض الجنة"، فإنهم كانوا يقصدون ليس فقط البحث عن الراحة من كل ويلات هذه الدنيا في الحياة الآخرة بل كانوا يقصدون أيضًا الهروب إلى الشمال أو أن يشهدوا انكسار قيود العبودية في الوقت الذي يريده الله.

وقد صرح أحد القساوسة السود بعد التحرر أن الحرية تضطرم في داخل أعماق قلوب السود قبل ميلادها بوقت طويل"، كما قال أحد العبيد الهاربين والذي وصل إلى الشمال فيما بعد بأن "الرغبة في الحرية كانت هي الموضوع الحاضر دائماً" في المحادثات التي تدور في بيوت العبيد، وقد لاحظ "سولومن نورث أب" أنه حتى العبد الأكثر جهلاً لا يمكنه أن "يخفق في إدراك الفرق بين أوضاعهم وأوضاع البيض - حتى أكثر البيض وضاعة، وأن يدرك مدى جور القوانين التي تضعهم تحت سيطرة مالكيهم ليس فقط من أجل الاستيلاء على أرباح عملهم بل أيضًا

لإخضاعهم لعقاب بدون سبب وبدون جريمة من جانب العبيد وبدون رحمة وبدون اعتذار أو تعويض بعد ذلك.

كان عالم العبيد الريفي مقصورًا على مجتمعاتهم المحلية وعشيرتهم، وقد أصبحوا على دراية تامة بكل ما يحيط بهم محليًا من مشاهد ومحاصيل وسكان، إلا أن معرفتهم بالعالم الأكبر كانت قليلة، ولكن مع ذلك لم يستطع العبيد البقاء غير حافلين بالتيارات الفكرية التي أطلقتها الثورة الأمريكية أو بلغة الحرية في المجتمع من حولهم، وقد كتب "جوزيف تابر" أحد عبيد "فرجينيا" الذي هرب إلى كندا في عام 1840 قائلا "أنا في أرض الحرية، يحيا الإنسان هنا كما يريد الرب له أن يكون ... وليس كما تريد قوانين الجنوب التي تضع الإنسان - الذي كرمه الله وخلقه في أحسن صورة- في منزلة واحدة مع البهائم". إن جدول الأعمال السياسي والاجتماعي الذي وضعه الأمريكيون الأفارقة في عصر إعادة البناء الذي أعقب التحرر والذي شدد على المساواة المدنية والسياسية، وتقوية مجتمع السود، وتحقيق الاستقلال الذاتي في حياتهم العملية إنما نبع مباشرة من خبراتهم في العبودية.

مقاومة العبودية

وإذ واجه العبيد سلطات على مستوى الاتحاد والولاية والمحليات ملتزمة بالحفاظ على العبودية، إلى جانب تفوق أعداد السكان البيض في الجنوب ككل، فإنهم نادرًا ما كانوا يستطيعون التعبير عن رغبتهم في الحرية من خلال تمرد صريح، وبالمقارنة مع "البرازيل" و"جزر الهند الغربية" الذين شهدوا انتفاضات عديدة شارك فيها المئات أو الآلاف من العبيد، فإن الاحتجاجات التي شهدتها الولايات المتحدة كانت أقل حجمًا وأقل تكرارا، فبالطبع ليس هناك وجه للمقارنة بين ثورة العبيد الناجحة في "هاييتي"، والتي سبق مناقشتها في الفصل الثامن، وبين ثورة 1831 التي باءت بالفشل في "جاميكا" والتي يبدو أنها ضمت حوالي 20.000 عبد، ومع ذلك فإن هذا لا يعني أن العبيد في الولايات المتحدة قد رضخوا مستسلمين للنظام الذين اضطروا للعيش تحت ظله، وبناءً على هذا أخذت مقاومة العبودية أشكالاً متعددة في الجنوب القديم بدءًا بأعمال المواجهة الفردية ووصولاً إلى الانتفاضات من وقت لآخر، وقد شكلت تلك الأحداث تحديًا مستمرًا للصورة الشخصية الذاتية لمالكي العبيد كآباء للعبيد واعتقادهم بأن العبيد رعايا مطيعون ويشعرون بالشكر والعرفان تجاه رعاية سادتهم لهم وكرمهم معهم.

أشكال المقاومة

كانت أكثر تعبيرات العداء للعبودية انتشارًا هي "المقاومة اليومية" أو "التخريب الصامت"، بمعنى أداء العمل بصورة غير جيدة وتكسير آلات وأدوات العمل وإساءة معاملة حيوانات

المزارع، وبطرق أخرى تعطيل النظام الروتيني للعمل في المزرعة، وقد كتب "فريدريك لو أولمستد" أحد الشماليين الذي قام بجولة في الجنوب في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، قائلا "قيام الزنوج بترك البوابات مفتوحة، وإزالة الأسوار والسياج، وتكسيح البغال، وتعطيل وتجنيح القوارب في النهر بحيث يتحمل السيد تكاليف علاج البغل وإصلاح السفينة حتى يستطيع إصدار أوامر للرجال لتركيب سياج جديدة وبذلك تتضاعف تكلفة العمل المطلوب لإعادة التركيب" وفى نفس إطار المقاومة تظاهر العديد من العبيد بالمرض وعدم القدرة على مزاولة العمل (على الرغم من أنه لم يشتك أيًا منهم من أي مرض في يوم الأحد - يوم الراحة الوحيد لهم)، ثم سرقة الطعام، وهو شكل شائع جدًا من أشكال المقاومة إلى درجة أن أحد أطباء الجنوب قام بتشخيصه على أنه مرض وراثي يقتصر على العبيد دون غيرهم، وثمة وسيلة أخرى لم تكن متكررة الحدوث كثيرًا إلا أنها كانت أكثر خطورة وهى تلك الجرائم التي أقدم العبيد على ارتكابها بما فيها الإحراق العمدي للممتلكات ودس السم والقيام بهجمات مسلحة ضد أفراد بيض.

العبيد الهاربون

كان هناك عنصر آخر شكل تهديدًا أكبر لاستقرار نظام العبودية وهو أولئك العبيد الفارين، وكان العبيد الذين يفكرون في الهروب يواجهون عوائق هائلة، فقد أوضح ذلك "سولومن نورث آب" حين قال واصفًا ما تعرض له عند هربه "كل أيادي الرجال البيض مرفوعة ضده والحراس يراقبونه وكلاب الصيد مستعدة لتتبعه" بالإضافة إلى أن العبيد على معرفة ضعيفة بالجغرافيا أو ليس لديهم أي معرفة بها سوى اتباع النجم الشمالي ليقودهم إلى الحرية، ولا أحد يدرى تحديدًا كم عدد العبيد الذين نجحوا بالفعل في الوصول إلى الشمال أو إلى كندا، حيث تفيد أكثر التقديرات شيوعًا بأن عددهم وصل إلى ما يقارب ألف شخص كل عام، ولم يكن بالشيء المفاجئ أن معظم هؤلاء الذين نجحوا في الوصول، مثل "فريدريك دوجلاس" عاشوا في مناطق الجنوب الأعلى وبخاصة في ولايات "ميريلاند" و"فرجينيا" و"كنتاكي" التي تتقاسم الحدود مع الولايات الحرة، وكان "دوجلاس" الذي هرب وهو في العشرين من عمره مثالاً شائعًا على أن الغالبية العظمى من العبيد الهاربين كانوا رجالاً في سن الشباب، أما بالنسبة للنساء العبيد فلم يكن لديهن الرغبة في أن يتركن أبنائهن من خلفهن بينما كان اصطحابهن لأبنائهن في رحلة الهروب الشاقة أمرًا مستحيلاً تقريبا.

وقد اعتاد العبيد الهاربون من الجنوب الأدنى التوجه إلى مدن مثل "نيو أورليانز" أو "تشارلستون" حيث كانوا يأملون في الانضواء في مجتمع السود الأحرار، بينما توجه الهاربون

الآخرون إلى مناطق بعيدة مثل مستنقع "جريت ديسمال" في فرجينيا أو إفرجلادس" في فلوريدا" حيث تقدم لهم مجموعات الهنود "السيمينول" مأوى قبل أن يضطروا إلى التحرك نحو الغرب، وحتى في تنيسي" وجدت دراسة حول إعلانات الصحف عن العبيد الهاربين أنه يُعتَقَد أن ما يقرب من 40 بالمائة منهم ظلوا في المناطق المحلية المجاورة و30 بالمائة حاولوا التوجه نحو مواقع أخرى بالجنوب بينما 25 بالمائة فقط حاولوا الوصول إلى الشمال.

كانت هيئة السكك الحديدية تتشكل من موظفين متعاطفين مع المطالبين بإلغاء العبودية، حيث كانوا يقومون بإخفاء الهاربين في منازل أفرادها ومن ثَمَّ يقومون بإرسالهم إلى المحطة التالية وساعدت أيضًا بعض العبيد الفارين، وقام عدد قليل من الأفراد الشجعان ببعض الغزوات في الجنوب لتحرير العبيد وأكثر من اشتهر بذلك كانت "هارييت توبمان" التي وُلِدَت في ولاية "ميريلاند" في عام 1820 ثم هربت إلى "فيلاديلفيا" في عام 1849 وخاطرت بحياتها خلال العقد التالي عن طريق القيام بنحو عشرين رحلة إلى ولايتها التي وُلِدَت فيها لتأخذ بأيدي أقاربها وعبيد آخرين إلى الحرية، ولكن غالبية من تمكنوا من الوصول إلى الشمال قاموا بهذا العمل بمبادرة منهم، وأظهروا في بعض الأحيان براعة واضحة، فعلى سبيل المثال، قام "وليام وإلين كرافت" بانتحال شخصية مالك عبيد مريض مسافر مع عبيده، وقام "هنري بوكس براون" بتعبئة نفسه داخل صندوق وبالفعل تم شحنه بحرًا من جورجيا متوجهًا صوب الحرية في الشمال.

الإيميستاد

في حالات قليلة نالت مجموعات كبيرة من العبيد حريتهم بشكل جماعي، وانطوى أشهر الحالات على تحرير ثلاثة وخمسين عبدا، حيث استولوا عام 1839على السفينة "الإيميستاد" التي كانت تنقلهم من أحد موانئ كوبا إلى ميناء آخر، فحاول العبيد أثناء سيرها إجبار ربان السفينة على تحويل مسارها إلى إفريقيا فمضت السفينة في طريقها إلى ساحل الأطلنطي حتى قام زورق أمريكي بإلقاء القبض عليهم على ساحل "جزيرة لونج"، وفضَّل الرئيس "مارتن فان بورين" عودة العبيد إلى كوبا، ولكن المدافعين عن إلغاء العبودية قاموا برفع دعوى قضائية أمام المحكمة العليا حيث دافع عنهم الرئيس السابق "جون كوينسي آدمز" بأنه ينبغي إطلاق سراح الأسرى وقبلت المحكمة حجته بأنه قد تم استيرادهم من إفريقيا في انتهاك للمعاهدات الدولية التي تحظر تجارة العبيد ومن ثَمَّ ينبغي عودتهم إلى إفريقيا وبالفعل شق معظم الأسرى طريقهم عائدين إلى إفريقيا.

لم يكن لقضية "الإيميستاد" تأثيرًا قانونيًّا على داخل الولايات المتحدة، ولكنها ربما كانت مصدر إلهام لانتفاضة مماثلة في عام 1841، عندما قام 135 من العبيد ببسط سيطرتهم على

السفينة "كريول" بينما كانت تنقلهم عبر البحر من "نورفولك" في "فرجينيا" إلى "نيو أورليانز" وحولوا مسارها إلى "ناسو" بجزر البهاما البريطانية، وكان اسم قائد هؤلاء العبيد هو "ماديسون واشنطن" الاسم المثير للذكريات والعواطف، وقامت بريطانيا بمنحهم حق اللجوء رغمًا عن إدارة "تايلر".

ثورات العبيد

انتقلت مقاومة العبودية من وقت لآخر لتتجاوز تلك الأعمال الفردية والجماعية من التحدي لتصل إلى مرحلة التمرد الصريح، حيث وقعت المؤامرات الأربع الكبرى في تاريخ أمريكا خلال فترة واحد وثلاثين عامًا في مطلع القرن التاسع عشر، وكانت أولى هذه المؤامرات من قبل أحد عبيد فرجينيا ويُدعى "جابريل" في عام 1800، والتي سبق مناقشتها في الفصل الثامن، ووقعت الانتفاضة التالية بعد ذلك بأحد عشر عامًا في مزارع السكر على أعلى النهر في "نيو أورليانز"، حيث قام ما يتراوح بين 200 إلى 300 من العبيد من الرجال والنساء المسلحين بالسكاكين والفؤوس والهروات التي يستخدموها مع قصب السكر وعدد قليل من البنادق بالخروج متجهين إلى المدينة وقاموا بتدمير الممتلكات في طريقهم، فهرب السكان البيض بطول الطريق مذعورين إلى "نيو أورليانز" فقام الجيش النظامي والقوات المسلحة بمواجهة الثائرين خلال يومين وفرقوهم في معركة منظمة قد استعد لها الطرفان وأسفرت عن قتل ستة وستون شخصًا وبعد ذلك بفترة قليلة تم إعدام القادة الرئيسيين وقدم الثوار الأسرى تفسيرًا لتمردهم ألا وهو رغبتهم فقط في التحرر على حد تعبير أحدهم "لكي نقتل البيض"، ولكن يبدو أنهم تأثروا بنجاح ثورة العبيد في "هايتي".

تم تدبير المؤامرة الكبرى التالية في عام 1822، وقام بها "دنمارك فيسي" وهو عبد كان يعمل نجارًا في "تشارلستون" في "ساوث كارولينا"، وكان قد قام بشراء حريته بعد فوزه بجائزة يانصيب محلية، وكان فيسي قائدًا متكلمًا ويتمتع بحضور وجاذبية، وكان يوبخ السود الذين كانوا يبتعدون عن الرصيف في المدينة للسماح للبيض بالمرور بدلاً منهم، وقد لعب دورًا قياديًا في الكنيسة الميثودية الإفريقية المحلية، وقد عكست المؤامرة التي قام بها الجمع بين التأثيرات الأمريكية والإفريقية والتي تم تداولها في عالم الأطلنطي وتجمعت معًا في ثقافة العبيد، وقد ذكر أحد أتباعه قائلا "لقد درس فيسي الكتاب المقدس دراسة عميقة وحاول أن يبرهن من خلال ذلك أن العبودية والرق مخالفة لتعاليم الكتاب المقدس"، وقد استشهد "فيسي" أيضًا بمقتبسات من بيان الاستقلال، وتأمل في تقارير صحفية حول المناقشات التي تدور داخل الكونجرس بشأن "اتفاقية مزوري" بين مناصري ومناهضي العبودية بشأن التوسع في العبودية في أراضي جديدة، وصاغ

منها شعارات مثل "كل البشر لهم حقوق متساوية، السود مثل البيض"، وكان يقرأ على أتباعه أسباب قصص نجاح ثورة العبيد في هاييتي، وكان التراث الإفريقي حاضرًا في شخصية مساعده "جولا جاك" وهو مشعوذ ديني من أنجولا وكان يدعى قدرته على حماية المتمردين من الإصابة أو القتل، إلا أنه قد تم اكتشاف المؤامرة قبل أن تصل إلى غايتها.

كما هو الحال في العديد من مؤامرات العبيد، فإن الأدلة على مؤامرة "فيسي" كانت متناقضة ومتنازع عليها، وقد أتى معظمها من سلسلة من المحاكمات السرية بحكم المحكمة ولم تسمح للمتهمين في سماع أولئك الذين يشهدون ضدهم، وقد اشتكى حاكم ولاية "ساوث كارولينا" إلى المدعى العام للولاية "روبرت واي هاين" بأن المحكمة قد انتهكت "القواعد المتعارف عليها في الأمم المتحضرة" وذلك لأن من بين المتهمين في هذه القضية عدد من عبيده، فأجاب "هاين" قائلاً "إن محاكمة "رجل أبيض حر" في مثل هذه الظروف بمثابة انتهاك صارخ لحقوقه الأساسية"، ولكنه أضاف قائلا "لكن العبيد لا يتمتعون بمثل هذه الحقوق" لأن كل أحكام دستورنا المتعلقة بالحرية تخص الأحرار فقط"، وفى النهاية تم إعدام خمسة وثلاثون من العبيد والسود الأحرار، من بينهم فيسي وثلاثة عبيد ينتمون لحاكم الولاية وتم نفي عدد مماثل من الولاية.

تمرد نات تيرنر

كان "نات تيرنر" أكثر من اشتهر بين العبيد المتمردين وهو واعظ ومتصوف ديني في مقاطعة "ساوثامبتون" بولاية "فرجينيا" وكان يؤمن بأن الله قد اختاره ليقود انتفاضة السود وقد طاف أرجاء المقاطعة ليقدم القداس والشعائر الدينية، وكان يقول إنه رأى ملائكة سود وبيض يتشاجرون في السماء بينما تمطر السماء دما، وربما على سبيل السخرية اختار "تيرنر" في بادئ الأمر الرابع من (يوليو/ تموز) لعام1831 ليكون موعدًا لتمرده إلا أنه سقط مريضًا في ذلك اليوم المحدد، وفى الثاني والعشرين من (أغسطس/آب) خرج ومعه حفنة من أتباعه ينتقلون من مزرعة إلى أخرى ويقومون بالاعتداء على السكان البيض، وكان غالبية ضحاياهم من النساء والأطفال لأن الكثير من رجال المنطقة كانوا يحضرون أحد اجتماعات الإحياء الديني على حدود "نورث كارولينا"، وبمرور الوقت تمكن الجيش النظامي من إخماد الانتفاضة، وكان قد انضم ما يقرب من ثمانين عبدًا إلى عصابة "تيرنر" وتم قتل ما يقرب من ستين من البيض، وتم إلقاء القبض على "تيرنر" مع سبعة عشر من المتمردين الآخرين وحُكِمَ عليهم بالموت، وعندما سئل قبيل تنفيذ عقوبة الإعدام عما إذا كان نادمًا على ما فعل أجاب قائلا "ألم يُصلب المسيح ؟"

كان تمرد "نات تيرنر" هو الأخير الذي اتصف بأنه واسع النطاق في تاريخ الجنوب، ومثلما كانت مؤامراتا "جابريل" و"فيسي"، وقع تمرد "تيرنر" أيضًا خارج قلب مزارع الجنوب حيث كانت

العبودية تخضع للهيمنة والرقابة الصارمة من البيض، ونظرًا لأنه بدأ مع حفنة قليلة من أتباعه لذلك واجه فرصًا أقل بأن يتم الكشف عنه من قبل البيض أو يتم الغدر به وخيانته من قبل السود بالمقارنة بكلا من "جابريل" و"فيسي"، أثبت تمرده بشكل قاطع أنه في المنطقة التي يتفوق فيها أعداد البيض على أعداد السود ومجتمع البيض مسلحًا وموحدا، فإن العبيد سيكونون في موقف خطير وقاتل إزاء أي مواجهة عنيفة، وأن ميزان القوى في الجنوب لن يتغير إلا بقوة خارجية، ورغم ذلك لا تكاد مقاومة العبيد تختفي، لقد أظهر تمرد "تيرنر" في الحقيقة الارتباط بين التمرد المعلن الصريح وبين أشكال المقاومة الأخرى الأقل حدة، ونظرًا لما حدث على إثر هذه الأحداث تم تداول عددًا كبيرًا من التقارير التي تدور حول السلوك التمردي للعبيد في مزارع وحقول "فرجينيا".

أرسل تمرد "تيرنر" موجات صادمة لكافة أنحاء الجنوب، وقد حذر أحد سكان "فرجينيا" من البيض قائلا "قد يوجد أمثال تيرنر في كل أسرة"، ونتيجة للذعر الذي خلفه هذا التمرد تعرض المئات من العبيد الأبرياء للجلد وتعرض العشرات للإعدام، وللمرة الأخيرة أثار قادة "فرجينيا" مناقشات مفتوحة حول ما إذا كان يجب اتخاذ خطوات للاستغناء عن تلك "المؤسسة المميزة للجنوب" ويقصد بها العبودية، وقد كتبت صحيفة "ريتشموند" قائلة "لقد فتحت دماء تيرنر وضحاياه الأبرياء الأبواب التي كانت مغلقه لخمسين عاما"، لكن الاقتراح بإلزام الولاية بالتحرير التدريجي وإبعاد السود من الولاية لم يحظ بالتصديق من المجلس التشريعي حيث حصل هذا الاقتراح على تأييد كامل في الجزء الغربي من "فرجينيا" حيث نسبة العبيد تمثل أقل من 10 بالمائة من إجمالي عدد السكان، بينما فشل في الحصول على نسبة كافية من الأصوات في المقاطعات الشرقية حيث تتمركز العبودية.

وبدلاً من التحرك نحو تحرير العبيد، أصدر المجلس التشريعي لولاية "فرجينيا" في عام 1832 قرارًا بتشديد أغلال العبودية بشكل أكثر إحكاما، حيث صدرت قوانين جديدة لمنع السود بصفة عامة سواء كانوا عبيدًا أم أحرارًا من العمل كوعاظ (وهو الإجراء الذي ثبت أنه من المستحيل تنفيذه على أرض الواقع)، وتقوية الجيش النظامي ودوريات الحراسة وحظر امتلاك السود المحررين أسلحة نارية إلى جانب حظر تعليم العبيد القراءة، وحذت ولايات جنوبية أخرى نفس الحذو، حيث نشر "توماس آر ديو" الأستاذ بكلية "وليام وماري" في "فرجينيا" كتيبًا واسع التأثير بيَّن مدى سخافة تهجير دفعات من القوى العاملة بالولاية وأصر على القول بأن الولاية تواجه اختيارًا قاسيًا بين إما الإبقاء على العبودية أو تحرير العبيد ودمجهم في مجتمع "فرجينيا"، وكان عدد قليل من الذين ينتقدون العبودية يرغبون في قبول البديل الثاني.

شهد عام 1831 نقطة تحول في بعض الجوانب بالنسبة للجنوب القديم، حيث أطلق البرلمان حملة لإلغاء العبودية في كافة أرجاء الإمبراطورية البريطانية (وهي العملية التي انتهت في عام 1838) مما أدى إلى زيادة عزلة الجنوب عن العالم الغربي؛ لقد وقع تمرد تيرنر بعد أشهر قليلة فقط من ظهور جريدة ذا لايبراتور (المحرر)، والتي أصدرها وليام لويد جاريسون في ولاية بوسطن (سنتناولها بالنقاش في الفصل التالي)، وذكرت أن العبودية الأمريكية تواجه أعداء داخل وخارج الجنوب؛ وهكذا تغلغلت النقاشات المؤيدة للعبودية بشكل متزايد في الحياة الفكرية والسياسية للجنوبيين بينما كان يتم قمع الأصوات المعارضة، حتى أن بعض الولايات اعتبرت أن الانتماء لأي جمعية مناصرة لإلغاء العبودية جريمة نكراء، مع قيام مجموعات من الغوغاء والبلطجية بطرد منتقدي العبودية من منازلهم؛ لقد أفرز رد فعل الجنوب الهائل أحد أكثر أشكال القمع التام لحرية التعبير في تاريخ أمريكا حتى مع ظهور الحركات الإصلاحية في الشمال التي أدانت العبودية وقدمتها على أنها مناقضة للمسيحية والقيم الأساسية لأمريكا، واحتدام الجدل الداخلي حول مؤسسة العبودية المميزة للجنوب، وأغلق المجتمع الجنوبي أبوابه دفاعًا عن العبودية.

أصوات الحرية

من خطاب أرسله جوزيف تابر إلى جوزيف لونج (1840)

لا أحد يعلم كم عدد العبيد الذين نجحوا في الهروب من العبودية قبل الحرب الأهلية، وقد استوطن بعضهم مدنًا في الشمال مثل "بوسطن"، و"سينينتي"، و"نيويورك"، ولكن نظرًا لأن الدستور ينص على أنه ينبغي على العبيد الهاربين أن يعودوا للعبودية مرة ثانية، استمر عدد منهم في التوجه شرقًا حتى وصلوا إلى كندا.

كان "جوزيف تابر" من بين العبيد الذين نجحوا في الهروب، وهو عبد من مقاطعة "فريدريك" في "فرجينيا"، وقد فر هاربًا في عام 1837 إلى "بنسلفانيا" مصطحبًا زوجته وأطفاله، وبعد ذلك بعامين علم بوجود أحد الذين يقومون بإلقاء القبض على العبيد بالقرب منه، لذا فرت العائلة كلها إلى كندا، وفى عام 1840 كتب تابر لأحد معارفه من البيض في "فرجينيا" ليقص عليه بعضًا مما مر به من تجارب.

والنص الوارد من الإنجيل الذي أشار إليه "تابر" هو "قال الرب لعبادة سأقترب منكم لمحاكمتكم وسوف أكون شاهدًا سريعًا ضد السحرة وضد الزناة وضد الذين يحلفون كذبًا وضد من يضطهد الأجير والأرملة واليتيم والذي يحرم الغريب من حقه والذي لا يخافني".

سيدي العزيز

أنتهز الفرصة لكي أحيطك علمًا بأنني الآن في أرض الحرية وفى صحة جيدة... ومنذ أن أصبحت في ظل سيادة الملكة وأنا مطمئن النفس، نعم بالتأكيد راضي كيفما أراد الله للإنسان أن يكون، حيث خلقنا كلنا أحرارًا ومتساوين، وهذا هو القانون الصحيح وليست قوانين الجنوب التي تجعل من الإنسان الذي خُلق على صورة الرب في مستوى واحد مع البهائم، ترى ماذا سيكون مصير البشر وأين سيقفون في يوم الحساب؟ أليست الآية الخامسة من الفصل الثالث من سفر ملاخي تقول إنه ينبغي على كل طاغية أن يندم على ما قدمه من شر ويتوقف عن اضطهاد الناس ويمنحهم حريتهم ...

لدينا هنا مدارس جيدة وكل السود يذهبون للمدارس، كما أن ابنى إدوارد، الذي سيتم السادسة من عمره في (يناير/ كانون الثاني) المقبل، يستطيع الآن القراءة وأنا عازم على إبقائه في المدرسة حتى يصبح عالمًا كبيرا.

لقد استمتعت كثيرًا خلال الشهر الواحد الذي قضيته هنا على أرض الحرية أكثر مما تمتعت به في حياتي كلها التي قضيتها على أرض العبودية، حيث أجلس الآن أنا وزوجتي في جلسة مريحة تغمرنا السعادة لأننا نعلم أنه ليس ثمة أحد يمكن أن يكدر صفونا أو أن يخيفنا، وأتقدم بدعائي لله أن يحفظ الملكة فيكتوريا ويكرمها في هذه الدنيا ويتوجها بالمجد في العالم الآخر.

خادمكم المخلص المطيع،

جوزيف تابر

من قواعد الزراعة في المناطق الجبلية (1838)

كان بنيت إتش بارو من ملاك العبيد الأثرياء في لويزيانا، وقد اعتبر نفسه نموذجًا للمزارع الأبوي الذي يعامل عبيده معاملة جيدة - وفقًا لمعاييره، وهو أحد المدافعين عن وضع نظام صارم للمزارع وقام بوضع سلسلة من القواعد المتشددة وأوصى بها الملاك الآخرين.

لا يجوز لأي زنجي أن يبرح مكانه دون إذن ولا أن يتزوج من خارج المزرعة.

لا يجوز أيضًا لأي زنجي أن يشترى أي شيء بدون إذن صريح مني، لقد احتفظت دائمًا بنظام لا يسمح لعبيدي أبدًا بأي وقت إلا وهم مسئولون وعلى استعداد لتلبية ندائي دائمًا دون تساؤل عما إذا كان الوقت مناسبًا أم لا، وأنا متمسك بهذه القاعدة على أساس المصلحة والحق، فعملية تأمين المزارع نفسها تتطلب ممارسة السيطرة العامة والموحدة على الناس الذين يقومون بالعمل فيها... يجب عليك أن تجعل العبد يشعر بالراحة وبأنه في بيته بقدر الإمكان وأن توفر له كل ما هو لازم وضروري لإسعاده - يجب أن تمنحه هذا بنفسك وبهذه الطريقة تجعله يعتمد عليك بشكل كامل، لأنك إذا ما جعلت العبد يفهم مرة أنه يجب أن يعمل من أجل أن يعول نفسه، فإنك بذلك تعطيه حجة قوية لا يمكن إنكارها بأن من حقه أن يستقطع بعض الوقت لنفسه وحينئذ يشعر بالإحباط والاستياء إذا ما حدث أن تعديت على بعض وقته تحت ضغط الضرورة أو لسبب آخر.

إذا ما قمت بتوظيف عامل لكي يؤدى حصة معينة من العمل كل يوم ووافقت على دفع مبلغ معين مقابل أدائه العمل المتفق عليه عندما ينتهي منه، فإنني بذلك لم يعد لي بالطبع أي سلطة عليه أو على وقته أو على خدماته بعد ذلك الوقت - ولكن كيف سيكون الوضع مختلفًا في حالة إذا ما كان عبدا... إذا ما قمت أنا بتزويد عبدي بكل الحاجات الأساسية للحياة ودونما

أدنى هم من جانبه - وإذا ما قمت برعايته أثناء مرضه مهما طالت مدته، ودفعت نفقاته أثناء ذلك على الرغم من أنه لا يقوم بأي عمل طوال هذه الفترة - وإذا ما قمت بالإنفاق عليه في شيخوخته... أليس لي كامل الحق في وقته؟

لا توجد قاعدة مما ذكرت أهم من تلك التي تتعلق بزواج الزنوج من خارج المزرعة... إن هذا يخلق نوعًا من الإحساس بالاستقلالية والبقاء بعيدًا عن سيطرة السادة لبرهة من الوقت.

لا تدع أبدًا أي شخص يتحدث إلى عبيدك، فليس هناك ما هو أكثر إضرارًا لك من ذلك.

أسئلة:

1- كيف يقلب خطاب تابر الخطاب الذي كان شائعًا بين الأمريكيين البيض الذي كان يرى أن الولايات المتحدة أرضًا للحرية ويرى أن الإمبراطورية البريطانية تفتقد للحرية؟

2- لماذا يشعر "باروو" بأن عبيده مدينين له بالطاعة المطلقة؟

3- إلى ماذا تشير هذه الوثائق فيما يتعلق بما إذا ما كان السادة والعبيد يتقاسمون نفس القيم؟

أسئلة المراجعة:

1- نظرًا لأن الاستثمارات الاقتصادية التي يمثلها العبيد تجاوزت قيمة المصانع والسكك الحديدية والبنوك مجتمعة في الأمة بحلول عام 1860، اشرح مدى أهمية العبودية في الاقتصاد الوطني وفي بروز الولايات المتحدة كقوة عظمى.

2- بينما استاء بعض فقراء البيض في الجنوب من "هيمنة مالكي العبيد"، أيد معظم البيض مؤسسة العبودية وقبلوا سطوة طبقة المزارعين. لماذا استمر "التيار الشعبي العام" في تأييد العبودية؟

3- صف مفهوم روح الأبوية الذي تبناه المزارعون، واشرح كيف أنه كان قناعًا ومبررًا في الوقت ذاته للحقيقة الوحشية للعبودية.

4- أوضح العوامل الرئيسية التي استخدمها المدافعون عن العبودية، وتلك النقاط التي استهدفت بصفة خاصة الجمهور من غير سكان الجنوب.

5- قارن بين العبيد في الجنوب القديم مع غيرهم من العبيد في كل مكان آخر في العالم، مع التركيز على الحالة الصحية والنظام الغذائي وفرص نيل الحرية.

6- وضح الفرق بين العمالة الجماعية والعمالة بالمهمة بالنسبة للعبيد، ووضح كيف أن مهام العبيد تنوعت بتنوع المناطق في الجنوب القديم.

7- طور العبيد الأمريكيون – الأفارقة ثقافتهم الخاصة بهم. ما هي المصادر المختلفة لهذه الثقافة وكيف أنها تنوعت من منطقة لأخرى؟

8- اذكر الأشكال المختلفة لمقاومة العبودية، مع توضيح أيها كان الأكثر شيوعًا والأكثر فاعلية والأكثر ظهورا؟

أسئلة الحرية:

1- كيف كان العبيد، من منظور "فريدريك دوجلاس"، أقرب لمثاليات مؤسسي أمريكا من حيث الرغبة في الحرية بالمقارنة بالبيض الذين كانوا يحتفلون في الرابع من (يوليو/ تموز) بينما لا يزالون يؤيدون العبودية؟

2- كيف أثرت العبودية على حياة جميع الأمريكيين، سواء كانوا سودًا أم بيضا؟

3- كيف تعامل المدافعون عن العبودية مع الأفكار التي مفادها أن الحرية والمساواة هي حقوق طبيعية؟

4- ما هي القيود التي كانت مفروضة على حقوق السود الأحرار في الجنوب قبل الحرب؟

5- كيف كان العبيد يفكرون في الحرية؟ وما هي المصادر التي استقوا منها هذه المعتقدات؟

جدول المراجعة		
تمردات العبيد والجنوب القديم		
التمرد	التاريخ	النتيجة
تمرد جابريل	1800	ولاية فرجينيا تحظر على السود التجمع أيام الأحد دون إشراف من البيض، وتضع قيودًا على تحرير السادة الطوعي لعبيدهم.
مؤامرة دنمارك فيسي	1822	إعدام فيسي في "ساوث كارولينا" وتضييق الخناق على السود المحررين.
تمرد نات ترنر	1831	هو التمرد الوحيد واسع النطاق في الجنوب، ونتج عنه زيادة إحكام قبضة "فرجينيا" بشكل أكبر على العبودية.
الإيميستاد	1839	نال العبيد على متن السفينة حريتهم مما أدى إلى ازدياد مخاوف الجنوب من مهاجمة السلطة الفيدرالية للعبودية.

الفصل الثاني عشر

1787	إنشاء أول مجتمع لطائفة "الشيكر" الدينية في المنطقة الشمالية من ولاية نيويورك
1816	إنشاء جمعية الاستعمار الأمريكية
1824	إنشاء جمعية الأوينيين (أتباع روبرت أوين) في مدينة نيو هارموني
1826	أنشاء جمعية الاعتدال الأمريكية
1827	أنشاء أول جريدة للسود في الولايات المتحدة، جريدة الحرية
1829	دعوة دافيد وولكر للمواطنين الملونين في العالم
1831	ظهور جريدة "المُحرر" لويليام لويد جاريسون للمرة الأولى
1833	أنشاء الجمعية الأمريكية لمناهضة العبودية
1833	دعوة ليديا ماريا تشايلد لصالح تلك الطبقة من المواطنين الأمريكيين التي تُعرف باسم الأفارقة
1834	تأسيس الجمعية النسائية للإصلاح الأخلاقي
1837	جمعية هارييت مارتينو في أمريكا
	مقتل إيليا لفجوي
1839	كتاب "حقيقة العبودية" لتيودور ويلدز
1841	تأسيس "جمعية بروك فارم" على أيدي أتباع مذهب التسامي في نيو إنجلاند
1845	كتاب مارجريت فولر "المرأة في القرن التاسع عشر"
1848	تأسيس جون هامفري نويز لجماعة أونيدا (الشعب الأمريكي الأصلي)
	إبرام اتفاقية سينيكا فولز
1852	كتاب "كوخ العم توم" لهارييت بيتشر ستو
1852	خطاب فريدريك دوجلاس " ما الذي يُمثله الرابع من يوليو للعبيد؟"
1860	إنشاء نظام المدارس المدعومة من الضرائب في جميع الولايات الشمالية

عصر الإصلاح، 1820-1840

دوافع الإصلاح

المجتمعات المثالية

أتباع طائفة "الشيكر" الدينية

رحلة المورمون

أونيدا (الشعب الأمريكي الأصلي)

المجتمعات الدنيوية

الأوينيون

الدين والإصلاح

حركة الاعتدال

معارضو الإصلاح

الإصلاحيون والحرية

اختراع حق اللجوء

المدرسة المشتركة

حملة مناهضة العبودية

الاستعمار

السود والاستعمار

إلغاء العبودية بقوة السلاح

ظهور الحامية

نشر رسالة مبدأ إلغاء تجارة الرقيق

العبودية والإقناع الأدبي والأخلاقي

دعاة إلغاء العبودية وفكرة الحرية

رؤية جديدة لأمريكا

مبدأ إلغاء تجارة الرقيق البيض والسود

الدعاة السود لإلغاء العبودية

إلغاء تجارة العبيد والعنصرية

العبودية والحرية الأمريكية

السادة أصحاب الممتلكات والمكانة الاجتماعية

الرق والحريات المدنية

أصول الحركة النسائية

ظهور فكرة المرأة كشخصية عامة

المرأة وحرية التعبير

حقوق المرأة

الحركة النسائية والحرية

المرأة والعمل

عبودية الجنس

"الحرية الاجتماعية"

انقسام دعاة إلغاء العبودية

أسئلة تركيز:

- ما هي الحركات الرئيسية والأهداف المرجوة من إصلاح ما قبل الحرب الأمريكية الأهلية؟
- ما هي الأنواع المختلفة لإلغاء العبودية؟
- كيف واجه إلغاء تجارة الرقيق عوائق تحقيق المساواة العنصرية وحرية التعبير؟
- ما هي المصادر المتنوعة لحركة حقوق المرأة ما قبل الحرب الأمريكية الأهلية وأهميتها؟

من بين كثيرين من الأمريكيين الذين كرسوا حياتهم لحملة مناهضة العبودية كانت هناك قلة تمتعت بالإيثار أو الشجاعة على غرار آبي كيلي، وقد وُلِدَت في ولاية "ماساشوستس" في عام 1811 وتلقت تعليمها في أحد مدارس "الكويكر" الداخلية في "رود آيلاند"، وبينما كانت تعمل كمدرسة في "لين" بولاية "ماساشوستس" انضمت إلى الجمعية النسائية لمناهضة العبودية على غرار آلاف النساء الأخريات من الشمال وانخرطت في حركة إلغاء العبودية، وبدأت في عام 1838 إلقاء خطب عامة حول العبودية، وقد كبدتها محاضرتها الأولى التي ألقتها في الخارج عناءً كبيرًا جدًّا، حيث إن التقارير التي تُفيد بأنه دعاة إلغاء العبودية يدعون إلى دمج الأعراق– أي إقامة علاقات جنسية بين البيض والسود – أثارت غضب سكان فيلادلفيا فاقتحموا قاعة الاجتماع وأحرقوها عن بكرة أبيها.

ولقد سافرت كيلي طوال عقدين في جميع أنحاء الشمال ودأبت على التحدث يوميًّا تقريبًا في الكنائس والقاعات العامة والمراكز المناهضة للعبودية عن "القضية المقدسة لحقوق الإنسان"، وقد أثبتت حياتها المهنية على الترابط بين حركات الإصلاح التي شهدتها تلك الحقبة، إلا أن جهودها لم تقتصر على السعي لإلغاء العبودية، ولكنها كانت نشطة في المنظمات الداعية للسلام التي تعارض استخدام القوة لتسوية المنازعات والحروب، وكانت رائدةً في المرحلة الأولى من النضال من أجل حقوق المرأة، وقد كتبت قائلة "لقد تبين لنا بالتأكيد أثناء سعينا لإلغاء القيود الحديدية عن العبيد أننا نحن النساء كنا دون ريب مقيدات بالأغلال أيضًا، ولم تكن "كيلي" أول امرأة أمريكية تتحدث في الأماكن العامة، ولكنها سافرت لمسافات أطول وأبعد وألقت خطبًا أكثر من أي امرأة أخرى كانت تخطب بين العامة، ولقد تحدت بجسارة الافتراض السائد في تلك الحقبة بأن المنزل هو "مكان" المرأة، وقد علقت على ذلك مناصرة أخرى لحقوق المرأة، "لوسي ستون"، بقولها "لقد حققت لنا كيلي أكثر من أي شخص آخر الحق في حرية التعبير."

كانت حياة "آبي كيلي" الخاصة غير تقليدية تمامًا كما كانت مسيرتها العامة، فقد حظيت بزواج سعيد وطويل مع أحد دعاة إلغاء العبودية ذوي الإرادة القوية، "ستيفن س. فوستر"، الذي كان يقاطع عظات الأحد بالكنيسة للتنديد بالقساوسة الذين فشلوا في إدانة العبودية، وأنجبت طفلة في عام 1847، ولكن سرعان ما عادت إلى إلقاء المحاضرات، وعندما واجهت الانتقادات لأنها لم تكرس نفسها للعناية بطفلتها الرضيعة أجابت بقولها "لقد فعلت هذا من أجل الأمهات اللائي تباع أطفالهن الرضع ويبعدون عنهن، وأغلى إرث يمكنني أن أتركه لطفلتي هو بلد حر."

الدافع إلى الإصلاح

كتب "رالف والدو إمرسون" في عام 1841 كتابه "في تاريخ العالم" قائلا "لم تكن الآمال معقودة على فكرة الإصلاح كما هو الحال في الوقت الحالي"، وكان السعي لإلغاء العبودية مجرد أحد الجهود المتعددة المبذولة في تلك الحقبة لتحسين المجتمع الأمريكي، وقد لاحظ "ألكسيس دي توكفيل" خلال زيارته في أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر كيف نظم الأمريكيون في ظل غياب حكومة وطنية قوية أنشطة سياسية واجتماعية من خلال الجمعيات التطوعية، والكنائس، والمنظمات الأخوية، والنوادي السياسية وما شابه ذلك، وكان دافع الإصلاح أحد أسباب انتشار هذه الجماعات التطوعية، حيث أسس الأمريكيون المنظمات التي تعمل على حظر تصنيع وبيع الخمور وإنهاء وسائل الترفيه العامة وتسليم البريد يوم الأحد، وتحسين الأوضاع في السجون وتوسيع التعليم العام، والارتقاء بأحوال العمال بالأجرة وإعادة تنظيم المجتمع على أساس التعاون وليس على أساس النزعة الفردية التنافسية.

وقد عملت جميع هذه المجموعات تقريبًا على تحويل أنظار الرأي العام إلى قضيتهم، فأرسلوا الخطباء وجمعوا التوقيعات على العرائض والالتماسات ونشروا الكتيبات، ونشط العديد من الإصلاحيين على غرار "آبي كيلي" في أكثر من حملة وازدهرت بعض حركات الإصلاح في جميع أنحاء البلاد مثل حركات تقييد تناول الخمور والتخفيف من معاناة المكفوفين والمجانين، بينما كانت الحركات الأخرى بما في ذلك حركات حقوق المرأة واتحاد العمال وإصلاح التعليم ضعيفة أو غير موجودة في الجنوب، حيث ارتبطوا على نطاق واسع بمشاعر مناهضة العبودية. كان الإصلاح بمثابة حملة دولية، حيث عبر دعاة السلام والاعتدال وحقوق المرأة ومناهضة العبودية المحيط الأطلسي بانتظام لتعزيز ودعم قضيتهم.

وقد انتهج الإصلاحيون تشكيلة واسعة متنوعة من الأساليب لتحقيق التغيير الاجتماعي، حيث اعتمد البعض على "الإقناع بالحجج الأخلاقية والأدبية" لتحويل أنظار الناس إلى قضيتهم، بينما سعى آخرون كأمثال معارضي "شراب الشيطان" إلى استخدام نفوذ الحكومة لإجبار المخطئين على تغيير منوال حياتهم، في حين قرر بعض الإصلاحيين الانسحاب تمامًا من المجتمع الكبير وإقامة مستوطنات تعاونية خاصة بهم، وكان كل هؤلاء يأملون في تغيير الحياة الأمريكية لخلق "المدينة الفاضلة" على الأرض، حيث يمكنهم عن طريق ضرب المثل إثبات تفوق أسلوب الحياة الجماعي، وبالرغم من أن الإصلاحيين لم يصلوا إلى ما يقارب أغلبية السكان حتى في الشمال، ولكن كان لهم تأثير عميق على السياسة والمجتمع على حد سواء.

المجتمعات الفاضلة

تم إنشاء حوالي 100 مجتمع إصلاحي في عقود ما قبل الحرب الأهلية، وأطلق عليها المؤرخون اسم "المجتمعات الفاضلة" المستمدة من رواية "المدينة الفاضلة" لتوماس مور" في القرن السادس عشر، والتي حددت قوام المجتمع الفاضل (أصبحت الكلمة تنطوي ضمنًا أيضًا على التلويح بأن تلك الخطط غير عملية ويستحيل تنفيذها)، وقد اختلفت هذه المجتمعات بشكل كبير في بنيتها ودوافعها، حيث خضع البعض لانضباط صارم يفرضه قائد واحد بينما يعمل البعض الآخر بطريقة ديمقراطية، وقد نشأت أغلبها من عقيدة دينية ولكن كان البعض الآخر مستوحى من الرغبة العلمانية في مواجهة التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي أحدثتها ثورة السوق.

بدأت جميع المجتمعات تقريبًا في إعادة تنظيم المجتمع على أساس تعاوني على أمل استعادة الوئام الاجتماعي إلى عالم تزايدت فيه النزعة الفردية ولتضييق الفجوة الآخذة في الاتساع بين الأغنياء والفقراء، وبفضل جهودهم دخلت عبارة "الاشتراكية" و "الشيوعية" في لغة السياسة وهذان اللفظان يعنيان التنظيم الاجتماعي الذي يملك المجتمع في ظله الأصول والممتلكات المُربحة بدلاً من أفراد بعينهم، كما حاولت معظم المجتمعات الفاضلة أيضًا إيجاد بدائل للعلاقات التقليدية بين الجنسين وأنماط الزواج حيث حظر بعضهم العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة تمامًا في حين سمحت مجتمعات أخرى بتغيير شركاء الحياة حسب الرغبة، ولكنها أتفقت جميعًا تقريبًا على وجوب أن يقترن إلغاء الملكية الخاصة بوضع حد لملكية الرجال للنساء.

طائفة شيكر الدينية

جذبت المجتمعات الدينية الأشخاص الذين كانوا يسعون إلى العثور على ركن منعزل بعيدًا عن مجتمع متشبع بالخطيئة، و "ملاذًا من شرور هذا المجتمع الذي تغلغلت فيه المفاسد في كل أركانه"، كما وصفها مؤسسو "زور" في ولاية "أوهايو"، ولكن طائفة "شيكر" كانت أنجح تلك المجتمعات الدينية وكان لها أيضًا تأثير كبير على العالم الخارجي، وقد ضمت مستوطنات طائفة شيكر الجماعية التي امتدت من ولاية "مين" إلى ولاية "كنتاكي" أكثر من خمسة آلاف عضو في ذروة مجدها خلال الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وقد تأسست في أواخر القرن الثامن عشر على يد ابنة أحد الحدادين الإنجليز، الأم آن لي، التي أصبحت واعظة دينية وادعت بأن المسيح أمرها بالهجرة مع أتباعها إلى أمريكا، وقد تم إنشاء أول مجتمعات شيكر في شمال ولاية نيويورك في عام 1787.

كان أتباع مجتمعات شيكر يؤمنون بأن للرب شخصية "مزدوجة" ذكرًا وأنثى، ومن ثَمَّ فالجنسان متساويان من الناحية الروحانية، وكان عملهما يحظى بنفس القدر من الأهمية (على الرغم من أنه كان يُعين لكل رجل "أخت" لتتولى حياكة وغسيل ملابسه)، وقد شكلت "عفة

العذرية أحد أركان الإيمان لدى أتباع تلك المجتمعات ولذلك هجروا تمامًا الحياة العائلية التقليدية وعاش الرجال والنساء بشكل منفصل في أبنية كبيرة تشبه المدن الجامعية ويتناولون الطعام في غرف الطعام المشتركة، وازدادت أعدادهم من خلال جذب المتحولين إلى عقيدتهم وتبني الأطفال من دور الأيتام بدلاً من أساليب الزيادة الطبيعية، وقد زار العديد من غير المنتمين لهم مجتمعاتهم لمشاهدة الشعائر والقداسات الدينية التي منحت الجماعة اسمها والتي يشارك فيها الرجال والنساء منفصلين حسب نوعهم في رقص جنوني، وعلى الرغم من أنهم رفضوا فكرة جمع الممتلكات الفردية الخاصة، إلا أنهم حققوا نجاحًا اقتصاديًا ملحوظًا فقد كانوا من بين الأوائل الذين سوّقوا بذور الخضروات والزهور والأدوية العشبية تجاريًا وربوا الماشية للمتاجرة بها، وما زالت قطع الأثاث الجميلة التي عملوا على نحتها تلقى إعجابًا واسع النطاق في الوقت الراهن.

رحلة جماعة المورمون

جلبت هجرة أخرى الآلاف من أعضاء كنيسة يسوع المسيح للقديسين المعاصرين أو جماعة المورمون إلى ما يسمى الآن ولاية أوتا، وطائفة المورمون هي إحدى الطوائف الدينية العديدة في تلك الحقبة والتي كانت تهدف إلى تحقيق مملكة الله على الأرض، وقد أسس هذه الطائفة أحد المزارعين الشباب، جوزيف سميث، في ولاية نيويورك في العشرينيات من القرن الثامن عشر، وقد زعم أن هناك مالكًا أرشده إلى مجموعة من الصفائح الذهبية تكسوها كتابة غريبة والتي ترجمها على أنها كتاب طائفة المورمون، وادعت الطائفة أن الإسرائيليين القدامى قد هاجروا إلى العالم الجديد وأصبحوا أسلاف الهنود الأمريكيين.

وقد أثار النفوذ المطلق الذي مارسه سميث على أتباعه، بالإضافة إلى رفض المورمون الفصل بين الكنيسة والدولة، مخاوف العديد من المناطق المجاورة، وأكثر ما أثار غضب مجتمع العامة كان ممارسة المورمون لتعدد الزوجات الذي يسمح للرجل بأن يقترن بأكثر من زوجة، الأمر الذي يُشكل تنصلاً من تعاليم المسيحية التقليدية والأخلاق السائدة في القرن التاسع عشر، مما دفع جماهير الغوغاء إلى طرد سميث وأتباعه خارج نيويورك، وولاية أوهايو، وولاية ميسوري قبل أن يستقروا في نوفو بولاية إلينوي في عام 1839 حيث كانوا يترقبون الظهور الثاني للمسيح، واُعتقِل سميث هناك بعد مُضي خمسة سنوات بتهمة التحريض على أعمال شغب دمرت إحدى الصحف المناهضة لطائفة المورمون، ثم أُغتيل سميث بينما كان في السجن ينتظر محاكمته على يد مجموعة من المقتحمين، ثم خلفه بريجهام يونج كقائدٍ لطائفة المورمون وقاد أكثر من 10.000 من أتباعه عبر السهول العظمى وجبال روكي الصخرية إلى شواطئ بحيرة الملح العظمى، فيما يُعرَف

الآن بولاية "أوتا"، بحثًا عن ملاذٍ يمكنهم فيه ممارسة معتقداتهم دون منغصات، وقد كشفت معاناة "المورمون" عن حدود التسامح الديني وقبول الغير في أمريكا في القرن التاسع عشر.

الأونيدا (الشعب الأمريكي الأصلي)

ثمة طائفة أخرى واسعة النفوذ ومثيرة للجدل، ألا وهي طائفة الأونيدا التي أسسها ابن أحد أعضاء الكونجرس الأمريكي، "جون همفري نويز" في شمال مدينة نيويورك في عام 1848 وهو من مواليد ولاية "فيرمونت"، وبعد تخرجه من كلية "دارتموث"، درس القانون ولكن سرعان ما مر بصحوة دينية وقرر أن يصبح قسيسًا وحمل على عاتقه رسالة المبشرين المسيحيين التي تُفيد بأنه يمكن للإنسان أن يبلغ الكمال الأخلاقي بدلاً من التطرف غير المألوف وصرَّح في خطبه الدينية أنه أصبح وأتباعه مثاليين لدرجة أنهم بلغوا أعلى درجات "صفاء القلب" أو التنزه عن الخطيئة.

أنشأ "نويز" وأتباعه في عام 1836 مجتمعًا صغيرًا في "بوتني" بولاية "فيرمونت"، وعلى غرار طائفة "شيكر" استغنى "نويز" عن فكرة الملكية الخاصة وترك الزواج التقليدي، ولكن على عكس فكرة العزوبية التي انتهجتها طائفة "شيكر" الدينية؛ نصح "نويز" جميع أعضاء طائفته بتكوين عائلة واحدة مقدسة يتعامل فيها جميع أفرادها على قدم المساواة، وساءت سمعة طائفته جراء ما يُطلق نويز عليه "الزواج المعقد" الذي يعني أنه يمكن لأي رجل أن يدعو فيه أي امرأة لإقامة علاقات جنسية ولها حق رفض دعوته أو قبولها والتي سيتم تسجيله عندئذٍ في دفتر السجلات العامة، وكانت فكرة "المشاعر الخالصة" هي الخطر الكبير الذي كان يرى "نويز" أنه يقضي على الوئام بين أفراد طائفته.

بعد أن وجه إليه المسئولون المحليون تهمة ارتكاب الزنا، نقل نويز طائفته إلى "أونيدا" في عام 1848 حيث عاش هناك حتى عام 1881، وكانت بيئة ديكتاتورية خالصة، فلكي يُصبح المرء فردًا في الجماعة كان عليه أن يثبت إجادته لتعاليم "نويز" الدينية وأن يحيا وفقًا لقواعده، وقد راقب الأفراد بعناية سلوك بعضهم بعضًا وانتقدوا علنًا الأشخاص الذين يخالفون قواعد "نويز"، وبحلول ستينيات القرن التاسع عشر كانت هناك لجنة تحدد أي الأزواج يمكنهما إنجاب أطفال - كأحد الأمثلة المبكرة لتحسين النسل ضمن جهود تحسين الجنس البشري عن طريق تنظيم الإنجاب.

الطوائف الدنيوية

تبدو الطوائف الفاضلة كالأونيدا للمراقبين من الخارج وكأنها حالة من "العبودية الطوعية"، ولكن نتيجة لتفاني أفرادها الإيثاري للتعاليم والقواعد التي يرسيها قائدهم، غالبًا ما تحقق تلك الطوائف ذات التوجه الروحاني البقاء لأمدٍ طويل جدًا حيث ظلت طائفة "الشيكر" الدينية قائمة

حتى القرن العشرين، في حين نزعت الطوائف ذات التوجه الأكثر دنيوية إلى المعاناة من انقسامات داخلية ومن ثمَّ استمرت لفترات أقصر بكثير.

تأسست "مزرعة بروك" غير بعيد عن بوسطن على أيدي أتباع مذهب التسامي في نيو إنجلاند في عام 1841، حيث أعربوا عن أملهم في إثبات أنه يمكن أن يتعايش العمل اليدوي والفكري في وئام، وأقاموا مجتمعًا يعتمد جزئيًا على أفكار المصلح الاجتماعي الفرنسي "شارل فورييه" الذي وضع تصورًا لترتيبات العيش والعمل الجماعي المشترك مع الاحتفاظ بالملكية الخاصة في نفس الوقت، ولقد حدد مخطط "فورييه" لمجموعات الأفراد الذين تربطهم صلة وثيقة ببعضهم البعض، والتي أطلق عليها مستوطنات، كل شيء بأدق التفاصيل بدءًا من عدد السكان (2,000) إلى مقدار الدخل الذي سيتم تحصيلة عن طريق فرض رسوم دخول على الزائرين، وكانت مزرعة بروك تشبه جامعة مصغرة مثيرة حيث كان يُخصص وقت الفراغ فيها للموسيقى والرقص وقراءات أعمال الدراما والمناقشات الفكرية، إلا أنها جذبت في الغالب الكتاب والمعلمين والقساوسة الذين كان بعضهم يكره العمل في المزرعة، وقد اشتكى كاتب الروايات "ناثانيال هاوثورن" الذي أقام فيها لبعض الوقت من أنه اضطر إلى جرف السماد، وتم حلّ مزرعة بروك بعد بضع سنوات وطرح هاوثورن رؤية مثيرة للشك حول الحياة هناك في روايته "الرومانسية في مجتمع بليثيدالي" التي صدرت في عام 1852.

الأوينيون (أتباع روبرت أوين)

يُعد "روبرت أوين" واحدًا من أهم دعاة إقامة المجتمعات المشتركة (أي الشخص الذي يخطط للعيش أو يعيش في مجتمع تعاوني)، وهو بريطاني كان يمتلك مصنعًا وعندما أثار فزعه تدهور حال العمال في بداية الثورة الصناعية عمل على إنشاء قرية صناعية نموذجية في "نيو لانرك" في "أسكتلندا"، تجمع ما بين القواعد الصارمة للانضباط في العمل، والسكن المريح، والتعليم العام المجاني؛ واستطاع العاملين لديه البالغ عددهم 1.500 شخص أن يجعلوا من قريته الصناعية أكبر مركز لتصنيع القطن في العالم في حوالي عام 1815، وكان لديه قناعة بأن مصلحة الأغنياء والفقراء والحكام والمحكومين في الحقيقة واحدة، وبناء على ذلك، سعى إلى أن تكون تلك النزعة الجماعية كوسيلة سلمية لضمان حصول العمال على القيمة الكاملة نظير عملهم، واشترى في عام 1824 مجتمع "هارموني" في إنديانا الذي أسسه في الأصل الزعيم الديني البروتستانتي الألماني "جورج راب" الذي هاجر مع أتباعه إلى أمريكا في بداية القرن التاسع عشر، وأنشأ هناك أوين "نيو هارموني" الذي كان يأمل أن يخلق من خلاله عالم أخلاقي جديد.

وقد أعلن أوين أن شخصية المرء بدون استثناء تتشكل من أجله، وقد يتغيّر الأفراد من

خلال تغيير الظروف التي يعيشون فيها، ويتم في مخططه فصل الأطفال عن رعاية آبائهم في سن مبكرة ليتلقون التعليم في المدارس، حيث يتم تدريبهم على إخضاع الطموح الفردي للمصلحة العامة، كما دافع عن حقوق المرأة ولا سيما حقها في الحصول على التعليم وحقها في الطلاق، ووعد النساء في مجتمع نيو هارموني بأنهن لن يظللن عبيدًا لأزواجهن ولا للمفاهيم الخاطئة حول الاختلافات الفطرية بين الجنسين.

غاب الانسجام عن المقيمين في مجتمع "نيو هارموني"، فقد تنازعوا على كل شيء بدءًا من دستور المجتمع إلى توزيع الممتلكات، وعاشت مستعمرة "أوين" لبضع سنوات فقط ولكنّها أثرت تأثيرًا كبيرًا على الحركة العمالية ودعاة إصلاح التعليم ومناصري حقوق المرأة، ولاقت رؤيته القبول لدى الاعتقاد الأمريكي المنتشر على نطاق واسع والقائل بأنه يمكن إقامة مجتمع في العالم الجديد يتساوى فيه الأفراد.

كانت المجتمعات العلمانية مختلفةً تمامًا عن نظام "أوين" المخطط له، ولم تدم طويلاً وأسسها أحد الفوضويين الأمريكيين الذين ظهروا حديثًا، ويدعى "يوشيا وارن" (يعني شخص يعتقد أن جميع المؤسسات التي تمارس السلطة على الأفراد، بما في ذلك الحكومة، غير شرعية)، وأقام مدينة فاضلة في "أوهايو" وفي موقع "نيويورك" حاليا، حيث أنشأ المستوطنات الطوعية الغير منظمة، وعلى غرار المجتمعات الجماعية الأخرى حاول "وارين" معالجة أسباب الاضطرابات العمالية وعدم مساواة المرأة بالرجل، وفي مسعاه لحل مشكلة العمال أنشأ مخازن يتم فيها تبادل السلع لقاء حجم العمل المبذول في إنتاجها، ومن ثَمَّ حال هذا دون مشاركة الوسطاء كالمصرفيين والتجار في تقاسم دخل المزارعين والعمال والمصنعين الذي يجنونه بشق الأنفس، وكان الزواج في مجتمعات "وارين" ترتيبًا طوعيًا بحتًا نظرًا لأنه لم توجد هناك قوانين تنظم السلوك الشخصي حيث أطلق "وارين" في الواقع النزعة الفردية الأمريكية إلى أقصى حد منطقي لها، وأعلن أن الحرية تعني أن يكون كل فرد بمثابة المستبد المطلق أو السيد المطلق.

الدين والإصلاح

كان معظم الأمريكيون يرون أن ملكية الممتلكات هي السبيل إلى تحقيق الاستقلال الاقتصادي- ومن ثمّ فهي السبيل إلى الحرية - وكانوا يرون الزواج كأساس للنظام الاجتماعي، وكان من المرجح أن يلتحق عدد قليل بالمجتمعات التي تطالبهم بالتنازل عن كلا هذين العنصرين على حد سواء، وكان الدافع الأكثر شيوعًا للإصلاح هو الحركات التي تهدف إلى تحرير الرجل والمرأة من القيود الخارجية التي تُفرض عليهم كالعبودية والحرب أو تحريرهم من أشكال "العبودية" الداخلية كشرب الخمر، والأمية، والنزعة نحو ارتكاب الجرائم، وقد أعلن أحد الإصلاحيين أنه

لا يمكن اعتبار شاربي الخمر أحرارًا لأنهم "قيدوا أنفسهم بأغلال الكحول والزموا أنفسهم بشراب الشيطان"؛ وقد استلهم الكثير من هذه الحركات الإصلاحية من الإحياء الديني للصحوة الكبرى الثانية الذي تم مناقشته في الفصل التاسع، ومثلما كان الواعظون المبشرون يرون أنه إذا كان الله قد خلق الإنسان "وكيلاً أخلاقيًا حرا"، فإن الخطاة لا يستطيعون إصلاح أنفسهم فحسب ولكن يمكنهم أيضًا إعادة بناء العالم.

وقد نشر أتباع الإحياء الديني الرؤية المعروفة باسم "المذهب الكمالي"، الذي يرى أن الأفراد والمجتمع بوجه عام قادران على التحسن والتطور الغير محدود، وأصبحت مناطق مثل "شمال نيويورك" و"أوهايو" تُعرف باسم "المناطق التي شهدت القدر الأكبر من التبشير"، نظرًا لأنها شهدت حركات الإحياء الديني المكثفة في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر، وباتت هذه المناطق أرضًا خصبةً لحركات الإصلاح في تلك الحقبة وتصورهم لمجتمع خالٍ من الخطيئة، وفي ظل تأثير حركات الإحياء الديني اتجهت جهود الإصلاح الأقدم في اتجاه جديد وجذري نحو الاعتدال (الذي يعني حرفيًا الاعتدال في تناول المشروبات الكحولية)، ولكنها تحولت إلى حملة للقضاء على شرب الكحول تمامًا، وأصبحت الانتقادات الموجهة للحرب سلمية تماما، وكما سيرد بعد، لم يعد منتقدو العبودية يطالبون الآن بالتحرر التدريجي بل طالبوا بالإلغاء الفوري والكامل للعبودية.

حركة الاعتدال

أصبح الإصلاح بالنسبة للأفراد الذين يعتنقون ثقافة الطبقة المتوسطة الناشئة في الشمال، سمة للاحترام وإشارة على إحكام الأفراد سيطرتهم على حياتهم الخاصة وأنهم أصبحوا مسئولين أخلاقيًا، وقد تأسست جمعية الاعتدال الأمريكية في عام 1826 ولم توجه جهودها لتحرير شاربي الخمر المدمنين للشراب فحسب، بل أيضًا إلى الأشخاص الذين يشربون الخمر بشكل عرضي، وادعت في ثلاثينيات القرن التاسع عشر أنها أقنعت مئات الآلاف من الأمريكيين بالامتناع عن المشروبات الكحولية، وانخفض استهلاك الكحول للفرد الواحد بحلول عام 1840 إلى أقل من نصف مستوى الاستهلاك في العقد الماضي، (وكان استهلاك الكحول قد بلغ ذروته في عام 1830 بمعدل سبعة جالونات للشخص الواحد في السنة مقارنة بحوالي جالونين في اليوم)، وجمعت جمعية ساكني واشنطن خلال أربعينيات القرن التاسع عشر شاربي الخمر الذين تم تقويمهم في اجتماعات لتبادل الخبرات والتجارب وقدموا خلالها شهادات علنية عن أخطائهم السابقة.

أثارت حملة الاعتدال وغيرها من حركات الإصلاح نزعة عداء كبيرة، فخطيئة أحدهم تعتبر متعة أو عادة محببة بالنسبة لآخر، فالأمريكيون الذين يتمتعون بالترفيه يوم الأحد أو بشرب

مشروب كحولي قوي التأثير من وقت لآخر أنهم لا يعتقدون أنهم في منزلة أخلاقية أقل من الأشخاص الذين ولدوا من جديد في اجتماع لمعسكر ديني وتركوا الشرب وخصصوا يوم السبت لممارسة الشعائر الدينية.

منتقدو الإصلاح

كان كثيرون من الأمريكيين يرون أن دافع الإصلاح بمثابة اعتداء على حريتهم الخاصة، فقد كان شرب الخمر سمة بارزة للاحتفالات والأعياد والمناسبات مثل تجمعات القوات العسكرية الشعبية، وكما كان الحال في الحقبة الاستعمارية، كانت الحانات أماكن اجتماع ذائعة الصيت للعمال في البلدات والمدن في أوائل القرن التاسع عشر؛ ولم تكن تلك الأماكن تقتصر على شرب الكحول فقط بل كانت ميدانًا أيضًا للمناقشات السياسية، والاجتماعات التنظيمية، ووسائل الترفيه الشعبية، وقد تساءل "ورسستر" من ولاية ماساتشوستس في كتابه "المواطن عاشق الحرية" عما يمنح مجموعة من المواطنين الحق في الإملاء على الآخرين كيف يعيشون حياتهم الشخصية.

أعلن الكاثوليكيون الأمريكيون، الذين كانت تتزايد أعدادهم من جراء الهجرة الأيرلندية والألمانية، عن عدائهم لنزعة الإصلاح، فالكاثوليك يفهمون الحرية بطرق مختلفة تمامًا عن الإصلاحيين البروتستانتيين فقد يرون أن الخطيئة بمثابة عبء يتحمله الأفراد والمجتمع دون مناص، ويرون أن فكرة الكمال التي تعني أنه يمكن محو الشر من العالم بمثابة إهانة للدين الحقيقي، فعارضوا بشدة ما رأواه من جهود الإصلاحيين التي ترمي إلى فرض رؤيتهم الخاصة عن الأخلاق البروتستانتية على البلدان المجاورة؛ وبينما كان دعاة الإصلاح يتحدثون عن الفرد كعُنصر أخلاقي حر، كان الكاثوليك ينزعون إلى تقليل التركيز على الاستقلال الفردي وزيادة التركيز على أهمية المجتمعات التي قوامها الأسرة والكنيسة، حيث أعلن رئيس الأساقفة في نيويورك "جون هيوز" والذي يُعد أبرز القياديين الكاثوليك في البلاد، أن "الفرد لم يُخلقَ ليكون مستقلاً ولكنه فُطِرَ على أن يكون جزءًا من المجتمع".

دعاة الإصلاح والحرية

اضطر دعاة الإصلاح إلى التوفيق بين رغبتهم في إقامة نظام أخلاقي وبين سعيهم إلى تعزيز الحرية الشخصية، ولقد حققوا ذلك من خلال رؤيتهم للحرية بأنّها تُحرر وتُقيد في ذات الوقت، فمن ناحية أكّد الإصلاحيون على أن هدفهم هو إتاحة الفرصة للأمريكيين للتمتع بالحرية الحقيقية، وفي عالم شاع فيه أن الحرية الشخصية تعني إتاحة الفرصة للمنافسة لتحقيق مكاسب اقتصادية والتحسين الذاتي الفردي، تحدثوا هم عن تحرير الأمريكيين من مختلف أشكال "العبودية" التي جعلت من المستحيل النجاح - العبودية للكحول وعبودية الفقر والعبودية للخطيئة.

من ناحية أخرى، أكّد الإصلاحيون على أنه يمكن تحقيق الذات من خلال الانضباط الذاتي، فكان تعريفهم للفرد الحر بأنه هو ذلك الشخص الذي يُجيد ممارسة ضبط النفس والتحكم في الذات، وقد كتب أحد القساوسة الألمان الذين هاجروا إلى بنسلفانيا في عام 1843، فيليب سكاف، أن "الحرية الوطنية الحقيقية لا تمثل في رأي الأمريكيين أي شيء سوى غياب القيود، وليس باعتبارها تستند إلى عمل أخلاقي في الأساس وإلى فضيلة رباطة الجأش وضبط النفس لدى المواطنين الأفراد"؛ ويعتقد الإصلاحيون على نحو ما أن المجتمع الأمريكي يعاني من الحرية المفرطة، أي "الحرية الطبيعية الفوضوية" التي حذر منها "جون وينثروب" منذ الأيام الأولى للبروتستانتية في ماساتشوستس كبديل عن الحرية المسيحية لدى المواطن المستقيم أخلاقيًا.

كان العديد من الجماعات الدينية في الشرق يساورها القلق حول افتقار المستوطنين في الغرب والمهاجرين من الخارج إلى ضبط النفس والتحكم في الذات، وأنهم يعيشون حياة الخطيئة التي تتجلى في الشرب، وانتهاك حرمة يوم السبت، وانعدام الإخلاص البروتستانتي، ولذلك أسست الجمعية الأمريكية لنشر الأدبيات المسيحية والجمعية الأمريكية للكتاب المقدس وغيرها من الجماعات التي أغرقت المدن الشرقية والحدود الغربية بنسخ من الإنجيل وكتيبات تحث على الفضيلة الدينية؛ ووصل عدد صفحات المنشورات التي وزعتها الجمعية الأمريكية لنشر الأدبيات المسيحية خلال الفترة بين عامي 1825- 1835 إلى ما يزيد عن 500 مليون صفحة، وقد أثر فهمها للحرية وقدرتها على الاستفادة من التقنيات الحديثة للطباعة على حركات الإصلاح في تلك الحقبة.

ابتكار فكرة المصحات للمجانين

تتجلى حدة التوتر بين التحرر والتحكم في حركات الإصلاح في تلك الحقبة بوضوح في انتشار المؤسسات الجديدة التي كان دعاة الإصلاح يطمحون من خلالها إلى تحويل الأفراد إلى مواطنين أحرار ومستقيمين أخلاقيًا، وكان يتم معاقبة الأفراد في المستعمرات الأمريكية على الجرائم في الغالب بالجلد أو بالغرامات أو بالنفي؛ وكان الفقراء يتلقون المعونة في منازلهم ويعيش الأيتام مع الجيران، وكانت الأسر تعتني بأفرادها المرضى عقليًا.

بدأ الأمريكيون في الفترة ما بين ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر في تنفيذ برنامج لبناء المؤسسات – سجون للمجرمين، ومنازل للفقراء المُعدمين، ومصحات للمجانين، ودور للأطفال الأيتام الذين فقدوا أسرهم؛ واختلفت هذه المؤسسات في نواحي شتى، ولكنها اشتركت مع المجتمعات المشتركة ومعتنقي الأديان في فكرة "الكمال" التي تنطوي على إمكانية القضاء على المشاكل الاجتماعية التي كانت تعتبر فيما مضى مستعصية على الحل؛ وكان السبيل

لتقويم العناصر الغير مرغوب فيها في المجتمع هو وضع الأشخاص المبتلين والشباب سريعي الانقياد في بيئة يمكن فيها تغيير طباعهم وشخصيتهم، وأصبحت السجون والمصحات مكتظة في نهاية المطاف ويصبح إعادة تأهيل نزلائها أقل أهمية من مجرد احتجازهم في منطقة ما بعيدًا عن المجتمع، إلا أن هذه المؤسسات اُستلهمت في بادئ الأمر انطلاقًا من اعتقاد راسخ بأن هؤلاء الأشخاص الذين سيخرجون عبر تلك الأبواب بعد مرورهم بعملية التغير سيصبحون في نهاية المطاف مواطنين منتجين يتحلون بضبط النفس.

المدارس المشتركة

تمثل الجزء الأكبر من الجهود التي بذلت في بناء المؤسسات قبل الحرب الأهلية في حركة إنشاء المدارس المشتركة -- أي تدشين نظام مدارس حكومية مدعومة من الضرائب لجميع الأطفال، حيث كان معظم الأطفال في أوائل القرن التاسع عشر يتلقون تعليمهم في مدارس مدعومةً محليًا أو أكاديميات خاصة أو مدارس تابعة لمؤسسات خيرية أو في المنزل، ولم يسنح لكثير من الأطفال فرصة الحصول على التعليم قط، ولذلك عكس إصلاح المدارس الأهداف العديدة التي اندرجت تحت مظلة نزعة الإصلاح في تلك الحقبة؛ وكان "هوراس مان" المحامي في "ماساشوستس" والسياسي اليميني الذي عملَ كمدير لمجلس التعليم للدولة رائدًا لإصلاح التعليم في تلك الحقبة وكانت تقاريره السنوية تُقرأ على نطاق واسع في جميع أنحاء البلاد، وكانت تجمع ما بين النزعة المحافظة والراديكالية والتحرر والرقابة الاجتماعية.

تبنى "مان" النظام الصناعي الجديد في ولايته، ولكنه كان يأمل في أن يُعيد التعليم الحكومي العام المساواة إلى مجتمع مُنقسم من خلال الجمع بين أطفال من جميع الطبقات معًا في تجربة تعلم مشترك، وإعداد الطبقات الأقل حظًا للارتفاع في السلم الهرمي للمُجتمع، وبذلك سيحقق التعليم التكافؤ بين الأفراد - بل في الواقع سيعمل كخيار صناعي في المُجتمع بديلاً عن الانتقال غربًا للحصول على مزرعة، وشاركت الحركة العمالية السابقة أيضًا هذه الفكرة للتعليم المجاني العام كوسيلة للنهوض بالمُجتمع ولذلك جعلت من إنشاء المدارس المشتركة من بين أهدافها؛ ورأى "مان" في الوقت نفسه أن المدارس ستعزز الاستقرار الاجتماعي من خلال إنقاذ الطلاب من تأثير آبائهم الذين فشلوا في غرس الانضباط السليم في نفوسهم، حيث كان يرى أن بناء الشخصية يعد إحدى وظائف التعليم المُهمة تمامًا كالقراءة والكتابة والحساب. هذا وقد ساعد المنهج الدراسي الصامت الذي كانت تتبعه المدارس - المُتمثل في الطاعة والانقياد للسلطة وسرعة الحضور وتنظيم يوم الطالب وفقًا لفترات زمنية محددة مسبقًا تتوالى تباعًا بجرس المدرسة - في إعداد الطلاب للعمل في ظل الاقتصاد الصناعي الجديد.

كان "مان" يعتقد بأن المدارس كانت تتولى تدريب أفراد أحرار - مما يعني أنهم كانوا أشخاصًا على دراية بضبط النفس، ولكنه واجه معارضة مستمرة من الآباء الذين لم يرغبوا في ترك مهمة التعليم الأخلاقي لأطفالهم للمعلمين والبيروقراطيين، ولكن نتيجة لدعم منظمات العمال وأصحاب المصانع ودعاة الإصلاح من الطبقة المتوسطة لهذه الفكرة، أنشأت جميع الولايات الشمالية بحلول عام 1860 نظام المدارس المدعومة من الضرائب لأبنائها، ووفرت حركة إنشاء المدارس المشتركة أول فرصة حقيقية للمرأة في العمل والتي سرعان ما هيمنت على صفوف المعلمين. أما في الجنوب، فقد شاع الاعتقاد بأن السود المتعلمين يُمثلون خطرًا على النظام الاجتماعي وكان المزارعون لا يرغبون في دفع الضرائب التي ستستخدم في تمويل التعليم للأطفال البيض الفقراء، مما أدى إلى تخلّف الجنوب كثيرًا في التعليم العام، وكان ذلك أحد الأسباب المُتعددة في ازدياد الفجوة في النمو والتقدم بين الشمال والجنوب.

حملة مناهضة العبودية

كان دعاة الإصلاح في بادئ الأمر يولون اهتمامًا أقل للشر الأعظم في المجتمع الأمريكي المتمثل في العبودية مقارنة بشرب الكحول، وارتكاب خطيئة انتهاك حرمة يوم السبت، والأمية، فقد كان يبدو لسنوات عديدة أن جمعية الأصدقاء الدينية "الكويكرز" والعبيد والسود الأحرار هم وحدهم من بين الأمريكيين الذين يرغبون في مناهضة وجود العبودية، فبعد أن خمدت الحركة المناهضة للعبودية التي ولدتها الثورة تلاشت مسألة العبودية من الحياة الوطنية، واقتصرت على اعتراضات عرضية كنزاع ميزوري المثير للجدل في الفترة ما بين عامي 1819-1821.

ترحيل السود خارج البلاد

لطالما قَرَنَ الأمريكيون البيض، قبل حلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر، الذين كانوا يرغبون في إنهاء العبودية دعواتهم إلى إلغاء العبودية بتهجير العبيد الأحرار إلى إفريقيا أو منطقة البحر الكاريبي أو أمريكا الوسطى، حيث أسس أنصار هذه الفكرة جمعية الاستعمار الأمريكية في عام 1816، والتي شجعت على الإلغاء التدريجي للرق واستيطان الأمريكيين السود في إفريقيا وسرعان ما تم إنشاء ليبريا على ساحل غرب إفريقيا كمنطقة تخضع للسيطرة الأمريكية وكانت عاصمتها مونروفيا تيمنًا باسم الرئيس جيمس مونرو.

رأى العديد من المراقبين أن ترحيل العبيد بعيدًا عن أمريكا هو بمثابة إجراء غير عملي تمامًا، وعندما زارت الكاتبة الإنجليزية "هارييت مارتينو" الولايات المتحدة في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أعربت عن دهشتها من تأييد الرئيس السابق "جيمس ماديسون" لهذه الفكرة حيث علقت

قائلة "كيف لعقل على غرار عقله أن يقتنع بفكرة أن العبودية لن تنتهي إلا إذا تم ترحيل السود من البلاد"؛ وخلال سرد أحداث رحلاتها في كتابها "المجتمع في أمريكا (1837)" ذكرت أن ترحيل العبيد يعد بمثابة طريقة لمالكي العبيد الذين كانت تراودهم الشكوك حول امتلاك البشر كملكية خاصة ليُريحوا بها ضمائرهم من خلال إرسال عبيدهم بعيدًا عبر البحر دون أن يكونوا مصدر إزعاج لجيرانهم.

ومع ذلك أيّد العديد من القادة السياسيين البارزين في عهد الرئيس "آندرو جاكسون" - بما في ذلك "هنري كلاي"، و"جون مارشال"، و"دانيال ويبستر"، و"جاكسون" نفسه – جمعية التهجير، ورأى العديد من الشماليين أن ترحيل العبيد هو السبيل الوحيد لتخليص الأمة من العبودية، أما في الجنوب فقد كرّس أنصار هذه الفكرة معظم طاقاتهم لإقناع هؤلاء العبيد المحررين بمُغادرة الولايات المتحدة وأكدّوا على أن السود الأحرار فئة "مُنحطة" ويُشكل وجودهم خطرًا على مجتمع البيض؛ بينما كان أنصار آخرون للتهجير يرون أن العبودية والعنصرية ضاربان بجذورهما في الحياة الأمريكية لدرجة أنه لن يتسنى مطلقًا للسود تحقيق المساواة إذا أصبحوا أحرارًا وسُمح لهم بالبقاء في البلاد؛ وعلى غرار إبعاد الهنود عن أرضهم في أمريكا تستند فكرة ترحيل العبيد من أصل إفريقي على فرضية أن أمريكا مجتمع للبيض في الأساس.

السود وفكرة ترحيلهم خارج البلاد

هاجر عدة آلاف من الأمريكيين السود بالفعل إلى ليبيريا خلال عقود ما قبل الحرب الأهلية بمساعدة جمعية ترحيل العبيد؛ وقد تحرر بعضهم من قبضة أسيادهم بشرط أن يغادروا البلاد بينما غادر آخرون طوعًا بدافع من رغبتهم في نشر المسيحية في إفريقيا، أو ليتمتعوا بالحقوق المحرومين منها في الولايات المتحدة؛ وقد كتب أحد المهاجرين بعد أن عانى من العبودية المشروعة قانونًا في الجنوب والعبودية الاجتماعية في الشمال عند رحيله إلى ليبريا قائلا "كنت أوقن أنه لن يمكنني أن أكون رجلاً حرًّا أبدًا في هذا البلد".

ومع ذلك عارض معظم الأمريكيين من أصل إفريقي بعناد وإصرار فكرة الترحيل، وفي الواقع فقد أثار تشكيل الجمعية الأمريكية لترحيل العبيد عواطف ومشاعر السود الأحرار للمطالبة بحقوقهم كأمريكيين، حيث تجمع 3.000 من السود الأحرار في "فيلادلفيا" في أوائل عام 1817 لعقد أول اجتماع وطني للسود وأكدّت قراراتهم على أن السود مواطنون أمريكيون يحق لهم الحصول على نفس الحرية والحقوق التي يتمتع بها البيض، وأعلنوا "إننا لا نود الابتعاد عن منازلنا الحالية وبلدنا الحالي"؛ وشهدت السنوات التي تلت ذلك حذف عدد من منظمات السود كلمة "الإفريقية" من أسمائها لإلغاء أي ذريعة لترحيلهم من أرض مولدهم.

دعوة إلغاء العبودية بالسلاح

اختلفت حركة إلغاء العبودية التي ظهرت في ثلاثينيات القرن التاسع عشر اختلافًا عميقًا عن سابقتها الأرستقراطية والمحافظة، فانطلاقًا من القناعة الدينية بأن العبودية كانت خطيئة ليس لها مثيل والقناعة العلمانية بأن العبودية تتعارض مع القيم المنصوص عليها في إعلان الاستقلال، رفض جيل جديد من الإصلاحيين النهج التقليدي المتمثل في التحرير التدريجي وطالبوا بالإلغاء الفوري للعبودية، وعلى عكس أسلافهم فقد تحدثوا بلغة حادة لمناهضة العبودية ومالكي العبيد وأكّدوا على أنه بمجرد أن يصبح السود أحرارًا يتوجب أن ينخرطوا في المجتمع كمواطنين على قدم المساواة في الجمهورية بدلاً من ترحيلهم، ولقد كان دعاة إلغاء العبودية البيض أنفسهم بالكاد متحررين من العنصرية التي هيمنت على المجتمع الأمريكي؛ وتساءل بعضهم في الواقع عما إذا كان يغلب على شخصية العبيد ليس لديهم شجاعة الرجال ليتمردوا ضد القمع؛ وأكدوا في نفس الوقت أن الأنجلوسكسونيين كانوا بلا ريب سيتمردون بكل شجاعة لو كانوا في مثل موقف السود، ومع ذلك أكّد جميع دعاة إلغاء العبودية تقريبًا على أنه يجب أن تُمنح الحقوق الاقتصادية والمدنية والسياسية في الولايات المتحدة على قدم المساواة دون اعتبار للعرق، وأكدُوا على أن محاولة جعل المجتمع الأمريكي مثاليًا تعني استئصال ليس فقط جذور العبودية بل استئصال العنصرية بجميع أشكالها.

وقد ظهرت أول بوادر تلك الروح الجديدة لإلغاء العبودية في عام 1829 مع إصدار كتاب "دعوة للمواطنين ذوي البشرة المُلونة في العالم" لديفيد ووكر، وهو أسود حر وُلد في ولاية "نورث كارولينا" وكان يُدير متجرًا لبيع الملابس المستعملة في بوسطن، وكان هذا الكتاب عبارة عن اتهام حاد للعبودية والتحيز العنصري ومثيرًا للتعاطف وناشدت الدعوة الأمريكيين السود بالاحتشاد للمطالبة بإلغاء الاسترقاق - بالقوة إذا لزم الأمر- وحذر البيض أن الأمة ستواجه العقاب الإلهي إذا لم تُصلح طُرقها الآثمة؛ واستشهد ووكر بالكتاب المقدس وإعلان الاستقلال بل وتجاوز هذه الحجج المألوفة ليوجه دعوة للسود ليفخروا بالإنجازات التي حققتها الحضارات الإفريقية القديمة وللمطالبة بجميع حقوقهم كمواطنين أمريكيين، وقد كتب مخاطبًا قرائه من البيض "كفاكم حديثًا عن ترحيل السود، لأن أمريكا بلدنا تمامًا كما هي بلدكم".

ظهور أفكار جاريسون

أرعبت لغة ووكر مخاوف مالكي العبيد وكثير من المعارضين البيض للعبودية، وعندما وزع بحارة سود أحرار المنشور سرًا في الجنوب أعلنت بعض ولايات الجنوب مكافأة لمَنْ يقتل ووكر، وبالرُغم من أنه لم ينشئ منظمة للدعوة لإلغاء العبودية إلاّ أنه ماتَ في ظروف غامضة في عام

1830، ولم يجد بالفعل الجيل الجديد من دعاة إلغاء العبودية منفسًا لهم حتى ظهور المجلة الأسبوعية "ذا ليبريتور – أي المُحرر" التي أصدرها "ويليام لويد جاريسون" في بوسطن في عام 1831، والتي كانت بمثابة صوت دائم يتحدث عنهم؛ وقد أعلنَ جاريسون قائلاً "سأكون قاسيًا في حديثي بقدر قسوة الحقيقة ولن أتنازل تمامًا مثلما لا تتنازل العدالة التي لا هوادة فيها، فلن أراوغ وأتلاعب بالكلمات ولن ألتمس الأعذار – لن أتراجع قيد أنملة – وستُصغون لما أقول".

وبالفعل أصغى الناس إلى كلامه نوعًا ما حيث غضب الجنوبيون من خطبه التحريضية، بعد أن أطلق في إحدى الافتتاحيات في صحيفته على مالكي العبيد بأنهم جيل من الزناة والمنحرفين ومن نسل خبيث فقاموا بإعادة طباعة الافتتاحيات التي كان يكتبها جاريسون في صحفهم الخاصة بهم لاستنكارها ومن ثَمَّ عمل هذا على التشهير به، كما رفض العديد من دعاة إلغاء العبودية بعض أفكار جاريسون كاقتراحه بإلغاء الشمال للدستور وحل الاتحاد لوضع حد لتواطئه في الخطيئة المتمثلة في العبودية، ولكن دعوته للإلغاء الفوري للعبودية وجدت صدى قوي في جميع الأوساط المناهضة للعبودية، وأقنعت نشرة "جاريسون" أفكار حول الاستعمار في إفريقيا" العديد من المعادين للعبودية بأنه يجب الاعتراف بالسود كجزء من المجتمع الأمريكي وألا يُنظر إليهم على أنهم غرباءَ يتم ترحيلهم إلى الخارج، وسرعان ما ظهرت منشورات أخرى لمناهضة العبودية ولكن ظلت صحيفة "المحرر" هي أبرز الصحف في الدعوة لإلغاء العبودية.

نشر رسالة دعاة إلغاء العبودية

أُستهلت حركة إلغاء العبودية بمجموعة من الناشطين وتوسعت بسرعة في جميع أنحاء الشمال، حيث استغل قادة مناهضة العبودية التطور السريع لتكنولوجيا الطباعة والتوسع في محو الأمية جراء التعليم في المدارس المشتركة لنشر رسالتهم؛ وعلى غرار محرري النشرات الراديكالية للثورة الأمريكية وللقساوسة الإنجيليين للصحوة الدينية العُظمى الثانية أدركت حركة إلغاء العبوية الطابع الديمقراطي في إنتاج المواد المطبوعة، واستولى دعاة إلغاء العبودية على مطبعة بالبخار كان قد تم اختراعها مؤخرًا لإنتاج ملايين النسخ من الكتيبات، والصحف، والعرائض، والروايات والنشرات الإعلانية، وانضم حوالي 100.000 فرد من الشماليين في الفترة ما بين تشكيل الجمعية الأمريكية لمناهضة العبودية في عام 1833 ونهاية العقد إلى الجماعات المحلية التي تهدف إلى إلغاء العبودية، وكان معظمهم من المواطنين العاديين – المزارعين وأصحاب المتاجر والحرفيين والعمال، بالإضافة إلى عدد قليل من رجال الأعمال البارزين كالتجاريين آرثر ولويس تابان" من نيويورك.

هذا وقد ساعد "جاريسون" أبرز دعاة الحركة، القيسيس الشاب "تيودور ويلد"، الذي غير

ديانته على يد الواعظ الإنجيلي "تشارلز ج. فيني" في حشد عدد هائل من أنصار الحركة، حيث كان خطيبًا لامعًا ودرّب مجموعة من المتحدثين الذين أوصلوا رسالة إلغاء العبودية إلى قلب البلدات الريفية والصغيرة في الشمال، وقد انتهجوا أساليب أتباع حركات الإحياء الديني المُتمثلة في الوعظ بنبرة حماسية حادة، والاجتماعات المطولة، ودعوة الأفراد إلى ترك أساليبهم الغير أخلاقية، وكانت رسالتهم بسيطة تتمثل في أن "العبودية كانت خطيئة"، وفي مناقشة قضية العبودية كتب "ويلد" قائلا "لطالما تحدثت عن العبودية كمسألة أخلاقية بالغة الأهمية بلا منازع جازت على ضمير الأمة، ولكن قلما كنت أتطرق إلى هذه القضية كمسألة سياسية ومسألة تتعلق بالاقتصاد الوطني".

كان "ويلد" يهتم بالنهج الأخلاقي أكثر من اهتمامه بالاستقامة الدينية، وإنما كان تعريفه للعبودية على أنه خطيئة ضروريًا ليحل الإلغاء الفوري للعبودية محل الاستراتيجيات التقليدية للتحرر التدريجي وترحيل السود؛ وكانت الاستجابة الوحيدة المناسبة لخطيئة العبودية على حد قول متحدثي حركة إلغاء العبودية هي القضاء الفوري على هذه المنظومة؛ وأشرف "ويلد" أيضًا على نشر كتيبات للدعوة لإلغاء العبودية بما في ذلك كتيبه "حقيقة العبودية" (1839)، الذي يتألف من قصص تسرد حوادث إساءة معاملة العبيد، ونظرًا لأن "ويلد" اقتبس جميع نماذجه التي قدمها من الصحافة الجنوبية لذلك لا يمكن رفضها على أنها ضرب من ضروب خيال الشماليين.

العبودية والإقناع بالحجج الأخلاقية والأدبية

خشي العديد من الجنوبيين أن يتجه دعاة إلغاء العبودية إلى التحريض على العصيان المسلح للعبيد، وقد تنامى لديهم هذا الاعتقاد عقب اندلاع تمرد "نات تيرنر" الذي وقع بعد بضعة أشهر من ظهور صحيفة "ذا ليبرايتور- المحرر"، ولكن لم يكن لهذا التخوف أساس من الصحة حيث لم يكن "تيرنر" يعرف "جاريسون" على وجه الإطلاق، وأيضًا لأن جميع دعاة إلغاء العبودية تقريبًا رفضوا استخدام العنف كوسيلة لإنهاء العبودية على الرغم من حديثهم حاد النبرات، وكان كثير منهم دعاة للسلام أو "عدم المقاومة" يعتقدون أنه يجب نبذ الإكراه من جميع العلاقات والمؤسسات البشرية، وكانت استراتيجيتهم تتمثل في الإقناع بالحجج الأخلاقية واتخذوا من الساحة العامة ميدانًا لهم وأنه يجب إقناع مالكو العبيد بالإثم الذي يقترفونه، وإقناع الشماليين بتواطؤهم مع هذه المؤسسة الغريبة، (واتهم بعض النقاد هذا النهج بأنه لا يترك أي مجال للعبيد ليسعوا إلى تحرير أنفسهم سوى من خلال انتظار الصحوة الأخلاقية في البلاد).

لقد تبنى دعاة إلغاء العبودية، الذين لم ينضموا إلى مؤسسات مناهضة العبودية، دور النقاد الاجتماعيين الراديكاليين؛ وكانوا من بين أول مَنْ أثنى على الدور الرئيسي للرأي العام في ظل

الديمقراطية الجماعية، ولم يركزوا جهودهم على الانضمام إلى الأحزاب السياسية القائمة بل عملوا على توعية الأمة بالإثم الأخلاقي للعبودية، وكان حديثهم ذو نبرة استفزازية وصريحة ومحسوبة لتحوز على اهتمام العامة، حتى أن "جاريسون" قال " لن يتم التخلص من العبودية دون إحداث جلبة وإثارة هائلة."

دعاة إلغاء العبودية وفكرة الحرية

دعمت حملة دعاة إلغاء العبودية وتحدت المفاهيم العامة للحرية في أمريكا في عهد الرئيس "جاكسون"، وساعد دعاة إلغاء العبودية على نشر المفهوم الذي صادرته ثورة السوق والذي مفاده أن الحرية الشخصية ليست مستمدة من ملكية الممتلكات الإنتاجية كالأراضي، ولكنها مستمدة من ملكية الفرد لذاته والقدرة على التمتع بالمكاسب التي يجنيها من عمله؛ وتنصل دعاة إلغاء العبودية من فكرة "العبودية للأجر" التي روجت لها الحركة العمالية في تلك الحقبة، حيث أكدوا على أنه عند المقارنة بالعبيد فإن الشخص الذي يعمل ليحصل على أجر يُعد تجسيدًا للحرية وليس تجسيدًا للعبودية للأجر الذي يأخذه حيث كان يمكن للعامل الحر تغيير عمله إذا رغب في ذلك ويمكنه جمع وتراكم الملكية والتمتع بحياة أسرية مستقرة؛ وكتب أحد دعاة إلغاء العبودية، "وليام جوديل" قائلا "العبودية وحدها هي التي كانت تحرم الإنسان من الحصول على حقه الرئيسي الأعظم – ألا وهو حقه الأصيل في ملكية ذاته".

من ناحية أخرى، احتج دعاة إلغاء العبودية بأن العبودية كانت متأصلة في الحياة الأمريكية إلى ذلك الحد الذي يجعل القضاء عليها يتطلب إحداث تغييرات جذرية في كل من الشمال والجنوب، وأكدوا على أن الحق الأصيل والطبيعي والمطلق في الحرية الشخصية، بصرف النظر عن الأصل العرقي، يأتي في مقدمة سائر أشكال الحرية الأخرى، كحق المواطنين في جمع وحيازة الممتلكات أو الحق في الحكم الذاتي عبر المجتمعات السياسية المحلية.

رؤية جديدة لأمريكا

سعت حركة مناهضة العبودية في مجتمع أصبحت فيه حقوق المواطنة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا أكثر فأكثر بلون البشرة البيضاء إلى إحياء فكرة الحرية باعتبارها حق إنساني أصيل، وتعود جذور فكرة إقامة شعب أمريكي لا يحكمه العرق ليس فقط إلى المكتشفين الأوائل الذين تعايشوا في سلام بصفة عامة مع العبودية، بل تعود إلى دعاة إلغاء العبودية؛ وكانت حملة مناهضة العبودية تعتبر العبيد والسود الأحرار أعضاء في المجتمع الوطني؛ وقد تلخص موقفها في عنوان المقال الشهير بقلم "ليديا ماريا تشايلد"، الذي صدر في عام 1833، "دعوة لصالح تلك الفئة من الأمريكيين التي تُسمى بالأفارقة"، وأكدت فيه على أن السود مواطنون وليسوا أجانب أو طبقة

ستظل دائمًا متدنية الشأن، فلا يجب أن يعاملوا كأفارقه وإلا يجب بالمثل أن يعامل البيض كإنجليز، ففكرة محل الميلاد وحده دون العرق هي التي يجب أن تُعَرِّفْ المواطن الأمريكي، وقد تم بالفعل لاحقًا إدراج هذا النصّ في التعديل الرابع عشر للدستور، مما يُمثل تحولاً جذريًا في تقاليد الحياة الأمريكية؛ وقد أعلنت مجلة نيو إنجلاند في عام 1832على صفحاتها، أننا لن نقبل أن تكون أمريكا بلد للسود، العبيد منهم والأحرار، بقدر ما هي بلدنا؛ ولكن دعاة إلغاء العبودية أكدوا على أن العبيد بمجرد أن يصبحوا أحرارًا يحق لهم المشاركة الكاملة في الحياة العامة في الولايات المتحدة، وابتدع دعاة إلغاء العبودية أيضًا الفكرة الحديثة التي تعطي أسبقية لحقوق الإنسان على السيادة الوطنية، وحثوا الولايات المتحدة على المشاركة في المحاكم التي تستدعي قضاة من بريطانيا وبلدان أخرى لمعاقبة الأشخاص الذين ينتهكون الحظر المفروض على تجارة الرقيق عبر الأطلسي؛ وربما كانت هذه المحاكم هي أول نموذج لإنفاذ حقوق الإنسان عبر الحدود الوطنية، ولكن نظرًا لنفوذ الجنوبيين القوي في واشنطن لم تنضم الولايات المتحدة إلى نظام المحاكم حتى عام 1862 في خضم الحرب الأهلية، وكتبت أنجليناجريمكيه، التي أصبحت إحدى المتحدثات الرائدات قائلة إن حملة مناهضة العبودية بمثابة أبرز مدرسة تم فيها بحث حقوق الإنسان، وناقش دعاة إلغاء العبودية علاقة الدستور بالعبودية وأحرق وليام لويد جاريسون وثيقة الدستور، واصفًا إياه بأنه عهد مع الشيطان، بينما خَلُصَ فريدريك دوجلاس إلى الاعتقاد بأن الدستور لا يضمن أي حماية وطنية للعبودية، ولكن على الرغم من هذا الاختلاف في الرأي إلا أن دعاة إلغاء العبودية وضعوا رؤية بديلة للقانون الدستوري موجهة لضمان الحقوق على أساس فهمهم للحرية باعتبارها حق إنساني لكل البشر؛ وفي الوقت الذي سعى فيه دعاة إلغاء العبودية إلى تحديد الحقوق الأساسية المكفولة لجميع المواطنين الأمريكيين – أي معنى الحرية بمصطلحات وتعبيرات قانونية ملموسة – ابتدعوا مفهوم المساواة أمام القانون بصرف النظر عن الأصل العرقي، وهو التعريف الشامل القاطع ولكنه غير المعروف في الحياة الأمريكية قبل الحرب الأهلية. ساعدت أدبيات دعاة إلغاء العبودية أيضًا في توسيع نطاق تعريف القسوة في التعامل، فمن خلال الأوصاف المُصورة لحالات الضرب والوسم بالكيّ وحالات المعاناة الجسدية الأخرى التي تعرض لها العبيد، انتشرت فكرة السلامة الجسدية كحق أساسي من الحقوق التي انتهكتها العبودية.

ورُغم تعرض دعاة إلغاء العبودية للشجب والإدانة من قبل خصومهم الذين كانوا يتهمونهم بأنهم يعادون المبادئ الأمريكية، إلا أنهم ربطوا بوعي توجه حركتهم بالتراث الثوري؛ ونظرًا لأن إعلان الاستقلال لم يمثل أساسًا لفن الخطابة العامة في أوائل فترة الجمهورية بنفس القدر الذي أصبح عليه فيما بعد، حينما استخدمه دعاة إلغاء العبودية لتفسير ديباجة الوثيقة

باعتبارها إدانة للعبودية، حتى أن جرس الحرية – الذي أصبحَ فيما بعد أحد شعارات الأمة الأكثر تبجيلاً للحرية – لم يحقق تلك المكانة حتى استخدمه دعاة إلغاء العبودية كرمز وأطلقوا عليه الاسم الذي عُرف به كجزء من مسعاهم لربط مبادئهم بمبادئ هؤلاء المؤسسين (كان قبل ثلاثينيات القرن التاسع عشر مجرد جرس للمجلس التشريعي القديم يُستخدم في أوقات مختلفة لإعلان وفاة مواطنين بارزين، واستدعاء الطلاب في جامعة بنسلفانيا إلى فصولهم والاحتفال بالأعياد الوطنية)؛ وبطبيعة الحال يدعي الأمريكيون من جميع المناطق والأطياف السياسية ارتباطهم بتراث الثورة فجماهير الغوغاء التي عرقلت مسار اجتماعات دعاة إلغاء العبودية ادعت أنها استلهمت "روح ثورة 76" وكذلك فعل الجنوبيون المناصرون للعبودية، وبالرغم من أن دعاة إلغاء العبودية لا يمثلون سوى جزء صغير من سكان الشمال، ولكن مع احتدام حدة الجدل حول العبودية انتشر الاعتقاد بأن العبودية تتناقض مع موروث الأمة المتمثل خارج أوساط دعاة إلغاء العبودية.

دعوة إلغاء العبودية من البيض والسود

دعاة إلغاء عبودية السود

قام السود بدور قيادي في حركة مناهضة العبودية حتى قبل ظهور صحيفة "المحرر"، فكما رأينا أن السود الأحرار في الشمال عارضوا جمعية ترحيل السود خارج البلاد، وساعد صناع أشرعة السود الناجحون في "فيلادلفيا"، "جيمس فورتين"، في تمويل صحيفة "المحرر" في سنواتها الأولى، وأدى رفض "جاريسون" لترحيل السود خارج البلاد ومطالبته بالمساواة في الحقوق للسود الأمريكيين إلى جذب اهتمام السود حتى أنهم شكلوا أغلبية بين المشتركين في الجريدة، وعمل عدد من السود في مجلس إدارة الجمعية الأمريكية لمناهضة العبودية، وسرعان ما ظهر سود شماليون المولد وعبيد هاربين كمتحدثين ومنظمين رواد.

كان "فريدريك دوجلاس" الوحيد من بين العديد من العبيد السابقين الذين نشروا قصص حياتهم في العبودية، وأقنعت هذه القصص الآلاف من الشماليين بشرور العبودية، وفي الواقع كانت المطبوعة الأكثر تأثيرًا في مناهضة العبودية في تلك الفترة بأسرها هي رواية "كوخ العم توم" لمؤلفها "هارييت بيتشر ستو"، والتي قدمت إلى حد ما نموذجًا للسيرة الذاتية على غرار العبد الهارب "هينسون يوشيا"، نُشرت في أجزاء في عام 1851 في صحيفة مناهضة للعبودية في واشنطن ثم نُشرت في كتاب في السنة التالية؛ وبحلول عام 1854 كان قد تم بيع أكثر من مليون نسخة منه، كما كانت مصدرًا للإلهام للعديد من المسرحيات؛ واستطاعت هذه الميلودراما أن تضفي قبولاً واسعًا وجاذبيةً إنسانيةً على رسالة دعاة إلغاء العبودية من خلال تصوير العبيد كرجال ونساء

متعاطفين وودودين ومسيحيين تحت رحمه مالكيهم الذين فرّقوا الأسر وأطلقوا الكلاب البوليسية على الأمهات والأطفال الأبرياء.

إلغاء العبودية والأصل العرقي

كانت حركة إلغاء العبودية هي أول حركة اجتماعية متكاملة عنصريًا في التاريخ الأمريكي، والأولى التي تولي أهمية كبرى لمنح السود حقوق متساوية في برنامجها السياسي؛ ولكنها كانت نتاجًا لزمنها ومكانها، فكما رأينا كانت العنصرية منتشرة ومتغلغلة في كل مناحي الحياة الأمريكية في القرن التاسع عشر في الشمال والجنوب على حد سواء، ولم يستطع دعاة إلغاء العبودية البيض تحرير أنفسهم من هذا التحيز تمامًا فلقد استأثروا لأنفسهم بمناصب صنع القرار الرئيسية، وعينوا "مارتن ر. ديلاني" متحدثًا باسم السود وأسندوا إلى السود منصب ثانوي ضئيل الشأن، وسعى الدعاة السود لإلغاء العبودية بحلول أربعينيات القرن التاسع عشر إلى الحصول على دور مستقل داخل الحركة وعقدوا اجتماعات خاصة بهم بصفة منتظمة؛ وقد أعلن أحد الدعاة السود لإلغاء العبودية، هنري هايلاند، الذي هرب وهو طفل بصحبة والده من العبودية في "ميريلاند" في إحدى تلك الاجتماعات في عام 1843، أنه يجب أن ينتفض العبيد في تمرد ليحرروا أنفسهم من الأغلال، وكان موقفه هذا يتعارض مع الاعتقاد السائد المتمثل في الإقناع بالحجج الأخلاقية لدرجة أن قررت أعمال المؤتمر حذف الخطاب بأسره من تقرير الاجتماع الذي تم نشره، ولم يتم نشر خطاب "جارنت" إلا بعد حلول عام 1848 مع دعوة "ديفيد ووكر" في كتيب تم تمويله جزئيًا من أحد دعاة إلغاء العبودية المغمورين آنذاك يُدعى "جون براون".

ومع ذلك، فإن ما يدعو للدهشة ليس قيام دعاة إلغاء العبودية البيض بإظهار الانتهاكات التي تحدث في مجتمعهم وحسب ولكن أيضًا تمكنهم من التغلب عليها، حيث أعلن إدموند كوينسي" أحد شركاء "وليام لويد جاريسون" النشطاء أنه في حين أن كلمة "أبيض" منصوص عليها في مدونة قوانين ولاية "ماساتشوستس" ونظامها الأساسي إلا أنها ولاية بها عبيد، وفي تحدي للتوقعات السائدة آنذاك خاض دعاة إلغاء العبودية معارك قانونية وسياسية ضد التمييز العنصري في الشمال، وحققوا مكاسب عرضية مثل إنهاء الفصل العنصري بين العرقين في المدارس في "ماساتشوستس" في عام 1855، ولم يقتصر نضال دعاة إلغاء العبودية من أجل إلغاء القوانين المُطبقة في الشمال التي تتحيز ضد السود، لكنهم رفضوا أيضًا المساومة على مبدأ أن العبد إنسان أخلاقي خلقه الله في أحسن هيئة، ويتمثل شعار دعاة إلغاء العبودية في صورة لعبد مُكبل بالقيود مقترنة بشعار "ألست إنسانًا وأخًا لك؟"، في تحدي للأمريكيين البيض ليحملهم على مواجهة واقع أن هناك رجالاً ونساءً لا يختلفون عنهم يقبعون في غيابات العبودية.

كان أكثر المتشددين في الكفاح لمناهضة العبودية، الذين طلبوا إعادة تعريف الحرية والمواطنة الأمريكية على حد سواء، هم الأعضاء السود من حملة دعاة إلغاء العبودية حيث وضعوا تصورًا للحرية تجاوز نطاق استخدام معظم نظائرهم من البيض؛ وعملوا على مهاجمة الأسس الفكرية للعنصرية وسعوا إلى دحض الحجج العلمية الزائفة التي تثبت دونية السود وتحدوا الصورة السائدة عن إفريقيا كقارة دون حضارة ودعا العديد منهم أقرانهم السود الأحرار للبحث عن عمل ماهر ولائق يحفظ كرامتهم ويثبت قدرة هذا الجنس على التقدم والنهضة.

العبودية والحرية الأمريكية

رفض دعاة إلغاء العبودية السود في كل فرصة تسنح لهم ادعاءات الأمة الأمريكية بأنها أرض الحرية، وقَلَبَ العديد من السود الأحرار الربط الشائع بين الولايات المتحدة الأمريكية والتقدم في الحرية، وابتدعت مجتمعات السود في الشمال تقويمًا بديلاً لاحتفالات الحرية تمركز حول 1 يناير (كانون الثاني) عام 1808 الذي يوافق التاريخ الذي أصبحت فيه تجارة العبيد غير مشروعة، و1 أغسطس (آب) الذي يوافق تاريخ الذكرى السنوية لتحرير الهند الغربية بدلاً عن 4 يوليو (تموز)، (لقد حرمتهم العديد من المجتمعات المحلية قسرًا من المشاركة في احتفالات عيد الاستقلال)، ووجهوا من خلال ذلك نقدًا لاذعًا لادعاءات الأمريكيين البيض بأنهم يعيشون في أرض الحرية، وبفضل تبني بريطانيا للتحرير في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أعلنت مجموعة من دعاة إلغاء العبودية السود في "فيلادلفيا" أن بريطانيا أصبحت نموذجًا للحرية والعدالة، بينما لا تزال الولايات المتحدة أرضًا للطغيان.

وأعلن دعاة إلغاء العبودية السود بإصرار أكبر عن نظرائهم من البيض فكرة المواطنة المثالية التي لا تعرف اللون أو الأصل العرقي، وكتب "صموئيل كورنيش" قائلا "إن "الدافع وراء النضال الحقيقي بين الحرية والعبودية هو التحيز ضد اللون" (كورنيش هو قس في الكنيسة المشيخية وقد ساعد في إنشاء أول صحيفة للسود في البلاد باسم "مجلة الحرية" في مدينة "نيويورك" في عام 1827 وقد أغلق المُحرر الرئيسي بها، "جون ب. روسوورم" الصحيفة بعد سنتين وانتقل إلى "ليبريا" وقدم تفسيرًا لذلك قائلاً "إن حديثنا عن اليوم الذي يتمتع فيه الأفراد في هذا البلد بالمواطنة هو مجرد كلمات بدون جدوى ولا تجد آذانًا صاغية)؛ وعزى دعاة إلغاء العبودية السود أيضًا الفقر المنتشر على نطاق واسع بين السود الأحرار كنتيجة للعبودية، وأكدوا على أن للحرية بُعدًا اقتصاديًا، وأكد "تشارلز ل. ريزون" على أنه يجب ألّا ينصب جزءٌ من العمل العظيم الذي تقوم به حملة مناهضة العبودية على إلغاء العبودية وحسب، بل يجب أن ينصب كذلك على إلغاء نوع آخر من العبودية الذي ينذر بشعب مقهور وحالة من التبعية والعوز جيل بعد جيل".

كانت أعظم خطبة عن العبودية والحرية الأمريكية هي تلك التي ألقاها فريدريك دوجلاس في روتشستر في عام 1852 في أعقاب الاحتفال السنوي بعيد الاستقلال وطرح السؤال ما الذي يمثله الرابع من يوليو (تموز) للعبيد؟ (انظر ص 481 والملحق لمقتطفات من الخطاب) وأجاب أن احتفالات الرابع من يوليو (تموز) قد كشفت عن نفاق أمة أعلنت إيمانها بالحرية ولكنها ترتكب بصفة يومية ممارسات مروعة ودموية أكثر من أي بلد آخر على وجه الأرض، وربط كغيره من دعاة إلغاء العبودية دعواه بتراث المؤسسين الأوائل لأمريكا حيث قال إن الثورة تركت تراثًا زاخرًا من العدالة والحرية والرخاء والاستقلال الذي ابتعدت الأجيال اللاحقة عن مساره تمامًا، ولن يتسنى للولايات المتحدة أن تعود إلى مسار مهمتها الأصلية سوى من خلال إلغاء العبودية وتحرير المبادئ العُظمى لإعلان الاستقلال من قبضة الحدود ضيقة الأفق المعروفة باسم الأصل العرقي.

أصحاب الأملاك ذوي الشأن

أثارت الدعوة إلى إلغاء العبودية في بادئ الأمر عداءً عنيفًا لدى الشماليين الذين كانوا يخشون من أن يمثل تُشكل تلك الحركة تهديدًا من شأنه أن يعرقل الاتحاد، وتتعارض مع الأرباح التي تُنتزع من العمال العبيد وتقضي على سيادة البيض؛ وأوقف العامة الغوغاء بقيادة أصحاب الممتلكات وذوي الشأن (كانوا غالبًا تجار لديهم علاقات تجارية وثيقة بالجنوب) اجتماعات دعاة إلغاء العبودية في مدن الشمال؛ وفي عام 1835، قاد حشد في بوسطن وليام لويد جاريسون عبر الشوارع بعد ربط عنقه بحبل ونجا المحرر بحياته من بين أيديهم بصعوبة، وفي العام التالي دمر الغوغاء في سينسيناتي مطبعة جيمس ج. بيرني، أحد مالكي العبيد السابقين الذين انضموا إلى حركة إلغاء العبودية على يد تيودور ويلد، واضطر إلى الفرار من كنتاكي صوب الشمال.

وقد أصبح المحرر إيليا ب. لفجوي المناهض للعبودية الشهيد الأول للحركة في عام 1837، عندما قُتل على يد غوغاء في ألتون بولاية إلينوي، بينما كان يدافع عن مطبعته؛ وبدأ قس الكنيسة المشيخية في ولاية مين حياته ككاتب للمقالة الافتتاحية في ولاية ميزوري التي بها عبودية، ولكن سرعان ما اضطر إلى الانتقال إلى ولاية إيلينوي، وتلخصت رسالته في أن نظام العبودية الزنجي هو شر وإثم جسيم، وكسب عدد قليل من المناصرين في ألتون التي كانت آنذاك أكبر مدينة في الولاية وتتمتع بتجارة رائجة مع الجنوب، ودمر الغوغاء مطبعته أربع مرات ولكنه كان يستأنف النشر بعد كل مرة إلى أن أفضى الهجوم الخامس إلى وفاته، ثم أحرق الغوغاء في فيلادلفيا قاعة بنسلفانيا في عام 1838 التي شيدها دعاة إلغاء العبودية لعقد اجتماعاتهم وحولوها إلى رماد، ولكنهم قبل الشروع في إضرام النار حمل الغوغاء صورة جورج واشنطن بدافع وطني منهم إلى مكان آمن.

وفي مكان آخر، فقد قامت حشود من الجنوبيين بموافقة غير معلنة من آموس كينـدال المـدير العام للبريد في إدارة "أندرو جاكسون" بحرق أدبيات دعاة إلغاء العبودية التي أخرجوها من الرسائل البريدية، وعندما بدأ دعاة إلغاء العبودية في إغراق واشنطن في عام 1836 بالعرائض والالتماسات التي تدعو إلى التحرر في عاصمة البلاد، واعتمد مجلس النواب "قانون سد الأفواه" سيئ السمعة الذي حظر مناقشة تلك العرائض والالتماسات، ولكن كان مصير هذا القانون هو الإلغاء في عام 1844 ويعود ذلك إلى حد كبير إلى المعارضة الدؤوبة للرئيس السابق "جون كوينسي آدامز" الذي كان يمثل ولاية "ماساتشوستس" في المجلس منذ عام 1831.

العبودية والحريات المدنية

رُغم مسعى الغوغاء لوقف انتشار الحركة، إلا أن هجماتهم ومحاولاتهم الرامية إلى الحد من حرية تعبير دعاة إلغاء العبودية عن رأيهم أقنعت الكثير من الشماليين بأن العبودية تتعارض مع الحريات الديمقراطية للأمريكيين البيض؛ وقد عقّب "تيودور ويلد" في خطبة ألقاها بعد قتل "لفجوي" على التناقض بين دعاوى الأمريكيين عن الثقة بالنفس في الحصول على الحرية من ناحية وواقع العنف الموجه ضد دعوة إلغاء العبودية قائلاً "الشعارات الفارغة في كل مكان، مثل "حكومة حرة"، و"رجال أحرار"، و"حرية التعبير"، و"مدارس حرة"، و"كنائس حرة"، وجميعها أمور مصطنعة وخواء! . . . بلا جوهر"، ولقد كان مقتل "لفجوي" الدافع وراء تبني "ويندل فيليبس" لقضية إلغاء العبودية وأن يصبح أحد أكبر خطباء الحركة، وقد أعلن "ويليام جاي" وهو أحد دعاة إلغاء العبودية قائلاً "لقد بدأنا هذا النضال للحصول على حرية العبيد، ولكننا مضطرون الآن إلى الاستمرار فيه للحفاظ على حقنا، إننا الآن نناضل .. من أجل حرية التعبير، وحرية الصحافة، وحرية الضمير."

كانت حركة إلغاء العبودية حينذاك توسع من نطاق دعوتها لتحظى بدعم الشماليين الذين يهتمون قليلاً بحقوق السود، ولكن يمكن إقناعهم بأن العبودية تشكل خطرًا على حرياتهم الخاصة العزيزة لديهم؛ وقد أثار قانون سد الأفواه استياءًا كبيرًا في الشمال حتى أن صحيفة "نيويورك إيفينج بوست" التي كانت بالكاد تناصر حركة إلغاء العبودية "إذا شرعت الحكومة في التدخل في الحكم على ما هو سليم وما هو غير سليم من الآراء، فعندئذ لا نملك سوى أن نودّع حريتنا لأمدٍ طويل."

وقد ابتعدت المجالات العامة الأمريكية لسنوات عديدة عن مناقشة العبودية، ولقد ذكر "توكفيل" أنه في الديمقراطية يتعذر على الأفراد المنشقين الوقوف في وجه رأي الأغلبية الساحقة، وكتب قائلاً "الأمريكيون يثمنون حرية التعبير، ولكنه "لم يعرف بشكل عام أي دولةَ تتمتع بقسط

أقل من استقلالية في التفكير وسيادة حرية التعبير الحقيقية من أمريكا؛ وقد دفع الكفاح من أجل الحصول على الحق في مناقشة العبودية بصراحة وعلانية دون انتقام دعاة إلغاء العبودية إلى رفع شأن "الرأي الحر" - أي حرية التعبير وحرية الصحافة والحق في الاعتراض من خلال تقديم الالتماسات والعرائض - إلى مكانة مركزية فيما أطلق عليه "جاريسون" اسم "إنجيل الحرية"، زعم دعاة إلغاء العبودية في دفاعهم عن حرية التعبير بأنهم أصبحوا أوصياء على حقوق كل إنسان حر.

أصول الحركة النسائية الداعية للمساواة

انتفاضة المرأة العامة

عقَّب "فريدريك دوجلاس" فيما بعد قائلاً إنّه "عند كتابة التاريخ الحقيقي لقضية مناهضة العبودية، ستشغل النساء حيزًا كبيرًا من صفحاته" وكانت معظم القوة الشعبية للحركة مستمدة من نساء الشمال اللاتي انضممنَ إليها بالآلاف وكان معظمهنّ من البروتستانت الإنجيليات أو أعضاء في الكنيسة الجماعية في "نيو إنجلاند" أو من جماعة "الكويكرز" المقتنعات كما كتبت "مارثا هيجنسون" من ولاية "فيرمونت" أن "العبودية عار في هذه الأرض التي يشع منها ضوء المسيحية والحرية"؛ واشتهر عدد قليل منهن ولكن ظلت معظم النساء المناهضات للعبودية غير معروفات تقريبًا في التاريخ، وكان من بين هؤلاء الناشطات المغمورات "لوسي كولمان"، التي كانت أمها تغني لها أغاني مناهضة للعبودية عندما كانت طفلة، وقد أوضحت مسيرتها كيفية تداخل حركات الإصلاح في تلك الحقبة، فقد أصبحت محاضرة لإلغاء العبودية ومُعلمة في مدرسة للسود في شمال ولاية "نيويورك"، ومدافعة عن حقوق المرأة وكانت معارضة لعقوبة الإعدام.

كان المجال العام مفتوحًا أمام النساء في نواحي لم تكن سياسات الحكومة والأحزاب متاحةً لهم، فقبل أن يُمنَحن حق التصويت بوقت طويل كان النساء يرفعن العرائض والالتماسات، ويحضرن الاجتماعات، ويسرن في المسيرات، ويلقين محاضرات عامة؛ وأصبحن ناشطات في حركة الاعتدال وبناء المصحات وأنشطة إصلاحية أخرى؛ فعلى سبيل المثال، كانت "دوروثيا ديكس"، التي كانت تعمل كمُعلمة في إحدى المدارس في ولاية "ماساتشوستس"، إحدى كبار الداعين إلى معاملة أكثر إنسانية للمجانين الذين كانوا آنذاك يُزج بهم بشكل عام في السجون جنبًا إلى جنب مع أصحاب الديون، والمجرمين، القساة؛ وقامت بفضل جهودها ثماني وعشرون ولاية ببناء مستشفيات للأمراض العقلية قبل الحرب الأهلية، ونظم نساء الطبقة الوسطى في مدينة "نيويورك" جمعية الإصلاح الأخلاقي للإناث في عام 1834 بهدف تخليص البغايا من حياة الخطيئة والحفاظ على أخلاق النساء غير المتزوجات، وانتقاد سياسة الكيل بمكيالين المتبع فيما

يتعلق بالجنس في تلك الحقبة من خلال نشر قوائم للرجال الذين كانوا يترددون على البغايا أو يؤذين النساء، وتم إنشاء جمعية مماثلة في مئات المجتمعات المحلية الأمريكية بحلول عام 1840.

المرأة وحرية التعبير

مكّنت جميع هذه الأنشطة المرأة من أن تحتل مكانةً في المجال العام، ولكن كانت المشاركة في حركة إلغاء العبودية هي مصدر الإلهام للحركات المبكرة للمطالبة بحقوق المرأة، ونتيجة لسعي النساء للحصول على حقوق العبيد تنامى لدى عدد غير قليل منهن تصور جديد لتبعية المرأة ووضعها الاجتماعي والقانوني، فعلى سبيل المثال، تحولت بنات أحد مالكي العبيد البارزين في "ساوث كارولينا" وهما "أنجلينا وسارة جريمكيه"؛ أولاً إلى طائفة مجتمع الأصدقاء "كويكرز" الدينية ثم تحولتا إلى حركة إلغاء العبودية أثناء زيارتهما إلى "فيلادلفيا"، ثم شرعتا في إلقاء محاضرات شعبية وجها فيها خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر انطوت على توجيه نقد لاذع للعبودية من منظور أشخاص شاهدوا شروره بأعينهم.

لم تكن الأختان "جريمكيه" بأول امرأتين يُلقيان محاضرة أمام العامة، ولا أول مَنْ يدين بشدة مَنْ نصَّبوا أنفسهم أوصياء على تحري عفة النساء؛ حيث تحدثت إحدى أتباع المصلح "روبرت أوين" الأسكتلندية الأصل "فرانسيس رايت" في قاعة العلوم في "نيويورك"، في أواخر عشرينيات القرن التاسع عشر وأوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر، عن موضوعات تنوعت بين الاشتراكية، والعبودية، وحقوق المرأة، ومعاناة العمال في الشمال؛ حتى وصفتها إحدى الصحف في نيويورك بأنها الوحش الأنثى، لأنها أقحمت نفسها عنوة بصورة مخجلة أمام العامة، وأصبحت المرأة السوداء، من ولاية بوسطن "ماريا ستيوارت" في عام 1832، أول امرأة أمريكية تُلقي محاضرة على جمهور مختلط من الذكور والإناث ووُجِهَت إليها كذلك انتقادات شديدة، فكتبت قائلة "لقد جعلت نفسي وضيعة في نظر الكثيرين" وأضافت "هذه هي أرض الحرية ونحن نطالب بحقوقنا، بما في ذلك الحق في التحدث أمام العامة".

رحلت "ستيوارت" عن بوسطن في عام 1833 ونادرًا ما ألقت محاضرات مرة أخرى، ولكن الأختين "جريمكيه" استخدمتا الجدل حول خطبهما كنقطة انطلاق للإدلاء بحجة قوية تدحض فكرة أن المشاركة في التجمعات والمظاهرات والمحاضرات ليست من طبائع النساء، مما أثار حفيظة مجموعة من رجال الدين في ولاية "ماساتشوستس" ضدهما حيث أغضبهم رؤية الإناث يضحين بما يتحلين به من عفة ورقّة بالظهور على منصة لإلقاء محاضرات على العامة؛ فكان رد الأختان على ذلك بالدفاع بصراحة وبوضوح ليس فقط عن حق المرأة في المشاركة في النقاش السياسي، بل دافعا أيضًا عن حقها في تقاسم المزايا الاجتماعية والتعليمية التي يتمتع بها

الرجال، وأعلنت "أنجيلينا جريمكيه" قائلة "منذ أن شاركتُ في البحث عن حقوق العبيد انتهى بي المطاف بالضرورة إلى أن تنامى لدي تصور أفضل عن حقوقي كامرأة"، وواصلت أختها "سارة" في نشر كتاب "رسائل عن المساواة بين الجنسين" في (1838)، الذي يمثل دعوة قوية لحقوق متساوية للنساء ونقد لمفهوم المجالات المنفصلة للرجال وللنساء؛ وأثارت فيه قضايا عديدة مألوفة حتى يومنا هذا بما في ذلك ما أطلقت عليه الأجيال التالية "المساواة في الأجر لقاء العمل المتكافئ"؛ فتساءلت لماذا يتلقي المعلمين الذكور دائمًا أجورًا أعلى من النساء، ويحصل ترزية الثياب الذكور ضعف أو ثلاثة أضعاف الأجر، الذي يتقاضاه نظائرهم من الإناث رغم أن العمل الذي قام به كل منهما على نفس الدرجة من الجودة؟

حقوق المرأة

كان الأختان "جريمكيه" أول مَنْ طبق مبدأ حركة إلغاء العبودية المتمثلة في منح الحرية للجميع وتحقيق المساواة للمرأة، وعندما وبَّخت الكاتبة البارزة "كاثرين بيتشر" الأختين على تجاوزهما لنطاق المضمار المحلي والاجتماعي وحثتهما على قبول حقيقة أن الرب جعل الرجل صاحب الأمر والنهي وجعل المرأة تابعة له، أجابت "أنجلينا جريمكيه" عليها إجابةً لاذعة فكتبت قائلة "لا أعلم شيئًا عن حقوق الرجل وحقوق المرأة، فمبدأي أن ما يحق للرجل من الناحية الأخلاقية فعله يحق كذلك للمرأة أن تفعله، ولكن سرعان ما ترك الأختان على غرار سابقتيهما "فرانسيس رايت" و"ماريا ستيوارت" الصراع، ولم تتوافر لديهما الرغبة لتحمل الانتقادات الشديدة التي تعرضتا لها ولكن كتاباتهما ساعدت على إطلاق حركة حقوق المرأة التي نشأت في أربعينيات القرن التاسع عشر.

كانت "إليزابيث كادي ستانتون" و"لوكريشيا موت"، المنظمتان الرئيسيتان لاجتماع "سينيكا فولز" لعام 1848، داعيتين مخضرمتين في حملة مناهضة العبودية؛ وسافرتا إلى لندن في عام 1840 كممثلتين لحقوق المرأة للاجتماع الدولي لمناهضة العبودية، إلا أنه تم منعهما من المشاركة بسبب جنسهما؛ وفي الاجتماع المنعقد في شمال "نيويورك" حيث تعيش "ستانتون" التي أثارت مسألة حق المرأة في الاقتراع للمرة الأولى؛ فصاغت "ستانتون" بصفتها المنسقة الرئيسية أفكار إعلان "سينيكا فولز" على شاكلة إعلان الاستقلال (انظر الملحق للاطلاع على النص الكامل)، ولكن مع إضافة الوثيقة لكلمة "المرأة" إلى المبدأ الذي وضعه "جيفرسون" والذي ينص على أن جميع الرجال (أضافت والنساء) خلقوا سواسية، وبدلاً عن "قائمة المظالم التي ارتكبها جورج الثالث" تضمنت الوثيقة "قائمة الإساءات وحالات الاغتصاب التي يرتكبها الرجل في حق المرأة" وعلى قائمتها حرمان المرأة من حقها في التصويت؛ وصرحت "ستانتون" في الاجتماع أن التصويت من شأنه أن

يجعل المرأة حرة كالرجل حيث إنه من المُحال أن تكون هناك حرية في مجتمع ديمقراطي دون أن يكون هناك حق في الاقتراع، وكانت تلك الحجة بسيطة ولكن لا يمكن دحضها، وعلى حد وصف "ليديا ماريا تشايلد" إما أن تكون نظرية حكومتنا [المبدأ الديمقراطي بأن الحكومة تعتمد على إرادة الشعب] غير صحيحة أو تُمنح المرأة الحق في التصويت.

كان "اجتماع سينيكا فولز" بداية النضال الذي استمر لسبعين عامًا من أجل منح المرأة حق الاقتراع، ولكن هذا الحق لم يكن القضية الوحيدة التي أثارها الاجتماع؛ حيث أدان إعلان الأراء البنية العامة لانعدام المساواة التي تُحرم فيها المرأة من الحق في الحصول على التعليم والعمل؛ وتجعل الأزواج يتحكموا في أملاك وأجور زوجاتهم، وحرمان المرأة من حضانة الأطفال عند الطلاق، وحرمان المرأة من الوضع القانوني المستقل بعد زواجها وإجبارهن على ملازمة المنزل باعتباره مجال عملهن الوحيد، لقد أصبحت المساواة في الحقوق الشعار الأول لحركة حقوق المرأة، وتعني المساواة في الحقوق المطالبة بالحصول على كافة التعريفات السائدة للحرية.

حركة حقوق المرأة والحرية

على غرار حركة إلغاء العبودية وحركة الاعتدال وغيرهما من الحركات الإصلاحية، كانت حركة حقوق المرأة حركة دولية، وبالرغم من افتقار الدعم في داخل الولايات المتحدة إلا أن الحركات المبكرة لحقوق المرأة الأوائل وجدت أنصارًا لها في الخارج، وقد ورد في مقال في الصحيفة اليومية "المرأة الحرة" التي تأسست في باريس في عام 1832 "أن النساء وحدهن اللاتي سيُحددن ويعلن ماهية الحرية التي يريدونها"، ونظرًا لقلة الأعمال المنزلية التي يتوجب عليهن القيام بها بسبب توفر السلع المصنعة والخدم في المنازل، غضبت كثيرات من نساء الطبقة المتوسطة من القيود التي تحول دون حصولهن على التعليم والعمل في المهن واستغلال مهارتهن ومواهبهن بطرق أخرى؛ وأكد مناصرو حقوق النساء الأوائل على أحقية المرأة سواء كانت متزوجة أم غير متزوجة في الاختيار بين مجموعة من الخيارات الفردية لتمكينها من تحقيق الذات الذي يُشكل جوهر الحرية.

وقد كتبت "مارجريت فولر" أن للنساء نفس الحق كالرجال في صقل وتطوير مهاراتهن وأن يتم تنشئتهن .. على العيش بحرية وبدون معوقات، و"فولر" هي ابنة أحد أعضاء الكونجرس في عهد الرئيس "جيفرسون" وتلقت تعليمها في المنزل تحت إشراف والدها في بادئ الأمر (حيث تعلمت اللاتينية قبل أن تبلغ ست سنوات)، ثم تابعت تعليمها بنفسها ثم انضمت إلى دائرة دعاة مذهب التسامي في "نيو إنجلاند" (سبق مناقشته في الفصل التاسع)، وعملت مُحررة في الفترة ما بين عامي 1840 – عام 1842 لمجلة "ذا دايل" التي تُعبّر عن وجهات نظر المجموعة، وأصبحت

المحررة الأدبية في صحيفة "نيويورك تريبيون" في عام 1844 كأول امرأة تتبوأ مكانة بهذه الأهمية في الصحافة الأمريكية.

وقد سعت "فولر" في كتابها "المرأة في القرن التاسع عشر" والذي نُشر في عام 1845، إلى أن تطبق على النساء فكرة حركة "دعاة التسامي المتمثلة في أن الحرية تعني السعي لتنمية الشخصية، وأكدَّت على أنّه ينبغي أن تتاح كل السبل إلى تحقيق الذات" للمرأة بنفس القدر من الحرية كالرجل تماما، وخصت "آبي كيلي" بالذكر ووصفتها بأنها "بطلة نبيلة" لمواصلتها التحدث في الأماكن العامة رُغم ما تعرضت له من تنديد من جانب الرجل "لتجاوزها نطاق المجال المعهود لها"، ونظرًا لخشيتها من أن زواجها من أمريكي سيعني حتمًا تبعية لأوامره، لذلك سافرت إلى أوروبا كمراسلة لصحيفة "تريبيون" حيث تزوجت هناك بإيطالي وتوفيت مع زوجها وطفلها في غرق سفينة في عام 1850 في طريق عودتها إلى الولايات المتحدة.

المرأة والعمل

طالبت النساء أيضًا بحقهنّ في المشاركة في ثورة الأسواق، وأكّدت إحدى دعاة إلغاء العبودية السود "سوجورنر تروث" في أحد اجتماعات حقوق المرأة لعام 1851 على أن الحركة ولّت اهتمامًا لمعاناة المرأة في الطبقة الفقيرة والطبقة العاملة؛ ونبذت الفكرة القائلة بأن المرأة ضعيفة جدًا لدرجة لا تسمح لها بالمشاركة في العمل خارج المنزل، وقد وُلدت "تروث" كعبدة في ولاية "نيويورك" في عام 1799 تقريبا لكنّها لم تحصل على حريتها حتى صدور قانون التحرر في عام 1827، وقد ذكر أحد الحاضرين لخطابها الذي ألقته في عام 1851 (والذي لم يسجل آنذاك) فيما بعد أنها قد تحدثت عن السنوات التي قضتها في العمل البدني الشاق، وأظهرت عضلات ذراعها لتُريهم قوتها وهتفت قائلةً "ألست امرأةً؟"

رُغم أن غالبية مَنْ حضروا إجتماع "سينيكا فولز" كانوا من الطبقة الوسطى - حيث لم يشارك أي ممثلون للعدد المتزايد من الفتيات العاملات في المصانع وخادمات المنازل إلا أن المشاركين رفضوا تحديد المنزل كمجال عمل للمرأة، وكتبت "بولين ديفيس" في عام 1853 قائلة إنه "يجب على النساء الذهاب إلى العمل لتحرير أنفسهنّ من العبودية"، وحاولت بعض الحركات النسائية خلال خمسينيات القرن التاسع عشر الترويج لنوع جديد من الملابس ابتكرته "إميليا بلومر" يتكون من سترة فضفاضة وسروال، وأشارت "إليزابيث كادي ستانتون" في سيرتها الذاتية التي نُشرت في عام 1898 إلى تعرض النساء اللائي ارتدين السروال الذي ابتكرته "بلومر" للسخرية من قبل الصحافة والإهانة من حشود من الفتيان في الشوارع فأقلعن عن ارتدائه لأنهن اكتشفنّ أن "الحرية الجسدية التي يتمتعن بها لا تعوض عن الاضطهاد المستمر والمضايقات التافهة التي يتعرضن لها في كل

مكان"، وحاولت "بلومر" من خلال ذلك الزي الذي ابتكرته، والذي كان محطًا لعدد لا يحصى من النكات التي ألقاها الذكور، أن توضح نقطة مهمة تتمثل في أن الفساتين الطويلة ومشدات الخصر الضيقة والتنورات الداخلية العديدة التي كانت تعتبر الزي المناسب للإناث تحد من حركتهنّ بحيث يصعب عليهنّ المطالبة بالمشاركة في مجال العمل العام أو العمل خارج المنزل.

من ناحية أخرى، طالبت الحركة النسائية بتوسيع نطاق حدود الحرية وليس إعادة تعريف الفكرة نفسها، وعلى حد تعبير أحد الإصلاحيين "ينبغي أن تتمتع المرأة بنفس الحقوق والحريات التي يستأثر بها كل مواطن ذكر أبيض حر لنفسه على أنّه هبة من الله"، ولكن حتى مع سعي الحركة إلى تطبيق المفاهيم السائدة عن الحرية على المرأة، إلا أنها شكلت تحديًا أساسيًّا لبعض المعتقدات الرئيسية للمجتمع المتمثلة في أن القدرة على الاستقلال والعقلانية هي من سمات الذكور وأن العالم مُقسم بشكل صحيح إلى مجال عام ومجال خاص؛ وأن مسائل العدالة والحرية لا تنطبق على العلاقات داخل الأسرة، وقد أعلنت "إليزابيث كادي ستانتون" أنه "لن تتحقق السعادة بدون حرية في كل مجال من مجالات الحياة، بما في ذلك الديناميكيات الداخلية للأسرة."

عبودية النوع

شكلّت الفجوة ما بين الحرية والعبودية بقوة اللغة السياسية للحركات المبكرة لحقوق المرأة، فعلى غرار فكرة "العبودية للأجر" التي أتاحت الفرصة للعمال في الشمال لتحدي أوجه عدم المساواة المتأصلة في تعاريف السوق للحرية؛ كذلك أتاح مفهوم عبودية النوع الفرصة لحركة حقوق المرأة لوضع نقد شامل لهيمنة الرجال وتبعية النساء لهم وأشارت حركات حقوق المرأة في فترة الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر إلى أن قانون الزواج قد جعل وصف الأسرة "كمؤسسة خاصة" مستقلة عن السلطة العامة بلا معنى، فعندما تزوج كل من "لوسي ستون" و"هنري بلاكويل" الداعيان لإلغاء العبودية والمناصران لحقوق المرأة، شعرا أن من واجبهما التنصل من القوانين المطبقة في ولاية "نيويورك" التي تمنح الزوج سلطات قانونية... لا يجب أن تُمنح لأيّ رجل.

لم يبتدع دعاة حقوق المرأة المطالبين بإلغاء العبودية تشبيه الزواج بالعبودية، لأن من استحدث هذا القياس هي الكاتبة الإنجليزية "ماري ولستون كرافت" في قرابة التسعينيات من القرن الثامن عشر في كتابها "الدفاع عن حقوق المرأة" (سبق مناقشته في الفصل الثامن)، ولكن هذا التشبيه بين المرأة الحرة والأَمَة (المرأة العبدة) اكتسب أهمية حيث انتشر باكتساح في المناقشات متسارعة الوتيرة حول العبودية؛ وأكدت "إرنستين روز" أنّ "المرأة ما هي إلا أَمَة منذ مولدها إلى أن تقضي نحبها، حيث تظل تحت حكم سيدها المتمثل في الأب ثم الوصي عليها ثم زوجها ويتناقلونها فيما بينهم وكأنها قطعة من الممتلكات"، وكثيرًا ما ربط مناصرو العبودية في

الجنوب بين العبودية والزواج كشكل طبيعي وعادل لعدم المساواة، واحتجوا بأنّ القضاء على المنظومة الأولى من شأنه أن يهدد المنظومة الثانية.

لم يكن الزواج يعادل العبودية بالمعنى الحرفيّ، ولكن لم تكن تتمتع المرأة المتزوجة بثمرة عملها - الأمر الذي يُمثل عنصرًا رئيسيًّا من عناصر الحرية، وسنّ العديد من الولايات قوانين خاصة بملكية المرأة المتزوجة بدءًا بولاية "ميسيسيبي" في عام 1839 لحماية ممتلكات الزوجة التي أحضرتها معها من خلال عقد الزواج في مقابل ديون الزوج، وكانت هذه القوانين لا تهدف في بادئ الأمر إلى توسيع نطاق حقوق المرأة بقدر ما كانت تقصد منع خسارة الأسر لممتلكاتها خلال فترة الكساد التي بدأت في عام 1837، ولكن ولاية نيويورك سنت في عام 1860 إجراء أوسع نطاقًا يُجيز للنساء المتزوجات التوقيع على العقود وشراء الممتلكات وبيعها والاحتفاظ بأجورهن، ولكن في معظم الولايات كانت لا تزال الممتلكات التي يتم جمعها بالإضافة إلى الأجور التي تحصل عليها الزوجة بعد الزواج ملكٌ للزوج.

الحرية الاجتماعية

نظرًا لتأثر دعاة حقوق المرأة بحركة إلغاء العبودية، لذلك حولوا مفهومًا شائعًا آخر للحرية - ملكية الذات أو تحكم المرء في ذاته - إلى اتجاه جديد تمامًا، وقد ساعد تركيز أدبيات حركة إلغاء العبودية على انتهاك السيد لجسد المرأة الأمَة في تحويل فكرة ملكية الذات إلى حقيقة ملموسة حثت على تطبيقها على المرأة الحرة كذلك؛ فقد كان قانون العلاقات الأسرية ينص على الحق الجنسي للزوج في زوجته وحقه في توقيع عقاب بدني عليها، وقد امتنعت المحاكم عن التدخل في حالات الاعتداء الجسدي للزوج على الزوجة طالما أنها ليست عنيفة أو لا يمكن تحملها، وأعلن اجتماع بوسطن الذي عُقد في عام 1859 أن "حقوق المرأة تتضمن الحرية والمساواة في الحقوق وفي الأسرة"؛ ولقد كانت المطالبة بأن تتمتع المرأة بالحق في تنظيم حياتها الجنسية والإنجابية وأن تحميها الدولة من العنف التي تتعرض له على يد زوجها تحديًا للفكرة القائلة بأنه ينبغي للدعوة للعدالة والحرية والحقوق الفردية أن تتجاوز ما هو داخل نطاق المنزل.

كشفت قضية الحرية الخاصة للمرأة الاختلافات الجوهرية داخل حركة الدعوة لحقوق المرأة، فكان الاعتقاد بالمساواة بين الجنسين والفوارق الطبيعية بين الجنسين متضمن في نهج الحركات المناصرة لحقوق المرأة قبل الحرب الأهلية، وحتى عندما دخلن مجال العمل العام، وبالتالي تحدين بعض جوانب الاعتقاد السائد في تلك الحقبة بقدسية الحياة الأسرية والمنزل بالنسبة للمرأة (سبق مناقشتها في الفصل التاسع)، إلا أن العديد من الحركات المبكرة لحقوق المرأة قبلت عناصر أخرى، وقد احتج عدد من الإصلاحيين من الإناث بأن السماح للنساء

بالقيام بدور أكبر في مجال العمل العام يجعل غريزة الأمومة الفطرية لديهن تعود بالنفع على الحياة العامة وبالتالي لصالح المجتمع بأكمله.

وقد امتنعت حتى حركات مناصرة حقوق المرأة التي انتقدت منظومة الزواج القائمة بصفة عامة عن إثارة القضية الشائكة الخاصة بحرية المرأة "الخاصة" علنا، ومع ذلك كثيرًا ما كانت تثار تلك القضية في المراسلات بين قيادات حركات حقوق المرأة، فعلى سبيل المثال أرسلت "سوزان ب. أنتوني" إلى "لوسي ستون" قائلة "إن الحرية الاجتماعية هي أساس كل شيء - وحتى تحصل المرأة عليها لابد أن تستمر في عبودية للرجل في جميع الأمور الأخرى" وقد عكست النساء مثل "أنتوني" التي لم تتزوج و"ستون" التي أرست مع زوجها تعريفهما الخاص للزواج نفس الاستياء من الحياة الأسرية التقليدية كالنساء اللائي خضن التجارب المجتمعية، ولم تلهم المطالبة بتوسيع نطاق الحرية لتشمل الجوانب الحميمة من الحياة حركة جماهيرية عريضة إلا بحلول القرن العشرين، ولكن الانخفاض الحاد في معدل المواليد على مدى القرن التاسع عشر يشير إلى أن العديد من النساء كنّ يمارسنّ الحرية الشخصية في الخفاء في علاقاتهن الحميمة.

انقسام دعاة إلغاء العبودية

ظلت المطالبة بأن تقوم المرأة بدور أكبر في مجال العمل العام محل جدل كبير حتى في أوساط الإصلاحيين، فعلى سبيل المثال، كان الطبيب "صامويل جريدلي هاو" من "ولاية ماساتشوستس" رائدًا في المعاملة الإنسانية وفي علاج المكفوفين وإصلاح التعليم؛ وكان أحد الدعاة المتحمسون لإلغاء العبودية، ولكنه مع ذلك لم يؤيد مشاركة زوجته في الحركة التي تدعو إلى حق الإناث في الانتخاب، وتذرع بأن هذا قد حملها على إهمال العلاقات الأسرية؛ وكان السبب المباشر لانقسام حركة إلغاء العبودية إلى جناحين في عام 1840 يعود إلى النزاع حول الدور المناسب للمرأة في العمل لمناهضة العبودية؛ وأدى تعيين "آبي كيلي" في اللجنة التجارية بالجمعية الأمريكية لمناهضة العبودية إلى تشكيل منظمة منافسة لإلغاء العبودية وهي الجمعية الأمريكية والأجنبية لمناهضة العبودية، والتي كانت تعتقد أنه من الخطأ أن تشغل امرأة موقعًا مرموقًا كهذا، وقارن الشاعر "جون جرينليف ويتير" المناهض للعبودية، كيلي بسيدات مثل "حواء" و"دليلة" و"هيلين طروادة" اللاتي زرعنَ بذور تدمير الذكور.

كان يكمن أيضًا وراء هذا الانقسام الخوف المنتشر بين بعض دعاة إلغاء العبودية من أن تعرقل راديكالية "جاريسون" حول قضايا كحقوق المرأة، بالإضافة إلى رفضه لدعم فكرة أن يترشح أو يشغل دعاة إلغاء العبودية للمناصب العامة، مسار الحركة؛ ونظرًا لرغبة المنشقين في جعل حركة إلغاء العبودية بمثابة حركة سياسية، فقد أسسوا "حزب الحرية" الذي رشح "جيمس ج.

ليتشنبيرج* كمرشح عنه لمنصب الرئيس، ولكنه لم يحصل إلا على 7,000 صوت فقط (أي حوالي نسبة ثلث بمعدل 1 في المائة من إجمالي الأصوات)؛ ورأى الشماليون مناهضو العبودية في عام 1840 أنه من الحكمة أن يعطوا أصواتهم لمرشح حزب آخر.

في حين أن معظم مطالب حركة حقوق المرأة لم تتحقق إلا في المستقبل، إلا أن الحركة نجحت في طرح *قضية المرأة* بشكل دائم في مناقشات الإصلاح الاجتماعي عبر المحيط الأطلسي؛ أما بالنسبة لحركة إلغاء العبودية، فبالرغم من أنها ظلت مطروحة بشكل كبير في الحياة العامة في الشمال حتى تحقق التحرر بالفعل، إلا أنها حققت أهم أعمالها التي كانت تسعى إليها بحلول عام 1840، حيث انتشر أكثر من 1,000 من الجمعيات المحلية المناهضة للعبودية في ذلك الوقت في جميع أنحاء الشمال وساهمت في إحداث صحوة جماهيرية عريضة تجاه القضية الأخلاقية للعبودية، حيث أعلن *رالف والدو إمرسون* في عام 1837 أن الواجب الأعظم للحرية يتمثل في فتح قاعاتنا لمناقشة هذه المسألة؛ ويكمن أعظم إنجاز لدعاة إلغاء العبودية في إحباط مؤامرة الصمت التي سعت إلى الحفاظ على الوحدة الوطنية من خلال قمع النقاش العام حول قضية العبودية.

أصوات الحرية

من أنجيلينا جريمكيه

خطاب نشر في صحيفة المحرر (في العدد الصادر يوم 2 أغسطس (أب) 1837)

أصبحت ابنتا أحد ملاك العبيد المرموقين في "ساوث كارولينا"، أنجلينا وسارة جريمكيه، داعيتين لإلغاء الرق بعد أن تم ارسالها إلى فيلادلفيا لتلقى تعليمهما. توضح "أنجلينا جريمكيه" في هذا المقال كيف أفضت مشاركتها في حركة مناهضة العبودية إلى تنامي إدراكها بانعدام الحريات الأساسية للمرأة.

قادني السعي للحصول على حقوق العبيد منذ أن انخرطتُ في هذا المضمار بالضرورة إلى فهم أكبر لحقوقي كامرأة، حيث اكتشفت أن قضية مناهضة العبودية... هي المدرسة التي يتم فيها البحث والفهم الأفضل وتعلم حقوق الإنسان بصورة كاملة بالمقارنة بأي مؤسسة [إصلاحية] أخرى... أفضى بنا البحث هنا إلى دراسة الأسباب وراء منح البشر لأي حقوق من الأساس وتوصلنا إلى أن ذلك يرجع إلى أن البشر كائنات أخلاقية، أي بوسعهم التفريق بين الخطأ والصواب... فجال في خاطري بطبيعة الحال أنه إذا كانت تلك الحقوق متأصلة في التمييز بين الخطأ والصواب فإن نوع الجنس لا يعطي عندئذٍ للرجل أفضلية في الحقوق والمسئوليات عن المرأة....فعندما ننظر إلى البشر على أنهم كائنات أخلاقية بوسعها التمييز بين الخطأ والصواب، عندئذ يتوارى نوع الجنس ليصبح أمرًا لا أهمية ولا معنى له لأنني أعتقد أن ما ينظم الحقوق والمسئوليات ليس لون الجلد أو لون العينين، لذا فإنّي أؤمن بأن كل ما يحق للرجل فعله من الناحية الأخلاقية يحق للمرأة أن تفعله كذلك... فهذا التنظيم للواجبات الذي يعتمد على أساس نوع الجنس وحسب ... أدى إلى تلك السلسلة [المتشعبة] من الآثام التي تنبع من المذهب المعادي للمسيحية عن فضائل الرجال والنساء، فانطلاقًا من هذا المعتقد تحول الرجل إلى محارب وارتدى عباءة القسوة والشدة... بينما تعلمت المرأة الاعتماد على غيرها ... لتكون محط إعجاب لمفاتنها الشخصية وتُداعب وتعامل كطفل مدلل أو تتحول إلى مجرد خادمة تتعب على راحة سيدها وولي أمرها... لقد سلبوا من المرأة... الحق في التفكير والحديث والتصرف في جميع المسائل الأخلاقية العظمى تمامًا كما يفكر الرجل ويتحدث ويتصرف....

لقد مهدت مناقشة آثام العبودية الطريق لمناقشة الحقوق الأخرى وستكون النتيجة في نهاية المطاف بالتأكيد.. منح الحرية للمضطهدين في جميع الطبقات وأيًا كانت هيئتهم وأوصافهم.

من فريديريك دوجلاس،

خطاب ألقاه في 5 يوليو/تموز 1852، روتشستر نيويورك

هرب "فريدريك دوجلاس"، وهو من أبرز قادة الإصلاح في عصره، من العبودية في عام 1838 وسرعان ما أصبح كاتبًا وخطيبًا ذو شهرة دولية لمناهضة العبودية؛ لقد أدان خطابه الذي ألقاه في يوليو/ تموز 1852 نفاق الأمة التي أعلنت تمسكها بالحرية بينما تمارس العبودية في نفس الوقت. أعيد طباعة خطابه في عام 1855 في طيات سيرته الذاتية التي كانت بعنوان "عبوديتي وحريتي".

أيّها المواطنون، أستمحيكم عذرًا بأن تسمحوا لي أن أسأل لماذا تمت دعوتي لأتحدث هنا اليوم؟ ما علاقتي أو علاقة مَنْ أُمَثِلهم باحتفالكم بعيد الاستقلال الوطني؟ هل تمتد المبادئ العُظمى للحرية السياسية والعدالة الطبيعية التي نصّ عليها إعلان الاستقلال لتشملنا؟ . . . ليس هذا هو الحال هنا. أقول هذا بينما يخالجني شعور بالأسف حيال التمييز بيننا فأنا لست من بين مَنْ يحتفلون بهذه الذكرى المجيدة لأن عيد الاستقلال المجيد يكشف فقط مدى التباعد الذي لا حد له بيننا... لأن الإرث الزاخر بالعدالة، والحرية، والازدهار، والاستقلال الذي توارثتموه من آبائكم إنما هو لكم وحدكم لتتقاسموه ولم تُشركوني معكم فيه...

يكفي في الوقت الراهن أن أجزم بأن العرق الزنجي رجالٌ أمثالكم، أليس من المدهش أنه بينما نحرث ونزرع ونحصد باستخدام كافة أنواع الأدوات الميكانيكية، ونشيد المنازل، ونبني الجسور والسفن... ونعمل كموظفين وتجار وأمناء سر.. ونقر بوجود الرب ونعبده ونتطلع إلى الحياة بأمل والخلود ما بعد الموت وفقًا للديانة المسيحية، نجد أنفسنا ملزمين بأن نثبت أننا بشر! . . . فهل تريدون مني التذرع بقولي بأن الحرية من حق الإنسان وأنه هو المالك الشرعي لجسده؟ كيف وأنتم أعلنتم عن ذلك بالفعل. هل يتعين عليَّ أن أحتج بعدم مشروعية العبودية؟. . . وأن الحرية حق فطري للإنسان؟ . . . لتحقيق ذلك، سأبدو أحمق في نظركم وأعيب عليكم فهمكم، فلا يوجد هناك رجل تحت أديم السماء لا يعرف أنّ العبودية إثم وخطيئة وظلم...

ما الذي يمثله عيد الاستقلال في الرابع من يوليو/ تموز للعبد الأمريكي؟ أجيب بالقول إنه اليوم الذي يكشف له أكثر من أي يوم آخر من أيام العام مدى فداحة الظلم والقسوة اللذان يقع ضحية لهما بصفة مستمرة، فاحتفالكم بالنسبة له عار؛ فحريتكم التي تتباهون بها هي رخصة غير طاهرة وغير مقدسة، وعظمتكم الوطنية عظَّمت من غروركم، والصيحات التي تتعالى من ابتهاجكم ما هي إلا خواء وتنم عن تحجر أفئدتكم، وتنديداتكم بالطغاة لا تنم إلا على وقاحتكم التي لا أمل في التخلص منها، وصيحاتكم للحرية والمساواة ما هي إلا سخرية فارغة وغطاء رقيق للتستر على الجرائم التي ستكون وصمة عار لأمة من المتوحشين. لا توجد أمة على

وجه البسيطة تُرتكب فيها تلك الممارسات أشنع وأكثر ودموية من الشعب الأمريكي في الوقت الحالي بالذات.

أسئلة:

1- ما العواقب التي تعتقد الأختان "جريمكيه" أنها ستنجم عن الاقتناع بفكرة أن مناط الحقوق يرتكز على ملكة التمييز بين الصواب والخطأ لدى الفرد؟

2- كيف حوَّل دوجلاس المُثُل العليا التي أعلنها الأمريكيون البيض إلى أسلحة لمناهضة الرق؟

3- ما الذي تشير إليه هذه الوثائق من حيث لغتها والحجج التي استخدمها دعاة إلغاء العبودية؟

أسئلة المراجعة:

1- إلى أي مدى كان انتشار الإصلاح ما قبل الحرب على النطاق الدولي؟

3- ما هي الأهداف المتوخاة من فكرة بناء السجون والمصحات وغيرها من المؤسسات في هذه الفترة من التغيير الاجتماعي؟

3- لماذا اعتقد "هوراس مان" أن التعليم العام للجميع سيعيد كلًّا من المساواة والاستقرار للمجتمع الذي انقسم من جراء ثورة السوق؟

4- لماذا دعم العديد من المواطنين الأمريكيين البارزين من الشمال والجنوب على حد سواء ترحيل العبيد الأحرار خارج البلاد؟

5- ما هي استراتيجية الإقناع بالحجج الأخلاقية ولماذا دعم معظم دعاة إلغاء العبودية الأوائل هذه السياسة؟ وما مدى نجاحها؟

6- كيف تجلت العنصرية حتى في حركة إلغاء العبودية نفسها وما الخطوات التي اتخذها بعض دعاة إلغاء العبودية لمناهضة العنصرية في المجتمع الأمريكي؟

7- كيف شاركت النساء في مجال العمل العام في فترة ما قبل الحرب الأهلية على الرغم من إقصائهنّ من الحكومة والسياسة؟

8- كيف تمكنت مشاركة النساء في حركة إلغاء العبودية من إثارة القضايا الخاصة بهن والمتعلقة بحقوقهن الطبيعية وحرياتهن؟

9- كيف تحدت حركة حقوق المرأة في تلك الفترة المعتقدات التقليدية للجنسين والمبادئ الاجتماعية؟

أسئلة الحرية:

1- ما هي الحريات التي سعى أتباع كل من طائفة الشيكر والمورمون لضمانها لأعضائها؟

2- قارن بين القيود المفروضة على حرية العبيد والنساء البيض في هذه الفترة.

3- كيف أصبح يُنظر للاعتداءات الجسدية والقانونية على دعاة إلغاء العبودية على أنها اعتداءات على الحريات لجميع الأمريكيين البيض في الشمال؟

4- كيف نشرت حركة إلغاء الرق فكرة الحرية كاستحقاق لجميع البشر وبناء عليها تغير التعريف الوطني للحرية؟

15- اعتقد بعض الإصلاحيين أن سلطة الحكومة قد تكون عاملاً مؤثرًا في الحصول على الحرية، بينما رأت جماعات أخرى أن حركات الإصلاح هي اعتداءات على الحرية والمجتمع. اشرح وجهة نظر كل منهم.

جدول المراجعة		
المنظمات الإصلاحية		
الجمعية	التاريخ	الغرض
الجمعية الأمريكية لترحيل السود خارج البلاد	1816	تعزيز الإلغاء التدريجي للعبودية وتوطين الأمريكيين السود في أفريقيا
الجمعية الأمريكية للاعتدال	1826	لتحرير كل شاربي الكحول
الجمعية الأمريكية لمناهضة العبودية	1833	لإلغاء العبودية بشكل فوري
الجمعية النسائية للإصلاح الأخلاقي	1834	لتحرير النساء المومسات من حياة الرذيلة وحماية أخلاق النساء غير المتزوجات

الفصل الثالث عشر

1820	موسى أوستن يتلقى وثيقة منح الأراضي المكسيكية
1836	استقلال ولاية تكساس عن المكسيك
1845	تنصيب جيمس بولك
1846 -1848	الحرب المكسيكية
1846	سجن هنري دايفيد توريو
	وضع شرط ويلموت
1848	تشكيل حزب الأراضي الحرة
	معاهدة جواد يلوب هيدالجو
	اكتشاف وجود ذهب في سفوح جبال سيرا نيفادا
1849	تنصيب زخاري تايلور
1850	تسوية عام 1850
	قانون العبيد الهاربين
1853	تنصيب فرانكلين بيرس
1854	قانون ولايتي كانساس ونبراسكا
	تأسيس حزب "لا أدري"
	بيان أوستند
	تأسيس الحزب الجمهوري
1856	نزيف ولاية كنساس
1857	تنصيب جايمس بيوكانان
	قرار دريد سكوت
1858	مناظرات لينكولن ودوغلاس
1859	غارة جون بروان على مدينة هاربرز فيري
1860	انفصال ولاية كارولينا الشمالية
1861	تنصيب أبراهام لينكولن
	إطلاق النيران في منطقة فورت سومتر

منزل ينقسم (الولايات المتحدة الأمريكية)، 1840-1861

نتائج القدر الواضح
- التوسع القاري
- الحدود المكسيكية: نيو ميكسيكو وكاليفورنيا
- ثورة تكساس
- انتخابات عام 1844
- الطريق إلى الحرب
- الحرب ومعارضوها
- المعركة في المكسيك
- العرق والقدر الواضح
- إعادة تعريف الأعراق
- التهافت على البحث عن الذهب في كاليفورنيا
- كاليفورنيا وحدود الحرية
- التهافت الثاني على الذهب
- فتح اليابان

جرعة من سم الزرنيخ
- شرط ويلموت
- دعوة أراضي الأحرار
- الأزمة والتسوية
- المناظرة العظمى
- قضية العبيد الهاربين
- دوجلاس والسيادة الشعبية
- قانون كانساس ونبراسكا

ظهور الحزب الجمهوري
- الاقتصاد في الشمال
- ظهور حزب "لا أدري" وسقوطه
- فكر العمل الحر
- نزيف كانساس وانتخابات عام 1856

ظهور لينكولن
- الحكم في قضية دريد سكوت
- في أعقاب القرار
- لينكولن والعبودية
- حملة دوجلاس ولينكولن
- جون براون وهاربرس فيري
- ظهور النزعة القومية في الجنوب
- الانقسام الديمقراطي
- ترشيح لينكولن
- انتخاب عام 1860

أزمة وشيكة
- حركة الانفصال
- أزمة الانفصال
- واندلاع الحرب

أسئلة تركيز:

- ما العوامل الرئيسية التي ساهمت في التوسع الإقليمي في الولايات المتحدة في أربعينيات القرن التاسع عشر؟
- لماذا أصبحت قضية توسيع نطاق العبودية أكثر القضايا السياسية إثارة للانقسام في أربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر؟
- ما هو مزيج القضايا والأحداث الذي كان الدافع وراء إنشاء الحزب الجمهوري في خمسينيات القرن التاسع عشر؟
- ما الذي ساعد لينكولن على أن يُصبح رئيسًا وسط سياسة الأحزاب المنقسمة في خمسينيات القرن التاسع عشر؟
- ما هي الخطوات النهائية التي مهدت الطريق للانفصال؟

في عام 1855، طُلب من "توماس كروفورد" الذي يُعد أحد أبرز النحاتين الأمريكيين في تلك الحقبة، تصميم تمثال يُزين قبة مبنى الكابيتول الذي كان لا يزال قيد الإنشاء في العاصمة واشنطن؛ فاقترح تمثال للحرية وهو عبارة عن امرأة ترتدي قبعة الحرية، فاعترض وزير الدفاع "جيفرسون ديفيس" من ولاية ميسيسبي، الذي يُعد أحد أكبر مالكي العبيد في البلاد، على خطة "كروفورد" حيث كانت قبعة الحرّية رمزًا مألوفًا في تلك الحقبة الاستعمارية، والذي كان يُثير سخط بعض الأمريكيين بعد أن ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالثورة الفرنسية؛ ولكن رفض "دافيس" يرجع لأسباب أخرى، حيث أشار إلى أن الرومان القدماء كانوا يعتبرون القبعة "رمزًا للعبيد الذين أطلق سراحهم" ويخشى أنه قد يُوحي استخدامه بأن هناك علاقة بين حرية العبيد الذين يسعون إلى الحصول عليها وحرية الأمريكيين المولودين أحرارًا، ولذلك أمر باستبدال قبعة الحرية برمز عسكري أقل إثارة للجدل، ألا وهو خوذة مجنحة.

توفى كروفورد في عام 1857 في إيطاليا، حيث قضى معظم حياته المهنية؛ وبعد مُضي عامين نُقل تمثال الحرية الضخم الذي كان يزن 15.000 رطل إلى الولايات المتحدة في عدة قطع، حيث تم تجميعه في إحدى المسابك في "ميريلاند" تحت إشراف حرفي من العبيد يُدعى "فيلب ريد"، ثم بعد ذلك تم تثبيته في عام 1863 فوق مبنى الكابيتول في المكان الموجود فيه إلى يومنا هذا؛ وهو التاريخ الذي تزامن مع دخول البلاد في حرب أهلية وأصبح "جيفرسون ديفيس" رئيسًا للولايات الكونفدرالية الأمريكية. هذا ويضرب الخلاف حول تمثال الحرية مثالاً توضيحيًا بسيطًا على كيف أنه بحلول منتصف خمسينيات القرن التاسع عشر كانت أي قضية عامة تقريبًا تكتسحها عاصفة متجمعة حول الحرية.

نتائج القدر الواضح

التوسع القاري

تصدرت قضية العبودية مسرح الأحداث في السياسة الأمريكية خلال أربعينيات القرن التاسع عشر؛ ولم يحدث ذلك من خلال الحديث بلغة الأخلاق أو مع البرنامج الذي يهدف إلى سرعة إلغاء العبودية، ولكنه حدث نتيجة للتوسع الإقليمي للبلاد؛ فمع تمام الانتهاء من إخراج الهنود بحلول عام 1840، عندما باتت تقريبًا جميع الأراضي التي تقع شرق نهر المسيسيبي في أيدي البيض، كما أدى الكساد الذي بدأ في عام 1837 إلى حدوث هجرة كبيرة من المستوطنين إلى مناطق أبعد صوب الغرب، حيث اتجه بعضهم إلى ولاية أوريجون حيث يقع "وادي ويلاميت" الذي ذاع صيته بأنه أحد المناطق الأكثر جمالاً وخصوبة في القارة، إلا أن الوجود الأمريكي في المنطقة كان مقصورًا حتى أربعينيات القرن التاسع عشر على عدد قليل من تجار الفراء

والمستكشفين؛ ولكن قطع نحو 5.000 مهاجر في الفترة بين عامي 1840 و1845 تلك الرحلة التي تبلغ 2,000 ميلاً في سلسلة من عربات النقل إلى ولاية "أوريجون"، من نقاط انطلاق على ضفاف نهر "ميزوري"؛ وبحلول عام 1860، تحدى ما يقرب من 300,000 رجل وامرأة وطفل المرض والمجاعة والحواجز الطبيعية لجبال "روكي"، والهجمات العابرة التي يشنها الهنود الحمر وسافروا برًا إلى ولاية "أوريجون" وولاية "كاليفورنيا".

تداولت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى خلال فترة كبيرة من أربعينيات القرن التاسع عشر إدارة ولاية "أوريجون" معًا، وكانت ولاية "يوتا" جزءًا من المكسيك ولم يمنع هذا الأمريكيين من الإقامة في أي من المنطقتين، حيث لم يلق المهاجرون إلى الغرب بالاً بالحدود الوطنية، وشهدت أربعينيات القرن التاسع عشر استشراء الاعتقاد القديم بأن الله قدّر للأمة الأمريكية أن تتوسع عبر كل المحيط الهادئ، وكما ذكرنا في الفصل التاسع، كان المصطلح الذي أصبح يرمز إلى هذه الروح التوسعية هو "القدر الواضح".

الحدود المكسيكية: نيو مكسيكو وكاليفورنيا

لم يثر استيطان "أوريجون" قضية العبودية بشكل مباشر، ولكن احتلال الأمة لجزء من المكسيك أثار تلك القضية؛ فعندما استقلت المكسيك عن إسبانيا في عام 1821، كانت مساحتها تبلغ تقريبًا نفس مساحة الولايات المتحدة، وكان تعداد سكانها البالغ 6.5 مليون نسمة يشكل حوالي ثلثي سكان الدولة المجاورة لها في الشمال، ولكن المقاطعات الشمالية بالمكسيك - أي "كاليفورنيا"، و"نيو مكسيكو"، و"تكساس" - كانت بمثابة مخافر أمامية معزولة ومستوطنة بشكل غير كثيف ومحاطة بالريف الهندي؛ وكان سكان نيو مكسيكو في وقت استقلال المكسيك يتألف من حوالي 30.000 ألف نسمة من أصل إسباني، و10.000 نسمة من هنود البويبلو وعدد غير محدد من الهنود البريين - عصابات بدوية من قبائل "أباتشي"، و"كومانتشي"، و"نافاجوز"، و"أوتيس"؛ وتم افتتاح طريق "سانتا في تريل" في عام 1821 ليربط هذه المدينة المستقلة بولاية "ميزوري" وتجارة "نيو مكسيكو" بتجارة الولايات المتحدة المتوارية مع بقية المكسيك.

كان عدد السكان غير الهنود في "كاليفورنيا" في عام 1821، البالغ 3.200 مبشر وجندي ومستوطن، أقل بفارق كبير عن عدد الهنود الذين يعيشون ويعملون في الأراضي المملوكة للبعثات الدينية، والبالغ عددهم حوالي 20,000 شخص وعن 150,000 عضو من القبائل التي لم تُهزم في المناطق الداخلية؛ وفي عام 1834، فككت الحكومة المكسيكية الأراضي الشاسعة المملوكة للبعثات الدينية وحررت الهنود الذين يعملون لدى الرهبان، سعيًا لتقليل نفوذ الكنيسة الكاثوليكية وجذب المستوطنين المكسيكيين والأجانب إلى كاليفورنيا؛ وانتهى المطاف بمعظم

الأراضي في أيدي فئة جديدة من مربي الماشية المكسيكيين (سكان كاليفورنيا كما كانوا يُميزون هويتهم إلى حد كبير عن السكان الهنود المحيطين بهم فكانوا يصفون أنفسهم بأنهم أناس قادرون على التفكير في مقابل وصفهم للهنود بأنهم أناس بلا عقل)، وطُلب من الهنود مواصلة العمل لدى مالكي الأراضي الجدد من أجل المصالح المشتركة.

بحلول عام 1840، ارتبطت كاليفورنيا تجاريًا بالفعل بالولايات المتحدة، وتاجرت سفن نيو إنجلاند مع المنطقة كما أوضحت رواية ريتشارد هنري دانا الشهيرة عامان أمام صاري السفينة (1840)، والتي تروي قصة رحلة شاب إلى كاليفورنيا وتجاربه هناك؛ كما جذبت كاليفورنيا عددًا قليلاً من الوافدين الأمريكيين الجدد، حيث نشر روبنسون ألفريد في عام 1846 كتابه الحياة في كاليفورنيا، بعد أن انتقل إليها من بوسطن وتساءل فيه لما لا نوسع نطاق الحرية في تلك الحقبة التي يتم فيها ضم الأراضي ليشمل كاليفورنيا؟

ثورة تكساس

كانت تكساس هي أول جزء في المكسيك استوطنته أعداد كبيرة من الأمريكيين، وكان يبلغ تعداد سكانها غير الهنود من أصل إسباني (يُطلق عليهم تيجانوس) حوالي 2,000 نسمة عندما أصبحت المكسيك مستقلة؛ ومن أجل تطوير المنطقة قبلت الحكومة المكسيكية عرضًا قدمه مزارع وُلد في ولاية كونيتيكت يُدعى موسى أوستن يقضي باستيطان الأمريكيين لتلك المنطقة، وبالفعل تلقى أوستن في عام 1820 منحة كبيرة من الأراضي ثم قضى نحبه إثر هذا بفترة قصيرة؛ وواصل ابنه ستيفن خطته وأعاد بيع الأراضي في شكل قطع أراضي صغيرة للمستوطنين الأمريكيين بسعر اثني عشر سنتًا لكل فدان حتى بلغ تعداد السكان من أصل أمريكي حوالي 7,000 نسمة بحلول عام 1830، وتجاوز بهذا عدد السكان ذوي الأصل الإسباني (التيجانوس) بمقدار كبير.

وقد ألغت الحكومة المكسيكية في عام 1830 العقود القائمة للأراضي، خشية أن تضعف سيطرتها على المنطقة ومنعت الهجرة مستقبلاً من الولايات المتحدة؛ وطالب المستوطنون الأمريكيون بزعامة ستيفن أوستن بمزيد من الاستقلال الذاتي داخل المكسيك، وانضم إليهم جزء من نخبة التيجانوس الضئيلة في المنطقة، والذين كان معظمهم من مربي الماشية والمزارعين الكبار، والذين رحبوا بالازدهار الاقتصادي الذي جلبه المستوطنون الأمريكيون معهم وشكلوا تحالفات اقتصادية مع التجار الأمريكيين؛ وزادت قضية العبودية من تفاقم الأمور حيث ألغت المكسيك العبودية، لكن السلطات المحلية سمحت للمستوطنين الأمريكيين بجلب العبيد معهم، وعندما أرسل حاكم المكسيك الجنرال أنطونيو لوبيز دي سانتا آنا جيشًا في عام 1835 لفرض

السلطة المركزية، اتهمته إحدى اللجان المحلية بأن هدفه من وراء ذلك هو منح الحرية لعبيدنا وجعلنا عبيدًا.

وقد أشعل ظهور جيش "سانتا آنا" ثورة فوضوية في "تكساس"، وشكّل المتمردون حكومة مؤقتة والتي سرعان ما دعت إلى استقلال "تكساس"؛ فاجتاح جيش "سانتا آنا" في 13 مارس/ آذار عام 1836 منطقة "ألامو"- مجمع تبشيري في "سان أنطونيو" - وقتل 187 من المدافعين من بين الأمريكيين القاطنين فيها، ومن السكان ذوي الأصل الإسباني (التيجانوس)؛ وتجمع مواطنوا تكساس تحت نداء استنفار "تذكروا ألامو"، وأحاطت القوات تحت قيادة حاكم "تينيسي" السابق "هيوستن" بجيش "سانتا آنا" في نيسان/ إبريل في معركة "سان جاسينتو"، وأجبروه على الاعتراف باستقلال تكساس؛ وسرعان ما تم انتخاب "هيوستن" كأول رئيس لجمهورية تكساس، ثم دعا كونجرس تكساس في عام 1837 إلى الاتحاد مع الولايات المتحدة، ولكن خشيةً أن تنشأ نزاعات سياسية حتمًا، نتيجة محاولة إضافة ولاية أخرى خاضعة إلى الاتحاد، تجاهل الرئيسان أندرو جاكسون" و"مارتن فان بيورين" المسألة، ورغم ذلك تدفق المستوطنون من الولايات المتحدة إلى المنطقة وكان من بينهم العديد من ملاك العبيد الذين استولوا الأراضي الخصبة لزراعة القطن حتى بلغ عدد سكان تكساس 150,000 نسمة تقريبًا بحلول عام 1845.

انتخاب عام 1844

لم يلق ضم "تكساس" اهتمامًا سياسيًا حتى أحيا الرئيس "جون تايلر" تلك المسألة أملاً في إنقاذ إدارته الفاشلة وتأمين دعم الجنوب لإعادة ترشيحه في عام 1844؛ وتسرب إلى الصحافة في نيسان/ إبريل عام 1844 خطاب أرسله "جون جيم كالهون"، الذي عينه "تايلر" كوزير للدولة، ربط فيه فكرة ضم "تكساس" بشكل مباشر بالهدف المتمثل في تعزيز العبودية في الولايات المتحدة؛ وطمح بعض القادة الجنوبيين في الواقع إلى تقسيم "تكساس" إلى عدة ولايات، لأن هذا سيعمل على تعزيز نفوذ الجنوب في الكونجرس؛ وفي أواخر هذا الشهر، التقى مرشحا الرئاسة المحتملان عن الحزبين اليميني والديمقراطي، "هنري كلاي" والرئيس السابق "فان بيورين"، اللذان يعتبران من أكثر قادة الحزبين مهابةً في مزرعة كلاي في ولاية كنتاكي، واتفقا على إصدار خطابات لرفض الضم الفوري بحجة أن ذلك يمكن أن يُشعل حرب مع المكسيك، لأن كلاهما كانا يتعاملان مع قضية العبودية بالطريقة التقليدية - أي من خلال السعي إلى إقصائها عن السياسة الوطنية.

ذهب "كلاي" لتلقي ترشيح الحزب اليميني، ولكن كان وقع الخطابات كارثيًا بالنسبة إلى "فان بيورين"؛ ففي المؤتمر الديمقراطي اتجه الجنوبيون الراغبون في ضم "تكساس" إلى هجر القضية التي طرحها "فان بيورين" الذي أخفق بالفعل في الحصول على ثلثي الأغلبية اللازمة لترشيحه،

ومن ثَمَّ تحول ممثلو الأحزاب إلى حاكم "تينيسي" السابق "جيمس ك. بولك"، غير المعروف على نطاق واسع، والذي كانت إسهاماته تتمثل في دعمه لضم "تكساس" وعلاقته الوثيقة مع "أندرو جاكسون"، الذي يُعد الشخصية الأكثر شعبية في الحزب؛ وعلى غرار جميع الرؤساء الذين سبقوه، كان بولك أحد مالكي العبيد وكان يملك مزارع كبيرة للقطن في ولاية "تينيسي" وولاية "ميسيسبي"، حيث كانت ظروف المعيشة فيهما وحشية لدرجة أنه كان يعيش نصف أطفال العبيد إلى سن الخامسة عشرة فقط، وعادة ما كان البالغون يهربون؛ وفي محاولة منه لاسترضاء الديمقراطيين الشماليين حيال رفض "فان بيورين"، لم يدعُ برنامج الحزب إلى إعادة ضم "تكساس" وحسب (مما يعني أن تكساس كانت جزءًا من صفقة شراء ولاية لويزيانا ومن ثَمَّ كانت تابعة فيما مضى إلى الولايات المتحدة)، بل دعا أيضًا إلى إعادة احتلال" جميع مناطق "أوريغون" وأصبح شعار "خط عرض 54 ° 40 أو الحرب" - السيطرة الأمريكية على ولاية أوريغون وصولاً إلى حدودها الشمالية عند خط عرض 54 ° 40 – الشعار الشهير للحملة، غير أن استياء الشماليين المناصرين "لفان بيورين"، والذين اعتبروا أن هذا الأمر بمثابة خيانة من جانب الجنوب، قد ترك أثره على السياسة الأمريكية لسنوات قادمة.

كان "بولك" أول مرشح يمثل "الحصان الأسود" لمنصب الرئيس- أي أن ترشيحه لم يكن متوقعًا البتة؛ وبالفعل هزم "كلاي" في فصل الخريف في انتخابات كانت نتيجتها متقاربة جدًا، وكان هامش "بولك" في التصويت الشعبي أقل من 2 في المائة؛ وإذا لم يترشح "جيمس ج. بيرني" مرة أخرى كمرشح لحزب الحرية وحصد 16,000 ألف صوت في "نيويورك"، معظمهم من الحزب اليميني المناهضين للعبودية، كان سيتم انتخاب "كلاي"، وأعلن الكونجرس في مارس/ آذار من عام 1845، قبيل أيام من تنصيب بولك، أن تكساس جزءًا من الولايات المتحدة.

الطريق إلى الحرب

لعل "جيمس ك. بولك" لم يكن معروفًا بالفعل، إلا أنّه تولى الرئاسة بمجموعة أهدافٍ واضحة: خفض التعريفة الجمركية، وإعادة تأسيس نظام الخزانة المستقل، وتسوية النزاع حول ملكية "أوريجون"، وضم "كاليفورنيا" إلى الاتحاد؛ وسرعان ما حقق الكونجرس أول هدفين ونفذ الهدف الثالث من خلال التوصل إلى اتفاقية مع بريطانيا العظمى لتقسيم "أوريجون" بمحاذاة خط عرض التاسعة والأربعين؛ وقد أصابت هذه التسوية الكثير من الشماليين بخيبة الأمل لأنهم اعتبروها بمثابة خيانة للتعهد الذي قطعته حملة "بولك" الانتخابية على نفسها بعدم التخلي عن أي جزء من "أوريجون" دون قتال، ولكن الرئيس حقق أهدافه الرئيسية، وهي وادي "ويلاميت" ومرفأ "بوجيت ساوند" الرائع.

وقد تبين أن الحصول على "كاليفورنيا" كان أكثر صعوبة، حيث أوفد "بولك" مبعوثًا إلى المكسيك يعرض شراء المنطقة ولكن الحكومة المكسيكية رفضت التفاوض، ولذلك كان بولك يخطط لاتخاذ إجراء عسكري بحلول ربيع عام 1846؛ وبالفعل نقل الجنود الأمريكيين في إبريل/ نيسان بقيادة "زخاري تايلور" إلى المنطقة التي تقع بين نهر "نويسيز" ونهر "ريو جراندي"، وهي الأرض التي يدعي كلا البلدين ملكيتها على الحدود المتنازع عليها بين "تكساس" و"المكسيك"، وجعل هذا الإجراء القتال مع القوات المكسيكية أمرًا لا مفر منه؛ وعندما اندلع القتال، ادعى "بولك" أن المكسيكيين "سفكوا الدماء على الأراضي الأمريكية" ودعا لإعلان الحرب.

الحرب ومعارضوها

كانت الحرب المكسيكية هي بمثابة الصراع الأول الذي تخوضه الولايات المتحدة على أرض أجنبية، والحرب الأولى التي تحتل فيها القوات الأمريكية عاصمة أجنبية؛ وقد أيد أغلبية الأمريكيين الحرب حيث ألهمتهم النزعة التوسعية "للقدر الواضح"؛ وكانوا على قناعة حسبما ذكر "هرمان ملفيل" في روايته "السترة البيضاء" التي صدرت في عام (1850)، أنه نظرًا لأن الأمريكيين يحملون راية الحريات للبشرية جمعاء، فإن الإيثار الوطني بمثابة عطاء غير محدود ... للعالم؛ ولكن أعربت أقلية كبيرة في الشمال عن رأي مخالف خشيةً من أن يكون الهدف الحقيقي للإدارة أبعد ما يكون عن توسيع الإمبراطورية العظمى للحرية، ولكن الهدف الحقيقي للإدارة هو احتلال أراض جديدة للتوسع في العبودية؛ فعلى سبيل المثال، "أوليسيس س. جرانت"، الذي خدم بتفان في المكسيك، علق فيما بعد على الحرب قائلاً "إنها أحد أكثر الحروب ظلمًا التي شنتها أمة أقوى ضد أمة أضعف" إشارة منه إلى أن الولايات المتحدة بدأت تتصرف على غرار الممالك الأوروبية وليس كجمهورية ديمقراطية، وقد سُجن "هنري ديفيد ثورو" في ولاية "ماساتشوستس" في عام 1846 لرفضه دفع الضرائب احتجاجًا على الحرب وكتب "ثورو" مقالاً مهمًا في دفاعه عن فعله هذا بعنوان "بدء العصيان المدني" الذي ألهم فيما بعد مناصري المقاومة غير العنيفة للقوانين غير العادلة مثل "مارتن لوثر كينج الابن" قائلا "في ظل حكومة تسجن أي إنسان ظلمًا، فإن المكان الحقيقي لأي رجل عادل أيضًا هو السجن أيضًا".

كان "أبراهام لنكولن" من بين معارضي الحرب، وقد تم انتخابه للكونجرس في عام 1846 عن ولاية "إيلينوي"؛ وقد تساءل على غرار العديد من الهويج عما إذا كان المكسيكيون قد ألحقوا بالفعل خسائر على الأرض الأمريكية كما ادعى "بولك"؛ وقدم مشروع قرار في عام 1847 يطالب فيه الرئيس بأن يحدد بدقة أول منطقة سُفِكَت فيها الدماء، كما انزعج "لينكولن" أيضًا من ادعاء "بولك" بالحق في بدء الحرب على المكسيك؛ وخاطب الكونجرس قائلا "إذا خولتم الرئيس بغزو

دولة مجاورة متى ترآى له أن ثمة ضرورة لصد غزو، فإنكم عندئذٍ تكونوا قد خولتموه لشن الحرب حسب هواه... فإذا ما قرر اليوم القول بأنه يترآى له ضرورة غزو كندا لصد غزو البريطانيين لنا، فكيف يمكنكم عندئذ أن توقفوه؟" ولكن موقف "لنكولن" هذا لم يحظ بشعبية في ولاية "إيلينوي"، وقد وافق بالفعل على أن تستمر عضويته بالكونجرس لفترة واحدة فقط؛ ولكن عندما استولى الديمقراطيون على مقعده في عام 1848، ألقى الكثيرون باللوم على "لينكولن" لانتقاده للحرب، ولكن المخاوف التي أثارها فيما يتعلق بسلطة الرئيس في شن الحرب حسب هواه وجدت صدى واسعًا في القرنين العشرين والحادي والعشرين.

القتال في المكسيك

تم تجنيد أكثر من 60,000 متطوع، وخاضوا معظم أحداث القتال، ودارت المعركة على ثلاث جبهات، حيث أعلنت زمرة من المتمردين الأمريكيين في يونيو/ حزيران عام 1846 تحرر "كاليفورنيا" من السيطرة المكسيكية، وأعلن النقيب "جون جي فريمونت"، والذي كان رئيسًا لبعثة استكشافية علمية صغيرة في الغرب، حاكمًا على "كاليفورنيا"؛ وكانوا يهدفون إلى ضم "كاليفورنيا" إلى الولايات المتحدة ولكنهم رفعوا بصفة مؤقتة علمًا يحمل صورة دُب كبير كرمز لاستقلال المنطقة؛ وأبحرت البحرية الأمريكية بعد مُضي شهر إلى مرافئ "مونتيري" وسان فرانسيسكو" رافعين العلم الأمريكي وقضوا على الجمهورية ذات العلم الذي يحمل دبًا؛ وفي نفس الوقت تقريبا، احتل نحو 1.600 جندي أمريكي تحت قيادة الجنرال "ستيفن دبليو كيرني" منطقة "سانتا في" دون مقاومة وبعدئذ توجهوا لجنوب "كاليفورنيا"، حيث ساعدوا على إخماد الانتفاضة المكسيكية ضد الحكم الأمريكي.

وقع الجانب الأكبر من القتال في وسط المكسيك حيث هزم "تايلور" في فبراير/ شباط عام 1847 جيش "سانتا آنا" في معركة "بوينا فيستا"؛ ونظرًا لأن الحكومة المكسيكية كانت لا تزال رافضة للتفاوض، لذلك أمر "بولك القوات الأمريكية" تحت قيادة "وينفيلد سكوت" بالسير برًا من ميناء "فيرا كروز" نحو مدينة المكسيك، وأحاطت قوات "سكوت" المحاربين المكسيكيين واحتلوا عاصمة البلاد في سبتمبر/ أيلول، فاتفقت الحكومتان في فبراير/ شباط 1848 على معاهدة "جواد يلوب هيدالجو" التي أكدت على ضم "تكساس" والتنازل عن "كاليفورنيا"، وما يعرف حاليا "بنيو مكسيكو"، و"أريزونا"، و"نيفادا"، و"يوتا" إلى الولايات المتحدة في مقابل دفع الولايات المتحدة 15 مليون دولارًا للمكسيك؛ ورسمت الأراضي المكسيكية المتنازل عنها كما كان يُطلق على الأراضي التي تم ضمها من المكسيك الحدود الإقليمية الحالية في قارة أمريكا الشمالية، باستثناء شراء "جادسدن" وهي قطعة أرض إضافية تم شرائها من المكسيك في عام 1853 و"ألاسكا" التي تم الحصول عليها من روسيا في عام 1867.

خلافًا لغيرها من الحروب، تمثل الحرب المكسيكية مجرد واقعة عرضية هامشية في الذاكرة التاريخية بالنسبة لمعظم الأمريكيين، فليس هناك سوى نصب تذكارية قليلة تُحيي ذكرى هذه الحرب؛ أما في الجانب المكسيكي فإنهم يعتبرون هذه الحرب (أو كما يسمونها في ذلك البلد "التقسيم") حدثًا رئيسيًا في تاريخهم الوطني، وسببًا للاستياء المستمر على مدى قرن ونصف بعد انتهائها كما أعرب المفاوضون المكسيكيون في عام 1848 أنه كان أمرًا غير مسبوقٍ أن تُشن حرب لأن بلد رفض بيع جزء من أراضيه إلى دولة مجاورة.

العِرق والقدر الواضح

استحوذت الولايات المتحدة إثر نهاية الحرب المكسيكية على نصف مليون كيلومتر مربع من الأراضي المكسيكية، أي ما يعادل ثلث المساحة الكلية لتلك الدولة؛ وتم فجأة تقسيم المنطقة التي كانت موحدة لعدة قرون إلى منطقتين مما أدى إلى تفريق الأسر وفصل الطرق التجارية، حيث كان يقطن ما يتراوح بين 75,000 إلى 100,000 من المكسيكيين الناطقين بالإسبانية وأكثر من 150,000 من الهنود الحمر الأراضي المكسيكية المتنازل عنها؛ وكفلت معاهدة "جواد يلوب هيدالجو" للمواطنين الذكور" في المنطقة "حرية التمتع بحريتهم وممتلكاتهم"، والتمتع بجميع الحقوق المكفولة للأمريكيين- وهو أحد بنود المعاهدة الذي تم صياغته لحماية ممتلكات كبار ملاك الأراضي المكسيكيين في "كاليفورنيا"؛ أما بالنسبة للهنود الحمر الذين أصبح وطنهم وأراضي الصيد الخاصة بهم فجأة جزءًا من الولايات المتحدة، ووصفتهم المعاهدة بأنهم "قبائل وحشية" يجب أن تمنعهم الولايات المتحدة من شن غارات على المكسيك عبر الحدود الجديدة.

أضفت روح "القدر الواضح" حدة جديدة للأفكار حول التفوق العنصري، حيث كان التوسع الإقليمي يعتبر خلال أربعينيات القرن التاسع عشر دليلاً على التفوق الفطري للعرق الأنجلوسكسوني (بناء أسطوري يُعْرف إلى حد كبير من خلال أضداده من الأعراق الأخرى: السود والهنود والأسبان والكاثوليك)؛ كما أعلن "جون ل. أوسوليفان" في كتابه "نقد للديمقراطية"، أن العرق هو العامل الرئيسي في تاريخ الأمم وسبب نهضة الإمبراطوريات وسقوطها.

كان العرق في منتصف القرن التاسع عشر فكرة مبهمة تشمل لون البشرة، والثقافة، والأصل القومي، والطبقة، والدين؛ وقد نشرت الصحف، والمجلات، وأعمال العلماء العلاقة بين الحرية الأمريكية والصفات المفترض أنها فطرية مثل حب الحرية التي يتحلى بها البروتستانتيون من عرق الأنجلوساكسون؛ وكان ضم "تكساس" والاستيلاء على جزء كبير من "المكسيك" من مكاسب انتصار الحضارة، والتقدم، والحرية على طغيان الكنيسة الكاثوليكية والعجز الفطري المتأصل في "الأعراق المهجنة"؛ وفي الواقع، يرجع فشل الدعوات التي أطلقها

مناصرو التوسع الأمريكي لضم دولة المكسيك بأكملها جزئيًا إلى الخوف من أنه لا يمكن للأمة استيعاب تعداد سكانها الكبير من الكاثوليك غير البيض، الذين يفترض أنهم غير مؤهلين للحصول على المواطنة في الجمهورية.

إعادة تحديد الأعراق

ثبت أن فرض النظام الأمريكي للعلاقات بين الأجناس كان مجحفًا بالنسبة للكثيرين من سكان الأراضي المكتسبة حديثًا، ولقد تجلى هذا الأمر في "تكساس" بالفعل إلى حد كبير؛ وألغت "المكسيك" العبودية وأعلنت أن الأشخاص من ذوي الأصول الإسبانية والهندية والإفريقية متساوون أمام القانون؛ ولم يقتصر الدستور الذي تبنته "تكساس" بعد الاستقلال على حماية العبودية فحسب، بل حرم أيضًا الهنود والأفراد من أصل إفريقي من الحقوق المدنية؛ وكان يحق للبيض فقط شراء الأراضي وحظر دخول السود الأحرار تمامًا، وقد لخص ذلك أحد المواطنين السود الأحرار من تكساس قائلاً "تم سلب كل ميزة وكل امتياز عزيز على نفس الرجل الحر".

وقد أثرت الظروف المحلية على تعريف وتحديد الأعراق في الأراضي المكسيكية السابقة، حيث اعتبرت "تكساس" أن المكسيكيين ذوي الأصول الإسبانية، ولاسيما الأفراد الذين يشغلون مناصب اجتماعية مهمة على أنهم من البيض، بينما من ناحية أخرى كانت تعتبر المواطنين المقيمين في "نيو مكسيكو" سواء ذوي الأصول المكسيكية أو الهندية لفترة طويلة، بأنهم يغلب عليهم طابع العرق المكسيكي إلى الحد الذي لا يمكنهم التمتع بالحكم الذاتي الديمقراطي؛ ونظرًا لتأخر حركة هجرة البيض إلى "نيوميكسكو" لذلك لم يسمح الكونجرس بأن تصبح "نيو مكسيكو" ولايةً أمريكية حتى عام 1912.

التهافت على البحث عن الذهب في كاليفورنيا

كان تعداد سكان كاليفورنيا من الأصول الغير هندية يقل عن 15.000 نسمة عند انتهاء الحرب المكسيكية، وقد هاجر أعداد من الأمريكيين في معظم فترة أربعينيات القرن التاسع عشر إلى ولاية كاليفورنيا بما يعادل عشرة أمثال أعداد الأمريكيين الذين هاجروا إلى "أوريجون"؛ غير أن هذا قد تغير بصورة جذرية بعد يناير/ كانون الثاني 1848، عندما تم اكتشاف الذهب في سفوح جبال "سيرا نيفادا" في مصنع لقطع الأخشاب يمتلكه المهاجر السويسري "يوهان أ. سوتر"، وانتشر جنون البحث عن الذهب في جميع أنحاء العالم الذي أججته القصص التي تنشرها الصحف حول الثراء السريع الذي حققه المهاجرون الأوائل، فتدفق الوافدون الجدد عبر البحر والبر إلى "كاليفورنيا"، مما أدى إلى ارتفاع تعداد السكان ذوي الأصول الغير هندية ليصل إلى 200.000 نسمة بحلول عام 1852، وتجاوز 360.000 نسمة بعد ثماني سنوات.

وقد تنوعت أعراق السكان الوافدين إلى ولاية كاليفورنيا للبحث عن الذهب بشكل كبير، حيث توافد عمال المناجم ذوي الخبرة من المكسيك وأمريكا الجنوبية؛ ووصل عشرات الآلاف من الأمريكيين الذين لم يسبق لهم أن رأوا منجمًا في الشرق، ووفد الأيرلنديون، والألمان، والإيطاليون، والأستراليون من الخارج؛ وحط ما يقرب من 25.000 صيني خلال الفترة ما بين عامي 1849 و 1852، وكان معظمهم من الشباب الذين وقعوا عقود عمل طويلة الأجل مع التجار الصينيين الذي استأجروهم بدورهم للعمل لدى شركات التعدين والسكك الحديدية وأرباب العمل الآخرين؛ وأصبحت مدينة سان فرانسيسكو التي كان يبلغ تعداد سكانها 1.000 نسمة في عام 1848 بوابة إلى الذهب والثراء في كاليفورنيا الشمالية، ووصل تعدادها بحلول عام 1850 إلى 30.000 نسمة؛ وأصبحت أكثر مدن العالم تنوعًا في الأعراق والثقافات بها؛ وعلى عكس المناطق الحدودية الزراعية التي كانت تستوطنها الأسر، كان معظم المهاجرين الساعين للبحث عن الذهب من الشباب، وقامت النساء بأدوار متعددة في مجتمعات المناجم الغربية حيث تولين إدارة المطاعم والنُزُل وعملنَ في غسل الملابس والطهي والبغاء؛ ولكن فاق عدد الذكور في ولاية كاليفورنيا في أواخر عام 1860 عدد الإناث بنسبة ثلاثة إلى واحد تقريبًا.

كاليفورنيا وحدود الحرية

أدت سرعة إستنزاف مناجم الذهب السطحية التي تم التعدين فيها مبكرًا إلى التعدين على أعماق أبعد تحت الأرض، مما يتطلب استثمارًا كبيرًا لرأس المال، وأدى هذا التطور الاقتصادي إلى تفاقم الصراعات بين العديد من الجماعات العرقية والأثنية في ولاية كاليفورنيا بسبب دخولهم في منافسة محتدمة للبحث عن الذهب، وكان القانون هشًا في كاليفورنيا إبان الاندفاع للبحث عن الذهب؛ وسيطرت لجان المراقبة في الفترة بين عامي 1851 و1856 على سان فرانسيسكو، ولم تعتد بالمحاكم القائمة التي تحاكم وتعدم المتهمين بارتكاب جرائم؛ بينما نظم عمال المناجم البيض جماعات خارجة عن القانون التي عملت على طرد عمال المناجم الأجانب - المكسيكيون، والشيليون، والصينيون، والفرنسيون، والهنود الأمريكيون - من مناطق الذهب، وفرضت الهيئة التشريعية للولاية ضريبة شهرية تقدر بعشرين دولارًا شهريًا على عمال المناجم الأجانب مما حمل العديد منهم على مغادرة الولاية.

وقد ظلت كاليفورنيا لفترة طويلة في المخيلة الأمريكية مكانًا زاخرًا بالفرص غير المحدودة التي تتيح للوافدين الجدد بدء حياتهم من جديد، ولكنها وضعت حدودًا للحرية بشكل صارم؛ حيث قصر دستور الولاية لعام 1850 التصويت والحق في الإدلاء بالشهادة في المحكمة على البيض، مستبعدًا بذلك الهنود والآسيويين وعدد قليل من السود (الذين كان يبلغ عددهم 962 فقط)؛

وكان يتم التعامل مع ملاك الأراضي في كاليفورنيا المنحدرين من أصول إسبانية أو متزوجين من مستوطنين أمريكيين على أنهم بيض؛ ولكن نظرًا للطعن أمام المحكمة في سندات ملكية الأراضي المملوكة منذ أن كانت تابعة للمكسيك، قام الكثيرون ببيع أراضيهم للقادمين الجدد من الشرق.

كما كان الحال في كاليفورنيا، كان البحث عن الذهب ذو تأثير كارثي بالنسبة للشعوب الأصلية (مثلما يطلق على الشعوب الأصلية الأسترالية)، حيث اكتسح الباحثون عن الذهب مجتمعات الهنود الحمر وقتل عمال المناجم، ومربي الماشية، وجماعات المراقبة الأهلية الآلاف من الهنود؛ ولما عقد المسئولون في الولاية العزم على خفض السكان الأصليين، دفعوا الملايين من الإكراميات للميليشيات الخاصة التي كانت تشن هجمات على الهنود في الولاية؛ وبالرغم أن ولاية كاليفورنيا كانت ولاية حرة، إلا أنه قد تم شراء وبيع الآلاف من الأطفال الهنود الذين أعلنت المحاكم المحلية أنهم أيتامًا أو مشردين كعبيد؛ وبالفعل انخفض تعداد السكان الهنود في ولاية كاليفورنيا، الذي كان يبلغ 150,000 نسمة عند انتهاء الحرب المكسيكية، إلى حوالي 30.000 نسمة بحلول عام 1860.

البحث عن الذهب في أماكن أخرى

تزامن البحث عن الذهب في كاليفورنيا، بمحض مصادفة مذهلة، مع التهافت على البحث عنه في مكان آخر يقع في منتصف الطريق حول العالم؛ حيث تم الكشف عن الذهب في أستراليا في عام 1851، ثم تم الكشف عنه في مجموعة من المستعمرات البريطانية، وقد أنتجت كاليفورنيا وأستراليا 80 في المائة من الذهب في العالم خلال خمسينيات القرن التاسع عشر؛ ومثلما كان الحال في كاليفورنيا جذبت أستراليا الباحثين عن الذهب من جميع أنحاء العالم حتى أن تعداد سكان مستعمرة فيكتوريا، حيث تم اكتشاف الذهب قد ازداد من 77,000 في عام 1851 إلى 411,000 نسمة بعد ست سنوات؛ ومثلما كان الحال في سان فرانسيسكو، اكتسبت مدينة ملبورن الأسترالية أهمية كبيرة نظرًا لقربها من حقول الذهب.

وكما كان الحال في كاليفورنيا، كان للبحث عن الذهب تأثيرًا كارثيًا بالنسبة للشعوب الأصلية (مثلما يطلق على الشعوب الأصلية الأسترالية)، حيث أدى إلى خفض عدد السكان بوتيرة أسرع مما كانوا يتناقصون بها بالفعل من قبل؛ وكما حدث في كاليفورنيا حدث في أستراليا، حيث شارك عدد كبير من العاملين في التعدين الصينيين المشاركين في التهافت على الذهب؛ ولكنهم سرعان ما واجهوا جهودًا مستميتة من جانب عمال المناجم من أصل أوربي لطردهم من الحقول؛ وكثيرًا ما أصدرت أستراليا من وقت لآخر تشريعات ضد الصينيين، ولاسيما تلك الخاصة بفرض ضرائب على عمال المناجم الأجانب على غرار التدابير التي بادرت بها كاليفورنيا.

فتح اليابان

انتهت الحرب المكسيكية بامتلاك الولايات المتحدة موانئ "سان دييجو" و"سان فرانسيسكو" الرائعة، والتي كانت تُعد لأمدٍ طويلٍ نقطة انطلاق للتجارة مع الشرق الأقصى؛ وبادرت الولايات المتحدة في خمسينيات القرن التاسع عشر بفتح اليابان التي عزلت نفسها عن جميع طرق الاتصال بالعالم الخارجي لأكثر من قرنين، وأبحرت السفن الحربية الأمريكية في عامي 1853 و1854، تحت قيادة القائد البحري "كومودور ماثيو بيري" (الشقيق الأصغر لأوليفر بيري أحد أبطال حرب عام 1812)، إلى ميناء طوكيو وطالب "بيري"، الذي أرسله الرئيس "ميلارد فيلمور" للتفاوض على معاهدة تجارية، أن يتعامل اليابانيون معه واتفق القادة اليابانيون على الإذعان لمطلبه نتيجة للمخاوف التي أثارتها التدخلات الأوروبية في الصين، وإعجابهم بأسلحة بيري بالإضافة إلى موكبه الموسيقي الذي شمل عرض موسيقي متجول للأقنعة السوداء؛ وبالفعل فتحوا مينائين للشحن الأمريكي في عام 1854، وبعد مرور عامين وصل تاجر مدينة نيويورك "تاونسند هاريس" كأول قنصل أمريكي (ووفقًا لبعض الروايات كان هو مصدر إلهام لأوبرا بوتشيني الرائعة "مدام بترفلاي" التي تدور حول أمريكي يتزوج امرأة يابانية ثم هجرها)، وأقنع "هاريس" اليابانيين بالسماح بدخول السفن الأمريكية إلى مرافئ إضافية وإقامة علاقات دبلوماسية كاملة بين البلدين؛ مما أتاح للولايات المتحدة أماكن لإعادة التزود بالوقود على الطريق إلى الصين التي كانت تعتبر أهم شريك تجاري في آسيا؛ وسرعان ما أطلقت اليابان عملية تحديث حوَّلتها إلى قوة عسكرية كبرى في المنطقة.

جرعة من سم الزرنيط

أضاف الانتصار على المكسيك ما يزيد على مليون ميل مربع لأراضي الولايات المتحدة - مساحة أكبر من صفقة شراء ولاية "لويزيانا"؛ ولكن امتلاك هذا الإقليم الشاسع أثار قضية خطيرة من شأنها أن تطيح بالنظام السياسي وتهوي بالبلاد في حرب أهلية - ألا وهي قضية ما إذا كان ينبغي أن يُسمح بالتوسع في العبودية في الغرب؛ وسرعان ما أكدت الأحداث توقع "رالف والدو إمرسون"، بأنه "إذا استحوذت الولايات المتحدة على جزء من المكسيك "ستُشبه تمامًا الرجل الذي يبتلع سم الزرنيخ... ستكون المكسيك سُمًّا لنا".

شرط ويلموت

كان قد تم الفصل في أوضاع العبودية في جميع أنحاء الولايات المتحدة قبل عام 1846، إما من خلال قوانين في الولايات أو من خلال تسوية "ميزوري" التي حددت أوضاع العبودية في صفقة شراء "لويزيانا"؛ ولكن اقتناء الأراضي الجديدة أثار مسألة التوسع في العبودية مجددًا، وأصبحت

احتمالية الانقسام حول هذه المسألة واضحة في عام 1846، عندما اقترح عضو الكونجرس عن ولاية "بنسلفانيا" "ديفيد ويلموت" قرارًا بحظر العبودية في جميع الأراضي المكتسبة من المكسيك، وانقسمت صفوف الأحزاب حيث أيَّد كل فرد من الشمال وكل عضو في الحزب الديمقراطي والحزب اليميني ما أصبح يعرف باسم "شرط ويلموت"، بينما عارضه جميع الجنوبيين تقريبًا، وحظي هذا الإجراء بموافقة مجلس النواب حيث كان يمثل الشمال الأكثر اكتظاظًا بالسكان أغلبية، ولكن لم تتم الموافقة عليه في مجلس الشيوخ الذي يضم عدد متساوٍ من ولايات العبيد والأحرار؛ وقد علقت إحدى الصحف على هذا الشرط قائلة إنه طرح على الساحة كما لو كان بفعل السحر قضية بالغة الأهمية كانت على وشك أن تؤدي إلى تقسيم الشعب الأمريكي".

نظَّم معارضو التوسع في العبودية في عام 1848 حزب الأراضي الحرة، ورشحوا "مارتن فان بيورين" لمنصب الرئيس و"تشارلز فرانسيس آدامز" ابن "جون كوينسي آدامز" كنائب له؛ بينما رشَّح الديمقراطيون "كاس لويس" من ولاية "ميتشيجان"، والذي اقترح إرجاع قرار البت في مسألة السماح بالعبودية للمستوطنين في الأراضي الجديدة (أُطلق على هذه الفكرة فيما بعد "السيادة الشعبية")، وكان "بيورين" يتحرك جزئيًّا بدافع الثأر من الجنوب الذي عزله في عام 1844، ولكن حملته ضربت على وتر حساس بين الشماليين الذين عارضوا التوسع في العبودية، وحصل على 300,000 صوت أي 14 بالمائة من إجمالي الأصوات في الشمال، وفاز المرشح اليميني "زخاري تايلور" وهو بطل من أبطال الحرب المكسيكية ومزارع للسكر في ولاية لويزيانا في انتخابات عام 1848، ولكن حقيقة ترك رئيس سابق وابن رئيس آخر لأحزابهم من أجل الترشح لبرنامج للأراضي الحرة تبين أن انتشار الرأي المناهض للعبودية كان قد تخطى نطاق أوساط دعاة إلغاء العبودية؛ وقد عقَّب السيناتور عن نيويورك "ويليام هـ. سيوارد" قائلاً إن " مناهضة العبودية تُعد في نهاية المطاف عنصرًا يُحترم في أروقة السياسة".

الإقبال على فكرة الأراضي الحرة

لاقت فكرة الأراضي الحرة إقبالاً شعبيًا في الشمال فاق مطالبة دعاة إلغاء العبودية بالتحرير الفوري والمساواة في الحقوق للسود؛ وبينما لم يكن للكونجرس أي سلطة دستورية لإلغاء العبودية داخل إحدى الولايات، إلا أنه كانت هناك حوادث سابقة معروفة لمنع العبودية في الأراضي (المناطق التي لم تدخل بعد كولايات في الاتحاد)، وقد قام الكونجرس بذلك في عام 1787 في المرسوم الشمالي الغربي ومرة أخرى في تسوية ولاية ميزوري في الفترة ما بين عامي 1820-1821؛ واستاء العديد من الشماليين لفترة طويلة مما اعتبروه هيمنة الجنوب على الحكومة الاتحادية، وقد لاقت فكرة منع إنشاء ولايات جديدة يُسمح فيها بالعبودية القبول لدى

الأشخاص الذين يناصرون سياسات مثل حماية التعريفة الجمركية ومعونة الحكومة لإجراء التحسينات الداخلية التي عارضها غالبية القادة السياسيين الجنوبيين.

وعلاوة على ذلك، فقد كانت إمكانية الانتقال إلى المناطق الغربية الجديدة بالنسبة للآلاف من الشماليين تبشر بتحسين الأوضاع الاقتصادية؛ هذا وقد عزز الكساد الذي حدث في أوائل أربعينيات القرن التاسع عشر من المقايضة التقليدية بين ملكية الأراضي بالحرية الاقتصادية؛ وعززت الحركة العمالية إمكانية الوصول إلى الأراضي الغربية كوسيلة لمكافحة البطالة وانخفاض الأجور في الشرق؛ وأعلن رئيس تحرير إحدى الصحف الموالية لحقوق العمال "جورج هنري إيفانز"، أن حرية الأراضي قدمت الخيار البديل الوحيد للتبعية الاقتصادية الدائمة بالنسبة للعمال الأمريكيين.

لقد اندمجت هذه الآراء بسهولة مع الآراء المعارضة للتوسع في العبودية، فإذا احتلت مزارع العبودية الأراضي الخصبة في الغرب، فإن الهجرة الشمالية ستتوقف بحزم؛ وكان لمصطلح "الأراضي الحرة" معنى مزدوج حيث دعى برنامج الأراضي الحرة لعام 1848 إلى منع العبودية في الأراضي الغربية؛ وأن توفر الحكومة الاتحادية المساكن للمستوطنين في الأراضي الجديدة مجانًا؛ وعلى عكس حركة إلغاء العبودية، لاقت فكرة "الأراضي الحرة" أيضًا القبول لدى حالة العنصرية المنتشرة على نطاق واسع في المجتمع الشمالي، وقد أكد "ويلموت" نفسه على أن الدافع وراء هذا الشرط المثير للجدل لم يكن "التعاطف الشديد مع العبيد"، ولكن كان الهدف هو النهوض "بقضية وحقوق الرجل الأبيض الحر" جزئيًا من خلال منعه من الاضطرار إلى التنافس مع "العمال السود".

كانت فكرة حظر العبودية في الأراضي المكتسبة من المكسيك بالنسبة للجنوبيين البيض بمثابة انتهاكٍ لحقوقهم المتساوية كأعضاء في الاتحاد، فلقد حاربوا وقُتلوا ليظفروا بهذه الأراضي وبالتأكيد كان يحق لهم المشاركة في جني ثمار هذا النصر؛ وبالتالي فإن حظر العبودية تحديدًا كأحد أشكال الملكية في الغرب يعد بمثابة إهانة للجنوب وطريقته المميزة في الحياة؛ فقد عاش أغلبية من العبيد في عام 1848 في ولايات لم تكن حتى موجودة عند وضع الدستور، وقد عانت العديد من مناطق المزارع القديمة بالفعل من استنفاد خيرات الأراضي؛ فكما كان يعتقد الشماليون أن التوسع غربًا أمرًا ضروريًا لتحقيق الرفاهية الاقتصادية، بات لدى القادة الجنوبيين قناعة بأنه يجب التوسع في العبودية وإلا سيُهلكون، فضلاً عن أن إضافة ولايات حرة جديدة سيعمل على قلب التوازن السياسي الدقيق بين الأقاليم، وسيجعل من الجنوب أقلية دائمة وبالتالي لن تُؤَمَّن مصالح الجنوب في اتحاد تهيمن عليه الولايات التي لا يوجد فيها عبيد.

الأزمة والتسوية

يُذكر عام 1848 في تاريخ العالم بوصفه "فصل الربيع بالنسبة للأمم"، حيث وقعت الانتفاضات الديمقراطية ضد ممالك أوروبا ومطالب الأقليات العرقية بالاستقلال الوطني؛ وبدا أن المبادئ الأمريكية للحرية والحكم الذاتي قد انتصرت في العالم القديم، حيث نظمت حركة مؤيدي الميثاق في بريطانيا العظمى مظاهرات حاشدة لدعم الميثاق المقترح الذي طالب بإجراء إصلاحات ديمقراطية، واستبدل الفرنسيون النظام الملكي بالنظام الجمهوري وأعلن المجريون استقلالهم عن الحكم النمساوي، وانقسم الوطنيون في إيطاليا وألمانيا إلى ولايات عدّة وطالبوا بالوحدة الوطنية؛ ولكن المد الثوري تراجع واندثرت حركة مناصري الميثاق، وسرعان ما خلف الجمهورية الثانية في فرنسا عهد الإمبراطور نابليون الثالث؛ وأُخمدت الثورات في بودابست وروما ومدن أخرى، مما دعا بعض الأمريكيين للتساؤل عما إذا كانت تجربتهم في الحكم الذاتي ستؤول إلى نفس مصير الثورات الفاشلة في أوروبا؟

نتيجة لازدياد الخطر المحدق بقضية العبودية أكثر وأكثر، اتجه زعماء الأحزاب الراسخة إلى حل الخلافات على الأقاليم وكانت بعض المنازعات ذات تاريخ طويل؛ ولكن نشأ السبب المباشر للجدل من اقتناء الأراضي الجديدة في أعقاب الحرب المكسيكية؛ وطالبت "كاليفورنيا" في عام 1850 بالانضمام إلى الاتحاد كولاية من الأحرار وعارض العديد من الجنوبيين هذه الخطوة خوفًا من أن تخل بالتوازن الإقليمي في الكونجرس؛ فقدم السناتور "هنري كلاي" خطة تنطوي على أربعة شروط رئيسية، والتي عُرفت بتسوية عام 1850، وهي تنص على أن تنضم كاليفورنيا إلى الاتحاد كولاية من الأحرار، وأن يتم إلغاء تجارة العبيد ولكن ليس العبودية نفسها في عاصمة البلاد؛ وأن ينص قانون صارم جديد على السماح للجنوبيين باستعادة العبيد الهاربين وأن يكون قرار البت في وضع العبودية في المناطق المتبقية المكتسبة من المكسيك بيد السكان البيض المحليين؛ وأن توافق الولايات المتحدة أيضًا على سداد الديون الهائلة المتراكمة على تكساس أثناء استقلالها.

الجدل الكبير

تلقت الأطراف الإقليمية المختلفة خطبًا شديدة البلاغة أثناء الجدل في مجلس الشيوخ حول التسوية، وتحدث قادة مؤثرون لصالح التسوية وضدها، فقد أعلن "دانيال وبستر" عن ولاية "ماساتشوستس" عن استعداده للتخلي عن "شرط ويلموت"، وقبول قانون جديد للعبيد الهاربين إن كان هذا سيحقق السلام بين الأطراف الإقليمية المتنازعة؛ وكان "جيم جون كالهون" عن ولاية "ساوث كارولينا" مريضًا جدًّا لدرجة أنه لم يمكنه التحدث فقرأ معاون له تصريحاته التي ترفض فكرة التسوية، وأصر على أنه يجب أن تحمي الحكومة الوطنية العبودية وأن يتم التوسع فيها

ليشمل جميع الأراضي الجديدة؛ ويجب أن يذعن الشمال لهذا وإلا فسيتهاوى الاتحاد، وعارض "ويليام ه. سيوارد" عن "نيويورك" أيضًا التسوية ورد على حديث الجنوبيين عن حقوقهم الدستورية بأن هناك "قانون أعلى وأسمى" من الدستور يدين العبودية - ألا وهو القانون الأخلاقي، وفي هذه المرحلة كان مجلس الشيوخ الأمريكي يعبر عن صوت حركة إلغاء العبودية.

وقد انزعج الرئيس "زخاري تايلور، الذي كان جنوبيًا مثل "أندرو جاكسون" ولكنه كان يتمتع بنزعة وطنية مفرطة، من الحديث عن حل الاتحاد؛ واتهم القادة الجنوبيين في الكونجرس بجعل "كاليفورنيا" رهينة لأهدافهم التشريعية الخاصة بهم، وأصَّر على أن كل ما يجب على الكونجرس فعله هو قبول "كاليفورنيا" في الاتحاد؛ ولكنه توفى فجأة جراء إصابته بعدوى معوية في 9 يوليو/ تموز 1850؛ وقدم خليفته "ميلارد فيلمور" عن نيويورك دعمه لمقترحات "كلاي" وساعد في كسر الجمود في الكونجرس وتأمين إقرار تسوية عام 1850.

قضية العبيد الهاربين

تجنب القادة السياسيون للمرة الأخيرة مناقشة قضية العبودية الخطرة في مناقشات الكونجرس، ورغم ذلك أثار القانون الجديد للعبيد الهاربين مزيدًا من الجدل الحتمي؛ حيث سمح القانون لمفوضين اتحاديين خاصين بتحديد مصير الهاربين المتهمين دون محاكمتهم أمام هيئة المحلفين أو حتى أن يدلي الفرد المتهم بشهادته، ومنع السلطات المحلية من التدخل في القبض على الهاربين، وطالب المواطنين الأفراد بالمساعدة في إلقاء القبض عليهم عندما يطلب منهم العملاء الفيدراليون ذلك؛ ومن ثَمَّ أيد القادة الجنوبيون، الذين كانوا دائمًا يدافعون بقوة عن حقوق الولايات والحكم الذاتي المحلي، إجراء جلب العملاء الفيدراليين إلى المجتمعات المحلية في جميع أنحاء الشمال، ومنحهم صلاحية مخالفة سلطات إنفاذ القانون المحلي والإجراءات القضائية لتأمين عودة العبيد الهاربين؛ حيث كان تأمين استمرار العبودية أكثر أهمية بالنسبة لهم من تحقيق الاتساق في حقوق الولايات.

وقد أثرَّت قضية العبيد الهاربين على جميع الولايات الحرة تقريبًا، وليس فقط تلك الولايات التي تحدها من الجنوب وحسب؛ فعلى سبيل المثال، دخل صيادو العبيد إلى كاليفورنيا لإلقاء القبض على الهاربين من "تكساس" و"نيومكسيكو"، والذين كانوا يأملون في الحصول على الحرية في "كولومبيا البريطانية"؛ وقد جذبت هذه القضية انتباه سياسيين مثل "رالف والدو إمرسون" الذي أبعد نفسه عن حملة دعاة إلغاء العبودية، رغم أنه مناهض للعبودية، وكان متأثرًا مع آخرين بمذهب التسامي الذي كان يرى قانون العبيد الهاربين بمثابة مثال خطير على كيف يمكن للحكومة في مسعاها لاسترضاء الجنوب أن تتحكم في قدرة الفرد على التصرف وفقًا لضميره -

والذي يمثل بالنسبة لإيمرسون أساس الحرية الحقيقية.

نظرت المحاكم الفيدرالية في خمسينيات القرن التاسع عشر في أكثر من 300 قضية وأمرت 157 هاربًا بالعودة إلى الجنوب، وعاد الكثير على نفقة الحكومة ولكن القانون وَسَّعَ كذلك من دائرة الانقسامات الإقليمية؛ وفي سلسلة من المواجهات المثيرة، قاوم الهاربون بمساعدة حلفاء من حركة دعاة إلغاء العبودية إعادة القبض عليهم، وقد أنقذ حشد كبير في عام 1851 العبد "جيري لاذوا" من السجن في "سيراكيوز" بنيويورك وشجعوه على التوجه إلى كندا؛ وقُتِلَ أحد الملاك بينما كان يحاول القبض على هارب في "كريستيانا" بولاية "بنسلفانيا" في نفس العام؛ وفي أواخر هذا العقد، قامت واحدة من العبيد من "كنتاكي" وتدعى "مارجريت جارنر"، والتي كانت قد هربت مع عائلتها إلى ولاية أوهايو، بقتل ابنتها الشابة لكي لا تراها تعود للعبودية على يد الضباط الفيدراليين؛ وأصبح هذا الحادث قصة رواية "الحبيبة" الشهيرة لتوني موريسون في نهاية القرن العشرين.

وقد فر عدة آلاف من الهاربين والسود الذين ولدوا أحرارًا في الشمال إلى كندا مخافةً تعسف أحكام قانون الهاربين، وبحثًا عن السلامة والأمن؛ وقد تحدى مشهد هذا العدد الكبير من اللاجئين الذين يطلبون الحرية في أرض أجنبية من التصور المألوف للولايات المتحدة كملجأ للحرية. هذا وقد ذكرت صحيفة في "تورونتو" في أكتوبر (تشرين الأول) 1850، على صفحاتها "لقد تفرقت العائلات وتركت ديارها وتوافدت من جميع الاتجاهات إلى كندا تحت الراية البريطانية، لينعموا بالحماية التي حرموا منها في الجمهورية الحرة".

دوجلاس والسيادة الشعبية

بدا أن تسوية عام 1850 قد أعادت السلام فيما يتعلق بالأقاليم والوحدة بين الأحزاب على الأقل بشكل مؤقت، وفاز الديمقراطي "فرانكلين بيرس" في الانتخابات الرئاسية لعام 1852 بانتصار كاسح على اليميني "سكوت وينفيلد"، ببرنامج اعترف بأن التسوية هي الحل النهائي للخلاف حول العبودية؛ وتلقى "بيرس" تفويض شعبي واسع النطاق حيث فاز بعدد 254 صوتًا انتخابيًا مقابل 42 صوت انتخابي لصالح "سكوت"، ولكن تبين بعد ذلك أن إدارته كانت إحدى أسوء الإدارات في التاريخ الأمريكي، حيث شهدت انهيار النظام الحزبي المتوارث منذ عهد الرئيس "جاكسون".

وقد أذعن النظام السياسي القديم في عام 1854 أخيرًا للضغوط الإقليمية الهدامة، وقدَّم السيناتور عن "إلينوي" "ستيفن دوجلاس" في بداية هذا العام مشروع قانون لإقامة حكومات إقليمية في ولايتي "كانساس" و"نبراسكا"، اللتان يقعان داخل نطاق صفقة شراء "لويزيانا"، ونظرًا لوفاة "كالهون"، و"كلاي"، و"وبستر" (الثلاثي العظيم) في الفترة ما بين عامي 1850 و1852، اعتبر

"دوجلاس" نفسه القائد الجديد لمجلس الشيوخ رغم أنه كان يبلغ من العمر واحد وأربعين عامًا فقط؛ ونظرًا لأنه كان يؤمن بشدة بتنمية المناطق الغربية، لذلك كان يأمل في بناء سكك حديدية عبر القارة خلال "كانساس" أو "نبراسكا"، ولكنه كان يخشى أنه لن يتحقق ذلك إلا إذا أنشئت حكومات رسمية في هذه الأقاليم، ولكن الجنوبيين تعنتوا في الكونجرس إزاء السماح بتنظيم الأراضي الحرة الجديدة، خشية أن يخل هذا بالتوازن الإقليمي بشكل أكبر وكان "دوجلاس" يأمل في إرضائهم من خلال تطبيق مبدأ السيادة الشعبية الذي يتحدد وضع العبودية بموجبه بناء على أصوات المستوطنين المحليين وليس من خلال الكونجرس؛ وقد جسدت السيادة الشعبية بالنسبة إلى "دوجلاس" فكرة الحكم الذاتي المحلي، وقدمت حلاً وسطًا بين النقيضين الشمال والجنوب؛ فلقد كانت المبدأ الذي من شأنه أن يوحد جميع أطراف الحزب الديمقراطي والذي قد يتيح له فرصة الترشيح للرئاسة في عام 1856 ليخلف "بيرس" الذي كان بلا تأثير يُذكر.

مرسوم "كانساس- ونبراسكا"

كانت كانساس ونبراسكا يقعان، على عكس الأراضي المكتسبة من المكسيك، في قلب الأمة مباشرة في طريق الهجرة إلى الغرب، كما كانت العبودية محظورة هناك بموجب تسوية "ميزوري" التي ألغاها مشروع القانون الذي قدمه "دوجلاس"؛ وردًا على هذا الاقتراح، أصدرت مجموعة من أعضاء الكونجرس المناهضين للعبودية "دعوة الديمقراطيين المستقلين"، والتي كتبها اثنان من دعاة إلغاء العبودية، وهما عضو الكونجرس عن ولاية "أوهايو" "جيدنجز جوشوا" والسيناتور "سالمون ب. تشيس"، وهي الدعوة التي برهنت على أنها واحدة من المنشورات الأكثر فعالية في الإقناع السياسي في التاريخ الأمريكي، ووصفت اقتراح "بيل دوجلاس" بأنه انتهاك جسيم للعهد المقدس وجزءًا من مؤامرة أثيمة لتحويل الأراضي الحرة إلى منطقة استبداد تُخيم عليها الكآبة ويقطنها السادة والعبيد؛ وساعدت في إقناع ملايين من الشماليين بأن القادة الجنوبيين لا يهدفون إلا إلى توسيع نطاق مؤسستهم الغربية المميزة لهم "العبودية" في جميع أنحاء الغرب.

وقد أصبح مرسوم ولايتي "كانساس" و"نبراسكا" قانونًا نافذًا بفضل قيادة "دوجلاس" الفعالة، ولكنه عصف بوحدة الحزب الديمقراطي؛ فحتى عندما ناقشه الكونجرس انطلقت اجتماعات الاحتجاج في جميع أنحاء الشمال خشية من أن تؤثر عدم شعبية مشروع القانون قد تؤثر بين ناخبيهم، مما قد يضر بفرصهم في إعادة انتخابهم؛ وبالفعل أدلى نصف الديمقراطيين الشماليين في مجلس النواب بأصواتهم ضد مشروع القانون، بينما دعم النصف الآخر من الشماليين مشروع القرار بدافع من ولائهم لكل من "بيرس" و"دوجلاس" وحزبهم، ويتعذر التفكير في تشريع في التاريخ الأمريكي كان له أثرًا أكثر عمقًا من هذا التشريع في الحياة الوطنية، حيث خضعت

السياسة الأمريكية في أعقاب إقرار مشروع القانون لعملية إعادة تنظيم متعمقة، وانهار الحزب اليميني خلال العامين التاليين نظرًا لأنه لم يتمكن من التوصل لحل موحد للأزمة السياسية؛ وتحول الجنوب إلى الحزب الديمقراطي بشكل كبير بعد أن كان قد بدأ منقسمًا بين الحزبين، وانضم معظم اليمينيون في الشمال بدعم من آلاف الديمقراطيين الساخطين إلى منظمة جديدة، ألا وهي الحزب الجمهوري الذي كان يهدف إلى منع التوسع في العبودية.

ظهور الحزب الجمهوري

اقتصاد الشمال

كان التأثير المدمر للعبودية على الأحزاب التقليدية هو السبب المباشر للتحول السياسي في منتصف خمسينيات القرن التاسع عشر، ولكن ظهور الحزب الجمهوري عكس أيضًا التغيرات الاقتصادية والاجتماعية الأساسية، لاسيما إتمام ثورة السوق وبداية الهجرة الجماعية من أوروبا؛ وشهدت الفترة منذ عام 1843، عندما عاد الازدهار إلى عام 1857 وحينماحدث تدهور اقتصادي آخر، نموًا اقتصاديًا كبيرًا لاسيما في الشمال مدفوعًا باستكمال شبكة السكك الحديدية، حيث زادت خطوط السكك الحديدية من 5.000 ميل في عام 1848 إلى 30.000 ميل بحلول عام 1860؛ وقد تم تشييد معظمها في ولايتي "أوهايو" و"إلينوي" والولايات الأخرى في الشمال الغربي القديم، وربطت أربعة خطوط كبرى للسكك الحديدية حينذاك المدن الشرقية بالمراكز الزراعية والتجارية الغربية، وأكملت السكك الحديدية إعادة توجيه التجارة في الشمال الغربي من الجنوب إلى الشرق، حيث كان معظم المزارعين الغربيين يشحنون منتجاتهم حتى أواخر عام 1850 في سفن على طول نهر المسيسيبي؛ ولكن بعد عشر سنوات كانت السكك الحديدية تنقل جميع محاصيلهم تقريبًا إلى الشرق مقابل جزء صغير من التكلفة السابقة؛ فعلى سبيل المثال، مرت 60 مليون كيلة من القمح بحلول عام 1860عبر "بافالو" في طريقها إلى السوق في المدن الشرقية، وفي الخارج؛ وخلق التكامل الاقتصادي بين الشمال الغربي والشمال الشرقي الأساس لتوحيدهما سياسيًا في الحزب الجمهوري.

بحلول عام 1860، أصبح الشمال اقتصادًا معقدًا ومتكاملاً بفضل تسويق رجال الصناعة الشرقيين للسلع المصنعة للمزارعين التجاريين في الغرب، بينما كان سكان المدن المتنامية في المنطقة يستهلكون الأغذية التي ينتجها الغربيون؛ وظل مجتمع الشمال واقفًا رابط الجأش بين الطرق القديمة والجديدة، كانت غالبية السكان ما زالت لا تعيش في مدن كبيرة بل تعيش في مدن صغيرة والمناطق الريفية؛ حيث يمكن تحقيق مبدأ الاستقلال الاقتصادي – أي امتلاك الفرد

لمزرعة أو متجر خاص به - ولكن لم تعد غالبية القوة العاملة تعمل في الشمال في الزراعة، لأن الثورة الصناعية كانت تنتشر هناك بخطى سريعة.

وظهرت منطقتان كبيرتان للإنتاج الصناعي، امتدت إحداهما على طول ساحل المحيط الأطلسي من "بوسطن" إلى "فيلادلفيا" و"بالتيمور"، وتمركزت المنطقة الثانية في منطقة البحيرات العظمى أو بالقرب منها والمدن الداخلية مثل "بافلو"، و"كليفلاند"، و"بيتسبرج"، و"شيكاغو" مدفوعة بالتوسع في السكك الحديدية ونمو تعدين الفحم والحديد؛ وأصبحت شيكاغو التي كانت المركز الرئيسي للسكك الحديدية في المنطقة الشمالية الغربية القديمة ونقطة الانطلاق للمستوطنين المتجهين للسهول العظمى، مركزًا للصناعات المعقدة تنتج قرابة 5,000 آلة حصد سنويًا، بالإضافة إلى الأسلاك الشائكة، وطواحين الهواء، والمنازل الجاهزة ذات الأطر البالونية التي سهلت جميعها في استمرار استيطان الغرب؛ وأصبحت مدينة "نيويورك" مركزًا ماليًا وتجاريًا وصناعيًا رائدًا في البلاد بحلول عام 1860؛ وبالرغم من أن نمو اقتصاد الجنوب أيضًا واستمرار التوسع في إنتاج القطن قد حققا ثروة لملاك العبيد، إلا أن الجنوب لم يشارك في هذه التغيرات الاقتصادية واسعة النطاق.

ظهور وسقوط حزب "لا أدري"

كما ورد في الفصل التاسع، فقد نشأ مذهب العداء للمهاجرين، ولاسيما الكاثوليك، كحركة سياسية محلية في أربعينيات القرن التاسع عشر؛ ولكنها تفجرت على الساحة السياسية الوطنية مع الظهور المفاجئ للحزب الأمريكي "لا أدري" (أُطلق عليه هذا الاسم نظرًا لأنه بدأ كمنظمة سرية كان من المفترض أن يجيب أعضاؤها عندما يسألون عن وجودها بقولهم "لا نعلم شيئًا") نتيجة حدوث أزمة في نظام الأحزاب في عام 1854، أعرب الحزب عن اهتمامه بتخصيص المناصب السياسية للأمريكيين المولودين في أمريكا، وصد اعتداءات الكنيسة الكاثوليكية كجهودها الرامية إلى تقويض أنظمة المدارس العامة؛ وفاز هذا الحزب بأغلبية ساحقة في انتخابات ولاية "ماساتشوستس" في عام 1854 لانتخاب الحاكم وكل أعضاء الكونجرس عن الولاية، وتقريبًا جميع أعضاء المجلس التشريعي للولاية واستولوا على مكتب العمدة في مدن مثل "فيلادلفيا"، و"شيكاغو"، و"سان فرانسيسكو"؛ وظهر مناصرو مذهب العداء للمهاجرين في العديد من الولايات كمكون رئيسي للائتلافات الفائزة "المناهضة لولاية نبراسكا"، التي تضم الناخبين المعارضين لقانون "كانساس ونبراسكا"؛ وجذب حزب "لا أدري" في الشمال مشاعر تجمع بين مناهضة الكاثوليكية ومناهضة العبودية، وغالبًا ما كانوا يضيفوا إلى شعاراتهم معارضة بيع الخمور أيضا؛ وكما ورد في الفصل السابق، كان معظم الكاثوليك يعارضون بشدة حركات الإصلاح

المستوحاة من البروتستانتية الإنجيلية، لاسيما حركة مناهضة العبودية وحركة الاعتدال؛ وقد ذكر أحد المراقبين أن انتخابات عام 1854 كشفت عن "شعور راسخ مؤيد للحرية الإنسانية وعزم أكيد بأنه لن يحكم أمريكا بعد الآن سوى الأمريكيون."

بيد أنه رغم التمييز الصارخ ضد الأيرلنديين في فرص العمل، والسكن، والتعليم، إلا أن مطالب منع المهاجرين من الأمة السياسية كانت قليلة بشكل ملحوظ؛ حيث استفاد جميع المهاجرين الأوروبيين من كونهم بيض، ووجد السود الأحرار أن المهاجرين يزاحموهم خلال خمسينيات القرن التاسع عشر حتى في فرص العمل الدنيا، التي كانت متاحةً لهم من ذي قبل مثل الخدم والعمال العاديين؛ وكان من حسن حظ الوافدين الجدد أنهم وصلوا بعد أن أصبح حق الذكور البيض في الاقتراع معمولاً به ومن ثمَّ بات لهم الحق في التصويت تلقائيًا؛ حتى مع سعي ولايات "نيو إنجلاند" إلى الحد من السلطة السياسية للمهاجرين (حيث اشترطت ولاية ماساتشوستس وولاية كونيتيكت تعلم القراءة والكتابة كشرط للتصويت، وحددت ولاية ماساتشوستس فترة انتظار مدتها عامان بين حصول الفرد على الجنسية وممارسة حقه في التصويت)، إلا أن الولايات الغربية التي كانت في أمس الحاجة للعمال سمحت للمهاجرين بحق التصويت قبل أن يصبحوا مواطنين، وفي بلد أصبح فيه حق الانتخاب أساسًا لمفاهيم الحرية، فمن الجدير بالذكر أنه كان بإمكان العديد من المهاجرين الذكور البيض التصويت بمجرد وصولهم إلى أمريكا، بينما لم يتمكن غير البيض الذين عاش أجدادهم في البلاد لعدة قرون من الحصول على حق التصويت.

أيديولوجية العمل الحر

بات جليًا بحلول عام 1856 أن الحزب الجمهوري سيُصبح البديل الرئيسي للحزب الديمقراطي في الشمال، وهذا الحزب الجمهوري هو عبارة عن تحالف من الديمقراطيين المناهضين للعبودية، واليمينيين الشماليين، وأعضاء حزب الأراضي الحرة، وحزب "لا أدري" المعارضين للتوسع في العبودية؛ ونجح الجمهوريون في إقناع معظم الشماليين بأن نفوذ العبيد - ويقصدون بهذا القيادة السياسية المناصرة للعبيد في الجنوب - يشكل تهديدًا مباشرًا على حرياتهم وطموحاتهم أكثر من النظام البابوي والهجرة؛ وارتكزت جاذبية الحزب على فكرة "العمل الحر" وجمع الحزب الجمهوري بين النقيضين، أي "مجتمع الأحرار" و"مجتمع العبيد" في رؤية عالمية شاملة تمجد الشمال كوجهة للتقدم، والفرص، والحرية.

أعلن الجمهوريون أن الخاصية المميزة للمجتمع الشمالي تتمثل في الفرصة التي يوفرها لكل عامل ليرتفع إلى منزلة المزارع الذي يملك أرضًا أو حرفيًا مستقلا؛ ومن ثمَّ اعتبار تحقيق

الاستقلال الاقتصادي أمرًا أساسيًا لتحقيق الحرية، وعلى النقيض من ذلك أفرزت العبودية نظامًا اجتماعيًا يتألف من العبيد المُهانين والبيض الفقراء الذين لا أمل لهم في التقدم، والأرستقراطيين العاطلين؛ وكان الصراع على الأراضي عبارة عن سباق حول أي من نظامي العمل المعادين لبعضهم البعض ستكون له الهيمنة على الغرب، ومن ثَمَّ سيهيمن ضمنًا على مستقبل الأمة، فإذا ما انتشرت العبودية في الغرب، سيُحظر العمال الأحرار الشماليين وستتلاشى تمامًا بالتالي فرصهم في التقدم الاجتماعي، بينما يصر الجمهوريون على ضرورة أن تبقى العبودية خارج الأراضي حتى يزدهر العمل الحر.

رد الجمهوريون على ادعاءات الجنوب بأن العبودية هي أساس الحرية بشعار "الحرية الوطنية" – الذي يعني عدم إلغاء العبودية ولكن إنهاء دعم الحكومة الفيدرالية لها؛ وتجمع الشماليون من خلفيات واهتمامات متنوعة تحت شعار "العمل الحر" للدفاع عن تفوق مجتمعهم، وأقر الجمهوريون أنه فُرض على بعض العمال الشماليين، بما في ذلك معظم المهاجرين الأيرلنديين، فرص عمل كعمال في المصانع وعمال غير مهرة؛ وكان يشق عليهم التقدم في السلم الاجتماعي، لكنهم خلصوا إلى أن السبب وراء معاناة الفقراء المهاجرين هو طبيعتهم الاتكالية التي تفتقر إلى الفضائل البروتستانتية وفضائل الطبقة المتوسطة.

لم يكن الجمهوريين دعاةً لإلغاء العبودية – بل ركزوا على منع انتشار العبودية وليس مهاجمتها أينما وُجِدَت، ومع ذلك رأى العديد من قادة الأحزاب أن تقسيم البلاد إلى مجتمعات من الأحرار ومجتمعات من العبيد سيؤدي إلى "صراع يتعذر السيطرة عليه"، على حد وصف عضو مجلس الشيوخ عن نيويورك "وليام هـ. سيوارد" في عام 1858 بأنه سيتعين تسويته في نهاية المطاف، وأصر على التعارض بين هذين النظامين من المجتمعات مع فكرة الأمة الموحدة، واحتج بأن ثورة الأسواق قد زادت من حدة التوتر بين الحرية والعبودية نظرًا لأنها حاولت ربط الأمة بأسرها في شبكة من النقل والتجارة؛ وتوقع بأن الولايات المتحدة ستصبح بكاملها عاجلاً أم آجلاً إما أمة للعبودية أو أمة للعمل الحر.

نزيف كنساس وانتخابات عام 1856

ساعد تصور الجمهوريين للعمل الحر المنسجم تمامًا مع القيم الشمالية الراسخة في تفسير الشهرة السريعة التي اكتسبها الحزب الجمهوري؛ ولكن الأحداث المثيرة التي وقعت في عامي 1855 و 1856 أذكت أيضًا نمو الحزب، فعندما أجرت "كانساس" الانتخابات في عامي 1854 و 1855، عبر المئات من مواطني "ميزوري" المناصرين للعبودية الحدود للإدلاء بأصوات مزورة، وأقر الرئيس "فرانكلين بيرس" بشرعية المجلس التشريعي المؤيد للعبودية وغَيَّرَ محافظ الإقليم "أندرو هـ..

ريدر" من ولاية "بنسلفانيا" عندما انشق؛ وسرعان ما أنشأ المستوطنون من الولايات الحرة من العبودية حكومة منافسة، واندلعت حرب أهلية متفرقة في "كنساس" قُتل فيها نحو 200 شخص، وفي إحدى الحوادث التي وقعت في مايو/ أيار 1856هاجمت مجموعة من الغوغاء المؤيدين للعبودية مقر حزب الأراضي الحرة في "لورانس" وحرقوا المباني العامة ونهبوا المنازل الخاصة.

يبدو أن "نزيف كنساس" قد أفقد سياسة "دوجلاس" مصداقيتها والمتمثلة في تركه قرار البت في وضع العبودية إلى السكان المحليين، وبذلك ساعد الجمهوريين في مسعاهم؛ كما استمد الحزب قوة إضافية من حادثة أخرى غير مسبوقة في قاعات الكونجرس، حينما ضرب ممثل ولاية "ساوث كارولينا" "بريستون بروكس"، عضو مجلس الشيوخ المعارض للعبودية "تشارلز سومنر" عن ولاية ماساتشوستس بعصاته ذات الحافة الذهبية فسقط مغشيًا عليه، لأن "سومنر" ندد "بالجريمة المرتكبة في حق كنساس"؛ وأشاد العديد من الجنوبيين بما فعله "بروكس" وأرسلوا له مجموعة من العِصي تحمل عبارة "اضربه مرة أخرى!".

واختار الحزب الجمهوري "جون ج. فريمونت" مرشحًا عنه في انتخاب عام 1856، ووضع برنامجًا يعارض بشدة زيادة التوسع في العبودية؛ بينما دفع ضيق الديمقراطيين من رد فعل الشماليين على قانون "كانساس ونبراسكا" إلى ترشيح "جيمس بوكانان"، الذي كان مبعوثًا دبلوماسيًا إلى بريطانيا العظمى في عام 1854، ومن ثَمَّ لم يكن له أي علاقة مباشرة بذلك القانون المثير للخلاف والانقسام؛ وأيد برنامج الديمقراطيين مبدأ السيادة الشعبية باعتباره الحل الوحيد المُجدي للجدل الدائر حول العبودية، في حين أن حزب "لا أدري" رشَّح الرئيس السابق "ميلارد فيلمور" كمرشحٍ له في تلك الانتخابات؛ وأسفرت الانتخابات عن فوز "فريمونت" على "بوكانان" في الشمال في إحدى عشر ولاية من بين الولايات الستة عشر الحرة من العبودية- مما يُعد إنجازًا رائعًا لحزب لم يمض على نشأته سوى عامين فقط؛ ولكن "بوكانان" فاز بالجنوب بأكمله والولايات الشمالية المهمة مثل "إلينوي"، و"إنديانا"، و"بنسلفانيا" مما كان كافيًا لضمان فوزه، ولم يفز "فيلمور" إلا بولاية "ميريلاند" فقط، ولكنه حقق نتائج جيدة بين ناخبي الحزب اليميني السابق في مناطق أعلى الجنوب والمناطق الأكثر تحفظًا في الشمال، والذين رفضوا الانضمام إلى الديمقراطيين ولكن كانوا يخشون أن يُشكل فوز الجمهوريين تهديدًا على الاتحاد.

كشفت نتائج انتخابات عام 1856 بجلاء تام عن إعادة توجيه الأحزاب أنفسهم حسب خطوط إقليمية؛ لقد تم القضاء على أحد الأحزاب الكُبرى وضعف نفوذ حزب آخر بشدة، وظهر حزب جديد يهدف تمامًا إلى تحقيق مصالح الشمال.

ظهور لينكولن

حدث الانهيار النهائي للنظام الحزبي خلال إدارة الرئيس "جيمس بوكانان" الذي كان يجسد النظام السياسي القديم، وقد وُلد في عهد الرئيس "جورج واشنطن" وعمل في الهيئة التشريعية في ولاية "بنسلفانيا" في كل من مجلس النواب، ومجلس الشيوخ، ووزيرا للخارجية في عهد "جيمس بولك"؛ وكان يؤمن بثبات وبشدة بوجود الاتحاد وتعهد شخصيًا بتهدئة المشاعر الإقليمية المتأججة، وفشل فشلاً ذريعًا في تحقيق ما كان يرغب من إنجازات، وبصورة لم يفوقه في الفشل سوى القليل من الرؤساء الآخرين.

الحكم في قضية دريد سكوت

نما إلى علم "بوكانان"، حتى قبل توليه منصبه، حكم المحكمة العليا الوشيك الذي قضى على الأمل في التوصل لتسوية نهائية للخلاف الدائر حول قضية العبودية؛ وكان هذا الحكم يتعلق بقضية "دريد سكوت"، وهي ترجع إلى ثلاثينيات القرن التاسع عشر عندما رافق العبد "سكوت" مالكه د. "جون إيمرسون" في رحلته من "ميزوري" إلى "إلينوي"، حيث كان هناك حظر للعبودية بموجب المرسوم الشمالي الغربي الصادر لعام 1787 وقانون الولاية، وكما رافقه إلى إقليم "ويسكونسن" الذي كان يحظر العبودية كذلك بموجب تسوية "ميزوري"؛ وبعد عودته إلى "ميزوري" رفع دعوى ليحصل على حريته مدعيًا أن الإقامة على أرض حرة قد جعلته حرًا.

صدر الحكم في قضية "دريد سكوت" في مارس/آذار 1857، أي بعد يومين من تنصيب "بوكانان" رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية، وهو الحكم الذي يُعد أحد الأحكام الأكثر شهرة - أو بالأحرى الأسوء شهرةً - على مدى تاريخ المحكمة العليا؛ حيث طرح القضاة ثلاثة أسئلة: هل يمكن أن يُصبح الشخص الأسود مواطنًا، ومن ثَمَّ يستطيع رفع دعوى أمام المحكمة الفيدرالية؟ هل الإقامة في ولاية حرة جعلت من "سكوت" رجلاً حرًا؟ هل يملك الكونجرس صلاحية حظر العبودية في أحد الأقاليم؟ أصدر القضاة التسعة كافة آراءهم فرادي، ولكن المحكمة انقسمت بشكل أساسي إلى 6 مقابل 3 (حيث انضم القاضي "روبرت جي جرير" من ولاية بنسلفانيا بإلحاح خفي من بوكانان إلى الأغلبية الجنوبية)، وأعلن رئيس القضاة "روجر ب. تاني" نيابةً عن الأغلبية أنه لا يجوز منح المواطنة أو الجنسية الأمريكية إلا للبيض وحدهم، وأكد على أن مؤسسي الأمة الأوائل كانوا يؤمنون أنه لم يكن للسود أي حقوق ليُلزم البيض أنفسهم باحترامها؛ وتابع قائلاً أنه لن يكون السود مطلقًا جزءًا من الأسرة السياسية للأمة، لأنهم ينحدرون من أسلاف مختلفين وليس لديهم تاريخ من الحرية.

كان يُمكن غلق القضية في هذه المرحلة نظرًا لأن "سكوت" لم يكن له الحق في رفع دعوى، ولكن فكرة تسوية قضية العبودية ألهمت "تاني" بمواصلة القضية؛ فأعلن بإصرار أن "سكوت" مازال عبدًا لأن قانون "إلينوي" لن يسري عليه بعد عودته إلى "ميزوري"؛ وأما بالنسبة لإقامته في ولاية "ويسكونسن"، فإن الكونجرس لا يملك بموجب الدستور السلطة لحظر العبودية في أحد الأقاليم، ونظرًا لأن تسوية "ميزوري" التي كانت قد أُلغيت مؤخرًا بموجب قانون "كانساس ونبراسكا" لم تكن دستورية، لذلك فإن أي تدبير يتعارض مع حق الجنوبيين في جلب العبيد إلى المناطق الغربية يُعتبر غير دستوري كذلك؛ وقد أعلن حكم المحكمة هذا في الواقع عدم دستورية البرنامج الجمهوري لتقييد التوسع في العبودية، وقوض كذلك على ما يبدو مبدأ "دوجلاس" في السيادة الشعبية، لأنه إذا كان الكونجرس لا يملك صلاحية حظر العبودية في أي من الأقاليم، فكيف يتسنى لأي هيئة تشريعية أنشأها الكونجرس أن تفعل ذلك؟ لذلك صرَّحت إحدى صحف "جورجيا" في ابتهاج شديد بأن حكم المحكمة "قد تطرق إلى جميع الجوانب المتعلقة بالعبودية وحسم القضية لصالح الجنوب".

نتيجة الحكم

لعلّ الشخص الأقل تأثرًا بالحكم في قضية "دريد سكوت" كان هو المدعي نفسه، حيث أن مالكه الجديد أعتقه وزوجته "هارييت" على الفور؛ وتوفي كلاهما في عشية الحرب الأهلية بعد أن تمتعا بحريتهما لسنوات قليلة فقط، إلا أن تأثير تلك القضية كان أوسع نطاقًا على النظام الحزبي، فمن آثاره الكارثية تدني سمعة المحكمة التي أصدرت هذا الحكم في الشمال إلى أدنى مستوى لها طوال التاريخ الأمريكي، وبدلاً من أن يتخلى الجمهوريون عن معارضتهم للتوسع في العبودية، رأوا أن المحكمة أصبحت تخضع الآن لهيمنة طبقة مالكي العبيد.

وأعلن الرئيس "بوكانان" عن جواز وجود العبودية من الآن فصاعدًا في جميع الأقاليم "بموجب الدستور"؛ وحاولت إدارته في عام 1858 الاعتراف بولاية "كنساس" كولاية تبيح العبودية بموجب دستور "ليكومبتون" الذي صاغه مؤتمر مؤيد للجنوب، ولم يخضع أبدًا للتصويت الشعبي عليه؛ وقد أثار هذا الانتهاك للسيادة الشعبية سخط "دوجلاس"، فشكَّل تحالفًا لم يكن محتملاً مع أعضاء الحزب الجمهوري في الكونجرس لعرقلة مسار هذه المحاولة، وظلت "كنساس" كإقليم ولكنها انضمت إلى الاتحاد كولاية للأحرار في عشية الحرب الأهلية، وأقنعت معركة "ليكومبتون" الديمقراطيين في الجنوب أنهم لا يمكنهم وضع ثقتهم في القائد الشمالي الأكثر شعبية في حزبهم.

لينكولن والعبودية

تجلى عمق انقسامات الأمريكيين حول العبودية بشكل صارخ في عام 1858، في أحد الحملات الانتخابية الحافلة بأكثر القصص شهرة في تاريخ الأمة؛ فقد سعى "دوجلاس" إلى إعادة

انتخابه في مجلس الشيوخ كبطل للسيادة الشعبية، وأيضًا بصفته الرجل الذي منع الإدارة من فرض العبودية على مواطني ولاية كنساس، ولكنه واجه تحديًا قويًا وغير متوقع من "أبراهام لينكولن" الذي كان آنذاك غير معروف خارج نطاق ولاية "إيلينوي"؛ وكان "لينكولن" قد وُلِدَ في عائلة متواضعة في مزرعة في ولاية "كنتاكي" في عام 1809، ثم انتقل وهو شاب إلى حدود "إنديانا" ثم إلى "إلينوي"، وعلى الرغم من أنه بدأ الترشح للمناصب العامة في سن الحادية والعشرين، إلا أن مسيرته لم تكن تبدو واعدةً حتى حلول منتصف خمسينيات القرن التاسع عشر؛ وقد عمل في المجلس التشريعي للولاية كيميني لأربع فترات، ولفترة واحدة في الكونجرس ما بين عامي 1847 و1849.

دخل "لينكولن" مجال السياسة مرة أخرى في عام 1854، نتيجة لقانون كنساس ونبراسكا؛ وقد صرَّح ذات مرة أنه "كان يكره العبودية مثلما يكرهها أي من دعاة إلغائها"، ولكنه على عكس دعاة الإلغاء كان مستعد لتقديم تنازلات للجنوب للإبقاء على الاتحاد؛ وكتب ذات مرة عن العبيد الهاربين قائلا "أكره أن أرى هذه المخلوقات الفقيرة تتعرض للمطاردة، وإذا بي أقضم شفتاي وألزم الصمت"؛ ولكنه لم يكن مرنًا في قضية واحدة - ألا وهي وقف التوسع في العبودية.

وجه "لينكولن" انتقادًا للعبودية وتوسيع نطاقها، تحدث فيه عن القيم الأساسية للحزب الجمهوري الناشئ وللملايين من الشماليين الذين كان الحزب يحظى بولائهم؛ ومزجت خطبه بين الحماسة الأخلاقية التي تميِّز دعاة إلغاء العبودية مع احترام النظام ودستور الشماليين الأكثر تحفظًا. صرح في عام 1854، في معرض حديثة عن إمكانية التوسع في العبودية قائلاً "إنِّي أكره التوسع في العبودية بسبب الظلم المستفحل الذي يكتنف العبودية في ذاتها، نعم أكره ذلك نظرًا لأنه يحرم نموذجنا الجمهوري من ممارسة نفوذه العادل في العالم - بل إنه يتيح الفرصة لأعداء المؤسسات الحرة أن يهزؤوا بنا عن حق، لأننا منافقون ويحمل أصدقائنا الحلفاء الحقيقيين للحرية على التشكيك في مصداقيتنا"؛ وحذر قائلاً إنه إذا سمح بالتوسع في العبودية فإن "حب الحرية" سيتلاشى وسيسقط معه رسالة أمريكا الخاصة في أن تكون رمزًا للديمقراطية في العالم بأسره.

ورغم أن لينكولن عاش في مجتمع ترسخت فيه مفاهيم ثورة السوق، وعمل في بعض الأحيان محاميًا لشركة إلينوي المركزية للسكك الحديدية التي تُعد إحدى أكبر الشركات في البلاد، إلا أنه كان يرى أمريكا كعالم المنتج الصغير، بمعنى أن حياته الخاصة جسدت فكر العمل الحر والفرص التي أتاحها مجتمع الشمال للعمال، و خلال خمسينيات القرن التاسع عشر، فاق عدد المزارعين من ذوي الممتلكات والحرفيين وأصحاب المتاجر عدد العمال بأجر في "إلينوي" إلى حد كبير؛ وأثارت كتابات مؤيدي فكرة العبودية مثل "جورج فيتزهيو" إعجاب واستياء "لينكولن" (تمت

مناقشتها في الفصل الحادي عشر)، ونهض للدفاع عن مجتمع الشمال قائلا "أريد أن تسنح الفرصة لكل إنسان، وإنني أؤمن أن الرجل الأسود يستحق فرصة للسعى إلى تحسين أوضاعه، وقد لا يتساوى السود مع البيض في جميع النواحي ولكنهم في رأيي متساوون في حقهم الطبيعي في جني ثمار عملهم، إنهم مساوون لي ومساوون لكل الآخرين."

حملة لينكولن ودوجلاس

أدت الحملة ضد الزعيم السياسي البارز في الشمال "دوجلاس" إلى بروز السمعة الوطنية "للينكولن"؛ وقد فاقم قبول "لينكولن" لترشيح حزبه له لمجلس الشيوخ في يونيو/ حزيران عام 1858، حدة الخلافات بينهما، وأعلن أن "البيت المنقسم على ذاته لن يصمد" (ويقصد هنا الولايات المتحدة)، وأوقن بأن هذه الحكومة لن تستمر بشكل دائم بوضعها الحالي حيث إن نصفها من العبيد ونصفها من الأحرار"؛ ولم يكن يقصد بهذا الحديث أن هناك حربًا أهلية وشيكة الحدوث، بل كان مقصده أنه يتعين على الأمريكيين أن يختاروا بين تأييد أو معارضة العبودية فليس هناك حل وسط؛ وأكد على أن سياسة دوجلاس الخاصة بالسيادة الشعبية تعكس حالة من اللامبالاة الأخلاقية من شأنها أن تؤدي إلى انتشار مؤسسة العبودية في جميع أنحاء الدولة بأكملها.

مازالت المناظرات بين "لينكولن" و"دوجلاس" التي عُقدت في سبع بلدات في ولاية "إلينوي"، وحضرها عشرات الآلاف من المستمعين من كلاسيكيات فن الخطابة السياسية الأمريكية؛ واختلفت تعريفات جوهر الحرية بين منظورهما حيث تعني الحرية بالنسبة "للينكولن" معارضة العبودية، محتجًا في ذلك بأن الأمة بحاجة إلى أحياء روح الآباء المؤسسين الذين حاولوا إنهاء العبودية بشكل نهائي؛ بينما على الجانب الآخر يرى "دوجلاس" أن جوهر الحرية يكمن في الحكم الذاتي وتقرير المصير الفردي، وأن الأمة الكبيرة والمتنوعة الأعراق لن تظل قائمة إلا باحترام حق كل منطقة محلية في تحديد المؤسسات الخاصة بها، وردًا على سؤال طرحه "لينكولن" خلال مناظرة "فريبورت"، أكد "دوجلاس" على عدم تعارض السيادة الشعبية مع الحكم في قضية "دريد سكوت"، محتجًا بأنه رغم أن الهيئات التشريعية الإقليمية لم تعد تستبعد العبودية بشكل مباشر، إلا أن الشعب رغب في إقصاء ملاك العبيد وكل ما كان يتوجب عليهم فعله هو الامتناع عن منح الحماية القانونية لمؤسسة العبودية.

لم يوجه "دوجلاس" النقد لحركة مناهضة العبودية فحسب، بل وجهه أيضًا إلى القوة الدافعة للإصلاح برمته المستوحاة من حركة الإحياء الديني؛ وأصر فيه على أنه لا يحق للسياسيين فرض معاييرهم الأخلاقية على المجتمع ككل، حيث قال "أنكر حق الكونجرس في فرض أمر جيد على شعب لا يرغب في فعله"، وإذا رغبت جماعة في امتلاك العبيد فلها الحق في فعل هذا، ولكن كان

"دوجلاس" يعني عند حديثه عن الشعب بطبيعة الحال البيض وحدهم؛ وقضى الكثير من وقته في المناظرات في محاولة لتصوير "لينكولن" على أنه راديكالي خطير، تشكل مواقفه تهديدًا يحط من منزلة الأمريكيين البيض من خلال تدني مستواهم بمساواتهم بالسود، وأعلن "دوجلاس عن ذلك قائلاً" "لقد أنشأ البيض حكومة الولايات المتحدة لتحقيق مصالح البيض ومصالح نسلهم للأبد".

شارك "لينكولن" في العديد من أشكال التحيز العنصري في عصره، فلقد عارض منح السود في ولاية "إيلينوي" حق التصويت أو الخدمة في هيئات المحلفين؛ وكثيرًا ما تحدث عن ترحيل السود إلى الخارج كأفضل حل لمشاكل العبودية والعرق، ولكن على عكس "دوجلاس" لم يستخدم الدعوات إلى ممارسة العنصرية لحشد الأصوات ورفض إقصاء السود من الأسرة البشرية، فكان يحق لهم مثل البيض تمامًا الحقوق الثابتة الواردة في إعلان الاستقلال الذي يطبق على جميع الرجال في جميع المناطق وفي كل مكان ولا يقتصر تطبيقه على الأوروبيين وأحفادهم وحسب.

كشفت نتائج انتخابات "إلينوي" عن الانقسام الشديد في الولاية على غرار الدولة كلها، حيث صوَّت جنوب الولاية بشدة لصالح الحزب الديمقراطي بينما صوتت المنطقة الشمالية التي يتزايد تعدادها بسرعة لصالح الحزب الجمهوري بقوة وبحزم؛ وكانت الهيئة التشريعية في كل ولاية تختار أعضائها في مجلس الشيوخ الأمريكي حتى تم إقرار التعديل السابع عشر في أوائل القرن العشرين؛ وفاز المرشحون الجمهوريون للسلطة التشريعية بأصوات أكثر من المرشحين الديمقراطيين على مستوى الولاية في عام 1858، ولكن نظرًا لأن تخصيص المقاعد – وفقًا لتعداد السكان في عام 1850 – لم يعكس الزيادة في تعداد الشماليين في ولاية "إلينوي" منذ ذلك الحين، فقد فاز الديمقراطيون بفارق ضئيل في الهيئة التشريعية؛ وأعيد انتخاب "دوجلاس"، وكان فوزه إنجازًا كبيرًا لأن الجمهوريين حققوا فوزًا كاسحًا في باقي المناطق الأخرى في الشمال في عام 1858؛ وأدى الاستياء من سياسة إدارة "كنساس" إلى تقسيم الحزب الديمقراطي مما نتج عنه في بعض الأحيان ترشح مرشحين من الحزب الديمقراطي (أحدهما مؤيد لدوجلاس والآخر مؤيد لبوكانان) ضد مرشح جمهوري واحد؛ وقد تزامن هذا الانقسام مع الكساد الاقتصادي الذي بدأ في عام 1857، مما ساعد على تحقيق انتصارات للجمهوريين حتى في ولايتي "إنديانا" و"بنسلفانيا" اللتين كان الديمقراطيون قد فازوا فيهما قبل سنتين.

جون براون في هاربرز فيري

فاقم هجوم مسلح شنه "جون براون" الداعي إلى إلغاء العبودية على ترسانة الأسلحة الفيدرالية في "هاربرز فيري" بولاية "فرجينيا"، من حدة التوترات بين الأقاليم؛ وكان "براون" ذا باع طويل في المشاركة في الأنشطة المناهضة للعبودية حيث عقد في ثلاثينيات وأربعينيات القرن

التاسع عشر صداقات مع العبيد الهاربين، ورغم تراكم الديون عليه بشكل مزمن إلا أنه ساهم في تمويل المنشورات المناهضة للعبودية؛ وكان براون كغيره من دعاة إلغاء العبودية متدينًا جدًا، ولكنه لم يكن يعبد الرب المتسامح كما كان الحال في حركات الصحوة الدينية، والذي يشجع الرجال على إنقاذ أنفسهم من خلال المرور بعملية تحول، بل الرب المنتقم في العهد القديم؛ وسافر "براون" خلال الحرب الأهلية في ولاية كنساس إلى الإقليم وشارك عددًا من أتباعه، بعد الهجوم الذي شنه على لورانس في مايو/ أيار 1856، في قتل خمسة مستوطنين مناصرين للعبودية في "خور بوتاواتومي"؛ وسافر في العامين التاليين عبر الشمال وكندا وجمع الأموال وجنَّد أتباعًا لشن حرب لمناهضة العبودية.

احتل "براون" في 16 أكتوبر/ تشرين الأول 1859 "هاربرز فيري" بمساعدة واحد وعشرين رجلاً من بينهم سبعة من السود، وكانت خطته تفتقر إلى الكثير من المنطق من الناحية العسكرية، وسرعان ما أحاطت كتيبة من الجنود الفيدراليين بقيادة العقيد "روبرت هـ. لي" بمجموعة "براون" وقتلتهم أو أسرتهم، ثم أجرت لهم محاكمة بتهمة خيانة ولاية "فرجينيا"؛ فتصرف "براون" بكرامة وشجاعة وحاز إعجاب الملايين من الشماليين الذين عارضوا أفعاله العنيفة، عندما تجاهل حاكم "فرجينيا" "هنري أ. وايز" الدعوات المطالبة بالرأفة في حق "براون"، وأمر بإعدامه مما حوَّله بفعله هذا إلى شهيد في نظر الكثيرين من الشماليين؛ حيث أعلن "هنري ديفيد ثورو" أن "براون" أضحى بطلاً مصلوبًا، وأظهر الراديكاليون من اليسار واليمين على حد سواء الاحترام والتوقير لـ"براون" منذ وفاته باعتباره رجلاً كان مستعدًا لمناهضة منظومة كان يتراءى له أنها غير أخلاقية؛ وأشاد به الزعماء السود لفترة طويلة باعتباره الشخص الأبيض الوحيد الذي كان مستعدًا للتضحية بنفسه من أجل قضية تحقيق العدالة بين الأعراق.

كان فشل هجوم "براون" أقل أهمية بالنسبة للجنوب، بالمقارنة بالإعجاب الذي أثاره لدى الكثير من الشماليين؛ فقد زاد هجومه وإعدامه من الفجوة بين الأقاليم، وكانت آخر رسائل "براون" عبارة عن تصريح موجز ونبوئي حيث قال "أنا جون براون واثقٌ تمامًا أن الجرائم والآثام التي تم ارتكابها على هذه الأرض لن يطهرها إلا الدم."

ظهور النزعة القومية الجنوبية

نظرًا لأن الجمهوريين كانوا مازالوا يكتسبون الدعم في الشمال، لذلك كان من المتوقع أن يُعلي الديمقراطيون شأن وحدة الحزب مع اقتراب انعقاد انتخاب عام 1860؛ ولكن بحلول ذلك الموعد كانت مجموعة كبيرة من الجنوبيين يرون أن احتمالات وطموحات منطقتهم ستكون أفضل خارج الاتحاد عما هي عليه بداخله؛ حيث واصل المؤلفون والقادة السياسيون ذوي

النفوذ دعمهم الكبير طوال خمسينيات القرن التاسع عشر للشكاوى حول مشاكل الجنوب. هذا وقد حال الارتفاع الهائل في أسعار العبيد دون أن يصبح العديد من أبناء المزارعين وصغار المزارعين المتقدمين أو من المحتمل أن يتقدموا في الوضع الاقتصادي والاجتماعي أن يصبحوا مزارعين من خلال إمكاناتهم الذاتية؛ ورأى العديد من الجنوبيين البيض أن فرص تحقيق الاستقلال الاقتصادي تضاءلت بعد أن كان يتحقق من خلال ملكية الأراضي والعبيد، وهو ما يمثل الحرية من منظورهم، وجنى الشماليون كما اتهمهم الانفصاليون فوائد تجارة القطن؛ بينما بات الجنوبيون غارقين في الديون أكثر فأكثر، وكان البقاء في الاتحاد يعني قبول الشمال للعبودية، بينما يستطيع الجنوب المستقل أن يصبح قاعدة لإمبراطورية العبيد التي تحيط بمنطقة البحر الكاريبي، وكوبا، وجزر الهند الغربية الأخرى، والمكسيك، وأجزاء من أمريكا الوسطى.

كان المزيد والمزيد من الجنوبيين يتحدثون بصراحة عن التوسع جنوبًا، وقد أقنع السفير الأمريكي لدى إسبانيا، "بيير سوليه" من ولاية لويزيانا في عام 1854، المبعوثين الدبلوماسيين إلى بريطانيا وفرنسا بالانضمام إليه في التوقيع على "بيان أوستند"، الذي دعا الولايات المتحدة إلى شراء كوبا أو الاستيلاء عليها من إسبانيا؛ حيث كان لا يزال الرق فيها قانونيًّا في نفس الوقت الذي قاد المغامر العسكري "وليام ووكر" سلسلة من حملات القرصنة (المصطلح مشتق من الكلمة الإسبانية "filibustero" التي تعني القراصنة) في أمريكا الوسطى.

كان "ووكر" قد وُلِدَ في ولاية "تينيسي" ثم توجه إلى كاليفورنيا للانضمام إلى هوجة البحث عن الذهب، ثم قرر بعد أن فشل في أن يصبح من الأثرياء أن يحاول أن يصبح قائدًا لأحد دول أمريكا اللاتينية؛ وبالفعل قاد عصابة من الرجال في عام 1853 واستولوا على "باجا كاليفورنيا" – شبه جزيرة في جنوب كاليفورنيا تملكها المكسيك – وعيَّن نفسه رئيسًا لجمهورية مستقلة؛ ثم أجبر وصول السفن البحرية المكسيكية "ووكر" ورجاله على التقهقر بسرعة، فقرر "ووكر" إثر هذا تنصيب نفسه حاكمًا على "نيكاراجوا" في أمريكا الوسطى، وفتح تلك البلاد لممارسة العبودية؛ وقد انخرطت "نيكاراجوا" آنذاك في حرب أهلية ودعته إحدى الفصائل المتحاربة لمساعدتها من خلال إرسال 300 رجل مسلح، واستولى "ووكر" على مدينة غرناطة في عام 1855، وأعلن نفسه رئيسًا عليها في السنة التالية واعترفت إدارة "فرانكلين بيرس" بحكومة "ووكر"، ولكن البلدان المجاورة أرسلت جنودها فأجبروه على الفرار؛ وقد مثلت أعماله انتهاكًا واضحًا لقوانين الحياد الأمريكية، ولكنه حظي بإشادة الجنوب وعندما أحالته السلطات الفيدرالية للمحاكمة في "نيو أورليانز" في عام 1858 برأته هيئة المحلفين.

بحلول أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر، كان القادة الجنوبيون يكرسون كل جهودهم

لتعزيز أواصر العبودية؛ وقد أعلن أحد السياسيين من ولاية "ساوث كارولينا" في عام 1860 أن "العبودية هي مَلِكنا، إنها حقيقتنا، إنها حقنا الإلهي"؛ وفرضت قوانين الولايات الجديدة المزيد من القيود على الحصول على الحرية حتى أن أحد مواطني ولاية "لويزيانا" صرح ببساطة قائلا: "لن يتم عتق أي عبد بعد إقرار هذا القانون في هذه الولاية"، ودعا بعض الجنوبيين إلى إعادة ممارسة تجارة العبيد الأفارقة آملين أن يؤدي توافد العبيد الجدد إلى تخفيض الأسعار، ومن ثَمَّ زيادة عدد البيض الذين يستثمرون أموالهم في مؤسسة العبودية هذه المميزة لولايات الجنوب؛ وطالبت سبع ولايات في أعماق الجنوب رسميًا، بحلول أوائل عام 1860، الحزب الديمقراطي بأن يعد برنامج يتعهد بحماية العبودية في جميع الأقاليم التي لم تنضم بعد للاتحاد كولايات، ولم يتقبل أي سياسي من الشمال هذا التوجه لأن إصرار القادة الجنوبيين على العبودية يعني تدمير الحزب الديمقراطي كمؤسسة وطنية؛ ولكن أنصار النزعة القومية الجنوبية، الذين يُعرفون بـ"آكلي النيران"، كانوا يطمحون إلى انقسام الحزب والدولة وتشكيل اتحاد كونفدرالي جنوبي مستقل.

انقسام الحزب الديمقراطي

حظى أنصار دوجلاس بالأغلبية في اجتماع الحزب الديمقراطي في إبريل/ نيسان 1860، ولكنهم لم يتمكنوا من الحصول على نسبة الثلثين اللازمة للترشح للرئاسة؛ ونظرًا لمناهضة "دوجلاس" لدستور "ليكومبتون" في "كنساس" ورفضه لدعم قوانين الكونجرس التي تفرض العبودية في جميع الأقاليم، لم يلق القبول لدى الزعماء السياسيين من عمق الجنوب فهم مازالوا عاقدين العزم على ضم ولاية "كنساس" إلى الاتحاد كولاية للعبيد؛ وعندما أقر المؤتمر برنامجًا يؤكد على مبدأ السيادة الشعبية، غادر ممثلو الولايات السبعة في الجنوب الأدنى والتي تسمح بالعبودية وعمَّت الفوضى الاجتماع؛ واجتمع المؤتمر مرة أخرى بعد مُضي ستة أسابيع واستبدلوا المنسحبين عن عضوية الحزب بأنصار "دوجلاس" ورشحوه لمنصب الرئيس، وردًا على ذلك قدم الديمقراطيون قائمة مرشحيهم بقيادة "جون ج. بريكينريج" عن ولاية "كنتاكي"، والذي أصر على أنه يجب حماية العبودية في الأقاليم الغربية.

لقد تمزق الحزب الديمقراطي الذي كان آخر رابطة عظيمة للوحدة الوطنية، وكانت المؤتمرات الوطنية تُعقد عادةً حتى يتسنى لمديري الأحزاب تسوية الخلافات بينهم إيمانًا منهم بالحاجة إلى تحقيق الوحدة في الحملة الانتخابية التي ستنطلق في الخريف، ولكن لم يلقِ الديمقراطيون من الشمال ولا في الجنوب بالاً للمصالحة في عام 1860؛ حيث لم يعد الديمقراطيون الجنوبيون يثقون بنظائرهم في الشمال لأن مؤيدي "دوجلاس" من جانبهم لم يقبلوا برنامجًا كان سيلحق الهزيمة بحزبهم في الشمال.

ترشيح لينكولن

في هذه الأثناء اجتمع الجمهوريون في شيكاغو واختاروا "لينكولن" حاملاً للوائهم؛ وعلى الرغم من أنه حضر الاجتماع بعدد من الممثلين أقل من "ويليام ه. سيوارد"، إلا أنه لم يكن له خصوم سياسيين مثل "سيوارد"، وشعر حزب "لا أدري" السابق الذي كان معظم أعضائه قد انضموا آنذاك إلى صفوف الحزب الجمهوري باستياء شديد من جهود "سيوارد" كحاكم "نيويورك" في ضخ أموال الولاية للمدارس الكاثوليكية، وكان "سيوارد" قد اكتسب شهرة عن غير استحقاق كامل بالراديكالية نتيجة لخطبه عن "القانون الأعلى" و"الصراع الذي لا يمكن السيطرة عليه" اللذان تمت مناقشتهما سابقًا.

وقد لاقى إخلاص "لنكولن" للاتحاد إعجاب الجمهوريين المعتدلين، وجعله إصراره على البعد الأخلاقي للجدل بين الأقاليم مقبولاً لدى الجمهوريين من ذوي خلفيات الدعوة لإلغاء العبودية؛ ونظرًا لأنه لم ينضم مطلقًا إلى حزب "لا أدري" لذلك لاقى قبولاً لدى الناخبين المهاجرين وفضَّله أنصار مذهب معاداة المهاجرين عن "سيوارد" المكروه لديهم، والأهم من ذلك أن لينكولن كان من ولاية "إلينوي" مما جعله الأنسب لعرض قضية الولايات المحورية المتنازع عليها اللازمة لتحقيق الفوز للجمهوريين؛ وبالفعل تم ترشيحه في الاقتراع الثالث ونفى برنامج الحزب صحة الحكم في قضية "دريد سكوت"، وأكد من جديد على معارضة الجمهوريين للتوسع في ممارسة العبودية وأضاف بنود رئيسية اقتصادية ضمن برنامج الحزب بهدف جذب اهتمام مجموعة واسعة من الناخبين الشماليين - مثل منازل مجانية في الغرب، وتعريفة جمركية حامية، ومعونات الحكومة في بناء السكك الحديدية العابرة للقارات.

انتخاب عام 1860

انطلقت في الواقع حملتان انتخابيتان للرئاسة في عام 1860، وقد تنافس في الشمال "لينكولن" و"دوجلاس" بينما لم يكن للجمهوريين أي وجود في الجنوب؛ وتنافس ثلاثة مرشحين في الانتخابات وهم "دوجلاس"، و"بريكينريج"، و"جون بيل" عن ولاية "تينيسي" كمرشح حزب الاتحاد الدستوري الذي تم تشكيله سريعًا، ونظرًا لأن هذا الحزب الجديد يعتبر ملاذًا لأعضاء حزب الهويج السابق، لذلك تبنى برنامجًا ينص على تعهد واحد - ألا وهو الإبقاء على الدستور كما هو [أي مع العبودية] والاتحاد كما هو [دون الخلاف الإقليمي].

كان أكثر الأشياء إثارة للدهشة في الانتخابات هو طابعها الإقليمي، حيث استحوذ "لينكولن" على أصوات جميع ولايات الشمال عدا ولاية "نيو جيرسي" بإجمالي 1.8 مليون صوت شعبي (54 في المائة من مجموع الأصوات الإقليمية و40 في المائة من مجموع الأصوات الوطنية)،

و180 صوتًا انتخابيًا (بأغلبية واضحة)، بينما حصل "بريكينريج" على أصوات معظم الولايات التي تسمح بالعبودية، إلا أن بيل حصل على ثلاث ولايات في أعالي الجنوب وحوالي 40 في المائة من الأصوات في الجنوب ككل، وبذلك تصدر دوجلاس في ولاية ميزوري فقط، ولكنه احتل المرتبة الثانية في الأصوات الشعبية بعد "لينكولن" حيث حصل على 1.3 مليون صوتًا؛ وكان دوجلاس هو المرشح الوحيد الذي حظى بدعم كبير في جميع أنحاء الدولة تقديرًا لمسعاه الطويل في تجاوز الانقسامات الإقليمية، ولكن فشله في الاستحواذ على دعم أي من الإقليمين يُشير إلى المستقبل السياسي التقليدي الذي يقوم على أساس الولاء للاتحاد لم يعد ممكنا؛ وتم انتخاب "لينكولن" الرئيس السادس عشر للبلاد دون أن يحصل على صوت واحدٍ في الولايات الجنوبية العشر؛ لقد أخفق في الحصول على أغلبية الأصوات الشعبية في الأمة، ولكن نظرًا لتفوق تعداد السكان في الشمال، فاز "لينكولن" بأصوات الهيئة الانتخابية ومن ثَمَّ تم انتخابه رئيسًا رغم أن أصوات خصومه الثلاثة ذهبت جميعًا إلى مرشح واحد.

أزمة وشيكة

حركة الانفصال

كان يرى العديد من الجنوبيين البيض أن فوز "لينكولن" يضع مستقبلهم تحت رحمة حزب يعلن عداءه صراحة لقيم ومصالح منطقتهم؛ ولم يعتقد الذين كانوا يناصرون الانفصال أن إدارة "لينكولن" ستتخذ خطوات فورية لمناهضة العبودية في الولايات، ولكن إذا كانت انتخابات عام 1860 تمثل تحولاً رئيسيًا في السلطة - كما بدا ممكنًا - كبداية حقبة طويلة من الحكم الجمهوري، فمَنْ كان يستطيع تحديد ما سيطالب به مناهضو العبودية خلال خمس أو عشر سنوات؟ وعلاوة على ذلك، كان ملاك العبيد يخشون جهود الحزب الجمهوري الرامية إلى توسيع نطاق حزبهم في الجنوب من خلال جذب فئات غير ملاك العبيد، وبدلاً من أن يقبل القادة السياسيون في عمق الجنوب أن يكونوا أقلية دائمة في أمة يحكمها خصومهم، وسعوا بجرأة ومثابرة إلى استقلال منطقتهم؛ فقد كانوا يعتقدون أنهم لم يخسروا جولة واحدة من الانتخابات بل باتت طريقة حياتهم كلها على المحك.

انفصلت عن الاتحاد في الأشهر التي تلت انتخاب "لنكولن" سبع ولايات تمتد من ولاية "ساوث كارولينا" إلى ولاية "تكساس"، وهي ولايات مملكة زراعة القطن التي يشكل فيها العبيد جزءًا أكبر من تعداد السكان الكلي مما في أعالي الجنوب؛ وكانت ولاية "ساوث كارولينا" أول ولاية تنفصل، وهي ولاية يشغل العبيد أعلى نسبة بين سكانها ولها تاريخ طويل من التطرف السياسي؛ وقد صوَّت المجلس التشريعي للولاية في 20 ديسمبر/ كانون الأول عام 1860 بالإجماع

على الانسحاب من الاتحاد، وأوضح في إعلانه أن أهم الأسباب المباشرة للانفصال هي قضية العبودية محتجين بالقول بأن "الشمال أعطى لنفسه الحق في البت في مدى ملائمة مؤسساتنا المحلية"، وأضاف الإعلان "لقد كان لينكولن صاحب آراء ودوافع مناهضة للعبودية ولقد أثبتت التجربة أنه لا يمكن للولايات التي تسمح بالعبودية أن تكون بمأمن في ظل خضوعها للولايات التي تُحظر فيها العبودية"؛ فقد ساوى مناصرو الانفصال حركتهم بالنضال من أجل استقلال أمريكا، ولكن "جورج فتزهيو" صاحب الفكر المناصر للعبودية، ادعى فيما بعد أن انفصال الجنوب كان أكثر أهمية من "القضية المألوفة" لعام 1776، نظرًا لأن الجنوب لم يتمرد هذه المرة على حكومة معينة وحسب بل تمرد على الفكرة الخاطئة الحديثة عن الحرية القائمة على "المساواة الإنسانية بين كل البشر" و"الحرية الطبيعية الفطرية".

أزمة الانفصال

بينما كانت تتدهور أوضاع الاتحاد ويتعرض للتفكك، كان الرئيس "بوكانان" مشلولاً فقد رفض انفصال أي ولاية، ولكنه أصر أيضًا في الوقت ذاته على أنه لا يحق للحكومة الفيدرالية استخدام القوة ضد أي ولاية تسعى للانفصال؛ وسعى قادة سياسيون آخرون إلى إيجاد حل لإنهاء الأزمة منهم السيناتور "جون جيه كريتيندين" عن ولاية "كنتاكي"، والتي تقع على الحدود بين الشمال والجنوب وتسمح بالعبودية حيث قدم خطة للتسوية لاقت الدعم الأوسع نطاقًا في شتاء الانفصال؛ وكانت تتمثل في سلسلة من التعديلات الدستورية الغير قابلة للتعديل لتأمين مستقبل العبودية في الولايات التي تسمح بها الآن، وتوسيع خط "تسوية ميزوري" ليشمل المحيط الهادئ مما يعني تقسيم جميع الأراضي الممتلكة الآن أو التي سيتم تملكها فيما بعد بين المناطق التي تسمح بالعبودية والمناطق الحرة؛ ولكن الولايات المنفصلة رفضت هذه التسوية لأنها لن تحقق سوى القليل وجاءت بعد فوات الأوان، بينما اعتبرها الكثيرون في أعالي الجنوب والشمال طريقةً لتسوية الخلافات الإقليمية ولمنع اندلاع الحرب الأهلية.

مع ذلك، ارتكزت خطة "كريتيندين" على معارضة رأي "أبراهام لينكولن" الذي اتخذ موقفًا ثابتًا لمناهضة التوسع في العبودية، رغبة منه في التصالح مع الجنوب حول قضايا مثل إعادة العبيد الهاربين؛ ولقد أخبر أحد قادة الحزب الجمهوري أنه يعتزم التمسك بموقفه كسلسلة من الفولاذ، لأنه يعتقد أن أحد المبادئ الأساسية للديمقراطية باتت على المحك، وكتب "لقد أجرينا توًا انتخاب وفقًا للمبادئ المعلنة صراحةً للشعب ولقد أحطنا علمًا الآن بأن الحكومة ستنقسم ما لم نذعن لمَنْ فزنا عليهم في الانتخاب قبل حتى أن نتقلد مناصبنا ... فإذا استلسمنا لهم فسيكون في ذلك نهايتنا ونهاية الحكومة"، فضلاً عن أن لينكولن كان يخشى أن تُفْهَم إشارة "كريتيندين" إلى "الأراضي

التي سيتم اكتسابها فيما بعد" بأنها دعوة ضمنية للجنوب للمطالبة بالحصول على "كوبا"، و"المكسيك" وأراضي أخرى مناسبة لممارسة العبودية.

وشكلت الولايات السبعة المنفصلة الاتحاد الكونفدرالي الأمريكي الخاص بها قبل تولي "لينكولن" منصبه في 4 مارس/ آذار 1861، وأقرت دستورًا خاصًا بها واختارت "جيفرسون ديفيس" من ولاية "ميسيسيبي" رئيسًا لهم بعد أن إجراء بضعة تعديلات- تتمثل في تولي الرئيس لفترة واحدة تمتد لستة أعوام، ويجوز لأعضاء مجلس الوزراء أن يصبحوا أعضاءً في الكونجرس كما هو الحال في بريطانيا- وسُن دستور الكونفدرالية على غرار دستور الولايات المتحدة تقريبا، إلا أنه خالف الدستور الفيدرالي في الضمان الصريح لملكية العبيد في كل من الولايات المنضمة للكونفدرالية الآن، وأي أقاليم تكتسبها الدولة الكونفدرالية الجديدة؛ وأعلن "ألكسندر هـ. ستيفنس"، نائب رئيس الكونفدرالية من ولاية جورجيا أن "يتجلى حجر الأساس بالنسبة للكونفدرالية يتجلى في الحقيقة الكبرى المتمثلة في عدم تساوي الزنوج مع البيض، وأن العبودية وما ينطوي عليها من التبعية للعرق المتفوق هي وضعهم الفطري والطبيعي والعادي".

واندلعت الحرب

لم يعتقد "لينكولن" أن الحرب باتت حتمية حتى بعد رفض تسوية "كريتيندين"، حيث ظلت في الاتحاد، عندما أصبح رئيسًا، ثماني ولايات تسمح بالعبودية تقع في الجنوب الأعلى حيث كان العبيد وملاكهم يشكلون نسبة أقل بكثير من تعداد السكان في عمق الجنوب، ولم يرَ جزء كبير من السكان البيض أن انتخاب "لينكولن" كان مبررًا لحل الاتحاد، ودعم ظنون "لينكولن" أن الانفصال سيتداعى من داخله في وقت من الأوقات، وانقسام البيض حول الانفصال حتى داخل الكونفدرالية الجديدة ومعارضة أعداد كبيرة من المزارعين من غير ملاك العبيد الكونفدرالية والانفصال عن الاتحاد.

وقد حاول "لينكولن" في خطابه الافتتاحي الذي ألقاه في 4 مارس/ آذار عام 1861 عقد مصالحة، حيث رفض الحق في الانفصال لكنه رفض أيضًا أي نية للتدخل في قضية العبودية في الولايات؛ ولم يتحدث عن استعادة الحصون، والترسانات، ومقرات الجمارك التي استحوذت عليها الكونفدرالية؛ رغم أنه تعهد بالسيطرة على الممتلكات الفيدرالية المتبقية في الولايات المنفصلة، لكنه وجَّه أيضًا تحذيرًا مستترًا مفاده "إن مناط القرار في قضية الحرب الأهلية الخطيرة يعود إليكم بنى وطني الساخطون ولا يعود إليّ".

كان "لينكولن" يتصرف في الشهر الأول من توليه الرئاسة بحذر بالغ، وكأنه يمشي على حبل رفيع فتفادى اتخاذ أي إجراء قد يدفع المزيد من الولايات إلى الانفصال عن الاتحاد؛ وشجع

أنصار الاتحاد في الكونفدرالية المنفصلة في الجنوب على إثبات وجودهم وسعى إلى تهدئة الجدل المتزايد في الشمال للمطالبة باتخاذ إجراءات قوية لمناهضة الانفصال؛ ونظرًا ليقينه في قرارة نفسه بإمكانية نشوب الحرب لذلك سعى جاهدًا، أنه في حال اندلعت الأعمال العدائية أن يكون الجنوب - وليس الاتحاد - هو الطرف المشعل للفتيل والذي يطلق الطلقة الأولى، وهذا بالضبط ما حدث في 12 إبريل/ نيسان عام 1861 حيث بدأت الكونفدرالية في شن هجوم على حصن "فورت سومتر" الخاضع لسيطرة الاتحاد في ميناء تشارلستون في "ساوث كارولينا".

كان "لينكولن" قد أخطر حاكم ولاية "ساوث كارولينا" قبل بضعة أيام بأنه يعتزم إعادة تموين إمدادات الطعام في ذلك الحصن العسكري نظرًا لتناقصها، فقام رئيس الكونفدرالية "جيفرسون ديفيس" بإصدار أمر بإطلاق النيران على حصن "فورت سومتر"، لأنه كان يرى أن وجوده يمثل إهانة لدولة الجنوب وكان يأمل في إجبار ولايات الجنوب الأعلى المترددة في الانضمام إلى الكونفدرالية. استسلم قائد الحصن في 14 نيسان/ إبريل، فأعلن "لينكولن" في اليوم التالي عن اندلاع تمرد في الجنوب وأمر 75.000 جندي بقمعه، وبدأت الحرب الأهلية وانضمت ولايات "فيرجينيا"، و"نورث كارولينا"، و"تينيسي"، و"أركنساس" إلى الكونفدرالية في غضون أسابيع؛ وصرَّح "لنكولن" فيما بعد بأن "اللوم يقع على كلا الجانبين، وذلك لأن أحدهما كان يشعل الحرب بدلاً من أن يدع الأمة تعيش وتستمر؛ ولم يجد الطرف الآخر خيارًا سوى قبول الحرب بدلاً من أن يدع الأمة تهلك، وهكذا اندلعت الحرب."

وقد نشر "هنري وادسورث لونجفيلو" في عام 1842 مجموعة قصائد عن العبودية تضمنت عملاً بعنوان "التحذير"، وفيها قارن العبيد الأمريكيين بشخصية "شمشون" القوية الواردة في الإنجيل الذي تمكن بعد أن أصيب بالعمى وكان مقيدًا من تدمير معبد مَنْ عذَّبوه:

يقبع شمشون الكفيف المسكين في هذه الأرض،

مسلوب القوى ومقيد بسلاسل من حديد،

ثم يرفع يديه في غضب قاصف،

فتهتز أعمدة هذه الدولة،

حتى يصل الدمار إلى معبد حرياتنا الرحب،

فقد كل شيء حتى شكله ولم يذر سوى ركام من الفوضى والحطام.

وبالفعل وقع الأمر الذي حذر منه "ونجفيلو" في عام 1861، حيث انحل الاتحاد الذي أنشأه مؤسسو هذه الأمة وأدى النضال من أجل إعادة بنائه إلى إحياء الحرية الأمريكية.

أصوات الحرية

مقتطف من مناظرات "لينكولن" و"دوجلاس" (1858)

كانت الحملة السياسية الأكثر شهرة في التاريخ الأمريكي هي تلك الخاصة بسباق عام 1858، للمنافسة على مجلس الشيوخ الأمريكي بين السيناتور "ستيفن أ. دوجلاس" (قاضي إلينوي السابق) و"أبراهام لينكولن"؛ وقد اكتسبت شهرتها تلك من جراء المناظرات السبعة التي ناقشا فيها سياسات العبودية والمفاهيم المتناقضة للحرية.

دوجلاس: السيد/ لينكولن يقول إنه من المحال أن تصمد هذه الحكومة طويلاً على نفس الحالة التي أنشأها عليها واضعوها - مقسمة بين ولايات تحظر العبودية وولايات تقبلها؛ ويقول إنها كانت قائمة منذ حوالي سبعين عامًا منقسمة على هذه الشاكلة، ولكنه يقول لكم الآن إنها لن تصمد طويلاً على نفس المبادئ ونفس الظروف النسبية التي أنشأها فيها آباؤنا.... وكان أحد الحقوق المكفولة للولايات آنذاك هو حق كل ولاية في تنظيم العلاقات بين السيد والخادم فيما يتعلق بمسألة العبودية.

الآن، أيها الرفاق إذا تصرفنا بوعي إزاء هذا المبدأ العظيم المتمثل في السيادة الشعبية الذي يضمن لكل ولاية وإقليم الحق في التصرف كيفما شاء في جميع المسائل الداخلية والمحلية، بدلاً من تدخل الكونجرس فيها، فإننا بذلك سنستمر في الحفاظ على السلام لجميع الأطراف.

لينكولن: القاضي دوجلاس يقول "لما لا يُمكن لهذا الاتحاد المنقسم مناصفةً بين الرقيق والأحرار أن يصمد طويلاً؟" "لما لا ندعه قائمًا كما كان عليه الحال في عهد آبائنا؟" هذا بالضبط هو موضع الخلاف بيننا.... فأقول له عندما شُكلت هذه الحكومة في بادئ الأمر، كانت سياسة مؤسسيها تتمثل في حظر انتشار العبودية في الأقاليم الجديدة للولايات المتحدة التي لم تكن العبودية تُمارس فيها آنذاك، ولكن القاضي دوجلاس وأصدقائه انتهكوا هذه السياسة ووضعوها على أسس جديدة تصبح بمقتضاها أبدية ووطنية. إن كل ما أطالب به أو أنشده في أي مكان هو أن تعود هذه السياسة مرة أخرى لأساسها الأصلي الذي وضعه مؤسسو حكومتنا - المتمثل في منع العبودية في المناطق الجديدة....يفترض القاضي "دوجلاس" أننا لا نهتم بهذه الأراضي الجديدة وليس لنا مصالح بها، ومن ثَمَّ لا يحق لنا التدخل ... ألا نرغب في منافذ تستوعب الزيادة السكانية إذا جاز لي القول بذلك؟ ألا نهتم بأن نرى في هذه المنافذ انتشار المؤسسات والمنظومات التي نريدها؟ إذا ما نحينا الآن جانبًا الجانب الأخلاقي الخاص بما إذا كان

استعباد زنجيًا فعل صائب أم خاطئ، فإني ما زلت أؤيد بأن تكون أراضينا الجديدة في الحالة التي يجد فيها الرجل الأبيض مسكنًا جيدًا له، وهذا ليس من أجل أن تكون هذه المنافذ والملاذات لشعبنا وحسب بل لكي تكون ملاذًا ومنفذًا لجميع البيض في كافة بقاع العالم - فيجد فيها "هانز" و"باتيست" و"باتريك" وجميع الرجال الآخرين من جميع أنحاء العالم مساكن جديدة ويحسّنوا فيه أوضاع حياتهم.

دوجلاس: أولاً، إنّي أعترض على منح الزنوج الجنسية بأي شكل من الأشكال، وأعتقد أن أساس هذه الحكومة هم المواطنون البيض وأعتقد أنها أنشئت على يد رجال بيض لتحقيق مصالح البيض ومصالح نسلهم للأبد... لا أعتقد أن الرب العظيم قد منح الزنوج القدرة على الحكم الذاتي. أقول لكم أيُّها المواطنون أنني أرى أن الموقعين على إعلان الاستقلال لم يشيروا إلى الزنوج عندما أعلنوا أن جميع الرجال خلقوا سواسية، بل كانوا يقصدون بهذه العبارة الرجال البيض الذين وُلدوا في أوروبا وذوي الأصول الأوروبية...

لينكولن: لا أعتزم أن أمهد للمساواة السياسية والاجتماعية بين البيض والسود، حيث إن هناك اختلاف في البنية البدنية لكل منهما، الأمر الذي أرجح أنه سيمعنهم دائمًا من أن يعيشوا معًا في ظل مساواة تامة بينهما، وبقدر ما أن هناك ضرورة للتمييز بينهما؛ فأنا بصفتي القاضي دوجلاس أدعم العرق الذي أنتمي إليه بأن تكون له السيادة ... ولكني أؤمن أنه رغم كل هذا ليس هناك سبب في العالم لعدم أحقية الزنوج في الحصول على جميع الحقوق الطبيعية المنصوص عليها في إعلان الاستقلال، وهي الحق في الحياة، والحرية، والسعي لتحقيق السعادة؛ وأؤمن أن الزنجي يحق له هذه الحقوق بقدر ما تحق للرجل الأبيض، وأتفق مع القاضي دوجلاس أن الزنجي غير متكافئ معي في نواح شتى- فنحن بالتأكيد لا نتساوى في اللون أو في الأخلاقيات على الأرجح أو في الهبات الفكرية، ولكنه يتساوى معي ومع القاضي دوجلاس ومع أي رجل حي في حق أكل الخبز الذي يكسبه بيده دون إذن من أي شخص آخر.

دوجلاس: قال لكم إنني لن أتطرق لمسألة ما إذا كانت العبودية صواب أم خطأ، أقول لكم لماذا لن أتطرق إليها ... إني أؤمن بأن شعوب الولايات التي تسمح بالعبودية هم رجالٌ متحضرون مثلنا ولديهم ضمير مثلنا، وإنهم مسئولون أمام الله والأجيال القادمة وليسوا مسئولين أمامنا، ومن ثَمَّ يعود الأمر إليهم في تقرير الحقوق الأخلاقية والدينية لقضية العبودية وفقًا لضوابطهم الخاصة ... إنه يقول لكم إنه يتطلع إلى الوقت الذي تُلغي فيه العبودية في كل مكان بينما أتطلع أنا إلى الوقت الذي ستُسمح فيه لكل ولاية بالحق في أن تتصرف حسب ما يتراءى لها.

لينكولن: أعتقد أن الاختلاف الحقيقي بين القاضي "دوجلاس" وأتباعه وبين الجمهوريين هو أن القاضي لا يرى أي فرق بين العبودية والحرية... ومن ثَمَّ أي رأي يصدر عنه يتجاهل فكرة أن هناك أي إثم في العبودية.... وتلك هي المعضلة الحقيقية وستستمر هذه المشكلة في هذا البلد عندما يكف لساني ولسان القاضي "دوجلاس" عن الحديث، إنه صراع أبدي بين هذين المبدأين - الصواب والخطأ - في جميع أنحاء العالم.

أسئلة:

1- كيف اختلفت رؤية "لينكولن" عن "دوجلاس" فيما يتعلق بالحقوق التي يحق للأمريكيين السود التمتع بها؟

2- لماذا كان "لينكولن" يؤمن بأنه لا يمكن أن تظل الأمة قائمة للأبد إذا كانت منقسمة نصفها من العبيد ونصفها الآخر من الأحرار، بينما كان "دوجلاس" يؤمن بتلك الإمكانية؟

4- كيف وازن المتحدثان بين حق كل ولاية في إدارة شئونها الخاصة وحق كل شخص في أن يُصبح حرًّا؟

أسئلة المراجعة:

1- اشرح مسوغات مذهب "القدر الواضح" بما في ذلك الدوافع المادية والمثالية.

2- ما القوى الاقتصادية التي أدت إلى التوسع القاري في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر؟

3- لماذا انتقد العديد من الأمريكيين الحرب على المكسيك؟ كيف رأوا التوسع كتهديد للحريات الأمريكية؟

4- كيف تطور مفهوم العِرق بحلول منتصف القرن التاسع عشر وكيف أُدرج في النقاش حول "القدر الواضح"؟

5- اشرح العوامل التي أدت إلى تأسيس الحزب الجمهوري.

6- ما هي الأسئلة الثلاثة التي طرحتها المحكمة العليا في قضية "دريد سكوت"؟ قيّم الحجج التي تذرعت بها المحكمة.

7- حسبما ورد في مناظرات "لينكولن" و"دوجلاس"، كيف اختلفت آراء كلًّا من الرجلين حول التوسع في العبودية والمساواة في الحقوق ودور الحكومة الوطنية؟

8- ما التداعيات الدولية للنزعة القومية في الجنوب؟

9- اشرح كيف أتاح تصويت الأقاليم في الانتخابات الرئاسية لعام 1860 الفرصة لحزب "آكلي النار" الجنوبي لتبرير الانفصال.

أسئلة الحرية:

1- كيف احتج الأمريكيون بأن الهدف من غزو "تكساس" وأجزاء أخرى من "المكسيك" كان توسيع نطاق الحرية؟

2- اشرح كيف كان كلًّا من الشماليين والجنوبيين يعتقدون أن الفوز في النزاع حول التوسع في ممارسة العبودية هو الأساس في الحفاظ على حرياتهم ومنع هيمنة الإقليم الآخر على الأمة.

3- في منظور الحزب الجمهوري، كيف كان العمل الحر هو السبيل إلى الحفاظ على الحريات الأمريكية وكيف شكلت سلطة العبيد تهديدًا على مجتمع الأحرار؟

4- كيف سوَّغ القوميون في الجنوب الاستقلال بأنه الحرية من عبودية الشمال؟

جدول المراجعة			
الطريق إلى الحرب			
الحدث	التاريخ	الشرح	النتيجة
تسوية عام 1850	1850	قلق الجنوبيين من أن يخل توازن القوى في الكونجرس بمطالبة ولاية كاليفورنيا بأن تصبح ولاية حرة.	أصبحت كاليفورنيا ولاية حرة وتم إقرار قانون العبيد الهاربين ويعود قرار البت في عبودية إقليم نيو مكسيكو إلى السكان المحليين.
قانون كنساس ونبراسكا	1854	مشروع قانون ينص على أن يتم البت في العبودية من خلال السيادة الشعبية.	"نزيف كنساس" – الحرب الأهلية في كنساس حول قضية العبودية في عام 1856.
قضية دريد سكوت	1857	حكمت المحكمة العليا بأن المواطنة تقتصر على الأشخاص البيض وأن الكونجرس لا يملك أي صلاحية لمنع ممارسة العبودية في أي إقليم.	أعلنت في الواقع عدم دستورية برنامج الحزب الجمهوري الذي كان يقيد التوسع في ممارسة العبودية.
جون براون وهاربس فيري	1859	هجوم براون على إحدى الترسانات الفيدرالية لشن حركة تمرد العبيد وتم إعدامه على هذه الجريمة	أصبح براون شهيدًا في نظر الكثيرين في الشمال
انتخاب عام 1860	1860	فاز أبراهام لينكولن دون أن يحصل على أصوات في الجنوب وأنهى عقود من سيطرة الجنوب على الرئاسة.	انفصلت سبع ولايات في الجنوب عن الاتحاد قبل أن يتم تنصيب لينكولن.

الفصل الرابع عشر

1861	الحرب الأهلية تبدأ في فورت سيومتر.
	موقعة بول رن الأولى.
1826	وقوع فورتس هنز ودونيلسون في الأسر.
	موقعة "مونيتور في ميريماك" البحرية.
	معركة شيلوه.
	حملة الأيام السبعة.
	موقعة بول رن الثانية.
	المعركة في أنتيتام.
	المعركة في فريدريكس بيرج.
	منح امتياز الاتحاد الباسفيكي والبنك المركزي.
1863	بيان التحرر.
	قانون هومستيد.
	أعمال الشغب التمهيدية في نيويورك.
	المعركة في جيتيسبرج.
	المعركة في فيكسبرج.
	لينكولن يقدم خطته التي عرفت بخطة العشرة بالمائة.
1864	جنرال جرانت يبدأ حرب الإنهاك.
	واد ديفس بيل.
	الجنرال شيرمان يتوجة بمسيرة نحو البحر.
1865	التعديل الثالث عشر على الدستور.
	أسر الاتحاد لريتشموند.
	استسلام الجنرال "لي" إلى جرانت في ديوان محكمة "ابوماتوكس".
	اغتيال لينكولن.
1866	حكم "إكس بارت ميليجان".

ميلاد جديد للحرية: الحرب الأهلية ، 1861-1865

الحرب الحديثة الأولى
- طرفا الصراع المتحاربان
- تكنولوجيا الحرب
- العامة والحرب
- تعبئة الموارد
- الاستراتيجيات العسكرية
- الحرب تبدأ
- الحرب في الشرق 1862
- الحرب في الغرب

مجيء التحرر
- العبودية والحرب
- تفكك العبودية
- خطوات نحو التحرر
- قرار لينكولن
- بيان التحرر
- تجنيد السود في الجيش
- الجندي الأسود

الثورة الأمريكية الثانية
- الحرية والاتحاد
- رؤية لينكولن
- من الاتحاد إلى الأمة
- الحرب والمعتقدات الأمريكية
- الحرية في وقت الحرب
- التحول في الشمال
- الحكومة والاقتصاد
- بناء السكك الحديدية عبر القارة
- الحرب وسكان أمريكا الأصليين
- نظام مالي جديد
- النساء والحرب
- الشمال المقسم

الأمة والكونفدرالية
- القيادة والحكومة
- الحرب الأهلية الداخلية
- المشكلات الاقتصادية
- الاتحاديون الجنوبيون
- النساء والكونفدرالية
- جنود سود للكونفدرالية

نقاط تحول
- جيتسبرج وفيكسبرج
- عام 1864

إرهاصات إعادة البناء ونهاية الحرب
- تجربة الجزيرة البحرية
- إعادة البناء وقت الحرب في الغرب
- سياسات إعادة الأعمار في وقت الحرب
- الانتصار في النهاية
- الحرب والعالم
- الحرب في تاريخ أمريكا

أسئلة تركيز:

- لماذا اعتبرت الحرب الأهلية هي الحرب الحديثة الأولى؟
- كيف تحولت الحرب للحفاظ على الاتحاد إلى حرب من أجل إنهاء العبودية؟
- كيف حولت الحرب الأهلية الاقتصاد الوطني وخلقت دولة وأمة أقوى؟
- كيف أثرت الجهود التي بذلت في الحرب ومشكلات القيادة على المجتمع واقتصاد الكونفدرالية؟
- ما هي نقاط التحول العسكرية والسياسية للحرب؟
- ما هي الإرهاصات الأكثر أهمية في وقت الحرب فيما يتعلق بإعادة الإعمار؟

مثل غيره من مئات الآلاف من الأمريكيين، تطوع "ماركوس إم سبيجيل" في عام 1861 ليشارك في القتال في الحرب الأهلية؛ وكان قد وُلِدَ في ألمانيا في عام 1829 لأسرة يهودية، وشارك في الثورة الفاشلة لألمانيا في عام 1848 ثم هاجر في العام التالي إلى "أوهايو"، حيث تزوج من ابنة فلاح بسيط وعندما اندلعت الحرب الأهلية كان تعداد اليهود في الأمة الأمريكية يبلغ 150.000 نسمة بما يمثل أقل من واحد بالمائة من إجمالي عدد السكان وشارك "سيجل" من صميم قلبه الوطنية الأمريكية، فكما قال في رسالة كتبها لشقيق زوجته بأنه ذهب للحرب دفاعًا عن "العَلَم الذي دائمًا ما كان يحميك ويحميني ويحمى كل شخص يبحث عن حماية من الاضطهاد."

ترقى سيجل إلى رتبة عقيد في سلاح المشاة في "أوهايو"، وشهد القتال في "فرجينيا"، و"مسيسيبى"، و"لويزيانا" وكان يقوم بمراسلة زوجته "كارولين" على نحو متكرر؛ وقال في إحدى رسائله في عام 1863 "لقد رأيت وتعلمت الكثير، رأيت أناسًا يموتون من المرض وتمزقهم أسلحة الموت، لقد رأيت جيوشًا تقف معادية لبعضها البعض وكانت الهجمات العنيفة لجنود المشاة والخياله تصطاد الرجال وتسقطهم كالحيوانات." لكن رغم ذلك لم يتنازل أبدا عن تمسكه "بالقضية المقدسة" المتمثلة في الحفاظ على الاتحاد وتراثه في الحرية.

لقد شكلت "الحرية"، تلك الكلمة التي أسماها أحد مجندي "بنسلفانيا" حديثي التجنيد "الكلمة الساحرة"، مقدار عدد جنود الاتحاد الذين فهموا الصراع؛ وقد كتب "صامويل ماكلفين"، الذي كان يعمل رقيبًا في الجيش من "إنديانا"، أن الغرض من وراء الحرب كان الحفاظ على الأمة الأمريكية التي تمثل "منارة الحرية إلى كل أفراد الجنس البشرى"؛ ولكن بعد أن قطعت الحرب شوطًا اكتسب مفهوم الحرية الذي كان سائدًا قبل الحرب إضافة جديدة، فالملايين من الشماليين الذين لم يكونوا من المنادين بإلغاء العبودية من قبل أصبحت الآن لديهم قناعة بأن الحفاظ على الاتحاد كتجسيد للحرية يتطلب تدمير العبودية.

لقد عكست وجهات النظر المتغيرة لدى "ماركوس سبيجل" تحول الصراع من الحفاظ على الاتحاد إلى حرب من أجل إنهاء العبودية؛ وقد كان "سيجل" ديموقراطي متعصب وتقاسم التوجهات العنصرية التي كانت سائدة آنذاك، وكان يرى أن "إعلان لينكولن للتحرر" يمثل خطأ فادحًا، ولكن مع توغل جيش الاتحاد في عمق أقصى الجنوب أصبح سبيجل معارضًا للعبودية بشكل متزايد؛ حيث ذكر في أحد رسائله التي أرسلها من "لويزيانا" في يناير/ كانون الثانى عام 1864 لزوجته "لقد تعلمت ورأيت بعيني منذ أن جئت هنا ... فظاعات العبودية، فأنت تعلمين جيدًا أنه من الشيء الصعب بالنسبة لي أن أقول أي شيء يبدو مخالفًا لسياسات الحزب الديموقراطي لكن ... هذا ليس معناه أنني سأتحدث أو أصوت لصالح العبودية من الآن فصاعدا"

وقُتِلَ "ماركوس سبيجل" في اشتباك صغير في لويزيانا في مايو/آيار لعام 1864 ليصبح واحدًا من بين 620.000 أمريكي لقوا حتفهم في الحرب الأهلية.

الحرب الحديثة الأولى

عادة ما يُطلَق على الحرب الأهلية الأمريكية اسم الحرب الحديثة الأولى، حيث لم يحدث من قبل أن قامت جيوش حاشدة بمواجهة بعضها البعض على أرض المعركة باستخدام أسلحة قاتلة أنتجتها الثورة الصناعية؛ ولم تشهد التجربة الأمريكية أي خسائر وضحايا تقارب تلك الناجمة عن الحرب، فبعد أن بدأت على أنها معركة بين جيش وجيش، انتقلت لتصبح صراعًا بين مجتمع في مواجهة مجتمع؛ حيث اختفى التمييز بين ما هو أهداف مدنية وبين ما هو أهداف عسكرية؛ وفى حرب من هذا النوع، يكون لفاعلية القيادة السياسية والقدرة على تعبئة الموارد الاقتصادية والرغبة المجتمعية في الحفاظ على استمرارية القتال- على الرغم من النكسات- تأثيرًا حاسمًا على النتيجة، من حيث النجاح أو الفشل على أرض المعركة.

المتصارعان (المتحاربان)

لاشك في أن نتيجة أي مقارنة بين الاتحاد والكونفدرالية ستكون في صالح الاتحاد، إذ بلغ عدد سكان الشمال إضافة إلى الولايات الحدودية التي تسمح بالعبودية ولكنها موالية للاتحاد 22 مليونًا في عام 1860؛ بينما وصل عدد أولئك الذين يعيشون في الكونفدرالية 9 ملايين فقط، منهم 3,5 مليون منهم من العبيد؛ وكذلك تفوق الاتحاد على خصمه في مجال التصنيع والسكك الحديدية ذات المسافات الطويلة والموارد المالية؛ ومن ناحية أخرى واجه الاتحاد المهمة الأصعب للغاية وهي استعادة الأمة الممزقة، وكان من الضروري غزو منطقة أكبر من غرب أوروبا. كان الجنود الكونفدراليون مقاتلين يتمتعون بحافز عالٍ من أجل الدفاع عن أوطانهم وأسرهم؛ ومثلما حدث مع قوات "جورج واشنطن" أثناء الثورة الأمريكية، حيث تستطيع الجيوش الجنوبية خسارة معظم المعارك، إلا أنها تبقى الفائزة بالحرب إذا ما أصبح خصمها منهكًا وسائمًا من القتال كما صرَّح الجنرال الكونفدرالى "ب.ت.ج. بيرجارد" فيما بعد قائلا " ليس هناك من شعب حارب من قبل من أجل الاستقلال وكان يتمتع بمثل المزايا التي تتمتع بها الكونفدرالية".

أجج اندلاع الحرب شعورًا قويًا بالوطنية على كلا الجانبين، حيث اندفع المتطوعون للتجنيد في الجيش متوقعين انتصارًا سريعًا ومجيدًا؛ ولكن فيما بعد ومع تضاؤل الحماس المتوهج في النفوس لجأ كلا الجانبين إلى نظام التجنيد الإجباري، وأقرت الكونفدرالية أول قانون للتجنيد الإجباري في التاريخ الأمريكي في ربيع عام 1862؛ وسرعان ما تبعها الشمال في هذا وبحلول عام

1865، كان أكثر من مليونين من الرجال يخدمون في جيش الاتحاد في مقابل 900.000 رجل يخدم في الجيش الكونفدرالى؛ وكان كل جيش من الجيشين يمثل مقطعًا نموذجيًا لمجتمعه، فمثلاً كان جيش الشمال يتألف في غالبيته من عمال المزارع، وأصحاب والعاملين في المحلات التجارية، والحرفيين المهرة، وعمال الحضر؛ بينما كان يتكون جيش الجنوب في معظمه من صغار الفلاحين الذين لا يمتلكون عبيدا، بالإضافة إلى مالكى العبيد الذين كانوا يتولون مراكز كبار الضباط في فروع الجيش وقواته العسكرية.

كانت قلة من المتطوعين الجدد فقط هي التي تملك الخبرة العسكرية، حيث كان قد مضى خمسة عشر عامًا على الحرب المكسيكية؛ مما جعل الأفكار عن الحرب رومانسية للغاية ومستمدة من الروايات، ومقالات الصحف، وصور الجنود المطبوعة على الحجر يغطون أنفسهم بالمجد؛ وقد كتب جندي عادي في عام 1862 أن فكرته عن الحرب تلقاها من صور لمعارك كان قد رآها، حيث "يصطف الجميع في صفوف بشكل رائع في أرض المعركة الممهدة بشكل جيد، وعدد من النساء يعتنون بالجرحى ...إلخ؛ إلا أن الأمر لم يكن على هذا النحو"، وكذلك لم يكن المتطوعون الجدد على استعداد للنظام العسكرى القاسى؛ حيث كتب أحد جنود "ايلينوي" قائلا "كان الحرمان من الحرية صعب جدًا في البداية، ولم يقطع النوبات المتواصلة من حفر الخنادق والأعمال الروتينية الأخرى سوى سلسلة من القتال المحتدم على أرض المعركة من وقت لآخر"؛ ووفقًا لأحد التقديرات، قضت قوات الاتحاد الرئيسية - أي ما يطلق عليه جيش بوتوماك - ثلاثين يومًا فقط في قتال فعلى خلال السنتين الأوليين للحرب.

تكنولوجيا الحرب

لم يكن لا الجنود ولا ضباطهم مؤهلين للطريقة التي حولت بها التكنولوجيا الحروب ومساراتها، حيث كانت الحرب الأهلية هي الصراع الرئيسي الأول الذي تم فيه نقل القوات العسكرية والمؤن عبر السكك الحديدية؛ وكانت المرة الأولى التي أصبحت فيها ملتقى خطوط السكك الحديدية هدفًا عسكريًا رئيسيًا مثل "أطلانطا" و"بيترسبرج"؛ وكانت المعركة البحرية الشهيرة بين السفينة "مونيتور" التابعة للاتحاد وبين السفينة "ميريماك" التابعة للكونفدرالية في عام 1862، هي المعركة الأولى التي ظهر فيها تفوق الآلات الحديدية على السفن الخشبية؛ الأمر الذي أدى إلى إحداث ثورة في المعارك البحرية وشهدت الحرب استخدام التلغراف في الاتصالات العسكرية، بالإضافة إلى إدخال منطاد المراقبة لرؤية خطوط العدو وحتى استخدام القنابل اليدوية البدائية الصنع والغواصات.

ربما كان الشيء الأكثر أهمية هو الثورة التي شهدها تصنيع الأسلحة بإستبدال البندقية

التقليدية التي كانت دقيقة فقط في إصابة الأهداف قصيرة المدى بأخرى أكثر حداثة، والتي بإمكانها القتل على بعد 600 ياردة أو أكثر بسبب تطور ماسورة إطلاقها؛ وقد عملت هذه التطورات على تغيير طبيعة الصراع مما أدى إلى التأكيد على أهمية التحصين الثقيل وتوسيع الخنادق، كما أعطت لمن هم في وضع الدفاع - الجيوش الجنوبية في العادة - مزايا واضحة بالمقارنة بقوات الهجوم؛ وقد صرَّح الجنرال الكونفدرالي "توماس جاكسون" الذي كان يطلق عليه "الحائط الحجري" قائلا "ربما يخفق رجالي أحيانًا في زحزحة العدو من مواقعهم، ولكنهم لم يفشلوا أبدًا في الحفاظ على مواقعهم"؛ وقد خلفت حروب البنادق والخنادق وراءها إحصاءات مروعة لأعداد القتلى والجرحى في معارك الحرب الأهلية، حيث قضى 260.000 نحبهم في الحرب، بما يعادل ما يزيد على 6 ملايين رجل بمعدلات السكان اليوم؛ ولم تتضمن هذه الإحصاءات آلاف المدنيين الذين أصبحوا ضحايا للمعارك أو أولئك الذين سقطوا من المرض في معسكرات العبيد الهاربين أو سقطوا في الصراع الذي اندلع في أجزاء في الجنوب بين عائلات تنتمي للاتحاد وأخرى تنتمي للكونفدرالية؛ وبعبارة أخرى، فإن خسائر الوفيات التي نجمت عن الحرب الأهلية تساوي العدد الإجمالي للأمريكيين الذين ماتوا في كل الحروب الأخرى التي خاضتها الأمة منذ الثورة وحتى الحرب في العراق.

كذلك لم يكن أي من الفريقين المتحاربين على استعداد للجوانب الأخرى من الحرب الحديثة إذ ظلت الرعاية الطبية على صورتها البدائية، حتى أن أحد جنود الاباما كتب عام 1862 قائلا "أعتقد أن الأطباء قتلوا من المصابين والمرضى أكثر مما عالجوهم"؛ حيث اجتاحت أمراض مثل الحصبة، والدوسينتاريا، والملاريا، وحمى التيفود معسكرات الجيش وأدت إلى مقتل رجال بأعداد أكبر من الذين قتلوا في المعارك؛ وكانت الحرب الأهلية هي الحرب الأولى التي يتم فيها أسر أعداد كبيرة من الأمريكيين من قبل الأعداء، وتم الزج بهم في سجون حربية في أوضاع مزرية حيث مات ما يقرب من خمسين ألف رجل في هذه السجون كضحايا للجوع والمرض، ومن بينهم 13.000 من جنود الاتحاد في "أندرسونفيل" بولاية "جورجيا".

أصبحت الحرب أكثر دمارًا في كل مكان بالعالم، وكان معدل سفك الدماء الذي نجم عن الحرب الأهلية غير مسبوق في تاريخ أمريكا، ولكن لم يكن فريدًا في عالم القرن التاسع عشر الذي شهد ثورة "تابنج" (أحد الحروب الأهلية المدمرة التي وقعت جنوب الصين، وكانت تعد من أكثر الحروب الأهلية الدموية على مدار التاريخ) في الفترة مابين عامي 1850 و1864، والتي أسفرت عن قتل ما يقرب من 23 مليون شخص، في مقابل مقتل نصف عدد سكان باراجواي فيما قبل الحرب، أي ما يقدر بحوالس 525,000 شخص في حرب "التحالف الثلاثي" التي وقعت

في أمريكا الجنوبية في الفترة ما بين عامي 1864 و1870، والتي تحالفت فيها "الأرجنتين"، و"البرازيل"، و"أراجواي" ضد "بارجواي"، وأخيرًا شهد نفس هذا القرن الدمار العسكرى الذي ألحقه "نابليون الثالث" بكوميون باريس في عام 1871، فقد نتج عنه مقتل ما يزيد على 20,000 شخص من أتباعه في مدينة واحدة.

العامة والحرب

ثمة سمة أخرى حديثة برزت في الحرب الأهلية، حيث استخدم كلا الجانبين مجهودًا دعائيًا ضخمًا من أجل تعبئة الرأي العام؛ ففي جانب الاتحاد ظهر سيل من الطباعة الحجرية، والهدايا التذكارية، والمقطوعات الموسيقية، والمنشورات التي كانت تصدرها منظمات وطنية؛ وأعادت وزارة الحرب التأكيد على القيم الشمالية، ووصمت الحزب الديمقراطي بالخيانة واتهمت الجنوب بارتكاب عدد هائل من الجرائم ضد جنود الاتحاد والمدنيين الموالين له، وكذلك ظهرت رسائل مشابهة وموازية لذلك في الكونفدرالية.

وفى الوقت ذاته كانت حقائق الحرب المفزعة تُنقل إلى عامة الناس بشكل فوري على نحو غير مسبوق، وصاحب مراسلو الحرب الجيوش؛ وكانت الصحف تنقل نتائج المعارك في اليوم التالي، وتنشر على الفور قوائم طويلة بالضحايا والخسائر؛ وقد ساعد فن الفوتوغرافيا الوليد أيضًا على تقديم صور الحرب إلى الملايين من غرف معيشة الأمريكيين، حيث دخل مصورو الفوتوغرافيا إلى أرض المعركة لالتقاط صور صادمة للموتى في "أنتينامى" بداية من عام 1862، كما وصف أحد الصحفيين الكاميرا قائلا "لقد أحضرت الجثث وألقت بهم في فناء منازلنا"؛ حتى أن "ماثيو باردى" الذي نظَّم هيئة لمصوري الفوتوغرافيا من أجل تغطية الحرب، وجد أن الصراع العسكري بمثابة جواز المرور للشهرة والثروة، بينما كان نقطة تحول بالنسبة للفوتوغرافيا نفسها كفن وكمشروع استثماري.

تعبئة الموارد

عندما اندلعت الحرب لم يكن كلا الجانبين على استعداد لها، فلم يكن هناك مقياس وطني للعرض بين خطي السكة (أي المسافة التي تفصل بين خطي القضبان) في عام 1861، ولذا لم تكن القطارات التي أنشئت على أساس الخط الواحد تستطيع المرور على خط آخر؛ ولم يكن هناك نظام مصرفي وطني ولا نظام للضرائب قادر على جمع الموارد المالية الهائلة اللازمة لتمويل الحرب، ولا حتى خرائط دقيقة للولايات الجنوبية، وبمجرد الإغارة على حصن "فورت سيومتر" أعلن "لينكولن" حصارًا بحريًا على الجنوب كجزء مما سُمِّيَ "خطة أناكوندا" التي كانت تهدف لخنق الجنوب اقتصاديا، ولكن الأسطول البحري المكلف بحراسة الخط الساحلي الممتد بطول 3,500

ميل؛ كان يتكون من تسعين مركبًا فقط وأقل من نصفهم كان يعمل بقوة البخار، ولم يصبح الحصار فعالاً إلا بعد وقت طويل من بدء الحرب.

برزت بعد ذلك مشكلة بيع وتوزيع الطعام والأسلحة والمستلزمات الأخرى التي يحتاجها الجنود، وأصبح جيش الاتحاد في نهاية الأمر الأفضل من حيث الإمداد بالطعام والأفضل من حيث التزويد بالمستلزمات العسكرية على مدار التاريخ؛ بينما على الجانب الآخر، كانت جيوش الجنوب تعانى بدخول الحرب عامها الثالث من نقص شديد في الأطعمة، والملابس، والأحذية؛ ولكن رئيس مكتب الامدادات العسكرية الكونفدرالي "جوسياه جورجاس" (المنقول من الشمال) أثبت دهاء ومهارة في تسليح القوات الجنوبية، حيث استطاعت الحكومة الكونفدرالية في ظل توجيهاته استيراد الأسلحة من الخارج وأسست ترسانة عسكرية خاصة بها لإنتاج البنادق والمدفعية والذخيرة.

الاستراتيجيات العسكرية

حاول كل جانب أن يجد طرقًا يسعى من خلالها لتعظيم مزاياه، فتبنت الكونفدرالية استراتيجية دفاعية بشكل أساسي؛ بالإضافة إلى شن ضربات من وقت لآخر على الشمال؛ وكان القائد العسكري الرئيسي للجنوب الجنرال "روبرت أي لي" معروفًا ببراعته في التكتيك الحربي في أرض المعركة، وكان يشعر بالثقة في قدرته على صد هجمات قوات الاتحاد الأكبر من قواته؛ وكان يأمل في أن سلسلة من الهزائم والإخفاقات من شأنها أن تضعف من تصميم وعزيمة الشمال وتؤدى بهم في نهاية المطاف إلى ترك الصراع والاعتراف باستقلال الجنوب.

رأى جنرالات "لينكولن" الأوائل أنه من المستحيل ترجمة ما وصل إليه الاتحاد من تقدم في الطاقة البشرية والتكنولوجيا إلى ضربات موجعة مؤثرة على أرض المعركة، وبلغ تعداد الجيش النظامي في إبريل/ نيسان 1861 ما يزيد قليلاً عن 15,000 رجل، تمركز غالبيتهم غرب نهر "المسيسبي"؛ وكان الضباط مدربين على قيادة مجموعات صغيرة من القوات المحترفة على أرض المعركة، وليست حشود من الرجال غير المدربين تجمعوا في عام 1861؛ كما عانى الشمال أيضًا من النظرة العسكرية الضيقة، إذ ركز جنرالات الشمال في بادئ الأمر على احتلال الأراضي الجنوبية ومحاولة السيطرة على عاصمة الكونفدرالية "ريتشموند"؛ فقاموا بشن الهجمات بشكل متقطع ثم ينسحبون بعد المعركة ثم يعاودون الهجوم والانسحاب، ولكن ذلك أدى إلى التضحية بالتفوق البشرى للشمال وسمح للجنوب بتركيز قواتهم الأصغر حجمًا حينما يكون هناك هجوم وشيك.

وقد أدرك "لينكولن" ببساطة، قبل جنرالاته بوقت طويل، أن السيطرة على الأراضي واحتلالها لن ينتج عنه كسب الحرب؛ وأنه يجب أن يكون هدف الشمال من المعركة هو هزيمة

جيوش الجنوب وليس السيطرة على عاصمتهم، وعندما بدأ "لينكولن" في تبني سياسة تحرير العبيد، اعترف بما أكده نائب رئيس الكونفدرالية "ألكيسندر اتش ستيفن"، عندما قال إن العبودية "هي حجر الزاوية" للكونفدرالية، ولذلك يجب على الاتحاد لكي يكسب الحرب أن يجعل من مؤسسة العبودية هدفه العسكري لأنها تشكل الأساس الاقتصادي والاجتماعي للحياة في الجنوب.

وبدأت الحرب

كانت معظم معارك الحرب في الشرق تقع في رواق ضيق يمتد إلى مسافة 100 ميل فقط بين "واشنطن" و"ريتشموند"، حيث قادت سلسلة متعاقبة من جنرالات الاتحاد جيش البوتوماك (هذا هو الاسم الذي كان يُطلق على قوات الشمال الرئيسية في الشرق) تجاه عاصمة الكونفدرالية؛ ولكن قوات الجنوب كانت تجبرهم على التراجع في كل مرة، ولكن الاشتباك الخطير الأول كان في 21 يوليو/ تموز 1861 في معركة "بول رن" الأولى التي وقعت في "فرجينيا" الشمالية؛ وقد انتهت بالتراجع الفوضوي لجنود الاتحاد، بالإضافة إلى المتفرجين والسياسيين الذين كانوا قد جاءوا لمشاهدة المعركة؛ وقُتِلَ ما يقرب من 800 شخص في هذه المعركة وهو أكبر عدد من القتلى الأمريكيين، بالمقارنة بكل المعارك السابقة في تاريخ الأمة ولكن هذا العدد تضاعف عدة مرات في السنوات التي تلت المعركة، وأقنعت هذه المواجهه كلا الجانين أن الحرب ليست مجرد مزحة أو نزهة.

وتولى قيادة جيوش الاتحاد "بوتو ماك"، في أعقاب معركة "بول رن"، "جورج بي ماكليلان"؛ المهندس العسكري، الذي كان قد فاز لتوه في اشتباكات صغيرة مع القوات الكونفدرالية في غربى فرجينيا، ونجح هذا القائد المنظم الفذ في صهر قواته معًا في قوة قتالية رائعة، ولكنه قد بدا معارضًا لفكرة إقحامهم في المعركة في الوقت الحاضر، لأنه نزع إلى المبالغة في تقدير حجم قوات العدو وأيضًا لأنه كان يأمل كديمقراطي في أن يتم التوصل إلى تسوية لإنهاء الحرب دون تكلفة عالية من الخسائر في الأرواح ودون إضعاف العبودية، ولذلك مرت شهور تجمدت فيها الأنشطة العسكرية.

الحرب في الشرق لعام 1862

لم يقم "ماكليلان" بقيادة جيشه الذي يزيد عن 100,000 رجل للتوجه نحو "فرجينيا" إلا في ربيع عام 1862، بعد تعالي صيحات الجمهوريين في الصحف وأعضاء الكونجرس ونفاد صبر "لينكولن"؛ وواجهوا جيش أصغر بشمال "فرجينيا" تحت قيادة الجنرال الكونفدرالي "جوزيف أي جونستون"، وبعد إصابته عُرِضَ على "روبرت إي لي"، وكان قائدًا بارعًا في الخطط التكتيكية على أرض المعركة، أن يقوم بقيادة جيش الاتحاد إلا أنه اختار أن يقاتل من أجل الكونفدرالية بسبب إخلاصه لولاية "فرجينيا"؛ وفى حملة الأيام السبعة في يونيو/ حزيران 1862، شن "ماكليلان" سلسلة

من الاشتباكات على شبة الجزيرة جنوب "ريتشموند"، ولكن "لي" قام بصد هجمات "ماكليلان" وأجبره على الانسحاب والتقهقر حتى وصل بالقرب من "واشنطن دي سي"، ثم برز "لي" منتصرًا مرة أخرى في أغسطس/ آب 1862 في موقعة "بول رن الثانية" ضد قوات الاتحاد تحت قيادة الجنرال "جون بوب".

أعقب "لي" نجاحه في الدفاع بشن غزوات على الشمال بهدف الوصول إلى الحدود مع الولايات التي تسمح بالعبودية وضمها إلى الكونفدرالية، وإقناع بريطانيا وفرنسا بالاعتراف باستقلال الجنوب والتأثير على انتخابات الشمال المعتزم إجراءها في الخريف، وربما السيطرة على "واشنطن العاصمة"، ولكن "ماكليلان" وجيش البوتوماك نجحوا في صد "لي" وإيقاف تقدمه في معركة "أنتيتام" في "ميريلاند"؛ ففي يوم واحد فقط من القتال، قُتِلَ ما يقرب من 4,000 شخص وأصيب نحو 18,000 شخص (توفى 2.000 منهم فيما بعد متأثرين بإصابتهم)، ويروى أحد الناجين قائلا "كان الموتى يتناثرون على أرض المعركة وتم سحقهم تمامًا كالحشائش أمام المنجل" وقد قُتِلَ في السابع عشر من سبتمبر/ أيلول 1862 أثناء تلك المعركة أكثر من أي يوم آخر في تاريخ الأمة الأمريكية، بما في ذلك معركة "بيرل هاربر" ويوم "دي داي" في الحرب العالمية الثانية والهجمات الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول 2001؛ وبالفعل فقد قضى عدد من الجنود الأمريكيين نحبهم في معركة "أنتيتام" أكثر من أولئك الذين قتلوا في كل الحروب التي خاضتها الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر مجتمعة.

نظرًا أن "لي" أُجبِرَ على التراجع، لذلك يحق للشمال أن يسمى معركة "أنتيتام" انتصارًا وكانت هذه المعركة بمثابة النجاح الأخير للاتحاد في الشرق لبعض الوقت، حيث لاقى الاتحاد في ديسمبر/ كانون الأول 1862 واحدة من أكثر الهزائم المدمرة في الحرب، وذلك عندما قام الجنرال "امبروس إبرنسايد" الذي حل محل "ماكليلان" في قيادة جيش "البوتوماك"، بالإغارة على جيش "لى" الذي كان متحصنًا على مرتفعات بالقرب من "فريدريكسبرج" في "فرجينيا"، وكتب أحد جنود الاتحاد لأمه يصف لها ما حدث فقال "لم يكن هذا قتالا، بل كانت مذبحة".

الحرب في الغرب

بينما حقق الاتحاد القليل من الإنجازات في الشرق خلال السنتين الأولتين للحرب، اتخذت الأحداث في الغرب منحًى مختلفًا حيث كان مهندس النجاحات المبكرة "يوليسس إس. جرانت" المتخرج من "ويست بونيت"، تلك الأكاديمية العسكرية بالولايات المتحدة التي أسسها "توماس جيفرسون" عام 1802، والذي استقال من الجيش في عام 1854 بسبب مزاعم حول تعاطيه المشروبات الكحولية بشكل مفرط؛ ولم يكن "جرانت" ناجحًا في الحياة المدنية، وعندما اندلعت

الحرب كان يعمل كموظف في متجر للجلود يمتلكه أخوه في "جاليانا" بولاية "الينوي"؛ لكن بعد عودته للجيش أثناء الحرب وترقيته إلى رتبة عقيد في فيلق "الينوي"، سرعان ما أظهر الجرأة، والتفكير المنطقي، وإحكام الإستراتيجية التي سيسير عليها خلال الحرب.

حقق "جرانت" في فبراير/ شباط 1862 أول انتصار كبير للاتحاد، عندما استطاع السيطرة على كل من "فورت هنرى" و"دونلسون" في ولاية "تينيسي"، وفى إبريل/ نيسان قامت القوات البحرية بقيادة الأدميرال "دايفيد جي فاراجت" بالإبحار في اتجاه "نيو أورليانز"، مما منح الاتحاد التحكم في أكبر مدن الجنوب وكذلك الإقطاعيات والأبرشيات الغنية بمزارع السكر للجنوب والغرب؛ وفى الوقت ذاته تمكن "جرانت" من صد هجوم مفاجئ من الكونفدرالية على "شيلوه" بولاية "تينيسي"، ولكن القوة الدافعة للاتحاد في الغرب توقفت فجأة عندئذ.

مجيء التحرير

العبودية والحرب

كما يقال إن الحرب هي مولدة الثورات، وقد أفرزت الحرب الأهلية تغيرات بعيدة المدى في الحياة الأمريكية، وكان أكثرها باثارة تدمير العبودية التي كانت بمثابة المؤسسة المركزية للمجتمع الجنوبي؛ وحصل ما يقرب من 6 ملايين عبد في النصف الغربي من الكرة الأرضية على الحرية خلال الفترة ما بين عام 1831 الذي شهد إلغاء بريطانيا للعبودية في إمبراطوريتها، وعام 1888 الذي شهد وصول موكب التحرر إلى البرازيل، ومن بين هؤلاء ما يقرب من 4 مليون، أي ما يعادل ثلثي المجموع الكلى يعيشون في جنوب الولايات المتحدة؛ ويفوق التحرر الأمريكي أي تحرر في أي بلد آخر من حيث الأعداد والحجم والقوة الاقتصادية لمؤسسة العبودية (على الرغم من أن عدد من تم تحريرهم في عام 1861 عندما قام القيصر ألكسندر الثاني بإلغاء العبودية في الإمبراطورية الروسية فاق هذا العدد بكثير).

وقد استحضر "لينكولن" في مستهل الحرب قيم الشمال المبجلة على مر الزمن لتعبئة الدعم الشعبي وربط في رسالة للكونجرس قضية الاتحاد بمصير الديموقراطية "لكل الأسرة البشرية"؛ وربط الاختلافات بين الشمال والجنوب بعبارات مألوفة في مذهب العمالة الحرة مثل "هذا بالأساس صراع إنساني؛ ففي جانب الاتحاد هو صراع من أجل الحفاظ على العالم الذي تهدف حكومته شكلاً ومضمونًا وبشكل رئيسي إلى الارتقاء بحالة الإنسان ... من أجل منح الجميع بداية حرة وفرصة عادلة في سباق الحياة البشرية.

لكنه وبينما كان لينكولن يستحضر قيم العمالة الحرة، أصر في بادئ الأمر على أن العبودية

لا علاقة لها بالصراع. وخلال السنة الأولى للحرب، كان اهتمامه الأساسي هو الحفاظ على حدود ولايات العبيد - وهي ديلاوير، روماري لاند، كنتاكي، وميسوري مع الاتحاد وبناء القاعدة الأوسع للدعم في الشمال من أجل الجهد الحربي. فقد خشي أن الإجراءات المضادة للعبودية يمكن أن تجرف الحدود (مع سكانها البيض الذين تقدر أعدادهم بحوالي 2,6 مليون نسمة وما يقارب من 500.000 عبد) إلى الكونفدرالية وتحويلها إلى الشماليين المحافظين.

تفكيك العبودية

وهكذا، وفي الأيام الأولى للحرب، تبنى الكونجرس بالإجماع تقريبًا مشروع قرار مقدم من السيناتور "جون جين كريتندن" عن ولاية كنتاكي، والذي أكد على أن الاتحاد لا نية لديه في التدخل في العبودية. حتى أن القادة العسكريين الشماليين قاموا بإرجاع العبيد الهاربين إلى مالكيهم، وأدت مثل هذه السياسة إلى وجود صرخة مدوية في الأوساط المناهضة للعبودية.

وحينما بدأت الكونفدرالية بإرسال العبيد للعمل كعمال عسكريين وبدأ السود في الهروب إلى حدود الاتحاد، بدأت سياسة تجاهل العبودية في التفكك؛ وبنهاية عام 1861، بدأ العسكر في تبني الخطة (والتي بدأت في فرجينيا على يد الجنرال بنجامين اف. بتلر، لمعاملة العبيد الهاربين كبضائع حرب مهربة والتي تعتبر ممتلكات عسكرية خاضعة للمصادرة، وأضاف نظام بتلر كلمة إلى مفردات الحرب. وأصبح يطلق على العبيد الهاربين مسمى "البضائع المهربة"، إذ تم تسكينهم من قبل الجيش في المعسكرات التي عُرفت باسم "معسكرات البضائع المهربة"، كما تم تعليمهم في مدارس جديدة عرفت "بمدارس البضائع المهربة".

وفي غضون ذلك، قام العبيد أنفسهم بأفعال من شأنها أن تساعد بقوة على إكراه الأمريكان البيض بالسير على طريق التحرر، ومنها كانت السياسات التي انتهجتها الإدارة؛ إلا أن السود رأوا أن اندلاع القتال يعد أمرًا مبشرًا بقدوم النهاية التي طال انتظارها للعبودية؛ وحتى قبل أن يقوم لينكولن بجعل التحرر كهدف للحرب، كان السود في الشمال والجنوب يطلقون على الصراع اسم "حرب الحرية".

وخلال عامي 1861، 1862، وذلك عندما قام الجيش الفيدرالي باحتلال المقاطعات التابعة للكونفدرالية، هرع آلاف من العبيد إلى حدود الاتحاد. وعلى عكس حال العبيد فيما قبل الحرب، كان من بين الهاربين بعدها أعداد كبيرة من النساء والأطفال، بل هجرت المزارع أسر كاملة- مر عدد ليس بالقليل عبر الاستخبارات العسكرية والمعرفة التفصيلية للتضاريس الجنوبية. وأشار الجنرال الاتحادي دانيال أي سيكلس إلى أنهم "كانوا يستطيعون الحصول على المعلومات الأكثر قيمة والأكثر مصداقية عن تحركات الأعداء في مناطق الجوار من أولئك

الزنوج الذين كانوا يأتون إلى حدودنا". وفي جنوب لويزيانا، أدى وصول جيشي الاتحاد في عام 1862 بالعبيد أن يقوموا بنهب منازل المزارع، كما رفضوا أن يعملوا قبل أن يتم دفع الأجرة لهم. هذا وقد كتب أحد صحفيي الشمال فقال: "إن العبودية هناك لا محالة مدمرة وغير ذات قيمة، ولا يهم ما الذي من الممكن أن يقوله لينكولن أو أي شخص آخر فيما يتعلق بهذا الموضوع".

خطوات نحو التحرر

في بادئ الأمر، كان عزم السود وتصميمهم على اغتنام الفرصة التي منحتها لهم الحرب يمثل عبئًا على الجيش وإرباكًا للإدارة؛ لكن فشل الاستراتيجيات التقليدية في تحقيق نصر أدى إلى تقوية يد الشماليين المناضلين للعبودية. ولما كانت العبودية تمثل أساسًا للاقتصاد الجنوبي، فقد أصروا على أن التحرر كان من الضرورة بمكان من أجل إضعاف قدرة الجنوب على الاستمرار في الحرب.

وسرعان ما انتهى أشد خصوم العبودية اللدودين (المطالبين بإلغاء العبودية والجمهوريين الراديكاليين (أي الذين يؤمنون بالتغيير الجذري) إلى أنه يجب أن تكون هذه المؤسسة هدفًا للحرب من جانب الاتحاد. صرَّح "ثاديوس ستيفن" (أحد الجمهوريين الراديكاليين وعضو الكونجرس عن ولاية بنسلفانيا) قائلا: "إنه من الواضح أن انتهاج الشمال للسياسة الحالية سوف يعمل على قهر المتمردين". أما خارج أسوار الكونجرس، فقد أثار عدد قليل قضية التحرر بصورة أكثر بلاغة مما قام به فريدريك دوجلاس. وفي البداية، أصر علي أنه ليس من المجدي "أن نفصل حرية العبيد عن انتصار الحكومة"؛ وأعلن دوجلاس: "يجب أن تخمد النار بالماء وأن يقابل الظلام بالنور، وأنه يجب مواجهة الحرب التي تهدف لتدمير الحرية بحرب أخرى لتدمير العبودية".

لقد حازت مثل هذه المطالبات على دعم متزايد في الكونجرس، إلا أنه تمت إعاقتها بسبب تقلص النجاح العسكري. وفي شهر مارس/ آذار من العام 1862، منع الكونجرس الجيش من إعادة العبيد الهاربين؛ وبعد ذلك حدث الإلغاء في مقاطعة كولومبيا (مع تعويض نقدي لمالكي العبيد)، تلتها بعد ذلك المناطق الأخرى في يوليو/ تموز عقب صدور قرار المصادرة الثاني، والذي تم من خلاله تحرير العبيد من مالكيهم الخونة في المقاطعات التي أصبحت خاضعة لسيطرة الاتحاد، إضافة إلى العبيد الذين هربوا إلى حدود الاتحاد.

وخلال تلك الأشهر، ناضل لينكولن من أجل استمرار السيطرة على قضية التحرر. وفي أغسطس/ آب 1861، قام جون سي فريمونت، قائد قوات الاتحاد في ميسوري - وهي ولاية تعرضت للخراب والدمار الذي ألحقته حرب العصابات بين المجموعات المؤيدة للشمال والمجموعات المؤيدة للجنوب بالولاية - بإصدار مرسوم يمنح الحرية لعبيد الولاية؛ وخوفًا من تأثير تلك الحالة على الولايات الحدودية، قام لينكولن بإلغاؤه على الفور. ففي شهر

نوفمبر/ تشرين الثاني، قدم الرئيس اقتراحًا تتبنى فيه الولايات الحدودية برنامجًا للتحرير التدريجي، بينما تقوم الحكومة الفيدرالية بدفع تعويض للملاك عن الخسائر التي تكبدوها؛ كما عمل على إحياء فكرة الاستيطان؛ وفى أغسطس/ آب 1862، التقى لينكولن بالبيت الأبيض مع وفد من قادة السود وحثهم على تدعيم فكرة الهجرة من الولايات المتحدة. صرَّح لينكولن قائلا: "نحن وإياكم أجناس مختلفة، فمن الأفضل لكل منا أن ننفصل"؛ وفى أواخر شهر ديسمبر/ كانون الأول، وقع الرئيس اتفاقية مع مقاول مشتبه في سمعته من أجل توطين العبيد السابقين على جزيرة في ساحل هايتي.

قرار لينكولن

خلال صيف عام 1862، توصل لينكولن إلى أن التحرر أصبح ضرورة سياسية وعسكرية. ساهمت عوامل عديدة في إصدار مثل هذا القرار، من بينها تضاؤل حجم النجاح العسكري، والأمل في أن العبيد المحررين ربما يساعدون على سد احتياجات الجيش المتزايدة للقوة البشرية، وتغير الرأي العام الشمالي، إضافة إلى جعل العبودية هدفًا رئيسيًّا من أجل إبطال شعور بريطانيا بالتعاطف، ومن ثَمَّ الاعتراف بالكونفدرالية؛ لكن وبناءً على نصيحة من وزير الخارجية "وليام إتش. سيوارد"، قام لينكولن بتأجيل إعلانه إلى ما بعد انتصار الاتحاد، إذ أنه على الأقل سيبدو وكأنه فعل يائس. وفى 22 سبتمبر/ أيلول 1862، وبعد خمسة أيام من إجبار جيش ماكليلان على التراجع والتقهقر الى أنتيتام، أصدر لينكولن بيان التحرر التمهيدي؛ وحذر من أنه إذا لم يقم الجنوب بوضع أسلحته بنهاية عام 1862، فإنه سيقوم بإصدار مرسوم بقرار لإلغاء العبودية.

لم يكن رد الفعل الأولى للشماليين مشجعا، وفي انتخابات خريف عام 1862، جعل الديموقراطيون من معارضة التحرر محورًا لحملتهم، محذرين من أن الشمال قد "يتأفرق" (أي يصبح إفريقيًا) - عن طريق غمره بالعبيد المحررين، والذين سيتنافسون على الوظائف، كما سيسعون للزواج من النساء البيض. عانى الجمهوريون من هزائم حادة؛ فقد فقدوا السيطرة على المجالس التشريعية في كل من إنديانا وإلينوي، كما فقدوا محافظة نيويورك، ورأوا أن شعبيتهم تتقلص بشكل خطير في ولايات أخرى. حاول لينكولن (في كلمته السنوية أمام الكونجرس مطلع شهر ديسمبر/ كانون الأول) تهدئة مخاوف الشماليين العنصرية، ومثيرًا في الوقت نفسه لأفكار التحرر التدريجي والتوطين في أماكن أخرى؛ ومع ذلك، ختم كلمته بنبرة متعالية قائلا: "الأخوة المواطنون، ليس بإمكاننا الهروب من التاريخ ... إن المحنة الشديدة التي مررنا بها ستنير الطريق أمامنا بشرف أو بدون شرف للأجيال الحديثة ... وفى منح الحرية للعبيد - تأكيد على حرية الأحرار، وفى الوقت ذاته هو مصدر للفخار والشرف بما نمنحه وبما نستحقه.

بيان التحرر

في الأول من يناير/ كانون الثاني 1863، وبعد تهنئة الزائرين في الاحتفال السنوي بالبيت الأبيض في احتفالية رأس السنة الجديدة، انسحب لينكولن لغرفة مكتبه ليقوم بالتوقيع على بيان التحرر. لم تحرر الوثيقة كل العبيد - وبالفعل في اليوم الذي صدرت فيه، فقد تم تطبيقها على عدد قليل منهم؛ ولأن شرعية البيان كانت مستمدة من سلطة الرئيس كقائد عسكري من أجل محاربة وإخماد تمرد الجنوب، فقد أعفى البيان مناطق ثابتة تحت سيطرة الاتحاد(حيث كانت الحرب قد انتهت بالفعل)؛ وبالتالي، فإنه لم يطبق على ولايات الحدود الموالية للعبيد التي لم تنفصل أبدا، أو على مناطق من الكونفدرالية محتلة من قبل جنود الاتحاد، مثل ولاية تينيسي، وأجزاء من فرجينيا ولويزيانا؛ لكن الغالبية العظمى من عبيد الجنوب - أكثر من 3 ملايين من الرجال، والنساء، والأطفال- تم الإعلان أنها "ستصبح حرة من الآن فصاعدا"؛ ومع ذلك، بقي معظم هؤلاء العبيد خلف حدود الكونفدرالية، ولذلك فإن تحريرهم كان ينبغي أن ينتظر انتصارات الاتحاد.

وعلى الرغم من القيود التي اشتمل عليها، إلا أن البيان أطلق مشاهد البهجة والفرح بين أوساط العبيد المحررين وبين المطالبين بإلغاء العبودية في الشمال؛ وأيضًا بين أوساط "السلع المهربة"، أي الهاربين من العبيد في الجنوب. "إنها تشبه صوت الطبل العالي على جنبات بحر مصر الأسود"، هكذا ترنم أحد الوعاظ السود في احتفالية في بوسطن. "لقد انتصر يحيى، إذ أصبح أتباعه أحرارا". كما يجعل من جيش الاتحاد وكيلاً عن التحرر، وتوحد الأهداف وتزاوجها بين الاتحاد وبين إلغاء العبودية؛ إن البيان (بيان لينكولن)، وكأنه ناقوس الموت الحتمي للعبودية.

لم يغيِّر البيان طبيعة الحرب الأهلية ومجري التاريخ الأمريكي فحسب، بل مثَّل أيضًا نقطة تحول في طريقة تفكير لينكولن ذاته. لم يتضمن البيان أية إشارة إلى تعويض مالكي العبيد أو إلى إعادة توطين العبيد المحررين؛ ومنذ الوهلة الأولى عمل البيان على إلزام الحكومة بإلحاق الجنود السود بالتجنيد في جيش الاتحاد؛ وأصبح لينكولن الآن يرى نفسه المحرر الأعظم - إذ أنه استجاب للدور الذي فرضه عليه التاريخ وحاول جاهدًا تحقيقه؛ وبعد ذلك، قام برفض اقتراحات عرضت عليه بشأن إلغاء أو تعديل البيان من أجل إفشاء السلام. "إذا ما أقدمت على مثل هذا الفعل"، كان يقول متحدثًا لأحد زائريه، "فإن اللعنات ستلاحقني في الوقت الحالي وإلى الأبد".

ومثلما كانت نهاية العبودية في كل من هايتي وأراضي أمريكا اللاتينية، جاء أيضًا إلغاء العبودية في الولايات المتحدة كنتيجة للحرب؛ إلا أن التحرير في الولايات المتحدة كان مختلفًا عن نظرائه في الأماكن المختلفة من العالم - حيث إنه كان مباشرًا وبشكل فوري ولم يكن تدريجيا، كما أنه لم يقدم تعويضات لمالكي العبيد في مقابل خسائرهم في الممتلكات (فيما عدا أولئك

الذين كانوا في واشنطن دي. سي.)، كما أنه (أدى إلى إلغاء العبودية في الولايات المتحدة) كان بمثابة نبوءة تنذر بالنهاية الحتمية للعبودية في كل من كوبا، والبرازيل؛ وعلى الرغم من هذا، وحتى عام 1888 حينما قامت البرازيل بإلغاء العبودية، لم تكن العبودية قد انتهت في نصف الكرة الغربي.

إن الحرب الأهلية، والتي بدأت لتحافظ على الاتحاد ما قبل الحرب، أصبحت الآن تنذر بتحولات بعيدة المدى في الحياة الجنوبية، كما أنها أعادت تعريف الحرية الأمريكية؛ وكان فصل التحرير عن إعادة التوطين معناه أن العبيد المحررين سيصبحون جزءًا من حياة أمريكا، وأصبح من الحتمي أن يحل نظام العمالة الجديدة، والسياسات، والعلاقات بين الأجناس محل الثقافة المهمشة للعبودية. كتب المفكر الاجتماعي "كارل ماركس" معلقًا على الأحداث التي تقع في لندن: "من الآن فصاعدا، لا نشهد سوى الفصل الأول من الحرب الأهلية – شن الحرب الدستورية. أما الفصل الثاني، وهو إعلان بدء الحرب عن طريق الحراك الثوري، فإنه على وشك الحدوث. إن التطور في سياسة لينكولن لتحرير العبيد قد أظهر المعالم البارزة لقيادته في وقت الحرب – وقدرته على التطور وتمكنه من حشد دعم جماهيري واسع لصالح إدارته.

تجنيد السود

من بين بنود البيان ، كان عدد قليل منها أكثر راديكالية من حيث تداعياتها عن إدراج السود في الخدمة العسكرية؛ ولأن العمل كبحار كانت واحدة من بين القليل من الوظائف التي فُتحت أمام العبيد المحررين للالتحاق بها في فترة ما قبل الحرب، قام وزير البحرية "جيديون ويليز" بالسماح بالفعل للأمريكيين الأفارقة بالخدمة والعمل في السفن الحربية التابعة للاتحاد – لكن وفى أثناء قيام الثورة الأمريكية، وعندما قام جورج واشنطن بإبعاد السود من الجيش القاري، اضطر السود خلال الحرب الأهلية أن يحاربوا من أجل حقهم في القتال على أرضهم. وفى وقت مبكر من الحرب، هرب هارى جارفيس، عبد من فرجينيا، إلى حصن "فورترس مونروى" وعرض أن يجند نفسه في جيش الاتحاد. قال "جارفيس" فيما بعد، أن الجنرال بنجامين إف. بتلر قال : "إنها لم تكن حربًا للجنس الأسود؛ فقلت له بل إنها ستكون حربًا للجنس الأسود حتى قبل أن ينضموا إليها".

وفي البداية، رفض جيش الاتحاد قبول المتطوعين من السود الشماليين؛ إذ خشيت الإدارة من أن البيض لن تكون لديهم الرغبة للقتال جنبًا إلى جنب مع السود، وأن إدراج الجنود السود بالجيش من شأنه أن يثير غضب ولايات العبيد الحدودية التي بقيت تحت حكم الاتحاد؛ وعلى الرغم من هذا، وبنهاية عام 1861، عمل الجيش على توظيف العبيد الهاربين كطباخين، وخياطين، وعمال. هذا وقد تم اتخاذ الخطوات التمهيدية لإدراج وتجنيد القوات القتالية في أجزاء

قليلة من الجنوب في عام 1862. تم إرسال أحد المؤيدين البيض لإلغاء العبودية، ويدعى توماس وينتورث هيجنسون، إلى الجزر البحرية بكارولينا الجنوبية - والتي كان جيش الاتحاد قد سيطر عليها في وقت مبكر من الحرب - من أجل أن يقوم بإدراج أسماء العبيد في الدفعة الأولى من المتطوعين بكارولينا الجنوبية؛ ولكن ذلك تم فقط بعد بيان التحرر، حيث بدأت عملية تجنيد الجنود السود بشكل جدي.

وبنهاية الحرب، كان أكثر من 180,000 من الجنود السود قد خدموا في جيش الاتحاد، وكذلك 24,000 خدموا في البحرية؛ ولقى ثلثهم مصرعه إما في أرض المعركة، أو متأثرًا بإصابته أو بسبب الأمراض؛ كما أن خمسة عشر جنديًا وثمانية بحارين قد نالوا ميدالية الشرف، وهي الجائزة الأمثل التي تمنح في البسالة العسكرية؛ وأيضًا حصلت بعض وحدات السود على سمعة معتبرة، ومن بينها خمسة وأربعون متطوعًا من ولاية ماساتشوستس، وسرية من العبيد السود المحررين من كافة أنحاء الشمال بقيادة روبرت جولد شو، وهو أحد الإصلاحيين الشباب وينتمي لأسرة شهيرة في بوسطن. إن الشجاعة التي أظهرها الخمسة وأربعون جنديًا في يوليو/ تموز 1863 في هجومهم على فورت واجنر بكارولينا الجنوبية، حيث قُتل ما يقرب من نصف جنود الوحدة بما فيهم شو نفسه، أدت إلى إزالة مخاوف وشكوك واسعة حول قدرة السود على مقاومة ضغوط الحرب الأهلية في أرض المعركة.(هذا وقد تم تقديم الأعمال البطولية التي قام بها شو والخمسة وأربعون جنديًا من ماساتشوستس في فيلم بعنوان المجد في عام 1989.)

كان غالبية الجنود السود من العبيد الذين تم اعتقالهم ومن ثَمَّ التحقوا بجيش الاتحاد في الجنوب؛ وبعد أن قامت قوات الاتحاد ببسط سيطرتها على الأراضي الزراعية الغنية بمنطقة وادى المسيسبى، قام الجنرال لورينزو توماس بتشكيل خمس وحدات عسكرية من الجنود السود، قوام كل منها نحو 76,000 رجل؛ وأتت مجموعة أخرى كبيرة من الولايات الحدودية لم يتضمنها بيان التحرر، حيث كان التجنيد في الجيش، في معظم فترات الحرب، هو الطريق الوحيد للحرية؛ وهنا عمل إلحاق السود بالخدمة العسكرية على زعزعة أسس العبودية، إذ أن الكونجرس وسَّع من صلاحيات بيان التحرر ليصبح من شأنه تحرير الجنود وأسرهم.

الجندي الأسود

وبالنسبة للجنود السود أنفسهم، فقد أثبتت الخدمة العسكرية بالنسبة لهم أنها كانت تجربة تحرر. كتب أحد المسئولين الشماليين في عام 1865 قائلا من غير الممكن بالنسبة لأي زنجي خاض تجربة أن يكون جنديًا أن يمتهن مرة ثانية؛ فقد علموا معنى أن تكون حرا، وأنهم سوف ينشرون مشاعرهم تلك بين الآخرين، لقد جعلت الخدمة في الجيش الرجال قادة للمجتمع، وفتحت

الباب لتقدم سياسي؛ فمن الجيش خرجت العديد من قيادات عهد إعادة الإعمار، فقد خدم على الأقل 130 من الجنود السابقين في العمل السياسي بعد الحرب الأهلية. وفى نفس الوقت، بدأت ذكريات تجنيد السود في الخدمة العسكرية تتلاشى من العقل الجمعي لبيض أمريكا؛ ومن بين النصب الباقية للحرب الأهلية، والتي مازالت تشيع بين جنبات الشمال، كان أقل من اثني عشر تحتوى على صورة لجندي أسود؛ لكن في القرن العشرين، ظلت مصدر فخر بين العائلات السوداء في كل أنحاء الولايات المتحدة أن آبائهم وأجدادهم قاتلوا من أجل الحرية.

كانت البحرية التابعة لجيش الاتحاد تعامل البحارة السود معاملة حسنة للغاية مثلهم مثل البحارة البيض تماما. جعلت الظروف والأحوال على متن السفن من المستحيل أن يكون هناك فصلاً عنصريا؛ فقد عاش البحارة من البيض والسود معًا وتناولوا الطعام في نفس المكان. كانوا يتلقون نفس الراتب ويتمتعون بنفس الترقية، إلا أنه في بعض الأحيان كان يتم تنظيمهم في وحدات عنصرية تحت قيادة ضباط متعسفين من البيض، فكانوا في بادئ الأمر يتلقون أجورًا أقل (ما يعادل عشرة دولارات في الشهر مقارنة بستين دولار للجنود البيض).

لقد كانوا يوظفون العمالة على نحو غير مناسب أكثر من إشراكهم في القتال، ولم يكن بإمكانهم الترقي إلى مرتبة الضابط الذي يستطيع تنفيذ المهمات، إلا مع اقتراب الحرب حتى النهاية. وفى حالة إذا ما وقعوا في الأسر على أيدي القوات الكونفدرالية، فإنهم يواجهون أحد اختيارين: إما البيع مرة أخرى أو أنهم يقتلون على الفور. وفى حادثة سيئة السمعة، وقعت عام 1864، توفى 200 من بين 260 جنديًا أسود حينما قامت القوات الجنوبية تحت إمرة ناثان بي فوريست باجتياح "فورت بليو" في تينسي، حيث أن بعض هؤلاء تم قتلهم بعد أن أعلنوا استسلامهم.

وعلى الرغم من ذلك، لعب الجنود السود دورًا حيويًا، ليس فقط في كسب الحرب الأهلية ولكن أيضًا في تحديد نتائج الحرب. كتب فردريك دوجلاس ليحث السود على الالتحاق بالجيش فقال: "عندما يضع الإنسان الأسود على جسده الزى العسكري، لا تستطيع قوة على وجه الأرض أن تنكر أنه قد اكتسب الحق في المواطنة في الولايات المتحدة." كما تنبأ دوجلاس، أنه بفضل مشاركة السود في الخدمة العسكرية، أصبح العديد من الجمهوريين في السنتين الأخيرتين مؤمنين بأن التحرر يجب أن يكون معه حماية متساوية بالقانون بغض النظر عن الجنس. وكان أحد أول ما قامت به الحكومة الفيدرالية من أفعال من أجل إقرار هذا المفهوم هو منح رواتب متساوية بأثر رجعى للجنود السود مع مطلع العام 1865. هذا وقد تم بصعوبة القضاء على العنصرية من الحياة الوطنية، لكن جورج ويليم كريتس ، المحرر بجريدة هير برس الأسبوعية صرح قائلا: "نقلت الحرب والتحرر الحكومة من كونها "حكومة للبيض" إلى كونها "حكومة للبشرية".

لقد أثرت خدمة السود في الجيش على رؤية لينكولن الشخصية، حيث أصر على أنه يجب معاملتهم مثل البيض تمامًا في حال وقوعهم في الأسر؛ وقام بإرجاء تبادل أسرى الحرب عندما رفضت الكونفدرالية أن تشمل الجنود السود. وفى عام 1864، عمل لينكولن، والذي كان قبل الحرب لا يؤيد أبدًا منح حق التصويت للأمريكيين الأفارقة، على حث محافظ ولاية لويزيانا التي تقع تحت سيطرة الاتحاد من أجل العمل على الإعتاق الجزئى للسود، مع تمييز الجنود لأنهم يستحقون ذلك بشكل خاص. وفى وقت لاحق، صرَّح بأنهم ربما يتم استدعائهم مرة ثانية من أجل "الحفاظ على جوهرة التحرر في عائلة الحرية".

الثورة الأمريكية الثانية

"الأشياء القديمة تقضي نحبها"، هكذا كتب أحد سكان كاليفورنيا من السود في عام 1862، وأكمل "وفي نهاية المطاف يجب أن تتبعها العنصرية القديمة. لقد بدأت الثورة، ووحده الوقت هو من يجب أن يقرر أين تنتهي". لقد كانت الحالة المتغيرة لسود أمريكا فقط مجرد مثال واحد مثير لما أطلق عليه بعض المؤرخين الثورة الأمريكية الثانية- التحول في الحكومة الأمريكية والمجتمع الذي أحدثته الحرب الأهلية.

الحرية والاتحاد

لم تكن طبيعة الحرية المتنازع عليها أكثر وضوحًا منها أثناء الحرب الأهلية. وفى عام 1864، أعلن لينكولن قائلا: "نحن جميعًا ننادى بالحرية، ولكن عند استخدام نفس الكلمة فإننا لا نعني جميعًا نفس الشيء"؛ فبالنسبة للشمال، أكمل قائلا: "الحرية تعنى أن كل إنسان يجب أن يستمتع بما أنتجه من عمله"؛ أما بالنسبة للبيض من الجنوبيين، فإنها تمنح السيادة - "فهم يستمتعون بما يقوم به الآخرون، ويجنون ثمار عمل غيرهم". إن انتصار الاتحاد عزز من مفهوم الشماليين للحرية، وجعل منه شعارًا ومبدأ وطنيا.

وقد بلور الهجوم على "فورت سيومتر" في عقول الشماليين الصراع المباشر بين الحرية والعبودية، والذي أصر عليه المنادون بإلغاء العبودية لعقود. إن الحرب، كما عرَّفها فريدريك دوجلاس في مستهل عام 1862، خلطت ما بين "قضية العبيد، وقضية الدولة"، وأستطرد قائلا "إن الحرية والاتحاد أصبحا متطابقان"؛ وفى أثناء اندلاع الثورة الأمريكية، انضمت مفاهيم دينية وعلمانية للحرية في احتفاء بالمصير القومي. "وكما مات من أجل أن يجعل الناس أتقياء، فلنمت نحن من أجل أن نجعل الناس أحرارا." وهذا يمثل مقطع من الأغنية الشعبية "ترانيم المعركة من الجمهورية"، والتي كتبتها "جوليا وارد هوى" وتم نشرها في عام 1862. لقد قدم التحرر دليلاً على

الطبيعة التقدمية والأهمية العالمية لتاريخ البلاد. وللمرة الأولى، كتبت صحيفة "شيكاغو تريبيون"، وبالفعل استطاعت الولايات المتحدة أن تؤسس لوجودها كما" خطط لها آباؤنا - موطنًا للحرية، وملجأ للمضطهدين، وموطنًا للعدالة، وأرضًا للحقوق المتساوية في ظل القانون".

رؤية لينكولن

لكنه لينكولن هو نفسه الذي ربط الصراع بأكثر المفاهيم في المجتمع الشمالي عمقًا. وفى بعض الأحيان كان يقال إن الحرب الأهلية الأمريكية كانت جزءًا من عملية أوسع في القرن التاسع عشر لبناء الأمة. وفى كل أنحاء العالم نشأت الدول القومية القوية والمركزية في البلاد القديمة، وانبعثت أمم جديدة لم يكن لها وجود من قبل. حدثت الحرب الأهلية بينما كانت الولايات الحديثة تعزز من قوتها وتعمل على تقليل الاستقلال الذاتي المحلى. شهدت أحداث استعادة ميجي التي وقعت في اليابان استعادة الإمبراطور للسلطة من الحكام المحليين أو الحكام العسكريين اليابانيين. في أوائل عام 1850 تبنت الأرجنتين دستورًا جديدًا أدى إلى إلغاء العبودية، وأسس حق اقتراع عالمي للذكور، ومنحت الحكومة القومية الحق في التدخل في الشئون المحلية. وكما حدث في الولايات المتحدة، فإن التقدم الاقتصادي سرعان ما أتى عقب التوحد القومي. وفى وقت قليل برزت اليابان كقوة اقتصادية رئيسية، كما قامت الأرجنتين بالشروع في سياسة لتشييد السكك الحديدية، ومركزية النظام المصرفي، والتنمية الصناعية، وتشجيع الهجرة الأوروبية مما جعل منها أكبر قوة اقتصادية في العالم.

ونادى لينكولن أيضًا بالمساواة الأمريكية بجوزيب مازيني أو أوتو فون بسمارك، والذان أقاما في نفس الحقبة من الزمن دولتين قوميتين في إيطاليا وألمانيا من مجموعة من الإمارات الغير متحدة. لكن أمة لينكولن كانت مختلفة عن تلك التي شيدت في أوروبا؛ فقد اعتمدوا على فكرة توحيد فئة معينة من الناس تجمعهم أعراق وثقافة مشتركة وتراث لغوى مشترك. أما بالنسبة للينكولن فإن الأمة الأمريكية تجسد مجموعة من الأفكار العالمية، تقوم على فكرة الديموقراطية السياسية وحرية الإنسان؛ فالولايات المتحدة تمثل بالنسبة للعالم أن الحكومة ينبغي أن تبقى قائمة بناءً على الموافقة الشعبية، وأن جميع البشر ينبغي أن يكونوا أحرارا. أعلن لينكولن أن مثل هذه الأفكار المثالية من شأنها أن تمنح المهاجرين من الخارج، والذين لم يستطيعوا أن يثبتوا صلتهم عن طريق علاقة الدم بمولد الأمة؛ ومع ذلك، يستطيعون أن يصبحوا أمريكيين خالصين.

وقد لخص لينكولن مفهومه عن معنى الحرب في نوفمبر/ تشرين الثاني من العام 1863 في ملاحظات مختصرة أثناء افتتاح مقبرة عسكرية في موقع معركة الحرب العظمى؛ ويعتبر خطابه في "جيتس بيرج" أروع خطبة ألقاها (انظر الملحق للإطلاع على النص الكامل). في أقل من ثلاث

دقائق، حيث عرَّف مهمة الأمة مع المبدأ الذي يقول إن "كل البشر خلقوا متساوين"، ومتحدثًا عن الحرب باعتبارها هي التي أفرزت "الميلاد الجديد للحرية"، وعرَّف جوهر الحكومة الديموقراطية؛ وأعلن أيضًا أن التضحيات التي قدمها جنود الاتحاد سوف تؤكد على أن "الحكومة هي من الناس وتأتي باختيار الناس وتعمل من أجل الناس، وينبغي ألا يندثر هذا المفهوم من العالم.

من اتحاد إلى أمة

أخرجت تعبئة ثروات وموارد الاتحاد للحرب الحديثة للوجود دولة قومية أمريكية جديدة بسلطات مترامية الأطراف ومسئوليات عظيمة. ظلت الولايات المتحدة جمهورية فيدرالية مع تقسيم السلطة والنفوذ بين الولاية والحكومة القومية؛ لكن الحرب شكلت وعيًا ذاتيًا وطنيًا جديدا، انعكس في ازدياد استخدام كلمة "أمة" - ككيان سياسي متحد - بدلاً من استخدام المصطلح القديم "اتحاد" من ولايات منفصلة. وفى أثناء إلقاءه الخطاب الافتتاحي (خطابه الذي ألقاه بمناسبة توليه منصبه) في عام 1861، استخدم لينكولن كلمة "اتحاد" عشرين مرة، بينما لم يرد على لسانه أي ذكر لكلمة "الأمة" وبحلول عام 1863، لم تظهر كلمة "اتحاد على الإطلاق في خطاب جيتسبرج الذي تضمن 269 كلمة، بينما أشار لينكولن خمس مرات إلى كلمة "الأمة". أشار الكاتب "فرانسيس لابير" قائلا: "الحرية ... الحقيقة تحتاج إلى وطن". كان هذا الدرس الأخلاقي لواحد من الأعمال الخيالية الأكثر شعبية في هذا الوقت، وهو قصة قصيرة بعنوان "رجل بلا وطن" للكاتب "إدوارد إيفريت هال" تم نشرها في عام 1836. قام بطل قصة هال، فيليب نولان، في لحظة من الغضب يلعن الأرض التي ولد عليها. وكعقاب له على ما بدر منه تم الحكم عليه بالعيش على متن سفينة، وألا تطأ قدمه أبدًا أرضًا أمريكية وألا يسمع كلمة "الولايات المتحدة" تتردد. ومن هنا تعلم أن الحرمان من الهوية القومية معناه أن يفقد الإنسان إحساسه بنفسه.

الحرب والمعتقدات الأمريكية

لقد انعكس التدفق الكبير والمتزايد في المشاعر الوطنية والإحساس بالقومية على جوانب عديدة من الحياة الأمريكية. وعلى الرغم من أنه نتج عن الحرب عدد غير مسبوق من الضحايا، إلا أن رجال الدين البروتستانت الشماليين بذلوا ما في وسعهم من أجل تغطيتها بمبررات دينية ومن أجل تهدئة وتطمين ذويهم بأن من ماتوا لم يذهبوا سدى؛ وأصبحت الصحافة الدينية حينذاك تفرد مساحات أكبر للتطورات العسكرية والسياسية أكثر من نشرها مواضيع روحية ودينية. وأثناء احتفالات عديدة في وقت الحرب، كانت تتحد المسيحية مع الوطنية في شكل دين مدني، والذي يرى الحرب على أنها وسيلة الرب لتخليص الولايات المتحدة من العبودية وتمكينها من أن تصل إلى ما لم تصل إليه من قبل- لتكون أرضًا للحرية. كان لينكولن واحدًا من

بين الرؤساء الأمريكيين القلائل، الذين لم يذهبوا أبدًا للكنيسة، كي يحوز بدهاء على رمزية دينية من أجل الحصول على دعم شعبي وإعلان أعياد الشكر بعد الانتصارات الشمالية، والعمل على تشجيع رجال الدين الشماليين لدعم المرشحين الجمهوريين في الوصول إلى السلطة.

كما مكنت المعتقدات الدينية أيضًا الأمريكيين من تقبل الأعداد الهائلة الغير مسبوقة من القتلى الناجمة عن الحرب؛ وبالطبع، كان تسوية الموت بالحياة الأبدية معتقدًا ثابتًا في المسيحية، لكن الحرب أدت إلى ما أسماه أحد المؤرخين "الانتقال للجنة"، إذ تخيل الأمريكيون اجتماع شمل الأسرة في المستقبل بشكل بديع ومبهج، كما يبدو وكأنه مثل اجتماعات الطبقة المتوسطة في غرف المعيشة. لم يستطع بعض الأمريكيين الانتظار حتى تحين وفاته هو ليرى الرحيل؛ وتزايد شعبية الاعتقاد في القدرة على التواصل مع الموتى- بين عموم الشعب. كانت "ماري تود لينكولن" تقوم بعقد جلسات استحضار أرواح في البيت الأبيض لكي تستشعر من جديد وجود ابنها الصغير ويلي، والذي توفى إثر إصابته بالمرض في عام 1862.

وقد كان التعامل مع الموت يتطلب أيضًا جهدًا غير مسبوق من الحكومة، بداية من قيامها بإبلاغ أقاربه المتوفي وحتى إحصاء الموتى والمفقودين. أسس كل من الاتحاد والكونفدرالية نظامًا تفصيليًا لجمع الإحصاءات والاحتفاظ بتقارير الموتى والمصابين من الجنود، وأكملت هذا الجهد منظمات خيرية خاصة. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، شرعت الحكومة الفيدرالية في برنامج لتحديد مكان وإعادة دفن مئات الآلاف من جنود الاتحاد في مقابر عسكرية وطنية. وفى الفترة ما بين عامى 1865 و1871، قامت الحكومة بإعادة دفن أكثر من 300,000 جنديًا من جنود الاتحاد (وليس الكونفدرالية)- بما فيهم جنود سود، والذين كان قد تم دفنهم كما كانوا يقاتلون، في مقابر عسكرية معزولة عرقيًا.

الحرية في وقت الحرب

جعلت هذه النزعة القومية المتأججة الجديدة انتقاد القيام بالحرب - أو سياسات إدارة لينكولن - تبدو بالنسبة للجمهوريين وكأنها مساوية للخيانة. وعلى الرغم من أنه كانت هناك حالات إعدام غير منتظمة للمعارضين - للخصوم السياسيين للحرب المكسيكية، إلا أن الحرب الأهلية أثارت، وللمرة الأولى منذ الثورة، قضية حدود الانشقاق في زمن الحرب. وفى أثناء الصراع، أعلنت جريدة نيويورك تايمز التابعة للجمهوريين، "أن سلامة الأمة تتمثل في سيادة القانون". بلغت الاعتقالات العشوائية بالآلاف، وكان من بينهم محررون لجرائد المعارضة، وسياسيون ديمقراطيون، وأفراد ممن أحجموا عن المشاركة في التجنيد في الجيش، ومدنيين عاديين مثل رجل شيكاغو الذي باختصار تم سجنه لوصفه الرئيس بلفظ "أحمق ملعون". ولأن الدستور لم

يكن واضحًا بالنسبة للذين يمتلكون السلطة لتأجيل الحكم القضائي بإحضار المتهم أمام المحكمة للنظر في شرعية حبسه (ومن ثَمَّ السماح بحبس المسجونين من دون اتهام). لقد زعم لينكولن أن لديه الحق بموجب الصلاحيات الرئاسية خلال حالة الحرب وقام بإرجاء أحكام قضائية مرتين في كافة أرجاء الاتحاد لأولئك المتهمين بالقيام بأعمال خيانة.

وبصفة عامة، فقد أطلقت المحاكم يد الإدارة بلا رابط؛ فقد رفضت التدخل حينما قامت محكمة عسكرية بإدانة كليمنت إل. فالاندجهام (وهو قيادي ديموقراطي من ولاية أوهايو عُرف بخطبه القوية المناهضة للحرب) بالخيانة، وبأوامر من لينكولن تم نفى فالاندجهام إلى الكونفدرالية. وفى عام 1861، أمر القاضي الأكبر روجر بي تاني الرئيس بأن يطلق سراح جون ميرى مان، وهو مدني ألقى القبض عليه من قبل السلطات العسكرية في مارى لاند، إلا أن الرئيس تجاهل هذا الطلب. وبعد انتهاء الحرب، وبحلول عام 1866، أعلنت المحكمة العليا - أثناء نظرها قضية إى إكس بارتى ميليجان، وهى من أولى القضايا التي حُكم فيها عقب انتهاء الحرب - أنه من غير الدستوري أن يحاكم الأشخاص أمام محاكم عسكرية بينما المحاكم المدنية مفتوحة وتعمل، وهو ما لم يكن يحدث قبل هذا التاريخ؛ وأعلن القاضي دايفيد دافيس، أن الدستور لا يُعلق العمل في زمن الحرب بل إنه يبقى قانونًا لكل الحكام والمحكومين على قدم المساواة في وقت الحرب والسلم.

لم يكن لينكولن طاغية أو مستبد، فمعظم من تم إلقاء القبض عليهم أطلق سراحهم على الفور، واستمرت الصحف التابعة للديمقراطيين في الازدهار، كما تم إجراء انتخابات تنافسية في وقت الحرب؛ ولكن سياسات إدارة لينكولن قدمت دليلاً - يمكن أن يتكرر أثناء الحروب اللاحقة- على ضعف وهشاشة الحريات المدنية في مواجهة النزعة الوطنية المتصاعدة ومتطلبات وقت الحرب بالنسبة للوحدة الوطنية.

تحولات الشمال

على الرغم من أن لينكولن استحضر قيمًا تقليدية، إلا أنه أشرف على إحداث تغييرات بعيدة المدى في حياة الشماليين. ولم تعزز القدرة على تعبئة ثروات وموارد الاتحاد بشكل كبير قوة الحكومة الفيدرالية فحسب بل عززت أيضًا قوة الطبقة الصاعدة من أصحاب الأعمال الرأسماليين. وعلى عكس الجنوب، والذي كان يعاني من دمار اقتصادي، كان وقت الحرب بالنسبة للشمال فترة رخاء وازدهار؛ ونتيجة للتضخم الذي حدث في فترة الحرب وتعاقدات الحكومة ازدهرت أرباح الصناعة. كانت مصانع نيو إنجلاند تعمل ليل نهار من أجل إمداد الجيش بالبطاطين والملابس، كما كانت مناجم الفحم ومصانع الأشغال المعدنية في بنسلفانيا

توسع من إنتاجها بشكل سريع؛ وتقدمت أيضًا الميكنة (استخدام الماكينات) بشكل سريع في العديد من الصناعات، وخاصة في صناعات مثل إنتاج الأحذية، وتعبئة اللحوم؛ وكانت تزود الجيش وتمده بكل احتياجاته المتزايدة. وفى الوقت ذاته ازدهرت الزراعة أيضا، على الرغم من أن الآلاف من فتيان المزارع التحقوا بالجيش، إلا أن الرقعة الزراعية امتدت في اتجاه الغرب، مع استخدام الميكنة كما حل المهاجرون محل العمالة المفقودة. هذا وقد ألحقت ولاية "ويسكنسون" ما يقرب من 90,000 رجل بجيش الاتحاد، ومعنى ذلك أن عدد سكانها، وإنتاج الحبوب، ودخل المزارع استمر في النمو.

الحكومة والاقتصاد

وكما حدث لكل من ألمانيا واليابان المعاصرتين، التزمت الدولة القومية الأمريكية الجديدة، والتي سطع نجمها خلال الحرب الأهلية، بتحقيق نمو اقتصادي سريع؛ حيث تبنى الكونجرس سياسات عززت من النمو الاقتصادي وغيرت النظام المالي للأمة إلى الأبد. وبما أن الجنوب أصبح حينذاك غير ممثل، فقد تبنى صانعو القوانين سياسات لطالما أيدها الكثير من الشماليين. وفى خطوة لتحفيز التطور الزراعي، قدم "قانون الهومستيد" (وهو عبارة عن مجموعة من القوانين الفيدرالية في الولايات المتحدة، والتي أعطت حق تقديم الطلبات لامتلاك الأرض) قرابة 160 فدانًا من الأراضي العامة بالمجان للمستوطنين من الغرب؛ وقد دخل حيز التنفيذ في الأول من يناير/ كانون الثاني من العام 1863، أي في مثل اليوم الذي صدر فيه بيان التحرر؛ ومثل البيان، حاول القانون أن يطبق في الواقع رؤية الحرية. وفى أوائل العام 1930، تملكت ما يزيد على 400,000 أسرة مزارع مع معداتها؛ وبالإضافة إلى ذلك، ساعد قانون "لاند جرانت كوليدج" الولايات على تأسيس "كليات زراعية وميكانيكية".

بناء خطوط السكك الحديدية عبر القارة

كما خصص الكونجرس منحًا ضخمة من الأموال للإصلاحات الداخلية، بما في ذلك ما يزيد على 100 مليون فدان للإتحاد الباسيفيكي، والباسيفك المركزي، تم استئجار شركتين في عام 1862 وتم تكليفهما ببناء سكة حديد تبدأ من نهر ميسوري وحتى ساحل المحيط الهادي (كانت هاتين أول شركتين مستأجرتين من قبل الحكومة الفيدرالية منذ إنشاء البنك الثاني للولايات المتحدة في عام 1816).

وحينما أُقترحت للمرة الأولى، من قبل "آسا ويتنيي" في عام 1846، فكرة إنشاء خطوط السكك الحديدية عبر القارة، اعتبرها الكونجرس فكرة "عملاقة أكثر من اللازم" وأيضًا "غير قابلة للتطبيق بصورة كلية"؛ وبالفعل لقد كان المشروع ضخما، فشركة الباسيفك المركزية (سنترال

باسيفيك) لم تنجز سوى عشرين ميلاً في العام على مدار الثلاث سنوات الأولى من التشييد، وذلك لأنه كان من المتعذر تقريبًا اجتياز سلسلة جبال "سبيرا نيفادا" (وهى سلسلة جبلية تمتد إلى منطقة سانتا مارنتا شمال كولومبيا، وهى سلسلة جبلية معزولة وتعتبر جزءًا من جبال الأنديز)، إذ تطلب الأمر إلى نحو 20,000 رجل لكي يحملوا خطوط السكك عبر السهول والجبال؛ وكان غالبية هؤلاء الرجال من المهاجرين الصينيين الذين تم التعاقد معهم كعمال، وأطلق عليهم العديد من الأمريكان اسم "الخدم". توفى المئات من العمال الصينيين في عمليات تفجير الأنفاق وتشييد الكباري في مثل هذه التضاريس الخطيرة. وعندما تم الانتهاء من بنائها في عام 1869، أي السكك الحديدية العابرة للقارة، والتي تبدأ من أوماها، ونبراسكا، وحتى سان فرانسيسكو، عملت على توسيع التجارة الوطنية، ويسرت انتشار الاستيطان والاستثمار في الغرب، كما كانت نذيرًا بالقضاء على الهنود ساكني السهول.

الحرب والأمريكيون الأصليون

كان سحب القوات الفيدرالية من الغرب من أول ما قام لينكولن بإصداره من أوامر بعد توليه مهام منصبه الرئاسي، من أجل توفير الحماية لمنطقة واشنطن، ومعترفًا أن هذا سيجعل من المستحيل بالنسبة للجيش أن يمنع المتطفلين من البيض من الدخول قسرًا إلى الأراضي الهندية، كما كانت تطالب المعاهدات بذلك؛ والتمس قادة الهنود من لينكولن إلغاء هذا القرار ولكن من دون جدوى. وكما كان متوقعا ، فإن الصراع الذي تأجج بين الأمريكيين الأصليين والمستوطنين البيض كانت له نتائج كارثية؛ وخلال فترة اندلاع الحرب الأهلية قتلت قبيلة سيوكس، من سكان أمريكا الأصليين، المئات من المزارعين البيض في مينيسوتا، قبل أن يتم إلقاء القبض عليه من قبل الجيش؛ وبعد أن قضت محكمة عسكرية بإصدار عقوبة الإعدام على أكثر من 300 من الهنود، قام لينكولن بتخفيف العقوبة على الجميع فيما عدا 38 منهم؛ إلا أن تعليقهم على أعواد المشانق في ديسمبر/ كانون الأول 1862، يبقى بمثابة الحكم الرسمي الأكبر بالإعدام في التاريخ الأمريكي. وفى عام 1864، قامت وحدة من الجنود التابعين لولاية كولورادو، تحت قيادة الكولونيل جون تشيفنجتون، بمهاجمة قرية "تشين وأراباهو إنديانز" بساند كريك، وقتلت ما يصل لنحو 400 من الرجال، والنساء، والأطفال.

كما قام جيش الاتحاد بشن حملة على قبيلة نيفاجو في الجنوب الغربي، وحطموا بساتينهم وقتلوا أغنامهم، وأجبروا 8.000 شخص على الانتقال إلى ملجأ أعدته الحكومة، ويدعى النيفاجو لونج ووك (سير نيفاجو الطويل)، وهى تشير إلى ما قامت به الولايات المتحدة في عام 1864 من إخلاء قسري لسكان قبيلة نيفاجو من منازلهم وإجبارهم على السير ما يزيد على

ثلاثة عشر ميلا (من ما يسمى في الوقت الحالي "أريزونا" إلى "نيوميكسيكو")؛ لقد أصبح "سير نيفاجو" بمثابة حدث أساسي في تجربتهم التاريخية كما كانت تجربة "التريل أوف تيرز" (طريق الدموع)، (وهو اسم يطلق على عملية تطهير عرقي قامت بها الولايات المتحدة ضد سكان أمريكا الأصليين) بالنسبة لقبيلة الشيروكي الهندية (انظر الفصل 10). وعلى العكس من الهنود الشرقيين، رغم ذلك، فقد تم السماح في النهاية للنيفاجو بالعودة إلى جزء من أراضيهم.

ومما يثير السخرية، أن الكونفيدرالية، وعلى الرغم من دفاعها عن العبودية، إلا أنها كانت تعامل الأمريكيين الأصليين بشكل أكثر عدلاً مما كان يفعل الاتحاد. كما سمح الدستور الكونفدرالي بانتخاب ممثلين لهم في الكونجرس، إضافة إلى ذلك قامت إدارة دافيس بإلغاء سيطرة الولاية على ملاجئ الهنود، مع السماح لهم بحكم ذاتي كامل. اصطفت بعض القبائل التي تمتلك عبيدا مثل الشيروكي إلى جانب الكونفيدرالية؛ وبعد عام 1865، تم إجبارهم على التنازل عن المزيد من أراضيهم لصالح الحكومة الفيدرالية، وأيضًا يعطوا بعضًا من أراضيهم لعبيدهم السابقين (فكانوا بذلك ملاك العبيد الوحيدين الذين يطلب منهم القيام بمثل هذا الفعل).

نظام مالي جديد

أحدثت الحاجة إلى الإنفاق على الحرب تغيرات مثيرة في السياسة المالية؛ فمن أجل توفير أموال، قامت الحكومة بزيادة التعريفة الجمركية إلى ارتفاع غير مسبوق (وأدى ذلك إلى تعزيز النمو المتزايد بالصناعة الشمالية)، وأيضًا فرضت ضرائب جديدة على إنتاج واستهلاك البضائع، كما سنت قانونًا بفرض أول ضريبة على الدخل في البلاد. كما قامت أيضًا باقتراض ملياري دولار عن طريق بيع سندات بالفائدة، الأمر الذي أدى إلى تضخم الدين القومي، كما قامت بطباعة أكثر من 400 مليون دولار من الأوراق النقدية؛ سميت "خضراء الظهر"، وأعلنت كعملة قانونية – وهذه العملة يجب أن تقبل في كافة التعاملات والديون العامة والخاصة. ومن أجل ترشيد النظام المصرفي، أسس الكونجرس نظامًا من البنوك القومية المرخصة والتي كانت تتولى مهمة شراء السندات الحكومية، وكان يعطى لها الحق في أن تصدر أوراقًا مالية كعملة. هذا وأدت الضرائب الثقيلة بالنقود المطبوعة عن طريق بنوك الولاية إلى أن تمحى من الوجود؛ ونتيجة لذلك، أصبح للولايات المتحدة التي كانت عملتها قبل اندلاع الحرب خليطًا متنوعًا من الأوراق المالية التي تقوم بطباعتها الولاية والبنوك المحلية، حينذاك نوعان من العملة الورقية الوطنية – خضراء العوائد والتي كانت تُطبع مباشرة من قبل الحكومة الفيدرالية، بالإضافة إلى العملات التي يصدرها البنك الوطني الجديد.

وبسبب العقود المربحة في إمداد المجهود العسكري بالبضائع، أفادت السياسات الاقتصادية في زمن الحرب بشكل كبير كل من رجال الصناعة الشماليين، ورجال السكك الحديدية، والممولين؛ كما قامت أعداد كبيرة من الأمريكيين والذين تولوا قيادة إعادة تشكيل اقتصاد الأمة، فيما بعد الحرب بتجميع وتكوين ثرواتهم أثناء فترة الحرب الأهلية، وكان من بين هؤلاء تاجر المعادن والحديد أندرو كارنيجي، ورجل البترول جون دي روكفيلر، والممولين جاي جولد، وجيه بي مورجان، وفيليب دي أرمور، والذي جني الملايين من وراء بيع لحم البقر لجيش الاتحاد. لقد تمكن هؤلاء وغيرهم من قادة الصناعة من الهروب من الخدمة العسكرية، في بعض الأحيان عن طريق شراء إعفاءات أو استئجار بدلاء عنهم وفقًا للقانون الذي يسمح لهم بذلك.

وبالاتحاد معا، زادت السياسات الاقتصادية للاتحاد بشكل كبير من نفوذ وحجم الحكومة الفيدرالية؛ إذ فاقت ميزانية الفيدرالية في عام 1865 البليون دولار - أي ما يقرب من عشرين ضعف الميزانية في عام 1860؛ وبجيشها الجديد من الموظفين، وجامعي الضرائب، وغيرهم من موظفي الدولة، أصبحت الحكومة هي رب العمل الأكبر على مستوى الأمة؛ ومع مثل هذا الاتساع المتزايد والذي حدث بمرور الوقت، لن ترجع الحكومة أبدًا إلى ما كانت عليه من ضعف وأحوال متردية في فترة ما قبل الحرب.

النساء والحرب

فتح الصراع بالنسبة للعديد من نساء الشمال أبوابًا جديدةً من الفرص؛ فقد استغلت النساء نقص العمالة في زمن الحرب وانتقلن لشغل وظائف في مصانع وفي أعمال ومهام كان يختص بها الذكور، وبخاصة التمريض. وفتح توسع أنشطة الحكومة الوطنية الباب أمام وظائف جديدة للنساء كموظفات في مكاتب الحكومة، إلا أن العديد من هذه المكاسب التي تم اكتسابها في زمن الحرب كانت قصيرة المدى؛ بيد أن النساء وجدن مكانًا دائمًا بين القوى العاملة في وظائف مثل الوظائف المكتبية الحكومية، والبيع بالتجزئة، والتمريض.

كما شارك بعض نساء الشمال بشكل مباشر في حملات عسكرية. فقد ارتحلت كلارا بارتون، وهي موظفة في مكتب براءة الاختراعات في واشنطن العاصمة، وعندما اندلعت الحرب قامت بالسفر مع الجيش إلي فرجينيا الشمالية، لتساعد في تنظيم خطوط الإمداد، كما كانت تقوم بتمريض الجرحى من الجنود. عملت بارتون منفردة أكثر من كونها جزءًا من قسم التمريض النسائي، كما أنها لم تتلق أي تعويض من الحكومة.

وقد شارك مئات الآلاف من النساء الشماليات في منظمات كانت تعمل على جمع الأموال والمؤن الطبية للجنود، كما كن يقمن بإرسال كتب، وملابس، وطعام للرجال الأحرار؛ وهنا

ظهرت اللجنة الصحية للولايات المتحدة كوكالة إغاثة وطنية مركزية تعمل على تنسيق التبرعات على الجبهة الوطنية الشمالية. وعلى الرغم من أن مقاليد الأمور بقيت بصفة عامة في أيدي الذكور، إلا أن الوطنيات من النساء كن يؤدين معظم الأعمال الشعبية الأساسية. لعبت النساء الدور القيادي الرائد في تنظيم الشئون الصحية - والأسواق الخيرية الكبيرة التي تعرض لافتات عسكرية، وملابس، ومستلزمات أخرى للحرب، وبضائع مباعة لتوفير المال، من أجل مساعدة الجنود. اجتذب معرض الثلاثة أسابيع في مدينة نيويورك في عام 1864 جمعًا غفيرًا يصل إلي 30,000 زائر وجمعت أكثر من مليون دولار.

وقد رأى كثيرون من الرجال أن العمل الحربي للنساء امتداد لقدرتهن الطبيعية على التضحية بالنفس؛ لكن العمل التطوعي في خدمة مجتمعات الجنود المحلية، جاء بالعديد من نساء الشمال إلي المجال العام وجعلهن يذقن طعم الاستقلال. علقت حركة المطالبة بحق الاقتراع عملياتها أثناء الحرب لكي تكرس نفسها للاتحاد والتحرر؛ لكن استمرار عدم منح حق التصويت للنساء بدا وكأنه الأمر الأكثر إذلالاً وتحقيرًا لهن، بينما ازداد إدماجهن في العمل الحربي.

وقد خرج العديد من قيادات الحركات المطالبة بحقوق النساء في فترة ما بعد الحرب من بين هذه التحركات التي حدثت في وقت الحرب؛ فقد قامت "ماري ليفرمور"، زوجة وزير بولاية شيكاغو، على سبيل المثال، بجولة في المستشفيات العسكرية لكي تحدد احتياجاتهم، ومن أجل الاعتناء بالجرحى والقتلى من الجنود، كما قامت بتنظيم معرضين صحيين. إلا أنها خرجت من الحرب ينتابها استياء شديد من أحوال النساء القانونية والسياسية، ولهذا نظَّمت أول مؤتمر يطالب بحق النساء في الاقتراع في ولايتها؛ واختتمت قائلة:"يجب أن يفكر النساء ويعملن لأنفسهن". وبعد الحرب لم تصبح "كلارا بارتون" فقط مدافعة عن حق النساء في التصويت، بل عملت - كرئيس لمنظمة الصليب الأحمر الوطني الأمريكي- على التوقيع على أول اتفاقية لجنيف في عام 1864، والتي أوصت بالمعاملة الإنسانية لضحايا المعركة. وبشكل عام، وبفضل جهود بارتون، صدَّق مجلس الشيوخ على الاتفاقية في عام 1882، ونتيجة لذلك أصبحت اتفاقية جنيف في القرن التاسع عشر تتناول طريقة التعامل مع أسرى الحرب والمدنيين في وقت الحرب.)

الشمال المنقسم

على الرغم من المهارات السياسية التي كان تمتع بها لينكولن، إلا أن الحرب والسياسات التي انتهجتها إدارته أدت إلى تقسيم المجتمع الشمالي. أطلق الجمهوريون على أولئك الذين يعارضون "حرب كوبرهيدس"، وهو وصف لثعابين سام تلدغ دونما تحذير. عملت كل من الخسائر في الأرواح، التغيرات المجتمعية السريعة إلى تقسيم الشمال. تزايد السخط والاستياء بقوة

بين غالبية السكان الذين ولدوا في الجنوب في ولايات مثل أوهايو، وإنـديانا، والينـوي، وأيـضًا بين الطبقات العاملة من المهاجرين الكاثوليك في المدن الشرقية.

وبمضي الحرب قدما، فاقمت التوترات الاجتماعية، كما خلقـت تـوترات أخـرى جديـدة؛ وقد أدى التصاعد المتنامي لنفوذ الحكومة الفيدرالية إلى خلق تحدى للأفكار التقليدية عن الحكم الذاتي المحلى. نتج عن مسودة قانون الاتحاد - والتي تسمح للأفراد بالإتيان ببدلاء عـنهم لتأديـة الخدمة العسكرية أو دفع المال بدلاً من الالتحاق بالجيش - استياءً شديدًا؛ إذ اغتـاظ عمـال مـن أصحاب المصانع والممولين من جنيهم أرباحًا طائلـة، بينمـا تـضاءلت دخـولهم الحقيقيـة بـسبب التضخم. هذا وقد شهدت الحرب الميلاد الجديد للحركة العمالية الشمالية، والتي نظمت أعـدادًا هائلة من الإضرابات من أجل الحصول على رواتـب أعلـي. أدت التوقعـات بحـدوث تغـيرات جذرية في أحوال السود إلى استدعاء رد فعـل عنـصري في أجـزاء كـثيرة مـن الـشمال. أخـضع الحزب الديمقراطي سياسات لينكولين إلى نقد لاذع، على الرغم من أن الأمـر بقـي مقـسمًا بـين 'الديمقراطيين المؤيدين للحرب' والذين يعملون على تدعيم المجهود العسكري بينمـا ينتقـدون في الوقت ذاته التحرر والقانون، وأيضًا بين أولئك الذين يؤيدون السلم المباشر.

وفي أحد المناسبات، تحول الشقاق إلى عنف مباشر وصريح؛ ففي يوليو/ تموز 1863، أثارت مقدمة مسودة القانون أربعة أيام من الشغب في مدينة نيويورك؛ وكان الغوغاء يضمون صفوفهم أساسًا المهاجرين الأيرلنديين، وقاموا بمهاجمة رموز من النظام الجديد التي خلقتها الحرب - مثـل مكاتب التجنيد، وقصور الأثرياء الجمهوريين، والمؤسسات الصناعية، والمدن التي يقطنها السكان السود؛ والذين فر العديد منهم هاربين إلى نيوجيرسي، أو اتخذوا من الحديقـة المركزيـة (سـنترال بارك) ملجأ؛ وعندما وصلت قوات الاتحاد إلى هناك، نجحت في قمع الانتفاضـة، إلا أن هـذا لم يحدث إلا بعد سقوط ما يزيد على 100 شخص من القتلى.

الأمة والكونفيدرالية

القيادة والحكومة

أثبت الشخص الذي تم تكليفه بمهمة حشد تأييد شعبي للكونفيدرالية أنه غـير جـدير بتلـك المهمة - كان جيفرسون ديفيز، والذي ولد في عام 1808 بولاية كنتاكي، وبعد ثمانية أشـهر مـن مولد لينكولن وعلى بعد مائة ميل من مكان مولده- ألا ؛ والذي انتقل إلى ولايـة ميسيـسيبى في شبابه وتلقى تعليمه في ويست بوينت (وهى أكاديميـة عـسكرية فيدراليـة) ، كمـا تملـك مزرعـة كبيرة. وكان من صفات جيفرسون أنه متحفظ وعنيد ولا يمتلك قـدرًا مـن الدعابـة، ويفتقـر إلى الجاذبية ومهارة التواصل والمرونة السياسية التي كان يتمتع بها لينكولن. وعلى الرغم مـن كونـه

كان يُعرف قبل الحرب بـ"شيشرون" مجلس الشيوخ، (وشيشرون هذا فيلسوف وكاتب روماني وخطيب روما المميز) بسبب خطبه البليغة، إلا أن دايفيس كان على العكس من لينكولن، إذ أنه أثبت عدم قدرته على توصيل معنى الحرب بشكل فعال إلى العامة من الرجال والنساء؛ وعلاوة على ذلك، أكد عدم وجود نظام حزبي للكونفيدرالية على أنه عائق سياسي؛ وكما كان يرى المؤسسون للجمهورية الأمريكية، كان القادة الجنوبيين أيضًا يرون أن الأحزاب تشكل تهديدًا للوحدة الوطنية؛ ونتيجة لذلك كان ديفيز يفتقد لنظير للحزب الجمهوري الذي هو على درجة عالية من التنظيم، والذي ساعد على حشد الدعم لإدارة لينكولن.

وتحت قيادة ديفيز، أصبحت الأمة الكونفيدرالية أكثر مركزية مما كان عليه الجنوب القديم. عملت الحكومة على بناء الجيش من الأساس، وبسطت سيطرتها على السكك الحديدية الجنوبية، كما بنت مصانع لتصنيع المنتجات؛ إلا أنه أخفق في إيجاد طريقة فعالة للانتفاع بالمصدر الرئيسي لاقتصاد الجنوب، وهو القطن. وفي وقت مبكر من الحرب، حاولت الإدارة القضاء على إنتاج القطن، حيث قاموا بحث المزارعين على زراعة الأغذية بدلاً منه، كما حظرت تصدير القطن؛ وكانوا يأملون أنه بمثل هذه الإجراءات سوف يعززون من الاكتفاء الذاتي الاقتصادي، ومن ناحية أخري يجبرون بريطانيا العظمي، والتي لا تستطيع مصانع النسيج بها العمل من دون القطن الجنوبي، على التدخل إلى جانب الكونفيدرالية.

إلا أنه ثبت في النهاية أن" دبلوماسية القطن" الملك غير فعالة؛ إذ أدى الإنتاج الضخم من المحاصيل في عامي 1859، 1860 إلى خلق تكدس ضخم للبضائع بالمستودعات الإنجليزية. وبمرور الوقت أخذ الآسي يعم المناطق الصناعية في عام 1862، هذا وقررت حكومة رئيس الوزراء "بالميرستون" ألا تتدخل، بشكل جزئي لأن بربطانيا كانت تحتاج القمح الشمالي بنفس قدر احتياجها للقطن الجنوبي، إلا أن سياسة الكونفيدرالية كان لها نتائج عالمية بعيدة المدى. وفي اعتراف باعتمادهم الكامل على القطن الجنوبي توجهت أمم أخرى لتوسيع إنتاجها. دعمت بريطانيا زراعة هذا المحصول في مصر والهند، كما قامت روسيا بالفعل نفسه في أجزاء من آسيا الوسطى؛ ونتيجة لذلك أدى استئناف إنتاج القطن الأمريكي بعد الحرب إلى حدوث أزمة عالمية بشكل مباشر نتيجة لزيادة مفرطة في الإنتاج، والذي أدى إلى هبوط أسعار القطن، كما أدى إلى استنزاف وإفقار الفلاحين حول العالم.

لم يتعامل ديفيز بشكل فعال مع الحكام المعوقين مثل جوزيف أي. براون من ولاية جورجيا، والذي شجب مسودة الكونفدرالية واصفًا إياها بأنها "ابتزاز خطير" لحقوق الولايات والحرية الفردية. وطوال الوقت كان دايفيس أدني وأقل من لينكولن كقائد في وقت الحرب، وكما أشار

أحد المؤرخين أنه لو كان الشمال والجنوب قد تبادلوا الرؤساء، لفاز الجنوب بالحرب.

الحرب الأهلية الداخلية

وبمضي الحرب قدما، غمرت التغيرات الاجتماعية والاضطرابات الداخلية الكونفيدرالية بشكل كبير. وفي البداية ساند معظم البيض الجنوبيين قضية الكونفيدرالية؛ وبحماسة لا تقل عن حماسة القوات الشمالية، تحدث الجنود الجنوبيين عن قضيتهم مستخدمين لغة الحرية "نحن نحارب من أجل حريتنا"، هكذا كتب أحد المتطوعين ودون أي إحساس بالتناقض، "ضد طواغيت الشمال ... الذين يصرون على القضاء على العبودية." إلا أن الاستياء العام أصبح في النهاية يمثل مشكلة متزايدة الخطورة بالنسبة للكونفيدرالية أكثر مما تمثله بالنسبة للاتحاد؛ وحتى عندما كان الجنوب يخوض صراعاً يائسًا من أجل نيل استقلاله، وجد نفسه منقسمًا بشكل متزايد. كانت إحدى الشكاوى بسبب التجنيد، فمثلما فعل الاتحاد، سمحت الكونفيدرالية أيضًا لأفرادها بالمجيء ببديل؛ وبسبب تسارع تفكيك العبودية، فقد أعفت أيضًا الرجل الأبيض الواحد في مقابل كل عشرين في مزرعة (ونتيجة لذلك تم إطلاق سراح العديد من المشرفين وأبناء المزارعين وإعفاءهم من الخدمة). لقد أقنع قانون "العشرين زنجيا" العديد من الرجال بأن النضال من أجل استقلال الجنوب أصبح يمثل "حرب الرجل الثري وقتال الرجل الفقير".

مشكلات اقتصادية

كما أدى الحرمان الاقتصادي أيضًا إلى تأجيج الاستياء والغضب، وبسبب إحكام الحصار، أصبحت مناطق من الكونفيدرالية تحت سيطرة الاتحاد. وتقلص الإنتاج الذي كان ينتج على يد العبيد، وظهر النقص في بضائع أساسية مثل الملح، والذرة، واللحوم. خلفت الحرب وراءها عددًا لا يحصى من الحقول، والمزارع، وأماكن التجارة والسكك الحديدية المدمرة، كانت الأزمة الاقتصادية، والتي وقفت في تناقض واضح مع الازدهار الشمالي، عبارة عن نتيجة لا يمكن تجنبها للحرب؛ إلا أن سياسات الكونفيدرالية ضاعفت من أثارها. إن الحرب تتطلب التضحية، كما أن الدعم المدني للحرب يعتمد من ناحية على الإيمان بأن التضحية يشارك فيها الجميع بشكل عام؛ ومع ذلك، فإن العديد من أولئك الذين لا يمتلكون عبيدا، أصبحت لديهم قناعة بأنهم هم من يتحمل النصيب الغير عادل من أعباء الحرب.

ومثلما فعل الاتحاد، اقترضت الكونفدرالية بشكل كبير من أجل تمويل الحرب؛ وعلى الرغم من هذا، وعلى عكس صناع القوانين الفيدراليين، أثبت المزارعون الذين كانوا يهيمنون على كونجرس الفيدرالية عدم رغبتهم في فرض ضرائب ثقيلة، وإجبار المزارعين على القيام بدفعها، كانت تقوم على العملة الورقية التي أصدرت منها حوالي 1.5 مليار دولار، أكثر من

أوراق النقد خضراء الظهر في الشمال. كما سمح الكونجرس لضباط عسكريين بالاستحواذ على منتجات المزارع لكي تزود بها الجيش، على أن يكون التعامل بعملة الكونفدرالية التي كانت تفقد قيمتها يومًا بعد يوم. استاء عدد قليل من المزارعين بشكل كبير من مثل هذا الإجراء، والذي عرف "بالمصادرة من أجل الصالح العام". لقد عاملنا الجيش الثائر كحكومة بشكل أكثر سوءًا مما فعله (جنرال الاتحاد ويليام تي. شيرمان)، وكما ذكر أحد مزارعي جورجيا فيما بعد، "لقد كنت امتلك خنازير، وبغل، وحصان وقد أخذوها جميعا؛ لقد لجأ عدد كبير من أسر وعائلات صغار المزارعين للمشاركة في الحرب من أجل الحفاظ على استقلالهم الاقتصادي، ولكنهم غرقوا في الفقر والديون. هذا واندلعت أعمال شغب من أجل الغذاء في العديد من الأماكن بما فيها ديت سيمون، فرجينيا، وموبيلى، وألاباما، حيث احتشدت أعداد كبيرة من النساء في عام 1863 وقمن بسرقة امدادت الطعام الخاصة بالجيش. في عام 1862، علق جوشوا بى. موورى، وهو أحد ملاك العبيد في شمال ألاباما، على أنه كيف تهدد العبودية مجهود الحرب الكونفدرالية، وكتب قائلا "إن أولئك الرجال الذين ليس لهم مصلحة فيها، لن يقاتلوا في حرب طويلة من أجل اسمرارها – وهذا لن يحدث أبدا. فإنهم سرعان ما سيصابون بالملل والضجر ويتخلون عنها؛ وبينما كانت الحرب تمضي قدما، أصبح الفرار من الجندية كما أسماه أحد الضباط "شر محدق" بالنسبة للجيوش الجنوبية. ومع انتهاء الحرب، كان أكثر من مائة ألف من الرجال قد فروا من الجندية، وبخاصة، وبشكل كبير، "من بين الطبقة الأكثر فقرًا" من الذين لا يمتلكون عبيدا، والذين يعتبر عملهم هو الأساس الذي لا غنى عنه من أجل الدعم اليومي لأسرهم؛ وكما لاحظ أحد مسئوول آخر فإنه "من غير المتوقع أن يقاتل الرجال من أجل الحكومة التي تلقى بزوجاتهم وأطفالهم في براثن الجوع".

الاتحاديون الجنوبيون

بحلول عام 1864، كانت حركات السلام المنظمة قد ظهرت في كثير من ولايات الجنوب، وبدأت الجمعيات السرية مثل أبطال أمريكا تعزز وتدعم بشكل عام النفور والاستياء. قضت المحاكم العسكرية الكونفدرالية بالسجن على المئات من الاتحاديين. بينما أجبر آخرون على ترك منازلهم بشكل عنيف، كما تم إعدام عدد قليل منهم من قبل الجيش أو على أيدي السلطات المدنية؛ إلا أن الجنوبيين الذين كانوا يدينون بالولاء للاتحاد كانت لهم إسهامات واضحة في انتصار الشمال. وبنهاية الحرب، بلغ عدد البيض الجنوبيين الذين قاتلوا في صفوف جيش الاتحاد 50,000 رجل.

كانت "إليزابيث فان ليو" من ريتشموند، واحدة من بين أكثر أبطال الاتحاد المكرمين في الحرب، والتي تمكنت من إقناع والدتها باعتاق أسر العبيد لديهم حينما توفى والدها في عام

1843. وفى أثناء الحرب، كانت ليو كثيرًا ما تقوم بزيارة "سجن ليبي" في العاصمة الكونفدرالية، كما كانت تقوم بتحضير المؤن لأسرى الحرب من الاتحاد، إلى جانب ذلك فقد كانت تساعد بعضهم على الهروب؛ وبمساعدة مارى إليزابيث بوسر، وهى أحد الإماء السابقين من أسرة فان ليو، والتي عملت كخادمة في البيت الأبيض الجنوبي، نجحت فان ليو من تمرير معلومات تتعلق بالكونفدرالية إلى قوات الاتحاد.

النساء والكونفيدرالية

وحتى بشكل أكثر مما حدث في الشمال، وضعت الحرب أعباءً غير مسبوقة على النساء البيض الجنوبيات؛ وبسبب أنهن تركن بمفردهن في الحقول والمزارع، فلقد أجبرن على إدارة الشئون التجارية، وتهذيب العبيد، ومثل هذه المهام التي كانت في السابق من مسؤولية الرجال. وكما حدث في الشمال، تم حشد النساء لتدعيم الجيوش في أرض المعركة، وخرجن من "الإطار" التقليدي ليقمن بإدارة مؤسسات اقتصادية وليعملن في مصانع الجيش. ففي ريتشموند، شغلت "فتيات الحكومة" العديد من الوظائف في النظام البيروقراطي الجديد للكونفدرالية؛ إذ ترأست روس جرينهاو، وهي زوجة دبلوماسي أمريكي سابق، دائرة الجاسوسية في واشنطن العاصمة، والتي كان من شأنها تمرير معلومات قيمة عن تحركات الاتحاد باتجاه الكونفدرالية في وقت مبكر من الحرب. وحتى بعد إلقاء القبض عليها والزج بها في السجن، تمكنت من تهريب استخبارات حتى تم نفيها إلى ريتشموند في عام 1862؛ وقد قام جيفرسون دايفيس بمكافأة جرينهاو بمبلغ 2,500 دولار نظير خدماتها.

وقد سجلت نساء الجنوب نموذجًا أسطوريًا في التضحية بالنفس وكرسن أنفسهن من أجل القضية؛ لكن مع استمرار الحرب وارتفاع حصيلة القتلى، ذهبت أعداد متزايدة من النساء للإيمان بأن هدف الاستقلال لا يستحق الثمن الذي بذل من أجله. وقد انتقل الاستياء المتزايد من النساء الجنوبيات من البيض في شكل رسائل وخطابات إلى الأحباء على الجبهة، الأمر الذي أسهم في خفض الروح المعنوية للمدنيين، كما شجع على الفرار من الجيش.

الجنود السود للكونفيدرالية

أدى النقص المتزايد في القوة البشرية للبيض بالسلطات الكونفدرالية في النهاية إلى اتخاذ قرار لم يكن أحد يستطيع توقعه عندما بدأت الحرب: فلقد سمحوا للعبيد بالالتحاق بالجيش للقتال من أجل الجنوب. وفى مطلع شهر ديسمبر/ كانون الثاني 1863، طرحت جريدة تصدر في ولاية ميسيسبي اقتراحًا بتحرير أصحاب الأجسام القوية من الرجال السود وإلحاقهم بالجيش؛ إذ كتبت "دعهم يصبحوا أحرارا، ويتقلدوا رتبا، وأخبرهم أن يقاتلوا من أجل أوطانهم وبلادهم."

إلا أن العديد من مالكي العبيد قاوم هذه الفكرة بضراوة شديدة، ومبدئيًا، قام مجلس الشيوخ برفض تلك الفكرة. ولم يسمح الكونجرس بتسليح العبيد بالجيش حتى مارس/ آذار 1865، بعد أن صدَّق روبرت إي. لي على الخطة.

إلا أن الحرب كانت قد انتهت قبل أن يبدأ تجنيد السود بشكل فعلي؛ لكن جيش الكونفدرالية قام بتوظيف أعداد كبيرة من السود، كانوا كلهم تقريبًا من العبيد، كعمال. أدى هذا فيما بعد إلى إثارة بعض البلبلة حول ما إذا كان السود قد قاموا بالفعل بالقتال لصالح الكونفدرالية، باستثناء عدد قليل منهم تم تمريره للبيض، في الحقيقة لم يحدث منه شيء. إلا أن قرار الجنوب بزيادة أعداد القوات من السود أوضح كيف أن الحرب أثرت ليس فقط في العبودية بل أثرت أيضًا في الأيديولوجية المدافعة عنها. "إن اليوم الذي ستجعل فيه الجنود منهم، سيكون هو بداية النهاية للثورة،" هذا هو ما صرح به "هاويل كوب" (مزارع وسياسي من جورجيا.) "وإذا ما أثبت العبيد جدارتهم كجنود، فإن نظريتنا عن العبودية بالكامل ستكون خاطئة."

نقاط تحول

جيتسبرج وفيكسبرج

على الرغم من الفناء المتسارع للعبودية، وانخفاض الروح المعنوية في الجنوب، إلا أن نتائج الحرب بقيت محل شك على مدار العامين الثالث والرابع منها. ففي أبريل/ نيسان 1863، أحضر "المقاتل جو هوكر" والذي جاء خلفًا "لأمبرس إي. بيرنسايد" كرئيس للاتحاد في الشرق، جيش البوتوماك إلى فرجينيا الوسطى لمواجهة لي. وبتفوق عددى بمثابة اثنين مقابل واحد، نجح "لي" في صد هجوم هوكر على تشانسيلورسفيل، على الرغم من أنه فقد معاونه الأقدر "ستون وول جاكسون"، والذي قُتل بطريق الخطأ إثر إطلاق النار عليه من قبل الجنود التابعين له.

وحينذاك أصبح "لي" يقامر على غزو آخر للشمال، على الرغم من أن هدفه الإستراتيجي ظل غير واضح، ربما أنه كان يعتقد أن وقوع خسارة في مقاطعته الخاصة من شأنها أن تدمر الروح المعنوية للجيش الشمالي ولعامة الناس. على أية حال، فإن كلا الجيشين تواجها، حيث أصبح جنود الاتحاد حينذاك تحت إمرة الجنرال جورج جى ميد ، في جيتسبرج ببنسلفانيا، في الثلاثة أيام الأولى من شهر يوليو/ تموز 1863. وبعدد قوات بلغ 165,000 جنديًا، تبقى معركة جيتسبرج هي المعركة الأكبر التي وقعت على أرض القارة الأمريكية الشمالية. ووجد لى نفسه في موقع غير عادى من المواجهة مع قوات الاتحاد المتمترسة؛ وبعد يومين من الإخفاق في إزاحتهم، قرر أن يشن هجومًا على مركز خط الاتحاد. وفى الثالث من يوليو/ تموز، قامت قوات تابعة للكونفدرالية (بقيادة الجنرال إى بيكيت) بالسير عبر ميدان مفتوح باتجاه قوات الاتحاد. إلا أن

المدفعية المحرمة ولهيب البنادق صدا الهجوم، ولم يتمكن غالبية جنود بيكيت أبدًا من الوصول إلى حدود الاتحاد؛ ومن بين 14,000 رجل الذين صنعوا التقدم، زهرة جيش لي، فإن أقل من نصفهم فقط هو الذي عاد سالما؛ وكانت الحملة التي أصبحت تذكر فيما بعد على أنها "الموجة العالية للكونفدرالية"، كما أن قضية بيكيت أيضًا كانت تعرف على أنها غلطة لي الكبرى. وعلى إثر ذلك تقهقر جيشه عائدًا إلى فرجينيا، ومن يومها لم يضع قدمًا على أرض شمالية.

وفى نفس اليوم الذي بدأ فيه لي بالتقهقر والانسحاب من جتيسبرج، حقق الاتحاد انتصارًا كبيرًا في الغرب. وفى أواخر عام 1862، تحرك جراند إلى المسيسيبى باتجاه مدينة فيكسبرج؛ ومن مرتفعاتها المحاطة بأميال من الخنادق العسكرية والسدود الترابية، أحكمت الكونفدرالية سيطرتها على نهر المسيسيبى الرئيسي، وعندما فشلت الهجمات المباشرة، كما حدث في محاولة لتحويل مجرى النهر عن طريق حفر قناة، قام جراند بفرض حصار، وفى الرابع من يوليو/ تموز لعام 1863، استسلمت فيكسبرج ومعها جيش جون سى. بيمبرتون الذي كان قوامه 30,000 ألف مقاتل، وهي خسارة كان من الصعب على الكونفدرالية تحملها؛ وأصبح حينذاك وادي الميسيسيبى بأكمله يقع في أيدي الاتحاد. أدت الهزائم الفورية في كل من جيتسبرج وفيكسبرج إلى صدمة مروعة في الروح المعنوية للجنوبيين؛ إذ كتب أحد المسؤلين في يومياته "اليوم يظهر الدمار التام في أراضينا."

عام 1864

ومع ذلك، مر ما يقرب من سنتين قبل أن تضع الحرب أوزارها؛ ولإخضاع الشرق لسلطة قوات الاتحاد، بدأ جرانت في عام 1864 حرب استنزاف ضد جيش "لي" في فرجينيا. وفى هذه الحرب، كان على استعداد في أن يتقبل أعدادًا هائلة من الخسائر في الأرواح، وذلك لأنه كان يدرك أن الشمال كان باستطاعته تعويض خسائره من القوة البشرية بينما لا يستطيع الجنوب ذلك. كان جرانت يفهم أنه إذا دخلت أفضلية القوى البشرية للشمال إلى ساحة اللعب، فإن ذلك معناه أنه يجب أن يهاجم باستمرار "الجميع بطول الحدود"، ومن ثَمَّ يعمل على منع العدو من تركيز قواته أو التقهقر والتراجع إلى مكان آمن بعد الاشتباك.

وفى شهر مايو/ أيار من العام 1864، عبر ما يقرب من 115,000 رجل من جيش البوتوماك من نهر الرابيدان لخوض معركة مع قوات لي في فرجينيا؛ ثم تلا ذلك واحدًا من أكثر شهور الحرب دموية. في البداية واجه كل من لي وجرانت بعضهما البعض في منطقة وايلدرنيس، وهي منطقة برية مغطاة بالأشجار القصيرة، حيث وكما يصف أحد المشاركين، "لقد كانت كما لو أن الرجال المسيحيين تحولوا إلى شياطين" والجحيم نفسه اغتصب مكان الأرض.

سقط من جيش جرانت فقط ما يقرب من 18,000 من الضحايا، بينما كانت خسائر لي أقل من ذلك بكثير إذ بلغت حوالي 7,500. كان من عادة جنرالات الاتحاد السابقين أن يقوموا بوقف الاشتباكات بعد وقوع خسائر بمثل هذا الحجم الضخم. إلا أن جرانت استمر في الضغط للأمام، وقام مرة أخرى بشن هجوم على سبوتسيلفانيا، وبعد ذلك على كولدهاربور. وبعد انتهاء ستة أسابيع من القتال، وصلت خسائر جرانت في الأرواح إلى 60,000 - أي ما يعادل العدد الكلي لجيش لي - بينما فقد لي 30,000 من رجاله. كان القتال في فرجينيا بمثابة نقطة تحول في الحرب الحديثة؛ وبقتال يومي، وتكلفة مفجعة من القتلى، وكان هناك الكثير الذي يربطه بحرب الخنادق في الحرب العالمية الأولى (والتي تم مناقشتها في الفصل التاسع عشر) مما كان يربطه بقتال السادة المهذبين الذي بدأت به الحرب الأهلية.

وقد أصبح جرانت جنرال الاتحاد الوحيد الذي يحقق المبادرة ضد لي، إلا أنه حقق ذلك بتكلفة باهظة جعلت النقاد يصفونه "بجزار البشر"، ومع ذلك كان النصر ما زال يتملص من بين يديه. حاول جرانت أن يبسط سيطرته على بيتسبرج، والتي تتحكم في خط السكة الحديد الواصل في ريتشموند، إلا أن لي سيطر على بيستسبيرج قبله بينما توقف جرانت ليفرض حصارًا طويل الأمد. وفي غضون ذلك، واجه الجنرال وليام تي شيرمان - والذي حرك قواته إلى جورجيا من تينيسي- مقاومة شديدة من القوات التابعة للكونفدرالية. ولم يكن قبل شهر سبتمبر/ أيلول، حتى استطاع في النهاية دخول أطلنطا، وسيطر على المركز الرئيسي للسكة الحديد بجورجيا.

ومع ارتفاع حصيلة القتلى في فصلي الربيع والصيف لعام 1864، انخفضت الروح المعنوية للشماليين إلى معدلاتها في فترة الحرب. ولبعض الوقت اعتقد لينكولن أنه لن يكون قادرًا على الفوز في حال إعادة انتخابه وفي شهر مايو/ أيار، وعلى أمل في إجبار لينكولن على التنحي عن منصبه، قام الجمهوريون الراديكاليون بترشيح جون سي فيرمونت على أساس برنامج يطالب بتعديلات دستورية من أجل إلغاء العبودية، الحماية الفيدرالية لحقوق الرجال المحررين، إلى جانب مصادرة الأراضي التي يمتلكها أشخاص قياديون في الكونفدرالية؛ وقد ثبط همة المرشح الديموقراطي للرئاسة الجنرال جورج بي ماكليلان من بداية الحملة برنامج يطالب بوقف فوري لإطلاق النار وعقد مؤتمر للسلام - وهي خطة رآها حتى من أنهكتهم الحرب من الشماليين أنها مساوية للاستسلام. وفي النهاية، انسحب فيرمونت وشد من أزره أسر شيرمان من أطلنطا وبذلك حقق لينكولن نصرًا كاسحا؛ إذ أنه بسط سيطرته على كل الولايات ما عدا ولايات كنتاكي، ديلواير، ونيو جيرسي؛ وقد أكدت مثل هذه النتيجة أن الحرب ستستمر حتى يتم هزيمة الكونفدرالية.

إرهاصات عصر إعادة الإعمار ونهاية الحرب

مع اقتراب الحرب من النهاية، وقعت أجزاء أكثر وأكثر من الكونفدرالية تحت سيطرة الاتحاد، وجدت السلطات الكونفدرالية نفسها مسؤولة عن الانتقال من العبودية إلى الحرية. ففي ولايات كاليفورنيا الجنوبية، ولويزيانا، وأجزاء أخرى من الجنوب احتدم النقاش حول قضايا مثل الحصول على الأراضي والتحكم في العمل والبناء الجديد للسلطة السياسية- ومثل هذه القضايا التي كانت بضاعة رائجة في عالم ما بعد الحرب.

تجربة جزيرة البحر

حدث الارهاص الأكثر شهرة لعصر إعادة البناء على جزر البحر بمحاذاة ساحل كارولينا الجنوبية، وعندما قامت القوات البحرية التابعة للاتحاد باحتلال الجزر في نوفمبر/ تشرين الثانى من العام 1861، كانت الحرب قد انتهت منذ أشهر قليلة؛ وقد هاجر تقريبًا كل السكان البيض، تاركين ورائهم نحو10,000 من العبيد، وعلى الفور تبعت تحركات القوات البحرية قوات أخرى من الشماليين من ضباط الجيش والعاملين بالخزانة ومستثمرين محتملين في أراضي القطن، ومجموعة تسمى فرقة جيديون والتي ضمت إصلاحيين من السود والبيض ومعلمين مختصين برفع مستوى العبيد الذين تم تحريرهم. كان لكل واحد من هذه المجموعات، بالإضافة إلى سكان الجزر من السود، وجهة نظره الخاصة حول الكيفية التي ينبغي عن طريقها الانتقال إلى الحرية. وكان الصحفيون ينقلون في تقارير كل ما يحدث على الجزر من تطورات إلى شعب الشمال المتلهف للقراءة. وانطلاقًا من قناعة بأن التعليم كان هو المفتاح لصناعة الاعتماد على الذات، وبناء مواطنين منتجين من العبيد السابقين، كرس المعلمون الذين ولدوا في الشمال أنفسهم من أجل تعليم السود المحررين. وكان من بين هؤلاء المعلمين تشارلوت فورتن، والتي تنتمى لواحدة من أكثر الأسر السوداء أهمية، وكان من بينهم أيضًا لورا إم تون وهى من أصل أبيض من بيتسبرج، وبقيت تون والتي ساهمت في تأسيس مدرسة بن ، في جزيرة هيلينا تعمل كمعلمة هناك حتى وفاتها في عام 1901. ومثل العديد ممن كان ينتمي إلى مجموعة جايديون، كان كل من توني وفورتن تفترضان أن السود في حاجة إلى إرشاد خارجي لتقدير قيمة الحرية. إلا أنهم في الوقت ذاته أبدوا تعاطفًا مع تطلعات العبيد السابقين والتي كان في القلب منها الرغبة في الوطن. ومع ذلك، كان هناك عدد آخر من الشماليين يرون أن تحول العبد إلى عامل حر ليس معناه منح السود أرضًا بل تمكينهم من العمل في مقابل أجر، وفى ظروف أكثر إنسانية من التي كانوا يعانون منها في ظل العبودية.

وعندما قامت الحكومة الفيدرالية بطرح أراضى الجزر للبيع، لم يكن غالبية الطلب عليها

من قبل العبيد السابقين، بل من قبل المستثمرين الشماليين الذين كانوا عازمين على إثبات تفوق العمل الحر بأجر مع تحقيق ربح معقول في نفس الوقت. وبحلول عام 1865 أثبتت تجربة جزيرة البحر نجاحًا على نطاق واسع. وكانت العائلات السوداء تعمل في مقابل نيل الأجر وتحصيل التعليم والاستمتاع بمأوى وملبس أفضل إلى جانب أنواع كثيرة ومتنوعة من الطعام أكثر مما كانوا يحصلون عليه وهم تحت العبودية. إلا أن هذه التجربة أيضا أورثت عصر إعادة الإعمار القضية الخلافية حول ما إذا كانت ملكية الأرض ينبغي أن تصاحب حرية السود.

إعادة الإعمار في زمن الحرب في الغرب

جرت تجربة أخرى من إعادة الإعمار كانت مختلفة للغاية، وشملت مناطق أبعد وأكبر في عدد السكان من جزر البحر في لويزيانا ووادي الميسيسبي. وبعد السيطرة على فيكسبرج، قام جيش الاتحاد بسن تشريعات لتنظيم عمالة المزارع. فيما أصرت السلطات العسكرية على أن العبيد المحررين يجب أن يقوموا بالتوقيع على عقود عمل مع مالكي المزارع الذين أقسموا يمين الولاء؛ لكن الحال الآن أصبح على عكس ما كان عليه قبل الحرب، إذ أنهم ينبغي أن يتقاضوا أجرًا نظير عملهم، كما تم تمكينهم من التعليم، إلى جانب أن العقاب البدني أصبح محظورا، كما أن أسرهم باتت في مأمن من الخطر الذي كان يتهددهم بتمزيق أوصالهم وهو البيع.

هذا ولم يرض أي من الطرفين عن نظام العمل الجديد، فالسود قد استاءوا من إجبارهم على تجديد عقود العمل للبيض؛ وأيضًا من إرغامهم على توقيع عقود عمل، وأما المزارعون أو أصحاب المزارع فقد كانوا يشتكون من أن عمالهم متمردين؛ ولذلك فقد كانوا مصرين على أنه بدون السوط فإن الانضباط لا يمكن تحقيقه؛ إلا أنه في أحيان قليلة كان ضباط الجيش ينشدون تطبيق رؤية مختلفة للحرية. وفى منطقة ديفيز بند بولاية الميسيسبي وهو موقع لمزارع قطن خاصة بجيفرسون ديفيز وأخيه جوزيف، قرر الجنرال جرانت أن يؤسس "جنة للزنوج"؛ وهنا وجد العبيد المحررون أنه بدلاً من أن يكونوا مجبرين على العمل لصالح ملاك من البيض أن الأرض توزع فيما بينهم؛ وبالإضافة لذلك أسست الحكومة نظامًا من شأنه أن يسمح للعبيد السابقين بانتخاب القضاة الخاصين بهم وأيضًا العمد.

العمل السياسي لإعادة الإعمار في زمن الحرب

وبمضي الحرب قدما، ظهر الوضع السياسي للأفارقة الأمريكيين مستقبلاً بدت وكأنه خط تقسيم رئيسي في المناقشات العامة. وكانت الأحداث التي وقعت من احتلال الاتحاد لولاية لويزيانا قد وضعت هذه القضية في بؤرة الاهتمام الوطني. وعلى أمل القيام بتأسيسي حكومة مدنية عاملة في الولاية، أعلن لينكولن في عام 1863 خطة العشرة بالمائة لإعادة الإعمار؛ وقدم

لينكولن في البداية عفوًا عامًّا واستعادة كاملة للحقوق بما فيها حق الملكية (فيما عدا العبيد) لكل الجنوبيين من البيض تقريبًا والذين أدوا قسمًا يؤكد ولائهم للاتحاد، ويعلن دعمهم للتحرر. وعندما قام عشرة بالمائة من إجمالي عدد المصوتين بأداء اليمين في عام 1860، استطاعوا بذلك انتخاب حكومة جديدة والتي ستكون مطالبة بالقضاء على العبودية. لم تقدم خطة لينكولن أو تطرح أي دور يمكن للسود القيام به في تشكيل فترة ما بعد العبودية. ويبدو أن تساهله مع الجنوبيين من البيض كان مبنيًا على افتراض أن العديد من مالكي العبيد السابقين سوف يتقدمون للقبول بشروطه، ومن ثَمَّ يؤدى هذا إلى إضعاف الكونفدرالية، وتقصير أمد الحرب، إلى جانب كسب تأييد ودعم من البيض من أجل إنهاء العبودية.

وبدأت مجموعة أخرى تظهر آنذاك على الساحة السياسية، فقد رأى عبيد نيوأورليانز المحررون أن الاحتلال من قبل الاتحاد بمثابة فرصة ذهبية للضغط من أجل نيل المساواة أمام القانون، وقيامهم بأداء دور في الحكومة. وقد لاقت شكاوى العبيد المحررين من تهميشهم جراء خطة لينكولن، تعاطفًا من قبل الجمهوريين الراديكاليين في الكونجرس. وبحلول صيف عام 1864، أثار عدم عن الأحداث التي وقعت في لويزيانا، وساعد على إثارة قانون وايد ديفيز والذي سمي على اسم عضوين جمهوريين قياديين في الكونجرس كان هذا القانون يتطلب غالبية (وليس عشر) من الذكور من الجنوبيين البيض لحشد دعم الاتحاد قبل أن تبدأ إعادة الإعمار في أي ولاية؛ كما أن مشروع القانون هذا كان يضمن لنسود المساواة أمام القانون، على الرغم من أنه لا يمنحهم حق التصويت. مر القانون من الكونجرس فقط ليموت وذلك عندما رفض لينكولن التصديق عليه ومن ثَمَّ اضطر الكونجرس لتأجيله. ومع اقتراب الحرب من النهاية كان من الواضح أنه في حال تم القضاء على العبودية، فإن أيًا من الاتفاقيات الموجودة حاليًا والتي تتعلق بالنظام الاجتماعي والسياسي لن تكون قائمة.

الانتصار في النهاية

بعد إعادة انتخاب لينكولن، أخذت الحرب تقترب من النهاية بشكل سريع. ففي نوفمبر/ تشرين الثاني من العام 1864، خرج شيرمان مع جيش قوامه 60,000 رجل من أطلنطا في طريقهم باتجاه البحر قاطعين ما يقرب من 60 ميلا من الحشائش المتسعة في قلب جورجيا، فقد عمدوا إلى تدمير السكك الحديدية، والمباني، وأيضًا كل الأطعمة والمؤن التي لن يستطيعوا استخدامها. وكان هدفه (كما كتب شيرمان)"هو" أن يجلد المتمردين، وأن يقهر كبريائهم، ويلاحقهم حتى أعمق فجوة لهم، ويجعلهم يخافوننا ويلقى في قلوبهم الرعب منا". وهنا تجلت الحرب الحديثة بكل ما فيها من دمار، لكن على الرغم من هذا كان عدد المدنيين الذين أضيروا

جسديًا قليل". وفى يناير/ كانون الثاني من العام 1865، وبعد السيطرة على سافانا تحرك شيرمان باتجاه كارولينا الجنوبية، مخلفًا ورائه دمارًا أكبر وأعظم، وقد عمت الفوضى المزارع وذلك لأن العبيد قاموا بطرد من تبقى من المشرفين، وقاموا بتحطيم منازل أصحاب المزارع كما سرقوا غرف تدخين اللحوم، وغرف تخزين الحبوب، وادعوا ملكية الأرض لأنفسهم.

وفى 31 من يناير/ كانون الثاني 1865، صدق الكونجرس على الوثيقة الثالثة عشر والتي ألغت العبودية في كافة أرجاء الاتحاد - وعلى إثرها أدخلت كلمة "العبودية" إلى الدستور للمرة الأولى. وفى مارس/ آذار وخلال خطابه الافتتاحي الثاني، دعا لينكولن إلى المصالحة:"لن يكون هناك حقد تجاه أحد، بل المحبة للجميع ، .... دعونا .... نغلق جراح الأمة". غير أنه بذلك أصدر حكمًا قاسيًا على ماضي الأمة.

وعلى عكس رجال الدين الشماليين، والذين كانوا متأكدين من معرفة نية الرب، أكد لينكولن أنه لا يمكن لإنسان أن يعرف إرادة الرب - وكانت جملة رائعة ومعتدلة عشية انتصار الاتحاد. وقال لينكولن، ربما كان اشتعال الحرب نوعًا من عقاب الرب للأمة بأسرها، وليس فقط الجنوب، بسبب خطيئة العبودية. وإذا ما أراد الرب أن تستمر الحرب حتى تدمر الثورة التي كانت حصيلة 250 عامًا من عمل العبيد، ويتم دفع ثمن كل "قطرة دم سالت جراء الجلد بالسوط، يجب أن تعوض بقطرة أخرى من السيف"، فإن هذا أيضًا سيكون نوعًا من العدالة. (انظر الملحق لقراءة النص الكامل).

ومع قدوم شهر إبريل/ نيسان من العام 1865، وقعت الأحداث الأكثر خطورة في التاريخ الأمريكي. ففي الثاني من أبريل/ نيسان، نجح جرانت أخيرًا في اختراق حدود لي في بيترسبرج وأجبر جيش فيرجينيا الشمالية على هجر المدنية وترك ريتشموند دونما دفاع. وفى اليوم التالي، احتل جنود الاتحاد العاصمة الجنوبية. وكان على رأس وحدة للجيش قسيسها (جارلاند إتش وايت، أحد الهاربين السابقين من العبودية. وإذ دعته أعداد كبيرة ليلقى عليهم خطابا، إذ صرح "وايت كما سمي بذلك فيما بعد"، وللمرة الأولى في هذه المدينة نشعر أن الحرية للبشرية جمعاء. وبعد ذلك فتحت كل أبواب حظائر العبيد على مصراعيها وخرج الآلاف يصيحون ويشكرون الرب، والأب، أو السيد أبي".

وفى الرابع من إبريل/ نيسان، خرج لينكولن متغافلا عن سلامته الشخصية، يتمشى في شوارع ريتشموند يصاحبه فقط مجموعة من اثنا عشر بحارا؛ وفى كل خطوة يخطوها، كان يحيط به العبيد السابقون، بل إن بعضهم خر راكعًا على ركبتيه أمام الرئيس، إلا أنه حثهم على البقاء واقفين. وفى غضون ذلك، انطلق لى مع جيشه نحو الغرب فقط لتحاصره قوات جرانت من كل

اتجاه؛ ومع إدراكه أن المزيد من المقاومة سيكون عديم الفائدة ودون جدوى، أعلن لي استسلامه في أبوماتوكس كورتهاوس، بفرجينيا في 9 إبريل/ نيسان، وعلى الرغم من بقاء بعض الوحدات التابعة للكونفدرالية في أرض المعركة، إلا أن الحرب كانت قد انتهت.

لكن لينكولن لم يعش حتى يتذوق طعم الانتصار؛ ففي 11 من إبريل/ نيسان، وأثناء ما يعتبر آخر خطبة له طالب لينكولن على الملأ وللمرة الأولى بمنح السود حق التصويت بشكل محدود. وبعد ذلك بثلاثة أيام، وأثناء حضوره عرضًا مسرحيًا في مسرح فورد بواشنطن دي. سي.، أصيب الرئيس إصابة قاتلة على يد "جون ويلكيز بودث"، وهو واحد من بين أكثر الممثلين شهرة في البلاد، وعلى إثر ذلك مات لينكولن في صباح اليوم التالي. وقد قام قطار بحمل جثمان الرئيس إلى مثواه الأخير في ولاية إلينوي في رحلة شاقة بلغت 1,600 ميل، الأمر الذي أكد أن السكك الحديدية أصبحت تربط بإحكام بين الولايات الشمالية. في الوقت الذي قامت فيه الجماهير الحزينة بالاصطفاف على جانبي السكة الحديد، كما حمل موكب مهيب جثمان الرئيس ليسجي في مدن الولايات الرئيسية حتى يستطيع المعزون إبداء احترامهم وتبجيلهم؛ إذ تم تقدير حوالي 300,000 شخص مروا بالتابوت في فلاديليفيا، و500,000 في نيويورك، بينما كانوا 200,000 في شيكاغو. وفى الرابع من مايو/ آيار لعام 1865، تم دفن لينكولن في سبرنج فيلد.

الحرب والعالم

فى عام 1877، وفور تقاعده من مهام الرئاسة، شرع يوليسس إس جرانت مع زوجته في رحلة حول العالم استغرقت عامين. وفى كل موقع وطأته قدمه كانت تقدم له التحية كبطل العصر. ماذا كانت تمثل أمريكا للعالم أثناء فترة الآثار الكارثية للحرب الأهلية؟ وفى إنجلترا، قام ابن الدوق ويلنجتون بتقديم التحية لجرانت كنابغة عسكرية، وعلى أنه المهندس الأول للانتصار في واحدة من أعظم الحروب في تاريخ البشرية، وكخلف صالح لوالده، الجنرال الذي تغلب على نابليون. وفى عرض عسكري بنيو كاسل هتف عمال إنجلترا له على أنه الرجل الذي حافظت براعته العسكرية على تجربة العالم الرائدة في حكومة ديموقراطية، وأيضًا "كبطل للحرية"، والذي أرسى رئيسه إبراهام لينكولن مبادئ العمالة الحرة عن طريق إعتاق عبيد أمريكا. وأما في برلين فقد رحب أوتو فون بسمارك (المستشار الألماني) بجرانت على أنه مشيد الأمة وبانيها، والذي نجح في تحقيق ما يشبه الوحدة الوطنية على أرض المعركة- وهو الشيء الذي حاول بسمارك تحقيقه بين شعبه. علق بسمارك قائلا: "وقد اضطررت لحماية الاتحاد، تمامًا كما اضطررنا نحن لحماية ألمانيا".

الحرب في التاريخ الأمريكي

أرست الحرب الأهلية إلى أساس أمريكا الجديدة وكفلت دوام الاتحاد، وتدمير العبودية، ونقل السلطة في البلاد من الجنوب إلى الشمال (وعلى وجه الخصوص من أصحاب المزارع مالكي العبيد إلى الرأسماليين الشماليين). كما أدت أيضًا إلى ازدياد نفوذ الحكومة الفيدرالية، وسارعت بتحديث الاقتصاد الشمالي؛ كما وضعت على أجندة ما بعد الحرب التحدي الخاص بتحديد وحماية حرية الأمريكان الأفارقة.

وتكمن المفارقة هنا في أن كلا الجانبين فقدا شيئًا كانا قد ذهبا للحرب من أجل الدفاع عنه. فقد كانت العبودية هي حجر الزاوية بالنسبة للكونفدرالية، إلا أن الحرب أدت وبشكل عكسي إلى تدمير العبودية. وفى الشمال، عملت الحرب على الإسراع من انتقال أمريكا لينكولن من عالم العمالة الحرة، من المحل الصغير والفلاح المستقل لتتحول إلى عملاق اقتصادي. وفى كلمات للمطالبة بإلغاء العبودية، قال فيها "ويندل فيليبس": "لن يرى الأمريكان أبدًا مرة ثانية ... أمريكا على الصورة التي كنا نراها عليها حينما ولدنا".

وفى نهاية شهر مايو/آيار 1865، وبعد مضى أكثر من شهر على وفاة لينكولن، قام نحو 200,000 من المحاربين القدامى بعرض عسكري في شوارع واشنطن العاصمة أثناء استعراض جرانت لجيوش الاتحاد، وكان أخر احتفال بانتصار الأمة. ألهم هذا المشهد الشاعر "بيرت هارتي" ليتخيل استعراضًا عسكريًا من نوع آخر مختلف تمامًا - "جيش الأشباح" من موتى الاتحاد:

الأبطال الشهداء في مالفيرن هيل،
من جيتسبرج وتشانسيلوزفيل،
الرجال الذين ملأت أجسادهم المفقودة
المقابر الوطنية للأمة ....
ويسيرون في مواكب إلى جوار الآخرين،
أتى الشهداء المعفَّرون من قتال بيلو.

وبالنسبة لهارتي، يكمن معنى الحرب في النهاية في تضحيات الجنود الأفراد. لقد ذكر ضمن مقطوعته الخيالية القوات السوداء، بما فيها أولئك الذين تعرضوا لمذبحة فورت بيلو؛ وفيما يبدو من قول هارتي أن السود تمكنوا من تحقيق المساواة في الموت. فهل بإمكان الأمة أن تمنحهم نفس الحق في الحياة؟

وهنا كانت المشكلة التي واجهت الولايات المتحدة في فترة ما بعد الحرب والتي عرفت بإعادة الإعمار قد بدأت؛ وكما أوضح فريدريك دوجلاس حيث قال، "ومما لا ريب فيه، أن العمل لن ينتهى بإلغاء العبودية، بل فقط سيبدأ".

أصوات الحرية

من خطبة لألكسندر إتش ستيفنس
نائب رئيس الكونفدرالية (21 مارس/ آذار 1861)

عارض الكسيندر اتش ستيفنس وهو من قادة الهويج في جورجيا الانفصال، حتى أجرت ولايته للتصويت على ترك الاتحاد. وبعد ذلك قبل بمنصب نائب رئيس الكونفدرالية، وفى كلمة ألقاها بولاية سافانا في (مارس/ آذار) من العام 1861 أوضح الأفكار الأساسية للحكومة الجديدة .

لقد وضع دستور (الكونفدرالية) أجوبة أبدية لكل الأسئلة الملحة التي تتعلق بعاداتنا الخاصة - العبودية الإفريقية إذ أنها ما تزال موجودة بيننا - الوضع المناسب - الملائمة للزنوج في حضارتنا. كان هذا سببًا مباشرًا للتمزق الذي حدث مؤخرًا وللثورة الحالية ... إن الأفكار السائدة والتي تبناها (جيفرسون) ومعظم قيادات الولاية في وقت وضع الدستور القديم، والتي كانت تقول بأن استبعاد الأفارقة كان انتهاكًا لقوانين الطبيعة، كان ذلك خطأ في المبادئ، وخطأ اجتماعيًا، وأخلاقيًا، وسياسيا ...

ومع ذلك، فإن هذه الأفكار خاطئة تماما، فهي تقوم على افتراض المساواة بين الأجناس. كان هذا خطئًا ...إن حكومتنا الجديدة تأسست على النقيض تماما من هذه الأفكار، إذ يستند تكوينها، وحجر الزاوية لها على الحقيقة العظيمة التي تقول بأن الزنجي لا يتساوى بالرجل الأبيض؛ وأن العبودية، والخضوع للجنس الأسمى، هو الوضع الطبيعي والأخلاقي له. إن حكومتنا الجديدة، هي الأولى في تاريخ العالم، التي تتبنى هذه الحقيقة المادية، والفلسفية، والأخلاقية العظيمة ...

هذه هي أول حكومة تأسست على مبادئ أخلاقية تتفق بشكل صارم مع الطبيعة بشكل دقيق، والعناية الإلهية في تأسيس المجتمع الإنساني. لقد تأسست العديد من الحكومات وفقًا لمبادئ طبقات معينة؛ لكن الطبقات التي تستعبد، كانت من نفس الجنس، وفى انتهاك لقوانين الطبيعة. إن نظامنا لا يرتكب مثل هذه الانتهاكات لقوانين الطبيعة. إن الزنجي بالطبيعة، أو عن طريق اللعنة التي حلت بأرض كنعان، قد تم تأهيله لمثل تلك الحالة التي هو عليها في نظامنا. إن قوام أو أساس مجتمعنا قد صنع من المواد التي منحته الطبيعة إياها، ومن خبراتنا نعلم أن هذا هو الأفضل، ليس فقط بالنسبة للجنس الأعلى بل للجنس الأدنى أيضا. هذا ما ينبغي أن يكون.

من إبراهام لينكولن

خطبة في سانيتارى فير، بالتيمور (18 إبريل/نيسان ، 1864)

خطبة لإبراهام لينكولن بسانيتارى فير (سوق خيرية كبيرة لجمع المال من أجل الاعتناء بجنود الاتحاد) حيث قدم توضيحا هامًّا للمعنى المتنازع عليه للحرية خلال الحرب الأهلية.

لم يعرف العالم أبدًا تعريفًا جيدًا لكلمة حرية، والشعب الأمريكي، والآن فقط، أصبحت لديه الرغبة في إيجاد تعريف لها. جميعنا ينادى بالحرية، لكن عند استخدامنا لنفس هذه الكلمة، فإننا لا نقصد نفس المعنى. فبالنسبة للبعض، كلمة حرية ربما يكون معناها أن يتصرف كل إنسان بالطريقة التي تحلو له وترضى نفسه، وأن يستمتع بثمار عمله، بينما نفس الكلمة معناها بالنسبة لأناس آخرين. وهنا نجد تعريفين، ليس فقط مختلفين، بل متناقضين وغير متناسبين، وكلاهما يطلق عليه نفس الاسم - حرية . ويتبع ذلك أن كلا التعريفين من وجهة نظر كل فريق، يسميان باسمين مختلفين بل ومتنافرين - الحرية والاستبداد.

حينما يقوم راعى الغنم بإخراج الخروف من حلق الذئب، على هذا العمل سيقوم الخروف بتقديم الشكر للراعي على أنه محرر له، بينما سيندد الذئب بالفعل نفسه لأنه دمر الحرية، وخاصة إذ كان الخروف أسود اللون. من الواضح أن كلاً من الخروف والذئب لن يتفقا على تعريف معنى كلمة الحرية؛ وبالضبط يسود مثل هذا الاختلاف اليوم بيننا نحن المخلوقات البشرية، وحتى في الشمال، والكل يدَّعى أنه يحب الحرية. ومن ثم فإننا نشاهد عملية يتخلص الآلاف بموجبها من نير العبودية، ويثني عليها البعض باعتبارها تقدمًا للحرية، بينما يندبها البعض باعتبارها تدمير للحرية؛ وحديثًا كما يبدو، يقوم أهالي مارى لاند يعمل شيء ما من أجل تعريف الحرية (إلغاء العبودية من الولاية)؛ وبفضلهم، وما قاموا به، فإن قاموس الذئب، قد تم رفضه واستنكاره.

أسئلة:

1- لماذا يزعم ستيفنس أن العبودية في الجنوب مختلفة عن العبودية التي كانت موجودة في المجتمعات السابقة؟

2- لماذا عرف لينكولن الاختلاف الجوهري بين مفهوم الحرية بالنسبة للشمال ومفهومها بالنسبة للجنوب؟

3- كيف اختلف كل من لينكولن وستيفنس في تعريفهما للحرية وما إذا كان ينطبق على الأمريكان الأفارقة؟

أسئلة المراجعة:

1- ما الذي جعل الحرب الأهلية الأمريكية الحرب الحديثة الأولى؟

2- اشرح كيف فاز الشمال بالحرب آخذا في الاعتبار موارده المادية، والاستراتيجية العسكرية، والقيادة السياسية والعسكرية الفعالة.

3- صف كيف تطورت أهداف الرئيس لينكولن من الحرب في الفترة ما بين 1861 و 1863، وكيف تحولت من الحفاظ على الاتحاد ببساطة وحتى إنهاء العبودية في النهاية.

4- كيف تضافر إعلان التحرر، والنجاحات العسكرية للشمال، والأعمال التي قام بها العبيد أنفسهم للوصول في النهاية إلى القضاء على العبودية؟

5- ما الدور الذي لعبه العبيد في كسب الحرب الأهلية، وفى توجيه نتائج الحرب؟

6- ما هي السياسات الرئيسية التي أصدرها الكونجرس في زمن الحرب والتي حولت اقتصاد الأمة ونظامها المالي؟

7- كيف كانت الحرب الأهلية الأمريكية جزءا من توجه عالمي نحو حروب أكثر دمارًا وفتكا؟

8- قارن نهاية العبودية في الولايات بالتحرر في أماكن أخرى من العالم.

9- بأي طريقة غيرت نتائج الحرب الأهلية حالة الولايات المتحدة في العالم؟

أسئلة الحرية:

1- كيف عبر خطاب لينكولن في بيتسبرج عن الارتباط بين الحرية، والتحرر، والأمة؟

2- وضح كيف استطاع كل من جنود الشمال والجنوب الزعم بأنهم كانوا يحاربون من أجل "الحرية" و"التحرر".

3- صف كيف غيرت الحرب الأهلية المفهوم الوطني للحرية وربطتها ببناء الأمة.

جدول المراجعة		
تجربة إعادة الإعمار		
الحدث	التفاصيل	النتائج
تجربة جزيرة البحر 1861-1865	الاتحاد يأخذ الجزر والشماليون يطبقون أفكارهم في التعليم وتوظيف السود.	عائلات السود تعمل من أجل الأجور، وتلتحق بالتعليم، وتستمتع بطعام ومأوى أيضا أفضل مما كانوا يعيشونه في ظل العبودية.
"جنة الزنوج"	الجنرال جرانت يسيطر على مزارع القطن لجيفرسون ديفيز وأخيه.	جرانت يقسم الأرض بين العبيد المحررين بدلا من جعلهم يعملون عند ملاك بيض.
خطة العشرة بالمائة	خطة لينكولن الحانية تجاه الجنوب، والتي لم تقدم أي دور للسود.	رفضت من قبل السود الجنوبيين والجمهوريين الراديكاليين في الكونجرس.
قانون وايد- ديفيز	خطة إعادة إعمار أكثر إحكامًا تضمن للسود المساواة أمام القانون.	حق الاعتراض من قبل لينكولن.

الفصل الخامس عشر

1865	ميداني خاص: اغتيال "لينكولن" و"أندرو جونسون" يصبح رئيسًا
1865 - 1867	إعادة الإعمار الرئاسي
1865	إنشاء مكتب المتحررين
1866	مشروع قانون الحقوق المدنية
	تأسيس عصابة "كو كلوكس كلان"
1867	قانون إعادة الإعمار
	قانون تولي الرئاسة
1867 - 1877	إعادة الإعمار الراديكالي
1868	اتهام ومحاكمة الرئيس "جونسون" أمام محكمة مختصة أمام الكونجرس
	التصديق على التعديل الرابع عشر للدستور
1869	انقسام المنظمة النسائية إلى مجموعتين
	تنصيب "يوليس إس جرانت" رئيسًا للبلاد
1870	"حيرام ريفيل" أول عضو أسود بمجلس الشيوخ
1870	التصديق على التعديل الخامس عشر للدستور
1872	تأسيس "الليبراليون الجمهوريون"
1873	بداية كساد الاقتصاد الوطني
	قضايا المذبح
1875	قانون الحقوق المدنية لعام 1875
1876	قضية الولايات المتحدة ضد "كروكشانك"
1877	صفقة عام 1877
1877	تنصيب "روثرفورد ب. هايز" رئيسا

ما هي الحرية؟: إعادة الإعمار ، 1865-1877

أسئلة تركيز:

- ما هي رؤى الحرية التي تبناها العبيد السابقون ومالكو العبيد في الجنوب بعد الحرب؟
- ما هي مصادر وأهداف ورؤى إعادة التعمير المتصارعة؟
- ما هي الآثار الاجتماعية والسياسية لإعادة الإعمار الراديكالي في الجنوب؟
- ما هي العوامل الرئيسية التي أدت إلى التخلي عن إعادة الإعمار في كل من الشمال والجنوب؟

اجتمع عشرون من قادة مجتمع السود بالمدينة في مساء يوم 12 يناير (كانون الثاني) عام 1865، بعد أقل من شهر من استيلاء قوات الاتحاد على "سافانا" بولاية "جورجيا"، للتباحث مع الجنرال "وليم ت. شيرمان" ووزير الحربية "ادوين م. ستانتون"، ومعظم تلك المجموعة من قساوسة الكنيسة المعمدانية والكنيسة الميثودية؛ وقد تولى عدة رجال منهم خلال بضع سنوات مناصب بارزة في عصر إعادة الإعمار الذي تلى الحرب الأهلية، فعلى سبيل المثال، "يوليسيس هيوستن" راعي الكنيسة المعمدانيةالإفريقية الثالثة في المدينة و"جيمس بورتر" الزعيم الديني الأسقفي الذي أدار مدرسة سرية للأطفال السود قبل الحرب، وهما اللذان فازا في غضون سنوات قليلة في الانتخابات التشريعية في "جورجيا"؛ وكذلك "جيمس د. لينش" الذي كان قد وُلِدَ حرًا في "بالتيمور" وتلقى تعليمه في "نيو هامبشاير" واستمر في التقدم حتى أصبح وزيرًا للدولة عن ولاية "مسيسيبي".

كشف ذلك الاجتماع عن أن الزعماء السود الذين خرجوا من العبودية بتعريف واضح للحرية، وقد تجلى ذلك واضحًا من إجابة "جاريسون فرايزر" القسيس المعمداني الذي اختارته تلك الجماعة للتحدث باسمهم، عندما سُئِلَ عن فهمه للعبودية حيث قال إنها تعني "أن يتلقى شخص واحد من قبل سلطة لا يستطيع مقاومتها عمل رجل آخر دون موافقته"؛ وعَرَّفَ الحرية بأنها "وضعنا في الموضع الذي يمكننا به أن نجني ثمرة عملنا وأن نقوم برعاية أنفسنا" وكانت وسيلة تحقيق ذلك هو "امتلاك الأرض وتقليبها وحرثها بأيدينا"، وأصر "فرايزر" على أن السود يمتلكون "الذكاء الكافي" للحفاظ على أنفسهم في ظل الحرية والتمتع بالمساواة في الحماية بالقوانين.

بَشَّرَ اجتماع "شيرمان" مع القادة السود ببعض التغييرات الجذرية التي من شأنها أن تحدث خلال الحقبة المعروفة باسم "إعادة الإعمار" (تعني حرفيًا إعادة بناء الأمة الممزقة)، حيث شهدت السنوات التي أعقبت الحرب الأهلية سعى العبيد السابقين وحلفائهم البيض في الشمال والجنوب لإعادة تعريف معنى وحدود الحرية الأمريكية، فبعد أن كانت الحرية سابقًا استحقاقًا مقصورًا على البيض فقط، ستتسع لتشمل الأمريكيين السود وسيتم إعادة كتابة القوانين والدستور لضمان الاعتراف لأول مرة في تاريخ البلاد بالأمريكيين من أصل إفريقي كمواطنين، والمساواة بينهم أمام القانون وسيتم منح الرجال السود حق التصويت والإعلان عن بداية فترة من الديمقراطية بين الأعراق في جميع أنحاء الجنوب؛ حيث تزدهر مدارس وكنائس السود وغيرهم من المؤسسات الأخرى ويتم وضع الأساس لمجتمع حديث للأمريكيين الأفارقة، وقد ثبت أن كثيرًا من أوجه التقدم إبان إعادة الاعمار مؤقت، ويتم اكتساحه خلال حملة العنف في الجنوب، بالإضافة إلى تراجع الشمال عن مبدأ المساواة، ولكن إعادة الإعمار وضعت حجر الأساس للنضال في المستقبل من أجل توسيع نطاق الحرية لجميع الأمريكيين.

حدد هذا الاجتماع شكل المستقبل، ففي يناير (كانون الثاني) عام 1865، وبعد أربعة أيام من الاجتماعات رد "شيرمان" على وفد السود بإصدار أمر التعديل الخامس عشر الذي خصص جزر البحر ومساحة واسعة على طول سواحل "ساوث كارولينا" و"جورجيا" لاستيطان عائلات السود على قطع مساحتها أربعين فدان، وقدم لهم أيضًا البغال التي استغنى عنها الجيش، ويرجع إلى شيرمان أصل العبارة الشهيرة "أربعون فدانًا وبغل" التي سيتردد صداها في جميع أنحاء الجنوب في السنوات القليلة المقبلة، وبحلول يونيو (حزيران) من نفس العام، كان قد تم توطين حوالي 40.000 من العبيد المحررين على "أرض شيرمان"؛ وقد بعث أمر "شيرمان" الآمال بين العبيد المحررين بأن استقلالهم الاقتصادي الذي كانوا يعتقدون كغيرهم من الأمريكيين أنه ضروري للحرية الحقيقية سيرافق نهاية العبودية.

معنى الحرية

أعلن عضو الكونجرس عن "إلينوي" في عام 1865 بعد نهاية الحرب الأهلية أن الولايات المتحدة "أمة جديدة" ولأول مرة "حرة تمامًا" ومع ذلك فإن القضاء على العبودية جعل تعريف الحرية هو القضية المركزية على جدول أعمال البلاد، وتساءل عضو الكونجرس "جيمس أ. جارفيلد" في عام 1865 "ما هي الحرية؟ هل هي مجرد الامتياز بأن الإنسان غير مقيد بالسلاسل؟ إذا كان هذا هو كل شيء فإن الحرية هي مهزلة مُرَّة ووهم قاسي"، هل الحرية تعني ببساطة غياب العبودية أم أنها تنطوي على حقوق أخرى للعبيد المحررين؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هي تلك الحقوق، حقوق مدنية متساوية، حق التصويت، حق الملكية العقارية؟ أصبحت الحرية خلال إعادة الإعمار مجالاً لصراع وجوهرها مفتوح لمختلف التفسيرات المتناقضة في كثير من الأحيان، ونشأت نتيجة لهذا النزاع حول معنى الحرية أنواع جديدة من العلاقات بين الجنوبيين السود والبيض وبرز تعريف جديد لحقوق جميع الأمريكيين.

السود ومعنى الحرية

تَشَكَّلَ فهم الأمريكيين الأفارقة للحرية من خلال تجاربهم كعبيد ومراقبتهم للمجتمع الحر من حولهم، فالحرية من البداية تعني التخلص من كثير من مظالم العبودية - العقاب بالسوط وفصل العائلات نتيجة بيعهم لأسياد مختلفين والحرمان من فرص التعليم، والاستغلال الجنسي للنساء السود من قبل أسيادهن - وتقاسم في الحقوق والفرص المتاحة للمواطنين الأمريكيين، كما قال العبد المحرر "هنري آدمز" لسيده السابق في لويزيانا عام 1865 "إذا كنت لا أستطيع أن أفعل كل ما يفعله الرجل الأبيض فأنا لست حرا".

وقد استطاب السود بالفرصة لإظهار تحررهم من القواعد الكبيرة والبسيطة المرتبطة بالعبودية، فعقدوا علنًا الاجتماعات الجماهيرية والطقوس الدينية الخالية من إشراف البيض، واشتروا الكلاب والبنادق والخمور بعد أن كانت هذه البنود محظورة عليهم في ظل العبودية، ولم يعد هناك حاجة للحصول على إذن من أسيادهم للسفر، وترك العبيد المحررون في جميع أرجاء الجنوب المزارع وسافروا بحثًا عن فرص عمل أفضل أو بحثًا عن أفراد الأسرة أو حتى لمجرد تذوق طعم الحرية الشخصية، وانتقل العديد منهم إلى البلدات والمدن الجنوبية حيث كانت الحرية على ما يبدو أكثر تحررا.

العائلات في ظل الحرية

مع انتهاء العبودية تعززت وتوسعت وتحررت من إشراف البيض المؤسسات التي كانت قائمة قبل الحرب، مثل العائلة السوداء، والسود الأحرار، والكنائس، والمدارس، وكنيسة العبيد السرية؛ واحتلت العائلة مركزًا محوريًا في مجتمع السود بعد التحرر حيث قام العبيد المحررون بجهود كبيرة للعثور على أحبائهم الذين كانوا قد انفصلوا عنهم في ظل العبودية؛ فعلى سبيل المثال، قابل أحد المراسلين من الشمال في عام 1865 أحد المحررين الذي سار أكثر من 600 ميل من ولاية "جورجيا" إلى ولاية "نورث كارولينا" للبحث عن الزوجة والأطفال الذي انفصل عنهم عندما تم بيعه بعيدًا قبل الحرب؛ وفي الوقت نفسه طالبت أرامل الجنود السود بصرف معاشات لهم بصفتهم الأعضاء الأحياء من أسرة الجنود القتلى، مما اضطر الحكومة الاتحادية للاعتراف بصحة العلاقات التي كانت قائمة بين السود قبل الحرب بعد أن حاولت العبودية إنكارها.

لكن في حين شهدت إعادة الإعمار تحقيق الاستقرار في الحياة الأسرية، فقد غيرت الحرية بمهارة العلاقات داخل الأسرة، حيث زاد التحرر من قوة الرجال السود وأدخل على حياة الكثير من العائلات السوداء مفهوم القرن التاسع عشر، بأنه يجب على الرجال والنساء تبني "مجالات" منفصلة في الحياة، ففور انتهاء الحرب الأهلية، شكى المزارعون من أن النساء المحررات قد "انسحبن" من العمل في الحقول ويعملن كَرَبّات للبيوت حيث يفضل العديد من النساء السود تكريس وقت أكثر لعائلتهن مما كان ممكنًا في ظِل العبودية؛ واعتبر الرجال رؤية زوجاتهم يمكثن في المنزل وسام شرف، إلا أن الفقر المدقع في مجتمع السود أجبر نسبة من النساء السود، أعلى بكثير من النساء البيض، أن يذهبن في نهاية المطاف إلى العمل بمقابل أجر.

الكنيسة والمدرسة

تخلى السود في نفس الوقت عن المؤسسات الدينية التي كان يسيطر عليها البيض وشرعوا في إنشاء كنائس خاصة بهم، فعلى سبيل المثال، كان عدد السود الميثوديون الذين يتعبدون في

كنائس ولاية "ساوث كارولينا" ثنائية العرق في عشية الحرب الأهلية 42.000 ألف شخص، بينما لم يتبق منهم بحلول نهاية إعادة الإعمار سوى 600 فقط، وقد أعاد صعود الكنيسة الميثودية والكنيسة المعمدانية المستقلة للسود ذوات العدد الأكبر من الأتباع رسم الخريطة الدينية للجنوب؛ ولعبت الكنيسة باعتبارها المؤسسة الرئيسية المستقلة عن سيطرة البيض دورًا محوريًا في مجتمع السود كمكان للعبادة، وأيضًا ضمت مدارس ودورًا للتجمعات في المناسبات الاجتماعية والسياسية، ولعب القساوسة السود دورًا رئيسيًّا في السياسة، واحتل نحو 250 منهم مناصب عامة خلال فترة إعادة الإعمار.

ثمة مثال صارخ آخر على سعي المتحررين للتحسين الفردي والمجتمعي، وهو رغبتهم في التعليم، حيث أعلن أحد المتحررين في المسيسبي أن "التعليم هو أفضل شيء بعد الحرية"، وقد نبع التعطش للتعلم من العديد من المصادر - منها الرغبة في قراءة الكتاب المقدس والحاجة للاستعداد للسوق الاقتصادية والفرصة التي نشأت في عام 1867 للمشاركة في الحياة السياسية، ولذلك توافد السود من جميع الأعمار إلى المدارس التي أنشأتها الجمعيات التبشيرية الشمالية، ومكتب المتحررين، ومجموعات من العبيد السابقين أنفسهم؛ وقد أثار قدر الاهتمام بالتعليم حتى خارج الفصول الدراسية إعجاب الصحفي الشمالي "سيدني أندروز" الذي قام بجولة في الجنوب في عام 1865، وعلق قائلا "أتيحت لي الفرصة كثيرًا لرؤية الحمالين الذين يعملون في المتاجر والعاملين في المخازن، وسائقي عربة اليد في الشوارع ومعهم كتب تعلم التهجي يتدارسونها خلال وقت الراحة والفراغ من عملهم"؛ وقد شهدت فترة إعادة الإعمار أيضًا إنشاء أول الكليات للسود في البلاد بما في ذلك جامعة "فيسك" في ولاية "تنيسي"، ومعهد "هامبتون" في "فرجينيا" وجامعة هوارد في عاصمة البلاد.

الحرية السياسية

نظرًا لأن المجتمع جعل المشاركة السياسية عنصرًا أساسيًّا للحرية، لذلك أصبح حق التصويت حتمًا ذا أهمية مركزية لإشباع رغبة العبيد السابقين في التمكين والمساواة، وهي الرغبة التي سرعان ما عَبَّرَ عنها "فريدريك دوجلاس" بعد استسلام الجنوب في عام 1865 "لم تلغ العبودية حتى يكون للرجل الأسود حق الاقتراع"، وشرح ذلك قائلا إنه "ليس هناك وصمة عار يوصم بها أولئك المحرومين من حق التصويت في الحكومات الملكية، ولكن في ظل الديمقراطية حيث الاقتراع العام هو القاعدة فإن استثناء أي فئة من الشعب يعني وصمهم بوصمة الدونية"؛ وبمجرد انتهاء الحرب الأهلية، وحتى قبل ذلك في بعض المناطق في الجنوب طالب السود الأحرار والعبيد المحررين لأنفسهم بمكان في المجال العام، واجتمعوا معًا في مؤتمرات ومسيرات وقدموا الالتماسات للمطالبة بحق التصويت، وفي بعض الأحيان بالحق في تنظيم "اقتراع الحرية" الخاص بهم.

أصر المتحدثون السود على أن أي شيء أقل من المواطنة الكاملة هو خيانة لوعد الأمة بالديمقراطية ومعنى الحرب، وقام هؤلاء المتحدثون في اجتماعات السود بتذكير الأمة بهجوم "كريسبوس اتوكس" الذي سقط قتيلا في مذبحة بوسطن ومساهمة الجنود السود في حرب عام 1812، وأثناء "النضال الدموي الذي مررنا به توا"، وللتدليل على وطنيتهم نظَّم السود في جميع أنحاء الجنوب احتفالات عيد الاستقلال في الرابع من يوليو (تموز) بعدما كانوا يغلقون الأبواب على أنفسهم لسنوات بعد الحرب الأهلية؛ بينما يحتفل الجنوبيون البيض بيوم الاستقلال كما سجلت البيضاء "تشارلستون" في مذكراتها "يحتفل العبيد السابقون بالعطلة بأنفسهم".

الأرض، والعمل، والحرية

مثل سكان الريف في جميع أنحاء العالم، كانت أفكار العبيد السابقين عن الحرية مرتبطة مباشرة بملكية الأرض، حيث كتب عبد متحرر من ولاية مسيسيبي "ميرومون هوارد"، قائلا إن الأرض فقط هي التي من شأنها أن تحول "الطبقة الفقيرة حق التمتع بنعمة الحرية"، فعلى الأرض يستطيعون تطوير مجتمعات مستقلة خالية من سيطرة البيض؛ وأصر العديد من العبيد السابقين على أحقيتهم في الأرض مقابل عملهم غير مدفوع الأجر قبل الحصول على الحرية، وقد أعلن اجتماع للسود في ألاباما أن "الممتلكات التي يحتفظ بها السود إنما استحقوها بعرق جبينهم"، واستولى السود في عام 1865 على ملكية بعض الأجزاء من الجنوب مصرين على أنها ملك لهم، وادعى العبيد السابقون في أحد المزارع تنيسي أنهم "ورثة شركاء" للأرض حتى أن مالك الأرض قد اشتكى بأن هؤلاء السود "أقاموا في غرف منزلي".

يشبه تعريف العبيد السابقين للحرية في عناصره الفردية والكثير من لغته تعريف الأمريكيين البيض لها - وهو التعريف الذي يتلخص في ملكية الذات، واستقرار الأسرة، والحرية الدينية، والمشاركة السياسية والاستقلال الاقتصادي - ولكن هذه العناصر مجتمعة تشكل رؤية خاصة بهم، أي السود، إلى حد كبير، حيث إن الحرية بالنسبة للبيض مع اختلاف تعريفها حق مكتسب بالمولد ويتم الدفاع عنه على هذا الأساس، أما بالنسبة للأمريكيين من أصل إفريقي فإن الحرية عملية مفتوحة، عملية تحول في كل جوانب حياتهم وفي المجتمع والثقافة، وهو ما استندت إليه العبودية في المقام الأول، وبالرغم من أن المحررين فشلوا في تحقيق الحرية الكاملة كما فهموها إلا أن تعريفهم للحرية ساهم كثيرًا في تشكيل الحوار الوطني خلال حقبة إعادة الإعمار المضطربة.

سادة بدون عبيد

تمثل رد فعل معظم الجنوبيين البيض على الهزيمة العسكرية والتحرر في الفزع، ليس فقط بسبب الدمار واسع النطاق ولكن أيضًا لأنه كان يتعين عليهم عندئذ الإذعان لمطالب الشماليين،

وقد كتبت فتاة من جورجيا قائلة "معنوياتنا منخفضة بالكامل، ليس هناك شك في أننا انكسرنا"، فالخسارة المروعة في الأرواح كانت كارثة لم يسبق لها مثيل في التجربة الأمريكية، وقد أثرت على جميع الطبقات من الجنوبيين حيث توفي ما يقرب من 260.000 من الرجال من أجل الكونفدرالية، بما يعادل أكثر من خمس السكان البيض الذكور البالغين في الجنوب، بالإضافة إلى التدمير واسع النطاق لحيوانات العمل، ومباني المزارع، والآلات والمعدات مما أكد أن الانتعاش الاقتصادي سيكون بطيئًا ومؤلما، وليس أدل على ذلك أن قيمة الممتلكات في الجنوب في عام 1870، باستثناء تلك المتمثلة في العبيد، كانت أقل بنسبة 30٪ مما كانت عليه قبل الحرب.

وقد واجهت عائلات المزارعين تغيرات عميقة في أعقاب الحرب، حيث لم تقتصر خسارتها في فقدان عبيدها ولكنها فقدت أيضًا مدخرات حياتها التي كانت قد استثمرتها بدافع وطنيّ في السندات الكونفدرالية التي لم تعد لها قيمة الآن، ووجد بعضهم أنفسهم مضطرين لأول مرة للقيام بالعمل البدني، بعد أن غادر العبيد المزرعة، فعلى سبيل المثال، عاد الجنرال "براكستون براج" إلى منزله الذي كان "مزدهرًا ذات يوم" في ألاباما ليجد "كل شيء، كل شيء قد ضاع إلا ديوني" واضطر "براج" وزوجته "التي نشأت في بحبوحة من العيش" للعيش في كوخ للعبيد لفترة من الوقت.

سعى المزارعون الجنوبيون إلى صياغة وتطبيق فهم للحرية يختلف تمامًا عن فَهْم العبيد السابقين لها، فبينما كانوا يكافحون لقبول حقيقة التحرر، عَرَّف معظمهم حرية السود في أضيق الحدود، وكما اكتشف الصحفي "سيدني أندروز" في أواخر من عام 1865 قائلا "يبدو أن البيض غير قادرين كليًّا على فَهْم أن الحرية للزنجي تعني نفس الشيء الذي تعنيه الحرية لهم، فهم على استعداد بدرجة كافية أن يعترفوا أن الحكومة أطلقت سراحه، ولكن يبدو أنهم يعتقدون أن لديهم نفس الحق القديم في التحكم فيه بنفس الطريقة القديمة"؛ وقد سعى زعماء الجنوب إلى إحياء تعريف الحرية الذي كان متعارف عليه فيما قبل الحرب وكأن شيئا لم يتغير، حيث لا تزال الحرية تعني التسلسل الهرمي والسيادة، امتيازا وليست حقا، وضع قانوني معرف بعناية وليست استحقاقًا مفتوحا، إنها لا تنطوي بالتأكيد على الاستقلال الاقتصادي ولا المساواة المدنية والسياسية كما علّق المزارع المسيسيبي "صموئيل اجنيو" في مذكراته في عام 1865، "فالرجل قد يكون حرا ولكنه ليس مستقلا اقتصادياً"، وقد لخصت صحيفة تصدر من "كنتاكي" موقف الكثير من البيض الجنوبيين: العبد السابق كان "حرا، ولكنه حر فقط في العمل".

رؤية العمل الحر

حاول الجمهوريون الشماليون المنتصرون، بالإضافة إلى العبيد السابقين وأسيادهم السابقين، تنفيذ رؤيتهم للحرية التي يتمحور تعريفها في مبدأ العمل الحر الذي كان معروفًا فيما قبل

الحرب، وقد تعزز الآن كتعريف للمجتمع الجيد من خلال انتصار الاتحاد؛ ويرون أنه في ظل رؤية العمل الحر للجنوب الذي أعيد إعماره فإن تمتع السود المتحررين بنفس فرص التقدم كعمال شماليين سيجعل العمل أكثر إنتاجية عما كان الحال سابقا، عندما كانوا عبيدا، وفي نفس الوقت فإن عاصمة الشمال والمهاجرين سينشطون الاقتصاد، والجنوب سيشبه في نهاية المطاف "المجتمع الحر" في الشمال بالكامل بما في ذلك المدارس العامة والمدن الصغيرة والمزارعين المستقلين، موحدين على أساس حرية العمل، كما أعلن كارل ستشورز" وهو لاجئ من الثورة الألمانية الفاشلة لعام 1848 ارتفع في المناصب حتى أصبح زعيمًا للحزب الجمهوري" قائلا بأن أمريكا "ستصبح جمهورية أكبر وأكثر سكانًا وأكثر حرية وأكثر ازدهارا وأكثر قوة" من أي جمهورية أخرى في التاريخ.

بينما كان يسعى المزارعون إلى إقامة نظام للعمل أقرب ما يكون إلى العبودية ويسعى العبيد السابقون للمطالبة بالاستقلال الاقتصادي والحصول على الأرض، نشب صراع لفترة طويلة على تنظيم ومراقبة العمل في المزارع في جميع أنحاء الجنوب، وتم إسناد مهمة محاولة إنشاء نظام مقبول للعمل الحر إلى وكالة أنشأها الكونجرس في مارس/ آذار 1865 تحت اسم "مكتب المتحررين".

مكتب عمل المتحررين

تولى المكتب بقيادة "و.و. هوارد"، وهو خريج كلية "بودوين" في ولاية "مين" ومن قدامى الحرب الأهلية، مسئوليات لا يمكن وصفها إلا بأنها شاقة، وكان المكتب تجربة في السياسة الاجتماعية للحكومة التي يبدو أنها تنتمي إلى "الصفقة الجديدة" أثناء فترة الثلاثينيات من القرن العشرين أو "المجتمع العظيم" خلال فترة الستينيات من القرن العشرين (انظر الفصلين 21 و25، على التوالي) أكثر من انتمائها إلى أمريكا القرن التاسع عشر، وكان من المفترض أن يقوم وكلاء المكتب بإنشاء المدارس وتوفير المساعدات للفقراء والمسنين وتسوية الخلافات بين البيض والسود وبين المتحررين وضمان المساواة في المعاملة أمام المحاكم بين النقابيين من العبيد السابقين والنقابيين البيض، كما كتب الجنرال "وليم ت. شيرمان" إلى "هوارد" قائلا له "ليس في وسعكم تحقيق واحد على عشرة من توقعات أولئك الذين رسموا سياسة المكتب، إني أخشى أن تكون مهمتك مساوية لمهمة هِرَقْل".

استمر المكتب في العمل طوال الفترة ما بين عامي 1865-1870، وقد بلغ عدد الوكلاء في الجنوب بأكمله حتى في ذروة نشاطه أقل من 1.000، ومع ذلك كانت إنجازات المكتب في بعض المجالات ملفتة للنظر، ولاسيما في التعليم والرعاية الصحية، ولم يقم المكتب بإنشاء المدارس

بنفسه ولكنه قام بالتنسيق وساعد في تمويل أنشطة المجتمعات الشمالية الملتزمة بتعليم السود، وبحلول عام 1869 كان المكتب مسئول عما يقرب من 3.000 مدرسة تخدم أكثر من 150.000 تلميذ في الجنوب، وتولى وكلاء المكتب أيضًا السيطرة على المستشفيات التي أنشأها الجيش خلال الحرب، وكذلك قام المكتب بمد هذا النظام إلى المجتمعات الجديدة حيث وفر وكلاؤه الرعاية الطبية والأدوية لكل من السود والبيض الجنوبيين، إلا أنه ثبت أن أنشطة المكتب في مجال العلاقات الاقتصادية كانت أكثر تعقيدًا بكثير.

فشل الإصلاح الزراعي

كتب أحد وكلاء المكتب أن فكرة العمل الحر كانت "أنبل مبدأ على وجه الأرض" فكل ما هو مطلوب لتنسيق العلاقات العرقية في الجنوب هو الأجور العادلة، وظروف عمل جيدة، وفرصة لتحسين ظروف حياة العاملين، ولكن السود لم يكن يريدون مجرد وظائف في المزارع ولكنهم أرادوا أراضي خاصة بهم؛ وقد نص القانون الذي أنشأ المكتب على منحه سلطة تقسيم الأراضي المهجورة والمصادرة إلى قطع يبلغ كل منها أربعين فدانًا للإيجار، وفي نهاية المطاف للبيع للعبيد السابقين.

ومع ذلك، أصدر الرئيس "أندرو جونسون" الذي خَلَفَ الرئيس "لينكولن" أمرًا في صيف عام 1865 بإعادة جميع الأراضي تقريبًا في أيدي الاتحاد الفدرالي إلى الملاك السابقين، وتلى ذلك سلسلة من المواجهات ولاسيما في "ساوث كارولينا" و"جورجيا" حيث طرد الجيش قسرا السود الذين استقروا على "أرض شيرمان"، وعندما سافر "و.و. هوارد" رئيس مكتب المتحررين إلى جزر البحر لإبلاغ السود بالسياسة الجديدة لاقى استقبالا ينم عن عدم التصديق والاحتجاج، وقدمت لجنة من العبيد السابقين التماسات إلى "هوارد" وإلى الرئيس "جونسون" وأعلنوا "نريد الأرض والمساكن" لقد وعِدْنا بالمساكن والأرض من الحكومة" وأصروا على أنهم يريدون الأرض فهي أمرًا أساسيًا لمعنى الحرية، وبدونها "لم تتحسن أوضاعنا" من أيام العبودية "سوف ترون، ليست هذه هي حالة الرجال الأحرار حقا.

نظرًا لأنه لم يتم توزيع أي أراضي، ظلت الغالبية العظمى من المتحررين الريفيين فقيرة بدون أي ممتلكات خلال فترة إعادة الإعمار، ولم يكن أمامهم أي بديل سوى العمل في المزارع التي يملكها البيض وغالبًا لدى أسيادهم السابقين بعيدًا عن أن يستطيعوا الارتفاع في السلم الاجتماعي من خلال العمل الجاد، حيث كان الرجال السود محصورين إلى حد كبير في العمل الزراعي والعمالة غير الماهرة ووظائف الخدمة، بينما النساء السود محصورات في وظائف الخدمة في المنازل كطاهيات وخادمات، وظلت أجورهم منخفضة للغاية بحيث لا تسمح لهم بالادخار

والتراكم، ولكن مع مطلع القرن الجديد نجح عدد كبير من الأمريكيين من أصل إفريقي في الجنوب في الحصول على قطع صغيرة من الأرض، ولكن فشل الإصلاح الزراعي أثار شعورًا عميقًا بالخيانة استمر بين العبيد السابقين وذريتهم لفترة طويلة بعد نهاية إعادة الإعمار، وقد ذكرت إحدى المسنات من العبيد المتحررات في مذكراتها لفترة الثلاثينيات من القرن العشرين "لا يا سيدي، لم نُمنَح أي شيء سوى الحرية".

نحو جنوب جديد

أفرز الصراع على المزارع أنظمة جديدة للعمل في مناطق مختلفة من الجنوب، وهو "نظام المهمة" حيث كان يتم تعيين مهام يومية للعمال عليهم الانتهاء منها في نهاية اليوم واستمر هذا النظام في مملكة الأرز في "ساوث كارولينا" و"جورجيا"، بينما ساد "العمل المأجور الخاضع للإشراف" في مزارع قصب السكر في جنوب لويزيانا، في حين هيمن نظام "المزارعة" في حزام القطن وجزء كبير من حزام التبغ في "فيرجينيا" و"نورث كارولينا".

نشأ نظام "المزارعة" في البداية كحل وسط بين رغبة السود في الحصول على الأراضي، ومطالبة المزارعين أصحاب الأراضي بانضباط هؤلاء العاملين في العمل؛ وكان هذا النظام يسمح لكل عائلة سوداء استئجار جزء من المزارع مع تقسيم المحاصيل بين العامل وصاحب المزرعة في نهاية العام، مما يضمن للمزارعين قوى عاملة مقيمة مستقرة، وكان العبيد السابقون يفضلون هذا النظام على نظام "جماعة العمل" لأنه وفر لهم آفاق العمل بدون الإشراف اليومي من البيض، ولكن مع مرور الأعوام أصبح نظام المزارعة قمعي أكثر فأكثر، حيث كانت الفرص الاقتصادية للمزارعين المستأجرين بالمحاصصة محدودة للغاية بفعل سوق عالمية عانت فيها أسعار المنتجات الزراعية انخفاضًا لفترة طويلة.

المزارع الأبيض

لم تقتصر محنة صغار المزارعين في الجنوب على السود في فترة ما بعد الحرب، حيث أدى الدمار في زمن الحرب إلى سلسلة من الأحداث التي غيرت بشكل دائم الطريقة المستقلة في حياة الفلاحين البيض الذين يزرعون مزارعهم الصغيرة بأنفسهم؛ مما أدى إلى ما اعتبروه خسارة للحرية، فقبل الحرب كان معظم صغار المزارعين يركزون على زراعة غذاء أسرهم مع القليل من القطن، ولكن مع تدمير الكثير من ممتلكاتهم شهد العديد من صغار المزارعين تدهورًا في حقوقهم الاقتصادية بسبب تلف المحاصيل المتعاقب بعد الحرب، فللحصول على الإمدادات من التجار اضطر المزارعون إلى القيام بزراعة القطن والتعهد بجزء من المحاصيل كضمان (حيث يستطيع الدائنون الاستيلاء على الملكية إذا لم يتم دفع الديون)، وأصبح هذا النظام معروفًا باسم

"حق الحجز على المحاصيل"، وبما أن أسعار الفائدة مرتفعة للغاية وينخفض سعر القطن باطراد لذلك وجد العديد من المزارعين أنهم غارقين في الديون بعد تسويق حصتهم من المحصول في نهاية العام وبالتالي لم يكن لديهم خيار سوى مواصلة زراعة القطن للحصول على قروض جديدة، حتى أنه بحلول منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر كان المزارعون البيض الذين كانوا يزرعون 10 في المائة فقط من محصول القطن في الجنوب في عام 1860 أصبحوا يزرعون 40 في المائة والكثير من الذين كانوا يزرعون أرضهم سقطوا في التبعية باعتبارهم مزارعين بالمحاصصة يستأجرون الآن أرض يملكها آخرون.

وجد المزارعون السود والبيض على حد سواء أنفسهم محاصرين في نظام المزارعة ونظام "حق الحجز على المحاصيل" وكانت نسبة المزارعين السود الذين يستأجرون أراضي الجنوب ولا يملكونها بالمحاصصة أعلى بكثير من البيض، ولكن في كل تعداد تم خلال الفترة ما بين عامي 1880 و1940، كان عدد المزارعين المستأجرين البيض أكثر من السود، وتوضح قضية "مات براون" المزارع بولاية "مسيسبي" عمل كلا من نظامي المزارعة و نظام "حق الحجز على المحاصيل" فقد اقترض "براون" المال في كل عام من تاجر محلي وبدأ ذلك في عام 1892 بديون بلغت 226 دولار أمريكي مستحقة من العام السابق، وعلى الرغم من أنه أنتج قطن قيمته 171 دولار بحلول عام 1893 إلا أن ديونه ارتفعت إلى 402 دولارًا أمريكيًا لأنه قد اقترض 33 دولارًا أمريكيًا للغذاء و29 دولار للملابس و173 دولارًا للوازم الزراعة.و112 دولارًا لبنود أخرى، ولم ينجح أبدا في الخروج من الدين وتوفي في عام 1905 وكان البند الأخير في دفتر حساب التاجر هو الكفن.

الجنوب الحضري

على الرغم من الركود الاقتصادي في المناطق الريفية الجنوبية، إلا أن المدن الجنوبية شهدت نموًا ملحوظًا بعد الحرب الأهلية حيث اخترقت خطوط السكك الحديدية المناطق الداخلية من المدن؛ مما أمكن التجار في مراكز السوق مثل أتلانتا من التجارة مباشرة مع الشمال متجاوزة بذلك المدن الساحلية التي كانت تحتكر تقليديا التجارة الجنوبية، وجنت الطبقة الوسطى الحضرية الجديدة من التجار والمروجين لمشروعات السكك الحديدية والمصرفيون فوائد انتشار إنتاج القطن في الجنوب بعد الحرب.

وهكذا تسبب إعادة التعمير في إحداث تغيرات عميقة في حياة الجنوبيين البيض والسود، الأغنياء منهم والفقراء، فبدلاً من عالم ما قبل الحرب من الأسياد والعبيد وصغار المزارعين المكتفين ذاتيا، أصبح الجنوب بعد الحرب مأهولاً بطبقات اجتماعية جديدة - أصحاب الأراضي الذين يوظفون عمالاً لديهم، والمزارعون البيض والسود الذين يعملون بنظام المزارعة،

والمزارعون البيض المنتجين للقطن، والعمال السود الذين يعملون بأجر، وأصحاب المشاريع الحضرية، وتحولت كل هذه الجماعات إلى العمل السياسي في ظل إعادة الإعمار في محاولة لتشكيل حقبة ما بعد التحرر لصالحها.

في أعقاب العبودية

لم تكن الولايات المتحدة بطبيعة الحال المجتمع الوحيد الذي واجه مشكلة الانتقال من العبودية إلى الحرية، ففي الحقيقة كان هناك العديد من أوجه الشبه بين المناقشات خلال فترة إعادة الإعمار والصراعات التي تلت العبودية في أجزاء أخرى من نصف الكرة الأرضية الغربي حيث نفس قضايا الأرض والسيطرة على العمل والسلطة السياسية؛ ففي كل حالة يحاول المزارعون السابقون (أو في هايتي حيث دُمِّرَتْ طبقة المزارعين، حاولت الحكومة نفسها) تشجيع أو طلب العبيد السابقين العودة إلى العمل في المزارع لزراعة نفس المحاصيل كما كانوا يفعلون في ظل العبودية، بينما احتفظ المزارعون في الأماكن الأخرى بنفس الرؤى والصور النمطية للعمال السود كما عَبَّرَ عنها نظرائهم في الولايات المتحدة - فمن المفترض أن العبد السابق كسول ويفتقر إلى الطموح ويعتقد أن الحرية تعني الغياب عن العمل.

حاول العبيد السابقون في جميع أنحاء نصف الكرة الأرضية الغربية من جانبهم استخلاص أكبر قدر ممكن من الاستقلال سواء في حياتهم اليومية أو في العمل، حيث حاولوا إعادة بناء الحياة الأسرية من خلال سحب النساء والأطفال من العمل في الحقول (تحولت المرأة في جزر الهند الغربية إلى تسويق المحاصيل التي تنتجها أسرتها لتكسب الدخل)، وحيثما يكون ممكنًا يكتسب العبيد السابقون الأرض الخاصة بهم وتخصيص وقت لزراعة المحاصيل الغذائية اللازمة لاستهلاك أسرهم أكثر من الوقت المخصص لزراعة المحاصيل للسوق الدولية، ولم يكن أمام العبيد السابقين في الجزر الصغيرة على البحر الكاريبي مثل بربادوس سوى العودة إلى العمل في المزارع لعدم توفر أرض غير مأهولة، أما في الأماكن الأخرى فكانت المزارع إما تتفتت إلى أجزاء صغيرة كما هو الحال في "هايتي" أو يستمر العمل بقوى عاملة جديدة مؤلفة من الخدم بعقود لمدة القادمين من الهند والصين كما هو الحال في "جامايكا" و"ترينيداد" و"جويانا البريطانية"، فمع انتهاء العبودية بين عامي 1838 و 1865 تم إدخال أكثر من 100.000 من العمال الهنود في منطقة البحر الكاريبي البريطانية، وهي العملية التي ما كان يمكن أن تتم بدون توحيد السيطرة البريطانية على الهند كجزء من إمبراطوريتها في القرن التاسع عشر، وجلب المزارعون في جنوب الولايات المتحدة القليل من العمال الصينيين في محاولة لإحلال العبيد المتحررين ولكن نظرا لأن الحكومة الاتحادية عارضت هذه الجهود لذلك ظلت نسبة الصينيين ضئيلة في القوى العاملة في الجنوب.

بالرغم من أن الصراعات على الأرض والعمالة وحدت بين الولايات المتحدة والمجتمعات الأخرى في تجربة ما بعد تحرير العبيد، إلا أن الولايات المتحدة كانت فريدة من نوعها في أحد جوانب التجربة، حيث مُنِحَ العبيد السابقون في الولايات المتحدة فقط حق التصويت في غضون سنتين من نهاية العبودية، وبالتالي تم منحهم حصة كبيرة من السلطة السياسية، وكان قليلون فقط يتوقعون هذا التطور عندما انتهت الحرب الأهلية حيث حدث ذلك نتيجة لأحد أكبر الأزمات السياسية في التاريخ الأمريكي - وهي المعركة بين الرئيس "أندرو جونسون" والكونجرس بشأن إعادة الإعمار، حيث أدى الصراع إلى تغيرات عميقة في طبيعة المواطنة وهيكل السلطة الدستورية ومعنى الحرية الأمريكية.

القيام بإعادة الإعمار الجذري

"أندرو جونسون"

وقعت على عاتق "أندرو جونسون"، "خليفة لنكولن"، مهمة الإشراف على استعادة الاتحاد، وقد وُلِدَ "جونسون" في أسرة فقيرة في ولاية "نورث كارولينا" وعمل في شبابه كمتدرب على الحياكة وبعد انتقاله إلى ولاية "تنيسي" أحرز نجاحًا في العمل السياسي، حيث بدأ كعضو في مجلس محلي (مسئول بلدة) وارتقى في الخدمة في المجلس التشريعي بالولاية وفي الكونجرس الأمريكي وكحاكم لولاية "تنيسي" لمدتين، وعَرَّفَ نفسه بأنه بطل "المزارعين الصغار المستقيمين" في ولايته وعدو كبار المزارعين الذين وصفهم بأنهم "أرستقراطيون متضخمون فاسدون"، ونظرًا لأنه كان مدافعًا قويًا عن الاتحاد لذلك أصبح عضو مجلس الشيوخ الوحيد من ولاية منشقة الذي ظل في منصبه في "واشنطن" العاصمة عندما بدأت الحرب الأهلية في عام 1861، وعندما احتلت القوات الشمالية ولاية "تنيسي" عيَّنه "إبراهام لنكولن" حاكمًا عسكريا، ثم رشحه الحزب الجمهوري في عام 1864 للترشح لمنصب نائب الرئيس باعتباره رمزًا لأمل الحزب في توسيع تنظيمه في الجنوب.

وقد أثبت "جونسون" أن شخصيته ورؤيته غير مناسبان للمسئوليات التي وقعت على عاتقه بعد وفاة لينكولن، فنظرًا لأنه رجل وحيد وعنيد كان لا يتقبل الانتقادات وغير قادر على تقديم تنازلات، ويفتقر لمهارات "لينكولن" السياسية والشعور القوي بالرأي العام، وحيث إنه يؤمن بقوة بحقوق الولايات لذلك أصر على أن الانفصال غير قانوني وبالتالي فإن ولايات الجنوب لم تنفصل أبدا عن الاتحاد بالفعل ولم تتنازل عن حقها في الحكم في الشئون الخاصة، وعلى الرغم من دعمه للتحرر بمجرد أن أعلن "لنكولن" أن التحرر هو الهدف من وراء المجهود الحربي إلا أنه كان يضمر في نفسه آراء عنصرية عميقة، حيث يؤمن أنه لم يكن للأمريكيين الأفريقيين أي دور يلعبونه في إعادة الإعمار.

فشل إعادة الإعمار الرئاسي

بعد أكثر قليلاً من شهر من استسلام "لي" في "أبوماتوكس"، ومع توقف جلسات الكونجرس حتى ديسمبر (كانون الأول)، وضع "جونسون" في مايو (أيار) عام 1865 خطته لإعادة جمع شمل الأمة، فأصدر سلسلة من الإعلانات الرسمية التي بدأت فترة إعادة الإعمار الرئاسي (1865-1867)، وقدم عفوًا (باستعادة الحقوق السياسية والممتلكات، باستثناء العبيد) إلى جميع الجنوبيين البيض تقريبا الذي أدوا يمين الولاء، واستبعد قادة الكونفدرالية والمزارعين الأثرياء التي تُقدَّر ملكيتهم قبل الحرب بأكثر من 20.000 دولارًا، ويشير هذا الإعفاء في البداية إلى أن "جونسون" خطط لإعادة إعمار عقابي أكثر مما اعتزم "لينكولن"، ومع ذلك سرعان ما تلقى هؤلاء المستبعدون عفوًا فرديًا من الرئيس، كما عين "جونسون" محافظين مؤقتين وأمرهم بأن يدعون إلى اجتماعات في ولاياتهم لانتخاب أعضاء من البيض فقط لإنشاء حكومات موالية في الجنوب، وبصرف النظر عن شرط إلغاء العبودية ونبذ الانفصال ورفض دفع الديون الكونفدرالية - كل التداعيات التي لا يمكن تجنبها لهزيمة الجنوب - منح "جونسون" الحكومات الجديدة مطلق السلطة في إدارة الشئون المحلية.

وقد اعتقد معظم الشماليين في البداية أن سياسة "جونسون" تستحق فرصة لإنجاحها، إلا أن سلوك الحكومات الجنوبية المنتخبة ضمن برنامجه قلب معظم الشماليين الجمهوريين ضد الرئيس حيث أعاد الناخبون البيض معظم الكونفدراليين البارزين وأعضاء النخبة القديمة إلى السلطة، وزاد من ذعر الجمهوريين تواتر تقارير عن أعمال عنف موجهة ضد العبيد السابقين والزوار الشماليين في الجنوب.

قوانين السود

كان أكثر ما أثار المعارضة ضد سياسة "جونسون" في إعادة الإعمار، هي قوانين السود التي أقرتها الحكومات الجنوبية الجديدة التي حاولت تنظيم حياة العبيد السابقين، فقد منحتهم هذه القوانين حقوقًا معينة مثل الزواج القانوني، وملكية الممتلكات، والوصول المحدود إلى المحاكم، ولكنها رفضت منحهم حقوق الإدلاء بشهادات ضد البيض والعمل في هيئات المحلفين أو الميليشيات في الولاية أو حق التصويت، وللاستجابة لمطالب المزارعين بمطالبة العبيد المتحررين بالعمل في المزارع أعلنت هذه القوانين الخاصة بالسود أنه سيتم القبض على السود المتحررين الذين يتقاعسون عن توقيع عقود عمل سنوية وسينم إرغامهم على العمل لدى ملاك الأراضي البيض، وقد حظرت بعض الولايات المهن المفتوحة أمام السود وحظرت عليهم الحصول على الأراضي، بينما نصت ولايات أخرى على أن القضاة يمكنهم تعيين الأطفال السود للعمل لدى

أسيادهم السابقين دون موافقة الوالدين، وقد اشتكى تجمع للسود في ولاية "مسيسيبي" قائلا "غير مسموح لنا امتلاك الأرض لبناء مدرسة أو كنيسة، فأين هي العدالة؟ وأين هي الحرية؟"

من الواضح أن موت العبودية لا يعني تلقائيًا ولادة الحرية، حيث إن قوانين السود انتهكت تمامًا مبادئ العمل الحر إلى الحد الذي دفعهم إلى دعوة الجمهوريين الشماليين إلى الرد بقوة على ذلك. عادة ما تُوَلِّدُ الحروب، وخاصة الحروب الأهلية، العداء والمرارة، ولكن مجموعات قليلة من المتمردين في التاريخ لاقت معاملة أكثر تساهلاً وعفوًا من الكونفدراليين المهزومين، حيث أُلقِيَ القبض على حفنة من القادة الجنوبيين ولكن سرعان مَّا أُفْرِجَ عن معظمهم مع إعدام واحد فقط هو "هنري ويرز" قائد سجن "أندرسون" حيث مات الآلاف من سجناء الحرب التابعين للاتحاد والمُسَرَّحِين من جيش الاتحاد الذي تم تسريح معظمه. إن ما دفع الشمالي لرفض سياسات "جونسون" ليس الرغبة في "معاقبة" الجنوب البيض ولكن عدم قدرة القادة السياسيين في الجنوب على تقبل واقع التحرر، وقد أعلن "وليام ستيوارت" عضو مجلس الشيوخ الجمهوري "من ولاية "نيفادا"" أنه يجب علينا أن نتأكد من أن الرجل الذي حرره دستور الولايات المتحدة هو حر حقاً".

الجمهوريون الراديكاليون

أعلن "جونسون" عند اجتماع الكونجرس في ديسمبر (كانون الأول) عام 1865، أنه قد تم لم شمل الأمة بفضل الحكومات الموالية التي تعمل في جميع ولايات الجنوب، ورد الجمهوريون الراديكاليون على ذلك بعد أن تحرروا من سحر "جونسون" على نحو متزايد خلال فصل الصيف والخريف بأن دعوا إلى حل هذه الحكومات وإقامة حكومات جديدة مع "المتمردين" المستبعدين من السلطة وضمان حق التصويت للرجال السود، وكان الراديكاليون يميلون إلى تمثيل الدوائر الانتخابية في "نيو إنجلاند" والمناطق الريفية الشمالية التي كانت موطنا للإحياء الديني وحركات إلغاء العبودية والحركات الإصلاحية الأخرى، وعلى الرغم من الاختلاف بين الراديكاليين في كثير من القضايا إلا أنهم تقاسموا القناعة بأن فوز الاتحاد وفر فرصة ذهبية لإضفاء الطابع المؤسسي على مبدأ المساواة في الحقوق بين الجميع بغض النظر عن الأصل العرقي.

تبنى الراديكاليون بالكامل الصلاحيات الموسعة للحكومة الاتحادية التي وُلِدَت أثناء الحرب الأهلية، وأصروا على أنه يجب ألا تحول التقاليد الفيدرالية وحقوق الولايات دون بذل جهود وطنية شاملة كاسحة لحماية حقوق جميع الأمريكيين، وكان من أبرز الراديكاليين في الكونجرس "تشارلز سومنر" عضو مجلس الشيوخ عن ولاية "ماساتشوستس" و"ثاديوس ستيفنز" المحامي ومنتج الحديد الذي مَثَّلَ ولاية "بنسلفانيا" في مجلس النواب وكانا كلاهما عدوين صريحين للعبودية

ومدافعين عن حقوق السود قبل الحرب الأهلية وفي أوائل تلك الحرب حث كلاهما "لينكولن" على تحرير العبيد وتسليحهم، وكان كلاهما يؤيدان فكرة منح السود حق الاقتراع في عام 1865 في الجنوب، وكما أعلن "سمنر" أنه "يجب على نفس السلطة الوطنية التي دمرت العبودية أن تقضي على الادعاء الآخر [عدم المساواة العنصري]".

كان أهم هدف أثير بالنسبة إلى "ثاديوس ستيفنز" هو مصادرة أراضي المزارعين الخونة وتقسيمها بين العبيد السابقين والمهاجرين من الشمال إلى الجنوب، حيث أعلن "يجب تغيير نسيج المجتمع كله في الجنوب" لأنه بدون ذلك لن تنجح هذه الحكومة فيما فشلت فيه حتى الآن في أن تكون جمهورية حقيقية"، ولكن خطته لجعل العبيد السابقين "مستقلين وملاك لأراضي صغيرة" أثبتت أنها راديكالية جدا حتى بالنسبة لكثير من زملائه الراديكاليين، وكان الكونجرس قد عرض بالفعل أراضي مجانًا على المستوطنين في الغرب بموجب قانون العزبة لعام 1862، ولكن هذه الأرض كانت في حوزة الحكومة الاتحادية وليس الأفراد (على الرغم من أنها كانت في الأصل تنتمي بطبيعة الحال للهنود)، وكان معظم أعضاء الكونجرس يؤمنون بقوة في قدسية حقوق الملكية للحد الذي لا يجعلهم على استعداد لسلب الأرض من مجموعة من الملاك لتوزيعها على الآخرين، ولذلك فشل "ستيفنز" في تمرير اقتراحه من خلال الكونجرس.

جذور الحقوق المدنية

نظرًا لعدم تمثيل الجنوب، تمتع الجمهوريون بأغلبية ساحقة في الكونجرس، ولكن الحزب كان منقسمًا داخليًا حيث كان معظم الجمهوريين والمعتدلين، وليس الراديكاليين، يعتقدون أن خطة "جونسون" كان معيبة ولكنهم أرادوا العمل مع الرئيس لتعديل الخطة حيث كانوا يخشون أن البيض سواء في الشمال أو في الجنوب سيقبلون منح السود حق الاقتراع، وانضم المعتدلون والراديكاليون في رفض حضور الجنوبيين المنتخبين مؤخرا في جلسات الكونغرس ولكن المعتدلين اختلفوا مع الراديكاليين في ترك حكومات "جونسون" في أماكنها.

اقترح عضو مجلس الشيوخ عن ولاية "إلينوي" السيناتور "ليمان ترمبل" في أوائل عام 1866 مشروعين لقانونين يعكسان اعتقاد المعتدلين بأن سياسة "جونسون" تحتاج إلى تعديل، مدد مشروع القانون الأول من عمر مكتب المتحررين الذي كان قد أُنشِئ في الأصل لسنة واحدة فقط، بينما تعلق مشروع القانون الثاني بالحقوق المدنية وقد وصفه أحد أعضاء الكونجرس بأنه "أحد أهم مشاريع القوانين التي قُدِّمَت إلى مجلس النواب حتى الآن" حيث عَرَّفَ كافة الأشخاص الذين ولدوا في الولايات المتحدة الأمريكية كمواطنين وحدد الحقوق التي من المفترض أن يتمتعوا بها بصرف النظر عن الأصل العرقي، وكانت المساواة أمام القانون جوهرية في هذا المشروع بحيث

لن يكون مسموحًا للولايات سن قوانين مثل القوانين الخاصة بالسود التي تميز بين المواطنين البيض والسود، وبالمثل لقيم العمل الحر، فوفقًا للقانون، فإنه غير مسموح لأي ولاية أن تحرم أي مواطن من الحق في إبرام العقود أو رفع الدعاوى القضائية أو التمتع بحماية متكافئة للأشخاص والممتلكات، وقد وصف "ترمبل" هذه الحقوق بأنها "الحقوق الأساسية التي تخص كل رجل باعتباره رجلاً حراً"، ولكن لم يشر مشروع القانون إلى حق السود في التصويت، ولذلك فإنه يمكن القول إن مشروع قانون الحقوق المدنية مَثَّلَ من الناحية الدستورية أول محاولة لإعطاء معنى حقيقيًا ملموسًا للتعديل الثالث عشر الذي ألغى العبودية للتعريف في القانون بجوهر الحرية.

فيما كان مفاجأة للكونجرس استخدم "جونسون" حق النقض للاعتراض على كلا المشروعين، وقال إنهما سيمركزان السلطة في الحكومة الوطنية ويحرم الولايات من السلطة في تنظيم شئونهم، كما قال إن السود لا يستحقون حقوق المواطنة، وأن عمل الكونجرس على تأمين حقوقهم أمرا من شأنه التمييز "ضد الجنس الأبيض" وقد أدى استخدام الرئيس لحق النقض على المشروعين إلى إحداث شق لا مفر منه بينه والحزب الجمهوري بأكمله تقريبا، وفشل المؤتمر بفرق صوت واحد في حشد أغلبية الثلثين اللازمة لتجاوز الفيتو على مشروع قانون مكتب المتحررين (على الرغم من أن الكونجرس قام في وقت لاحق من عام 1866 بتمديد عمر المكتب إلى عام 1870) ولكن في إبريل (نيسان) عام 1866 أصبح مشروع قانون الحقوق المدنية أول قانون رئيسي في التاريخ الأمريكي يقره الكونجرس بالرغم من حق النقض الرئاسي.

التعديل الرابع عشر على الدستور الأمريكي

شرع الكونجرس آنذاك في اعتماد خطته الخاصة بإعادة الإعمار، حيث وافق في شهر يونيو (حزيران) على التعديل الرابع عشر للدستور وأرسله إلى الولايات للتصديق عليه، وهو التعديل الذي وضع في الدستور مبدأ المواطنة لجميع الأشخاص الذين وُلِدُوا في الولايات المتحدة والذي خَوَّلَ للحكومة الاتحادية حماية حقوق جميع الأمريكيين، وحظر التعديل على الولايات حرمان المواطنين من "الامتيازات والحصانات" أو من "الحماية المتساوية أمام القانون" وفتحت هذه اللغة الواسعة الباب لمجالس الكونجرس والمحاكم الاتحادية في المستقبل أن تبث معنى في ضمان المساواة القانونية.

يمثل هذا التعديل حلاً وسطًا بين المواقف الراديكالية المتطرفة والمعتدلة بشأن حق السود في الاقتراع، فهو لا يمنح السود حق التصويت ولكنه نص بالفعل على أنه إذا رفضت الولاية لأي مجموعة من الرجال حق التصويت سيتم خفض تمثيل تلك الولاية في الكونجرس (لم يتم تطبيق

هذه المادة عندما منعت الولايات النساء من التصويت)، وقد هدد إلغاء العبودية بزيادة القوة السياسية للجنوب، ونظرًا لأن جميع السود حينذاك، وليس مجرد ثلاثة أخماس كما في حالة العبيد سيتم حسابهم في تحديد تمثيل الولاية في الكونجرس، لذلك عرضت التعديل الرابع عشر على قادة الجنوب البيض حق الاختيار بين السماح للرجال السود بالتصويت والحفاظ على تمثيل ولايتهم الكاملة في مجلس النواب أو حصر حق التصويت على البيض مقابل التضحية بجزء من سلطتهم السياسية.

أسفر التعديل الرابع عشر للدستور عن انقسام حاد بين الأطراف، حيث لم يصوت أي من الديمقراطيين في مجلس النواب لصالحه بينما لم يعارضه سوى أربعة فقط من الجمهوريين البالغ عددهم 175، وأعرب الراديكاليون عن خيبة أملهم في أن التعديل لم يضمن حق الاقتراع للسود (كما قال "ستيفنز" لمجلس النواب أنه بعيد عن الكمال ولكنه ينوي التصويت لصالحه "لأنني أعيش بين الرجال وليس بين الملائكة")، ومع ذلك نجح التعديل في إجراء التغيير الأكثر أهمية في تلك الوثيقة منذ اعتماد مشروع قانون الحقوق، وذلك بمجرد إدراجه في الدستور، مبدأ "المساواة أمام القانون بغض النظر عن الأصل العرقي حق أساسي لجميع المواطنين الأمريكيين".

قانون إعادة الإعمار

أصبح التعديل الرابع عشر بمثابة القضية المركزية للحملة السياسية من 1866، حيث شرع "جونسون" في جولة في الشمال أطلق عليها الصحفيون اسم "التأرجح حول الدائرة،" لحث الناخبين على انتخاب أعضاء للكونجرس من بين الأشخاص الملتزمين ببرنامجه لإعادة الإعمار، وشجب منتقديه حيث اتهم الراديكاليين بأنهم كانوا يتآمرون لاغتياله، وانطوى سلوكه على مزيد من تقليل أهمية التأييد الشعبي لسياساته كما فعلت أعمال الشغب التي اندلعت في "ممفيس" و"نيو أورلينز" التي قام فيها رجال الشرطة والمواطنون البيض بقتل العشرات من السود.

وقد حقق الجمهوريون المعارضون لسياسات "جونسون" فوزًا كاسحًا في انتخابات الكونجرس الشمالية في ذلك الخريف، ومع ذلك رفضت كل الولايات الجنوبية باستثناء ولاية تنيسي التصديق على التعديل الرابع عشر بإيعاز من الرئيس، وأدى تعنت جونسون والجزء الأكبر من البيض في الجنوب إلى دفع الجمهوريين المعتدلين نحو الراديكاليين، وفي شهر مارس (آذار) عام 1867 اعتمد الكونجرس بالرغم من استخدام "جونسون" لحق النقض الرئاسي قانون إعادة الإعمار الذي قَسَّمَ مؤقتًا الجنوب إلى خمس مناطق عسكرية ودعا إلى إنشاء حكومات جديدة للولايات مع إعطاء الرجال السود حق التصويت، وهكذا بدأت فترة إعادة الإعمار الراديكالي والتي استمرت حتى عام 1877.

تضافرت مجموعة متنوعة من الدوافع معا لإنتاج إعادة الإعمار الراديكالي، وهي مطالب العبيد السابقين للحصول على حق التصويت والتزام الراديكاليين لفكرة المساواة والاشمئزاز واسع النطاق من سياسات "جونسون" والرغبة في تحصين الحزب الجمهوري في الجنوب والإصرار على إبقاء الكونفيدراليين السابقين بعيدًا عن المناصب، ولكن الصراع بين الرئيس "جونسون" والكونجرس لم تنته مع إقرار قانون إعادة الإعمار.

اتهام "جونسون ومحاكمته أمام الكونجرس وانتخاب "جرانت"

أقر الكونجرس في مارس (آذار) عام 1867 تولي المناصب " الذي يحظر على الرئيس الإطاحة بشاغلي بعض المناصب العامة بدون موافقة مجلس الشيوخ، بما في ذلك أعضاء مجلس الوزراء، وهو ما اعتبره "جونسون" تقييدًا غير دستوري لسلطته، وقام بالإطاحة بوزير الحربية "أدوين م. ستانتون" في فبراير (شباط) عام 1868 وهو أحد حلفاء الراديكاليين، فرد مجلس النواب بالموافقة على مواد تخول مجلس الشيوخ باتهام ومحاكمة الرئيس والتقرير ما إذا كان سيعزل "جونسون" من منصبه.

حدث في ربيع ذلك العام، خضوع الرئيس للمحاكمة أمام مجلس الشيوخ للمرة الأولى في التاريخ الأمريكي على "الجرائم والجنح الكبيرة" وقد اعتبر كل الجمهوريين منذ هذه النقطة تقريبًا أن "جونسون" فشل كرئيس للبلاد، ولكن بعض المعتدلين كرهوا أن يصبح الرئيس الراديكالي المؤقت لمجلس الشيوخ "بنيامين ف. واد" رئيسا لو تم الإطاحة بالرئيس "جونسون"، بينما خشى البعض الآخر أن هذه الإدانة ستفسد مبدأ الفصل الدستوري بين السلطات بين الكونجرس والسلطة التنفيذية، وأكد محامو "جونسون" للمعتدلين الجمهوريين أنه إذا ما تم تبرئة "جونسون" فإنه سيوقف التدخل في سياسة إعادة الإعمار، وجاءت النتيجة النهائية 35- 19 لإدانة جونسون، وهي النتيجة التي تقل بصوت واحد عن شرط ثلثي الأعضاء اللازمة لإزاحته، ويرجع ذلك إلى أن سبعة من الجمهوريين انضموا إلى الديمقراطيين في التصويت لتبرئة الرئيس.

ورشح الجمهوريون بعد أيام قليلة من التصويت البطل الاتحادي العسكري الأبرز "يوليسيس جرانت" للرئاسة، وكان خصم "جرانت" الديمقراطي هو "هوراشيو سيمور" حاكم "نيويورك" السابق، وأصبحت قضية إعادة الإعمار هي القضية المركزية للحملة الضارية لانتخابات عام 1868، واتهم الجمهوريون خصومهم بأنهم انفصاليون وخونة وهو التكتيك المعروف باسم "التلويح بالقميص الدموي" وذلك لاستدعاء مشاعر الانتقام، بينما شجب الديمقراطيون إعادة الإعمار باعتبارها غير دستورية وشجبوا منح السود حق الاقتراع باعتباره انتهاكا للتقاليد السياسية في أمريكا ووجهوا نداءً علنيًا للعنصرية، في حين وجّه "فرانسيس ب. بلير الابن" رفيق

"سيمور" في الحملة اتهامًا للجمهوريين بوضع الجنوب تحت حكم "جنس شبه همجي" الذين يتوقون إلى "إخضاع النساء البيض لشهوتهم الجامحة".

التعديل الخامس عشر للدستور

فاز "جرانت" بانتخابات عام 1868 ولكن بهامش 300.000 صوت فقط من 6 ملايين صوت وهو ما اعتبره العديد من الجمهوريين نسبة ضئيلة بشكل غير مريح، مما دفع الكونجرس إلى تبني التعديل الثالث والأخير للدستور خلال تلك الحقبة في فبراير (شباط) عام 1869، وأقر التعديل الخامس عشر الذي يحظر على الحكومات الاتحادية وحكومات الولايات حرمان أي مواطن من حق التصويت بسبب العرق وعلى الرغم من معارضة من الحزب الديمقراطي الشرسة إلا أنه تم التصديق عليه في عام 1870.

وعلى الرغم من أن التعديل الخامس عشر فتح الباب لفرض قيود على الاقتراع لا تستند صراحةً على العرق - مثل اختبارات محو الأمية، ومؤهلات الملكية العقارية وحق التصويت لدافعي الضرائب فقط - ولم يمد حق التصويت ليشمل النساء، إلا أنه يمثل ذروة أربعة عقود من تحريض المطالبين بإلغاء العبودية، ولم تسمح إلا ثماني ولايات شمالية فقط للرجال الأمريكيين الأفارقة بالتصويت إلا بداية من عام 1868 حتى بعد تحرير الكونجرس للرجال السود في الجنوب، وبإقرار التعديل الخامس عشر للدستور حلت الجمعية الأمريكية لمكافحة العبودية نفسها حيث رأى أعضاؤها أن عملها قد انتهى الآن، وهتف أحد دعاة إلغاء العبودية المخضرمين "وليام لويد جاريسون" قائلا "ليس هناك في التاريخ كله أروع من هذا التحول الهادئ المفاجئ لأربعة ملايين من البشر من . . . صندوق عرض العبيد للبيع في المزاد إلى صناديق الاقتراع".

"الثورة الدستورية الكبرى"

عكست قوانين وتعديلات إعادة التعمير التقاطع بين اثنين من منتجات عصر الحرب الأهلية، وهما دولة وطنية متمكنة حديثة وفكرة المواطنة التي تضمن لجميع المواطنين المساواة أمام القانون، وقد حوّل ما أسماه الزعيم الجمهوري "كارل ستشورز" "الثورة الدستورية الكبرى" لإعادة الإعمار النظام الفيدرالي وجعلت معه لغة الحرية أساسية جدا في الثقافة السياسية الأمريكية.

كان التجنس بالجنسية الأمريكية وحق المواطنة قبل الحرب الأهلية مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالعرق، حيث قصر الكونجرس الأول في عام 1790 حق التجنس بالجنسية الأمريكية على البيض عندما يهاجرون من الخارج، وقد أعلنت المحكمة العليا في قرار "دريد سكوت" لعام 1857 أن الشخص الأسود، سواء كان حرًا أو عبدا، لا يستطيع أن يكون من مواطني الولايات

المتحدة، ولكن قوانين وتعديلات إعادة الإعمار تنصلت من فكرة أن المواطنة كانت استحقاقًا للبيض وحدهم، وعلاوة على ذلك لم يتم تطبيق مبدأ المساواة أمام القانون على الجنوب فقط، وأبطلت تعديلات إعادة إعمار العديد من القوانين الشمالية التي تميز على أساس العرق، وكما ذكر أحد أعضاء الكونجرس فإن التعديلات وسعت الحرية للبيض وكذلك للسود، بما في ذلك "الملايين من البشر الأجانب من حيث الولادة الذين سيتدفقون على شواطئنا".

لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد حولت التعديلات الجديدة أيضًا العلاقة بين الحكومة الاتحادية والولايات، حيث ربط مشروع قانون الحقوق الحريات المدنية بالاستقلال الذاتي للولايات وعكست لغة هذا المشروع – "لن يصدر الكونجرس أي قانون..." – الاعتقاد بأن السلطة الوطنية المركزة تشكل أكبر تهديد للحرية، لقد افترض واضعوا التعديلات أن هذه الحقوق تتطلب قيام السلطة الوطنية بإنفاذها الحقوق وبدلاً من أن تشكل الحكومة الاتحادية خطرًا على الحرية، أصبحت على حد تعبير "تشارلز سومنر" "خادمة للحرية".

لقد حولت تعديلات إعادة الإعمار الدستور من وثيقة معنية في المقام الأول بالعلاقات بين الدولة الفيدرالية والولايات وحقوق الملكية إلى وسيلة يستطيع أفراد الأقليات الضعفاء من خلالها أن يطالبوا بالحرية، ويسعوا للحماية ضد سوء سلوك جميع مستويات الحكومة؛ وقد استندت العديد من أهم أحكام المحكمة العليا بتوسيع حقوق المواطنين الأمريكيين في القرن العشرين على التعديل الرابع عشر، وربما أبرزها حكم براون في عام 1954 الذي حظر الفصل العنصري في المدارس (انظر الفصل الرابع والعشرين).

حدود الحرية

أعاد إعادة الإعمار رسم حدود الحرية الأمريكية، فخطوط الإقصاء التي تقصر امتيازات المواطنة على الرجال البيض ظلت أساسية لزمن طويل في الممارسة الديمقراطية الأمريكية، وما كان ليتم استبدال هذه الممارسات ولو مؤقتًا إلا نتيجة لأزمة استثنائية من خلال رؤية لجمهورية ذات شعب يتمتع كل أفراده بالمساواة في الحقوق تحتضن الأمريكيين السود والبيض على حد سواء بعد أن كان الاعتقاد السائد على نطاق واسع قبل الحرب الأهلية أن الولايات المتحدة "حكومة الرجل الأبيض"، ولذلك ليس من الصعب أن نفهم لماذا زعم "أندرو جونسون" في أحد استخداماته لحق الاعتراض بأن الحماية الاتحادية لحقوق السود المدنية بمثابة "انتهاكا لكل تجربتنا كشعب".

كان اعتقاد الجمهوريين خلال فترة إعادة الإعمار أن الحقوق العالمية العامة الشاملة محدودة أيضا، وقد أدان "فريدريك دوجلاس" التحيز ضد المهاجرين من الصين في خطابه الرائع "الأمة

المركبة" الذي ألقاه في عام 1869 وأعلن أن قدر أمريكا أن تسمو على العرق وأن تصبح ملاذًا للناس حيث "يتجمعون هنا من جميع أنحاء العالم يتطلعون لأمل واحد مشترك، ألا وهو الحرية الوطنية"، وقام "تشارلز سومنر" بعد ذلك بعام بمسح كلمة "أبيض" من متطلبات التجنس بالجنسية الأمريكية، ولكن مع إصرار أعضاء مجلس الشيوخ عن الولايات الغربية على الرفض تم تعديل قانون الجنسية بجعل الأفارقة مؤهلين للحصول على الجنسية عند الهجرة من الخارج، ولكن ظل الآسيويون غير مؤهلين، وبذلك تم إعادة رسم الحدود العنصرية للجنسية ولكن لم يتم القضاء عليها، هذا وقد أثار التراصف بين قانون التجنس المعدل والتعديل الرابع عشر انقساما كبيرا في الجالية الأمريكية الآسيوية وحتى جزء كبير من القرن العشرين لم يستطع المهاجرون الآسيويون أن يصبحوا مواطنين، ولكن أطفالهم المولودين في الولايات المتحدة يصبحون مواطنين أمريكيين تلقائيًا.

حقوق المرأة

كتب سيدني جورج فيشر" المحامي في ولاية "فيلادلفيا" في مذكراته قائلا "لقد تسببت المنافسة مع الجنوب التي دمرت العبودية في زيادة هائلة في الولع الشعبي بالحرية والمساواة"، ولكن دعاة حقوق المرأة واجهوا قيود الالتزام بإعادة الإعمار في المساواة، وقد رأت الناشطات أن إعادة الإعمار هو اللحظة المناسبة للمطالبة بتحررهن، وقد أعلنت "إليزابيث كادي ستانتون" أن النساء لسن أدنى من السود وقد وصلن إلى "مرحلة انتقالية بين العبودية والحرية"، وأعلن زعيم الاقتراع "أولمبيا براون" أن إعادة كتابة الدستور منح الفرصة لتمديد التحرر إلى الجميع بصرف النظر عن الجنس والنوع و"ضم الرجل الأسود والمرأة في المواطنة".

أدى القضاء على العبودية إلى دفع مناصرو حقوق المرأة للبحث عن سبل لتحقيق الوعد بالعمل الحر للنساء، وكل طبعة جديدة من مجلة حقوق المرأة باسم "المحرض"، التي تحررها "ماري ليفرمور" التي قادت جهود جمع الأموال لتقديم مساعدات لجنود الاتحاد أثناء الحرب، سردت قصص لنساء يشتكين من فرص العمل المحدودة وعدم المساواة في أجور الإناث اللاتي يدخلن سوق العمل مع أجور الرجال، وحفلت مناقشات أنصار حقوق المرأة الآخرين بقضايا مثل كيفية تحقيق "الحرية للنساء المتزوجات"، والمطالبة بتحرير قوانين الطلاق (والتي عادة ما تتطلب أدلة على الزنا أو الهجر أو الاعتداء الشديد لإنهاء الزواج) وبالاعتراف "بتحكم المرأة في جسدها" (بما في ذلك الحماية ضد العنف الأسري وحق الوصول إلى ما أطلقت عليه الأجيال اللاحقة اسم تحديد النسل)، وقد كتبت امرأة من "أوهايو" قائلة "مؤسسة الزواج الفاسدة لدينا هي العقبة الرئيسية في طريق حرية المرأة".

مناصرو حقوق المرأة والراديكاليون

وجد الحديث عن حق المرأة في الاقتراع وإعادة تصميم مؤسسة الزواج القليل من تعاطف المستمعين الذكور، فحتى الجمهوريين الراديكاليين أصروا على أن إعادة الإعمار هي "ساعة الزنوج" (أي هي ساعة الذكور السود وأغفلوا تمامًا أي إشارة للنساء)، ودخلت كلمة "ذكر" للمرة الأولى في الدستور من خلال التعديل الرابع عشر للدستور في الفقرة التي تعاقب الولايات على حرمان أي جماعة من الرجال من الحق في التصويت، بينما جرَّمَ التعديل الخامس عشر التمييز في التصويت على أساس العرق ولكن ليس على أساس نوع الجنس، وقد أفرزت هذه التدابير انقسامًا مريرًا بين كل من مناصري المرأة والجمهوريين الراديكاليين وداخل أوساط الدوائر المطالبة بحقوق المرأة.

عارض بعض الزعماء، مثل "ستانتون" و"سوزان ب أنتوني" التعديل الخامس عشر، لأنه لم يفعل شيئا لتحرير المرأة ونددوا بحلفائهم السابقين المطالبين بإلغاء العبودية وتحركوا لفصل حركة حقوق المرأة عن ارتباطاتها السابقة بالحركات المعادية للعبودية، وأحيانًا ما استعانوا بالأحكام المسبقة العرقية والإثنية بحجة أن المرأة البيضاء المولودة في الولايات المتحدة تستحق حق التصويت أكثر من الرجال غير البيض والمهاجرين، كما أعلن "ستانتون" أن "باتريك وسامبو وهانز ويونج تونج الذين لا يعرفون الفرق بين الملكية والجمهورية ليس لديهم الحق في صنع القوانين لزعيمة حركة المطالبة بحقوق المرأة لوسريتيا موت" لمجرد أنهم ذكور وهي امرأة ولكن أعضاء حركات المطالبة بإلغاء العبودية - وحقوق المرأة مثل آبي كيلي" و"لوسي ستون" أصروا أنه على الرغم من قيود تعديلات إعادة الإعمار إلا أن هذه التعديلات مثلت خطوات في الطريق الصحيح لدعم حقوق الاقتراع العام، مما أدى إلى الانقسام بين الحركات النسوية وخلق منظمتين متصارعتين لحقوق المرأة في عام 1869، وهما جمعية الوطنية لحقوق المرأة في الاقتراع بقيادة "ستانتون" والجمعية الأمريكية لحق المرأة في الاقتراع برئاسة "لوسي ستون" ولم تتحد الجمعيتان معًا إلا في التسعينيات من القرن التاسع عشر.

وهكذا وبالرغم من رفض إعادة الإعمار للتعريف العنصري للحرية الذي كان قد ظهر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، إلا أنها (أي إعادة الإعمار) تركت الحدود بين الجنسين سليمة إلى حد كبير ولم تنجح في تضييق الفجوة أو سدها، وعندما حاول النساء استخدام القانون والدستور الذين تم إعادة صياغتهما للمطالبة بحقوق متساوية وجدن أن المحاكم غير مستجيبة؛ فعلى سبيل المثال، استندت "ميرا برادويل" إلى فكرة العمل الحر لتتحدي النظام الأساسي لولاية "إلينوي" الذي يقصر ممارسة القانون على الرجال ولكن المحكمة العليا رفضت دعواها في

عام 1873 معلنة أن مبادئ العمل الحر لا تنطبق على النساء نظرًا لأن "قانون الخالق" قد أسند لهن مهام "رعاية المنزل والأسرة فقط".

على الرغم من أوجه القصور في التعديلين الرابع عشر والخامس عشر وقانون إعادة الإعمار لعام 1867 إلا أنهم يعتبرون بداية انطلاق التحول الجذري في تاريخ أمريكا والعالم كله، حيث نجحت الولايات المتحدة وحدها من بين الدول التي ألغت العبودية في القرن التاسع عشر أن تُلْبِس العبيد السابقين بحقوق المواطنة بالتساوي مع البيض في غضون بضع سنوات من تحررهم، وقد كتب السيناتور الجمهوري عن ولاية "ويسكونسن"تيموثي هاو" قائلا "لقد قطعنا كل صلة بالماضي كله وسبقنا العالم بمائة عام في المستقبل، وهكذا يمكن القول بإيجاز أن قانون إعادة الإعمار لعام 1867 استهل أول تجربة حقيقية لأمريكا في الديمقراطية ما بين الأعراق.

إعادة الإعمار الجذري في الجنوب

"ناقوس خطر الحرية"

أثار إقرار قانون إعادة الإعمار انفجار عملية التنظيم السياسي بين العبيد السابقين، حيث يعرض الأمريكيون الأفارقة مطالباتهم بالمواطنة المتساوية في الاجتماعات السياسية الجماهيرية - التي هي عبارة عن تجمعات مجتمعية يحضرها الرجال والنساء والأطفال - كما أعلن اجتماع في ولاية "ألاباما" يستحق السود بالضبط نفس الحقوق والامتيازات والحصانات التي يتمتع بها الرجال البيض، نحن لا نطالب بأي شيء أكثر من ذلك ولن نرضى بأي شيء أقل من ذلك".

أوحت هذه التجمعات بالعمل المباشر لمعالجة المظالم التي طال أمدها حيث شارك المئات في الاعتصامات بالحافلات العامة التي تجرها الخيول في المدن في مختلف أنحاء الجنوب، كما نظم عمال المزارع إضرابات للمطالبة بزيادة الأجور، وانتشر المتحدثون من الذكور والإناث في جميع أنحاء الجنوب، وانطلق "فرانسيس إلين واتكينز هاربر" وهو من قدامى المحاربين السود الداعين لإلغاء العبودية في جولة لمدة عامين حيث يلقي المحاضرات بشأن "محو الأمية والأرض والتحرر"، و"جيمس د. لينش" أحد أعضاء المجموعة التي اجتمع مع الجنرال "شيرمان" في عام 1865 ينظم اجتماعات الجمهوريين وأصبح معروفًا على حد تعبير أحد البيض المعاصرين بأنه "خطيب عظيم، متدفق ولبق، ويستطيع تحريك عواطف مستمعيه أكثر مما يستطيع أي رجل آخر.

أصر الآلاف على ممارسة حقوقهم الجديدة كمواطنين فانضموا إلى رابطة الاتحاد، وهي منظمة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالحزب الجمهوري وسجل الغالبية العظمى من الأمريكيين الأفارقة المؤهلين أسماءهم للتصويت، واستمر أحد العبيد السابقين في مقاطعة هيل بولاية ألاباما ومنظم

الرابطة، "جيمس ك. جرين"، ثماني سنوات في خدمة المجلس التشريعي بالولاية، ونظر "جرين" في الثمانينيات من القرن التاسع عشر نظرة إلى الوراء على حياته السياسية قبل الحرب وعلق قائلا "كنت جاهلاً تمامًا ولا أعرف شيئا أكثر من طاعة سيدي، وكان هناك الآلاف منا في نفس الموقف. . . . ولكن ناقوس الخطر المتمثل في الحرية دق وطرق على الباب وخرجنا مثل الرجال الأحرار وتحملنا المسئوليات".

تمت إعادة قبول جميع الولايات الكونفدرالية السابقة في الاتحاد بحلول عام 1870، وفي منطقة لم يكن فيها الحزب الجمهوري موجودا قبل الحرب كان الجميع تقريبا تحت سيطرة الجمهوريين، وكانت الدساتير الجديدة للولايات التي صيغت في عامي 1868 و1869 بواسطة الهيئات العامة الأولى في التاريخ الأمريكي ذات التمثيل الكبير للسود بمثابة تحسنًا كبيرًا عن الدساتير القديمة التي أحلُّوا محلها حيث وسعت الدساتير الجديدة كثيرًا من المسئوليات العامة وأسست نظم التعليم العام المجاني الأولى في المنطقة بتمويل من قبل الولايات، وأنشأت مؤسسات جديدة كالسجون وملاجئ الأيتام ودور المجانين وضمنت المساواة في الحقوق المدنية والسياسية، وألغت ممارسات ما قبل الحرب مثل عقوبة الجلد على الجرائم وشرط الملكية العقارية كمؤهل لشغل المناصب العامة والسجن بسبب الديون، وحظر عدد قليل من الولايات في البداية الأعضاء الكونفدراليين السابقين عن التصويت ولكن سرعان ما تخلت الحكومات الجديدة للولايات عن هذه السياسة.

شاغلو المناصب العامة من السود

قدم الناخبون السود الجزء الأكبر من دعم الحزب الجمهوري طوال فترة إعادة الإعمار، ولكن الأمريكيين الأفارقة لم يسيطروا على سياسات إعادة الإعمار كما اتهمهم خصومهم في كثير من الأحيان حيث ظلت المكاتب العليا بالكامل تقريبا في أيادي البيض، إلا في ولاية "ساوث كارولينا" حيث شكَّل السود الأغلبية في المجلس التشريعي وذلك لأنهم يمثلون 60 في المائة من السكان هناك، ومع ذلك تظل حقيقة أن حوالي 2000 من الأمريكيين الأفارقة شغلوا مناصب عامة خلال فترة إعادة الإعمار تمثل تحولا أساسيا في السلطة في الجنوب وتغييرًا جذريًا في الحكومة الأمريكية.

كان الأمريكيون الأفارقة ممثلين في كل مستوى من مستويات الحكومة، وتم انتخاب أربعة عشر لعضوية مجلس النواب الوطني، وخدم اثنين من السود في مجلس الشيوخ الأمريكي خلال فترة إعادة الإعمار وكلاهما يمثلان ولاية "مسيسيبي"، أولهما "حيرام ريفيل" الذي كان قد وُلِدَ حرا في ولاية "نورث كارولينا" وتلقى تعليمه في ولاية "إيلينوي" وشغل منصب قسيس في جيش الاتحاد في زمن الحرب وأصبح في عام 1870 أول سيناتور أسود في التاريخ الأمركي، وثانيهما "بلانش

ك. بروس عبد سابق وتم انتخابه في عام 1875، ومنذ ذلك الحين شغل أربعة فقط من الأمريكيين الأفارقة مقاعد في مجلس الشيوخ، وهم إدوارد بروك عن ولاية ماساتشوستس (الذي خدم خلال الفترة ما بين عامي 1967–1978) وكارول موسيلي براون عن ولاية إيلينوي (خدم خلال الفترة ما بين عامي 1993–1998) وباراك أوباما عن ولاية إلينوي (خدم خلال الفترة ما بين عامي 2005–2008) ورولاند بوريس (خدم خلال الفترة التي بدأت من 2009).

خدم بينكني ب. س. بنشباك المولود في ولاية جورجيا لأب مزارع أبيض وأم سوداء حرة لفترة وجيزة حاكمًا لولاية لويزيانا خلال فصل الشتاء ما بين عامي 1872–1873 كأول حاكم أسود لولاية، ومر أكثر من قرن قبل أن يُنتَخَبْ ل. دوجلاس ويلدر حاكمًا لولاية فرجينيا في عام 1989 ليصبح ثاني حاكم أسود لولاية أمريكية، وخدم نحو 700 من السود في المجالس التشريعية للولايات خلال فترة إعادة الإعمار وخدم العشرات في المكاتب المحلية في مناصب تتراوح بين قاضي صلح وعمدة بلدة ومقيم ضرائب وشرطي، وقد أحدث وجود مناصب للسود ووجود حلفاء بيض لهم فارقًا حقيقيًا في حياة الجنوب؛ حيث يضمن ذلك للسود المتهمين بارتكاب جرائم أن يتم محاكمتهم أمام هيئة محلفين من أقرانهم، ويضمن إنفاذ العدل والإنصاف في جوانب من الحكم المحلي مثل إصلاح الطرق وتقييم الضرائب وإغاثة الفقراء.

لم يمر معظم أبرز شاغلي المناصب العامة من السود خلال فترة الإعمار أبدًا بتجربة العبودية في ولايتي ساوث كارولينا ولويزيانا، حيث أكثر المنازل ثراءً في الجنوب وأفضل مجتمعات السود الحرة تعليما، بالإضافة إلى ذلك كان عدد من المسئولين السود خلال فترة إعادة الإعمار قد أتوا من الشمال بعد الحرب الأهلية مثل جوناثان ج. رايت المولود في ولاية بنسلفانيا وخدم في المحكمة العليا بولاية ساوث كارولينا، ومع ذلك كانت الأغلبية من العبيد السابقين الذين أسسوا زعامتهم في مجتمع السود من خلال العمل في جيش الاتحاد والعمل كقساوسة أو معلمين أو حرفيين مهرة أو شاركوا في تنظيم رابطة الاتحاد، ومن بين أصحاب المناصب السود الأكثر شهرة كان روبرت سمول الذي كان يعمل كعبد في أحواض السفن في تشارلستون قبل الحرب الأهلية ثم اكتسب شهرة وطنية في عام 1862 من خلال قيادته سرًا للسفينة الكونفدرالية بلانتر للخروج من الميناء وتسليمها لقوات الاتحاد، ثم أصبح زعيمًا سياسيًا قويًا في جزر بحر ساوث كارولينا وانْتُخِبَ عضوًا في الكونجرس لخمس مدد.

الوصوليون المنتفعون من السلطة والفتوات الأوغاد

جلبت الحكومات الجديدة في الجنوب أيضًا إلى السلطة مجموعات جديدة من البيض، وكان العديد من المسئولين عن إعادة التعمير من الشماليين الذين اتخذوا منازل لهم في الجنوب بعد

الحرب لسبب أو لآخر وقد أطلق خصومهم عليهم "المستفيدون بالتدخل في السياسة"، مما يعني أنهم قد حزموا كل أمتعتهم وممتلكاتهم في حقيبة وتركوا منازلهم في الشمال لينتقلوا إلى الجنوب من أجل جني غنائم السلطة في الجنوب، وبدون شك كان بعضهم مغامرين فاسدين بينما كانت غالبيتهم العظمى مع ذلك من جنود الاتحاد السابقين الذين قرروا البقاء في الجنوب عندما انتهت الحرب قبل وجود أي احتمالات للخوض في السياسة، في حين كان آخرون مستثمرين في الأراضي والسكك الحديدية الذين رأوا في الجنوب بعد الحرب فرصة للجمع بين التقدم الاقتصادي الشخصي وبين دورا في المساعدة على استبدال "العبودية بحضارة الحرية" على حد تعبير أحدهم، وأخيرًا تلك الفئة التي تمثل مجموعة كبيرة من المستفيدين من المعلمين والمسئولين عن مكتب المتحررين وغيرهم ممن جاء إلى المنطقة على أمل تقديم مساعدة حقيقية في جعل العبيد السابقين ممثلين.

ومع ذلك، كان معظم الجمهوريين البيض قد وُلُدُوا في الجنوب، وقد اختص الكونفدراليون السابقون هؤلاء "الوصوليين المنتفعين" بأشد احتقارهم وازدرائهم لهؤلاء "الوصوليون المستفيدون" لأنهم كانوا يعتبرونهم خونة لعرقهم ولمنطقتهم، وكان بعض الجمهوريين المولدين في الجنوب رجال من ذوي المكانة والثروة مثل "جيمس الكورن" صاحب أحد أكبر مزارع ولاية "مسيسبي" وأول حاكم جمهوري للولاية.

كان معظم "الوصوليون المستفيدون"، مع ذلك، من المزارعين البيض الجنوبيين من المناطق الداخلية البعيدة عن المدن الكبيرة من غير مالكي العبيد، والعديد من النقابيين في زمن الحرب الذين تعاونوا آنذاك مع الجمهوريين من أجل منع "المتمردين" من العودة إلى السلطة، بينما كان آخرون يأملون أن تساعدهم حكومات إعادة الإعمار على التعافي من خسائر اقتصادية تكبدوها في زمن الحرب من خلال تعليق تحصيل الديون وتشريع القوانين التي تحمي أصحاب الملكية الصغيرة من فقدان منازلهم لسداد ديونهم، وقاد الجمهوريين في البداية أقلية هامة من أصوات البيض في ولايات مثل "نورث كارولينا" و"تنيسي" و"أركنساس"، وكان تصويت الجمهوريين البيض القليلين مهما حتى في عمق الجنوب لأن السكان ظلوا منقسمين بالتساوي تقريبا بين السود (كلهم تقريبًا صوتوا لصالح حزب لينكولن) والبيض (ديمقراطيون بأغلبية ساحقة).

الجمهوريون الجنوبيون في السلطة

واجهت حكومات إعادة الإعمار تحديات شاقة، إلا أن الشيء الرائع ليس هو فشلها في كثير من النواحي ولكن في مقدار إنجازاتها، وربما يكمن أعظم إنجاز لها في إنشاء أول مدارس عامة في الجنوب بدعم من الولايات، حيث خدمت النظم التعليمية الجديدة الأطفال السود والبيض

على حد سواء، على الرغم من الفصل بين المدارس عن أساس العرق، باستثناء ولاية "نيو أورلينز" حيث كان هناك دمج بين البيض والسود في المدارس العامة خلال فترة إعادة الإعمار وباستثناء ولاية "ساوث" كارولينا حيث قبلت جامعة الولاية الطلاب السود (حيث كانت الكليات في الأماكن الأخرى منفصلة على أساس العرق)، وبحلول السبعينيات من القرن التاسع عشر كان أكثر من نصف الأطفال السود والبيض يتلقون التعليم في المدارس العامة في منطقة كان زعماء ما قبل الحرب يُجَرِّمون تعليم السود وقاموا بالقليل لتوفير التعليم للبيض الأكثر فقرا، كما كانت الحكومات الجديدة رائدة في تشريعات الحقوق المدنية، حيث أصدرت قوانين تُجَرِّم التميز في خطوط السكك الحديدية والفنادق وغيرها من المؤسسات على أساس العرق، وبالرغم من التفاوت الكبير في إنفاذ هذه القوانين بين المحليات إلا أن إعادة الإعمار أسست لأول مرة على مستوى الولاية معيارًا للمواطنة المتساوية والاعتراف بحق السود في حصة من الخدمات العامة.

وقد اتخذت الحكومات الجمهورية أيضا خطوات لتقوية وضع عمال الريف وتعزيز الانتعاش الاقتصادي في الجنوب، وأقرت قوانين لضمان أن العمال الزراعيين والمزارعين المستأجرين لهم أولوية على المحاصيل بدلا من التجار الذين يدين ملاك الأرض لهم بالمال، وأنشأت ولاية "ساوث كارولينا" لجنة لأراضي الدولة التي نجحت بحلول عام 1876 في توطين 14.000 عائلة من السود وعدد قليل من البيض الفقراء في مزارعهم الخاصة.

السعي للرخاء

بيد أنه بدلاً من توزيع الأرض، علَّقت حكومات إعادة الإعمار آمالها في النمو الاقتصادي في الجنوب، وتوفير فرص للأمريكيين من أصل إفريقي والبيض الفقراء على حد سواء على التنمية الاقتصادية الإقليمية بدلاً من توزيع الأراضي، وكانت يعتقد أن بناء السكك الحديدية هو المفتاح لتحويل الجنوب إلى مجتمع من المصانع المزدهرة والمدن الصاخبة والزراعة المتنوعة، وقد أعلن سناتور جمهوري عن ولاية "تنسي" أن "تنشأ الجمهورية الحرة والحية في مسار السكك الحديدية" وقد ساعدت كل الولايات خلال إعادة الإعمار في تمويل بناء السكك الحديدية وحاولت جذب الشركات الصناعية الشمالية للاستثمار في المنطقة من خلال تخفيض الضرائب ومنح حوافز أخرى، وكانت نتائج البرنامج مختلطة، حيث ظلت التنمية الاقتصادية ضعيفة بشكل عام مع وفرة الفرص القائمة في الغرب وغامر عدد قليل من المستثمرين الشماليين لإعادة إعمار الجنوب.

قدمت حكومات إعادة الإعمار الراديكالية لمؤيديهم نمطًا معقدًا يجمع بين خيبة الأمل والإنجاز نظرًا للفشل في تحقيق إعادة تنشيط الاقتصاد الجنوبي وظل معظم الأمريكيين من أصل إفريقي حبيسي الفقر، ومن ناحية أخرى، جاء أداء الحكومة ديمقراطية ثنائية العرق التي لم تكن

معروفة في التاريخ الأمريكي فعالا لأول مرة في أجزاء كثيرة من الجنوب حيث أُعِيد بناء المرافق العامة والتوسع فيها وتأسيس الأنظمة المدرسية والأنظمة القانونية الخالية من العنصرية، ووجدت النخبة المحافظة التي هيمنت على حكومة الجنوب من عصور الاستعمار وحتى عام 1867 نفسها مستبعدة من السلطة السياسية كان البيض الفقراء والقادمون الجدد من الشمال والعبيد السابقون يدلون بأصواتهم ويعملون محلفين في ساحات القضاء ويسنون ويديرون القوانين، حتى أن محامي أبيض من ولاية "ساوث كارولينا" في عام 1871 قائلا "لقد مررنا في علاقاتنا مع بعضنا البعض بأحد أكثر التغيرات روعة المعروفة، ربما، في تاريخ العالم" حتى أن رد الفعل المتطرف للغاية ضد إعادة الإعمار يعتبر في حد ذاته مقياسا لمدى تقدم التغير المحرز.

الإطاحة بإعادة التعمير

خصوم إعادة التعمير

عارض قادة الجنوب التقليديون من المزارعين والتجار والسياسيين الديمقراطيين بمرارة الحكومات الجديدة ونددوا بها باعتبارها فاسدة وغير كفؤة ونموذج على "تفوق السود" حتى أن ديمقراطيين جنوبيين بارزين أعلنوا في احتجاج أن "الذكاء والفضيلة والوطنية" في الحياة العامة قد تركوا الساحة "للجهل والغباء والرذيلة" فقد كان الفساد موجودًا بالفعل خلال فترة إعادة الإعمار ولكنه لم يكن مقصورًا على عرق أو إقليم أو حزب حيث أدى النمو السريع لميزانيات الولايات والفوائد المكتسبة من المساعدات العامة إلى حالة من الصراع على النفوذ، الأمر الذي أنتج الرشوة والتعامل بناء على معلومات سريّة من الداخل وأجواء الثراء السريع، ومع ذلك تضاءل الاحتيالات والتزوير الجنوبي بالمقارنة بالاحتيالات والتزوير التي مارسها في تلك السنوات تشكيلات عصابية؛ على سبيل المثال، مؤامرة "طوق الويسكي" التي تآمر فيها كبار المسئولين الحكوميين في إدارة الرئيس "جرانت" مع منتجي الويسكي للاحتيال على الحكومة للتهرب من ضرائب الإنتاج غير المباشرة) و"طوق تويد نيويورك" حيث شَكَّلَ السياسي "ويليام م. تويد" عصابة صلبة وقوية من الديمقراطيين الذين بلغت سرقاتهم عشرات الملايين من الدولارات وسيطروا استراتيجيا على النقاط الرئيسية في السلطة: (السلطة التشريعية والمحاكم وصناديق الاقتراع والخزينة). (سنناقش هذه التشكيلات في الفصل التالي)، وكان من الضروري رفع الضرائب لتمويل المدارس الجديدة والمرافق العامة الأخرى ولمساعدة تنمية السكك الحديدية، وقد أدى هذا الفساد الحكومي ورفع الضرائب إلى توفير سبب آخر لمعارضة إعادة الإعمار، حتى أن العديد من البيض الفقراء الذين دعموا البداية الحزب الجمهوري تحولوا ضده عندما أصبح واضحا أن وضعهم الاقتصادي لم يتحسن.

بيد أن السبب الأساسي الجوهري لمعارضة إعادة الإعمار، كان هو أن معظم الجنوبيين البيض لم يستطيعوا تقبل فكرة أن يتمتع العبيد السابقون بحقوق التصويت وتولي المناصب العامة والمساواة أمام القانون، وكانوا يعتقدون أنه لا بد من الإطاحة بإعادة الإعمار كي يستعيد البيض تفوقهم في الحياة العامة في الجنوب ولضمان قوى عاملة ومنضبطة وموثوق بها للمزارعين، ولذلك أطلقوا حملة من العنف في محاولة لإنهاء الحكم الجمهوري ومثلت أعمالهم تحديًا أساسيًّا لكل من حكومات إعادة الإعمار في الجنوب ولواضعي السياسات في العاصمة "واشنطن".

"عهد الإرهاب"

انتهت الحرب الأهلية في عام 1865 ولكن ظل العنف منتشرا بعد الحرب في أجزاء كبيرة من الجنوب، وكان معظم العنف في السنوات الأولى من إعادة الإعمار محليًّا وغير منظم كما تم الاعتداء على السود وقتلهم لمجرد رفضهم إفساح أرصفة المدينة للبيض واستخدام لغة "وقحة" معهم وتحدي اتفاقات عقود العمل في نهاية العام ومحاولة شراء الأراضي، ومع ذلك كان العنف الذي رحب بمجيء الحكومات الجمهورية بعد عام 1867 أكثر انتشارا بكثير ومدفوعا بشكل مباشر أكثر بالسياسة، ونشأت جمعيات سرية في مناطق واسعة من الجنوب بهدف منع السود من التصويت وتدمير تنظيم الحزب الجمهوري باغتيال القادة المحليين والمسئولين الحكوميين.

كانت أسوأ تلك المنظمات سمعة منظمة "كو كلوكس كلان" التي كانت بالفعل بمثابة الذراع العسكري للحزب الديمقراطي في الجنوب وهي منظمة إرهابية منذ تأسيسها في عام 1866 في ولاية "تنيسي" وسرعان ما انتشرت في كل ولايات الجنوب تقريبًا بقيادة المزارعين والتجار والسياسيين الديمقراطيين، وهم الرجال الذين أحبوا أن يبدوا في مظهر "مواطني الجنوب المحترمين" وارتكبوا بعض أكثر الجرائم وحشية في التاريخ الأمريكي، وأطلقوا في العديد من المقاطعات ما أسماه أحد الضحايا "عهد الإرهاب" ضد قادة الحزب الجمهوري سواء السود أو البيض.

واشتمل ضحايا "كلان" على جمهوريين بيض، ومنهم الاتحاديون والمسئولون المحليون والمعلمون ومنظمو الحزب أثناء الحرب، فعلى سبيل المثال، تم إعدام "وليام لوقا" المدرس الأيرلندي المولد في مدرسة للسود بدون محاكمة في عام 1870، لكن القادة السياسيين المحليين الأمريكيين من أصل إفريقي الذين تمكنوا من الحصول على الأرض وغيرهم ممن تحدوا بطريقة أو بأخرى قواعد تفوق البيض تحملوا العبء الأكبر من وطأة العنف، ففي مقاطعة "يورك" بولاية "ساوث كارولينا" انضم ما يقرب من كل السكان البيض الذكور لمنظمة كلان الإرهابية (بينما شارك النساء أيضا من خلال خياطة العباءات وأغطية الرأس التي يرتديها أعضاء المنظمة من الرجال على سبيل التنكر) وارتكبوا أحد عشر جريمة قتل ومئات من حالات الجلد.

وقد تصاعدت أعمال العنف في بعض الأحيان من الاعتداءات على الأفراد إلى الإرهاب الجماعي وحتى التمرد المحلي، حيث تم قتل حوالي ثلاثين من السود بدم بارد في "ميريديان" بولاية "مسيسبي" في عام 1871 وكذلك قاضي جمهوري أبيض، وقد وقعت أكثر حوادث العنف دموية خلال فترة إعادة الإعمار في "كولفاكس" بولاية "لويزيانا" في عام 1873، حيث اعتدى البيض المسلحون على البلدة الصغيرة بالمدفع وقتلوا مئات من العبيد السابقين، بما في ذلك خمسين عضوًا بوحدة ميليشيا من السود بعد استسلامهم.

نظرًا لعجز الحكومات الجنوبية الجديدة عن قمع منظمة "كلان"، ناشدت واشنطن المساعدة، وبالفعل أقر الكونجرس في عامي 1870 و1871 ثلاثة قوانين للإنفاذ تجرم الجمعيات الإرهابية وتسمح للرئيس استخدام الجيش ضدهم، واستمرت هذه القوانين في توسيع السلطة الوطنية خلال فترة إعادة الإعمار، وعرَّفَتْ الجرائم التي تهدف إلى حرمان المواطنين من حقوقهم المدنية والسياسية بأنها جرائم فيدرالية وليس مجرد انتهاكات لقانون الولاية، وأرسل الرئيس "جرانت" في عام 1871 مارشالات مدعومين بقوات من الجنود إلى بعض المناطق لاعتقال مئات أعضاء منظمة "كلان" المتهمين الذين فر العديد من زعماؤهم إلى الجنوب وبعد سلسلة من المحاكمات التي حظيت بتغطية إعلامية جيدة اختفت هذه المنظمة من الوجود وعَمَّ السلام في عام 1872 في أكثر من المناطق الكونفدرالية السابقة للمرة الأولى منذ الحرب الأهلية.

الجمهوريون الليبراليون

على الرغم من تصدي إدارة "جرانت" الناجعة لإرهاب "كلان"، إلا أن التزام الشمال بإعادة الإعمار تضاءل خلال السبعينيات من القرن التاسع عشر، حيث اختفى العديد من الراديكاليين من المشهد، بما في ذلك "ثاديوس ستيفنز" الذي توفي في عام 1868، واحتل مكانهم داخل الحزب الجمهوري ساسة أقل التزاما لمبادئ ومُثُلْ المساواة في الحقوق للسود، وبدأ الشماليون يشعرون على نحو متزايد أن الجنوب يجب أن يكون قادرا على حل مشاكله دون تدخل مستمر من واشنطن، فالحكومة الاتحادية حررت العبيد وجعلتهم مواطنين ومنحتهم الحق في التصويت لذلك يجب على السود الآن الاعتماد على مواردهم بدلا من المطالبة بالمزيد من المساعدة.

شكلت مجموعة مؤثرة من الجمهوريين في عام 1872 حزبًا خاصًا بها لأنهم نفروا من الفساد داخل إدارة "جرانت"، ولاعتقادهم بأنه ينبغي تقليص نمو السلطة الاتحادية أثناء وبعد الحرب، وكان من بينهم مؤسسو الحزب الجمهوري مثل "ليمان ترمبل" ومحررون وصحفيون بارزون في جريدة "الأمة" مثل "ي. ل. جدكن"، وأطلقت هذه المجموعة على أنفسهم اسم "الليبراليون الجمهوريون" ورشحوا "هوراس جريلي" المحرر بجريدة "نيويورك تريبيون" لمنصب رئيس الحزب.

كان لنفور الليبراليين من إدارة "جرانت" في البداية علاقة قليلة بإعادة الإعمار، حيث زعموا أن السياسيين الفاسدين قد وصلوا للسلطة في الشمال عن طريق التلاعب في أصوات المهاجرين والعمال بينما تم دفع النخبة الموهوبة والمتعلمة مثلهم بعيدا؛ ومع ذلك، وجدت انتقادات الديمقراطيين لإعادة الإعمار جمهورا متقبلا بين الليبراليين. كما هو الحال في الشمال، أصبح هناك قناعة بأنه قد تم استبعاد "أفضل الرجال" في الجنوب من السلطة بينما يتحكم الناخبون "الجاهلون" في السياسة وإنتاج الفساد وسوء الحكم وأنه ينبغي إعادة السلطة في الجنوب إلى "القيادات الطبيعية" في المنطقة، ودعا "جريلي" الأمريكيين مرارا وتكرارا خلال الحملة الانتخابية لعام 1872 إلى "تشابك الأيادي معا حتى يستطيعوا اجتياز الهوة الدامية بنجاح" وذلك من خلال إلقاء الحرب الأهلية وإعادة الإعمار وراء ظهورهم.

قضى "جريلي" معظم مسيرته أولاً كعضو في حزب الهويج ثم كجمهوري يشجب الحزب الديمقراطي، ولكن نظرا لأن انقسام الجمهوريين منح الديمقراطيين الفرصة لإصلاح حظوظهم السياسية لذلك أيد قادة الديمقراطيين "جريلي" كمرشحهم للرئاسة، إلا أن كثير من الديمقراطيين على مستوى القاعدة غير القادرين على حمل أنفسهم على التصويت لصالح "جريلي" بقوا في منازلهم في يوم الانتخابات مما ألحقه بهزيمة مدمرة من قبل خصمه في الانتخابات "جرانت" بأكبر فارق هامش في الانتخابات الرئاسية في القرن التاسع عشر بأكثر من 700.000 صوت شعبي، ومع ذلك نجحت حملة "جريلي" في وضع القضية الوحيدة التي يمكن أن يتفق عليها كل من الإصلاحيين الليبراليين والديمقراطيين، ألا وهي سياسة جديدة تجاه الجنوب، على أجندة الشماليين.

تراجع الشمال

أسهم الهجوم الليبرالي على إعادة الإعمار الذي استمر حتى ما بعد عام 1872 في عودة العنصرية في الشمال، وقد نشر الصحفي الرائد "جيمس س بايك" من مدينة "جريني" بولاية "كلورادو" المؤيد لإعادة الإعمار كتاب "الولاية الساجدة" في عام 1874 حكى فيه بطريقة مؤثرة أحداث زيارته إلى ولاية "ساوث كارولينا"، وصوَّر فيه حالة ولاية أحاط بها الفساد السياسي واستنزفها البذخ الحكومي وتخضع لهيمنة "كتلة همجية من السود"، وأصر على أن مشاكل الجنوب نشأت من "الحكومة الزنوج" ويرى أن الحل يتمثل في عودة الرواد البيض إلى السلطة السياسية، كما بدأت الصحف التي دعمت إعادة الإ عمار لمدة طويلة في إدانة مشاركة السود في حكومة الجنوب وعبَّرت عن آرائها بشكل مرئي أيضا حيث تم استبدال النقوش التي تصور العبيد السابقين كأبطال قدامى في الحرب الأهلية أو مواطنين شرفاء محترمين أو ضحايا العنف تم

استبدالها بشكل متزايد برسوم كاريكاتورية تعرضهم أعلى قليلاً من حيوانات جامحة، هذا وقد أتاحت العنصرية العائدة تبريرًا سهلاً "للفشل" المزعوم لإعادة الإعمار.

كانت هناك عوامل أخرى ساهمت أيضًا في إضعاف الدعم الشمالي لإعادة التعمير، فقد غرقت البلاد في عام 1873 في كساد اقتصادي حاد مما اضطر الجمهوريون معه للانغماس في المشاكل الاقتصادية والانصراف عن تكريس المزيد من الاهتمام إلى الجنوب، وأصاب الكساد الجنوب بضربة قاسية وزاد من ضعف احتمال أن يستطيع الجمهوريون تنشيط اقتصاد الإقليم. حقق الديمقراطيون مكاسب كبيرة في جميع أنحاء البلاد في انتخابات عام 1874، وسيطر حزبهم على مجلس النواب للمرة الأولى منذ الحرب الأهلية، وقام الكونجرس القديم بسن قانون الحقوق المدنية لعام 1875 كآخر جزء من تشريعات إعادة الإعمار قبل انعقاد الكونجرس الجديد وهو القانون الذي يُجرِّم التميز العنصري في أماكن الإقامة العامة مثل الفنادق والمسارح، ولكن كان واضحا أن الجمهوريين الشماليين كانوا يتراجعون عن إعادة الإعمار.

وأنقصت المحكمة العليا ضمانات حقوق السود التي كان أقرها الكونجرس، ففي قضايا المذبح (في عام 1873) ذهب الجزارون المستبعدون من الاحتكار الذي ترعاه الدولة في "لويزيانا" إلى المحكمة مدعين انتهاك حقهم في المساواة أمام القانون المكفول بموجب التعديل الرابع عشر للدستور، ولكن المحكمة رفضت مطالباتهم وحكمت بأن التعديل الرابع عشر للدستور لم يغير الفيدرالية التقليدية، وأعلنت أن معظم حقوق المواطنين بقيت تحت سيطرة الدولة، وفي قضية الولايات المتحدة ضد "كروكشانك" بعد ثلاث سنوات خفضت المحكمة من فعالية قوانين الإنفاذ بإهمال إدانات بعض أولئك المسئولين عن مذبحة "كولفاكس" لعام 1873.

انتصار المُخلَصين (المضحين)

كانت إعادة الإعمار بحلول منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر في موقف دفاعي بشكل واضح، حيث استعاد الديمقراطيون بالفعل الهيمنة على الولايات التي كانت غالبية الأصوات فيها للبيض مثل "تنيسي" و"نورث كارولينا" و"تكساس"، وأطلق الديمقراطيون المنتصرون على أنفسهم لقب "المخلصون" لأنهم يزعمون أنهم "افتدوا" الجنوبيين البيض من الفساد وسوء الحكم وحموهم من الشماليين ومن هيمنة السود.

اندلع العنف مرة أخرى في تلك الولايات التي استمرت فيها حكومات إعادة الإعمار ولم تبد إدارة "جرانت" في هذه المرة أي رغبة في التدخل، وعلى النقيض من أنشطة "كلان" التي قام بها رجال مقنَّعون ليلا، وقع عنف في عامي 1875 و 1876 في وضح النهار كما لو كان يُقصَد منه تأكيد قناعة الديمقراطيين بأنه ليس لديهم ما يخشونه من "واشنطن"، وفي عام 1875 قام أعضاء

نوادي الرماية الخاصة بالبيض في ولاية "مسيسيبي" بالتدريب والاعتداء على الجمهوريين وقتلهم علنا، وعندما طالب جنرال الاتحاد حاكم الولاية "أدلبرت أميس" الذي وُلِدَ في ولاية "مين" بشكل محموم مساعدة الحكومة الاتحادية رد عليه الرئيس "جرانت" بأن الجمهوريين الشماليين "تعبوا وضجروا" من مشاكل الجنوب، وفي يوم الانتخابات قام مسلحون ديمقراطيون بتدمير صناديق الاقتراع وطردوا العبيد السابقين بعيدا عن الاقتراع وبالتالي كانت النتيجة فوزا ساحقا للديمقراطيين ونهاية إعادة الإعمار في ولاية "مسيسيبي" وقد كتب "أميس" قائلا "اندلعت ثورة وتم تجريد السود من الحقوق المدنية وخاصة حق التصويت وعادوا إلى . . . عصر العبودية الثانية".

وقعت أحداثًا مماثلة في ولاية "ساوث كارولينا" في عام 1876، حيث رشَّحَ الديمقراطيون الجنرال الكونفدرالي السابق "ويد هامبتون" لمنصب حاكم الولاية الذي وعد باحترام حقوق جميع مواطني الولاية؛ ولكن أنصاره أطلقوا بإيعاز من تكتيكات الديمقراطيين في ولاية "مسيسيبي" موجة من الترهيب، ونوي الديمقراطيون إجراء الانتخابات وقد أخبر أحد المزارعين مسئولاً أسود قائلا "حتى لو اضطررنا أن نخوض بحرًا من الدماء."

الانتخابات المتنازع عليها وصفقة عام 1877

أثرت الأحداث في "ساوث كارولينا" بشكل مباشر على نتائج حملة الانتخابات الرئاسية لعام 1876، حيث رشح الجمهوريون حاكم "أوهايو" "روثرفورد ب. هايز" لِيَخْلُف الرئيس "جرانت" بينما رشح الديمقراطيون حاكم "نيويورك" "صموئيل ج. تيلدن" ليكون خصمه على منصب الرئيس القادم، ولم يكن تحت سيطرة الجمهوريين بحلول هذا الوقت سوى ولايات "ساوث كارولينا"، و"فلوريدا"، و"لويزيانا" واتضح أن الانتخابات متقاربة جدًّا بين الطرفين للحد الذي إذا نجح أي منهما في الفوز بأصوات هذه الولايات - وهو ما ادعاه كلاهما - فسيكون الرئيس القادم.

نظرًا لعدم قدرة الكونجرس على حل المأزق بنفسه، لذلك عَيَّنَ في يناير 1877 لجنة انتخابية مؤلفة من خمسة عشر عضوًا من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب وقضاة المحكمة العليا، وتفوق عدد الجمهوريين على الديموقراطيين في اللجنة بفارق صوت واحد (8-7) ولم يكن مفاجئًا لأحد أن يقرر أعضاء اللجنة بنفس هذا الهامش أن "هايز" قد اكتسب الولايات الجنوبية المتنازع عليها؛ وبالتالي تم انتخابه رئيسًا للبلاد، ولكن بالرغم من المداولات التي تمت بين اللجنة إلا أنه جرت مفاوضات بين قادة الحزبين من وراء الستار، حيث وافق ممثلو "هايز" على الاعتراف بسيطرة الديمقراطيين على الجنوب بأكمله لتفادي المزيد من التدخل في الشئون المحلية وتعهدوا أيضا بأن "هايز" سيعين جنوبيا في منصب المدير العام للبريد في مجلس الوزراء وأنه سيسعى لوصول المساعدات الفيدرالية إلى "تكساس" وخط السكك الحديدية للمحيط الهادئ عابر للقارة

من المتوقع أن يتبع الطريق الجنوبي، أما الديمقراطيون فقد وعدوا من جانبهم بألا يطعنوا في حق "هايز" في الرئاسة واحترام الحقوق المدنية والسياسية للسود.

وهكذا تم إبرام صفقة عام 1877 ولكن لم يتم الوفاء بكل بنودها، ولكن "هايز" أصبح رئيسًا وعيَّن بالفعل "ديفيد م. كي" من ولاية "تنيسي" مدير مكتب البريد العام، وسرعان ما أمر "هايز" القوات الفيدرالية بالتوقف عن حراسة مقار المجالس التشريعية بالولايات في "لويزيانا" و"ساوث كارولينا"، والسماح بالمطالبين الديمقراطيين ليصبحوا حكامًا على الولايات (وخلافًا للأسطورة، لم يقضى هايز على آخر الجنود من الجنوب ولكنه أمرهم ببساطة بالعودة إلى ثكناتهم)، أما البنود التي لم تتحقق من الصفقة فهي عدم حصول ولاية "تكساس" والمحيط الهادئ على أراضيهم أبدا، والأكثر أهمية هو تقاعس الديمقراطيين الجنوبيين المنتصرين عن الوفاء بتعهداتهم بالاعتراف بالسود كمواطنين متساوين.

نهاية إعادة الإعمار

استمر الاعمار باعتباره عملية تاريخية، وتكيف البلاد مع تدمير العبودية لفترة طويلة بعد عام 1877، حيث واصل السود التصويت وتولوا مناصب عامة في بعض الولايات في التسعينيات من القرن التاسع عشر، وإعادة الاعمار كحقبة تاريخية تميزت بانتهاء إعادة الإعمار وسيطر الجمهوريون على جزء كبير من الجنوب ومارس السود سلطة سياسية هامة؛ وقبلت الحكومة الاتحادية المسئولية عن حماية الحقوق الأساسية لجميع المواطنين الأمريكيين. على الرغم من القيود التي عانت منها عملية إعادة الإعمار، إلا أنها كانت فصلاً رائعًا في قصة الحرية الأمريكية، ولم تحاول الأمة مرة أخرى تحقيق المساواة في الحقوق لأحفاد العبيد إلا بعد قرن تقريبا، ولذلك أحيانًا ما يطلق على عصر الحقوق المدنية خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين اسم "العملية الثانية لإعادة الإعمار".

وحتى في الوقت الذي استمرت فيه إعادة الإعمار، فإنها كشفت عن بعض التوترات المتأصلة في مناقشات القرن التاسع عشر حول الحرية، فسياسة منح الرجال السود حق التصويت بينما يُحْرَمون من مزية ملكية الأراضي تعزز فكرة أن المواطن الحر يمكن أن يكون عاملاً فقيرًا وعالة غير مستقل، لقد أضافت إعادة الإعمار إلى جدول الأعمال الوطني مشكلة ستهيمن على المناقشات السياسية طوال نصف القرن القادم، ألا وهي كيفية تعريف الجوهر الاقتصادي للحرية في المجتمع الحديث.

أصـوات الحـريـة

من التماس لجنة تنوب عن المتحررين إلى الرئيس "أندرو جونسون" (1865)

أمر الرئيس "أندرو جونسون" في صيف عام 1865 بإعادة الأراضي التي تم توزيعها على العبيد المتحررين في ولايتي "ساوث كارولينا" و"جورجيا" إلى المالكين السابقين لها فقامت لجنة من هؤلاء المتحررين بصياغة التماس للحصول على حقهم في الأراضي، إلا أن "جونسون" لم يغير مع ذلك سياسته.

لقد علمنا نحن المتحررين في جزيرة "إديستو" بولاية "ساوث كارولينا" بعميق الأسف وبقلوب حزينة ومتألمة من خلال اللواء "و.و. هوارد" بأنه بناءً على أوامرك هناك احتمال أن ترد الحكومة هذه الأراضي لأصحابها السابقين. نحن ندرك جيدًا العديد من القضايا المحيرة والمرهقة التي تقع على كاهلك ولذلك ندعو الله (الحفيظ الذي أنعم علينا بالحرية منذ إعلان رئيسنا الراحل الحبيب [لنكولن] والحرب) أن يهديكم إلى القرارات الرشيدة ويمنحكم الحكمة التي تأتي من أعلى لتحل هذه القضايا الكبيرة والهامة لتحقيق الأفضل والأصلح لوطننا وللعرق الملون.

من هنا وُلِدَ وترعرع الانفصال، ومن هنا عشنا كل حياتنا في كد وتعب كعبيد ونلقى معاملة مثل الماشية البكماء التي يتم دفعها بدون أي إرادة منها. هذا هو وطننا، لقد تعبنا كثيرًا في رعاية هذه الأراضي ولذلك فنحن الشعب الوفي والمخلص الوحيد الذي يمتلك هذه الأراضي، كنا دائمًا على استعداد لنضحي من أجل الحرية والإنسانية، نعم وعلى استعداد للحرب إذا لزم الأمر للمحافظة على هذه الوحدة الجيدة، أليس لنا نحن المتحررين بعد كل ذلك الحق في نفس الحقوق التي يتمتع بها الآخرون؟ أليس من حقوقنا كشعب حر ومواطنين صالحين للولايات المتحدة أن نحظى بأولوية على هؤلاء المتمردين ضد هذه الحكومة الجيدة والعادلة؟

لقد تعرضنا لسوء المعاملة والظلم لسنوات طويلة، ألا يشفع لنا هذا للحصول على امتياز شراء الأرض بدلا من أن نظل خاضعين لإرادة أصحاب هذه الأراضي الكبيرة لا سمح الله؟ إن احتكار الأراضي ضار للنهوض بمسار الحرية، وإذا لم تقم الحكومة بإصدار بعض الأحكام نستطيع نحن المتحررين الحصول بموجبها على منزل وأرض فلن تتحسن أوضاعنا.

نتطلع إليكم سعيا للحماية والحقوق المتساوية مع امتياز شراء منزل وأرض هنا في قلب "ساوث كارولينا".

مستخرج من عقد مزارعة (1866)

كان عدد قليل من العبيد السابقين قادرين على الحصول على أراضي في الجنوب بعد الحرب الأهلية، ولكن انتهى معظمهم مزارعين مستأجرين يعملون على الأراضي المملوكة للبيض في مقابل حصة من المحصول في نهاية موسم الزراعة، وهذا العقد نموذج لآلاف العقود التي نشأت في ولاية "تينيسي" وقد وقع العمال بحرف : لأنهم أميين.

يوافق "توماس ج. روس" بموجب هذا العقد على استخدام المتحررين لزراعة ورعاية محصول في مزرعته في "روزتاون" وفقًا للقواعد والأنظمة التالية وفي مقابل المكافآت المذكورة أدناه.

يوافق "روس" على تقديم الأرض للزراعة وعدد كاف من البغال والخيول وإطعامهم من أجل زراعة المحصول المذكور وكذلك جميع الأواني والأدوات للقيام بالزراعة، وأن يمنح العاملين المتحررين الذين تظهر أسماؤهم أدناه نصف كل من محصول القطن والذرة والقمح الجاري زراعتها في المكان المذكور لعام 1866 بعد خصم كل النفقات اللازمة التي تتراكم على تلك المحاصيل. بالإضافة إلى قيام العمال المتحررين بزراعة المحاصيل ورعايتها حتى الحصاد ثم القيام بالحصاد وحملها للسوق وبيعها، يوافق هؤلاء العمال المتحررون مع "توماس ج. روس" أنه مقابل نصف المحاصيل المذكورة آنفًا فإنهم سيزرعون ويربون تحت رقابة وإشراف وإدارة "روس" المذكور بحسن النية محاصيل القطن والذرة والشوفان تحت إدارته خلال عام 1866، وقد وافقنا نحن المتحررين على تزويد أنفسنا وأسرنا بالملابس والمؤن والأدوية ودفع الفواتير الطبية وكل شيء، وكل نوع من أنواع النفقات الأخرى التي قد نتكبدها في المزارع خلال عام 1866 بدون أي تكاليف على "روس" المذكور ولكن تخصم من العائدات الصافية من نصيبنا من المحصول بسعر التجزئة في المقاطعة في وقت البيع أو بأي ثمن قد نتفق عليه - سيحتفظ "روس" المذكور بدفتر حسابات لكل شخص أو لكل رئيس عائلة لتعديل وتسوية الحساب عند نهاية العام.

وعلاوة على ذلك، نلزم أنفسنا تجاه "روس" المذكور ببذل العمل الجيد لمدة عشر ساعات في اليوم في المتوسط في فصلي الشتاء والصيف. . . ونوافق أيضًا على أننا سوف نفقد الأجر على كل الوقت الضائع أو ندفع مقابله بمعدل دولار واحد في اليوم الواحد، فيما عدا الأيام الممطرة. أما في حالة المرض وعند وضع المرأة لطفل فهي تخسر الوقت ويتم منح مقابل ذلك الوقت لليد العاملة الأخرى التي ستتولى عملها . . . .

ونتعهد بموجب هذا العقد أيضًا بأن نطيع أوامر "روس" المذكور في كل شيء خاص بالاضطلاع بتنفيذ وإدارة المحاصيل المذكورة خلال العام المذكور وأن يتم تخفيض الأجر في حالة

العصيان. إن الجميع مسئولون أمام "روس" المذكور عن جميع الأواني والأدوات الخاصة بالزراعة الموجودة حاليًا أو التي قد تتوفر للمتحررين لاحقا خلال عام 1866 ومسئولون أيضًا أمام "روس" المذكور إذا أسأنا عمدًا أو بالإهمال التعامل أي من ممتلكات وزراعة "روس" المذكور خلال العام، وسوف يتم خصم الأضرار التي سيتم تقييمها من أجورنا.

الموقعون: صموئيل (X) جونسون، توماس (X) ريتشارد ، تيني (X) فيتش، جيسي (X) سيمونز،سف ((X برودن ، هنري (X) برودن ، فرانسيس (X) برودن ، إيليا (X) سميث

<u>أسئلة:</u>

1- لماذا يعتقد مقدمو الالتماس السود أن امتلاك الأراضي أمر ضروري للتمتع بالحرية؟

2- كيف قَيَّدَ العقد حرية العمال؟

3- إلى ماذا تشير هذه الوثائق حول التعريفات المتنافسة لحرية السود في أعقاب القضاء على العبودية؟

أسئلة المراجعة:

1- لاحظ الجنرال الكونفدرالي "روبرت ريتشاردسون" السابق في عام 1865 أنه "لا يملك العبيد المحررون شيئا لأنه لم يتم منحهم أي شيء سوى الحرية." اشرح ما إذا كان هذا تقييمًا دقيقًا لإعادة الإعمار بعد اثني عشر عاما.

2- انقسمت الحركة النسائية إلى منظمتين وطنيتين منفصلتين ويرجع ذلك جزئيا إلى أن التعديل الخامس عشر للدستور لم يمنح النساء حق التصويت. اشرح لماذا انقسمت المجموعتان.

3- اشرح مدى أهمية العائلات السوداء والكنائس والمدارس وغيرها من المؤسسات لتنمية ثقافة الأمريكيين الأفارقة والنشاط السياسي في هذه الفترة.

4- لماذا أصبحت ملكية الأراضي والسيطرة على العمالة نقطة خلاف رئيسية بين العبيد السابقين والبيض في الجنوب؟

5- ما هي الوسائل التي سعى البيض الجنوبيون من خلالها إلى الحد من الحقوق المدنية وحريات الأمريكيين الأفارقة؟

6- كيف أدى فشل الإصلاح الزراعي والفقر المستمر إلى أشكال جديدة من العبودية لكلا من السود والبيض؟

7- ما الذي تسبب في المواجهة بين الرئيس "جونسون" والكونجرس بشأن سياسات إعادة الإعمار؟

8- ما هي القضايا والتوجهات والمواقف الوطنية التي تضافرت لإنهاء إعادة الإعمار بحلول عام 1877؟

9- كيف كانت حالة العبيد السابقين في الولايات المتحدة بحلول عام 1877 بالمقارنة مع حالة المحررين في جميع أنحاء العالم؟

أسئلة الحرية:

1- كيف تغيرت تعريفات الحرية بعد الحرب الأهلية بالنسبة للأمة وللمحررين وللبيض الجنوبيين؟

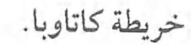
2- اذكر واشرح العناصر الرئيسية للحرية بالنسبة للعبيد السابقين.

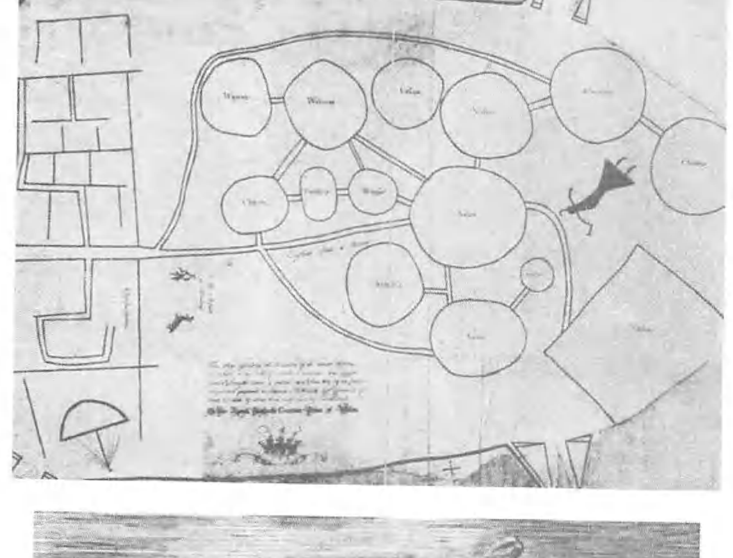
3- رأينا في النص أن "إعادة الإعمار أعادت رسم حدود الحرية الأمريكية". كيف توسعت هذه الحدود بالنسبة لبعض المواطنين ولكنها ظلت مغلقة أو مقيدة بالنسبة للآخرين؟

جدول المراجعة		
إعادة صياغة التعديلات الدستورية		
التعديل	تاريخ التصديق عليه	أحكامه
الثالث عشر	1865	إنهاء العبودية.
الرابع عشر	1868	ضمانات الحماية الفيدرالية لحقوق المواطنة والمساواة في الحقوق بموجب القانون.
الخامس عشر	1870	حظر القيود على حق التصويت على أساس العرق أو اللون أو شروط وأحوال سابقة من العبودية.

ملحق الصور

صور من الفصل الأول





خريطة كاتاوبا.

المصدر : Library of Congress



نساء هنديات يزرعن المحاصيل بينما يقوم الرجال بتقليب التربة وحرثها. نقش لثيودور دي براي، مستمد من لوحة رسمها جاك لي موين دي مورجو.

المصدر : Library of Congress

رسم توضيحي من مخطوطة هيوكتزينكو كوديكس (1531) يُظهر الميكسيكيون وهم يقدمون السلع والخدمات كضريبة للغزاة الإسبان.

المصدر : Courtesy of the Library of Congress, Huexotzinco Codex, Painting V, Manuscript 1531



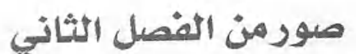
الغـــزاة الإســـبان يقتلـــون الهنـــود في كوزكو، بيرو في العصر الحالي. رســم الفنـــان ثيـــودور دي بـــراي، الهولنـــدي المولد، وأبنائه عـشرة مجلـدات حـول استكشاف العالم الجديد والتي نُشرت بين عامي 1590-1618.

المصدر : Library of Congress



أكوما، "مدينـة الـسماء" كـما كانـت تبدو عام 1904.

المصدر : Library of Congress, Prints & Photographs Division, Edward S. Curtis Collection



صور من الفصل الثاني



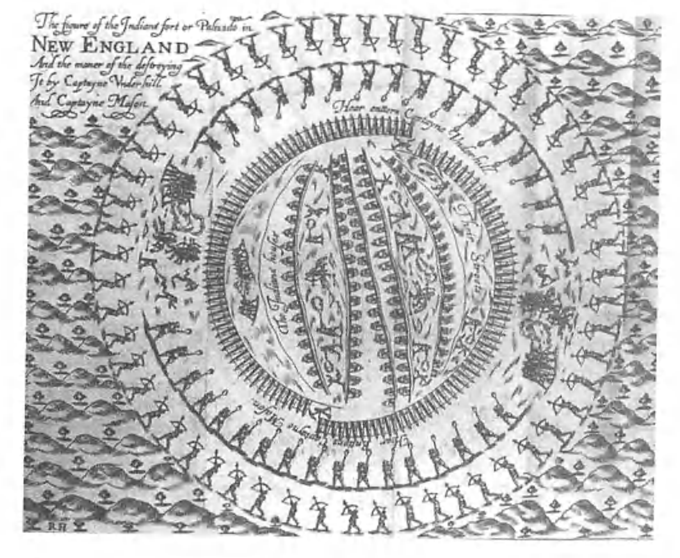
نقـــش ثيـــودور دي بـــراي لانتفاضـــة الهنود في فرجينيـا عـام 1622، حيـث يـــصور الهنـــود وهـــم يـــذبحون المستعمرين العُزل (والـذين يظهـرون غير مسلحين رغم أن الكثيرين مـنهم كان يمتلكون أسلحة)

المصدر : Library of Congress



صـفحات مـن كتـاب المـزامير، أول كتاب طُبع في أمريكا، 1640.

المصدر : Library of Congress



نقـش مـن كتـاب جـون آنـدرهيل "أخبار من أمريكا" الذي نُـشر عـام 1638 في لندن، ويصور الدمار الـذي لحق بقرية بيكـوت الواقعـة عـلى نهـر ميستك عام 1637.

المصدر : Library of Congress



لوحة للشاعرة فيليس ويتلي.

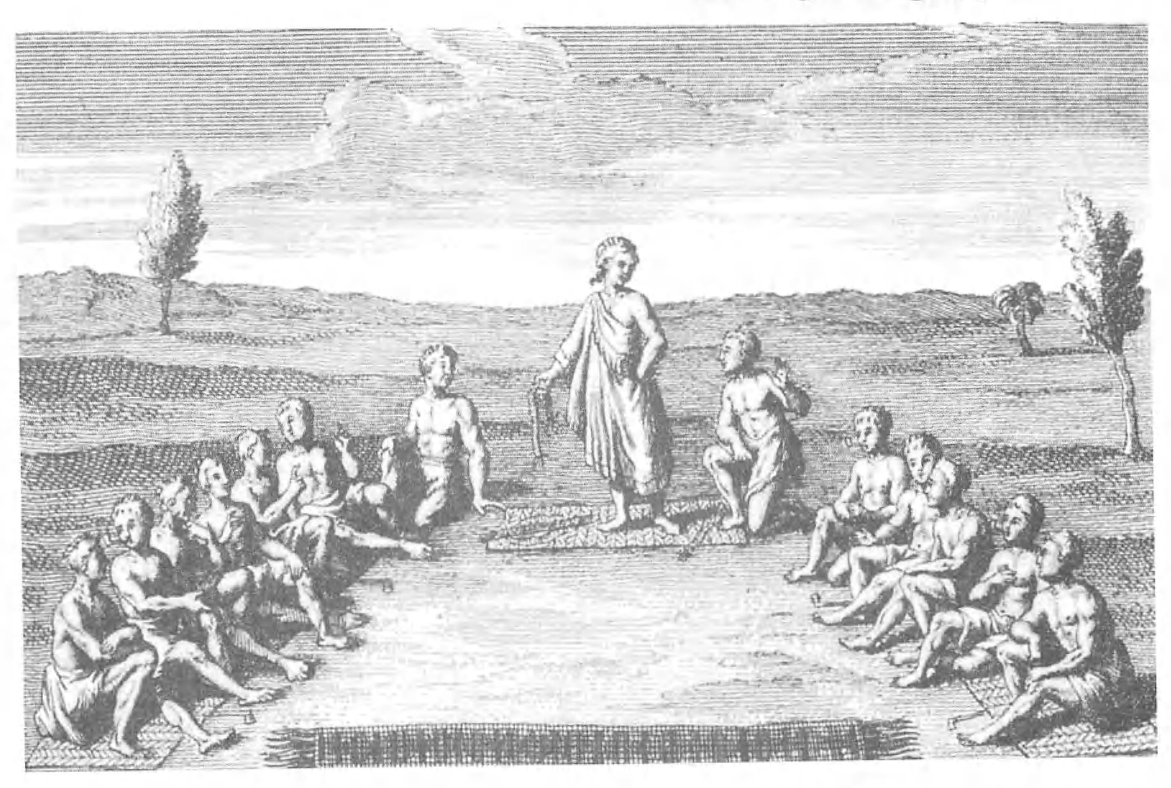
المصدر : Library of Congress



مجزرة بوسطن، نقش قام به بول ريفيري عام 1770 بعد أقل مـن شهر من الحادثة التي راح ضحيتها خمسة من المستعمرين.

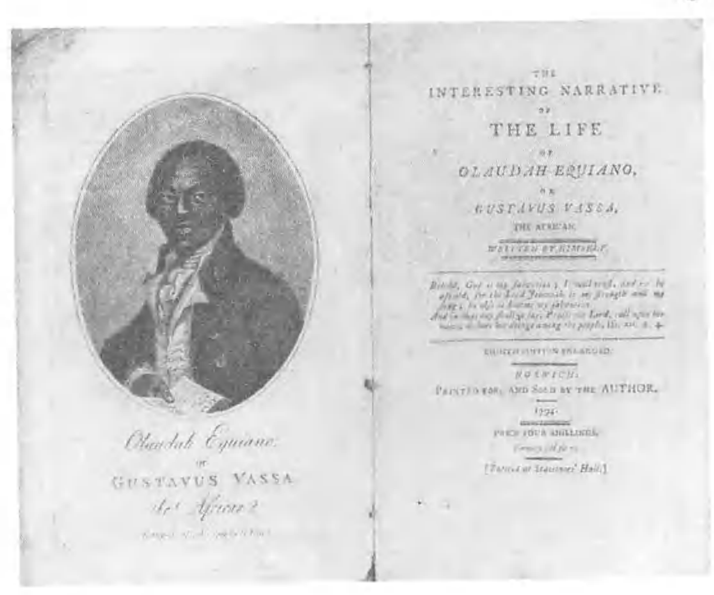
المصدر : Library of Congress

صور من الفصل الثالث



نقش يمثل المجلس الأعلى لأمة الإيروكوا الخمسة التي تمثل ولاية نيويورك في الوقت الحاضر.
المصدر : Library of Congress

صور من الفصل الرابع

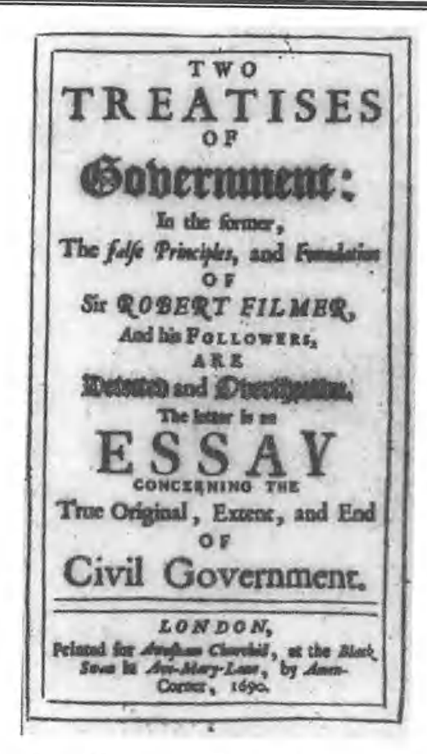


Olaudah Equiano
or
GUSTAVUS VASSA
the African

THE
INTERESTING NARRATIVE
OF
THE LIFE
OF
OLAUDAH EQUIANO,
OR
GUSTAVUS VASSA,
THE AFRICAN.
WRITTEN BY HIMSELF.

EIGHTH EDITION ENLARGED.
NORWICH:
PRINTED FOR, AND SOLD BY THE AUTHOR.
1794.
PRICE FOUR SHILLINGS.
[Entered at Stationers' Hall.]

صفحة عنوان كتاب قصة حياة "أولوده إكوايانو "أفضل قصة كتبها أحد عبيد القرن الثامن عشر.
المصدر : Library of Congress


TWO
TREATISES
OF
Government:
In the former,
The false Principles, and Foundation
OF
Sir ROBERT FILMER,
And his FOLLOWERS,
ARE
Detected and Overthrown.
The latter is an
ESSAY
CONCERNING THE
True Original, Extent, and End
OF
Civil Government.

LONDON,
Printed for Awnsham Churchill, at the Black Swan in Ave-Mary-Lane, by Amen-Corner, 1690.

كتاب جون لوك" مقالتان عن الحكومة.

المصدر : Library of Congress

a vote of Council of November 2d 1734 ordered this Paper to bee burnt by the hands of the common hangman, near the Pillory.

Numb. VII.

THE
New-York Weekly JOURNAL.

Containing the freshest Advices, Foreign, and Domestick.

MUNDAY December 17, 1733.

Mr. Zenger;

I AM told your Encouragement has so far exceeded your Expectation, that you have sold off almost three Editions of some of Your Papers.

In all publick Papers great Regard is to be had to Truth; but your No. V. *Article* New-York, Dec. 3d. *where it is said,* That the Inhabitants of Cape *Brittoun* were destitute of Provisions, and that to supply the Want of them the Sloop *Le Cesar* was sent hither, *did not meet with intire Credit,] because it was supposed to be taken from the* New-York Gazette, N. 422. *which, if I am rightly informed, is a Paper known to be under the Direction of the Government; in which the Printer of it is not suffered to insert any Thing but what his Superiors approve of, under the Penalty of losing* 50 L. per annum *Salary, and the Title of* The King's Printer for the Province of New-York. *I wont pretend to give the Reasons why that Paragraph was put into the* New-York *Gazette leaving that to those who directed it: But if Credit may be given to the following Affidavits, that Paragraph is far from true. I have been favoured with the following Depositions which I send you with this to make publick, which I believe will be kindly received by your Readers. I have concealed the Name of the Magistrate before whom they were taken, because, it being common to take Affidavits without reading them, he might be ignorant of their Contents.*

B.

WILLIAM LIGGET late of *Boston*, Mariner, aged about 22 Years, being duly sworn on the holy Evangelists, on his Oath declareth, That some Time in *September* last he sailed from *Boston*, to *Cape Brittoun* in the Sloop five Brothers, and arrived about the 4th of *October* at *Cape Brittoun*, *Amice M. Jersey* was then Master of the Sloop, who sold the said Sloop to *Charles Boy*, says that all the Time he was at *Cape Brittoun*, he heard of no Scarcity of Provisions, tho' he was ashoare at *Louisburgh* every Day, until the Time they were coming away, and then they heard it only from the Gentlemen and People that came along with them in the Vessel, which Vessel is the said Sloop *Five Brothers*, by the Name of *Le Cesar*, that sailed this Day from *New-York*: Says, he verily believes there was no Scarcity of Provisions there, not only because he heard nothing of it in *Louisburgh*; but also while he was there, there came a Ship and a Brigantine from *Canada*, and a Scooner from *Piscataway*, with Provisions; and as they were coming out they spoke with a Sloop and a Brigantine from *Piscataway* going into *Louisburgh*, which he verily believes were carrying Provisions, because he saw live Stock on the Deck of the Sloop, and particularly a large Quantity of Sheep. And as to the Brigantine, she being deep Wasted, he saw not what was on the Deck, but saw Hay on the Quarter-Deck. Says, that he heard *Louisburg* has been strongly fortified by three Forts to hinder the coming in of Vessels. Says, the first of these Forts they came within twenty Yards of both in going in and coming out, and has heard that Vessels must come within less than one Hundred Yards of it, and thinks that Fort is able to sink any Vessel that can attempt to go in. The three Forts he heard were compleated, and a Wall is now building across the Neck of Land on which *Louisburg* stands, and that it wanted about One Hundred Yards in Length of being finished. Says, That during the Voyage from Cape *Brittoun* hither, a Gentleman, who he heard was called *Laron*, was very busy with a Chart, or Map; and says, that they made the Land about *Shrewsbury* in coming hither, and that the Lead was kept going from about Ten Leagues from the Land till they came up to the City of *New-York*. Says, That there was one *Jordine*, was Pilot and Linguister from Cape *Brittoun* on Board, who shewed all

صحيفة نيويورك الأسبوعية، 12 ديسمبر 1733.

المصدر : Library of Congress


THE
AMERICAN MAGAZINE,
PRÆVALEBIT ÆQUIOR.
AND
MONTHLY CHRONICLE for the BRITISH Colonies.
Vol. I. No. VI. FOR MARCH 1758.
CONTAINING,
I. DEBATES in MARYLAND.
II. PHILOSOPHICAL MISCELLANY.
III. MONTHLY ESSAYS.
IV. POETICAL ESSAYS.
V. HISTORY of the WAR in NORTH AMERICA.
VI. MONTHLY CHRONICLE.
To be continued (Price One Shilling Pennsylvania Currency each Month)
By a SOCIETY of Gentlemen.
PHILADELPHIA:
Printed and Sold by WILLIAM BRADFORD, at the Corner-House in Front and Market-Streets.

غـلاف لمجلـة تـم نـشرها في بنـسلفانيا عـام 1758 توضح كل من الإنجليـز والفرنـسيين وهم يحاولون تبادل التجارة مع أحد الهنود.

المصدر : Library of Congress



قام بنيامين فرانكلين برسم هذه الصورة الشهيرة عام 1754، مطالبًا المستعمرات البريطانيـة بأمريكـا الـشمالية بالاتحـاد في مواجهة الفرنسيين.

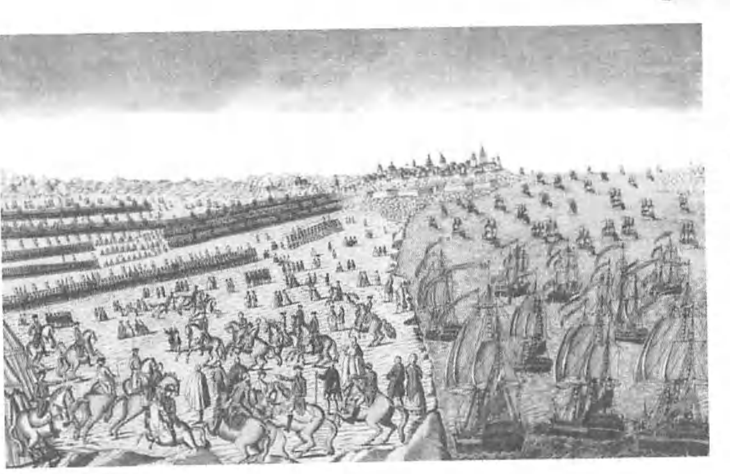
المصدر : Library of Congress



رسم كرتوني بعنوان" المرشح المزدري للمقدسات "مستنكرًا ويليام جينينجز برايان.

المصدر : Library of Congress

صور من الفصل الخامس



نقش فرنسي لعام 1781 يُظهر استسلام جيش اللورد تشارلز كورنواليس بيورك تاون، منهيًا بذلك حرب الاستقلال. بينما كان الأسطول الفرنسي يرسو بعيداً عن الشاطئ بقليل.

المصدر : Library of Congress



تصوير خيالي- يرى فيه المستعمرون الضرائب التي أقرها البرلمان كسطو مسلح بينما تسقط بريطانيا في حفرة تم إعدادها للآخرين.

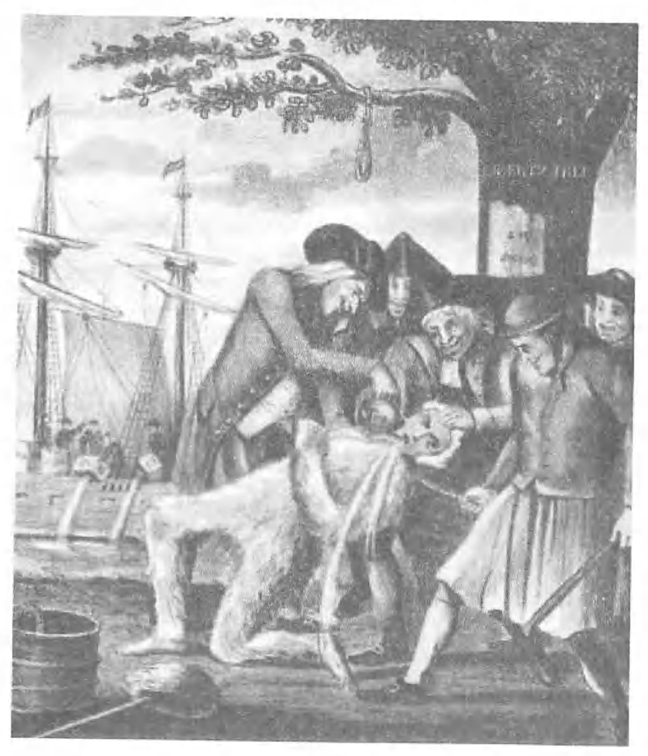
المصدر : Library of Congress



مجزرة بوسطن، نقش لعام 1770 رسمه بول ريفيري بعد أقل من شهر من الحادث الذي راح ضحيته خمسة مستعمرين.

المصدر : Library of Congress

(مكرر)



مواطنو بوسطن يدفعون الضريبة للجابي (المستعمرون الغاضبون يصبون الشاي في حلق جابي الضرائب أمام شجرة الحرية المزينة بعقدة حبل المشنقة)

المصدر : Library of Congress



رقصة المينوويت البطيئة"، رسم كرتوني يُظهر الخوف الذي أثاره قانون كويبك"

المصدر : Library of Congress

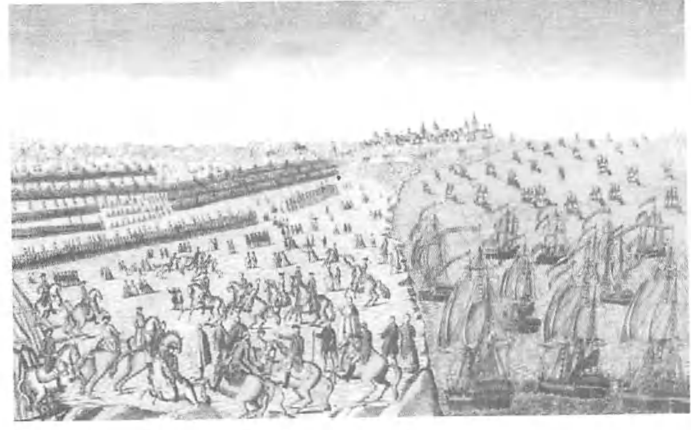
A Declaration by the Representatives of the UNITED STATES
OF AMERICA, in General Congress assembled.

When in the course of human events it becomes necessary for one people to dissolve the political bands which have connected them with another, and to assume among the powers of the earth the separate and equal station to which the laws of nature & of nature's god entitle them, a decent respect to the opinions of mankind requires that they should declare the causes which impel them to the separation.

We hold these truths to be self-evident; that all men are created equal; that they are endowed by their creator with inherent & inalienable rights; that among these are life, liberty, & the pursuit of happiness; that to secure these rights, governments are instituted among men, deriving their just powers from the consent of the governed; that whenever any form of government becomes destructive of these ends, it is the right of the people to alter or to abolish it, & to institute new government, laying it's foundation on such principles & organising it's powers in such form, as to them sh...

المسودة الأولى لإعلان الاستقلال بخط توماس جيفرسون

المصدر : Library of Congress



نقش فرنسي لعام 1781 يُظهر استسلام جيش اللورد تشارلز كورنواليس بيورك تاون، منهيًا بذلك حرب الاستقلال. بينما يرسي الأسطول الفرنسي بعيدا عن الشواطئ بقليل.

المصدر : Library of Congress



ملصق " :سيحارب الأمريكيون دائما من أجل الحرية 1778-1943"

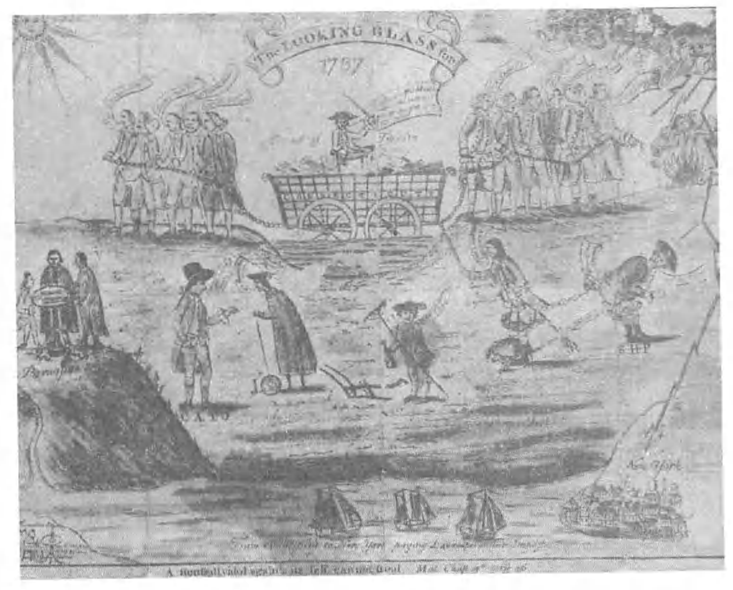
المصدر : Library of Congress



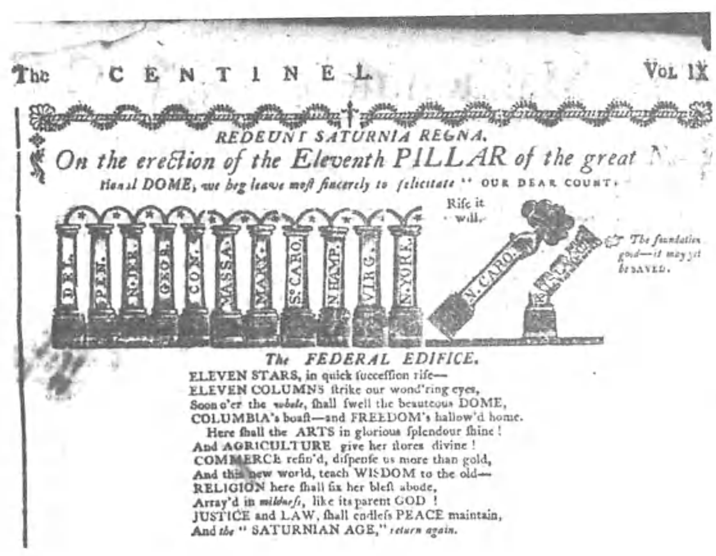
ملصق للفنان فيرا بوك لمشروع الفنون الفيدرالي لإدارة تطور الأعمال يصور المزارعين والعمال يشبكون أيديهم معا لتحقيق الازدهار. المصدر : Library of Congress



مقر حكم ولاية فيلادلفيا، جيمس ترينشارد بعد تشارلز دبليو. بييل.
المصدر : **Library of Congress**



نقش ساخر لأموس دوليتل، يوضح بعض القضايا محل الخلاف بالنسبة للتصديق على الدستور.
المصدر : **Library of Congress**



The CENTINEL. Vol IX

REDEUNT SATURNIA REGNA.

On the erection of the Eleventh PILLAR of the great National DOME, we beg leave most sincerely to felicitate " OUR DEAR COUNT

The FEDERAL EDIFICE.

ELEVEN STARS, in quick succession rise—
ELEVEN COLUMNS strike our wond'ring eyes,
Soon o'er the *whole*, shall swell the beauteous DOME,
COLUMBIA's boast—and FREEDOM's hallow'd home.
Here shall the ARTS in glorious splendour shine!
And AGRICULTURE give her stores divine!
COMMERCE refin'd, dispense us more than gold,
And this new world, teach WISDOM to the old—
RELIGION here shall fix her blest abode,
Array'd in *mildness*, like its parent GOD!
JUSTICE and LAW, shall endless PEACE maintain,
And *the* " SATURNIAN AGE," *return again.*

نقش وقصيدة لعام 1788، بعد تصديق نيويورك على الدستور.
المصدر : **Library of Congress**

صور من الفصل الثامن



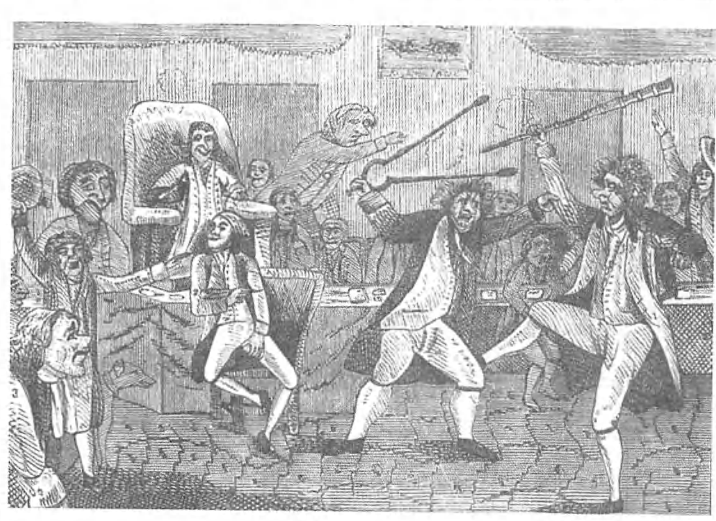
"أظهر الاحترام للمحراث"، مجلة كولومبية، 1786.

المصدر: Library of Congress



رسم كرتوني فيدرالي يصور الحرية ترضعها الأم موب، 1807.

المصدر: Library of Congress



ملاكمة جماعية، ساحة الكونجرس بفلادلفيا، 2 فبراير 1798.

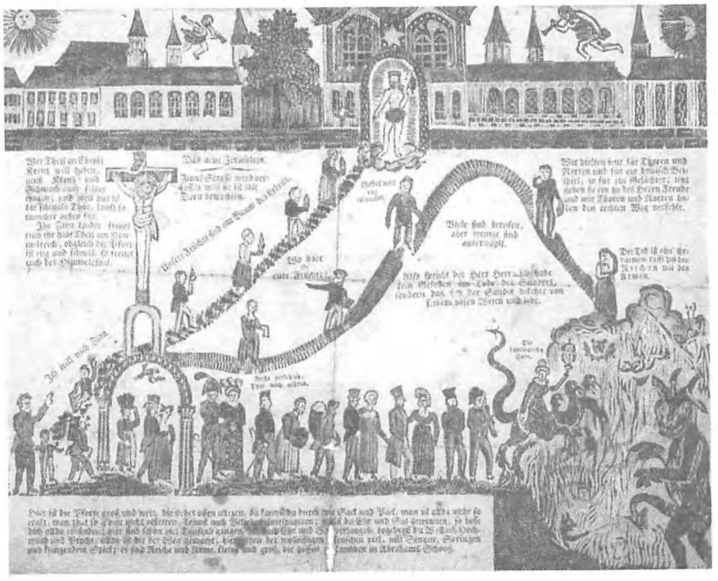
المصدر: Library of Congress

صور من الفصل التاسع



"طاحونة على أرض براندي واين".

المصدر : Library of Congress



داس نيو جوريساليم، بالرسم المائي.

المصدر : Library of Congress



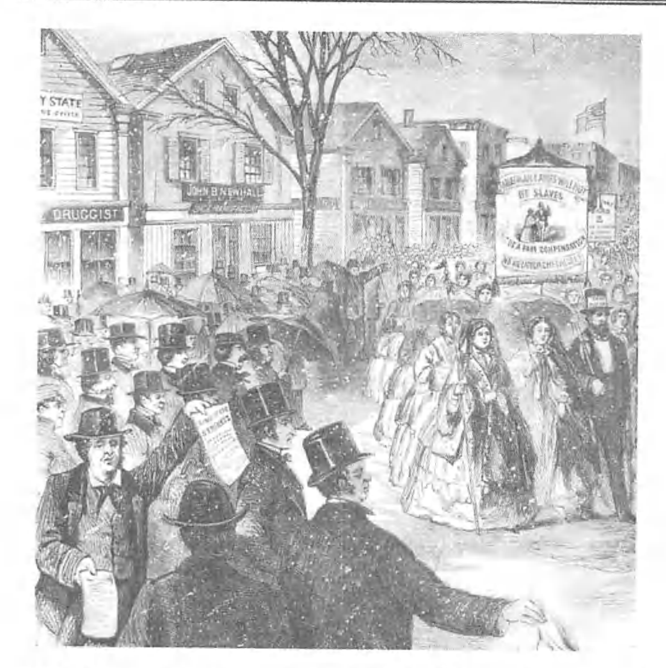
جوليان جاين تولمان.

المصدر : Library of Congress



سيدة تعمل على ماكينة خياطـة، في صـورة فوتوغرافية لا تحمل تاريخا.

المصدر : Library of Congress



"إضراب صانعي الأحذية في لـين، رسـم توضـيحي لفرانـك ليسلي بأحد الصحف، 17 مارس 1860".

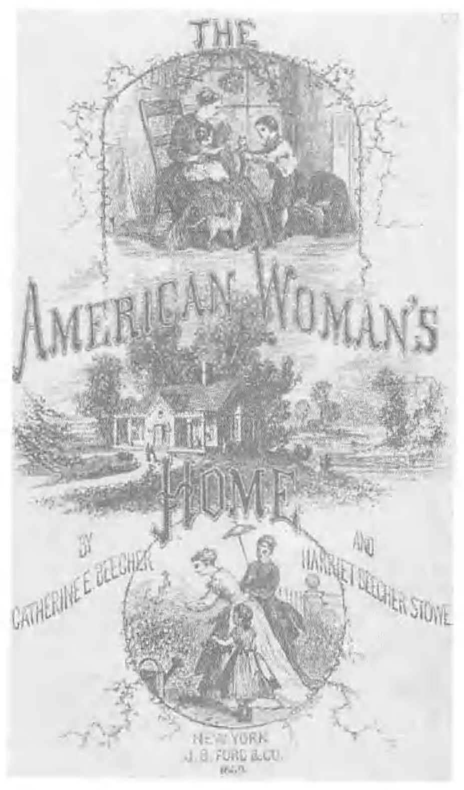
المصدر : Library of Congress

صور من الفصل العاشر



الملك أندرو الأول.

المصدر : Library of Congress



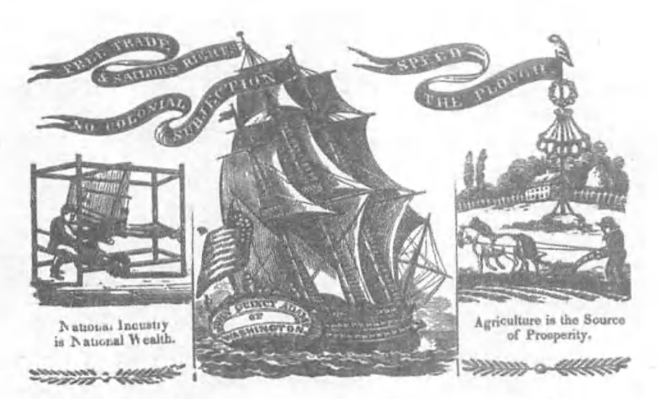
موطن النساء الأمريكيات "أخوات ستوو" الدليل المحلي.

المصدر : Library of Congress



داندي جيم، قطعة من ورقة موسيقى من عام 1843.

المصدر : Library of Congress



خطاب لاذع لعام 1824 بعنوان" لا للخضوع الاستعماري".

المصدر : Library of Congress



Jackson Forever!
The Hero of Two Wars and of Orleans!
The Man of the People!
HE WHO COULD NOT BARTER NOR BARGAIN FOR THE
PRESIDENCY!
Who, although "*A Military Chieftain*," valued the purity of Elections and of the Electors, MORE than the Office of PRESIDENT itself! Although the greatest in the gift of his countrymen, and the highest in point of dignity of any in the world,
BECAUSE
It should be derived from the
PEOPLE!
No Gag Laws! No Black Cockades! No Reign of Terror! No Standing Army or Navy Officers, when under the pay of Government, to browbeat, or
KNOCK DOWN
Old Revolutionary Characters, or our Representatives while in the discharge of their duty. To the Polls then, and vote for those who will support
OLD HICKORY
AND THE ELECTORAL LAW.

خطاب لاذع بعنوان" جاكسون للأبد".

المصدر : Library of Congress



الاستبداد، الحكم الفوضوي والانفصال "رسم كرتوني لعام 1833 حول إبطال الجدل القائم.

المصدر : Library of Congress

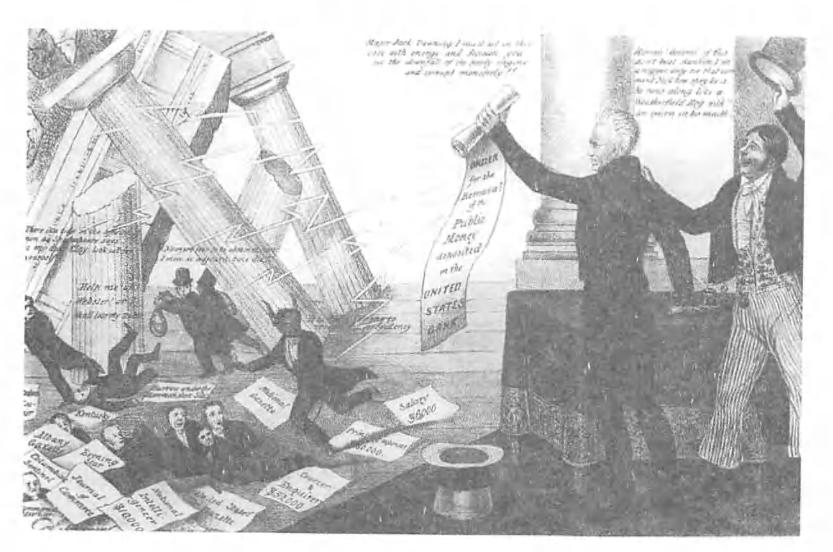
معبد الحرية، 1834.

المصدر : Library of Congress



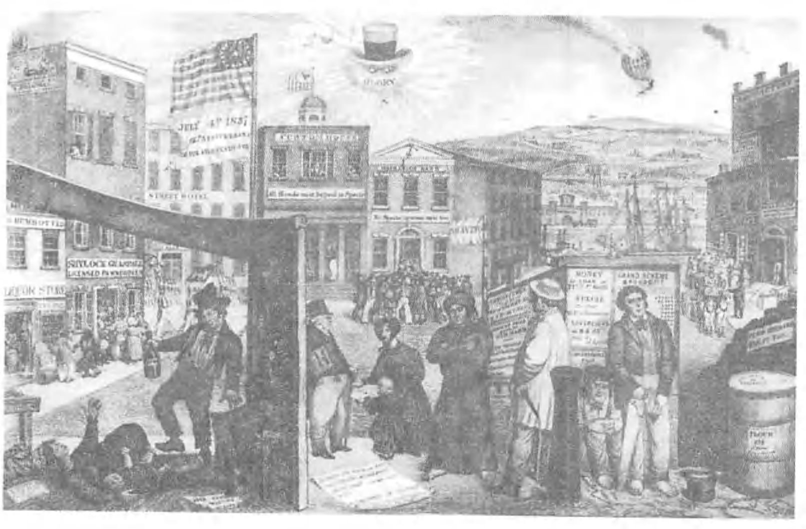
التاجر والحرفي الماهر من قبيلة الشيروكي سي- كيو -ياه (سيكويا).

المصدر : Library of Congress



"سقوط البنك الأم".

المصدر : Library of Congress



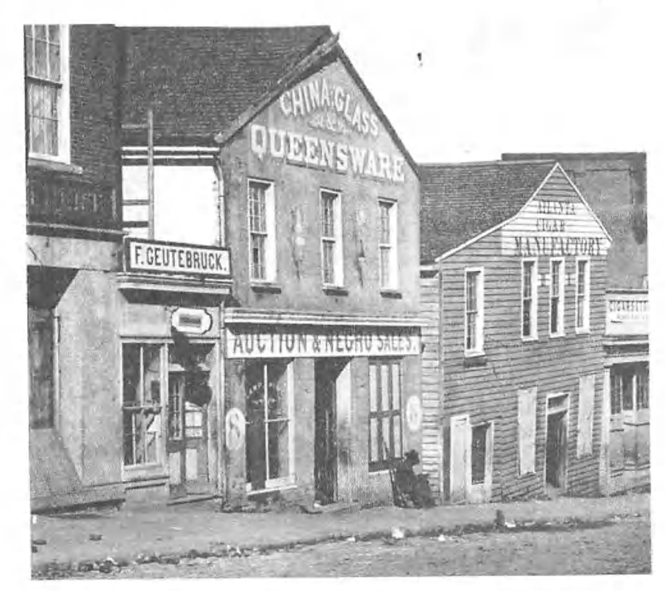
نقش لعام 1837، جريدة "التايمز"، هنري روبنسون.

المصدر : Library of Congress



رسـم كرتـوني سـياسي مـن الحملة الانتخابية الرئاسية لعام 1840 تصور الرأي العـام عـلى أنه "رافعـة عملاقـة" للعمـل السياسي في ظل الديموقراطية.
المصدر : Library of Congress

صور من الفصل الحادي عشر



محـل عمـل أحـد تجـار العبيـد في أطلانطا.
المصدر : Library of Congress

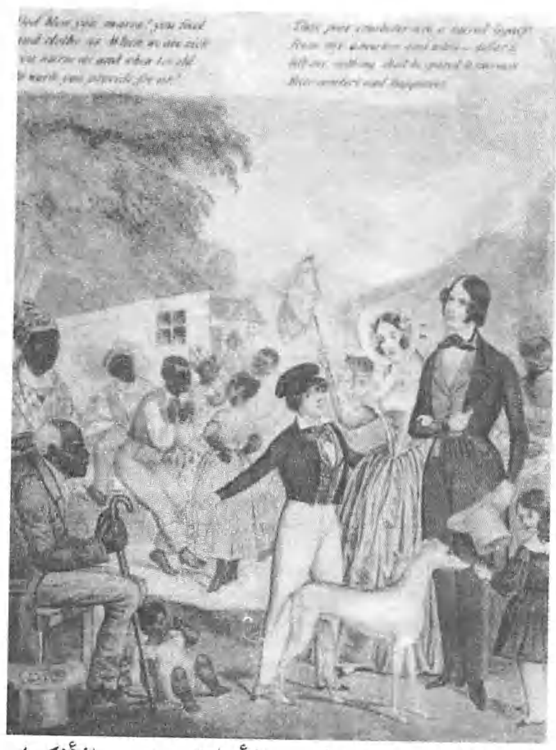


صـورة لعـام 1862 توضـح البـيض الجنوبيين (ذات طابع شعبي).
المصدر : Library of Congress



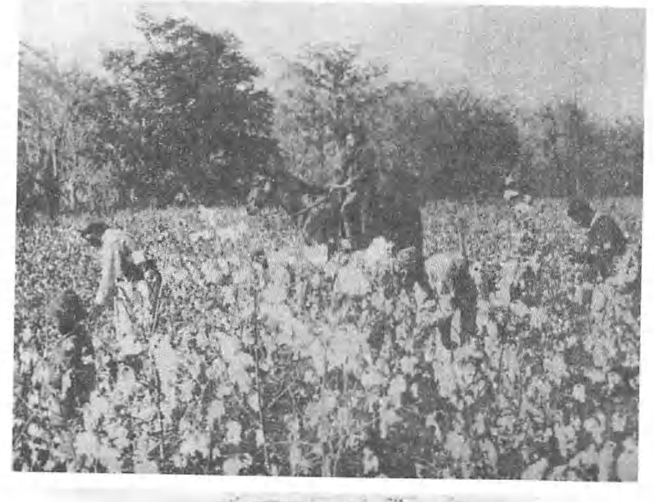
خريطة نورمان للجزء السفلي لنهر المسيسيبي رسمها أ. بيرساك.

المصدر : Library of Congress



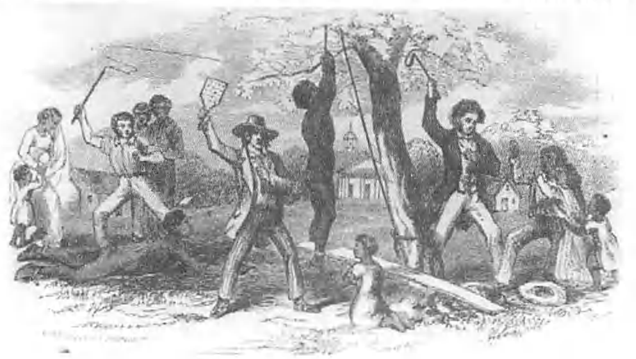
نقش لفترة ما قبل الحرب الأهلية يوضح الأفكار الأبوية التي برر من خلالها المزارعون وجود مؤسسة العبودية.

المصدر : Library of Congress



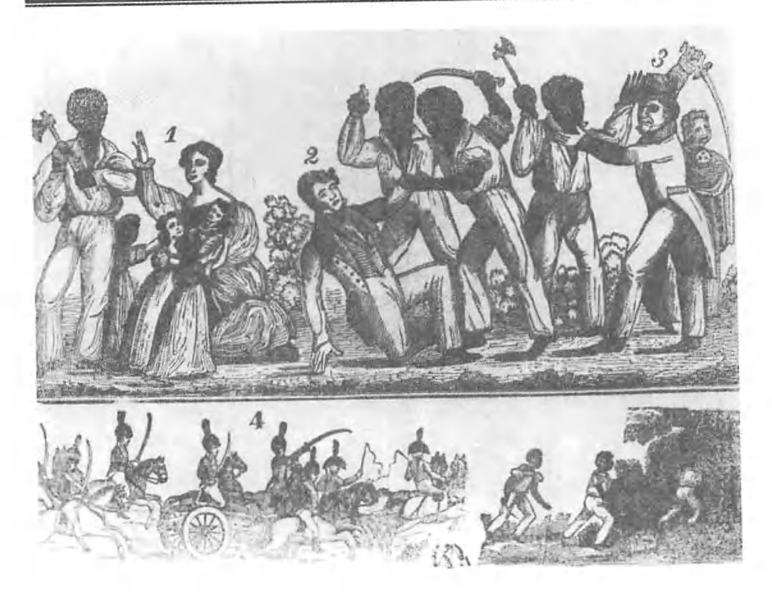
الرجال، النساء والأطفال يقومون بجمع القطن تحت رقابة مشرف.

المصدر : Library of Congress



"الجلد بالسوط لأحد العبيد في مكان عام".

المصدر : Library of Congress



نقش يوضح تمرد العبيد لنات تيرنر.

المصدر : **Library of Congress**

صور من الفصل الثاني عشر



نقش يوضح رقصة الشيكر، رسمه بنسون لوسينج، وهو فنان زار مجتمع الشيكر وكتب عن حياتهم هناك لمجلة هاربر عام 1857.

المصدر : **Library of Congress**



"مصير مدمن الخمر أو الطريق المباشر للفقر، الشقاء والدمار".

المصدر : **Library of Congress**



نقش حجري لعام 1850 يحمل راية الاعتدال قام به كيلوج و كومستوك.

المصدر : Library of Congress

INFORMATION

ABOUT GOING TO LIBERIA.

THINGS WHICH EVERY EMIGRANT TO LIBERIA OUGHT TO KNOW.

COMMON OBJECTIONS

TO GOING TO LIBERIA ANSWERED,

REPLY

TO CERTAIN CAVILINGS AGAINST COLONIZATION.

&c., &c.

WASHINGTON:
C. ALEXANDER, PRINTER,
NEAR WAR AND NAVY DEPARTMENTS.
1848.

نشرة أصدرتها جمعية الاستعمار الأمريكي، تحث السود الأحرار على الهجرة إلى ليبيريا، في غرب إفريقيا.

المصدر : Library of Congress



WALKER'S

APPEAL,

With a Brief Sketch of his Life.

BY

HENRY HIGHLAND GARNET.

AND ALSO

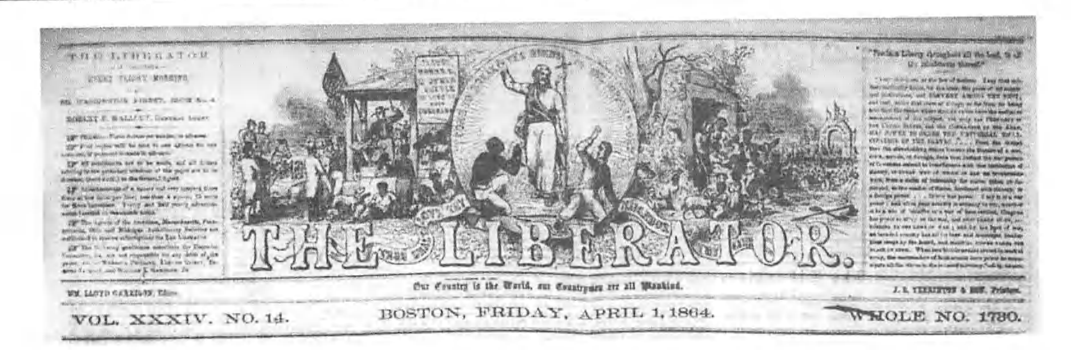
GARNET'S ADDRESS

TO THE SLAVES OF THE UNITED STATES OF AMERICA.

NEW-YORK
Printed by J. H. Tobitt, 9 Spruce st.
1848.

الصورة الأمامية لمناشدة ديفيد ووكر، عام 1848.

المصدر : Library of Congress

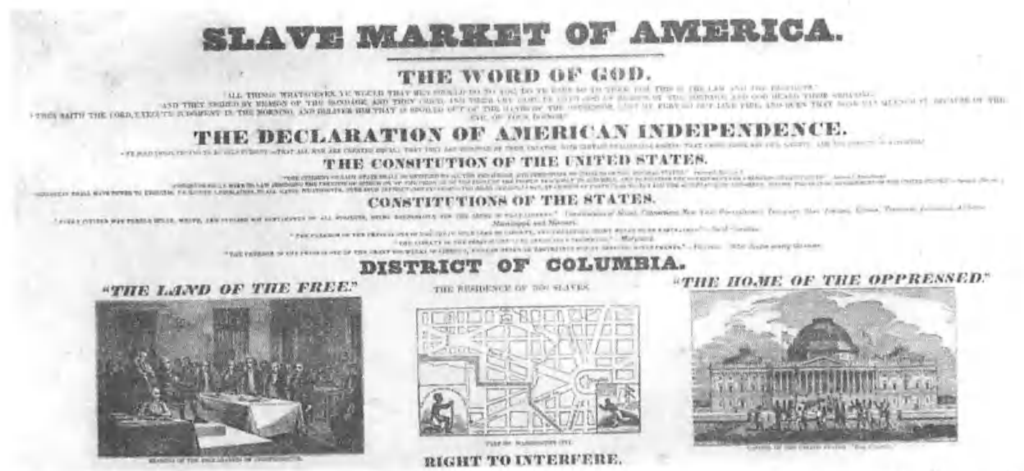


THE LIBERATOR.

Our Country is the World, our Countrymen are all Mankind.

VOL. XXXIV. NO. 14. BOSTON, FRIDAY, APRIL 1, 1864. WHOLE NO. 1730.

بيانات فريق العمل بجريدة المحرر. المصدر : Library of Congress



SLAVE MARKET OF AMERICA.

THE WORD OF GOD.

THE DECLARATION OF AMERICAN INDEPENDENCE.

THE CONSITUTION OF THE UNITED STATES.

CONSTITUTIONS OF THE STATES.

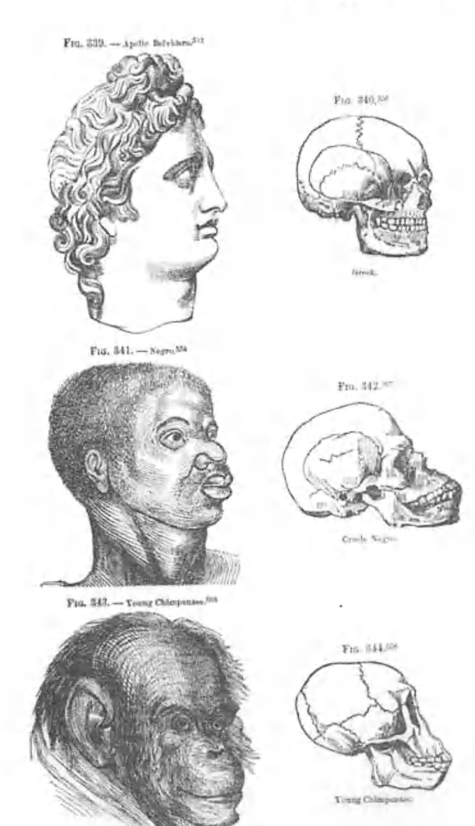
DISTRICT OF COLUMBIA.

"THE LAND OF THE FREE."

"THE HOME OF THE OPPRESSED."

RIGHT TO INTERFERE.

سوق العبيد بأمريكا عام 1836. المصدر : Library of Congress



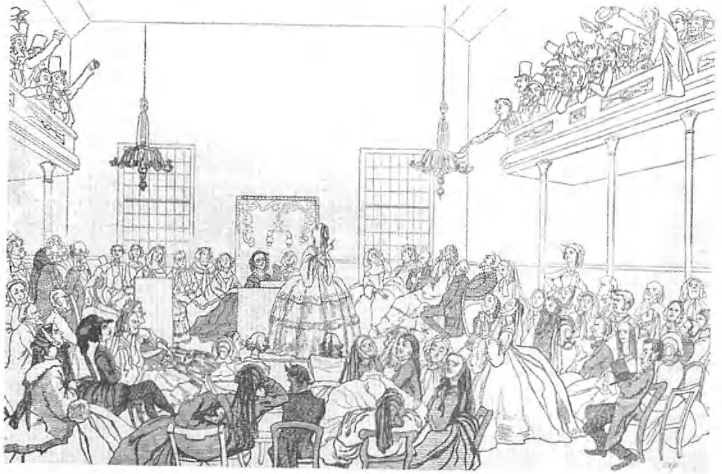
رسم توضيحي يقوم على أعمال جوسيا نوت، جورج جليدن، "أنماط الجنس البشري" 1854، صفحة 458.

المصدر : Library of Congress



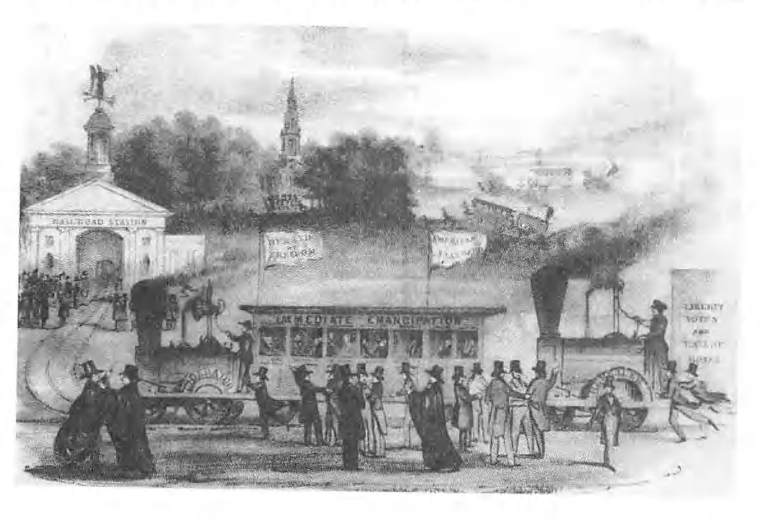
"أو لست إنسانا وأخ لك؟".

المصدر : Library of Congress



رسم كرتوني يوضح "انعقاد جلسة مايو حول حقوق المرأة" بتاريخ 11 يونيه 1859 (هاربوويك).

المصدر : Library of Congress



الصورة التي كانت تظهر على غلاف المقطوعة الموسيقية بعنوان "ابتعد عن المسار"

المصدر : Library of Congress

صورمن الفصل الثالث عشر



تمثال الحرية" لكروفورد.

المصدر : Library of Congress



الأعمال الزراعية بلاغوندا.

المصدر : Library of Congress

صورمن الفصل الرابع عشر



الرقيب جيمس دبليو. ترافيس، فرقة المشاة الثامنة والثلاثون بولاية إلينوي، جيش الاتحاد.

المصدر : Library of Congress



الجندي إدوين فرانسيس دجيمسون، الكتيبة الثانية بولاية لويزيانا، جيش الكونفدرالية.

المصدر : Library of Congress



رتول جيش الاتحاد تعبر نهر رابيدان بفرجينيا في مايو 1864.

المصدر : Library of Congress



"العلـم الأمريكـي: قـصيدة وطنيـة جديدة".

المصدر : Library of Congress



"عش النسر" (الموت للخونة).

المصدر : Library of Congress



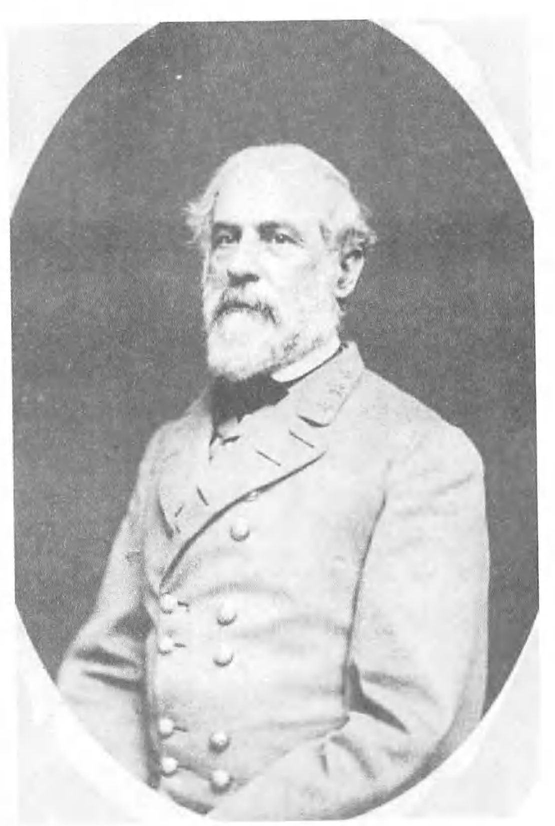
أحـد جنـود الاتحـاد يقـوم بحراسـة المواطنين في معسكر بنيـو ميكـسيكو، الحرب الأهلية.

المصدر : Library of Congress



معسكر فرقة المشاة الحادية والثلاثون.

المصدر : Library of Congress



روبرت إي. لي.

المصدر : Library of Congress



يوليسيس إس. جرانت.

المصدر : Library of Congress



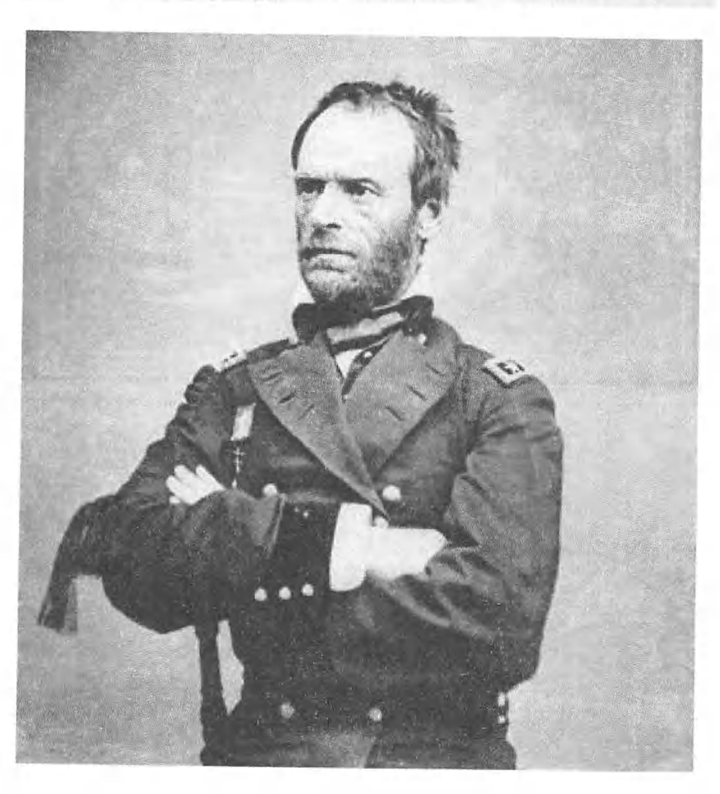
توقف الكونفدرالية في سبوتسلفانيا.

المصدر : Library of Congress

PRE EMPTED LAND
ON THE
J.F.CHAPLAIN PLACE
PORT ROYAL ISLAND

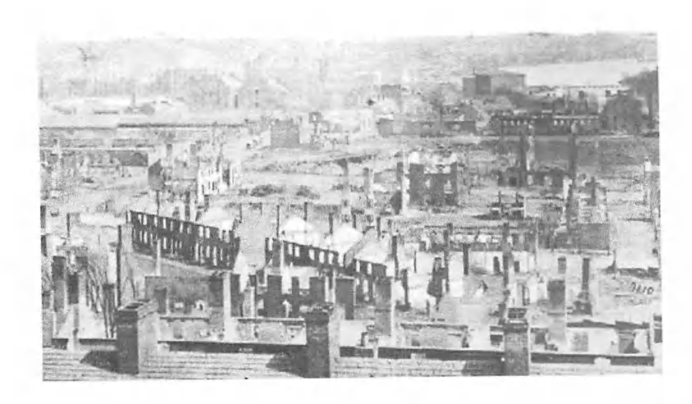
رسم توضيحي لقطع الأراضي التي تم اختيارها للاستيلاء عليها من جانب الأشخاص المحررين في بورت رويال آيلاند، كارولينا الجنوبية، 25 يناير 1864.

المصدر : Library of Congress



الجنرال ويليام تي. شيرمان، 1864.
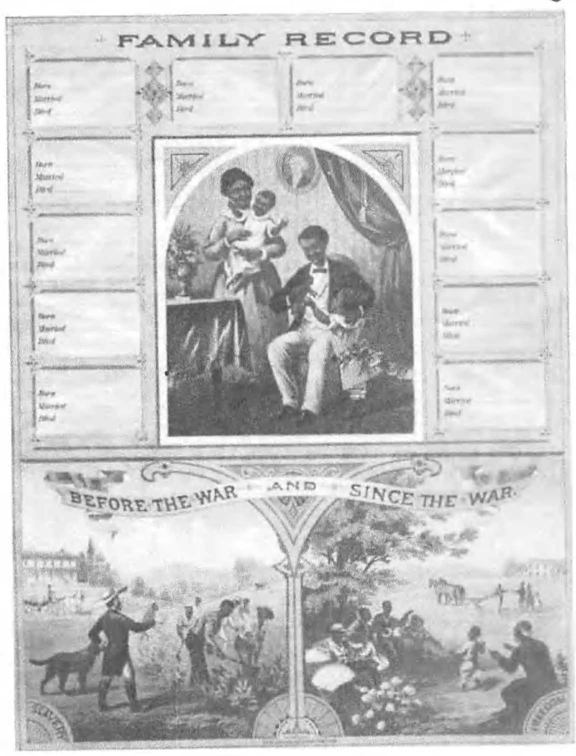
المصدر : Library of Congress



حطام ريتشموند، صورة لعام 1865.

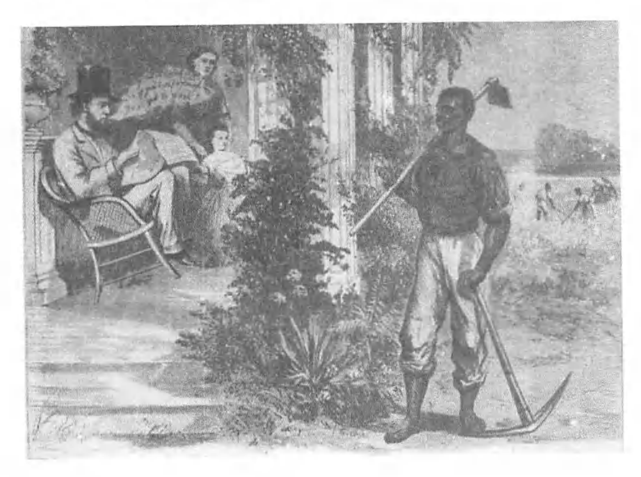
المصدر : Library of Congress

صور من الفصل الخامس عشر



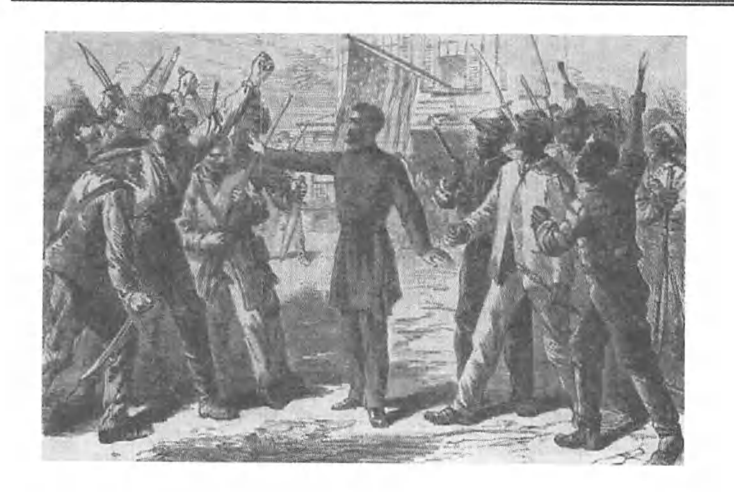
"السجل العائلي".

المصدر : Library of Congress



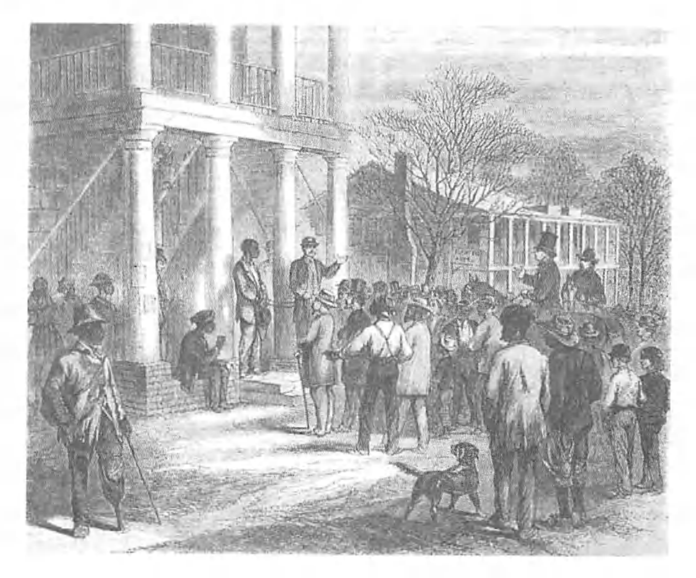
"قضية العمـل الكـبرى مـن منظـور الجنوب" وينسلو هومر.

المصدر : Library of Congress



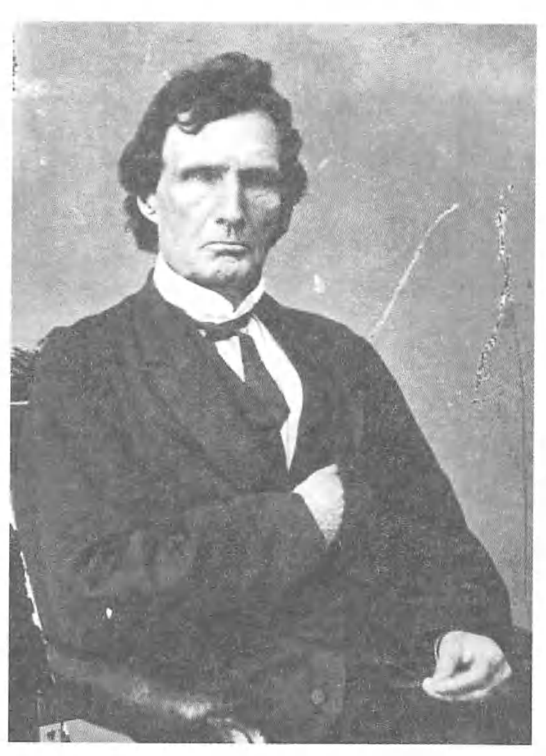
هيئة فريدمان.

المصدر : Library of Congress



"بيع رجل حر لكي يدفع الغرامة المفروضة عليه في مونتيسيلو إف إل، جيمس إي. تايلور

المصدر : Library of Congress



ثاديوس ستيفنز، زعيم الجمهوريين الأصوليين في مجلس النواب خلال فترة إعادة الإعمار.

المصدر : Library of Congress



خطـاب ديمـوقراطي لاذع، مـن الحملـة الحكوميـة بولايـة بنـسلفانيا لعـام 1866" وكالة تـسعى لجعـل الـسود في حالـة راحـة واسترخاء على حساب البيض...".

المصدر : Library of Congress



التعديل الخامس عشر، نقش حجري 1870.

المصدر : Library of Congress



عشاء عيد الشكر للعم سام.

المصدر : Library of Congress



"مفوضـة مـن النـساء" (اللجنـة القـضائية للدفاع عن حق التصويت للنساء من خـلال نقش مـستمد مـن جريـدة مـصورة لفرانـك ليسلي، بتاريخ 4 فبراير 1871).

المصدر : Library of Congress



مساندة المرشحين في الجنوب"، هاربرز ويكلي، 25 يوليـو 1868.

المصدر : Library of Congress



"التصويت الأول" (لعبد سابق) بتـاريخ 16 نوفمبر 1867.

المصدر : Library of Congress



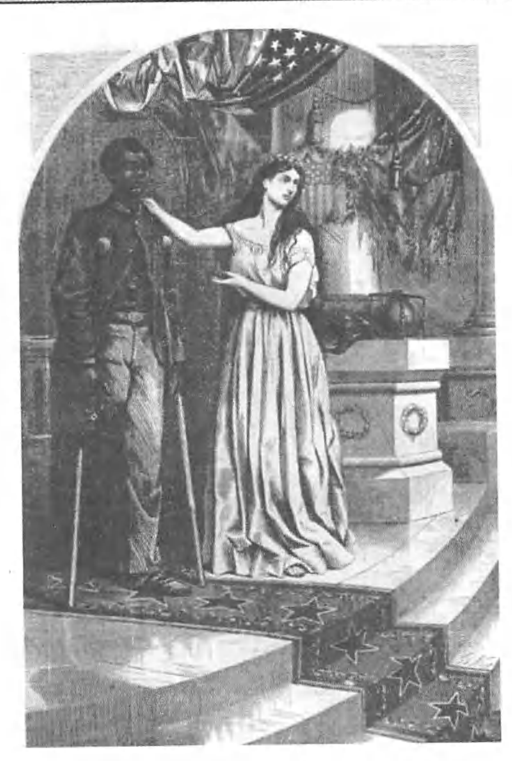
الأعضاء البيض والسود بمجلس الشيوخ عن ولاية مسيسيبي، 1874-75.

المصدر : Library of Congress



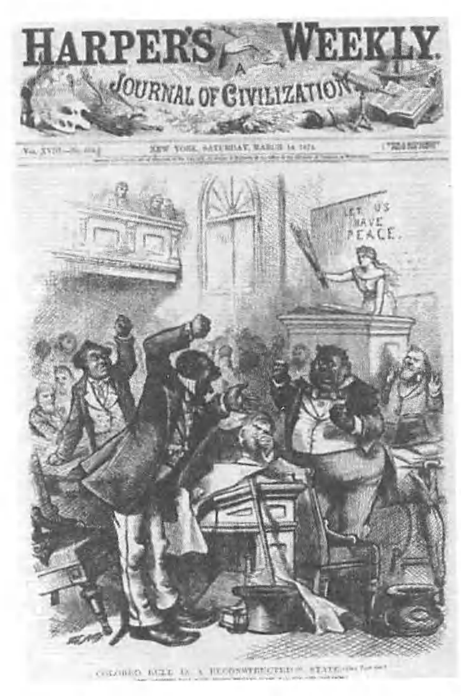
"تحرير العبيد، نقش حجري لعـام 1865 يُظهر تصويرا نادرا للبيض الفقراء دبليو/ لينكولن.

المصدر : Library of Congress



"أو ليس هذا بإنسان؟".

المصدر : Library of Congress



HARPER'S WEEKLY.
A JOURNAL OF CIVILIZATION

"حكـم ملـون في ولايـة تـم إعمارهـا" بتـاريخ 14مارس 1874.

المصدر : Library of Congress



"هـل هـذا هـو الـشكل الجمهـوري للحكومة؟".

المصدر : Library of Congress